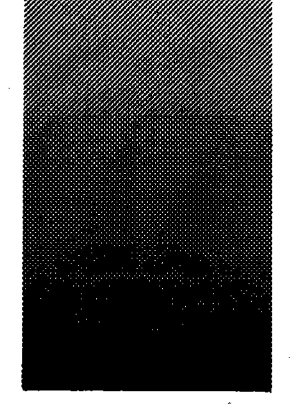


بسم الله الرحمن الرحيم

عشائر الشام

عشائر الشام : يبحث في جغرافية بادية الشام . . ./ بقلم أحمد وصفي زكريا ؛ قدم له أحمد غسان سبانو . - ط٣ . - دمشق : دار الفكر، ١٩٩٧ . - ٢ مج في ١ ؛ ٢٤ سم.

١- ٣٠٧/٧٠٩٥٦١ زك ر ع ٢- ٩٥٦,١ زك ر ع

٣- العنوان ٤- زكريا

مكتبة الأسد

ع- ٢٠١/ ٣/ ١٩٩٧

من ابن إلى أبيه

بقلم غسان وصفي زكريا

يـاأبي ، لو جئت أختصر سيرتـك في سطـور لقلت : إنـك حققت أعمـال عمـالقـة بقدرة رجل فرد .

لقد رُبيتَ ـ في مطلع القرن ـ يتيماً ، بعدما سقط والـدك ـ جـدي ـ قتيلاً على أرض اليمن عـــام ١٩٠٤ ، حين كان بمقـــدوره أن يمـوت على فراش وثير في « قسطنطينيـــة » العثمانيين . فدرست الزراعة ثم التاريخ ، في وقت كان بـإمكانـك أن تـدرس فيـه الطب أو الهنـدسـة ، ثم درّستها وثقّفت بها أجيـالاً من الـزراعيين والمؤرخين والبـاحثين في كلٍ من الشام ولبنان وفلسطين والعراق والأردن واليمن « الشمالي » أيضاً .

لقد خطّطت ورسمت ، وكتبت وألّفت ، فجندتك الحيـاة ـ هكـذا اعتقـدْتَ ـ لمهـامٍ عظام ، بعضها تثقيف الناس ، وبعضها تعليمهم ، لذا ماكان الليل والنهـار لـك غير حركـة ونشاط ، وعمل وإنتاج ، ضَغَطَ على كلٍّ مافيـك حتى الـدمـاغ ، الـذي انفجر ، فكبـا بـك جواد « الحياة » قبل تسعة عشر عاماً .

طَلَبَتْ مني دمشق ـ بعضٌ من رجـالِ دمشـق ـ أن أتسلـق ذروة التـأمـل عبر الأفـق الخفي ، لأسجل كلمة عن كتبك التي يعاد طبعها هذه الأيام ! فـإذا بي أكتشف ـ في ذروة التأمل ـ أنني ـ إذ أكتب عنك ـ أتدحرج لأضرب فقاقيع في أودية الفراغ ! أحسستُ ـ عبر كل كلمةٍ ـ أنني في حفرةٍ ، أحاول تسلقها لأصل إليـك ، من قمتي السفلى إلى قمتـك العليـا . فلقـد أخـذت الأيـام التي مضت على غيـابـك والسِّنـون من حيـاتي أفراحهـا ، فتعلمت أن ماكنتَ تُحدثني به في صِغري ، عن العلوم وعن الفنون وعن الوطن وحبه ، هي أجمل مافي بلادنا التي تحيا ـ هذه الأيام ـ كما تركتها ، عصر البشاعة ، إذ لم تؤسس صهيون فيها كيـانـاً ودولة فحسب ، بل كبرت فتمدد سرطانها في رئتي الوطن .

هذه المرارة، في سطوري ، لن تذهب هدراً، فإن لم تكن بُغضاً فغضباً وثورة، أما ماتعلمته على يديك من صلابةٍ وجرأة في الحق، وكرامة، فيتعاظم ويزداد، لكنه لن يلوثه عبارة تنضح ألماً ، فحيث الحقيقة مذهلة مرعبة سأحفظها في أعماق القلب ، كما حفظتَها أنتَ عبر السنين الخمس والسبعين التي قضيتَها ورحلت !

أتألم لبُعدي عنك في دمشق ، حيث تركتك هناك وحيداً في « الدحداح » عام ١٩٦٤ ، وأتألم أن ليس باستطاعتي أن (أزورك) حيث أنت ، فيا تصلني أخبار قليلة ، لازالت تسأل أسرتك عنك بعد غيابك الطويل الطويل ... وآسف ألا أستطيع - رغم وعدي - غير شكر من عمل على إعادة تذكير الشعب بك ، مقالاتٍ في الصحف تنشر ، وكتباً يعاد طبعها ، واقتراحاً بإطلاق اسمك على شارعٍ سكنت فيه ...

كتبتُ هذه السطور - ياأبي - لأنفض عن نفسي ، وعن ذاتي ، ذكرياتي معك ، يوم كُنتَ حياً ، وذكرياتي عنك ، بعدما مضيتَ بعيداً . وأنا واثق - كل الثقة - أن قارئك في « عشائر الشام » سيؤمن معي أنك كنت صادقاً ، وكنت مخلصاً ، وكنت عالماً في الزراعة وفي التاريخ وفي التراث ، وأنك - حيث أنتَ - تطل من علٍ ، فرحاً لتجدد الحياة فيك ، عبر تجدد الكتابة عنك ، عبر الحرف ، عبر الكتاب الذي سأُقْبَله - نيابة عنك - تقديراً لك من دمشق ، ومن الشام اللتين أحببتَ وعلّمت فيهما وثقّفت ، وبأرضهما قضيت !

فسلام عليك يوم ولدت ، ويوم كنت ، ويوم تبعث حيّاً .

لندن في كانون الثاني ١٩٨٣

غسان وصفي زكريا

العلامة أحمد وصفي زكريا

بقلم المحامي : أحمد غسان سبانو

عرف كثير منا بعضاً مما ألفه عالم دمشق الكبير أحمد وصفي زكريا ، أو قرأ أو سمع ، فهو العالم الموسوعي والمؤرخ المدقق ، يعرف ذلك من قرأ له ، كما يعرف أنه باحث دؤوب ذو شهرة في المجالات العلمية والأثرية والزراعية في سورية وبعض البلاد العربية ؛ فقد قدم خدماته وخبراته لكل من سورية ولبنان وفلسطين واليمن والعراق والأردن ، إضافة إلى جهوده الوطنية وخبرته العلمية .

وقد توفي في الحادي والعشرين من نيسان عام (١٩٦٤) في منزله بدمشق عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بانفجار في الدماغ أثناء مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط (حيوانات بلاد الشام) ، والذي لم يطبع إلى الآن .

خمسة وسبعون عاماً عاشها دارساً باحثاً ، حتى كان - رغم تقدم سنه - يسرع الخطا متوكئاً على عصاه متنقلاً من تل إلى تل ، ومن قرية إلى قرية منقباً عن نهر مرا (امرأة) الذي ذكره الرحالة والشعراء ، وقد بقيت آثاره مجهولة حتى قام رحمه الله بالكشف عن بعض أنحائه وتحديدها ، وأعد بحثاً عنه نشر بعد وفاته في مجلة الحوليات الأثرية .

فمن هو العلامة أحمد وصفي زكريا ؟ وماالذي قدمه ؟

ولد عام (١٨٨٩) م في دمشق ، وأتم فيها دراسته الابتدائية والثانوية ، وانتقل إلى استانبول ، والتحق بالمدرسة الزراعية العليا ، وتخرج منها عام (١٩١٢) مهندساً زراعياً . وقد كانت أولى أعماله أن عين في السلمية بمدرستها الزراعية التي كانت قد أنشئت حديثاً ، ثم أصبح مديراً لها . ثم شغل منصباً في مديرية دار الحرير في بيروت عام (١٩١٤) وفي المدرسة الزراعية في الأطرون (بين القدس ويافا) حيث أدى الخدمة العسكرية الإلزامية

هنـاك . ثم كلف بمهمـة مكافحـة الجراد في دير الزور عـام (١٩١٦) . وفي عهـد الحكـومـة الفيصلية شغل عام (١٩١٩) منصب مدير مدرسـة السلميـة الزراعيـة . وفي عـام (١٩٢٤) عين مفتشاً لأملاك الدولة . وفي عام (١٩٣٦) استـدعي إلى اليمن مستشـاراً فنيـاً زراعيـاً ، وقد قدم الكثير هناك ؛ فأدخل أصنافاً من المزروعات الجديدة التي تناسبها البيئة اليمنيـة . وأقام في اليمن سنتين ، ورغم استـدعـاء حكومـة العراق لـه ليـدرس في مـدرسـة دار المعلمين الريفية في بغداد إلا أنه بقي على اتصال مع مسؤولي اليمن ومختصي الزراعة فيها للاطمئنان عن نتائج أبحاثه وحسن سيرها في حقل الزراعـة ، وقـد ترك الكثير من الرسـائل والأوراق التي تثبت متابعته واهتمامه بذلك رغم تركه اليمن .

بقي في العراق حتى عـام (١٩٤١) أيـام ثورة رشيـد عـالي الكيـلاني . ثم استـدعتـه حكومة شرقي الأردن عام (١٩٤٢) ليكون مديراً عاماً لوزارة الزراعة في عمـان . وفي عـام (١٩٤٣) عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة ، وبقي في وظيفته حتى عـام (١٩٥٠) حين أحيل على التعاقد لبلوغه السن القانونية . وقـد اختـارتـه الـدولـة في أواخر حياته عضواً في المجلس الأعلى للعلوم والآداب .

عاش العلامة أحمد وصفي زكريا في فترة تاريخيـة عصيبـة ، فقـد عـاش أواخر أيـام الحكم العثماني ، ثم الاحتلال الفرنسي ، وعاش الاستقلال العربي . وكان يجيد اللغـة العربيـة والتركية والفرنسية ، مما يسَّر له مصادرَ كثيرة للبحث وآفـاقـاً علميـة واسعـة . وكان شغوفـاً بـالرحلات والأسفـار والـدراسـات التـاريخيـة والجغرافيـة ؛ فوفر ذلـك لـه حصيلـة علميـة وتاريخية وجغرافية وأثرية غنية ظهرت في مؤلفاته التاريخية الهامة التي تركها .

كان رحمـه الله رائـد العلوم الزراعيـة في وطننـا العربي ؛ فهو أول من أسس المـدارس الزراعيـة في كل من سوريـة والعراق ولبنـان وفلسطين والأردن واليمن ووضع منـاهجهـا ، وهو أول من عرب المصطلحات الزراعية وألف الكتب الزراعية ، ولاتزال هـذه الكتب من أهم المصادر العلميـة الزراعيـة وأدقهـا رغم مرور حوالي نصف قرن من الزمـان عليهـا . وقـد تخرج به كثير من المهندسين الزراعيين أثناء عمله أستاذاً في كلية الزراعة بدمشق .

وفي ميدان الأبحاث التاريخية والأثرية والجغرافية ترك آثاراً هامـة ، كان فيهـا رائـداً متميزاً في تدقيق المعلومات والتقصي والبحث ؛ فقد كان يعتمد على المشاهدة والحس ، كما كان

يستقرئ المعلومات ويناقش فيها أصدقاءه من العلماء والأدباء وأهل الدراية ، إضافةً إلى جمعه المعلومات المتوفرة لدى العامة ؛ وذلك استكمالاً لكافة جوانب بحثه .

ترك العلامة أحمد وصفي زكريا الكثير من المؤلفات الزراعية والتاريخية والجغرافية والأثرية .

ففي ميدان الزراعة ـ اختصاصه المهني ـ خلف الآثار التالية :

١ ـ الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية في ثلاثة أجزاء ، صدر عام ١٩٢٥ .

٢ ـ المفكرة الزراعية ، وتتضمن خلاصة الفنون والأعمال الزراعية ، وقد صدرت عام ١٩٣٠ .

٣ ـ زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام في جزأين ، صدر عام ١٩٥١ .

وفي المجال التاريخي والأثري والجغرافي :

١ ـ جولة أثرية في بعض البلاد الشامية ، صدر عام ١٩٣٤ .

٢ ـ عشائر الشام في جزأين ، صدر عام ١٩٤٥ .

٣ ـ الريف السوري (محافظة دمشق) في جزأين صدرا مابين عامي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ .

أما المخطوطات التي تركها فهي :

١ ـ حيوانات بلاد الشام البرية .

٢ ـ مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ اليمن وأحواله .

٣ ـ مقالات مختلفة زراعية وتاريخية وأثرية وجغرافية كانت قد نشرت في الصحف والمجلات السورية والعربية . يضاف إلى ذلك بعض المقالات التي نشرت اعتباراً من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٥٧ في بعض الصحف والمجلات العربية مثل المقتطف المصرية والمعرفة السورية ومجلة الشرطة ومجلة غرفة زراعة حلب وصحيفة النصر ومجلة الحوليات الأثرية السورية وغيرها .

يضاف إلى ذلك كثير من الأبحاث المخطوطة والمقالات التي لم تنشر ، وقد وجدت في أدراج مكتبه ، بعضها باللغة العربية ، وبعضها الآخر باللغة التركية .

وقيل : إن له بعض المخطوطات في اليمن لانعرف عنها شيئاً .

وكان يجد صعوبة كبيرة في توفير المال اللازم لطبع كتبه ونشرها في زمن قل فيه راغبو الثقافة وعشاق الكتب ؛ مما كان له تأثير في عيشه وعيش أسرته ؛ فقد كان مايجنيه من مال ينفقه في الإنتاج العلمي ونشره ؛ فلم يمتلك بيتاً ولاسيارة ، ولم يترك لأولاده شيئاً ، إلا أنه ترك علماً ينتفع به .

ولم يمنح خدماته لبلده سورية فحسب بل منحها كثيراً من الدول العربية ، فقد خدم التاريخ العربي ، والاقتصاد الزراعي بمؤلفاته وأبحاثه ، ولاسيا تعريب المصطلحات العلمية الزراعية . ولكنه لم ينل الاهتمام الذي يستحقه عالم مثله ؛ فهو لم يحظ بأي اهتمام أو تقدير رسمي من أي من الدول العربية لافي حياته ولابعد مماته ، ولم ينهض أي باحث عربي بدراسة عنه سوى ماأورده محمد أبو الفرج العش مقدمةً لمقال لم يكتمل ، نشر في مجلة الحوليات الأثرية السورية . كما قام المرحوم الأستاذ عبد القادر عياش بتقديم دراسة عن حياته في كتاب أصدره ، يتضن ذكريات أحمد وصفي زكريا عن وادي الفرات عام ١٩١٦ .

وحسب العلامة أحمد وصفي زكريا ماخلفه من علم وماكسبه من تقدير المختصين لمؤلفاته ، وماكان له من مكانة علمية ، رحمه الله .

المحامي
أحمد غسان سبانو



يبحث في جغرافية بادية الشام وتاريخها وعمرانها
والأخلاق والعادات والشرائع في المجتمع البدوي
وأنساب العشائر المتبدية والمتحضرة وأوصافها
وأخبارها في كل محافظة وقضاء

١ - ٢

بقلم

أحمد وصفي زكريا

قدم له

المحامي أحمد غسان سبانو

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر - دمشق - البرامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

عشائر الشام

أحمد وصفي زكريا

الرقم الاصطلاحي: ٠٦٤٣.٠١١

الرقم الدولي: ISBN:1-57547-338-0

التصنيف الموضوعي: ٩٢٠(التراجم والسير والأنساب)

٨١٦ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م

ط١ / ١٩٨٣م

الجزء الأول

جغرافية بادية الشام وتاريخها وعمرانها
والأخلاق والعادات والشرائع
في المجتمع البدوي





تمهيد

موضوع (البادية) وما فيها من الأوصاف والأحوال وما للأعراب ، أو (البدو) من الأخبار والأقوال . كل ذلك من الموضوعات التي اهتم بها أدباء العربية فيما مضى كثيراً وشدوا الرحال إلى مواطنها ومصادرها ، وأطالوا البحث والكتابة عنها .

وقد جرى رواد الأفرنج ومستشرقوهم في عهدنا على مثالهم ، لكن هؤلاء بذوا أولئك الأدباء في النواحي الطبغرافية والأثرية والاجتماعية والأتنوغرافية وغيرها ، مما أوجدته مكتشفات العلوم الحديثة في العصور الأخيرة ، واقتضته غاياتها الاقتصادية والاستعمارية .

أما أدباء العربية المعاصرون فقد قصّروا في ذلك وأهملوا ، كما أهملوا كثيراً مما يتعلق بجغرافية بلادهم وتاريخها ووصف خططها وآثارها وعمرانها في عهدنا ، ومزايا سكانها وعاداتهم وأخبارهم في زمننا ، ومنها موضوع (البادية) و (العشائر) . أجل ؛ قام بعض الفضلاء في العراق ومصر وجنوبي الشام (فلسطين وشرقي الأردن) ممن سنذكر أسماءهم بقسط محمود في هذا الموضوع ، إلا أن بحث كل منهم ظل منحصراً في بلاده .

أما شمالي الشام ، وأخص بالذكر المدن المجاورة للبادية والمتعاملة مع البدو كدمشق وحمص وحماه وحلب ودير الزور ، فقد أعرض أدباؤها وكتابها عن هذه الأبحاث إعراضاً طويلاً ، فظلت مجهولة كأن البدو من غير ملة ولغة وسابقة عنهم ، وقد كان حرياً بهؤلاء الأدباء والكتاب أن يعنوا بهذا الموضوع الهام ولا يهملوه ، وأن يأتوا بدراسات مبتكرة عما غمض من شؤون بلادنا وأمتنا الحاضرة التي عددناها ، لا أن يقصروا عنايتهم على تكرار ما طفحت به الأسفار القديمة .

يؤلف البدو بين ظهرانينا نحو(٣٠٠ ٠٠٠ نسمة) وهم جديرون بكل دراسة وعناية ، لأن لهم خطراً وشأناً كبيرين في مجتمعنا ومعاشنا من قبل ومن بعد ، فكل السمون وأكثر اللحوم التي نأكلها ، والأصواف التي ننسجها ، والمطايا التي نركبها منهم ، وقسم كبير من سكان المدن الشامية التي عددناها ، يعتمد في تجارته ومرتزقه من الماشية ومنتوجاتها على شركائه وعشرائه من هؤلاء البدو ، كما أن مقداراً غير يسير من وارد بيت مال الدولة يتألف مما يدفعه البدو من ضرائب الأغنام والإبل .

هذا إلى أن لهم ممثلين معتبرين في مجلسنا النيابي الشامي ، ورؤساء أجلاء يتقاضون منحاً سنوية من خزانة الدولة ، ونراهم في سياراتهم ذاهبين آيبين ، لاينقطعون عن غشيان العواصم والحواضر ومراجعة المقامات والدوائر ، لحل مسائلهم ومشاكلهم العشائرية التي لا يعرف أكثرنا شيئاً عنها ، ثم بيننا وبينهم مالا يخفى من صلات العرق والدم ، وروابط اللغة والدين ، وتاريخ الماضي وألم الحاضر وأمل المستقبل . وقد أوصى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بهم فقال للخليفة من بعده : « **أوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم** »[1] .

وقد آن الأوان لأن نرفع ما وضعته عوادي الأزمان أمام هذه الصلات من الحواجز والفواصل ، ولأن نزيدها تقريباً وتنظيماً ، ليجتمع الشمل بين حضرنا وبدونا ، وتقوى الألفة ويشتد الإخاء ، فننتفع بسواعدهم ونواتجهم وننفعهم بمعارفنا ومواهبنا ، ونزداد بهم اقتداراً واعتزازاً في سبيل الأهداف الوطنية والأماني القومية .

لم تعد العربية ترى ـ للأسف ـ بين أبنائها الحاضرين أمثال أبي عبيدة والأصمعي وخلف الأحمر وأبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية والمفضل الضبي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ، ممن كانوا في صدر الإسلام يتجشمون مشاق السفر إلى البادية ويختلفون إلى المضارب ، ويحادثون البدو ويتتبعون منظوم كلامهم ومنثوره ، ويلتقطون أخبارهم ووقائعهم ونوادرهم ويدونونها ، ويؤلفون فيها كتباً ورسائل حفظ الدهر بعضها إلى عهدنا ، لولاها لضاع كثير من لغات العرب الأقدمين وتاريخهم .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٤٨

أجل ؛ عندنا كثير ممن يعرفون البدو ويعاشرونهم ويستسيغون مر عيشهم وحلوه ، وكثير ممن يشاركونهم في تربية الخيل والشياه ونواتج الزرع والضرع ، وجل هؤلاء من أهل الأحياء المتطرفة في مدننا الشامية ، كالميدان في دمشق ، والحاضر في حماة ، وباب النيرب في حلب ، وباب الدريب في حمص ، وأكثر أحياء دير الزور وغيرهم . وبعض هولاء المشاركين والمعاشرين للبدو ، ومثلهم بعض المتعلمين والمتأدبين في أحياء أخرى من تلك المدن ، قد يحفظ قليلاً أو كثيراً من قصائد البدو وقصصهم ونوادرهم ؛ لكن هذا البعض يغلب عليه التهاون في تعميق البحث والزهد في النشر والبث ، لايأبه لتدوين ما يعرفه وإذاعة ما يسمعه ، ناهيك أن أحداً من هؤلاء لم يفكر بتوسيع ما التقطه بالنقل أو الشرح ، ولا بمقايسته بما روي عن الأعراب السابقين في الجاهلية وصدر الإسلام ، وبما درج من أشباهه في كتب الأدب العربي ، ونخص بالذكر كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني ، فقد جمع هذا السفر ما يعجب ويطرب من الأخبار والسير والأشعار والنوادر المتصلة بأيام الأعراب المذكورين وأخبارهم المأثورة . قد انتقاها من عيونها وأخذها من مظانها بجهد وإتقان عجيبين . فهل لنا بأبي فرج لزمننا الحاضر يأتينا بمثال مصغر لكتاب الأغاني المذكور ويدون فيه أخبار الأعراب المعاصرين وسيرهم وأشعارهم وملحهم وأخبارهم قبل أن يطويها النسيان ويضيع ما لدى بدو زمننا من خبر أو أثر وما في أدبهم وشعرهم من معنى مبتكر ؟! وهل لنا على الأقل بمن يحذو حذو المستشرق الافرنسي المسيو مونتاني الذي سوف يرد ذكره وذكر عمله .

قد صرنا الآن حتى في هذه الموضوعات المتعلقة بنا عالة على رواد الإفرنج ومستشرقيهم . لأن هؤلاء ما برحوا يتجشمون ويختلفون ويحادثون ويتتبعون هذه الأخبار والوقائع والنوادر ، ناهيك الأبحاث الطبغرافية والأثرية والاجتماعية والأتنوغرافية وغيرها التي برعوا بها أي براعة . فهم لم يغادروا بادية من بوادينا إلا اخترقوها ، ولا عشيرة من عشائرنا إلا وزاروها ، ولا خربة من خربنا إلا وردوها ، ولا علوماً وأخباراً ولا قصائد وأشعاراً عن البداوة والبداة إلا التقطوها وفسروها وشرحوها ، كل ذلك بنشاط واهتمام يثيران الإعجاب والإكبار . وهم كما لا يخفى ولوعون بالبحث والتدقيق ، حريصون على التأليف والتدوين ، أسخياء بالبث والنشر وإفادة الغير . فقد دون أولئك الرواد والمستشرقون كتباً عديدة في مختلف اللغات الأوربية سنذكر أسماءها في حينه نقرؤها بكثير

من التفكير والتقدير . ولو جئت أعدد أسماء هؤلاء الأفاضل وأذكر الأماكن التي ولجوها وجاسوها في فيافي الجزيرة العربية ، وقد أتوها من أقصاها إلى أقصاها ، حتى الربع الخالي ، وأنقل المشاق والأخطار التي قاسوها في الأوعار والرمال ، والحر والقر ، والجوع والعطش ، والمؤلفات التي وضعوها ، مزينة بالرسوم والخرائط والأرقام ، ناهيك جودة الوصف ، ودقة الشرح ، اللذين يجعلانك تلمس الموصوف والمشروح لمساً ؛ قلت لو جئت أعدد ذلك لضاق بي مجال هذا الكتاب .

وحسبي أن أذكر من هؤلاء السيدة الفاضلة اللادي آن بلونت الإنكليزية ؛ فقد جاءت هذه في سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧ م) حينما لم يكن سيارات ولا سهولة في المواصلات ، وركبت هي وزوجها الهمام ويلفرد بلونت الخيل والإبل من دمشق ، وتحملت المشاق في أوعار حرة الراجل وأحجار وادي السرحان ورمال النفود ، وتعرضت لغارة غزاة من الأرولة كادوا يفتكون بها وبزوجها ، إلى أن بلغت حائل عاصمة نجد بسلام ، وضافت الأمير محمد بن الرشيد المتوفى سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) وقد كان حينما ضافته في أوج سطوته وعزته ، وزارت ديوانه وإيوانه ونساءه وخيله ، وأحاطت علماً بحالته وحالة البلاد النجدية في ذلك الحين . ثم عادت مع ركب الحج العراقي عن طريق النجف وبغداد . وهذا غير رحلاتها إلى بادية الشام وضفاف الفرات ، وبحثها عن عشائر هذه الأنحاء ، وإصدارها بعد رجوعها إلى بلادها كتباً قيمة عما رأته وسمعته سنذكر أسماءها .

ومثلها في الحرب الماضية وقبلها وبعدها الآنسة الإنكليزية (ميس كرترودبل) سنة ١٢٨٥ ـ ١٣٤٤ هـ (١٨٦٨ ـ ١٩٢٦ م) الخارقة في ذكائها ونشاطها وإدارتها وقوة إرادتها ، فقد رحلت هذه وبحثت كثيراً وقطعت الفيافي والقفار على ظهور الإبل والخيل وأبلت أحسن بلاء في خدمة بلادها وأمتها في العراق ، وفي معاونة العراق على عهد المرحوم الملك فيصل وألفت عدة كتب[1] . هذان مثالان من نسائهم .

أما رجالهم : فحدث عن كثرتهم ولا حرج ، حسبك منهم موزيل التشيكوسلوفاكي الملقب بالشيخ موسى الرويلي . فقد ظل هذا بين بدو الأرولة عدة سنوات ، ينزل ويرحل معهم ، ويتحمل خشونة عيشهم ، بينما هو يجوس ويبحث ويؤلف كتباً ، ويرسم خرائط ،

---

(١) من كتبها (العامر والغامر) و (من مراد إلى مراد) و(ألف بيعة وبيعة) وغيرها .

ويصور مناظر في جغرافية البوادي العربية ، وأرضها وسمائها وسكانها وأحوالها وفي عوائد أصدقائه الأرولة وتقاليدهم وأخبارهم .

وحسبك منهم المسيو مونتاني أحد أساتذة المعهد الأثري الإفرنسي في دمشق ، فقد ذهب هذا ، إلى مضارب شمر الجزيرة ، وتجول أسابيع وأشهر ، وتسقط منهم طائفة من القصص والقصائد الحربية والحماسية والغرامية وغيرها ، مما يتداولونه ويترنم به شعراؤهم ، وقد كتبها بنصها وفصها وترجم كلماتها وجملها إلى الإفرنسية ترجمة دقيقة وشرحها وبعد هذا التعب ، خرج بمقالة ضافية غاية في الجودة والمتعة درجها في (مجلة الدراسات الشرقية) للمعهد المذكور (ج ٥ سنة ١٩٣٥ م) .

وحسبك منهم البارون فون اوبنهايم الألماني ، الذي جاء في سني ١٩٣٦ و ١٩٣٧ م وتجول في بلاد الشام ، وبحث عن عشائرها بحثاً غاية في التدقيق والتفصيل . وقد طبع ونشر في سنة ١٩٣٩ مؤلفاً قيماً بالألمانية ، صدره برسم المرحوم عجيل الياور شيخ مشايخ شمر العراق . وهذا غير مؤلفه القديم الذي ضمنه رحلته قبل نصف قرن في العراق والشام ، وأبحاثه عن عشائر تلك الحقبة ، وغير مؤلفاته الباحثة عما حفره ونقبه في (تل حلف) في قضاء رأس العين (محافظة الجزيرة) وعما كشفه هناك من آثار الحثيين ، وقد أودع نماذج من هذه الآثار الضخمة في متحف حلب .

وحسبك منهم بعض الضباط الإفرنسيين ، الذين كانوا مكلفين بمراقبة البدو ومداورتهم ، أمثال : المقدم مولر والرئيس رينو والملازم بوشمان وغيرهم ، ولم يقصر الرهبان في الإيغال في البيداء والبحث عن آثار البادية ومعالمها ، وعن أحوال البدو في نواحي الاجتماع والأنساب . وقد برز في ذلك الراهبان جوسن وسافينياق الدومينيكيان والراهبان بواديبار وهنري شارل اليسوعيان ممن سنذكر في الفصل التالي مساعيهم وأسماء كتبهم . فأعظم بهمة هولاء العلماء العاملين الذين يكشفون مجاهلنا ، ويحيون آثارنا ، وينشرون منظوم باديتنا ومنثورها ، ويسجلون للأجيال القادمة توالدها وطرائفها ، ونحن عن ذلك غافلون .

كتب لي أن أمكث في سلمية سبع سنوات لما أسست قبل ربع قرن مدرستها الزراعية ، وأدرتها وأنشأت خريجيها المنتشرين الآن في وظائف وأعمال زراعية وغير زراعية في مختلف

الأقطار العربية ، وقضاء سلمية مركز هام للعشائر أمثال : الأسبعة والموالي والحديديين والعقيدات وبني خالد والخراشيم والبشاكم والجملان وبني عز والمشارفة وغيرهم . فكان يكثر ترددهم عليها وتجوالهم في قراها وتقيظهم في مروجها واقتتالهم من حين إلى آخر في براريها الشرقية . أخص بالذكر الموالي والحديديين اللذين نشبت معاركهما منذ سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م) ، واستفحلت شرورهما ، فخربت قرى ، ونهبت عروض ، وسفكت دماء ، وعقدت مؤتمرات ، لأجلهم ولأجل غيرهم ، في سلمية وفي عقيربات شرقي سلمية مراراً . فكنت وقتئذ أرى وأسمع ويدفعني ابتلائي بالبحث والاستطلاع إلى السؤال عن البواعث والباعثين لما يجري .

ثم كتب لي أيضاً بعد سلمية أن أتجول تسع سنوات في (أملاك دولة الشام) وقراها العديدة لما كنت مفتشها . وهذه الأملاك الشاسعة هي على سيف البادية ، وكثير من فلاحيها وكل الضاربين في براريها ، من البدو أو أنصاف البدو . فتيسر لي خلالها أن أزور بعض هؤلاء فأنظر وأستقصي عوائدهم وتقاليدهم وأسماء عشائرهم وفرقهم وأحاديث معائشهم ومعاركهم وما إلى ذلك . وإذا فاتني شيء أستعلم عنه ، من ذوي المعرفة بالبدو والبادية ، بالمحادثة أو المراسلة ، حتى اجتمع لي قدر غير يسير من هذا البحث العسير . وكنت أزيد ما علمته بما أجده بعد التنقيب والجهد في المؤلفات العربية والأفرنجية ، الباحثة عن الغابرين من البدو والحاضرين ، وفي بعض التقارير الرسمية والخصوصية ، حتى حسبت أن تدوين هذه المعلومات ونشرها ، في كتاب كهذا صار ممكناً ونافعاً . لأن لهذه البحوث في ظني مكانة غير يسيرة في تاريخ الشام الحديث وتسجيلها واجب قبل أن يطويها الإهمال والنسيان ، ويظل هذا التاريخ ناقصاً تلقاء ما عمله الأسلاف في هذا المضمار وما يعمله الآن الغربيون الولعون بالاطلاع على أمورنا الاجتماعية في حاضرتنا وباديتنا بينما نحن لا نعرف عن أوطاننا ومواطنينا معشار ما يعرفونه .

وقد خطر لي قبل الإقدام على طبع هذا الكتاب أن أجرب حظ موضوعاته ، فنشرت بعض فصول منه في مجلة المجمع العلمي عام ١٣٦٢ هـ (١٩٤٢ م) فإذا بها تلاقي استحسان من قرؤوها ، من ذوي الفضل العارفين بما للعشائر من المكانة في مجتمعنا ، فكان ذلك مدعاة للإقدام . خاصة وقد جاء دور الاستقلال الزاهر ، واحتضنت الحكومة السورية (إدارة

العشائر) وأصابت في إسناد هذه الإدارة إلى (السيد نوري إيبش) الرجل الممتاز بأخلاقه وكفاءته . فانعقد الرجاء بحصول الاهتمام بأمر هذه العشائر وأبحاثها وبنوالها في عهد هذا المدير الهمام كل خير وصلاح مرتقب .

وقد قصرت هذا الكتاب في قسمه الأول على ذكر مقدمات وجيزة عن البادية وجغرافيتها وجوها ومائها وسهولها وجبالها ونباتها وحيوانها ونعيمها وشقائها وآثارها وعمرانها الغابر والحاضر ، ثم عن تاريخ البدو القديم والحديث وهجراتهم وأفاعيلهم في بلاد الشام ، ثم عن أوصاف البدو وأحوالهم الاجتماعية وأخلاقهم ومزاياهم في الماضي والحاضر وما قاله مادحوهم وقادحوهم ثم عن عادات البدو في المعيشة والغزو والملبس والمسكن واللهو والزواج والأعراس والضيافة ، ثم عن التشريع البدوي ، وكيفية التقاضي والمرافعة وأصول الصلح بين الأفراد والعشائر ثم قفيت على آثار ذلك في القسم الثاني : بتعداد العشائر وتعريف أنسابها وأحسابها ومنازلها وفرقها وأخبارها الماضية وأحوالها الحاضرة ، كل ذلك حسب المناطق الجغرافية التي لكل منها من جنوبي حوران إلى أقصى شمالي الجزيرة الفراتية . وجرني سياق البحث إلى ذكر التركمان والكرد والشركس أيضاً ، المتوطنين في بعض المحافظات والأقضية لما لهم من الصفة والمعيشة العشائرية .

وقد سميت كتابي هذا : (عشائر الشام) وخصصته ببلاد الشام الشمالية ، لوجود كتب باحثة عن عشائر بلاد الشام الجنوبية (فلسطين وشرقي الأردن) ، وعنيت بالشام البلاد التي تعرف الآن بسورية ، بينما كلمة الشام هي الأفصح والأرجح ، وهي الكلمة العربية الأصلية الواجب علينا حفظها وتداولها كما حفظها وتداولها أسلافنا فقالوا : بادية الشام ودمشق الشام وطرابلس الشام وغيره ، وكما يحفظها ويتداولها حتى الآن إخواننا المصريون والحجازيون ، وهم على صواب فيما يقولونه ، ويدخل في هذا الواجب أيضاً ترويج كلمة (دمشق) لعاصمتنا ، كما روج إخواننا المصريون كلمة (القاهرة) لعاصمتهم .

على أنني لاأدعي الاستيعاب وبلوغ الغاية في هذه البحوث والدراسات الكثيرة التضارب والشرود ، لأن التجوال في البادية والاتصال بالبدو ، أو النبهاء من البدو في كل زمان ومكان أمر غير يسير ، والتقاط الأخبار واستقراء الحقائق منهم دونها مشقة وكلفة .

لأن الأمية منتشرة لديهم واهتمامهم بهذه الأبحاث وحفظهم وذكرهم لها نادر جداً .

والـذين يحفظون ويـذكرون قلما تتفق روايـاتهم وإسنـاداتهم وتصفو . وقلما تخلو من الغلـو ودعوى السبق والأرحجية على الغير . هذا إلى أن هذه المساعي متوقفة على الصـدف وانتهـاز الفرص لمن كان بعيداً مثلي عن التأثير الرسمي في هـذا الشـأن ، مما يسهل ويتيسر أكثر لرواد الإفرنج ومستشرقيهم وموظفيهم المدنيين وضباطهم العسكريين المجهزين بكل وسائل التجوال والاستطلاع . لذلك قد يكون ثمة بعض عوائد وتقاليد بدوية مختلفـة بين عشيرة وأخرى عما ذكرته أو تكون أسماء أشخاص وشيوخ ورؤساء وفرق وعشائر وأعداد رجال وماشيـة لم أدونهـا أو دونتها على غير الضبـط وحسبمـا نقل لي ، أو يكون في الأخبـار والوقـائع التـاريخيـة التي سردتها زيادة أو نقص .

كل ذلـك جـدير بإسـدال المعـذرة عليـه ، إذا عرف القـارئ المنصف وعـورة هـذه المـوضـوعـات وعسرة نـوال الكمـال فيهـا ، وإن مراد القـول فيهـا رحب ومجـال البحث مستفيض . وحسبي أن أكون بكتابي الأوحد هذا ، قد أثرتهـا ونشرتهـا ، وسـددت فراغـاً في المكتبة العربية ، ومهدت السبيل لمن أراد التوسع فيها والزيادة ، ومن الله التوفيق .

دمشق

أحمد وصفي زكريا

مكتبة البدو

(ماألف عن البدو)

من الباحثين عن أنساب البدو وأوصافهم وأخبارهم بين أدباء العرب القدماء وجدت ابن عبد ربه الأندلسي المتوفى في سنة ٣٢٨ هـ في كتابه (العقد الفريد) ، وأبي الفرج الأصبهاني المتوفى في سنة ٣٥٦ هـ في كتابه (الأغاني) ، وأبي عبيد البكري المتوفى في سنة ٤٨٧ هـ في مقدمة كتابه (معجم ماastعجم) ، وابن خلدون : المتوفى في سنة ٨٥٨ هـ في الجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى (العبر) ، والقلقشندي أحمد بن علي المتوفى في سنة ٨٢١ ، في الجلد الرابع من كتابه الأول المسمى (صبح الأعشى) ، وفي كتابه الثاني المسمى (نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب) المطبوع في بغداد ، وفي كتابه الثالث المسمى (قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان) ، وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية ، يبحث في قبائل مصر في زمنه . وقيل أن في أحد الأجزاء التي لم تطبع بعد من (مسالك الأبصار) لابن فضل الله العمري المتوفى في سنة ٧٤٨ هـ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده . وقيل أيضاً أن لابن حزم الظاهري المتوفى في سنة ٤٥٦ كتاباً اسمه (جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب) وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية . ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة ، وإن كانت تشمل العصور والأماكن البعيدة عن موضوعي وبحثي .

ومن الباحثين المتأخرين الشيخ محمد البسام التميمي المتوفى في سنة ١٢٤٦ هـ في رسالته (الدرر والمفاخر في أخبار العرب الأواخر) وهي مخطوطة في المتحف البريطاني ، رأيت نسخة مصورة منها في بغداد في مكتبة المؤرخ السيد يعقوب سركيس ، يتكلم فيها عن عشائر الجزيرة العربية بإيجاز زائد لايفيد سوى التيقن من وجود بعض العشائر ووصفها ، ثم أبو الفوز السويدي البغدادي في رسالته (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب)

المطبوعة على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦ هـ ، لكن أبحاثها قديمة ومقتبسة عن نهاية الأرب للقلقشندي وترتيبها غير موف بالغرض ، والسيد شكري الآلوسي في كتابه (بلوغ الأرب في أحوال العرب) المطبوع في بغداد سنة ١٣١٤ هـ في ثلاثة مجلدات خصها بشرح أخبار عرب الجاهلية وعاداتهم وآدابهم مما هو بعيد عن مطلوبنا ، وسليمان البستاني : معرب الإلياذة في مقالته عن البدو المندرجة في المجلد ١٢ من مجلة المقتطف سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) ، وجرجي زيدان في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) المطبوع في سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) ، ونعوم شقير في قسم من كتابه (تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها) المطبوع في مصر سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) ، والمطران بولص سليمان في كتابه (خمسة أعوام في شرقي الأردن) المطبوع في حريصا (لبنان) سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) وقد بسط فيد آداب بدو شرقي الأردن في عهدنا وقضائهم وديانتهم وعشائرهم ، وعارف العارف قائم مقام بئر السبع في فلسطين في كتابه (القضاء بين البدو) المطبوع في القدس سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) وقد بسط فيه أخبار بدو بئر السبع في عهدنا وطبائعهم وعاداتهم ، والعقيد ج . بيك الإنكليزي في كتابه (تاريخ شرقي الأردن وقبائلها) ، وقد عربه بهاء الدين طوقان من أدباء عمان وطبعه في القدس في سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) وعودة القسوس من رجال القانون في شرقي الأردن المتوفى في سنة ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م) في مقالاته (القضاء البدوي) المنشورة في (المجلة القضائية) للحكومة الأردنية في سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) ، وفؤاد حمزة في كتابه (قلب جزيرة العرب) المطبوع في مصر في سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) ، والمحامي عباس العزاوي في كتابه (عشائر العراق) المطبوع في بغداد في سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) وعز الدين علم الدين في مقالة الأبتر عن (بادية الشام) المندرج في المجلد ٥١ من مجلة المقتطف في سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) ، وخير الدين الزركلي في قسم من كتابه (ما رأيت وما سمعت) المطبوع في مصر سنة ١٣٤٢ هـ(١٩٢٣ م) وحافظ وهبه في قسم من كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين) المطبوع في مصر سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) ، والأب انستاس الكرملي في قسم من كتابه (خلاصة تاريخ العراق) المطبوع في البصرة في سنة ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) ، ومحمد الكرد علي في قسم من كتابه خطط الشام (ج ٦) المطبوع في دمشق في سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) ، هذه هي الكتب والرسائل ، والمقالات العربية التي عثرت عليها وراجعتها ، وكلها قيم وجميل ، وهي

خلا الكتب الكثيرة غير المختصة بموضوعنا وحده ، التي يأتي بحث البدو فيها عرضاً ، وقد درجت أسماءها في قائمة خاصة في ذيل الكتاب .

أما الإفرنج : فقد وجدت بينهم من الباحثين عن البدو الرحالة بركهاردت السويسري[١] صاحب كتاب (رحلة في بلاد العرب) وقد وافى هذه البلاد في سنة ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) ووصف في كتابه المحرر بالإنكليزية ما صادفه في تلك الحقبة من عشائر البدو في الشام والحجاز ، وأحصى نفوسها ، وذكر أطوارها ، وأساليب معيشتها وكل ما يتعلق بها بتدقيق وافٍ . وللمستشرق موزيل التشيكوسلوفاكي[٢] الذي بحثنا عنه في المقدمة كتب بالألمانية ترجمت إلى الإنكليزية في عدة مجلدات منها (بلاد العرب الصحراوية) طبعت في سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) وكتاب خاص عن عشيرة الأروله طبع في سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) ، وكان قد لبث بين الأرولة بضع سنوات ، وسلك سبيلهم في خشونة العيش ، وقام بعدة رحلات للدرس والبحث والتدوين ، وللسائحة الإنكليزية الليدي آن بلونت[٣] التي بحثنا عنها في المقدمة أيضاً كتاب في مجلدين عن (عشائر الفرات) طبع في لندن سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ م) كما أن لها كتاباً آخر عن رحلتها في سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ م) هي وزوجها المستر ولفريد بلونت إلى حائل عن طريق دمشق ووادي السرحان والجوف اسمه (رحلة إلى نجد) ترجم إلى الإفرنسية وكان دليلها في هذه الرحلة محمد العبد الله العروك من أهل تدمر . وللرئيس رينو ، والطبيب مارتينه الإفرنسيين[٤] رسالة صغيرة عن (البدو في مقاطعة دمشق) طبعت في سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) ، وللمقدم مولر الإفرنسي[٥] كتاب كبير اسمه (في بلاد الشام مع البدو) طبع في سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) ، وهؤلاء الضباط الثلاثة كانوا من عمال الإدارة الإفرنسية بمراقبة البدو ، ولمصلحة الاستعلامات في الشرق التابعة للمفوضية العليا

---

(١) Jean - Louis Burckhardt , voyages en Arabie .

(٢) Aloes Musil , deserta , 1927 - The manners estoms of the rawala . 1928

(٣) Lady Anne Blunt , The Bedouin tribe of the Euphrates , Murray , 1879 London , Peligrinage to nejd .

(٤) Capitaine et Medicin - Major Martinet ' les Bedouins de la Mouvence de Damas 1922 .

(٥) Commandant Victor Muller , en syrie avec les Bédouins 1931 , paris

الإفرنسية ، كتاب خاص دعته (العشائر الرحالة والنصف رحالة في دول الشرق التي تحت الانتداب الإفرنسي[١] طبع في بيروت في سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م) ، وللمستشرق مونتاني الإفرنسي[٢] مقال قيم في مجلة الدراسات الشرقية التي يصدرها المعهد الأثري الإفرنسي في دمشق (ج ٥ سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٥ م) عنوانه (قصص شعرية بدوية ملتقطة من شمر الجزيرة) وللراهبين جوسن وسافينياق الدومينيكيين[٣] كتابان بالإفرنسية طبعا في سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) أحدهما عن عادات البدو في بلاد موآب (جنوبي بلاد الأردن) وثانيها عن عشيرة الفقراء إحدى العشائر الكبيرة في شمالي الحجاز . وللملازم آلبر بوشمان[٤] من ضباط مراقبة العشائر الفرنسيين ، وقد قتل في حروب مرجعيون التي دارت بين الفيشيين والإنكليز في صيف سنة ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) كتاب اسمه (أمتعة المعيشة البدوية) وصف فيه ألبسة البدو وفرشهم وأوانيهم ومضاربهم ، وقد جمع ذلك من عشيرة الأسبعة العنزية بعد أن أقام بينها مدة . وللراهب اليسوعي الأب هنري شارل كتاب كبير اسمه (العشائر الغنامة في الفرات الأوسط[٥] طبع في بيروت سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٦ م) خصه بوصف عشيرة العقيدات وتاريخها وفرقها وقراها وعاداتها ، وذلك بعد أن ظل بضعة أشهر يجوس مضارب هذه العشيرة ، ويعاشر كبارها وصغارها ، ويستقصي ويدون ، وله رسالة أخرى صغيرة عن (التحضير بين الفرات والبليخ) طبع في بيروت سنة ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) وفيها بحث اجتماعي أنسابي عن عشائر قضاء الرقة[٦] ولراهب آخر اسمه الأب بواديبار : كتاب اسمه (أثر روما في بادية الشام)[٧] وصف فيه هذه البادية ، وذكر الأرصفة والمعاقل والمخافر الرومانية التي اكتشفها من الطائرات في سني ١٣٤٣ - ١٣٥١ هـ

---

(١) Les tribues nomades et semi - nomades des etats du Levant places Sous mandat Francies 1930 . Beyrouth .

(٢) M . Montaggne contes Poetiques bedouins rccuillies chez les schammar de Gezire' 1935

(٣) P . jaussen et Savignac , Coutumes des Arabes en pays de Moabe 1908 cotumes de Fuquaras , 1920

(٤) Alber Bouchemenl , les materiels de la vie bédouine .

(٥) Le pére H . Charles S . J . Tribus moutonnléres du moyen Euph - rate . Beyrouth 1936

(٦) La sedentaristion enter Euphrate et balik . note d,Ethnosociologie , 1942 .

(٧) Le pere poidebard . S . J . lA trace de rome dans le desert de syrie . paris 1934 .

(١٩٢٥ ـ ١٩٣٢ م) وخص المجلد الأول من كتابه هذا للوصف المذكور وخص المجلد الثاني للصور الشمسية والخرائط والمخططات البديعة الترتيب والتصوير ، وأحدث الكتب الأفرنجية عن عشائر الشام هو مانشره أخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم[١] المطبوع في ليبزيغ سنة ١٣٥٨ هـ (١٣٣٩ م) وهو غير كتابه القديم المطبوع في برلين سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) . وللملازم الإفرنسي آلبير بوشمان الذي تقدم ذكره مقال طويل في مجلة الدراسات الإسلامية التي تصدر في باريس مجلد١ ص ٢٢ عن الخلاف بين عشيرتين غنامتين في الشام (يعني الموالي والحديديين)[٢] كما له أيضاً رسالة عن قرية السخنة[٣] ولعل هنالك كتباً ورسائل أخرى لم أطلع عليها فاكتفيت بذكر ماعلمت وما رجعت إليه .

☆ ☆ ☆

---

(١) Max von oppenhim . von mitteimer fun persichen Berlin 1899 - Die Beduinen , Leipzig 1939 .

(٢) Alber Bouchement , Note Sur La rivalite' de deux tribus moutonnieres de syrie , les Mavalis et les Hadediyins , revue Etuders islamiques 1934 t , 1 ,p . 22 .

(٣) Une petite cite' caravaniere , Suhne . I

جغرافية ديار البدو

إن البراري البعيدة المترامية الأطراف والأكناف الممتدة في شرقي بلاد الشام تنقسم إلى قسمين : المعمورة والبادية .

(**فالمعمورة**) :هو القسم العامر بالقرى ، الآهل بالسكان الحضر ، المزروع عذياً أو سقياً ، ويقابله في مصر والعراق الريف ، الممتد على شواطئ النيل والرافدين .

والريف في اللغة : ما قارب الماء والخضرة من الأرض ، ومن هنا كان استعمال هذه الكلمة منحصراً بمصر والعراق دون الشام لتفوقهما عليه بالماء والخضرة .

و (البادية) أو (الصحراء) : هو القسم الغامر البائر الواقع في شرقي المعمورة المذكورة الخلاء القواء القليل الكلأ والماء غير الصالح إلا لرعي الماشية ، الممعن في الامتداد والبعد حتى العراق الأسفل .

وحد هذه البادية في بلاد الشام يبدأ في الجنوب في إمارة شرقي الأردن من أنحاء معان ، ومن شرقي جبال الشراة وجبال موآب وجبال عجلون ويسير مع السكة الحديدية الحجازية الممتدة على سيف البادية حتى يبلغ محطة المفرق ، ومن ثم ينعطف نحو شرقي جبل حوران ووعرة اللجا ، ثم شرقي قرى الضمير والقريتين والفركلس وجبل الشومرية وعقيربات والأندرين وبالس (مسكنة) وشمس الدين على الفرات ، وبعد عمران الجزيرة الحديث وامتداد الحرث والزرع صار الحد فيها ينعطف من شمس الدين نحو تل السمن على البليخ ، ومنه إلى جبل عبد العزيز ، فبحيرة الخاتونية فوادي الثرثار فوادي الدجلة[1] .

وإذا استمر عمران الجزيرة الحديث في سيره الحالي الذي بدأ منذ أن استقرت الحدود

(١) درجنا في آخر الكتاب الملحق رقم ٢ للقرار رقم ١٣٢ » فيه شرح الخط الفاصل رسمياً بين منطقة المعمورة ومنطقة البادية . وهو يختلف عما ذكرناه لأنه تحديد إداري وتحديدنا جغرافي .

الدولية الأخيرة بين الشام والعراق وتركية ، ومنذ أن استتب الأمن فإن جل الجزيرة إن لم نقل كلها سوف يصبح من (المعمورة) ، وتبقى الشامية وحدها هي المقصود بكلمة (بادية الشام) وبوصفها ، كما أنها هي المقصودة غالباً في كلامنا ووصفنا الآتيين .

وفي هذه البادية سهوب شاسعة وصحراوات واسعة ، مستوية كل الاستواء سهلة أي سهولة في الغالب متشابهة المناظر مطردة المشاهد ، تتخللها في بعض الأماكن تلعات وهضبات ترابية منفردة أو متموجة وأكمات حجرية متقطعة أو متسلسلة بركانية بازلتية أو رسوبية طباشيرية (كريتاسه) . وبين هذه التلعات والأكمات بعض أودية ومسايل جافة في معظم أيام السنة وبعض أوعار وحرات بركانية صغيرة أو كبيرة ، وفي كل ذلك أفق رحيب وفراغ رهيب وسكون مريب وتراب غير خصيب ، تتوهج وقدات الشمس في الصيف ، وتهب نوافح القر في فصل الشتاء ، وتبرز أرض الجوع والعطش ، وتظهر قيعان القحل والجدب إلا من بعض نباتات ودويبات وأغنام وأباعر وبيوت من الشعر ، تخفق الأرياح فيها مبعثرة هنا وهناك .

وهذه البادية لا تصلح للحرث والزرع عذياً ؛ ذلك لقلة أمطارها وجفاف جوها ، وملوحة تربتها في بعض الأماكن ، أو لصفرة هذه التربة أو بياضها ، ولفقدان الينابيع السارية أو ندرتها . إذ أن الماء إما في آبار بعيدة الغور ويكاد لا يكفي الشفة ، أو هو رديء مالح لا يستساغ ، ولا تحرث وتزرع هذه البادية إلا سقياً في بعض الأماكن السعيدة بوجود الينابيع والأنهار السارية ، كما هو الحال في تدمر وأرك والسخنة والطيبة وفي ضفاف الفرات والبليخ والخابور ، والسعيدة بوجود القنوات المندثرة ، كالتي في ناحية القريتين وفي جهة كديم .

ولا ريب في أن هذه البادية على علاتها كانت أسعد حالاً فيما مضى ، تشهد على ذلك أطلال المعاقل والمخافر والتلال الصناعية ، والآبار والقنوات والسدود والأرصفة ، والآثار الآرامية والنبطية والتدمرية والرومانية والقصور العربية الأموية المشيدة حول ينابيع ومسايل وخزانات مياه قد غاضت ، ورقدت حولها أطلال وخرائب ورسوم ، تندب مجدها الداثر مما سيأتي وصفه .

وهذه البادية كانت منذ أقدم العصور وما برحت ديار البدو ، ومنتجعهم ومسارح غدواتهم وروحاتهم ، ومطارح حروبهم وغزواتهم ، يتجولون في أرجائها الشاسعة ، وينجعون سعياً وراء الكلأ والماء والدفء لماشيتهم ، حسب تقاليد معروفة واتفاقات محدودة بينهم كل منهم في بقعة منها قد تآلفوا عليها وتقاسموا ، وهم قد اكتسبوا حق التجوال ، والنجعة في البقعة التي اختصوا بها إما :

عقيب حروب طويلة مع الذين كانوا يحتلونها من قبلهم ، فتوصلوا في النهاية إلى ابتلاعهم أو إفنائهم ، وإما : نتيجة الحلول والدخول بين عشيرتين كانتا موجودتين سابقاً فدفعوهما وأفسحوا لأنفسهم منزلاً بينهما . ومن ثم حدث من جراء هذا الدفع والتوسيع عداوات وحزازات ، توارثها جيل عن جيل فأدت إلى انقسام هذه العشائر وتعددها ، وإلى معاناتها حياة مضطربة بالشقاق والعراك الدائمين ، ناهيك الجهد وشظف العيش ، ومشاق الإرعاء والإسقاء والغدو والرواح وراء الماشية الجرارة .

والبادية تنقسم بادئ ذي بدء إلى قسمين ؛ وذلك بحسب قربها إلى المعمورة أو بعدها وكثرة أمطارها وبقاء أعشابها أو قلة ذلك .

فالقسم الأول : القريب وهو قسم السهوب ؛ ذو أمطار سنوية يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ و ٢٠٠ ميليمتر ، ومن ثم كان هذا القسم أغزر أمطاراً وأوفر أعشاباً ومراعيه أطول بقاءً ، وهو ذو آبار وينابيع في كثير من الأماكن ، جعلته أصلح للارتياد وجولان العشائر من القسم الثاني ، وفيه منطقتان يفصلها سقي الفرات ؛ الشامية التي على يمين هذا السقي والجزيرة التي على يساره ، وهذا القسم يشبه السهوب المعشوشبة في جنوبي روسية مما يدعوه الأفرنج steppe . وتقدر مساحة هذا القسم في بلاد الشام بنحو ٦٧٣٩٠٠٠ هكتار[1] . والقسم الثاني : البعيد ؛ وهو البادية الحقة ويدعى (الحماد) ، ذو أمطار سنوية لا تزيد عن مئة ميليمتر ، ومن ثم كان فقيراً بالأمطار وأعشابه ومياهه قصيرة العمر سريعة الزوال عقب انتهاء فصل الشتاء ، وتقدر مساحة هذا القسم الداخل في خريطة الجمهورية السورية بـ ٣٨٦٣١٠٠ هكتار ، أي أن مجموع القسمين يبلغ ٢٠٠ ,٦٠٢ ,١٠ هكتار .

---

(١) عن كراسة دائرة المساحة المطبوعة في سنة ١٩٤٥ م

وإلى القارئ أوصاف كل من هذين القسمين ومناطقهما الجغرافية ، التي اصطلح عليها سكان البادية :

- **الجزيرة** : هي البراري الممتدة على ضفة الفرات اليسرى بينه وبين الدجلة . وقد كانت في العصور الجيؤلوجية فيما يظهر من شكلها وتركيب تربتها بحيرة واسعة مغمورة بمياه هذين النهرين .

والجزيرة تقسم إلى ثلاثة أقسام :

الجزيرة العليا : وتشمل كل القسم الجبلي الشمالي منها ، والجزيرة الوسطى ، والجزيرة السفلى ، فالجزيرة الوسطى في عهدنا هي داخل الحدود الشامية ، كما أن الجزيرة السفلى داخل الحدود العراقية ومنتهاها في تكريت على الدجلة ، أما الجزيرة العليا فهي داخل الحدود التركية . قال ياقوت في معجمه « الجزيرة هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر ، سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات ، وقال : وهي صحيحة الهواء جيدة الريع والنماء واسعة الخيرات ، بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة ، ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس العين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك ... وقد صنف لأهلها تواريخ وخرج منها أئمة في كل فن غزاها عياض بن غنم في سنة ١٧ وفتحها » .

قلت : والجزيرة على خلاف الشامية ، ذات سهول شاسعة مستوية أحسن استواء ، وتربة ذكية أي ذكاء ، وأعشاب ومراع نامية كل النماء ، مع أمطار غزيرة[1] وأنعام وزروع وفيرة ، وأنهار وجداول كثيرة ، ناهيك منها الخابور والبليخ والجغجغ (هرماس قديماً) والرد والجراح وخنيس وغيرها .

وقد كانت ضفاف الخابور تتفجر منها الترع والقنوات العديدة عليها السدود المحكمة الجميلة ، وناهيك بسد السبع سكور ، والسد الواقع ما بين عجاجة ومشنقة ، وسد تل الرمان التحتاني ، وترعة دورين التي تنشأ من الخابور عند الصور وتنتهي في الفرات إزاء

---

(١) معدل كمياتها السنوية في قضاء الحسجة ٢٧٢ وفي قضاء القامشلية ٣٥٨ وفي قضاء ديريك المجاور للجزيرة العليا ٥٠٠ ميليمتر وهذا المعدل الأخير يشبه ما يكون في السواحل .

أبي كال ونهر الجام ونهر الشمساني ونهر التف وغيرها . وكل من هذه السدود والترع يتفرع في قنوات كانت تمتد عشرات الكيلومتر ، وتروي ألوف الهكتارات المزروعة ، وفي شجر الخابور تقول الفارعة أخت الوليد بن طريف الشيباني أحد الخوارج في مرثيتها لأخيها المذكور :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً   كأنك لم تجزع على ابن طريف

وفي رثاء الخابور يقول الربيع بن أبي الحقيق اليهودي من أبيات :

دور عفت بقرى الخابور غيرها   بعد الأنيس سوافي الريح والمطر
إن تمس دارك ممن كان يسكنها   وحشاً فذاك صروف الدهر والغير

أجل ، كانت الجزيرة في العصور القديمة والمتوسطة وحتى أواخر العصر العباسي وخلال غارات الصليبيين والمغول عامرةً بالمدن والقرى ، زاخرةً بالحقول والسكور (السدود) ، والترع التي تدل عليها الأنهار المندثرة والتلال الصناعية والأطلال الأثرية المنتشرة بكثرة كيفما جلت ، وهي من بقايا عهود الحثيين والآشوريين والبابليين والسلوقيين والرومانيين والعرب ، خربتها غارات المغول والصليبيين وفوضى عهد العثمانيين ، ومن دواعي السرور أن العمران القديم بدأ يعود من عهد قريب رويداً رويداً ، فقد كثر تهافت النازحين إليها بعد الحرب العامة الماضية وتقسيم الحدود الحالية واستقرار الأمن منذ سنة ١٣٤٧ هـ ، وهؤلاء النازحين هم من مختلف الطوائف والأديان واللغات كالكرد والسريان واليزيدية والأرمن والنسطوريين اللاجئين من بلاد الترك والعراق ويسمونهم الآن الآشوريين ، كما أقبل على الجزيرة الطامحون باستغلالها من أبناء المدن الشامية ، هذا عدا ما كان فيها من مهاجري الشاشان القوقازي الأصل ، وعدا عشائرها العربية الرحل أمثال شمر وطيء وجبور وبقارة وشرابين وفدعان ولد وفدعان خرصة ومشهور وعفادلة وولدة وأبي جرادة ، ثم الكرد والتركمان أشباه البدو ، ممن سيأتي ذكرهم في القسم الثاني من كتابنا هذا .

وقد انطلقت المحاريث الحديدية الحديثة والسواحب والحصادات والدراسات الآلية تشق براريها الشاسعة الخصبة ، وتبعث الحركة والنضرة ، وتقصي السكون والبوار المستمرين منذ قرون ، وبدئ بفتح قناة عظيمة على الخابور من تل مغاص جنوبي رأس العين إلى

شرقي بلدة الحسكة ، وسيكون طولها نحو ثمانين كيلو متراً ، وستروي ما يقدر بعشرة آلاف هكتار ، فإذا تمت هذه القناة ، ووجد لها أيد عاملة عارفة ، وعملت فيها الزراعات المسقوية الصالحة كان منها ريع ورزق عظيمان . وانتشرت الآن زراعة الرز في ضفاف نهري الجغجغ والبليخ ، وقد أنشئ في الجزيرة داخل الحدود الشامية وجنوبي سكة حديد حلب الموصل عدة بليدات منها القامشلية إزاء نصيبين عاصمة الجزيرة قديماً ، وقد ظلت نصيبين داخل الحدود التركية ، رغم وقوعها جنوبي الخط الحديدي ، وبليدة عمودة إزاء دارا القديمة ، والدرباسية إزاء مثيلتها وسميتها . وتل أبيض إزاء آقجة قلعة ، وغيرها مما اقتضته دواعي التحديد بين دولتي الشام وتركية ، وأنشئت وسط الجزيرة بليدة الحسكة التي اتخذت قاعدة للمحافظة ، هذا إلى مئات من الضياع والضييعات المستحدثة المنتشرة ، أخصها قبور البيض وتل براق وتل التمر وديريك وغيرها ، ومن هنا كانت أوصاف الخلاء والقواء والقحل والجدب تنطبق على (الشامية) الغامرة القفراء ، أكثر من الجزيرة التي ستصبح عما قريب عامرة خضراء جلها إن لم يكن كلها .

وفي براري الجزيرة ولا سيا في ضفاف الفرات والخابور والبليخ مئات من التلال الترابية الصناعية الأثرية التي لا نظير لها في البراري الشامية ، وقد كانت هذه التلال قرى عامرة في العصور القديمة أيام عمران الجزيرة وازدهارها في عهود الدول التي ذكرناها ، فخربت بالفتن والحروب ، ولاسيا بغارات المغول والصليبيين ، وتراكم عمران فوق عمران وقديم فوق أقدم منه ، بدليل وجود الأطلال والعاديات من جدران وآبار وأواني خزفية ونقود أموية وعباسية يعثرون عليها ، وأشهر هذه التلال غراسة وشرموخ وخزف وأبو خضر وبراق وأحمدي وأبطخان والنواعمة وهذلون ورميلان وبدر وطرطب والعيد وسلندر وجاغربازار ، وفي براري الجزيرة أيضاً تلال أخرى طبيعية ، حدثت من قضم السيول الأرض التي حولها في عهود ما قبل التاريخ وبعده . وكانت نصيبين عاصمة سيف الدولة بن حمدان قبل أن يتولى حلب . وكان في الجزيرة في عهد ياقوت (القرن السابع) من المدن التي صارت الآن أثراً بعد عين ، (برقعيد) التي قال إنها في شرقي نصيبين بينهما عشرة فراسخ أي نحو ٥٠ كيلو متراً ، ولعلها كانت مكان تل رميلان الحالي الذي يخيم فيه الشيخ باشا العاصي من رؤساء شمر ، و (باشزي) مقابل بر قعيد و (عربان) ولعلها كانت مكان تل عجاج على الخابور ، و (دارا) في لحف جبل ماردين ، وهي الآن معروفة

داخـل الحـدود التركيـة تجـاه عـامـودة ، و (سكير العبـاس) في الخـابـور كانت مكان تـل شدادي . وفي غربي الجزيرة حيث كانت ديار مضر كان من المـدن الرقـة قصبـة ديـار مضر والرافقة وحصن مسلمـة و ترعوز وحران وسروج وكفر سيرين والـدوسريـة (قلعـة جعبر) وحصن هرقلة وبرطوبة مقابل رحبـة مـالـك بن طوق من أعمـال الخـابور قرب قرقيسيـاء (البصيرة الحالية) . إلخ ... مما يحتاج تعداده ووصفه لمؤلف خاص بالجزيرة وحدها . قال الآلوسي في كتـابـه (بلوغ الأرب في أحوال العرب) عن الجـزيرة مـا يلي « صحـاري هـذه الديار مملوءة كلأ وأزهاراً ، ولذا اتخذها آل بكر بن وائل من بين الديـار ديـاراً . ثم قـال : ولم يبق فيها اليوم ممن كان في الأعصر الخـاليـة من أولئـك القوم ، بل سكنهـا أنـاس مختلفو الملل والأجناس ، ليس فيهم مزايا من سلف ولا وضاحة من مضى وانصرف ، وسبحـان من أخلى ديار بكر ممن يرعى زهر الآداب وربيعة وجعلهـا بلاقع لا تجـد فيهـا من يتخـذ لفهم كـلام العرب ذريعـة ، وكم كان فيهـا من أديب جـلا نظمـه ونثره ، وأريب رمى عن قسي الإصابة لا مثل عشره ، فنثرهم ريب المنون من كنـانتـه نثر السهـام ونظمهم على الرغم منهم في ديوان القبور تحت أطباق الرغام ، سقى الله ثراهم ما يوجب في دار الإقامة مثواهم » .

الشامية :ـ هي السهوب الممتـدة على ضفـة الفرات اليمنى بين هـذا النهر وبين خـط وهمي يمتد من دمشق إلى بلدة عانة على الفرات داخل الحدود العراقية ، وكلمة الشـاميـة في اصطلاح الحضر والبـدو ، من عرب أنحـاء الفرات هي الضفـة اليمنى للفرات كما أن الجـزيرة هي الضفة اليسرى ، فهم لا يقولون ضفة يمنى وضفة يسرى ، بل جزيرة وشامية ، حتى أنهم في شأن نهر الخابور أحد روافد الفرات في الجزيرة ، يطلقون كلمة شامية أيضـاً على البقـاع التي في غربيه بينـه وبين الفرات . ومن الغريب أن لا تعرف بـاديـة الشـاميـة قـديمـاً بهـذا الاسم ، بـل بـاسم (بـاديـة السماوة) هكـذا ذكرهـا المـؤرخـون والجغرافيـون العرب ومنهم ياقوت ، قال إنما سميت السماوة لأنها أرض مستويـة لا حجر فيهـا ، وقـال أيضـاً : بـاديـة السماوة التي هي بين الكـوفـة والشـام قفرى أظنهـا مسماة بهـذا الاسم ، قلت إن السماوة في عهدنا اسم بلدة في شرقي بغداد على الفرات وهي من مراكز أقضية لواء الـديوانيـة ، وتشرف على البادية الممعنة في البعد غرباً نحو الشام وجنوباً نحو نجـد ، فكيف نسبوا البـاديـة كلهـا إليها دون غيرها من البلدان الواقعة في غربيها والتي هي أقرب إلى الشام منها ؟ أهم قصـدوا

البلدان الواقعة في غربيها والتي هي أقرب إلى الشام منها ؟ أم قصدوا قسم الحماد منها فقط ، ها هنا الغرابة .

والشامية تنقسم أيضاً إلى عدة مناطق جغرافية ، لها أسماء ، وأوصاف خاصة منها الزور والمناظر والوديان والقعرة والشنبل والدو .

فالزور : أو سقي الفرات هو : الوادي الطويل المقفل الممتد على ضفتي الفرات من بالس (مسكنة) حتى الحدود العراقية . وفيه من المدن المعروفة (دير الزور) عروسة الصحراء في عهدنا وأكبر مدنها وقاعدة محافظة الفرات ، وفيه من البليدات بالس الحديثة (مسكنة) والسبخة والميادين والعشارة وأبي كمال ، ومن الخرب والقلاع القديمة الأثرية بالس القديمة (بارباليسو) ومدينة الفار وقلعة جعبر وقلعتا حلبية وزلبية المتناوحتان وأرض صفين التي جرت فيها المعركة المشؤومة بين علي ومعاوية ، وبرح الدبسي وأبراج أبي هريرة وخربة سورية (تفساح القديمة) وقلعة الرحبة (رحبة طوق بن مالك) ، والمسجد المنسوب للإمام علي قرب العشارة ودورا أوروبس (الصالحية) ، هذا عدا الضيعات العديدة المؤلفة من بيوت الشعر في الشتاء أو من الصبابيط المصنوعة من أغصان الطرفاء والغرب ، في الصيف يقطنها أعراب من أنصاف الحضر ، أهل الزرع والضرع ، أخصهم العقيدات ذوو الفرق والأعداد الكثيرة والولدة والسبخة ، وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في القسم الثاني من كتابنا هذا .

ووادي الفرات ذو تربة مترسبة خصبة وإقليم حار واستعداد تام للمشروعات الزراعية الكبيرة ، لايحتاج إرجاع عمرانه القديم إلا لتبديل وسائط الري الحالية السقيمة المسماة بالكرود (جمع كرد) بالمحركات والمضخات الميكانيكية ، ثم تبديل آلات الحرث والزرع والحصد بما هو حديث منها . فلو كثرت على الأقل وسائط الري الميكانيكية ، فوق ما هو موجود منها الآن على قلة في بعض الأماكن لاتسع نطاق الري ، وتضاعفت الفائدة من هذا الوادي الخصب الأغنّ الذي كانت فيه حضارة قديمة مشهورة بآثارها الوفيرة ، والزور في الإصطلاح هو : الأشجار والأعشاب والأشواك النامية من نفسها التي تغطي الضفاف الواطئة من الأودية والأنهار في البادية ، ثم توسعوا في ذلك وأطلقوه على أودية الفرات وروافده ، وعلى بعض غياض الحور الملتفة في غوطة دمشق ، ولم يرد الزور في

كتب اللغة بهذا المعنى ، ولا بهذا اللفظ فمن أين ؟ ومتى نشأ ؟ ومتى سميت دير الزور بهذا الاسم ؟ وقد كان اسمها قديماً دير (اوزارا) أو (آزورا) وسماها ياقوت (دير الرمان) قال عنها مدينة كبيرة ذات أسواق للبادية بين الرقة والخابور ، تنزلها القوافل القاصدة من العراق إلى الشام ، قلت : وليس غيرها ينطبق عليه هذا الوصف .

وأما المناظر : وهي الواحات أو القرى المسكونة وسط البادية الشامية ، كتدمر وأرك والسخنة والقريتين ولواحق السخنة كالطيبة (٢٥ كيلو متراً عن السخنة إلى الشمال) والكوم (١٥ كيلو متراً إلى شمال الطيبة) ، وهذه القرى كأنها جزائر منثورة وسط بحر ضخم ، أو كأنها غيطان خضراء وسط بوادي قفراء ، وقد ذكرها يلقوت في معجمه باسم المناظر أيضاً ، مما يدل على أن هذه التسمية قديمة ، مردها فيما زعموا إلى أن هذه القرى ينظر بعضها إلى بعض أو يكاد ، وفي كتب اللغة ، المناظر : أشراف الأرض أي ما أشرف منها وارتفع ، وقد اعتاد أهل الحواضر الشامية أن يسمو سكان قرى المناظر بالسخانة نسبة إلى السخنة إحدى القرى المذكورة ، ففي كل من دمشق وحماة وحلب وسفيرة ودير الزور أحياء خاصة يقطنها جوالي من هؤلاء ، ويسمون بالسخانة ولو كانوا من أهل تدمر والقريتين ، كما اعتاد البدو ، أن يسموا كل الجمالة الذين ينقلون السلع التجارية في البوادي بالسخانة ، ذلك لما لأهل السخنة من المقدرة والمعرفة باختراق البوادي وإجادة النقل والمهارة وحسن الوساطة في البيع والشراء بين البدو والحضر ، كما اعتادوا أن يسموا عقيلياً (عكيلياً) كل جندي هجان نشأ من قرى : مقاطعة القصيم في نجد ولو كان من غيرها ، لما للعقيل من التفوق والمقدرة على الجندية ، كما اعتادوا أن يسموا (كبيسياً) كل بائع يلحقهم في حلهم وترحالهم ولو لم يكن من أهل الكبيسة المشهورين بحذقهم في التجارة ، والكبيسة قرية في العراق على سيف البادية وغربي الهيت .

وبعد أن قضت السكة الحجازية على نقل الحجاج على الإبل ومنذ أن ظهرت السيارات ، واخترقت مسالك الصحراء ، وحملت المسافرين والسلع التجارية ، وأغنت عن الإبل والمرتزقين بالإبل ، انصرف (السخانة) إلى العمل والتكسب بنواتج الصحراء ، كالقلي الذي يستخرجونه من حرق نبات الشنان وكالزيت الذي يستخرجونه ، والزيتون الذي يقطفونه من أشجار الزيتون حول قريتهم ، ومثلهم في قطف الزيتون أهل تدمر أيضاً ، والكمأة التي تنمو في البادية في سني الخصب ، وعرق السوس الذي يقلعونه في أنحاء دير

الـزور وعين الكروم ، والسراس الـذي يجـدونـه في الجـزيرة في أنحـاء ثريـة الجعرة وثريـة الملح ، والعـاديـات (الأنتيكـة) التي ينبشونهـا ويستخرجونهـا من الأطلال والمـدافن حول تدمر والسخنة والطيبـة والكوم والنـدويـات والكـديم والرصـافـة وقصر الحير ، ومن جلود الحيوانات البرية وعظام الجمال ، هذا إلى قليل من الزراعة المسقية حول قراهم ، ومن تربيـة الغنم والمعز ، ومما تصنعه نساؤهم من البسط الملونة المشهورة بجودتها ، ومـا يقوم بـه رجـالهم من قص صوف الغنم ووبر الإبل ومداواة الإبل المصابة بالجرب لـدى العشـائر ، ومن تربيـة الصقور واستخراج صغـارهـا من أعشـاشهـا في جبل الضـاحـك ، وقـد كانوا يبيعون الصقر بنحو عشرين ليرة ذهبية .

وأما **الشنبل** : فهو البراري الممتـدة شرقي حمص وحمـاه وجنوبي حلب وغربي طريق تـدمر والرقـة ، وقـد أخـذوا هـذه الكلمـة من مكيـال الحبوب المسمى شنبلاً ، المستعمل في أنحاء حلب وحماة وحمص ، وهو بحجم حمل أو نصف حمل بعير ، وهو يزن ٢٢٠ كيلو غراماً في حمص ونحو نصف ذلك في حلب ، ولم نعثر على هذه التسمية في الكتب العربية القديمـة ، فمن أين جـاءت ومتى استعملت ؟ هـذا وبراري الشنبـل منزل عشـائر حمص وحمـاة وحلب الذين سنتحدث عنهم في حينـه ، وفيهـا من المـدن والأمـاكن الأثريـة مـدينـة الفـار قرب (بالس) ومدينة الرصافة (سرجيوبولس) وتدمر وخناصرة والأندرين وأسريـة وقصر ابن وردان وقصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي وسد الخربقة وغيرها .

وأما **الدو** : بفتح الدال فهو سهل واسع مستطيل الشكل ، كأنه واد عظيم محصور بين سلسلة جبال (الشومرية والشفا وشاعر والأبيض) في غربه وشماله ، وسلسلـة الجبل الشرقي وجبل الرواق في جنوبـه ، وذرعـه نحو ٩٠ في ٣٠ كيلو متراً ، ويقع بين القريتين وتـدمر ، ويخترقه طريقان للسيارات : الأول من تدمر إلى دمشق والثـاني من تـدمر إلى حمص ، كما تخترقـه أنـابيب النفـط العراقيـة الـذاهبـة إلى طرابلس ، وفي وسطـه إحـدى محطـات هـذه الأنابيب واسمها تيفور (ت ٤ ـ طرابلس ٤) . والدو والـدويـة في اللغـة المفـازة ، وسهلنـا هـذا هو مفـازة بحق لوحشتـه واقفراره ، وفي غربـه الأقصى من العيون والآبـار التي تردهـا الأعراب عين القمقوم وعين الجباة وبئر روضـة وفي وسطـه بئر قصر الحير وفي شرقـه الأقصى عين البيضاء وبئر طوالة وفي شماله بئر مران وبئر مسرب .

وأما **الوديان** : فهي البراري الممتدة على يمين ويسار الحدود التي بين العراق والشام ، في شرقي تدمر والرطبة وجنوبي أبي كمال ، تسيل فيها بعض الأودية المنحدرة من هضبة الحماد ولا سيا من حول جبل عنازة للإنصباب في الفرات كوادي عامج ووادي حوران ووادي الرتقة ووادي عكاش ووادي الصواب ووادي المياه ووادي علي وغيرها ، تنجع إليها عشائر عنزة لوفرة كلئها ومائها .

وأما **القعرة** : أو الجعارة فهي وهدة عظيمة مرتفعة الحروف والأكناف ، ذرعها نحو ٦٠ في ٣٠ كيلو متراً ، تقع داخل الحدود العراقية بين الرطبة وأبي كمال ، تنجع إليها عشائر عنزة وخاصة الأسبعة والعمارات لوفرة كلائها وتعدد مسايلها وآبارها ، كبئر الراح وبئر ملوصة وبئر الأغرى . وللقعرة أودية تصب فيها تأتي من جبل عنازة يسمونها (العفايف) ، يخشى البدو دخولها ليلاً خوفاً من الجن الساكنين فيها فيا زعموا ، حتى في النهار لا يدخلها أحدهم منفرداً بل مع جمع ، وللقعرة مدخل في الشمال يدعى الحلقوم ، وهو واد متصل بوادي علي الذي يصب في الفرات شرقي بلدة أبي كمال . وفي الأكمات المشرفة على الحلقوم حصن أثري يدعى قصر حلقوم كان يحرس الدخول والخروج .

وأما **الحماد** : وزان سحاب فهو : القفار الموحشة والفدافد المعطشة التي تمتد في جنوبي تدمر حتى النفود ، وتشترك فيه دول الشام والعراق والأردن والمملكة السعودية ، وهو (الصحراء) الأصلية في عرف من لا يعرفون جغرافية الباديةولا يميزون بين أقسامها ، وتخترقه طريق السيارات الذاهبة من دمشق إلى بغداد والأخرى القادمة من حيفا إلى بغداد . والحماد صميم البادية ولبها ، أقساها مدخلاً وأبعدها منتجعاً ، وأروعها منظراً ، ومن الغريب أن لا يرد اسم الحماد في معجم البلدان لياقوت ولا غيره من الكتب الجغرافية والمعاجم اللغوية العربية ، فهل هذا الاسم حديث في لسان البدو ؟. وماذا كانوا يسمون الحماد قديماً ؟. وهل هو لحمدة أرضه بالنظر إلى أن أدنى مطر يسقط عليه ينبته كلأً وافراً ترعاه ماشية الأعراب ؟

وأما **الحرَّة** أو حرة الراجل نسبة إلى واد فيها اسمه وادي الراجل المنحدر من صبب جبل الدروز الشرقي الجنوبي في قضاء صلخد ؛ فهي وعرة عظيمة تمتد داخل الحدود الأردنية ، في الجنوب الشرقي من الجبل المذكور ، بين محطتي اجفايف (حيفا ٥) واجفور

(حيفا ٤) لأنابيب النفط العراقية ، وهي مؤلفة من صخور بركانية صغيرة لماعة سوداء كالفحم الحجري مصفوفة كصف أرصفة الطرق قذفتها قمم جبل الدروز ، كما قذفت حرتي اللجا والصفا ، وتشتي في هذه الحرة بعض عشائر جبل الدروز كالمساعيد والشرفات والعظامات ، وتسرح قطعانهم ، فإذا جاء الصيف وجفت غدران وادي الراجل صعدوا إلى جبلهم . وكانت هذه الحرة في عصور التاريخ الأولى شبه مأهولة ، تدل على ذلك أطلال المباني الحجرية والأدوات الظرانية التي وجدت فيها ، ثم آثار المخافر والرصيف الروماني المتجه من صلخد شرقاً ، ثم الكتابات الصفوية الكثيرة ، وفي وسط هذه الحرة أنشئت في عهدنا إحدى محطات أنابيب النفط العراقية ورقمها (حيفا ٥) = اجفايف ، كما أنشئ طريق معبد بالزفت أحسن تعبيد وأمتنه ، ممتد بين حيفا والرطبة . قال ياقوت في معجم البلدان : الحرة ذات حجارة سود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار ، والجمع : الحرات . والحرات بين دمشق والمدينة كثيرة عد منها ياقوت ثماني وعشرين ، منها حرة الراجل هذه . قال النابغة :

يؤم بربعيّ كأن زهاءه إذا هبط الصحراء حرة راجل

وأما **وادي السرحان** فهو واد طويل عظيم ، يعد جغرافياً من بلاد الشام وإن كان الآن في أقصى الشمال الغربي من الحدود السعودية وفي جنوبي حرة الراجل ، وهو كثير الآبار ، لا يظمأ مرتاده ، وكثير الملح في مماله المعروفه بالقريات ، وهو ينسب إلى عشيرة السرحان التي كانت أقوى عشائر حوران في القرن العاشر الهجري ، ثم اضمحلت إلا بقية باقية منها في شرقي إربد من أعمال شرقي الأردن ويقال أن اسمه كان قبلاً وادي الأزرق ، وإنما اكتسب هذا الاسم بعد أن احتلته السرحان ، وأكثر أراضيه سوداء مثل حلك الغراب ، بركانية الأصل والتركيب وكلها أوعار وحرار ، وقد نسب إلى السرحان وهو الذئب ، لأن الأعراب يتوهمون أن الذئاب تكثر فيه . وفي وادي السرحان : ناحيتان يتبعهما عدد من القرى ، الأولى : ناحية القريات (قريات الملح) في شمالي وادي السرحان ، وهي تصغير قرية وأضيفت إلى الملح ، لأن فيها في قرية كاف ملاحات طبيعية ، وهي عدة واحات من النخيل في كل منها عدة بيوت قروية من اللبن ، وأجل هذه الواحات : كاف فأثرة فمنوة .وفي كاف ما يزيد على عشرين ألف نخلة يرتزق أهل

القريات منها ومن الملح الذي يستخرجونه من ملاحاتها وينقلونه إلى حوران وشرقي الأردن على متون الزوامل ويبادلونه بالقمح وغيره .

والثانية ناحية الجوف ؛ وهي : ناحية في أقصى جنوبي وادي السرحان ، كان اسمها في صدر الإسلام دومة الجندل ، وهي تقع في غور من الأرض ، تحدق بها الهضاب والآكام ، ومن هنا كان تسمية البدو لها بالجوف ، وأهم قراها سكاكة ، وهي المدينة الرئيسية وسط منطقة زراعية كبيرة واقعة إلى شمالي النفود على رأس وادي السرحان ، وموقعها الجغرافي منهم لوقوعها على الطريق المباشر ما بين بلاد الشام ومنتصف الجزيرة العربية ، وهي ممر القوافل والقبائل إلى الشام منذ أقدم العصور .

والإنكليز والإفرنسيون حينما تقاسموا النفود في هذه البادية جعلوها : قسمين ومدوا بينهما خطاً وهمياً يبدأ من قرب دير الكهف في جنوبي جبل الدروز ويسير نحو الشمال الشرقي في خط سويّ حتى بلدة أبي كمال على الفرات ، فما كان في شمالي هذا الخط وغربيه فهو : للشام ، وما كان في شرقيه فهو : للعراق ، ويتفرع من هذا الخط : خط سوي آخر نحو الجنوب الشرقي من نقطة قرب جبل التنف (على طريق سيارات دمشق بغداد) إلى أن يبلغ جبل عنازة ، فما كان شرقي هذا الخط فهو : للعراق ، وما كان في غربيه فهو : لشرقي الأردن . أما ما امتد في جنوبي جبل عنازة حتى النفود وما بعدها فهو : للمملكة السعودية . هذا في الشامية ، أما في الجزيرة فالحد بين الشام والعراق يسير من أبي كمال شمالاً على خط سويّ فيخترق ممالح الروضة فوادي العجيج فتل صفوق فتل خليل فتل رحولي ، وهذه التلال غربي جبل سنجار ، ثم ينعطف نحو الشرق الشمالي إلى محطة تل كوشك ، ومنها إلى فشخابور فجزيرة ابن عمر على الدجلة ، حيث يلتقي بالحدود التركية الذاهبة غرباً نحو نصيبين ورأس العين وجرابلس ، إلا أن هذا التحديد والتقسيم لم يكن متعادلاً ، ولم تسمع فيه كلمة العشائر وتراع حقوقهم وما تعارفوا عليه .

وليس في هذه البادية أثر للرمل ؛ اللهم إلا شيء قليل في غربي تدمر قرب عين البيضاء في وادي الرمل ، وفي شرقي تدمر حول بعض الأودية والسباخ كملحة تدمر التي ذرعها ١٢ كيلو متراً في مثله وكسبخة التليلي وسبخة المنبطج . وأما تربتها فرملية كلسية بيضاء أو صفراء دمثة مختلطة بقسم غير يسير من التراب النباتي ، فإذا نالها نصيب من

المطر اهتزت وربت وأنبتت كثيراً من الأعشـاب والجنبـات التي تستسيغهـا الغنم والإبـل وترعاها ، لأجل هذا يخطيء من يظن أن بادية الشام فلوات رملية كدهناء نجد أو تهامة الحجاز واليمن ، بل هي كما قدمنا أشبه بالسهوب المعاشيب التي في أنحاء روسية الجنوبية مما يدعوه الأوروبيون « استب steppe » .

الإقليم :

يسود هـذه البـاديـة إقليم صحراوي عبـوس قـاس ، ففيـه مـوسمان ؛ الصيف ذو الحر الشـديـد ، والشتـاء ذو البرد الشـديـد ، يفصـل بينهما مـوسمان قصيرا الأجـل همـا الخريف والربيع ، فالشتاء يبدأ من كانون الأول ، وينتهي في آذار بحرارة درجتهـا العظمى بين ١٦ و ٢٠ والصغرى بين ـ ٢ و ـ ٧ ، وفي بعض السنين يقرس البرد جـداً ، وتزداد قسوة الشتـاء على البدو فينالهم منه العناء العظيم ، وقد يهطل الثلج قليلاً في بعض السنين ، وفي مـا نـدر منها يهطل بشدة . ففي سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) وكانت سنة عصيبة في البادية والحاضرة بقي الثلج الغزير غامراً البادية كلها نحو أسبوعين وأهلك وقتئذ كثيراً من الإبل والغنم ورغم أسنمتها وألايـاهـا . وفي سنـة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) ظلت محطـة الرطبـة التي هي في وسـط الحماد مغمورة بالثلج بضعة أيام ، أما الأمطار فتهطل من تشرين الأول وتشرين الثاني إلى نيسـان بكميـات قليلـة لا تـزيـد عن المئتي ميليمتر في القسم الأول الغربي من البـاديـة (الشاميـة) ولا عن المئـة ميليمتر في القسم الثـاني الشرقي (الحمـاد) ، وربمـا جـاوزت هـذه الأرقام في ما ندر من السنين[1] .

وعند هطول المطر سرعان ما تبتلعه تربة البادية الرّخاء العطشى ، وتجـذبـه الشقوق البعيدة التي في أجوافها ، وتهطال المطر غير مطرد ، فهو إما أن يقع فجأة وبغزارة وروعة تدومان بضعة أيـام ، وإمـا أن ينقطع عـدة أسـابيع ، وقـد يكون لـه دورتـان ؛ الأولى في أواخر تشرين الثـاني وأوائـل كانـون الأول ، والثـانيـة في كانـون الثـاني حتى أوائـل آذار ، وبينهما فاصلة ، وإذا ولى نيسان لا يعد للأنواء أثر .

---

(١) معدل كميات الأمطار في دمشق ٢١٧ وفي سلميـة ٣٨٠ وفي حلب ٤٢٣ وفي السـويـداء ٣٢٥ وفي دير الزور ١٤٤ وفي تدمر ١١٦ وفي محطة تي تري ١٥٧ وفي محطة تي فور ١٢٣ وفي جرابلس ٢٤٤ وفي الرقـة ١٦٧ وفي الحسجـة ٢٨٢ وفي القامشلية ٣٢٤ ميليمتراً .

والظاهرة الجوية الوحيدة في اطرادها هي (الرياح) ، والغالبة منها في الشتاء هي الشرقية ، وفي الربيع الغربية ، والرياح الشرقية الجنوبية هي التي تجلب الغيث في فصل الشتاء ، وإذا مالت نحو الشمال الغربي تتبدد الغيوم ، ويعود الصحو بسرعة ، والرياح الشرقية الجنوبية حارة ، والغربية والشمالية باردة وقارسة ، والضباب يقل حدوثه في دير الزور ، ويكثر في الحسكة ، وكذلك الصقيع الذي يفترش الأرض صباحاً ، والخريف معتدل إلا أنه قصير الأمد ، فيحل الشتاء فجأة دون حالة انتقالية ، ومثله الربيع الذي يفاجئه الصيف .

وإقليم البادية شديد الحر في الصيف ، وهذا الفصل يبدأ من أيار ، وينتهي في إيلول ، بحرارة درجتها العظمى في شهر تموز وآب في دير الزور ٤٦° ـ ٤٨° ، على أن معدلها خلال عشر سنوات ٤٣ ، أما عند البدو وتحت بيوت الشعر فتصل إلى ٥٥ ، وإذا سكن الريح يصبح المكوث في هذه البيوت مزهقاً للأنفس ، وإذا اشتد الريح يثير الغبار ، ويزعج المقام ، فهو قلما يكون رهواً عليلاً ، فالطبيعة في البادية دائماً إما في إفراط وإما في تفريط شأن أهلها .

والفرق بين حر النهار وبرد الليل في الصيف والشتاء لا يكون ذا بال ، بينما هذا الفرق في فصلي الربيع والخريف يكون كبيراً ومخيفاً يبلغ أحياناً ٣٠° درجة . ومن هنا كان هذان الفصلان أسوأ الفصول في البادية من الناحية الصحية وتؤدي الأمراض الحادثة من جرائه إلى وفيات عظيمة في أطفال البدو .

أما الإعصار والزوابع الرملية التي تثور في البادية بين السماء والأرض ، وتستدير كأنها عمود شاهق الارتفاع ، وتهيج الغبار والتراب ، فهي حقاً ظاهرة جوية مزعجة ، ومن أروع مشاهد الطبيعة التي تقض المضاجع ، تراها مقبلة من جوف الصحراء أو قلب الوادي ، وتكاد تشبه بادئ ذي بدء الخط المرسوم في الأفق ثم ترتفع في الجو ، وتتضخم ويشتد دفعها ، فتعصف ما مرت به من تراب وغبار وتديره في الأرض وتصعده في الهواء وتلتوي في هبوبها ، فتحمل حلزونات عظيمة ، تختلف ألوانها حسب لون التراب والبقاع التي صدرت عنها ، وهي تحصبها وترفعها من عشرات الكيلومتر ، وتظهر كأنها الجدار السامي إلى عنان السماء ، تعلو وتتحرك وتتقدم ، وبعد برهة وفجأة تكتنفك وتغرقك في

سحابـة سوداء حمراء قتماء مكفهرة مضيئـة ، لا حيلـة لـك وأنت في ذلـك العراء أن تجتنب هولها وويلها وتسمع وقتئـذ خشخشـة حبـات الرمل وصـدى احتكاكهـا بـاستمرار وهيـاج ، وتبصر ذرات التراب الناعمة ينـاطح بعضهـا بعضـاً ويموج ، وتلطم هـذه الحبـات والـذرات الـوجـوه لطم السيـاط ، وتجفف الحلـوق ، وتـزهـق النفـوس ، ويعمي الغبـار المتصـاعـد العيون ، وتهيم الحيوانـات على وجوههـا ، فـما عليـك وقتئـذ سوى الانبطـاح وراء مطيتـك والتدثر بالعباءة ولف الرأس بالكوفية والدعاء بأن يتداركك ربك بلطف من رحمته ، فإذا انقضت هذه الداهية الدهماء ، وانقشع قتـامهـا وغبـارهـا ،وعـاد إلى العقول صوابهـا ، تخـال نفسك قد خرجت من الظلمـات إلى النور ، بينـما أنت لاتزال وسـط السهل الـذي يعود إلى إشراقه وعمقه ، وتلمح في الأفق القصي المصفر المغبر كيف تُدبر تلك العاصفة الهوجـاء وتبعـد وتضمحل .

ومن أقام في دير الزور وأمثالها من بلدان الفرات يعرف قدر هذه الزوابع والعواصف بعلائمها وأفاعيلها ؛ فهنالـك بينـما ترى السوق مفتوحـاً والنـاس في بيعهم وشرائهم إذ يخفون سراعاً لإغلاق الحوانيت ، فيقبعون فيهـا أو في دورهم ، ويغلقون الأبواب والنوافـذ ، وتقفر الشوارع من المـارة ، فـإذا هبت الزوبعـة تنحجب الشمس ، ويتلون الجو بلون أسـود قـاتم وأحمر متـأجج ، ثم بلون أصفر ولا يبرح في هـذه الألوان والظـلام حتى تخف الـوطـأة بعـد ساعة أو ساعتين أو أكثر أو أقل ، ويعود إلى لونه الطبيعي ، فيخرج النـاس من ملاجئهم ، كأنهم انقلبوا من الظلمات إلى النور أو كأنهم أصيبوا بغارة جوية شنعـاء ، فيرون أرض الـدور والغرف ، قـد ملئت بـالغبـار والرمل النـاعم مهما أحكموا إغلاقهـا ، لأن الغبـار يـدخـل من كوى المدافئ وثقوب المفـاتيح ، وهم يسمون هـذه الزوبعـة (عجـة) تصغير كلمـة عجـاجـة الفصحى . أمـا عـواصف الغبـار العـاديـة فهي كثيرة في البـاديـة ، وهي ترفـع كل شيء وتغمره ، حتى أنها تدخل في الطعام والأثاث والخياشيم ، وتحرم لذة الطعام والنظافـة وحتى النوم في بعض الليالي . فالبادية على الجملة لاتصلح للإقامـة إلا في شهري الخريف (تشرين الثـاني وكانون الأول) والربيـع (آذار ونيسـان) ، لأن الإقليم شـديـد وقـاس والمـاء قليـل ورديء ، ومرارة الحياة غير يسيرة لمن لم يعتادها من أبنـاء الحواضر ، لايعيش فيهـا إلا كل أخي غمرات صابر على النكبات ، ومن كان حليف الجوع والعطش ذا صحة لاتختل وعزيمة

لاتفتر ، وإذا توغلت فيها فهناك المشاق والمصاعب بعضها ينسيك بعضاً[1] ويلزمك بعضها لزام الظل ، فيوماً ترتشف الماء العكر من الموحلات في قعور الآبار والخباري ويوماً تكاد تهلك من الظمأ تحرقك في النهار شمس الهاجرة ، وتتألم في الليل من شدة البرد ، وإذا كان الأمن مختلاً لاتأذن ربعك بشب النار خوف أن يهتدي إليكم اللصوص . وهكذا ...

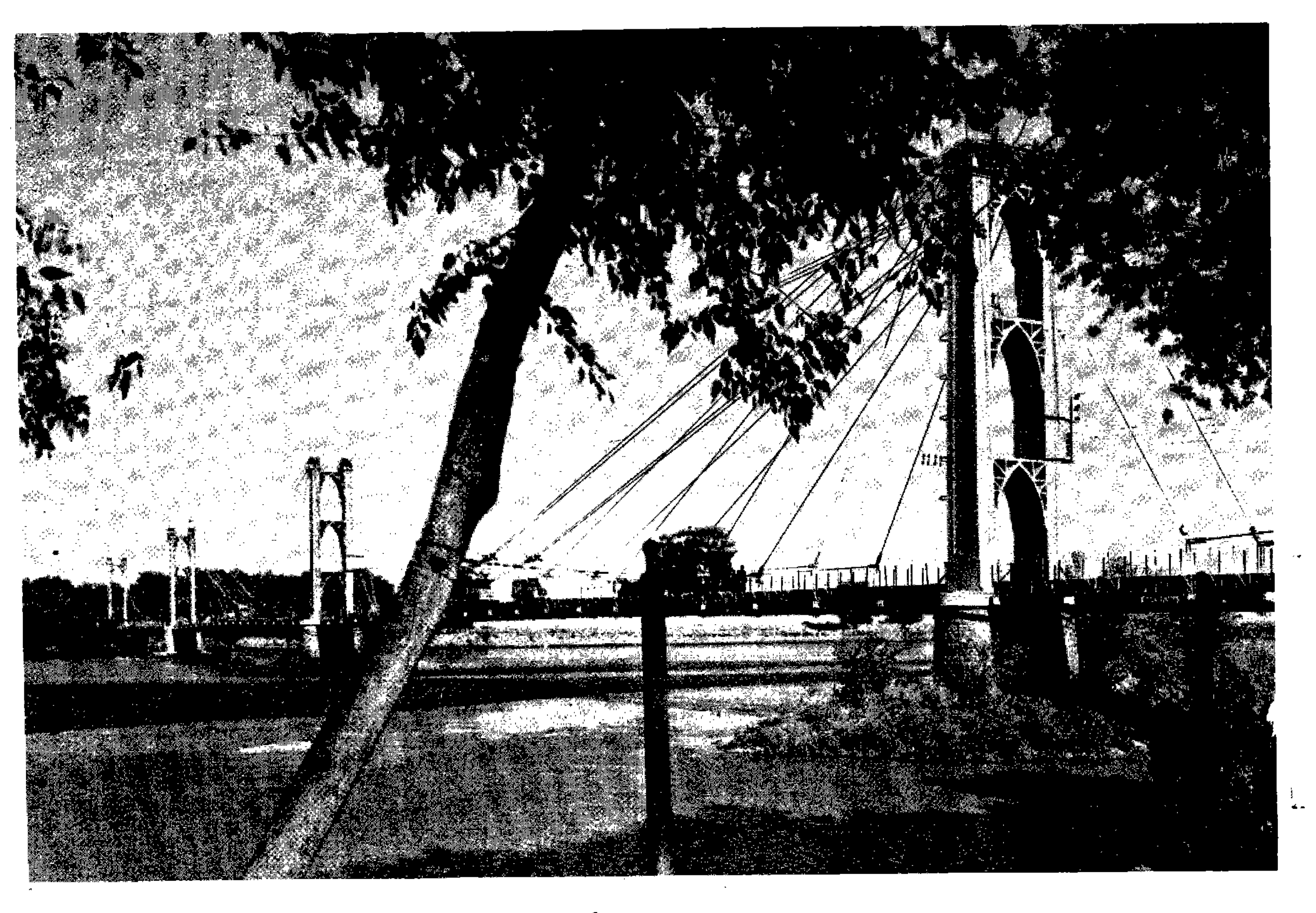
النجعة :

إذا حل فصل الخريف يغادر البدو منازلهم في المعمورة ، ويشرعون بنجعتهم نحو البادية طلباً لكلائها ، فيظعنون رويداً رويداً وزرافات زرافات ، وينتقلون من بئر إلى بئر ومن مرعى إلى مرعى ، ويمعنون كلما توالى المطر الموسمي ، واهتزت الأرض وأعشبت ، وإذا جاء فصل الشتاء ، وهطلت الأمطار في إبانها ، وتتابعت على المحمود من أنوائها ، ولم تشذ عما يطاق من قرها وبردها ، تخضر البادية اخضراراً جميلاً ، وتغدو بقعة أريضةً بهجةً ، وتكتسي بأنواع النباتات والأعشاب ، فترتع فيها الإبل والغنم وتلد بكثرة ، وتمتلىء الغدران (جمع غدير) والخبارى (جمع خبرة) والخرايج (جمع خريجة) وهي شبه المستنقع والعقلات (جمع عقلة) وهي بئر قليلة العمق يمكن حفرها بأبسط الأدوات حتى بالصاج المعد لخبز الخبز . وإذا جاء فصل الربيع وحسن وروده وازدهت رياحينه وورده ، يعلو ثغاء الحملان ويدوي صوت مخض الألبان ، وينساب البدو ، ويوغلون في نجعتهم إلى (قلب الحماد) يتتبعون مساقط الغيث ومخاوض الخبارى ، ومنابت الكلأ وملاجئ الدفء ، ويطيلون أمد النجعة كلما أخصبوا وأمرعوا وارتووا من الماء وطاب المقام والعيش الرخي ، وكثرت الكمأة وقلعتها نساؤهم وطبختها .

وكلما تتابعت أمطار الشتاء والربيع وزخر الماء في الخبارى و (الوديان) عم الفرح مضارب البدو ، وطفح البشر والاغتباط على وجوههم ، فيشبعون ويسمنون هم وماشيتهم وتكثر الأعراس والولائم عندهم ، ويعكف بعضهم على الصيد والقنص بقصد اللهو والأنس ،

---

(١) قيل لأعرابي كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله ، فقال وهل العيش إلا ذاك ، يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمان ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى (عن المحاسن والأضداد) .



جسر الفرات في دير الزور

وهم كلما أمعنوا في التشريق أو النجعة ، متعوا نواظرهم ببهيج المناظر المتعددة المتجددة ، واستنشقوا الهواء النقي الفياح بأريج العرار والخزامى والشيح والقيصوم وغيرها من زهور البادية وعطورها ، مما جعلهم يؤثرون ربيع البادية على ملاهي الحاضرة ، وهم لهذا كله ، ولتبدل المناظر أمامهم كل حين عديمو الحاجة لمسارح الحواضر ومباهجها ، ذكر المقدم مولر في كتابه (في الشام مع البدو) أن مزيد بن قعيشيش شيخ ضنأ ماجد (الخرصة) من الفدعان وعقيدها المغوار في الحرب المتوفى في سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) كان قد أتى مرة إلى حلب في سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) فدعاه أحد ضباط مراقبة البدو الفرنسيين ذات ليلة إلى سهرة حافلة في أحد بساتين حلب وزين البستان بالأنوار والأزهار والأطعمة والأثمار وكل وسائل اللهو والطرب ، وبعد أن مكثوا مدة وأخذوا من الحظ عُدّة سأل الضابط الشيخ مزيد ، وقد وجده ساهماً في الجلسة كلها غير آبه لشيء كأنهم في واد وهو في واد « كيف وجدت ليالي حلب يا شيخ مزيد » فأجابه « كلها زين وما عملتوه الليلة زين ولكن بريتنا في الربيع أكثر زينة ومتعة » .

ورَحم الله الأمير عبد القادر الجزائري المتوفى في سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) فهو لما كان في فرنسا جرى بين طائفة من أدبائها مناظرة في أي المعيشتين أفضل ؟ معيشة البدو أم معيشة الحضر ، ثم طلبوا رأي الأمير في ذلك ، فنظم لهم قصيدة غراء جديرة بالاقتباس هنا ، إذ لم أجد في شعرنا القديم والحديث أبدع منها تمثيلاً لحياة البادية ومحاسنها ووصفاً لشغف البدو وتفضيلهم إياها على حياة الحضر ومساويها ، قال :

ياعاذراً لامرئ قد هام في الحضر	وعازلاً لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتاً خف محملها	وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني	لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً	بساط رمل به الحصباء كالدرر
أو جلت في روضة قد راق منظرها	بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقنّ نسيماً طاب منتشقاً	يزيد في الروح لم يمرر على قذر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه	علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها	سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر

فيـــالهـــا وقفـــة لم تبـق من حـزن | في قلب مضنى ولا كـــد لـــذي ضجر
نبـاكر الصيـــد أحيـــانـــاً فنبغتـــه | فــالصيـد منـا مـدى الأوقـات في ذعر
فكم ظلمنـــا ظليمـــاً مـع نعـــامتـــه | وإن يكن طـــائراً في الجـــو كالصقر
يـوم الرحيـل إذا شـدت هـوادجنـــا | شقـــائـق عمهـــا مـــزن من المطر
فيهـا العـذارى وفيهـا قـد جعلن كـوى | مرقعـــات بـــأحـــداق من الحـــور
تمشي الحـــداة لهـــا من خلفهـــا زجـل | أشهى من النـــاي والسنطير والـــوتر
ونحن فـوق جيــاد الخيـل نركضهـــا | شليلهـــا زينـــة الأكفـــال والخصر
نطـــارد الـوحش والغـزلان نلحقهـــا | على البعـــاد ومـــا تنجـو من الضمر
نروح للحي ليـلاً بعـــد مـــا نـزلـوا | منـــازلاً مـــا بهـــا لطـخ من الـوضر
ترابهـــا المســك بـل أنقى وجــاد بهـــا | صـــوب الغمائم بــــالآصـــال والبكر
نلقي الخيــام وقـد صفت بهـــا فغـدت | مثـل السماء زهت بـــالأنجم الـزهر
قــال الأولى قـد مضـوا قـولاً يصـدقـه | نقـل وعقـل ومـــا للحـــق من غير
الحسن يظهر في بيتين رونقـــــــه | بيت من الشعر أو بيت من الشعر
أنعـــامنـــا إن أتت عنــد العشى تخـل | أصـواتهـــا كـدوي الرعـد بـــالسحر
سفـــائن البر بـــل أنجى لراكبهـــا | سفـــائن البحر كم فيهـــا من الخطر
لنــــا المهـــارى ومـــا للريم سرعتهـــا | بهـــا وبـــالخيـل ذللنـــا كل مفتخر
فخيلنـــا دائمـــاً للحرب مسرجـــة | من استغـــاث بنـــا بشره بـــالظفر
لانحمـل الضيم ممن جـــار نتركـــه | وأرضـــه وجميـــع العـــز في السفر
وإن أســـاء علينـــا الجـــار عشرتـــه | نبين عنــــه بـــــلا ضر ولا ضرر
تبيت نـــار القرى تبـدو لطـــارقنـــا | فيهـــا المـــداواة من جـوع ومن خصر
عـــدونـــا مـــالـــه ملجـــأ ولا وزر | وعنـــدنـــا عـــاديـــات السبـق والظفر
شرابهـــا من حليب لايخـــالطـــه | مـــاء وليس حليب النـــوق كالبقر
أمـــوال أعـــدائنـــا في كل آونـــة | نقضي بقسمتهـــا بـــالعـــدل والقـــدر
مـــا في البـداوة من عيب تـــذم بـــه | إلا المروءة والإحســـان بـــالبـــدر
وصحـــة الجسم فيهـــا غير خـــافيـــة | والعيب والـــداء مقصـــور على الحضر
من لم يمت عنـدنـا بـالطعن عـاش مـداً | فنحن أطـــول خلـــق الله في العمر

ورحم الله أمير الشعراء شوقي حيث يقول :

أكنت من الـــدور أو القصـــور	ترى هـــذه القبـــة الصـــافيـــة ؟
كأن النجــوم على صـــدرهـــا	قـلائـــد مـــاس على غـــانيـــة
فمـــا (البيـــد) إلا ديـــار الكرام	ومنزلـــة الـــذمم الـــوافيـــة
لهـــا قبلـــة الشمس عنـــد البزوغ	وللحضر القبلـــة الثـــانيـــة

ولكن مـا أن ينتهي فصـل الربيـع وتنقطـع الأمطـار ولا سيا إذا لم تبلـغ الكميـات السنوية التي ذكرنـاهـا (٢٠٠ مم في الشـاميـة و ١٠٠ مم في الحمـاد) ، حتى يـذوي العشب ويقل المرعى وتجف مياه الخبـارى والأوديـة ، ومـا أن يشتـد الحر في شهر أيـار حتى يكلح بسيط البادية ، وينقلب كئيباً يبعث الانقبـاض ، وتبرز أرض الجوع والعطش التي لا يعـد فيهـا اخضرار ، ولا ينبض مـاء ، ولا يحلـو العيش . لهـذا يشرع البـدو منـذ أواخر نيسـان وأوائل أيار بالرحيل والرجوع نحو المعمورة رويداً رويداً ، يسيرون زرافـات زرافـات إلى حيث يجدون مجالاً للعل والنهل من الآبار فيقيمون حول كل بئر مـدة ثم ينتقلون إلى غيره ، فإذا اقتربوا من المعمورة وقفوا عند حـدودهـا ، وخيموا في الأمـاكن الكافيـة لرعي مواشيهم وشربها ، وترقبوا انتهاء موسم الحصاد في القرى ، ومن ثم يقصدون منـازلهم التي اعتـادوا أن يقيظوا فيها ويستقروا ، فيبقون خمسة أو ستـة أشهر ثم يعودوا للنجعـة وهكـذا دواليـك في كل عام . أمـا إذا جـاءتهم أعوام مـاحلـة فـأجـدبت الأرض ، وشحت السماء ، ونضب معين الماء ، أو كلب البرد ومات الحلال ، من الجوع والعطش حينئذ يركبهم الجهـد أي ركوب ، ويخيم عليهم البـؤس وضنـك العيش أي إخنـاء ، كما أدركنـا بعضـه في سني (١٩٣٢ م - ١٩٣٥ م) . وفي كتاب المحاسن والمساوئ (ج ٢ ص ٩٩ طبعة ليبزيغ) وصف لهـذه الحـالـة مابرح ينطبق على أعراب البادية في سني القحط والشدة ، رأينا من المناسب درجه هنا .

قال زياد لغيلان بن خرشة : أحب أن تحدثني عن العرب وجهدها وضنك عيشهـا ، لنحمـد الله على النعمـة التي أصبحنـا بهـا ، فقـال غيلان : حـدثني عمي قـال : توالت على العرب سنــون تسـع في الجـاهليـة حطمت كل شيء ، فخرجت على بكر لي في العرب ، فمكثت سبعاً لا أطعم إلا ما ينال منـه بعيري ، أو من حشرات الأرض فشـددت على بطني

حجراً من الجوع ، حتى دفعت في اليوم السابع إلى حواء[١] عظيم ، فإذا بيت جحش[٢] عن الحي فملت إليه ، فخرجت إلي امرأة طوالة حسانة[٣] فقالت من ، قلت طارق ليل يلتمس القرى ، قالت لو كان عندنا شيء لآثرناك ، والدالّ على الخير كفاعله ، حسّ[٤] هذه البيوت ثم انظر إلى أعظمها فإن يك في شيء منها خير ففيه ، ففعلت حتى دفعت إليه ، فرحب بي صاحبه وقال من ؟ قلت : طارق ليل يلتمس القرى ، فقال : يافلان ، فأجابه ، فقال هل عندك طعام ؟ فقال لا ، فوالله ما وقر في أذني[٥] شيء كان أشد علي منه قال : هل عندك شراب ؟ قال : لا ثم تأوه فقال : قد بقينا في ضرع الفلانة[٦] شيئاً لطارق إن طرق ، قال : فأت به فأتى العطن[٧] فابتعثها فما سمعت شيئاً قط كان أشد من شخب تيك الناقة في تلك العلبة ، حتى إذا ملأها وفاضت من جوانبها ! وارتفعت عليها رغوة كجمة الشيخ ، أقبل بها يهوي نحوي ، فعثر بعود أو حجر فسقطت العلبة من يده فما أصبت بمصيبة أفزع لقلبي ولا أعظم موقعاً عندي من انكفاء تلك العلبة على مثل تلك الحال التي كنت فيها ، فلما رأى ذلك رب البيت ، خرج شاهراً سيفه فبعث الإبل ، ثم نظر إلى أعظمها سناماً ، ودفع إليه مدية ، وقال يا عبد الله اصطل واحتمل ، فجعلت أهوى بالبضعة[٨] إلى النار فإذا بلغت إناها[٩] أكلتها ثم مسحت ما في يدي من إهالتها[١٠] على جلدي ، وقد كان قحل[١١] على عظمي حتى كأنه شن[١٢] ، ثم شربت شربة ماء ،

---

(١) الحواء : جماعة البيوت المتدانية وجمعها حوية

(٢) جحش : تنحى وأبعد عن البيوت

(٣) حسانة : حسناء

(٤) حس : تعرف أحوالها .

(٥) وقر : ثقل

(٦) الفلانة والفلان بالتعريف كناية عن غير الآدميين

(٧) العطن : مناخ الإبل حول وردها

(٨) البضعة : القطعة من اللحم

(٩) بلغ إناه : نضجه وأدركه

(١٠) الإهالة : الشحم وما أذيب منه

(١١) قحل : يبس

(١٢) الشن : القربة الخلق الصغيرة

وخررت مغشياً علي ، فما أفقت إلى السحر ، وقطع زياد الحديث وقال : لا عليك ألا تخبرنا بأكثر من هذا فمن المنزول به قلت : عامر بن الطفيل .

الحيوان والنبات :

أما الحيوان في البادية فقليل . منه بعض أنواع الحجل الأرقش والأحمر ، والكدري[1] والدراج[2] وهي تكون في ضفاف الأودية ، وثمة في بعض الهضبات العالية القطا الشديد الطيران[3] والحبارى الكبيرة المتوجة الطويلة العنق والذنب[4] والتي تنشد في الصيد كثيراً ، وثمة الطيور الجوارح كالنسور والعقبان والصقور والبزاة والرخمة والحدأة ، وهذه الطيور الجوارح تتعارك مع بنات آوى والذئاب وتنازعها الجيف وأشلاء الحيوانات المائتة . وفي البادية حول سقي الفرات والخابور والبليخ كثير من طيور الماء ، وكثير من الدراج والحجل والسماني والأوز والبط والطير المسمى صياد السمك ، وفي البادية أسراب الغزلان السارحة التي تختلف قليلاً بين الجزيرة والشامية ، وفيها الوعول[5] في جبل الرواق غربي تدمر ، وبنات آوى والثعالب قرب الأودية ، والأرانب في موقع الخور جنوبي الدير ، والخنازير البرية في الجزيرة في بحيرة الخاتونية وفي وادي الفرات وجبل البلعاس وجبل عبد العزيز ، وفي هذا الجبل أيضاً الأروية[6] وفي البادية أنواع عديدة من الضباب ذات الأذناب المعقدة واليرابيع القصيرة اليدين والطويلة الرجلين ، والسوام أبرص ذات الأطوال المختلفة التي تتراوح من خاتم سليمان إلى الأوزاع التي طولها ٦٠ ـ ٧٠ سنتيمتراً والعقارب ذات السم القليل والعظاء والحرباء وأم حبين وغيرها . وفي البادية من الحيوانات

---

(١) الكدريّ ضرب من القطا غبر الألوان رقش الظهور صفر الحلوق والضربان الآخران من القطا هما الجوني والغطاط .

(٢) الدراج طائر يطلق على الذكر والأنثى جميل المنظر ملون الريش .

(٣) القطا طائر في حجم الحمام صوته قطاقطا شديد الطيران ، ومن أمثال العرب « هو أهدى من القطا » .

(٤) الحبارى ويضرب به المثل في البلاهة والحمق يقال هو أبله من الحبارى وكل شيء يحب ولده حتى الحبارى قيل لها ذلك لأنها إذا غيرت عشها ذهلته وحضنت بيض غيرها ، وهو طائر كبير أغبر اللون بقدر الأوز أو أكبر لذيذ اللحم .

(٥) الوعل هو تيس الجبل والجمع وعول له قرنان قويان منحنيان إلى الوراء

(٦) الأروية بضم الأول وكسره تقع على الذكر والأنثى جمعه أراوي وأروى على غير قياس . وفي معجم الحيوان لأمين المعلوف أن الأروية هي من الضأن الجبلية ، لأن لها صوف متدلي من أعناقها بينما الوعول ليس لها مثل هذا الصوف .

الضارية بعض الفهود والسنانير البرية والوشق ، وعدد ضئيل من عناق الأرض الذي يقول البدو أنه يأكل الموتى ، وكل هذه الحيوانات مع بعض الذئاب الشهب تقترب من الأودية وتهجر الهضاب ، وتكثر الذئاب في الجزيرة وقد تسير كالقطعان وتهاجم إذا جاعت ، وليس في الهضاب سوى عدد ضئيل ومبعثر من الحبارى والثعالب والقطا والغزلان ، وفي أقصى جنوبي الحماد قرب النفود يعثر على قليل من طير النعام وهو يكاد ينقرض كانقراض الغزلان من كثرة مطاردتها بالسيارات دون شفقة ولا رحمة ، وقد انقرض قبلهما الأسد من سقي الفرات ، قيل منذ سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) بعد أن كان يأوي في الأكثر إلى غابات الطرفاء بين الدير والسبخة .

وجو البادية جاف وأمطارها قليلة كما قدمنا ، وهذا ما جعل لها أعشاب خاصة بها ، جلها غث وقصير القامة ، أما الشجر العظام فلا ترى لها أثراً إلا في غيطان قرى المناظر كتدمر والسخنة والقريتين ، ففيها تنمو كل الأشجار المثمرة التي تعيش في بقية المدن الشامية حتى الزيتون ، والشجر غير المثمر ينمو أيضاً في جبال البادية التي غربي تدمر وشماليها ، ويؤلف غابات لو تركت وحفظت لصارت كثيفة كما هو الحال في جبل البلعاس وجبل شاعر وجبل أبي الظهور وغيرها ، وهذا الشجر هو البطم الذي يستخرج أهل السخنة من ثمره زيتاً شهياً ، ويقطعون حطبه ، ويحرقون فحمه وهم بذلك يكادون يبيدونه . أما النباتات الغثة القصيرة القامة ، فمنها بعض النباتات المعمرة ، يصادفها السائر في التلال وفي قعور الأودية ، والبدو يدعونها شجراً فكل نبت معمر عندهم شجر نذكر منها : الروثة والحمض التي تحبها الإبل حباً جماً في الخريف ، أما في الربيع فتفضل عليها الفليفلة (وهي غير الفليفلة المعروفة في المدن) مازالت هذه خضراء ، ثم يأتي بعدهما القصقاص والشعران والشيح والقيصوم والرمث والعجرم والغسلة والعبيرة والنتل وغيرها . فالروثة حامضة تقوم للإبل مقام التوابل وهي والرمث[1] وكذلك الشيح والقيصوم اللذان لهما عرف شذي تعبق

---

(١) وفي المخصص لابن سيده ، الحمض من النبات ما كانت فيه ملوحة والخلة ما سوى ذلك . وقيل الخلة ما كانت فيه حلاوة ، والعرب تقول الخلة خبز الإبل والحمض لحمها أو فاكهتها وإنما تحول إلى الحمض إذا ملت الخلة وليس شيء من الشجر العظام بحمض ولا خلة ، وعن أبي حنيفة كل ما ملح من الشجر كله وكانت ورقته حية إذا غمزتها انفقأت ماء وكان ذفر الريح ينقي الثوب إذا غسل به واليد فهي حمض والمرعى كله عشباً كان أو شجر خلة وحمض . وقال كل بلد لايكون فيه حمض فهو عذى ، والإبل العواذي التي لا ترعى الحمض . قلت ومن الغريب أن يعد المخصص كثيراً من نباتات الحمض ، ولا يذكر الروثة الشهيرة بحب الإبل لها ولم يتعين لنا الاسم الذي قد =

منه البادية ، أحب المرعى للإبل لأنها تسمن وتغني من جوع . أما النباتات السنوية التي تسمى (العشب) فهي القبا الذي يحبه الغنم كثيراً والصمة والخافور والعادان والبخاتري والعظم والكريطة والشكارة والحمصان والديدحان والحروت والشلوة والخمية والحربق والقورب والربيان والنصي والجرجير وغيرها مما يطول شرحه ، وهذه النباتات العشبية تنشأ في كانون أو شباط ، وتجف في نيسان ، وهي تنمو في منحدرات الآكام وسفوح الجبال ، وتعد من أجود مراعي الغنم .

والبدوي إذا ارتاد أو وصف أرضاً مخصبة لايبدأ إلا بذكر الأعشاب الطيبة كما كان يفعل البدوي الجاهلي ، فقد روي أن أعرابياً وصف أرضاً أحمدها فقال خلع شيحها وأبقل رمثها وخضب عرفجها واتسق نبتها ومعنى قوله خلع شيحها أي أورق وخضب عرفجها أي اسود لخضرته ، واتسق نبتها أي تتام ، ومن الأعشاب التي تهيم بها الإبل النصي ، فما جاء في البيان والتبيين للجاحظ أن الأخوص بن جعفر بعدما كبر وعمي وبنوه يسوقون به الأباعر ، قال لهم « أي شيء ترتعي الإبل ؟ » قالوا الثمام والضغة ، قال « سوقوا » ثم عادت فارتعت بمكان آخر فقال « أي شيء ترتعي الإبل ؟ » قالوا نصياً وصلياناً . قال مكفية لرعائها ، مطولة لذراها ارعوا واشبعوا ، ثم سألهم « أي شيء ترتعي الإبل ؟ » قالوا الرمث قال خلقت منه وخلق منها .

وفي البادية من الأزهار الخزامى والعرار والأقحوان والحوذان والخربق وشقائق النعمان ، ومن نباتها الأشنان الذي يجمع البدوي منه مايقوم مقام الصابون ، وفي المخصص لابن سيده (ج ١٠ ص ١٧٧) عن لسان بدوي يصف بهجة الأرض إذا أخذت زخرفها وازينت : رأيت ببطن فلج منظراً من الكلأ لا أنساه ، وجدت الصفراء والخزامى تضربان نحور الإبل ، وتحتهما قفعاء وحربث قد أطاع وأمسك بأفواه الإبل ، وتركت الحوران ناقعة في الإرجاع . (الصفراء والخزامى والقفعاء والحربث أسماء نباتات) (وأما) أطاع فمعناه

= يكون أطلقه عليها ، ولم نعثر بين ما ذكرناه آنفاً وذكره هو إلا على القصقاص والشعران . والرمث والنصي . وفي أقرب الموارد : القصقاص ضرب من الحمض ، ضعيف دقيق ، أصفر اللون ، والشعران رمث أخضر ، يضرب إلى الغبرة ، والرمث مرعى للإبل من الحمض وهو شجر يشبه الغضا . قال المتنبي يصف ناقته : تركت دخان الرمث في أوطانه . والنصي نبت سبط من أفضل المراعي مادام رطباً ، فإذا ابيض فهو الطريفة فإذا أضخم ويبس فهو الحلى الواحدة نصية ،

بلغ غاية ما يراد منه ، وأما أمسك بأفواه الإبل فمعناه أغناها عن كل شيء ، وإذا أنقعت الحوران جمع حوار (ولد الناقة) في الأرجاع فذلك غاية ري الأرض لأن الأجارع (الأباطح) أشرب للماء ، قال : وبعث قوم رائداً ، فقالوا ما وراءك ؟ قال عشب تأد مأد موليّ عهد متدارك جعد كأفخاذ نساء بني سعد ، تشبع منه الناب ، وهي تعدو المتدارك قد لحق آخره بأوله . (التأد : الرطب ، والمأد : الذي ينثني من نعمته) .

وفي سقي الفرات وفي كل مكان قريب من الماء تكثر الأعشاب والأشجار . ومنها غابات كثيفة من شجر الدفلى والطرفاء ، وقد كانت الطرفاء فيما مضى أكثر عدداً والتفافاً من الآن ، وقد أدركت ذلك خلال الحرب العامة الماضية مابين قريتي السبخة ومعدان ، وفي الحوائج وهي الجزر الناشئة وسط الفرات أشجار الغَرَب بفتح العين والراء ، وفي ضفاف الفرات وحول عين الكوم نبات العرقسوس الذي يستخرج ويرسل لخارج بلاد الشام ، ونبات الينبوت الشائك ذو الجذور العمودية الطويلة وهو كثير وينفع للوقد .

التضاريس والجبال

بادية الشام هضبة مرتفعة عن سطح البحر من ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ متر ، وذلك في البراري الممتدة في شرقي دمشق وفي الحماد حتى الحدود العراقية وما يليها ، ومرتفعة أقل من ذلك أي من ١٠٠ ـ ٥٠٠ متر في البراري الشامية إذا جزت تدمر تريد ضفتي الفرات ، وفي براري الجزيرة إذا أردت ضفاف الخابور والبليخ والجغجغ ، وبراري الشامية في أنحاء دير الزور تؤلف نشزاً مرتفعاً ينحدر من الجنوب إلى الشمال نحو سقي الفرات المعروف (بالحاوي) ، ويقف هناك ببروز فجائي علوه عن مستوى الفرات ٨٠ ـ ١٠٠ متر ، ويكون هذا البروز أحياناً صخرياً وأحياناً منطقة مسايل متمعجة تمعجاً بليغاً .

وفي هذه البادية سلسلة من الأكمات والمرتفعات الجبلية ذات الصخور الكلسية الطباشيرية (الكريتاسة) تنشأ من قرب دمشق ، وتمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، لكن ليس لها اسم عام جامع بل أسماء لجبال فرعية منها كالجبل الشرقي الذي يبدأ من شرقي النبك والناصرية ، وكجبل النصراني الذي في جنوبي القريتين ، ومثله جبل حفير وجبل قطوس وجبل الباردة وجبل بصيري وجبل خنيزر وجبل الرواق وجبل أم جرن ، وربما شمل الجميع اسم (جبل الرواق) وهو أشهر الأسماء ، كما أن في وسط هذه

السلسلة : عيوناً ، كعين الباردة وعين الوعول وعين الخنازير وفيها بئر بصيرى وسد أثري عظيم اسمه سد الخربقة وسيأتي ذكره ، وفيها وادي الباردة الذي تنفذ منه عشائر حمص وحماة في طريقها إلى الحماد ، وهو بين جبل الباردة وجبل بصيرى .

وفي شمالي هذه السلسلة الأولى (سهل الدو) العظيم الذي قدمنا ذكره ، وفي شمالي سهل الدو سلسلة ثانية ، تمتد من شرقي قرية عقيربات في قضاء سلمية ، وتنتهي في تدمر والسخنة ، وليس لهذه السلسلة أيضاً اسم عام جامع بل أسماء لجبال فرعية منها . وهذه الجبال الفرعية كانت في العصور الماضية ملآنة بأشجار البطم وحراجه ، والبطم ينفع بحطبه وعصير ثمره المشابه لزيت الزيتون وباستعداده للتطعيم بالفستق ، ولا يزال في بعضها آثار من بقايا هذه الحراج ، كما هو الحال في جبل البلعاس (١٠٩٨ م) وهو أشهر تلك الجبال وأقربها لقرية عقيربات من قضاء سلمية ، وفي جبل أبو الضهور وجبل شاعر (١٢٧٩ م) وجبل معدبة وجبل المرا وجبل خشبية فردة وجبل خشبية تنيان وهما شمالي جبل شاعر إلى الشرق ، وفي جبل أبي رجمين وجبل الضلعان وجبل لابدة وجبل معيبرة وجبل منشب وجبل الضاحك (٧٨٠ م) والضويحك القريبان من السخنة ، أما الجبال التي تجردت ياللأسف من حراج البطم بحكم القطع والتخريب المتواليين منذ نصف قرن أو أقل ولا سيما خلال الحرب العامة الأولى فهي جبل الشومرية وجبل أبو شنداخ وجبل التياس وجبل الأبيض (١٣٢٧ م) وجبل الطار وجبل صفرا (٩٥١ م) وجبل شعرة (١٣٣٦ م) وغيرها ، وهذه الجبال في شمالي تدمر وغربها وشرقها ، ومثلها جبل أبو النتل وجبل أسرية ، وهما في شمالي البلعاس على طريق تدمر حلب .

وما برح أهل سلمية وعقيربات والسخنة وتدمر يقطعون أحطاب هذه الجبال ، وينقلونها على عجلاتهم وجمالهم ، ويبيعونها في حمص وحماة وسلمية وتدمر ، ناهيك ما يحرقه الأعراب الذين ينزلون فيها في فصل الشتاء أو يمرون أثناء التشريق والتغريب ، وما فعله عمال شركة النفط العراقية حينما كانت تمد أنابيبها في سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٠ م)وبعدها وترسل سياراتها ومناشيرها الميكانيكية تفتك بتلك الأشجار العظيمة التاريخية فتكاً ذريعاً ، وقد خلت أكثر تلك الجبال وما بينها من الأودية من أشجارها بسبب هذا القطع المستمر ولا رادع ولا وازع كما ينبغي . وسوف لا يمضي على ما رأيت

عشرون سنة أخرى حتى تتجرد هذه الجبال الجميلة من أشجارها بالكلية كما تجرد جبل حرمون وجبل قلمون وغيرهما من جبال الشام .

وفي شمالي هذه السلسلة الثانية إلى الشرق جبل يدعى البشري (٨٦٥ م) مؤلف من سلسلة من الآكام المتعاقبة ، وهو على مقربة من دير الزور إلى غربها الجنوبي ، وطرفه الشمالي المحصور بين بئر سجري وبئر غانة ذو تأليف بركاني بازلتي ، وفيه واد اسمه وادي القير يضارع أودية جهنم بحره وقت الهاجرة ، وواد آخر يدعى وادي الحرامية يمتد من الجنوب إلى الشمال ويصل حتى التبني غربي دير الزور ، وكان الأمل عظيماً بوجود النفط في جبل البشري ، لكن عمليات السبر التي أجريت لم تثمر بعد ، وقد ذكر ياقوت جبل البشري في معجمه وقال : إن فيه (أربعة معادن القار والمغرة والطين الذي يعمل منه البواتق التي يسبك فيها الحديد والرمل الذي في حلب ، يعمل منه الزجاج وهو رمل أبيض كالأسفيداج وهو منازل بني تغلب بن وائل) ، وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني هذا الجبل باسم (البشر) في صدد غارة الجحاف بن حكيم السلمي على بني تغلب المذكورين ثأراً من هجو الشاعر الأخطل له في سنة ٧٣ هـ ، وسميت هذه الغارة النكراء بيوم بشر .

وفي الأغاني أيضاً أسماء أماكن في شمالي البشر كالرصافة وصهين وهي في قبلي الرصافة وعاجنة الرحوب ، وهي في قبلي صهين ومحاشن ، وهو جنب إلى جبل البشر . ولم أحقق ما إذا كانت هذه الأسماء لاتزال معروفة لدى أعراب تلك الديار سوى الراهون الذي يشبه (الراحوب) ، وفي جبل البشري مغرة تستعمل لوسم الغنم بالعلامة الحمراء . وفيه ولا سيما في جهته الغربية كثير من الكلس الممزوج بالحمر على سطح الأرض تتخذه العشائر للتدفئة . وبين جبل البشري وجبل الضاحك منفذ الطيبة وواد اسمه وادي الكبير يصلان بين السخنة والرصافة ثم الرقة .

أما الجزيرة ففي وسطها جبل كبير اسمه جبل عبد العزيز مستطيل من الشرق إلى الغرب ، ذرعه على التقريب ٧٠ في ٣٠ كيلو متراً ، وعبد العزيز الذي نسب إليه هذا الجبل هو فيما زعموا ابن الشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ ، هذا في موقع الغرة وسط هذا الجبل من الشمال ضريح ينسب لعبد الغزيز المذكور ، وقد جعل الضريح ضمن مسجد

بناه مهاجرو الشاشان في سنة ١٣١٣ هـ ، على ما رأيت مزبوراً في عتبة بابه لما زرته في خريف سنة ١٣٦٣ هـ (١٩٤٣ م) وقد روى لي يومئذ البدو القاطنون حول هذا الجبل ، وهم من عشيرة البقارة (بقارة الجبل) أن اسم هذا الجبل قبلاً كان جبل المبارك ، ومن الغريب أن ياقوت لم يذكر هذا الجبل في معجمه بهذا الاسم ، بل ذكر اسم جبل دعاه طورزيتا وقال : إنه قرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زيتون عذي يسقيه المطر ولذلك سمي طورزيتا . قلت وأنا لم أر زيتوناً بل بطماً في الأكثر ولوزاً وزعروراً في الأقل ، فهل هذا الجبل الذي وصفه هو جبل عبد العزيز والمحققون من الفرنج وأخصهم دوسو في كتابه (الطبغرافية التاريخية لبلاد الشام) لم يذكروا لنا اسمه القديم في عهد الرومان ولو عرفوه لذكروه ، ولما سألت الشيخ سعيد العرفي مفتي دير الزور وعلامتها نفى نسبة عبد العزيز إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني ، لكنه لم يعين سبب التسمية ، ومن هو عبد العزيز هذا بل دلني على ما ذكره ياقوت عن طورزيتا . وجبل عبد العزيز يشبه جبل البلعاس بصخوره البيضاء الكلسية ، وبأشجار البطم النامية فيه ، وقد كانت هذه الأشجار كثيرة ، شبه الغابات لمضي ربع قرن أو ثلثه ، وهي تكاد تنقرض هنا أيضاً من فقدان الحماية وتوالي القطع والفتك ، ومنذ أن صار موطناً لعشيرة البقارة المذكورة ، ومشتى لعشائر الجبور والشرابين والعدوان ، وفي جبل عبد العزيز على ما قيل لي معدن للنحاس ، وفيه من حيوان الصيد الأروى ، ومن القصور الأثرية قصر عربي اسمه قصر سكرة ، وفي براري الجزيرة عدة براكين منطفئة منتشرة كأنها فقاقيع لماعة وسط بحر لجيّ منها الجويف (وفيه ثلاثة براكين) والمناخير التي شرقي الرقة (وهي بركانان الشرقي والغربي وعلوهما ٤٠٢ م) وجبل المعزى (٣٧٥ م) ذو المنحدرات الصخرية المشرفة على الخابور غربي الفدغمي ، ومنها تل مرقدة وتل كوكب (٥٣٤ م) الذي يدعى سلطان التلول ، ويظهر عن بعد ٥٠ ـ ٦٠ كيلو متراً عن الحسجة إذ هو على مقربة منها في شمالها الشرقي .

وفي منطقة الحماد من بادية الشام جبلان يستحقان الذكر ، الأول يدعى (جبل الغراب) يبعد عن تدمر إلى الجنوب نحو ثمانين كيلو متراً ، وله حلمتان توأمتان من الصخر البازلتي الأسود ، والثاني يدعى (جبل التنف) قرب ملتقى الحدود الشامية والعراقية والأردنية ، على طريق سيارات دمشق بغداد في الكيلو متر ٢٥٠ عن دمشق ،

وليس لجبل التنف سوى حلمة واحدة ذات قاعدة منبسطة ولا يزيد علو هـذين الجبلين أو الأكمتين عما حـولها من الأرض أكثر من ١٠٠ ـ ١٥٠ متراً ، ومـزيتهما الـوحيـدة هي إمكان رؤيتهما من مسافة ١٠٠ كيلو متر من أطرافها الأربعة بحكم وقوعهما وبروزهمـا وسـط بريـة شاسعة منبسطة مطردة المناظر ، ومن هنا صارا علمين للاستـدلال جليلي القـدر والنفع يميز البدوي التائه في مهامه الحماد خيالها عن بعد تمييزاً حسناً ، والبدو يحسبون مسافـة كل محل في الحمـاد بـالنسبـة لبعـده عن الغراب أو عن التنف . وجبل التنف ذو تـأليف بركاني ولون أسود ، ويقع في منتصف وعرة مفروشة بـأحجـار الصوان الصغيرة المتتلعـة المتموجـة ، وقـد يزداد هذا التموج ، وتحدث فيما بينه قعرات وبطائح ، تؤلف الخبرات والمراعي التي يتهـافت عليها البدو أي تهافت لمائها وعشبها .

ومنطقة جبل الغراب تشبه منطقة جبل التنف ، وهي تبعد عنهـا إلى الشمال الشرقي نحو ١٥ ساعة على الماشي (نحو ٧٥ كيلو متراً) ، وهي سهل أجرد أقفر ذو تلعات متموجـه ، تسد الأفق من بعـد وتحـدده ، وهي تحمل أحيـانـاً ركامـاً من الأحجـار تـدعى (رجومـاً) يتخذها البدو أعلاماً للاستدلال على المنازل والمنتجعات .

وفي غربي جبـل الغراب وجنـوبـه الغربي وفي منتصف الطريـق الـذاهبـة من نقطـة السبع آبار (شرقي دمشق بنحو ١٥٦ كيلو متراً) سلسلة من الآكام تتجـه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي تسمى (آكام العليانية) و (طرق العلب) وهي مؤلفة من قبـاب مـدورة متتاليـة ومن تلال وتليلات مخروطيـة الشكل أو بشكل المـائـدة بينهـا مسـايل صغيرة ذات أميال لطيفة تـارة وعمودية تـارة أخرى ، وقعور هـذه المسـايل حجريـة ، لكن ينمو فيهـا العشب ، وبعض هذه المسايل يؤلف أودية مجاريهـا صعبـة التحـديـد ، واتجـاهـاتهـا عسيرة التعقيب ، وما منها فيـه مـاء في أي موسم كان ، أمـا في شرقي جبل الغراب فـالأمر يختلف لأن الأودية العديدة هناك لها مجار واضحة تماماً وهي تـارة تتسع وتنبسـط لرافـد جـديـد يصب فيها وتـارة تضيق بين سلسلتين متماديتين من الآكام ، أشكالهـا كالقبـاب المتطـاولـة ، مغطـاة بـالحصى والجلاميـد ، وعلى ذرواتهـا رجوم بـارزة ، وإلى هـذه الأوديـة تهفو أفئـدة البدو ، ويشدوا الركاب ؛ أشهرها وادي عامج ووادي حوران ووادي الصواب ووادي الميـاه ووادي عكاش ، وفي الجـزيرة شعيب عجيـج ، وسنـأتي على وصف هـذه الأوديـة في بحث (منطقـة الـوديـان) ، ونـذكر أيضـاً في صـدد التضـاريس (السبـاخ) أو (المالـح) التي

يستخرج الملح منها بعد جفافها ، وأجلها قدراً مملحة تدمر التي ذرعها ١٢ كيلو متراً في مثله ، وهي تبعد عن تدمر نحو ساعة إلى الجنوب ويستخرج منها كميات عظيمة ترسل إلى دمشق وحمص .

المياه في البادية : إن حياة البدو وحياة ماشيتهم مرتبطة بأمر المياه والأمطار ارتباطاً قوياً ، فالمياه والأمطار هي التي تحدد أمر التبدي والنجعة ، وكل اسم مكان في البادية وربما كل ملقى للسبل ، وكل علم للاستدلال يدل على نبع أو منهل ، والمياه في البادية لا تكون إلا في الآبار أو في الخبارى ، ولكل من هذه الآبار والخبارى مناطق نذكرها ونصفها كما يلي :

منطقة الآبار :

إن براري الشامية ؛ وهي منطقة السهوب التي في شمالي الخط الوهمي الممتد من دمشق إلى أبي كمال ، ذات طبيعة صحراوية من حيث التربة والإقليم كما وصفنا . لكن آبارها كثيرة ، وبعض هذه الآبار قريب من بعض بنحو بضعة كيلو مترات تارة ، و ٣٠ - ٥٠ كيلو متراً تارة أخرى ، ومن هنا دعيت الشامية (منطقة الآبار) كما دعي الحماد (منطقة الخبارى) ، والخبارى جمع خبرة ، هي وهدات منخفضة ، مملوءة بماء المطر ، ينهل منها البدو وماشيتهم ، والآبار صناعية ، ولكن الخبارى طبيعية ، والآبار تحتوي على الماء في أغلب الأيام بينما الخبارى لا تحتويه إلا في بعض الأيام ، وقرب الآبار يسهل للبدو أمر الانتقال من بئر إلى آخر ، وهم يوردون الغنم ليلاً أو قبل المسير ، ثم في اليوم التالي وخلال مرحلة واحدة يبلغون البئر القريب .

قلنا إن الآبار صناعية ، وهي من حفر الإنسان فيما مضى من العصور ، عدا القليل منها الذي ليس له من العمق سوى بضعة أمتار ، وحينئذ يكفي أن تحفر التراب قليلاً ، وتبعد الأحجار حتى ينبض الماء ، وعمق الآبار الصناعية يتراوح بين ١٥ و ٢٠ متراً ، وقد يبلغ بعضها ضعفي ذلك أو ثلاثة أضعافه ، وقسمها الأعلى مبني بالحجارة والطين . وخرزة البئر مكشوفة أبداً وهي لاتعلو عن مستوى الأرض كثيراً ، وترى أحجارها منقورة ومحززة بخطوط عميقة ، من تلك الحبال الساحبة للماء وحفها منذ قرون لاتحصى ، وقد يكون عدد الآبار في نقطة واحدة كثيراً ، يظهر من حولها التراب المستخرج منها حينما حفرت ،

ويكون حول كل منها حفرة صغيرة العمق والعرض ، تملأ بالماء المهيأ لشرب الماشية ، ومما يجدر ذكره ؛ أنه ما من شيء يدل السائح العطشان على وجود الآبار إلا العلو الخفيف الذي لحرزاتها أو فتحاتها ، أو شبكة الدعوس التي تتجه نحوها ، أو الأرض المجاورة لها ، تلك علائم تجعل السائح التائه يشتبه بها حينما يقترب بضع مئات من الأمتار ، ولا يدل ماء هذه الآبار على أنه من مجرى أو ينبوع أرضي ذو منسوب دائم ، بل يدل على أنه نتيجة ترشح ، لأن منسوبه يهبط إذا نضح نضحاً زائداً وقوامه يصبح عكراً ، وبعض هذه الآبار عذب وبعضها أجاج وقد يكون شديد الملوحة والمرارة من وفرة المغنزيا ، أو يكون كبريتياً ، وقد يعثر على آبار جافة بالمرة .

أسماء الآبار :

حول تدمر : القطار ، الوشل ، جزل ، حفاير ، الهبية ، ملوحي ، خوينيقة ، النجرة ، بازورية ، الهبا ، العليانية ، أبو فوارس ، بيرمرّان . حول السخنة : أرك ، الكوم ، الطيبة ، الكديم ، المنبطح ، بيوض ، نقيب ، بير الجديد ، ندويات ، خدير ، سبيخة ، أم قبيبة ، عونية ، مريسم ، رحوم ، أبو فياض ، أبو النيتل ، أسرية ، مراغة ، زرقا ، الرصافة ، الطرفاوي ، عظيمان ، خديخان . حول القريتين : جباة ، قمقوم ، غنثر ، رأس العين ، حفيّر ، محسة ، عين الباردة ، عين الوعول ، عين الخنازير ، بصيري . منطقة الحماد : قريطة ، قرض ، الماء ، جب دخينة ، تختة ، الهيل ، المربع ، الورد ، سجرى ، أم ميليت ، طيارية ، ورقة ، وريق ، حجيل ، المات .

وكمية الماء في هذه الآبار قليلة لا تكفي حاجات البدو ولا تروي غليلهم كما ينبغي ، ومن ثم كان من أجل السبل لإصلاح البادية وإفادة البدو : إيجاد الآبار العذبة وتكثير عددها ، وتركيب الآلات الرافعة الميكانيكية عليها ، ليسهل الانتفاع منها ، ويتمكن البدو من المراعي الواسعة التي لاينالونها كما ينبغي ، لحرمانها من الآبار أو لقلة مائها . لهذا فقد قامت مصلحة الري في حكومة الشام الحاضرة منذ عشرة أعوام ، بحفر كثير من الآبار الحديثة على طريق نجعة العشائر في براري الشامية والجزيرة ، وبنت جدرانها بالحجر والإسمنت بناءً يظن أنه متقن وفي جدرانها سلالم حديدية للنزول وفي جوانبها مناهل لشرب الغنم ، كما أنها اعتزمت أن تبني في بعض المواقع مستودعات لخزن العشب

المجفف أو التبن لإطعام مواشي البدو منه حين الحاجة ولقاء أثمان ، وأن تشيد ملاجئ أو مزارب للغنم حفظاً لها في أيام كلب البرد وتراكم الثلج وهبوب الرياح الشمالية القارسة . وقد عملت حتى الآن ملجأين أحدهما في تل حداد شرقي الحسجة والثاني في الراهون غربي جبل البشري ، أما المستودعات فلم تبن بعد . ويحسن أن نذكر هنا أسماء الآبار التي حفرتها مصلحة الري المذكورة تسجيلاً لهذه الحسنة وخدمةً لمن يردها في اختراقه البادية :

الآبار التي في طريق : دمشق ـ تدمر : الناصرية ـ القريتين ـ الروضة ـ قصر الحير ـ عين البيضاء ـ الطريفاوي .

تدمر ـ الرقة : منسف ـ حليحلة ـ الطيبة ـ الراهون ـ الرصافة عمقه ٤٩ متراً .

تدمر ـ دير الزور : قباقب ـ (وفي شمالي هذا البئر بينه وبين جبل البشري آبار البغلية وديدي وخديان وعظيمان وقصبة) . وفي وسط البشري الغياث والسجري .

حلب ـ تدمر : سفيرة ـ خناصرة ـ الحمام ـ أسرية ـ ثريا ـ ديليب ـ الحسلة ـ سليم ـ أبو فياض ـ نيتل ـ كديم ـ قطنة ـ عين شراد عمقه ٢٥ متراً .

تدمر ـ أبو كال : الحمية ـ وتنوي المصلحة حفر بئري مجتل ومربع .

مسكنة ـ الرصافة : تل مهدوم ـ تل فضة ـ مدينة الفار عمقه ٧٨ متراً ـ متياهات عمقه ٩٣ متراً أنباج عمقه ٦٣ متراً .

الرقة ـ الحسجة : الطرفاوي ـماينة ـ بطيمان ـ ثم حول جبل عبد العزيز آبار البيضا ـ الشلال ـ والغرة ـ المغلوجة ـ أم مرفع ـ وفي غربي بئر الطرفاوي على بعد ٢٥ كيلو متراً بئر خربة هولة .

الآبار التي في طريق تل أبيض ـ جبل عبد العزيز : القنطاري ـ الشمندور .

وتنوي مصلحة الري حفر آبار أخرى في براري الجزيرة والشامية ، من هذه في جنوبي تدمر وحدها في موقع بيوض وعليانية وخان المشقوق وسجري والطيارية وورقة وويرب ، وفي شرقي دمشق في جبل سيس وبئر الأفاعي ، وفي شرقي حمص الرهاوية والمعلق وحنورة ، وفي شرقي حماة وادي العذيب ، هذا عدا عما أتمته في جنوبي طريق سيارات بغداد كآبار الصيقل وبئر سري وتل مخلوف والجويف ، وتنوي هذه المصلحة أيضاً

أن تتخذ محركات ومضخات محمولة على سيارات تنضح بها المياه من الآبار المذكورة وتجمعها في خزانات كبيرة ثم تنتقل إلى غيرها . فلو تمت هذه التدابير بإحضار الماء والكلأ المخزونين لأوقات الشدة لأنقذت ماشية العشائر من التلف وسلم أصحابها من البؤس والشقاء اللذين ينتابها من حين إلى آخر كما جرى في سني ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ م .

منطقة الحماد والخبرات :

من الناس من يسمي البراري الممتدة شرقي حمص وحماه (حماداً) وهو خطأ . فالحماد في الحقيقة هو أبعد من ذلك إلى الجنوب وأشد وحشةً واقفراراً . وحده الشمالي منطقة الآبار التي في جنوبي تدمر وامتداده من الغرب إلى الشرق من وراء ديرة التلول وجبل حوران وحرة الراجل إلى أطراف العراق الأسفل ، وحده الجنوبي واحة الجوف والنفود . وتخترقه في طرفه الشمالي طريق السيارات بين دمشق وبغداد . وقد استحدثت لهذه السيارات في وسط الحماد وضمن الحدود العراقية محطة كبيرة تدعى (الرطبة) تبعد عن دمشق نحو ٤٠٩ كيلومتر وعن بغداد ٤٧١ ، وهي تكاد تصبح عاصمة الحماد بدورها وحوانيتها وآبارها ومقاهيها وحصنها وفندقها ومركزها اللاسلكي ومستودعات النفط وغيرها . والحماد من الناحية الجئولوجية من الأراضي النومولوتيكية إلا ما كان في الشمال حول محطة (إيج تو) فإنه من الأراضي الحوراسية ، وما كان في جنوب الرطبة حول جبل الطيارات فإنه من الطباشيرية (الكريتاسة) . والحماد نجد منبسط يرتفع عن سطح البحر ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ متر ، ومن ثم كان المنحدرون من مرتفعاته يهبطون إلى كل الأنحاء . فمن النفود التي في أقصى جنوبه ينحدرون إلى نجد ومن وادي السرحان الذي في غربيه إلى شرقي الأردن ومن منطقة الخبرات التي في شماله الغربي نحو تدمر والضمير ودمشق ، ومن منطقة الوديان التي في شماله الشرقي نحو دير الزور وسقي الفرات ، ومن آبار الرطبة وبرية الطليحة التي في شرقه نحو الرمادي وبغداد . والقسم الداخل في الحدود الشامية صغير جداً بالقياس لما هو داخل في الحدود الأردنية والعراقية والسعودية ، وقد قدمنا أنه يقدر بـ ٣٨٦٣٢ كيلو متراً مربعاً .

والحماد كما قلنا سابقاً هو النجد العظيم والقلب الصميم للبادية . وهو الصحراء العارية أو بادية البادية لأنه فلوات ومهامه لا ماء بها في فصل الصيف ولا أنيس ، تضل سالكها وتميت من الظمأ عابرها . إذ ليس في الحماد آبار كما في براري الشامية إلا القليل ، ولا تغشاه

العشائر إلا في فصل الشتاء غشياناً يقل أو يكثر حسب وجود الماء والكلأ . وهي تنفذ إليه من الوديان الكبيرة الهابطة منه ، ولا يمكن أن تتوغل فيه إلا الكتائب الكبيرة من الغزاة ، لكن هذه الكتائب كم تركت في الحماد من رجالها ومطاياها بحكم الجهد والظمأ ، ومن الغريب أن لايعيش فيه في الصيف إلا بدو (الصليب) الذين ذكرنا في بحثهم حالتهم وقشافتهم[1] .

ومن خصائص الحماد أنه (منطقة الخبرات) كما أن براري الشامية (منطقة الآبار) . والخبرات أحواض أو وهدات منخفضة مسدودة ينفصل بعضها عن بعض بمرتفعات بركانية . وهذه الأحواض المسدودة تجمع مياه الأودية والبطائح السائلة نحوها ، لأن مجاري هذه الأودية والبطائح لا ميل لها بالقدر اليسير جداً ، وهي عقيب الأمطار التي معدلها السنوي كما قدمنا أقل من مئة ميليمتر تكوّن بحيرات ضحلة مؤقتة تبلغ مساحتها عشرات الدونمات وأحياناً أكثر ، وماء الخبرات يرقد على الطين وتخضخضه أرجل الغنم والإبل فيظل على الدوام عكراً بلون (القهوة بالحليب) وطعمه مقززاً . ومع ذلك يتهافت عليه البدو أي تهافت ، فينهلون منه ويعلون هم وماشيتهم . والماشية مهما بلغ عددها وجاوز الألوف تنهل منه في برهة وجيزة وتروي غليلها ، بينما نهلها من الآبار يقتضي جهوداً وأياماً وتعباً عظيماً في الرفع والنزح . ومن هنا كان البدو لا يتحولون في نجعتهم من المعمورة إلى الحماد إبان فصل الخريف إلا حينما تمتلىء هذه الخبرات بالماء وتفيض وهم لا يفارقونها إبان فصل الربيع ما زالت المراعي تمدهم بالكلأ وما زالت الخبرات ذات مياه لم تنضب أو تجف بعد . والخبرات كثيرة عد الرئيس رينو في كتابه « بدو مقاطعة دمشق » ثلاثاً وخمسين ، منها تسع حول جبل الغراب على بعد : ٢ و ٣ و ٤ و ٥ ساعات عنه إلى الجنوب الشرقي والغربي أسماؤها الحمدة والمشاقيق وأم سكاكة والصايد وأم مويل ولقطة وكبد وحويمات ، ومنها خمس وعشرون حول جبل التنف على أبعاد تتراوح بين ٥ و ٨ و ١٢ و ١٥ و ١٨ ساعة وهي كبئر الحلو والرمانين وملحم والزرقاء والزويري وخبرة التنف

---

(١) بنوا في نقطة الحدود الفاصلة بين بلاد الشام والعراق هرمين حجريين بيضوهما بالكلس ليظهرا عن بعد شاسع . وهذه النقطة تقع قرب جبل التنف ، وهي تبعد عن دمشق شرقاً نحو ٢٤٩ كيلو متراً ، وعن السبع آبار ١٠٠ ، وعن الرطبة غرباً ١٦٠ ، وعن الرمادي ٤٩٠ ، وعن الزلف شمالاً ١٨٥ .

وأبو بخيت ومعايد وصلابية وختيوي ومرفية ابن سمير والصيب والخرجة والبستانة وأم طرفات والمداري وقطية والطابات وزينات الماء والشهيات والحوب وقرة الملاصي ومرفية الجويف وخبرة مها الياس وأم رجيم . ومنها ثلاث حول الرويشد (جنوبي جبل التنف) وهي الضباضب والصوفا والدوارا ، ومنها سبع عشرة في أكناف الحارة وهي أبو الحصين والبرقع في وادي المقاط وخبرات الدريهات وبحر الصيقل والطرفاوي والبظلي والقراونشات والمريفات وعضمان وأم طرفة والزبيدات والدغارا والصاحلية والمغنة وغدر الماء والزلاقة والصفية قرب البردويل والبردويل قرب أم أو عال على بعد يومين عن البرقع .

فمنطقة الخبرات تنتهي في الشمال حيث تبدأ منطقة الآبار . فهي تصل هناك إلى طرق العلب وفي الشرق إلى منتصف وادي الصواب وإلى غربي القعرة وفي الغرب إلى ديرة التلول وأكناف الحارة (حرة الراجل) . والحماد في الصيف والخريف يظهر كفيفاء ملتهبة ، كالحة صفراء أو سمراء اللون مترامية الأطراف مطردة المناظر رهيبة كئيبة صلعاء جرداء الوجه بتاتاً إلا من لطخات أرض الخبرات الذهبية أو من السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا ورده لم يجده شيئاً . والحماد خواء يباب قد يسير المرء فيه على المطايا أو في السيارات نحو ٣٠٠ ـ ٤٠٠ كيلو متر دون أن يصادف نافخ ضرمة ولا معلق وزمة كما يعرف ذلك المسافرون بين دمشق وبغداد . ففقدان الماء يقفر الحماد من نزلائه البدو بالمرة . وقد يلاقي المرء نفراً من الصليب راكبي الحمير أو عصبة من البدو راكبي النوق . فالصليب صيادو غزلان من التي تنتهز أسرابها ظلام الليل فتفر إلى بعض الوهدات لتروي غليلها بما ينبت فيها من الأعشاب المبتلة بالندى ، والبدو غزاة ورواد غنائم . وبادية الحماد تختلف عن بادية الشامية وبقية بوادي جزيرة العرب . ففي الشامية وفي تلك البقية مناظر متباينة وأراض مختلفة فيها الجبل وفيها السهل وفيها الوعر وفيها الرمل ، وما في الحماد هذا إلا شيء واحد لا يكاد يختلف أو يتغير ، أرض منبسطة ترابية قاحلة تمتد إلى الأفق البعيد المعن في البعد كأنها بحر ليس فيه ماء . وراكب السيارة بين دمشق وبغداد يقرأ ويتحدث ليقطع الحماد بحديثه ، فيقطع الحماد حديث الراكب بصمته وجلاله ، وينام الراكب ويفيق ، والحماد هو هو لايتبدل ولا يتغير ولا تقصر سفرته ولا تقل رهبته .

أما في فصل الشتاء إذا أروت أمطار كانون الأول وكانون الثاني الأرض وزخر الماء في

الخبرات يتبدل بسيط الحماد ويراه راكب السيارة وخاصة راكب الطائرة حينئذ قد أنبت واخضرّ وصار بقعةً أريضةً بعثرت فيها الخبرات ذات السطوح اللامعة بأشعة الشمس ، وامتدت بين هذه الخبرات أودية وبطائح معشوشبة انتشر فيها البدو بإبلهم وغنمهم يرعون ويشبعون ، وما إقبال هؤلاء البدو على الحماد وتوغلهم فيه إلا بقصد هذه الخبرات وما حولها من المراعي . ويقول بعض العارفين أن ماء الخبرات يدوم من نصف تشرين الثاني إلى أواخر شباط على الأقل وذلك في السنين المتوسطة الأمطار . ولكن ما أن يقبل شهر نيسان ويدفأ الجو حتى تبخر الشمس ماء الخبرات الضحل الذي لا يزيد عمقه عن متر أو نصف متر ، ولا يمضي أسبوعان أو ثلاثة وقبل أن يجف الكلأ تنقلب الخبرات حمأة واسعة متلائئة لما في قعرها من (الغرين) أو الرمل الطيني الجاف ، وتعود أرض العطش للبروز وتلحقها بعد حين قليل أرض الجوع والحرمان والكآبة .

والأودية المنحدرة من الحماد تأتي من حول جبل عنازة جامع الرياح والأمطار ومنبع الأودية الشبيهة بالأنهار . لكنها لا تحتوي على الماء إلا في فصل الشتاء . وإذا كانت مسايل هذه الأودية قليلة الانحدار فإنها تؤلف في قعورها من حين إلى آخر حفراً طبيعية يدعونها غدراناً (جمع غدير) تخزن مياه الأمطار في أجوافها بنسبه ما لها من العمق والضيق وصغر سطح التبخر . وقد اختصت الغدران بالمناطق والأوعار البركانية الموجودة في جوف الحماد أو في أكنافه ، وخاصة في كنفه المجاور لحرة الراجل .

وقد كان الجيش الروماني ينتفع بهذه الخبرات والغدران ويجعل المسالك الكبيرة والطرق المعبدة التي تخترق الحماد قائمة عليها ، وبعض هذه الغدران صناعي صنع بإشادة السدود حوله كما هو الحال في حصن جاوا على وادي الراجل وفي قلعة البرقع على وادي المقاظ وغيرهما ، وبعض هذه الغدران الصناعية كان يبلغ ضخامة خزان كبير لري الزرع وإسقاء الضرع كما هو الحال في سد أرينبة العظيم الماثل حتى الآن في جنوبي قرية الضمير ، وقد كان يروي السهول الواسعة المنحدرة في غربيه نحو بحيرة العتيبة . وكانوا يحفظون ماء الخبرات من التبخر والضياع في برك أو في محافير (جمع محفرة) وهي أحواض مربعة الشكل حفرت في وسط الخبرة ورفع التراب منها وكوم في جانبها . وقد ثبت للأب بواديبار اليسوعي الذي سيأتي ذكره أن هذه المحافير كثيرة في الحماد بين جبل سيس وبئر سجري وأنها من عهد الرومان وصنعهم ، وأنها كانت في بادئ أمرها أعمق من الآن وكان الماء

يمتح منها بالحبال ويبقى فيها حتى أوائل حزيران. وبفضل هذه الغدران والمحافير المتلاحقة في طول طرق المواصلات الكبيرة كان المقام في الحماد ممكناً للدوريات الراكبة من المخافر الرومانية . وكان هنالك من المناهل التي تطيل أمد البقاء في الحماد أكثر من المحافير تلك الآبار العديدة التي كانت تجمع فيها مياه الخبرات كما هو الحال في الخبرات التي بين جبل سيس وجبل التنف وآبار الجويف وبير سري وآبار وادي الهيل وخبرة رمانة .

منطقة الوديان :

وفي شمالي البادية الشامية أودية عديدة ، ولكن لا يرى المرء فيها أثراً للماء إلا في بعض أيام السنة وعقيب المطر فقط ، فيحتار ويتساءل كيف ؟ ومتى ؟ حفرت مسايل هذه الأودية وخددت وكيف حدثت في بعض أماكنها مضائق وفجاج ذات جوانب صخرية واسعة . ولا يبرح في هذه الحيرة حتى يأتي يوم يفاجئه فيه على حين غرة سيل عظيم متدفق يدفع بعضه بعضاً حاملاً مياه الأمطار الهاطلة من غيوم متلبدة أو أعصار متكاثفة همت وانهلت دفعةً واحدةً عن بعد بضعة كيلو مترات من المكان الذي هو فيه . وحينئذ يرى كيف أن هذه المياه الجارفة العكرة تقبل وترمي الزبد والقذر والغثاء بقبقبة وقرقرة وتملأ جوانب الوادي ويرى كيف تفعل فيها قضماً وحتاً وجرفاً وكيف تضغط على جلاميده وحصاه المدلصة وتدحرجها . إن هذه الأودية تنحدر من شمالي هضبة الحماد من حول جبل عنازة الذي قدمنا أنه جامع الرياح والأمطار ومنبع الأودية الشبيهة بالأنهار وهي تتجه شمالاً إلى الشرق لتنصب في الفرات . وهي متقطعة الجريان لا تسيل كما قلنا إلا حين هطول الأمطار الغزيرة فتنظم حركة مياه البادية وسيولها وتصرفها نحو الفرات . وإذا انقطعت تحدث غدراناً وإذا فاضت تحدث بعد انصرافها غيطاناً خضراء تسر العيون في تلك الفيافي القفراء . وأشهر هذه الأودية على الترتيب من الشرق إلى الغرب (وادي عامج) داخل الحدود العراقية وشرقي الرطبة وغربي هيت وهو يضمحل في البراري ولا يصل إلى الفرات . ووادي (حوران) داخل الحدود العراقية أيضاً وهو يوازي خط أنابيب النفط الذاهب إلى حيفا على أنه يعاكسه في الجريان وهو يمر من شرقي الرطبة ومن قربها وتخترقه طريق السيارات إلى بغداد ويصب قرب قرية آلوس .

وبعض الأودية هي داخل الحدود الشامية منها (وادي الصواب) الذي يصب في

الفرات شمالي الصالحية بين الميادين وأبي كمال ويجري ملتوياً منثنياً ، وهو واد عريض أريض منقطع الجريان في الغالب وافر العشب والمرعى ، ولكن يكفي أن يحفر المرء قليلاً في الحصى والرمل فينبض الماء فوراً ويحدث حوضاً يكفي الإنسان والحيوان ، وعلى ضفة هذا الوادي أطلال قصر الصواب الذي كان من جملة مخافر البادية وحدودها بين الفرس والرومان . ولوادي الصواب كثير من الروافد منها وادي الرتيميات ووادي الوغر ووادي حوريان . ومنها (وادي المياه) الذي ينشأ من زقف ويجري بادئ بدء نحو الشمال حتى يبلغ الطيارية ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي حتى يبلغ الورقة ثم يعود للاتجاه نحو الشمال حتى يضمحل في الفلوات بين بئر الحمية وبئر غدر الماء في بقعة مشوشة تحيرك في إدراك أين ذهبت مياهه . وقد بعثرت في هذه البقعة أحواض كبيرة كهذه المسماة (فيضة قباقب) أو (الفيضات) ، وفي مجرى وادي المياه كله عدة آبار عذبة كسجري والطيارية وورقة والحمية ، وفي قرب بئر الحمية يمر خط النفط الذاهب إلى طرابلس ، إن وادي المياه هذا غني بمياهه وأعشابه التي تهوي إليها أفئدة الإبل والغنم على السواء ، ثم هو جذاب بغرائبه خلاّب في قسمه الواقع جنوبي سجري يستحق الذهاب إليه على متون الزوامل شريطة أن يتزود السائح بزمزميات الماء العذب ، وفي تلاله البارزة كثير من المقابر المغطاة بالأحجار والرجوم ، وهي مدافن البدو الذين يلاقون حتفهم في الربيع في قربه . ومنها (وادي عكاش) ذي المسيل الضيق العميق بين جدارين صخريين عمقها ثمانون متراً ، وفيه أسراب من طير أبي منجل الأسود ، ومجرى هذا الوادي واضح ومراعيه وفيرة وهو يصب في الفرات قرب أبي كمال ، حيث يسمى وادي علي . ومنها (وادي الرتقة) الذي يصب أيضاً في الفرات جنوبي أبي كمال . وفي بادية الجزيرة واد يقال له (شعيب عجيج) يسيل من جبل سنجار نحو الجنوب ، وقد جعلوه حداً فاصلاً بين شمر العراق وشمر الشام . وهذا الوادي موطن الغزاة ومكمن اللصوص . وفي مجراه بعد بئر أم غريبة سباخ وممالح كبيرة كسبخة الروضة وسبخة البرهوت وسبخة الشملان وسبخة البعارة يفدون إليها من أنحاء سنجار والموصل ويمتارون الملح منها .

الأرصفة والقصور والحصون والسدود :

بعد أن اكتسح الرومان بلاد الشام في سنة ٦٤ ق.م رأوا أن لابد لهم من تحصين حدود البادية في وجه أعدائهم الفرس الذين ما كانوا يتوانون عن مرواحتهم القتال ، وفي

وجه البدو الذين كانوا أيضاً يسطون على المعمور أو على القوافل التجارية القادمة من جنوبي الجزيرة العربية أو شرقيها . فمدوا هم والتدمريون في البادية (الشامية منها والجزيرة) شبكة أرصفة حجرية وطرق حجرية وطرق معبدة ، وجعلوا في كل مرتفع ومكمن وعلى كل ينبوع ومنهل مخافر عسكرية ، وأبراج مراقبة وفنادق وخانات للمسافرين محصنة بالأسوار والآطام ، وأنبطوا الآبار ، وحفروا الصهاريج ، وشادوا السدود لحصر ماء المطر وخزنه ، وخددوا قنوات وجداول لري الزرع وسقيا الضرع . وكانت تقيم في تلك المخافر والأبراج حاميات من الخيالة والهجانة رماة النبال ، تتصل دورياتهم وتتلاقى وتترصد مجيء جيوش الفرس وعصابات البدو ، وتحمي قوافل التجار حاملي الأقمشة والأفاوية والطيوب والمعادن والأحجار الكريمة من اليمن والهند والصين . وقد كانت هذه القوافل تلتقي في تدمر عاصمة الصحراء وعروستها ، وتتوزع من ثم إلى القسطنطينية ورومية أو إلى بلاد الشام ومصر وغيرها . وقد ظل هذا الترتيب والإتقان زاهرين في كثرة أو قلة تارةً وتارةً إلى أن زالت الدولة التدمرية في القرن الثالث ، وضعفت الدولة البيزنطية في القرن السادس ، واختل عمران البلاد الشامية بذلك الضعف وبتوالي غارات الفرس وحروبهم مع الروم البيزنطين .

ولما بزغ فجر الإسلام ، وجاء الخلفاء الأمويون ، صاروا أسياد أمبراطورية عظيمة ، كانت من أوسع الأمبراطوريات المعروفة في التاريخ ، وكانوا مغرمين بالعمران والبنيان ، فأعادوا زهو البادية وأنسها ببناء المساكن والقصور الفخمة في وسطها وفي أكنافها وتبعهم في ذلك أقاربهم وأتباعهم ، كانوا ينفرون إليها في بعض الفصول ولا سيا في الربيع لقرب عهدهم بحياة البداوة وبعيش الحجاز ، وترويحاً عن النفس بالصيد والقنص ، وهرباً من وباء أو طاعون ، وتقرباً للبادية والبداة لإدامة الصلة بلغاتهم ولهجاتهم ، ولتصفية النفس بعاداتهم المستحسنة الخالية من شوائب الحضارة ، وكانوا يدعون هذا تبدياً ، وفي كتب التاريخ والأدب ذكر مكرر لخروج الخلفاء إلى التبدي ورجوعهم منه ، فكانوا ينصبون المضارب الواسعة ، ويستقبلون الوفود والضيوف والشعراء[1] ، فيزيد بن معاوية كان يقيم في

(١) لايزال ملوك العرب وأمراؤهم في الجزيرة دائبين على هذا المنحى في كل عام ، فقد كان أمراء آل الرشيد حكام نجد قبلاً يتبدون في ربيع كل سنة شهراً أو شهرين . ومثلهم في عهدنا جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، أما سمو الأمير عبد الله بن الحسين في شرقي الأردن فهو يتبدى في شتاء كل سنة في الغور شرقي أريحا . ينصب فيه =

حوارين ، ويصطاد في جبال قلمون وسهوله الشرقية ، وعمر بن عبد العزيز والوليد بن عبد الملك في خناصرة جنوبي جبل الأحص ، وهشام بن عبد الملك في الرصافة (سرجيوبولس) ، ثم بنى قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي ، ويزيد بن عبد الملك رمم وزين قصر الموقر في براري شرقي الأردن ، وورد ذكر منازل الأمويين في الزيزاء والفدين والأبيض والقسطل والزيتونة والصنبر وسيس . وقد ثبت أن قصري الحير المذكورين من بناء هشام بن عبد الملك ، وأن قصر جبل سيس وقصر الخرانة وقصر طوبى وقصر المشتى وقصر الأزرق وغيرها من قصور براري شرقي الأردن عليها مظاهر القصور الأموية .

وقد ظلت آثار الرومانيين والتدمريين وقصور الأمويين سالمةً في الجملة ، أو ماثلة للعيان على الأقل ، تشهد ببراعة من شادوها ورفعوها وعبقريتهم ، إلى أن دالت دولة الأمويين ، وجاء العباسيون يعملون يد التهديم والتخريب في قصورهم ومنازلهم وقبورهم ، فلحق ما كان منها في البادية النصيب الكافي من ذلك ، تدل عليه الألوف المؤلفة من قطع الزخارف الجصية المكسرة التي وجدت مطمورة ومبعثرة في داخل قصر الحير الغربي ، وقد نقلت هذه القطع من عهد قريب إلى متحف دمشق الأثري ويعمل على جبرها ولحمها وتركيبها في مثال القصر المذكور الذي يبنى في جوار المتحف ، وإذا سلم وقتئذ من يد العباسيين بعض تلك الآثار والقصور لبعده عن متناول الأيدي فقد أجهزت عليه من بعد في عهد العباسيين أيضاً جيوش القرامطة والمغول الذين كانوا يأتون من أنحاء العراق وفارس عبر البادية ، ويغيرون على بلاد الشام ويفحشون ، ناهيك الزلازل وفعل السيول والأمطار على كر الدهور واختلال الأمن في عصور العثمانيين الأخيرة وضعف الوازع .

وقد ظل معظم الأرصفة والطرق والمباني العسكرية في زماننا الحاضر مجهولاً أو غير مرئي ، وإذا كان بعضه مرئياً ظل غير معروف الغاية والأوصاف إلى أن كشفها الأب بوادبيار اليسوعي من الطائرات بمعونة سلاح الطيران الفرنسي وقوة هجانة البادية . وقد ظل هذا الراهب البحاثة مدة سبع سنوات من ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) إلى ١٣٥٠ هـ

= مضاربه هو وحاشيته على النحو الذي كان يعمله معاوية بن أبي سفيان في قضاء فصل الشتاء في موقع الصنبرة على شاطئ بحيرة طبرية .

(١٩٣٢ م) يطير ويكشف ويرى في الصحراء من عَل ما لايراه الماشي ولا يشعر بـه ، إلى أن خرج من أتعـابـه الجزيلـة بمـؤلف قيم جـداً ذي مجلـدين ، دعـاه (أثر رومـا في بـاديـة الشام) ، صور فيه ما اكتشفه ورسم خرائطه وحدد مواقعه وأبعاده وشرح أوصافه .

ويستفاد مما جاء في هذا المؤلف أن الرومـان في عهـد تراجـان (٩٨ ـ ١١٧ م) وديو كلتيانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) عمدوا إلى البادية من أقصى جنوبها إلى أقصى شمالها حتى الحـدود التي كانت لهم في ضفـاف الـدجلـة ، فمـدوا شبكـةً من الأرصفـة الحجريـة والطرق المعبــدة متوازية ومتقاطعة على طول ألوف الكيلو مترات ، مثلمـا عملوا في كل مـا افتتحوه من بلاد العالم وربطوه ببعضه . فقد مدوا من دمشق إلى بصرى رصيفاً يجتاز وعرة اللجـا ويسير نحو جرش وعمان والبتراء والعقبة على ساحل البحر الأحمر ، ومـدوا من دمشق إلى تـدمر ثلاثـة أرصفة الأول المار بالقريتين وقصر الحير الغربي والثاني المار بخـان أبي الشـامـات والخـانـات التي بعده والثالث المار بتلة الساعي وطرق العلب ، ثم إنهم مـدوا من تـدمر عـدة أرصفـة ، أحدها الذاهب إلى صورية على الفرات غربي الرقـة وإلى الشـدادى (على الخـابور) ومنهـا إلى بلد سنجار وما بعـدهـا في الجزيرة ، وكان يتفرع من هـذا الرصيف اثنـان : الأول من قصر الحير الشرقي إلى البصيرة على الخـابـور ، والثـاني من السخنــة إلى قلعــة الرحبــة على الفرات . ومــدوا من تــدمر أيضــاً نحـو الشرق رصيفين : الأول المتجــه نحـو الصــالحيــة (دورا أوروبس) على الفرات والثــاني المتجــه شرقــاً إلى الجنـوب نحـو هيت مــاراً بقصر الصواب ، وكان من تدمر أيضاً نحو الغرب رصيفان : الأول الذاهب إلى عقيربات وأفـاميـة وأنطاكية والثاني الذاهب إلى الفركلس وحمص ماراً بسهل الدو .

وكان يتفرع من نقطة تل الساعي « شرقي خان أبي الشامات » رصيف يتجه جنوبـاً نحو وادي السرحان والجوف ماراً بقلعـة البرقع ، وآخر مواز لـه كان يتفرع من البصيري في جبل الرواق ماراً بالسبع آبار وخبرة مرفية السمير وخربة الرياشي ، ومـدوا في شرقي دمشق عـدة أرصفـة : الأول من الــدير الجنـوبي « شرقي بحيرة العتيبــة » إلى جبـل سيس ليلتقي برصيف خبرة مرفية السمير ، والثاني من قرية الهيجانة إلى بير قصاب وخربـة أم السعـد إلى الـزلف ليلتقي برصيف قلعـة البرقـع ، والثـالث من براق في لحف اللجــا الشمالي إلى شقــا والسعنة ودير الكهف وقصر الأزرق حتى وادي السرحان .

ومدوا في الجزيرة شبكة أرصفة ، نذكر منهـا : الرصيف المتجـه من الرقـة شرقـاً على استواء نحو المالحة فالشدادي فـالفـدغمي فبلـد سنجـار . والرصيف المتجـه من الشـدادي إلى الجنوب نحو البصيرة ، والآخر المتجه منها إلى الشمال نحو الحسكـة فماردين . وكان هنـالـك رصيف من الحسكة يمتـد إلى تل براق وتل حميـدي فنصيبين ، وآخر من تل حميـدي شرقـاً نحو تل غراسة وما بعده في الشرق ، وآخر من نصيبين شرقـاً نحو جزيرة ابن عمر ، ومن تل حميدي غرباً نحو رأس العين ، وآخر من خربة الموزّر في جنوبي جبل عبـد العزيز إلى قصر سكرة في الجبل المذكور ، ومنه شمالاً نحو خربة ثعلبة على الخابور ، وآخر من خربـة الموزّر غرباً لشمال نحو حران فـأورفـة فسميسـاط ، وآخر من حران جنوبـاً نحو الرقـة ، وآخر من حران أيضاً غرباً نحو سروج ومن سروج رصيفان : الأول المتجه نحو باليس ، والثاني المتجه جنوباً للغرب نحو منبج فحلب فأنطاكية .

وهكذا كانت البادية في شاميتهـا وجزيرتهـا وكـذا قسم المعمور من بلاد الشـام ملأى بشبكة من الأرصفة والطرق المعبدة المتوازية والمتقاطعة ، وعلى الجميع أميال وأعلام لهـدايـة القوافل والمسافرين ، وقد حصنوها بالمخافر والأبراج ، وسهلوا السير والمبيت فيها بـالفنـادق والخانات ، ووفروا الغل والنهل بالآبار والأحواض .

وكان من مشروعات الرومان العظيمة في الباديـة في استنبـاط الميـاه وتوفيره للمخـافر والحصون والخانات المذكورة أنهم حفروا آباراً عديدة في مختلف أنحاء البـاديـة ، ويبـدو أنهم كانوا بارعين في هندسة الري يعرفون عدم كفاية الماء في أعماق أرض الباديـة ، فعمـدوا إلى جعل الآبار في وسط الوهدات والبطيحات لترشح إليها مياه السيول والأمطار . وجل هذه الآبار مدور الشكل وبعضها مربع ، وقد بنوا جدرانها بأحجار منحوتـة ومصفوفـة بـانتظـام تام ، وحفظوا أفمامها بخرزات ، وكانت هذه الآبار محروسـة بـأبراج مراقبـة أو بمخـافر ، أو مبنية وسط باحات الحصون نفسها ، مثالها آبار وادي المياه ، وآبـار الجويف الـذي في شرقي جبل سيس ، وآبار خربة البطميـة التي في شرقي شمالي خـان أبي الشـامـات ، وبئر الضبعـة الذي اكتشفه ونظفه سلطان الطيار من مشـايخ عشيرة الولـد علي ، وآبـار جبل سيس التي حفرت وسط خبرة هـذا الجبل الواقع على نحو ١٥٠ كيلو متراً شرقي دمشق ، وهي متقطعـة غير دائمـة النبع ، ويظهر في جوار هـذه الآبـار أنقـاض أبنيـة واسعـة مـؤلفـة من قصر كبير وجامع ودار ضيافة وعدد من بيوت السكن وغير ذلك ، أثبت المستشرق المسيو سوفاجه أنها

من جملة الآثار العربية الأموية التي كانت في البادية ، وآبار السبع بيار التي على طريق دمشق بغداد على بعد ١٤٢ كيلو متراً عن دمشق ، وفي قربها أكمة عالية (٨٣٠ م) بنى الفرنسيون فوقها مخفراً لجنود الهجانة ، وآبار الملكة في جنوبي تدمر على بعد ٤٥ كيلو متراً .

وفي الأماكن التي لا تسمح بحفر الآبار حفر الرومان حياضاً أو صهاريج يجتمع فيها الماء ، مبنية بإتقان زائد ، وبعضها مغطى بسقف أو قبة كالتي في خان المنقورة وخان العنيبة على طريق أبو الشامات ـ تدمر . ومن مشروعاتهم في توفير الماء للمخافر والحصون أنهم كانوا يفجرون الماء بواسطة قنوات مخددة في الأرض ، كما هو في عين الكوم بين الطيبة والرصافة وفي عين الباردة وغيرها .

ومن مشروعاتهم المختصة بالزراعة وإيجاد المراعي مشروع خزن مياه الأمطار والسيول وحصرها وراء الأسداد التي كانوا يبنونها بإحكام وتمكين غريبين . فمن هذه الأسداد : (سد المنقورة) ذو الأحجار المنحوتة الضخمة ، بنوه في جبل البطم لإيصال الماء إلى مخفر خان المنقورة في الطريق الآخذة من أبي الشامات إلى تدمر ، بواسطة قناة خدّدوها في الجبل ، تنتهي في برك وأحواض كبيرة مبنية . ومنها : (سد أرينبة) الذي في جنوبي قرية الضمير ذو الهندسة البديعة أيضاً ، وطول هذا السد ٣٠٠ متر وعرضه في أعلاه ٥,٥ المتر وارتفاعه عن الأرض المجاورة له أربعة أمتار ، وله ثلاث فتحات في جهته الغربية لتدفق المياه ، ثم إن أحجار هذه الفتحات والمجاري بيضاء منحوتة ، يتراوح عرض بعضها بين ٥٠ ـ ٧٥ سنتيمتراً وطوله ١,٥٠ ـ ٢,٥٠ متراً ، أما بقية أحجار هذا السد فسوداء عادية ، وقد كان هذا السد يجمع السيول المنحدرة من أنحاء خان أبو الشامات وبحيرة الصيقل وسفوح جبل الزبيدية ويحصرها ، ثم يوزعها بسواق منتظمة لري المزارع التي كانت تمتد في غربيه حتى سهل رمدان شرقي بحيرة العتيبة ، ومنها : (سد الهربقة) الهائل البنيان في جنوبي قصر الحير الغربي على نحو ٦٠ كيلو متراً غربي تدمر ، وقد بنى هذا القصر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في سنة ١٠٩ هـ وجعله مقراً له قبل أن ينتقل إلى الرصافة ويقطنها نهائياً ، وكان اسم هذا القصر في المؤلفات العربية (الزيتونة) وسد الهربقة المذكور يقع على بعد ١٥ كيلو متراً عن قصر الحير الغربي بين جبلي الباردة والنقنقية ، بنوه وحصروا به مياه السيول التي كانت تدفق من الجبلين المذكورين ، ومن عين الباردة نحو سهل الدو الفسيح . وعلو هذا السد ١٨ متراً وعرضه في أسفله ١٨,٥ متراً

وفي أعلاه ٦,٣٠ متراً وطوله ٣٦٥ متراً ، وقد حسبوا أنه كان يخزن فيه من الماء نحو ١٤٠٠٠٠ متراً مكعباً ، وقد طمرته الآن الرواسب الجافة المتشققة شقوقاً عميقة متعجة ، وكانت مياه هذا الخزان تساق بقنوات وجداول عديدة إلى الأرضين التي حول قصر الحير المذكور لري الحدائق والمزارع ، ولسقيا القصر وحماماته والمساكن التي كانت حوله . وقد ذكر العالم الأثري المسيو شلو مبرجه[1] أنه يستدل من هذه الآثار أن الأمويين في عهد هشام بن عبد الملك قد رمموا سد الهربقة ، وأن أطراف واحة قصر الحير القاحلة اليوم ، القائم في وسطها هذا القصر العظيم البديع ، كانت في العصر الأموي غوطةً وارفة الظلال زاهرةً بالزراعة آهلةً بالسكان .

وجميع زخارف هذا القصر التي كانت مكسرة ومطمورة ، وكذلك واجهته الفخمة وفيها بابه الذي يحتوي على كتابه كوفية فيها اسم هشام بن عبد الملك وتاريخ سنة ١٠٩ هجرية ، نقلت إلى متحف دمشق الوطني حيث يعمل الآن لإعادتها إلى حالتها السابقة ، وقال العالم المذكور أيضاً في (مجلة المشرق ج ٤ سنة ١٩٣٦ م) : إن الواحة التي يقع بها البناء مدينة لوجودها لعمل السوريين في العهد الروماني وقد يكون منشؤوها من التدمريين خاصة . وإلى هذا العهد يرقى سد الهربقة العظيم في أعالي الجبل . ولولا هذا السد لما كان من وجود لجميع المنشآت المذكورة ، لأنها منه تستمد ماءها وحياتها . إلا أن هذا السد كان قد خرب في أواخر العهد الروماني ، أو حين سقوط دولة تدمر (سنة ٢٧٣ م) والبيزنطيون لم يبنوا سوى البرج المنسوب إليهم ، القائم حتى الآن حول قصر الحير ، وحفروا بئراً لشرب حاميته . وقد كان هذا البرج مكلفاً بحراسة طريق حمص إلى واحة الجوف الذي يمر بمضيق البصيري ، وحراسة طريق تدمر إلى غوطة دمشق . وقال أيضاً : إن الحفريات التي قام بها دلته على أن الأمويين هم الذين رمموا سد الهربقة ، وعملوا له أبنية ملحقة لحماية مخرج الماء من تراكم الرسوب والوحول ، وهم الذين شادوا المنشآت الموجودة حول قصر الحير ، كالخان والبستان والقنوات المتشابكة ، وقصر الحير الذي كان على غاية من الزينة والزخرف ، وقطعاً « فسيحة من الفسيفساء الجدارية وروافد منقوشة وبلاطاً منقوشاً وزخارف ملونة ومشاهد مصورة لرجال ونساء وحيوانات ، وأشكال الزخارف هندسية ونباتية . الخ ... »

(١) chumberger : Les fouilles De Qasr - El - Heir EL Garbi ; Syria T . xxq ' 195 Et 3240106

الطرق المعبدة وأنابيب النفط :

في عهدنا الذي قضي فيه على قوافل الإبل وقل فيه من يطوي البيد طيّاً على متن الرواحل صارت السيارات تجري ، وتغذ السير في كل بقاع البادية ، وحتى في صميم حمادها ونفوذها ، وتنقل المسافرين وأمتعة التجار إلى تدمر ودير الزور والرقة والحسجة وغيرها من مدن البادية في طرق لا تزال دعوساً غير معبدة . وقد مدوا للسيارات من دمشق إلى بغداد طريقاً ، لا يزال القسم الشامي منه معبداً نصف تعبيد ، بينما القسم العراقي معبد تعبيداً جيداً ، وهو يخترق منطقة الخبرات في الحماد الشمالي ويمر بقرية الضمير وخان أبو الشامات والسبع بيار وجبل التنف ، ومن ثم يدخل الحدود العراقية ماراً بمحطة الرطبة التي صارت بليدة ، ذات دور ومنازل وحوانيت للباعة ومقاهي وماء نمير وكهرباء منير وحصن أو مخفر كبير فيه فندق ومطعم وموظفون وجنود عراقيون ومركز للبرق اللاسلكي ، ومن الرطبة بعد اجتياز وادي حوران ووادي عامج وبرية طليحة الموحشة ووادي المحمديات ، يصل المسافر إلى الرمادي على الفرات ومنها إلى بغداد ، وأحسن من هذا الطريق ذلك القادم من حيفا إلى الرطبة ، والمار بإربد ومحطة المفرق وأرض الجبّانة وحرة الراجل ومحطتي اجفايف (حيفا ٥) وأجفور (حيفا ٤) ، فهذا القسم الداخل ضمن حدود فلسطين وإمارة شرقي الأردن من أقوى الطرق المعبدة المزفتة وأكملها ، وهو رائع عند اختراقه صخور حرة الراجل وأوعارها الشاقة الطويلة المدى .

وفي عهدنا أيضاً قد اخترق البادية منذ سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٣ م) خطان لأنابيب النفط ، قادمان من البلاد العراقية ، أصلهما خط واحد ، ينبوعه من كركوك أنشأتها الشركة الإنكليزية المعروفة بحروف I, P. C (شركة النفط العراقية) . ففي كركوك المحطة ذات الرقم واحد (كي ون) ، ثم يجتاز هذا الخط نهر الدجلة عند قرية تدعى الفتحة بين جبلي حمرين ومكحول ، وفي قربها إلى الغرب ذات الرقم٢ (كي تو) في جانب بلدة بيجي ، ثم يتجه نحو الجنوب الغربي مخترقاً سهول الجزيرة إلى أن يجتاز الفرات جنوبي قرية الحديثة عند المحطة ذات الرقم٣ (كي ترى) ، وبعد محطة كي ترى يدخل الخط بادية الشام ويقسم إلى قسمين : خط إلى طرابلس ، وخط إلى حيفا . فالأول يتجه نحو الغرب بانحراف قليل إلى الشمال ماراً بمحطة (تي ون : طرابلس رقم١) في شرقي جنوبي قرية القائم

القريبة من الحدود الشامية ، وماء هذه المحطة يمتح من الفرات عن بعد ١٤ كيلومتراً ، ثم يدخل الخط الحدود الشامية جنوبي بلدة أبي كال ، ويمر بوادي الصواب ، ثم بمحطة (تي تو : طرابلس رقم ٢) وماؤها من بئر حمية في وادي المياه ، يمتح بالأنابيب والدافعات . ثم يمر بوادي المياه ، ثم بوادي معربة ثم بمحطة (تي تري : طرابلس ٣) وماؤها من أرك ، بالأنابيب والدافقات ، ثم بجنوبي بلدة تدمر ، ثم بمحطة (تي فور : طرابلس ٤) وماؤها من الفركلس ، بالأنابيب والمضخات عن بعد سبعين كيلو متراً ، ثم بجنوبي الفركلس وجنوبي حمص ، وبعد أن يجتاز نهر العاصي يتجه نحو تل كلخ ومنها إلى مصبه في البحر عند موقع التعتور قرب طرابلس الشام .

أما الخط الثاني : فيتجه نحو الغرب بانحراف كبير إلى الجنوب ، ويسير بموازاة وادي حوران ، وبعد ٩٩ كيلو متراً عن الفرات يمر بمحطة (ايج ون : حيفا ١) ، وهي غربي وادي حوران ، ثم بعد المسافة نفسها يمر بمحطة (ايج تو : حيفا ٢) ، وهي شرقي القعرة ، ثم من قرب محطة الرطبة ، ثم بمحطة (ايج تري : حيفا ٣) ، ثم بعد هذه المحطة بـ ٩٠ كيلو متراً يدخل حدود إمارة شرقي الأردن ، فيمر فيها بمحطة (ايج فور : حيفا ٤) ، ثم يخترق صخور حرة الراجل وأوعارها إلى أن يبلغ محطة (ايج فايف : حيفا ٥) ومن بعدها بقليل ينحرف نحو الغرب الشمالي ، ويمر من جنوبي خربة أم الجمال ، ومن محطة المفرق التي على السكة الحجازية ثم من جنوبي قرية الحصن إلى أن يهبط الغور ليجتاز نهر الشريعة جنوبي جسر المجامع ، ثم يصعد إلى قرية كوكب الهوا في فلسطين ، ثم يهبط مرج ابن عامر إلى أن يبلغ مصبه في البحر ، شمالي مدينة حيفا . وطول خط طرابلس من كركوك ٩٥٥ كيلو متراً ، وطول خط حيفا ١١١٢ كيلو متراً .

وكل من هذه المحطات التسع التي عددناها يضارع بليدة ، ففي كل منها ١٠٠ ـ ١٥٠ نفساً من الموظفين والمهندسين الإنكليز والعمال والجنود العرب وعائلاتهم ، وهي محصنة بالأسلاك الشائكة والمخابيء والمعدات الدفاعية ووسائط المخابرة اللاسلكية الكافية لصد غارات البدو المحتملة ، وفي داخلها دور ومكاتب جميلة حاوية كل أسباب الراحة والرفه من ماء وكهرباء ، وبرق وهاتف وبريد ، ووسائط تدفئة وتبريد ، وحوانيت فيها ما تشتهي وتريد من المأكول والمشروب وثمة حدائق وأشجار تجلو العين بنضرتها في تلك الفيافي الجرداء ، مما جعل هذه المحطات شامات في وجنة البادية القفراء ، وحينما انسحب

الفيشيون وحاربوا الإنكليز في تموز سنة ١٩٤١ م خربوا آبار المياه ، وخزانات المحطات في خط طرابلس ، ونهب البدو المحطات بعد أن خلت من ساكنيها فتعطل الخط مدة ، ثم أعيد لما عادت المياه إلى مجاريها ، وفي حادثة رشيد عالي الكيلاني في العراق في شهر أيار من تلك السنة أيضاً ، نهب البدو محطة الرطبة وحوانيتها ودورها ومثلها محطتي ايج تري وايج تو في خط حيفا ، لكن هذا الخط ظل سالماً وجريانه دائماً .



تاريخ البدو

تاريخ البدو هو تاريخ العرب الحضر نفسه في الجاهلية والإسلام . إذ أنهم أرومة العنصر العربي ومادته ، شملهم ما شمل الحضر من بؤسى ونعمى من قبل ومن بعد ، والعرب كما هو معلوم من أعرق الأمم السامية في القدم ، عاصروا جميع الأمم التي اشتهرت في التاريخ كالسومريين والآكاديين والآشوريين والبابلين والمصريين والرومان ، وكل هذه الأمم بادت وانقرضت ، أما هم فقد ظلوا أحياء أعزاء ، والساميون في رأي أكثر المحققين نشؤوا من جنوبي الجزيرة العربية ، وشرعوا منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد يهجرون البادية تباعاً ويبلغون الهلال المخصب أي أطراف العراق والشام ومصر . كانوا مثل بدو هذه الأيام يعيشون من تربية الماشية ، ويتنقلون طلباً للكلأ والماء ، ويغزو بعضهم بعضاً ، وقد تحضر بعد قسم من هؤلاء الساميين ، فأنشؤوا عدة دول في جنوبي الجزيرة العربية وفي شمالها ، فما أنشؤوه في جنوبها ؛ دول المعنيين والسبأيين والحميريين ، التي قامت وازدهرت في حضرموت واليمن ، وتركت آثاراً بارزة حتى الآن من مدن وقصور ومصانع وحصون وكتابات ، ومما أنشؤوه في شمالها ؛ دول الكلدانيين والبابليين الحمورابيين في العراق ، ودول الكنعانيين في فلسطين ، والآراميين في دمشق وحمص وما حولها ، والفينيقيين في سواحل لبنان ، والثموديين واللحيانيين في شمالي الحجاز ، وطسم وجديس في نجد ، والآدوميين والنبطيين في شرقي الأردن وحوران ، وبني السميذع في تدمر ، كل هؤلاء كانوا ساميين وعرباً متحضرين ، بلغوا درجة غير يسيرة من التمدن والرفه ، استمدوها من مصر وبابل السابقتين في هذا المضمار .

وهجرة العرب البدو من جنوبي الجزيرة العربية وأواسطها إلى بوادي العراق والشام ومصر ، وانسياحهم فيها كان يحصل على هيئة موجات تتابع ورودها منذ آلاف السنين ، ولا يزال حتى يومنا هذا ، وتعزى هذه الهجرات إلى أنه في كل قرن أو قرنين يزداد عدد

سكان تلك الديار العربية ، وتضيق بوفرة مواليدهـا فتصير مواردهـا ومعـاطنهـا غير كافيـة لسد الحاجة ، أو تتبدل الظواهر الجوية فيها ، وتتحول الشروط الإقليمية ، فلا تعد المعيشة سائغةً ، كما جرى في مشارق اليمن ، وأدى إلى انحطـاطـه ، وزوال دول المعينيين والسبـأيين والحميريين منـه ، أو تـأتي أعوام قحـط جـائحـة ، أو تحـدث فتن شعواء بين القبـائل بسبب الاختلاف على المراعي والمناهل أو الخيل أو النسـاء ، فتضطر موجـة منهـا إلى أن تنزح نحو الشمال ، وتـزحف وتفتش عن بقـاع أمرع وبراري أوسـع ، فـلا تجـد ذلـك إلا في أطراف العراق والشام ومصر المسماة بالهلال المخصب ، فالموجة القادمة منها إذا وجدت أمامهـا عشيرةً سبقتها في الهجرة تسعى لدفعها واحتلال مكانها بالقوة والغلبة أو بالاتفـاق والانضمام ، فـإذا ظفرت تضطر السابقة المغلوبة إلى مزاحمـة الأسبق والأضعف منهـا . وهكـذا يزحم المتـأخرُ المتقـدمَ ، ويـدفع القـويُ الضعيفَ كل في دوره ، وينـازعـه منزلـه ومرتعـه ، وحينمـا يحرم المغلوب مجال النجعة ، ويترك رعي الإبل إن كان من القسم الأول (أهل الإبل) وينصرف إلى رعي الغنم فيصير من القسم الثـاني (أهـل الغنم) ، ومن هـذه يتـدرج إلى التحضر والاستقرار في القرى والمدن ، وهكذا كلمـا فرغت البـاديـة من موجـة من سكانهـا البـدو ، واحتوتهم المعمورة ، تأتي موجة جديدة من صميم الجزيرة العربيـة فتملأ الفراغ ، وتحل مكان من هجروا البداوة وتحضروا ، وهكذا دواليك ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، تراها في عشـائر شمر وعنزة التي جاءت على هيئة موجات وزاحمت (عربان الديرة) في بادية الشـام ، بعـد أن كانت عربان الديرة هي السـائـدة المنفردة في هـذه البـاديـة ، وقـد استولت عليهـا من عشائر أقدم منها تحولت عن البداوة وذابت في بوتقة الحضارة ، وستنصرف شمر وعنزة يومـاً مـا عن التبـدي وسوف تتجهـان نحو التحضر ، وتخلو البـاديـة ، فتـأتي موجـة لتستولي على أماكنها ، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

يقسم المؤرخون العرب باعتبار الزمان إلى ثلاثة أقسام :

(بائدة) وهم الذين درست أخبارهم ، وطمست آثارهم ، فلم يسجل لهم التـاريخ إلا صفحات مشوهـة ، لا تنفي ظنـاً ، ولا تثبت حقيقـة . وأشهر قبـائلهم : عـاد وثمود وطسم وجديس ، ﴿ فأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطَّـاغِيَـةِ ، وَأَمَّـا عَـادٌ فـأُهْلِكُوا بِرِيْحٍ صَرْصَرٍ عَـاتِيَـةٍ ﴾ الآية ، وأما طسم وجديس فتفانوا كما يزعمون في حادثة نسائية خرافية .

و (عَاربه) وهم اليمنيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم بارح بن قحطان ، وزعم العرب أنه أصل لسانهم ومصدر بيانهم ، وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب	أبينا فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً مالكم غير عجمة	كلام وكنتم كالبهائم في القفر

و (مستعربة) وهم الحجازيون المنتمون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولهذا يسميهم الإفرنج (إسماعيليين) . وإسماعيل نزل الحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ثم صاهر قبيلة جرهم ، فكان له بنون وأعقاب ، ضلوا في مجاهل الزمن ، فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا (عدنان) ، وإليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح .

ومن هذا التقسيم ، قال مؤرخو العرب : إن العرب قبائل شتى ، ترجع في نسبها إلى شعبين عظيمين ؛ شعب قحطان وشعب عدنان ، وذكر مؤرخو الإفرنج هذين الشعبين باسم عرب الشمال وعرب الجنوب ، ويرجعون في ذلك إلى ما كان معروفاً عنهم في قديم الزمان . فإن المصريين في عهد الفراعنة . كانوا يسمون عرب الجنوب « فنطو » أي سكان الفنط والفنط عندهم البلاد الواقعة في جنوبي جزيرة العرب . ويسمون عرب الشمال « شاسو » تصحيف الكلمة العربية « شص » ، أي اللص الحاذق ، لكثرة سلبهم وغزوهم الناس ، وقد قال العلماء المتأخرون : أن لأهالي قسمي ديار العرب مميزات لا تنكر ، ففي الشمال مصفحو الرؤوس ، وفي الجنوب الفطح ، وفي الشمال : اللغة العدنانية التي نزل فيها القرآن ، وفي الجنوب : اللغة القحطانية ، والتباين بين اللغتين كان كبيراً ، وكان النزاع بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية (المعدية والنزارية أو القيسية كما صارت تدعى بعد) على قدم وساق منذ أقدم العصور ، وقد زاد هذا النزاع شدة مع الزمان ، حتى صار من الأمور المميزة لقوم من قوم ، وتعد في يومنا عشيرتا طيء وشمر الضاربتان في الجزيرة الفراتية من القحطانية ، ومثلهم الموالي والعقيدات والأبي شعبان ، وتعد عنزة وبنو خالد والسردية من العدنانية .

قسمت المعلمة الإسلامية في مادة (بلاد العرب) هذين الشعبين على النحو الآتي الذي نعربه ، قالت : تتفرع من قبيلة كهلان اليمانية القحطانية : الأحياء الآتي ذكرها :

(١) بنو طيء ؛ وقد أقاموا منذ نحو ألفي سنة في جوار جبليهم الشهيرين وهما أجأ وسلمى ، وقد سمى السريان العرب كلهم طائيين من باب تسمية الكل باسم الجزء ، ولأنهم كانوا متصلين بقبائل هذا الحي أكثر مما كانوا متصلين بسائر القبائل ، وبنو طيء يعرفون اليوم باسم (شمر) وهو اسم أحد بطونهم الذي تسلط على من بقي منهم . وكان مقام الشمريين في قرية اسمها (توران) ، على ما قاله ياقوت في معجمه ، إذ يذكر أنها قرية في أرجاء أحد جبلي طيء لبني شمر من بني زهير ، ولا يتسمى اليوم باسم طيء إلا عشيرتان في الجزيرة ، وقد بقيتا تابعتين لشمر ، لكنهما لا تدفعان لها خوة[1] وتعتبرهما متساويتين معها وقد هبط الشمريون أرض الجزيرة في القرن السابع عشر للميلاد ، ولهم فيها السيادة إلى اليوم . وكان قد دفعهم إليها عنزة ، وقد ساقوهم من بادية الشام .

(٢) قبائل همدان ومذحج ، وقد بقي معظمهم في اليمن ، ويتصل بمذحج بلحارث ، وهم يسكنون إلى هذا العهد جنوبي شرقي الطائف ، وكان لهم يد قوية في فتح العراق في خلافة عمر .

(٣) بنو عاملة وجذام ، وقد أقاموا في فلسطين منذ زمن قديم ، واللخميون الذين شادوا على الفرات مملكة الحيرة ، وبنو كندة الذين لم يسودوا في بلادهم في حضرموت فحسب بل سادوا بني أسد في اليمامة ، وكان أميرهم يسمي نفسه ملكاً ، وكان امرؤ القيس الشاعر المشهور من أهل هذا البيت الشريف .

(٤) بنو أزد ، وكانوا من أحلاف القبائل وهم لم يفتحوا عُمان ويقيموا في جبال السراة فقط ، بل كان أحلافهم الغساسنة قد أنشؤوا مملكة في ديار الشام ، وكان الخزاعيون قد استأثروا بمكة مدة من الزمن ، وكان الأوس والخزرج (الأنصار) قد اختصوا لأنفسهم بيثرب (أي المدينة المنورة) .

---

(١) قلت : ليس هنالك سوى عشيرة واحدة تدعى باسم طيء إلا أنها ذات فرق ، أخصها في كرم المحتد : فرقتا العساف والحريث ، فهل هما المقصودتان بكلمة عشيرتين ؟ أما عدم دفع الخوة إلى شمر فصحيح ، وقد استبدلت الخوة حين دخول فارس الجرباء الجزيرة بالمصاهرة ، فقد زوج هذا ابنه صفوق عمشة ابنة شيخ طيء . وكان ذلك في حدود سنة ١٢٢٥ هـ على ما سوف نذكره (راجع أبحاث شمر وطيء في الجزء الثاني من كتابنا هذا) .

والحي الآخر النازل من صلب قحطان هو الذي يضع النساب في مقدمته بني حمير ، أو الحميريين ، ومن هذا الحي بنو قضاعة ، وهم مؤلفون من قبائل شتى بينها بهراء وتنوخ ، وقد نزلوا ديار الشام الشمالية منذ عهد قديم ، ومنهم جهينة وكان لهم الكور المجاورة لوادي أضم ، ومنهم أيضاً بنو عذرة وهم من أقارب جهينة وجيرانهم ، وقد اشتهروا بحبهم العذري ، ومنهم بنو كلب وكانوا نازلين في بادية الشام ، ومنهم بنو بلي ، وكانوا احتلوا شمالي الحجاز وفي خلافة عمر ذهبت طوائف من بلي وجهينة وأقاموا في الديار المصرية .

أما قبائل شمالي بلاد العرب فهي المعروفة أيضاً بالنزارية أو المعدية المسمين باسم جدهم الأعلى في زعمهم ، على حين أن المعدية وردت في كتاب المؤرخ بروكوبس بمنزلة قبائل متحالفة لا اسم رجل ، وكذلك كلمة نزار ، فإنها وردت في كتابة مؤرخة في سنة ٣٢٨ ميلادية اكتشفها المسيو دسو في النمارة في جوار الصفا (شرقي حوران) ، يقول فيها (امرؤ القيس بن عمرو ملك جميع العرب) أنه كان يحكم على بني أسد ونزار ، ثم إن قبائل الشمال انقسمت قسمين عظيمين وهما ربيعة ومضر ، وقد تمزقا كل ممزق قبل الإسلام ، هذا إذا تركنا على حدة حي إياذ (بالذال المعجمة وهو غير إياد بالدال المهملة) ، وهو حي كان عظيم الحول والطول سابقاً ، لكنه انقرض قبل ظهور الإسلام ، فقبيلتا ربيعة ومضر اللتان سادتا في عزهما هاجرتا شطر الجزيرة الفراتية ، وبقي اسمهما مخلداً في كورتي ، ديار ربيعة على الدجلة وديار مضر على الفرات ، ثم نزل تلك الديار بنو تغلب ونمر .

ويتصل بحي ربيعة قبيلتا عنزة وأسد ، وكانتا متحدتين ومتجاورتين كل التجاور في شمالي وادي الرمة ، وكان طريق الحاج من البصرة إلى المدينة يمر بأرضهما . وكانت عنزة قد احتفظت بالسيادة بعد أن طردت قضاعة من ديار العرب في عهد سابق ، وفي منتصف القرن السابع عشر (١١ هـ) احتلت عنزة بادية الشام كلها ، أو كادت ، وأخضعتها لأمرها ، وبنو سباعة في الشمال الشرقي ، والأرولة في الغرب يرجعون إليهم ، ويرى اليوم في العراق من بني أسد ، وبنو وائل متصلون بهم كل الاتصال من جهة النسب ، وقد انقسموا قسمين مهمين ، وهما بكر وتغلب، وقد جرت الحرب بينهما بعد قتل كليب إلى نتائج مشؤومة ، وكان كليب يسود وائلاً ، فانقلبت الحرب ويلاً على القبيلتين الأختين ، فذهبت كلتاهما مع بني نمر من أقاربهما إلى الجزيرة الفراتية ، فاحتل بنو بكر شمالها ، ومن ذلك اسم ديار بكر للبلاد التي نزلوها ، وكانت آمد حاضرتها فسميت باسمهم ، أما

بنو تغلب وغر فإنهم هبطوا جنوبها ، وكانوا على النصرانية ، فلما جاء الإسلام أكرهوا على أداء الجزية ، ويرجع إلى بني بكر بن وائل بنو حنيفة أصحاب اليمامة ، وكذلك جيرانهم بنو شيبان ، ممن يرجع أيضاً إلى ربيعة عبد القيس الذين كانوا يسكنون البحرين ، أما مضر فكان في مقدمتها بنو قيس ، وقد بلغوا من القوة والمنعة منزلة حتى أنه سمي قيسياً كل عربي لم يكن يمانياً ، واليوم ليس من يتسمى بهذا الاسم إلا قبيلة صغيرة من أهل المدر ، نازلة على الفرات وهي تدفع الخوة لبني شمر[1] وفي شرقي هذه القبيلة يقطن بنو عدوان وهم يدينون لشمر أيضاً ، وكانوا ينزلون سابقاً جنوبي الحجاز ، بجانب بني فهم وهذيل[2] ويرجع إلى حي قيس أيضاً هوازن وبني سليم ، وكانوا يقيمون في غربي ديار نجد في شرقي المدينة ومكة ، وفي أوائل القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) اشتد أمر بني سليم ومجاوريهم بني هلال الراجعين إلى هوازن وضاقت البلاد بعددهم العديد حتى خيف على المدينتين المقدستين من جهة الأمن فيها ، فأكرهوا على المهاجرة ، فهاجروا إلى ديار مضر فهبطوا أولاً دلتا النيل ، ثم اضطروا إلى مغادرته قسراً فذهبوا إلى الصعيد ، وفي سنة ٤٤٤ هـ رضوا بالذهاب إلى شمالي أفريقية على شرط أن يعطى كل منهم بعيراً وديناراً ، فأغلب بدو أفريقيا الشمالية يعودون في أصلهم إلى بني سليم وبني هلال . وشهرة بني هلال معروفة إلى هذا العهد في شعر العامة في قلب بلاد العرب نفسها[3] ، وكانوا يعيدون في السابق إلى أحلاف قبائل عامر بن صعصعة ، ومنهم كانوا أيضاً بنو كلاب وبنو قشير وبنو عقيل ، وما زالت بنو عقيل إلى زمننا هذا ذات شأن وخطر في بلاد نجد ، وهم باعة الأباعر إلى القوافل التي تظعن من ديار الشام إلى بغداد ، وهم خفراؤها أيضاً ، ومن عقيل خرج المنتفق ، وكانوا أصحاب عز ومنعة منذ القرن الرابع الهجري وهم لا يزالون كذلك إلى عهدنا هذا ، وديارهم جنوبي العراق .

ويشمل حي قيس بني غطفان ، وفيهم قبيلتان شهيرتان ، وهما عبس وذبيان وقد

---

(١) هذا ما كان قبل عشرين سنة ، ثم صارت قيس (وتلفظ الآن جيس) من أشهر العشائر وأفسدها ، وبعد تحديد الحدود بين دولتي الشام وتركية ظلوا في شمالي الحد واستتركوا وانقطع أذاهم عن سكان البقاع الشامية .

(٢) هؤلاء ليسو العدوان المعروفين في بلاد شرقي الأردن ، بل هم العدوان المنضمون إلى عشيرة الملّي الكردية في ناحية رأس العين من محافظة الجزيرة الفراتية .

(٣) وعلى وقائعهم نظمت القصة المعروفة باسمهم والمنتشرة في أيدي العامة كثيراً .

عرفت الحرب باسمها ، أي حرب (داحس والغبراء) ، وأقوى بطن ذبيان كانت فزارة ، ويرجع إلى مضر أيضاً بنو ضبة وبنو تميم الذين احتلوا الديار التي كان فيها سابقاً بنو بكر وتغلب في نجد ، وتميم قبيلة ضخمة ، انتشرت في كل جهة . وليس في جزيرة العرب بدو خلص بهذا الاسم اللهم إلا في أسفل دجلة في جهة العمارة وما دناها[١] ، بيد أن معظم الحضر من سكان نجد يدعون أنهم من تميم ، وجميع قبائل نجد البدوية هي مضرية ، وهي في عهدنا هذا في شرقي الحجاز ، وهم بنو حرب (مزينة) ، وبيدهم الطريق التي تجمع المدينتين المقدستين ، وفي شرقي هؤلاء قبيلة عتيبة ، العظيمة البطش ، وبين القبيلتين وادي الرمة ، وفي شرقي أرض هاتين القبيلتين بنو مطير ، وممن يرجع إلى مضر بنو خالد ، ومسكنهم في شرقي اليامة ، وقد كسرت شوكة الوهابين من غلوائهم .

وممن يعد في مضر بنو هذيل ، الذين أقاموا وما برحوا يقيمون في الجبال المجاورة لمكة ، ومنهم أيضاً بنو كنانة ، وكانوا في سابق العهد حياً ذا بطش وحول في جنوبي الحجاز ، ومن كنانة (قريش) تلك القبيلة العريقة في القدم والكرم والنجار ، ومن أعظم القبائل سؤدداً[٢] ، واليوم تدعى قريشاً قبيلة صغيرة شاوية نازلة في أرض مكة ، وهي القبيلة الوحيدة البدوية من قبائل ديار العرب تحسن صنع الجبن .

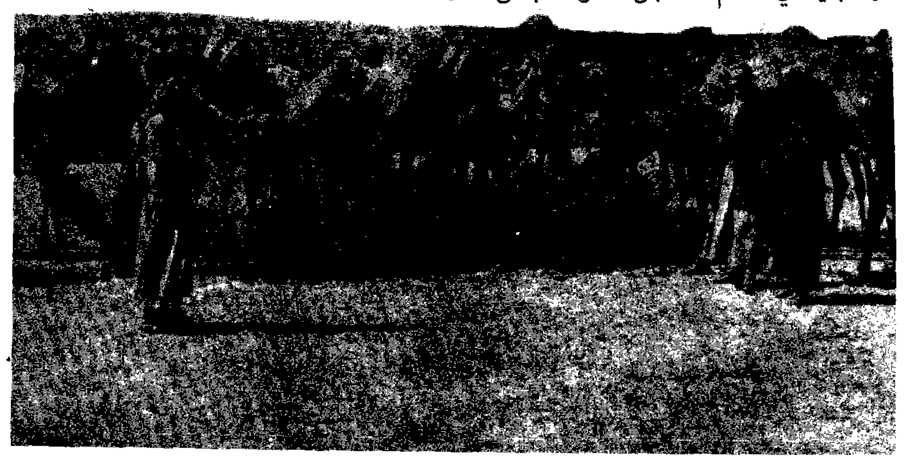
هذه أشهر قبائل العرب في التاريخ ، ومنها تتفرع فروع عديدة لا تحصى ، وكلها ترجع إلى أمهاتها هذه . فلما جاء الإسلام ، وامتدت فتوحاته ، أحدث تغيراً عظيماً في عالم البداوة ، فلقد أمد البدو الجيوش العربية بمقاتلين كثيرين ، فأنشئت مسالح في العراق وديار الشام ، شديدة البأس والبطش ، ثم أنشئت مراكز جديدة في غربي تلك الديار وشرقيها ، وأقاموا فيها جنداً من أهل البادية ، فتضعضت بذلك بعض القبائل ، واضطرت إلى التناحر والتعاهد والتعاقد ، فأضاعت ما كان لها من الاستقلال في ديارها . وقد وقع

---

(١) قلت ومن بني تميم جمع في غربي بغداد وعلى مقربة منها حول نهر أبي غريب وتل عقرقوف أيضاً .

(٢) قلت ثم انقسمت قريش إلى بطون منها جمح وسهم ومخزوم وتيم وعبد الدار وعبد المناف ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم ومن هاشم عبد المطلب وبنوه عشرة منهم عبد الله أبو الرسول ﷺ وأبو طالب أبو علي رضي الله عنه ثم العباس ، والعلويون ينتسبون إلى علي والعباسيون إلى عباس عم النبي . أما الأمويون فهم من بني عبد شمس أخي هاشم .

من التحاسد بين قبائل ربيعة وقبائل مضر ما أكره بني ربيعة على محالفة قبائل اليمن منذ عهد بعيد في القدم ، لأجل مقاومة قبائل مضر .



قلت : أما أخبار هذه القبائل منذ العصور الأولى إلى أن ظهر الإسلام فهي غير متناسقة ولا موزونة ، بحكم الأمية وبعد العهد وغير ذات مكانة تاريخية ، ولا فائدة قومية للأسف . لأن كلها تنازع وتناخر على ما تقتضيه طبيعة البداوة ، بسبب أمور قد تكون تافهة في الأصل ، كالاختصام على فتاة ، أو على فرس أو على منهوب أو بسبب أمور قد تكون ذات بال ، كالاختلاف على المراعي والمناهل ومناطق النفوذ ونحو ذلك ، مما لا يزال ديدنهم حتى يومنا هذا ، وقد دون مؤرخو العرب وأدباؤهم بعض هذه الوقائع وسموها (أيام العرب) ، كأيام العدنانية على القحطانية ، وبالعكس ، وأيام العدنانية فيما بينهم ، كالتي وقعت بين ربيعة ومضر ، ثم التي جرت بين قبائل ربيعة نفسها ، وأهمها ما جرى بين عبس وذبيان ، وهي حرب داحس والغبراء ، وأمثال ذلك مما لا طائل في ذكره ولا يسعه نطاق كتابنا هذا .

بيد أن مؤرخي العرب لم يذكروا لنا القبائل التي كانت قبل الميلاد بقرون عديدة تفد على هيئة موجات إلى الهلال الخصب للدواعي التي ذكرناها ، ولا أولئك الذين كانوا في بادية الشام في جند زنوبيا ملكة تدمر في حربها الرومان في القرن الثالث الميلادي ، ولا أولئك الذين كانوا يهاجمون قوافل التجار ويزعجون مشارف الشام وحواضره ، فعمد الرومان إلى رد جماحهم بإشادة الحصون والمخافر العديدة التي تقدم وصفها ، وهؤلاء

المؤرخـون حصروا أسبـاب هجرة العرب في انهيـار سـد مـأرب ، وحصره بعض المـؤرخين المتأخرين في تحول المسالك التجارية من البر إلى البحر . والواقع أن هجرة العرب البـدو - كما بينا - أقدم بكثير من هذين الحـادثين ، على مـا كان لهما من جليل الخطر في حيـاة بلاد العرب ، ومن الأثر البارز في تنقل العرب من جنوبي شبه الجزيرة إلى شمالها ، فهـذا التنقل بين القبائل كان كثير الوقوع من قبل الميلاد والإسلام ومنذ أقدم العصور ، فقد كان العرب يتعاملون مع البلاد التي تجاورهم إذ كانوا ينقلون تجارة الشرق الأقصى (الهند والصين) من مواني اليمن وحضرموت إلى بلاد الشام ومصر والرومان ، فيأتون بالمعادن والأحجار الكريمـة والطيوب والأفـاويـه والبخـور ، وكانـوا ينقلـون تجـارة الشـام ومصر والرومـان إلى الشرق الأقصى ، وكانت هذه التجارة تسير على إبلهم (سفن البر) مخترقة شبه الجزيرة ، وكان أهل الجنـوب من اليمنيين والحضرميين (المعنيين والسبـأيين والحميريين) السـابقين الأولين للقيـام بهـذه التجـارة ، ذلـك بـأنهم كانوا أكثر من أهل الشمال حضـارة ، لخصب أرضهم ولاتصـالهم بالفرس والهند اتصال جوار قريب . لذلـك فـإن القبـائل التي هـاجرت إلى العراق والشـام واستقرت فيها كانت من قبـائـل الجنـوب ، وكان يلي هـؤلاء في إتقـان النقـل والتجـارة النبطيون أصحاب مدينة البتراء ، والتدمريون أتباع زنوبيا (ملكة تدمر) .

هاجرت بطون من القبائل العربيـة البـدويـة منـذ العصور الأولى إلى أطراف الشـام الشرقية ؛ التماساً لبقاع أمرع ، ورزق أوسع من المعيشـة الضنكـة في شبـه الجزيرة ، فكانت تتحضر إما كلياً أو جزئياً ، وتبقى كـذلـك مـادام الأمن مستتبـاً ، وهيبـة الحكم سـائـدة . وكان السلطان في العراق وفي الشـام متـداولاً بين الأمبراطوريتين الفـارسيـة والرومـانيـة ، فكانت فارس تنتزع الشام من الرومان أحياناً وتضمه إلى العراق التابع لهـا ، وكان الرومـان ينتزعون العراق من الفرس أحياناً ويضمونه إلى الشام التابع لهم ، وكان العرب البدو الـذين نزحوا إلى الشمال ينضمـون في كثير من الأحيـان إلى جيش الرومـان أو إلى جيش الفرس ، متأثرين بما في طبيعتهم البدوية من حب الغارات واستباحة حمى المعمور .

ويظهر من الكتـابـة التي عثر عليهـا المستشرق الإفرنسي دوسـو في سنـة (١٩٠١ م) (١٣١٩ هـ) في النمارة شرقي جبل الـدروز وجنوبي وعرة الصفـا ، وهي شـاهـدة قبر امرئ القيس بن عمرو أحـد ملوك الحيرة اللخميين أنصـار الفرس (٢٢٨ - ٣٢٨ م) أن القبـائـل

العربية التي كانت في القرن الرابع الميلادي في بوادي الشام والعراق هي : معد وأسد ونزار ومذحج ، وتدل هذه الكتابة المحررة باللغة العربية العدنانية أن امرئ القيس المذكور قد أخضع هذه القبائل وجاء إلى مشارف الشام لحربها ، أو لمهمة أخرى ، فلقي حتفه في نمارة المذكورة ودفن فيها فكتبوا له هذه الشاهدة التي تعد أقدم أثر عربي .

وقد كان الرومان في بدء احتلالهم الشام بعد غزوات اسكندر المقدوني رأوا البدو خطراً على الحواضر بسبب طبيعتهم البدوية التي ذكرناها ، فحاولوا غير مرة كسر شوكتهم ، غير أنهم عرفوا بالاختبار أنهم لا يظفرون بهم ظفراً تاماً ما لم يستنجدوهم ويستعينوا ببعض عشائرهم لقطع دابر الشذاذ العاقين منهم . (والحديد لا يفله إلا الحديد) فحالف الرومان شيوخ هذه العشائر ولقبوهم بلقب رؤساء وملوك ومنحوا بعضهم قسماً من السلطة على بادية الشام[1] ، فكان هؤلاء الرؤساء أو الملوك يحكمون أبناء جلدتهم العرب ويسودونهم ، وربما زاحموا الدولة الرومانية ، كلما شعروا بانتقاص حبلها أو ضعف ولاتها ، فترى الأنباط منهم في أواسط القرن الأول للميلاد متقلدين الحكم في شرقي الأردن وفي حوران وحتى في دمشق نفسها . ونرى آل السميذع : أصحاب مدينة تدمر يبسطون نفوذهم على حواضر الشام ، وتمتد مطامعهم حتى العراق ومصر . وقد أفاد بعض مؤرخي الرومان أن الرومان كانوا اتخذوا في مقدمة جندهم كتيبةً من العرب ، كانوا يتقدمون الجيش في محاربة أورشليم على عهد وسبسيانوس وابنه طيطس ، وكان الرومان يدفعون إلى الفرق العربية رواتب معينة ليقوموا بحراسة التخوم الرومانية من جهة البادية ، وليكونوا عدة لهم على أخصامهم الفرس . ويذكرون أيضاً أن شيوخ العرب المتحالفة قدموا ذات يوم على القيصر يوليانوس ، وشكوا إليه تأخر ولاته في دفع رواتبهم ، فغضب يوليانوس وزجرهم بقوله أنه أعد لهم حديداً (لقتالهم) لاذهباً (لأجرتهم) فخرجوا ناقمين على الرومان ولحقوا بجيش الفرس وحاربوا يوليانوس معهم ، فكانت الدائرة عليه .

وجل ما ذكره مؤرخو العرب : أن العرب كانوا يفدون إلى الشام (بلاد الخمر والخمير والأمر والتأمير والديباج والحرير) ، منذ القرن الأول للميلاد بسبب البداوة ، والتكاثر مع

---

(١) كما حالف الإنكليز في عهدنا شيوخ العشائر العربية في المحميات التسع التابعة لمستعمرة عدن ولقبوهم بالسلاطين .

الـزمن ، وتقـاصر مـواطنهم عن كفـايتهم ، وبسبب مـا فطروا عليـه من حب الغـارات واستباحة حمى المعمور ، وذكروا أن قضاعة أول من قدم الشام من قبائل العرب ، فصارت إلى ملوك الروم ، فملكوهم على من في بلاد الشـام من العرب ، فكان أول الملـك لتنـوخ بن مالك بن فهم ، ثم وردت الضجاعم وهم فخذ من سليح ، وسليح بطن من قضاعة ، فتغلبت على تنوخ ، وقامت مقامها في السيادة على بلاد الشـام وأعرابهـا ، حتى جـاء الغسـاسنـة من اليمن في أواخر القرن الرابع الميـلادي ، وقـد يكـون انهيـار سـد مـأرب من جملـة أسبـاب مجيئهم ، واستظهروا على الضجاعم ، وعظم شأنهم ، وحالفوا الرومـان ، وصـاروا عمـالهم على إخوانهم عرب الشام وخفراءهم على الحدود الغربيـة تجـاه الفرس ، كما كان اللخميون المنـاذرة حلفـاء الفرس وعمـالهم على عرب العراق وخفراءهم تجـاه الرومـان ولقبوهم بلقب فيلارك أو أمير أو ملـك ، وكان بعض العرب قبـل مجيء الغسـاسنـة يتقـدم في خـدمـة الرومـان ومنـاصبهم ، حتى أن أحـدهم وهو فيلبوس العربي من : أبنـاء بصرى في حوران صـار قيصراً وملك على روميـة من سنـة ٢٢٤ إلى سنـة ٢٤٩ م ، وكانتِ أيـامـه محمودة في عمران المملكـة الرومانية ورغدها ، وسارت هذه القبـائل العربيـة على دين ملوكهـا فتنصرت وشيـدت في أنحاء حوران والصفا واللجا والبلقاء كثيراً من الأديرة والكنائس ، لا تزال آثارها مـاثلـة ، وكانت لغـة النبطيين والتـدمريين الآراميـة ، ومـا بقي من القبـائـل كانـوا يتكلمـون لغـة عربية ، ولكنها بعيدة نوعـاً مـا عن لغـة القرآن القرشيـة لكثرة مـا كان فيهـا من المفردات والتعابير الآرامية .

وضاقت فيما يبدو وقتئذ بادية الشام بهذه القبائل العربيـة ، فـانسـاح قسم منهـا قبل الإسـلام بقرن أو قرنين إلى براري الجـزيرة الفراتيـة ، ذات الخصب الكثير والخير الـوافر ، وانتشروا فيها واستقروا على نحو ما عملته قبائل بكر وربيعـة ومضر وأنمـار وإيـاد وشيبـان وتغلب ، وكلهم من أعقاب نزار بن معد بن عدنان ، فـاحتل بنو بكر شمالهـا ، ومن ذلـك اسم (ديار بكر) للبلاد التي نزلوها وكانت (آمـد) حـاضرتهـا فسميت بـاسمهم إلى أن قلب الترك أخيراً اسمهـا إلى ديـار بـاقر أي (ديـار النحـاس) محواً لصبغتهـا العربيـة ، فكان في الجزيرة ديار بكر التي قال عنها يـاقوت في معجمـه « هي بلاد واسعـة تنسب إلى بكر بن وائل ... بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وحدها ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ، ومنـه حصن كيفـا وآمـد وميـارفـارقين » . وقـال عن ديـار

ربيعة « ديار ربيعة بين الموصل إلى رأس عين ودنيسر والخابور جميعه ، وما بين ذلك من المدن والقرى ، وربما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة ، وسميت كلها ربيعة ، فإنهم كلهم ربيعة ، وهذا اسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحله قبل الإسلام في بواديه واسم الجزيرة يشمل الكل » . وقال عن ديار مضر « ديار مضر هي ما كان في السهل يقرب من شرقي الفرات ، نحو حران والرقة وشميشاط وسروج وتل موزن » ، قلت : يظهر من هذا التعريف ؛ أن القسم الغربي من الجزيرة الواقع ما بين الخابور والفرات وفيه في يومنا قضاءا الرقة وعين العرب كان من ديار مضر وحاضرتها الرقة ، والقسم الأوسط الواقع ما بين الدجلة والخابور وفيه قضاءا القامشلية والحسكة وجبل سنجار كان من ديار ربيعة وحاضرتها الموصل ، والقسم الشمالي الذي فيه جزيرة ابن عمر وميا فارقين مما ظل داخل حدود الترك كان من ديار بكر وحاضرتها آمد ، وفي هذه الجزيرة حدثت الوقائع بين قبائل ربيعة وأهمها بين بكر وتغلب ، وهي حرب البسوس بين كليب وجساس ، وهي مشهورة ومذكورة في كتب التاريخ والأدب دامت وقتئذ بينهما أربعين سنة ، مات في أثنائها الشيوخ وشاخ الشبان ،وشب الولدان ، وولدت طبقة من الناس لم تكن بالحسبان ، وكان الحرب سجالاً إلى أن تصالحا لآخر مرة على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر اللخميين ، وجرت واقعة بين شيبان وتغلب بقرب الفرات ، فاز فيها بنو شيبان ، ومن قبيلة تغلب هذه نشأ الشاعر المشهور عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي ، عقيد قبيلته وزعيمها ، وقاتل عمرو بن هند المذكور في داره ، وكان ذلك في أواخر القرن السادس الميلادي ، وهو صاحب المعلقة التي مطلعها :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا

مما يدل على أن الأندرين الشاخصة بأطلالها وآثارها[1] حتى الآن في براري حلب الجنوبية كانت عامرة في عهده ، وتنتج خموراً جيدة ، وأن تغلب كانت توافيها وتمتار الخمرة منها ، وكانت النصرانية شائعة فيهم قبل الإسلام لمجاورتهم الروم . وقد أبلوا بلاءً حسناً مع المسلمين في فتح العراق قبل أن يفتح المسلمون الجزيرة .

---

(١) راجع وصفها في كتابنا (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) ص ٣٠٦ ـ ٣١١ .

ذكر الطبري أن مدداً من تغلب وهم نصارى حاربوا الفرس مع المسلمين تحت راية المثنى بن حارثة الشيباني سنة ثلاث عشرة ، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم « نقاتل مع قومنا » ولما فتح المسلمون الجزيرة سنة ١٨ أيام عمر (رضي الله عنه) بقيادة عياض بن غنم لم يحملوا التغلبيين على الدخول في الإسلام ، بل دان به من دان منهم طوعاً ، ومن بقي منهم على النصرانية أبى أن يعطي الجزية حمية وأنفة ورضي أن يعطي الصدقة مضاعفة ، حتى دخلوا كلهم الإسلام مع الزمن ، وكانت قبيلة تغلب مشايعة لخلفاء بني أمية نشأ منها الشعراء المشهورون كعب بن جميل والأخطل والقطامي ، كما نشأ في القرن الرابع الهجري لملوك بني حمدان الذين منهم سيف الدولة ممدوح الشاعر الشهير بالمتنبي . وفي شعر الأخطل إشارات عدة إلى الأيام والوقائع التي توالت في الجزيرة بين قيس وتغلب ، أشهرها : يوم ماكسين على الخابور ، ويوم الثرثار الثاني ، ويوم البليخ ، ويوم البشر الذي تقدم ذكره في الكلام عن جبل البشري .

هذا ما كان في الجزيرة ، أما في براري الشامية فقد كان فيها قبيل الفتح الإسلامي عشائر عربية جليلة أخصها بنو كلب . قال الهمداني في صفة جزيرة العرب (ص ١٢٩) : « أما كلب فمساكنها السماوة ، ولا يخالط بطونها في السماوة أحد » ، وقد قدمنا أن بادية السماوة هي بادية الشام الحالية المشتركة بين العراق والشام ، وقال الهمداني في موضع آخر : « وإن جزت جبل عاملة تريد قصد دمشق حمص وما يليها فهي ديار غسان من آل جفنة وغيرهم ، فإن تياسرت من حمص عن البحر الكبير وهو بحر الروم وقعت في أرض بهراء ، ثم من أيسرهم مما يصل البحر تنوخ ، وقال : وما وقع في ديار كلب من القرى تدمر وسلمية وحمص وهي حميرية وخلفها حماة وشيزر وكفرطاب لكنانة من كلب إلخ . » .

فيظهر من كلام الهمداني أن عدة قبائل عربية كانت منتشرة في براري شمالي الشام وحواضرها ، وأن هذه القبائل هي لخم وأبي القين وجذام وغسان وتغلب وتنوخ وعاملة وبهراء وإياد وبلى وكلب ، كما كان من أمثالهم وبني عمومتهم في أرياف العراق ، إن هذه القبائل العربية في العراق والشام كانت الطلائع الأولى في التمهيد للفتح العربي وللأمبراطورية الإسلامية ، لأن مقامهم بين رافدي العراق ومشارف الشام ، واحتفاظهم بخصائص حياتهم البدوية العربية ، واتصالهم بأهليهم وبني قومهم المحيطين بهم في شبه

الجزيرة ، كل ذلك كان مقدمةً لما تلاه ، بعد أن زحف عرب الجزيرة إليهم محاربين ، لتحل الأمبراطورية الإسلامية محل الأمبراطورية الفارسية والرومانية .

ولما جاء المسلمون من الحجاز لفتح الشام والعراق وجدوا فيها هذه القبائل ، وقد دعاها مؤرخو العرب بالقبائل العربية المتنصرة ، وذكروا كيف أعانت بادئ بدء الفرس والروم على المسلمين في معارك القادسية واليرموك وغيرها ، إلا أنه بعد أن ظهر المسلمون على الأمبراطوريتين المذكورتين ، وعلت كلمتهم ، دخل معظم هذه القبائل في الإسلام مع الزمن ، واشترك في الفتوح ، وأبلى أحسن بلاء في نشر راية الإسلام .

لما توفي النبي ﷺ واستتب الأمر لخليفته أبي بكر رضي الله عنه في الجزيرة العربية بعد حروب الردة شرع يستنفر قبائل العرب للجهاد في سبيل دعوة الإسلام ، فزحفت منها جحافل جرارة عملت في الفتوحات الإسلامية أمجد عمل ورفعت أعظم ذكر وأثر . وقد دامت هذه الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين وضربت من الجزيرة العربية إلى حدود الصين والهند شرقاً والأطلنتيك وأواسط فرنسا غرباً ، وظل الخلفاء المذكورون يندبون قبائل العرب للغزوات ويستجيشونهم للفتوحات بدون انقطاع ، لأنهم مادة الإسلام وعصبه ، فكانت القواصي تأكلهم ، والحروب تفني منهم الألوف المؤلفة ، فلم يبق لهم ذكر إلا في أعقاب متفرقين في الأمصار التي انتجعوها بجملتهم .

ونحن إذا كان بحثنا منحصراً في هذا الكتاب في أعراب بلاد الشام نقول : إن قسماً من تلك القبائل قد تدير وقتئذ بعض بقاع الشام واختلط بعد بالشعوب الشامية القديمة كالسريان الأراميّ الأصل والروم البيزنطيّ الأصل والعرب المتنصرة فأدمجها في قوميته ، وأنطقها بلغته ، وأشركها في مذهبه وقضيته ، ومن لم يتحضر من هذه القبائل وفضل عيش البداوة وظل يضرب في بوادي الشام وأطرافه ويشترك في أحداثه وكوارثه مسيئاً تارة ومحسناً أخرى ، وقد ذكر المؤرخون أسماء بعض من كان من هؤلاء خلال القرون الثلاثة الأولى في عهد الأمويين والعباسيين كبني كلاب وبني القين وبني نمير وبني عقيل وبني مخزوم ، كما ظلوا يذكرون من حين إلى آخر في سياق الأخبار أسماء بعض الرجال من القبائل التي كانت متنصرة فأسلمت بعد واشتركت في الفتوح .

إلا أن العرب لما انبسطوا في الأقطار المفتوحة واستروحوا سيادتها وحضارتها صاروا فيما قاله ابن خلدون ـ وأبدى أسفه ـ يضيعون خشونة البداوة تدريجياً ، فينغمسون في الترف والنعيم ، ويهملون الأمر والنهي ، فاستلمها غيرهم من الموالي والأعاجم ، وخسر العرب الرئاسة فامتهنوا واستهين بهم ، وتناوشتهم ألسنة السفهاء والخلعاء من شعراء الشعوبية موالي وأعاجم أمثال أبي نواس ، وبشار بن برد وغيرهما ، وأنت واجد ما قالوه في الكتب الباحثة عن أدب هؤلاء ، أو بالأحرى قلة أدبهم .

وقد كان الإسلام عفى على أثر العصبية الجاهلية وشدد النعي عليها ، لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في جاهليتهم . لكن هذه العصبية ذر قرنها بعد في أوائل العهد الأموي بين اليمانين ومنافسيهم من القيسيين ، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة ولا سيما في الشام وخراسان والأندلس وكان للشعراء يد طولى في إذكاء هذه العصبية ، ومن قرأ أشعار الأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم يتجلى له ذلك ، ودامت هذه النعرات الخبيثة قروناً عديدة ، وحتى في بلادنا الشامية إلى عهد قريب ، تشب نارها تارة وتخمد أخرى ، سالت بسببها دماء غزيرة ، وخربت أوطان كثيرة ، كانت من أكبر العوامل في ضعف الأمة العربية وتغلب الأعاجم على أمرها وزوال مجدها من تلك الأقطار .

قال الأمير شكيب أرسلان في تعليقه على تاريخ ابن خلدون (ملحق الجزء الأول طبع مصر سنة ١٣٥٥ ص ٤١٠) : « ولمضر فروع جمع عدة قبائل وهو قيس ويقال له قيس عيلان ، ولكثرة بطون قيس غلب على سائر العدنانية ، حتى صار في مقابل اليمن كلها ، فصاروا يقولون قيس ويمن . وفي جميع الديار الشامية انقسم العرب إلى قيس ويمن . وكانت حروب القيسية واليمنية في لبنان متصلة وانتهت بوقعة عين دارة (سنة ١١٢٢ هـ) ، وأما في فلسطين فلا تزال هذه القسمة موجودة ، وأما في الأندلس فكانوا يقولون المضرية واليمنية» . وقال في ص ١٦ « والحقيقة أن هذه العادة نفسها هي التي كانت الأصل الأصيل في فقدهم الأندلس ، بل في نكوسهم عن قلب أوربة بعد أن وطؤوه بأقدامهم وكادوا يستولون على تلك القارة ، وقد كانوا كلما تم لهم الظفر في واقعة على الأجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطاني ومضري ، ففشلوا وذهبت ريحهم ، واضطروا أن

يعـودوا من حيث أتـوا ، ولم ينحصر ضرر هـذه العصبيــة في الأنــدلس والمغرب بـل أفنت القبائل العربية بعضها بعضـاً في الشرق أيضـاً ، وصرفتهم عن التبسـط في الفتوحـات » ، ثم قال : « ولم يكن ليفت في هذه العصبية الغالبة سوى العقيدة الإسلامية التي جعلت الإسلام هو العروة الوثقى ، وجعلت أخوتـه فوق كل رابطـة ، ولـذلـك قيل : إن العرب لم يكونوا ليتحـدوا في يوم من الأيـام إلا بـالإسلام ، ولولا الإسلام لبقوا شعوبـاً وقبـائل يقتتلون في جزيرة العرب إلى يـوم القيـامـة وبـأسهم أبـداً بينهم ، فلمـا جـاء الإسـلام ووحـد بينهم في الدين ، وقال الله تعـالى ﴿ كُنْتُمْ أَعْـداءً فَـأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَـأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانـاً ﴾ لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب بقوة هذا الاتحاد ، ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنـة ، ولم يقف في وجههم شيء ، لكن بعد أن بعد عهدهم بعهـد النبوة وخلافـة الراشـدين ضعفت فيهم العقيدة التي كانت هي مدار العمل عند سلفهم ، وعـادت فتجـددت بينهم العصبيـات الموروثة عن الجاهلية ، فرجعوا يقتتلون على المضرية واليمنيـة في الإسلام ، كما كانوا يقتتلون قبل الإسلام ، ورجع بذلك زرعهم هشيماً وبـذرهم عرجونـاً قـديمـاً ، اهـ » وفي تـاريخ ابن خلـدون « أن أكثر القبـائل الـذي كان لـه الملـك انقرض فلم يبـق لهم ذكر ، وانتبـذ بقيتهم بالقفار ، وأقاموا أحياء بادين لم يفـارقوا الحلل ولا تركوا البـداوة والخشونـة ، فلم يتورطوا في مهلكة الترف ، ولا غرقوا في النعيم ، ولهذا أنشد شاعرهم :

فمن تكن الحضـــارة أعجبتـــه   بـأيّ رجـال بـاديــة ترانـــا »

وقـال : « وأقـامت هـذه الأحيـاء نـاجعـة في صحـاري الجنـوب من المغرب والمشرق بأفريقية ومصر والشام والحجـاز والعراق وكرمـان كما كان سلفهم من ربيعـة ومضر وكهلان في الجاهلية . وانقرض الملك العربي الإسلامي ، وطرق الدول الهرم الذي هو شـأنهـا ، واعتز بعض أهل هذا الجيل غرباً وشرقاً فاستعملتهم الدول وولوهم الإمارة على أحيـائهم وأقطعوهم في الضاحية والأمصار ... إلخ » قلت : وأكبر سبب فيما ذكره ابن خلدون هو أن الدولـة في عهد الأمويين كانت عربية خالصة وكان خلفـاء بني أميـة ينظرون إلى جزيرة العرب نظراً خاصاً ، ويجعلون لها امتيازاً على غيرها من بلاد الإسلام ، فكانت هي فيه الحـاكمـة ، وكان غيرها من البلاد محكوماً ، وكان هؤلاء الخلفاء يحنون إلى حيـاة البـاديـة ، ويهرعون في كل ربيع إلى عيشهـا الحر ، وهوائهـا الطلق وعبير أزاهيرهـا الفيـاح من عرار وشيح وقيصـوم ،

وكانوا يربون أولادهم في البادية بين القبائل ، ليعتادوا على الفروسية والخشونـة ، ويحتفظوا بالأخلاق القومية واللهجة البدوية المهددة بالتغير بحجم الإتصـال بـالأمم المغلوبـة ، فكانت البادية (مدرسة الأمراء) ، وكان لكل خليفـة أموي ولأكثر الأمراء الأمويين مخيمـاً أو منزلاً أو قصراً في أطراف بادية الشـام على مـا قـدمنـاه في بحث هـذه البـاديـة . وكانت القبـائل العربية البدوية مادة الخلافة الإسلامية وجندها الاحتياطي ، فلما قامت الدولـة العبـاسيـة تغير كل شيء ، لأن هـذه الـدولـة شيـدت كيـانهـا على أكتـاف الفرس وتـدبيرهم ، وكانت دولتهم كما قـال الجـاحـظ (أعجميـة خراسـانيـة) . فقـامت خراسـان مقـام جزيرة العرب وأصبحت هي التي تمد الدولة بالموظفين والجند . وقد أقصى العبـاسيون العرب شيئـاً فشيئـاً عن الجيش والدواوين ، وأهملوا شأنهم منذ عهد إبراهيم الإمام الذي أوصى أبي مسلم الخراساني بـأن لا يـدع في خراسـان من يتكلم العربيـة ، ومنـذ عهـد المنصور الـذي استعمل مواليـه وغلمانه في أعماله وصرفهم في مهماته ، وقدمهم على العرب ، كما قـال السيوطي[1] ، فـامتثلت لذلك الخلفاء من بعده ، ومنهم المتوكل الذي قدم الترك ، فسقطت قيـادات العرب وزالت رياستها ، وذهبت مراتبها ، حتى أن الجيش العباسي في عهـد المـأمون لم يكن فيـه جنـدي عربي واحد ، ولما قدم المأمون دمشق كانوا يستعطفونه بأن ينظر إلى عرب الشام ، كما نظر إلى عجم خراسان فيرفض بحنق ويحتج بسخط العرب ، ومناوأتهم لـه ، واستعـدادهم للوثوب عليـه ، ولمـا بـويـع المعتصم سنـة ٢١٨ هـ بعث إلى عمـالـه في الأمصـار أن يسقطـوا من في دواوينهم من العرب ، ويقطعوا العطـاء عنهم ، فشـق ذلـك على العرب وثـاروا ، لكنهم لم ينالوا وطراً ، فانقرضت دولة العرب من ذلك الحين ، وصار جنـد الـدولـة العجم والموالي . وفعل الفاطميون في مصر فعل العباسيين ، فـاستخـدموا الترك والسودان ومن إليهـا وأقصوا العرب .

---

(١) والسبب في ذلـك فيما قـالوه لأن العرب (أهل عصبيـة ، إذا اجتمعوا تغلبوا على الـدولـة ، وفعلوا مـا أرادوه ، لمـا يعلمـه من جرأتهم في طلب الحق ، وتقبيح الظلم جهـاراً ولا يحملـون ضيماً ، وهـو ـ أي المنصـور ـ قـد ارتكب في تأسيس دولته من الغدر والفتك مما لا تصبر عليه النفوس الأبية . وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعـه من أقوالهم الدالة على إباءة الضيم ولو كان فيه ما يسؤوه » . ومن ثم « صار يفكر في إذلالهم ويستنبط له الحيل » فعمـد إلى إلقاء الشقاق بين القيسية واليمنية وجعلهم أحزاباً متحفزين للاقتتال .

وصار العرب (البدو) من ذلك الحين يعتبرون مجرد عنصر مقلق للراحة مفسد للأمن ، يستفاد منه ولا يعطى وجه ولا سلطان ، وكان قصارى ما يسند إليهم خفارة الدروب وحراسة طرق القوافل في الصحراء ، ونقل المتاجر والسلع بين الأقطار ، وربما استخدم بعضهم كفرق مساعدة في الحملات الحربية في مصر والشام والمغرب والسودان ، أما بعض القبائل التي كان يتحيفها الظلم أو تقاسي مرارة الجوع والفاقة ، فكانت تهاجر إما إلى الجزيرة العربية أو إلى مصر والسودان والغرب ، كما كانت الهجرة من الجزيرة مستمرة إلى مصر والشام والمغرب ، أو من بعض هذه الأقطار إلى آخر .

ومما يذكر من أحداث البدو في العهد العباسي أنه في خلافة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) شق بنو نمير عصا الطاعة في اليمامة ، وعاثوا وأفسدوا في الأرض ، فأرسل عليهم الخليفة القائد بغا الكبير التركي في جيش من الأتراك والمغاربة ، فجعل هذا يناشدهم ويدعوهم إلى طاعة أمير المؤمنين ، وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون إلى حربه ، وحملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم ، وفرسانهم وراءهم ، ونعمهم ومواشيهم من ورائهم ، وحملوا فهزموا بغا وجنده ، وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصوداً ، وذلك أنه وجه من أصحابه نحو سرية لتغير على خيل لهم علم بوجودها في مكان من بلادهم ، فبينما جيش بغا على شرف الانكسار ، إذ خرجت هذه السرية ، منصرفة من الموضع الذي وجهت إليه في ظهور بني نمير تنفخ في صفاراتها ، ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم ، فولوا هاربين ، وأسلم فرسانهم رجالتهم ، بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالهم كثير أحد ، وقتلوا عن آخرهم . أما الفرسان فطاروا هرباً على ظهور الخيل ، (إلى آخر ما جاء في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بحث الدولة العباسية ص ٢٥١) .

إن إعراض الخلفاء العباسيين والفاطميين الغريب هذا عن بني قومهم ، واتكالهم على الأعاجم والأجانب في جيوشهم ومناصب دولتهم ، قد فت في عضد العرب عامة والبدو منهم خاصة ، وانقطعت الصلة بين شبه الجزيرة ومركز الخلافة ، وعادت البادية إلى عزلتها وجاهليتها رويداً رويداً ، وكان كلما ذهب جلال الخلافة من النفوس ، وزالت هيبتها من القلوب ، يستشرف ولاة الأطراف إلى الاستقلال ويبلغ إلى تأسيس إمارات بعضها عجمية

كبني بويه ، وبعضها عربية ، كدولة بني حمدان التغلبيين في حلب والموصل وغيرهما (من سنة ٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) ، وكانت دولتهم عربيةً أحيوا بها معالم العرب وآدابهم ، وعرفت بالدولة الحمدانية ، وأشهر أمرائها سيف الدولة ، وقد اشتهر بما نظمه فيه الشاعر الشهير أبو الطيب المتنبي . وقد عد ابن خلدون من القبائل التي كانت منتشرةً في القرن الرابع الهجري في براري الشام والجزيرة بني طيء وبني كلاب وبني كعب وبني العجلان وبني عقيل وبني قشير ، قال : « كانوا كالرعايا لبني حمدان أصحاب حلب ، يؤدون إليهم الأتاوات ، وينفرون معهم في الغزوات » وقد شق بعض هؤلاء عصا الطاعة على سيف الدولة بن حمدان ، وعاثوا في أعماله فكان يداريهم ، لاشتغاله بحروب الروم ، وهم يتمرون شأن البدو ، كلما رأوا انشغال أرباب الحكم عنهم أو ضعفهم ، ولما عيل صبره منهم ، هاجمهم وأوقع بهم في مروج سلمية ، ثم لحقهم إلى الفركلس والغنثر والجباة وهن ثلاث قرى في سيف بادية حمص وإلى تدمر وأرك والسخنة وعرض (التي اسمها الآن الطيبة) والرصافة والرقة ، فبدد شملهم ، وهتك سترهم ، وردم آبارهم ، حتى ذلوا واستأمنوا ، وبذلوا له طاعتهم . وللمتنبي الشاعر قصيدتان رائعتان يصف هذه المواقع ويشفع بهؤلاء الثائرين المنكوبين ، مطلع الأولى :

طوال قناً تطاعنها قصار ... وقطرك في ندى ووغى بحار[1]

ومطلع الثانية :

تذكرت مابين العذيب وبارق ... مجر عوالينا ومجرى السوابق[2]

وله قصيدة ثالثة يشفع ببني كلاب في موقعة أخرى في نواحي بالس « مسكنة » مطلعها :

---

(١) يقول إن الرماح الطويلة التي تطاعنها أنت قصيرة لأنها لا تفيد ، والقليل من عطائك وقتالك كثير فالقطرة منه تكون بمنزلة البحر .

(٢) العذيب وبارق موضعان بظاهر الكوفة في العراق والعوالي الرماح السوابق ومجر ومجرى مصدران ميميان الأول من البحر والثاني من الجري .

بغيرك راعياً عبث الذئاب　　　وغيرك صارماً ثلم الضراب[1]

ومنها :

ترفق أيها المولى عليهم　　　فإن الرفق بالجاني عتاب[2]

وما جهلت أياديك البوادي　　　ولكن ربما خفي الصواب[3]

ولما زالت دولة بني حمدان وزالت روعة الخلفاء في العراق ومصر خلا الجو للقبائل العربية ، فاستفحل أمرهم وصاروا يحتجنون الحكم في بعض الأماكن والأزمان ، ويتقاسمون مناطق النفوذ والسيطرة في بلاد الشام ، فكان شمالها من حصة بني مرداس الكلابيين نسبةً إلى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضرية ، فحكمت هذه الدولة من سنة ٤١٤ ـ ٤٧٣ هـ ، وكان وسطها لبني عليان الكلبيين وجنوبها لبني الجراح الطائيين ، ثم جاء بنو عقيل من كعب من المضرية فورثوا ملك الشمال من بني مرداس وداموا أيضاً من سنة ٣٨٦ ـ ٤٨٩ هـ إلى أن قضى عليهم الترك السلجوقيون فانتهت بهم سيادة العرب في مدن الشام وحواضرها .

أما بقية القبائل التي ظلت متبدية فقد ضعف شأنها ، وخمل ذكرها ، كما قال ابن خلدون ، فمنها من ظل يضرب في فيافي الجزيرة العربية أو البراري الشامية ، ومنها من اندمج في بني طيء لما عظم شأنهم في شمالي الشام ، وصاروا رؤساء البادية وأمراؤها ، وكان في عهد الدول الأيوبية ودول المماليك رئاسة عليا على بادية الشام باسم (أمير عرب الشام) ونالها بعضهم باسم (ملك العرب) ، وكانت هذه الوظيفة وكذلك إمارات بقية العشائر توجه بمراسيم شريفة ، ذكر القلقشندي في صبح الأعشى عدة نماذج منها ، وكان يطلب من أصحابها أن يقوموا بحفظ السابلة أيام السلم ، ويمنعوا أعرابهم من العيث والنهب ، وأن يتأهبوا للجهاد ، ويعاونوا العساكر السلطانية أيام الحرب ، وأن لا يفارقوا البلاد ، ولا ينجعوا (حتى يعبس في وجهها السحاب ، ولا يعودوا حتى تؤذن زروعها المخيمة

---

(١) يقول غيرك من الرعاة تسطو عليه الذئاب فتفسد في رعيته وغيرك من السيوف ينثلم على المضاربة وأراد بالذئاب الثائرين .

(٢) يقول لاتقسو عليهم وارحمهم لأن الرحمة للمذنب كعتاب له .

(٣) وإن مكارمك ونعمك لا تجهل أهل البوادي وطيشهم وجهلهم وذهولهم عن الصواب أحياناً .

بالذهاب) ، إلى آخر ما هنالك من الأوامر والقيود ، وهذا يدل على أن العشائر البدوية في تلك العهود كانت مقيدة بتقاليد ، ومكلفة بواجبات إدارية وحربية ، تكافأ إذا برت بها ، وتعاقب إذا خترت .

ومما يذكر عن أحداث البدو في عهد المماليك أن بدو الجهات القبلية في القطر المصري نموا وطغوا في سنة ٧٠١ هـ (١٣١٢ م) في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأقلقوا البلاد ، وآذوا العباد ، فجهزت الحكومة عليهم حملة أخذتهم من كل جانب ، وأعملت فيهم السيف بدون رحمة ، فهلك كل مقاتلة البدو ، وسبيت نساؤهم ، ونهبت مواشيهم وعروضهم ، قالوا « وكانوا إذا أمسكوا شخصاً منهم وادعى أنه حضري يقولون له قل « دقيق » ليجربوا صدقه بنطقه فإن تبين أنه حضري تركوه وإلا قتلوه » (عن كتاب السلوك في أخبار دول الملوك للمقريزي) قلت : ومثل ذلك ؛ ما كان يجري في زمن السلطان عبد الحميد العثماني مع جند البغالة المخصص لمطاردة البدو الثائرين ، كان يقال للشخص المدعي بأنه غير بدوي ، قل (بصلة) فإذا لفظها باللهجة البدوية ، فسكن الباء وفتح الصاد ، حكم بأنه بدوي ، فألقي القبض عليه وعوقب .

هذا وقد صارت الرئاسة في طيء إلى أبناء رجل طائي اسمه ربيعة . قالوا :

وكان ربيعة أمير عرب الشام في القرن السادس في عهد الأتابك طغتكين ، ثم خلفه في الإمارة ابنه مراء بن ربيعة الذي ذكر له أبو الفداء (ج ٢ ص ٢٤٣) معركةً مع الصليبيين انتصر عليهم فيها . ثم انقسم آل ربيعة إلى ثلاثة أقسام أو أفخاذ ، ولكل من الثلاثة أمير مختص به ، وهم آل فضل بن ربيعة وآل مراء بن ربيعة وهو أخو فضل وآل علي بن حديثة بن عقبة بن فضل ، وكانت منازل آل فضل في الشمال من حمص إلى وادي الفرات وأطراف العراق ، ومنازل آل مراء في حوران والجولان ومنازل آل علي في مرج دمشق وغوطتها ، ولكل من الثلاثة لواحق من أفاريق الأعراب في تلك الأزمان ، أما المنزلة الكبرى والرئاسة العليا فقد كانت في يد آل فضل ، وهم كما قال القلقشندي (اتصلوا برجال السلطنة ، فولوهم على أحياء العرب ، وأقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق ، فاستظهروا برياستهم على آل مراء وغلبوهم على المشاتي) .

وما زال هؤلاء آل فضل أمراء بادية الشام من حمص إلى وادي الفرات وأطراف

العراق وولاة الأمر على عشائر تلك البراري كلها طيلة القرون الأخيرة إلى عهد قريب ، إلا أن أسماءهم قد تبدلت بعد بانقسامهم وتغير رؤسائهم ، فصاروا يسمون آل مهنا بن عيسى ، ثم برز من بين هؤلاء آل حيار ، وهو حيار بن مهنا بن عيسى ، ثم برز من الحياريين آل أبي ريشة رؤساء عشيرة الموالي المعروفون المستقرون في زماننا في شرقي قضاء المعرة ذوو المجد المؤثل والبأس والبطش ، ولم يحتفظ باسم الجد الأعلى إلا أبناء عمهم آل فضل الذين فارقوهم منذ أربعة قرون واستقروا في الجولان (قضاء القنيطرة) .

هذا وبمناسبة ما كان لآل فضل المذكورين قديماً من المكانة ، وما للأدوار التي لعبها أعقابهم ، أمراء عشيرة الموالي الملقبون بآل أبي ريشة ، رأيت في هذا البحث التاريخي أن أخصهم بشيء من التفصيل ، وأسلسل أسلافهم وأخلاقهم وأشرح الأدلة التي عثرت عليها بعد الجهد ، وأوصلتني إلى إماطة اللثام عن ماضيهم ، فأقول :

لما مكثت في سلمية في سني ١٣٣٨ ـ ١٣٤٢ هـ كنت ألحظ حالة الأعراب الذين يكثر ترددهم عليها وتجوالهم في قراها وتقيظهم في مروجها ، ومما كان يسترعي انتباهي وقتئذ : حالة عشيرة (الموالي) التي كانت تفد أحياناً إلى سلمية من مواطنها في العلا شرقي المعرة ، رأيت منتسبيها يشبهون القسم الأول من العشائر الكبيرة أهل الإبل في بعض الأمور ؛ بينما هم من العشائر التالية أهل الشياه والضياع ، ويختلفون عن هؤلاء وأولئك بأن إبلهم ليست من الوفرة بدرجة القسم الأول ، وأن تربيتهم للشياه ، واستثمارهم للضياع ، أقل إتقاناً من أهل القسم التالي المعروفين بالرعية . أما مشابهتهم للأولين ، ففي أنهم يردون النكا ويعطون الصحب ، أي : يشهرون الحرب ويجيرون الملتجئي إليهم ، بحكم أنهم لا يصطلى لهم بنار ، في الجرأة والشراسة وشن الغارات وخوض الغمرات ، وأن رؤساءهم يلقبون بالأمراء مما ليس له وجود في بقية العشائر ويحاطون بالتجلة والاحترام ، لما عرفوا به منذ القديم من كرم المحتد وعلو القدر ، وإذا اجتمع مشايخ العشائر في المؤتمرات التي تعقد الحين بعد الحين في سلمية ، أو في تدمر وأمثالها من البلاد التي على سيف البادية أو وسطها ، لفض الفتن التي كانت تنشب في تلك الفترة بين البدو ، وخاصة بين أولئك الموالي وعشيرة الحديديين يحل أمراء الموالي صدور المجالس مع مشايخ القسم الأول بينما مشايخ القسم التالي عليهم الوقوف في أبوابها والإصغاء لما يقرر فيها ، وتقدم إليهم القهوة قبل الغير من

الكبراء ، حتى قبل ابن الشعلان وابن هذال ، بينما الأول أكبر مشايخ عنزة قوةً وثروةً ، والثاني أكبرها حسباً ونسباً ، والجميع يقرون بأنهم أسياد البادية الشامية كابراً عن كابر ، وملاكوها الأصليون ، وثمة بين العشائر كلها قانون مفاده (ليس لدم الأمير ثمن) أي إذا قتل أحد الأمراء لا تقبل عنه دية بل لابد من غسل دمه بدماء عدة أفراد يماثلونه في نباهة القدر لدى قومهم ، وكما لا يأخذون ثمن دمهم لا يؤدون ثمن الدماء التي يهرقونها ، وبحكم هذا القانون الغريب يجتنب خصومهم توجيه الضرب نحوهم . وكنت أستغرب ؛ كيف أن البدو وخاصةً عنزة بقدر ما كانوا يجلون قدر الأمراء المذكورين ، يزدرون أتباعهم المعروفين بالموالي ، وحجتهم أن هؤلاء ليسوا من أصول معروفة ، ولا تجمعهم قرابة مألوفة ، بل هم أفاريق من خشارة الأعراب ومتشرديهم ومماليكهم ، طوح بهم البؤس واليتم في أزمان سابقة ، والتفوا حول الأمراء وصاروا مواليهم ، ولا يخفى أن المولى عند العرب وسط بين العبد والحر ، والغالب فيه أن يكون معتقاً ، فكل عبد أعتق صار مولى لسيده ، وينسب إليه ، أو إلى قبيلته ، ويطلق المولى أيضاً على : الصاحب والغريب والحليف وغير ذلك بطريق المجاز ، والمولى عند العرب أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد .

ولما أدركت كل هذا ، وغيره مما سوف أذكره ، أيقنت أن لأمراء الموالي وعشيرتهم شؤوناً واعتبارات خاصة ، وأنه يجب أن يكون لهم تواريخ ومجريات سابقة ، جديرة بالاستقصاء والإظهار ، وكنت في سني إقامتي في سلمية ، وجدت في إحدى جولاتي على بعد بضعة كيلو مترات عنها إلى الشمال مسجداً قديماً خرباً في قرية ضريح الشيخ فرج الحسيني المكنى بأبي حية الذي تنتسب شيوخ عشيرة الجملان إليه وتقدم له النذور ، وحول هذا المسجد جبانة فيها قبور كثيرة منها القديم والحديث ، عثرت بينها على قبر له شاهدة فيها اسم (محمد بن عيسى بن مهنا) وتاريخ وفاته (رجب عام ٧٢٤ هـ) ، وما أن لمحت هذا الاسم حتى تذكرت أنه مر علي كثيراً خلال قراءتي تاريخ أبي الفداء وتاريخ حيدر الشهابي ، فأسرعت بعد هذه الزيارة لمراجعتها ، فإذا بي أمام طائفة من الحوادث أجراها أبو هذا الرجل وإخوانه مهنا وفضل وأعقابها في القرن السابع والثامن والتاسع من الهجرة ، وأخرى مثلها ، أجراها قبلهم أقاربهم بنو الجراح في جنوبي الشام وشماليه في القرنين الرابع والخامس أدهى وأمر مما أتاه الموالي والحديديون في عهدنا . وقد تبين لي منها ومن المصادر التي راجعتها بعد حين ، كصبح الأعشى للقلقشندي (ج ٤) والعبر لابن خلدون (ج ٦)

أن آل عيسى بن مهنا فخذ من آل فضل من ربيعة من طيء من كهلان من القحطانية ، كانوا في زمن السلاطين الأيوبيين سيا في دولة المماليك ، كما قال في صبح الأعشى « رؤساء أكابر وسادات العرب ووجوهها ، ولهم عند السلاطين حرمة كثيرة ، يحلونهم فوق كيوان ، وينوعون لهم أجناس الإحسان » ، وتبين لي أنه كان لهم مداخلة في إدارة بلاد الشام وسياستها في تلك القرون ، وأثر عظيم في زوال عمرانها ، وانحطاط شأنها ، اللذين حصلا حينما اختلت الأمور في أواخر دولة المماليك ، على النحو الذي أدركناه من أعراب زماننا عقيب زوال الدولة العثمانية .

وساقني هذا الاطلاع لاقتفاء أثر هؤلاء (آل عيسى) وخاتمتهم ، ومعرفة العهد الذي انقرضوا فيه وكيف تم ذلك ، وهل بقي منهم في زمننا أعقاب ، فوجدت الشهابي في حوادث سنة ١٠٣٥ هـ يلقب بعض أمراء البادية بآل أبي ريشة وينعتهم بالحياريين ، كما نعت عيسى بن مهنا وأعقابه من قبلهم ، وقد استرعى نظري هذا اللقب ، وتذكرت أن أمراء عشيرة الموالي في زمننا ما زالوا يعرفون بآل أبي ريشة ، فصرت أفتكر في : هل أن هؤلاء هم من أعقاب عيسى بن مهنا أبو صاحب القبر الذي عثرت عليه في شمالي سلمية ؟ وهل بالإمكان ربط سلسلتهم بتلك الأرومة ؟ ولما سألت بعض هؤلاء الأمراء وبعض شيوخ العشائر المجاورة لهم : وجدتهم في غفلة عن ذلك يزعمون مزاعم ، لا تستند على وثيقة خطية ، أو رواية مدعومة ببرهان ، فهم ينسبون أنفسهم إلى رجل من العباسيين ، دعوه حمد العباس ، لا يدرون في أي قرن كان ، ويجعلون حمداً هذا من أعقاب رجل دعوه (شقير) ، ويجعلون شقيراً أحد أبناء الخليفة العباسي هرون الرشيد ، من أم بدوية ، زوجوه بها في أسطورة ، لا تنطبق على تاريخ ذلك الخليفة العظيم الذي لم ينجب ولداً باسم شقير ، ولا ذريةً تركت الحضارة ، وأوغلت في البداوة ، ولما خاب أملي بهؤلاء ، رجعت أنقب صحائف التاريخ الباحثة عن كوائن بلادنا في العصور المتأخرة ، وهي قليلة جداً ، فوجدت في بعضها ، ما ينقع غلتي ، فأولها كتاب الجغرافيا المتمع المسمى : جهان نما ؛ لمؤلفه العالم التركي الشهير كاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ صاحب كشف الظنون ، والمطبوع بعد وفاته سنة ١١٤٢ هـ في الأستانة ، فقد عثرت بغتةً في بحثه عن سلمية على ما تعريبه : وما برح هذا اللواء ـ يعني سلمية وقد كانت في أيامه مركز لواء ـ في حوزة أمراء الموالي ، وهؤلاء الأمراء ينسبون إلى (آل حيّار) من قبائل العرب ، وهم ينقسمون إلى

فريقين آل حمد وآل محمد وتصل مناطق نفوذهم إلى ضواحي حلب والرقة ، وفي رواية أن حمد أبا نعير أبلى مرةً بلاءً حسناً في معركة على عهد أحد سلاطين مصر ، وكان يضع على رأسه ريشةً ، فدعي بأبي ريشة ، وأنعم عليه ذلك السلطان ، بمبلغ عظيم من الذهب ، فاشترى به ألف عبد ليقوى بهم على قومه ، فسميت أعقاب هؤلاء العبيد بالموالي وهؤلاء لا يكون منهم أمراء . ا هـ .

وما أن لمحت هذه الكلمات حتى خيل لي أنني وجدت ضالتي المنشودة ، فقد استدليت مما ذكره كاتب جلبي أن : اسم الموالي وصيت أمرائهم ، كانا معروفين في عهده ، أي في القرن الحادي عشر ، وقد وافق بذلك المؤرخ الشهابي الذي ذكرهم في أحداث سنة ١٠٣٥ هـ ، ووافقه أيضاً بنسبتهم لآل الحيار ، وبتلقيبهم بآل أبي ريشة ، وزاد عليه ببيان سبب هذا اللقب ، كما وافق المؤرخ التركي نعيماً والمؤرخين الدمشقيين المحبي والمرادي كما سيأتي بيانه . إن هذا الاستدلال وبقاء لقب أبي ريشة لاحقاً بأمراء الموالي المعاصرين لنا ، حملاني على التفكير بأن هؤلاء الأمراء هم من أعقاب عيسى بن مهنا آل فضل الطائيين الذين كانوا ـ كما قال القلقشندي وغيره ـ ملوك البادية وأعظم ساداتها في عهد السلاطين الأيوبيين والسلاطين المماليك ، وأن هذا هو السبب في كون أعراب زماننا يجلون شأن هؤلاء الأمراء ويحلونهم الصدر الأول في المجالس والمؤتمرات ، وقوى فكري هذا ، ما نعرفه عن عشائر الأعراب من أن أسماءها تتبدل مهما عظمت ، في كل قرن أو قرنين تبعاً للمتأمر عليها ، وقد تسمى العشيرة باسم أميرها أو شيخها ثم باسم ابن هذا أو ذاك بعد وفاته إذا انفصلت عن الأرومة وتغيرت ، فقد تغيرت أسماء القبائل التي كانت معروفة بدخول الإسلام الشام في القرن الثالث والرابع ، وما عرف من أسمائها في القرن السادس والسابع تبدل في التاسع والعاشر ، والأمثلة على ذلك كثيرة كما سوف يأتي . والإمارة والمشيخة ترجع على الأغلب لمن كان له أصل قديم من بيته ، أو من كان أذكى قومه جناناً ، وأبسطهم بالكرم يداً ، وأشجعهم يوم النزال قلباً ، وأصلبهم في الحوادث عوداً ، ثم تنتقل بالوراثة ، حتى ينقطع العقب ، أو ينضب معين الكفاءة .

سأذكر الآن أدلتي على أمراء الموالي الحاضرين المعروفين بآل أبي ريشة متحدرون من مهنا الثاني بن عيسى بن مهنا الأول الفضلي الربيعي الطائي ، مبتدئاً بأصول آل عيسى،

ونـازلاً نحو فروعهم ، مع بيـان بعض أحـداثهم في دول الأيـوبيين والسـلاطين المماليـك والعثمانيين ، مستنداً إلى المصادر التي أتيح لي الوصول إليها ، خدمة لهذه الناحيـة الغـامضـة من تاريخ بلاد الشام :

ذكر القلقشنـدي في صبح الأعشى (ج ٤) مـا خـلاصتـه ؛ بـأن من جملـة القبـائـل العربيـة القحطـانيـة بنـو طيء بن أدد بن زيـد بن يشجب بن عريب بن أزد بن كهلان والنسبـة إليهم طـائي ، وإليهم ينسب حـاتم الطـائي المشهور بـالكرم ، وأبو تمـام الطـائي الشاعر المشهور ، وقال ابن خلـدون في تـاريخـه « إن بني طيء نزلوا جبلي أجأ وسلمى من بـلاد نجـد ، فعرفـا بجبلي طيء إلى الآن ، ثم افترقـوا في أول الإسـلام زمن الفتـوحـات في الأقطار ، ومنهم أمم كثيرة ، ملؤوا السهل والجبل ، حجازاً وشاماً وعراقاً » قال : « وكانت الرياسـة على طيء في الجـاهليـة لبني هنـاء ، ومن ولـده إيـاس بن قبيصـة الـذي أدال بـه كسرى أبرويز النعمان بن المنـذر حين قتلـه ، وأنزل طيـاً بـالحيرة مكان لخم قـوم النعمان ، وولى على العرب منهم إياساً هـذا ، فكانت لـه ولأعقـابـه الريـاسـة إلى حين انقراض ملـك الفرس ، ولم تـذكر التـواريـخ أخبـار بني طيء في القرن الأول والثـاني والثـالث على عهـد الأمويين والعباسيين ، وربما كان ذلـك لعـدم ظهور مـا يستوجب الـذكر منهم خلال غمرة الفتـوحـات الإسـلاميـة والحضـارة العربيـة التي سطعت في تلـك القرون ، إلى أن قـالت التواريخ أن رئـاسـة طيء في القرنين الرابـع والخـامس في عهـد الخلفـاء الفـاطميين الـذين بسطوا نفوذهم على بلاد الشـام أيضـاً كانت لبني الجراح منهم ، وعـدوا من كبرائهم مفرج بن دغفل وابنه حسان ، وذكروا لهما حوادث وثورات عديدة ، قاما بها لما ضعف شـأن الخلفـاء المذكورين في الرملة وطبريا من فلسطين وفي أفامية (قلعة المضيق) من شمالي الشام . وفي القرن السادس انتقلت رئـاسـة طيء إلى بني ربيعـة . قـال ابن خلـدون : « ويزعم كثير من جهلة البادية من بني ربيعة أنهم من ولد سميع بن جعفر بن يحيى البرمكي ، وأن سميعـاً هـذا هو الذي ولدته العباسة أخت الرشيـد من جعفر المـذكور ، وكانت سبب نكبـة البرامكـة ، زعم كاذب لا أصل له ، وحاشا لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته وفي بنـات كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأمثالهم » .

قلت إن أمراء الموالي الموجودين في عهدنـا في قضـاء المعرة ، ومثلهم أمراء آل فضل في

قضاء الجولان ، وشيوخ طيء في الجزيرة ، ما برحوا يدعون الانتساب إلى العباسيين ، فلعل منشأ هذا الادعاء من ظنهم بأنهم من أعقاب الولد الذي وضعته العباسة أخت الرشيد المذكور آنفاً ، فلو صح هذا الزعم ـ وهو غير صحيح كما نفاه ابن خلدون وغيره ـ إذن لوجب أن يكون انتساب هؤلاء إلى العباسيين من جهة الأم لا من جهة الأب ، بينما هم ، لا من هنا ولا من هناك ، ولا علاقة لأي منهم بالعباس وولد العباس .

ثم قالوا : وكان ربيعة أمير عرب الشام في عهد الأتابك طغتكين ، ثم خلفه في الإمارة ابنه مراء بن ربيعة الذي ذكر له أبو الفداء حادثة خطيرة مع الصليبيين سنة ٥١٠ هـ ، وانتصر فيها عليهم ، ثم انقسم آل ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ : هم المشهورون ، ومن عداهم أتباع لهم وداخلون في عددهم ، ولكل من الثلاثة أمير مختص به ، وهم آل فضل بن ربيعة وآل مراء بن ربيعة وهو أخو فضل علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة ، قال القلقشندي في نهاية الأرب : هؤلاء سادات العرب ووجوهها ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة وصيت عظيم إلى رونق في بيوتهم ومنازلهم ، تقاسموا بلاد الشام فكانت منازل آل مراء بن ربيعة من بلاد الجيدور والجولان فجنوب ، ومنازل آل علي بن حديثة من دمشق وغوطتها ومنتهاهم إلى الجوف . أما آل فضل فكانوا رأس الكل وأعلاهم درجة ، ومنازلهم من حمص إلى ضفتي الفرات وأطراف العراق ، وقد تشعبوا بعد شعباً كبيراً أجلها قدراً آل عيسى ، وتشعب آل عيسى بعد إلى عدة بيوت ، أجلها قدراً بيت مهنا بن عيسى وبيت فضل بن عيسى وبيت محمد بن عيسى (الذي عثرت على قبره في سلمية) وغيرهم ، قال ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار (وهؤلاء آل عيسى في وقتنا (أي في القرن السابع والثامن) هم ملوك البر فيما بعد ، والتقرب بمشارف الشام والعراق وبرية نجد وسادات الناس ولا تصلح إلا عليهم العرب ، وأما الإمرة عليهم فقد جرت العادة أن يكون لهم أمير كبير منهم يولى عن الأبواب السلطانية ، ويكتب له تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوة بالنواب إن كان حاضراً ، أو يجهز إليه إن كان غائباً ، ويكون لكل طائفة منهم كبير ؛ قائم مقام أمير عليهم ، وتصدر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة إلا أنه لا يكتب له (أي للقائم مقام) تقليد ولا مرسوم » .

ولم يصرح لأحد منهم بإمرة على العرب بتقليد من السلطان إلا من أيام الملك العادل

أبي بكر أخي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أمر منهم ماتع بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة ، ولما توفي ماتع سنة ٦٣٠ هـ ولي عليهم ابنه مهنا وهو مهنا الأول ، وحضر مهنا هذا مع الملك المظفر قطز قتال جيش التتر سنة ٦٥٨ هـ في عين جالوت (غوربيسان) فأجازه قطز بسلمية ، نزعها من الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة وأقطعها له (أبو الفداء ج ٣ ص ٢١٤) ثم ولى الملك الظاهر بيبرس ابنه عيسى ووفر له الإقطاعات على حفظ السابلة ، وعيسى هذا على ما ذكره ابن إياس في تاريخه (ج ١ ص ١٠٢) هو الذي جاء بالإمام أحمد العباسي ، بعد حادثة هولاكو في بغداد ، التي جرت سنة ٦٥٦ هـ ، وقضى بها على الخلافة العباسية ، وكان أحمد فاراً من القتال ، مختبئاً عند أناس من قبيلة الأمير عيسى ، فأوصله إلى مصر إلى الملك الظاهر بيبرس ، وشهد هو وقومه أنه من نسل العباسيين فبويع له بالخلافة ، واستمرت هذه الخلافة الصورية فيه وفي أعقابه إلى أن استخلصها منهم السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣ هـ وقضى عليهم .

وذكر ابن تغري بردى في (المنهل الصافي) أن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا أمير آل فضل كان ملك العرب في وقته ، وكان له منزلة عظيمة عند الملك الظاهر بيبرس ، ثم تضاعف عند الملك المنصور قلاوون بحيث ضاعف حرمته وإقطاعه وملكه مدينة تدمر بعقد البيع والشراء وأورد عنه ثمنها لبيت المال ليأمن غائلة ذلك . وكان عيسى كريم الأخلاق ، حسن الجوار ، مكفوف الشر ، لم يكن في العرب وأمرائها من يضاهيه ، وعنده ديانة ، وصدق لهجة ، لا يسلك مسالك العرب في النهب وغيره ، وكان به نفع للمسلمين ، منها أنه كان يكف العدو عن حلب ومعاملتها ، ومنها في وقعة الملك المنصور قلاوون مع التتار بحمص سنة ٦٨٠ هـ (وقد حدثت هذه المعركة الهائلة في السهل الذي بين حمص وتلبيسة ، وكادت الدائرة تدور على المسلمين ، لولا ثبات الملك قلاوون بنفسه) ولولا مجيء الأمير عيسى بعربه من سلمية ، واعتراضه جيش التتار من خلفهم فتمت هزيمتهم به ، هذا وأكبر ظني أن عيسى المذكور هو الذي قال عنه كاتب جلبي في جغرافيته (جهان نما) أنه كان في هذه المعركة حاملاً ريشة على رأسه ، فلقب بأبي ريشة ، وبقي هذا اللقب في أعقابه إلى يومنا ، وأنه هو الذي نال من الملك المنصور قلاوون عطاءً عظيماً ، فاشترى به عبيداً ومماليك أعتقوا بعد حين ، ودعوا بالموالي وبقيت أعقابهم إلى يومنا ملتفة حول هؤلاء

الأمراء (آل أبي ريشة) ، وانضم إليهم بعد عدد غير يسير من شذاذ الأعراب ، انـدرجوا في لفيفهم وحلفهم ، فصـارت من مجموعهم عشيرة الموالي التي سـوف نبحث عنهـا بـالتفصيـل في الجزء الثاني من كتابنا .

ولما توفي عيسى سنة ٦٨٠ هـ دفنوه في جبانة الشيخ فرج شمالي سلمية على ما جـاء في كتاب (شذرات الـذهب في أخبـار من ذهب ج ٦ ص ٢٢) ، وأعقب عيسى عـدة أولاد ، أخصهم مهنـا وفضل وسليمـان وحـارثـة ومـوسى ومحمد ، ولى الملـك المنصـور قـلاوون منهم (مهنا) في الإمارة فلقب بحسـام الـدين ، وصـار كبير آل عيسى النـازلين في براري سلميـة وحماة وتدمر بل أمير البادية الشاميـة كلهـا ، وقـد ردد أبو الفـداء وابن الوردي وابن حجر العسقلاني وحيدر الشهابي في تواريخهم ، والمقريزي في خططه ، وابن بطوطـة في رحلتـه ، ما كان للأمير مهنا الثاني بن عيسى المذكور في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن من المكانة لدى سلاطين مصر ونوابهم في بلاد الشام ـ وذلك يؤيـد مـا قـالـه مؤلف مسـالـك الأبصـار أيضاً ـ وذكروا تداخله في بعض أمور الدولة ، وكيف أن الملـك الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٩٢ هـ بعد أن نزل ضيفاً على الأمير مهنـا قبض عليـه ، وعلى أخويـه محمد وفضل وأرسلهم معتقلين إلى مصر إلى أن جلس الملك العادل كتبغـا ، فـأفرج عنهم وعـاد مهنـا إلى سلمية ، وكان مقره في قرية تل أعـدا ، وأنـه في عهـد الملـك النـاصر محمد بن قلاوون علت منزلته ، وقويت وجاهته جـداً ، بحيث استطـاع أن يشفع في سنـة ٧٠٧ هـ بـالعـالم المصلح الكبير أحمد بن تيمية ، وقـد كان مسجونـاً في مصر فـأخرجـه ، وأن يلتمس نصب أبي الفـداء ملكاً على حمـاة فيجـاب إلى طلبـه ، ويحـدثنـا المقريـزي في كتـابـه (المـواعـظ والاعتبـار ج ٢ ص ٢٢٥) عن أسباب السعادة والوجاهة اللتين كانتـا للأمير مهنـا عنـد الملـك النـاصر قلاوون بما ننقله بالحرف لطرافته ودلالته أيضاً على مبلغ عناية سلاطين ذلك العهد بالخيل وأربابها . قال « إن الملك الناصر محمد شغف باستدعـاء الخيول من عرب آل مهنـا وآل فضل وغيرهم وبسببها كان يبـالغ في إكرام العرب ويرغبهم في أثمـان خيولهم حتى خرج عن الحـد في ذلـك فكثرت رغبـة آل مهنـا وغيرهم في طلب خيول من عـداهم من العربـان ، وتتبعـوا عتاق الخيل من مظانها ، وسمحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتهـا حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم فتمكنت آل مهنا من السلطان وبلغوا في أيامه الرتب العليـة ، وكان لا يحب خيول برقة وإذا أخذ منها شيئـاً أعـده للتفرقـة على الأمراء البرانيين ، ولا يسمح بخيول آل

مهنا إلا لأعز الأمراء وأقرب الخاصية منه ، وكان جيد المعرفة بـالخيل وشيـاتهـا وأنسـابهـا ، ولايزال يذكر أسماء من أحضرها إليه ومبلغ ثمنهـا ، فلمـا اشتهر عنـه ذلـك جلب إليـه أهل البحرين والحسـاء والقطيف وأهل الحجـاز والعراق كرائم خيولهم ، فـدفع لهم في الفرس من عشرة آلاف درهم إلى عشرين إلى ثلاثين ألف درهم عنها ألف وخمسمئة مثقال من الـذهب ، سوى ما ينعم به على مالكه من الثياب الفاخرة له ، ولنسائـه ومن السكر ونحوه ، فلم تبق طائفة من العرب حتى قادت إليه عتاق خيلها ، وبلغ من رغبة السلطان فيها أنه صرف في أثمـانهـا دفعـة واحـدة ألف ألف درهم في يوم واحـد ، وتكرر هـذا منـه غير مرة ، وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا الستين ألف درهم والسبعين ألف درهم ، واشترى كثيراً من الحجور بالثمانين ألفاً والتسعين ألفاً ، واشترى بنت الكرشا بمئة ألف درهم عنهـا خمسـة آلاف مثقال من الذهب ، وهذا سوى الإنعـامـات بـالضيـاع من بلاد الشـام . وكان من عنـايتـه بالخيل أنه لا زال يتفقدها بنفسه فإذا أصيب منها فرس أو كبر سنـه بعث بـه إلى الجشـار ، وتنزي الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه وكتاب الإصطبل تؤرخ تاريخ نزوهـا واسم الحصـان والحجرة ، فتوالـدت عنـده خيول كثيرة اغتنى بهـا عن الجلب ، ومع ذلـك لم تكن عنـده في منزلـة مـا يجلب منهـا ، وبهـذا ضخمت سعـادة آل مهنـا ، وكثرت أمـوالهم وضياعهم ، فعز جانبهم ، وكثر عددهم وهابهم من سواهم من العرب » ثم قال : « وبعث إليـه الأمير مهنا فرساً شهباء على أنها إن سبقت خيل مصر فهي للسلطان وإن سبقها فرس ردت إليه ، ولا يركبها عند السباق إلا بدوي قـادهـا ، فركب السلطـان للسبـاق في أمرائـه على عادته ، ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا ، وأرسلت الخيول من بركة الحاج على عـادتها وفيها فرس مهنا وقد ركبهـا البـدوي عريـاً بغير سرج ، فـأقبلت سـائر الخيول تتبعهـا حتى وصلت المدى وهي عري بغير سرج ، والبدوي عليها بقميص وطاقية ، فلما وقفت بين يدي السلطان صاح البدوي السعادة لك اليوم يا مهنا لا شقيت ، فشق على السلطان أن خيلـه سبقت ، وأبطل التضمير من خيله ، وصارت الأمراء تضمر على عادتها ، ومـات النـاصر محمـد عن أربعـة آلاف وثمـانمئـة فرس وترك زيـادة على خمسـة آلاف من الهجن الأصـائل والنوق المريات والقرشيات سوى أتباعها وبطل بعده السباق ، فلما كانت أيام الظـاهر برقوق عني بالخيل أيضاً ومات عن سبعة آلاف فرس وخمسـة عشر ألف جمل ، ا هـ » .

وقد أخطأ مهنـا بعـد وأضـاع السعـادة والوجـاهـة اللتين كان يتمتع بها هو وقومـه ،

وذلك لما قام في سنة ٧١١ هـ وأعان نائب حلب قراسنقر الثائر على الملك الناصر وفر من جيش هذا الملك إلى أنحاء العراق ، وبقي هو وعشيرته آل عيسى شريداً وبعيداً عن سلمية إلى أن عفي عنه في سنة ٧٣٢ هـ ورجع ثم مات .

قال المؤرخ إسماعيل بن كثير الدمشقي في كتابه (البداية والنهاية) في حوادث سنة ٧٣٥ هـ : « وفيها مات حسام الدين مهنا أمير العرب بالشام . وهم يزعمون أنهم من سلالة جعفر بن يحيى البرمكي من ذرية الولد الذي جاء من العباسة أخت الرشيد . وقد كان مهنا يحب الشيخ تقي الدين بن تيمية حباً زائداً هو وذريته وعربه ، وله عندهم منزلة وكرامة يسمعون قوله ويمتثلونه ، وهو الذي نهاهم أن يغير بعضهم على بعض وعرفهم أن ذلك حرام ، وله في ذلك مصنف جليل . وكانت وفاة مهنا ببلاد سلمية ودفن هناك ، اهـ » .

وأعقب مهنا عدة أولاد منهم موسى وسليمان وأحمد وفياض وحيار كما أن أخيه فضل جد آل فضل الذين في قضاء الجولان على ما نظن أعقب سيف وعيسى ومعقل ومن ثم صارت تنتقل إمارة البادية تارةً إلى أبناء مهنا وتارة إلى أبناء عمهم فضل ، فكانوا يتقاتلون عليها ، وتخرب من جراء معاركهم المتوالية القرى والمزارع حول المعرة وحماة وسلمية ، كما ذكره ابن الوردي في حوادث سنة ٧٤٨ هـ وما زال الأمر على ذلك إلى أن نزح آل فضل إلى الجولان وإلى أن تولى أحد أبناء مهنا الأمر في قضاء المعرة وهو حيار بن مهنا المتوفى في سنة ٧٧٧ هـ .

ومن حيار هذا نشأ فيما يظهر فرع من آل مهنا بن عيسى سموا من ذلك الحين بالحياريين لأنه بعد وفاة حيار خلفه في الإمارة ابنه محمد الملقب بنعير إلى أن قتل في سنة ٨٠٨ هـ ثم خلف محمداً ابنه معجل وذكر اسمه (العجل بن نعير) إلى أن قتل هذا أيضاً في سنة ٨١٦ هـ وبقتله انكسرت شوكة آل مهنا . وكان لكل من هؤلاء الأمراء وقائع وثورات عديدة ذكرها مؤرخو تلك العصور منهم ابن تغرى بردى في المنهل الصافي والقلقشندي في صبح الأعشى ، كما أن السخاوي في الضوء اللامع وابن خطيب الناصرية في الدر المنتخب في تاريخ حلب والمقريزي في السلوك في دول الملوك ترجموا عدة أمراء منهم ، ونوهوا بما كان عندهم من الشجاعة والكرم والطيش وما عملوه من قتل بعضهم بعضاً مما لا طائل في

سرده ، ثم سكتت التواريخ عن أخبار آل الحيار أبناء مهنا بن عيسى إلا نبذاً جاءت في تاريخ حيدر الشهابي في أحداث سنة ٨٨٣ و ٩٩٢ و ١٠١٧ هـ ، على أن بعضهم كان يذكرهم تارةً باسم آل جبار وصحيحه حيار كما أثبته ابن بطوطة في رحلته وقد صادفهم سنة ٧٢٥ هـ حين رجوعه من الحج إلى العراق .

ثم نبت اسم أبي ريشة وقد سماهم بذلك المؤرخ حيدر الشهابي والمؤرخ التركي كاتب جلبي . ثم صار الشهابي يذكرهم باسم الموالي في خبر محالفتهم الأمير فخر الدين المعني ، وأن أحدهم الأمير مدلج استنجد به لما نازعه ابن عمه حسين على الإمارة ، فجاء المعني بعسكر وفير سنة ١٠٣٣ هـ لنجدة مدلج فأضافه مدلج ضيافة عظيمة في سلمية ، وأهداه الفرس سعدة المشهورة ، وبعد سنتين انتقض مدلج وقومه على الأمير المعني ، وتمنعوا عن تقديم الذخيرة التي طلبها ، فلحقهم حتى عبرهم النهرين ثم رجعوا إلى ديارهم لما قضت الدولة على هذا الأمير ، فاسم (الموالي) لم يذكره الشهابي إلا هذه المرة ، فهل نبتت هذه العشيرة عامئذ فجأة ؟، وهل كانت تذكر ؟ لو لم تكن هي التي كانت وما برحت ملتفة حول الأمراء آل أبي ريشة الحياريين منذ القرن السابع الذي نشأ فيه جدهم مهنا الثاني بن عيسى بن مهنا الأول ، وأفرادها لقبوا بالموالي لأنهم إما عبيد معتقون من الذين ذكرهم كاتب جلبي في جغرافيته أو صنائع أو حلفاء منضمون إليهم . ثم ذكر هؤلاء المؤرخون من أمرائهم فياضاً وابنه حسين وابن عمه سلطان وابن أخيه مدلج ، كانوا أمراء البادية سنين عديدة واتسعت سلطتهم حتى صارت تشمل أعراب بغداد والموصل .

وفي (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) للمحبي ترجمة الأمير حسين بن فياض الحياري ونزاعه مع ابن عمه مدلج بن ظاهر على الإمارة إلى أن غدر به والي حلب مراد باشا وسجنه في القلعة وخنقه ، وترجمة أخرى للأمير شديد بن أحمد الذي قتله ابن عمه مدلج المذكور سنة ١٠١٨ هـ ، وقد قال المحبي في هذا الصدد أن آل جبار وهو خطأ من تحريف النساخ (وصحيحه حيار) هم حكام العرب أباً عن جد يقال إنهم من ذرية جعفر البرمكي ومقام هؤلاء في بلاد سلمية وعانة والحديثة ، قلت : وفي هذا القول دليل آخر على ما كان لهؤلاء الأمراء حتى في القرن الحادي عشر من الشوكة واتساع السلطة ، لولا أن المحبي خبط في نسبتهم إلى جعفر البرمكي بما يشبه انتساب الحاضرين منهم إلى هارون الرشيد وانتساب أبناء عمهم الأمراء آل فضل بن مهنا المقيمين في الجولان إلى الفضل بن

العباس ، على حين أن الفضل هذا لم يعقب قط ، وذكر المؤرخ التركي نعيماً أنه لما زاد عيث الأمير مدلج طارده الوزير الأعظم خسرو باشا في سنة ١٠٤٠ هـ ، وكسره ونهب بلاده وقومه إلى أن مات وهو فار ، فأقام مكانه الأمير سعيد بن فياض ، ثم ذكر أيضاً في أخبار سنة ١٠٥٤ هـ حادثة جرت بين الأمير عساف الذي استفحلت شروره وبين إبراهيم باشا والي حلب وحاول هذا الوالي أن يغدر بالأمير خلال وليمة أدبها له في براري حلب ، فأخفق في تلك المحاولة وانقلب شرها عليه . وهكذا كان يتوالى طغيان هؤلاء الأمراء وعيثهم ويؤدي إلى استمرار الخراب في براري حلب وحماة وسلمية وحمص طوال تلك الحقبة ، وظلوا على ذلك في القرن الثاني عشر أيضاً ، بدليل ما قاله المرادي في كتابه (سلك الدرر) في ترجمة عبد الرزاق الجندي أنه في سنة ١١٨٩ هـ اقتضى لحاكم حمص عبد الرحيم بن العظم التوجه على عرب الحيارى المعروفين بالموالي المقيمين في تلك الأطراف تبعاً لولاة حلب ، فحاربهم ودارت الدائرة عليه وعلى المترجم . ومن مراجعة كتابنا (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) في بحث تاريخ سلمية يتضح أن هذه البلدة كانت عاصمة أمراء الموالي منذ أن تسلمها في القرن السابع (سنة ٦٥٨ هـ) جدهم الأمير مهنا آل فضل ، وورثها ابنه عيسى ، ثم حفيده مهنا الثاني ، ثم أعقاب هذا من بعده ، وأنهم كانوا من جملة أسباب خرابها حينما استعرت فتنتهم في القرن الثامن (سنة ٧٤٨ هـ) على ما ذكره ابن الوردي في تاريخه ، وظل هؤلاء ينزلونها ، ويرعون أنعامهم بين أطلالها لأنها صارت في عهد العثمانيين أيضاً إقطاعاً لهم كما جاء في ما نقلناه آنفاً عن كاتب جلبي في مؤلفه الجغرافي جهان نما . وقد أيد هذا المؤلف وجودهم في سلمية خلال القرن الحادي عشر وأنهم كانوا وقتئذ يفترقون إلى فريقين آل حمد وآل محمد على نحو ماهم عليه في زماننا من الإنقسام إلى شماليين وقبليين ، وأن مناطق نفوذهم كانت تمتد إلى ضواحي حلب والرقة وهو ما يؤيده أيضاً الشيوخ العارفون بماضيهم الذين يوصلون هذا النفوذ إلى عانة والحديثة . ويؤيده أيضاً السائح الإيطالي دللاواللا الذي جاء إلى هذه الديار في القرن الحادي عشر الهجري ١٠٧١ هـ (١٦٦١ م) ، فقد قال : إن أمير بلدة عانة وكل البادية يدعى الأمير فياض من آل أبي ريشة ، من عشيرة الموالي التي كانت سائدة في الضفة اليمنى من الفرات .

هذا وبينما كان أعراب الموالي يرتعون لوحدهم في سلمية وبراريها ، ويصل سؤددهم

من أبواب حمص وحماة إلى ضواحي حلب والرقة ودير الزور والجزيرة ، وإذا في أواسط القرن الحادي عشر تفد نحوهم عشيرة بني خالد النازحة من الإحساء طلباً لبقاع أمرع من التي كانت فيها وتحاول النفوذ إلى أرياف حمص وسلمية فصدتها الموالي بعد حروب دامت مدة مديدة . وقد ذكرنا في بحث بني خالد رواية قالوا فيها إن الموالي قتلوا في إحدى المعارك مئة شخص من بني خالد بينهم أربعون عريساً وقبورهم في موقع سوحة عقيربات شرقي سلمية ، ولا تزال ذكرى الثارات بين بني خالد والموالي في أذهان الفريقين ، وبعد بني خالد جاءت شمر في حدود سنة ١١١٢ هـ نازحة من نجد وأرادت النفوذ إلى براري حمص وحماة فصدتها الموالي . وفي رواية أن الموالي غدروا وقتئذ في أحد مؤتمرات الصلح وذبحوا عدداً من رؤساء شمر لايزال يذكر شعراء شمر فجيعتهم .

وقد ذكر الرئيس رينو في كتابه (بدو مقاطعة دمشق) ص ٢٤ حديث اقتتال الموالي وبني خالد على الشكل الآتي ، قال ما تعريبه « إن الموالي هم أقدم من نزل واستقر من البدو في بلاد الشام . وهم بعد أن منعوا بني خالد من النفوذ إلى معمورة بلاد الشام عاد الخالديون واستظهروا عليهم ودفعوهم إلى أنحاء دير الزور ، فظل الموالي في هذه الأنحاء نحو نصف قرن مسيطرين ، ثم تحالفوا مع العقيدات ، وتقدموا وإياهم لمهاجمة الخالديين الذين كانوا نازلين في سوحا ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، وغنموا من ماشيتهم عدداً وفيراً ، ورجعوا بها إلى أنحاء الفرات ، وما زالوا حتى وافتهم عشيرة العبيد وطردتهم منها ، فانكفؤوا وراحوا واستقروا في أنحاء عينتاب » . انتهى ما قاله الرئيس رينو ، وهو لم يذكر مصدر روايته هذه ، ونحن لم نطمئن لصحتها . إذ لم يسمع أن الموالي اضطروا بضغط بني خالد إلى إخلاء براري حمص وحماة كلها ، وأنهم ظلوا نصف قرن بعيدين ومحرومين منها . كما لم يسمع بذهابهم إلى أنحاء عينتاب بضغط عشيرة العبيد التي كانت منازلها في الجزيرة قبل ورود شمر . فمن لنا بمن يجلي هذا الغموض ؟

هذا وما أن استراحت الموالي من بني خالد وشمر حتى فوجئت في حدود سنة ١١٧١ هـ بما هو أدهى وأمر ألا وهو طلائع عشائر عنزة (الأحسنة) النازحة من نجد هرباً من ضغط الوهابيين الذين ظهروا قبيل ذلك ، فصمدت الموالي لهؤلاء أيضاً ، ولكنها بعد تلك الصدمات المتوالية ، وبعد معارك طويلة اضطرت إلى مصانعتها وإخلاء ديار حمص لعشيرة الأحسنة منها ، ثم توالت غارات بقية عنزة كالفدعان والأسبعة فضلاً عن الأحسنة ،

فاضطرت عشيرة الموالي من بعد سنة ١٢٢٠ هـ إلى أن تخلي سلمية وتنسحب إلى بقاع أكثر وعورة ومنعةً في كورة العلا شرقي معرة النعمان ، ومن أحداث تلك الحقبة ما رواه لنا الأمير مجحم آل مهيد والشيخ سعيد العرفي أن الموالي في إحدى معاركهم مع الأحسنة قتلوا الملحم أحد أسلاف آل ملحم في مكان على ضفاف الفرات سموه من بعد (تلعة الملحم) فهاجمتهم الأحسنة لأخذ الثأر وفتكت بهم قرب بالس (مسكنة) ، إلى حد أن أمراء الموالي اضطروا إلى الاحتماء بآل مهيد رؤساء الفدعان ، فحموهم وردوا الأحسنة عنهم . ومن ثم نشأت العداوة بين الأحسنة والفدعان ، كما نشأت الصداقة بين الموالي والفدعان إلى هذه الغاية . ومن الأحداث التي ذكرتها التواريخ (خطط الشام ج ٤ ص ٦) عن أفاعيل الموالي في أوائل القرن الثالث عشر ، أن الموالي ثاروا في سنة ١٢٠٧ هـ في ضواحي حمص وحماة ونهبوا القرى وفتكوا ببعض أعيانها ، وعاثوا في تلك الجهات ، فأمر والي دمشق متسلم حماة أن يقتص منهم ، فساق عليهم من حلب وحماة جيشاً ، فقتل منهم نحو ألفا إنسان وانهزم الباقون . وكان من جملة أسباب هذه الحملة أن قائد قلعة دمشق الذي عصى على الوالي فر ولجأ إليهم ، ومن أمراء الموالي الذين اشتهروا في أواخر القرن الثاني عشر كان الأمير محمد الخرفان . وقد أدركه السائح الفرنسي فولناي لما قدم إلى ديار حماة في سنة ١٠٩٩ هـ وقال عنه في الجزء الثاني من رحلته الخاصة ببلاد الشام أن سطوة هذا الأمير قد استفحلت في السنين الأخيرة بحيث صار يفرض أتاوات على البلاد ، وأنهم يقدرون مجموع قوته بثلاثين ألف خيال آ هـ . وقد حدثني محمد الجدعان أحد شيوخ الحديديين المعمرين أن جده مزقادة قتل محمد الخرفان هذا بضربة سيف ، عاجله بها وهو يتوضأ ، انتقاماً من عسفه وتعديه على الحديديين رغم أنهم كانوا حلفاءه وأنصاره . قالوا إنه لما مات محمد الخرفان كانت امرأته حاملة فوضعت غلاماً سمته باسم أبيه محمد الخرفان ، وأن هذا الأمير محمد الخرفان الثاني لما ترعرع حاول أن يثأر من الحديديين ، فغزاهم مراراً ثم تشاجر مع ابن عمه الأمير أحمد بك بن محمد باشا الجهجاه بن محمود بن حمد الأزرق بسبب فتاة كان كل منهما يريدها لنفسه ، وعظم الشر ، فاستنجد أحمد بك بالحديديين ، وحارب محمد الخرفان واستنجد هذا بالحرافشة أمراء شيعة بعلبك ، فلبوه ووقعت الواقعة بين الفريقين سنة ١٢٧٥ هـ (تشرين الثاني سنة ١٨٥٨ م) في سفح جبل زين العابدين شمالي حماة ، فدارت فيها الدائرة أولاً على الحديديين ، ثم كر هؤلاء وهزموا الموالي والبعلبكيين شر هزيمة ،

وقتلوا محمد الخرفان ، فعلا شأن أحمد بك من يومئذ وطغى وبغى ، ثم غزى الأحسنة في شرقي حمص ، قرب حمام أبي رباح ، وأراد أن يغتصب منهم فتاة اسمها حربة بنت الشيخ فارس المزيد فقتلوه - قيل إن الذي قتله أحد عبيدهم الذي انتخى لصوت الفتاة واستغاثتها - وهزموا جمعه . وهكذا كان هؤلاء الأمراء وما برحوا يعيشون في المقارعة والمغاورة وتنتهي حياتهم بالجرح والذبح ، ولا يموت منهم حتف أنفه إلا ماندر .

رَجْعٌ إلى حديث بقية الأعراب في القرن التاسع وما بعده ؛ عني القلقشندي بأمر أعراب زمانه ، وذكرهم بالتفصيل حسب البقاع التي كانوا ينزلونها ، وهو بعد أن ذكر في (بحث أعراب نيابة دمشق) آل فضل المذكورين وأبناء عمومتهم آل مرا وآل علي ووصفهم ، انتقل إلى (أعراب نيابة حلب) فقال : والمختص بأعمال حلب من العرب المشهورين قبيلتان :

١ - بنو كلاب ، قال في مسالك الأمصار « وهم عرب أطراف حلب والروم ، ولهم غزوات عظيمة معلومة ، وغارات لا تعد ، ولا تزال تباع بنات الروم وأبناؤهم من سباياهم ، وهم من أشد العرب بأساً ، وأكثرهم ناساً ، قال : ولإفراط نكايتهم في الروم صنفت السيرة المعروفة (بدلهمة) و (البطال)[1] منسوبة إليهم ، بما فيها من ملح الحديث ولمح الأباطيل ، ولكنهم لا يدينون لأمير منهم يجمع كلمتهم ، ولو انقادوا لأمير واحد لم يبق لأحد من العرب بهم طاقة ... الخ » .

٢ - آل بشار : قال في مسالك الأبصار « ديارهم الجزيرة والأحص ببلاد حلب ، قال : والأحلاف منهم حالهم في عدم الانقياد لأمير واحد حال بني كلاب ، ولو اجتمعوا لما أمن بأسهم ، وبسبب جماعتهم لا يزال آل فضل منهم على وجل وبينهم دماء ... الخ » قلت ؛ إن بني كلاب الذين تردد ذكرهم كانوا عشيرةً كبيرةً فيما يظهر ، جاؤوا من نجد إلى ديار حلب في سنة ٣٥٢ هـ وقطنوا واستقروا نحو أربعة قرون . وقد رددت التواريخ

(١) هي السيرة المشهورة الآن بذات الهمة تقرأها العامة بلذة ، كسيرة عنتر وسيف بن ذي يزن ، وقد طبعت أخيراً في مصر وهي في بابها لابأس بها . والبطال من أبطال الغزاة المشهورين في العصور الإسلامية المتوسطة وكان فعله في الروم عظيماً وهو معروف ومشهور عند الترك باسم (بطال غازي) وله عندهم حرمةٌ كبيرة وسيرة مطبوعة يقرأها عامتهم في الأناضول بشغف .

أحداثهم ووثباتهم العديدة ، واستباحتهم حمى المعمور مراراً ، مما هو معروف من طبائع أهل البوادي في كل عصر ومصر ، ورددت ما جرى بينهم وبين سيف الدولة بن حمدان وأبنائه ملوك حلب ، نبغ منهم صالح بن مرداس وأسس في حلب وشمالي الشام دولة بني مرداس التي دامت من سنة ٤٠٦ هـ إلى سنة ٤٧٢ هـ ثم ظل ذكر هذه العشيرة يتردد إلى أواخر القرن الثامن حتى انقطع ، مما يدل على تشتت شملهم وانطفاء خبرهم ، واندماج فلولهم في بقية العشائر ، شأن أعراب البادية التي تتغير مجتمعاتها وأسماؤها في كل قرنين أو ثلاثة ، ولا يشذ عن ذلك إلا القليل . ونال آل بشار المذكورين أيضاً ما نال آل كلاب ولم يعد لهم أثر ولا خبر في جبل الأحص ـ جنوبي حلب ـ كما نال آل مراء وآل علي الذين كانوا في أنحاء دمشق ، ولم يعد لهم أثر ولا خبر فيها أيضاً .

ولما جاء الصليبيون في القرن السادس والسابع واجتاحوا بلاد الشام كلها ما عدا المدن الأربع (دمشق وحمص وحماة وحلب) ، وبلغت خيلهم شمالي الجزيرة الفراتية وأواسطها ، ثم لما دخل المغول الشام في القرن السابع والثامن وتكررت غاراتهم بقيادة هولاكو وغازان وتيمورلنك خرب هؤلاء وأولئك البلاد ، وأهلكوا العباد ، ثم جاءت بعدهم الأوبئة والطواعين الجائحة ، وازداد البلاء واستمر بفساد الحكم وسوء الإدارة وضعف الوازع في أكثر عهد المماليك والعهد العثماني ، ومن هنا تحركت نزوات البدو ومطامعهم ، فطفقوا فيما قاله مؤرخو تلك العهود وشكوه غير مرة ، يقطعون الطرق ، ويخيفون السبل ، ويعيثون فساداً ، فخربت القرى وجلا من سلم من أهلها ، وتهدمت القنوات والسدود ، وبارت المزارع والحقول ، ودرست الكروم والبساتين ، فاتسع المغمور وصغر المعمور ولم تعد ترى في مشارق حلب وحمص وحماة ودمشق وحوران طوال تلك العهود إلا مضارب البدو وأباعرهم ، ولا تسمع إلا زئيرهم وهديرهم .

ونعيد ما قلناه عن أن أشهر من كان في شمالي الشام خلال تلك العهود من عشائر البدو وأقواها ، وأرفعها شأناً وسؤدداً آل فضل ، ثم أعقابهم آل مهنا بن عيسى ، ثم أعقاب آل مهنا آل حيار ، ثم أعقاب آل حيار آل أبو ريشة أمراء عشيرة الموالي . فقد كان هؤلاء الأمراء كما فصلناه في تاريخهم يبسطون نفوذهم من حمص وسلمية ـ وسلمية كانت عاصمتهم ـ إلى حلب فوادي الفرات وأطراف العراق . بحيث أن أحدهم واسمه فيما رووه (فياضاً) كان نصب عاموداً وسط فيافي الحماد دعاه (عمود الحمى) حرم به على العشائر النجدية المتحفزة

للقدوم نحو بادية الشام أن تتخطاه ، وتقترب من مناطق نفوذ الموالي في تلك البادية ، وأشهر من كان في جنوبي الشام (حوران والبلقاء) وأقوى العشائر وأرفعها شأناً عشيرة السرحان ، ثم عشيرة السردية التي نازعت السرحان وخلفتها وبزتها ، وترأست حلفاً رباعياً اسمه (أهل الشمال) كان مؤلفاً من السردية والفحيلية والعيسى وبني صخر ، وكان هؤلاء كلهم مع أفاريق الأعراب الذين يجاورونهم أو يحالفوهم يقومون بضروب العيث كلما اهتبلوا الغرر من ضعف الحكام وفقدان الرادع ، ويحولون دون العمران وامتداد الحرث والزرع خارج المدن الشامية ، كما سوف نشرحه في حديثهم الخاص . وقد ذكر السائح التركي الشهير أوليا جلبي : أنه لما مر من حماة إلى حمص في القرن الحادي عشر (سنة ١٠٥٨ هـ) وجد الرستن خراباً يباباً من توالي عيث الأعراب . على حين أن الرستن قرية كبيرة ذات موقع حصين ، فإذا كانت هي على ما ذكره وقتئذ فما بالك ببقية قرى حماة وحمص ؟ والسائح الإفرنسي فولناي الذي تقدم ذكره مرَّ بحماة في أواخر القرن الثاني عشر (سنة ١١٩٩ هـ) فمدح خصب سهول حماة واستعدادها ، ثم قال : إن المانع لاستثمار هذه السهول هو عتو محمد الخرفان أمير الموالي وعيثه ، وكثرة أخذ الأتاوات (الخوّة) من القرى والمزارع .

ومن الأحداث التي أوقعها البدو وخاصةً عشيرة الموالي وأمراؤهم في تلك الحقبة ما رواه كامل الغزي في كتابه تاريخ حلب (ج ٣ ص ٢٨٢) تحت عنوان (فساد العرب والإيقاع بهم) وقد نقل هذا الخبر عن تاريخ نعيماً التركي قال : « وفيها (في سنة ١٠٥٤ هـ) كثر فساد العرب في نواحي حلب وانقطعت السابلة . وكان أمير هؤلاء العرب المتمردة الأمير عساف (قلت : الغالب من تلقيبه بالأمير أنه من أسلاف أمراء الموالي) وكان له من قبل الدولة راتب معلوم . ولما زاد طغيانهم أراد إبراهيم باشا والي حلب أن يعمل الحيلة في القبض على عساف المذكور ، وكان يريد أن يعزله عن إمرة العرب ، إلا أنه رأى ذلك لا يجديه نفعاً ، فإن عسافاً لا يعترف بالعزل في ذلك الحين . ثم إن إبراهيم باشا خطر له أن يرسل إلى عساف رسولاً يدعوه إلى ضيافة يصنعها له في حلب ، فقال له الرسول : إن عرب البادية لا تأوي المدن ، بل ولا ما قاربها . فأمر إبراهيم باشا أن تصنع وليمة حافلة في قرب حلب على بعد خمس ساعات منها تقريباً . ثم سار الباشا إلى محل الضيافة بالمهات والعساكر ومعه الهدايا ، وأشاع أن هذه الوليمة مصنوعة إلى سلطان البر يعني به

عسافاً ، وكان الرسول قد سبق إلى الأمير عساف ودعاه إلى هذه الضيافة فأجابه إليها بعد أن أستوثق منه على عدم الغدر ، وعاد الرسول إلى إبراهيم باشا وأخبره وحذره من الغدر بالأمير عساف في خصوص هذه الضيافة ، وكان الأمير عساف قد تجهز للقدوم ومعه جم غفير من العربان خوفاً من أن يغدر به الباشا .

ولما وصل إلى محل الضيافة غدر به الباشا ، وحاول أن يقتله ، فاستدرك الفرط ، وانفلت من قبضته ، وعاد إلى أشد ما كان عليه من الإفساد وقطع الطريق . ولما سمعت الدولة بغدر إبراهيم باشا وعدم وفائه وسوء تدبيره عزلته عن حلب ، وولت مكانه درويش باشا المعزول عن ولاية بغداد ، فقدم حلب وتلافى خطر العربان الذي كان من أهم الأمور في ذلك الزمان ، وأرسل من قبله رسولاً يدعو عسافاً بالرفق واللين إلى طاعة السلطان ، وجهز معه هدايا ثمينة لعساف ، فوصل الرسول المذكور إلى عساف ، وبسط له الكلام ، وتلطف به ، ووبخه على عصيانه ، وعظم من أمره وأمر هذه العشيرة المعروفة بأبي ريش (وصوابه أبي ريشة) وقال له لا ينبغي بأدنى فرد من هذه العشيرة أن يشهر على السلطان العصيان ، فأجابه عساف بقوله : والله مالي ذنب في هذا العمل ، وإنما الذنب فيه لإبراهيم باشا ، ثم إن عسافاً استدعى بثلاثة دروع كان لبسها في يوم الضيافة وصار يرى الرسول الثقوب التي حصلت من إطلاق الرصاص ، وكانت إحدى الرصاصات قد ثقبت الدرع ووصلت إلى بدنه فحلف الأمير عساف إن جرح هذه الرصاصة بقي يبصق منه الدم شهرين فسلاه الرسول ، وذكر له أن الدولة لم تعزل إبراهيم باشا إلا لما أجراه معك من الغدر ، فرضي حينئذ عساف ، وتعهد للرسول بالأمن والأمان وأهداه مقدار عشرة خيول ، وجهز معه للدولة عدة خيول ، وأعطاه حوالة على حلب بألفي ذهب للدولة . آ هـ » .

وذكر أيضاً في (ص ٢٨٨) « أنه في سنة ١٠٩٣ هـ كثر فساد العرب (ولم يذكر أي عرب هؤلاء وما اسمهم) في برية دمشق وحلب ، وعظم ضررهم ، وأفحشوا بالسلب والإغارة على القوافل ، حتى ضجت منهم الولايات ، وصدرت أوامر الدولة إلى والي حلب ودمشق وبغداد وطرابلس أن يبذلوا جهدهم بالقبض على أميرهم ملحم (أقول أيضاً : أن الغالب من تلقيب هذا بالأمير أنه من أسلاف أمراء الموالي) فعندها عزم قره محمد باشا والي حلب على أن يأخذ ملحماً بالحيلة ، فوسط حاكم المعرة أخا شريف مكة بينه وبين ملحم ،

فـاجتهـد المـذكـور في إحضـار ملحم إلى حلب . وحلف لـه على أنـه يطلب لـه العفـو من السلطان ، ويجعله أميراً على العربان ، وكان حـاكم المعرة داهيـة ، وكان متهماً بـأنـه يقـاسم الأمير ملحم بالغنائم ، ويسعى له في بيع ما يلزمـه منهـا فـأراد أن ينفي الظنـة عن نفسـه بمكيدة ملحم ، وسعى في إحضاره واجتهد غايـة الجهـد ، إلى أن رضي معـه ملحم بـالحضور بعد أن استوثق منه بالأيمان المغلظـة ، فحضر معـه إلى قريـة جبرين ، وكان قـد أرسل إلى الوالي يخبره بذلك ، فأنفذ له الوالي خلعة وخيلاً ليغريه بالدخول إلى حلب على أنـه يحلف له فيها على ما تقدم ، فركب ملحم إلى حلب ولحقه من عشيرته خمسون فارسـاً ينهونـه عن الـدخول إلى حلب ، وألحـوا عليـه بـالرجـوع فقبـل منهم ورجـع إلى مخيـمه ، وقـال لأخي الشريف المتقـدم ذكره : لا سبيل إلى دخولي المـدينـة ، فـإني آليت على نفسي أن لا أدخل بين الجـدران وتحت السقوف لأنهـا تضيق صـدري ، فـاذهب وقـل للـوالي : إن كان يريـد محالفتي ، فليأت إلى هنـا ولمـا لم ينجح سعي أخي الشريف في إقنـاع ملحم رجع إلى الوالي وأخبره بما جرى ، وحين رجوعه أصحبه ملحم باثنين من بني عمـه وبمستشـاره ، وهو أعرابي طاعن في السن ، فلما تمثلوا بين يدي الوالي قابلهم بالبشـاشـة وخلع عليهم وأحسن مثواهم ، ثم أرسلهم إلى بيت أخي الشريف وركب في الليـل سراً ، ومعـه خمسمئـة عسكري بـالعـدة الكاملة ، وقصـد مخيم ملحم في جبرين ، وكان ملحم قـد رحل من مخيـمه وأبقى فيـه خمسين من قومه فحـاربهم الوالي ، وبعـد أن دافعوا عن أنفسهم دفـاع الأبطـال ، قتل بعضهم وأسر منهم ثمـانيـة عشر وفر البـاقون ، ثم استـدل الوالي من الفلاحين على الأمير ملحم وتبـع أثره إلى أن دهمه بغتةً عند الصبح في وادٍ بين جبلين بحيث لم يره الأمير إلا عندمـا وصل إليـه ، وكان مع الأمير عدد يسير من جماعته ، فأركن إلى الفرار ، وأراد أن يجتاز من نهر هنـاك ، فتوحلت به فرسه ، فتوكأ على رمحه لانتشالها من الوحل ، فانكسر الرمح ، وكان الوالي قـد أدركه والبندقية في يده ، وأحاطت به العسكر ، وقبضوا عليـه ، وسـاقوه أسيراً إلى حلب ، فكبلوه بالحديد ومن أسروا معه من قومه ، ثم قتلوا الجميع صبراً سوى الأمير ، وكانوا عندمـا يقتلون أحدهم يخرقون أكتافه ، ويغرسون فيها فتـائل مشعلـة مصنوعـة من المرخ والشمع ، ويطوفون به البلد ، ثم يقطعون رأسـه ويرمون جثتـه في مستنقع الخنـدق (قلعـة حلب) واتفق أن واحـداً من هـؤلاء الأسرى كان شـاعراً عنـد الأمير ملحم لم يغمس يـده في دم ولم يشن غارة قط ، فبينمـا كانوا يطوفون بـه على تلـك الحـالـة إذ لمح ضـابطـاً سبقت لـه يـد

عنده ، فذكره بها ، وقال : إنني لم أكن لصاً ، ولا قاطع طريق إنما كنت شاعراً عند الأمير ، فتضرع له الضابط عند الوالي ، وخلصه من القتل ، ثم إن الوالي أرسل ملحماً إلى أدرنة حيث كان السلطان إذ ذاك ، فبعد أن نظر السلطان إلى ملحم ملياً أمر بقتله ، وقد صعب ذلك على رجال الدولة لأنهم كانوا يرجون خلاصه والعفو عنه ، ليكون كافلاً قمع غارات العرب حسب شجاعته المفرطة » .

وقال في حوادث سنة ١١٣٣ هـ « زاد طغيان العرب المعروفين بالعباسيين (قلت : أي عباسيين هؤلاء ؟ ألعله يقصد أمراء الموالي أيضاً بحكم ادعائهم الانتساب إلى العباسيين !) في صحراء حلب ، وكثر ضررهم على السابلة ، وعسر على الولاة ردعهم ، فعين الباب العالي قواداً وجيوشاً من بغداد والموصل وديار بكر وغيرها ، وأنفذت إلى هؤلاء الأوامر المؤكدة بشن الغارات ومتابعتها على العربان المذكورين ، فتناوشتهم العساكر من كل جانب ، وأذاقوهم أنواع المعاطب والمصائب ، فكف ضررهم ومنع خطرهم » .

وقال في حوادث سنة ١٢٣٢ هـ « في هذه السنة كثر فساد الأعراب في جوار حلب وجهات أريحا وانطاكية ، وكان الأمير مهنا البدوي هو الزعيم الأكبر على الأعراب (قلت ؛ أي مهنا هذا ؟ هل هو مهنا الفاضل شيخ الأحسنة ، هذا كان في جهات حمص ولم يبلغ حلب) وقد فرض على كل داخل إلى أرضه مبلغاً من النقود ، وضرب على القرى المجاورة مضاربه جرية سماها (الخوة) ، فكانت سبباً لخراب عدة قرى وجلاء أهلها عنها ، وتفاقم هؤلاء الأعراب ، وتعطلت السبل ، وفقد الأمن ، ثم صدر أمر الدولة لوالي حلب أن يقصد الأعراب في الصحراء ، ويوقع بهم ، وأنفذ إليهم كتخداه عثمان آغا ورفقه بمقدار وافر من العساكر . وكان العربان على ثماني عشرة ساعة عن حلب ، فوصل إليهم ، وكسرهم ، وظفر منهم بأربعة وثلاثين شخصاً ، قطع رؤوسهم وجهزها إلى استانبول ، فسرت الدولة من ذلك وشكرت الوالي ..ا هـ » .

وكان أشد ما يهم الدولة العثمانية وقتئذ أن تحمي قافلة الحج من تعدي البدو في طريقهم بحكم أن سلاطين آل عثمان كانوا خلفاء وخدام الحرمين الشريفين ، فكانت تكلف بعض العشائر بهذه الحماية لقاء جعل معلوم ، وتخصص لكل منها منطقة . فمن العشائر التي كانت تقوم بهذه الوظيفة بين حلب ودمشق (الموالي) ، وبين دمشق وحوران والبلقاء

(السردية) و (بني صخر) و (الولد علي) من عنزة . وكانت الدولة تمنح جوائز مالية (الصرة) للعشائر التي في طريق الحج بعد البلقاء حتى المدينة ومكة ، ومع هذا كله ، فقد أساء باشات الحج التدبير في بعض السنين ، وقطعوا الأعطيات عن هذه العشائر ، وقتلوا في سنة ١١٧٠ هـ بعض رؤسائها ، فحقد البدو لذلك ، وهاجوا في سنة ١١٧٣ هـ قافلة الحج الشامي ، وفتكوا بها فتكاً ذريعاً ، وأماتوا من الحجاج نحو عشرين ألفاً من القتل والجوع والعطش ، وباعوا منهوباتهم في أسواق عكا . وكانت الدولة تكلف بعض الأسر الإقطاعية بحماية المسالك النائية والقرى المتطرفة ، فمن هذه الأسر القديمة (آل سويدان) المستقرون في قرية حسية قرب حمص ، وأول العهد بهذه الأسرة وبقريتهم هو في سنة ١١٠٠ هـ حينما امتلكها جدهم الآغا إبراهيم سويدان ، وهؤلاء بعد أن كانوا متسلمين في حمص على طراز العهد الإقطاعي خلال القرن الثاني عشر تولوا محافظة البادية وطريق حمص ـ تدمر وجبل قلمون حتى أبواب دمشق ، ومثلهم الأغوات الجواردة (آل حويشان الجندل) المستقرون في جيرود الذين كانوا مكلفين بحماية طريق دمشق ـ تدمر ، ومثلهم الأغوات الدنادشة (آل دندش) المستقرون في تلكلخ الذين كانوا مكلفين بحماية طريق حمص ـ طرابلس منذ القرن الثاني عشر .

وظل أمراء الموالي أسياد البادية الشامية يمنعون اختراق عمود الحمى على العشائر القادمة حديثاً من الجنوب أو الشرق إلى أن كان أول المتجاسرين على اختراقه (بنو خالد) القادمون من الإحساء للمرة الثانية في أواسط القرن الحادي عشر ، فصدتهم الموالي بادىء ذي بدء ، لكن الخالديين بعد معارك عديدة استظهروا على الموالي في معركة جب الصفا ، ونفذوا إلى ديرة الشنبل ، واستقروا حتى يومنا ، وقد فصلنا حديثهم هذا في بحثهم الخاص ، وجاء بعد بني خالد في أواخر القرن المذكور العقيدات من أنحاء نجد إلى أنحاء دير الزور والأبي شعبان من أنحاء العراق إلى أنحاء الرقة ، كما جاءت الأبو خميس والكيار والخزاعلة وغيرها من العراق إلى أقضية حلب .

ولما ذر فجر القرن الثاني عشر كانت الدعوة الوهابية في نجد قد استفحلت ، فحدثت بواعث لهجرة بدوية جديدة حركت وقتئذ قسماً من شمر ، فزحف في أوائل ذلك القرن نحو بادية الشام تخلصاً من ضغط الوهابيين ، وطلباً لأماكن أخصب من التي كان فيها ، وبلغ

تـدمر والسخنـة ونهبهـا ، ثم تقـدم نحو ديرة الشنبـل يحـاول النفـوذ فتصـدت المـوالي لـه ، وحدثت معارك انتهت برد شمر ، وإرجاعها إلى نجد . لكن شمراً لم تجـد مجـالاً للاستقرار في نجد من ازدياد نفوذ الوهابيين ، فرجعت إلى باديـة الشام بعـد حين يصعب تحـديـد عـدد سنيه إلا أن هذه المرة تحاشت مناطق الموالي ، فنزلت في أنحـاء جبل البشري وجبل العمور إلى الفرات كما عملت وقتئذ أو قبلها (عشيرة العقيدات) الفراتية (النجدية الأصل) .

وكانت طلائع عنزة (الأحسنـة والـولـد علي) قـد خرجت بعـد شمر في حـدود سنـة ١١١٢ هـ من شمالي الحجـاز ، وبلغت وادي السرحـان ، ثم أطراف البلقـاء ، واشتبكت مـع عشائر هذه الأنحاء (السرحان والسردية والفحيلية وبني صخر) الذين تحالفوا وتألبوا عليها ودحروها ، وبعد معارك دامت سنيناً عديدة تقوت عنزة ، وتوفقت للحلول فدخلت منهـا عشيرة (الولد علي) إلى حوران والجولان واستقرت . أما الأحسنـة فقـد استمرت في سيرهـا نحو الشمال ، وبلغت أنحاء حمص وحماة في حـدود سنـة ١١٧١ هـ - على مـا يظن - ودحرت الموالي نحو منازلها الحالية في العلا (شرقي قضاء المعرة) ، ثم صارت تزاحم شمراً على المراعي والمناهل الشرقية في أنحاء جبل البشري وجبل العمور ، فـاضطرت شمر إلى أن تعبر الفرات في عهد رئيسها فارس الجرباء ، وتستقر في الجزيرة على ما سوف نذكره في بحثهـا ، ثم توالى قدوم بقية عشائر عنزة طيلة القرن الثالث عشر إلى براري الشام وتوالى انسياحهم .

فهجرة بني خالد وشمر وعنزة والعقيدات في القرن ١١ و ١٢ و ١٣ كانت آخر الهجرات البدويـة الكبرى على أن هجرات صغيرة مـا برحت تقوم بهـا بعض ذيول قبيلتي شمر وعنزة العظيمتين وتتـوالى بين ذهـاب وإيـاب ، كما عملتـه أخيراً فرقـة الولـد سليمـان من عشيرة الفدعان من عنزة ، فقـد كان هؤلاء آخر من نزح ووافى بـاديـة الشـام ، ثم على أثر حـادث سوف نذكره في بحثهم رجعوا إلى نجد ، وكذلك عملت بعض فرق العبدة وسنجارة وأسلم من قبيلة شمر ، فقد كانت هذه الفرق متخلفة في نجد فجاءت تلتحق بفرقها الأصليـة الضـاربـة في الجزيرة الفراتية .

ولم يكف براري الشام ما كانت تقاسيه من عيث (أعراب الديرة) حتى ازداد الطين بلـة بـالمعـارك التي كانت تنشب بين شمر وعنزة ، وبين عشـائر عنزة نفسهـا التي انصرفت للاقتتال والإغارة بعضها على بعض ، أو على أعراب الديرة المذكورين ، وازداد أيضاً بقدوم

الوهابيين بقيادة عبد الله بن سعود وغارتهم على حوران ، وإفحاشهم في قراه وتهديدهم دمشق في سنة ١٢٢٥ هـ ، وهكذا ظلت هذه البراري خالية من العمران ، وظلت القرى المتطرفة التي على سيف البادية مضطربة خائفة لا تنجو إلا بدفع (الخوّة) لعشيرة أو لعدة عشائر معاً ، وقد أدركنا قرى المناظر كتدمر والسخنة تدفع هذه الخوة إلى عهد قريب جداً يتقاضاها الموالي والأحسنة والأسبعة ، كل منهم في دوره ووقته ، وقد يأتي غيرهم ويطالب ويقبض بنسبة ما يرى من فوضى الأحكام وضعف الوازع ، هذا إلى أن قرى المناظر وخاصة السخنة (إلى شمالي تدمر بـ ٧٥ كيلو متراً) قد هوجمت ونهبت ، وجلا أهلها مراراً إلى دمشق وحماه وسفيرة وحلب أخصها ما حدث في السخنة سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠) م .

واستمر الحال على هذا إلى أن جاء إبراهيم باشا المصري واحتل بلاد الشام ودام حكمه نحو تسع سنوات (١٢٤٨ ـ ١٢٥٦ هـ) ، وقد وطد هذا القائد الكبير الأمن في الحواضر ، وأكره البدو على احترام سلطة الحكومة ، وحمى السكان من اعتداءاتهم ، فعاد كثير إلى سكنى المدن والقرى المهجورة ، وإلى حرث الأراضي المهملة في حوران وحمص وحلب ، وقد أكد لي بعض المعمرين في حمص أنه عمرت في تلك المدة الوجيزة بعض قراهم الشرقية كالمشرفة وشنشار والزعفرانة ، ولكن لم يكد إبراهيم باشا يخرج من بلاد الشام ، ويتقلص ظل سطوته حتى عادت فوضى الأحكام في الحواضر ، واستأنف أعراب البادية غاراتهم على المعمور ، فرجع الخراب إلى القرى والمزارع المأهولة حديثاً . وظلت المدن منكمشة وراء أسوارها وأبوابها مدة ربع قرن آخر (في عهد السلطان عبد المجيد ، والسلطان عبد العزيز) فحمص مثلاً : كانت تغلق أبوابها بعد الغروب ، لا يخرج منها أحد ولا يدخل .

حدثني المعمرون الذين أدركوا حدود سنة ١٢٧٥ هـ أن أهالي القرى القريبة كزيدل وفيروزة كانوا إذا خرجوا لحرث أرضهم وزرعها يعودون مساء إلى مساكنهم في مدينة حمص ، ولا يجسرون على المبيت في البرية من توالي عيث الأعراب ، وأن أبواب حمص ظلت تغلق بعد الغروب إلى حدود سنة ١٢٨٧ هـ ويقف وراءها الحراس وموظفوا المكس ، ويذكر معمرو دمشق أن امتداد الشجر في الغوطة كان لا يزيد عن نصف ما هو عليه الآن خوفاً من إبل البدو وعدوانهم ، ويذكر معمرو حلب أن منتهى العمران خارج باب النيرب كان في عسان وسفيرة والباب فقط ، وأن أهل هذه القرى كانوا لا يهبطون حلب

ويعودون إلا زرافات زرافات وهم مدججون بالسلاح . ويذكر معمرو حماه أن سلمية لم تعمر بعد خرابها الذي دام قرناً إلا في حدود سنة ١٢٦٠ هـ ، أو بعدها لما جاءها نفر من إسماعيلية جبال اللاذقية ، والتجؤوا إلى حصنها القديم الذي كان في وسطها ، وصاروا يردون عيث البدو بتماسكهم وتناصرهم ، كما عمل الدروز قبلهم لما نزحوا في القرن الحادي عشر بعد موقعة عين دارة في سنة ١١١٢ هـ إلى جبل حوران وتحصنوا في قراه الخربة المنيعة وامتدوا رويداً رويداً . أي أنه ما من قرية كانت تنجو وقتئذ من (الخوة) وأمثال الخوة من السلب والنهب ، ورعي الزروع ، وإتلاف الأشجار والكروم والطغيان والعدوان إلا إذا امتنعت وراء قلعة أو أكمة أو وعرة ، وكان أهلها ذوي عصبية واحدة ، وشكيمة قوية يردون كرات البدو بسواعدهم ، لا بسواعد الدولة التي كانت وقتئذ مهملة ضعيفة لم تستطع مثلاً أن ترد في سنة ١٢٧٥ هـ المعركة التي نشبت في سفح جبل زين العابدين قرب حماة بين الموالي والحديديين ، كما بيناه في حديثهم . ولم تستطع أيضاً أن ترد نزوات جدعان بن مهيد عقيد الفدعان وغاراته في شرقي حلب فاضطرت إلى أن تمنحه وتملكه في سنة ١٢٨٦ هـ عشرين قرية داثرة في جبل الشبيث ، لا تزال في يد حفيده الأمير مجحم .

وقد سعى في تلك الحقبة بعض الولاة الصالحين في حلب لإنقاذ الموقف ، نخص بالذكر محمد باشا القبرصي الذي كان والياً في حلب في عام ١٢٦٧ هـ ، فأوجدوا للسلطان عبد المجيد سبل امتلاك الأرضين في أطراف المعمورة ، وتحضير العشائر البدوية وإسكانهم فيها ، فأنشؤوا من ذلك الحين المزارع السلطانية (الجفتلكات الهمايونية) في جبل الأحص ومطخ قنسرين وقضائي الباب ومنبج ، وأسكنوا فيها جمعاً من أفاريق الأعراب لا يزالون حتى يومنا هذا . ومنهم في جبل الأحص عشيرة اسمها (السكن) دلالة على إسكانهم وقتئذ . وذهب أحد ولاة حلب واسمه ثريا باشا ملك زاده في سنة ١٢٨١ هـ وألحق لواء دير الزور بولاية حلب ، وأخضع عشائر العقيدات وغيرها المتمردة . وفي تاريخ حلب لكامل الغزي « أنه في سنة ١٢٨٤ هـ كان إخضاع الأعراب المتمردين على الدولة في صحراء حلب ، بعد مقاومة شديدة وكثرة القتل والأسر في رؤسائهم ، وقد أخذت منهم قرعة شرعية ، واستفلحوا وعانوا الزرع والفلح ا هـ » . ولم يذكر من أي عشيرة كان هؤلاء الأعراب ، وفي أي القرى استقروا واستفحلوا ، ولعله عنى العقيدات ، ثم في سنة ١٢٥٨ هـ جاء أصلان باشا المشهور بحنكته وهمته إلى لواء دير الزور ، وأخضع عشائر الجبور

والعقيدات ، ورد بائقة شمر وعنزة عن المعمورة إلى حد ما ، وكان قبل ذلك عمل في أنحاء حلب فأسكن الموالي في ناحية العلاء ، وأسكن الحديديين في شمالهم ، وأسكن غيرهم من العشائر كالولدة وبني سعيد والسكن في قرى أملاك الدولة ، في أقضية جبل سمعان والباب ومنبج ، وهم لا يزالون فيها حتى الآن ، ومن هنا ظل اسم أصلان باشا الهمام وقد توفي في الدير سنة ١٢٨٧ هـ يتردد على ألسنة المعمرين من هذه العشائر بالمحمدة والرحمة ، فأمنت البراري الشرقية وقتئذ بهذه التدابير بعض الأمن ، وعادت روح العمران تدب رويداً رويداً في شرقي ولاية حلب وجنوبها ، وجهة الجزيرة والفرات . ومما عملته الدولة وقتئذ (عهد السلطان عبد العزيز) أنها رأت كثرة العشائر في ولاية حلب ، وقدرت حالاتها وحاجاتها الخاصة ، فألفت لها إدارة منفردة دعتها (قائمقامية العربان) على نهج الأقضية كان لها قائمقام ومدير مال ، وقد ورد ذكر هذه القائمقامية في (سالنامة ولاية حلب) لعام ١٢٨٧ هـ وأسماء موظفيها والمشايخ الذين كانوا فيما يبدو أعضاء في مجلس إدارتها .

ثم جاء السلطان عبد الحميد في سنة ١٢٩٤ هـ ، وكان ولوعاً بتوسيع الملك وتكثير الثروة ، فهو فوق ما ورثه من (الجفتلكات الهمايونية) في جنوبي حلب ، أضاف إليها من بعد سنة ١٣٠٠ هـ كثيراً من الخرب الداثرة في شرقي حماة وسلمية وحمص ، تملكها بالإحياء أو بالشراء ، وراح يسكن فيها فلاحين من طوائف النصيرية والعشائر نصف المتحضرة وغيرهم ، وأعفاهم من الجندية والضرائب الأميرية ، ورتب سرايا خاصة من جند البغالة لحمايتهم ، وبنى ثكنتين الأولى في قرية جب الجراح الواقعة في سفح جبل الشومرية ، والثانية في قرية الحمراء الكائنة في الشمال الشرقي من حماة ، وأقام جنوداً في كل من قرى الفركلس وعقيربات السويد وتل الأغر والسعن وسعين . وبهذا رد عيث البادية رداً صارما ، فأمنت قراه الواسعة والقرى الواقعة غربيها شر العشائر ، وعيث إبلهم بالأشجار والزروع ، وتنفست المدن الصعداء ، وصار العمران ينتشر في ضواحيها وبراريها ، واضطرت العشائر من ذلك الحين إلى الكف عن العتو والأذى ، والانصراف نحو الفلاحة والزراعة ، ولم تعد تشذ إلا قليلاً ، وعند سنوح الغفلة فحسب كما جرى بعد لما خلع السلطان المذكور في سنة ١٣٢٥ هـ ودورت أملاكه إلى بيت المال ، ورفعت الحصانة والميزة عن فلاحيها . وكما جرى أكثر وأشد لما قامت الثورة العربية في الحجاز في أواخر الحرب العظمى الماضية في سنة ١٣٣٧ هـ ، وتضعضع حال الدولة ، وقلت هيبتها ، وقد استمرت

قلة الهيبة وفورة العتو والعيث عند البداة طوال العهد الفيصلي ، وفي أوائل عهد الانتداب الفرنسي ، نخص بالذكر ما جرى خلال اقتتال عشيرتي الموالي والحديديين في براري حلب وحماة في سنة ١٣٣٩ هـ وما بعدها فقد خربت وقتئذ عشرات القرى والمزارع ، ونهبت أموال وعروض كثيرة لأهل تلك القرى ولشركائهم من أهل حلب وحماة والمعرة وذهبت هدراً .

ولما كان المرحوم الملك فيصل بن الحسين في دمشق سنة ١٣٣٧ هـ و ١٣٣٨ هـ يشيد أركان السيادة والاستقلال في بلاد الشام ، والجنرال غورو الفرنسي في بيروت يشاكسه ويهيء وسائل الاستعباد والاستعمار لهذه البلاد ، رأت العشائر البدوية بثاقب فطنتها أن ريح الغلبة يهب مع الفرنسيين ، فمالت نحوهم شأنها في الميل نحو من كان أشد قوة وأندى يداً ، فأفتى رؤساء العشائر الكبيرة بانتداب فرنسا أمام اللجنة الأميركية التي جاءت في حزيران ١٩١٩ م (١٣٣٧ هـ) تستفتي أهل البلاد عن شكل الحكم الذي يريدونه ، وهرع بعض هؤلاء إلى بيروت لمقابلة الجنرال غورو وعرضوا له ولاءهم ، فأجزل لهم العطاء ، وزاد بعضهم أوسمة جوقة الشرف ، أو لقب أمير أو لقب باشا .

وإذا كان الناس على دين كبرائهم لحقت العشائر الصغيرة العشائر الكبيرة ، وحذت حذوها في موالاة الفرنسيين منذ بدء احتلالهم ، ولما ثار أهل الحواضر في المدن والقرى في وجه الفرنسيين الزاحفين ، كانت العشائر تكتفي بوقفة الحياد ونظرة المتفرج عن بعد ، بحجة أن الثوار لم يستشيروها فيما كانوا يفعلونه ولم يستنهضوها ، ولم يشذ عن هذا السلوك ويناجز الفرنسيين إلا بعضها أمثال العقيدات في وادي الفرات ، والموالي في جنوبي حلب ، والفضل في جنوبي دمشق ، والدنادشة في غربي حمص ، لكن هذا الشذوذ انحصر إذ ذاك في أماكن تلك العشائر الضيقة ، ومساعيها المنفردة وغير المنتظمة ، فلم يثمر سوى نكبة القائمين به .

وبعد أن استقر المقام بالفرنسيين في سنة ١٣٣٩ هـ وبعدها وقضوا على الثورات الوطنية ، وبسطوا شدتهم ورهبتهم في البوادي ، كما بسطوها في الحواضر ، وساقتهم قواعد الاستعمار إلى إبعاد العشائر عن سلطة الحكومات المحلية التي أقاموها تحت إشرافهم في بلاد الشام ، وإلى ربط العشائر مباشرة بدوائر الانتداب وتكوين إدارة خاصة دعوها (إدارة مراقبة البدو) عهدوا بها إلى ضباط عسكريين ، يقودون جنداً خاصاً من متطوعة الأعراب

راكبي الهجن من عقيل النجديين وغيرهم ، وقد ألفوا من هؤلاء في سنة ١٣٤٠ هـ سريتين إحداهما في تدمر ، والثانية في دير الزور ، يعاضدها عند الحاجة مصفحات وطيارات ، وقد اشتبكت هذه السرايا في معارك عديدة مع الغزاة المتجولين للسلب والنهب وفتكت بهم ، جرى ذلك في سني ١٣٤١ و ١٣٤٢ و ١٣٤٣ هـ في بئر بصيرى والسخنة وجنوبي تدمر ، وأعظمها ما عملته سرية الهجانة الأولى في آذار سنة ١٩٢٤ م (١٣٣٤ هـ) بعشيرة الغياث المشهورة بشقاوتها ونزواتها ، فقد فاجأتها قبل الفجر حينما كانت مخيمة قرب جبل سيس ، ففتكت بها فتكاً ذريعاً ، وكبدتها عشرين قتيلاً ، وعدداً كبيراً من الجرحى وغنمت منها ٤٠٠٠ رأس من الماشية . وأجرت هذه السرايا معارك أخرى مع غزاة شمر وثوار الأكراد في الجزيرة قرب الحدود التركية ، وناوشت مراراً عشائر العقيدات والموالي وأولاد سليمان من الفدعان الخرصة وغيرهم ، وما زالت تعمل وَتَقْتِل وتُقَتِّل ، وقوادها الفرنسيون يفرضون الغرامات والعقوبات ، حتى تمكنت كما جاء في الكتاب الذهبي لجيش الشرق[1] من إقرار الأمن في بادية الشام رويداً رويداً ، وفي تلك الفيافي الشاسعة التي لم تألف فيما مضى من العصور غير مرور القوافل وغزوات القبائل ، توفقت الصناعة العصرية دون ما حائل إلى تمديد أنابيب النفط العظيمة التي تصب زيوت العراق في طرابلس ، وأنشأت في محاذاتها نقاطاً لتأمين العمل .

وقد عمل الإنكليز في شرقي الأردن في توطيد الأمن ومنع الغزو مثلهم وأكثر منهم . وتولى كبر هذا الأمر الجلل هناك المقدم كلوب المعروف عند البدو بأبي حنيك ، وكذلك عمل العراقيون في بوادي العراق وجلالة الملك ابن سعود في بوادي نجد ، واتفقت هذه الدول على منع الغزو منعاً باتاً ، فاستتب الأمن في طول البادية وعرضها استتباباً لم تر نظيره منذ قرون ، وانقطعت دواعي الشرور وبواعثه وأخلدت العشائر إلى الهدوء والاستقرار ، وصارت تفكر بالتحضر ، وتعنى بالرزق الحلال ، وأصبح حالها في أيامنا هذه على غير ما كان يروى عنها ، مما نرجو دوامه وثبوت قوامه في العهد الوطني الحاضر .



(١) Le livre d'or des troupes du levant , 1918 -1936 . Beyrouth .

أوصاف البدو

البدو ويقال لهم الأعراب بالفتح هم : أهل البادية من العرب والواحد بدوي أو أعرابي بالفتح أيضاً . ولفظة (العرب) قديمة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو ، والبادية ، وتلك خصيصة العرب في التاريخ القديم ، قال الأزهري ؛ رجل عربي إذا كان نسبه في العرب ثابتاً ، وإن لم يكن فصيحاً ، وجمعه العرب ، ورجل أعرابي : إذا كان بدوياً ، صاحب نجعة وانتواء ، وارتياد الكلأ ، وتتبع مساقط الغيث ، وسواء كان من العرب ، أو من مواليهم ، فمن نزل البادية ، أو جاور البادين فظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم فهم أعراب أهل وبر ، ومن نزل بلاد الريف ، واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب أهل مدر ، أو أهل حضر ، وإن لم يكونوا فصحاء وقد صار لفظ الأعرابي بعد الإسلام مما يراد به الجفاء وغلظ الطبع ، وكانوا يسمون ذلك في الرجل (أعرابية) فيقولون للجافي منهم : ألم تترك أعرابيتك بعد ؟ وبذلك خرجت الكلمة عن مطلق معنى البادية إلى معنى خاص يلازمها ، قيل وجمع الأعراب : أعاريب . قال المتنبي :

من الجآذر في زي الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

هذا وللبدو أوصاف بدنية ، وأشكال وملامح طبيعية ، وخصال وأخلاق وأفكار فطرية خاصة بهم ، يختلفون بها أي اختلاف عن العرب المتحضرين في القرى ، ناهيك سكان المدن . فالبدو ذوو أجسام هزيلة في الغالب ، وقامات متوسطة ، وملامح منتظمة ، ووجوه أسيلة ، وألوان سمراء أميل للسواد ، وجباه عريضة بارزة ، وعيون سوداء وبصّاصة وأسارير مقطبة ، وأسنان منتظمة الرحى بيضاء كالثلج ، هذا إلى سعي حثيث ، وجلد غريب ، وطبع نزق ، وطور قلق ، وبصيرة نافذة ، ومزاج عصبي ، وذكاء حاد ، وصحة بدن ، وصراحة جنان ، وطلاقة لسان ، وقناعة متناهية وسط عيش أكثره

شظف ومضض ، وحياة جلها محفوف بالعناء والمخاطر ، وعدم الاطمئنان والهدوء في بوادي جرداء وبراري قفراء وحر لاهب وبرد قارس ، اعتادوا على ذلك كله ، وألفوا أتراحه وأفراحه ، لا يبغون عنه حولاً ، ولا يقبلون به من ترف الحضارة بدلاً . شديدو الحرص على عرفهم وعاداتهم ، وباقون على السذاجة والفطرة اللتين كانوا عليهما منذ آلاف السنين ، دائبون على أخلاقهم وخصالهم الصالحة والطالحة ، صعوبة مراس ، وجرأة ، وحماس ، وحفظ ذمام ، وكرم ، وإقراء ضيف مع لوثة وعيث إذا قدروا ، يهيجون للشيء التافه ، ثم لا يقفون في هياجهم عند حد ، إذا ما جرحت كرامتهم أو انتهكت حرمتهم . وهم لا يتكلفون في شيء من أحوالهم وأعمالهم ، ولا يتثاقلون من الأمراض والكوارث ولا يبالون بالحياة بقدر الحضر ، ولا يعملون ويجهدون إلا إذا عضتهم الحاجة بأنيابها ، وهم يهوون الخمول والكسل ، ويحبون الفوضى والخلل ، إذا جاعوا افترسوا ، وإذا شبعوا تنافسوا ، وإذا أصابهم ضيم سهروا وتربصوا ، وهم يترقبون الفرص للأخذ بالثأر ولو مضت عليه سنون ، وهم يميلون إلى حرية قل أن يحدها حد ، ولكن حريتهم التي يفهمونها هي الحرية الشخصية لا الحرية الاجتماعية ، والوطن الذي يذكرونه ، وموئل الآباء والجدود الذي يعزّونه ، هو بيت الشعر ومخيم العشيرة السارح ، لا الأرض الثابتة والديار المحدودة والحيطان الممدودة ، والشعور والاعتزاز عندهم أناني فردي قبلي (عشائري) ، فالبدوي لا يمدح إلا نفسه وفرسه ومهنده وصارمه ، وإذا افتخر فبأهله وعشيرته ، فهو يتغنى بانتصارها ، ويعدد محامدها ، ويهجو العشيرة الأخرى من أجلها .

ومن أوصاف البدو أنهم ينزلون البادية ، ويسكنون بيوت الشعر ، ويرحلون من مكان إلى آخر ، وهذا الترحال يدعى (انتواء) أو (تبدي) وفي كتب اللغة : نوى القوم بمكان وانتووه بمعنى قصدوه . وأما التبدي فهو : بمعنى الإقامة في البادية ومنه تبدى الحضري وتبادى تشبه بأهل البادية ، ومنها بدا القوم إلى باديتهم أي خرجوا ، وفي الحديث « من بداجفا » أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب .

والتبدي يؤتى على درجات متفاوتة ، فمن الأعراب من يتبدى بلا انقطاع مهما كان الموسم ، ومنهم من يستقر في مكانه أغلب أيام السنة ، ولا يتبدى إلا ضمن دائرة قصيرة المدى ، وبين هؤلاء وأولئك بدو تختلف بدواتهم حسب القسم الذي هم منه ، كما سيأتي

الكلام عليه . وفي التبدي تشريق وتغريب حسب المواسم ، فالبدو يقطنون في الصيف (منطقة الاصطياف أو التقيظ) . وفي اللغة : قاظ أو يقيظ القوم بمكان كذا . تقيظاً ، وتقيظوا : أقاموا به زمن القيظ . والقيظ (أو القيض بلغة بدونا) : شدة الحر ، أو هو : صميم الصيف من طلوع الثريا إلى طلوع سهيل ، والمقيظ والمقاظ : الموضع الذي يقام فيه وقت القيظ ، وفي موسم الشتاء يذهبون إلى منطقة أخرى بعيدة جداً عن الأولى تدعى : منطقة التشتية ، أو : المشاتي جمع مشتى والمشتاة . والانتقال من منطقة إلى أخرى يدعى أيضاً : الظعن أو النجعة . وظعن في اللغة بمعنى : سار ، تقول : ظعنوا عن ديارهم . والظعينة : الهودج فيه امرأة أم لا . وجمعه : ظعون وأظعان . أما : النجعة فهي : طلب الكلأ ، وارتياد مساقط الغيث في مواضعها ، وهي اسم من النجوع ، يقال : خرجوا للنجعة ، أو ينجع القوم الكلأ ، وانتجعوا الكلأ : ذهبوا لطلبه في مواضعه .

والنجعة على نوعين إحداهما تتجه من الشرق الجنوبي إلى الغرب الشمالي في بادية الشام ، وفيها انتقال من منطقة التشتية إلى منطقة التقيظ وتدعى : التغريب أو : نجعة الربيع . وتقع في نيسان أو أيار . والثانية تتجه على عكس الأولى وتنتقل من منطقة التقيظ إلى منطقة التشتية وتدعى : التشريق أو نجعة الخريف ، وتقع في تشرين الأول والثاني .

ومسلك النجعة هو : الطريق الذي تسلكه العشيرة في سيرها . والمنتجع هو : المكان الذي تقصده العشيرة للنجعة وتحط فيه ، ومسلك النجعة والمنتجع لكل عشيرة مستقران . إلا أنها قد يتبدلان عند الضرورة وحصول المقدرة على تبديلهما .

ومزايا النجعة هي أنها قبل كل شيء (محتمة) إذ أن ضرورة الحياة والعيش من وراء الماشية حتمت على البدو أن يضربوا في البراري والبوادي ، ويطلبوا الكلأ الذي لا ينبت في كل مكان وزمان بالقدر المطلوب ، ومن مزايا النجعة أيضاً : أنها (ممتنعة التغير والتقلب) أي أن مناطق النجعة لكل عشيرة هي ثابتة غير متغيرة ، وقد حصلت على هذا الثبات من وضع اليد على مكان النجعة بالسيف ، أو بتوالي استعماله على كر السنين ومرور الزمن ، أو بعد اتفاق وتراض مع غيرها ، وإذا جاءت عشيرة جديدة وهمت أن تتبدى في منتجعات غيرها تعرض نفسها فوراً للمهاجمة والمطاردة ، ومن هنا كان أكثر العداوات والحزازات بين

البدو من جراء التنازع على المنتجعات ، وطمع القوي وتعديه على الضعيف فيها ، على أن الأمر قد يمكن تسويته بالتراضي ، والدراهم تلعب دورها هنا أيضاً .

أقسام البدو

لنا أن نقسم عشائر زماننا في بلاد الشام حسب عراقتهم بالبداوة وأطوارها ، وبعدهم عن الحضارة ومنازلها ، إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : العشائر الجمالة ، أو أهل الإبل ، ويسمون في اصطلاح الفرنج بالبدو الرحل ، أو بالبدو الأقحاح ، أو البدو ذوي النجعة البعيدة ، ويوصفون بأهل الوبر ، لأنهم يتخذون بيوت الشعر لسكناهم ، كما يتخذون الخيل لركوبهم ، والإبل لمعاشهم ، فالإبل سفنهم في البر ، يحملون عليها أحمالهم ، وينقلون أثقالهم ، ويأكلون لحومها ، ويقتاتون بألبانها ، وينسجون أروقة بيوتهم من أوبارها ، ويقايضون عليها في المبايعات ، ويعطون منها في الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات ؛ فهي في الجملة مصدر غَنائهم ، كما أنهم سبب معاشها ووجودها ، لا يدرون أهي خلقت لهم وقبلهم ، أم هم خلقوا لها وقبلها ، وهم يدفعون للدولة عنها ضريبة تدعى الودي ، دأبهم الظعن بين قفار البادية وبراري الحاضرة ، فراراً من حماوة القيظ تارةً ، وصبارة البرد أخرى ، وارتياداً لمواقع القطر ، وانتجاعاً لمنابت الكلأ والمراعي الصالحة للإبل ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب الكلأ ، وابتغاء المياه والدفء في أماكن أخرى ، فلا يزالون في حل وترحال يقطعون ٥٠٠ ـ ٦٠٠ كيلو متر وأحياناً ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ كيلو متر ، فيصلون في الشرق إلى القعرة ومنطقة الوديان داخل الحدود العراقية ، وهو ما يفعله ضنأ بشر من عنزة ، كالعمارات والأسبعة والفدعان ، أو يصلون في الجنوب إلى الحماد حول جبل التنف وجبل عنازة وجبل اللاهة ومنطقة الخبرات داخل الحدود العراقية ، وقرب الحدود السعودية ، وهو ما يفعله ضنأ مسلم من عنزة كالأرولة والأحسنة والأشاجعة والسوالمة والعبد الله ، وربما أوغلوا وأبعدوا إلى النفوذ قرب نجد ، وهو ما يفعله أحياناً بعض فرق الأرولة .

وهوى أهل هذا القسم في البادية وصحراواتها الشاسعة وآفاقها الواسعة ووحشتها الرائعة وحريتها المطلقة ونباتاتها وحيواناتها الغريبة ، ولا يزالون يذكرون البوادي

وشظف عيشها في منثور كلامهم ومنظومه . قال قائلهم :

وأسري بعيسٍ كالأهلة فوقها	نجوم من الأقمار أبهى وأنور[١]
ويعجبني نفح العرار وربما	شمخت بعرنيني وقد فاح عنبر[٢]
ويخدش غمدي بالحمى صفحة الثرى	إذا جر من أذياله المتحضر[٣]
فما العيش إلا الضب يحرشه الفتى	وورد بمستن اليرابيع أكدر[٤]
بحيث يلف المرء أطناب بيته	على العزو والكوم المراسيل تنحر[٥]
ويغشى ثراه حين يستعتم الثرى	ويسمو إليه الطارق المتنور[٦]

وأهل هذا القسم الأول يحتقرون أهل القسم الثاني ويدعونهم : رعية وشوايا ، لاقتنائهم الشياه والمعز ، يعدون ذلك من العار ، إذ تمنعهم عن الإيغال في البيداء ومناجزة الأعداء ، ويمتهنون أهل الحضر والقرى ويدعونهم : فلاليح[٧] لأنهم متكلون على الفلح

شرح هذه الأبيات للأستاذ عبد القادر المغربي :

(١) شبه العيس بالأهلة من حيث ضورها وهزالها فكانت منحنية كالأهلة ، ويريد بالأقمار إخوانه ورفاقه من الفتيان ، أو الفتيات الأشراف .

(٢) العرار من أزهار البادية الطيبة الرائحة ، والعنبر من طيب أهل الحضر ، فهو يقول أن رائحة العرار تعجبه أكثر ما يعجبه فوحان ريح العنبر ، وأنه يشمخ من العنبر بعرنينه ، أي أنفه استكباراً واحتقاراً له .

(٣) أي ويعجبه أيضاً أن يمشي بحمى عشيرته وحيه فيخدش رأس غمد سيفه الأرض ، وهو يمشي مفضلاً ذلك على مشية المتحضر الذي يجرر أذياله على صعيد حاضرته .

(٤) ويعجبه أيضاً من عيش البادية ، أن يحرش أي يصطاد الضبّ ، وأن يرد من المناهل كل أكدر عكر ، تستن أي : تقفز وتثب حواليه اليرابيع .

(٥) يريد أن في سكناه البادية يعيش عزيزاً ، ويكون بيته مرفوع العماد على العز ، وأطناب بيته ممدودة على العز ، والكوم : جمع كوماء ، الكثيرة لحم السنام ، والمراسيل : النياق السهلة السير ، أي وهناك بجانب بيت عزه ، تنحر النياق للضيفان .

(٦) الشطر الأول محرف ولا معنى له . ولعل صوابه (ويغشى ذراه حين يستعر الثرى) أي أن مثله كريماً في البادية يغشى ذراه ، أي ظله (كنفه في النهار) الضيوف في وقت اشتد حره حتى استعر ، وتلهب ثراه ، أي ترابه الرطيب ، فما بالك صخوره وجلاميده ، أما في الليل ، فالطارق المفاجيء المتنور الذي يستشرف ليرى نار الضيافة فيقبل عليها هذا الضيف ، يغشى أيضاً ذراه ليلاً ، كما يَغشى ذاك نهاراً .

(٧) منذ أن حظرت الحكومات الغزو ، ودالت دولة الخيل والإبل بانتشار سيارات الركوب والنقل ، وانصرف بعض هؤلاء إلى اقتناء الشياه لحسابهم ، أو بالاشتراك مع أهل الحواضر ، على نهج أعراب القسم الثاني ، كما أن بعض =

والزرع ، وساكنون بيوت المدر والحجر ، ومعتادون على الرفه وحماية الدولة . ومن أقوالهم القديمة (الذل بالحرث والمهانة بالبقر) ، ويقابلون هذه الأقوال بغيرها (العز بالإبل ، والشجاعة بالخيل) . وهم دائماً كما قال ابن خلدون : يحملون السلاح ، ويتلفتون في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس ، وعلى الرحال ، وفوق الأقتاب ، ويتفردون في الصحراء ، وثقتهم في أنفسهم كثيرة حتى صار البأس لهم خلقاً ولذلك أكثر البدو توغلاً في القفر أشدهم بأساً وأجرؤهم على تحمل المشاق . وهؤلاء البدو لا يغشون قرى المعمورة ومدنها إلا للضرورة في سني المحل والظمأ ، أو للمسابلة ، أي : للامتيار وشراء حاجاتهم وبيع الذكور من إبلهم وخيلهم وبيع أصوافهم .

وهؤلاء في بلادنا ـ في عرف الملحق رقم ١ للقرار ١٣٢ ل . ر الذي كان الفرنسيون أصدروه في ٤ حزيران ١٩٤٠ ـ هم ؛ الأرولة وتوابعها من أشاجعة وسوالمة وعبد الله وولد علي . ثم الأحسنة والأسبعة البطينات والأسبعة الأعبدة ، والفدعان ولد والفدعان خرصة ، وشمر الزور وشمر خرصة ، وبني خالد والفواعرة والموالي والحديديون والعمور والبدور والبوخميس واللهيب والكيار والوهب (ما عدا فخذ السياد) والغياث والنعير والنجاد والصليب والحسن والمساعيد والشرفات والعظامات والشنابلة والسردية . وسيأتي وصف كل من هؤلاء في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، وقد قضى القرار المذكور في المادة ١١ بوجوب خضوع الجنايات أو الجنح المرتكبة بين هؤلاء الرحل بعضهم مع بعض إلى قواعد العرف العشائري وبينهم وبين الحضر ونصف الحضر إلى الحق العادي (المحاكم النظامية) على أنه أجاز أيضاً ـ إذا طلب المغدور ـ البت في الجنح أو الجنايات المرتكبة بين الرحل ونصف الحضر وفقاً للعرف العشائري .

القسم الثاني : العشائر الغنامة ، أو أهل الغنم ، ويسمون في اصطلاح الفرنج نصف رحل ، أو نصف بدو ، أو نصف حضر ، أو البدو ذوي النجعة المحدودة ، ويسمون في اصطلاح الشاميين (عربان الديرة) تمييزاً لهم عن عربان القسم الأول ، أو يسمون (الرعية) بحكم ارتزاقهم من رعي الماشية . وهذه التسمية إما لأنهم أنقاض العشائر القديمة

= رؤسائهم تذوق طعم الفلح والزرع ، وصار من ملاكي الضياع والقرى ، ومن ساكني الدور والقصور ، فخفت بذلك وطأة المهانة التي ذكرناها ، وهذا من بوادر الميل نحو الحضارة وأول درجاتها .

الشامية وبقاياها التي تمزق صدعها وتشتت شملها ، وإما لأنهم من عشائر متباينة ومنابت مختلفة تجمعوا حول بعض العائلات القوية أو الشخصيات النافذة ، وتبعوها بحكم النزعات العشائرية ، أو الحاجات الاقتصادية ، واستعاضوا بهذه الروابط عن رابطة الدم وصاروا رعايا لهم . ويسمون في أنحاء دير الزور (شوايا) بحكم أنهم رعاة شياه ، وهؤلاء أيضاً : أهل إبل وخيل وحل وارتحال وطعن وضرب ، لكنهم فريقان ؛ فريق لا يرتزق إلا بالضرع أي بإرعاء الماشية من الغنم والمعز فقط ، وهذه الماشية إما أن تكون لهم وحدهم ، وإما أن تكون لأهل المدن في حلب وحماة وحمص ودمشق ودير الزور وغيرها ، يشاركونهم في تربيتها ، والمتاجرة بصوفها وسمنها اللذين يدران عليهم وعلى شركائهم في سني الخير ثروةً غير يسيرة ، وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر ، ويقتنون الخيل والإبل بمقدار أقل من أهل القسم الأول ، وبمقدار يكفي للظعن وراء الماشية فقط . وفريق ثاني يضم إلى الضرع امتلاك الضياع والأرضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفاً من أن تقضي أعوام الصقيع على الماشية ، أو ينقض عليها غزو ينهبها ، أو مرض يهلكها ، ويظلون متعلقين بأهداب الضرع ؛ إما لصغر مساحة الأرض التي يملكونها ، أو لكثرة ما ينتاب الزروع من الآفات كالجراد والمحل وعيث أهل القسم الأول وغير ذلك ، أو لأنهم لم يتجردوا بعد عن أطوار البداوة وهوى الحل والترحال ، ورؤية ربيع البادية واستنشاق شيحها وقيصومها . وهم بعد أن ينتهوا من بذر الزروع الشتوية يرحلون في أواخر الخريف إلى البادية انتجاعاً لمرعى غنمهم ويعودون في أواخر الربيع إلى منازلهم وضياعهم ليلحقوا أعمال الحصاد والرجاد والدراس للزروع الشتوية ، والبذر والري والتعهد للزروع الصيفية ، وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر ، أو قباب اللبن في أنحاء حلب أو الصبابيط المبنية من أعواد الطرفاء والغرب ، وأغصان عرق السوس في أودية الفرات والخابور والبليخ من أنهار الجزيرة .

وليس للتقسيم المذكور حد محدود ، فالعشيرة الواحدة قد تكون من الفريق الأول أو الثاني وحدهما أو من الفريقين كليهما . وسبب تسمية أهل هذا القسم بعربان الديرة لأنهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ، ومستقرون ولا سيما أهل الفريق الثاني فيها ، ولأنهم ينجعون في الشتاء إلى مسافات محدودة في براري الشامية من البادية ، وهم لا يوغلون فيها أكثر من ٣٠٠ ـ ٤٠٠ كيلومتر ، مراعاة لمقدرة الغنم ، ولقرب المناهل والآبار

الصالحة لورودها ، فأعراب ديار حمص وحماة يشتون حول جبل البلعاس وجبل العمور ، كما أن أعراب وادي الفرات يشتون حول جبل البشري ، وإعراب أنحاء دمشق يشتون في ديرة التلول ، وأعراب الجزيرة الفراتية في شرقي نهر البليخ وجبل عبد العزيز وجبل سنجار وقرب وادي عجيج ، ويشذ بعض هؤلاء وخاصة من كان عنده ما يكفي من الإبل فيبلغ منطقة الخبرات في الحماد ، أو منطقة الوديان في الشامية ، وبعض هؤلاء لا ينجعون البادية أبداً ، بل إنهم لضعف حولهم ، أو قلة عددهم أو ضعة أرومتهم ومكانتهم ، يبقون حول القرى والمدن يتنقلون حسب الفصول في الهضاب والأودية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم أو ضمن حدودها أو حدود مواطن شركائهم ، ولا يخلو قضاء من أقضية بلاد الشام من هؤلاء الأعراب الرعاة .

وأهل هذا القسم يشبهون في الجملة أهل القسم الأول في طباع البداوة والخشونة والشعوثة ، والميل إلى انتهاك حمى فلاحي الحاضرة عند سنوح الغفلة وضعف الدولة ، ويختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة أهل القسم الأول فلا يشهر عليهم الحرب ، ولا يحفظ لهم صحب أي لإجارة الملتجئ إليهم ، بل لما كانوا (رعية وشوايا) يُؤكلون ولا يَأكلون . فكأن القسم الأول كالدول المستقلة تمام الاستقلال من الأوروبيين ، تعامل بجميع قواعد حقوق الدول ، والقسم الثاني كالدول المستقلة من الشرقيين ، يحافظ على عهودها ، وتحترم ذمتها بحسب قوتها ومنعتها ، والقسم الثالث الذي سيأتي ذكره : كالدول التي لم يصادق على استقلالها ، أو كالإمارات المحمية والمنتدب عليها . ويختلفون أيضاً بأن لهم استعداداً بارزاً للتحضر ، فقد صار بعضهم أهل مدر ، أي أصحاب قرى وضياع يقطنون فيها ويستثمرون أرضها ، ولآخرين منهم علائق جمة مع تجار الماشية ، أو التجار السوقة في المدن والحواضر ، يشاركونهم في تربية الغنم أو زراعة الحبوب ، وهم يؤدون للدولة عدا ضريبة الأغنام العشر عن الأرضين ، وهؤلاء كما حددهم الملحق رقم ٣ للقرار ١٣٢ ل في (منطقة دمشق) عشائر حرب والصياد والجملان والنعيم والفضل والسلوط ، وفي (منطقة سلمية) نعيم حمص وحماة والبشاكم والخراشين والتركي والعقيدات والطوقان الرعية والمشارفة الرعية وبنو عز الرعية ، وفي (منطقة حلب) النعيم والبوليل والسماطية والعقيدات والبوشيخ والمشاهدة وفرقة السياد من عشيرة الوهب والولدة والبقارة ، و (في منطقة دير الزور) العقيدات والأبو سرايا وبقارة الزور والأبو شعبان

أي العفادلة والسبخة والأبو عساف وأبو سبيع والولدة ، و (في منطقة الحسجة) بقارة الجبل وبقارة الأبو معيش وملّي محمود بك وطيء والجبور والشرابين .

وقد جعل القرار المذكور هؤلاء يتبعون قواعد الحق العادي (المحاكم النظامية) في دعاويهم ما زالوا في المعمورة ويتبعون قواعد العرف العشائري ما زالوا في البادية .

هذا ومع وجود الفروق المذكورة بين أهل هذا القسم وأهل القسم الأول يحاول هؤلاء مساواة أولئك في كل الحقوق والأمور ، وينكرون أن يكون بين القسمين أي فرق ورجحان ، ويرغبون أن يكونوا على قدم التعادل في اتباع الأصول العشائري في كل ما ينالونه من امتيازات وأعطيات وحيثما كانوا ، ومما يقولونه أنه إذا كان لأهل القسم الأول إبل وخيل وحل وارتحال فلأهل القسم الثاني من ذلك نصيب وافر ، وإن كان لأهل القسم الثاني حرث وزرع وعقار وملك فأهل القسم الأول صاروا بذلك مثلهم ، فعلام التمييز في قولهم : رحل و نصف رحل ؟ ولِمَ لا يكون في الدولة قانون واحد يشمل جميع العشائر دون تفريق أو تمييز ولِمَ يسلح الرحل ويمنع السلاح عن نصف الرحل ، ويفسح المجال لطغيان جانب على آخر ، ولِمَ يتبع الرحل أصول العشائر ، ويتبع نصف الرحل الحق العادي ، ولِمَ تلحق إدارة نصف الرحل بمحافظي المحافظات والرحل لا يلحقون ؟ إلى آخر ما هنالك من الاعتراضات والمدعيات التي ما برحوا يقدمونها إلى الحكومة ويذكرونها في المجلس النيابي ، ولما تنته بعد .

القسم الثالث : العشائر المتحضرة المستقرة أهل المدر ، وهم الأعراب الفلاحون (الفلاليح) ، الذين أيقنوا أن العيش الثابت خير من المتقلقل ، وأن من يلجأ لحمى الدولة أهنأ بالاً ممن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته ، فتركوا الأباعر والأبعار والظعون والأسفار ، وعمروا الخرب الداثرة ، وهجروا بيوت الشعر إلا قليلاً ، وتحضروا وصاروا أهل مدر أي أنهم قطنوا بيوت الحجر والطين أو القباب أو الأكواخ وتوفروا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية ، من هؤلاء في شمالي الشام القاطنون في أقضية جرابلس ومنبج والباب وأعزاز وإدلب والمعرة ، وفي جبل الأحص ومطخ قنسرين وسهل العمق وسهل الروج وسهل الغاب وفي وسط الشام وجنوبه في أقضية حماة وسلمية وحمص

والجولان والزوية ممن تعددت أسماؤهم وصغرت أنسابهم وأحسابهم ، وأهل هذا القسم أيضاً وإن كانوا يغشون دائماً المدن والقرى ويشاركون أهلها ويعاشرونهم ويتصلون بمرافقها ومراتعها ، وقد صاروا فلاحين وقرويين بالمرة ، لكنهم ما برحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البداوة ، فهم يتمسكون بالقشافة والجهالة ، ويتوانون عن العمل الصالح في الزرع والحرث ولا سيا في الغرس .



الحالات الاجتماعية عند البدو

أخلاقهم ومزاياهم الغابرة والحاضرة

كان العرب في الجاهلية في طور البداوة ، وحالاتهم الاجتماعية وأخلاقهم ومزاياهم بدوية محضة ، ومن هنا كان ما تذكره كتب التاريخ والأدب عن عرب الجاهلية ينطبق جله على البدو في مختلف العصور ، وحتى على بدو عصرنا الحاضر ، ولذا فقد رأينا استكمالاً لأبحاث كتابنا هذا ، أن نذكر الأخلاق والمزايا لدى عرب الجاهلية أو بدوها أولاً ، ثم بدو العصور الإسلامية المتوسطة ثانياً ، ثم بدو عصرنا الحالي ثالثاً ، ليقارن القارئ بينها ويبدي حكمه على ما زال باقياً منها ، أو غائباً عنها .

فمما قيل في وصف الحالات الاجتماعية والأخلاق والمزايا عند عرب الجاهلية ما ذكره ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد) في فصل : وفود العرب على كسرى ، عن الخصال التي كانت تفخر بها عرب الجاهلية ، وقد سردها النعمان بن المنذر أمام كسرى حينما مدح هذا كل الأمم في عصره وذم العرب ، وإننا نقتطف منها ما يلي :

قال كسرى : « لم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوة ، ومما يدل على مهانتها وصغر همتها محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع ، لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها ، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم » .

فكان مما قاله النعمان جواباً لكسرى : « العرب لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أباً فأباً ، حاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يدعي إلى غير أبيه ، وأما سخاؤهم فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب ، عليها بلاغه في حموله وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ، ويجتزئ بالشربة فيقعرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر ، ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر ، وأما وفاؤهم فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، ويومئ الإيماءة فهي ولث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض، فيكون رهناً بدينه فلا يغلق رهنه ، ولا تخفر ذمته ، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته ، لما خفر من جواره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله ، وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيرة من الأزواج . وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له ، فعمدوا إلى أجلّها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحوماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وأنه لا شيء من اللحمان يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه ؛ وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف ، وأنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين . . . إلى آخر ما قال » .

وجاء في : تاريخ الأمم الإسلامية ج١ للشيخ محمد الخضري ما يلي :

(الرجل في أهله) ـ ونريد بالأهل خصوص الزوج :

يظلم العربي من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة ، فإنا إذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم ، نرى الأمر على العكس من ذلك ، فقد كان الرجل إذا أراد أن يمتدح بماله في نظر العرب من المقام السامي في الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة التي إن رقي في نظرها ، فقد رضي الناس كلهم عنه ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام ، وعنترة العبسي شيخ الشجعان ، ثم انظر إلى أي شجاع من العرب : هل كان يفتخر إلا محدثاً امرأةً من قومه بأنه المدافع عن الحريم الحامي للحقيقة ، تراه إذا عزلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق ما تجيب به مخالف في الرأي :

ألم تعلمي يـــا عمرك الله أنني — كريم على حين الكرام قليـــل ؟

أوَلا ترى أن جميع الشعراء إذا بدؤوا قصائدهم التي بها يفخرون بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم ، لا يذهبون إلى شيء من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب ، يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة ، وتراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب ، فيقول أحدهم :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة — ضمي إليك رحال القوم والقربا

فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفوس من سمو الدرجة ، وما أحلى احتراسه في قوله غير صاغرة ، ويقول الآخر لزوجه :

سلي الطارق المعتر يا أم مالك — إذا ما أتاني بين قدري ومجزري

أيسفر وجهي من أول القرى — وأبـذل معروفي لـه دون منكري

فلا يناديها إلا بكنيتها ، وهذا من سمات التشريف في عرفهم . وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة ، ويفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم ، كما يفخرون بنسبهم إلى آبائهم ، وكانت المرأة فيهم إذا أرادت فرقت ، وإن شاءت جمعت ، فإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونجحت ، وإن وجهتها إرادة الانتقام إلى الشر أشعلت النار بين الأحياء .

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان - في إبان الحرب بين عبس وذبيان - أتراني أخطب إلى أحد فيردني ، قال نعم : أوس بن حارثة بن لام الطائي ، فقال الحارث لغلامه : هيء لي مركباً ، ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة حتى أتيا أوساً فوجداه في داره ، فلما رأى الحارث رحب به ، وسأله عن مجيئه ، فقال جئتك خاطباً ، فقال أوس : لست هناك ، فانصرف ، ولم يكلمه . ثم دخل أوس على امرأته مغضباً - وكانت من عبس - فقالت : من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه ، قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف ، قالت : فما بالك لم تستنزله ، قال إنه استحمق ، جاءني خاطباً ، قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ، قال : نعم ، قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال : قد كان ذلك ، قالت : فتدارك ما كان منك ، فالحقه ، وقل له : إنك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً ، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت ، فانصرف ولك عندي كل ما أحببت ، فإنه سيفعل ، ففعل ذلك أوس ورد حارثة ، فلما وصلوا إلى بيت أوس . قال أوس لزوجه : ادعي لي فلانة لكبرى بناته ، فأتته ، فقال : يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجك منه . فقالت : لا تفعل لأني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره ، فيطلقني ، فيكون علي في ذلك ما فيه ، قال : قومي بارك الله فيك ، ثم دعا الوسطى ، فأجابته بمثل جوابها وقالت : إني خرقاء ، وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره ، فيطلقني ، فيكون علي في ذلك ما تعلم ، ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهن ، فلما عرض عليها ، قالت : أنت وذاك فأخبرها بإباء أختها ، فقالت لكني والله الجميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير ، فزوجها الحارث وهيئت له في بيت أبيها ، فلما خلا بها ، وأراد أن يمد يده إليها ، قالت مه أعند أبي وأخوتي هذا والله ما لا يكون ، فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها ، فقالت كما يفعل بالأمة الجليبة ، أو السبية الأخيذة ، لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي ، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه ، أعد لها ما يعد لمثلها ، فلما أراد قربانها قالت له : أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها ، اخرج إلى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك ، فلن يفوتك ، فخرج الحارث مع خارجة بن

سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات ، وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ، ومشاركتها لهم في جميع أمورهم ، وكيف كان الرجل لا يزوج بناته إلا بعد أن يستشيرها ويقف عند إرادتها . ولا يمكننا أن ندعي بأن هذا كان أمراً عاماً عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات ، تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة ، ولكن الذي يمكننا أن نقوله هو : أن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير أن يقابلوا بالنكير يدل على أنه لم يكن عندهم بدعاً من العمل .

... أما معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يرى الولد ليكون له درعاً حصينة يتقي بها العدو ، ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الأسماء من كلب وأسد وثور وفهد ونمر وما شاكل ذلك ، وكان لهم من الحنو على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم :

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض

... أما معاملة الرجل لأخيه وبني عمه ، فتستدل بهذه الجملة التي قالوها (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي ، من غير التعديل الذي جاء به الإسلام ، لأن الإسلام فسَّر نصرَ الظالم بكفه عن ظلمه .

أما هم فكانوا ينصرون إخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم ، وعدلهم وظلمهم ، والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته ، وينقصه من قدره ، وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم ، كما قال شاعرهم :

لو كنت من مازن لم يستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة إن ذولوثة لانا ... إلخ

وإذا دخلت قبيلتان منهم في حلف ، كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل ، والأمر واحد في الحلفين . وبينما هذه حالهم في بني أبيهم دنيا وفي حلفائهم ، إذا بك تراهم حين تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً في الشرف والثروة ، فتجد القبائل يجمعها أب

واحد ، وكل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد ، تنتهز الفرصة للغض منها ، والاستيلاء على موارد رزقها ، وترى العداء قد بلغ منها الدرجة التي لا تطاق ، كما كان بين بطني الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان ، وبين بكر وتغلب ، وبين عبد شمس وهاشم ، وكما تراهم في الجملة بين ربيعة ومضر ، وبين قيس وكنانة ، وبين القحطانية والنزارية . فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة ، تزيدها العصبية حياة ونمواً، ولكنها كانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة ، فكانت قواهم متفانية في حروبهم . والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول ـ التنافس في مادة الحياة بين بني الأب الواحد . فإنا نعلم أن حياة العرب كانت على مراعيهم التي يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التي منها يشربون ، وهي محل نزاع دائم ، لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلأ والماء . وأكثر ما يبتدئ ذلك بين رعاة الإبل القائمين بشأنها ، فإنهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء أولاً ، أو في نفس المراعي ، فيتجاوزهم النزاع إلى ساداتهم ، فلا يجدون من الافتراق بدأ . فينزح أحد الأخوين عن داره مرغماً إلى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به ، ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراجل بقوة منازعه فينزح ، وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل ، وإذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى .

السبب الثاني : تنازع الشرف والرئاسة ، وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الأخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه ، فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضاً ، تزيده الأيام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار ، مضمراً في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاوران ، وفي هذه الحال يكون التنافر أشد ، كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكما كان بين هاشم وأمية بمكة ، وبين عبس وذبيان من قيس ، وبين بكر وتغلب من ربيعة ، وبين دارم ويربوع من تميم ، ولذلك نرى الحروب الهائلة والأيام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة في الأنساب المتقاربة في الأمكنة .

ولم يكن لهم نظام يلجؤون إليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف ، وإنما

كانوا في بعض الأحيان يلجؤون إلى حكم منهم ، قد عرف بأصالة الرأي ، ويقدم كل من المتنازعين بين يديه ، بمساعدة مريديه ، ما يشرفه في النفوس ، ويعظم أمره من نحر الجزر وإطعام الطعام ، وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين ، لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداء ضراماً .

وإذا كان الحكم عارفاً بدخائل العرب ، سوى بينهما في الفضل والشرف ، كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فإنه قال لهما : أنتما كركبتي البعير ، وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما أن يجد له شعراً يلهبه ويزيد في نفسه نعرة الجاهلية ، كما فعل الأعشى في هذه القضية ، فإنه قال القصائد الرنانة ، يفضل بها عامراً ، ويزعم أن الحكم قضى له . ومما كان يزيد في هذه النيران شدة ألسنة الشعراء ، فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عشيرته بكلمة شعرية ، يعدد بها مفاخر قبيلته ، ومثالب القبيلة الأخرى ، وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ، ووسموها بتلك السمة ، حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص . لأن كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التي تعادي قبيلته المعترف لها بالتبريز في السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحي الإنسان من إنشاده ، ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة .

ومتى وجد النفور بين جماعتين ، أو بين شخصين ، لا يحتاج شبوب نار بينهما إلى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر نزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الأطفال وتأيم النساء . لذلك كانت الجزيرة العربية دائمة الحروب والمنازعات ، قلما يخلو منها زمان أو مكان ، وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة وجدتها في بعض الأحيان تافهة ، كما كان في حروب الفجار ، وفي البعض الآخر ، نراها أموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه ، كالحروب بين عبس وذبيان ، وبين بكر وتغلب ، ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك ، هي النفور المتأصل في القلوب كما ذكرناه .

. . . من الأخلاق التي كانت للعربي (سرعة الانفعال والإقدام على المكاره) تراه ساكناً مطمئناً ، فلا تحتاج في هيجه إلا إلى كلمة صغيرة ، أو فعلة حقيرة ، يتخيل معها أن قد مس شرفه ، فتجده زأر كالأسد ، خرج من مكمنه ، لا يتريث حتى يستطلع جلية

الأمر بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً . وهذا الخلق أكثر ما تراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجناً ولا أحكاماً من جراء أفعالهم بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس إذا أحست بما يضرها ، انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام ، فإذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم إلى السير في طريق الحروب ، بقليل من الكلمات . وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي ، كما في كل أمة وأرقاها ، درجة في التأثير يا لفلان ، واذلاه ، وانصيراه ، شرف الآباء ! وما شاكل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حسبما يتخيل ، ويتبع هذا الخلق : الجرأة على سفك الدم ، لأن النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدمت ولم تخش عقوبة لم تكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه ، ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً ، اللهم إلا في سادتهم ، وذوي الأسنان منهم ، ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلين .

ومن أخلاقهم (التعصب) ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم . وقد سمى القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية ، لأن فيهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت .

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم (الكرم) وقد استنفذوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومثن على غيره ، كان الواحد منهم يأتيه الضيف ـ في شدة البرد والجوع ـ وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها ويذبحها لضيفه ، يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم :

وأعلم بأن الضيف يوماً سوف يحمد أو يلوم

ومن أخلاقهم الذي كانوا يمتدحون بها ويعيبون من خالفها (الوفاء بالعهد) فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ، ويستهينون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم . انظروا إلى ما فعله هانئ بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر وأولاده ، حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة ، غير مبال بما يصيبه ويصيب قومه من جراء ذلك . ثم انظروا إلى ما فعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغساني بين

قتل ولـده وتسليم أدرع امرئ القيس بن حجر الكنـدي التي كان أودعها عنـده ففضل قتل ولده . ثم انظر إلى ما فعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عنـد كسرى حتى ضرب المثل بقوس حـاجب ، والقوس في الحقيقة لا يمنعه رهنها من فعل ما يشاء إن كان من شيمته الغدر ، وإنما خـاف السبـة على بنيه من بعده إذا هو غدر . ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الأمـة العربيـة أنهم كانوا إذا زل واحد منهم زلة فغدر بذي عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية ، وقلما يفلح بعدها أو يرفع لـه رأساً بين العرب .

ومن أخلاقهم التي كانت بجـانب الكرم والوفـاء (الشجـاعـة) ، وهي قـوة في النفس تحمل صاحبها على الإقدام على المكروه ، وباب الحماسـة في أشعـارهم أكبر من بـاب الكرم ، لأن الشجـاعـة خلق يظهر في جميع الأفراد . أمـا الكرم فـإنـه لا يظهر أثره بجلاء إلا عنـد أربـاب الأموال الـذين يمكنهم أن يعطفـوا على الفقراء والمعـوزين . وقـد اشتهر من العرب كثيرون امتـازوا على أقرانهم في شـدة البـأس وقـوة القلب . وكان فيهم من نتـائـج حميـة الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم .

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ، ولكنـا لا يمكنـا أن نقول أنها كانت أخلاقاً عامةً لجمهورهم ، ومن يطلع على كلامهم في أبواب الأدب يجد من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً ، يذهب بنفس قارئه كل مذهب ، ويجعلـه يحكم أن هـذه الأمـة مع مـا كانت عليـه من البـداوة وشظف العيش لم تخـل من حكمـاء أودعـوا أشعـارهم ما يفيد من بعدهم .

وقال أحمد حسن الزيات في (تاريخ الأدب العربي) :

إن لمناخ الإقليم أثراً طبيعياً قوياً في حيـاة أهلـه . فهو الـذي ينهج لهم سنن معـاشهم ونظـام اجتماعهم ، ويكون الكثير الغـالب من أخلاقهم وطبـاعهم . والعربيـة شبـه جـزيرة جافة قاحلة ، قلما يجودهـا الغيث ، وتوآتيهـا السيول ، فهي لا تصلح للزروع الـدوريـة ، ولا تلائم الحياة الحضرية . ومن ثم كان أهلها بدواً[1] بالفطرة يعيشون تحت الخيام على رعي

(١) يدل على أن البداوة خصيصة العرب في التاريخ القديم أن لفظ العرب يراد بـه في اللغـات السـاميـة معنى البـدو والبادية .

الأنعـام ، فيطعمون من لحمها ولبنهـا ، ويكتسون بصوفهـا ووبرهـا ، ويبتغون بهـا مواقـع القطر ورياض الأرض ، ويسيمونها فيهـا ، ويرددونهـا بين أوديتهـا وفيـافيهـا إلا قريشـاً ، فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام وإيلافهم رحلـة اليمن والشـام ، وإلا القحطـانيين لحـظ ديـارهم من الخصب والمطر ووفرة مـا تفعلـه أرضوهم من الحب والثمر . فـإذا أخلفت السماء وأمحلت وجـوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بـالإغـارة والغـزو . وجريرة ذلـك عليهم فسـاد القلوب ودوام الحروب وذهـاب الأمن وتشعث الألفـة . ولم ينكب الجـاهليون بمثـل الحرب والجـدب . فهم لـذلـك يتمـدحون بـالبـأس والسماحـة ، ويتبجحـون بـاللّسن والفصـاحـة ، ويـؤثرون الـذكر ويئـدون[1] الأنثى ، ويتكاثرون بـالنفر العـديـد ، ويعتزون بـالقرابـة الواشجة .

ثم كان من إلفهم حيـاة الظعن والتجوال وتـوزع همهم بين الجـدال والقتـال أن غلبت عليهم الحرية والعصبية والوحشية ، فلم تكن لهم مدينة اجتماعيـة ولا حكومـة سيـاسيـة ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية . وإنما كان المجتمع مجتمع القبيلـة والخيـمة ، لا مجتمع الشعب والأمـة ، والحكومـة كانت لرؤسـاء العشـائر يملكون بـالإرث ويحكمـون بـالعرف ، فلم تكن الجُرشيّة[2] كحكومة الإغريق ، ولا ملكية كحكومـة المصريين والفرس . اللهم إلا في الحيرة والشام ، فقـد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين ، فـاللخميون في الحيرة يتبعون الأكاسرة ، والغسـانيون في الشـام يتبعـون القيـاصرة . وإذن فمعـاني الحضـارة والرأي العـام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا ألفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً ، والنظـام العسكري حتى بعـد الإسلام كان غير ثـابت ولا منظم ، لأن نظـام المرؤوسيـة والتجرد عن الشخصيـة ـ وهمـا الركنـان الأسـاسيـان في العسكريـة ـ يضـادان إعجـاب العربي بنفسـه واعتـداده بشخصـه ، والـدين كان دين بسـاطـة وسـذاجـة وتقشف ، فلم يكن للعرب مـا للإغريق من تعدد الآلهة وفخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائـد ، وإنما كان بقية أثريـة من دين إبراهيم جـاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثـة مشوهـة لتطاول العهد وتحكم الجهالـة وعـدم القرار ، فحـالت في نفوسهم إلى عبـادة الأصنـام وتعظيم

---

(١) لم يكن الوأد عاماً في جميع العرب وإنما كان خاصاً ببعض قبائل تميم وأسـد يفعلـه من يفعلـه منهم خشيـة الفقر . وإلى ذلك أشار الكتاب في قوله : ﴿ ولا تَقْتُلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

(٢) الأجرشية oligarchie حكومة يحصر السلطان فيها في يد بعض الأسر القوية .

الأوثـان[1] ونصبهـا على الكعبـة تقربـاً بهـا إلى الله على زعمهم . وهـذه الـوثنيـة كانت دين الكثرة من العرب ، أما القلة فكان بعضها على اليهودية في اليمن وفي يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء وبعضهـا على النصرانيـة بنجران والحيرة وفي قبـائـل طيء والغسـاسنـة في الشام[2] .

أما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها أشبه بحال المصرية الريفية اليوم . تتألف من الأبوين والأولاد والأحفاد والرقيق . وكان سلطان الأب مطلقاً على أهله ؛ يملك عليهم الموت والحياة والبيع والانتفـاء . فربمـا وأد ابنتـه خوف الفقر ، وانتفى من ابن أمتـه خوف العار . وكان للزوجة المكانة السامية الثانية في الأسرة ، يحلها الزوج في نفسه ، ويشركها في أمره ، ويتغنى باسمها في شعره ، ويفخر الولد بنسبتـه إلى أمـه كما يفخر بنسبتـه إلى أبيـه ، وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة ، وللرجل وحده حق الطلاق مـا لم يشترط عنـد العقـد خـلاف ذلـك . ثم كان لهم أنـواع أخرى من الـزواج هي أشبـه شيء بالمسافحة لا يعقدها إلا أولو الدعـارة من الشبـاب . ويقرب من هـذه الأنواع زواج كانت تعقده السيوف والأسنة ، وذلك أن أحدهم يلقى رجلاً معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من أحلافها ، فيتقاتلان ، فإذا قهره أخذها منه سبيـة واستحلهـا بـذلـك . وكانوا يعـددون بين الزوجات إلى حد غير معروف ، ويحلون التزوج من امرأة الأب ، ويحرمون البنـاء بـالبنت والأخت والعمة والخالة . أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة فجماعها مـدلول هـذه الكلمـة الجاهلية : (انصر أخاك ظالماً أو مظلومـاً) على مـا بين أبنـاء العم من تنـافس وتبـاغض . ولكن القبيلة للواحد والواحد للقبيلة .

وأما حالهم العقلية فقد كان التبابعة باليمن والمنـاذرة والغسـاسنـة في الشمال على حـظ من العلوم يدل عليه ما أقـاموه من السـدود وأحيوه من الأرض وعمروه من المـدن . ولكن درجة رقيهم وحقيقة علومهم لا تزال سراً مطوياً في جوف الأرض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل .

---

(١) الصنم ما كان على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب ، والوثن ما كان حجراً غفلاً من الصنعة .

(٢) ويهودية العرب ونصرانيتهم أيضاً كانت مشوهة غير تامة ، وكانوا يتبعون في النصرانية مذهب اليعاقبة على قيـاس ضئيل .

أما العدنانيون فقد أكسبتهم قوة الملاحظة وكثرة التجارب واضطرار الحاجة طائفة من العلم المبني على التجربة والاستقراء والوهم . فعرفوا الطب والبيطرة والخيل لاتصالها بالحرب ، ولاحظوا الأنواء والنجوم والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث ، وليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . وبرعوا في الأنساب والأخبار والأشعار ، محافظة على عصبيتهم وتحدثاً بمفاخرهم وتخليداً لمآثرهم . ومهروا في الفراسة والقيافة[1] ووصف الأرض لكشف الدّعيّ فيهم وطلب الهارب منهم . ثم قادهم الجانب الروحي فيهم إلى الاعتقاد بالكهانة[2] والعرافة والزجر ففزعوا إلى الكهان في أمراضهم واستفتوا العرّافين في أغراضهم حتى ذهب الإسلام بكل ذلك .

وجملة القول أن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككاً من الجهة السياسية والاقتصادية واللغوية مرتبطاً من الجهة الخلقية والعقلية والأدبية . ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهاناً بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة كوّنوا أكثرها من نتائج قرائحهم وثمار تجاربهم . فإن لغتهم وهي صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينهما إلا استوعبت أسماءه ورتبت أجزاءه[3] ووضع اللفظ للشيء دليل على وجوده وعلمه . ولعمري ما يكون التمدن اللغوي إلا بعد تمدن اجتماعي راق في حقيقته وإن لم يرق في شكله ، عام في أثره وإن لم يعم في أهله .

وفي تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان في فصل (العصبية العربية قبل الإسلام) ج ٤ ص ١٠ ما يلي :

العرب جمهورهم من البدو ، والعصبية ضرورية لأهل البادية . لأن الناس

(١) الفراسة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه . والقيافة قسمان : قيافة الأثر وهي الاهتداء إلى الهارب بآثار قدمه وقيافة البشر وهي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه .

(٢) الكهانة والعرافة مطالعة الغيب والأخبار بالحوادث الماضية والآتية . وقد يخصون الكاهن بعلم المستقبل والعراف بعلم الماضي ، والزجر هو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث ، فكان الرجل يعمد إلى الطائر مثلاً فيرميه بحصاة أو يصيح به . فإن ولاه في طيرانه ميامنة تفاءل به . وإن ولاه مياسرة تشاءم منه وتطير .

(٣) تجد الأمثلة على ذلك في كتاب فقه اللغة للثعالبي وكتاب المخصص لابن سيده .

مفطورون على المطامع ودأبهم التخاصم والتنازع ، فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام وأهل الدولة من أن يظلم بعضهم بعضاً ، وهي أيضاً تدفع غارات الأعداء بما تقيه من الأسوار وتعده من الجند والسلاح . وأما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس أهل القبيلة أو الحي من الوقار لهم ، وإكرام السن من سنن البدو وإذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام في الدفاع عنها فتيانهم وشجعانهم ، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم إلا إذا كان لهم عصبية تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم .

وأهل البلد الواحد أو المصلحة الواحدة لابد لهم من جامعة تجمع بين أفرادهم . والجامعة تختلف في الأمم باختلاف أحوالهم فبعض الأمم يجمعهم الوطن وآخرون يجمعهم الدين وغيرهم يجمعهم النسب أو اللغة . وقد رأيت أن البدو لا وطن لهم وكانوا قبل الإسلام لا دين لهم فلم يكن لهم ما يجمعهم غير النسب واللغة وهما متلازمتان خصوصاً في البداوة ، فعني العرب في حفظ أنسابهم وضبطها وتفاخروا بها وبالغوا في استقصائها حتى ردوها إلى الآباء الأولين .

فأقرب أسباب العصبية عندهم الأخوّة والوالدية والعمومة ، ومنها تتألف العائلة أو الأسرة . ومن العائلات تتألف الفصيلة كآل أبي طالب وآل العباس مثلاً ، فإن كلاً منهما فصيلة مؤلفة من عائلات وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تتألف الفخذ مثل بني هاشم وبني أمية وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الأفخاذ تتألف البطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمارة مثل بني قريش وبني كنانة وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتألف القبيلة مثل ربيعة ومضر وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب وهو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان .

عصبية النسب : وبين القبائل أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض ، الأقرب فالأقرب على الأبعد فالأبعد فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعاً من بطن واحد ، ويجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة على حد قول المثل : « أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه أوسع العصبيات . ثم إن القبائل تتعصب بعضها على بعض ، والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب

بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك في البطون من عمارة واحدة أو الأفخاذ من بطن واحد حتى تصل إلى الفصائل والعائلات فبنو العباس وبنو أبي طالب مثلاً تخاصما وكلاهما من بني هاشم . وبنو هاشم وبنو أمية تخاصما وكلاهما من بني عبد مناف وقس على ذلك .

وكل من القبائل أو البطون أو الأفخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على أن أشهر حوادث المنافسة بين العرب إنما هو بين القبائل القحطانية أو اليمنية والقبائل العدنانية .

... على أن العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس أو الترك ويسمونهم (العجم) ويفاخرونهم بالأنساب واللغة ويحتقرونهم ، شقوا من اسمهم لفظ الأعجم للدلالة على الخرس أو أن العجم مشتق من العجمة ، فللعجمي عندهم غير العربي ، والأعجم : الأخرس ، والأخزر عندهم : الذي في عينه ضيق ، وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص .

... والمنافسة بين العرب والعجم قديمة ، فإن الفرس في أيام دولتهم كثيراً ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في أيام سابور قبل الإسلام ببضعة قرون . وكان هذا قد تعمد أذى العرب وإخراجهم من بلاده وخصوصاً من قبيلة إياد وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور أصبحت   قباب إياد حولها الخيل والنعم

... وما زالت الضغائن بين العرب والفرس إلى أن جاء الإسلام وتحول السلطان إلى العرب فتسلطوا على العجم فكبر ذلك عليهم وخصوصاً في أيام بني أمية لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب ، وبلغ من جسارة بعض الشعوبية في بعض ردوده على العرب أن قال : (فما الذي تفخر به العرب على العجم فإنما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل) .

الأمومة والخؤولة : الأصل في العصبية عند العرب الأبوة أو الانتساب إلى الأب مثل سائر الأمم الراقية ، على أن الأمومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيراً ما كانت

المزاوجة والمصاهرة سبباً كبيراً للعصبية ليس ذلك لعلو منزلة المراة على الإجمال ، وإنما الفضل فيه للأمومة فإن المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير أماً فتعلو منزلتها وقتئذ وتشتد عرى الاتحاد بها . فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته ، لأن الأم في اعتقاده أبقى له من امرأته . وكانت العرب من أجل ذلك لا يعزون بالمرأة إلا أن تكون أماً . وقد نشأت من ذلك عصبية الخؤولة عند العرب وهي نصرة عشيرة الأم لأولادها وبعبارة أخرى لعشيرة زوجها ولو كان الأب من قبيلة يمنية والأم من قبيلة عدنانية أو بالعكس .

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الإسلام ، وأقرب الشواهد عليها نصرة أهل المدينة للنبي في هجرته إليهم ؛ فإن الخؤولة كانت من أهم أسباب نصرتهم ، لأن أم النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية وأبوه من قريش وهي قبيلة مضرية . وظلت الخؤولة مرعية عند العرب بعد الإسلام وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان نصره بنو كلب وهم يمنية ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت أصابعها بالدم . وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنه يزيد . ومنها أن المأمون نصره الفرس لأن أمه منهم وكان أخوه الأمين ضده وحزبه عربي لأن أمه عربية فلجأ المأمون إلى خراسان وأقام عند أخواله فأخرجوا الخلافة من يد الأمين وسلموها إليه . والمعتصم كانت أمه تركية وكان ميله إلى الأتراك كثيراً وقد جندهم فنصروه على الفرس . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقودون أحزابهم بالتزاوج من القبائل المختلفة فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم .

توابع العصبية العربية : فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الأب ثم الأم على أنهم كانوا يجتمعون بأسباب أخرى كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية في هذه الأيام . وأشهر أحلاف الجاهلية حلف المطيبين وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت أنسابها من القحطانية والعدنانية .

... ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف (المؤاخاة) وقد تكون بين القبائل أو بين الأفراد ، ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو إلى الآن ، فإذا آخيت العربي أخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك أخوه .

سياسة الدولة في الجاهلية : إنما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها أحكامهم ومعاملتهم لحفظ علائقهم السياسية وآدابهم الاجتماعية مما يقوم مقام القوانين الإدارية والسياسية في الأمم المتمدنة .

فالرئاسة عندهم أو الإمارة إنما ينالها أهل العصبية والجاه ، وإذا تساوت العصبية في جماعة قدموا أكبرهم سناً ولذلك كان لفظ (الشيخ) عندهم يدل على الشيخوخة والرئاسة معاً ، وإذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا إلى الاقتراع . وكذلك إذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا إلى من يرأسهم جميعاً فإنهم يقترعونَ بين أهل الرئاسة فمن خرجت عليه القرعة رأسوه ، ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . وأما حضرهم في مكة فالرئاسة فيهم لسادن الكعبة . وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرئاسة والشرف فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرئاسة فيها كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس وبيت آل ذرارة بن عدي من تميم وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان وبيت بني الريان من بني الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف لتوالي ثلاثة آباء منها في الرئاسة على القبيلة . ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة . وكان أهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن علي : (ولِ أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم) .

والأمير البدوي مع سلطته المطلقة قلما يستبد في أحكامه ، ويغلب أن يستشير أهل بطانته وخاصته على أنه لم يكن ليحتجب عن أحد ولا يمتهن أحداً . يجالس الناس ويخالطهم رفيعهم ووضيعهم وهم لا يعرفون ألقاب التفخيم ولا نعوت التمليق فإذا خاطب البدوي أميره ناداه باسمه وطالبه بحقه بعبارات تشف عن عزة النفس وإباء الضيم أو هي أنفة البداوة ، على أنهم كانوا يتكلمون على الأسنان والأمير يخاطب رعاياه بألقاب الوقار كالأب والعم والخال والابن أو ابن الخال على ما تقتضيه الأنساب والأسنان وظل ذلك شأنهم في صدر الإسلام ينادون الخليفة باسمه ـ أو بأمير المؤمنين ـ ويحاجونه في شؤونه حتى إذا تحضروا احتجبوا وتكبروا فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم .

مناقب العرب في الجاهلية : على أن العرب قلما كانوا يحتاجون إلى حاكم يفصل الخصومة بينهم لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » لأنه إذا تأصل في أمة أغناها عن القضاء . والحكومة إنما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكناً في خلق العربي ويزيد تمكناً فيه كلما بعد عن المدن وأوغل في الصحراء . لأن الغدر والنكث لا يعيشان إلا في القصور الشماء بين الحدائق الغناء .

ونرى (**الوفاء**) مطبوعاً في أقوال أهل البادية وأشعارهم وأمثالهم يتجلى في عاداتهم وأخلاقهم وفي سائر أعمالهم وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة أحسن تمثيل . فإن حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدي ، ولم يقدم شريك على ذلك إلا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفى حنظلة فجاء في الوقت المعين لا جند يقوده ولا ضابطة تخفره مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة . وأغرب من ذلك وفاء السموءل (صموئيل) بن عادياء ، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحاً وأمتعة تساوي مالاً كثيراً وسافر إلى بلاد الروم ومات قبل رجوعه فبعث ملك كندة يطلب الأسلحة والأمتعة المودعة عند السموءل فلم يسلمها . ولما ألح عليه أجابه : « لا أغدر بذمتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء الواجب عليّ » ، فجرد الملك عليه جيشاً وحاصره في حصنه ، فوقع ابن السموءل أسيراً عند الملك فهدد السموءل بقتل ابنه إن لم يسلم الوديعة فأبى التسليم وقال : « ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي فافعل ما شئت » فذبح ولده والسموءل ينظر . فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائباً . وأما السموءل فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء ، ولم يسلم الوديعة إلا إلى ورثة امرئ القيس . فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم إلى القوانين واستغنوا عن الجند والضابطة ، وخصوصاً إذا أضفنا إليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنيئة ، فهذه كلها من مناقب العرب أهل البادية .

الجوار : ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام ايضاً (الجوار) فإن البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار في الأصل أن يحافظ الرجل على جاره

القريب ، وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل : (جارك القريب ولا أخوك البعيد) ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الإجارة والاستجارة والجوار وكلها بمعنى الحماية والحفظ مع أن أصل المادة « جار » يفيد ضد ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على الإطلاق فإذا خاف أحدهم سوءاً جاء إلى رجل يحميه ويكفي أن يقول له : « أجرني » فيجيره بقدر طاقته ولا يفرط بجاره . ومن أمثلة ذلك أن الأعشى امتدح الأسود العنسي فأعطاه جائزة من الحلل والعنبر فرجع وطريقه على بني عامر فخافهم على ما معه من المال فأتى علقمة بن علاثة فقال له : (أجرني) فقال : (قد أجرتك) قال : (من الجن والإنس) قال : (نعم) قال : (ومن الموت) قال : (لا) فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له : (أجرني) قال : (قد أجرتك) قال : (من الإنس والجن) قال : (نعم) قال : (ومن الموت) قال : (نعم) قال : (وكيف تجيرني من الموت) قال : (إذا متّ وأنت جاري بعثت إلى أهلك الدية) قال : (الآن علمت أنك تجيرني) . وقد يجيء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته فيكفي أن يعقد طرف ثوبه إلى جانب طنب البيت فإذا فعل ذلك صار جاراً ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به أن يجيره وأن يطلب له بظلامته . ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه أن عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر أنصاباً ميلاً في ميل على قبره ، لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ، ولا يسلكه راكب و ماش ، إشارة إلى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته .

وما زال الجوار مرعياً عند العرب بعد الإسلام إلا من خالط الأمم الأخرى في البلاد المفتوحة . على أن تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لأن أهل الوجاهة أصبحوا من أهل الدولة ، والرجل يومئذ إنما يستجير من حاكم يطلبه فإذا استجار به مظلوم قالوا : (إنما نجير الرجل على عشيرته وأما على سلطانه فلا) خوفاً على مناصبهم . كما أصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد واستجار بالأحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد وهو يومئذ أمير البصرة فأبى الأحنف خوف العزل وقال له : (إذا شئت أن أجيرك من بني سعد فعلت) فذهب إلى غيره من وجهاء العرب فأبوا إجارته لنفس هذا السبب .

ومن المناقب التي تغني العرب عن الوازع القهري أو القوة الحاكمة **(الأريحية)** وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية ، أو ما يجري مجراها من أحوال الفروسية التي يعبر

عنها الإفرنج بقولهم Chevalerie ومرجع ذلك إلى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الأحدوثة . وكان للأريحية شأن عظيم عند العرب لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم لأنهم أهل خيال وذوو نفوس حساسة يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم ، وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم ، وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يسمعها ، ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهلة في المواسم والأندية ، مما يرغب في الفضائل ويغني عن زجر الحكام .

وقال الأب لامنس اليسوعي في مجلة المشرق ج ١ السنة ٢٣ في مقال له عن (**الثأر عند العرب** وصفته الدينية) :

« لم يقم شعب من الشعوب بما قام به البدو في سبيل تعزيز صلات القرابة الدموية . وليس هذا لاهتمامهم بما وراء الحياة أو لأن الموت شغلتهم أسراره الغامضة فطمحوا إلى معرفة الحياة الأخرى . إنما كانوا يعتقدون أن في الدم المبدأ الحيوي أو (النفس السائلة) كما قالوا (المسعودي : مروج الذهب ٣ : ٣٠٩) ولهذا فقد رأوا أن سفك الدم يتطلب الانتقام ضرورة . وأنه إذا لم يأخذ ولي الثأر بثأره أي إذا لم ينتقم قريب القتيل لقتيله فإن الدم المسفوح يقع إثمه على رأس الولي حتى آخر نقطة . ومما زاد هذا الاعتقاد رسوخاً في أذهانهم فرفعهم فوق الأنانية والفردية اللتين اتصفوا بها هو تحققهم أن ظل الدم أو عدم الانتقام يفكك أواصر الأسرة وهي آخر الحلقات الاجتماعية بل الحلقة الوحيدة المعروفة في تلك الحياة الفوضوية في بلاد العرب .

ومن ثم فإن مصرع النسيب والجار يزيل حالاً ما يكون من الاختلافات بين أفراد الأسرة أو القبيلة ، فيعيد الاتفاق الظرفي ويوحد النزعات في سبيل طلب الثأر ، بل إن هذا الواجب طلب الثأر يفعل الأفاعيل العجيبة في تلك الطبيعة البدوية الجانحة إلى التواكل والكسل . إنه يحول الفتيان الضعاف بل الجبناء إلى رجال أشداء لا يتراجعون أمام عقبة . ولا يخرج النساء عن هذا المظهر الذي يكاد يكون قاعدة عامة . فإن أمهات القتلى وأخواتهم يعادلن الرجال حماسةً واندفاعاً في إظهار تلك العاطفة الانتقامية بأشعارهن وأناشيدهن المهوسة حتى يثرن ما كمن في صدور الرجال ، ويدفعنهم إلى الإسراع في طلب الثأر وهو الفرض الديني كما سنرى . أو لم يجعل هذا الفرض من امرئ القيس ، ذاك الشاعر

العابث ، معاقر الخمرة ورفيق الملاهي ، بطلاً تائهاً لا يرتوي ظمأه من الدماء ولا يهدأ اضطرابه إلا إذا أخذ بثأر أبيه .

ولا يخالن القارئ أن الدافع إلى طلب الثأر فطرة دموية في البدوي أو غريزة انتقامية هائجة . لا إنما هو عاطفة بر بالأهل تهيب به إلى إرواء صدى القتيل بدم القاتل حتى وإن كان ذاك القتيل قد نبذ ولي ثأره في حياته ، فطرده من أسرته كما فعل حجر الكندي بابنه امرئ القيس . فلم يمنع هذا ابنه أن يطالب بدمه قائلاً : (ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً) . هو دين الأسرة يفهمه البدوي كل الفهم ولا يناقش فروضه بل يخضع لها كل الخضوع . بيد أنه لا يغفل عما تجره عليه هذه الفروض من اقتحام عقبات وتعرض للموت . فيقول :

أقول لنفس لا يجاد بمثلها ... أقلي العتاب ، إنني غير مدبر

... ولقد أدى الأمر بالبدوي في هذا النزاع بين واجب الثأر ونفور النفس من القيام به إلى اختراع قيود مختلفة دخلت في طقسيات الثأر . الغاية منها مساعدة البدوي في تذكيره الدائم بواجبه وتقوية إرادته ودفعه إلى قتل القاتل ، من ذلك أنه عمد إلى نفسه المفطورة على الحرية بل على الفوضى فقيدها بسلسلة من التقشفات والتضحيات تضير أنانيته وشهوانيته معاً . بل تذهب إلى أبعد من ذلك إذ تبدو لديه وعليها مسحة دينية من « الإحرام » . بأن يمتنع ولي الثأر عن الكحل والدهن والطيب واللحم والخمر وألفة النساء والاجتماع إلى أفراد أسرته ... إلا أن العادة خففت شيئاً فشيئاً من هذه التحريمات فرفعت منها هجر النساء والأسرة ... ومن أوضح الحوادث دلالة على شريعة الإحرام هذه ما ذكره صاحب الأغاني عن ريحانة بنت معدي كرب من أنها قالت لدريد بن الصمة بعد حول من مقتل أخيه : « يا بني ، إن كنت عجزت عن طلب ثأر أخيك ، فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد » فأنف من ذلك وحلف لا يكتحل ولا يدّهن ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره . فغزا هذه الغزاة وجاءها بذؤاب بن أسماء فقتله بفنائها . وقال : هل بلغت ما في نفسك ؟ قالت : نعم متعت بك » (الأغاني ٩ : ٧) .

... وإذا قام الولي بنذره أي إذا وفى عهده وأخذ بثأره فإنه يعود إلى الحياة العادية ،

فخوراً بعمله محللاً لنفسه كل ما كان قد حرمه ، فيقول كما قال المثلم بن عمرو الكندي مشبهاً واجب الثأر بالهم الثقيل كالجبل :

إني أبى الله أن أموت وفي صدري هم كأنه جبلُ
يمنع مني طعم الشراب وإن كان رحيقاً مزاجه عسل
حتى نفضت الوتر العظيم ودا نيت بيوتاً وبينها خلل

... البدوي ليس شرساً من فطرته ولا ميالاً إلى سفك الدماء على رغم ما ينسب إليه الحضريون من أعمال القسوة والهمجية . ولد البدوي في بيئة قاسية محرومة فنشأ فردياً أنانياً لا يتكل إلا على نفسه فكان أنه قدر كأفضل ما يكون قيمة الحياة البشرية ونفر على توتر أعصابه وسرعة تأثره من التسرع في إهراق الدم . هو يكره القتل ، ولا يلجأ إليه إلا فيما ندر ، وفي حالة الدفاع عن النفس وحدها . وما كان الثأر إلا من هذه الحالات تصبغه العادة بالصبغة الدينية فترتفع به إلى مرتبة المؤسسات والعقائد . وليس نفوره من إهراق الدم نتيجة التأثم والندم أو التوبة لا ، فإن البدوي إذا ما دفع إلى قتل مثيله ، لا يشعر بأنه ارتكب عملاً شائناً من تلك الأعمال التي يسميها الفواحش أو المخزيات . والجميع يرون في القاتل لا مذنباً بل شقياً مسكيناً (حامِل دم) تهور في اندفاعه ولم يتمالك أعصابه ، أو خانته الأحوال فدفع إلى القتل . فيجتهدون كل على قدر استطاعته في تخليص ذاك المسكين من مأزقه ، وفي معاونته على تأليف الدية إذا مد يده مستعطياً جمعها وهم معتقدون أن كلاً منهم قد يصيبه يوماً ما أصاب هذا المسكين ، فيصبح بحاجة إلى معاونة أفراد القبيلة وحلفائها في جمع نياق الدية .

... هذا النفور من إهراق الدم ينتج عند العرب من شريعة الثأر ، تلك الشريعة القاسية التي أفهمت البدوي أن كل قاتل يقتل ، فشعر بغريزته وعقله بمنفعتها الجمة ، وفهم أنه لولاها لكانت معيشته عرضة للأخطار الدائمة في ذاك القفر ، بل لكانت حياته مستحيلة . وهو ما أقره القرآن بقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[1] .

---

(١) الاستدلال بهذه الآية في موضوع أخذ الثأر فيه نظر . فالقرآن لم يطلب القصاص من الأفراد على الأفراد ، بل طلبه من أرباب الحكم والسلطان على أن يقاصوا بعد بحث وتروي .

المؤلف

في القصاص حياة وفي الثأر حقن للدماء ، ولا سيا إبان الغزوات المستديمة في الجزيرة . ولا يخفى ما يحفها من مخاطر ومهالك يزيد هولها أن هذه الغزوات أصبحت على قدر عهدها من العادات المألوفة في كسب المعاش عند العرب . على أن حياة البدوي تضمنها شريعة الثأر حتى في تلك الغزوات . والعرب إذا تكلموا عنها قلما يذكرون القتل ، إنما يلجؤون إليها طريقةً للكسب ويتخذونها وسيلةً لليسر مخطرةً دون شك . ولكن قلما يصل خطرها إلى الموت . وهذا حاتم الطائي إذا ما وجد نفسه عاجزاً عن أداء حقوق ضيفه صرفهم معتذراً طالباً منهم أن يعودوا إليه بعد الغارة .

ولينتبه الدارس إذا ما فكر بالثأر إلى ما يبذله المتعاركون من جهود في اجتناب الضربات القاتلة . هم لا يقصدون في غاراتهم إلا أموال المغار عليهم . أما حياتهم فليس من يرغب في الاعتداء عليها . ولا ينبغي للمهاجمين ولا للمدافعين أن يصلوا إلى إهراق الدم . هو عراك على المواشي يقومون به بغاية ما يمكنهم من رباطة الجأش . ولنا من الأمثلة العديدة ما يؤيد هذا القول . فإن حوادث الجرح والقتل قليلة جداً في الغزوات حتى في أيامنا هذه ، بعد أن أخذ البدو يستعملون البنادق الحديثة . فهنالك كثير من دخان البارود ودوي الرصاص وقليل من الجرحى والقتلى . أما إذا أدتهم الحوادث إلى سفك الدم فيكون الحظ قد خانهم ، ففقدوا السكينة اللازمة في هذه المعارك ، واندفعوا باندفاع أعصابهم الثائرة فنسوا صفاتهم الأصلية ، وتحولوا إلى مقاتلين . على أن العادة الجارية حينذاك تفرض على الضارب ألا يجهز على الجريح وألا يسلب القتيل !

وعاطفة الثأر تسيطر وحدها على ولي الثأر أو الموتور وهو صاحب الحق الشرعي بالاقتصاص من القاتل . وتكون الغاية المثلى أن يتمكن الولي من القيام بواجبه بسرعة . على أن هذه السرعة وهمية . فقد يمر على الموتور الأشهر بل السنون قبل أن يدرك ثأره . وهو يقبل هذا الواجب كأثقل الواجبات الدينية . لأنه حمل باهظ يحول بين الموتور وملذات الحياة العادية . فيتحول ذلك الأناني الفردي إلى كائن اجتماعي يدفع على الرغم منه إلى التضحية بشهواته وبراحته في سبيل الأسرة والجماعة . ولهذا نراه يشجع نفسه ويحميها بكل ما لديه من وسائل شعورية فيقول لها تارة قول عمرو بن الإطنابة :

وإقدامي على المكروه نفسي ، وضربي هامة البطل المشيح

وقـولي كلمـا جشـأت وجـاشت   مكانــك تحمــدي أو تستريحي !

تصبح كل الوسائط التي يقوم بها البدوي في سبيل غايته صالحةً لا إثم فيهـا ولا حرج مهما كانت ومهما اشتملت عليه من غـدر واحتيـال . . . يجول الوليّ بكل طمأنينـة في أحيـاء العرب مفتشاً عن ضحيته حتى إذا ظفر بواتره انقض عليـه على حين غفلـة فقتلـه وإن كان نائماً ، خلافاً لما كان قد تقرر في عاداتهم من التأثم من قتل النـائم وإن كان عـدواً . بيـد أن ولي الثأر قد يتردد في تنفيذ قصـده إذا خـاف أن يخـالف مبـدأ دينيـاً آخر ، كأن يخشى إذا ما قام بثأره أن يخفر ذمة الجار أو ينتهك حرمة المعبـد أو الأشهر الحرم أو حرمـة قبر مكرم جعل ملجأ وملاذاً .

هذا ولا يمكن أن يموت الثأر بمرور الزمن . فإن هـذه القـاعـدة الشرعيـة لا يعرفهـا البدو . إنما يعرفون ويرددون :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حـزازات الصـدور كما هيـا

وتظل حقوق الثأر دائمة يورثها الآباء للبنين ، ولم يلبث هذا الفخر بإدراك الثـأر أن حور شيئاً فشيئاً نظر العرب إلى الدية فأصبحوا يعتبرونها حاطة بمن يقبلها ولا يرضون إلا الدم بالدم . إلخ . . .

هذا ما كان عليـه عرب الجـاهليـة أو بـدوهـا ، أمـا في العصور الإسلاميـة المتوسطـة والأخيرة ، فقـد اختلف البـاحثون والمتكلمون عنهم ، وتضـاربت أقوالهم في وصف أحـوالهم الاجتماعيـة وأخـلاقهم ومـزايـاهم ، فكل منهم وصفهـا بـالعين التي نظر إليهم بهـا . فمن عين سخـط ومن عين رضـا ومن قـادح ومن مـادح ومن معتـدل . ولكل وصف قيمتـه وصحتـه وبراهينه . وسندرج هنا أقوال كل منهم ليختار القارئ لنفسه خلاصةً عنها .

من جملـة من تكلم عن البـدو ووصف أحوالهم ومزايـاهم في العصور المتوسطـة المؤرخ الفيلسوف الشهير ابن خلـدون المغربي المتوفى في سنـة ٨٠٧ هـ . إلا أن كلامـه وإن كان عن العرب عامة ، لكنه قد قصد البدو والعريقين في جلفة البداوة فيما يظهر من وصفـه ، ومن نظره إليهم بعين السخـط . لأن كـلامـه لا يشمـل حضر العرب ولا كرام بـدوهم ، فهـؤلاء ليسوا في الدرك الذي رماهم فيه وحكم عليهم ، وهو قد خلـط بين العرب والأعراب وأصـدر

أحكاماً عامة قاسية ولم يميز فيها بين عرب العصور المختلفة والطبقات المتباينة ، خاصةً وهو القائل بأن العربي كغيره من الناس يتغير بتغير الزمان والمكان .

ففي مواضع عدة من تاريخ ابن خلدون أقوال منثورة تنطبق على البدو الأقحاح خلاصتها فيما يلي بألفاظه :

« إنهم بطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعبث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر . والقبائل المتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عبثهم وفسادهم . وأما البسائط ـ متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة ـ فهي نهب لهم ، يرددون عليها الغارة والنهب إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم . وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأنهم أمة وحشية ، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه أثافي للقدر ، ويخربون السقف ليعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه ، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أومغرماً ، فإذا توصلوا إلى ذلك أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم ، وهم متنافسون في الرياسة وقل أن يسلم واحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل فيتعدد الحكام منهم والأمراء ، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقض ، وانظر إلى ما ملكوه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه . فاليمن ـ قرارهم ـ خراب إلا قليلاً من الأمصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك .

وهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم ، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة .

والمباني التي يختطونها يسرع إليها الخراب ، لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن ، في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي ، فإنه بالتفاوت في هذا

تتفاوت جودة المصر ورداءته ، والعرب بمعزل عن هذا ، وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة ، لا يبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قل أو كثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية . وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ، ولم تكن لهم مادة تمد عمرانهم من بعدهم ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس ، فلأول وهلة من انحلال أمرهم ذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها أتى عليها الخراب والانحلال .

وهم أبعد الناس عن الصنائع ، لأنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها . وهم أبعد الناس عن العلوم لأن العلوم ذات ملكات ، محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع .

وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق ، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة ، المتهيء لقبول الخير .

وهم أقرب إلى **الشجاعة** ، لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية ، ونجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام » . أ هـ

ووصف الطبيب المشهور كلوت بك حياة البدو على عهد محمد علي وسر تعلقهم بالبداوة قال[1] :

ومن أخص صفات البدوي ولعه بالحرية والاستقلال **يفاخر بأصله** على الدوام ، ويعالي الشعوب الأخرى بصراحة نسبه العربي الذي لم يعرف فيه الشوب ، ولم يرأم قط لمذلة . يقنع البدوي بالقليل من لبن النياق ، ولا يأكل اللحم إلا في الأعياد الكبيرة وغالباً

---

(١) من كتاب « لمحة عامة إلى مصر ـ لكلوت بك المتوفى سنة ١٢٨٥ ـ ١٨٦٨ تعريب الأستاذ محمد مسعود ، طبع مصر .

مـا يقع النظر على نسـائهم وهن مشتغلات على متون الهجن يـدرن الرحى لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجناً ثم إنضاجاً على ألواح من حديـد يوقـدون النـار تحتهـا ، كلما حطت القَبيلة رحـالها في مكان . تصون معيشـة الصحراء أخلاقهم من الـدنس ، والبـدوي بطبعه يمقت الزنا ، والفتـاة عنـدهم يستحيل على رب الحيلـة إغواؤهـا ، واحترام الرابطـة الزوجية والاحتفاظ بالشرف والكرامة عن غرائزهم وسجاياهم المخـالطـة لـدمـائهم ، والـذين يجرؤن على انتهاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبيلة من العفـة والطهر يعرضون حيـاتهم لخطر الموت ، وللمرأة عندهم من الحرية مثل ما للرجل ، ولهـا من هـذه التقـاليـد الحـارس الطبيعي الأمين .

فإذا نزلت قبيلـة بمكان انتظمت الخيـام على خـط مستقيم واحـد وعـادةً تكون هـذه الخيام من الوبر الأسود والأسمر عدا خيمة الشيخ فتمتاز بـالوبر الأبيض[1] ولكل قبيلـة رايـة ترفع أمـام خيمـة شيخهـا ، وفي هـذه الخيمـة يكرم مثوى الغربـاء ، وتطرح الآراء ، وتـدور رحى المناقشات في شؤون القبيلة لتقرير ما يتفق مع مصلحتها .

ولكل قبيلة نصيب من الصحراء وحـدود تنتهي إليهـا مراعيهـا الخصبـة وخفـارتهـا . وكثيراً ما تعتدي القبيلة على مراعي جارتها أو خفـارتهـا فتقع الحروب بعـد الإنـذار دائمـاً . وهنـا تظهر الشجـاعـة والإقـدام على أسـاليب العصـور الأولى ، والمرأة البـدويـة تشترك في الحرب ، وتستنهض البنـات هم خطبـائهن ويعـدنهم قرب الـزواج مكافـأة على انتصـارهم المأمول ، وتحرض أجمل بنات القبيلة الشبان المحاربين واعدة إياهم جميعاً بأن تهب نفسهـا لمن يحرز منهم في القتال أو في قسط من المجد والفخار .

يجهل العرب الاستعباد السيـاسي جهلاً تـامـاً ، خصوصـاً إذا كانت بلادهم بعيـدة عن المراكز الحكومية . أما نير الاستعباد الديني فكالأول تقريباً . إذ العرب إسلامهم على فطرته الأولى بعيـد عن التعـاليم الـدقيقـة ومـذاهب أهل الكلام فهم يتخلصون من قـواعـد الـدين بالسفسطة ، يقولون مثلاً : إذا لم نؤد فريضـة الصلاة فلأن المـاء ينقصنـا للوضوء ! وإذا لم

---

(١) كذا ، وربما كان ذلك لـدى أعراب مصر ، أمـا في بقيـة الأقطـار العربيـة فخيمـة الشيخ كغيرهـا تكون من الشعر الأسود ، ولاتمتاز إلا بكبرها ووفرة أعمدتها .

نتصدق فلأننا فقراء أحق بالزكاة من غيرنا ! وإذا لم نصم رمضان فلأننا نصوم طول العام من الجوع ! وإذا لم نحج بيت الله الحرام فلأن بيت الله الحرام حيث يصلي الإنسان .

وليس في أذهان العرب شيء من العلوم ، لأن السواد الأعظم منهم أميون لا يقرؤون حرفاً ولا يكتبون ، لكن مواهبهم العقلية بالغة أقصى مبلغ من الاتساع وكذلك مواهبهم الجسمانية التي يقويها نسيم الصحراء النقي من الشوائب ، وعلى هؤلاء العربان يعتمد السياح والمسافرون في اختراق الصحراء وهم خبراؤها منذ أقدم العصور ، وبالنظر لحذقهم بالصيد ترى العربان أنبغ الناس في اصطياد حيوان الصحراء .

ولا ريب أن العرب كقطعة النقد ، إذا سرك منها منظر وجه ساءك منظر الوجه الآخر ، لأن مكارم الأخلاق وحميد الشيم ليست تتوافر في القبائل جميعاً ، فهي لا تستطيع مقاومة ميلها الفطري للنهب والسلب . فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها أن الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها من بواعث خوف المسافرين على حياتهم ومتاعهم .

وأهل البادية يرون أنفسهم في حالة حرب لا يخمد ضرامها مع الحضر ، وهم يبيحون لأنفسهم كل ما يبيح العدو لنفسه من عدوه من ضروب التعدي والسلب والنهب ، وكان هذا على الدوام شأنهم معهم ، إذ يرون أن ما يسلبونهم إياه إنما هو من الغنائم الشرعية والفيوء التي لم يحرمها الله في كتابه .

وطالما أزعجوا جيش الحملة الفرنسية على مصر بما تراءى للجنرال بونابارت أن يكل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من الهجانة . كان كل هجين فيها يحمل رجلين قال ذلك الرجل العظيم في مذكراته : « إذا كان موقع مصر الغريب وهو البلد الذي يستمد ثروته من فيضان النيل يقتضي حسن الإدارة لانتظام شؤونه واستقامة أحواله ، فإن ضرورة كبح جماح ٢٠ ـ ٣٠ ألفاً من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث لا تنالهم يد العدل تدعو إلى أن تكون تلك الإدارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة بحيث توقع رهبتها في أفئدة أولئك الأشرار فلا يعيثون فساداً في تلك الأقطار » . وقد بر الفرنسيون بقول بونابارت

فما كادوا يحتلون مصر حتى كسروا شكيمة البدو وقبضوا على ناصيتهم فلم يتمادوا في باطلهم .

وكذا حذا حذوهم محمد علي فألزمهم الوقوف عند حدهم . وكانوا قد بلغوا في عهده من الجبروت والبأس حد النهاية ، حتى كانوا يفرضون الأتاوات على سكان مصر ، وكانوا يتهددون بالزحف على القاهرة نفسها ، وكان لا يجرؤ واحد على زيارة الأهرام بغير رضاهم وأمرهم ، وكانت القوافل التي تجتاز برزخ السويس تدفع لهم الفرض الباهظة من المال ، فسلك معهم مسلك المهادن أولاً وعقد معهم الاتفاقيات فهتكوا شعارها وخاسوا بعهودهم غير مبالين ولا هيابين ، فعول على قمعهم وتأديبهم ، وسير لقتالهم الفرسان والمشاة فأخذت عليهم الآفاق وسدت عليهم السبل حتى اضطرتهم إلى التماس الصلح واستمناح العفو فاشترط في عقد الصلح معهم ؛ أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة كرهائن ، وأجرى عليهم الأرزاق والمرتبات لمعاشهم فهدأت حالهم .

ولما غامر محمد علي بحروبه في السودان وجزيرة العرب والشام عرض عليهم تشكيل فرق منهم ، واقترح أن يدفع لهم الأجور مقابل خدمتهم على شرط أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته . وقد أفادت هذه الفرق المساعدة للجيش المصري من الوجهة العسكرية فكانت كفرق القوزاق غير المنظمين في جيوش روسيا ، وكانت عليهم مهمة استطلاع العدو ومطاردته أثناء الهزيمة أو معاكسته في أثناء انسحابه ، وهم من أصلح الناس لهذه المهمة . والعربان هم الذين أسروا رشيد باشا قائد الجيش العثماني في معركة قونية خلال الحملة الأولى على الشام[1] .

ومما لا ريب فيه أن هذه حكمة تعذرت على علي بك الكبير[2] الذي عقد النية على

---

(١) هؤلاء هم أعراب الهنادي الذين قدموا مع إبراهيم باشا بن محمد علي باشا وقد أبلوا وقتئذ بلاءً حسناً في الحروب التي خاض غمارها في فتح الشام والأناضول (١٢٤٨ ـ ١٢٥٦ هـ) كما وصف الطبيب كلوت بك . وقد ظل بعضهم في بلاد الشام الشمالية واستقر . ومن أعقابهم الآن جمع غير يسير في محافظة حلب في أقضية منبج والباب وناحية صرين من قضاء جرابلس (انظر أبحاث عشائر هذه الأقضية) .

(٢) علي بك الكبير من عظماء المماليك الذين حكموا مصر في أواخر العهد العثماني . اشتهر بشجاعته ودرايته ؛ وأعانته ظروف تلك الحقبة فاستولى على إدارة القطر المصري في حدود سنة ١١٨٠ هـ وامتدت مطامعه إلى جزيرة العرب والقطر الشامي ففتحها ، وظل في الحكم سبع سنوات إلى أن قتله مماليكه .

إبادة العربان جميعاً للتخلص من شرهم ، ونكل ببعض القبائل ، وقضى عليها ، واضطر أكثرها إلى الفرار إلى الصحراء هرباً من الجزرة ، فقد كان علي بك غير مصيب لما هو ثابت من فائدة وجودهم ، وعلى الأخص في زمنه . لأن الجمل سفينة الصحراء ، والعرب هم ربانو هذه السفن وقادتها في هذا الأوقيانوس الأرضي الذي لا أفق له ، والعربان وحدهم هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز الفلوات الرملية المترامية الأطراف إلى أقصى مدى والخالية من السكان والكائنات الحية . والعربان هم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد على حفافها . فالاحتفاظ بهم يتم الاستفادة والمزايا المتوفرة فيهم والتي لا يجاريهم فيها مجار[1] .

ومن الباحثين المعاصرين لنا الذين وصفوا أحوال البدو وأخلاقهم ومزاياهم في عهدنا الأستاذ عباس العزاوي العراقي في كتابه المستطاب (عشائر العراق) وهو قد نظر إليهم بعين الرضا فقال :

ضيق المعيشة وضنك الرزق وقلة الموارد قد تجعل المرء في لبس من تصديق أن البدوي **لا يكذب** وأنه صريح القول ، ينفذ ما عزم على فعله وما قطع في أمره . وهو في هذه الحالة لا يشهد كذباً ولا يحابي ، وفيه من الشمم والإباء والعفة بمعناها الصحيح وإكرام الضيف وحمى الجار والنزيل ما لا يوصف . شاهدنا وقائع اعترف فيها البدوي أنه قتل أو أنه أنكر القتل فلم يحلف ولم يخن أمانة ووفى بعهده وهكذا . وكم أخذتنا الحيرة في وقت لا نراه يقدم على الكذب وهو في أشد المواطن خطراً وأعظمها حراجاً . نرى أوصافاً كثيرة عند البدو ولا نجدها عند غالب إخوانهم من الحضر ، فكأن البداوة ملازمة للصدق والأنفة من الخديعة ، والكذب ، وكأن الحضر غير منفكين من الأوصاف الرديئة إلا من عصم الله

---

(١) هذا الكلام كان صحيحاً ونافعاً قبل اختراع السيارات واستعمالها . أما وقد عمت السيارات وصارت تجوب الصحاري والبراري في طولها وعرضها لم يعد للعربان نفع زائد في ما ذكره كلوت بك . على أنهم وإن فقد نفعهم هذا أو قل هم منتجو سمون الحواضر ولحومها وأصوافها ومربو الخيل والغنم والإبل وبعضهم مربو البغال والحمير والبقر اللازمة للعمران ، وهم راجدو الزروع ، وإذا استقروا وهدأوا منهم اليد العاملة للحرث والزرع وبهم يمتلأ فراغ الضياع والقرى ..

تعالى . ذلك ما دعا أن يأمن الحضري معاملته مع البدو ، وأن يتخوف من أهل المدن وحيلهم والطرق التي يتخذونها لسلب ما عنده فهو في حذر وخوف حتى إذا اشترى بضاعة يشترط أن تكون (سالمة مسلمة للمناخ) ، وهكذا . . . ونخشى في هذه الحالة أن تتطرق إليهم بعض صفات أهل المدن الرديئة وتنقل عدواها ، وأن القائمين بأمر إصلاح المجتمع يحتم عليهم الواجب أن يلاحظوا هذه المهمة وأن يتذرعوا بوسائل مانعة من التسرب إلى هؤلاء وأن يسيروا بهم إلى التربية الحقة .

نعم ، قد تكون في البدوي بعض الصفات التي اكتسبها من حاجته ومحيطه ، ويهزأ بمن يذمها أو يلومه من أجلها أمثال الغزو ولكن بالنظر إلى منع حوادث الغزو ، والاتفاق والتكاتف بين الدول المجاورة على منعه تغيرت هذه الحالة وماتت من نفسها ، وصار يشعر بأن ماله ما اقتناه من طريق مشروع . وستقوى هذه الخصيصة ويتعود مغزاها . ومهما كان الأمر فالبدوي يغزو وينهب ويقتل ولكنه لا يكذب ولا يخدع ولا يخون الأمانة ولا يقبل بذل ، يعيش بعز ولا يرضى أن يهان ، حر الضمير ، صريح القول وعفيف الذيل في غالب أحواله ، وهو أيضاً كريم بطبيعته ، شريف في نفسه ، أبي لا يتردد عن معونة ، ولا يحجم عن مساعدة . والقلم ليعجز أن يجري في بيان كل خصاله الحميدة المقبولة . والمرء ينجذب بل يكون مغرماً بأوصافه هذه ، وأتمنى أن تكون هذه بصورة عامة عندنا ، وأن نمضي على كثير منها . سجايا قوية ، عالية لا تفترق بوجه عن أوصاف العرب القدماء ، ولا تقل عنها ، ويعوزها ما أعوز تلك من إصلاح حقيقي وتهذيب اجتماعي ، لا يشبه ما نحن عليه اليوم . وهم كما نعتوا أنفسهم :

حنّا جماً صافي الذهب وأنظف من الخام الحديد

ولا نريد أن يزيف هذا الذهب ، أو تنال ذلك الخام نكتة تكدر لونه أو تودي بصفاته وجميل رونقه . فإذا كان :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

فالأخلاق فاضلة وعزيزة لم تدخلها التطرية ، حسنها طبيعي وسالم من العذاريب الكثيرة كما يصطلحون عليها . ا هـ .

وقال الأب أنستاس الكرملي في كتابه (خلاصة تاريخ العراق) وقد اتخذ نحو البدو عيناً متوسطةً معتدلة : أخلاقهم غريبة كل الغرابة ، إذ تجتمع فيها المحاسن والمساوئ معاً ، أو المناقب والمعايب معاً ، وهذا ينشأ من انفرادهم في البراري وضرورات الأزمان ، ومخاطرة الحياة في البوادي التي احتلوها ، مما يجعل دمهم فواراً ، ومزاجهم متقلباً بتقلب أهوية الفلوات ، وتخيلهم ميالاً إلى كل قوة طارئة ميل الكلأ الذي يأنس إليه ، ويعيش في وسطه ، ويأخذ عنه تموجه عند أدنى حركة في النسيم . فمن فضائل البدوي ومحامده أنه في غاية الصبر ، حتى لا يكاد يجاريه فيه أحد فهو يحتمل الحر والقر والجوع والعطش والتعب والراحة والشغل والبطالة وكثرة الشيء وقلته بنفس واحدة بدون تبرم أو تضجر . ومع هذا الصبر العجيب قد يثور فيه الغضب العظيم ، ويطلب الثأر الشديد ، إذا أهانه أحد أو احتقره أو شتمه . البدوي طماع وسلاب ، فإذا رأى عندك شيئاً لماعاً أو رناناً أو حسن اللون مال إليه وأراد أخذه منك ، لكن عند إكرام الضيف ينسى كل شيء ويجود لك بما لديه . البدوي شديد الوطأة إذا أراد سلبك ونهبك ، ولكنه لا يقتلك وإذا احتميت به أو نزلت خيمته أعزك وأبدى لك من الظرف وحسن المعاملة مالا تجد مثيلاً له في أوغل الناس في المدنية . البدوي ينظر إلى السلب والنهب والغزو بغير العين التي ننظر بها إليها ، والذي يجيز له ذلك فقر الأرض التي وجد فيها فهو ينظر إلى عابر السبيل بمنزلة رزق ساقه الله إليه ، إذ أن هذا العابر لابد أن يصل محلاً فيجد فيه ما يستغني عما خسره في رحلته ، ولذلك يجيز لنفسه أن يسلبه ولكن لا يتعرض لحياته البتة . وهو لا يميز بين الحرب والخدعة فما يأخذه بقوة السلاح في الشبكة التي نصبها للمسافر ، أو في عثوره عليه هو بمنزلة كسب أو ربح ، وعنده لا فرق بين سلب ابن السبيل وبين فتح مدينة أو بلاد معادية هجم عليها وأخذها . والذي يميز البدوي كل التمييز ، ويفرقه عن سائر الخلق حبه للحرية والاستقلال ؛ فقد بلغت به هذه الشاعرة مبلغاً لا يمكن للحضري أن يتصورها ، فهو يفضلها على كل موجود على الأرض مهما كان عزيزاً أو ثميناً . ومن يحاول أن يقيد البدوي بقيد من القيود كمن يحاول تقييد السنونوة في قفص فإنها لا تزال تضرب جدران القفص برأسها حتى تموت مفضلة الموت على الحياة ، ولذا ترى البدوي يحتقر أبناء المدن إذ

البقاء فيها هو القضاء على حريته ، تلك الحرية التي احتفظ بها منذ خلق الخلائق إلى يومنا هذا . إذ أهل البادية وحدهم بقوا محافظين على معيشتهم بينما ترى سائر الأجيال خضعت للقيد والحصر والضيق .

البدوي سريع الخاطر متوقد الذهن ولو لم يدرس العلوم والفنون ؛ فإن ذكاءه فطري وسليقته سليمة من معايب التمدن وليس من بدوي إلا وتراه شاعراً يصف لك الأمور على حقائقها ودقائقها ، بليغاً إذ لا يكلمك إلا ويقنعك بسحر كلامه ، خطيباً لما يسرد لك من المبادئ الصادقة المغزى والمعنى والمبنى بصوت تسكرك نغمته ونبرته .

البدوي يصدّق كل ما تقول له من الخرافات والأقاويل الصبيانية لسلامة نيته .

البدوي تجيش نفسه لأدنى وصف أو إغراء لكون خياله يضارع هواء باديته الذي يتقلب بين برد ودفء وحر ومد في النهار الواحد .

البدوي يحب الأحاديث الخيالية والأقاصيص الملفقة أو الشبيهة بالملفقة مما يكثر فيها الأوهام والمحالات .

البدوي قابل لكل شيء عظيم إذا ما عرف العاقل أن يسوسه ، أو أقنعه بفكر ظهر له فيه منفعته .

البدوي يتلون بلون الحرباء ، ويتقلب تقلب الطفل ، تقول له شيئاً فيصدقه ، ثم يأتيه آخر فيخرجه من فكرة بالسرعة التي دخلها .

البدوي لا دليل له إلا سليقته الوقتية ، ويحكم على الأمور بموجب ظواهرها ولا يهمه بواطنها ، وهو ينخدع بالبوارق وينقاد لما فيه جلبة وزخرفة .

البدوي وحده لم تتغير صفاته وإن تغير الزمان . طالع ما جاء في الكتب المقدسة من وصف أخلاقه وقابلها بما هو عليه الآن لا تجد فرقاً ، والعادات والسنن التي يجري عليها اليوم هي نفس العادات والسنن التي جرى عليها أجداده في سابق الزمن ، وعلى طبق ما نراها مدونة في أسفار الأقدمين الذين جاوروه أو عاشروه . ولهذا تجد كثيراً من الأمور

التي أعضل فهمها على العلماء والمؤرخين ، زال عنها الأوهام وانهتكت أستارها عندما وقفوا بأنفسهم على أهل البادية المعاصرين لنا . البدوي يحتقر الموت ولا يعده شيئاً ، فهو شجاع مستبسل منذ صباه فالموت عنده شرب كأس لا غير ، ولهذا كثيراً ما يموت قتلاً وهو الموت المرغوب لكل واحد من الأعزة . وقد نعتوا الموت بنعوت : منها الموت الأسود ، وهو الموت خنقاً لأن لون المخنوق يكون أزرق وهو عندهم أسود ، والموت الأحمر وهو الموت قتلاً لأن دمه يسفك ، والموت الأبيض وهو الموت فجأة لأن كثيراً ما يبقى لون المفاجأ بلونه الطبيعي ، وإذا مات البدوي حتف أنفه يقولون عنه فطس أو هلك .

والبدوي الضعيف الدنيء خوّان أو غدّار ، وهو كثيراً ما ينضم إلى القوي من الناس ،ويقتل ويغتال من خفره . فإننا نقرأ في التاريخ أن بطليموس السادس انتصر على صهره اسكندر بالاس فذهب هذا والتجأ إلى أهل البادية ظناً منه أنه يجد ملجأً فيهم منيعاً . إلا أن زبدئيل غدر بآداب الضيافة ، وضرب عنق زائره تقرباً من بطليموس وديمتريوس ، ثم بعث برأسه إلى ملك مصر . ونرى سليمان باشا وزير بغداد القتيل احتمى في طريقه بقبيلة الدفافعة فنزل عند شيخهم ، فلما درى صاحب البيت أن المحتمي به مهزوم غدر به وقتله . وأقرب مثال شاهدناه هو ما رأينا في الحرب العامة الماضية فإن أعراب بادية العراق كانت تقتل دائماً فلول العسكر . فإن كان المكسورون أتراكاً قتلوا الأتراك وحاموا الإنكليز ، وإن كان المقهورون إنكليزاً قتلوا الإنكليز ودافعوا عن الأتراك . هذه كانت أعمالهم في مدة الحرب التي كانت تدور في هذه الأنحاء بين القومين المتقاتلين ، فتلك هي أخلاق البادية فهي حقيقة مجمع أضداد وملتقى محاسن ومساوىء على ما افتتحنا به كلامنا ، وهو من أغرب الأمور قلما يخطر على بال إنسان . ا هـ .

وقال الأستاذ أديب وهبة من شرقي الأردن في كلمة له عن البدو مندرجة في خطط الشام (ج ٦) وهو ممن نظروا إليهم بعين الرضا :

« إن سكنى البدوي في بيت الشعر في البوادي المحفوفة بالأخطار والمشاق ، وبعده عن الحامية وانتباذه الأسوار ، قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضري منها : الشجاعة والعصبية والكرم والوفاء والأنفة والنجدة . فتوغل البدو في البادية ، وتولعهم بالغزو والغارات قد جعلهم في قتال واستعداد دائم للقتال ، فأصبحت الشجاعة فيهم طبيعية ،

وتعذر قيام الفرد مهما كان شجاعاً بمقابلة العدد العديد من العدو قد اضطرهم للالتجاء إلى العصبية ، وهي التضامن المطلق بين أفراد القبيلة حتى تطلب العشيرة بأجمعها بحق أفرادها وأقرب أسبابها لديهم الأخوة والأبوة والعمومة . ومنها تتألف الأسرة ، ومن الأسرة تتألف الفصيلة ، وتتدرج بهذه الصورة إلى القبيلة والذي عليه عشائر شرقي الأردن أنها تطلب وتطالب بحقوق أفرادها إلى الجد الخامس من جدود الطالب والمطلوب ، أي كل فرد يتصل مع أبيها بالجد الأول والثاني أو الثالث إلى الخامس له الحق بطلب حق قريبه ، وعليه أن يخضع للحق المطلوب منه ، ولهم بذلك قوانين وقواعد موروثه . ثم إن ابتعاد البدو عن المدن وتفردهم في الأرض المقفرة . يضطرهم إلى إكرام الضيف والقاصد ، وحماية الضعيف والملتجىء حتى إذا وقع أحد أفراد قبيلتهم بمثل هذا الأمر الذي يكثر حدوثه لديهم يتقاضى ما أسلفه . وإن مطاوي التاريخ العربي مستفيضة بأقاصيص كرماء العرب وكرمهم العجيب . والبدوي يعتقد أنه لا ذكر له ولا إرث أفضل من سمعة الكرم والجود ، وأن هذه المزية لا تزال عند بدو شرقي الأردن على ما كانت عليه في زمن أجدادهم الجاهليين فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنياً كان أو معدماً إلا ويسرع لتهيئة كل ما يرضيه ويسره ، وإن الكثيرين منهم يضطرون إلى تحمل أعباء الدين الثقيلة لإرضاء قاصدهم . وإذا استأمنهم مستأمن على أمانة فدوا لحفظها أموالهم وأولادهم وأنفسهم ، وكذلك إذا التجأ إليهم خائف أو استجار بهم مظلوم ، أو نزل عليهم موتور مطرود » ا هـ .

وقال الأستاذ حافظ وهبة الوزير المفوض للمملكة السعودية بلندن في كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين) : أما البدو فهم القبائل الرحل المتنقلون من جهة إلى أخرى طلباً للمرعى أو الماء. والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة . وحياة البدوي حياة شاقة مضنية ، ولكنه وهو متمتع بأكبر قسط من الحرية يفضلها على أي حياة مدنية أخرى . هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء ، وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم ، فالبدوي ينظر إلى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى ، إن البدوي في الصحراء لا يهمه إلا المطر والمرعى فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ، ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة وبعيره سميناً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً . أما إذا أنما السكان وضاقت بهم الأرض أو لم تجد أراضيهم بالمرعى ، فليس هناك

سبيل إلا الزحف والقتال أو الهجرة إن كان هنالك سبيل إليها . وكذلك القبيلة التي غلبت على أمرها وحرمت من مراعيها وأراضيها ليس أمامها سبيل آخر سوى الهجرة ، وهذا يفسر الهجرة من وقت إلى آخر إلى العراق والشـــام ومصر واستعمار الجـزء الشمالي الغربي من أفريقيا ، وتدفق شمر إلى ما بين النهرين وقبائل عنزة إلى الحماد ، فكلها نتيجة تغلب غيرهم عليهم من القبائل واضطرارهم إلى ترك أراضيهم التي لم يعد لهم سبيل في الإقامة بها لضيق وسائل الحياة .

وقد جرى العرف أن القبائل تعتبر الأرض التي اعتادت رعيها والمياه التي اعتادت أن تردها ملكاً لها ، لا تسمح لغيرها من القبائل الأخرى بالدنو منها إلا بإذنها ورضاها . وكثيراً ما تأنس إحدى القبائل من نفسها القوة فتهجم بلا سابق إنذار على قبيلة أخرى وتنتزع منها مراعيها ومياهها . إن قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل . فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنايا كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما في أيدي الناس .

ومع أن الدين الإسلامي أبطل كثيراً من العصبيات القديمة وأحل محلها الأخوة في الدين ﴿ لاتَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آباءَهُم أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ فقد عادت العصبيات بشرورها في بلاد العرب مرة أخرى ، والفضل الآن في استتباب الأمن والضرب على أيدي المفسدين يرجع إلى جلالة الملك عبد العزيز وسهره ، وإقامة أحكام الشريعة وسرعة تنفيذها .

ليس للبدوي قيمة حربية تذكر ؛ ولذا كان اعتماد الأمراء على الحضر ، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه . وكثيراً ما كان البدو شراً على الأمير المصاحبين له . فإن ذلك الأمير إذا ما بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ، ويحتجون بأنهم هم أولى من الأعداء المحاربين ، ولقد جرى كثير مثل هذا في الحرب الإنجليزية العراقية مما كان يندهش له الضباط الإنكليز ، لأنهم لم يعرفوا أن صديقاً ينهب صديقاً ، ولكن البادية لا تعرف شيئاً غير النهب والسلب ، وعندها الغنيمة مقدمة على كل شيء . والبدوي لا يرى حياة أسعد من حياة البادية ويرى الحاضرة حبساً لحريته وتنقله

حيث يريد . كما أن أهل الحاضرة يرون البداوة شقاء لا يعادلها شقاء ، ويصفون البدو بأنهم جفاة غلاظ القلوب .

والبدوي إذا لم يجد سلطة تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ويخضع غيره بها . على أن لهؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها ، فالقوافل التي تمر بأرض قبيلة وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضةً للنهب ، ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً أن يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستمر بأرضها ويسمون هذا (رفيقاً) .

والبدوي يحتقر الحضري مهما أكرمه ، كما أن الحضري يحتقر البدوي ، فإذا وصف البدوي الحضري فإنه الغالب يقول : حضيري تصغيراً لشأنه . ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء ، وانتقاد ما يراه مخالفاً لذوقه أو لعادته بكل صراحة ، فإذا مررت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك من أين أنت قادم ؟ وعمن وراءك من المشايخ والحكام ؟ وعن المياه التي مررت بها ؟ وعن أخبار الأمطار والمراعي ؟ وعن أسعار الأغذية والقهوة وعمن في البلد من القبائل وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض .

وبعض البدو لا يحلف كاذباً مهما كانت النتيجة . لقد شاهدت كثيراً من القضايا في الإحساء وغيرها كان البدوي ينكر إذا وجد مجالاً للإنكار ، ويفلت بمهارة من الإجابة عما يسأل ، ولكن إذا وجه إليه اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه إذا كان مذنباً ولا يحلف بالله كاذباً وهذا أمر يدعو إلى الغرابة والإكبار أيضاً ، فإنه يدل على شعور عميق بالخوف من الله ، وإن هذا الشعور إذا أحيط بالعناية والرعاية فإنه ربما يوجه إلى الخير أو على الأقل إلى الإقلاع عن الشر .

...ومع وجود الروح الارستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم ، فإنه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى ، فالفرد وشيخ القبيلة والأمير يأكلون جميعاً الرز واللحم واللبن والتمر ، ويلبسون جميعاً الثوب والعباءة والعقال والقتر (الكوفية) ويتمتع أفرادهم بحرية لا حد لها فالبدوي يقف أمام الحاكم فيجادل في سبيل حقه ويستعمل كل الأساليب التي يراها موصلة إلى ما يريد . اهـ .

وقال الأستاذ الشاعر خير الدين الزركلي في كتابه (ما رأيت وما سمعت) البداة هم البداة في كل عصر وجيل . يتطور المجتمع وتنقلب الدول ، وتكثر المخترعات ويتقدم الإنسان ، وهم أولئك الحفاة الرعاة الشعث الغبر ، تغمزهم الحضارة غمزات فينقادون خطوات وتأبى عليهم طبائعهم إلا أن يعودوا القهقرى فإذا سجاياهم سجاياهم وأخلاقهم أخلاقهم كأنما جبلوا من طينة اسمها (سنة الله) لا تحويل لها ولا تبديل !

وهم على انفرادهم في خلالهم وعاداتهم انفراداً أوشكوا أن يكونوا فيه أمة وحدهم ، لها ما لها وعليها ما عليها ، فقد يشاركهم في بعض مظاهرهم وتقاليدهم من كثير الصلة بهم أو قريب العهد في مساكنهم ومعاشرتهم من أبناء الحواضر المحفوفة بسكان القفار ، ولا سيما قطان القرى في الحجاز أخص منهم قرويي الطائف فإن جلهم بداة يسكنون الدور بدل الخيام ، ويأكلون من خير زروعهم لا من لبن ضروعهم ، وفي هؤلاء من يغزو ويغزى كأصحاب المضارب لا فرق بين الفريقين ، إلا أن ساكن القرية أحرص على الاشتغال بحرث أرضه واستغلالها وساكن بيت الوبر أولع بالمغازي واحتياز الأسلاب بقوة الساعد .

ومن لطيف ما قاله هذا الأستاذ الشاعر في كتابه الثاني « عامان في عمان » المطبوع في مصر ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) وجرى حديث في الصلت عن البداة وطرائق النجاة من شر المعتدين منهم ، فكثر المتكلمون ، وكانوا جماعة ، فلخصت حديثهم الطريف بما يأتي : يمر السالك في البادية بالإعرابي ، فينظر الأعرابي إليه نظرة الطامع به الوازن نفسه ، هل يستطيع سلبه أم هناك ما يمنعه ، فإن رجح له الأول اعترضه وإلا تأوه ولوى وجهه ، وفي نفسه أن غنيمة عرضت له وفاتت . ولا يخلو سالك البادية من أن يكون أحد ثلاثة :

(١) إما عزيز الجانب

(٢) أو في قوته ضعف .

(٣) أو ضعيفاً بادئ الإنحلال . فإذا كنت الأول فلك أن تجري في الأرض مرحاً ، وعليك أن تسلم على من تلقاه في طريقك وإذا نزلت حياً من أحياء العرب أو قرية من القرى فتصدر المجلس تأمر وتنهى واطلب ممن أنت نازل عنده كل ما تحتاج إليه فإن المضيف الذي يسمونه (معزب) يلبيك مسرعاً ويرى الشرف في خدمتك وإن كنت الثاني فاتبع النصائح الآتية :

١ ـ لا تسلم على أحد في طريقك ما لم يبدأك بالسلام فذلك أدعى للرهبة .

٢ ـ اهمز جوادك لتظهر عليه علائم النشاط والقدرة على الكر والفر . فإنهم إن استضعفوا دابتك طمعوا بك .

٣ ـ لا تكثر التلفت يميناً ويساراً وخلفاً ، فإنهم يشعرون بأنك خائف فيعترضونك .

٤ ـ كن جهوري الصوت إذا تكلمت مع أي كان .

٥ ـ لا تكن منفرداً .

٦ ـ إذا لقيت أناساً فتشاغل بالحديث مع رفيقك أو رفيقيك .

٧ ـ إذا لاح لك عن بعد أناس فضع بندقيتك أمامك كالمتهيء للشر .

٨ ـ إذا نزلت حياً أو قرية فلاطف المضيف (المعزب) ولا تكثر من كلامك .

وإن كنت الثالث فخير لك أن تسالم من ترى فتسلم على الذاهب والآيب وتكثر من النزول في خيام العرب لتكسب مودتهم وإن اعترضك أحد بشرٍ فلاطفه ، ولا تتعنت ، وأولى بك أن تلقي إليه بما يطلب فذلك أحفظ لحياتك . انتهى .

رأي الفرنسيين في البدو : من هؤلاء المقدم مولر المعروف بين العشائر منذ أن كان في تدمر ودير الزور وغيرها قائداً على الهجانة . فقد نظر هذا إلى البدو بعين السخط التي تبدي المساوىء دون غيرها ، وذكر لهم في كتابه أوصافاً كثيرة نجتزئ ببعضها ليعرف بنو قومنا ماذا كان يقال عنهم أحياناً . فما ذكره هذا المقدم أن البدو إذا تكلموا كذبوا ، وإذا تناقشوا واربوا ، وإذا تقاضوا ما حكوا ، وعندهم الطمع والجشع وحب السلب والنهب وقسوة القلب وحرمان الرحمة وضعف الدين مع الولع بالخرافات . وهم بخلاء إلا إذا وجدوا مأرباً في البذل ، وجبناء إلا إذا وجدوا خصماً ضعيفاً . وهم إن أظهروا شجاعة واندفاعاً للطعان والبراز فما هو في الغالب إلا للبخترة والمباهرة ، وإن تراؤوا أشداء فذلك للزهو وكسب الشهرة لا للإخلاص والتضحية ، لأن الإخلاص والتضحية وفكرة الواجب أمور تكاد تكون مجهولة لديهم .

وقد أوّل المقدم مولر حسنات البدو حسب رأيه فما قاله : إن كان البدوي قنوعاً وجلوداً فلأنه يعجز عن حمل مؤونته إلى أماكن بعيدة ، وإن كان راضياً بعيشه وزاهداً بدنياه فلأنه لا يرغب شيئاً يجهله . وإن كان بعض الأحيان كريماً مضيافاً فلأنه ينتظر أن

يقابل بالمثل من ضيفه أو غير ضيفه أو لأن في ذلك الكرم غرور شخصي ، وإن كان نهاباً سلاباً فلأنه يعد ذلك أسرع واسطة للغنى وأسهلها ، وإن كان ذا أنفة وخيلاء فلأنه لم يدخل بعد تحت سلطة ونظام ، وإن عطف على أولاده فعلى أمل أن يكونوا له أعواناً وحماة . لكن أولاد البدو لا يحملون عطفاً واحتراماً كافيين نحو آبائهم ، ومقام النساء عند البدو يأتي بعد المال والحلال إلا ما ندر ، وللبنات قيمة أكثر مما لأمهاتهن ، لأنهن سيعرضن يوماً ما للبيع ، وهم يفرحون لموت الإمرأة لأنه سيسبب تبدلاً جديداً في الحياة ، ويحزنون لموت البنت لأن فيه خسراناً لمورد لا يعوض إلى آخر ما هرفه وقذفه .

وقال كاتب فرنسي آخر أعدل حكماً وألطف لهجة من المقدم مولر في رسالة (العشائر البدوية ونصف البدوية في بلاد الانتداب الفرنسي) ما خلاصته : وفي صدد نوع المعيشة التي يقضيها البدوي نقول إن البدوي قنوع وذو صبر وجلد جديرين بالإعجاب . فغذاؤه القليل الذي لا يتغير جعله رجلاً عصبي المزاج نحيفاً وذا قوة عضلية قليلة في النسبة ، وهو يعيش من أول السنة إلى آخرها بحليب نعاجه وعنزاته وبالخبز والبرغل والتمر ولا يرى اللحم إلا إذا زحف نحو مائدة الشيخ عند قدوم الضيفان . وموائد الشيوخ تتألف من المواد الآتية : يقدم الفطور في ساعات مختلفة جداً (بين الساعة ٨ ـ ١٢) وهو حفنة من التمر والخبز واللبن الرائب ، ويقدم العشاء (بين الساعة ٦ ـ ٩) وهو صحن من الرز وخروف وخبز ولبن . وقائمة الطعام هذه تتوالى دونما أي تبديل على مدى السنة كلها .

ومن خصوص المزايا والأخلاق فالبدوي لا يخلو من نصيب من الذكاء الذي يستعمله غالباً في الخداع ، وهو لابد له بادئ بدء إذا سألته شيئاً أن يكذب ويراوغ قبل أن يعلم القصد من الأسئلة الموجهة إليه . ثم هو قليل التعلق بالدين يؤدي صلاته على هون وحينما يروق له ذلك ، لكنه ورع جداً في صوم رمضان . ثم هو قليل الفتك وغير سفاك للدم . وهو وإن كانت حرفته الأولى السلب والنهب إلا أنه يجتنب القتل . وأساس مزاياه (الطمع) فهو لا يعرف فيه هوادة . وخلافاً لما يروى عنه كحقيقة ثابتة فالبدوي ذو معلومات وذو استقامة . أما كرمه ووفاؤه فهما في ذروة الشهرة التي نالها . وقيمة البدوي العسكرية نسبية . فهو لا يرغب أن يحارب في خارج البادية التي لا يعرف سواها . وهو حتى في أرضه إذا بدأ بمشروع حربي ـ كالغزو مثلاً ـ ينبغي لنجاح ذلك المشروع أن يحصل

على نتيجته بسرعة وفوراً . أما إذا شاهد أمامه دفاعاً قوياً ومقاومة مستمرة لا يلبث أن يترك المشروع ويهمله ولا يعود إليه بعد . والبدوي غير جدير بحرب المشاة ولا بالكمون واتخاذ الموضع مهما كان موضعه قوياً . ومن ثم كانت قيمة البدو العسكرية محدودة جداً لا ينفعون إلا في مطاردة عدو منهزم وملاحقته وإزعاجه كما كانوا يعملون في أواخر الحرب العامة الماضية وراء الجيش التركي الرابع . اهـ .

أما الرئيس رينو والطبيب مارتينه صاحبا كتاب (البدو في مقاطعة دمشق) فقد كانا أكثر اعتدالاً وإنصافاً من المقدم مولر في بحثهم عن أطوار البدو وأخلاقهم ، وأجود وصفاً ورصفاً منه . فقد صورا أدوار حياة البدوي من حين ولادته إلى طفولته فصبوته فشيخوخته فمماته . وإلى القارئ تعريب ما قالاه :

الولادة عند البدو حادثة كثيرة الوقوع ، لأن البدوي كغيره من المسلمين يرى الزواج والاستيلاد واجباً . والعقم يعد من بواعث المهانة والازدراء . وهذا هو السبب في أن البادية تحوي أماكن للزيارة تهرع إليها النساء اللواتي لم يلدن في تلك السنة فيتوسلن لربهن أن يحسن إليهن بولد . والحق أن هذه الحالة الروحية جديرة بالتقدير جداً ، لأنها تعوض وفيات الأطفال التي تقع لديهم بكثرة . ويكفي أن تمر بمقبرة بدوية حتى يثبت لك عظيم الخسارة في الأطفال . وإذن تكون هذه الحالة الروحية قد كفلت بقاء العرق البدوي وأمنت مستقبله إلى حد ما .

وبينما وضع المرأة حملها عندنا نحن الأوربيين يعد عملاً مرضياً أو حادثاً مزعجاً ، يعد عند البدويات القريبات من الطبيعة حادثاً فيسيولوجياً وحركة عرضية بسيطة . فإذا كانت المرأة الماخض في المخيم يهرع بعض النساء المتقدمات في السن والقدر ويساعدنها ، ولا تمضي ساعتان أو ثلاث على الوضع حتى تعود النفساء إلى أعمالها المنزلية المعتادة ، أما إذا أدركها المخاض في الطريق وهي راكبة ، وكان سبب إدراكه اهتزاز الرحول ، تنيخ المرأة بعيرها وتضع ولدها بنفسها وهي جالسة القرفصاء ، وتقطع سرته وتربطها بيدها ، وتلف الوليد وتحمله على ظهرها ، وتستأنف سيرها كأن لم يحدث شيء . وإذا تعسرت عليها الولادة بحيث خرج رأس الوليد وحده تأخذ حبلاً وتربط أحد طرفيه برقبته ، وطرفه الثاني بأحد قدميها بعد أن تطوي فخذها وتشد عليه شداً قوياً ، بحيث أنها حينما تمد فخذها المذكور قد يخرج رأس الوليد منفصلاً .

والعنايات الأولى بالوليد بسيطة ، يغسل بدنه بالرمل وقد يدهن بالزيت ، وهي طريقة حسنة لأن الرمل ذو قوة امتصاص كبيرة . ثم إن ذر الرمل على الأعضاء التناسلية للوليد يمنع العطن عن جلده ما زال في القماط . ثم يكحل وهذا الكحل (كبريتات الأنتيموان) الذي يحيط بالأحداق يؤثر في جلد الوليد الأصفر الذهبي ويظهره بلون الليمون . ثم يلف بخرق بالية مشدودة بخيوط القنب ويضعون على رأسه طاقية صغيرة عليها تمائم . ويضيف الأغنياء منهم إليها ريشة من ريش النعام .

ولا يشهد أحد هذه الولادة أو يسجلها . إذ ليس للبدو سجل إحصاء للنفوس ، ومن ثم يبقى الولد جاهلاً الزمن الذي ولد فيه . وإذا حاول أحد الفضوليين أن يعرف عمر أحد الأولاد وجاء يسأل أباه وأراد هذا الأب أن يجيبه يجهد فكرته ويستخرج تاريخ الولادة تقريباً من عدد سني النجعة التي تبدى فيها منذ نشأة ابنه وتعطي الأسرة إلى هذا الولد اسماً . واسم البدوي يتألف من اسم أولي مضاف إلى اسم الأب أو اسم الأسرة التي ينتمي إليها كنوري بن شعلان ، وإذا صادف مرور ضيف جليل القدر بهم أثناء حبل الأم يسمى الوليد باسم هذا الضيف[1] . وأكثر أسماء البدو هي كما عندنا (الأوربيين) من أسماء الأنبياء الواردة في دينهم كمحمد وأحمد وإبراهيم وعلي .

والبدو لا يحفلون إلا بولادة الصبي . أما البنت فليس لها محل من الذكر أو الاهتمام . وإذا سئل أب عن عدد أولاده لا يعد إلا الصبيان . وأطفال البدو يولدون ويتلمسون حياة البداوة وهم محمولون إما على ظهور أمهاتهم ، وإما في إحدى عيني الخرج الموضوع على ظهر حمار صغير . وهم يترعرعون رويداً رويداً لوحدهم مثل الجديان والحملان الراقدة في بيت الشعر وحول أولئك الأطفال ، لا فرق بين هؤلاء وأولئك .

ودور الطفولة شاق جداً ، فالطفل البدوي يترعرع في الغالب دون أن يرى أي أثر للعطف والحنان . لأن له إخواناً وأخوات كثيرون ، ودون أن يتمتع باللهو واللعب . لأنه ما أن يشتد جسمه ويرجى عمله حتى يوجه إلى غاية نافعة مثمرة . ولا يرى مسرات الطفولة ويفرح بها إلا القليل من أبناء الشيوخ والكبراء فحسب .

---

(١) حتى أنهم سموا بعض أولادهم لورنس وطوماس وأمثال ذلك .

ولا شيء يستحق التنويه في دور صبوة البدو إلا حادث الختان الذي يجري بين السنة الثالثة والخامسة . وإليكم وصف حفلات الختان عند البدو :

قبل الحفلة بأيام عددها بعدد عمر الصبي تقام معالم الأفراح في كل المخيم ، فتمد الموائد وتذبح الذبائح ويبدأ بالرقص والهرج . والرقص يدار حول دمية يعملونها من وتد كبير ويلبسونها لباساً ضخماً ويركزونها في الأرض ، وتسمى هذه الدمية « الموسانا » وتأتي أجمل فتيات المخيم وأرشقهن قواماً وتحسر رأسها وتسدل شعرها وتشرع بالرقص حول الموسانا . ورقصها هو المعروف في هذه البلاد ، وهو عبارة عن حركات بدنية أخصها هز الأوراك والأرداف . ويلتف الرجال والنساء حول الفتاة ويعملون كا تعمل ، فيصير الرقص هكذا عمومياً تديره امرأتان تسمى كل منهما (اللافحة) . وفي ختام الرقص يدعى الحاضرون إلى الطعام ، وهو مؤلف من البرغل أو الرز واللحم . ولابد أن يعمل في إعداد هذا الطعام كل النساء اللواتي لهن أولاد عمرهم ٣ ـ ٥ سنوات .

ويجرى الختان في اليوم المعين وقت الظهر ، يقوم به رجل أخصائي لقاء مجيدي أو جزة وبر جمل أو عدة جزات من صوف الغنم . ويسبق هذه العملية الهامة وليمة أكبر من سابقاتها وأكثر دسماً ، لأنهم يذبحون لها عدة خرفان أو ناقة سمينة توضع فوق منسف كبير من الرز . ويعقب هذه الوليمة حفلة طراد الخيل مع إطلاق الرصاص وتمثيل الكر والفر والحرب وزغاريد النساء . وتظل معالم الأفراح بعد الختان أياماً عددها قدر التي احتفل بها قبل وقوعه .

والصبي المختون يستمر في نموه وترعرعه . وهو يمشي في الغالب عارياً في فصل الصيف . وإذا ألبسوه فمن بقايا الثياب التي كانت لأبيه ، ورجلاه حافيتان أبداً ، وهي تتصلب وتعتاد على دوس الحصى والصوان . أما رأسه فمحلوق بالمرة ؛ إلا من غديرتين طويلتين تتدلى الأولى على جبينه للبهرجة وتبقى الثانية في قمة رأسه ، وهي في زعمهم لأجل أن يسحبه ربه بها إلى السماء إذا مات . لأن هؤلاء الأطفال المساكين يموتون في كثرة . ويعود ذلك إلى سوء التغذية ورداءة تقنينها . ومن هنا ترى بطونهم منتفخة متألمة . ثم إن الليالي في البرية باردة جداً ، والخوف من الأمراض السارية كالحمياء والحصبة

سائد . ومن ثم كان الانتخاب الطبيعي يعمل عمله هنا بقسوة وشدة . فهو يبيد من هذا النسل الكثير كل من يعجز عن تنازع البقاء في هذه الحياة .

وإذا ناهز الصبي البلوغ في سن ١٣ ـ ١٤ يحسب رجلاً . وحينئذ يغطي رأسه بخرقة ، ويربي شعره ويجعله يستطيل ، وتتدلى جدائله على كتفيه ، وتحيط بوجهه الصغير المقطب ، وهو يأخذ صغار الإبل وصغار الغنم إلى المراعي ويعيدها إلى البيت ويشترك في حلب الغنم وفي التقاط الأعشاب اليابسة وجمع بعر الإبل للوقيد . وهو يبقى في الغالب مع النساء اللواتي يساعدهن ويسابقهن إلى العمل . وتراه أحياناً يدخل إلى الربعة ويقبل أيدي الضيوف . ثم يندس في إحدى الزوايا محدقاً في من حوله ساعات طويلة صامتاً صموت أبي الهول دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن يفتر عن أصغر ابتسامة .

وسن الفتوة للبدوي هو دور روائي ومبهرج وشعري . فالفتى البدوي يغسل وجهه ببول الإبل ليتقوى جلده ، ويمسح بدنه بعرق الخيل لتنشيط عضلاته ، ويمسده أيضاً بروث الخيل الذي يزيل الدهن جيداً . ولا يلبس الفتى البدوي إلا قليلاً من الحلي كخاتم من النحاس أو الفضة ، وإذا لم يجده يستعمل الوشم المشابه للأختام أو الأسورة .

والفتيات البدويات في باب التجمل والتزين أكثر تطلباً واندفاعاً من الفتيان فهن يحملن في معاصمهن وأحياناً في كواحلهن عدة أسورة ودمالج من الفضة أو الذهب أو النحاس حسبما تمكنهن ثروتهن فيسمع لها قعقعة ترافق وقع أقدامهن ، ويعلقن بالبراغي في أرنبة أنفهن اليسرى ، وفي شحمة آذانهن كرية صغيرة بشكل وردة يدعونها (وردة) ، ويصبغن شعرهن وأظافرهن بالحناء ، وأخيراً يستعملن الوشم بكثرة تضطرنا إلى التحدث عنه : فالوشم يؤتى بالإبرة وذلك بأن يوخز الجلد بها حتى يخرج الدم في المكان المقصود وشمه ، ثم يدلك هذا المكان بمسحوق النيلج ، وهذا العمل تقوم به النساء ويعملنه بين السنة الثالثة والعاشرة حسب عادة العشيرة ، وهو أمر محتم على الفتيات لابد أن يقمن به ويعد من أكبر أسباب الزينة والتجمل لهن ، ويعتقد البدو أن الوشم يرد مرض المفاصل (الروماتيزمة) والفتيات يرسمن في أصابعهن رسوم الخواتم وفي أيديهن نجوماً وعلى شفاههن حبات الجمال وعلى أعناقهن قلائد وعلى أثدائهن وأفخاذهن سلسلتين عرض كل منها نحو

سنتيمتر منفرجتين كالمروحة وعلى بطونهن رسوماً متنوعة . هـذه هي أخص رسوم الوشم التي تختلف حسب العشائر وحسب مقدرة الفتيات على تحمل آلام عملية الوشم .

واستعمال الفتيان للوشم أقل بكثير من الفتيـات ، فـالشبـان يكوون سواعـدهم ، والكي يستعملـه البـدو للتـداوي ويسيؤون استعمالـه بكثرة وفي أي مكان ، فهم يكوون سـواعـدهم بحديدة محمية ، أو بقطعة من الصوفـان المحروقـة ، ويجعلون الكيـة بقـدر القرش ، فـالجرح يتعفن والفتحة تتقيح وتبيض فتشبه قطعة من النقد .

والبـدوي في سن العشرين يحب التمارين الريـاضيـة والعيـاقـة والرشـاقـة . إلا أن شجاعته ليست زائدة ، وهي لا تخلو من التحذلق أو الفشار حينما يتم واجبه أو يتحدث عما جرى لـه ، وهـو من صغره يعـود على الفروسيـة ، فيركبـونـه فرسـاً يسـوقها برسن واحـد مصنوع من الوبر ، ويكون السرج غالباً بدون ركاب ، وهو يتجول بها مسـافـات طـويلـة تنوف عن المئة كيلو متر دون أن يقف أو يعرج على حي ثاني ، وحينمـا ترحل العشيرة من مكانهـا يـذهب للتفتيش على المراعي والمنـازل وقبل أن يـأتي رائـد آخر ويسبقـه إلى هـذه المهمة . وحين الظعن يرافق القطعـان وهو راكب ، لأجل أن يخبر عن هجوم قـد يقع على هذه القطعان ، ولكي يدافع عنها أيضاً . ثم قد يـذهب لكشف منـازل الأعـداء ، ولإرشـاد الغزاة الـذين يكون هو منهم أيضـاً . وقـد يقـوم هـذا الفتى ببضعـة أعمـال من البطـولـة ، وحينئذ تراه قد انشرح صدره انشراحاً عظيمـاً وزاد غروراً وافتخـاراً حينمـا تستقبل النسـاء الغزاة الراجعين الظافرين الغانمين ويتأهلن ويرحبن بهم ويزغردن .

والغالب أن يتزوج البدوي لأول مرة حينما يبلغ سن العشرين ، وقـد تشترط الفتـاة المخطوبة على خطيبها أن يأتي بمأثرة أو مفخرة ، وقد اختصت بنـات الشيوخ وحـدهن بحق انتخاب الخطيب وحق فرض الشروط عليه ، ولذا ترى خطباءهن يقـابلنهم أحيـانـاً بعمل من أعمال الفروسيـة الخـالـدة ، وسن العشرين ليس سن محـدد للزواج ومطلق ، لأن بعض البـدو يتزوجون في الخـامسـة عشر ، وبعضهم قـد يتـأخر إلى الثلاثين . لأن مهور النسـاء غالية . وكثيراً ما يفضل الأب المعمر نفسـه على ابنـه فيتزوج هو بفتـاة صغيرة ويـدفع مهراً باهظاً ويهمل ابنـه . وعـدد النسـاء اللواتي يتزوجهن البـدو غير ثـابت . ويـذكر عن بعض شيوخ الجزيرة الفراتية أنهم قد تزوجوا ١٥ ـ ٢٠ إمرأة . ويذكر عن آخر زواجه بمئـة ، أمـا

البدو الذين نبحث عنهم فلا يجمع أحدهم أكثر من اثنتين سوية ، ولا يتزوج أكثر من خمسة مدى حياته كلها . والسواد الأعظم من البدو لا يحوي إلا امرأة واحدة .

وتجري الخطبة في هدوء وتكتم ، ولا يسمح للخطيبين أن يتبادلا أكثر من بعض النظرات وبعض الكلمات أثناء الطريق أو حول البئر ، وربما دام هذا بضع سنوات لعجز الزوج عن تأدية المهر .

وترسل بادئ بدء رسل الخطبة المنتخبون انتخاباً حسناً إلى البنت فيطلعها هؤلاء على ما يراد منها . وترسل رسل آخرون مؤتمنون لمحادثة أهلها . وهذه المراجعات الرسمية مقررة ولا بد من تحقيقها حتى عند الفقراء ، فإذا جاءت الأجوبة بعكس المطلوب يبقى كل شيء مكانه . وإذا جاءت وفق المطلوب تجري الخطبة الرسمية بمعرفة كبراء العشيرة . يذهب هؤلاء إلى أبي الفتاة ويرجونه أن يخرج إلى خارج البيت ليتمكن من الإدلاء بحرية عن رأيه ، فيعرضون عليه القصد من مجيئهم . ومن هنا يفهم السبب في أن الأب لا يأخذ رأي البنت ، ذلك لأنها قد استشيرت في المراجعات الأولى وعرفت رغبتها . لهذا ندر أن يلاقي القادمون للخطبة الرسمية رفضاً . وإذا حدث الرفض يعد إهانة للقادمين المذكورين .

هذا وانتخاب الفتاة المخطوبة تابع إلى حد ما إلى تقاليد وقيود . فالشيوخ أو أبناء الشيوخ لا يستطيعون أن يتزوجوا إلا بفتيات من طبقتهم وأمثالهم . وقد تتداخل الدواعي السياسية في هذا الانتخاب والزواج . لأن البدو يحتمون وجوب التماثل في الثروة والطبقة . ومن ثم كان الزواج محصوراً في الغالب بين أبناء الفخذ الواحد أو أبناء فخذين من العشيرة الواحدة ، وإذا كانت العشيرة المطلوب مصاهرتها بعيدة وجب أن تكون صديقة ، وهكذا يستمر نمو العرق محتفظاً بالخصال الأصلية ، وهذه القضية حقيقية بحيث أنك بعد اعتياد قليل تصل إلى معرفة البدو الذين تلاقيهم ، وتستطيع أن تنسبهم إلى عشيرتهم ، وذلك إذا أمعنت النظر في وجوههم وأساريرهم ، ومن هنا تدرك السبب في أن شدة الغرابة الدموية بينهم هي الباعث للعيوب البدنية التي تكثر لديهم .

وإذا تم التراضي يدفع المهر إلى أبي المخطوبة أو أوليائها ، أما هي فلا ينالها منه شيء . ولكن إذا كانت من عشيرة أخرى يعطونها نصف المهر . وفي مقابل المهر تحمل هي

إلى بيت بعلها جهازاً متواضعاً مؤلفاً من سجادة وفرشة ووسادة وصندوق ثياب وأدوات زينة . وندر أن يدفع البدو المهر نقداً ، بل يدفعون مقابله من الإبل والغنم ، وقد يدفعون بادىء بدء نصف المهر ويؤجلون النصف الثاني . ولكن لا يقع الزواج أبداً ما لم يدفع مقدماً نصف المهر على الأقل . ولا يمكن الشذوذ عن هذه القاعدة إلا حين التبادل ، أي حينما يأخذ أحدهم أخت الثاني ويزوجه هو أخته ، فيكونا قد تبادلا دون دفع شيء .

والأعراس أيضاً عند البدو بسيطة . وإذا كانت حالة العروس موآتية يركبونها هودجاً على بعير ويزفونها إلى بعلها . وتقام معالم الأفراح حين وصولها وتولم الولائم ويدعى لها كبراء العشيرة ، وأساس هذه الولائم ذبائح الغنم أو الإبل . وإذا كان العرس لأناس أغنياء ، يضاف إلى ذلك الطبل والزمر والغناء والرقص وطراد الخيل .

ومظاهر الأفراح التي تجري في الأعراس ليست رهن السلام الدائم في الحياة البيتية . فالشقاق إذا ذر قرنه ، والبغضاء إذا تنفست لا بد أن يعقبها الهجر والطلاق ، وإذا طلق الرجل امرأته تحمل هذه معها كل ماأتت به من الجهاز وترجع إلى أهلها الذين يحتفظون بمهرها ولا يردونه . وإذا وقع الطلاق بطلب من الزوجة ـ وهو ما اعتادت عليه بعض العشائر ـ يحق للرجل أن يسترد المهر الذي دفعه .

والطلاق يتم إذا لفظ الرجل ثلاث مرات العبارات المعينة الآتية : أنت طالق ، يمكنك أن تتزوجي بمن تشائين ، أنت وشأنك يا فلانة ، لا أريدك بعد الآن .

بيد أن الطلاق نادر ، وأندر منه العزوبة ، لأن العزوبة عند البدو تماثل العقم ، ويشبهون الأعزب بالشجرة غير المثمرة ، ويرونه جديراً بالمهانة ، وأندر من هذا وذاك الزنا ، لأن أقل انحراف عن العفاف تقوم به المرأة عقابه القتل . ويقر الزوج هذا القتل بنفسه وينفذه بيده ويوافق الجميع على ذلك . والزوج لا ينحرف عن عفافه في الغالب ، ألم يهون دينه عليه الأمر ويسمح له بتعدد الزوجات ؟ ثم هو إذا لم يغش المدن كيف يتمكن من الزنا وسط نساء العشيرة العفيفات ؟

بل إن الأمر بالعكس ؛ فما أن يتم شهر العسل ، وما أن تظهر علائم الحبل حتى تحتل المرأة مكاناً في فؤاد بعلها ، ويفسر هذا المكان في أنها أي المرأة (مطية اللذة الجسدية وقالب إيلاد الذرية) .

وإذا تزوج البدوي سرعان ما تراه قد صار رب أسرة ، وسرعان ما تراه قد كبر وبلغ أشده ، أما لباسه في هذا السن فهو (وبعد أن وصف المؤلفان لباس الرجال والنساء مما ذكرناه في مكان آخر) قالا :

ولباس الرجال والنساء عند البدو في أيامنا هذه لا يختلف قط عما كان عليه في العصور الغابرة . وهذا اللباس لا يفارقهم في النهار ولا في الليل . ولا يبدلونه إلا مرة في العام عقيب شهر رمضان ، وهو موافق كل الموافقة لحالة البادية . وماذا تريدون أكثر من الكوفية درءاً لعواصف الرمال ، وأشد من الفروة الفضفاضة في دفع برد السحر في الشتاء ؟ وهل هناك ألطف من الثوب العريض المهلهل في تخفيف حرارة القيظ ؟

أما في الناحية البدنية : فالبدوي كبير الجثة ، رشيق القامة شديد السمرة ، وله شعر مضفر يحيط بوجه متطاول منته بذقن مدورة أو مثلثة الشكل ، تحمل لحيةً مجعدةً مستدقة الطرف ، وخداه مقعران بينما وجنتاه بارزتان ، وأنفه أخنس وربما كان أقنى ، أما عيناه فسوداوان وصغيرتان ، ونظراته تعرف اللطف كما تعرف العنف ، وتظهر أحياناً من حدقة عينه المخدرة انعكاساتٍ كانعكاسات الفولاذ الأسمر . أما أعضاؤه فنحيفة وقوية العضل ، وحينما تراه أثناء الطعام يعجن لقم الرز الضخمة ويدملكها في يده وبأصابعه النحيلة ، ويهيئوها للازدراد تلحظ تحت جلده الأسمر وتحت سواعده المفتولة بروز عضلاته ودورانها كأنها خيوط من الفولاذ ، ونساء البدو هن على الوتيرة نفسها وقد ألفن الأشغال الشاقة أحياناً أكثر من الرجال ، ومن ثم تراهن في نفس اللون والسيماء والمظهر الذي لأزواجهن . والعضلات في أعضائهن المعصوبة تشبه حزمةً من الحبال المشدودة .

أما في الناحية الأخلاقية : فالبدوي يكاد يكون مجموعة متناقضات ، كأن المزايا الحقيقية الموروثة عن أجداده قد كلّت وكهمت ، نتيجة المعيشة القاسية التي يقضيها في يومنا هذا ، فالبدوي غير خالٍ من الشجاعة ، لكن شجاعته سطحية وغير خالٍ من صدق الطوية ، ولكنه يجنح كثيراً إلى الخداع والمواربة ، وقد أكسبته التجارب أن اللف والدوران حول العقبات والمشكلات خير من مجابهتها مباشرةً ، فهو إذا ماطرحت عليه سؤالاً يجيبك دائماً أجوبة غامضة ، بيد أنه يمكن استخلاص الجواب الشافي منه فيما إذا كانت المسألة لاتمس مصلحته الشخصية ومصلحة أقاربه الأدنين . لأن مصلحته ومصلحة عشيرته

هما أهم الأمور التي تحدد اتجاهه في المعاملة . والبدوي ميال إلى السلب والنهب ، وعنده في الوقت نفسه ميل إلى الكرم والسخاء ، كل ذلك حسب الظروف والحاجة ، والطمع رائد البدوي بحيث أن وساوسه لاتمنعه أصلاً من أن يتجه نحو الناحية التي يجدها أصلح له ، بيد أنه تجده غيوراً ومنافحاً عن سمعته وحريته ، وهو سريع التأثر والغضب لكرامته ، وشديد الانفعال إذا أصابته إهانة أو عداوة ، لا ينسى ذلك أبداً حتى آخر عمره ، ولابد له من أخذ الثأر ومحو العار . فالبدوي حقود وطلاّب للثأر إلى حد أنه يورث حقده وثأره إلى أعقابه .

وشظف عيش البدوي لا يمحو الناحية المثالية من شخصيته ، فكلامه موزون ومعقول في عبارة صريحة وسرعة انطلاق نحو الهدف ، يزخرفه بضرب الأمثال وبالتشبيهات التي تصدر عن روية ومعرفة ، وفي السهرات يسمع البدوي ويصغي لما يقصونه عن سير الأبطال والفرسان من أبناء قومه وتترنح أعطافه طرباً حينما ينشد أحدهم أمامه أغنية بصوت مطرد الأوزان ترافقه دقات الربابة التي تتلاشى رناتها في الصمت الواسع للمخيم المستغرق في هجوده ، والبدوي يقدر قدر الدماثة واللباقة ، وهو يهوى السلاح ويحسن استعماله .

وإذ كان البدوي رشيق القامة ومتخلق بكل أوصاف جنسه ودنيوي النزعة حسب بيئته ، ترى دوره الذي يمثله في مسرح الحياة دوراً تزيينياً زخرفياً . ثم هو يلاحظ أعماله ويصدر أوامره ويتقبل الزيارات ويردها ، ثم هو إلى ذلك صاحب سلطة وقيادة ويعرف حسن القيام بها ، ومن ثم يكل إلى نسائه وأولاده أمر العناية بأعمال البيت وتربية الماشية وإرعائها وإسقائها . ولكن إذ كان هو روح أسرته وعماد بيته يعرف وقت هجوم الأعداء كيف يقف وينافح عنها ، ويعرف أن من واجبه خدمة شيخه يوم الغزو .

والبدوي في حقيقته أقل فروسيةً وأنقص في المثالية (الكمال) مما يصوره الروائيون والقصاصون ، وهو خليط من المحاسن والمساوئ ، ولكن مهما كانت مزاياه يظل في نظرنا رجلاً مستحقاً كل الاستحقاق للاحترام والانجذاب والتودد نحوه .

وتمتد حياة البدوي الفعلية مدة مديدة إلى أن يشيخ ، وتخذله قواه رويداً رويداً

ويعلوه الشيب ، فينوب عنه ابنه الأكبر في الأعمال . وحينئذٍ يشتري الأب عقالاً ضخماً ، ويلتزم الانزواء في بيته ويرجع كما كان في عهد الصبا للعيش بين النساء لا يزار في بيته ولا يخرج منه إلا حين الضرورة ، وتنسى العشيرة يوماً بعد يوم استشارته في مهام الأمور على أنها تحفظ له كل رعاية وحرمة ، ويبقى سنيناً عديدة مثال السلف الصالح ممسكاً بدفة الأمور إلى أن يموت كما يموت المصباح المنطفئ .

وموتة البدوي كولادته تقع حسب ظروف الحل والترحال . وإذا مات يمزق نساءه ثيابهن الفوقانية ، ويحثين التراب على رؤوسهن ، وينتفن شعرهن ، ويرفعن أصواتهن بالولولة ، ومن علامات الحزن تنزيل أحد أطراف الخيمة ، ويتوافد كبراء العشيرة ويقدمون لورثة الميت تعازيهم بعبارات بالية اتكالية . ثم يحفرون له قبراً في ذروة أكمة مشرفة على منزل العشيرة ويجعلون اتجاهه نحو مكة ، ويحمل أبناءه نعشه وحولهم النساء الباكيات النادبات ويبلغون به الأرض التي طالما دافع عنها في حياته . وهناك يتلون بعض سور دينية بصوت منخفض ، ويغسلونه الغسل الأخير بالرمل وهذا الرمل الذي غسل جسمه الصغير العبل الأصفر صفرةً ذهبيةً لما كان طفلاً يعود لغسل الهيكل العظمي للميت الأسمر اللون . ويضعون على القبر ركام التراب المستخرج من حفرته ويحيطونه بسور مستطيل من الحجارة دون أن ينقشوا عليها أي كلمة أو رسم .

ثم يستأنف الحي سيره نحو آفاق جديدة وأبعاد سحيقة ، ويعود الزمان إلى فعله ، ويمحو آثار القبور الرثة ويلاشيها . وتدوس أخفاف الإبل العريضة القبور المجهولة وهي سائرة دون علم ولا معرفة بها ولا بأصحابها ، وإذا مات البدوي فمعنى ذلك أن حياةً قد انتهت في كل بساطة ، كما بدأت ونمت في كل بساطة .

ونحن أهل الحضارة والتمدن لا ندرك للحياة معنى مالم تكن محفوفةً برغد العيش في الدور الفخمة والموائد المزخرفة ومالم تكتمل بغشيان المقاهي والمسارح ، ولأجل ذلك نعد حياة البدو عديمة الألوان ونعتبرها قاسية شديدة ، ونراها كأنها دواعي عذاب الجسم وإرهاقه دون انقطاع ، أو كأنها قشافة وزهادة على غير جدوى .

على أن هذه الحياة في عين البدوي هي منتهى القصد وغاية المنى . أليس كل رغد في الحياة هو نسبي ؟ أليس الرغد حالة توازن بين الإنسان وبيئته التي يعيش فيها ؟ أليست

العادة أساس كل شيء والفكرة التي توحيها العادة هي مختلفة في نظر كل منا ؟ إذن هذا هو السبب في أن البدو قليلو الاكتراث بمطالبهم الجسمية طالما مطالبهم الروحية مؤمنة .

وجل مايحتاجه البدوي هو النهارات المضيئة والليالي الصافية والآفاق الواسعة الممعنة في البعد ، والمساحات الشاسعة اللانهاية لها حيث الأرض يرثها أول من يطؤها .

وحياة البدو مبنية على عدم المبالاة بالغد بتاتاً وعلى الانفعال الموقت الساذج وعلى البطالة الطويلة تحت سقف الخيمة مع تدخين الناركيلة الحرارة ، واحتساء القهوة نغبةً بعد نغبة بالفناجين الصغيرة ، ثم إن حياة البدوي قد جبلت أيضاً وخاصةً من الحرية الحقة . والبدوي جلود جلادة البعير ، وجسور جسارة الأسد ، ونشيط كنشاط الغزال ، إلا أنه أكثر من هؤلاء جميعاً حريةً واستقلالاً .

هذا هو البدوي وهذا هو ما يود أن يحرص عليه . ونفسيته المتعاظمة لاتقبل مطلقاً كل مايشبه النير إذا حز الرقبة . فالحرية والاستقلال هما من الممتلكات التي يضعها البدوي فوق كل شيء ، ويبقى حريصاً على الاحتفاظ بها مدى الحياة .

وختاماً نقول إن عقيدة القضاء والقدر هي المتسلطة على كل شيء لدى البدوي . وكلمات (الله أكبر) و(الله أعلم) و(لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) (أينما تكونوا يدركم الموت) وأمثالها هي القواعد التي يعتمد عليها البدوي طول عمره وهذا هو السبب ، في أنه لما يتم البدوي حياته القاسية المتشردة وينقلب شيخاً هرماً ترى وجهه الذي كان نشيطاً فعالاً صار يشع صفاءً روحياً تاماً . (انتهى ماقاله الرئيس رينو ورفيقه) .

✡ ✡ ✡

التقاليد والعادات

عند البدو

يتشابه البدو أينما كانوا في العادات والتقاليد والأزياء . لأنهم جميعاً في حالة فطرية أولية واحدة . هدتهم إليها الحاجة وما اقتضته طبيعة البوادي والقفار القاسية المتشابهة في كل مكان . فهم متماثلون في تكوينهم الاجتماعي وفي أمور معيشتهم ، ولا يختلفون إلا قليلاً من حيث العراقة في البداوة أو قلتها ، وقربهم من الحضارة أو بعدهم عنها وعن أهلها . أي من حيث كونهم من البدو الأصليين أو من البدو المتحضرين . وما سنذكره من القواعد والأصول والتقاليد والعادات يشملهم في الجملة . وإذا كان هناك بعض فروق بين عنزة وشمر العريقين في البداوة وبين أعراب الديرة والشوايا أنصاف الحضر أو بين عشيرة في الشمال وأخرى من الجنوب فذلك ليس بجوهري ، ولا يزيد عن الفرق بين سكان دمشق وإحدى قرى الغوطة أو قلمون ، ولا يحتاج إلى استطراد خاص قد يضيق نطاق هذا الكتاب عنه وها نحن نبدأ بذكر (التكوين الاجتماعي) لدى البدو ونتدرج إلى غيره :

التكوين الاجتماعي عند البدو

إن التكوين الاجتماعي عند البدو بسيط لا يتجاوز حد الأسرة (العائلة) قط . واسم الأسرة عندهم (الأهل) ومن الأسئلة الأولى التي توجه إلى البدوي إذا عثر عليه في الطريق منفرداً (أين أهلك ؟) . والأسرة تتألف من الرجل والمرأة ومن فروعهما وفي بعض الحالات الشاذة من أصولهما المنعزلة الطاعنة في السن أو المريضة ومن بعض الأيتام الصغار . ولا يزداد عدد الأسرة بفعل الزواج . لأن البنت إذا تزوجت تذهب إلى بعلها والابن إذا تزوج يتخذ لنفسه بيتاً قريباً من أهله في الغالب فيؤلف في العشيرة أسرة جديدة تلقب باسمه . والأب هو رئيس الأسرة وإذا مات يرثه في هذه الرئاسة ابنه الأكبر ، على أن هذا يجوز أن يتخلى عن حقه في الرئاسة إلى أخيه الذي يليه في السن ،

ولرئيس الأسرة على أسرته حق الحياة والموت دون منازع ، ويمكن الإفصاح عن هذا الحق بالقاعدة الآتية : إما الطاعة له أو الرحيل عنه ، وللأسرة على رئيسها حق الإدارة وتدبير المعيشة وحل المشكلات التي قد تقع في داخلها والدفاع عنها بشدة إذا جاءها مكروه من خارجها .

والتضامن الكامل موجود في الأسرة البدوية بأوسع معانيه ، فإذا صدف أن ألقي بدوي في السجن لمنكر فعله ينبري أبوه وإخوانه وأعمامه وأبناء عمومته لتخليصه ، فإذا جرى التحقيق وثبت الجرم على السجين تمتد التبعة المشتركة إلى أنسبائه المذكورين وتسري عليهم ، ومن هنا كان المكلفون بإدارة البدو إذا أرادوا تحصيل شيء من الأموال أو العروض من بدوي لا يستطاع القبض عليه تعويضاً عن أموال مسروقة ، أو دفع دية أو تأدية ضريبة ما ، جرت عادتهم أن يأخذوا أخاه بجريرته كرهينة ويسجنونه ، فبعد بضعة أيام من إلقاء القبض على هذا الأخ يبادر المجرم الذي قد يكون بعيداً في أماكن قاصية جداً ويرسل الإبل أو الغنم أو الدنانير الذهبية المطلوبة . وعاطفة التضامن هذه في الأسرة من أجمل نواحي الحياة البدوية .

إن تاريخ الأسرة البدوية ونشوئها ونموها هو كما في كل الشعوب البدائية . فقد يبرز رئيس إحدى الأسر بشجاعته ومضاء عزمه وذكاء جنانه فتلتف حوله أسر أخرى وتلجأ إلى حماه ويتقدم رجالها لخدمته ، ويصيرون من ثم تبعاً لتلك الأسرة التي ارتأست .

وحقوق الأسرة داخل العشيرة تختلف بالطبع حسب مكانة تلك الأسرة وشكلها وعدد المقاتلين الذين يمكن أن تسوقهم إلى ساحة الحرب . وكلما كانت الأسرة قوية وغنية كلما ازدادت حرمتها وقويت مكانتها وعلت كلمة رئيسها . بيد أن الأسر الصغيرة أو الضعيفة والتي لاتتألف إلا من الأب والأم وولد أو ولدين تحتفظ بحقوق الملكية كاملة غير منقوصة ، وتظل في حمى الجميع ونصرتهم ، وإذا نكب الأعداء هذه الأسرة في غزو ينضم الجميع إليها ويوآزرها ، وتعد حينئذٍ شقيقة الجميع من حيث التضامن والتعاون ، فمن مناقب البدو التضامن في البلوى والتعاون على المصائب ، فتراهم يتسابقون إلى إمداد العزيز إذا ذل بغارة أو مصيبة . فالبدوي كثيراً ما يكون ذا ثراء في ربعه عند الضحى إذا بك تراه عند المساء فقيراً مدقعاً لاسبد ولا لبد بحكم الغزو الذي يداهمه ، أو الجائحة التي تصدمه ،

وحينئذٍ هـذا يجود لـه ببعير ، وهـذاك بكسـاء وحصير ، وذاك بنعجـة أو نعجتين أو أكثر ، وذلك بقربـة أو علبـة أو قـدر ، والآخر يرضخ لـه بـدريهات يسترن مهتوك ستره ويرأبن مصدوع أمره ، وقد قامت قاعدة (التضامن البدوي) هذه عند البدو مقـام (الحق العـام) عند الحضر ، فإذا قتل بدوي يكون الألصق بالمقتول هم المطالبون بدمـه من أقـارب القـاتل الألصق بـه . فـإذا لم يطـالـب الأقربـاء أو كانوا عـاجزين عن المطـالبـة فـإن أهل عشيرتـه يطالبون ، لأن المقتول عندهم هو ابن العشيرة وكل منهم هو (نائب عام) في دعواه .

النسب عند العرب

النسب في كتب اللغـة مطلـق الـوصلـة بـالقرابـة ، فيقـال بينهما نسب : أي قرابـة . وجمعه : أنساب . ونسبته إلى أبيه نسباً من باب طلب . عزوته إليـه وانتسب إليـه اعتزى ، والنسيب من كان أصله ثابتاً ، قال النويري في كتـابـه (نهـايـة الأرب في فنون الأدب) : ومعرفة أنساب الأمم مما افتخرت به العرب على العجم ، لأنها احترزت على معرفـة نسبهـا ، وتمسكت بمتين حسبها ، وعرفت جماهير قومها وشعبها ، وأفصح عن قبائلها لسـان شـاعرهـا وخطيبها ، واتحدت برهطها وفصائلها وعشائرها ، ومالت إلى أفخاذها وبطونها وعمائرهـا ، ونفت الدعي فيها ونطقت بملء فيها .

وقد كنا بيّنا في الصفحة ١٥٠ عنـد الكلام على (العصبيـة العربيـة قبل الإسلام) أن طبقـات الأنسـاب عنـد العرب كانت كما يلي : الشعب والقبيلـة والعمارة والبطن والفخـذ والفصيلة والعائلة أو الأسرة ، وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة ، وعشيرة الرجل هم رهطـه الأدنون .

وقد فسر القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) هـذا الترتيب فقال : وكأنهم رتبوا ذلك على بنية الإنسان ، فجعلوا الشعب بمثـابـة أعلى الرأس ، والقبـائل بمثـابـة قبـائل الرأس ، وهي القطع المشعوب بعضهـا إلى بعض ، والعمارة العنـق والصـدر ، وجعلوا الفخـذ تلـو البطن ، لأن الفخـذ من الإنسـان بعـد البطن ، وجعلـوا الفصيلـة تلـو الفخـذ ، لأنهـا النسب الأدنى الـذي يفصل عنـه الرجل ، بمثـابـة السـاق والقـدم ، إذ المراد بالفصيلة العشيرة الأدنون بدليل قوله تعالى ﴿ وَفَصِيلَتِـهِ الَّتِي تُؤْوِيـهِ ﴾ أي تضمه إليهـا ،

ولا يضم الرجل إلا أقرب عشيرته ، واعلم أن أكثر ما يدور على الألسنة من الطبقات الست المتقدمة القبيلة ثم البطن ، وقل أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة وربما عبر عن واحد من الطبقات الست بالحي ، إما على العموم مثل أن يقال : حي من العرب . وإما على الخصوص مثل أن يقال : حي من بني فلان . اهـ .

قلت إن أكثر ما يدور في أيامنا على ألسنة بدو بلادنا الشامية من المصطلحات في تقسيم الأنساب هو كما يلي : إن العنصر الأول في المجتمع البدوي هو (البيت) ويعنون به العائلة أو الأسرة . فالبيوت أو الأسر القريبة بعضها من بعض تؤلف (الفخذ) أو (الآل) مثل آل مشهور من فندة الشعلان في الأرولة ، ومثل آل مهيد من فندة المنيع في الفدعان ، وتجتمع الأفخاذ فتؤلف (الفرقة) أو (الفندة) وجمعها فرق أو أفناد ، مثل فندة الشعلان وفندة المنيع المذكورتين ، والفندة في الأصل عدة أفخاذ من جد قريب ، لا يكاد يتجاوز الخامس في الغالب ، وتجتمع الفرق أو الأفناد فتكون (العشيرة) مثل عشيرة الأرولة وعشيرة الفدعان في عنزة ، وتجتمع العشائر فتكون (الضنأ) مثل ضنأ مسلم وضنأ بشر في عنزة ، وتجتمع الضنآت فتؤلف القبيلة مثل قبيلة شمر وقبيلة عنزة ، وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة أو الفخذ فصيلة أو الفندة فرقة ، ويزعم رواة البدو أن القبيلة إنما تنشأ من جد عام يورث اسمه إلى قبيلته كبني صخر وبني خالد وغيرهم ، والعشيرة تعترف بشيخ واحد ، على أن اعترافها لا يتجاوز القضايا العامة ، وعدد بيوت العشيرة يختلف كثيراً ، فقد يكون ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ أو أكثر كما هو الحال في الفدعان والأرولة . وقد يهبط هذا العدد إلى ٣٠٠ ـ ٢٠٠ ـ ١٠٠ ـ ٥٠ كما هو الحال في عشائر القسم الثاني أو الثالث . وكلمة ضنأ بمعنى نسل ، اختصت بقبيلة عنزة دون غيرها .

وقال القلقشندي أيضاً : في بيان أمور يحتاج الناظر في الأنساب إليها وهي تسعة :

١ ـ إذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً ، والعمائر قبائل ، والبطون عمائر .. إلخ .

٢ ـ القبائل هم بنو أب واحد ، والأب الواحد قد يكون أباً لعدة بطون ، ثم أبو القبيلة قد يكون له عدة أولاد ، فيحدث بعضهم قبيلة أو قبائل ، فينسب إليه من هو منهم ويبقى بعضهم بلا ولد أو يولد له ولم يشتهر بولده فينسب إلى القبيلة الأولى .

٣ ـ إذا اشتمل النسب على طبقتين فأكثر ، كهاشم وقريش ومضر وعدنان جار لمن في

الدرجة الأخيرة من النسب أن ينتسب إلى الجميع ، فيجوز لبني هاشم أن ينسبوا إلى بني هاشم وإلى قريش وإلى مضر وإلى عدنان فيقال في أحدهم الهاشمي ويقال فيه القرشي والمضري والعدناني بل قال الجوهري : إن النسبة إلى الأعلى تغني عن النسبة إلى الأسفل . ويرى بعضهم تقديم العليا على السفلى . وبعضهم يرى العكس مثل أن يقال في النسب إلى عثمان بن عفان : الأموي العثماني ، أو : العثماني الأموي .

٤ ـ قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب إليهم فيقال فلان حليف بني فلان أو مولاهم .

٥ ـ إذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى جاز أن ينتسب إلى القبيلة الأولى ، وأن ينتسب إلى القبيلة التي دخل فيها مثل أن يقال : التميمي ثم الوائلي ، أو ما أشبه ذلك .

٦ ـ القبائل تسمى في الغالب باسم الأب الوالد للقبيلة ، كربيعة ومضر والأوس والخزرج ونحو ذلك ، وقد تسمى القبيلة باسم أم القبيلة ، كخندف وبجيلة ونحوهما . وقد تسمى القبيلة بغير هذا ، وربما وقع اللقب على القبيلة بحدوث سبب كغسان ، حيث نزلوا على ماء يسمى غسان .

٧ ـ أسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة أضرب ؛ أولها أن يطلق على القبيلة لفظة الأب ، كعاد وثمود ومدين وما شاكلهم ، وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى : ﴿ وإلى عاد ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود ﴾ ، ﴿ وإلى مدين ﴾ ، يريد بني عاد وبني ثمود ونحو ذلك ، وأكثر ما يكون في الشعوب والقبائل العظام ، ولا سيا في الأزمنة المتقدمة بخلاف البطون والأفخاذ ونحوها ، وثانيها أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة ، فيقال بنو فلان ، وأكثر ما يكون ذلك في البطون والأفخاذ والقبائل الصغار لا سيا في الأزمنة المتأخرة ، وثالثها أن ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام ، كالطالبيين والجعافرة ونحوهما ، وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم . ورابعها أن يعبر عنها بآل مدين كآل ربيعة وآل فضل وآل علي وما أشبه ذلك وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة المتأخرة لا سيا في عرب

الشام في زماننا[1] بالآل والمراد الأهل ، وخامسها أن يعبر عنها بأولاد فلان ، ولا يوجد ذلك إلا في المتأخرين من أفخاذ العرب على قلة .

٨ ـ غالب أسماء العرب منقولة عما يدور في خزانة خيالهم ، مما يخالطونه ويجاورونه ، إما من الحيوان كأسد ونمر وحية وحنش وإما من النبات ، كنبت وحنظلة ، وإما من أجزاء الأرض ، كفهر وصخر ونحو ذلك .

٩ ـ الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككلب وحنظلة وضرار وحرب ، وما أشبه ذلك ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء ، كفلاح ونجاح ونحوهما ، والمعنى في ذلك ما يحكى أنه قيل لأبي الدقيس الكلابي لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورياح فقال إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا يريد أن الأبناء معدة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء ، والعبيد معدة لأنفسهم ، فاختاروا لهم خير الأسماء .

قلت ، ومن غريب الأسماء البدوية في عهدنا ما يصعب فهم مدلوله وإيجاد تفسيره في كتب اللغة ، كراكان وجدعان وهويدي وشواخ ومجول وهويش ودندل وهفل وفدعوس وأمثال ذلك ، والأغرب أن يبلغ الأمر ببعضهم إلى تسمية أولاده بأسماء الأجانب الذين قد يكونوا ضيوفاً عندهم أثناء الولادة ، كلورنس وطوماس ونحوه .

وقال فؤاد حمزة في كتابه (قلب جزيرة العرب) : ومع شدة عناية العرب بالمحافظة على أنسابها ، والتمسك بأحسابها ، ومراعاتها لتسلسل فروعها وأقسامها ، فإنه من الصعوبة بمكان عظيم أن يتمكن الباحث من الوقوف على أصول جميع القبائل العربية الموجودة في الوقت الحاضر ، بسبب ضياع قسم غير قليل مما كتبه الأقدمون عن الأنساب ، وفقدان حلقات عديدة من سلسلة الأنساب في الأعصر المتوسطة ، أيام ضعف الدولة العربية

---

(١) يقصد القلقشندي الذي عاش في القرن التاسع آل فضل الذين لا يزال لهم أعقاب في زمننا موجودين في قضاء الجولان ، كوجود أبناء عمهم آل أبو ريشة أمراء عشيرة الموالي في قضاء المعرة ، أما آل ربيعة فهم أجداد آل فضل ، وأما آل علي فهم كانوا من أقارب آل فضل المذكورين ثم انقرضوا أو اندمجوا بغيرهم ، وقد فصلنا ذلك في بحث تاريخ البدو .

واختلاف قبائلها وأمرائها ، ومن الواضح أنـه حصلت خلال تلـك الحقبـة هجرات قبـائليـة متعددة ، حلت فيهـا الواحـدة محل الأخرى أو غلبتهـا على أمرهـا ، وأجلتهـا عن ديـارهـا وشردتها بين القبائل فنسيها الناس وجهلوها ، ومن أجل ذلك فإننا لم نحاول في كتابنا هـذا أن نرد الفروع إلى أصولهـا القـديمـة إلا في المواضع التي تثبتنـا من صحتهـا ، وتركنـا تحقيق ما عدا ذلك إلى محبي البحث والتدوين ، واكتفينا بما هو موجود في زماننا هـذا من الفروع فسميناها بأسمائها المشتهرة فيها ، ومما تجب الإشارة إليه أننا شاهدنا بعض حالات تحدر فيها فروع القبيلـة الـواحـدة من أصـول مختلفـة يبعـد بعضهـا عن بعض ، وقـد نشـأ ذلـك على ما نعتقد عن تحالف الفروع في زمن مضى لا نستطيع تعيينه .

ونظراً إلى أن الصعوبات التي اعترضتنا في إرجاع فروع القبـائل الحـاليـة إلى أصولهـا القديمة تعترض كل باحث في الأنساب ، والعلم بها مفيـد من حيث إيضـاحـه طـريقـة تحول القبائل عن أسمائها الأصلية إلى أسماء منتحلة ، ونشوء الفروع وصيرورتهـا قبـائل مشهورة ، رأينا أن نذكرها (أي الصعوبات) فيما يلي إتمـامـاً للفـائـدة التي توخينـاهـا من وضع هـذا الكتاب :

١ ـ تبـاعـد الأنسـاب وصيرورة القبـائل شعوبـاً ، والعمائر قبـائل ، والبطـون عمـائر (صبح الأعشى : م ١ ص ٣٠٩) .

٢ ـ صعوبـة الوقوف على التسلسل الصحيـح لـلأنسـاب ، لقـدم العهـد وعـدم وجـود المدونات .

٣ ـ إمكان اشتهـار قبيلـة من القبـائـل بـاسم فرد مشهـور منهـا يغلب اسمـه الاسم الأصلي .

٤ ـ انضمام أفراد إلى قبيلة غير قبيلتهم بالحلف والموالاة .

٥ ـ دخول أفراد قبيلة على أفراد قبيلة .

٦ ـ تابعية أفراد معينين لقبيلة كالموالي والأرقـاء ، واشتهـارهم بـاسم القبيلـة الأصليـة وهم غرباء عنها .

٧ ـ اشتهار القبيلة باسم جديد لسبب من الأسباب .

٨ ـ تشابه أسماء القبائل ، بالرغم عن تباعد أصولها واختلاف أنسابها .

العشيرة

تتألف العشيرة من أسر (بيوت) وفرق وأفخاذ يختلف عددها كثرة وقلة ، والعشيرة قد تكون من نجار واحد أي متحدرة من جد واحد أعقب ذرية كثيرة أنجبت العدد الذي كونها ، كما هو الحال في عنزة المتحدرة من (عنز بن وائل بن أسد بن ربيعة) الصافية في أصولها وفروعها ، على كثرة هذه الفروع وتوزعها ، وكما هو أيضاً في عشيرتي بني صخر وبني خالد اللتين يعتقد بنشأة كل منهما من جد عام أورثها اسمه ، أو لا تكون العشيرة من نجار واحد ولا من موطن واحد بل مؤلفة من فرق عديدة ينتمون إلى أصول ومواطن مختلفة كل الاختلاف أو بعضه ، جاؤوا واجتمع بعضهم إلى بعض بسائق الرهبة من شيء أو الرغبة في شيء ، ولتشابه الحاجات والمنافع ، وتشابك الميول والآمال ، وتعاقدوا وألفوا اتحاداً أو حلفاً عشائرياً على النحو الذي يدعوه الإفرنج : كونفدراسيون ، كما هو الحال لدى أكثر العشائر التي سيأتيك ذكرها ووصفها في القسم الثاني من كتابنا هذا ، وينقاد هذا الحلف العشائري ويبايع أسرة كريمة المحتد طيبة الفعال كما هو حال شمر الجزيرة الملتفين حول الشيوخ آل الجرباء ، وطيء الجزيرة الملتفين حول الشيوخ آل عساف ، والموالي في جنوبي حلب الملتفين حول الأمراء آل أبي ريشة ، والفضل في الجولان الملتفين حول الأمراء آل فاعور ، والعقيدات والأبي شعبان في وادي الفرات الملتفين حول بعض الأسر وأخصها أهل هفل وآل ناصر وغيرهم ، أو ينقاد إلى شخص قوي الفهم وشديد العزم كالحديديين الملتفين حول الشيخ نواف الصالح الجرخ وأسلافه آل إبراهيم من قبله .

ومهما يكن ، فالعشيرة هي أمة في مقياس صغير ، وهي أمة متنقلة تنقل معها في غدواتها وروحاتها فروعها وأعضاءها ، الذين لا تحصرهم أي حدود أرضية ولا تقيدهم أي ملكيات عقارية ، فكما ينبغي أن يكون للأمم ماض وتاريخ ، وللملوكها ولرؤساء جمهورياتها أنساب وأحساب أو كفاءات ، يكون للعشائر أيضاً ماض وتاريخ ، ولشيوخها أنساب وأحساب أو كفاءات يذكرون بها ، وكذلك ينبغي أن تكون مصالح العشيرة

ومعايشها ومنازعها واحدة ، وفي حالة الحرب يتحد أبناء العشيرة كما يتحدون في السلم ، وحينئذ ينضم بعضها إلى بعض تحت عاطفة وطنية حقيقية ، لكن هذه العاطفة ليست في المعنى الذي نفهمه نحن الحضريين المؤدي إلى تعلقنا بأرض آبائنا وأجدادنا ، بل هي في نظر البدو في معنى التعلق بالعنعنات وذكريات الآباء والأجداد ، وبالدفاع عن سلامة هذا المجموع المتنقل المسمى (عشيرة) . والعشيرة لا تدافع عن أرضها ، لأنها لا تملك هذه الأرض ، بل هي تدافع عن حقها في الحياة في تلك الأرض أي عن حقها في المرعى والمنهل . ويقول المقدم مولر في كتابه (في الشام مع البدو) : إن أكثر جموع البدو - وإن كانت من نبعة واحدة - لا تجتمع على قضية قومية بل على غاية تبتغيها ، فالبدو لا يبقون مجتمعين إلا بسائق الاستمرار ، أو كلما حالت المصالح المادية دون انفرادهم الشخصي ، لأنه متى رأت إحدى كتلهم نفسها قويةً في قليل أو كثير أو مطمئنةً إلى حد كاف تنفصل وتنفرد وتعيش لوحدها ، وأعتقد أن الأمن في البادية كلما استتب ، والطمأنينة كلما سادت وصل هوى الانفصام والانفراد هذا إلى الأفخاذ والبيوت في داخل الفرق .

فالعشائر سائرة في طريق الافتراق ولا سيا في أيام السلم والاستقرار ، فكل عنزة أصلهم قبيلة واحدة ، ولكن حينما نزحوا من نجد نحو بلاد الشام ساروا في حالة فرق ، وحينما استقرت هذه الفرق في بلاد الشام واقتطعت لنفسها منطقة نفوذ اكتسبت شكل عشائر منفصلة ، كالأرولة والولد علي والأحسنة والأسبعة والفدعان ، وهم على قرابتهم واتصالهم بنجار واحد ، إذا حدثت بينهم فتن على منافع أو إذا شجر نزاع على مراعي ومنازل انقلبوا أعداء ، وقاتل بعضهم بعضاً ، كما جرى بين الأرولة والولد علي قديماً ، وبين الأرولة والأسبعة حديثاً ، ودام مدة مديدة . وأمر الانفصال والافتراق ما برح دائماً ، فالأسبعة قد افترقت إلى جذمين كبيرين : البطينات والأعبدة . والفدعان إلى ولد (بضم الواو) وخرصة . وقد أزعجت فتنهم ديار الفرات حتى سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م التي أجبرهم الفرنسيون فيها على الصلح ، وها أن الخرصة سينقسمون إلى ضنأ خريص وضنأ كحيل ، بحكم ضعف القيادة لديهم .

العصبية العشائرية

بيد أن هذا الافتراق يؤتى مع الاحتفاظ بالقرابة أو النسابة أو بما يدعونه العصبية

القبلية أو العصبية العشائرية ، وللعصبية سيطرة قوية على عواطف البدو ، فهي تجمع بين الأقارب والأنسباء الذين يمكن أن توجه إليهم المسؤوليات في حالة أخذ الثأر ودفع الدية ومنتهاها الجد الخامس ، وهي تجمع أيضاً بين الفرق المختلفة في حالة إعلان العداء وإشهار الحرب (رد النكا) على عدو مشترك ، والبدو إنما يتعارفون بهذه القرابة ويتسمون ويتنادون بالنخوة التي يتباهون بها ويتعارفون عند الكريهة وكلمات (ضنأمسلم) و (ضنأماجد) مستعملة بقدر كلمات الأرولة والخرصة .

ولشدة اعتناء البدو بالعصبية تجد انتصار بعضهم إلى بعض على نسبة درجة القرابة ، فكلما كانت العشيرة أقرب إلى العشيرة كانت أولى بنصرتها ، لا يختلف ذلك فيهم إلا لعوامل غير معتادة ، ومهما اشتدت العداوة بين أبناء فخذ واحد فإنهم يجتمعون بطناً واحداً على بطن آخر يناوئهم بينما هو من ضنئهم ، وكذلك تجتمع البطون المنتسبة إلى ضنأ لمقاومة ضنأ آخر بينما هو من عشيرتهم ، وهلم جرا ... ولابد أن ينزع عرق النسب في البدوي فيميل به إلى الأقرب مهما كان هذا الأقرب بعيداً في الحقيقة ، وقد كان القحطاني قديماً ينتسب إلى شعب طويل عريض يعد بالملايين ، والعدناني كان ينتسب إلى شعب لا يقل عن ذاك في العدد والمدد ، ولكن إذا اختصما في موقف من المواقف وجدت عرق العصبية نزع في كل عربي ، فمال القحطاني إلى قبائل اليمن ، ومال العدناني إلى قبائل الحجاز ونجد أي مضر وربيعة ، وقد يوآخي الفريق منهم من كان يعاديه بغضاً بفريق آخر أشد عداوة لأنه أبعد نسباً ، وعليه قول شاعرهم :

وذوي ضباب مضمرين عداوةً	قرحى القلوب معاودي الأفنان
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم	وهمو إذا ذكر الصديق أعادي
كيا أعدهمو لأبعد منهم	ولقد يُجاء إلى ذوي الأحقاد

على أن روابط النسابة ووشائج القربى لا تجمع بين البدو جمعاً كاملاً وتصهرهم في بوتقة واحدة ، بل قصاراها أن لا تفرق ولا تفصم ، فأنت لست أمام عناصر مندغمة اندغاماً تاماً ، بل أمام عناصر لم ينفصم عراها بعد ، والطمأنينة التي يتمتع بها كل بدوي هي من وفرة العدد في عشيرته وذوي عصبيته ، لا من اضطراره أو إقباله على الدفاع المتقابل ، إذ ليس ما يجبر البدوي على نجدة أقرب جيرانه إذا نال الغزاة من هذا الجار ، ما لم يكن ثمة

نفع مادي له أو يكون تجاه مجيء الغزاة غداً إليه ، ولا يكون الـدفـاع عـامـاً مـا لم يقترب العـدو من البيوت ، فحينئـذ يجبر كل منهم على الـدفـاع ، ويسـوغ للرئيس أن يقسره على ذلك ، حتى إذا تخلف أو تمنع قتل فرسه أو أباد غنمه .

وتكافل أفراد العشيرة وتضامنها يوجبان على رؤسائها أن يحـافظوا على آداب أبنـائهم المنتسبين إليهم ، ومن ثم إذا أتى أفراد العشيرة أمراً لا تريد هي أن تأخذ تبعته على نفسها ، أو إذا أذنب نحوها كلها ينفى ذلك الفرد حينئـذ من وسطهـا ، وإذا لم تقبلـه عشيرة أخرى حاق به البلاء لا محالة ، فالعصبيـة هي التي تسوق البـدو إلى التضـامن والتكافل ، أو إلى الدفاع عن الحقوق واتخاذ الوسائل المؤدية إلى خير العشيرة ونفعها .

والنسابة أو العصبية العشائرية تربط الأفراد إلى حد الجد الخامس ، وذلك عنـد دفع (المدة) أي دية الدم ، ولا يدفعها أحدهم إلا لملاحظة وقوعه هو يومـاً مـا في حـادثـة قتل يطالب بها فلا يجد من يعينه ، وما خلا هذه الرابطة بين الأقارب فـإن الروابـط الإداريـة والسيـاسيـة في عـالم البـدو ضعيفـة جـداً لا تقـويهـا إلا سلطــة الشيـخ (الرئيس) وحسن قيادته ، فهذه الروابط منوطة بها ، ثم إن عظمة كل عشيرة بالعدد تختلف جـداً من مقـدار قليل من البيوت إلى بضعة آلاف منها ، وإذا علت شهرة الشيخ (الرئيس) بسبب انتصـار في الحرب ، أو إصابة في الرأي ، أو مقدرة في القضاء ، أو حنكـة في الإدارة ، أو مهـارة في النفوذ إلى أوليـاء الأمور ولا سيا في الشجـاعـة والأريحيـة ووفرة الأقـارب والأتبـاع وكثرة الأموال والثمرات حينئذ يزداد عدد البيوت الملتفـة حولـه وتكثر حواشيـه ، كما هو الحـال في الأرولة حول الأمير فواز الشعلان الذي ورث ذلك عن جده النوري ، وفي الفـدعـان حول الأمير مجحم بن مهيد ، وفي الأسبعـة حول الشيخ راكان بن مرشـد ، وفي شمر حول الشيوخ آل الجربا وغيرهم . وبالعكس إذا ساءت إدارته ، أو طغت فظاظتـه ، أو نقصت كرامتـه ، أو ذابت ثروتـه لسببٍ مـا ، ينفضون من حولـه تبـاعـاً ويلحقون رقيبـه ومنـافسـه إلى أن لا يبقى حولـه إلا بضعـة بيوت من أنسبـائـه الأقربين ، كما هو الحـال لـدى بعض العشـائر كالولد علي والفدعان الأخرصة والأسبعة الأعبدة وغيرها .

الطبقات في العشيرة

ينقسم البدو في وسط كل عشيرة إلى أربع طبقات :

١ ـ طبقة الشيوخ : ويسمون شيوخاً ولو كانوا حديثي السن ، وهم أصحاب الرأي الراجح والقول النافذ على سائر الطبقات ، وهم عماد العشيرة وملاذها ، وبهم سؤددها ورفعة شأنها ، وفيهم يفترض وجود الشمائل والمناقب التي سيأتي شرحها .

٢ ـ طبقة الرواسي أو الكبراء : وهم يلون الشيوخ في المنزلة الاجتماعية ويماثلونهم أو يقربوا منهم في الشمائل والمناقب ، وهم يرأسون فرقهم ويسوسون أفرادها .

٣ ـ طبقة العامة : وهم السواد الأعظم من أفراد العشيرة والحاملون أعبائها ، والمكلفون بضرائبها ، والمقاتلون في سبيلها ، وبكثرة هؤلاء أو قوتهم أو عدتهم يعظم نفوذ الشيوخ والرواسي .

٤ ـ طبقة العبيد : وهم أحط الطبقات ، ولا يزال اسم العبودية لاصقاً بهم ، ولو أن أسيادهم أعتقوهم فصاروا أحراراً يتصرفون بأنفسهم وأموالهم كما يشاؤون ، وأفراد العشيرة لا يصاهرون هؤلاء ، بحكم أنهم ليسوا في مستوى اجتماعي مماثل لهم ، وليس كل العبيد سود البشرة ، بل إن بعضهم بيض ، كالذين يكثر وجودهم في عشيرة طيء أو النعيم ، وهؤلاء العبيد رغم انعتاقهم ما برحوا متعلقين بشيوخهم وأسيادهم ، لا ينفكون عن ولائهم ، وخدمتهم وبذل النفس والنفيس في سبيلهم ، لولا صفة بارزة تتجلى أحياناً في بعضهم ، وهي نكران الجميل ، فأحدهم يبقى على الولاء ما دام يرى إحساناً ومعروفاً ، أما إذا قصر عنه مولاه ولو قليلاً بسبب عسر أو سهو تنكر واقعنسس . وقد قدمنا أن البدو يسمون العبيد بأحب الأسماء لديهم : كلؤلؤ ومرجان وسرور وسالم وغراف وأمثال ذلك ، وهم يخاطبون ساداتهم بيا عمي وسيداتهم بيا عمتي .

إدارة شؤون العشيرة ، المشيخة وشروطها : إن الطبقات الاجتماعية التي عددناها يتساوى أبناؤها في جميع الحقوق مهما اختلفت مراتبهم ، فلا فضل في عالم البداوة لأحد على أحد ، إلا أنه يكون على رأس كل فرقة رئيس يدعى شيخاً ، وشيوخ الفرق خاضعون لشيخ العشيرة ، وشيوخ العشيرة لشيخ القبيلة المعروف عندهم بشيخ المشايخ أو العليم ، ولا يمتاز الشيخ إلا بكونه مقدماً على الأقران ، ومكلفاً بالإدارة والقيادة ، وله حق إعلان الحرب أو عقد الهدنة أو إبرام الصلح مع مشايخ العشائر الأخرى ، والمشيخة عندهم تنتقل بالإرث إلى الأولاد فالأحفاد ، وكثيراً ما يكون ولي عهد الشيخ طفلاً وهو شيخ ،

ويبقى تحت وصاية أحد أقاربه المتنفذين حتى يبلغ سن الرشد ، على أن المشيخة ليست بالإرث وحده ، بل بالاستحقاق أيضاً فلا يصير ابن الشيخ شيخاً ما لم تتوفر فيه الشروط ، ولا يستحق المشيخة وينالها إلا من كان بين رجال الأسرة المتمشيخة أو العشيرة أذكاهم جناناً وأكثرهم معرفةً وسداداً ، وأطلقهم لساناً وبياناً وأفرسهم يوم الطعن والنزال ، وأغناهم بالرزق والمال ، وأبسطهم يداً بالكرم وإقراء الضيف ، وأقدرهم على رفع الضيم والحيف ، وأوفرهم بعدد الأقرباء والأنسباء والحواشي والمواشي ، وأعرفهم بمخاطبة الدول والحكام ، وأقدرهم على حل المشكلات لدى أولياء الأمور ، والشيوخ أو رؤساء العشائر الرحل كانوا يعينون بقرار من المفوض السامي الفرنسي (والآن من وزير الداخلية في الجمهورية السورية) ، وتنص المادة ٣٤ من القرار رقم ١٣٢ بأنه : يمكن عزلهم إذا أخلوا بالأمن العام ، أو تمردوا على القوانين والأنظمة النافذة ، أو استبدوا وعتوا حتى قيام العشيرة كلها لطلب عزلهم .

والمقام الأول عند البدو في المشيخة للجدارة الشخصية . روى الأب جوسن الدومنيكي في هذا الصدد أنه سأل ذات يوم أحد كبراء البدو كيف يصيرون شيوخاً عندكم ، فأجابه وهو يهز سيفه : بالفهم السوي والزند القوي .

هذا ويصعب تحديد سلطة الشيخ ونفوذه الفعلي ، إذ ليس ثمة أي دستور مقرر أو قانون محرر ، بل كل ذلك يتبع العرف المشروع والشرع المعروف ، ويمكن أن يقال أحياناً أن الشيخ هو المرجع في كل شأن ، والملاذ في كل خطب ، أو هو كل شيء ، كما يمكن أن يقال - إذا كان ضعيفاً أو مأفوناً - أنه ليس بشيء والقاعدة العامة أن تتناول سلطة الشيخ الأمور الآتية :

١ - يأمر الشيخ بالرحيل والنزول إذا نجع قومه وظعنوا ، فهو يعين مقدماً مواعيدها حسب الفصول أو حسب مراعي الكلأ أو موارد الماء ، ويراعي في ذلك العادات البدوية المتعلقة بحقوق الرعي ومناطق الجولان الخاصة بالعشيرة وما إليها . وهو ينظر في هذه الأمور إلى سلامة عشيرته أو اطمئنانها من وجود أخصام لها أو عدمه ، فيستطلع لأجل ذلك أخبار الحالة السياسية في البادية ، وحينما يظهر له أن الأوان قد آن يأمر بالرحيل ويكون هو البادئ بتقويض البيت وتحميله .

٢ ـ يراقب الشيخ أمر الألفة والوئام بين أبناء عشيرته ، وهو المرجع في حل المنازعات وتسوية الخلافات التي لا تحتاج لمراجعة القضاة (العوارف) ، وهو الذي يوقف القتال بين المتخاصمين بقوله : (وجهي بينكم) فبهذه الكلمة الصغيرة يحقن الدماء ويحفظ النفوس ، ثم هو الذي يجير الدخيل أو الطنيب إذا استجار ويسترد الأشياء المسلوبة ، ويكشف السرقة ، ويقسمَ الغنائم إذا عاد الغزاة ، ويحمي الفقراء والضعفاء ، ويوافق على عقود الزواج والطلاق .

٣ ـ يمثل الشيخ عشيرته لدى الحكومات وذوي السلطات ، ويتحمل تبعة ما يفعله ؛ هو وأتباعه من السيئات المندرجة في المادة ٣٤ من القرار ١٣٢ .

٤ ـ يعلن الشيخ الحرب ، وإعلان الحرب معروف عندهم بـ (رد النكا) ، أو يقر الصلح والسلام بعد أخذ رأي المجلس المؤلف من شيوخ العشيرة ورؤساء فرقها ، وعند حدوث ما يدعو للحرب أو السلم يدعو الشيخ هؤلاء فيجتمعون في بيته ويتشاورون ويقرون ما فيه صالح العشيرة ، وعلى الشيخ أن يذعن لقرار هذا المجلس ، ومن العادة أنه حينما تعلن إحدى العشائر الحرب على عشيرة أخرى يرفع الشيخ راية سوداء أو يربطها في رقبة فرسه أو بعيره ويطوف بين البيوت منادياً بما معناه : (لقد أشهرت الحرب على العشيرة الفلانية استعدوا) فيهب كل واحد حينئذ إلى سلاحه ويلبي الدعوة ، ومن لا يلبي يحق للشيخ أن يضربه ، أو يطرده من المنزل ، أو يسلب سلاحه وحلاله . والواقع أن إعلان الحرب من عشيرة على أخرى أمر ذو خطر كبير ، ولا بد أن تكون ثمة دواعي حقيقية تسيغ ركوب هذا المركب الخشن ، كالغزو والتعدي المتكررين ، أو سلب حقوق الرعي أو الشرب ، أو أمثال ذلك . وحينما يقرر الشيخ إعلان الحرب على عشيرة أخرى يبعث إلى شيخها كتاباً ، أو رسولاً محايداً أميناً يقول فيه : مردود عليكم النكا ، حلالكم حلالنا ومالكم مالنا ، وبعد ذلك لا تكون إحدى العشيرتين مسؤولة عما يقع على الأخرى من الغزو ، أو السلب والنهب ، لأن كل ما يحدث من ذلك بعد (رد النكا) يعد أمراً قانونياً شرعياً ، وأما ما يقع قبل إعلان الحرب فيكون تابعاً للضمان والغرامة .

هذا والبدو من حيث الطمع والإذعان جامعون بين الضدين ، فإذا غلت أيديهم عن التحامل وضاقت بهم الحيل قنعوا باليسير ورضخوا كل الرضوخ ، وإن تبينوا سبيلاً إلى الاستطالة هبوا إليه . ويطلق هذا الحكم على الرفيع منهم والوضيع ، وهو نتيجة كل سلطة

مطلقة . ومن ثم لم يكن الشيوخ في مأمن من فتك أقاربهم أو منافسيهم ، إلا إذا استتب لهم الأمر وأكثروا من وسائل الإرهاب والترغيب معاً .

ومن العادة أن يكون في بيت كل رئيس كبير أو شيخ جليل أنسباء وذوو قربى مخلصون ، وحاشية وعبيد معتقون أو شبه معتقين ، هم مكلفون خاصةً بخدمة الشيخ وصيانته ، ويؤلفون شرطته أو حرسه الخاص ويسمون (بيرق) عند عنزة الجنوب (ضنأ مسلم) و (ذكرد)[1] عند عنزة الشمال (ضنأ بشر) وكذا عند بدو العراق ، ويكون وراء هؤلاء أسر وبيوت ممن لا تصلها بذلك الشيخ وشيجة قربى ، لكنهم متعلقون بولائه ووداده لا يفارقونه قط .

ومن المفروض أن يمتاز الشيخ بالأريحية والنجدة والبسالة ورجاحة الفكر مع طلاقة اللسان والوجه والحلم عند الغضب وطول الأناة ورباطة الجأش ، ودواعي الأريحية تقضي على الشيخ أن يكون بيته أوسط البيوت ، وأعظمها وأعلاها ليراه الطارق ليلاً ونهاراً فيقصده ، وأن تكون ربعته أي مكان اجتماع الضيوف كالمنتدى العام مفتوحة في وجه كل قاصد ، لا تنقطع منها القهوة والتبغ والطعام والفراش ، وعليه قول شاعر بدوي في صحراء سينا :

الشيخـة مـا هي بـالجـوخـة	ولا بكبر العبـايـة يـا بنيـة
الشيخـة صب القهـاوي	زي العيـون المرويـة
الشيخـة جر المنـاسف	في السنين الردّيـة

ومن عادة الشيوخ في العشائر الكبيرة (شمر وعنزة) أن يتكفلوا بجباية ضرائب الإبل والغنم التي تفرضها الدولة على عشيرتهم ، وعلى الغرباء اللاجئين إليهم لسبب ما ، فيتولى الشيخ توزيعها على الأفراد مباشرةً . وهو يجبيها ثم يدفع ما جباه إلى الدولة ويحتفظ بالزائد منها لإنفاقه في سبيل المصلحة العامة للعشيرة ، وهذه الطريقة أي توسيط الدولة للشيوخ باب مغنم كبير لهم فوق الراتب السنوي الذي يتقاضونه من الدولة ، إلا أن أكثر الشيوخ ينفقون ما يأخذونه بحكم أن مالهم يكاد أن يكون مشاعاً ونفقاتهم طائلة وبذخهم غير يسير ، ومن عاداتهم أيضاً أن يرسلوا أحد عبيدهم فيمر بالفرق التابعة لهم ،

---

(١) ربما كانت تصحيف كلمة escorte الافرنسية وهي بمعنى جنود الحرس .

ويجمع غناً وماعزاً ، من كل واحد بحسبه ، وذلك لقاء صيانة رزقهم من السرقة أو السلب .

وفي العشائر الكبيرة ، ولا سيا في تلك التي على رأسها بيوتات كريمة المحتد وجليلة القدر (كآل الجرباء في شمر وآل عبد الرحمن في طيء) وأمثالها يكون الشيخ محترماً جداً ، لا ينبغي لأحد أن يستغيبه بسوء أو يعترضه بقول ولو شتمه أو انهال عليه بالضرب ، ثم إن مال الشيخ محرم لا يجوز لأحد أن يختلسه أو يغتصبه ، وإن فعل ذلك عن غفوة وعلم به أعاده بسرعة معتذراً ، ومن المزايا التي يفترض وجودها في الشيوخ : الصدق في القول ، والبر في القسم ، والوفاء في العهد ، والمتانة في الذمة ، والبعد عن النقض والنكث والغدر ، وتقدر درجة النبل والسؤدد عند الشيوخ بنسبة مالهم من هذه المكارم ، وكونهم عفيفي اللسان عزوفين عن الشر والأذى مترفعين عن الدنايا وعن أموال أبناء العشيرة وأعراضها ، لا يتقاضون أجراً عن معروف أتوه ، ولا يتحزبون لأحد ، ولا يتوانون في مدافعة حقوق العشيرة ، ودرء المفسدة عنها ، وجلب المنفعة إليها ، يمدونها إذا عضتها سنو الجدب والمحل ، ويأتون لها بالخطباء الأتقياء والمعلمين الصلحاء إذا أخنى عليها الجهل بأمور الدين والدنيا ، ويرشدونها ويوجهونها نحو العمل الصالح والرزق الحلال من سبيل الزرع والضرع وما إليهما .

وقد جرت العادة أنه إذا عجز الشيخ بسبب التقدم في السن أو المرض ، وشعر بحاجته إلى الراحة والتخلص من أعباء الرئاسة وهمومها ، ينتخب من بين أخوته أو أولاده أو أحفاده ذاك الذي يرى فيه هو الكفاءة في النيابة عنه ، وقبل أن يحمله الإمرة كلها يحمله بعضها ، كحل الخلافات والنيابة عنه في المؤتمرات ونحو ذلك ، وإذا اشتد عليه المرض وشعر بدنو الأجل يقلد نائبه المنتخب الرئاسة كلها، وقد جرت هذه الحالة عقيب الحرب العامة الماضية عند عشيرة شمر ، فإن رئيس شمر العاصي بن فرحان كان قد بلغ من العمر ثمانين حولاً أو أكثر وانزوى إلى أراضي دميرقبو في قضاء ديرك من محافظة الجزيرة التي أقطعها له الترك وقتئذ ، فعهد بالرئاسة إلى حفيده دهام بن هادي العاصي على ما كان له من الأبناء الشبان النشيطين .

أما إذا لم يظهر هذا الخلف الجدارة الكافية ، ونفرت العشيرة منه تنتخب غيره ، وإذا حصل تبدل الرئاسة على غير انتظار كالموت الفجائي أو لمصيبة داهمة أو أزمة عضالة ،

فرواسي العشيرة أي كبراؤها ينتخبون غيره ، وقد يصل الأمر إلى نقل المشيخة من يد الأسرة التي كانت متوليتها إلى يد (العقيد) الذي يكون له أوسع شهرة في ذلك الحين ، لأن شيخ العشيرة ليس من المحتم أن يكون عقيد الحرب ، والأمثال عند البدو على ذلك كثيرة ، كجدعان بن مهيد في الفدعان ، فقد انتخبته عشيرة الأسبعة عقيداً للحرب في معاركها مع الأرولة حول سنة ١٢٩٢ هـ ، وفي عهدنا لم يكن عقيد الحرب عند عشيرة الموالي أحد أمرائهم من آل أبو ريشة ، بل كان رجلاً من طبقة تالية يدعى فارس العطور توفي منذ بضع سنوات ، وقد نال هذا الرجل بفروسيته وحسن قيادته ووعورة خلقه مقاماً جعل السلطات تعتمده رئيساً للموالي الشماليين في جانب الأمير شايش والأمير عبد حتى مات وخلفه ابنه أحمد في العقادة وربما خلفه في الرئاسة على الموالي القبليين ، على أن الشيخ إذا لم يكن عقيداً ولم يقد الحرب بنفسه له الامتياز الخاص في إعلان الحرب أو عقد الصلح ، وهو في الحالتين مكلف بأن يراعي الحالة الروحية في عشيرته ، لذلك تراه في أغلب الأحيان يوفق الأمر الواقع بما يلائمه ، أما إذا تقدم الشيخ لعقد الصلح أو إتمام المحاسبة والمقاضاة مع الأخصام حينئذ لا مرد لكلامه ولا تبديل أو نقض لما سمح به في أمر (الحفر والدفن) . وإليك هذا المثال الذي ذكره المقدم مولر : في مؤتمر الصلح الذي عقد بين شمر الجزيرة وفريق الولد من الفدعان في سنة ١٩٢٦ م لإنهاء الفتن والغارات التي دامت بينهما سنيناً عديدة ، قام الأمير مجحم بن مهيد ودفن ألفاً وخمسمئة بعير لفرقة العجاجرة إحدى فرق الوُلْد (بضم الواو وسكون اللام الثانية) وقد كانت شمر اغتصبت هذه الأباعر في إحدى غزواتها ، وثمنها أكثر من ثلاثين ألف ذهب عثماني ، فقضى الأمير مجحم بذلك على أكثر من مئة بيت اضطرت إلى أن تبقى عالة على بقية العشيرة في حلها وترحالها ومعاشها ، ذلك لأن غزاة شمر لم يبقوا لها شيئاً . ولا ريب في أن مكانة الأمير مجحم وشخصيته وسلطته التي يتمتع بها على عشيرته والمعونة التي كان ينتظرها وقتئذ من الحكومة حملته على قبول هذا الحل المجحف .

والرئيس في العشيرة هو المسؤول عن أعمالها تجاه الحكومة وبقية العشائر ، وقد يكون هذا غير الرئيس الذي وظفته الحكومة واعتمدت عليه ، كما كان الحال لدى شمر الزور (الخرصة) حينما كان يرأسها رسمياً مشعل باشا الفارس وفعلياً ميزر العبد المحسن . فكانت العشيرة لا تقر على أي أمر يبرمه مشعل ما لم يقر به الشيخ ميزر إلى أن نحي مشعل في

سنة ١٩٢٧ م ، واستقرت الرئاسة في يد ميزر ، وثمة عشائر لا يعتبر ختم رئيسها إلا إذا انضمت إليه أختام بعض الرؤساء التالين الذين يدعون (أرباب الأختام) ، ذلك أن معظم رؤساء البادية كرجالهم أميون ، يتخذون أختاماً لتوقيع رسائلهم التي يبعثونها وهذه يكتبها لهم كتابهم إذا كانوا أغنياء ومتخذين كتاباً ، أو يكتبها لهم أحد التجار العابرين ، وطلب توقيع أرباب الأختام يظهر في العشائر التي خرجت السلطة فيها من يد الأسرة المترئسة إلى رئيس آخر لم تلتف كل القلوب حوله بعد ، فبقيت متعلقةً إلى حدٍ ما بالأسرة السابقة ، كما هو الحال في الأخرصة من الفدعان التي نبغ فيها مزود بن قعيشيش الملقب بالنمر واغتصب الرئاسة من أسرة ابن غبين ، فما من توقيع كان يضعه مزود إلا وينبغي أن يقر عليه عبيد بن غبين كبير الأسرة المذكورة ، وهذه الحالة موجودة أيضاً في الأسبعة في جذمي الأعبدة والبطينات فلكل منها أرباب أختام عديدون كابن عايد وابن الصايد وابن موينع وغيرهم من رؤساء الفرق .

ثم إن الرئيس فيما خلا مكانته الشخصية لا يمكنه أن يحل أو يبرم أمراً في أمور الحل والترحال والحرب والسلم ما لم يشاطره الرأي رجاله الملتفون حوله وخاصةً الشيوخ المعمرين والرواسي المنظورين . فهو مضطر إلى أخذ موافقة الجميع لا سيما أولئك الذين ربما انقلبوا عليه وصاروا رقباءه ومزاحميه بفضل ذكائهم أو مكانتهم وهو إذا كان غنياً يسير على طريقتين : إما أن يربط القلوب حوله بجوده وكرمه ، وإما أن يتخذ لنفسه عبيداً أو (زكرد) أي رجالاً مسلحين يقضون ما يبرمه وينفذونه ، وهذه الطريقة الثانية تظهر للوهلة الأولى أحسن ؛ لأن فيها فائدة تحميل قسم من النفقات المصروفة على رجال العشيرة ، ولكن يبقى هناك حصة كبار الرؤساء ، فالبدو لا يرضون بخدمة أحد يحسبونه أقل نبلاً منهم ولو لقاء جعل ، وليس ثمة مجال للضغط ، لأن من يجد نفسه مغدوراً ليس أسهل عليه من أن يقوض خيامه ويذهب بأهله نحو رئيس آخر يرى الانضواء تحت لوائه أنسب له ، وهذه الحالة كثيرة الوقوع ، ولطالما حدثت من جراء سوء التوزيع الذي كان يجري حين فرض الضرائب (كالودي والأغنام) وجبايتها ، فمن الفرق من لم يدفع إلا القليل ولم يستطع شيوخها مراجعة السلطات ، خوفاً من إفلات الفرقة من يدهم ، وكثيراً ما كانت هذه الحالة تدعوهم للمطالبة بتخفيض الضرائب بحجة النقص الحاصل في العشيرة من جراء مغادرة بعض الفرق وانفصالها ، وآخر تدبير يلجأ إليه الشيوخ هو مراجعة

الحكومة واستدعاء معونتها لتنفيذ سلطتهم على عشيرتهم ، لكن هذه المعونة دقيقة جداً ينبغي على الشيخ أن لا يتعدى فيها الحدود ، وعلى ضابط القوة المرسلة لمعونته أن يجتنب كل ما يوجب الإقلاق والضجة .

هذا وكلما زادت أفراد العشيرة حول الرؤساء والشيوخ كثرت أعمدة بيوتهم ، وكثر عدد عبيدهم ورجالهم ، وازداد بذخهم وترفهم بركوب السيارات الفخمة وغشيان الحواضر والمدن ، ويصير عند كل من نساء الشيخ فراشة وهي امرأة تقوم بواجب الفرش والحل والظعن ، وعند الشيخ نفسه طباخ يذبح الذبائح ويطهي الطعام ، وحطاب يجمع الوقود ، وراوٍ يهيئ الماء ويجلبه ، وسفراوي ينقل الصحون والمناسف للموائد ، ووكيل مكلف بدعوة الضيوف وإجلاسهم وتوزيع الطعام عليهم ، هذا إلى ثلاثة أو أربعة سواس وراعي إبل وسائق سيارة ورعيان غنم لكل ٣٠٠ ـ ٤٠٠ رأس منها راع ، ثم صانع أو حداد لإصلاح السلاح ولجم الخيل ونعالها ، وبواردي لأجل الصيد ، وصقاقيري لخدمة الصقور وأمثالها من الجوارح ، وبعض هؤلاء الخدم من العبيد الذين أعتقهم أجداد الشيخ حينما حضرتهم الوفاة وبقوا في الخدمة لدى أولاده أو أعقابه وهم يستمدون المعونة أو الحماية في كل سانحة من (أعمامهم) الذين يمكنونهم من أن يتمتعوا وسط العشيرة بأرضى عيشة ، ويكون قرب بيت الشيخ بعد ذلك بيت خاص للخطيب أو الملاّ ، المكلف بإقامة الصلاة والأذكار والوعظ ، وإذا كان هذا الخطيب صالحاً ودرّاكة يتمتع بحرمة كبيرة ونوال غير يسير .

الانفصال أو تبديل التابعية

يستطيع من يشاء من العشيرة ان ينفصل عن عشيرته ، وينضم إلى عشيرة أخرى إذا راعى الشروط التالية : عندما تقع مشكلة يتعذر حلها بين أحد الناس وبين أسرته ، أو عشيرته ، أو بين عشيرتين ، أو بين فريقين ، ووجد الشخص أو العشيرة أو الفرقة الواحدة أنها مغلوبة للأخرى ، وغير قادرة على نوال الحقوق التي تطالب بها ولم تجد سبيلاً للتفاهم ، يسعى ذلك الشخص أو تلك العشيرة أو الفرقة المغلوبة بالمفاوضة مع عشيرة أخرى للانضمام إليها ، وبعد أن يتم الاتفاق مبدئياً يقيم المغلوب وليمة كبيرة ، يدعو إليها الأعيان والشيوخ ، ويعلن انفصاله من عشيرته بحضور الجمع المدعو ، ويرحل بعياله وحلاله ، وينزل على العشيرة التي كان قد تفاوض معها وأعلن الالتحاق بها ، فتلاقيه رجال تلك

العشيرة ، وتولم له ولذويه ، وتكرمهم ، وفي اليوم التالي يـدعو هو في دوره رجـال العشيرة إلى وليمة يقيمها في بيته ، ثم يرفع رايـة بيضـاء معلنـاً انفصـالـه التـام عن عشيرتـه وانضمامـه لـلأخرى ، ويقـدم الرايـة لشيـخ تلـك العشيرة ، وهـذا يعلن قبـول الشخص أو العشيرة أو الفرقة في عداد أتباعه ، بعد ذلك يصبح ذلك الشخص أو تلـك العشيرة أو الفرقـة في عـداد العشيرة الأخرى مساوين لهم في جميع الحقوق والامتيازات .

الصداقة بين العشائر

إذا كانت عشيرة صديقـة الأخرى صـارت مسـاويـة لهـا في الحقوق والواجبـات كأنها فرقة من فرقها ، فكل من العشيرتين يحتفظ باستقلاله الناجز ، لكنهما إذا تنازعا على الآبـار وموارد الميـاه في منـاطـق النجعـة والرعي ونحـو ذلـك ، يفصـل الرؤسـاء في الأمر بـأعظم ما يكون من المسالمة والتسامح .

وإذا ازدادت هذه الصداقة انقلبت إلى تحالف حقيقي ، وفي هذه الحـالـة إذا أصـابت أحـد الفريقين المتحـالفين غـارة أو عـداوة من عشيرة غريبـة على الفريق الأول أن ينجـده (يفزع له) ويقف بجانبه .

إن هـذه المحـالفـات لا تكتب لهـا عقود وصكوك ولا تختم بتواقيـع ، وهي مـوجـودة ومستمرة بطبيعة الحال وبدقة تامة بين العشائر التي بينها عصبية نسب واحـد كعشـائر عنزة مثلاً ، رغم النفور الـذي قـد يكـون بينهـا ، ومن ثم ترى العشيرتين المتنـازعتين إذا أصيبت واحدة منها بغارة عشيرة غريبة تختمان النزاع النـاشب بينهما موقتـاً ، وتتضـامنـان للوقوف في وجه العشيرة الغريبة .

وإذا توثقت عرى الصداقة بين عشيرتين إحداهما أقوى من الثانيـة تصير الضعيفـة من أتباع القوية ولواحقها ، كما هو الحال بين الولد علي والأرولة ، وبين الفواعرة والأحسنة .

إن أعمال العداء والتطاول على عشيرة صديقة تحاكم دائماً بعقوبات أشد وأقسى من التي ترتكب في حق عشيرة معادية ، والقاعدة المتبعة هي أن العشيرة المعتـديـة لا يصح لهـا أن تطـالب عنـد المقـاضـاة بـأي تعويض عن الأموال المنهـوبـة ، ولا الأنفس المقتـولـة ، وإذا هوجمت عشيرة صـديقـة صـدفـةً أو خطـأً فـالمنهـوبـات ترد بكاملهـا وبـلا إبطـاء ، وكثيراً

ما يضاف إليها هدايا لتلافي الضرر المعنوي الذي حدث .

الحرب بين العشائر

قلنا إن إشهار الحرب على عشيرة أخرى أمر عظيم وخطر ، ينبغي أن لا يقدم عليه إلا بعد تفكير وترو ، وعلى كل ينبغي أن يسبقه بادىء ذي بدء إرسال إنذار وهو ما يدعونه (رد النكا)[1] وإلا فإن رئيس العشيرة الذي يقصر في ذلك ويغدر حينما يقف في موقف الحكم ، تصدر في حقه أحكام قاسية عادلة ، ويعرض نفسه إذ ذاك لخذلان حلفائه وانفضاضهم من حوله ، بحكم أن عمله كان مخالفاً للمروءة والتقاليد العربية .

وإذا أعلن الرئيس الحرب بعد تفكير وترو واستشارة كبراء العشيرة تنفتح أبواب العداء والشرور ، وتبدأ الغارات بين الفريقين ، وقد تصل هذه إلى معارك حقيقية ، وهي في يومنا صارت خطرة جداً ، لأن البدو الرحل الذين بينهم عسكريون قدماء شرعوا يتخذون الأسلحة الآلية كالرشاشات والبنادق السريعة الطلقات كما جرى بين الولد والولدة في عام ١٩٤١ م .

وفي المعارك الحربية قواعد لا بد من مراعاتها ، وإلا كان الناقضون لها عرضةً لمؤاخذة القضاة الذين لا بد من استدعائهم يوماً ما حين تسوية النزاع ، وخلاصة هذه القواعد هي :

١ ـ الجرحى سواء أكانوا من الأصدقاء أم من الأعداء يحملون إلى المخيمات ويعتنى بهم ريثما يرسلون إلى أهلهم .

٢ ـ الجرحى الخطرين يمكن الإجهاز عليهم فوراً لتخليصهم من الآلام . وذلك بعد موافقة خطيب العشيرة وطبيبها اللذين يجب عليهما عادةً أن يرافقا الشيخ أو عقيد الغزو .

٣ ـ يؤخذ سلاح الأسرى ويساقون إلى مكان بعيد عن المعركة ، ويطلق سراحهم .

٤ ـ يقسم الشيخ الغنائم بعد أن يأخذ حصة قدرها في الغالب الثلث .

---

(١) في أقرب الموارد : نكا القرحة قشرها قبل ان تبرا فنديت ، ونكا العدو قتل فيهم وجرح وأثخن ، فلعل كلمتهم (رد النكا) من أحد المعنيين .

ويمكن إنهاء النزاع فوراً خلال المعركة ، أو حين الخروج منها والوصول إلى صلح سريع ، وذلك في حالات خاصة ، صارت نادرة جداً ، وهي :

١ ـ إذا وجد أحد الفريقين نفسه ضعيفاً وقصد التخلص بأقل مصروف ، يبعث نحو المهاجمين فتاةً جميلةً راكبةً على ناقة بيضاء ، وحينئذ يقف إطلاق النار من كل جهة ، ويضطر رئيس المهاجمين بحكم المروءة إلى أن يذهب بنفسه للقائها ، أو يرسل أحد أبنائه ، وحينئذ يجب على هذا الابن أن يتزوج تلك الفتاة . وحينئذ يعقد الصلح فوراً ويعود كل امرئ إلى منزله .

٢ ـ إذا وجدت العشيرة المعتدى عليها نفسها ضعيفة جداً ، يحق لها عقيب حدوث الغارة أن ترسل وفداً من نسائها إلى رئيس العشيرة المعتدية ليستعطفنه بأمر الغنائم ، وتحتم المروءة على هذا الرئيس أن يرد كل ما أخذه ويقبل بالصلح ، وهذه الحالة أيضاً نادرة الوقوع كسابقتها .

بيوت البدو

كلما تجول المرء في البادية وضرب في آفاقها في فصلي الخريف والربيع ، لمح عن بُعدٍ ، قُرْبَ التلال ، وبين الأودية ، لطخات سود تشبه شامات ذوات القدود . وهي تبدل أحياناً منظر السراب وتهدي التائه وتنعش السائر بمرآها وأمل وجود المأوى والقرى فيها . وهذه اللطخات هي بيوت البدو المصنوعة من شعر المعز . واجتماع هذه البيوت يؤلف : الحواء أو الحلة أو النجع أو الدوار ، وفي اصطلاح الافرنج : المخيم ، وكلها بمعنى قرية البدو أو منزل البدو ، إلا أن هذه القرية موقتة متنقلة ، ومعدة إلى أن تزول بسرعة كما نشأت بسرعة ، والحلة لا تحوي العشيرة كلّها ، بل تحوي في الغالب رهطاً أو فرقةً من العشيرة ، وأهل الحواضر إذا رأوا جمعاً من بيوت البدو قالوا رأينا : فريق عرب أو نجع عرب ، ويندر جداً أن تجتمع العشيرة كلها في حلة واحدة ، والبدو لا يستعملون كلمة خيمة ولا مضرب ولا فسطاط ولا غيرها مما جاء في كتب اللغة بل كلمة : بيت أو بيت شعر فقط . وقد ورد في الكتاب العزيز وصف مساكن البدو وأثاثهم وأمتعتهم بعبارة في منتهى الرقة والجزالة وهي ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعامِ بِيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وأَشْعَارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إلى حِينٍ ﴾ .

وبيوت الشعر حارّة في الصيف ، باردة في الشتاء ، ولا تقي من الرطوبة والمطر كما ينبغي ، تخفق فيها الرياح وتهزها ، وقد تسقطها العواصف على رؤوس أصحابها ، لكن هذه البيوت على علاّتها المذكورة ما برحت منذ آلاف السنين مأوى البدو ومسكنهم ، يطوونها وينشرون ، ويقوضونها وينصبون ، ويهيمون بها ويمدحون ، فمن المادحين لها : ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان ، وذلك رغم الترف والنعيم اللذين غمرها بهما زوجها في قصرها المشرف على غوطة دمشق ورياضها فقد دخل عليها يوماً فسمعها تترنم في خدرها فأنصت إليها فإذا هي تقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إلي من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق دوني ... أحب إلي من قط ألوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... أحب إلي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب إلي من نقر الدفوف
وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحب إلي من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف ... أحب إلي من علج عنيف
خشونة عيشتي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيش الظريف
فما أبغي سوى وطني بديلاً ... فحسبي ذاك من وطن شريف

فلما سمع معاوية ذلك منها قال : ما رضيت بنت بحدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً ثم ردها إلى أهلها .

وتنسج بيوت البدو من شعر المعزى الذي يجعل لها هذا اللون الأسود مع تموجات كستنوية غامقة ، وهي تتألف من مستطيل كبير مؤلف من قطع طويلة تدعى : شقق جمع شقة تخيط الواحدة بجانب الأخرى ، ويتكون منها : السقف ، ونساء البدو يصنعن الشقاق بأيديهن ، وقد تشترى من بعض بلاد الشام التي اختصت بصنعها كقرية الشغر القديمة غربي حلب ويبرود شمالي دمشق والكرك في شرقي الأردن وغيرها . وللبيوت حبال - مرس - من القنب ، وأطناب جمع طنب ، ويقوم السقف على أعمدة جمع عمود علوها يتراوح من المتر الواحد في الخربوش إلى الثلاثة أو الأربعة أمتار في بيوت الرؤساء الكبار ،

وهي توضع في الخط المتوسط بامتداد الطول الأعظم للبيت ، ويتألف البيت أيضاً من الرواق وهو قطعة طويلة من نسيج شعر المعزى أو وبر الجمل ، وعندهم أسياخ كبيرة من الحديد : الخلال شكلها كحرف S الافرنسي يربطون الرواق بها بطرفي السقف أو بطرف واحد منه حسب هبوب الرياح أو ورود أشعة الشمس ، ومنه كان لا بد أن يظل بيت البدوي مفتوحاً من إحدى الجهات .

والشقق تكون من شعر المعزى ، لأن هذا الشعر لا يمتص الماء وإذا كان بيت الشعر ثقيلاً في الأصل فلو ابتل نسيجه يصبح غير ممكن الحمل والنقل لو أنه من غير شعر المعزى ، ونسيج هذا الشعر في لحمته وسداه ذو خيوط غليظة يؤلف حزماً متراصة جداً ، ويزداد تراصها حين هطول المطر حتى تصبح غير قابلة النفوذ والرشح ، بيد أنه ممر للنور ، وحين سطوع الشمس بشدة يظهر للأشباح ظلال ، ولذا يتعذر حسر الرأس تحته ، وهذا ما دعا بعض البدو أنصاف الحضر أن يتخذوا بيوتاً بيض من نسيج القطن الخاص بالخيام ، وهي أقل حرارة ، إلا أنها لا يمكن اتخاذها في الشتاء ، وتترك في المعمورة إلى حين العودة من نجعة الشتاء ، وبيوت التجار والباعة الملتحقين بالبدو تكون من نسيج القطن الأبيض ومخروطية السقف وعمودية الجوانب ، وهي التي يسمونها (خيام) جمع خيمة ، وهم يضربونها في الغالب قرب بيت الشيخ ، ومن ثم كانت من علامات الاستهداء إليه . وللأعمدة قيمة عظيمة لدى البدو ، وهي تعد روح البيت في البادية وقوامه . ومنها قولهم فلان عماد بيتنا ، وهي أيضاً كلما طالت وكثرت دلت على الثروة ، والرفعة وعلى أن صاحبها طلبة الأضياف والزائرين ، وفي اللغة : فلان طويل العماد أي بيته معلم لزائريه ، وفلان رفيع العماد أي شريف لرفعة عماد بيته ، وأهل العماد أصحاب البيوت العالية الرفيعة ، ومن فوائد الأعمدة أن الرجل في البادية إذا أجرم وطورد فدخل بيتاً وقبض على عموده سلم وصار في حمى هذا البيت .

وأصغر البيوت ما ليس لها سوى عمود واحد ، وهذه هي بيوت الأرامل والطاعنين في السن الوحيدين والمنقطعين وبيوت الدخلاء والمستجيرين ، وأكثر ما تضرب هذه البيوت الصغيرة في جوار بيت الشيخ لتبقى في كنفه وعلى مقربة من إحسانه . ويكون لكل أسرة بيت واحد ، إلا كبار الرؤساء ، فإن لهم عدة بيوت عظيمة وينتج مما ذكر أن مكانة البدوي وسعة حاله تعرف من عظمة بيته ، فإذا أقبلت على منزلة من منازل البدو

وقصدت أعظم بيت فيه ، وقعت حتماً على بيت الشيخ أو على بيت كبير يماثل الشيخ .

وعدد الأعمدة يكون بحسب كبر البيت ، ولا يدخل على كل حال في الحساب العمودان اللذان في طرفي البيت ، وهما قلما يستعملان ، لأن الطرفين يكونان في الغالب مائلين نحو الأرض بالأطناب ، بينما أعراب الديرة أنصاف الحضر يجعلونها مرفوعين والسقف ممتد باستقامة ، وهذا ما يجعلك أن تعين أصحاب هذه البيوت إن كانوا بدواً أم من أعراب الديرة ، وثمة علامة لتمييز البدو الرحل عن أولئك هي أن بيوت أعراب الديرة تكون أكبر وأوسع وأكثر أعمدة وأقساماً ، ثم إن بيوت البدو ذات أروقة . لأن البدو لا يبيعون أوبار إبلهم ، بل يستعملونها لنسج الأروقة . ونسيج وبر الإبل يكون أوسع خلايا منه في نسيج شعر المعزى . فوجود هذه الأروقة علامة أن البيوت بيوت بدو أقحاح . وقد امتازت عشيرة الأسبعة بأن أروقتها من وبر الإبل وذات خطوط بيض في الغالب . وعلامة أخرى هي أن أعراب الديرة يتخذون لتفريق خدور النساء عن مكان الضيوف نسيجاً من القصب اسمه (ذرب) ، وهذا لا يوجد عند البدو ، إلاّ لدى بيوت الكبراء ، وعيدان القصب تربط ببعضها بخيوط من الصوف ملونة وتجعل عالية ، والمسافات بين الأعمدة هي أطول منها لدى أعراب الديرة .

وبيت البدوي المتوسط الحال ذو عمودين ، وبيت الفقير والضعيف منهم ذو عمود واحد ، يستثنى من ذلك عشيرة الأرولة التي أكثر بيوتها ذات عمود واحد مما يجعل لحللهم منظراً كئيباً . وليس ذلك لقصر ذات يدهم ، فهم أغنياء يملكون عشرات الألوف من الإبل ، بل لأنهم لا يعنون بتربية الغنم إلاّ قليلاً ، واتساع بيوت البدو في شمال الشام من علائم تمايلهم نحو الحضارة ، وتدرجهم لتقليد أعراب الديرة الذين يربون الغنم ، وهي تدر ريعاً أكثر من ريع الإبل ، لا سيا بعد أن شاعت السيارات ، وزاد الإعراض عن أكل لحم الإبل في مصر .

وأكثر رؤساء عشائر الفرات تكون بيوتهم أوسع وأطول من بيوت كبار رؤساء البادية ، وليس ذلك لأنهم أغنى وأرفه حالاً بل لأنهم لا يأوون إلى بيوت الشعر إلاّ في الشتاء ، أما في الصيف فإنهم يطوونها ويقيمون قرب الفرات في السبابيط جمع سيباط المصنوعة من سوق الأشجار وأغصانها ، لاسيا وأن نجعة هؤلاء وترحالهم قليل وغير ذي

بال ، أما الحالة عند البدو الرحل فهي مختلفة جداً ، فالبيت لا بد من تجزئته إلى قطع عديدة كلما قوض ، ومن إعادة تركيبه كلما بني ، والبيت إذا صارت أعمدته أكثر من ثلاثة يغدو نقله متعذراً على بعير واحد . وهذا الحل والربط يحتاجان كما لا يخفى لعدة أيادٍ عاملة لا يحواها إلا الرؤساء والكبراء في العشيرة ، وهذا ما جعل وجود البيوت التي يتجاوز عدد أعمدتها الثلاثة في حكم النادر ، ويحتاج كل بيت ذي الأعمدة الثلاثة إلى اثني عشر حبلاً طولها ثلاثمئة متر بست أو سبع ليرات ، مما يبلغ مجموعه خمس وأربعون ليرة ذهبية .

وتختلف أسماء البيوت باختلاف عدد الأعمدة وقلتها وكثرتها ، فالبيت ذو العمود الواحد باستثناء العمودين الجانبيين يدعى : قطبة ، وإذا كان صغيراً ورثاً وبدون عمود متوسط يدعى : خربوشاً ، كما هو لدى الأرولة وأمثالهم ، وذو العمودين يدعى : مقورن وفي بعض العشائر : جرنين أو مدوبل ودوبل الشيء بمعنى كبره وزاد حجمه ، وإذا كان له ثلاثة أعمدة : مثولث أو خمسة : مخومس وهكذا ، مسوبع ومتوسع ، وأكثر رؤساء العشائر الكبيرة بيوتهم من صنف المسوبع ويبدو أن هذا العدد هو الحد الأقصى لدى عشائر الشام طراً ، وبيوت الذين يلونهم من الكبراء من صنف المخومس أو المثولث وهكذا . ومساحة هذه البيوت من ٦٠ ـ ١٠٠ متر مربع .

وقيل إنه كان لإبراهيم باشا الكردي رئيس عشيرة الملي بيت ذو ستة عشر عموداً لا يزال ابنه محمد باشا يتخذه أحياناً ، وازدياد عدد الأعمدة أو نقصها يدل على تبدل حال صاحب البيت من العسر إلى اليسر أو بالعكس ، ويلحظ الناظرون ذلك فوراً .

وللبيوت أوتاد ، ويغلق البيت من ورائه بالرواق ، وفي الأماكن الباردة في شمال الجزيرة وخاصة عند العشائر الكردية يكون للبيت رواقان ، وفي الجهة اليمنى واليسرى في البيت لا يكون رواق ، بل أطراف تدعى : الرفة ، وتجمع على : رفاف مؤلفة من قطع قديمة من مختلف الشقق ، أو من الأقمشة المتنوعة مخيط بعضها بجانب بعض ، وفي القطبة أي البيت ذو العمود الواحد يدعى هذا العمود بالواسط وفيه عمود الإمام أو المقدم ، وعمود آخر من الخلف يسمى : منيحر .

وهم إذا أرادوا أن يركبوا بيت الشعر يمدون شقق السقف على الأرض ، ثم يغرزون الأوتاد على بعد ١٠ ـ ١٥ متراً عنها ، وذلك لأجل أن يصلوا بينها وبين البيت بالحبال

المدودة ، فإذا تم ذلك يدخلون تحت شقق السقف ، ويرفعونها بالأعمدة ، وهذه الأعمدة تبقى طلقة بدون ربط ، ثم يعلقون الأروقة الجانبية بالسقف ، أما هدم بيت الشعر أو تقويضه فيجري على العكس مما عددناه ، وتركيب بيت الشعر على هذا النحو لا يحتمل أكثر من بضع دقائق ، ثم يقسم إذا كان صغيراً إلى قسمين : الربعة والمحرم ، وإذا كان كبيراً يقسم المحرم إلى عدة أقسام ، لكل من الزوجات قسم ، إذا كان صاحب البيت ذا عدة زوجات أو له أم أو أخوات يرى لزوماً للتفريق بينهن ، وهذا التقسيم يكون بواسطة الحواجز المصنوعة من القصب أو المنسوجة من الشعر ، وهي المسماة بالقطع أو الساحة .

وجملة القول أن للبدو كل الحق في المباهاة ببيوتهم والتعلق بحبها ، وأن يقولوا :

لبيت تخفق الأرواح فيه   أحب إلي من قصر مشيد

لأنها أنسب مكان في البادية العاتية القاسية وأصلح مأوى للعيش القلق الذي يقضيه البدو ، لأن الحبال إذا شدت يبقى السقف ممتداً مهما بلغ علوه ، والبرد إذا قسى يميلون الأعمدة فيهبط السقف ويقترب من الأرض ، والحر إذا طغى يوقفون الأعمدة بانتصاب ، ويرفعون الشقة الجانبية (الرواق) وحينئذ يهب الريح ، ويحدث جرياناً ينعش الأنفاس ، والقاعدة العامة أن يوجه البيت نحو الشمس المشرقة ، وإذا كان هذا الاتجاه ردئياً بسبب الرياح مثلاً يسدون الشرق برواقه ويفتحون جهة الغرب ، وإذا شعروا بهبوب عاصفة رملية يدقون الأوتاد ، ويقوونها ، ويضعون جميع الأثقال فوق الحبال ، ليزاد وزنها فلا تعد العاصفة قادرة على العبث بشيء .

داخل البيت

وينقسم داخل البيت إلى قسمين : الربعة أو الشق للرجال ، والمحرم أو الخدر للنساء ، ويفصل بين هذين القسمين حاجز من القصب اسمه : زرب وفي بعض بيوت الكبار يسدل فوق الزرب قطعة كبيرة اسمها : خدرة أو ساحة منسوجة من الصوف الملون أو الشعر الأسود النظيف ، ويتخللها نقوش بيضاء من القطن ، وتتفنن النساء في نسج هذه الحاجزة تفنناً غريباً ، والزرب الذي يفصل بين الربعة والمحرم يكون علوه قدر قامة إنسان ، وهو يحول دون رؤية الضيوف لنساء البيت ، وعند البدو الرحل يفصل هذين القسمين : النضيد ، وهو حاجز يعمل بأمتعة البيت . وهذه الأمتعة إذا كانت حين تنزيلها

عن ظهور الإبل غير مرتبة تدعى : حلة ، وإذا رتبت وجعلت كحاجز تدعى : نضيد ، وهي تتألف من العدول (الأكياس) المحتوية على المؤنة من الحب والطحين والسمن والبصل والتمر وأمثالها ، وعلى الفرش كاللحف والأغطية والغفور جمع غفرة والبسط ، والقطيفات وهي ضرب من السجاد ، ومن الشف وهو غطاء ظهر الفرس ويكون من الصوف الرقيق ، والمخدات أي : الوسائد وغيرها . وفي بيت الشيخ يكون الحاجز بين الربعة والمحرم جدار من الوبر يدعى : القطع ، وفي منتهى قسم النساء وهو القسم الأيسر في الغالب يوضع الحوض والضروف ، وأحياناً يوضع القتاب ، وبين العمودين تعلق المزازة وهي أرجوحة الطفل ، وأمام البيت تحفر حفرة النار وعلى جانبها يكوم الرماد ، وفي قسم الرجال أو أمامه تحفر حفرة القهوة ويدعونها : النقرة ، وتمد في داخله البسط واللحف للضيوف ، وتوضع المخدات والرحال للاستناد والاتكاء ، هذا ويمتد تحت شقاق البيت على رأس الأعمدة شقة يبلغ عرضها اثنتي عشر سنتمتراً وتعرف تلك بالطريقة يربط في أطرافها حلقات موصولة بحبال ثخينة وطويلة من المرس ، وهذه الحبال تشد إلى أوتاد من الخشب الصلب تثبت البيت من جميع أطرافه في الأرض .

وعندهم القرب وهي آنية الماء المشهورة ، وتصنع من جلود المعزى ، وهي أفضل آنية لتبريد الماء ، والمجارب جمع مجربة ، وهي أكياس التبغ تصنع من جلود الغزلان وجداء المعز والغلايين لشرب الدخان ، أما عودها فيصنع من شجر الأثل ، وهم يعلقون في الغليون سلسلة وفيها مبرد يدعى الإبرة لتنظيف الحجر وملقط صغير لالتقاط الجمر ، وقد قل استعمال الغلايين عما قبل ، أما أسرجة الإبل والخيل والحمير فسرج الفرس يعرف عندهم بالسرج أو المرشحة أو المعركة ، وسرج الحمار بالبردعة وسرج بعير الحمل بالوتر أو الحوية ، وسرج بعير الركوب بالغبيط أو الشداد ، وللغبيط حزامان من الشعر وهما البطان ويحزم بطن البعير والحقب ويحزم مؤخر بطنه ، وعندهم الخراج جمع خرج وهي أهم أثاثهم ، ولابد لهم منها في أسفارهم ، يصنعونها من الصوف الأبيض والملون أخضر وأصفر وأحمر ، ويصنعون لها شراريب من الصوف والشعر ، والمزاود جمع مزوادة تشبه فروة الخرج ،وتصنع مما يصنع منه الخرج ، وتستخدم في السفر لحمل الدقيق ، والمخالي جمع مخلاة تصنع من الصوف أو الوبر ، وكل هذه الأنسجة الصوفية تحاك عندهم بأنوال بسيطة ، يشتغل بها النساء أو يشترونها من المدن .

حلال البدو أو منازلهم

الحلال جمع حلة ، والحلة في اللغة جماعة بيوت الناس ، والمنزلة موضع النزول ، وهما تقابلان كلمة (مخيم أو معسكر) المستعملة في الجيوش . وهي تنصب عادة في صفين ، وإذا كانت كبيرة في صفوف متعددة ، ويسمى الصف الواحد سماط ، وقد اعتادوا نصب بيت الشيخ في الصف الغربي أو الصف الأوسط ، ويمتاز برفع شارعته عن بقية البيوت . والشارعة هي العمود الأمامي من الربعة ، لهذا يستطيع الضيوف أن يهتدوا إلى الربعة دون دليل ، لأن الشارعة هي الدليل ، أما بقية أفراد العشيرة فتنصب بيوتها على جانبي بيت الشيخ ، وإذا كان بينهم غريب أو طنيب كما هو معروف عندهم فإن أحد أفراد العشيرة يتنازل له عن موقع بيته ، فيقيم ذلك الطنيب قرب بيت الشيخ معززاً مكرماً ، وتسمي بعض العشائر مضرب البيوت : الدوار ، والفسحة التي بين صفوف البيوت : المراح ،حيث تمرح مواشيهم وفي الحل والترحال لا تنصب بيوت كبار رؤساء بتمامها في كل مرحلة ، وفي حالة الاستعجال في السير لا تنصب العشيرة بيوتها بتاتاً .

هذا ولا يستعمل البدو مصابيح وفوانيس للاستنارة إلا ما ندر عند بعض كبار الشيوخ والرؤساء ، وذلك لعجزهم عن حمل هذه الأدوات السريعة العطب ، وعن حمل صفائح النفط التي تحتاجها ، وهم يكادون يعجزون عما هو أهم من ذلك ، فمالهم ولزيادة الثقل ،ومن ناحية أخرى إن المكوث في الظلام أدعى للاستتارة عن أعين الرقباء والأعداء في الليل ، ولحفظ النظر ورؤية الأشباح في الظلام عن بعد ، وهم إذا أحوجتهم الضرورة كورود رسالة هامة في الليل لا بد من قراءتها ـ هذا إذا وجد من يقرأ ـ وضعوا قليلاً من السمن في إناء وأغمسوا فيه خرقة كالفتيل وأشعلوها فتشع نوراً ضئيلاً قد يكفي للتلمس والعثور على شيء صغير .

كذلك هم لا يستعملون وقوداً للتدفئة ، فالنساء يدفئن أنفسهن نهاراً بالحركة ، وليلاً بنار الطعام الذي يطبخنه ، أما الرجال فلا يرون الدفء إلا عندما يعمد طابخ القهوة إلى قبضة من الشوك أو القش أو الحشيش اليابس فيلقيها فوق الضرم الذي قد يكون تحت المفورة من قبل . لكن هذه النار سريعة الهبوب والزوال لا تدفىء ولا تغني من برد ، وإذا كنت عندهم ضيفاً مكرماً يستمرون على تغذية الضرم بهذا العشب ويقولون لك (النار

فاكهة الشتاء ، ومن لم يصدق يصطلي)، ولكنـك لا تستفيـد سوى الـدخـان الـذي يعمي الأبصـار ، وقـد يحمى وجهـك ويحمر ويبقى ظهرك متجلـداً إذا لم تكن متــدثراً بمعطف سميك أو بفروة ثقيلة ، ووقود البدو لا يتعـدى الأغصـان والفروع اليـابسـة التي يلتقطهـا النسـاء وجـذور بعض الجنبـات والأنجم الصغيرة التي يقتلعنهـا بـالفـؤوس ويجلبنهـا على رؤوسهن بـاسم حطب ، وإذا طـال مكوث العشيرة في مكان مـا يوقـدون بعر الإبل ، وهو وقود جيد ومستمر وعديم الرائحة وقليل الدخان .

لباس رجال البدو

البساطة غالبة على لباس البدو وخـاصـة أهل الطبقـة الأولى كعنزة وشمر ، ولا فرق عندهم بين لبس الصيف والشتـاء ، إلا أن الغني منهم يلبس عبـاءة رقيقـة في الصيف اسمهـا (مزويـة أو حسويـة) ، وفي الشتـاء يزيـد عليهـا كسـاء مبطنـاً أو جلـداً من جلود الغنم المدبوغة يسمونه (فروة أو صديرية) ، ويتدارك البدوي لباسه مخيطـاً خـالصـاً من البـائع الشـامي أو الكبيسي (نسبـة إلى بلـدة الكبيسـة في العراق) ، وهـؤلاء البـاعـة يلتحقـون بالعشائر ويبيعونها أكثر حاجاتها المجلوبة من المـدن ، يتـألف لبـاس البـدو من قميص واسع وطويل ثم فوقـه قميص أطـول وأوسـع حتى القـدم اسمـه الثـوب وهـو ثـوب أبيض أو ثـوب مرودن ، ذو أكمام عريضـة طويلـة ، فضفـاضـة مشقوقـة تـدعى الردون جمـع ردن ، ولـون الثوب أبيض أو ترابي ، مدبوغ بقشر الرمان في مدن الشام أو عنـدهم ، ونسيجـه من القطن وكل حواشيه مكفوفة ، وكلمـا كانت الردون طويلـة دلت على عراقـة لابسهـا في البـداوة ، فردون العنزي أطول منها عند عربان الديرة ، وإذا وقف لابسهـا وألقى يـديـه إلى جنبيـه يكاد ردنـا ثوبـه يمسـان الأرض ، ولكنهما في الغـالب يعقـدان وراء الظهر ، والسروال هـو سروال فضفاض ممـا يلبسـه كل القرويين وبعض عربـان الـديرة ، أمـا البـدو الأقحـاح فلا يلبسون سراويل قط ، وربما عابوا لابسيها ، رجالهم ونساءهم في ذلك سواء ، ويزعمون أنها تحبس الهواء ، والبدوي لا يغسل ثيابه إلا كل شهرين أو ثلاثة مرة إذ ليس لـديـه غيرهـا ، وقد يكون ذلك من ندرة وجود المـاء عنـده في أغلب الأحيـان ، وقـد يلبس البـدوي فوق الثوب (الصـايـة أو الزبون) وهو عبـارة عن قنبـاز من القماش الرقيـق اللمـاع ، ويكـون مفتوحاً من الأمام ، ومشقوقاً من أسفل الجانبين ، وأكمامه أو ردونـه أقصر منهـا في الثوب ،

وله في كل جانب جيوب تدعى مخبأ ، ويلبس البدوي فوق الصاية زناراً ، وهو حزام من الصوف عرضه نحو عشرة سنتيمترات وطوله بقدر ما يلف الخصر مرتين أو ثلاث وهو أبيض أو أحمر ، وإذا كان مزدوجاً ويسمح بوضع النقود وحفظها فاسمه كمر . ويلبس أيضاً فوق الصاية (محازم أو جنادات) تمر من فوق الأكتاف ، وهي من الجلد ، وفيها بيوت لوضع خرطوش البنادق ، وهم لا يرفعون هذه الجنادات عنهم حتى ولا حين النوم ، ومن عادة البدو نساءً ورجالاً أن يناموا بثيابهم كلها .

أما غطاء الرأس فيدعى : قضاضة وتجمع على قضايض ، وهي قطعة مربعة من نسيج القطن الأبيض تطوى وتوضع على الرأس تحت العقال ، وقد يكون تحتها طاقية ، والقضاضة تقابل الكوفية المعروفة والمعمولة من الحرير ذات الشراريب الطويلة المستعملة لدى أعراب الديرة ، والقيطية كلمة تدل على غطاء الرأس وجمعها قياطي ، وهي تصنع من القطن السميك ذي اللون الأصفر أو الأسمر ويستعملها أعراب الديرة كثيراً والرحل ، ولاسيا الأسبعة منهم نادراً . وغطاء الرأس يختلف عند كل عشيرة بلونه ونقشه واسمه العقال ويدعوه : (المعصب والبريم) وهو ضفيرة ضخمة قليلاً أو كثيراً ، سوداء اللون في الغالب توضع على الرأس فوق القضاضة لتمسكها ، ويكون للعقال ذوائب من خلفه منتهية بهدبات ، وطريقة لبسه ووضعه على الرأس مستقيماً أو مائلاً إلى جنب تدل على معاني الرزانة والبغض ، أو الحب أو عدم الاكتراث . والعقال يكون عند عربان الديرة غليظاً ، بينما هو عند عنزة رفيعاً[1] . هذا ومعظم البدو يمشون حفاة وبعضهم ينتعل الحدوة ويتمنطقون بالحقو وهو سير من الجلد مضفور ، ويلبسون العباءة التي تنفعهم دثاراً ولباساً وفراشاً ، ولوضع الحطب وعلف الدواب ولغير ذلك . وفي الشتاء يلبسون الفروة وبعض

---

(١) في كتاب قبائل العرب في مصر لأحمد لطفي السيد ص ٣٥ : ويختلف زي العرب الأفريقية عن زي العرب الآسيوية . فالعرب الأفريقية يضعون على رؤوسهم طربوشاً أحمر لا يعتمون عليه وبرنساً تحته قميص ، وقد يلبس بعضهم صديرياً . ويكاد الحرام يسود عرب المغرب جميعاً ، وتصنع هذه الملابس في المغرب ويشتريها العرب من الاسكندرية . أما أثاثهم من خيام وبسط فيغزله نساء العرب وينسجنه . أما العرب الآسيوية فالسائد في لباس رأسهم الكوفية والعقال مما يصنع في بلاد الشام أو بلاد العرب ولهذا يمكن التفريق بين المشارقة والمغاربة لأول وهلة ، ويتلاقى كلاهما في أثاثها من بسط وخيام ويطلق على الجميع حين يسكنون الخيام عرب الخيش وحين يسكنون القرى عرب الحيط ، وهؤلاء الأخيرون كانوا في أول أمرهم بدواً ، ثم زحفوا على الأراضي الزراعية وسكنوها في خيامهم أولاً ، ثم ابتنوا المساكن كما يبنيها الفلاحون . اهـ .

الرؤساء والأغنياء يلبسون تحت الفروة (الدامر أو القطشية) ، وفي الشتاء وحين ركب الخيل أو حضور الحفلات . والدامر معطف قصير واسع من الجوخ الأزرق أو الأسود ليس له رقبة ، أكمامه واسعة ومتدلية ، وفي بطانته جيب لوضع كيس النقود أو ماماثله ، وأجمله ماصنع في مدينة حماة ، وقد يكون مطرزاً أو مزركشاً بخيوط ذهبية أو فضية ، والنساء يلبسن مايشبهه ويدعونه : دراعة جوخ .

لباس النساء

أما النساء فلهن عبي وفروات كالرجال ، ولكن لا يستعملنها إلا في فصل الشتاء . وهن يلبسن على أبدانهن جلباباً من القطن يدعونه ثوب أسمر ، يكون أسود اللون أو نيلياً حتاً ويكون طويل الذيل في الغالب مجروراً على الأرض حين المشي ، وهن لا يغسلنه إلا كل عدة أشهر مرة ، ولذلك يكثر القمل عند البدو ، وهم لا يأنفون منه ويعدونه من دلائل الصحة وجواذب الدم . وفتيات البدو يشددن منطقة غليظة من الصوف يدعونها شويحي يلففنها فوق الثوب الأسمر ، والنساء يشددن الكمر الأحمر اللون ، وتلبس الفتيات منهن دراعة جوخ زرقاء اللون أو سوداء قصيرة الكمين ، ويضعن على رؤوسهن المقرونة وهي تقابل كوفية الرجال ، وتكون أوسع منها ومن الحرير الأسود ، وأطرافها ملونة وذات أهداب سود يجعلنها بشكل عمامة ويدعونها (عصبة أو قمطة) ويلبسنها تحت الشمبر وهو ضرب من المناديل الملونة يضعنه في مؤخرة الرأس ، ليظهر من بين قطعتي القماش قسماً من خصال الشعر ، ويعقدون المقرونة وراء الرأس ، وهذا عند عنزة ، أما فتيات عربان الديرة فلا يلبسن الشمبر بل يضعن على رؤوسهن كوفية أو مقرونة بدون أن يدورونها بشكل عصبة ، والشمبر قريشة عصبة طويلة عريضة من القطن أو الحرير الرقيق يلبسنه على رؤوسهن بشكل قمطة فيتدلى ذات اليمين وذات الشمال على الصدر وعلى الظهر . وهن يتمنطقن بكمر مطاط يضعن فيه نقودهن .

وأكثر النساء يمشين حفاة ، أما في الشتاء فيلبسن حذاء كبيراً يدعى جزمة أو زربول من الجلد الأصفر أو الأحمر ، له من الأمام هدبات زرقاء ومتدلية ، وفي نعله مسامير ضخمة ، وهو لثقله يزحفن به زحفاً ، ويحدثن به قرقعة خاصة إذا سرن في شوارع المدن ،

ولكل امرأة مكحلة ومرآة ، وحين العمل في الأشغال التي توسخ يلبسن قب أصفر وهو كالثوب إلا أن أكمامه أقصر ولونه أخضر ، ثم يسود ويتلوث بسرعة ، ويدخن النساء بالغليون الذي يصنعه الرعاة من الطين .

حالة المرأة في البادية

النساء في البادية أكثر من الرجال عدداً وبالطبع هن ألين جانباً وأرق طبعاً ، ولسن مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة ، يطقن التعب وتحمل المشاق وتجشم المصاعب ، ويشاطرن رجالهن كل ضروب المتاعب فيقمن بكل إدارة بيوتهن ، ويعنهم حتى في غزواتهم ، ولهن بهم تعلق شديد ، وقد يؤثرنهم على الوالدين والإخوان بخلاف الرجال ، فأول مقام عندهم لأخوتهم ووالديهم ، وعلى ذلك يقولون إذا ذهب الولد والمرأة معاً فلهما عوض ، وأما الأخ فلا عوض له . والبدويات أشد تعلقاً بالبداوة من الرجال ، وعندهن من الأحكام السائرة أنه إذا طلبت إحدى بناتهم لرجل من الحضر أن تقول : صكاك باب ما أريدَنّه ، أي أنه : إذا نام أغلق باب بيته فهو إذاً جبان لا يليق بها . وعندهن الزي (المودة) على نمط واحد يكاد لا يتغير ، فالبنات العذارى في أكثر الأوقات يقصصن الغرة أو الطرة ويبرزن شعورهن ما فوق الجبين إلى قرب قمة الرأس ، وإذا تزوجن أرخينها وسترن شعورهن بالمنديل ، وهي علامة فارقة بين البكر والثيب ، ويستعملن بلا تكلف أموراً كثيرة لو خطرت ببال نساء المدن لصفقن لها الأيدي ، فالأردان المتسعة مستعملة في البادية ، وكذلك الأردان الضيقة ذلك ليجمعن بين الهيئتين ، فالنساء المثريات يلبسن الثوب الضيق الأردان ويرتدين فوقه بكساء متسع الأردان ضافي الحواشي ، أما الذيول الطويلة المنحصر استعمالها بين بنات المدن في ملابس العرس فلها استعمال شائع في البادية ، وجر الذيول في لسان الشعراء لا يخلو منه كلام منظوم ، وقد يلبسن العباءة والزبون ، ولبس العباءَة لا يزال مستعملاً عند نساء العراق المدنيات والقرويات والبدويات على السواء ، والبدويات ومثلهن نساءُ العراق أيضاً يلبسن من الحلي الضخم الثقيل كالخلاخل والحجول الكبيرة ، يصفنها ذهباً وفضة كل على ما وسعته حاله ، ويعلقن الخزامات المتسعة في أنوفهن ، وأكثرها مصنوع من الذهب مرصع بفصوص الفيروز الصغيرة ، ولهن أقراط طويلة عريضة ، ويضعن الذهب والفضة عقوداً وقلادات طويلة على ضروب شتى ،

ويكثرن في القلادات من النقود المضروبة القديمة ، كالغازي والمحمودي ، ينظمنها صفوفاً ، ويدلينها من العنق إلى الصدر .

والجمال في البدويات قليل في أكثر العشائر ، وموجود في بعضها وقد يكون زائداً عند الأقل ، وهو إذا وجد تراه طبيعياً جذاباً ، وقديماً افتتن به الشاعر الشهير المتنبي فقال :

ما أوجه الحضر المستحسنات به	كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية	وفي البداوة حسن غير مجلوب .. إلخ

وفي قول المتنبي هذا مبالغة ظاهرة . لأن نساء البدو ما خرجن عن كونهن من بنات حواء اللاتي يتوسلن لإظهار محاسنهن بالتزيين والتطرية . وهن وإن لم يبلغن شأو الحضريات بذلك تجد عندهن من أنواع التزيين : الحناء ، فهي شائعة الاستعمال يصبغن بها الأكف والأصابع والأظفار وأخمص الأقدام ، وقد يزججن حواجبهن ، ويكحلن عيونهن بالإثمد ، ولهن ولع خاص بالوشم ، يحلين بالصبغة الزرقاء جلود أيديهن ، بنقوش مختلفة من ظهر الكف إلى المعصم إلى الكوع ، ويجعلن نقوطاً صغيرة في منتصف الجبهة وطرف الأنف والذقن ، وربما وشمن الشفاه السفلى والوجنات والصدر والنهود والأقدام .

أما اخلاق البدويات فهي حسنة في الجملة ، وخير ما يزينهن عزة النفس ، وشدة التعلق بالأهل والأزواج ، وقيامهن مقامهم في أكثر الأعمال ، ولا يقوم الرجال بشيء من أعمالهن ، فاشتغال البدوي مقصور على الغارات والغزوات أو على الأعمال الخارجية ، والمرأة رفيقة له ومعينة في كثير منها ، وجميع ما بقي مفروض على المرأة بحيث لو انقطع الرجل مدة عن طلب الرزق لكانت هي ربة البيت مكلفة بكل ما تستلزمه إدارة المعيشة والتربية ، فاعتماده عليها تام أو يكاد يكون ، واعتمادها عليه ناقص ، ومع هذا كله تراه متبرماً وغير راضٍ في الغالب ، وقد يضربها أو يلكمها أو يشتمها لأتفه الأسباب ، ولا ينظر إليها في الغالب إلا أنها مطية الشهوة ومثابة المتعة والخدمة ، عليها له الطاعة العمياء .

والمرأة بنظر البدو محترمة مصونة من التعدي ، لا يجوز أن تمس بأذى بالغاً ما بلغت الخصومة بين العشائر ، وقد درجوا على اتخاذ النساءَ رسلاً بين الفريقين المتحاربين ، وكان

من حق المرأة أن تذهب إلى العشيرة المعادية لعشيرتها ، وتتعرف لجرحاهم وقتلاهم وتبلغهم ما أتت لأجله ، وما هي رغائب عشيرتها ، وترجع إلى ذويها بسلام بدون أن يتعرض لها أحد بسوء ، وبناءً على هذه الحرمة فإنه لا يكتفى بالانتقام للمرأة إذا ما قتلها القاتل بقتل أحد أو بأخذ دية واحدة ، بل إن المرأة المقتولة تودى بأربع إلى ثماني ديات ، بالنسبة إلى حالة الجريمة .

ولا شك في أن العفاف في البادية أكثر منه في الحواضر وأشد ، ويزداد في بعض العشائر ويقل بنسبة اتصالها بالحاضرة وبعدها ، والمرأة تسير وحدها في البراري مسافات طويلة ، ولا أحد يعارضها ، أو يتعدى عليها ، ومن فعل ذلك يناله العقاب الذي ذكرناه في بحث الزنا في فصل : القضاء عند البدو ، على أن حوادث الإجهاض كثيرة عند نساء البدو تؤتى بحركة خارجية عنيفة أو ببلع بعض الأعشاب التي أسرارها عند بعض العجائز ، وتنشأ إما لستر جريمة أو لمنع الولادة التي لا تنقطع كل ١٠ ـ ١٢ شهراً .

ونساء البدو مشغولات تعبات أبداً ، فبينما ترى الرجل طول النهار وجزءاً من الليل تحت خيمته يتقهوى (أي : يشرب القهوة) ، مضطجعاً يقص أقاصيصه ، أو ينعم ببطالته ، ترى نساءه وبناته يشتغلن أشغالاً كثيرة شاقة ، يجلبن الماء على ظهورهن إن كن فقيرات ، أو على ظهور الحمير إن كان رجالهن من ذوي اليسار ، وقد يكون ذلك من مسافات بعيدة أو يحتطبن الحطب ، ويجمعن العشب وينقلنه ، ويحملن المواشي ويرعينها أحياناً ، ويمخضن السمن أو الزبدة ، ويطحن الحبوب ، ويطبخن الطعام ، ويخبزن الخبز ، وإذا وجدن وقتاً يغزلن الشعر والصوف ، وينسجن شقق الخيام والغرائر والفرش ويخطن الثياب ، هذا فوق الحمل والوضع والإرضاع وهن يقمن بكل ذلك عن طيبة خاطر واعتياد ، لا يظهرن فيه أثراً للتبرم والضجر .

والرجال والنساء في البادية قليلو الاعتناء بأنفسهم ، ولا يضر بهم عدم الاعتناء ، حتى أن الحوامل لا يتخذن إلا القليل من الأسباب والمداراة ، وقد يجيئهن المخاض وهن سائرات فيضعن في الطريق وليس من يعولهن بشيء فيجرينه بأنفسهن كما تجريه القوابل ، ويلففن المولود ويسرن به ، لكن أولادهن تعيش كالسائمة في البرية بدون عناية ، ويهلك معظمهم قبل الخامسة من العمر ، ولهذا تكون أجسام من يفلتون منهم من الموت قوية

تبعاً لقاعدة بقاء الأنسب . والأولاد الذين يفلتون من الموت يربون في بيت أبيهم ، أو مع أمهم إذا كانت مطلقة ، ويبقون في أحضانها سبع سنوات إذا كانوا صبياناً ، وتسع سنوات إذا كن بناتاً ، ثم يأتون إلى بيت أبيهم ولا يخرجون منه إلا أن تتزوج البنت فتلحق بعلها أو يتزوج الصبي ويروح بانياً لنفسه بيتاً جديداً يترأسه هو في دوره .

والبدوية وإن لم يكن لها محل في مجالس زوجها ، ولا يباح لها البهو والربعة المخصصة للرجال ، ولا يجوز أبداً أن يسأل الغريب عنها وعن حالتها ، إلا أن ذلك لا يعني أن ليس لها أي محل من الاشتراك أو إبداء الرأي ، فيما إذا باع زوجها من حلاله أو تصرف في ماله مما لا يرضيها ، والبدوية شريفة لها منزلة رفيعة في قلوب الجميع ، وكثيراً ما تجزم السيدات منهن في أمور كثيرة مهمة ، مما يدل على أن لكلمتهن في البيت أو العشيرة شأناً خطيراً .

والبدويات سافرات بالطبع لا يستعملن البرقع ، يتجولن في الخيمات وفي البراري بكل حرية ، والسجوف التي توضع على هوادجهن ليست لحجابهن بل لرد الشمس والمطر عنهن ، والضرورة أو الحاجة في حياة البدو تدعو إلى الاتصال الدائم والاختلاط المستمر بين الجنسين سواء في حلهم أو ترحالهم ، وفي الأفراح والأعراس يختلط القوم ويشتركون جميعاً ، وهم في هذه الحالة بمنزلة عائلة واحدة ، وكذا في الأتراح والرزايا العامة ، كالغزو وهجوم الأعداء أو موت عزيز وقتله ، وفي الجيرة وسكنى الخيام التي لا سبيل لحجبها وتغطيتها ، كل هذه من دواعي الاختلاط وسبل التعارف والتحابب في الزواج مع العلم أنه محاط بسياج قوي من الصون والعفاف والخوف ، وإلا تعرض الرجل أو المرأة إذا شذا لأخطار قد تشترك فيها جميع أفراد العشيرة بالتناطح والتطاحن ، أما تربية الأولاد في بيوت البدو ففي نهاية القصور ، غير أنهم يعودون احترام الوالدين ، وإكرام الشيوخ والكهول ، ومن آدابهم أن لا يدخن الولد أمام أبيه ولا يأكل أو يتكلم أو يعترض ، إلا أن كثيراً منهم أصبح لا يراعي هذه القواعد الحسنة .

صحة البدو :

يداوي البدو مرضاهم بما تعلموه من أجدادهم بالوصفات ، وتثقفوه بطول الزمن في مداواة الجروح ، ويداوون أكثر الأمراض المستعصية بالكي وعندهم آخر الدواء الكي ، أو

بأدهان وحشائش لهم يعرفونها ، وأحذق أطبائهم : من عشيرة الصليب ، فعند هؤلاء وعند بعض العشائر أهل خبرة في الطب من النساء والرجال ، وجميع هؤلاء لا يعرفون من الطب إلا المعالجة بمخ عظام البعير وبالكي . فالمخ يستعمل بمنزلة دهان أو مروخ أو مرهم لأنواع الأمراض الخارجية ، أو الأدواء الباطنية ذات الأثر الخارجي ، كداء المفاصل والرثية والنقرس والحضار ونحوها ، وكل ما لا يعالج يداوى بالكي ، وطريقة الكي عندهم أن تؤخذ قطعة صغيرة من ثوب أزرق صبغ بالنيل ـ لا من غيره ـ ثم تلف هذه القطعة على نفسها لفات متعددة حتى تغدو كالأنبوبة دقيقة الرأس ، ثم يشعل هذا الرأس ويكوى المريض بالخرقة في أنحاء شتى من جسمه معلومة عندهم ، بموجب نوعية المرض وموطنه ، فالداء الفلاني مثلاً يكوى المريض في كتفه وذراعه وظهره ، وللداء الآخر من ساقه وظاهر قدمه ومقدم صدره إلى غير ذلك بموجب قواعد يعرفها الكاوي ، وربما كان هذا الكي في فسحة معلومة من الجسم فيقوم مقام حراقة أو لزقة أو لبخة ، أو نحو ذلك من مصطلحات الطب الحديث ، فيحدث هذا الحرق حويصلات ممتلئة ماءً ، فإذا نضحت وسال ما بها شفي المريض ، وقد تبدل الخرقة النيلية بحديدة حارة ، فيتصرف بها الكاوي تصرفه بالخرقة الزرقاء ، وقد تبدل الحديدة بالصوفان أيضاً ، ومن نظر إلى شكل الحديدة أو الخرقة أو الصوفان علم بأن آثار الكي تكون مختلفة الشكل والهيئة والقدر ، فمنها مستديرة أو مستطيلة أو مستعرضة أو غير ذلك .

على أن أمراض البدو قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم وجشوبة طعامهم ، وذلك لمكان الهواء النقي والشمس المطهرة في أجسامهم ، ولندرة ما يطعمون من الأطعمة المركبة من حامض وحلو وحار وبارد ، ولمحافظتهم على العفاف وعنايتهم بالزواج الباكر ، ولقلة الهموم التي تساورهم ، وما تساور في العادة إلا سكان المدن والقرى ، ممن يفقهون واجبات الحياة ، ويكدحون في طلب المعاش ، ولا يزالون مأخوذين بحب التقليد . والبدو أسنانهم وأضراسهم سليمة براقة ، للطف أخلاطهم وتخليطهم ، ولو راعوا النظافة وسائر شروط الصحة ، وخلصوا من القمل الذي لا يفارقهم لعاشوا بلا مرض وعمروا أكثر . ومن الغريب أن البدوي يشيخ ويهرم سريعاً ، فيتغضن جلده ويتشنج قبل أوانه في الهواء الطلق ، ولا يناهز الأربعين سنة إلا وقد خطه الشيب ، وإذا بلغ الخمسين هرم هرماً بيناً ، ولا يبلغ أحدهم الستين إلا نادراً . ولقناعتهم ورضائهم باليسير من الطعام ، وقلة أمراضهم ، وغلبة

الصحة والجلد عليهم ، يكون فكرهم دائماً رائقاً ، وحافظتهم واسعة ، وخواطرهم متنبهة ، وقد تعلموا منذ نعومة أظفارهم اتخاذ الأرض فراشاً ، واحتمال حرارة الشمس المتوقدة ، والنوم غراراً ، والصبر على الجوع والظمأ ولو في حماوة القيظ ، وهم لا يتعاطون المسكرات ، وأغلب شربهم الشنين واللبن الحقين الذي يهز معاطف الإنسان بدون أن يسكره ، وهم في الغالب لا يأكلون إلا مرة واحدة في النهار ، هي الوجبة وقدرها شيء زهيد ، بالنظر إلى ما يأكله أهل الحضر من كثرة الألوان وغيرها ، ومن المؤسف أن يكون المرض الأفرنجي (الزهري) منتشراً جداً بين عشائر الفرات المعروفين بالشوايا ، وتكاد تكون نسبته ٨٠ بالمئة فيما ذكر ويسمونه (البجل) ، إلا أنه على توالي الأجيال قد قلت فاعليته في أجسام المبتلين منهم به ، وخف ظهور أعراضه الخارجية في أبدانهم عما قبل ، ويذكر المقدم مولر أن البدو إذا كانوا عطلاً عن كل صناعة وحركة ، فهم يجهلون الرياضة البدنية (الاسبور) فيخسرون رشاقة الشباب بأقرب وقت ويكونون عديمي الحذاقة بطيئي الحركة ، وعامة البدو يكونون هزلى ، نحاف الأبدان ، وخاصتهم سمان من قلة الحركة والرياضة التي يعدونها محطة بكبريائهم . ثم إن البدو على خلاف ما يشاع عنهم ضعيفو البصر ، ولعل ذلك من وهج الشمس ، أو ذرات الرمل أكثر من أنه مرض . ومن ثم إذا وجد بينهم من هو حديد البصر ، نال شهرة ومكانة ، لا سيما في الغزوات ، ولأجل هذا أيضاًيقتني رؤساؤهم النظارات الحربية ويعدونها من أثمن ما يهدى إليهم . وفي البدو جراحون يعالجون الجراح التي يصابون بها في غزواتهم ، فهم يخيطونها ويغسلونها كل يوم بمستحلب بعر الحمير مدة أربعة أيام ، ويغلون البصل بالماء ويصفونه ، ويغسلون به الجراح ، ويسقون القليل منه لمنع نقض الجرح ، ودفع أذى الرائحة ، ثم يغلون المر بالسمن ، ويجعلونه دهاناً ، فيدهنون الجرح أربعين يوماً حتى يبرأ .

ومما يخشاه البدو في بعض السنين الأوبئة الخبيثة التي تنتشر في البادية أحياناً بسرعة غريبة ، ومن أمراضهم الطاعون والهواء الأصفر والجدري فتهلع لها قلوبهم رعدة وجزعاً ، ويفرون من مضاربهم تاركين مرضاهم في سكرات الموت ، يتقلبون على فراش المنون ، بعد أن يضعوا لهم ماء وزاداً ، وقد يعهدون بالمريض إذا كان عزيزاً إلى إحدى العجائز لتعنى بأمره ريثما يشفى أو يموت . وبينما نراهم أسوداً في الحروب قساة القلوب على احتمال نكبات الدهر ، إذ نجدهم في الأمراض العامة أجبن الخلق وأسرعهم إلى الهرب ، ولشدة ما هم عليه

من الخوف يلجؤون إلى الذبائح كي يستنهضوا عزائم الأرواح لمساعدتهم ، وتلك الذبائح ذبائح الفدو أو الفداء لأنهم بها يفدون أنفسهم من الموت الزؤام .

الزواج :

يتزوج البدوي بين سن ١٥ و ٢٥ ؛ وقلما يتأخر إلى ٣٠ سنة ، بل ربما سبق الزواج هذا الأجل ، والبدوي ينتخب خطيبته خلال الصدف التي تبعثها حياة الحل والترحال ، واختلاط الجنسين ، وتعارفهما منذ الصغر ، والبنات البدويات يتزوجن في سن مبكر جداً ، وقبل الحضريات بكثير ، لأن عيش البداوة وإقليم البادية ينميانهن بسرعة ، وينضج استعدادهن في وقت وجيز ، وحتى أنهما يعجلان بشيخوخة المرأة وهرمها ، وعلى كل حال لا تستشار الفتاة البدوية في زواجها ، ولا تُسأل حين خطبتها . لأن الرأي لوليها يعطيها لمن يشاء ويبيعها بيع السلع لمن أراد أو لمن يدفع له أكثر .

والزواج يتم بعقد ينطبق على القاعدة الشرعية بإيجاب وقبول ، وعلى الصورة الآتية : وهي : حينما يرغب أحد الناس الزواج من ابنة الآخر يرسل إليها أشخاصاً يستمزجون والديها وأوليائها ، فإذا قبلت طلبته مبدئياً يستصحب جماعة من ذوي الوجاهة ، ويذهب بهم إلى منزل والد البنت أو وليها ، ومعهم ما يلزم للطعام من ذبيحة وبرغل وطحين وسمن وقهوة . وهناك عقب الوصول والنزول يفتح متقدم الجماعة البحث مخاطباً والد البنت أو وليها هكذا (حيناك طالبين ، ومن عندك إن شاء الله ما نعود خايبين) فيجيبه والد البنت (حياكم الله ، القمراء أمامكم ، والظلمة قفاكم) وعندها يعلنون الموضوع الذي جاؤوا من أجله ، وهو على الأغلب يجيبهم إلى طلبهم ، وأنه وهبها الخاطب فيجيبه أولياء الخطيب ، إننا نقابل عملك هذا بمكافأة كذا من المال أو الحلال (الماشية) ، ويطول الحديث على المهر وهو ثمن الابنة . والمهور عند البدو غالية جداً يا للأسف ، فالعروس تشترى بأثمان باهظة ، وربما بلغ ثمنها لدى الأغنياء منهم ٦٠ ـ ١٠٠ ليرة ذهبية ، ونحو نصف ذلك عند الفقراء ، وقد يدفعون ما يعادل هذه النقود من الغنم أو الإبل أو الخيل أو الحبوب أو البنادق ، وقد يحتدم الجدال على المهر ، فكأن ولي الخطيب يشتري بهيمة وذاك يبيعها ، هذا يطلب كثيراً وذاك يدفع قليلاً ، فإذا تم الاتفاق يكلفون

أحد الحضور بتلاوة الفاتحة ثم يضع ولي الخطيب يده بيد ولي البنت ، ويقول أحدهم للآخر أزوجت ابنتك فلانة إلى فلان على سنة الله ورسوله فيجيبه الثاني زوجتها فيبارك لهم الحاضرون ، ويقوم أقارب الخطيب ويذبحوا رأس الغنم الذي أحضروه فيقال حينئذ « فلان ذبح على فلانة » أي خطبها من والدها ، وعند الشرارات والروالة ينضحون رأس المرأة ويدها بالدم . ثم يهيئون الطعام والقهوة ، ويقدمونها إلى الحضور ، وبعد أن يأكل الجميع ويشربون ، يربط الخطيب ليرة ذهبية في طرف كوفية حريرية ويقدمها لخطيبته دلالة على أن روابط المحبة استوثقت عراها ، فلا يفكها إلا الموت ، ثم ينصرف كل إلى بيته ويستعد الخطيبان للزواج .

ويذكر عن الشرارات وأمثالهم المتوغلين في البوادي إذا أرادوا أن يقترنوا بالزواج لا يذبحون ذبيحة بل يضع الخطيب في قبضته اليمين حنطة وتطبق المخطوبة يدها فوقها ، (فيقول الشاب : أتقبليني لك رجلاً على سنة الله ورسوله فتقول : قبلتك ، ثم تعد هي السؤال نفسه : أتقبلني لك امرأة على سنة الله ورسوله ، فيجيب : قبلتك فيقول : بحق البر وخالق البر لا توق ولا نوق ، هي سنة الله ورسوله ، ورباط العيش ورب العيش ، أنا لك زوج وأنت لي حليلة) . والبدو يعتبرون الذبيحة ضرورية في عقد الزواج ، لأنها تصد الأب عن طلب الزيادة في المهر .

هذا والمهر الذي يتفق عليه يأخذه أبو البنت ، وهي لا يصيبها شيء ، وفي حالة زواج الفتاة خارج العشيرة تأخذ هي نصف المهر ، ولا يتم عقد الزواج مالم يدفع نصف المهر مقدماً ، والعروس تأتي معها بجهاز يختلف حسب ثروتها ، ومبلغ المهر عند عنزة يختلف كثيراً من بعير إلى عشرة أباعر مع عدد من الغنم ، فهو لا يكون عندهم نقداً ، أما عند أعراب الديرة فهو بالنقد كما قدمنا ، وذكرنا مقداره الباهظ أحياناً ، وقد يكون بالغنم والإبل معاً ، ويلحظ أن المهر عند عنزة لا يعين إلا فيما ندر ، لأن تعيينه عندهم يعد معيباً . ويهدي العريس أم العروس هدية تختلف من بعير إلى عدة أباعر . ولا يدفع أي مهر إذا تبادل رجلان أختيهما ، وإذا كان للعروس ابن عم فله حق الرجحان ، أما إذا كانت هي تفضل غيره عليه فلابن العم حق بطلب المهر لنفسه ، ويعد هذا ثأراً لحرمانه .

الطلاق

أغلب ما يكون للبدوي امرأة واحدة ، ولا يتزوج عليها إلا إذا كانت عاقراً ولا يريد أن يطلقها ، فتعدد الزوجات عند البدو أكثر ما يقع عند كبار الشيوخ ، فلهؤلاء في أغلب الأحيان ثلاث نساء أو أربع ، وذكر عن بعضهم أنه كان لديه ١٠ ـ ٣٥ زوجة . وهم يفعلون ذلك لأسباب منها سياسية ليتصلوا ببيت شهير مثلاً ، ومنها كثرة ما يحتاجونه من أماكن النزول والحل والترحال إلى هنا وهناك ومن ثم تجد لهم عدة زوجات لدى فرق مختلفة أو عشائر متباينة كلما زاروها نزلوا عند زوجتهم الباقية قرب أهلها .

ويقول بركهارت في كتابه (رحلة في بلاد العرب) « أن أكثر الأعراب يكتفون بزوجة واحدة بيد أنهم مغرمون جداً بتكرار الزواج تخفيفاً لوطأة الزواج الموحد ، وتغييراً للفراش في زعمهم وهم ينتهزون القاعدة الإسلامية التي تجيز لهم الطلاق ، ويسيؤون استعمالها كثيراً ، فهم يبدلون زوجاتهم على التوالي . فإذا غضب الزوج منهم على زوجته ولو لسبب تافه ، وأراد أن يطلقها ، يكفي أن يقول لها (أنت طالق) فيعطيها حينئذ ناقة ويبعثها إلى بيت أهلها ، وهو لا يجبر على ذكر السبب الذي دفعه لعمله هذا ، كما أنه هو في التالي لا يعزي أي فضيحة للمرأة أو لأهلها . وكل الناس يعذرون الزوج بقولهم لم يحبها ، وقد يتزوج هذا الرجل امرأة أخرى في اليوم ذاته . وحوادث الطلاق عند عنزة كثيرة جداً حتى في إبان الحمل . والمرأة يمكن أن تتزوج وتطلق ثلاث أو أربع مرات دون أن تمسها أدنى ريبة أو قولة . وقد صادفت من الأعراب في سن الخامسة والأربعين من تزوج أو طلق خمسين امرأة ؛ وكل امرىء منهم في مقدوره أن يستغني عن ثمن بعير إلا ويطلق ، ويبدل من النساء بالقدر الذي يشتهيه ، وتسمح الشريعة للمرأة أيضاً إذا لم تجد نفسها سعيدة في بيت بعلها بأن تطلب طلاقها وتلجأ إلى بيت أبيها وأهلها ، ويمكن للزوج حينئذ أن يعيدها إلى بيته إذا وعدها وأرضاها بإعطاء ثياب أو حلق أو سجاد ذي قيمة . أما إذا رفضت لا يحق له أن يقسرها لأن القسر في نظر أهلها يعد تجاوزاً وإهانة . وفي هذه الحالة جل ما يستطيع الزوج أن يعمله هو أن لا يلفظ كلمة الطلاق فتبقى متمنعة عن الزواج بغيره . ويجربون وقتئذ إقناع الزوج للطلاق بأن يهدوه إبلاً ، ولكنه إذا ظل معانداً يحكم على المرأة أن تعيش وحدها ويسمون المرأة التي على هذه الحالة طموحاً ، ومثل

هؤلاء النساء كثير لدى البدو . لكن لا يمكن قط أن يوجد عندهم بنات أبكار عوانس ، وإذا مات رجل وترملت امرأته يتقدم غالباً أخوه لزواجها . لكن العادة لا تجبر هذا الأخ ولا المرأة على الزواج ، والأخ لا يمكنه أن يمنع أرملة أخيه من الزواج برجل غيره ، على أنه من النادر أن ترفض الزواج به ، لأن ذلك يحفظ ثروة العائلة من الضياع ، وللجار حق الرجحان في زواج جارته ، وإن كان غير مجبور على الزواج بها . لكنها هي لا تستطيع أن تتزوج غيره إلا برضائه ، إن سهولة الطلاق التي ذكرناها قد أدت إلى انحلال روابط الأسرة . وإن تبديل الزوجات كراراً قد أدى إلى أن تهتك في العشيرة أسرار الآباء والأولاد ، وأن ينتشر الحسد والبغضاء بينهم ، ولا حاجة بعد إلى سرد النتائج التي تحدث في الأخلاق من جراء ذلك ، ومع هذا كله ، فإن البدو يبدون احتراماً زائداً نحو والديهم كما أن لهم عطفاً خاصاً نحو أمهاتهم ، وإذا حدث شجار عائلي ، كثيراً ما يقفون بجانبهن ضد آبائهم ؛ وكثيراً ما يطرد الآباء أبناءهم من جراء هذا الوقوف . » ا هـ .

وفي كتاب عشائر العراق لعباس العزاوي « أن البدو يعنون كثيراً باختيار الزوجة ، ومراعاة أصلها وعراقة نسبها ، وعندهم من الأمثال : (العرق دساس و ثلثا الولد لخاله و بنت الذلول ذلول) وعندهم الأمثال التي تحض على الزواج ، والإكثار من تكراره ، ليكون للمرء أولاد يكيد بهم أعداءه ويقهر أخصامه فيقولون : (خذ من النسا وكيد العدا) ، وهم يلتزمون الأصل الصريح ولا يراعون الحسن والحب بقدره . ويقولون : مضرباً ، لمن أخواله ليس من أعمامه أو من أصل رديء ، وهو المعروف بالهجين » ا هـ .

الخطف

إن خطف النساء والبنات كثير الوقوع بين البدو ، ومن لا يزال على سنتهم من الحضر في بلاد حوران وشرقي الأردن ، ولا يمر شهر إلا ويسمع خبر كهذا بينهم ، ويقولون (فلانة خطفت فلان) ولا يقولون فلان خطف فلانة ، لأن أكثر الخطف يكون برضاء الطرفين ، وكثيراً ما يخطفون ذات الزوج ، وقد يقع الخطف جبراً .

الخطف الجبري

هو أن يترصد الخاطف المرأة أو الابنة التي يعشقها ويرغب الزواج بها دون رضاها ،

وعندما تسنح له الفرصة يسحبها جبراً ، أو بالتهديد وإشهار السلاح ويفتئت على عرضها ، ويهرب بها إلى أبعد العشائر ، ويعيش معها ريثما يتمكن من مصالحة ذويها ، وبهذا النوع من الخطف ، لأولياء المخطوفة أن يستعملوا ما لهم من حقوق الانتقام كما يجري في أمر الزنا الجبري ، وأما الزوج فليس له حق الانتقام بل له أن يستوفي مبلغاً من المال يعادل مهر زوجته ، وذلك عند وقوع الصلح .

الخطف بالرضا

وهذا يكون نتيجة التعارف بين الرجل والمرأة ، وتبادل الحب بينهما وتقرير كيفية الزواج إذا رفض أولياء المرأة السماح لهم بالزواج من بعضهما ، فعندئذ يقرر العاشقان الخطة التي يجب السير عليها ، ويضربان موعداً للملاقاة ، حيث يكون برفقتهما شخصان من الأصدقاء ، فيذهبون معاً إلى أقرب العشائر ، وينزلون عند شيخها ، ويعرضون عليه أمرهم ، فيقوم الشيخ أولاً باستجواب المخطوفة ، وعندما يتأكد رضائها بالزواج من خاطفها ، ويتحقق من الصديقين أن لا زوج لها ، يستدعي بالحال إمام العشيرة ، ويكلفه لعقد نكاحها ، وإذا لم يكن للعشيرة إماماً يجري العقد بذبح رأس غنم يذبحه الخاطف قائلاً (اللهم حلل لي هذه الأنثى ، كما حللت لنا هذه الشاة) وبعد ذلك يخلي لهما الشيخ خيمة من مضارب العشيرة ويزفهما فيها كعروسين ، وبعد ذلك يقوم الشيخ بجميع الوسائل لعقد الصلح بين الخاطف وأولياء العروس ، حتى ولو اقتضى الحال إلى أن يدفع بدل الصلح من جيبه الخاص ، باعتبار أن عمله هذا من نوع البر والإحسان الممتاز ، نعم إن أولياء المخطوفة وعشيرتها يثورون فور علمهم بخطف ابنتهم ، ويطاردون أقارب الخاطف ، ويعتدون على أموالهم وأملاكهم في غضون الثلاثة أيام وثلث اليوم إن لم يحل بعض العشائر الحيادية دون أعمالهم ، إلا أنهم عندما يتحققون أن الخطف وقع برضاء ابنتهم ، يسكن غليانهم ، ويتداخل العقلاء بالصلح بين الطرفين ، ويكون بدل الصلح غالباً مقداراً من المال أكثر من المهر المعتاد ، فإذا كانت المخطوفة طموحاً (أي ناشزة) يعطى منه إلى زوجها مقدار المهر الذي دفعه ، وما زاد عن ذلك يكون من حق أوليائها ، وإذا تعنت أولياء المخطوفة عن المصالحة ، فللشيخ الذي التجأ إليه الخاطف أن يستدعيهم إلى القضاء ، وله أن يستعمل

جميع الوسائل لإرغامهم على المقاضاة ، وغالباً يكون حق القضاء عبارة عن إلزام الخاطف لدفع مبلغ يزيد عن المهر المعتاد بعض الزيادة .

إن هذه العادة المنكرة إن كانت مغفورة وخفيفة الوقع في صدد البنات المخطوبات اللواتي يخطفن برضائهن ، ولأجل أن يتزوجن وينسترن بحكم غلو آبائهن بالمهور ، أو لتمنع هؤلاء الآباء عن الإعطاء تمنعاً لا مبرر له ، فإنها أي هذه العادة منكرة مرذولة إذا جرت في النساء المتزوجات ، مما هو واقع بكثرة يالللأسف في بلاد حوران الباقية على جاهليتها الجهلاء وقد نشر الشيخ محمد صالح الحلبي إمام بلدة درعا الجديدة ـ أجزل الله ثوابه ـ رسالة خاصة في هذا الموضوع دعاها (صرخة الإيمان لأهل حوران) طبعها في سنة ١٣٥٥ هـ فما قاله فيها « إن هذه العادة تعدت من البنات إلى النساء المحصنات ذات الأزواج والأولاد ، فكم من امرأة خطفت ؛ أو خطفت وهي في حجر أبيها ؛ أو دار زوجها وبين أولادها ، وكم من امرأة تواطأت مع رجل على ارتكاب هذا العيب الفاضح ، كأنها لم تك بغياً ولم تأت شيئاً فرياً ، فهذه مصيبة أخلاقية وويلات عائلية ، لم تألفها الجاهلية ولم تجر عليها الأمم الوحشية . وهي عادة لا تتلاءم وكرامة العرب ، ولا تتوافق مع شرف الإسلام ، كم سببت للأبدان جروحاً وعن الأوطان نزوحاً ، وكم حمل المخطوفات (أو الخاطفات) أولاد (أبناء زنا) بطريقة السفاح الممقوت الذي يرذله الإسلام وينهى عنه رب الأنام ، وكم سبب خطف النساء من شهادة زور وكذب وفجور وإماتة حق وإحياء باطل ، فبينما المرأة ترتكب هذه الرذيلة ، يتخذ وليها أو زوجها عملها هذا ذريعة لاقتناص المال من الخاطف بصورة بعيدة عن الرحمة والمروءة ، وبهذه الطريقة الوسخة يتمثل الطمع بأفظع مظاهره ، فإن دفع الرجل (خاطفاً كان أو مخطوفاً) ما يفرضه عليه ذوو المرأة تحسن الحال وزال الإشكال ، فعادت المخطوفة (أو الخاطفة) إلى حجر أبيها أو دار زوجها كأنها لم تأت خطية ، وعندها يغض الطرف عن تلك المدة التي قضتها بالزنا مع ذلك الرجل ، وإلا لعبت الخناجر في المناحر ، وتقرحت من البكاء المحاجر ، وأسرجت الخيل ، وعظم الويل ، وانزعج الأنام ، وسلبت راحة الحكام ، كل ذلك لا انتصاراً للشرف ولا دفاعاً عن العرض ولكن طمعاً في المال الذي أصبح معبود الجميع » .

وقال عن أسباب هذه العادة المرذولة أنها : ١ ـ عدم مراعاة أحكام الإسلام في

التزويج مثل التكافؤ بين الزوجين ، والتساوي في السن والتجانس في الأسرة ، والتقارب في السوية النفسية والأخلاقية .

٢ ـ إكراه ولي المرأة على التزوج بمن يريد هو لا بمن تريد هي ، وذلك طمعاً بالمال .

٣ ـ إكراه ولي الفتاة ذات العمر ١٨ عاماً على الزواج بكبير السن ذي العمر ستين فأكثر ، وذلك طمعاً بالمال أيضاً .

٤ ـ جعل المرأة سلعة في المزايدة العلنية ، فأي خاطب يزيد في مهرها لوليها فهي له سواء يريده قلبها ، أو لا .

٥ ـ إفساح المجال للمرأة بأن تتصل بالرجال في أي واد ومكان ، فتجد الرجل قابعاً في داره خوراً منه وكسلاً ، وتجد المرأة مجبورة على القيام بالأعمال البيتية والأعمال الخارجية العائدة على الرجل بجميع فروعها .

٦ ـ غلاء المهور ، فلو اعتدل أهل البنت بمهرها وتساهلوا به لما حصل شيء من هذه القبائح .

٧ ـ إيواء بعض من الشيوخ والمتنفذين للمتخاطفين ، وحمايتهم إياهما ، طمعاً بنوال المال من الفريقين ، لكي ينصبوا أنفسهم بصفة حكام لحل ما ينجم عن هذا الخطف من المشاكل بين عشيرتي الخاطف والمخطوف ، توصلاً لمنفعتهم المادية ، وربما وسعوا شقة الخلاف من وراء ستار ، توصلاً لهذه الغاية الخسيسة ، والأغرب أن يزعم هؤلاء الشيوخ والمتزعمين أن عملهم هذا مكرمة ، لأن فيه حماية الدخلاء واللاجئين . وقد فاتهم أن حماية المتخاطفين طعنة في كبد الشرف ، وإيواء للرذيلة ، وحماية للفحش ، وتنشيط للزنا » .

العرس

بعد أن تتم استعدادات العرس يعلنون في أول الأسبوع أي يوم الأحد مباشرة الأفراح ، فيجتمع في كل مساء الرجال والنساء يغنون ويدبكون معاً حتى يوم الثلاثاء ، تؤلف قافلة من رجال ونساء راكبين على خيولهم والبعض مشاة ، والنساء على هوادجهن من الإبل . فيذهب هذا الموكب إلى منزل أهل العروس ، وهم يمرحون على ظهور الخيل والنساء تغنين ، ويطلقون الرصاص بالفضاء ، وقبل أن ينزلوا في بيت والد العروس

يقابلهم أول من يصادفهم ، ويدعوهم إلى ضيافته ، وبعد إكرامهم وإطعامهم يذهب النساء بنشيد إلى بيت أهل العروس ويدخلن إليه فيستقبلهن أهل البيت بالترحيب ، ومن ثم يأتون بالعروس التي تكون اختفت من الوجه خجلاً ، يحملنها ويلبسنها أثواب العرس ويعطرنها ، كما هو المعتاد ، وهن يغنين وينشدن ، ويذبح أحد أقارب العريس لهن ذبيحة خاصة ، ويعد لهن الطعام ويكرم كل من كان موجوداً هناك من النساء ، وفي مساء ذلك اليوم يأتي النساء من محارم العروس أعني والدتها وشقيقتها وخالاتها وعماتها ومن يدلي إليها بقرابة ويحممنها ، ويزينها بأجمل ماأمكن من أنواع الزينة ، ويسمين ذلك (تنيق الحبايب) ، وفي الصباح يأخذن العروس ومعها أمها وإحدى خالاتها ويذهبن بها بالنشيد والأغاني ، وبين رمح الخيول وإطلاق الرصاص ، إلى بيت العريس ويسمون هذه القافلة (قطار العرس) ويدخلونها رأساً إلى بيت العريس الذي يكون دعاه أحد الأصدقاء من الشبان ودعا معه أقرانه ولدانه للاستحمام والطعام وزينهم وأكرمهم ، وهناك يزفونه إلى العروس في خيمة أحدثت خصيصاً في مكان منفرد متوسط يسمونه برزة ، ومن المعتاد أن يقدم العريس في الليلة الأولى هدية للعروس أو شيئاً من النقود تسمى نقوطاً ، وصباح اليوم الثاني يتوارد الأصدقاء لتهنئة العريسين ، وتقديم الهدايا ، وأهل العريس يهتمون بذبح الذبائح وإعداد الطعام ودعوة الأصدقاء والخلان ، وبعد أسبوع تذهب العروس لزيارة أهلها ، وتأخذ معها من عند عريسها شيئاً تقدمه إلى الأهل ، وبعد أن تصرف المدة التي ترغبها تعود مزودة بالهدايا .

وهذه الأعراس أكثر ما يعنى بها ويتغالى ، هم أهل القسم الثاني « أعراب الديرة والشوايا » وبعض الرؤساء الأغنياء من أهل القسم الأول ، وعلى كل حال لا تجري هذه الأعراس إلا لدى من يتزوج للمرة الأولى ، أما في المرة الثانية وما بعدها ، وفي زواج الأرامل والمطلقات ، فلا يجرون شيئاً في ذلك ، وعند أعراب القسم الأول أي البدو تكون الأعراس بسيطة جداً ، فهم يكتفون يوم الزواج بغداء يطعمون فيه الأصدقاء والأنسباء وكفى ، وربما غنوا ورقصوا وأظهروا فرحاً وابتهاجاً ، وحينئذ يدخل العريس إلى المحرم وهو المكان المخصص للنساء ، ويكون قد هيء وأخلي لأجله ، وبينما تكون الضوضاء وطلقات الرصاص صاعدة من بنادق بعض الأصدقاء ، بقصد إظهار الفرح ، أو إحداث جلبة خاصة ، يفترع العريس عروسه وينتهي .



قضاء الوقت واللهو عند البدو

أصاب المتنبي في وصف عيشة البدو وكيفية قضائهم الوقت بالأبيات الآتية ، فقد قال عن لسانهم :

إن أعشبت روضة رعيناها	أو ذكرت حلة غزوناها
أو عرضت عانة مقزعة	صدنا بأخرى الجياد أولاها
أو عبرت هجمة بنا تركت	تكوس بين الشروب عقراها
والخيل مطرودة وطاردة	تجر طول القنا وقطراها
يعجبها قتل الكماة ولا	ينظرها الدهر بعد قتلاها

هذا ما كان عليه البدو قبلاً ، أيام السيف والسنان والخيل والعنان ، رعي رياض ، وغزو وركوب جياد ، وصيد وقنص ، وطراد وجلاد ، أما اليوم ، وبعد انقطاع سبل الغزو ، وتطور ظروف العيش ، أصبح البدوي لا يكاد يعمل عملاً مذكوراً إلا إذا رعى الإبل أو الغنم أو جلب الغلال وفرش البيت ، وفي الغالب يرى ماشيته ترعى أمامه ، أو على مقربة منه ، يراقبها الرعاة ويدارونها من دونه ، وكل أعمال البيت تقوم بها النساء ، أما الرجل فلا شغل يدوي يلهيه ، ولا صناعة أو حركة تسليه ، ولا كتاب أو صحيفة يقرؤها ، فما له إذاً سوى الاضطجاع والاستمتاع بمنظر البراري الشاسعة ، وأشعة الشمس الساطعة ، وهو يترقب مجيء الضيوف إلى بيت الشيخ ، فيسعى لحضور مجالسهم ، ويصغي إلى ما يأتون به من الأخبار والحوادث الطريفة .

وأحاديث البدو لا تخرج عن موضوعات الغنم والإبل والماء والجو والأمطار وبعض الأمور المتعلقة بحياتهم اليومية ، أو العائدة إلى العشيرة الفلانية أو الشخص الفلاني ، يتخللها نقد حيناً وتقريظ حيناً آخر ، ثم موضوعات لحل المشاكل الحادثة بين أفراد العشيرة لخطف امرأة ، أو اعتداء شخص على شخص آخر ، أو فرار فتاة ، إلى ما يماثل ذلك ، تتخللها مناقشة حادة تارةً وهادئة أخرى .

والبـدوي المعرف بـأنـه أذكى وأنبـه من الفلاحين أهل القرى يعرف من الأخبـار التي تهمه من أنباء العالم ما ينبغي الإحاطة به ويتناقلـه بسرعـة البرق ، حتى أن مـا يحـدث في الحجاز أو العراق كان يصل خبره إلى ابن بادية الشام ومـا وراءه من الأعراب قبل أن تصل القوافل أو البريـد ، فينقل الخبر في الأفواه من فم إلى فم ويسمون الأخبـار (العلوم) ، وأول ما يسأل البدوي في البادية أو المعمورة عن العلوم ، وإذا لم يكن عند البدوي ما يتسلى بـه من القصص والأخبار التي تكون في العادة نمطاً واحداً يأخـذ شـاعر العشيرة ربـابـة يضرب عليها ، ويفكههم من محفوظه أو نظمه ، بأشعـار يـدور أكثرهـا حول المـآثر والمفـاخر التي جرت لمشاهير الفرسان والغزاة ، والانتصارات التي أحرزوها في ميادين البطولة والبسالـة ، أو الكرم والأريحية ، كما يدور بعضها حول وقائع الحب والهيام ، ينشدهم كل ذلـك بلهجتهم البدوية ، وأنغامهم الفطريـة ، بـأسلوب لطيف شجي يـأخـذ بمجـامع قلوبهم ، وتترنح لـه أعطافهم حماساً وطرباً ، وما عدا هذا النشيد أو القصيد الذي يسمعونه ، فإن لـديهم ألعـابـاً كثيرة يتسلون بها ، كما أنهم يتسلون أحيانـاً بسبـاق الخيل يطلقونهـا فيروا الفـائز منهـا ، أو بالعراضة وهي أن تجتمع الخيل مستعرضة تلعب أمام نساء العشيرة ، ويتسلون تارةً بالرقص الـذي يجرونـه في الأعراس وحفـلات الختـان وفي أيـام الربيـع وأوقـات المتعـة والراحـة ، والرقص معروف عنـد البـدو واسمـه (الـدحـة) يقـابلـه عنـد عربـان الـديرة وأهل القرى (الدبكة) و (السحجة) . والدحة رقصة بـأوضـاع خـاصـة ، وأصول مـألوفـة ، تقوم بهـا بنـات العشيرة ، تتقـدم الـواحـدة تلـو الأخرى ، وتلعب دورهـا فتمسـك سيفـاً في الغـالب والمتفرجون في الجانبين ، ويقال لهذه اللاعبة (الحاشي) وتوصف بـأوصـاف جميلـة فتتقـدم والقوم حولها كحلقة طولانية وتكون هي في الوسط ، وهناك قصاد (منشدون) ودحاحـة (هم الـذين يرددون مع القصـاد ويختمون كل دور بكلمـة : دحي ، دحي ،) وخلال هـذا الرقص لا يقع من أحد قط ما يخالف الآداب ، لا في الفعل ولا بالقول .

والمنتدى الوحيـد لرجـال العشيرة هو بيت الشيخ لا سيما إذا قـدم ضيف من الحضر ، فإذا ما رأوه انسلوا من كل حدب ، وجاؤوا لرؤيته ، وقعدوا حولـه يرهفون آذانهم لأقوالـه وأخباره (علومه) الطريفة .

شرب القهوة عند البدو

يتعـاطى البـدو في مجـالسهم قهوة البن ، وهم يجيـدون طبخهـا لفراغهم وتـوفرهم على

معالجتها ، وقد يستغني البدو عن الأكل أو يقلل منه كثيراً ، ولكنه لا يستغني بحال عن تعاطي القهوة في كل ساعة ، فهي نقله وحلواؤه وشرابه المنعش ، وقد يصرف أحدهم ثمن بن في السنة أكثر مما يصرف على طعامه ولباسه ، وأحب الهدايا إلى قلب البدوي أن تحمل إليه مقداراً من البن ، فمن أدوات القهوة عندهم (النجر) وهو جرن القهوة ، ويكون في الغالب من خشب البطم ، أو الزيتون المشغول المزخرف بمسامير النحاس ، أو يكون من النحاس الأصفر ، وحجم النجر يختلف ، فقد يبلغ علوه أحياناً ٥٠ ـ ٦٠ سم وكذا قطره ، والأداة التي يدق بها البن في النجر تدعى (مهباج) ، واستعمال المهباج ودق القهوة في النجر له صنعة خاصة تحدث رنات مختلفة شجية ، حسبما يكون الضرب في قاع النجر أو في حوافيه ، ولصنعة دق القهوة أناس خاصون ، وأكثرهم حذاقة بذلك هم العبيد خدم كبار الرؤساء المكلفون بطبخ القهوة وتقديمها ، ودقات النجور وسماعها من علائم الاجتماع ودلائل الجود والكرم لمن يحدثها لديه ، ومن أدوات القهوة عندهم : (الدلال) جمع (دلة) وهي من النحاس الأصفر ، وكبيرتها تدعى (مفورة) من التفوير ، والصغرى (مصب) .

والنقرة تحتوي دائماً قليلاً من الضرم ، فإذا أرادوا إيقادها ألقوا فيها من القش أو العشب اليابس أو بعر الإبل المجفف ، وهوّوها بطرف العباءة ، وكلما شبت النار ودامت في البيت دلت على كرم صاحبه وجوده ، ويضعون فوق الجمرات عدة دلال من النحاس الأصفر ملآنة بالماء كما يضعون فوق اللهيب الداخن دائماً محمصة من الحديد ذات مقبض طويل يحمصون فيها كمية من البن الأخضر . وهذا العمل يقوم به أخو الضيف أو أحد أولاده أو أحد عبيده . والقائم بهذا العمل يقلب بدقة متناهية الحبات المحمصة بواسطة مطنة إلى أن تحمر الحبات وتسود وتتدخن قليلاً ، ثم توضع داخل النجر وتدق بالمهباج إلى أن تسحق وتنعم ، ودقيق البن الذي يحصل يوضع في دلة خاصة تدعى (المفورة) ذات ماء غال فينقع البن فيه ويغلى ، ويتناول طابخ القهوة كيساً معلقاً في زناره ويستخرج منه بضع حبات من (الهيل) فيدقها ويضعها في المصب ، ويسكب فوقه البن المغلي في المفورة ويضع على فم المصب من الليف أو مصفاة معدنية ذات ثقوب لتصفية السائل ومنع مرور الثفل والرمل . فإذا انتهى طبخ القهوة على هذا النحو يذوق الطابخ قليلاً منها ليمتحن جودتها ونكهتها ، وليعلم الحاضرين أن ليس في الفناجين المقدمة إليهم أي أثر للسموم . ثم يشرع بتدوير القهوة على الحاضرين ، ومن عاداتهم في الدورة الأولى إسقاء

القهوة للضيوف المتـازين ، وفي الثـانيـة يـدورون بهـا من اليمين دون تمييز ، ومنهـا قـولهم (أول القهوة خص وثانيها قص) . والكمية المقدمة لا تتجـاوز بضعـة سنتيمترات مكعبـة في كل فنجان إلا أنهم يشربون منها بضعة مرات متتـاليـة . ويمكن للزائر أن يرفض الفنجـان الثاني ، أما رفض الفنجان الأول فلا يجوز ، ويحسب إهانـة عظيمـة أو إنـذار بشر أو عرض حاجة يراد قضاؤهـا فتقضى حتماً لكي يشرب الضيف القهوة بهنـاء ، وهم لا يبرحون يصبون ويناولون حتى يهز الضيف الفنجـان بيـده . ورب البيت هو آخر من تقـدم إليـه القهوة في الدورة ، وهذه القهوة مرة ، لأنها محرومـة من السكر ، والهيل ينفحهـا نكهـة ذات حموضـة وحلاوة معاً .

طعام البدو :

من أدوات الطبخ عند البدو تنجرة كبيرة ذات ميزاب يسمونها (مثعبـة) ويجمعونهـا على مثاعيب لترويب اللبن وغلي السمن ، وعندهم (القدر) وهو من النحـاس الأحمر لطبخ الطعـام ووضـع المـاء و (المجنـا أو المشـوط) وهي ملعقـة كبيرة من الخشب . وعنـدهم (المنسف) وهو جفنـة كبيرة مستـديرة من النحـاس ذات حلقـات يقـدمون فيهـا الطعـام للضيوف ، ويبلغ قطر بعض المناسف الكبيرة متر ونصف بحيث يتسع لنـاقـة بكاملهـا فوق أكمة من الرز والبرغل . و (القدح) وهي إناء من خشب في شكل مربع مستطيل ولها يـد وفم تستعمل لحلب الإبل وشرب الماء .

إن هذه الأدوات كافية بحكم أن طعام البدو بسيـط لا يحتـاج لأكثر منهـا ، وأسبـاب هـذه البسـاطـة عـديـدة :أولاً فقرهم النسبي الـذي يضطرهم إلى اختصـار أثـاثهم وخرثيهم وإقلاله ، ثانياً قلة الوقود التي تمنعهم من إكثار الطبخ والنفخ وإطـالتها ، ثـالثـاً وهو الأهم عسرة نقـل المؤونـة الـوفيرة وأدوات الطبـخ الكبيرة المحتـاجـة إلى عـدد كبير من الأبـاعر لا يتيسر وجوده دائماً ، وعلى افتراض وجود هذه الأباعر هنـالـك عسرة التحميل والتنزيل اللذين يحتاجان إلى أيدٍ عاملة قوية قد لا توجد ، ومن هنـا كان طعـام البـدوي المتوسـط الحـال مقتصر على (الكسرة) أي الخبز الفطير فحسب ، يضيف إليـه في الصيف قليـلاً من الزبد أو السمن ، وفي الشتاء قليلاً من التمر الذي يأكله رطبـاً أو مغليـاً ، ويمونـه من بلـدة

شتاتة في جنوب العراق وغربي الفرات ، أما إذا انتهى الشتاء وبرز ربيع الأرض يكثر درّ الغنم والإبل فيتغذى به وهو يظل زهاء خمسة أشهر على هذا الغذاء اللطيف أعني به حليب النوق وزبده اللذين لا يبيعها قط ، ثم اللباء والشنينة والسمنة المستخرجة من حليب الغنم والمعز ، ثم الخاثر وهو اللبن الرائب المعروف ، وإذا حل الصيف واقترب البدو من المعمورة يحصلون بادئ بدء على (الفريكة) وهي حبوب القمح الطري الأخضر المشوي ، ثم بعد انتهاء الحصاد والدراس في القرى يحصلون على (البرغل) ويحصل كبرائهم على الرز فيقتاتون بها ، إلا أن هذا القوت لا يناله البدوي كل يوم ، ولا يحمل البرغل ويتمونه للشتاء إلا المترفين منهم ، فالبرغل هو أساس مؤونة البدوي وحمولته في نجعة الشتاء وكانوا قبلاً يحملونه حباً فتطحنه النساء في طريقهن ، أما الآن فقد صاروا يأخذونه مطحوناً جاهزاً في أكياس الشعر الكبيرة (العدول) التي تنسجها نساؤهم في أوقات فراغهن .

وهم يطحنون الحبوب بالرحى ، ويعجنون الدقيق في قدر أو قصعة ، ويخبزونه فطيراً على الصاج أرغفة رقاقاً ، أو يخبزونه على الجمر أقراصاً وهو أكلهم في السفر ، وذلك أنهم يطحنون الحب بهاون من خشب إذا لم يوجد رحى ، ثم يعجنونه في قصعة صغيرة ويجعلونه قرصاً ثخيناً ، ويوقدون الحطب على الأرض حتى يصير جمراً فيزيلون الجمر عن الرماد ويطمرون القرص في الرماد ثم يردون الجمر عليه إلى أن يجف وجهه الأول فيكشفونه ويقلبونه ويعيدون الرماد ، ثم الجمر عليه حتى يجف وجهه الثاني فيقسمونه كسراً صغيرة ويأكلون ، ولا يستغرق عمل القرص بهذه الطريقة أكثر من ساعة ويدعى (قرص الملة) وهم يأكلون خبزهم بلا إدام ، أو بإدام من القمر الدين أو اللبن أو السمن أو الزيت أو اللحم ، وأطعمتهم بسيطة للغاية متشابهة تركيباً وطبخاً ، وقوامها كلها أو أكثرها الحليب والسمن والدقيق والخبز والتمر والهقط وأشهرها (الجريشة) وهي أنهم يجرشون القمح بحجر الرحى حتى يصير برغلاً خشناً ، ويسلقونه جيداً ، ثم يسكبونه في قصاع ويصبون عليه من الأدام اللبن أو السمن أو الزيت ، (والعصيدة) يغلون الماء في حلة ويصبون عليه الدقيق شيئاً فشيئاً وهم يحركونه حتى يكون له قوام ، فيصبونه في القصاع ويأكلونه ، أو يغلون اللبن أو الحليب بدل الماء وهو (الثلبانة والخميعة) وهو فتات الخبز (الثريد) يصب عليه بدلاً من اللحم حليب و (الدفنية) وهي الثريد أو مسلوق الرز بمرقة اللحم واللحم منثوراً قطعه فوقها ، وهم لا يتخذون البهارات في أطعمتهم ، وأكلهم للخضر والفاكهة

قليل ، وكذلك أكلهم اللحم والسمك . وفي أيام الربيع ينبت في بواديهم كثير من الأعشاب التي يأكلونها ، وهم يأخذون أغصان الشجر والجرجير والقريص والربيان والزعتر وأمثالها ، ويجففونها ويطحنونها بحجر الرحى ، ويمزجونها ويغمسون قرص الملة بها ويأكلونها .

والخمور لا أثر لها في البادية ، هذا ولشظف العيش عندهم يعدون في الآعياد اليوم الذي ينزل على شيخهم ضيف يجب أن ينحر له شاة ، فإنهم في تلك الوجبة مدعوون كلهم بالبداهة ، فينسلون من كل حدب ويصطفون داخل بيت الشيخ ، وعندها يأكلون اللحم ، وترى وقتئد السواعد مشمرة ، والأيدي ممتدة تمزق اللحم ، وتضغط على الرز أو البرغل ضغطاً قوياً حتى يصبح كتلة واحدة ، والدهن يسيل على سواعدهم ، ويقلبون هذه اللقم الضخمة في الأكف ، ويعصرونها ويكورونها ثم يقذفونها في الحلق ، دون مضغ وبسرعة خاطفة ثم يتناولون إناء الشنينة ويضعونه على فمهم ويشربون ، وهكذا بينما الأيدي العديدة صاعدة هابطة تسمع عندها تعريق اللحم عن العظم وقرقعته ، والقوم إذ ذاك حول المنسف يتزاحمون بالمناكب ، وجاثمون على ركبة واحدة لتسع دائرة المنسف أكبر عدد منهم ، وكلما شبع فوج كبير تلاه فوج أصغر قدراً إلى أن يأتي دور الصبيان ، وفي أقل زمن ممكن وأسرعه يصبح المنسف في خبر كان .

ومن عادة المضيف أن يتناول اللحم ويقطعه بيده ويقدمه لضيوفه ، ويعد عمله هذا من دلائل الكرم وحسن القرى ، ومن أصول الطعام في البادية أنهم يسكبون المرق على الطعام كلما قل المرق عنه ، وذلك ليسيغونه هنيئاً مريئاً ، وإذا طلبوا المرق نادوا (اللّيان يا عيال) بتشديد اللام الثانية من ليان كأنهم ينحتونه من الليونة ، وإذا شبع أحدهم قام يلحس أصابعه ، وبعض البدو يمسحون أصابعهم وأفواههم بأهداب البيت من جهة العامر وذلك لندرة الماء والصابون ، ويعرف القسم الذي يمسحون به أيديهم بالرفه ، ولا يمسحون بلحاهم كما قيل ، وقول بعضهم (صابون العرب لحاها) يستعمل للهزل فقط ، وإذا كان هناك رجال لم يتح لهم الجلوس على المنسف لعدم وجود محل فإن بعض متناولي الطعام ينضحونهم بعظمة عليها بقية من اللحم يتلهون بها حتى يأتيهم الدور ، ومن عادتهم أن لا يقوم أحدهم عن الطعام قبل أن يشبع الجميع ، فهم يقومون عن الطعام سوية .

وفي صدد طعام البادية يقول الأستاذ عز الدين علم الدين في رحلته إلى وادي

السرحان والجوف ما نصه : (عن المقتطف ، أكتوبر سنة ١٩١٧ م)

لا يزال البدو مقتصرين ـ كما ذكر ابن خلدون ـ على الضروري من الأقوات والملابس وسائر الأحوال والعوائد ، ومقصرين عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي ، ويتناولون أقواتهم بعلاج أو بغير علاج ألبتة إلا ما مسته النار ، وذلك لاضطرار البدوي إلى التنقل في كل حين ، فاختار بحكم معيشته الأيسر تناولاً ، فتأنق الحضارة أمر لم يعرفه البدوي ، فإنه إذا أقام أياماً في منزل وأكل العصيدة ، عد ذلك من النعيم ، وهذه العصيدة عبارة عن اللبن الحليب يغلى ، فيذرون عليه الدقيق تارة ، ويضعون عليه البر الجريش (البرغل) وقليلاً من الدهن ، ويقال لها حينئذ الجريشة ، وإذا ضَيَّفَ رجلاً عزيزاً ذبح له نعجة أو خروفاً ، ودعا إكراماً للضيف كثيراً من البدو لمؤاكلته ، فكنا نفرح إذا ما حل بنا ضيف حظنا من لحم لا نذوقه في البادية إلا قليلاً ، أما في الأعياد والأفراح فيذبحون الإبل الكوماء لأن لحم البعير عند البدوي سيد اللحم كله ، وكان بريكان الصليبي إذا أراد أن ينعمني بطعام العشاء طبخ الأرز ويسمونه التمن ، وبعد أن ينضج بأوساخه يضعه في باطية ، ويحفر في وسطه حفرة يضع بها الزبدة التي تذوب بحرارة الطعام ، فنليك الأرز بالزبدة ونزدرده ازدراداً . وكان شاهر الخريشة الصخري يذيب السمن ويأتينا به بمقلاته فنغمس في خبز الصاج الفطير ، وقد يخرج لنا السحلب الأقط[1] وبقينا هكذا أياماً لا نتغذى إلا بالخبز والسمن ، ولا يزال البدو على آثار أسلافهم في صنع خبز الملة ، وذلك بأن يلقوا الدقيق بالماء ويعجنوه عجناً خفيفاً ، ثم يحتطبوا ويوقدوا فيفرشوا الجمر ، ويطرحوا عليه الرغيف الثخين ، ثم يغطوه بما بقي من النار فإذا نضج الرغيف تقاسموه ، وأكثر ما يصنع خبز الملة في السفر ، وأما في الإقامة فيأكلون خبز الصاج ، وفي كلتا الحالتين لا يذوقون الخبز الخمير لأنها من الرفاهية التي حرم منها البدوي ، فإذا ما ظفر بها شكر الله على تلك النعمة كثيراً ، وقد كان سلف هؤلاء البدو الصالح يعد الخمير من فاخر القرى ، فمما رواه لنا عبد الله بن مصعب قال : وقف معاوية على امرأة من بني كنانة فقال لها : (هل من قرى ؟) قالت : نعم ، قال : (وما قراك ؟) قالت : (عندي خبز خمير ولبن

---

(١) الأقط ويقال له اليوم المقط ، وقد شاهدتهم يصنعونه من اللبن الحامض ، ويتخذون من جبنه أقراصاً صغيرة يجففونها في الشمس ليدخروها مؤونة لهم في الأسفار .

فطير وماء نمير) . وفي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه : « الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وسقانا النمير » .

وسيد طعام القرى البدوية كدومة الجندل (الجوف) وسكاكة هو (الدفينة) وهو الثريد الذي كان العرب قديماً إذا أرادوا أن يفضلوا رجلاً قالوا : فضل فلان على سائر قومه كفضل الثريد على سائر الطعام . وتعد الدفينة من بذخ العمران البدوي ، وقد أكلتها في دومة الجندل مراراً فألفيتها لذيذة شهية ، ولا تصنع إلا في الولائم أو قرى ضيف كريم ، وطريقتهم في عملها أن ينضدوا في طشت كبير (منسف) من رقائق الخبز نضداً يكفي المدعوين ، ثم يغطون هذا النضيد بطبقة من الأرز ، ثم يأتون بالذبيحة ناضجة ، فيسقون بمرقها الثريد ويكومون اللحم فوقه تكويماً .

والصابون الذي نعده من مرافق الحضارة لا يوجد في البادية إلا نادراً ، فما كان صابوننا بعد الطعام إلا أن نمسح أكفنا من الدهن الكثيف بطرف الشقة من بيت الشعر ، وما استغنى البدوي عن الصابون إلا اقتصاداً في الماء القليل في البادية كاستغناء الشارع بالتيمم عن الوضوء ، وهم إنما يدخرون الماء للطبخ ، أو إطفاءً للعطش الذابح كما يعبرون ، ولم أر بدوياً يمسح يديه بلحيته بعد الطعام وإن كنا نسمع في بلاد الشام أن (صابون العرب لحاها) .

لا ينزل قدرهم عن أثافي الموقد ، ويصب الطعام في الجفان إلا ويحدق بها البدو أحداق الخوارج بأبي نعامة ، يلعقونه وهو يكاد لشدة حرارته يفور ، فكنت ورفيقي نطلي جدار الجفنة بالطعام تبريداً ، فنستطيع نوعاً ما أكله . وكثيراً ما كنا ننزع من طعامهم أيدينا بسرعة ، ونحرك في الهواء أصابعنا ملدوغة ، مستعيذين بالله من النار والطعام الحار ، ولذلك كنا أبطأ القوم أكلاً ولم نكن بأعجلهم ، وقلما قمت من الجفنة إلا جائعاً لأن يدي ما كانت لتصل باللقمة إلى فمي مرة ، إلا وتكون يد البدوي قد وصلت كما يشهد الله عشراً ، ولهذا كان أهل الذوق من الأعراب يلاحظ ما يصيبنا من الغبن الفاحش بمشاركتنا إياهم في الأكل إذ (سباق المذكيات غلاب) فيضعون بصحفة لنأكل على حدة ، ونشبع على رسلنا . ولله ما أصدق ذلك البدوي الذي قيل فيه : ما اسم المرق عندكم قال : السخين ، قيل : فإذا برد ، قال : لا ندعه حتى يبرد .

وقبل أن ندرك الجوف اصطاد بعض صحابتنا حيواناً صغيراً أبيض البطن رمادي الظهر يداه أقصر من رجليه خلته فأرة برية فسألتهم عن اسمه فقالوا جربوع ، فعلمت أنه اليربوع المذكور في كتب اللغة . ثم أمرع الصائد وشواه وتقاسمه وصحبه ، وازدردوه سريعاً كا يزدرد الحضري الفالوذج ، وعثر بدوي آخر على أثر قنفذ فاقتفره وعاد بعد هنيهة بصيده ، وكأنه آب في جوف الفرا فأضرم النار ورماه بها حياً ، ولما تمكن من القبض على عنقه المنقبض حذر النار ، ذبحه وأكله ورفاقه بعد تمام نضجه بجشع غريب ، ولقد باركت لهم ورفيقي بحصتنا من القنفذ واليربوع .

ورأى عرب السرحان في رائعة النهار ضبعاً طاردوها بخيلهم ، والفرس أسرع من الضبع ، فأدركوها وأصموها رمياً بالرصاص ، وذبحوها ، وأولموا تلك الليلة بها ، ويزعمون أن لحمها علاج من الحمى ، وللبدو غرام بأكل الجراد ، ولعله حل أكله توسلاً لإبادته ، على أن له في السنة المجدبة نفعاً في البادية جزيلاً .

ذكر ياقوت في معجم البلدان نقلاً عن بعض الرواة قال : لقيت أعرابياً فقلته ممن الرجل ، قال من بني أسد ، فقلت : فمن أين أقبلت ؟ قال : من هذه البادية ، قلت : فأين تسكنها ؟ قال : مساقط الحمى حمى ضرية[1] بأرض لعمر الله ما نريد بها بدلاً ، ولا نبتغي عنها حولاً ، قد حفتها الفلوات ، ونفحتها القدوات فلا يملولح ترابها ولا يمعر جنابها ، ليس فيها أذى ولا قذى ولا وعك ولا موم (البرسام) ، ونحن فيها بأرفه عيش وأرقى معيشة . قلت : وما طعامكم ؟ قال : بخ بخ الهبيد (الحنظل) والعنكت والعلهز والضباب واليرابيع ، وربما أكلنا والله القد واشتوينا الجلد ، فلا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً ، فالحمد لله على ما رزق من السعة ، وبسط من حسن الدعة ، أو ما سمعت بقول قائلنا :

إذا ما أصبنا كل يوم مذيقة	وخمس تميرات صغار كنائز
فنحن ملوك الناس شرقاً ومغرباً	ونحن أسود الناس عند الهزاهز
وكم متمن عيشنا لا يناله	ولو ناله أضحى به جد فائز

---

(١) ضرية أرض بنجد ينسب إليها حمى ضرية ينزلها حاج البصرة ، لها ذكر في أيام العرب وأشعارهم (عن ياقوت) .

وللبدو عامة صبر على الجوع والعطش ، وإذا جاع أحدهم ولم يجد طعاماً شد حجراً مستطيلاً على معدته واحتمل الجوع بصبر غريب ، واكتفى بأكل العشب . ومن بات بلا عشاء سمي (المقوى) ومن لم يأكل طعام الصبح سمي (المريوق) .

قرى الضيف :

قرى الضيف أمر قد اشتهر به البدو منذ القديم ، وتذكر الرواية أن حاتم الطائي كان يشعل ناراً عظيمة أمام بيته ليستهدي بها المسافرون والجائعون ، ولا تزال آثار هذه العادة جارية في يومنا هذا لدى كثير منهم ، وقد ذكر عن الأمير مجحم بن مهيد رئيس الفدعان (الولد) أنه يأمر مؤذنه أن يصيح عقب أذان العشاء (العيش يا جوعان) ، وتأخير الطعام إلى بعد العشاء يقصد به انتظار من قد يكون متخلفاً من الزوار والمسافرين .

والواقع أنه لولا عادة قرى الضيف وإكرامه لما طيقت البادية المحرومة من الفنادق والمطاعم ، ومن هنا نشأت هذه العادة عندهم وصارت من الواجبات التي لا مناص لهم منها ، والمسافر أو النزيل يغدو معززاً مصاناً منذ حلوله بيت مضيفه ، وإقراء الضيف من المكانة بحيث أنه لو لجأ المسافر إلى بيت رجل فقير ليس لديه ما يقدمه للضيف ، على هذا الرجل أن يذهب إلى جيرانه من البدو ويطلب منهم ما يكفيه للقيام بواجب الضيافة ، وليس له أن يحيل ضيفه إلى بيوت الآخرين ، ويقعد الضيوف في الربعة إما متجهين نحو مدخلها في جانب المضيف (المعزب) ، أو يجعلون ظهورهم إلى الحواجز القصبية (القطع ، الساحة) والضيف ينام في الربعة ويأكل فيها ويسمر ويسهر ويقيم في الضيافة ثلاثة أيام ، فإذا انقضت هذه المدة يغادر البيت ، ويظل هذا الضيف في حمى المضيف إلى بعد ثلاثة أيام من سفره ، وحينما تزار منازل البدو لا يجوز للضيف أن يغير البيت الذي نزل فيه ، وإذا فعل ذلك يكون قد أهان مضيفه إهانة عظمى ، كما لا يمكنه أن يقبل أي دعوة مالم يدع إليها مضيفه أيضاً . ومن هنا جاء المثل : (الضيف أسير المعزب) .

ومن عادة البدو أنهم يحتفون بالضيف حين قدومه أكثر من حفاوتهم به حين ذهابه ، ويكرمونه ما وسعهم الجهد ، وعلى الضيف أن يكون أديباً ومراعياً لعاداتهم ، وعليه إذا

قـدم منزل العشيرة أن ينحرف مـا أمكنـه ، ويقصـد الربعـة مبـاشرة كي لا يقع نظره على الحريم أو أماكن النساء ، لذلـك يـأتي الضيف من طرف المنـازل حتى يصل إلى بيت الشيخ أي إلى (الربعة) فينزل عن مطيتـه ، ويربطهـا بـأحـد الأوتـاد أو الأطنـاب ، وإذا دخل يحيي الحاضرين ، وينتظر قليلاً ريثما يعـدون لـه محلاً للجلوس ، وهم يسرعون لإنزالـه عن دابته ويربطونها ، ويأخذون منه أسلحته وحوائجه ، ويأتون بالفرش والمساند ، ويدعونـه للجلـوس ، ثم يبـادرون لإعــداد القهـوة والطعــام ، وعلى الضيف أن يحترم المنزل وكل من فيه ، ويقبل كل ما يقدم له من طعام ، وليس له أن يرد أية خدمـة تقـدم إليـه . ويحظر عليه إلقاء نظره إلى ما وراء (السـاحـة) ، أو الإصغـاء إلى محـاورات النسـاء ، أو الانتبـاه لأصواتهن وحركاتهن مهما قلت أو كثرت ، كما أنه من العيب أيضـاً أن يتغوط أو يبول أمـام البيوت ، وعند الرحيل لا يجوز للضيف الخروج إلا من أمام البيت ، ثم يمتطي راحلتـه إذ يكون أحد المعازيب أي المضيفين قد أعـدهـا لـه وأمسـك بلجـامهـا حتى يركـب الضيـف ، فيشيعونه بسلام يكون أقل من الاستقبـال فيما يقـال ، كي لا يـذكر الضيف أنهم سئموه وملوا وجوده بينهم .

أسلحة البدو :

كانت أسلحة البدو قديماً السيوف والرماح والسهام ، أما اليوم ومنـذ نصف قرن فقـد انتشرت البنادق ويدعونها بواريد جمع بـارودة ، وصـار أعمهـا بعـد الحرب المـاضيـة بنـادق موزر الألمانية مما تركتـه الجيوش التركيـة ، وهـذه البنـادق موجودة بكثرة في كل مضـارب البـدو ، أمـا السيف فقـد دالت دولتـه وهجر بـالمرة ، إلا عنـد الرؤسـاء والشيـوخ الــذين يحملونه للزينـة أو ذكرى لمـا خلفـه الآبـاء ، وعنـد البـدو من الأسلحـة اليـدويـة البيضـاء الخناجر والشاكريات والشباري المعلقة بـالمنـاطق ، وقـد يشـدون على حقويهم الرداني جمع ردنية ، وهي المسدسات على اختلاف أشكالها ، وعند أعراب الـديرة والشوايـا (الكلنـك) وهـو شبـه المطرقـة ذو رأس حـديـدي دقيـق من جهـة ، وغليـظ من أخرى ، ولـه مقبض خشبي طولـه نحو نصف متر ، والقنـا أو الجنـا وهي كرة تكـون من الحـديـد أو من خشب البطم القـاسي ولهـا مقبض خشبي ، وهي الـدبوس عنـد الحضر ، وصبيـان البـدو يقـاتلون بالمقلاع المعروف ويقذفون به الحجارة .

الرحيل :

أحب شيء إلى البدوي الغزو والرحيل على حد قولهم :

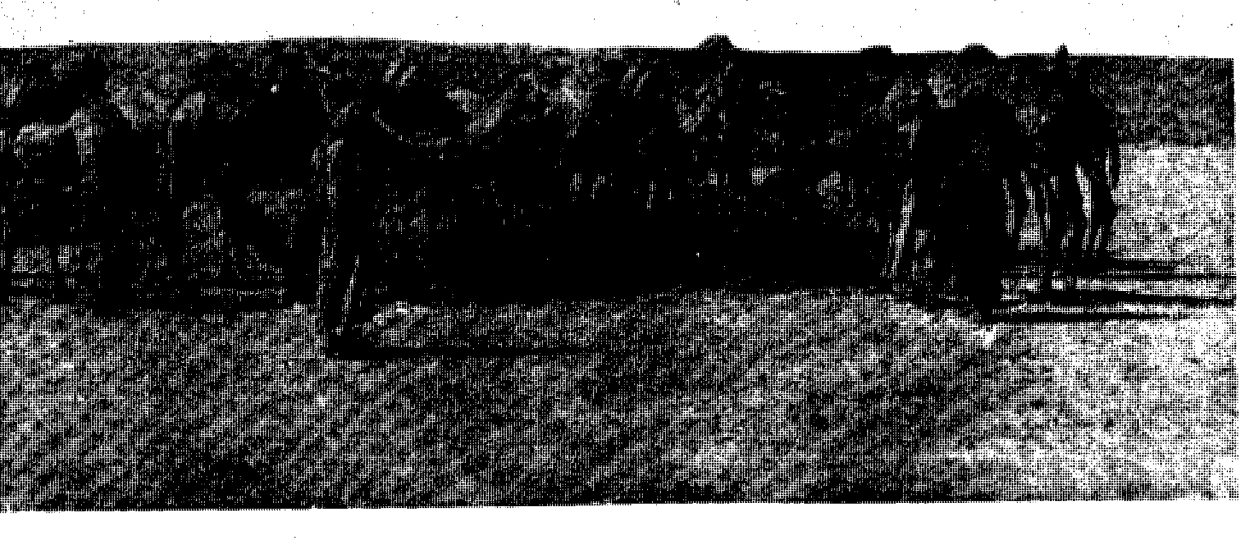
لشرط البـــداوة كل يـــوم مغـــزى ❊ وعـــز البـــداوة كل يـــوم رحيـــل

والرحيل هو انتقال حلة البدو من مكان إلى آخر ، وقد قدمنا أن البدو لا يستقرون في مكان ، ولا يطيلون الإقامة في أرض ، فهم دائماً يتنقلون من أرض إلى أخرى ، ومن منزل إلى منزل ، يرتادون الكلأ ويفتشون على مراعي وموارد لإبلهم وغنمهم ، ثم هم يرحلون من منازلهم لتراكم الأوساخ حول المحلات التي يقيمون فيها ، فيتركونها ليتخلصوا منها ومن الروائح المنبعثة بسببها ، وهم متى أرادوا الرحيل يجتمع كبراء العشيرة في بيت الشيخ فيتشاورون وكل واحد منهم يذكر المكان الذي يراه مناسباً ليكون مرتعهم الجديد ، فيختارون من الأعراب رواداً يرتادون الأماكن الكثيرة الكلأ والماء ، فيذهب هؤلاء على الخيل أو في السيارات إذا كان لديهم سيارات ، فيتحرون المنازل والمناهل في المواقع التي اعتادوها في كل عام ويعودون ويخبرون عن المحل الذي أعجبهم ، فيعين مجلس كبراء العشيرة يوم الرحيل ، ويعلم أبناء العشيرة ليتأهبوا له ، وفي اليوم الموعود قبل طلوع الشمس تقوض النساء الخيام ويحملنها مع سائر الأثقال على الإبل ، ويسرح الرعاة بالغنم قبل الفجر نحو المحل المقصود ، وتقوم الضجة أثناء الحمل والترحيل ، وبعد أن يتم تحميل الأثاث يسير شيخ العشيرة وكبراؤها في الطليعة ، ثم تتبعهم الرجال والنساء مشاةً وركباناً ، وزرافات ووحداناً ، وبدون أي ترتيب أو انتظام ، وتعلو النساء الغنيات الهوادج ، أما الفقيرات فيسرن وراء الحمير المحملة مشياً ، وهكذا يسير الركب إلى أن يصل إلى المحل المقصود ، وتنزل الأحمال ، وتنصب البيوت ، وتشد إلى أطنابها ، وتوقد النيران ، وتطبخ القهوة والطعام .

وقد وصف الشاعر الجاهلي الحرث بن حلزة اليشكري أهبة البدو للرحيل بأجمل ما يمكن من الإيجاز ، قال :

أجمعـــوا أمرهم عشـــاءً فلمـــا ❊ أصبحـــوا أصبحت لهم ضـــوضـــاء

من منـــــاد ومن مجيب ومن تصـ ❊ ـهـــال خيـــل خـــلال ذاك رغـــاء



٢ - من مناظر البادية القفراء

ويسمى البدو الفرسان الذين يتقدمون الأظعان (السلف) أي المقدمة وهم حماة الأعراض والأموال ، وتسير الأباعر المحملة وغير المحملة خلف (السلف) . والنساء لا يركبن الهوادج إلا أيام الرحيل ، أو يوم الحرب بين العشيرة وأعدائها ، ليحرضن قومهن على الحمية وتضحية النفس . وهذه الهوادج هي بمثابة الوطن للبدوي ، فيضحي بنفسه ولا يترك العدو يصل إليها قبل أن تطأ سنابك الخيل جثته .

والهودج من الأثاث الخاص بالمرأة ، وهو يعمل من أعواد الصفصاف ، أو من سعف النخل ، أو من أي خشب خفيف ، يوضع على ظهر البعير وتجلس فيه المرأة وتكون (المزاود) أي أكياس حاجاتها معلقة من الجانبين حفظاً للتوازن ، وإذا كانت المرأة غنية تجعل هودجها حسب مقدرتها ، مزخرفاً بالصدف والأقمشة والأشرطة الملونة ، والهودج إذا كان كبيراً طويلاً بشكل الهلال ، وذي قرون بارزة للعلاء يدعى (قتباً) وإذا كان بسيطاً مستطيل الشكل ، وموضوعاً على حداجة البعير يدعى (باصوراً) . والهوادج إن كان فيها نساء أو لم يكن تدعى (ظعينة) وجمعها ظعائن وظعن وأظعان ، وظعن ظعناً في اللغة بمعنى سار وارتحل ، والظعينة في الأصل وصف للمرأة في هودجها ، ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها ، وكل امرأة بدوية ميسورة الحال لها هودجها ، تركبه وتحمل معها أشياءها الخاصة وأولادها ، فضلاً عن بعض أثاث بيتها وأدوات مطبخها ، وهي تستره بالسجوف ، وبما يشبه الكلل اتقاء الشمس والبرد والمطر ، لا بقصد التحجب .

والبدويات ماهرات في امتطاء الأباعر ، يتسلقنها برشاقة دونما حاجة إلى إناختها . وحركة الظعون هذه واهتزازها وتهاديها في السير ، ومنادمة النساء فوقها وحدوهن ومناغاة الأولاد على ظهورها ، وحولها الفرسان والمشاة الزاحفة والإبل المحملة والمتلاحقة بعضها وراء بعض ، والمنتشرة على مسافات دون انتظام ... كل ذلك من أروع الحياة البدوية . لاسيا إذا كان ذلك في صفو الربيع ونمو الأعشاب ، وفوحان الشيح والقيصوم والخزامى ، وفي هدأة الفجر أو ضوء القمر ، وسكون الطبيعة في البراري والصحاري المترامية الأطراف .

والحق أن هدأة الفجر أو السحر لا تبدو على أتمها إلا في البادية ، فلا ليل في الجلال كليل البادية ، ولا صبح في الجمال كصبحها ، ولا نهار في الشدة كنهارها ، وما أجمل قول زهير بن أبي سلمى في معلقته حينما تمثلت في خاطره ظعائن الحبائب ، متحملات تغشيهن

سدول صفيقة النسيج وكلة وردية الحواشي ، فتبعهن ببصره الحزين وقلبه الواله ، ووصف ما سلكنه من طرق ، ونزلنه من منازل ، حتى بلغن المنزل الذي أردنه ، وما أحلى أسلوبه في استحضار هذه الذكرى حتى لكأنها ماثلة للعيون فلو تبصر صاحبه قليلاً لرآها :

تبصر خليلي هـــل ترى من ظعـــائنٍ ... تحملن (بـالعليـاء) من فـوق (جرثم)

علـون بـــأنمــاط عتـــاق وكِلـــةٍ ... ورادٍ حـواشيهـا مشـاكِهـة الـدم

بكرن بكـــــــوراً واستحرن بسحرةٍ ... فهن ووادي الرس كاليـــــد للفم

وفيهن ملهىً للصـــديـــق ومنظر ... أنيـــق لعين النـــاظر المتـــوسم

فلمـا وردن المـاء زرقـاً جمـامـه ... وضعن عصى الحـــاضر المتخيم



أعمال البدو

الرعي ، الصيد ، الغزو ، التجارة

إن الأعمال التي يعتبرها البدو جديرة بهم هي الرعي ، أو تربية الماشية ، والصيد والغزو والتجارة .

أما **الصناعة** فإنهم يأنفونها كما يأنفون الأعمال اليدوية ، وقد شاهدنا بعض أعيانهم المتحضرين لا يزوجون بناتهم من أرباب الصناعات والحرف ، مهما نبه قدر هؤلاء ، وضخمت ثروتهم .

أما **الزراعة** فقد كانوا أيضاً يزدرونها ويمتهنون أهلها ، ويدعونهم فلاليح جمع فلاح ، لأنها فيما زعموا تربطهم بالأرض ، وتجرهم إلى الخنوع والذل ، وتفقدهم الحرية والانطلاق اللذين هما غاية مناهم ، ومن أقوالهم في ازدراء الزراعة (الذل بالحرث والمهانة بالبقر) ، ويقابلون هذه الأقوال بكلمة (العز بالإبل والشجاعة بالخيل) ، إلا أنهم منذ أن انقطعت سبل الغزو ، ونضب معين السلب والنهب ، وتوالت سنو المحل والجدب ، وكثر موت الحلال (الماشية) ، أكرهوا على الميل نحو الزراعة ، وشرع رؤساؤهم وكبراؤهم منذ عشرين سنة ، يقتنون الأرضين ، ويتوسعون بالمساحات ، ويتنازعون على الحدود ، ويعنون بالحرث والزرع والري ، ومن ثم صاروا يعتبرون الزراعة ، ويعتبرون أهلها إلى حد ما ، ولو أنهم لم يوفقوا بعد لتعويد أعرابهم على أعمالها وأتعابها ، فاعتمدوا في الغالب على سواعد الحضر من أرباب القرى ، ويرجى أن يوفقوا إلى هذا التعويد ، وأن يسري إلى صغارهم الميل والهوى ، واللذان نشأا في كبارهم .

الرعي :

إن أكثر عناية أهل البادية وهواهم هو في الرعي ؛ أي في تربية الماشية من الإبل

والغنم والمعزى والخيل ، لأن معيشتهم في الأساس متوقفة عليها وبداوتهم ناشئة منها ، ولولاها لما كانوا ولولاهم لما كانت . وهم يربونها إما لحسابهم الخاص أو لحساب شركائهم ، من أهل المدن لقاء قسمة معينة من النتاج . وهم يستخرجون من حليب الماشية اللبن والزبدة والسمن والقشطة ، أما صنع الجبن فغير معروف عندهم ، ومن العناية بالماشية يحصل للبدوي صوف من الغنم وأنسجة من شعر المعزى ، أو من وبر الجمال فيذهب بها إلى المدينة ليبيعها مع الزبد والسمن ، وقد يبيع شيئاً من ماشيته التي رباها ، وإذا كان يحسن تربية الخيل فهو يبيع من ذكورها ، بقدر ما يحتاج إليه من النقود ، ويشتري بدلها تمراً وحباً وثياباً وأدواتٍ للبيت .

الغنم :

إن أكثر الأغنام التي يستثمرها البدو هي للحضر ، أي لأهل المدن الشامية ، ولهؤلاء طرق عديدة في الاتفاق مع البدو وعقد شركات متنوعة للاستفادة من نواتج هذه الأغنام . والشركة على شكلين ، الشركة الأولى (الغنومية) وهي أن يشتري الحضري الأغنام ويسلمها للبدوي ، فيتنقل هذا بها بين المعمورة والبادية حسب الفصول والمواسم ، وتقوم أسرة هذا البدوي بكل ما تطلبه الأغنام من عناية وخدمة وحلب نعاجها الرغوث ، وتحويل ألبانها إلى زبد وسمن وخاثر ، ويتناول الحضري عن كل نعجة رطلاً من السمن علاوة على حملها الصغير ، ويأخذ البدوي ما زاد عن الرطل ، والنعجة الواحدة قد تعطي في سنة الخصب من الرطل إلى الرطل والنصف إلى الرطلين من السمن ، أما الصوف فيرجع كله إلى البدوي لقاء تعبه ، وأما الرسوم الأميرية المتحتم دفعها عن الأغنام ، فالحضري يدفع رسوم الأغنام الرغوث ، والبدوي يدفع رسوم الحائل ، وعلى البدوي أن يدفع أيضاً كل النفقات من ضمان الماء وضمان الحقول المحصودة مما يسمونه (فراز) وخلاف ذلك ، والبدوي مسؤول أيضاً عن إدارة الغنم وجلب الماء إليها من الأماكن البعيدة ، وإذا ما أراد الحضري إبدال هذا الشريك فإن ذلك يكون في موسم (الفراز) أي زمن نضوب اللبن أو قبيله ؛ ويقدر أن ربع البدو لا يقومون بأمانة في هذه الشركات ، إذ يعبثون بما عهد إليهم من الغنم ويدعون أن الذئب أكلها ، أو أن البرد أو المرض انتابها إلى ما هنالك من الأعذار الملفقة ، لكن الحضري لا يتقيد بذلك ، فيتلطف بتدبير يرد به غنمه ، ويودعه إلى بدوي آخر .

والشركة الثانية (شركة العظم أو الشركة الحلبية) هذه تكون على شكلين : الأول ؛ يبتاع كل من البدوي والحضري عدداً متساوياً من الأغنام ، فيأخذ البدوي بتربيتها واستثمارها ، وفاقاً لما ذكرناه في الشكل السابق ، وتقسم الخسائر والأرباح مناصفة كما تقسم النفقات بينهما على السواء ، إلا أن هذه الشركة قد أصبحت نادرة جداً ولا تزيد نسبتها على ٥٪ بين الشركات . الثاني ؛ يشتري الحضري مثلاً مئة نعجة بمئتي ليرة ويسلمها للبدوي بعد أن يأخذ عليه سنداً بالقيمة وتعهداً بوفاء أثمانها من نواتجها ، فيبدأ البدوي بأداء جانب من أثمانها كل سنة ، فلا تمضي سنتان أو ثلاث حتى يكون قد أدى القيمة بتمامها ، فتصبح الغنم متناصفة بين البدوي والحضري ، فإما أن تبقى الشركة شركة عظم أو أن تستغل كل منها على حدة .

الخيل :

أما الخيل فمفخرة البدو ومبعث مجدهم ، عليها يقطعون السباسب ويهاجمون العدو ، ويردون صدمات الغزو ، وفيها يعودون كاسبين ، وللخيل إكرام كبير ، ومنزلة رفيعة في المضارب ، تراها مربوطة في أكرم أرض أمام البيوت كأنها من أفراد الأسرة ، يحيطها كبيرهم وصغيرهم بكل رعاية ، وقد يؤثرونها على أنفسهم في الماء والغذاء والتدفئة ، وإذا أنتجت الفرس مهرة حل الهناء في الخيام ، وعم السرور وذبحوا ذبيحة ونضحوا بدمها بطن الفرس والمهرة وقوائمها وناصيتها ، وإذا ابتاعوا فرساً أو كسبوها في الغزو ، يذبحون لها نعجة قبل إدخالها إلى البيت .

هذا والبدوي قلما يحب الاحتفاظ بذكور الخيل ، فهو يسعى إلى بيعها وهي صغيرة ، وبهذا البيع الباكر يوفر على نفسه مشاقاً ونفقات ، وهو يفضل اقتناء إناث الخيل للولادة والربح ، ومن النادر أن يبيع البدوي الفرس صفقة واحدة إلا إذا أطمع بالمال الكثير ، وكان بحاجة إليه ، والعادة أنه يرضى ببيع النصف فقط ، ليكون له في نتاج الفرس حصة . فإذا ما أتت الفرس بمهرة جميلة ، وأراد أحد الشريكين فسخ الشركة حق له ذلك ، فتثمن الأم ومهرتها ، بمعرفة أهل الخبرة والاطلاع ، ويتقاصرا أي يستقل أحدهما حسب الاتفاق بالمهرة أو بالفرس الولود .

وللبدو في بيع الخيل طريقتان : الأولى (المثاني) يأخذ البائع ثمن الفرس المتفق عليه كاملاً ، وله حق في نتاج الفرس ، وهو مهرتان ، الأولى منها وهي المهرة الأولى التي تضعها الفرس ، يأخذها غب مضي أربعين ليلة من الولادة وإذا تأخر عن ذلك فالمصروف عليه ، والمهرة الثانية يأخذها إما من نتاج الأم أو من نتاج المهرة الثانية التي تكون أنتجتها الفرس ، وتدعى الثانية التي يأخذها البائع فلو العامود ، أما الأحصنة فكلها للشاري .

والطريقة الثانية هي (المناصفة) يأخذ البائع نصف ثمن الفرس ، وهذه الطريقة أكثر شيوعاً من الأولى بين البدو ، ويقدم البائع للشاري إذا شاء الأخير حجة خطية تثبت أصل الفرس ، ممهورة من وجوه العشيرة وشيوخها ، وتكون الحجة سنداً صحيحاً في رسن الفرس وأصلها . لأن كل فرس لا يثبت انتسابها لإحدى سلائل الخيل المعروفة ، لا يعتبرونها أصيلة بل يدعونها (كديشة) مهما كانت مستوفية الأوصاف الممدوحة في الخيل ، وعندما يصادف وجود فرس جيدة كهذه نسبها مجهول يدعونها (شمالية) فيسفدونها (يشبونها) من حصان أصيل ، ويستمرون على تلقيحها وتلقيح نسلها من الحصن الأصيلة إلى أن يبلغ البطن الخامس ، وعندها يحق لهم أن يعتبروا ذلك البطن أصيلاً ، وأن يسموا هذه الفصيلة باسم الحصان الذي لقحوا منه أول فرس من هذه الفصيلة .

وللعرب عامة من بدو وحضر عناية كبرى في تربية الخيل ، وحفظ أنسابها (أرسانها) ، وأشهر السلائل المعروفة هي : الكحايل والصقلاويات وأم عرقوب والهدب والعبيات والشويمات والمعنكيات والجدرانيات والنواقيات والشراقيات .

والبدو يفوقون الحضر في ترويض أفراسهم ، وتعويدها العادات المفيدة في العدو والكر والفر . ولهذا تنشأ الأفراس عندهم أكثر جمالاً وجلداً وعدواً وفعلاً في الحروب ، خاصة وهي تعيش في الهواء الطلق والفضاء الفسيح دائماً .

ويوجد لدى عشائر عنزة وشمر وبعض عربان الديرة أكثر سلائل الخيل ، وتعنى عنزة بصورة خاصة في تربية الكحائل أكثر من غيرها ، والكحيلة يضرب المثل بعراقة أصلها ، فإذا وصفوا امرأة بنجابتها قالوا (كحيلة) وهي ذات أثواب مختلفة الألوان ، ويذكر أنه عند الأسبعة البطينات كحيلة الأخرس والنواقيات الشقر والعبيات ، وعند

الاسبعة المواجة الصقلاويات وأغلب أثوابها صفر ، وعند الأسبعة الأمسكة أمهات عرقوب الشقر ، وعند ابن سبيل من الرسالين المعنكيات الحدرجية والسبيلية . وعند الفدعان الأخرصة الكحيلة الخدرجية والكحلية المضبة والكحيلة الأخدلية والدنيسيات والشيخات والصقلاويات ، أما الأرولة فعندهم أجمل عتاق الخيل من كحايل وصقلاويات جدرانيات ومعَنكيات وشراقيات وشويهات أم عرقوب ، ومثلهم بني صخر في شرقي الأردن ، وقد اشتهرت عشيرة طيء بالمليحيات ، وعشيرة الموالي بالصقلاويات والمعنكيات السبيليات ، وبني خالد بالمعنكيات الحمر ، وشمر بالشنينة وبهدبة انزحى وبالجدرانيات ، وهي عند حسن العامود ، قالوا : وصلت إليه من الفرجة من الأرولة ، وعنده الصقلاويات أيضاً ، وعند غيرهم غير ذلك من المرابط والسلائل المختلفة الطيبة ما يضيق نطاق بحثنا عنه ، فاكتفينا بما ذكرناه .

هذا وقد كان للخيل دولة واعتزاز لمضي ٢٠ ـ ٢٥ سنة في البادية والحاضرة ، إلى أن حظرت الحكومات الغزو ، وقطعت مورد السطو والسلب على البدو ، وانتشرت السيارات في كل دانية وقاصية ، واقتناها رؤساء البادية لسرعتها وحسن بلغتها ، وغالوا بها فدالت دولة الخيل وقلت العناية والرغبة بها ، حتى لم يعد يركبها إلا القليل ، والفروسية التي كانت إحدى مفاخر البلاد العربية أوشكت أن تضمحل ، والبيوتات القديمة في مدن الشام المعتادة على اقتناء الصافيات الجياد ، قد اقفرت إصطبلاتها وصارت مرائب للسيارات ، ولم يبق للخيل قيمة إلا فيما كان منها صالحاً للسباقات الدولية وعقد المراهنة والمقامرة ، كما يجري في ميادين السباق في بيروت وبغداد وأمثالها ، مما فيه خراب كثير من البيوت وانحطاط كثير من أرسان الخيل الأصيلة يا للأسف .

الإبل :

وأما الإبل فهي صديقة البدوي الحميمة ، ولولاها لزالت البداوة ، وهي كما قال الأستاذ عباس العزاوي في كتابه (عشائر العراق) قوام حياة البدوي ووسيلة بقائها . فمنها لبنه ، ومنها وبره ، ومنها لحمه ، وجلدها نافع له ، وهي واسطة نقله من مكان إلى آخر ، وحمل أثقاله ، فهي في نظره (سفن البر) ، ولولاها لكانت حياته منغصة ، وعيشته مرة ، وآماله ضيقة ، وهذه فيها غناؤه وثراؤه ، بل من أعظم ثروة له ومن أهم تجارته ، لا تعيش

للبدوي أنعام وهو في حالة غزو وتنقل سريع من مكان إلى مكان ، إلا إذا كانت كهذه الإبل تتحمل المشاق ، وتتقبل الصعوبات والأراضي الوعرة ، والفيافي البعيدة عن العمران ، فهي بحق تعد أعظم نعمة ناسبت أوضاعه ، فكأنها خلقت لأجله ، وقدرت له في أصل الخلقة وفي آية ﴿ أَفَلا يَنْظُرونَ إلى الإبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ دليل الامتنان بهذه النعمة . ولولا الإبل لما تمكن البدوي أن يبلغ المكان الذي يريده إلا بشق الأنفس وصعوبتها ، والعرب في آثارهم الكثيرة من كتب الأدب واللغة تعرضوا للكلام عليها ، وأوسعوا المباحث كما عمل الأصمعي في رسائله وابن سيده في مخصصه ، فما قالوه : الإبل مراكب العرب وطعامهم ، وهي أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحوماً ، وأرقها لبناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وهي من أرخص وسائل النقل في الأسفار ، وتحمل الأثقال ، ورجاد الزروع من الحقول إلى البيادر ، وإن كانت بطيئة .

والإبل أنواع كثيرة ، وأشهر المعروف منها ؛ مما ينتفع منه للحليب وللحمل ويسمى (البعير) فمنها (الخواوير) وأحدها خوار ، وهي أباعر عنزة وشمر وغالب البدو بصورة عامة ، وهذه إبل بادية الشام تصبر على العطش ، وتستخدم للغزو ، وتعيش خارج المياه في البادية الجرداء ، والمعروف منها (بنات وضيحان) التي أصلها من إبل الشرارات ، وقد سميت بذلك لأن لون قوائمها الأربع وأسفل بطنها أبيض وضاح ، وباقي الجسم أصفر مشرب حمرة كلون الغزال و (بنات عبجلي) و (البجانيات) وهناك قسم آخر يستفاد منه للركوب غالباً ويقال له (الذلول) ومن أنواعه (التيهية) وهذه صغيرة ، ولها رسن تفيد للسرعة وللمغازي ، وتقطع مسافات بعيدة ، وهي عند الشرارات والحويطات في جنوبي بلاد الأردن ، وهذه تطرح النعام والغزال وهي للركوب خاصة ويقال إن أضلاعها سبعة في كل جانب ، (والحرة) تعيش في البادية وتصبر على الماء ، وهي عند شمر وعنزة وعند الشرارات والحويطات ، وبها يتمكنون من اللحاق بالخيل و (العمانية) وهي جميلة ووافية ، وغالب ما تكون عند عشيرة المنتفق في العراق ، وقليلة في سائر الأنحاء ، ومواطنها على ساحل الخليج العربي .

ويذكر أن إبل الحرة تتحمل أخفافها الأرض المحصاة ، وتعرف ببروز قصبة أنفها ، أما الإبل التيهية فإن أصلها من السودان ، وهي ترد فلسطين والبلقاء مع القوافل الآتية

من مصر ، وقد كانت إبل الجيش الإنكليزي في الشام من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى الماضية . وأما الإبل العمانيات فأصلها من عمان (مسقط) وهي ذوات رأس نحيف وقد أهيف ومزاج عصبي ووبر دقاق ، ومنها الصبورة على العدو في الفلوات ، والحساسة كالخيل العراب ، وكان الجيش الهندي في الحرب الكبرى المذكورة يبتاع منها ما يلزمه ، أما في الحرب الكبرى الثانية فقد استعاضت الجيوش عن الإبل بالدبابات والسيارات المصنوعة خاصة للصحارى ، فزالت دولة الإبل كما زالت دولة الخيل .

هذا وللإبل عند كل عشيرة أو فرع من فروعها علامة يسمونها بها لتعرف ، وهذه تختلف أشكالها بالنظر لما تتخذه العشائر ، ولا تجد تقارباً في الوسم إلا قليلاً ، وكذا يقال للشاهد وهو من نوع الوسم إلا أنه لا يعول عليه في التفريق وإنما هو أشبه بالإشارة الخاصة ، والوسم يكون على اليمين أو على اليسار أو على الرقبة ، والشاهد يكون على يمين الوسم أو يساره ، وقد يكون الوسم على اليد اليمنى أو اليسرى ، والشاهد على الرقبة ، ويكون قريب الخشم ويصير محاذياً للعين ، أو نازلاً إلى الفك ، وعلى كل لا يعول على الشاهد ، ومن الوسوم ما هو بشكل X أو كحرف T أو غير ذلك .

والبدو يطلقون إبلهم في البرية ، فتقتات من نباتها كالشيح والروثة وغيرهما ، ويوردونها الماء مرتين في الأسبوع في الصيف ، أما في الشتاء فهي تظل أياماً عديدة دون أن تعطش ، أما الحضر فيسقون الإبل التي يستعملونها مرة في كل يوم من أيام الصيف ، والحضر في بلادنا يسيؤون تغذية الإبل فلا يطعمونها أكثر من ثمنية (أي نحو اثنين كيلو غرام) من الحب في اليوم من (الشعير أو الكرسنة أو الجلبان أو الفول أو البيقية) على أن تكون مجروشة ومنقوعة في الماء لأنه ليس للبعير قواطع في فكه الأعلى ويضاف إلى ذلك مقدار كاف من التبن ، هذا إذا كان يشتغل ، وإلا فيقصرون غذائه على التبن وعلى ما يصادفه من الأعشاب ، والإبل إذا كانت بالغة وطعامها كافياً تحمل ٢٠٠ ـ ٢٥٠ كيلو غراماً في اليوم ، أما إذا كان طعامها سيئاً فهي لا تحمل أكثر من ١٠٠ ـ ١٥٠ كيلو غراماً ، هذا ووبر الجمل أنعم من صوف الضأن ، وتصنع منه عباءات الوبر العراقية الشهيرة ، كما ينسج الفرنج منه نسجاً رقيقة غالية الثمن ، ويحشي البدو لحفهم ووساداتهم به ، ومتوسط ما ينتف من الجمل في كل ربيع ٢ ـ ٣ كيلو غرام من الوبر ، وقد يبلغ ذلك خمسة كيلو

غرام ، ويصنعون من جلده قرباً عظاماً ، منها التي تتسع ٢٠٠ ليتر من الماء كما يصنعون من عظم يديه أمشاطاً ، ويعمدون إلى جلد ركبته وغيرها من أعضائه التي تحتك بالأرض وهو جالس ، فيصنعون منها نعالاً غاية في المتانة ، ولحم الإبل لا يقل عن لحم البقر ، بل إن لحم سنامه ألذ من لحم البقر ، لكن البعير متى كبر يصير لحمه قليل اللذة لا يأكله سوى الفقراء ، ونسبة لحمه الصافي إلى مجموع وزنه ٥٥٪ تقريباً . هذا وركوب الهجن الأصايل المروضة على الجري يفضل على ركوب أية دابة كانت ، لأنه مريح للغاية ، خصوصاً في البوادي القفراء . ولا يصفو الأصل عند البدو إلا في الجيل الخامس ، وذلك بأن تلقح ناقة من هجين أصيل فإذا أنتجت ناقة ولقح هذه هجين أصيل ، ثم تكرر هذا التلقيح إلى الجيل الخامس فهو الأصل الصافي ونتاجه أصيل ، ومنهم من يؤصلون إبلهم إلى الجيل السابع أو الجيل العاشر . ولإبل عنزة خاصة صبر عجيب على العطش ، ففي أيام الربيع تبقى شهرين أو أكثر بلا ماء ، أما في أيام الصيف فالتي تشتغل منها تطلب الشرب كل يوم أو يومين وقد تصبر إلى اليوم الثالث والرابع ، وهم يردون بها الآبار أذواداً كل ذود في حوض ، ويروونها على نغم الحدو ولطيف الأشعار .

ومصطلحات الإبل في بلاد نجد على ما جاء في كتاب (قلب جزيرة العرب) هي ما يلي : (الجمال) تفيد النوع مطلقاً (الإبل) تطلق على الإناث التي لا تركب ، وهي التي تلد وترضع صغارها ولكنها لا تحلب ، (الناقة) واحدة من الإبل سواء أكانت تحلب أم لا ، (المسح) الإبل التي يستدر حليبها وهي غير التي يرضعها ولدها ، (الجيش) أنثى الجمل التي تستعمل للركوب فقط ، (الذلول) واحدة من الجمل ، (الزمل) الذكور من الجمل إجمالاً ، (البعير) لا يستعمل إلا للذكور ، (الهجين) لا تستعمل في نجد ولكنها تعني الذلول ، وتسمى الناقة الحبلى (اللقحاء) ، والتي تجد وراءها ولدها (الخلفة) ، والتي يسحبها ولدها الذي لا يزيد عمره عن عشرة أشهر (عشرة) .

وقال : ولصغار الإبل أسماء مختلفة بحسب السن التي تبلغها ، فيقال للذي عمره أقل من سنة وقبل أن يفطم (حوار) ، وبتام السنة بعد الفطام (المفرود) أو (الفصيل) ، وفي السنة الثانية (لبني) ، وفي السنة الثالثة (مربوط) ، وفي السنة الرابعة (حق) ، وفي السنة الخامسة (جدع) ، وفي السنة السادسة (رباع) ، وفي السابعة (سداس) ، فإن كبرت من الرباع فصاعداً فهي (ناقة) والذكر (جمل) .

قلت ، إن أسماء صغار الإبل بحسب السن تختلف في كتب اللغة قليلاً عما ذكر ، فهي تقول : إن ولد الإبل يسمى في السنة الأولى إلى أن يفطم (حوار) ، وفي السنة الثانية (ابن مخاض) ، لأن أمه تكون حامل ، وفي السنة الثالثة (ابن لبون) لأن أمه تكون ذات لبن ، أي ترضع أخاه ، وفي الرابعة يسمى (الحق) لاستحقاقه أن يحمل عليه ، ومتى دخل الخامسة يسمى (جذع) ، وفي السادسة (ثني) ، وفي السابعة (رباع) ، وفي الثامنة (سداس) ، وفي التاسعة (بازل) ، وفي تلك السن يكون البعير قد بلغ أشده وصار صالحاً للشراء ، ومدة الحمل في الإبل ١٢ شهراً ومن النادر أن تكون ١٣ أو ١٤ شهراً ، ومدة الرضاع تختلف من خمسة إلى ثمانية أشهر ، قالوا إن ولد الناقة يقف في اليوم الأول من ولادته ، ويمشي في اليوم الثالث ، ويرافق أمه للمرعى في اليوم السابع .

إن انقطاع الغزو وشيوع سيارات الركب السريعة التي صارت تطوي البيد طياً ، يكاد يبيد الخيل ، كما أن السكك الحديدية وسيارات النقل الضخمة أبادت قوافل الإبل العظيمة التي كانت تنقل نواتج الهند والعجم والعراق من بغداد إلى دمشق ومصر ، ومصر التي كانت أكبر سوق للإبل المعدة للذبح قل فيها عدد آكلي لحمها ، فلم تعد تربية الإبل رابحة كما كانت من قبل ، مما اضطر العشائر الكبرى إلى الإقلال منها ، فبعد أن كان عدد ما يباع منها مثلاً عند الروالة حين اصطيافها في الجولان ٣٠ ـ ٣٥ ألفاً في سنة ١٩٢٢ م ، هبط عدد المبيع إلى ١٢ ألفاً في سنة ١٩٢٧ م ، وإلى أقل من ثمانية آلاف في سنة ١٩٢٨ م ، وبينما كانت هذه العشائر لا تربي نعجة واحدة صار عدد الغنم لدى الروالة ٣٠ ألف رأس في سنة ١٩٢٩ م ، ولدى الأسبعة ٥٠ ألف ، ولدى الفدعان ٦٥ ألف وهكذا .

وعلى كل حال ، فالإبل كما قلنا في بحث التحضير من أرخص وسائل النقل وإن كانت بطيئة ، وهي ثروة لا يستهان بها ، فإهمالها دون العناية بأمرها غير صحيح ، ومن أهم ما يعرض للبدوي قلة المراعي لها ، ومن الوسائل الفعالة إفساح المجال له للسرح بها في براري وصحاري لا يستفيد منها سواه ، وفي هذا تخفيف لشظف عيشه ، وترفيه لحالته ، وربح لتجارة البلاد ، وموارد لخزينة الدولة .

الصيد :

وأما الصيد وإن كانوا مغرمين به إلا أنهم لايميلون إليه إلا في أيام الربيع بقصد اللهو

واللعب ، ولبعض شيوخ البدو ولع في قنص الغزلان والأرانب والحبارى والحجل والقطا وأمثالها ، يخرجون إليها فرساناً بالبازي والشاهين على أيديهم وفوق أكف من الجلد لئلا تؤذيهم المخالب ، وتتبعهم الكلاب السلوقية ، فإذا تراءت الحباري للبازى وهو يلمحها قبل الناس طلب الانفلات من يد صاحبه ، فيطلقه ويغير وراءه حتى يدركه فوق الحباري ، يمتص من دمها ويأكل من لحمها ، فينزل عن فرسه ويأخذه ويأخذ الحبارى ، ويستأنف المسير ، أما الأرانب فتقتنصها الكلاب والطيور معاً ، فينطلق عليها الطير ينقرها في رؤوسها وعيونها ، حتى يعمي أبصارها وتتأثرها الكلاب وتبطش بها ، ولهم طريقة أخرى في قنص الغزال لا يطيقها غيرهم ، وهو إذا قل الماء في البر في الصيف حفروا حفراً عميقة عند موارد المياه ، واستكنوا فيها ببنادقهم دون أن يستروها بشيء من حرارة الشمس ، لئلا تنفر الظباء ، فإذا قاربت الشمس الهاجرة واشتد القيظ طلبت الظباء الموارد لتروي ظمأها ، وأتتها أفواجاً فيرمونها وقد يطرحون منها عدة بطلق واحد ، وغالب صيد البدو الغزال ، وباقي الصيد لاقيمة له عندهم ، وقد صاروا بعد انتشار السيارات يطاردونه بها ، بمنتهى القسوة والجور ، ويرهقون هذا الحيوان المسكين ، وهم يكادون يقرضونه رغم وجود قرارات بمنع ذلك ، لعدم إمكان تنفيذها في الفيافي الشاسعة .

وقد يصطادون النعام والوعول والوضيحي والأروية والمها أو بقر الوحش وحمر الوحش أو الفرا ، وهذه الحيوانات أيضاً تلاحق بالسيارات ، وترهق بالمطاردات وطلقات الأسلحة النارية السريعة ، وتعرض للانقراض ،وربما جاء يوم تقفر بادية الشام منها ، فهل يلحقها راغبوها إلى النفود في وسط الجزيرة العربية أو إلى الربع الخالي في جنوبها ؟

وبدو الصليب وأبناء عمومتهم الهتم والشرارات قد اتخذوا لهم الصيد حرفة يصطادون بالأفخاخ ، أو ببنادقهم الششخانة القديمة ، أنواع الطيور والحيوانات الوحشية التي ذكرناها ، وفوقها اليرابيع والضباب والوبر الذي يشبه الأرنب .

وعلى ذكر القطا نقول إن هذا الطير يقيم في البراري والقفار ، وهو شديد الطيران يبعد إلى مسافات شاسعة في طلب الغذاء والماء ، والعرب قديماً أحبوه وأكثروا من ذكره في أقوالهم وأشعارهم ، ووصفوا جثومه على بيضه في عشه ، ونهوضه من مجثمه ، ووصفوا سراه ليلا ، ووروده الماء وسيره إليها متدافعا وصدوره عنها ، وعقدوا لوصفه المجالس

والمباريات ، وقد حكمت في إحداها الشاعرة ليلى الأخيلية ، وضربوا بصفاته الأمثال ، وجعلوا تركه طيب المنام دليلاً على مزعجات الليالي ، وجعلوه شريك المحب في حبه ، والغريب النازح في غربته ورحلته ، وقد رأى مجنون ليلى سرباً منه فهاجت شجونه وقال :

أسرب القطا هل من يعرني جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

والقطا من فصيلة الحمام ، وهو يشبه الحجل بلونه ومشيه ، وله أربعة أنواع (الكدري) ذو البطن الأسود والظهر الأرقش الأشهب ، ومنه ضرب يدعى الجوني يكون بحجم الحجل ، والنوع الثاني (الحر) وهو غير حر الصيد بطن القطاة منه بني فاتح وظهرها بني مرقط ،والثالث (المطوق) وهو مخطط بخطوط هلالية الشكل بعضها سوداء أو رمادية وبعضها كستنائية ، والرابع (الصياح) أو (القطقاط)يصيح قطا قطا يشبه الحجل في لونه غير أن لون بطنه بني ، وهو كثير في البادية يهاجر بالملايين في سني المحل إلى القرى الشرقية الواقعة في طرف المعمورة ، وبعض عشائر البادية وأهل القرى يعيشون مدة من الزمن على بيضه المنتشر في البادية ، وترى الصبيان يطوفون في البراري والآكام يلتقطون بيوضه ، وكثيراً ماترى الآكام وقد حط عليها القطا ، وهي تكاد تحجب الشمس وتسمع صوت أجنحتها فوق رأسك كأزيز الطائرات ، والقطا تبيض مرة في السنة بيضتين وقد تبيض ثلاث ، وهي ولوعة بشرب الماء وإذا لم تجده في البادية تهاجر هي وفراخها إلى القرى التي في شرقي المعمورة حيث ترد الماء أسراباً أسراباً ، وهي لا تغشى المعمورة إلا في سني المحل ، ومن ثم يقول الفلاحون (سنة القطا بيع الغطا) دليل المحل والفاقه وطريقة صيد القطا هي : أن الصيادين يحفرون حفرة عند مصب الأودية أو الغدران ، بحيث يكون قطر الحفرة نحو متر وعمقها نحو نصف متر ثم يبنون حولها حائطاً من الحجارة في ارتفاع نصف متر ، يسدمن ثقوبها بالطين عدا ٣ ـ ٤ ثقوب في كل جهة ، يتركونها كمزاغل يسددون بنادقهم منها نحو القطا ، حين وروده الماء ، ويسمون هذه الحفر (نوجة) . ويرتدي الصياد ثياباً صفراء ، أو غبراء ليختفي عن القطا المارة .

التجارة :

أما التجارة فلم يكن للبدو عناية خاصة بها ، وإنما كانت عنايتهم من باب المعاونة

لأصحابها ، بمعنى أنهم كانوا ينقلون البضائع والأموال على أباعرهم ، ويحامون عن القوافل التي كانت تنقل تلك البياعات ، وهذا كان دأبهم منذ أقدم الأزمان إلى أن ظهرت سيارات النقل الضخمة ،واكتسحت الصحارى والبراري بسرعتها وسهولتها وسلامة منقولاتها ، فانقطع رزق البدو من هذه الناحية ، وقد كان أصحاب القوافل فيما مضى يدفعون إلى حماة القوافل المدعوين بـ (المبزرقة) أجرة يسمونها (الخفارة) ، وهذه العادة كانت جارية إلى قبل نصف قرن عند العشائر النازلة على طرق النقل ولا سيما طريق الحج ، فإنهم كانوا يتقاضون مبالغ من الحكومة العثمانية تعرف باسم (الصرة) . وإذا أراد أهل الحضر أن يمروا بأرض عشيرة يجبرون على دفع بدل لمرورهم يسمى (الخوة) ، وسيأتي الكلام على هذه الخوة في مكانها .

الغزو :

وأما الغزو فهو في عرف البدو يطلق على عدة معاني ؛ فهو يطلق على الكتيبة المسلحة نفسها ، وعلى الفرسان الذين يؤلفون هذه الكتيبة ويسيرون للقتال ، ويطلق على القتال نفسه ، وفي اللغة غزا العدو غزواً ، سار إلى قتالهم وانتهابهم في ديارهم ، والغازي اسم فاعل وجمعه غزاة ، والمغازي مناقب الغزاة ، والقصد من الغزو السلب والنهب ، أو أخذ الثأر وكشف العار .

والغزو عادة قديمة توارثها البدو منذ أعصر الجاهلية ، فقد كانوا اتخذوها وسيلة من وسائل العيش ، يغيرون على عشائر معادية ـ وما أكثر المعاداة عندهم ـ فيأخذون إبلهم وغنمهم ويسبون نساءهم وأولادهم ، وتتربص بهم العشيرة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلوا ، بل هم إذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم ، ولعل خير مايمثل ذلك قول الشاعر القطامي :

فمن تكن الحضارة أعجبته ... فأي رجال البادية ترانا[1]
ومن ربط الجحاش فإن فينا ... قنا سلباً وأفراساً حسانا[2]

(١) يقول إن كل ما أعجبك من رجال الحضر فهو أكثر بيننا منهم وإن كنا أهل بادية .

(٢) وإذا رضي أهل الحضر بربط الجحاش واقتنائها ، فإنا لا نرضى إلا بما عندنا من الرماح الطوال التي تسلب النفوس ، والخيل الحسان التي تعين على دفع الأعداء .

وكن إذا أغرن على قبيـــــل فـــأعـوزهن نهب حيث كانـــا[١]
أغرن مـع الضبـــاب على حــلال وضبـة أنــه من حـان حـانـا[٢]
وأحيــانـــاً على بكر أخينـــا إذا لم نجـــد إلا أخـــانـــا[٣]

ويشبه هذا قول بدو زماننا وهم سائرون إلى الغزو :

عيب عــالي مــايحضر المنــايــا ويشتري في ســوقهــا ويبيــع
والعــز في ظهــور الصفــايــا والعمر عنـــد الله وديـــع

وغزو العشائر بعضها بعضاً عادة محرمة ، ممقوتة عقلاً ونقلاً ، ينجم عنها البلاء وسفك الدماء ، وتحول دون بقاء الثروة الناطقة والصامتة فيهم ، فقد تكون العشيرة اليوم في الغاية من طيب العيش ،ناعمة البال بحلالها أي ماشيتها فتغزى من الغد في عقر دارها ، فلا تلبث أن تصبح أعرى من مغزل لا سيد لها ولا لبد ، دع مايصيبها من نقص الأنفس ، فقد كان من النادر أن تجد رجلاً من البدو بلغ أقصى سن الشيخوخة لأنه يعتبط في الغزوات ، ويقتل في سن الفتوة غالباً ، وهم يعتذرون عن الغزو إذا لوموا عليه بأن الغزو ضرر لامفر منه ، ولهم فيه معاش لا يستغنون عنه ، وإن في الضرب بالنار أخذاً للثأر وغسلاً للعار وأن لاطاقة لهم بحسمه ، إذنفعه أكبر من إثمه إلى آخر ماهنالك من الأعذار الواهية . والغريب أنهم يأخذون معهم الصبيان ليعتادوا من حداثتهم شهود الميدان والثبات في معترك الفرسان ، على أن الحكومات في العراق والشام وشرقي الأردن في يومنا قد حظرت ولله الحمد الغزو على العشائر حظراً تاماً ، وهددت بالعقوبات والغرامات ، واستعادة المنهوبات ومصادرة السلاح والعتاد والخيل والسيارات وكافة الأدوات المستعملة في الغزو ، وسجن رئيس العشيرة ، وألفت لأجل تنفيذ ذلك قوات برية من راكبي الهجن أو السيارات المصفحة ، وجمعت جنود هذه القوات من أبناء العشائر أنفسهم ، ناديك الطيارات وقذائفها من الجو حين الحاجة ، وكلما زاد هذا الحظَر واشتد جانب هذه القوات

---

(١) وكن أي الخيل أنزلها منزلة أربابها وهم المغيرون ، وجواب إذا أول البيت والجملة خبر كن .

(٢ و٣) معنى البيتين أن أرباب الخيل منا كانوا إذا أغاروا على ناحية وتعسر عليهم السلب والنهب من الأباعد عطفوا على الحي المجاور لحيهم من عشيرتي ضباب وضبة ، وقوله من حان حانا أي من جاء أجله فهو لابد هالك ، وهم أحياناً يغيرون حتى على إخوانهم من بني بكر إذا لم يجدوا إلا أخاهم هذا .

وحسنت إدارتها وسيرتها استقر الأمن والسلام في البادية ، ونجا أهلها من الفناء والشقاء ، واضطروا إلى ترك الغزو والنهب والسلب والاتجاه نحو التحضر والزرع والضرع ، وهو غاية ماينشده ويرجوه لهم كل محب .

كان البدو دائماً بين مهاجم ومدافع ، وكل عشيرة على حذر تام من الأخرى ، تتلقف الأخبار عن حركاتها ، وتجهز نفسها بالعتاد ، وتحتاط للحرب أشد الاحتياط ، وكان في ذلك حكمة تدفعهم إلى حصر النمو والتكاثر ، لئلا تضيق دونهم أرضهم فالحليف عندهم يعرف (بالصديق) ،والعدو بالقوم أو (القوماني) ، والغزو أقسام حسب قلته أو كثرته ، فمن قليله (الحنشل) وهو يتألف من ٢ ـ ٣ رجال مشاة ، يباغتون أبناء السبيل المنفردين العزل ويسلبونهم ، و (السريبة) وهي تتألف من ٥ ـ ١٠ فرسان ، و (السربة) هي أكبر من السريبة وتتألف من ٢٠ ـ ٣٠ فارساً ، ومن الغزو القليل ما يسمونه (الخواف) وهم ثلة من اللصوص المغامرين يتسللون ليلاً إلى حلل البدو وهم نائمون ، ويسرقون ماتصل إليه أيديهم ، إما إذا زاد العدد عن السربة تكون العشيرة كلها قد نازلت عشيرة أخرى وقاتلتها ، فهناك يقع ما يسمونه (الحرب) . فالغزو تشكيل تام التجهيز ، مؤلف من فرسان وهجانة ، لا يقل عددهم عن ٥٠ ـ ٦٠ ، والهجانة يؤلفون ثلثي المجموع أو ثلاثة أرباعه حسب المسافة التي يجتازونها ، لأنهم يحملون الزاد والعتاد أيضاً ، ويكون على رأسهم قائد يسمونه (العقيد) ، قد مارس كل ضروب الغزو من الحنشل وما فوق ، وعظمت مهارته وخبرته ، وعرفت شجاعته وحظوظه ، وهو وحده يقرر الحركات التي يسيرها وينظم أصولها وفروعها ، ويكون هو وحده المسؤول عنها ، يعاونه في ذلك (المنيخ) الذي يأتي بعد العقيد في القيادة والإشراف على الركوب والنزول والزاد وحفظ خط الرجعة ، وقد يستشير العقيد كبراء حملته ، لكن السلطة المطلقة له دون غيره ، وللبدو في الغزو والحروب فنون خاصة اتخذوها منذ القديم ، ونحن نذكرها ونتتبعها من حين بدئها إلى أن تنتهي :

إذا تاق البدو إلى الغزو وحنوا إلى السلب والكسب ، أرسلوا (السوابير) جمع سبور من سبر بمعنى عرف واختبر ، أو (الطراريش) بمعنى طارش وهو بنفس المعنى وهم الرقباء أو الكشافة أو الجواسيس ، يكشفون منازل العشيرة المعادية ، ويستطلعون ماهي عليه من

الاحتياطات والتبصر فيا إذا كان لديها علم بقدوم الغزو ومتهيأة نحوها ، وحينما يقتربون منها ينبطحون على الأرض ، ويتسترون وقد يغامر بعضهم ويدخل بصفة ضيف أو عابر سبيل ، يتفحص عدد البيوت والبنادق والماشية ، والحالة الروحية ثم يعود ويخبر جماعته عما رآه وتحققه ، ويجري كل ذلك سراً ، فإذا أتت (العلوم) أي : الأخبار بما أنسوا منه خيراً ، يعلن الشيخ الغزو ، ويضرب موعداً لاجتماع الغزاة في وقت معين ، ثم يتفقد جنوده ، فمن كان منهم غير مجهز بالسلاح والعتاد الكافيين ، أو كانت راحلته هزيلة لا يركن إليها فرزه من بين الغزاة وأمره بالرجوع ، ومن ثم يقسم الغزو إلى فرق كل فرقة يرأسها عقيد ، فإذا اكتمل العدد المطلوب سارت الفرق بين ركبان ومراديف ، ولا يعلم سبيل الغزو وهدفه في الأكثر إلا العقيد وحده ، ويبقى رفاقه جاهلين ذلك إلى أن ينتصف الطريق ، وحينما يطلع العقيد رفاقه على بغيته يخرج من الفرسان (طليعة) إلى الأمام ، ويتأخر الجزء الأكبر وراءها بضعة كيلومترات ، ومن عادة الغزاة أن يتحاشوا الطرق المسلوكة فهم يسيرون سيراً متعجاً حلزونياً ، ولا يردون المناهل إلا في الليل ، ولا يسيرون منفردين كي لا يلحظهم أحد ، فإذا صاروا على مقربة من الحلة المقصود غزوها وقفوا وأرسلوا السوابير واستطلعوا حالتها بدقة ، فإذا جاءت (العلوم) وقرروا الهجوم اقتربوا حتى يتراءى لهم (الزول) وهو العدو المقصود حينئذ ينيخ العقيد هجانته ويعبئهم في طريق الرجعة .

ثم يقسم فرسانه إلى قسمين يسمى الأول (الغوار) وهو القسم النشيط الخفيف الحركة ، وواجبه أن يسطو على الماشية ويجفلها بإطلاق الرصاص ويسوقها بسرعة ، ويسمى الثاني (الكمين أو الملزمة) وهو قسم يتألف من أحسن الرماة وأشجعهم ، وواجبه أن يقابل المدافعين (الفازعين) الذي يهبون للدفاع واسترجاع الماشية المنهوبة ، ويشاغلهم مهما أمكن من الوقت ، ريثما تصل هذه الماشية إلى الهجانة فيستلمها هؤلاء ويسوقونها ، لأن المدافعين يهاجمون الغزاة فوراً ويتهالكون في الدفاع ، ويستميتون عند أموالهم وحلالهم ، فكل الشبان والكهول في الحلة التي هوجمت وكل القادرين على حمل السلاح والزود عن المال والحلال يكلفون بالدفاع ويهرعون للقتال ، فإذا قدروا أن يصلوا إليها قبل أن تؤخذ أو قبل أن يسوقها الهجانة فازوا وردوا الغزو ، وإن تأخروا أو ضعفوا عادوا

خاسرين ، وفي القتال الفرسان تتبع الفرسان فمن قتلوه أو أسروه أو طرحوه عن ظهر فرسه ، وهو (القلاعة) عندهم يحسبونه خير مغنم .

وإذا كان الغزو سائراً وصادف (خبأً زولاً) لم يتحققه عن بعد ، أطلع من فرسانه طليعة قليلة تغير بخيلها ، وهم يتبعونها خبأً حتى تدنو إليه دنواً تتحققه به ، وبين الفريقين مرمى طلقة ، فتنحرف الطليعة شرقاً أو غرباً أو جنوباً أو شمالاً على غير الطريقة المتخذة ، ولكل من هذه المراكض معان معلومة عندهم ، وهي التي يدعونها (العرض) ، وعرض الجيوش مأخوذ منها ، فإذا عرفوهم حلفاء (أصدقاء) عرفت الحملة كلها وتدانوا دون أن يتماسوا بضر ، وإلا افترقوا فرقاً ، أو ساروا فرقة واحدة حسب اقتضاء الموقف والكثرة ، فينشب القتال بينهم ، فإن ظفروا بهم تولوهم ، وخلفوا جماعة تسوق ما يصيب الإبل والماشية .

ومن عوائدهم أن يقسم كل الكمين والغوار إلى ميمنة وميسرة وقلب ، ويتشابكون على ظهور الخيل بالبنادق ، وكل فارس يطارد آخر من العدو ، وفي الغالب ينادي الطالب المطلوب بقوله (خيال يا خيال) وينتخي كل منهم بقوله أنا أخو فطيم أو راعي البلها أو العليا أو الحمدانية وغير ذلك ، ليعرفه بنفسه ولينبه المطلوب ، حتى لا يكون فعله غدراً أو لإخافته ، فإن اعتمد المطلوب على قوته أو فرسه يجيبه بقوله (تخسه : إخسأ ، أنا أخو فلانة راعي كذا) وإن أحس بضعفه ، أو ضعف فرسه عن الدفاع يجيب بقوله (امنع يا خيال) أي امنع أذاك عني ، وليس ذاك جبناً إذا كان ثمن اضطرار لمعذرة ، فيقول له الطالب (على رويحك) أي أنني أمنع أذاي عن نفسك فقط أو (على فرسك وسلاحك) إي إذا سلمت تنجو بروحك وسلاحك وفرسك ، فيكون الأمر مساومة حتى إذا قبل المطلوب نزل عن فرسه فيكون منيع الطالب ولا يحق لأحد معارضته ، ولو بقي سلاحه في يده ولا أن يشترك في الحرب .

هذا ولكل مبارز شعار ينادي به في ميدان الحرب ، وهذا هو المسمى عند الماضين بالاكتناء من الكنية وعند المعاصرين بالنخوة ، وهي في اللغة العظمة والفخر ، ويقولون انتخى عليه أي افتخر وتعظم ، وإذا كان المنتخي أكثر ما ينتخي على طريق الكنية كأن يقول (أنا أبو فلان أو أخو فلانة) جعل هذا الفخر في ساحة القتال اكتناء وسمي هذا

الاكتناء انتخاء ، وفي الانتخاء يعرف الفارس بنفسه في ساحة الوغى بلقب من الألقاب ، أو وصف من الأوصاف يصير عليها علماً ، فالشعلان رؤساء الروالة ، ينتخي أحدهم (خيال العليا وأنا ابن نايف) ومتى قيل (رعاة العليا) علم أنهم الشعلان عند كل البدو ، ولهم نخوة أخرى وهي (أخو صيتة) ولم نعلم ما أصل هذه التكنية فهل هي من الصيت ، ونخوة ابن سمير شيخ ولد علي (خيال الملحمة ولد علي) وقيل (أخو عذرا) وعذرا قرية في شرقي قضاء دوما ، يظهر أنه كان لأبناء سمير عليها خوة سنوية فتكنوا بها . ونخوة ابن الطيار (أخو ثنية) ولعلها ثنية العقاب شمالي عدرا ، ونخوة السردية (أخو ذيبة) ، ونخوة الفايز من بني صخر (أخو بلها) ، ونخوة الحامد من بطونهم (أخو عمشاء) ، والزبن (أخو وضحاء) ، ولم نعلم مرادهم بالبلهاء ، ونخوة الأسبعة (عرفة سبيعي) ، ونخوة العمارات (أخوة بتلة) ، ومن الأقوال الشايعة (أخوة بتلة أنسب الحمايل) ، ونخوة شيوخ الأحسنة آل ملحم (خيال البويضة أحسني أخو فضة) ، ويقولون حين العرضة (خيال البويضة صاعدي) ، ولم يفسروا معنى صاعدي ، ونخوة الشيوخ من آل مهيد في الفدعان (أخو قطنة) ، ونخوة أمراء الموالي (خيال البلهاء ولد الأمير) ، ونخوة أعراب الموالي (الدواخلة) ، ولم يفسروا معنى هذه الكلمة ، هل هي من أنهم دخلاء على الأمراء ؟ ونخوة الدنادشة (أخو زرقاء) ، وهكذا لكل عشيرة نخوة وكنية ، تتعرف بها لا يكاد يأخذها عد ، فاكتفينا بهذا المقدار ، وهذه النخوة من أكبر أسباب التكاتف عندهم ، ويقال لها (العزوة) أيضاً ، وفيها تتشارك العشائر التي تمت إلى نجار واحد ، وغالب العشائر تعرف القربى بينها بسبب هذه النخوة ، وهي حسنة إذا صرفت في سبيل اتباع الحق ونصرة المظلوم ومقاومة الشر .

ومن عوائدهم أن يغير الغزو صباحاً قبل الفجر ، أو قبل طلوع الشمس على الأقل حينما تكون مواشي العدو في حظائرها ، والإبل معلقة والخيل مقيدة ، ورجال الحرب نائمين أو غافلين بعيدين عن أسلحتهم ، فيمكن الغزو من الإحاطة بالعرب على حين غرة ، فينهب المواشي والأموال ، وإذا أمكن بيوت الشعر برمتها . ولهذا قالوا (إن العقيد الفلاني غزا العقيد الفلاني وخلى عمدها تقرع) أي تمكن من اغتنام مواشيها وأموالها حتى بيوت الشعر ، ولم يترك في المنازل إلا أعمدة البيوت تقرع بعضها بعضاً ، وكثيراً ما ينتصر أفراد قلائل من العشيرة المهاجمة على الغزاة المهاجمين ، ذلك لأن موقف الدفاع يكون أقوى من

موقف الهجوم . ويذكر الناس كثيراً من الغارات التي ردها عن المغزوين شخص واحد أو بعض أفراد قلائل ، ليس هذا فحسب ، بل إنهم تمكنوا من قتل كثير من الغزاة وأسر من يبقى منهم ، وإذا قصر أحدهم في الحرب ، أو هرب من الميدان ساءت سمعة والده أو ولي أمره ، فكان لوالده أو ولي أمره الحق في إرغامه على لبس ثياب امرأة ، ولا ينزع ذلك حتى يبدي شجاعة فائقة في غزو آخر .

هذا وإذا رجع الغزاة إلى قومهم ظافرين غانمين لاقتهم النساء بالهلاهل والأهازيج ، وخرج إليهم من تخلف من قومهم ، يهنئونهم بالظفر ويصرخون (الحذية الحذية) وهي ما يعطيه السالب لصاحبه من السلب ، فيعطونهم ولا يبخلون ، وربما أعطى السالب سلبه فما كفاه ، فأعطى شيئاً من سلاحه أو ملابسه ، والغالب في قسمة السلب أن يأخذ الشيخ أو الأمير خمس المسلوب كله عملاً بالآية الكريمة : ﴿ واعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُم مِنْ شَيءٍ فأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ... ﴾ وقد جعلت العادة شيخ العشيرة مقام الرسول ، ويوزع باقي السلب للفارس سهمان ولسواه سهم واحد ، إلا القلائع فهي لأصحابها ، وقد يرجع الغزاة مخذولين ، فتلقاهم النساء بالشتائم والأقسام ويصرخن « العودة العودة » كي يرجعوا ويأخذوا بالثأر ، فيرجعون ويقاتلون شر قتال حتى يظفروا أو يتلاشوا ، وقد ترافقهم النساء أيضاً تنشطهم (تنخيهم) وتضمد جراحهم وتسقيهم الماء وربما قاتلن معهم ، والدفاع يختلف عما ذكر ، فإذا أتتهم علوم عن مجيء غزو وآنسوا بأنفسهم قوة لدفعه ، قاموا على ما ذكرنا آنفاً ، وعهدوا إلى فريق منهم أمر حفظ الحريم والمواشي والبيوت بما فيها واندفعوا للملاقاة ، وهناك يشتهر بالشجاعة من يشتهر ، وهؤلاء المدافعون كثيراً ما يصدون الغزاة ويردونهم على أعقابهم خائبين ، لذلك يتحاشى الغزاة كثيراً الحرب عند الظعون أو الهجوم على العدو عند البيوت .

إذا رأى المدافعون في أنفسهم العجز والخور لقلة في العدد ونقص في العتاد أسرعوا إلى نزع الأوتاد ، والرحيل ببيوتهم وذراريهم ونعمهم ، ويتخلف فرسانهم ومقاتلوهم للدفاع والإشغال .

ومن عادات البدو القديمة اتخاذ العطفات جمع عطفة بضم العين وذلك أنهم يأتون وقت الحرب ببنت من أكرم بنات العشيرة وأجملهن وأنشطهن وأطلقهن لساناً ، والغالب أن

تكون بنت الشيخ أو العقيد ويركبنها ناقة عليها هودج ذو شكل خاص ، يدعونه العطفة يغطونه بريش النعام ويدعون هذه البنت (العمارية) ؛ وهي تكون من العارفات برجال الحي ومزايا كل منهم ، فتسوق ناقتها إلى الأمام وتكشف رأسها وتمايل وتنخي القوم بكلام مؤثر يفعل في النفوس فعل الكهرباء ، وتحرضهم على القتال ، وتمتدح المتقدمين وتقرع المتراجعين وتلوم المنهزمين ، وتصيح فيهم ، العودة العودة ، عليهم عليهم ، فيكر هؤلاء ويستميتون في الهجوم والدفاع ،ويقصدها العدو خشية أن تشجع ذويها ، وكثيراً ما تصاب المسكينة قبل كل أحد ، وكثيراً ما يناضل ذووها عنها ، وهي تتقدم نحو العدو فيشتد الحرب حولها ، ويقوى الصراع وتتجندل الأبطال إلى أن يتم النصر لأحد الفريقين ، وفائدة هذه العمارية أو العماريات استحثاث الهمم وتقوية العزائم ، بصوت العذارى الجميلات ودعوتهن وتحميسهن .

ومن عادة البدو أن من خسر عطفته وأوقعها في يد عدوه ، لا يمكنه أن يتخذ بدلها ، مالم يأخذ هو عطفة من عدو ويغنمها ، ومن ثم فقدت العطفات من جميع العشائر إلا من آل شعلان في عشيرة الروالة أكبر عشائر عنزة عدداً وقوة ، فاقتصروا على العماريات أي الفتيات المحرضات بدون عطفة ، وهؤلاء يقفن على أباعر أو في مكان عال ويصحن ويثرن الهمم كما قلنا .

ومما قاله الرحالة السويسري (بركهارت) في كتابه (رحلة في بلاد العرب) في بحث الغزو : وكلما قامت عشيرة بحملة يرأس الكتيبة رجل يدعونه العقيد ومن مزايا البدو أنهم خلال الحرب تبطل عندهم سلطة الشيخ بتاتاً ، وينقاد المحاربون منهم إلى العقيد وحده ، فلكل عشيرة عقيد غير الشيخ ، ومن النادر جداً أن تجتمع الوظيفتان في شخص واحد ، أو أنني لم أسمع بذلك قط ، ووظيفة العقيد وراثية في عائلة معينة ، وتنتقل من الأب إلى الابن . وإذا التحق الشيخ بالكتيبة ينقاد إلى العقيد ، حتى يعود الغزاة إلى أهلهم وحينئذ تنتهي إمرة العقيد وتعود إمرة الشيخ كلها .

وشخص العقيد وخاصة وظائفه تحترم جداً ، وينظر الأعراب إلى وارث هذه الوظيفة ، كنظرهم إلى الفال أو الطالع أو شيء مقدس ، وكثيراً ما يقررون الحرب بناء على حلم رآه أو إلهام أتاه أو حدس خطر له ، وهو يحدد اليوم الذي يرجحه للهجوم ،

والأيام التي يخيل إليه أنها نحسة وحينما يشتهر العقيد بشجاعة وفطانة يحتفظ حتى في أوقات السلام بنفوذ كبير في عشيرته ، ورأي العقيد وإن لم يعلو على رأي الشيخ ، لكنه يستشار في الحالات الحرجة ويكون لأقواله اعتبار كلي ، وإذا نجح أي بدوي بمعونة أصدقائه الخلص في بضع غزوات يلتف حوله الأنصار ، وإذا توالى نجاحه يذيع صيته بأنه مبروك في تشبثاته وهكذا يحوز مرتبة عقيد ثانٍ ، هذا وإذا كبس البدو مخيماً ونهبوه في الليل أم في النهار يعاملون النساء باحترام في الغالب ، وأستطيع أن أقول أنهم يراعون شعورهن ، ولم أسمع بحادثة مخالفة لذلك قط ، إلا أنه يحدث أحياناً إذا كانت العداوة محتدمة بين الفريقين أن يسلبوهن الحلي ، وذلك بأن يأمرونهن بأن يشلحن الحلي بأنفسهن . وهذه القاعدة متبعة بدون تغير لدى الوهابيين ، فهم بينما يغيرون على حي من أحياء البدو يأمرون النساء أن يشلحن ثيابهن وحليهن الثمينة التي يحملنها ، وحينما يصدرون هذه الأوامر يقفون على بعد كاف عن النساء ويديرون لهن ظهورهم ، ا هـ .

حقوق الغزاة :

هذا ومن عوائد البدو في الغزو أنه إذا طعن أحدهم فرداً من الأعداء وأرداه قتيلاً أو جريحاً تكون مطيته ملك الطاعن . وتعرف تلك المطية (بالقلاعة) أي مقلوعة ممن كان منصوباً عليها وليس للعقيد الحق في أخذ شيء من القلائع ، وكثيراً ما يطعن أحد الغزاة شخصاً بعد أن يجندله عن فرسه فتهرب تلك الفرس وتقع في يد آخر من الغزاة فلا تكون من حق الذي أخذها بل من حق الذي أخلى سرجها . وإذا وقع أحدهم جريحاً أو قتلت فرسه وسقط عنها وجب على كل من رآه طريحاً أن يبادر إلى نجدته ، فيردفه وراءه على فرسه ، وينقذه من هول المعركة ويعرف ذلك أن الجريح عندهم (بالرديف) ، وللشخص الذي ينقذ الرديف شأن عظيم عند قومه ، وله من الغنائم مثل ما للمجاهدين في المعارك ، ولو كان فعله فيها قليلاً . أما الغنائم فيأخذ العقيد الأكبر لنفسه ما يراه مناسباً وقدره الثلث في الغالب ،ويوزع الباقي مراعياً جهود كل فرد حين القتال ، وليس أعدل من البدو في تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تحرياً للعدل ، فيقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص والسروال ، كل هذا إرضاء لضمائرهم ودفعاً للظلم ، وهم يعرفون بيوت الشعر حق المعرفة ، لأنها بيوتهم التي يعيشون فيها ، ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاة للعدل ، أما الإبل

والغنم فإنهم يقسمونها إذا أمكن القسمة ، أو يقومونها بثمن إذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة . وإذا وقع أحد المتحاربين أسيراً في قبضة العدو اعتنوا به وأكرموا وفادته ، وإذا وجد العدو بين الأسرى جريحاً عالج جراحه حتى تشفى ، وإذا مات دفنوه باحترام ، وإذا كان الميت من عيون قومه رثاه العدو ، وأخيراً يقدم العدو للأسرى زاداً ومطايا تحملهم إلى مواطنهم .

التضامن البدوي :

إن ثروة البدوي في هذا الغزو سريعة الزوال ، ولا تستقر على حال فهي تحاكي ثروة المقامرين في المصفق (سوق البورصة) إذ بينما ترى البدوي يضحي وهو ذو ثراء في ربعه إذا بك تراه يمسي وهو لفقره المدقع كأن قد ضرب على سمعه وبصره ، لكن البدو من مناقبهم التضامن في البلوى ، والتعاون على المصائب وقد قدمنا أنهم يتسابقون إلى إمداد العزيز إذا ذل ويتعاونون على إقالة عثراته . والعشيرة أو الفخذ أو الأقارب بمنزلة أسرة واحدة بينهم (تضامن وتكاتف) وهم إذا لم يشتركوا في جريرة ما ، متضامنون في السراء والضراء ، ويلبون عند الدعوة ويجيبون النداء ، يغضبون لغضب قريبهم دون أن يعلموا السبب .

ومعيشة البدو قلقة ومعرضة لكثير من الأخطار ، والمهددات للكيان لاسيا في أيام فوضى الأحكام ، وغفلة رجال الأمن وضعفهم ، ولذا ترى البدو يتخذون وسائل عديدة لدعم التضامن بينهم ، والتأهب لدفع الطوارئ ، وأهم هذه الوسائل الاجتماعات المتوالية في ربعات الشيوخ والكبراء ، والمذاكرة في كيفية حراسة الأموال والأنفس وترديد الوقائع السابقة واللاحقة ، وحكايتها وتهييج العداء والحماس بالهوسات والأهازيج والخطابات المقترنة بالأشعار .

وإذا رأت عشيرة نفسها في ضعف عمدت إلى التحالف مع العشائر الأخرى المجاورة ، مذكرة لها بقرابة ونسابة مهما كانت بعيدة أو بوقائع مماثلة أعانتها بها في يوم مضى ، أو بأن الخطر مشترك وسينالها ما ينال هذه وأمثال ذلك ، وبعد هذا التهويل والاستنهاض أو الاستعطاف يحصل الاتفاق أو التحالف الدفاعي أو الهجومي أو يتدخل في أمر الصلح ، وكل هذا يشبه ما يقع بين الدول التي تسمع بعقدها محالفات ثنائية أو ثلاثية أو أكثر ضد حلف مماثل لها ، حفظاً للتوازن ودرءاً للأخطار المشتركة في معترك الحياة .

القضاء عند البدو

التشريع البدوي ـ أصول العشائر

القضـاء عنـد البـدو يتبع العرف والعـادة ، وليس ثمة قـوانين مكتـوبـة ولا خطـط مرسومة ، وهذا القضاء في أيدي شيوخ العشائر ، وهم حريصون جداً عليه ، ولا يقبلون به جدلاً ولا يرضون بتعديلـه بـ (القضـاء المـدني) الـذي يسلبهم سلطتهم ويخفض شوكتهم ، وهؤلاء الشيوخ هم إما قضاة في الدعاوى التي تقام وسط العشيرة ، أو هم محكمون في التي تقام بين العشائر المجاورة ، وهم إذا لم يتولوا القضـاء بـأنفسهم ينيبون عنهم رجـالاً أخصـائيين في القضـاء البـدوي يـدعونهم (عـوارف) جمع عـارفـة ، والشيـخ أو العـارفـة يحكم من بنـات أفكاره ، بما اكتسبه من الاختبار والتعامل القديم والوقائع السـابقـة المماثلـة ، ولهـذا القضـاء أنصـار ومحبـذون كما لـه أخصـام ومعترضون ، ولكل من الفريقين آراء وبراهين ، وهـا نحن نذكرها ونترك الحكم فيها للقارئ .

يقول أنصار القضاء البدوي أن هذا القضاء سريع في مرافعاته عاجل في أحكامـه التي لا استئنـاف فيهـا ولا تميز ، وأن فيـه ميسرة تمكنـه من تقـدير (المسؤوليـة المشتركـة) في العشائر المعتادة على التنادي والتناصر والتطـاحن عنـد حـدوث (الهوشـات و الطوشـات) التي يخوض غمراتها العشرات منهم وأحياناً المئات ، فيتعذر تحـديـد الفـاعلين وتمييزهم ، وأن هذا التنادي والتناصر الناجمين عن (العصبية العشـائريـة و الحميـة البـدويـة) لا بـد منهـا لإقرار السلام وحفظ التوازن في هذه البوادي المتراميـة الأطراف البعيـدة عن مراكز الـدول ومحـاكمها وقوانينهـا ، ويقـولـون إن في القضـاء البـدوي مجـالاً للبـدوي الضـارب في تلـك البراري ، يمكنـه من أن يترافع ويبلغ حقـه عنـد أقرب قـاض ، وفي أسهـل أسلـوب وأقصر زمن ، وأن في (القضاء المدني) تحقيقاً وتعقيداً وتطويلاً بينما البدو يرغبون قضـاء مفهومـاً لديهم وحكمـاً عـاجلاً ، لا تؤجل جلسـاتـه من وقت إلى آخر ، ولا تبطيء إجراءاتـه ، وأن يحكم لهم أو عليهم في جلسة أو جلستين .

ويقول أخصام القضاء البدوي أن الإسلام قد أزال العرف العشائري الجاهلي في القضايا العامة ، وأمر باتباع الشرع ، وصرح بأن الحكم بمقتضى هذا العرف مخالف للآية ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ وللآية ﴿ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وأن هذا العرف العشائري لم يعد إلى الجزيرة العربية بعد منع الإسلام إلا عقب أن ضعفت سلطة الخلفاء وقلت عنايتهم بالعزب والعروبة ، وانكمشت العشائر في باديتها ، ورجعت إلى كثير من العادات التي كانت عليها في جاهليتها كالغزو وما إليه ، وتولد التكاتف على الحق والباطل معاً ، واتسع المجال للحزبية والعصبية القبلية (العشائرية) ، وصارت العشائر لا تعمل بالشرع إلا في الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، أما في الأمور الحقوقية والجزائية فشرعها هذا القضاء العشائري أو العرف البدوي الباقي من عهد عاد وثمود ، وهو نتيجة أثرة وتحكم وقوة في جهة ، وضعف واستكانة في أخرى .

والمعترضون يقولون إن على الحكومة أن تحد من قانون العشائر ، وتجعل غالب الدعاوى الشخصية مما لا مساس له في السياسة العشائرية في حسمها تابعة إلى القضاء المدني والحكم النظامي ، وأن توعز الحكومة إلى المحاكم الناظرة في دعاوى البدو أن تسرع في بحثها وتحقيقها وحكمها ما وسعها الجهد ، كي لا يبقي ثمة حجة لهم في الإعراض عن هذه المحاكم ، وهم إذ يذكرون القضاء البدوي يصفونه بأنه قضاء جاهلي ، وأن له المآخذ والنقائص الآتية :

أولا ـ استعجالهم في الدعاوي : وعدم رويتهم ، ولا سيا في الكبرى منها التي تتطلب بحثاً واستقصاءً ونقداً وتكراراً ، فيأتي حكمهم مبتسراً قد يؤدي إلى ضياع حقوق وانتهاك حرمات .

ثانياً ـ أن كل عقوبة في القضاء البدوي مهما كان سببها من قتل أو ضرب أو سرقة أو غيرها إنما هي في (المال أو الجزاء النقدي) دون غيره ، ومعلوم أن الغرم في المال ليس بالوازع الذي يزجر المرء عن المفاسد ، بل ربما كان باعثاً على زيادة المفاسد ، لاستسهال الغرم في جانب الحصول على الغرض ، فيبقى القوم فوضى ، مستطيلة أيدي بعضهم على بعض ، فلا يستقيم لهم عمران ولا يقرون على أمسان ، ومن هنا كان لا بد من إدخال العقوبات البدنية في الأحكام ، كالإعدام والسجن والأشغال الشاقة لتكون الوازع الكافي للصغير والكبير والضعيف والقوي .

ثالثاً ـ أن في هذا القضاء البدوي هدم لكثير من الأحكام الشرعية الإسلامية ، فيما يتعلق مثلاً بمؤاخذة الأقارب حتى الجد الخامس بجريمة قريبهم الجاني واعتبارهم مدانين بقبول أخذ الثأر منهم ودفع الدية ، وفيما يتعلق باستحصال الحقوق عن طريق ما يدعونه (الوسقة أو الوساقة) ممن لا ناقة له ولا جمل في الأمر ، وفيما يتعلق بـ (البشعة) أي تلحيس المتهم قضيب الحديد المحمي بالنار أو إطعامه لقمة الزقوم وأمثالها من وسائل التعذيب والبربرية التي لا تكشف جرماً ولا تجبي غرماً ، وفي إجحافه بحقوق النساء ، وحرمان المرأة من نصيبها الشرعي في الإرث ، وفي تزويج البنت البكر البالغ من أي رجل اختاره لها أبوها أو وليها بدون أخذ رأيها .

فما ذنب أقارب الجاني الأبرياء حتى البعيدين عنه إلى الجد الخامس الذين لا دخل لهم ، وربما ولا علم في جريمة القتل أو الزنا أو الخطف حتى يهاجموا على حين غرة فيقتلون وتخرب مساكنهم ، وتتلف أمتعتهم ، وتذبح ماشيتهم ، وتحرق بيادرهم خلال مدة (فورة الدم) ، وما معنى إجبار هؤلاء المساكين على الجلوة إلى عشيرة أخرى قريبة أو بعيدة ، فتعطل أعمالهم ، وتقطع أرزاقهم ، وتسلب أمتعتهم ، ويكرهون على توسيط ذوي الوجاهة والنفوذ وبذل الأموال لأخذ الهدنة التي يدعونها (عطوة) ، ثم إلى إجراء الصلح ثم إلى دفع الدية عن قريبهم الجاني ولو كانوا بعيدين عنه ، مما ينطبق عليه قول الشاعر :

وجرم جره سفهاء قوم — فأودى بغير جارمه العذابُ

وأي فائدة ومفعول زجري إذا لحق كل من الأقارب حينما يكونون كثيرين بضعة دنانير من أصل الدية ، وما قيمة هذه الدنانير القليلة في نظر من لا يتورعون ولا يجدون سبيلاً للاهتداء والاسترشاد ، وهل هذا ماقصدته الآية الكريمة ﴿ وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ ياأُوْلي الألْبَابِ ﴾ .

رابعاً ـ أن أحكام العشائر كثيراً ما تكون عرضة للنقص وعدم الاتباع من كلا الطرفين المتناحرين ، لفقدان العنصر الحقيقي الذي يتمكن معه الحاكم ذو السلطة المختصة من تنفيذه وممارسته .

ويقول المعترضون على القضاء البدوي أخيراً : أن دواعي الإنسانية والواجبات الدينية والقومية تقضي بتحضير البدوي وبتعويده على الأحكام الشرعية والقوانين المدنية ،

المطابقة للتقدم العلمي والأدبي بين البشر لا لإبعاده عنها وبإبقائه في حكم الجاهلية ، لأجل هذا أصبح من الواجب أن تصفى هذه (الشريعة البدوية أو الحقوق العرفية العشائرية) وتخفف غلواؤها إن لم يكن دفعة واحدة فتدريجياً وبقرارات وتعاليم خاصة ، تعدل دوراً بعد دور كي يتجه هؤلاء البدو نحو الصلاح ، ولا سيا أولئك الذين استقروا منهم وتحضروا وتملكوا وحرثوا وزرعوا ، وكي يرضخوا للأحكام الشرعية والقوانين المدنية وتحسم قضاياهم في المحاكم النظامية ، وترفع أيدي المشايخ والعوارف واللجان الخاصة حتى لا يكون هناك رجعة إلى الوراء ، وعودة إلى أساليب القرون الأولى في هذا القرن العشرين ، وكي تتخلص البلاد من تثنية القضاء من جعله في البادية على خلاف الحاضرة .

وقد سمع الفرنسيون هذه الاعتراضات الموجهة إلى القضاء البدوي ، فحصروه في البدو الرحل وفي الموجودين في البادية فقط من نصف الرحل (نصف الحضر) ، وأتبعوا البقية إلى ما دعوه (قواعد الحق العادي) فقالوا في القرار الأخير الذي أصدروه في ٤ حزيران سنة ١٩٤٠ م تحت رقم ١٣٢ ل ر فيما يتعلق بالجنايات والجنح التي يرتكبها البدو أن قواعد العرف العشائري تخضع إليها العشائر الرحل في علاقاتهم فيما بينهم سواء أكانوا في البادية أم في المعمورة ، وتخضع إليها العشائر نصف الرحل (نصف الحضر) إذا كانت موجودة في منطقة الرحل أي في البادية ، أما إذا كانت العشائر نصف الحضرية في المعمورة فإنها تخضع إلى قواعد الحق العادي كما تخضع إلى هذا الحق أيضاً العشائر الرحل في علاقاتها مع الحضر ونصف الحضر . لكنهم أجازوا مراجعة العرف العشائري إذا أراد المغدور ، ووضعوا في القضايا العائدة للرحل معاقبة الجناة بالسجن من سنة إلى خمس سنوات عدا العقوبات التي قد تفرض بمقتضى العرف .

بعد هذه المقدمة التي اضطررنا إلى إيرادها نشرع بسرد خلاصات عن كيفية المرافعة والجرائم التي تستدعي الحكم والحسم في الأمور الحقوقية والجزائية عند البدو ، ولا بد من القول أن هذه الخلاصات التي ذكرناها قد تختلف بعض الشيء من عشيرة إلى أخرى ومن منطقة إلى منطقة ما زالت التقاليد والعادات مختلفة أيضاً بحسب الأماكن والأوساط ، وبنسبة العراقة في البداوة والبعد عن الحواضر والحضارة ، لهذا قد يكون في ما ذكرناه قواعد متباينة عما درجت عليه بعض العشائر نرغب شموله بسعة الفكر والصدر ، وإننا اعتمدنا في بعض ما بيناه على ما كتبه المرحوم السيد عودة القسوس أحد رجال القانون في

شرقي الأردن في مقالاته المندرجة في المجلة القضائية الأردنية سنة ١٩٣٦ م ، وقد كان حجة في موضوع القضاء البدوي .

المحاكات الحقوقية لدى البدو :

يتقاضى البدو المتخاصمون عند رجال اختصوا بمعرفة (القضاء العشائري) وهؤلاء القضاة هم من شيوخ العشائر ورؤسائها ، امتازوا بتوقد الذهن وسرعة الخاطر وسداد الحكم ، وخبرة عميقة في العرف والعادات البدوية ، وفي فصل الخصومات ، وكشف حجج المتخاصمين ، وتمييز الحق من الباطل ، وفي قياس الدعوى الحاضرة على دعاوى سالفة مثيلتها ، كان غيرهم حلها حلاً مرضياً ، وبعض هؤلاء القضاء أناس من أفراد العشيرة شبه فقهاء يدعونهم (عارفة) من المعرفة ولو كانوا أميين كما هو حال أكثرهم . وفي عشائر أنحاء دمشق وحوران والبلقاء لا يوجد عارفة ، والقاضي هو شيخ العشيرة ، والعوارف اختصوا بعشائر الشمال ولا سيما أنحاء الفرات والجزيرة ، ويقول رؤساء شمر نحن الذين نصبنا عوارفنا واخترناهم من جهة أننا نظراً لأشغالنا لا نقدر أن نرى الخصومات بأنفسنا فأودعناها إلى من اعتمدناه ، وبمرور الأيام صارت موروثة فيهم ، ولا يعتبر عارفة إلا من كان أبوه عارفة ، إذ يشاهد الدعاوى من الصغر ويسمع بما يحكموا به ويتناقلونه ، وهو ينظر وعنده قلب واع ، وماذا بعد ذلك ؟

وللقاضي البدوي سلطة واسعة ونباهة قدر ، فإذا تكلم انقطع الحديث وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون ، وكثيراً ما يحدث بعد الحكم اعتراضات ومجادلات ، غير أن القاضي يلبث بين تلك الأصوات الصاخبة ساكن الجأش هادىء البال ، وربما شطوا في الكلام ، ولكن لا ينتهي جدالهم إلى الشتم والإهانة لأنهم يكرمون بيت القاضي ويقدسونه ، وقد يطول الجدال بينهم والقاضي يتحمل جدلهم بصبر عجيب ، فلا تخرج من فمه كلمة نابية ، وللقضاة البدو منطق موزون ، وبيان مرغوب ، يخلبون به ألباب سامعيهم ، فيأتون بالتشابيه البديعة ، ويضربون الأمثال ، ويوردون الحكايات عن ألسنة الحيوانات أو الجمادات ، مما يطرب له الحاضرون .

وأحكام القضاة والعوارف واجبة التنفيذ فوراً ، إلا أنه إذا لم يرض أحد الفريقين بحكم القاضي له أن يعارض حكمه ويطلب أن يرجع إلى (المنهى) وإلى قاضي المناهي ، وهو

آخر محكمة أو بمثابة (محكمة التمييز) . وهؤلاء المناهي لا يختلفون عن أولئك إلا في أنهم أكثر شهرة وشأناً وإذا عارض المنهى الحكم السابق يشترط عليه أن يأتي بشهادة من قاضي آخر كان قد حكم بما خالفه .

حينما يترتب لبدوي حق ما (كالدين) عند آخر يمانعه في إعطائه إياه فإن صاحب الحق (الدائن) يرسل إلى المدعي عليه وفداً من سراة الناس يطلبون منه باسم موفدهم أن يخاصم صاحبهم في حضرة قاض يتفقان عليه وينتخبانه .

فإذا تمنع المدين يعاوده الدائن بإرسال وفد ثانٍ وقد يرسل وفداً ثالثاً ، والمقصود بذلك أن يبدأ الدائن مدينه بطلب حقه طلباً مجرداً حتى يعرف منه رأي خصمه في موضوع الدعوى ، فإذا أذعن المدعى عليه لمقترحات الوافدين ضرب للوفد ميعاداً في يوم بعينه ، ليجتمع فيه إليهم في بيت أحد الشيوخ وهذا ما يسمونه (الوجه) للاتفاق معهم على تعيين القاضي الذي سيختصم المدعيان إليه ، أما إذا رفض المدعي مقترحات غريمه التي حملها الوفد حول التقاضي يلجأ صاحب الحق إلى طريقة (الوساقة) إن كان قوياً ، وإلا فإنه يستجير بأحد الزعماء والأقوياء طالباً إليه أن ينوب عنه في إرغام خصمه على الرضوخ للحق فإن قبل المستجار به بعث إلى المدعى عليه وفداً يكلفه إلى مقاضاة دخيله ، فإن أصر على رفضه استعمل الزعيم قوته في إكراه المدعى عليه وذلك بالإغارة على ماشيته وأخذ ما يتيسر أخذه منها والاحتفاظ به إلى أن يذعن للطلب الواقع .

انتخاب القاضي :

يجتمع المدعي والمدعى عليه في اليوم المضروب للحضور في بيت الشيخ الذي سبق تعيينه ، ومع كل منهما رهط من ذويه ، ويشرعون في انتخاب القاضي فيسمي المدعى عليه شيخاً أو زعيماً ، من العشيرة التي ينتسب إليها المتداعيان إن كانا من عشيرة واحدة ، وإلا انتخب من مشايخ أو زعماء عشيرة أخرى محايدة ، ثم يليه المدعي فيسمي شيخاً ثانياً ، ويعقبه المدعى عليه فيسمي ثالثاً ، ثم يسأل المجتمعون المدعي أن يسقط اسماً من الثلاثة ثم يسألون المدعى عليه مثل ذلك فيفعل ، ويكون صاحب الاسم الثالث هو القاضي الذي له حق الفصل بين المتخاصمين في القضية .

وإذا اختلفا في تعيين القاضي يرجعان إلى أحد القضاة الذين يدعونهم (المعترضة) ، فينتخب لهم القاضي الذي من حقه أن ينظر إلى قضيتهم ويصدر حكمه فيها

القضوة :

إذا اتفق المتداعيان وانتخبا أحد القضاة يراجعانه ويترافعان أمامه ، وهذا ما يدعونه (قضوة) .

وطريقتها أن يدخلا بيت الشيخ (القاضي) حينما يكون جالساً في صدره للقضاء ، ومن حوله وجوه العشيرة ، وبعد شرب القهوة يقوم أحد المتخاصمين وهو المدعي ، ويجلس في وسط البيت بين الحاضرين ويلتفت إلى القاضي ويقول ، وهو عندهم بمثابة الاستدعاء يفتتحون به الدعوى (وايش بك يا قاضينا ، ياللي حقك تراضينا ، جيتك هدي ومشياً قدي ، أفلح وصلي عالنبي ـ فيقول الجميع : الصلاة والسلام عليه ـ حظي وحظك يدخلان على أربعة وأربعين نبي من الفوط والنوط والحق الردي ، وأنا داخل عالمال والعيال من شيء مبين علي ، وعليك غبي ، وأنا حاحططلها بعيونك السود وربعك القعود وبالإمرأة وما تجيب ونسافات العسيب) . ثم يذكر ما جرى معه بصوت جهوري ، بحيث يسمعه الحضور من أطراف البيت ، ويورد البراهين في ذلك ، إلى أن ينتهي ويعود إلى مقامه الأول ، فيقوم المدعى عليه ويجلس في وسط المجلس ويكرر المقدمة نفسها (وايش بك يا قاضينا إلى آخر الديباجة التي أتينا على نصها بألفاظهم ولغتهم الدارجة في البادية ، ثم يفصح عن أدلته) ولا أحد يعارضه في شيء ، والقاضي بين كل ذلك صامت لا يبدي كلمة ، وفي ختام ذلك يلتفت القاضي إلى المتخاصمين ، ويقول : أفلحوا وأصلحوا خير لكم ، فإذا أبيا إلا إظهار الحق فيقول : قدموا الرزقة .

الرزقة :

الرزقة هي رسم المحاكمة الذي يدفعه أحد الخصمين للقاضي تقدر بربع قيمة ما يخاصم عليه ، وقد يجري في هذا التقدير جدال طويل يدوم ساعات من أجل تعيين مقدار الرزقة ، إن نقوداً أو عروضا كفرس مثلاً أو سيف أو بعير ، وربما لم يقبل بها القاضي ،

فيرفض الحكم إلى أن يستحسن ما يقدر له ، والرزقة أنواع كثيرة ، منها رزقة المبطل ومنها رزقة الحق ، فرزقة المبطل هي التي يدفعها المجرم أو المفتري للقاضي ، ويستثنى من ذلك دعاوى الدم والعرض والوجه والدخالة ، ورزقة الحق هي التي يدفعها صاحب الحق ، وإذا استأنف المحكوم عليه دعواه إلى قاض أكبر وحكم له بالحق وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة يردها له المحكوم عليه ، لأن للمستأنف الكاسب حقاً بجميع الرزقات التي يكون قد دفعها للقضاة من قبل[1] .

الكفلاء :

بعد أن يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليهما أن يقدم كل واحد كفيلاً ، يتعهد أمام الشهود بدفع الرزقة إذا أبى الآخر تقديمها ، فيقولون : (ترى يا شيخ فلان هذه المسألة في وجه فلان) أي أنه يتعهد بدفعها أو يحمل المتخاصمين على دفعها ، ويقول القاضي للكفيل : (عندك الشيء الفلاني ؟) فيجيب (عندي ما تطلب ، وحق الله ورسوله أني ما أبوق) أي : لا أخون العهد .

رأينا أن الكفيل نوعان : غائب وحاضر ، فالغائب هو الذي لا يحضر مجلس القضاء حينما ترفع الدعوى فيختاره الحاضرون والقاضي لإنفاذ الأمر ، والحاضر هو القائم بين الحضور في أثناء الدعوى ، على أن لكل منهما واجبات خاصة تختلف عن واجبات الآخر ،

---

(١) في كتاب المقدم مولر أن العوارف المصادق عليهم هم ابن سعدي من شمر ، وابن الطيار من الولد علي ، وابن سويط من الظفير في العراق ، أما الأميرمجحم بن مهيد رئيس قسم الولد من الفدعان فهو أكبر العوارف ، ومن العوارف الخصوصيين في قضايا الدم الأمير مجحم وقريبه ابن زرعة ، ثم ابن البجالي من الأرولة ، ومحمود العبد القادر من بني خالد ، وفي قضايا الخيل والمواشي محمد الصايد من الأسبعة ، وابن جروان من الأسبعة الأعرفة ، وكذا ابن موينع وفانوس وهو حضري من دير الزور وأخصائي في قضايا الخيل ، ومثله جابر من العقيدات وابن علي من آل حريميس وغيرهم . وفي كتاب عشائر العراق أن عوارف عشائر عنزة هم في (ضنأبشر) ابن زرعة من المهيد ، وابن هيازع من الحبلان ، ويرى كافة الدعاوي ما عدا حقوق النساء وقضايا الخيل ، ويقال لهذه المكلدات (المقلدات) ، وابن جلعود من الجلاعيد الدهامشة والسحالي من المطارفة من السلقه . وهذا يرى المقلدات ، وابن عبده من الرسالين من الأسبعة والجعيب من الزبنة ، وفي (ضنأسلم) ابن الطيار وابن جندل وابن معجل وابن كويجب من الكواجبة ، وكيان بن دغمي رئيس المهنا ، وموينع رئيس النصير ، وبشيتان بن بنيه وعويضة الأخضع رئيس الفرجة ، والقعقاع من الأرولة والآن مونس وشاجي من رؤسائهم .

فالغائب مضطر إلى قبول الكفالة ، والحاضر له الخيار في قبولها أو رفضها ، ولا بد للكفيل من صفات ، أخصها أن يكون معروفاً بين العشيرة بصدقه واقتداره على الدفع .

والذين يحرمون حق الكفالة هم النساء في جميع العشائر ، إلا عند عشائر النصارى في شرقي الأردن ، ويحرمون شهود الزور والجبناء والخائنين وهاربي الثلاثة ، والشيخ البخيل والعبيد الذين لم يعتقوا ، والمعتادون على الفواحش والمنكرات ، وغدوا يطمحون إلى النساء يطردون من العشيرة ويحرمون كل الحقوق ، هؤلاء كلهم مرذولون عند البدو لا يقبلون في مجالس الكرام ، ولا يشربون القهوة في بيوت الرؤساء ، ولا تقبل لهم شهادة ، وإذا جلس أحدهم في هذه المجالس صب له الشيخ القهوة ، وبينما هو يرفع الفنجان إلى فمه ينزعه الشيخ بعنف منه ويهرق القهوة على التراب ، ويقول : أنت لا تستحق القهوة ولا لك مقعد بين الرجال .

الشهود في الدعاوى :

بعد تعيين الكفيل يتجه القاضي نحو المدعي ويقول له : يا فلان إذا كان عندك شاهد لا يكذب ، ولا يوجد عليه اعتراض ، فليتقدم وليشهد ، فيجيب : عندي يا قاضي العرب فلان وفلان وفلان . فيلتفت القاضي إلى أكبر الحاضرين ويسأله : وايش تقول يا شيخ عن فلان ؟ فإن كان مقبول الشهادة يقول : والله إنه مقبول الشهادة ، ما أنا خابر عليه الذرب الذي يذربه عن الشهادة ، وإن كان مرفوض الشهادة يقول : والله إنه غير مقبول .

وقد تقع الخصومات في اختيار الشاهد ، فمنهم من يرفضه ومنهم من يقبله ، ويطول الكلام بينهم إلى حد يسأم منه الحاضرون ، إلى أن يقر رأيهم على شاهدين ، فيقفان ويقسمان القسم البدوي ، فيقول كل واحد على حدة (والله العظيم والرب الكريم ، وحياة العود والرب المعبود ، والكاذب ما له مولود ، لا غيظ شافيه ولا طمع راجيه إلا حق الله من رقبتي مؤديه ، إن هذا الرجل قد فعل كيت وكيت ، وهم يقصدون بالعود كل نبات من السنبلة الصغيرة إلى الشجرة العظيمة ، وبكلمة لا غيظ شافيه ولا طمع راجيه أي أنه لا يحلف لأخذ الثأر بل لإظهار الحق ، ولا يحلف لأجل المال ، وللشاهد حق في طلب هدية ما ، إذ لا بد له من القسم ، والبدو كما سنذكره في بحث القسم ، يرهبون القسم ولو كانوا

صادقين في كلامهم ، فلذلك يقدمون للشاهد هدية بدوية كسيف أو عباءة وغير ذلك ، ونصاب الشهادة في الأمور العادية رجلان ، وفي الهامة جداً أربعة ، وتقدير الفرق بين العادية والهامة يعود إلى القاضي .

الحكم :

بعد أن تنتهي المحاكمة ينطق القاضي بأمثال يبين فيها أحكام القضاة من قبله ، في أمور جرت من عهد قديم ، فيروي حكايات واقعية أو خيالية ، يذكر فيها الحكم بمبهم الكلام ، وربما أتى بأمثال عن الحيوانات تنطبق على الأمر الواقع ، حتى يدرك الحاضرون الحكم المراد قبل أن ينطق به ، وأخيراً يفوه بالحكم القاطع بقوله : (أنا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي ، ومن عند أجاويد الله مثلكم أن فلاناً هو المجرم وفلاناً هو البريء) ويورد في ذلك الأدلة والبراهين والأسناد كي لا يبقى في الأمر ريب ، وهنا ينتهي الحكم فيقوم الحاضرون وينصرفون إلى بيوتهم ، وهم يرددون الحكم المبرم ، وخلال المحاكمة يسود السكون بين الحاضرين ولو بلغ عددهم المئة ، فما منهم من ينبس ببنت شفة إذا لم يطلب منه الشيخ ذلك ، وكل الحالات والقضايا الحقوقية تعالج على هذا النسق ، كمسائل الإرث والطلاق ، وقسمة الغنائم والشركات . إلخ ...

ويخول العرف البدوي المدعى عليه رفض الشهود وتحليف المدعي اليمين ، فيكلف القاضي المدعي ، فإذا حلف كسب الدعوى ، وإذا رفض سقطت دعواه وحكم القاضي بردها ، ويمنعه من معارضة المدعى عليه ، وكذلك إذا عجز المدعي عن إثبات دعواه يكلف القاضي المدعى عليه أن يحلف اليمين على الصورة التي يرسمها له القاضي ، فإذا حلف أو استنكف المدعي عن تحليفه حكم القاضي برد دعوى المدعي ومنعه من معارضة المدعى عليه .

الحلف أو القسم :

القسم من أرهب الأمور عند البدو وأقدسها ولا يقدمون عليه إلا مضطرين ، لأن البدوي لسذاجته تملك قلبه الخيالات المختلفة والتصورات المرعبة ، لذلك يتجنب الحلف ولو كان به صادقاً ويهاب اتخاذ المولى الكريم أو أحد أوليائه وأنبيائه شاهداً على صحة قوله ولو كان من قطاع الطريق .

والقسم عند البدو أنواع مختلفة : منه ما يسمونه القسم الجاري أو القسم الصغير ، ومنه قسم اليد ، والقسم الكبير ، ومنه قسم العشبة ، ومنه قسم النملة والشملة . ففي القسم الصغير ، يقوم الشيخ وسط البيت ويقول : أقسم عليك بالله وبصلاة محمد هل فعلت الأمر الفلاني ، فيقول : والله وصلاة محمد لم أفعل ، وفي قسم اليد ، يضع المحلف يده على رأس المحلف ويقول : أناشدك الله بما تحوش وتنوش ـ أي : بما تملك في هذه الدنيا فإذا صدقت في جوابك يبقى لك مالك وإذا كذبت يهلك جميعه ـ بحلابات الحليب ـ هي الغنم والنوق والمعزي وأمثالها ـ ونسافات العسيب ـ هي عتاق الخيل ، والعسيب ذنب الفرس ـ وبالنساء وما تجيب ، داخل عليك ، وعلى المال والعيال من الحل والاستحلال ـ أي أني أرجوك بحق أسرتك وأولادك أن لاتتكلم بالغش ـ اليوم بين عينيك وباكر بين متنيك ـ أي : أنك تراني اليوم وغداً ستحملني على النعش وأقف أنا وأنت أمام الديان العظيم ـ بغبية علي وبينة عليك ـ أي : الشيء المكتوم والشيء الجلي ـ أن أطلعتها تسرك وإن خيبتها تضرك أما صار كذا وكذا ، فيجيب : إي بالله ورسوله صار كذا وكذا . أو لا بالله ورسوله ما صار ذلك .

ويقولون أيضاً في أقسامهم : أنا حاضر بحضارك وموقد نارك ، أما صار كيت وكيت . ويقولون في حلف العشبة : بحق هذه العشبة الملوية والكاذب ماله ذرية .

ولهم قسم عظيم يسمى قسم النملة والشملة ودونكم وصفه . حينما يكون البدو وكبراؤهم ملتئمين في الربعة ، وقد طال الجدال بين الفريقين على أرض أو فرس أو غير ذلك ، يقوم صاحب البيت ويخرج من مجلسه إلى خارج البيت ، ثم ينتضي سيفاً ويخط به دائرة كبيرة ويضع في وسط الدائرة حبة حنطة ونملة . فالحنطة تدل عند البدو على أكرم ما خلق الله تعالى ، والنملة تمثل الحكمة والفطنة والإدراك ويمدون السيف في منتصف الدائرة ، فيدخل المتهم في وسطها ، ويضع يده على نصاب السيف ، ويقسم قائلاً : والله العظيم والسيف الكريم ما فعلت الشر ولا سرقت ولا قتلت إلخ ... وقبل أن يدخل في وسط الدائرة ، ينزعون عنه كل أسلحته ، وهو كثيراً ما يرجف رعدة وهيبة ، وربما نكل عن الحلف وأقر بما فعل .

والحلف بالمقامات عند البدو يعد عندهم من الإيمانات المغلظة ، وربما أقسم البدوي بالله مراراً عديدة ، وأبى أن يقسم بالأولياء والمزارات المقدسة المعلومة لديه ، وكثيراً ما يصير

التحليف على قبر أحد الأولياء المشهورين بجهاتهم ، وطالب اليمين عندما يتأكد عزم الآخر على الحلف يعفيــه على الأغلب من اليمين ، لأن البــدو أجمـع يتشـــاءمـون من الحلف والتحليف ، ويقولون (ياويل حـالف ومحَلف) ، ولـذلـك لايجوز عمل الخطـة والتحليف فيهـا في مراح العشيرة ، أي بين دائرة المضـارب ، بل يجب أن تكـون خلف المضـارب مهما أمكن وفي مكان بعيـد ، وكثير من القضـــاة يرسـل المقرر تحليفهم إلى محـل آخر بعيــد عن أعرابه ، ليحلفهم فيه بنـاء على السبب المـذكور ، ولا يجوز عنـدهم تحليف أحـد الخصمين إذا كان المنازع عليه من الكسب والغنايم ، ومن حلف لاتتوجه عليه مطالبة ويبرأ من الدية ، وفي الغالب لايحلف البدوي إذا كان قاتلاً أو فاعلاً ، وهو يخشى أن يصاب بأذى في أهله أو ماله إذا حلف كاذباً .

البيع :

لا يتم البيع إلا بالعقد والتسليم معاً ، ولا يكون العقد ملزماً لأحد الطرفين ، ولذلـك حينما يبيع أحد النـاس مـالاً غير منقول ، فـإنـه يتم البيع بعـد المسـاومـة عليـه بين البـائع والشـاري والاتفـاق على الثمن وتسليم المبيـع للمشتري ، وتجـوز الشفعـة في بيـع الأمـوال غير المنقولة والجيـاد من الخيل ، والشفيع في الـدرجـة الأولى : الأقـارب ثم الشركاء ثم الجيران ، ومن العوائد أن يذكر المتعاقدان في الشروط ، حالة البيوع الحاضرة ، ويجب على البائع أن يعرف حالة المبيع ، ويقول : إنني أبيعـك هـذا المـال في جميع العيوب ، فـإذا وافق المشتري واستلم البيع على هـذا الشرط لايحق لـه الرجوع مهما ظهر من العيوب في المبيع ، وإذا قـال بعتك (صاغ سليم) أي خالي من العيوب ، وظهر بعـد أن المبيع معيبـاً ، وتبين أن العيب قديم يحكم برده على البائع ، وظهور ذلـك يتوقف على البينـات ، وبفقـدانهـا يحلف المشتري بأن العيب لم يحدث عنده .

الشفعة :

الشفعة ويدعونها (البداة) تشمل كل شيء من الأموال المنقولة وغير المنقولـة ، والحق الأول فيها إلى أقارب البائع ثم إلى المجاور ، وحق الشفعـة يتنـاول حتى الزواج ، ويـدعونـه (النهوة) وهو إنـذار الأقـارب لطـالب الزواج ومنعهم إيـاه . ولـذلـك إذا تقـدم خـاطب غريب إلى إحدى بنات العشيرة فإن للأقارب حق النهوة والشفعة بنسبة درجات القرابـة ،

وإذا لم يظهر طالب من الأقارب فالحق لأفراد العشيرة ، فإذا لم يظهر من هؤلاء طالب فلأفراد أقرب عشيرة موالية لتلك العشيرة ، والأصول في طلب الشفعة هو أن يعلن الشفيع حالاً عند سماعه بعقد البيع أو الخطبة أنه أولى بتملك المبيع أو بزواج المخطوبة ، ويشهد الحضور على إعلان هذا ، ثم يجب عليه بالحال أن يحمل الثمن الذي علم بدفعه من قبل المشتري نقداً كان أم عروضاً أم ماشية ويتوجه إلى محل المشتري ويعيد إليه الثمن الذي دفعه ، معلناً له أنه أبدى . أي : أولى منه بشراء المبيع أو بخطبة المخطوبة ، لأنه قريب البائع من الدرجة الأولى أو جار للعقار أو خليط أو شريك ، ولا ريب في أن الخليط أو الشريك أولى من الجار الملاصق ، فإذا قبل المشتري وعدل عن المبيع قضي الأمر ، وإن رفض يلجأ الشفيع لجلبه إلى القضاء بالأساليب المار ذكرها ، وإذا كانت الحالة تقتضي اتخاذ الاحتياطات السريعة مثلاً لو كان الخاطب قد شرع بإتمام الزواج ، فللشفيع أن (يجير) المخطوبة من الزواج على أحد المتنفذين بقوله أمام شهود : إنني أجير فلانة من الزواج على الشيخ فلان لنتيجة دعواي ، وهذا القول يكون بمثابة الحجز الاحتياطي ، إذ يصبح المجير أي المتنفذ الذي انتدبه المدعي وأجار البنت به من الزواج ، ملزماً بتنفيذ الحجز الاحتياطي ، ولو كان المجير غائباً عند إعلان المدعي جيرة البنت ، فعلى الخاطب أن يتوقف عن الزواج حرمة لجيرة ذلك المتنفذ ، فإن لم يفعل عرض نفسه لغرامة كبيرة يدفعها إلى ذلك المتنفذ المجير إذ يحق له أن يطالب الخاطب عنها بأربعة بنات لقاء الغرامة ، وكثيراً ماقضى بذلك قضاة البدو ، ولا سيا أنه لا ينظر في الزواج إلى رضا العروس من عدمه .

الميراث :

ليس للميراث قاعدة عند البدو ، وهم لا يعملون في تقسيم الإرث بالقاعدة الشرعية ولا بالقوانين المدنية ، بل لهم في ذلك اصطلاحات خاصة تتركز على قاعدة حرمان الإناث من التركة ، بل هم يعتبرون البنات من جملة التركة التي تقسم بين الورثة ، وغالباً تقسم التركة على الصورة الآتية : (توفي) عن أولاد ذكور وإناث وزوجة ووالدة وأخوة فالميراث ينحصر بالأولاد الذكور ، (توفي) عن بنات وزوجة وأخوة وأعمام فجميع الميراث محصور بالأخوة بشرط أن يقوموا بنفقة والدة المتوفى وزوجته مالم يتزوجن بآخر ، وعند زواجهن

لا يبقى لهن أدنى علاقة بتركة المتوفى ، وعلى الأخوة أن ينفقوا أيضاً على بنات المتوفى حتى يزوجونهن ويستوفوا مهورهن ، وإذا كان للمتوفى أخوة قد توفوا قبله عن أولاد ، فيقوم الذكور من أولادهم مقامهم بجميع ماذكر (توفي) عن والد وأخوة فالميراث جميعه يحصر بالوالد ، وإذا (توفي) عن والد وأولاد ذكور وإناث وعن أخوة ، ومن ثم توفي والده فليس لأولاده أن يشتركوا بإرث والدهم ولا أن يقوموا مقامه ، (توفي) ولم يكن له أب أو أولاد ذكور ولا أخوة ذكور فينتقل حق الإرث إلى أعمامه وأولادهم وإذا لم يكن له أعمام وأولاد أعمام ، فللعصبة الأقرب فالأقرب ، إذا (توفيت) امرأة بدون أولاد ذكور كان الوارثون لها إخوتها أو أولادهم ومن بعدهم أقرب عصبة من الذكور .

الوثاقة (الوسقة) :

هي الطريقة للوصول إلى المال المغصوب أو المسروق ، فكل شخص يكون له غريم (مديون) يعسر عليه تحصيل دينه منه ، أو كل من يكون قد سلبه شخص وعجز المسلوب عن استرداد أشيائه المسروقة ، أو عندما يرفض المدعى عليه طلب المدعي مقاضاته ، فإن هذا المدعي أو مجيره يعمدان إلى مصادرة أموال المدعى عليه (بضاعة ، ماشية ، إلخ ..) العائدة إلى أي فرد من الأسرة أو العشيرة التي ينتسب اليها ذلك الغريم العاجز أو المتمنع عن الأداء ، وهي طريقة مخالفة للشرع ، فقد صرحت الآية : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

وقد نشأت هذه الطريقة من كون أفراد العشيرة أو الأسرة متكاتفين ، وهم وإن لم يشتركوا في تلك الجريرة ، متضامنون في الخير والشر ، يلبون عند الاستصراخ ويجيبون ، عندما يندبهم دون أن يسألوا أخاهم على ماقال برهانا ، والوسقة يطالب بها لحد خمسة جدود ، ولا يؤآخذ من هو أبعد ، وحينما يحصل صاحب الحق على أي شيء مما يصلح لاستيفاء الحق ممن تمكن سواء من السارق أو من غيره من أقاربه ، يودعه فوراً عند أحد أفراد عشيرة المطالب ، ممن هو فوق الجد الخامس ويضعه في جيرته ويدعوه إلى إيصاله إليه فيكون هذا ملزماً بذلك ، ومما يلحظ أن الوسقة من أكبر دواعي النزاع بين العشائر والفرق والأسر ، لأن الشخص الثالث الذي يرغب الدائن تطبيق حق الوسقة عليه يحتج وكثيراً ما يدافع بالسلاح .

وإذا وقع قتل يحتدم الشر ، وتنجم معارك حقيقية من جراء تنفيذ حق الوسقة ، وفي المعاهدة التي عقدت بين الحورانيين والدروز في سنة ١٩٢١ م ألغي حق الوسقة ، كما أن المحاكم العشائرية في شرقي الأردن ـ على ما علمت ـ صارت ترفض سماع دعاوى الوسقة .

الحشم (نسبة إحدى النقائص) :

ليس للشتم العادي أهمية إذا لم ينشأ عن ذلك شجار يؤدي إلى الضرب أو الجرح ، وإذا بقي الأمر مقصوراً على الشتم أو التحقير البسيط ، ينتهي عادة بالصلح أو الاعتذار . أما إذا كان الشتم قبيحاً أو وصم أحدهم آخر بعيب علناً وبمواجهته ، كالسرقة والشرد من القتال ، أو قذف بحقه عبارات تثلم الشرف والعرض ، أو يكون قد نهى عن امرأة يريد التزوج بها من أقاربه فلم يلتفت إلى نهيه ، كان للمعتدى عليه الحق بأن يطلب المعتدي للمحاكمة عند القاضي ، وأن يحكم عليه بتضمينات كبيرة ، وأن يجبره على تقديم الاعتذار ، برفع راية بيضاء بين مضارب العشيرة ، وهذا الحق يدعي (الحشم) فإذا ترتب على المعتدى عليه وجب فصله ، فإن أبى عرض نفسه لخطر العقر وهو أن يقتل المعتدى عليه حيوانات المعتدي ، أو يقطع قوائم إبله وأطناب بيته بثلاث هجمات متعاقبة ، وهذا العقر يعدونه انتصاراً للإهانة اللاحقة .

البشعة :

هي تلحيس النار المتهم ، أعني عندما تنفذ جميع الأدلة الثبوتية لإظهار الجرم ،يقرر القاضي إرسال المتهم إلى رجل من أهل الطرق الصوفية كالرفاعية وأمثالهم يدعونه (المبشع) . وهذا الرجل يأتي بقضيب عريض من الحديد ويحميه بالنار بحضور المدعي أو وكيله حتى يبلغ أقصى حدٍ من الحرارة ويمسح به لسان المتهم بكل سرعة ولباقة ، ثم يناوله في الحال شربة ماء ، فإذا حصل ضرر في لسانه أعلن المبشع أن لاحس النار مجرم ، وإن لم يحصل ضرر يعلن براءته ، وحينئذ يرفع من تبرأ راية بيضاء وينادي قائلاً (بيض الله وجه المبشع وبيض الله وجه الكفيل) وهو يعني كفيل المحاكمة . وهذه البشعة من أغرب الأعمال وأوحشها وأبعدها عن العقل والشرع ، وقد جرت مرة في الكرك (شرقي الأردن) أمام أحد الأجانب ، فرفع آلة التصوير وصورها وبعث بها إلى صحف بلاده لنشرها وتشويه سمعة الأمة العربية بها . فحبذا الإعراض عنها بتاتاً .

الحقوق الجزائية لدى البدو

الانتقام في البادية :

الانتقام أو أخذ الثأر عند الأعراب من العوائد الشريفة يقيمون له وزناً رفيعاً ، ويعدونه من الفرائض التي لا يسعهم إهمالها ولو طال عهدها . وما كان يعرف عن أعراب الجاهلية في هذا الصدد - وقد ذكرناه في الصحيفة ١٤١ - ينطبق على أعراب زماننا ، ومن المأثور عنهم أن البدوي يأخذ ثأره بعد أربعين سنة ويقول إنني تعجلت أخذه ، لأن الضغينة تبقى كامنة في صدورهم كالنار تحت الرماد ، وهم إذا راجعوا قضاتهم وأخذوا حكماً على غرمائهم ، قد لا يعجبهم الحكم فيروون ظمأهم بدم الغرماء ويثأرون بأيديهم ، وهم ينتظرون بصبر عجيب الفرصة المواتية لنيل أمانيهم ، ويقدمون على جريمتهم هذه بنفس هادئة وانشراح كبير ، وعندهم النفس بالنفس ، والسن بالسن ، والعين بالعين ، أي أنهم يعتدون على الغريم بمثل ما اعتدى عليهم ، ومن تأمل في هذه السنة من أهل الحضارة استنكرها بادىء ذي بدء ، ولكن العارفين بشؤون البادية والعاذرين لأهلها يقولون : أن لولا وجود هذه السنة عند البدو لغدت البادية دار حرب مستمرة ، لأن سنة الدم بالدم ، تصد المجرمين والأشرار عن جرائم كبرى ، والبدو يتجنبون القتل حتى في الغارات والغزوات ، ما وسعهم الإمكان لئلا تنزل بهم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الانتقام ، وهذه الشريعة تجعل البيداء في أمن وسلام ، يسافر فيها المرء غير خائف من صولة أشرار البدو وإن سلبوه ماله ، ولذلك يندر القتل في البادية ، والبدوي لا يهدر دم المسافرين خوفاً من العقاب ، بل يسلبهم ثيابهم وأموالهم ودوابهم ، وشأن البدوي شأن معظم البشر عبد القوة لا يحاذر غيرها ، ولطالما كان الجنود من أبناء بلاد الشام أيام كانوا يفرون على عهد الترك من اليمن والحجاز ، ويقطعون جزيرة العرب من الجنوب إلى الشمال مشياً يطيل البدو عليهم أيدي الاعتداء تارةً ، ويكسونهم ويطعمونهم تارةً أخرى ، وهكذا كان الفار يعرى ويكتسي مراراً حتى يصل إلى وطنه ، على أن عواطف الشفقة والحلم غير

يسيرة عندهم ، تتغلب فيهم مرات عديدة على حب الانتقام وتحملهم على الصفح ، وفي كتب التاريخ والأدب القديمة حكايات وفيرة تشير إلى شهامة نفسهم وكرم خلقهم ، ولا يزال يقع في أيامنا حوادث كثيرة من هذا القبيل ، فمنهم من أكرم قاتل أبيه أو خاطف ابنته أو حارق بيادره ، ومنهم من يكونون في أشد سورة الغضب ، فيقوم شيخ وقور بينهم يحاجزهم ، ويوادعهم ، ويصلح ذات بينهم ، فيزول كل شيء ، وبمثل هؤلاء الشيوخ والمصلحين ، وبفضل تؤدتهم وحكمتهم تسكن الغلواء في البادية في الغالب ، ويسود السلام والاطمئنان .

الرزقة :

في القضايا الجزائية يأخذ القاضي قسمته من الرابح ، وذلك أنه إذا كان الرابح المدعي يدفع قيمته الرزقة مما حكم له به في التضمينات والغرامة ، وإذا كان الرابح المدعى عليه يكون دفع الرزقة بمثابة رسم براءته من التهمة .

أنواع الجنايات :

أنواع الجنايات لدى قضاة البدو :

١ ـ القتل : مهما كان أنواعه وتعطيل العضو .

٢ ـ الزنا : مهما كانت أنواعه ولو كان بالرضا وخطف البنات أو النساء .

٣ ـ قطع الجيرة : أي التجاوز على المحجوز عليه بدخالة زعيم ما .

٤ ـ التجاوز على الدخيل : أي المستجير .

٥ ـ التجاوز على رفيق الطريق .

٦ ـ تقطيع الوجه : أي التجاوز على الخصم ، بعد أن تم بينهم عقد الصلح ، أو عقد الهدنة بكفالة آخر .

٧ ـ التجاوز على الضيف .

٨ـ التجاوز على الطنيب .

٩ ـ التجاوز على الناصي : الذي قدم من ديار بعيدة ، وأعلن أنه قادم على زيد من الناس .

القتل :

لا يكون القتل عند البدو موضوعاً للمحاكمة إذا كان فاعله غير معلوم لدى الجمهور ، أما إذا كان القاتل معلوماً عمد ذووه إلى مالهم من الحقوق على الوجه الآتي : إذا قتل شخص آخر كلاهما من عشيرة واحدة ، يثور أقارب المقتول ويهاجموا فرقة القاتل ، وإذا صادفوا من يجتمع بقرابته مع القاتل حتى الدرجة الخامسة بالنسبة للجد الجامع بينهم ، سواء أكانت قرابتهم مع القاتل بالخط المستقيم أو الخط المنكسر ، يقتلونه ثأراً لقتيلهم ، وإن لم يتمكنوا من أخذ الثأر ، فلهم أن يتلفوا أو يخربوا ما تصل إليه أيديهم من أموال منقولة أو غير منقولة ، تخص القاتل وأقاربه حتى الدرجة الخامسة ، وذلك في غضون ثلاثة أيام وثلث اعتباراً من ساعة القتل ، وبعد مرور هذه المدة لا يحق لهم أن يتلفوا شيئاً من مال القاتل ، ما لم يتمرد القاتل وذووه عن الانصياع لأصول العشائر فيما يتعلق بالدم ، ومن المعتاد عند وقوع قتل أحد الناس ، أن يسارع رجال إحدى العشائر المجاورة لحماية أموال القاتل وأقاربه ، من تجاوز ذوي المقتول ضمن المدة المنوه عنها ، وهذه المدة أي الثلاثة أيام وثلث يسمونها (فورة الدم) وكثيراً ما يتدارك عقلاء المشايخ الأمور ، بحضورهم دفن القتيل وإسداء النصح لآله ، وتخفيف غلواء صدورهم ، لأن حماسهم في ذلك الحين يكون بالغاً أشده ، ومن المعتاد أن يحتشدوا ، ويزحم بعضهم بعضاً وهم مسلحون ، ويهزجون الأهازيج الحماسية ، ويسيرون خبباً ، قاصدين مهاجمة فرقة القاتل ، وقد يدفعهم الحماس للخطأ بآخرين ، ثم يجتهد عقلاء المشايخ المحايدين للتوسط بعقد هدنة لمدة فورة الدم المذكورة ، وتدعى هذه الهدنة القصيرة (عطوة المهربات المقربات) أي هدنة تكفي لتهريب القريب . والعطوة تكون مؤيدة بكفالة أحد الزعماء ، حيث يذهب الوسطاء ويبلغون ذلك إلى أقارب القاتل ، حتى يتمكنوا من الرحيل من وجه أقارب المقتول ، ويساعد الوسطاء وغيرهم من المحايدين أقارب القاتل على سرعة الرحيل ، خلال مدة العطوة .

وبعدئذ يتحتم على أقارب القاتل حتى الدرجة الخامسة أن يجلوا ، أي أن يرحلوا ببيوتهم ومواشيهم وأثاثهم عند إحدى العشائر المحابية لعشيرتهم ، أي التي يربطها اتفاق حسن الجوار معها ، ولا يجور لهم أن ينزلوا عند عشيرة أخرى ، تدخل تحت علم شيخ

عشيرتهم ، وبعـد أن يتكامـل نـزولهم يرسلـون ويطلبـون من مشـايـخ العشـائر الأخرى التواسط مع فرقة المقتول ليقبلوا منهم (المعـادد) أي تنسيب درجـة القرابـة والنسب بينهم وبين القاتل ، فيهتم الشيخ الذي كلف بهذه الوسـاطـة ، ويراجع أقـارب المقتـول ، ويطلب منهم أن يعينوا موعداً للاجتماع لبيان درجـات أنسـاب أقربـاء القـاتل حتى يطبق بحق كل فرد من ذوي القاتل ، بحسب درجة قرابته ما يتوجب عليهم ، وفاقاً لأصول العشائر ، وفي اليوم المعين يصير الاجتماع ، ويـأتي الشيـخ الـوسيـط بشخص خبير في نسب فرقـة القـاتـل يسمونـه (العـداد) ، فيجلس بين المجتمعين ، وبعـد أن يحلفوه اليمين بـأنـه يقـول الحقيقـة ، يأخذ بيده اليمنى خنجراً مسلولاً ويقبض على نصابه بكامل يـده ، ويبتـديء بـذكر أنسبـاء القاتل درجة درجة اعتباراً من الجد الجامع ، حتى يعرف أبعـاد كل واحـد منهم عنـه ، وهم يزعمون بالقبض على الخنجر المسلول بأن ذوي الدم قابضون على خنجر الانتقام ، قاصـدون ذبح من يسوغ قتله من أقارب القاتل ، وأن أصابع اليد تمثل درجات القرابة ، باعتبـار أن من كان قابضاً على الخنجر المسلول يمكنه الذبح ، وعند رفع أحد الأصابع تنقص قوة اليد ، وهكذا دواليك حتى ارتفاع آخر أصبع حيث يسقط الخنجر من اليد ، فعندمـا يكون أحـد أقارب القاتل بعيداً عنه في الدرجة الأولى يرفع العداد أصبع الخنصر عن الخنجر ويعلن بأن هذا الشخص يمكن ذبحه ، ويجب أن يبقى بعيداً عن أقارب المقتول ، ثم يرفع أصبع البنصر ويعلن أيضاً أن فلاناً القريـب من القاتل بالدرجة الثانية يمكن ذبحه أيضاً بالخنجر المقبوض عليه بثلاثة أصابع ، ثم يرفع الأصبع الأوسط ويعلن أن فلاناً الذي في الدرجة الثالثـة يمكن ذبحـه أيضـاً بـالخنجر المقبـوض بـأصبعين ، وعلى كل أولئـك أن يبقـوا في الجلى (المهجر) بعيدين عن وجه ذوي المقتول ، ثم يرفع السبابة ، فيبقى الخنجر يمسكـه البـاهم مع جـانب الكف حيث لا يبقى إمكان للـذبـح فيـه ، إنما يمكن أن يجرح من يصيبـه ولـو جروحـاً خفيفة ، عندئذ يعلن العداد بأن فلاناً الذي في الدرجـة الرابعـة لا يمكن ذبحـه بل يتوجب عليه أن يتقي أضرار الخنجر التي بالإمكان نهشه بها و (أن يدفع بعير النوم وينـام) أي أن يدفع لذوي المقتول بعير ثني قيمته خمسئـة قرش ، ويرجع من المجلس ، وينزل بين عشيرتـه وبعد كل ذلك يرفع الباهم لأن جميع الأصابع تخلت عنه ، فيعلن العـداد أن فلانـاً الـذي في الدرجة الخـامسـة وقع عنـه الخنجر ولا يؤذيـه بشكل مـا ، ولـذلـك يحق لـه أن يرجع من المجلس ، وينزل بين عشيرتـه من غير غرامـة ، إلا أنــه عنـد وقـوع الصلـح يكلف بــدفـع

ما يصيبه من الدية ، ثم يعلن نسبة أقارب القاتل مع أقاربه وعددهم ، ويكون تنفيذ ما يترتب على كل منهم وعلى فرقة المقتول من الحقوق ، مضموناً بكفالة أحد الرؤساء .

وبعد الانتهاء من ذلك ، يتوسط مشايخ العشائر الأخرى ، لأخذ عطوة عمومية بين الطرفين ، فيذهب هؤلاء وينزلون في بيت أهل المقتول (جاهة) أي ملتمسين ، وهناك يرفضون أن يتناولوا القهوة والطعام حتى يلبى طلبهم ، ويعطوا مبتغاهم ، وهو عطوة تشمل القاتل وجميع أقاربه ، ومن ثم تعين لهذه الهدنة شروط وحدود تربط بكفالة أحد المتنفذين من العشيرة المنسوب إليها القتيل ، وعندها يصبح القاتل وأقاربه بمأمن على أنفسهم وعلى أموالهم ، بشرط أن لا يتجاوز الشروط والحدود التي تعينت عند الهدنة ، وبأثناء هذه الهدنة ، يسعى المصلحون لإقناع أقارب المقتول على قبول المصالحة ، فإذا تمكنوا من إقناعهم على الصلح طلبوا منهم بواسطة ـ جاهة ـ أخرى تتألف من عدة مشايخ (عطوة إقبال) ، وعندما يعطى أقارب المقتول عطوة الإقبال هذه ، يكونوا أسقطوا حقهم بأخذ الثأر ، ولا يبقى لهم أي حق إلا أخذ الدية ، وإذا تعسر إقناع أقارب المقتول بقبول الصلح ، يذهب إليهم بعض المشايخ ، ويجددون العطوة مرات متعددة ، حتى يتمكنوا من إقناعهم بقبول الصلح وإعطاء (عطوة الإقبال) وهي تعني الهدنة التي يسعى في غضونها أقارب القاتل ، لإقناع أهل المقتول بالصلح ، وقد جرت العادة بأن يدفع رسم على هذه العطوة ، ويكون مبلغه محسوباً من أصل الدية عند تعيينها .

الصلح بين الأفراد :

يعين المتوسطون بالصلح يوماً لإجراء الصلح ويعلنونه للطرفين ، وحينئذ يهتم أقارب القاتل لجمع عدد من المشايخ ذوي الوجاهة والحرمة ، في العشيرة ومن غير مشايخ العشيرة إن أمكن ، ويلتمسون من أحد المشهورين في حسن البخت والحظ ، أن يعيرهم بيت الشعر خاصته ، وبعد إعارته يحملونه سراً ويرسلونه ليلاً مع أشخاص لا علاقة لهم بالدم ، فيأخذه هؤلاء ، وينصبونه سراً قبل طلوع الفجر وراء بيت عائلة المقتول ، ويجلسون فيه يعدون الحطب والنار لحضور (الجاهة) ، وعندما يفيق أقارب المغدور من النوم ، ويشاهدون البيت المنصوب وراءهم ، يجمعون رجالهم المحنكين ويستعدون للمذاكرة بأمر عقد الصلح ، وعند ضحى النهار يقبل وفد المشايخ ، ومعهم عدة أشخاص من أقارب

القـاتل العقلاء ، وثلاثـة أو أربعـة من عـاقلات النسـاء . ويتقـدم هـذا الجمهور كلـه كفيل (عطوة الإقبال) إشارة إلى أنه يحمي أقارب القـاتل ذهـابـاً وإيـابـاً ، تم الصلح أم لم يتم ، وينزل هذا الجمهور في بيت الشعر الـذي نصب ، ويكون أقـارب القـاتل قـد أحضروا معهم جميع ما يلزم من الذبـائح والطحين والسمن والبرغل والرز لإطعـام الجموع ، وقهوة ودخـان أي كل مـا يقتضيـه إكرام الضيـوف ، هـذا فضـلاً عن عـدة ثيـاب جـديـدة لإكسـاء ذوي القتيل .

وبعد أن يستقر المقام بهؤلاء ، يتولى أمر المفـاوضـة أكبر المشـايخ الموجودين ، فيرسل من قبلـه أحـد المشـايـخ الآخرين ، ويستـدعي أقـارب المقتـول إلى بيت الشعر المنصـوب للمصالحة ، وحينئذ يأمر ذلك الشيخ أكبر أقارب القاتل أمام الحاضرين أن يتقدم إلى أقرب شخص من أقـارب المقتول ، ويطلب منـه الصلح ، فيقـوم الأول ويجعـل عقـالـه في عنقـه ويستـل خنجراً بيـده ، ويتقـدم ويجلس بين يـدي قريب المقتول ، ويسلمـه طرف عقـالـه المعلق بعنقه مع الخنجر ، ويخاطبه قائلاً إنني بالإضافة عن فلان القاتل أعترف بـأنني قتلت قريبك فلانـاً ، وهـا أنـا أسلم روحي ليـدك ، فـإن شئت اذبحني بهـذا الخنجر ، وإن شئت اعف عني ، واقبل فدية حيـاتي الـديـة التي تفرضهـا علي ، وعنـدهـا يمسـك قريـب المقتول العقال المعلق بعنق ذاك ، ويسـألـه ثلاث مرات من هو القـاتل فيعترف هـذا ثلاثـاً بحضور الجميع ، أنني أنا القاتل مضيفاً إقراره إلى القاتل الذي لا يجوز له الحضور عند عقد المصالحة ، وبعد أن يتم الإقرار بهذه الصورة ، يختار أقارب المقتول أحد الأمرين ، فـإمـا أن يتنـازلوا عن دمهم ويترفعوا عن أخذ الدية ، فيقابل أقارب المقتول كرمهم هـذا بمثلـه ، كأن يهـدوهم بعض بناتهم أو عقاراتهم ، وإما أن يعين أهل القاتل ما يرغبون بأخذه من دية . وإذا تقرر الأمر الأخير ، يبتدئ الشخص القابض على طرف عقال قريب القـاتل هكـذا : هل تـدفع لي البنت الفلانية من عائلتكم (غرة) لديـة فلان ، وهل تـدفع العقـار الفلاني (طلبـة) ، وهل تدفع كذا من الدراهم ، وكذا من الخيول ، وكذا من الإبل ، وكذا من الأغنام والأبقار وغير ذلـك ، إلى أن يـذكر عـدداً ضخماً من المـال والمـواشي ، ونـائب القـاتـل يعلن رضــاه واستعداده لدفع جميع ما طلب منه ، وعندما ينتهي الطالب من سرد طلباته ، يعلن بـأنـه يعفيه من دفع النوع الذي يختاره من أنواع الأموال التي يشترط دفعهـا عليـه ، فيقف هـذا ويعلن بـأنني اخترت أن أقوم وأنـا معفى من دفع الخيـول مثـلاً ، وعنـدمـا يعـود إلى محـل

جلوسه يسأل قريب المقتول ، وبماذا تجلسني ؟ أعني ماذا تُعْفي عني من أنواع الأموال التي طلبتها حتى أتمكن من الجلوس ، فيجيبه الطالب اجلس ، معفى من الإبل مثلاً ، أو أي نوع من الأموال المطلوبة التي يختار المتنازل عنها . وبعد أن يجلس يتولى رئيس الحضور من المشايخ إكمال المفاوضة ، فيخاطب أقارب المقتول ، إنني بلسان الحاضرين ، أشكركم لأنكم احترمتمونا وتنازلتم عن دمكم ، وقبلتم عنه الدية ، ولذلك أسألكم عما تسمحون به من الأموال التي طلبتوها إكراماً لله ، فيعلن متقدم عائلة المقتول إنني أتنازل عن هكذا ، مقدار من النوع الفلاني من الأموال التي طلبتها إكراماً لوجه الله ، ثم يخاطبه رئيس الجلوس ، وماذا تسمح لرسول الله ؟ فيجيبه أيضاً : بالتنازل عن مقدار معين ، ثم يخاطبه أيضاً : وماذا تسمح لخاطري ؟ وهكذا يتكلم كل واحد من المشايخ الحاضرين ، ويطلب السماح عن شيء من الأموال المطلوبة إكراماً لخاطره فيسمح هذا لكل واحد من المشايخ بمقدار من الأموال المطلوبة . وعند ختام ذلك يعلنون أنه قد تم الصلح ، فيطلب القاتل كفالة أحد الزعماء لتنفيذ أحكام الصلح بعدم المعارضة لهم فيما بعد ، ويسمونه (كفيل الدفا) وأقارب المقتول يطلبون من أولئك كفيلاً ، لتأدية بدل الصلح ويسمونه (كفيل الوفا) وبالحال يقوم الشخص المتقدم من أقارب القاتل ، ويرفع راية بيضاء ويعلن بها شكره لأهل الدم ، ويقدم هذه الراية ويسلمها لكفيل الدفا ، وبعد أن يستلمها هذا ، ويعلن حمايته لجميع عائلة القاتل يسلمها لكفيل الوفا الذي يعلن استعداده لتأدية جميع ما تم عليه الصلح ، وحينئذ يأمر شيخ المجلس بتقديم القهوة التي تكون أعدت من قبل أقارب القاتل ، ولما يتناول كل شيخ فنجانه يطلبون من أقارب المقتول أن يسمحوا بمقدار من الدية إكراماً للقهوة ، فيسمحوا لهم بما يشاؤونه ، وعقيب شرب القهوة يأتي أقارب القاتل بالثياب الجديدة التي أحضروها ، ويلبسوها أقارب المقتول ويباشرون الذبائح ، وطبخ الطعام ، وتقديمه لجميع الحاضرين ، وبعد أن ينتهوا من الطعام ، ويهموا بالانصراف تقف متقدمة النساء وتسأل من أقارب المقتول ، وبماذا تصرفونا ؟ وما الذي تتنازلون عنه من الأموال المطلوبة إكراماً لنا ؟ فيتنازل ذوو المقتول عن جانب من الدية ! إكراماً لخاطر النساء ، ثم عند قلع بيت الشعر يتكلم أحد الحضور مخاطباً أحد أقارب المقتول ، وبماذا تودعون هذا البيت وصاحبه صاحب البخت وحسن الحظ ، فيجيبونه بالتنازل عن مقدار معلوم ، ويكون الباقي هو صافي الحساب للدية ، ويعلنوا أن ما بقي من الأموال المطلوبة هو

الواجب التأدية بكفالة كفيل الوفا ، كما يعلنون أنه لا يجوز التنازل أو السماح عن الطلبة والغرة من الدية . ثم ينصرف الجموع شاكرين كرم أقارب المقتول ، برفع الراية البيضاء التي يركزونها في كل عشيرة ، يمرون بها برجوعهم .

تقسيم دفع الدية واستيفائها :

إن الدية تترتب على جميع أنواع عشيرة القاتل ، بالنسبة لعدد الذكور الذين كانوا أحياء بعد وقوع القتل ، وإذا كان سبق انفصال إداري بين العشيرة ، فالدية تدفع من قبل أقارب القاتل حتى الدرجة الخامسة من القرابة ، وكيفية دفع الدية وتوزيعها يتم على الوجه التالي : يدفع القاتل مستقلاً الطلبة والغرة وثلث الدية ، ويدفع باقي أفراد العائلة من الذكور الأحياء والذين وجدوا عقب تاريخ القتل حتى تاريخ عقد الصلح ، بما فيهم شخص القاتل الثلثين الباقيين من الدية ، وتوزع عليهم بالتساوي ، وعلى أساس هذه القاعدة يقسم أقارب المقتول الدية بينهم ، أي أن ورثة المقتول يأخذون الطلبة والغرة وثلث الدية بأجمعه ويختصون به أنفسهم ، وثلثي الدية الباقية يقسم على الذكور من الأقارب لحد الدرجة الخامسة بما فيهم ورثة المقتول ، وتعتبر الابنة التي تعطى غرة للمصالحة من المشؤومات حيث لا يمكنها ترك زوجها الذي يكون من أقارب القتيل ولا بوجه من الوجوه ، ومهما جار عليها زوجها لا يمكن لأهلها الانتصار لها إلا إذا ولدت أولاداً ذكوراً وبلغوا درجة الرجال فعندها يزود أولادها عنها .

جريمة المرأة :

إن جريمة المرأة تعود مسؤوليتها على ذويها ، بحسب درجة القرابة الخمسة ، ولا يسأل زوجها أو أولادها عما أوقعته من الجرائم ، ولا يضمنون عنها أي بدل ، فلو قتلت المرأة شخصاً عمداً أو خطأ أو جرحت أو أتلفت مالاً لأحد الناس يدفع ذووها الدية أو التضمينات التي يتوجب دفعها ، ويكون موقف زوج المرأة وأولادها كموقف أحد الجيران ليس إلا . والمرأة إذا قتلت تودى بدية ٤ ـ ٨ أشخاص بالنسبة إلى وصف الجريمة ، فإن كان مقتلها وقع تسهيلاً للتعرض لشرفها يحكم القاضي بأقصى درجات الغرامة .

الجرح وتعطيل العضو :

إذا نشأ من الجرح تعطيل عضو أو عاهة دائمية ، يتوجب على الجارح أن يرسل من يأخذ له عطوة أي هدنة من المجروح وأهله لمدة مناسبة ، وإذا لم يرسل ويطلب عطوة يعد مستهيناً بالمجروح ، وفي أثناء العطوة عليه أن يبادر إلى استصحاب بعض الوجوه ويذهب إلى منزل المجروح ويصالحه ، إما بعفو المجروح بدون عوض ، أو بمقابل شيء من النقود ، أو العروض يقدر بمعرفة هيئة المصالحة واتفاق الطرفين ، وإذا رفض المجروح أو تغالى في بدل المصالحة يستجير الجارح بأحد الزعماء ، وهذا يرغم المجروح على المحاكمة ، أو يبعث بها رأساً إلى القصاص ذي الاختصاص بتقدير التضمينات التي تجب على الجارح ، مراعياً قيمة المعالجة ومدة العطل عن العمل ، وأما إذا استهان الجارح بالمجروح ولم يرسل له من يأخذ منه عطوة ، ولم يسرع للمصالحة ، فللمجروح أن ينتقم لنفسه بأي طريقة كانت ولا يعد مسؤولاً ، ومن عوائد البدو إذا كان الجرح مشوهاً أو معطلاً لعضو أن تؤخذ نصف الدية فما دون ، وفي المحاكمة يحال المجروح إلى القصاص الخبير ، فيقف المجروح على مقربة منه ، بحيث يتمكن القصاص من رؤية كافة أطراف الجرح بعد شفائه ، ومن ثم يبتدئ بالتباعد عن المجروح شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ نقطة لا يمكن منها أن يتبين التشويه الذي تركه الجرح في وجه المصاب ، ويتخذ من المسافة التي بينه وبين الجرح قاعدة لتقدير قيمة الجرح ، وذلك بأن يقيس هذه المسافة بالخطوات ، ويحكم بتقدير الغرامة والتضمينات ، بالنسبة لكل خطوة من البعد .

الدخالة :

إذا وقع شخص في ظلامة وخوف ، وأيقن أنه سوف يدرك إذا هرب ، ولا يتمكن من النجاة ، يلتجئ إلى أحد المشايخ ويقول له : (أنا دخيلك) ، فيصبح بهذا ذلك الشيخ مكلفاً بحمايته ودفع الطالبين عنه ، ويسمى ذلك الشخص (دخيلاً) . فإذا تجاوز أحد هؤلاء على أموال الدخيل ونفسه ، يحق لذلك الشيخ أن يستدعي المتجاوز إلى المحاكمة ، وأن يطلب منه تضمينات شخصية ، بنسبة ما لحق دخيله من أضرار وتضمينات معنوية ، تتناسب مع شرف الشيخ ، وكثيراً ما يقع أحد البدو في جناية قتل أو جرح ، ويركن إلى الفرار من وجه ذوي المقتول أو المجروح ، فيدخل إلى أقرب بيت ، حتى ولو كان صاحب

البيت من أقرباء القتيل ، فيكون صاحب البيت مجبوراً حميةً وعادةً على حماية هذا الملتجئ ، ويحذر على المطاردين اللحوق بالجاني ، بعد أن يدخل ضمن البيت حتى ولو كان بيت أرملة فقيرة لا تعتز بشيء من القوة .

الصلح بين العشائر :

مهما بلغت درجة العداوة والخصومة بين عشيرتين ، لا يكون الأمل بالصلح بعيداً بل هو يحتمل المبادهة والشروع في كل وقت ، فإذا ضغطت الحوادث الخارجية السياسية أو الاقتصادية ، أو حدثت مفاجأة أثرت في الفريقين المتنازعين ، أو فرضت الحكومات والسلطات رغبتها وأكرهت ، في مثل هذه الحالات يعرض الصلح ، ثم يدرس ويبحث فيه ثم يقبل ، وها نحن ذاكرون أمثلة على ذلك :

في شتاء ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ م ، كلب البرد واشتد المحل بما لم يسبق له نظير ، وضاق ذرع البدو ، ورأت العشائر ضرورة قصوى لتجاوز مناطقها المعتادة خوف الجوع والتلف ، فاجتمع الرؤساء وقتئذ وتفاهموا وهيؤوا لعشائرهم ميادين للنجعة ، دون أن يحدث بينها نزاع ما ، ثانياً : في سنة ١٩٢٤ م ، شعرت عشائر عنزة بخطر عشائر نجد ، وقرب هجومها على بادية الشام ، فتصالح نوري الشعلان ومن ورائه عشائر (ضنأ مسلم) كلها مع ابن هذال شيخ عمارات العراق وتأهبوا للقاء الخطر المداهم ، ثالثاً : في حزيران سنة ١٩٣١ م تصالح الخصمان اللدودان الموالي والحديديون في مؤتمر عقد في سلمية بإكراه السلطات الفرنسية ومداخلتها ، وانتهى الحرب الذي كان مزمناً بينهما ، على ما سنذكره في بحثهما .

والمصالحات يعقد لها مجالس ومؤتمرات ، وهي أعمال طويلة جداً ومملة ، تؤدي إلى مناقشات ومداورات لا تعد ولا تحصى ، وقد تنقطع هذه المجالس أو المؤتمرات ، ثم تستأنف ويعاد الحديث مراراً ، ومن أراد الحصول على نتيجة صالحة في هذه المصالحات ، ينبغي أن يكون طويل البال إلى أبعد مدى صابراً حازماً ، لأن طول البال والصبر والحزم صفات تؤدي إلى تعب الفريقين المتخاصمين وسئمهما واضطرارهما إلى المسامحة والمصالحة . وعند شيوخ البدو القائمين بأعمال المصالحة قدر وافر من هذه الصفات .

أما كيفية وقوع الصلح : فهي أنه حينما تنهك قوى إحدى العشيرتين المتخاصمتين ، سواء أكان ذلك من خسائر في الأنفس أو الماشية أو من الاضطراب الذي يعتريها من جراء

ترك مناهلها ومراعيها المعتادة ، تتقدم بواسطة شيخها إلى شخص ثالث ، من الشيوخ المحايدين ذوي الكلمة النافذة . فيفتح هذا أبواب المفاوضة سراً وبلباقة ، إلى أن يوفق لعقد هدنة بين الفريقين ، تعرف عندهم بالعطوة ، وتبقى لمدة معلومة ، يمتنع في خلالها تجاوز أحد الفريقين على الآخر ، وذلك بكفالة ذلك الشيخ المحايد أو أمثاله ، ثم ينتخب كل فريق محكميه من الشيوخ البعيدين عن الفريقين ، ومن المعروفين بحكمتهم وحولهم وطولهم ، على أن يقبل كل فريق محكمي الآخر بالتقابل ، وقد يحتاج الأمر لانتخاب حكم مرجح ، ثم إن مكان اجتماع لجنة التحكيم يجب تعيينه والاتفاق عليه ، وهذا أيضاً يؤدي للنقاش ، لأنه وإن كان ذلك من حق السلطات واللجنة نفسها ، إلا أن أخذ موافقة ذوي العلاقة فيه أمر مرغوب ، وحينما تجتمع لجنة التحكيم في الوقت المعين ، يدرس أعضاؤها الاختلافات وعواملها وتأثيرها ، ويبحثون عن البادئ بالتعدي ، ويستنطقون شيوخ العشيرتين المتخاصمتين على انفراد ، وهم يحاطون إذ ذاك بكل التأمينات الممكنة ، ثم ينظم المحكمون قائمة مفصلة بالخسائر الواقعة لدى كل عشيرة ، ويقدرون قيمها ويقررون ، ومن النادر أن لا تقبل العشائر مقررات هذه اللجنة ، وهم يعلمون نتيجة قرارهم للفريقين ، ويصغون بكل تؤدة إلى الاعتراضات المقدمة من هذا وذاك ، وبعد أن يعيدوا المفاوضات والاستشارات ، ويقلبونها مراراً ، يتوصلون في الآخرة إلى حل نهائي يرضى به الجميع . فإذا تم ذلك يطلبون شيوخ العشيرتين المتخاصمتين وأعيانها ، ويجمعونهم في بيت الشعر الذي استقر فيه المحكمون ، وبعد تنزيل قسم من التضمينات المفروضة على النحو الذي ذكرناه في (بحث أصول الصلح عن دم أو هتك عرض) يتم الصلح نهائياً ورسمياً ، وحينئذ تتصافح الأيدي ، وتتعانق الوجوه ، وتقبل اللحى ، ويتناول الجميع الطعام سوية ، ولا بد من أن يكون هذا الصلح حقيقياً ومادياً ومؤيداً بكفالات قوية ، وإلا لا يكون طويل المدى والنفوذ ، لاسيا إذا كان نتيجة الضغط والإكراه .

هذا وكلما كانت الخصومات قديمة طالت المفاوضات والمساومات ، ومثل ذلك كلما كانت أسماء الفاعلين في الخصام غير معينة قليلاً أم كثيراً ، وكذا كلما كانت الأضرار والخسائر عند الفريقين فادحة ، ومما يلحظ أيضاً أن المصالحات التي تجري تحت ضغط الحادثات ، يمكن أن تنفسخ حينما تزول الحادثات التي أوجبت عقدها ، وها نحن الآن نذكر الأسس التي يعقد عليها الصلح ، فهذه ذات شكلين :

١ ـ التعويض المتقابل .

٢ ـ الحفر والدفن .

١ ـ فالمصالحة على أساس التعويض المتقابل ، لا يمكن أن تتم ما لم يكن العداء حديثاً ، والأضرار التي أوقعها المتخاصمان طفيفة ، وإذا حدث عداء بين عشيرتين على أثر حادث ما ، كقتل أو خطف فتاة أو سرقة وما إلى ذلك ، وإذا كان هذا العداء أوقف في حينه بتوسط أشخاص آخرين أو بحوادث فجائية ، يمكن أن يتم الصلح بسهولة ، وكل عشيرة تحسب دية الرجال الذين قتلوا بما يعادل ٣٣٣٣٣ قرشاً ذهبياً للرجل المقتول ، ونصف هذا المبلغ للفرس أي أن كل فرسين برجل ، وتحصى الإبل والغنم والحمير إلخ ... المسروقة حساباً دقيقاً ، ويقسم ممثلو الفريقين على صحة الأرقام التي يدلون بها ، فقوائم الحساب تعرض على المحكمين ، وهؤلاء يقومون بعملية الجمع والطرح ، ويسمون العشيرة المكلفة بدفع الفرق الزائد على قاعدة (هفا من وفى) ، وفي الغالب تعاد الأغنام المسروقة عيناً ، لاسيا وأن كلاً من البدو يعرف وسم فرقته ، فإذا أعيدت الأموال ، ودفعت ديات القتلى ، تجري حفلة الصلح الرسمي ، هذا وكل ما يقع من القتل والتلف خلال مدة (فورة الدم) وقدرها ثلاثة أيام وثلث اليوم لا يدخل في حساب الصلح ، بل يدخل ما يهدر ويتلف منذ اليوم الرابع .

٢ ـ أما (الحفر والدفن) فمعناه السماح العام أو ما يسمونه (حفار ودفان عن كل ماغبي وبان) ، ومعناه تناسي كل ما وقع بين الفريقين المتخاصمين ، ودفن المطالبات والسماح بها ، وهذا النوع من الصلح يقبل في الغالب ، حينما تكون الضغائن قديمة العهد ، والمخاصمات امتدت زماناً طويلاً ، وأصبح الصلح على أساس التعويض المتقابل غير ممكن الإجراء .

وإذا كان ميزان القتلى مائلاً كل الميل إلى جانب واحد ، وأهمية المنهوبات وكمياتها التي نهبها هذا الفريق أو ذاك ، بلغت حداً لا يمكن تعويضه أو حسابه ، وعلى كل حال تربط شروط الصلح بكفالة ، إذ يقدم كل من الفريقين كفيلاً من زعماء العشائر الأخرى ، يضمن تنفيذ شروط الصلح بحق عشيرته ، وبعد ذلك يتبادلون الزيارات والمعاملات دون خشية بعضهم بعضاً . والبدو الرحل ليس من عاداتهم أن ينظموا وثائق خطية ، بل

يكتفون بشهادة الشهود الشفهية ، أما البدو نصف الرحل والحضر فهم بالعكس يطالبون بوثيقة تبقى حجة لمدعياتهم فيما إذا أخل أحد بشروط الاتفاق والصلح ، وطريقة إنشاء هذا العقد أو الوثيقة ، تفتح مجالاً لمباحثات عديدة ، وأحياناً توجب كلمة أو جملة واحدة الرجوع إلى المناقشة والمماحكة في الموضوع من أوله .

السرقة :

السرقة سواء سميت سرقة أو غصب ليست عملاً مخجلاً ، كما يتصوره الحضر ، ويتلقونه بل تعد من ضروب البطولة ، والسارق الذي يقبض عليه ويده في الجيب ، ويعرف عقيب وقوع الجرم ليس عليه إلا أن يؤدي ماسرقه ، ويعوضه على صاحبه كما سوف نذكره ، وبعد تأدية ذلك يظل شرف السارق سالماً من كل تعرض . وفي السرقة يسترد المتضرر ماله بادئ بدء بطريقة الوسقة التي تقدم ذكرها ، وعند الحاكم يحكم على السارق إذا كان قد سرق من الأقارب أو من النزيل بإعادة المسروق ، وتعويض ما يترتب على هذه السرقة بأربعة أضعافها إذا كانت من الحيوانات أي على عدد قوائمها ، وإذا سرق شخص حيوانات وأموالاً تعود إلى شخص من عشيرة أخرى صديقة أو حليفة ، لا يكون التعويض إلا بالمثل الواحد (بعير لقاء بعير) ، ويأخذ الوسيط في هذه الحالة لقاء أتعابه رأساً واحداً عن كل خمسة رؤوس ، ولا حاجة للقول أن السرقة التي تقع ضد عشيرة عدوة لاتتحمل أي تعويض ، ومن عادتهم إذا سرقت ناقة أو فرس أو نعجة أي كل أنثى عشار وردت إلى صاحبها الأصلي بعناية شخص ثالث يكون لهذا الشخص حق الحصول على الحوار أو المُهْر أو الطلي المولود .

التجاوز على رفيق الطريق :

من الحقوق التي يجب على أبناء العشيرة رعايتها حماية رفيق الطريق ، الذي لا ينتمي إلى تلك العشيرة من كل أذى ، يصيبه من أفراد تلك العشيرة أثناء وجوده بصحبة رفيقه ، وإلى أن يبلغ المحل الذي يكون أميناً فيه على نفسه وماله ، فإذا ما تجاوز أحد أفراد تلك العشيرة على ذلك الغريب ، كان لرفيقه حق الدفاع عنه بجميع الوسائل ، والحق بأن يستدعي المتجاوز للمحاكمة ، وللقاضي أن يحكم عليه بتضمينات الغرامة الشخصية وبتضمينات رفيقه المعنوية .

تقطيع الوجه :

من القواعد عند الصلح بين الفريقين المتخاصمين أن تربط شروط المصالحة بكفالة أحد المشايخ البارزين ، لكل من الفريقين ، ليقوم هذا الشيخ بتنفيذ شروط الصلح المتوجبة على ذلك الفريق ، فإذا كان المصالح عليه أموالاً منقولة أو غير منقولة ، فعلى الكفيل أن يطلب من المكفول تأدية بدل الكفالة ، فإذا تقاعس وجب على الكفيل دفع هذا البدل أو ما يماثله ، بشرط أن يعلن ذلك المكفول ويشهد شهوداً ، ويحق للكفيل أن يطالب المكفول بأن يعيد له أربعة أمثال ذلك المال الذي دفعه عن بدل الكفالة ، وإذا كانت المصالحة على أساس جزائي ، فتكون الكفالة عبارة عن تأمين الطرفين المتعاديين من اعتداء أحدهم على الآخر ، مثال ذلك : لو قتل أحد الناس شخصاً آخر وجرت المصالحة على الأصول ، فلا بد من ربطها بكفالة شخصين أحدهما (كفيل دفا) والآخر (كفيل وفا) ، فأولياء القتيل يختارون شخصاً ويطلبون كفالته لتأمين استيفائهم الدية ، والقاتل يختار كفيلاً يحميه من تعدي أقارب المقتول ، ولكل منهما أجرة ، فكفيل الوفا له أن يستوفي واحد من تسعة من مجموع بدل ما كفل عند التحصيل ، وأما كفيل الدفا فله أن يأخذ من الشخص الذي كفل حمايته جذعاً من الإبل أو ما يعادل ثمنه من الدراهم (والجذع البعير عند أول تحميله) .

فإذا أخل أقارب المقتول أو المجروح بالكفالة ، وتعدوا على القاتل أو الجارح أو على أحد أقاربه ولو بإطالة اللسان أو بما يستشم منه رائحة التهديد ، يعتبر ذلك تقطيعاً لوجه الكفيل ، وعندئذ يحق لهذا أن يستدعيهم للمحاكمة ، والقاضي يحكم عليهم بتضمينات شخصية للمتجاوز عليه وبتضمينات معنوية للكفيل ، كما أنه عند عقد هدنة (عطوة) بين فريقين متحاربين أو متخاصمين ، فعلى وسطاء الهدنة أن يربطوها بكفالة كفلاء يختارهم الوسطاء ، ويرضى بهم الفريقان ، وبعدئذ إذا أخل أحدهم بشروط الهدنة يعتبر أنه قطع وجه الكفيل ، وأصبح عرضة للحكم بالتضمينات الباهظة .

التجاوز على الضيف :

إن الضيف يبقى بحماية المعزب (المضيف) إلى أن ينقض الملح ، ويراد بقولهم ينقض الملح : إلى أن يأكل طعام مضيف آخر ، وكل تعد يقع على الضيف أثناء ضيافته ،

أو بعد ذهابه وإلى أن ينقص الملح يكون المضيف ملزماً بتلافيه ، إما بضمان الضرر من نفسه ، أو بتحصيله من المعتدي عن طريق الطلب إلى المحاكمة . هذا وإن وجود شخص في بيت أحد الأعراب يجعله في حماية صاحب البيت ، ولو كان مرتكباً لأكبر الجنايات ، وتكون حماية الضيف أوجب إذا تمكن من أن يذوق قليلاً من طعام المضيف ، وهذا ما يهيب بالكثير من الأعداء للدخول إلى بيت أحد أفراد عشيرة معادية بقصد الإجرام ، حتى إذا انتبه إليه رجال تلك العشيرة وقبضوا عليه ، وأيقن أن ليس أمامه إلا الموت بذل كل ما في براعته وجهده ليرمي بنفسه إلى الخدر حيث النساء ، وسارع بالتقاط ما تبلغه يده من طعام والتهمه ، وحينئذ يصبح في نجوة من الموت ، ويجب على صاحب الطعام الذي ذاقه ذلك المقبوض عليه أن يبذل أقصى جهده لإنقاذه ، وإيصاله إلى أقرب مكان يأمن فيه على حياته ، وإذا كان صاحب الطعام غائباً فعلى مطاردي ذلك الشخص أن يكفوا عن مطاردته وأن يفسحوا له المجال ليفلت سالماً ، وإلا حق لصاحب الطعام أن يسوق من تجاوز على ذلك الذي ذاق من طعامه إلى المحاكمة ، وأن يطالبه بتضمينات مادية ومعنوية باهظة .

حقوق الطنيب :

الطنيب هو الشخص الذي ينزح من بلاد نائية تقضي عليه الظروف بأن ينزل في عشيرة ليس لها ارتباط ما مع عشيرته ، فينصب الطنيب بيته وراء بيت شيخ العشيرة ، فيكون هو وعياله وعرضه بحماية تلك العشيرة التي ينزلها ، فإذا وقع عليه أو على ماله أو عرضه تعد من إحدى العشائر التي بينهما ارتباط ، فلشيخ العشيرة التي هو طنيبها ، ولكل فرد من أفرادها أن يطلب المتجاوز إلى المحاكمة بالطرق التي سبق بيانها ، وإذا تمرد المعتدي عن الحضور يلجأ المدعي إلى طريقة الوساقة لإخضاع المعتدي للرضوخ للمحاكمة ، وكثيراً ما سبب التجاوز على الطنيب إعلان الحرب بين العشائر ، فالتهمت نارها الأخضر واليابس ، ويعتبر التجاوز على الطنيب من أكبر الجرائم الجنائية في عرف البداوة ، ومحاكمة مثل هذه الجريمة تجري أمام أحد قضاة المناهي ، ويحكم بغرامة وتضمينات باهظة ، للطنيب ولشيخ العشيرة ، وقد تناهز هذه التضمينات دية المقتول ، ولا يؤاخذ الطنيب على أي خطأ ارتكبه ، أو جرم اقترفه في أثناء نزوله طنيباً ، ولا ينادى للمحاكمة بل يقوم

مقامه شيخ العشيرة التي يكون طنيباً عليها ، ويدفع ما يلحقه من تضمينات ، وجملة القول أن للطنيب عند البدو مكانة كبيرة جداً يحوطونه بمنتهى الشهامة والمروءة .

التجاوز على الناصي :

الناصي هو الشخص الذي يقدم من ديار بعيدة قاصداً أحد المشايخ أو الزعماء ، لأمر يرتجيه منه ، أو يؤمل فيه ، ويشترط لاعتباره ناصياً أن يعلن حين عزمه على السفر بأنه يقصد العشيرة الفلانية أو البلدة الفلانية ، أو الشيخ أو الزعيم الفلاني ، فيصبح بذلك من ذلك التاريخ بحماية الشيخ المنصي ، وإذا حصل له أدنى تعدٍ في أثناء قدومه من أحد أفراد العشائر ذات الارتباط مع العشيرة التي ينتسب إليها الشيخ المنصي كان مكلفاً بتلافي أضرار ناصيه ، وله أن يطلب المعتدي إلى المحاكمة ، ويتقاضاه الغرامة والتضمينات الأدبية والمادية ، والحكم بذلك يتوقف على ثبوت علم المعتدي بأن ذلك القادم كان ناصياً للشيخ أو الزعيم المدعي ، وعند انتهاء المحاكمة يعود الناصي إلى أهله شاكراً عناية المنصي ، ورافعاً له راية بيضاء لدى كل عشيرة يمر بها .

أحكام الزنا الجبري :

إذا تعرض أحد الناس لامرأة فافترسها نهاراً وغصباً بينما كانت مارة في الطريق وحدها ، أو ذاهبة للاستقاء أو الاحتطاب كما هي عادة نساء البدو ، ورجعت تصرخ وتستثير حمية عشيرتها وكانت دلائل الغصب متوفرة عليها ، أصبح لعشيرتها ولأقاربها الحق بتخريب أموال الجاني خلال ثلاثة أيام وثلث اليوم ، وبقتله أو قتل أحد أقاربه حتى الجد الخامس انتقاماً لعرضهم ، وإذا وجد هناك ما يستدعي الصلح أو مراجعة القضاء يحكم القاضي بدفع غرامة تكون غالباً أكثر قيمة من دية القتل ، ويعتمد القاضي في مثل هذا الموضوع على تغريم الجاني بما يكون لونه أبيض من الأموال والحيوانات ، لأن الجاني سود العرض . أما إذا كان التعدي قد وقع خارج منزل العشيرة وبعد المساء فلا يعتد بصراخ المرأة بل يحق لأوليائها أن يقتصوا منها باعتبارها زانية بالرضا ، وأنها خرجت للقاء معشوقها ، وما كان صراخها إلا ستراً لعيبها الذي يحتمل أن يكون قد اكتشفه بعض الناس ، ويسمون المرأة من هذا القبيل (عاقبة السرح) أي التي تأخرت عن الرجوع لبيتها

بعد رجوع الماشية ، وتطبق عليها أحكام الزنا بالرضا ، والسبب في ذلك أنه يمتنع على النساء الخروج من المنزل بعد مجيء الماشية من المرعى ، وتغدو المرأة التي خرجت ، قد أقدمت على ذلك بقصد الزنا ، أما إذا وقع التعرض على امرأة نهاراً ولم يستطع الفاعل افتراسها ، لأسباب مانعة حالت دون إتمام فعلته ، فيحكم القاضي بغرامة تتناسب مع شرف المرأة ومركز أسرتها .

الزنا بالرضا :

إن الزنا بالرضا يجعل الزاني غير مسؤول عن فعلته ، ما لم يقتص أولياء المرأة الزانية الذين يتحتم عليهم بعد التحقق من زناها بالرضا أن يقتلوها جهاراً ، وإلا ظلت وصمة عار لا يمحى للعشيرة ، يعيرهم به جميع الناس بقولهم لكل واحد من عشيرتها (أنت الخابر وأنت الصابر) أي أنك خبرت عيب من أنت من أوليائها ، وصبرك عليها دليل رضاك على فعلتها ، ولذلك لا يسعهم إلا قتلها ، وقد يقتلون البريئة لشدة الحماسة التي لا تجعل لديهم مجالاً للتحقق عن صحة جرمها من عدمه ، وعلى ذوي الزانية أن يقتلوها ، وأن ينذروا عشيرة الزاني بها ، ليقتلوا صاحبهم بأيديهم ، أو يعلنوا للملأ أنهم خلعوه عن عشيرتهم وغير مسؤولين عنه فلا يطالبون به ، وعندئذ تتولى عشيرة المرأة الانتقام من الزاني بنفسها ، أما إذا لم تخلع الزاني عشيرته ، فالمعنى أنها تؤيده ، ويصبح عندئذ الحق لعشيرة المرأة أن تطارد كل واحد من أفراد عشيرة الزاني إلى الجد الخامس ، وخلا ذلك يحكم لهم القاضي بغرامة قدرها دية أربعة رجال ، فإذا انتقموا وقتلوا شخصاً من أقارب الزاني ، يكون لهم الحق باستيفاء ثلاثة مقادير الدية المقدرة للرجال ، فضلاً عن الشخص الذي قتلوه ، وذلك جزاءً لعشيرة الزاني التي لم تخلعه وتتنصل منه .

خطف النساء والبنات

هذا أمر كثير الوقوع بين البدو ، والبلاد العربية التي لا تزال متأثرة بعوائدهم كحوران وشرقي الأردن ، وأكبر الخطف يكون برضاء الطرفين ، وكثيراً ما يخطفون ذات الزوج وأم البنين ، والخطف إما جبري أو بالرضا ، وقد ذكرناهما بالتفصيل في (الصحيفة ٢١٥ ـ ٢١٨) .

جرائم الجنح في عرف البدو

١ ـ الجرح الذي لم ينشأ عنه تعطيل عضو .
٢ ـ إطلاق الرصاص ولو لم يصب جرحاً .
٣ ـ الضرب العادي سواء أكان بعصا أم بحجر، أو باليد أو بمادة أخرى لم تسبب جرحاً .
٤ ـ نتف شعر الذقن أو الشارب .
٥ ـ الطعن بالعرض .
٦ ـ القدح بنسبة إحدى النقائص المخجلة عادة بين البدو إلى المقدوح فيه .
٧ ـ الشتم بأنواعه ، أو شتم الوالدين .
٨ ـ العداية .
٩ ـ التعدي على شخص آخر يكون حاضراً في بيت آخر .
١٠ ـ قتل الحيوان . وإليك شرح هذه المواد :

١ ـ الجرح الذي ينشأ عنه تعطيل أو عاهة دائمة : يتوجب على الجارح أن يرسل من يأخذ له عطوة أو هدنة من المجروح وأهله لمدة مناسبة ، وإذا لم يرسل ويطلب عطوة يعد مستهيناً بالمجروح ، وفي أثناء مدة العطوة عليه أن يبادر لاستصحاب بعض الوجوه ، ويذهب إلى منزل المجروح ، ويصالحه إما بعفو المجروح بدون عوض أو بمقابل شيء من النقود أو العروض يقدر بمعرفة هيأة المصالحة واتفاق الطرفين ، وإذا رفض المجروح أو تغالى في بدل المصالحة يستجير الجارح بأحد الزعماء ، وهذا يرغم المجروح على المحاكمة ، أو يبعث بها رأساً إلى القصاص حيث يقدر التضمينات التي تجب على الجارح مراعياً بدوره قيمة المعالجة ومدة العطل عن العمل .

وأما إذا استهان الجارح بالمجروح ولم يرسل له من يأخذ منه عطوة ولم يسرع للمصالحة ، فللمجروح أن ينتقم لنفسه منه ولو بطرق خارجة عن أصول العشائر ولا يكون بذلك مسؤولاً .

٢ ـ إطلاق الرصاص : ينظر القاضي غالباً إلى إطلاق الرصاص نظره إلى جريمة كبرى ، ويعتبر الجرم من نوع الجناية ، ويحكم على مطلق الرصاص بتضمينات كبيرة ،

تناهز أحياناً نصف الدية ، وإذا ثبت أن إطلاق الرصاص لم يكن بقصد القتل ، بل كان بقصد الإخافة ، فيعتبر القاضي ذلك من قبيل الإهانة ، ويحكم على الفاعل بتضمينات تتناسب مع مركز المتجاوز عليه ، ويجبر الفاعل على الذهاب إلى بيت المعتدى عليه وتقديم الاعتذار له .

٣ ـ الضرب العادي : يفصل فيه غالباً بالمصالحة وبالاعتذار ، وإذا لم تنجح هذه الوسائل يقدر القاضي للمضروب تضمينات بسيطة جداً .

٤ ـ نتف شعر الذقن : إن نتف شعر الذقن أو الشارب من أهم المسائل عند البدو ، إذ أنه يمنع المتشاجرين أن يستعملوا أنواع الضرب والملاكمة والمشاددة على أن لا يمد أحدهم يده إلى ذقن الآخر ، وإذا مد يده ونتف ولو قليلاً من ذقن خصمه أو شاربه ، كان للمتضرر أن يطلب الفاعل إلى المحاكمة ، وكان للقاضي أن يحكم له بتضمينات باهظة ، تقدر بنسبة عدد الشعر المنتوف ، ومن المتعارف عليه بين العشائر أن قيمة كل شعرة منتوفة من الذقن خمسمئة قرش ، وكل شعرة منتوفة من الشارب ألف قرش ، وذلك لأن للذقن والشارب حرمة ممتازة ، ومن عوائدهم أن يحلف الواحد بذقنه أو بشاربه .

٥ ـ الطعن بالعرض : الطعن بالعرض كقول أحدهم أنت الخابر أنت الصابر[1] ، أو كقوله لخصمه : أنت ابن العائبة أو أخ العائبة أو أمثال ذلك من العبارات التي تشين سمعة العرض ، من غير أن يذكر الطاعن مادة يعينها من الجرائم التي للمتجاوز عليه معها أن يدعو المتجاوز إلى المحاكمة ، وأن يحكم عليه بتضمينات كبيرة ، وأن يجبره على تقديم الاعتذار علناً[2] وكثيراً ما تجر مثل هذه الحقارة إلى عدة جرائم إن لم يتمكن القضاء من تنفيذ أحكامه .

٦ ـ نسبة إحدى النقائص : إذا وصم أحد الناس الآخر بعيب علناً وبمواجهته ، كما لو قال لآخر : أنت شرود أي أنت هربت من وجه خصمك في ميدان القتال ، أو قال له : أنت سارق وسادتك أي سرقت مضيفك ، أو أنت بائق أي غدرت بمن يأتمن جانبك ، أو

---

(١) راجع فصل الزنا بالرضا .

(٢) يرفع راية بيضاء .

قذف بحقه بمثل عبارات تثلم الشرف كان للمعتدى عليه أن يطلب المعتدي للمحاكمة ، حيث يطلب القاضي من المعتدي أن يثبت ما نسبه للمدعي من الطعون ، فإذا أثبت ذلك تخلص من المسؤولية ، وإذا عجز عن إثباتها حكم عليه بتضمينات باهظة مع إكراهه على الاعتذار العلني للمقذوف بحقه ، برفع راية بيضاء بين الجمهور .

٧ ـ الشتم العادي : ليس للشتم العادي أهمية إذا لم ينشأ عن ذلك شجار ، يؤدي إلى الضرب أو الجرح ، وإذا بقي الأمر مقصوراً على الشتم أو التحقير البسيط ، ينتهي عادة بالصلح والاعتذار .

٨ ـ العداية : العداية مشتقة من عدا يعدو عدواً أي وثب لأخذ شيء ما ، فكلمة عداية المصطلح عليها بين البدو تعني خطف شاة من غنم الآخر علناً وذبحها ، غير أن لها شروطاً تبرر عمل الفاعل وتجعله غير مسؤول أدبياً ، وذلك إذا ضاف العادي أناس لا مندوحة له من إكرامهم بذبح رأس من الغنم ، إذ من المعروف بين العشائر بأنه لا يكفي لإكرام الضيف تقديم ما يكفيه من الطعام بل لا بد من ذبح عدد من رؤوس الغنم ، بنسبة مكانة الضيف وكرامته وكثيراً ما يذبحون له جزوراً[1] وعليه عندما يكون أحدهم في موقف اضطراري كهذا ، لابد له فيه من إكرام ضيفه ، وليس في وسعه أن يأتي بذبيحة من مواشيه لبعدها عنه ، أو كان ضيق الوقت غير مساعد على شراء الذبيحة من أناس آخرين ، وكان لغيره أغنام على مقربة منه كان له أن يأخذ منها رأساً أو أكثر بقدر ما يكفي لقرى[2] ضيفه ، شرط ألا يستعمل الجبر والشدة مع الراعي ، لأنه عندما يكون الراعي ممن يدركون هذه الواجبات يقدم ما يلزم من الذبائح عن طيبة خاطر للعادي ، الذي عليه أن يعيد إلى صاحب الأغنام مثلها عند أول فرصة تسنح ، وإذا لم تتوفر هذه الشروط ، أي إذا أخذ العادي من غنم الغير دون أن يكون عنده ضيوف يستحقون الذبيحة ، أو كان عنده مثل هؤلاء الضيوف إلا أن أغنامه كانت قريبة منه ، ويمكنه أن يأتي منها بذبيحة ، وأن يجهز الطعام ويقدمه إلى الضيف بأوانه ، أو كان هناك أغنام لآخرين هي أقرب إليه

---

(١) جمل كبير وسمين أو سبعة رؤوس غنم .

(٢) لولية ضيفه .

من الأغنام التي أخذ منها حاجته ، كان لصاحب هذه الأغنام أن يطلبه للمحاكمة ، وللقاضي أن يحكم عليه بتضمينات قد تبلغ أربعة أضعاف ما أخذ .

٩ ـ التعدي على شخص وهو في محل آخر : إذا تجاوز أحد الناس على آخر وهو في بيت شخص ثالث ، ولو كان وجوده فيه من قبيل الصدف ، وليس من قبيل الدخالة فضربه أو جرحه أو أهانه أو سلب منه شيئاً ، كان لصاحب البيت أن يطلب محاكمة المعتدي ، وللقاضي أن يحكم عليه بتضمينات تتناسب مع كرامة صاحب المحل ، مع إجباره على إرضاء المعتدى عليه إرضاء يعلن معه شكره لصاحب المحل ، برفع راية بيضاء بين الجمهور .

١٠ ـ قتل الحيوان : إذا قتل شخص حيوانَ آخرٍ عمداً وبدون ضرورة ملجئة لا يمكن دفعها إلا بقتل ذلك الحيوان فيضمن قاتله أربعة أمثال قيمته ، وإذا كان المقتول كلباً يحرس الغنم أو البيت فيكون الضمان أكثر من ضمان قيمة إحدى الحيوانات الباقية ، ويعود تقدير ذلك لحكمة القاضي ، وقد سبق أن حكم أحد القضاة بتضمينات عن كلب مقتول بشكل غريب جداً وهو أن يربط الكلب من ذنبه ويدلى من النافذة حتى يصل الأرض ، ويكلف قاتله بأن يأتي بحنطة ويهيلها عليه من تلك النافذة حتى يغيب الكلب بتمامه عن الأنظار ، وهذه الحبوب تعطى لصاحبه ضماناً عنه ، ولذا كان هذا العقاب الشديد خير رادع للكف عن التعدي على الكلاب .

قطع الجيرة :

من الجنايات التي فاتنا إلحاقها بالصحيفة ٢٨٨ (قطع الجيرة) ، والجيرة لغة الحماية ، يقال أجار فلان فلاناً أي : حماه وجعله في جواره ، وقطع الجيرة في العرف البدوي هو التجاوز على الجوار والإخلال بحقوق الحماية ، التي ضمنها أحد الزعماء أو الكفلاء لآخر احتمى به ، مثاله : إذا وقع اختلاف بين فريقين من الناس على مال منقول أو غير منقول ، يحتمل معه المحذور ، ففي مثل هذه الحالة يحق لأحد الفريقين المتنازعين ، أو لشخص آخر أن يضع المال أو الشيء الذي هو موضوع الخلاف تحت حماية أحد الزعماء أو المتنفذين ، فيعلن قائلاً (إنني أجير هذا المال بالشيخ الفلاني) وهذا يعني أنه يضعه تحت حماية هذا الشيخ وفي جواره ، إلى أن يفصل في الأمر قضائياً ، ويترتب على الفريقين

المتنازعين بمجرد اطلاعهما على إعلان الجيرة ، أن يرفعا أيديهما عن الشيء المتنازع عليه ، وأن يكفا عن معارضته ، ويعملا على المناهضة في الحجة والمقاضاة ، أو المراضاة لحل الخلاف بينهما ، بموضوع المال أو الشيء الجار ، فإعلان الجيرة هو قريب الشبه بحجز احتياطي لصيانة المنازع عليه إلى نتيجة المحاكمة ، ويمكننا أن نعتبره أيضاً عملاً إدارياً ، يراد منه الحيلولة دون وقوع ما يمكن وقوعه من المحاذير ، ما لو ظل المنازع عليه محلاً للتشادد بين الفريقين المتنازعين ، يتعاوره كل منهما بما تطوله يده من الأسباب والوسائل .

إن هذا النوع من الحجز يكون نافذ المفعول حتى ولو كان المجير (وهو الشخص الذي وضع الشيء المختلف عليه تحت حمايته) غائباً ، فإذا تجاوز أحد الطرفين على الشيء المحجوز ووضع يده عليه ، أو تصرف به بأي وجه كان ، عد ذلك منه إساءة للمجير يعبرون عنها بقولهم : (إن فلاناً قطع جيرة فلان) ويصبح الطرف المتجاوز على الشيء الجار ، مجرماً بحق المجير ، جريمة جنائية يحق معها للمجير أن يستدعي المتجاوز على ما هو في جواره للمقاضاة ، وأن يعمد إلى أسلوب البداة أو الوساقة اللتين سبق تعريفهما لإحضار خصمه لدى قاضٍ من قضاة المناهي ، ينتخب حسب الأصول التي جئنا على ذكرها ، فيحكم القاضي على المعتدي أي الذي تجاوز على جوار المعتدى عليه بغرامة وتضمينات باهظة ، تتناسب مع مركز الشيخ الذي انتهكت حمايته ، ويحكم فوق ذلك بإلزام المعتدي بإرضاء المعتدى عليه ، إلى حد أن يعلن بين الناس بياضه ، وذلك بأن يرفع راية بيضاء ينادي فيها بالشكر والامتنان ، لذلك الشيخ الذي أوصله إلى حقه ، وليس بخاف ما يكلفه مثل هذا التجاوز على الشيء المحمي من غرامة وتضمينات ، قد تعادل دية قتيل أحياناً ، كما وأن استرضاء الطرف الآخر حتى يعلن البياض ، ربما يكلف ذلك الطرف التنازل عن حقوقه على الأقل ، ولذلك كانت الجيرة قاعدة محترمة ، ولها فوائد جمة للإدارة والمحافظة على الأمن .

الخوة (الجزية ، حق الإخاء) :

هو حق يتناوله الأقوى من الأضعف لقاء تحمله كلفة حمايته ، وهذا الحق تجبيه العشائر الكبيرة من الفرق الصغيرة ، أو من سكان القرى والحواضر ، أو من القوافل

والقطعان والماشية ، ففي الحالة الأولى تدفع الخوة في الغالب من الإبل أو الغنم أو نتاج الأرض ، ودفعها يكون لشيخ العشيرة الكبيرة ، لقاء تعهده صيانة أموال الفرقة الصغيرة وأعراضها وأرواح أفرادها وحمايتهم من بقية العشائر ، وإذا حدث تعدٍ من هؤلاء يذهب ذلك الشيخ بنفسه ، أو يرسل من ينوب عنه لمراجعة المتعدي ، واسترداد المنهوب منه ، ويعرف من يقوم برد الاعتداء واسترداد المنهوب (بالحسيب) ، أما المفدى (فبالكسيب) ، ويعرف المقدار الذي يتسلمه الشيخ من الفرقة أو العشيرة المحتمية (بالخوة) وهذه في الغالب سنوية وتدفع بانتظام ، وفي حالة رفض الدفع يأخذها المطالب بالتهديد والقسر ، وحينما تؤدي الخوة يبقى الخوي (الأخ) مكلفاً بحماية المحمي ، ويكفل كل الإهانات والغزوات والسرقات التي قد تصيبه ، ويتداخل للدفاع عنه كأخ حقيقي ، وفي الحالة الثانية تدفع الخوة بعضها من الغلات وبعضها نقداً ، وهذا النوع من الخوة على القرى ليس له في الغالب مدىً ، سوى للدفاع عنها ضد النهب والسلب اللذين قد تأتيهما العشيرة القابضة لهذا الحق دون أن تتضمن أي حماية أخرى ، وهذا ما كانت تدفعه قرى المناظر كتدمر والسخنة والقريتين وغيرهما مما هو في وسط البادية ، إلى أن أزالته قوى الحكومة فاتسع المجال لعمران هذه القرى واستغلال أراضيها .

ومن دواعي الأسف أن بعض القرى المتطرفة في شرقي بلاد الشام لا تزال تؤدي هذه الخوة ، لملاحظة ضعف الدرك وتراخيه أحياناً ، أو حدوث انقلابات فجائية يتضاءل فيها نفوذ الحكومة ، ومبلغ هذا واحد عن كل مئة رأس ، وفي الحالة الثالثة تؤخذ الخوة من القوافل وتدعى [خفارة] كما قدمنا ، وهذه زالت الآن بفضل انتشار السيارات ، واستتباب الأمن في البوادي ، وكان مقدارها في عهد المجيديات مجيديان عن كل بعير ، وهذا ما كان يتقاضاه ابن هذال شيخ العمارات عن كل بعير ذاهب إلى العراق لاكتيال التمر ، وما كان يتقاضاه الأمير نوري الشعلان شيخ الأرولة عن الأباعر القادمة إلى الشام من العراق ، وقطعان الغنم تدفع أيضاً خوة يختلف مبلغها حسب المساومة ، لكنها ما كانت تتجاوز البرغوث الكبير عن الرأس ، وكان فيما مضى السياح الأفرنج المجتازون مناطق بعض العشائر يدفعون الخوة ، ومقدارها كان ليرة ذهبية عن كل شخص ، وكان كبار التجار في عهد القوافل التي تجتاز الصحراء يدفعون لكل العشائر خوة سنوية ، تختلف مقاديرها حسب مكانة العشيرة ، وحسب القوافل العائدة لذلك التاجر ، ومنهم الحاج محمد

البسام المتوفى في سنة ١٣٥٣ هـ ، فقد كان يدفع الخوة لجل عشائر الجزيرة العربية .

هذا والعشائر الصغيرة أو الضعيفة تحتمي بأكبر منها وتتبعه تبعية حماية (قوي يحمي ضعيفاً) ، لا تبعية قرابة أو عصبية ، إلا أن هذه الحماية تخلق واجبات أقرها العرف ، يمكن تحديدها بأن الغنم بالغرم ، فالتابع يدفع للمتبوع (الخوة) ، ويساهم في الدفاع عن منطقة النفوذ ، فيما إذا هددت هذه باجتياح ، وقد أصبحت هذه الصلة (الخوة) في عصرنا بغيضة إلى كل مخوى ، لأنها تعبر عن ضعفه وذله ، وهي سائرة إلى الزوال ، لأنها تتمشى مع قوة الدولة وهيبتها طرداً وعكساً . والعشائر الصغيرة تكره أن تكون خاضعة لسلطتين في آن واحد ، سلطة الحكومة وسلطة المشيخة ، لذلك فهي تتبع القوي منهما .

النجدة :

من أكبر العار عند البدو أن يفر الرجل من القتال ، أو يجبن عن نجدة رفيقه ، أو يسرق مطمورة جاره ، أو يغض على قذى امرأته أو بنته ، فمن فعل هذه الجرائم أو واحدة منها احتقر ورذل ، ورفضت البنات زواجه ، قالوا وإذا دخل مجلساً ووزعت القهوة على الجلوس مد الساقي يده بالفنجان موهماً أنه يقدم له القهوة ، حتى إذا مد يده لتناول الفنجان ، كبه الساقي في الأرض استخفافاً به ، واحتقاراً لشأنه ، فينصرف الرجل من المجلس من غير أن ينبس ببنت شفة ، فإما أن يذهب ويغسل عاره بالدم ، وإما أن يقوض بيته ويرحل إلى بلاد لا يعرف أحد فيها بجنايته ، والأدلة على ذلك كثيرة .

✡ ✡ ✡

المعارف عند البدو

ليس عند عامة البدو ولا خاصتهم شيء من (المعارف) يا للأسف ، فالقراءة والكتابة مجهولتان في البادية إلا ما ندر عند بعض أبناء الشيوخ ، لكن البدو أذكياء يدركون أموراً كثيرة بالسليقة ، وإذا ألقيت عليهم مسألة تعلموها وفهموها حالاً ، وبعض الشيوخ النبهاء الذين عرفوا فضل العلم على الجهل يستقدم من المدن معلمين لتعليم أولاده تعليماً ، وإن لم يزد عن قراءة القرآن ، وكتابة رسالة بسيطة ، لكنه نافع على كل حال ، ومن ختم من أولادهم القرآن الكريم فرح أهله ، وأدبوا له مأدبة ، واحتفلوا به كاحتفال الزفاف .

وقد شرعت الحكومات العربية في العراق والشام ففتحت مدارس أولية سيارة لدى بعض العشائر الكبيرة ، يتنقل المعلم معها في تجوالها ويعلم صغارها ، لكن عدد هذه المدارس لا يزال أقل من الحاجة ، وكفاءة بعض معلميها لمعيشة البادية ومخالطة أهلها ، لا تزال سبب التردد والتلكؤ وشكوى (إدارات المعارف) من عسرة إيجاد المعلمين المستعدين لتعليم العشائر والإقامة بينهم ، ومن الموانع الواقفة في هذا المشروع تفرق بيوت العشيرة وراء المراعي وعسرة اجتماع عدد كاف من الأولاد لدى المعلم ، وإذا اجتمعوا لا يداومون بانتظام ، وكثيراً ما يزيدون وينقصون بين يوم وآخر ، فلا يتأتى للمعلم أن يسير على وتيرة واحدة مع الكل ، وكثيراً ما يبقى بدون تلامذة ، أو مختصاً بأبناء الشيخ فقط ، فيقعد في الربعة كخطيب أو كاتب أو ضيف يعد الأيام وينتظر الراتب ، وإذا لم يسعفه الشيخ بنفوذه ، ويضغط على آباء التلامذة ويحضهم على إرسال أولادهم ، تضيع الفائدة من وجوده .

وعلى افتراض وجود المعلمين والتلامذة ومثابرتهم على الدوام والاجتهاد ، يجب أن لا يقتصر التعليم على القراءة والكتابة فقط ، بل على مبادئ العلوم الضرورية أيضاً ،

كالحساب والديانة والتاريخ العربي والإسلامي والجغرافيا ودروس الأشياء والزراعة ، كل ذلك على أبسط وجوهه ، وبالطرق العملية الجذابة التي تقبلها أذهان أبناء البادية ، وهو ما يكفيهم ، وليسوا في حاجة إلى أكثر من ذلك .

ولأجل هذا أرى أن يكون المعلمون المكلفون بتعليم أبناء العشائر من أبناء القرى ، ومن بيئة معتادة على حياة البادية وعشرة البدو ، ومن خريجي دور المعلمين الريفية وأمثالها ، وأن يكون وقت التعليم في فصل الصيف ابتداءً من شهر حزيران ، أي حينما ترجع العشائر من نجعتها في البادية أي إلى مقايظها داخل المعمورة ، أو على مقربة من المعمورة ، لأنها تكون وقتئذ متكتلةً إلى حد يسمح باجتماع عدد كافٍ من أبنائها لدى المعلم ، ويسمح أيضاً بإيجاد المعلمين الذين قد يفضلون خدمة الصيف قرب ديارهم على خدمة الشتاء في أقاصي البادية . ومدة تقيظ العشائر في المعمورة لا تقل عن ستة أشهر ، وهي كافية لتعليم أولادهم لو كان العمل متقناً من الجهتين والدوام مؤمناً .

وحبذا لو سلكت الحكومات العربية سبيل السلطان عبد الحميد العثماني ، فقد رأى بثاقب حنكته أن من جملة السبل لتحضير العشائر وإصلاح حالها هو العلم ، ففتح في الأستانة مدرسة خاصة أسماها (مدرسة العشائر) جمع فيها نخبة من أبناء شيوخهم ورؤسائهم ، فعلمهم وثقفهم حتى إذا أكملوها كان يدخل بعضهم في الكلية الحربية ، فيخرجون منها ضباطاً برتبة رئيس ، ويمنحهم لقب (مرافق فخري) لجلالته ، وبذلك كان يحبب إليهم التمدن والتنور وخدمة الدولة من جهة ، وخدمة أنفسهم وعشيرتهم من جهة أخرى ، وكان يدخل بعضهم في (الكلية الملكية) فيخرجون موظفين إداريين وقوام مقام ، وقد تثقف في تلك المدرسة العشائرية رجال كثيرون ، سمعنا بخبر بعضهم وأدركنا آخرين ، فمنهم تركي النجرس ورمضان الشلاش والمرحوم عبد المحسن الهفل ، وهؤلاء الثلاثة من رؤساء عشيرة العقيدات الفراتية ، وعيسى الفحل من السبخة الأبي شعبان ، والمرحوم برجس بن هديب شيخ الأسبعة الأعبدة ، ونواف الصالح شيخ الحديديين ، وفايز الغصين شيخ سلوط اللجا الشماليين ، وقد صار هذا بعد قاضياً ومحامياً . ومن جبل الدروز علي الأطرش ومحمد عز الدين الحلبي وغيرهم ، ممن ترأسوا عشائرهم بعدما كبروا ، ونفعوها كل النفع بدرايتهم وثقافتهم .

ومن هذا الرعيل المثقف نعد المرحوم طراد الملحم شيخ عشيرة الأحسنة ، فهو وإن لم ينشأ من مدرسة العشائر ، لكن أباه الشيخ فندي الملحم كان علمه في إحدى مدارس حمص الأهلية ، فشحذ بذلك ذكاءه الفطري وصار طراد من بعد خطيباً لسناً ، ومحامياً منطقياً في مجلس النواب السوري ، كلما طرحت قضايا العشائر ومطالبها لبساط البحث ، وعندنا أن أحسن عمل تقوم به الجمهورية السورية فوق المدارس الأولية التي تقدم ذكرها هو فتح مدرسة في تدمر ، بحكم أن تدمر عاصمة الصحراء وقطب دائرة منتجعات العشائر وممر أكثرها من رحلتي الشتاء والصيف ، على أن تكون هذه المدرسة الخاصة داخلية مجانية مستوفية الشروط يتعلم فيها أبناء شيوخ العشائر وكبرائهم تنشيطاً لهم وجذباً لقلوبهم ، لأن هؤلاء الأبناء الذين سيخلفون يوماً ما آباءهم إذا تعلموا وتثقفوا أو نالوا على الأقل الشهادة الابتدائية يرجى أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، ودعاة التحضير والاستقرار والتهذيب لعشيرتهم .

وأحسن عمل يقوم به شيوخ العشائر ورؤساؤها الميسورون أن يبعثوا بأبنائهم إلى العواصم والحواضر ، ويضعونهم في المدارس الداخلية الراقية ، ويعنوا بتعليمهم وتثقيفهم ، كما فعل بعضهم من الذين عرفناهم كالمرحوم الشيخ عجيل الياور شيخ شمر العراق الذي علم ابنه وخليفته صفوق في جامعة بيروت الأميركية ، وخليل بك إبراهيم باشا رئيس عشيرة الملية الذي علم ابنه محمد علي في مدارس حلب وأنابه عنه في رئاسة العشيرة ، والحاج مصطفى شوبطية شيخ عشيرة الأبوليل الذي علم ابنه وخليفته نوري في تجهيز حلب .

وليت عدد المقتدين بهؤلاء والمدركين بأن عصرنا الحالي هو عصر المعرفة والثقافة يكثر ، وأن من لا إلمام له بمبادئ العلوم على الأقل ـ ناهيك باللغات والقوانين ـ ومن ليس له لسان يحسن الإفصاح ، وجنان يجيد الدفاع عن مطالب عشيرته وحقوقها تجاه الحكومات والسلطات وقضاة الحاجات لا تسمع كلمته ، ولا تحفظ حرمته كما ينبغي ، مهما كرمت نبعته ، وكثرت شيعته ، وكبرت ثروته ، ورحم الله من قال :

العلم يرفع بيوتاً لا عماد لها   والجهل يخفض بيوت العز والكرم

☆ ☆ ☆

الدين عند البدو

قال الأستاذ عز الدين التنوخي في هذا الصدد : الإنسان ابن البيئة والمربى ، والبدوي لخشونته وعنجهيته ، في أخلاقه شراسة وقسوة ، فهو لا يشعر بما يشعر به القروي المتحضر من عواطف الرحمة والحنان ، أو ماتجمل به من محاسن الحضارة ، كاللين والعطف ورقة الطبع وخفة الظل إلا قليلاً ، ومما حفظته كتب الآداب لنا أن رجالاً من وفد تميم نادوا النبي ﷺ باسمه من وراء الحجرات فقال الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فالبدو لخشونتهم وتوحش بواديهم جفاة الطباع قساة القلوب ، وأشد الناس حاجة إلى مايشذب من أخلاقهم ، ويثقف من أميالهم ، وينبط ماء الحنان والشفقة من قلوبهم ، والبدو لفقد الوازع بين ظهرانيهم وفقد انتشار العلم بين قبائلهم بحاجة كبيرة إلى الدين البسيط الخالي من الخرافات ، وهم أشد الناس خضوعاً للدين إذا عرفوه ، وله في نفوسهم تأثير شديد جداً .

في القرون الأخيرة عم الجهل بالدين جزيرة العرب اللهم إلا بعض جهاتها كعمان واليمن ، ولم يستفق العرب من سباتهم ولا انقشعت عنهم ظلمات الجهالة إلا بعد قيام محمد بن عبد الوهاب وآل السعود بثورتهم الدينية والسياسية والقومية ، فترى اليوم عربان نجد والقصيم أقل من عربان بادية الشام وسواد العراق شروراً وجهلاً بأمور الدين ، فعربان شمر مثلاً يصلون ، وأما الأرولة فلا يعرفون إقامة الصلاة ، ومثلهم بنو صخر والسرحان وأكثر عربان بادية الشام .

وقال المطران بولس سلمان يصف بدو شرقي الأردن : البدوي له دين ويعتقد بوحدانية الله عز وجل ويسلم برسالة نبي الإسلام فيقول دائماً في كل خطوة من خطواته (الله ومحمد رسول الله) ، وأما باقي الفرائض الدينية كالصلاة والزكاة والحج والصيام فلا يقر لها وزناً ولا اعتباراً ، قال : وهم يأنسون إلى المعتقدات الطبيعية ، ويكرمون الأحجار

المقدسة ، والأشجار المورقة ، والمياه الرفيعة التي يعزون إليها شفاء الأمراض ويقدمون إليها ذبائح شكر ، وقال : وكثير من أهل البادية لا يعتبرون ماهو مسطر من الصلوات ، بل يعرفون غيرها فيوردونها قائلين (يارب فرشت عباتي اقبل صلاتي) .

وقال الأستاذ عباس العزاوي : العقيدة عند البدو قليلة الكلفة بسيطة ، وأساسها قبول ماكان قريباً من أذهانهم وأحق بالأخذ ، ومن حين دخلهم الإسلام زالت منهم عبادة الأصنام والأشخاص ، وحل التوحيد فلا يميلون إلى الرسوم والأوضاع الزائدة ، ومن المعلوم أن الإسلام أعلن عقائده بأوجز عبارة ، وهي إيمان وعمل صالح واستقامة ، والبدوي لا يريد أن يعرف غير ذلك ولا يشغل ذهنه بأكثر ، والبدو أقرب إلى التوحيد الخالص ، وتراهم في نفرة من مراقد الصلحاء ، وغالبهم على مذهب السلف بسبب المجاورة لنجد أو هم قريبون منها ، وقال : ومن حاول إصلاح هؤلاء وجب عليه أن يلقنهم العقيدة من ناحية تفكيرهم ، دون أن يدخل فيها ما لا تقبله أفهامهم ، بأن تلخص له أساسات العقيدة بلا توغل في تفرعات زائدة ، وأن لايعرف بأصحاب المذاهب إلا أنهم علماء معروفون لاأكثر ، وأرى أن يكثر له من تدريس القرآن الكريم ، وأن لا يعدل عنه ، وأن يسترشد بأحكامه ، وهم في الغالب مالكية أو حنابلة ، ويجب أن يلقنوا العبادات على مذاهبهم بما لا تصح بدونها ، وأن يلاحظ تقليل التكليفات قدر الإمكان والدين يسر ، وأرى من الضروري تدريسهم مجمل التاريخ الإسلامي ، وذكر الغزوات والملاحم الإسلامية بحيث يتجلى لهم النشاط وصفاء الأخلاق ، والتفادي في سبيل هذا المبدأ الجليل ، وأن لا تنسى العلاقة وأن يحل هذا التاريخ محل القصص الخرافية والحكايات التي لا يؤمل منها نفع تهذيبي .

قلت : وبعض شيوخ العشائر العاقلين المتدينين يستقدم من المدن رجالاً من منتسبي العلوم الشرعية ، ويجعله في العشيرة إماماً لإقامة الصلاة وتلاوة الأوراد والأذكار ، وربما كلفه تعليم الأولاد القرآن والقيام بعقود النكاح ، ويدعون هؤلاء في براري الشامية خطباء جمع خطيب ، وفي براري الجزيرة ملالى جمع ملا ، وهي كلمة تركية بمعنى فقيه ، ويكون لهؤلاء قدر واحترام في العشيرة ، وبيتهم منصوب قرب بيت الشيخ ، وإذا كانوا من ذوي الورع والعرفان نفعوا نفعاً جزيلاً ، في بث روح التقى والصلاح بين البدو .

وحبذا لو يكثر عدد هؤلاء الخطباء والملالي في كل عشيرة ، وفي معية كل شيخ ، على

شريطة أن يكونوا من ذوي المبادئ والمعلومات الدينية الصحيحة ، المؤدية لإشراب البدو أسس الدين وحب البر والتقوى واجتناب الإثم والعدوان ، وعلى أن لا يكونوا من المتزمتين أو الحشويين لئلا يفسدوا ويضروا بدل النفع .

وليت (دوائر الإفتاء والجمعيات الدينية الإسلامية) في عواصمنا وحواضرنا تنتبه لهذا الأمر ، وتهيء خطباء ووعاظاً من خريجي المدارس الشرعية ، تدربهم وتضع لهم تعليمات وبرامج ، وتنشرهم بين العشائر ليعظوا ويرشدوا ، ويبثوا روح الفضيلة والعبادات الإسلامية الصحيحية .

ومن المؤلم أن يكون في أوروبا وأمريكا جمعيات دينية تجد شيباً وشباناً من الرهبان والراهبات ، تقذف بهم إلى أي مكان في الأقطار البعيدة عن الأمان والعمران في مجاهل أفريقية وصحاري آسية حتى بين البرابرة والمتوحشين ، فيذهب هؤلاء ويعيشون في غاية من الضنك والحرمان ، وخطر الأمراض والثورات ، وراء الدعاية لدينهم ومذهبهم ، بينما لا يكون عند المسلمين دوائر شرعية رسمية ، ولا جمعيات أو طرق دينية تقوم بهذا العمل الضروري ، نزولاً عند أمر الآية القائلة ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ، ولا فتيان من منتسبي العلوم الشرعية أو العصرية يضحون بنعيم المدن ، ويقبلون على إرشاد أبناء قومهم ودينهم من العشائر ، وقد تكون العشيرة التي يرافقونها غير مقصرة في تسهيل مقامهم وتوفير غذائهم ، فهل من مجيب ؟



الشعر عند البدو

إن هذا البحث يضطرنا إلى أن نأتي بادئ ذي بدء ببضع كلمات عن الشعر البدوي الجاهلي ، ثم عن الشعر البدوي العصري ، ونقارن بينهما ماوسعنا الجهد والإحاطة ـ وإن لم نكن من فرسان هذا الميدان ـ فنقول :

الشعر عند بدو الجاهلية :

للبدو في كل زمان ومكان عواطف كالتي لكل الناس ، والعواطف كما هو معلوم هي مبعث الشعر ومصدر العلم والنظم ، تتكون حسب البيئة التي ينشأ فيها الإنسان ، وتتشكل بشكل المعيشة التي يعتادها . والبدو في الجاهلية كان لهم شعر من أبدع الشعر ، خضع لناموس النشوء والارتقاء ، ومازال يتدرج حتى بلغ إلى مابلغه شعراء المعلقات السبع وأمثالهم ، من نظم منسجم ونفس طويل ووحدة في القافية ، ويقال أن هذا الشعر بدأ في وزنه بالرجز ، مناغمة لسير الإبل ووقع أقدامها أو نحو ذلك ، ثم تدرج بعد في أوزانه من البسيط إلى المركب ، وهكذا .

وكان في الجاهلية لكل عشيرة شاعرها أو شعراؤها هم من أكثرهم شعوراً ، وأحدّهم عاطفة وأقدرهم على تصوير عواطفهم القومية ، وأحاسيسهم الشخصية ، وكانوا كذلك من أعلم قومهم بما تتطلبه هذه المعيشة من معرفة بالأنساب والأخبار ، وفضائل العشيرة ومثالبها ونحو ذلك ، وفي كل ما يجول بنفسهم ، وما يحدث لهم ولعشيرتهم ، قالوا شعرهم مشتقاً من بيئتهم التي نشؤوا فيها ، وتنوع شعرهم بتنوع العواطف التي تحسسوا بها .

وشعراء البدو في الجاهلية ماكانت تقع أعينهم إلا على البراري والقفار الشاسعة والوحوش والغزلان السارحة ، وظواهر الجو العابسة وعوارض الأرض اليابسة ، ناهيك

الطعن والضرب والخيل والنوق والنساء ، فإذا سار أحدهم وحده وراح يطوي البيد الخالية خاطب مهرته أو ناقته وناجاها بشعر موزون على وقع أقدامها ، فتجاوبه بهمهمتها وأنتها ، كأنها واعية والهة وتنشط وتغذ السير .

وإذا كانت باديتهم محدودة المناظر ، مطردة المشاهد ، قد كفوا مشاغل المدينة ، فأكثروا من وصف مطاياهم ، وهي الإبل إذ هي صديقتهم في رحيلهم ، ومادتهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ، فأكثروا القول فيها من كل نواحيها ، وكما وصفوا الإبل وصفوا الخيل والطير والظباء وغيرها من حيوانهم ، ووصفوا الصحراء الجدباء والخضراء أي أن شعرهم كان صورة صادقة لحياتهم ومناظرهم وعواطفهم .

وأمثلة هذا الشعر البدوي القديم كثيرة لاتحصى ، تجدها في كتب الآداب والدواوين يضيق مجال كتابنا عن إتيانها .

ثم ماأكثر ما كانت المرأة تعبث بعواطفهم ، لكثرة فراغهم واتصال حياتهم بحياة النساء ، يشاركنهم في الحل والترحال ، فإذا رحل أحدهم فلا يعدم في الطريق بيت شعر يضيفه ، يرى فيه نساءه ، ويحدثهن ويحدثنه ، فتهيج عواطفه بالحب والذكرى ، كل هذا ونحوه ملأ حياته بالمرأة ، يشعر فيها إذا حل معها ، ويشعر فيها ألماً لفراقها ، ويستفتح بذكرها قصيدته ولو لم تكن موضوعها ، وربما خطرت في ذهنه في أحرج مواقف القتال ، أو إذا هبت الريح من جانبها ، أو ناحت حمامة بجانبه ، فكل شيء يذكره بها ، فيأتي من الشعر بقول لاتعمل فيه ولا كلفة ، يلائم أمزجتهم وطباعهم ، ويناسب بيئتهم وسذاجتهم ، وقد يكون لهم مع ذلك النكتة البارعة ، والكلمة الجميلة مما يصيب الطرب والإعجاب ، وكل هذا من الوحي والإلهام الذين تنزلها الفطرة القوية ، لا من نتاج العلم والتعلم .

قال الجاحظ في البيان والتبيان « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هنالك معاناة ولا مكايدة ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو حراب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه قصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً وتنثال عليه الألفاظ أنثالاً » اهـ .

والشاعر الجاهلي كان أكثر ما ينظم الشعر لحاجة في نفسه من حماس أو غرام أو افتخار وما أشبه ، تهيج فيه قوة التصوير ، فينشد ويتغنى بشعره ، فيحفظه بعض الأعراب عرضاً أو عمداً ، فيسير من حي إلى حي ، ومن ماء إلى ماء ، حتى إذا ما اشتهر اسمه ، أتت وفود العشائر تهنئ عشيرته ، وتطرب معها وتفرح ، وكان الشاعر الجاهلي دليل قومه ، والمدافع عنهم ، يفتخر بنفسه وقومه أحياناً ، فيقول :

إنا نعف فلا نريب حليفنا	ونكف شح نفوسنا في المطمع
ونقي ـ بآمن مالنا ـ أجسامنا	ونجر في الهيجا الرماح وندعي
ونخوض غمرة كل يوم كريهة	تردي النفوس وغنمها للأشجع
ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا	زمناً ويظعن غيرنا للأمرع

وقد يجعل الشاعر من المعايب محاسن ، كما فعل الحطيئة ببني أنف الناقة حينما قال :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم	ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

ولم يفت ساسة العرب الانتفاع من هذا المورد العجيب ، فكانوا يدفعون به بين العشائر ، لتهيئة أفكار الجمهور لانقلاب مفاجئ ، أو لإعداد صلح ، أو لإشهار حرب ، أو لنشر مأثرة . فكان الشاعر كثير النفوذ ، شديد التأثير ، حتى شبهه بعض الباحثين المتأخرين بقوله : (هو صحافي تلك الأيام) ولكن صحافي تلك الأيام لم يكن ليتزلف ، فيخدم رأياً لا يراه ، ومبدأ لا يسلم به ، ولم يكن لينال إلا بالعاطفة والرغبة .

الشعر عند بدو زماننا :

أما بدو زماننا فهم يشبهون أسلافهم الجاهليين بقرض الشعر وحفظه وسماعه ، ولهم في صفاء جوهم ، وخلو بالهم ، أكبر عون على ذلك ، ولا يزال يظهر بينهم شعراء يقولون القصيد الذي هو من صنف الشعر الغنائي ، ويتفننون به ، فيتغزلون ويفخرون ، ويتحمسون ويشببون ويمدحون ، ويهجون ويرثون ، وهم يستخدمون التشابيه والمناظر ، كما كان يراها أسلافهم في البادية ، ويستعملون المعاني والاستعارات التي كان الجاهليون

يـأتون بهـا في عصرهم ، لكنهم لا ينطقون مثلهم ، ولا يبلغون شـأوهم يـاللأسف في امتلاك ناصية اللغة الفصحى ، وإجادة التصوير ، وسمو المعاني ، وبلاغة الألفاظ والمباني .

فالشعر عند بدو زماننا ليس فيه على الجملة مزايـا مـاسلف ، ولا وضـاحـة مـامضى وانصرف ، لأنـه يقـال بلهجـة مشوبـة بـالحوشي والغريب من الكلام ، طـافحـة بـاللحن ، محرومة من الأعراب ، بعيدة بعداً كبيراً عن الصورة الناصعة ، ورقة اللفـظ وحلاوة الجرس التي للشعر البـدوي القـديم ، كما تشهـد على ذلـك المنتخبـات التي سردنـاهـا في خـاتمـة هـذا البحث ، وأكثر شعراء المـاضي كانوا من عليـة القـوم والبـارزين ، فكانـوا لا يقـولـون الشعر للتكسب ، بل لحاجة في أنفسهم ، أو لدافع فطري ، أو لمنظر حماسي أو غرامي ، بينمـا أكثر شعراء البـدو في زمـاننـا أنـاس مرتـزقـة ، فقراء في الغـالب ، يتجـولـون بين الأحيـاء ، ويتكسبون من شعرهم ، وجل هؤلاء من عشيرة الصليب ، وهم مقبولون أكثر لغلبة البداوة الصرحاء على أخيلتهم وألسنتهم ، فتجدهم عند البدو الأقحـاح من شمر وعنزة ، وبعضهم من طائفـة النور ، وتجـد هؤلاء عنـد البـدو المتحضرين (أعراب الـديرة) ، ولكل عشيرة الآن شاعر خـاص ، يتبعهـا في حلهـا وترحـالهـا ، يمـدح الشيوخ والرؤسـاء ، ويثني على كرمهم وجودهم ، ويصف الغزوات وأفعال الأبطال الكماة ، ويشهر قدرهم ، ويعلي ذكرهم .

على أن الأستاذ الشاعر خير الدين الزركلي الذي خبر شعر البادية في الحجاز ، يعـذر بدو زماننا في مارجونـا أن لا يكون ، فقـد قـال في كتـابـه (مـارأيت ومـا سمعت) تحت عنوان (أدب البداة) ما يلي « ليس من الخطأ في شيء أن يقول قائل : إن عرب الجـاهليـة وصـدر الإسـلام ومـا بعـد هـذين العصرين اللـذين أينعت فيهما ثمـار الأدب والشعر وأتت قرائح أبنـائهما بـالمعجب والمطرب لم يبرحـوا يراهم من يرى عرب هـذا الجيـل في الكثير من عاداتهم أو أخلاقهم وآدابهم إلا مافقدوه ، وهو الخسـارة الكبرى أعني (الأعراب) في لغتهم ، والاحتفـاظ بفصيـح البيـان في منثـورهم ومنظـومهم ، فهـذا لا مجـال للمقـابلـة بينـه وبين العهـدين . أمـا الشعر من حيث هو شعور في النفس يترجم عنـه اللسـان فـإنـه لم يزل ممـا تحافظ عليه البادية ، وتنفرد بـالإبـداع فيـه عن الحواضر ، دع مـابين سكان المـدن وسكان الخيـام من الفرق في قـدرة الأول على الاختراع ، وقـوة الثـاني في الرصف والصنعـة ، يقف الشـاعر البـدوي اليـوم فيسـامر الآثـار ، ويصف السحـاب ، وينعت الجبـال ، أو يحن إلى

حبيب ، أو يبكي لفراقه ، أو يرثي كريماً ، أو يمدح عظيماً ، فترى فيه روح ذلك الشاعر البدوي الذي كان يقصد عكاظاً قبل أربعة عشر قرناً ، حاملاً في صدره ماقال من وصف ، أو حنين أو رثاء أو مديح .

وبالجملة فإن الشاعرية الفطرية مانفكت تصحب الكثيرين من البداة حتى اليوم ، ولا أرى ماقد يراه سواي من انتقاص هؤلاء أو بخسهم أدبهم ، لشيوع العامية فيهم ، أو لاعتمادهم عليها في شعرهم ، فما كان الشاعر الجاهلي لينطق بغير اللغة الشائعة المتداولة في أيامه ، وما كان - ولن يكون - من الإنصاف أن نطالب ابن هذه الصحراء القاحلة بالتعبير عما يجيش في صدره بلغة غير لغته التي تلقاها عن أمه وأبيه وعشيرته وأهله . فالبدوي الجاهلي قبل الإسلام والبدوي المعاصر من أبناء هذا العهد سواء من حيث الإفصاح والإبانة عن كوامن النفس بلغته المعروفة المألوفة ، فما كان ذلك بالمتكلف إعراباً غير إعرابه ، فتكلف هذا وما كان ذلك بمتلق عروض الخليل أو نحو سيبويه ، فنعيب على هذا اجتنابها .

على أن من يكثر من سماع شعر البادية في عصرنا الحاضر ، وينعم النظر فيه لا يعدم العثور على كثير من مبتكر المعاني والتشابيه ، مما لو أعرب ونسج على منوال ماألفناه من الأوزان ، لرأينا فيه حسنات غير يسيرة ، ولئن عد من أعظم خصائص الشعر في الجاهلية تأثيره في النفوس ، ولعبه بالعقول ، وتخليده الوقائع ، جرى شعر البادية في عصرنا مع شعر الجاهليين في ميدان واحد ، وصحت المقابلة بينهما من هذه الوجهة لاغير ، ذلك لأن شعر البدوي اليوم يؤثر في عقول البداة ، كما كان يؤثر الشعر الجاهلي في الجاهليين ، وقد يخلد الحوادث العظيمة فيهم كما كان يخلدها شعر ابن تلك العصور الخالية ، ولو أقبل أهل الحواضر من المعاصرين والمتقدمين قليلاً على تدوين شعر البداة لحفظ لهم تاريخ هؤلاء ، كما حفظ تاريخ أولئك ، ولما ذهب ضياعاً ما لمجاورينا في صحرائهم من خبر أو أثر أو معنى مبتكر .

بل لو ولع العربي في هذا الزمن بأخبار بداة العرب في الأزمنة المتأخرة بعض ماكان له من الولوع بأخبارهم قبل العصر الإسلامي وبعده بقليل لاضطر إلى رواية شعر هؤلاء ، كما يروي شعر أولئك ، ولأضيف إلى الأدب العربي أسلوب جديد ، اختارته هذه البداوة ،

كما اختارت ذلك تلك ، ومعاذ الله أن أقول بإحلال هذا منزلة ذاك ، أو بالرضى عن قبول هذا الأدب المشوه بالعجمة واللحن ، يتغلغل بين حنايا الأدب الصحيح أدب العرب الخالد ، فإن في ذلك لجناية على لغة القرآن ، وسهماً في كبد البيان .

وإن المختلط اليوم بالبداة ليعجب مما لبضاعة شعرهم فيهم من الرواج ، ويراهم في تعلقهم بها وإقبالهم عليها ، يفوقون الحضر في عنايتهم بشعرهم الصحيح وأدبهم القويم ، ينظم الشاعر المبدع من أهل مصر أو الشام أو العراق القصيدة ، وينشرها في إحدى الصحف مشكولة كلماتها ، مفسرة ألفاظها ، موضحة معانيها ، ثم ينظر إليها عن بعد ، يترقب ما يكون لها من الأثر في نفوس القوم فإذا قارئوها ثلاثون في المئة من قراء الصحيفة ، وفاهموها عشرة في المئة منهم ، ولا يحفظها واحد في الألف . ويرتجل الشاعر البدوي القصيدة ارتجالاً لا يتعمل فيها ولا يتكلف ، ولا يرجع إلى قاموس ، فيتناقلها الحفاظ من بعيد القبائل ، يتناشدونها ويتغنون بها . ولا أغالي إذا قلت أنها تعيش في أدمغة هؤلاء قبل أن تكتب ، أكثر مما تعيش تلك في أدمغة أولئك ، وقد نشرت وكتبت » اهـ .

وقال الأستاذ طه حسين في رسالته (الحياة الأدبية في الجزيرة العربية) طبع دمشق سنة ١٣٥٤ هـ « إن في جزيرة العرب أدبين مختلفين ، أحدهما شعبي ، يتخذ لغة الشعب أداة للتعبير ، لافي جزيرة العرب وحدها بل في البوادي العربية كلها ، في الشام ومصر وأفريقيا الشمالية ، وهذا الأدب - وإن فسدت لغته - حي قوي ، له قيمته الممتازة من حيث أنه مرآة صافية لحياة الأعراب في باديتهم ، وهو في موضوعاته ومعانيه وأساليبه يشبه كل الشبه للأدب العربي القديم الذي كان ينشأ في العصر الجاهلي ، وفي القرون الأولى للتاريخ الإسلامي . ذلك لأن حياة العرب في البادية لم تتغير بحال من الأحوال ، فحياة القبيلة الاجتماعية والسياسية والمادية الآن كما كانت منذ ثلاثة عشر قرناً ، فطبيعي إذن أن يكون الشعر المصور لهذه الحياة كالشعر الذي يصور الحياة القديمة ، وأن يكون موضوعه : ما يقع بين القبائل من حروب ومخاصمات ، تدعو إلى الفخر والمدح والهجاء والرثاء ، وما يثور في نفس الأفراد من أنواع الآلام واللذات ، التي تدعو إلى الغناء والشكوى حيناً ، والحب حيناً آخر ، والعتاب مرة ثالثة ، والقصيدة العربية الشعبية الآن كالقصيدة العربية

القديمة ، تبدأ بالغزل القليل البسيط المؤثر ، ثم تنتقل إلى وصف الإبل والصحراء ، فتطيل في ذلك ، ثم تطل إلى غرضها من مدح أو فخر أو غيرهما من فنون الشعر . ومثل ذلك يقال في الخطابة ، فالبدوي الآن فصيح كالبدوي القديم ، حلو الحديث ، محب للسمر والقصص إذا اطمأن واستراح ، خطيب بليغ ، إذا كان بينه وبين غيره خصومة أو جدال ، وهذا الأدب الشعبي العربي يرويه في البادية جماعة من الرواة ، يتوارثونه عن آبائهم ، ويورثونه لأبنائهم ، ويكسبون بروايته حياتهم المادية ، ومكانتهم الممتازة أحياناً ، ولسوء الحظ لا يعنى العلماء في الشرق العربي بهذا الأدب الشعبي عناية ما ، لأن لغته بعيدة عن لغة القرآن ، وأدباء المسلمين لم يستطيعوا بعد أن ينظروا إلى الأدب على أنه غاية تطلب لنفسها ، وإنما الأدب عندهم وسيلة إلى الدين » ا هـ .

قلت : إن بين البدو أناساً كثيرين واسعو الحفظ يستظهرون على صفحات قلوبهم ما يسمعونه مرات أو مرة واحدة ، وهم أميون لا يعرفون من القراءة والكتابة حرفاً ، فيحفظون قصائد سمعوها من دهر بعيد لا يخلون بكلمة واحدة منها .

وقد قدمنا أن أكثر شعراء البدو في زماننا من المرتزقة ، ومن مزايا الشاعر عند البدو فوق اتساع الخيال وكثرة الحفظ أن يكون نقاداً لأحوال العشائر ، عارفاً بأذواق الأعراب وطبائعهم ، وما يحل في صدورهم محل الرضى والاستحسان ، بارعاً في وصف المواقع والحروب ، ومن مزاياه أيضاً أن يكون ذا صوت رخيم واضح ، لأن الشعر عند البدو مغنىً ، والأصوات الرخيمة عندهم هي القوية المرتفعة ، والأصوات الناعمة المائعة التي يحبها أهل الحواضر لا تنال عندهم استحساناً ، بل ربما اسهجنوها وكرهوها ، وهم يعدون أنغام المرنمين والمطربين في المدن ألحاناً شاذة مملة لا يجدون بها لذة ، ولا تبعث في أعطافهم هزة ، وكذلك أهل الحواضر إذا سمعوا غناء البدو لا يدركون له معنى ، ولا يفهمون أكثره ، ذلك لأن البدو كما قدمنا لا يراعون في أشعارهم قواعد العربية ، فعندهم ألفاظ كثيرة شذت عن منقول العربية الفصحى ، فأنزلت في غير منزلها ، وعندهم أغلاط كثيرة صرفية ونحوية ولغوية تحتاج لمعجم أو ترجمان يفسر الغامض منها ، ويأتي بما يقابلها من العربية المعروفة في الكتب أو المألوفة في الحضر ، فهم يكسرون أواخر الأفعال المضارعة للقافية ، ويضعون نون المضارعة على الأفعال الماضية ، وينصبون المبتدأ في كثير من

الأحوال ، كما ينصبون الفاعل كنصبهم للمنادى المفرد وللمبتدأ أو يجرونها كما يجرون المفعول به ويسكنون أواخر الكلمة للوزن ، ويدغمون الأسماء ، وشعراء البدو يستعملون الكلام الحوشي الذي قل أن يفهمه أهل الحواضر ويستسيغونه ، خاصةً أولئك الذين لم يألفوا معاشرة البدو ومطارحتهم ، وعلة هذا الاستعمال ذوقهم الخشن ، وما اعتادوه وألفوه ، وشعرهم اليوم خص كالشعر الجاهلي ، بالبداهة والسذاجة ، وفقدان التكلف ، مع المغالاه أحياناً في الوصف .

هذا ويكون الشاعر عند البدو مجيداً إذا ضرب على الرباب ، وأتقن الضرب ، فتأتي الرباب تارةً بصوت حزين وتحن وتئن أنات الأسى عند إنشاد مرثية محزنة ، وتارة تهب بصوت عاصف كصوت الأبطال في الحروب ، فتترنح أعطاف الحاضرين طرباً واستحساناً ، وتارةً تجري كسيل هادئ في مدح الشيوخ وأهل الكرم ، وتارةً تمثل سير النياق والظعون وهكذا ، والشيوخ يعلقون الرباب وسط مضربهم يعدونها للشعراء في أوقات الأفراح ، كمولد أو عرس أو ختان أو عيد ، والشعراء يكرمون ويعززون مهما كانوا أذلاء أو فقراء ، وتخشى العشائر لسانهم وهجاءهم ، ولو كانوا من طائفة النور ،أو من عشيرة الصليب المعدودين من الخشارة في المجتمع البدوي ، والمحترفين حرفة الشعر والتكسب منه .

وكما كان للعرب في جاهليتهم أسواق كسوق عكاظ لإنشاد القصائد الغراء والتفاخر بها على مسامع الجماهير المجتمعة ، كذلك لهم الآن ما يشبهها في بيوت الشيوخ ، فترد الشعراء من أطراف البادية إلى بيت الشيخ ، ويأخذون الرباب المعلق في العمود ، ثم يضربون عليها ، وينشدون وإذا حضرت هذه المجالس ترى السامعين قد ترنحوا نشاوى حينما يغنيهم أحد المنشدين شعراً جميلاً على نغمات الرباب ، فإذا كان حماسياً قلقت بهم المقاعد وأقضت ، وإذا كان تشبيباً تمايلت الرؤوس وتسارعت الأنفاس ، وإذا كان في التوجيع والشكوى سكبت الدموع وهطلت الزفرات .

ومن راقت أشعاره حكموا له بالفضل وعلو القدر ، فتتناقلها الألسن وتحفظها الصدور ، وتنشرها العشائر ، ويتغنى بها البدو دهراً طويلاً ، وتبقى أثراً جليلاً ، ويأمر الشيخ للشاعر المجيد بالجوائز السنية ، والبدو أهل بصيرة نقادة يميزون بين جيد الشعر ورديئه .

وقد كنا ذكرنا في المقدمة أن المستشرق المسيو مونتاني الفرنسي أحد أساتذة معهد الدراسات الشرقية في دمشق كان من المولعين بأدب البدو وشعرهم ، حريص على التقاطه وتدوينه ، قبل أن تعبث به دواعي التحضير وعوادي الزمان ، فتضيعه وتغيره ، فذهب إلى مضارب عشيرة شمر في الجزيرة ، وتجول بضعة أسابيع ، وأشهر من فريق إلى فريق ، واستنطق المعمرين والمدركين ، وتسقط منهم قصصاً حربية وحماسية وغرامية وغيرها ، مما يتداولونه ويترنم به شعراؤهم ، وقد كتبها بنصها وفصها ، وترجم كلماتها وجملها بالفرنسية ترجمة دقيقة وشرحها ، وبعد هذا التعب خرج بمقالة ضافية غاية في الجود والمتعة ، درجها في (مجلة الدراسات الشرقية) للمعهد المذكور (ج ٥ سنة ١٩٣٥ م) ، تشبه ما عمله أبو الفرج الأصبهاني في كتابه (الأغاني) ، نتمنى لو أن أحداً من الناطقين بالضاد ، والمولعين بالأدب والشعر ، يقرؤها وينسج على منوالها ويأتي بمثالها .

هذا وأنواع القصيد عند البدو متعددة ، فمنها (السرحي) الباحث عن السرح ، أي عن السفر إلى الغزو والحرب ، و (الهجيني) الذي يرافق سير الهجن ، ويحثها على السير ، و (الحدو أو الحداء) وهو غناء الراعي حينما يسوق الإبل والغنم ، ويغني لها كما هو غناء الفرسان وهم يغذون السير ، والأمثلة على ذلك كثيرة درجنا بعض المختارات مما عثرنا عليه ، وغرضنا من ذلك إلفات النظر وإلا فلا حد للاستقصاء والاختيار ، ومجال كتابنا لا يتسع لأكثر من ذلك .

إن شعراء البدو في زماننا إما أن يستهلوا قصائدهم بذكر المولى عز وجل وصفاته الكريمة ، وبالاستغفار إليه ، والاستغاثة بلطفه ، كقول (أدكيس) وهي امرأة من الصليب اشتهرت بقرض الشعر والظرف :

يا الله يا عايد على كل ديرة	يا رب يا منشي مزن مصادير
يا الله عسى ما تكره النفس خيرة	يا والي الدنيا عليك التدابير

وكقول أحد شعرائهم :

أبدي بذكر إلهي على الكل منان	يا رب يا خلاق عرشاً بسمايا
نطلبك يا رب يا رافع الشان	ترفع عبيدك من جميع الدهايا

وإما أن يستهلونها بنداء (يا راكباً أو يا راجباً) فيخاطبون راكبي النوق والخيل المغيرات الذلولة السباقة ، ويصفون هذه النوق أو الخيل وهي سائرة براكبها نحو مضرب الشيخ الذي وجهت إليه الرسالة ، كقول شاعر من عشيرة الأحسنة يعاتب (الموالي) وأميرهم ، ويفتخر بقومه لما ردوا الموالي في إحدى غزواتهم ، وقد حملوا فيها البنادق أول طلوعها ، وجروا معهم بعض الحديديين ، ولعل الأمير المقصود هو أحمد بك الذي قدمنا ذكره في بحث التاريخ (ص ٩٦) ، ولعل هذه الغزوة حدثت قبل الأخيرة التي قتلته الأحسنة فيها . وقد سمعنا هذه القصيدة من المرحوم الشيخ طراد الملحم :

يا راكباً من فوق موما العلوكي	عليه من ياخذ خفيف الرسالة[١]
تلفي لـذباح الغنم والفروكي	وسلم عليه وسايله كيف حاله[٢]
يا مير ليه الشاة رايد تبوكي	وفرشت وجهك لتحديدي عتاله[٣]
أنتم عليكم البـوك والرب فـوكي	واحنا علينا ردهم بالجمالة[٤]
ركبـوا عليكم مخضبين العروكي	عيال الحسيني كل أبوهم جهالة[٥]
من يـوم بطلتـوا شيلكم للعروكي	بـارودكم سـوى عليكم رزالة
بـارودكم بخشـوم ربعي نشـوكي	عطر البنيـة اللي تنثر جـدالة

وكقول أحد شعرائهم في وصف الناقة التي حملت قصيدته إلى المرسل إليه ، وهم يسمون هذا المطلع (مشد القصيدة) ، والناقة كما تعلم صديقتهم في الحل والترحال ، ومادتهم في المأكل والمشرب والملبس ، فمن حقها أن توصف وتمدح :

يـا راجب اللي سـولـع الـذيب	رملـه ولا عمر الحـوير غـذى بـه
تجرى بـذرعـان سـوات الـدواليب	وحـده تقلطهـا ووحـده جنيبـه

---

(١) العلوكي : العلائق المربوطة بشداد البعير .

(٢) الفروكي : الجزور .

(٣) تبوكي أوتبوق : تسرق .

(٤) بالجمالة : بالحسنى .

(٥) العروكي : الرماح المخضبة بالدم .

شـــذب عليهـــا مظلم الليـــل تشـــذيب   يـــوم الثريـــــا دوبحت والجنيبـــــه
جـأن الشجر عنهـا عـدالـه جنـاديب   عن السهـل لجـّـه عفـاش الـــذنيبـــه
العين حمرة لـــون ضـــوء المشـــاهيب   وإلا خـــلاصـــة نـــار من مبتلى بـــه
ريحــــة عرقهـــا عنبر من هلـــو جيب   أو زعفران بـــالخـــدود العجيبـــه
لـــو درهمت شـــدة مـــلاوي العصـــاليب   حسيس وبـــدا ومـــاج عنهـــا لعيبـــه
أبـــوهـــا منفلهـــا على الفطر الشيب   وأمهـــا عفـــان الجيش مـــا ينجنيبـــه
سبيبهـــا يكسي متـــان العراقيب   ويلـوك للعـــز والمعطش ذويبـــه ...

ومثلها قصيدة مدحية قالها كنعان الطيار من رؤساء عشيرة الولد علي في حق مطلق الجربا وشيوخ شمر :

يـــا راجبـــاً هجينـــاً إليـــا شـوملن   جن السفن والأنعـــــام الهـــوارب
سلم على نـزل (السيـــافـــة) تحيـــة   ملفـاك (أخـو جـوزة) عفيف الشوارب
يشـــدا هـــداج ليـــا كثر وردو   ســوى بـزاد البيت مثـل النهـــايب
قـــاصين الرجـل عن بيت جـــارهم   مـا يـدخنـوا قـاصين أليـا غـائب
أدهـانن إذا كانن مـا يلحـق الضـد جيلهم   عيـــان إلى لـــوا مقلقين الطـــلايب
يـامـا نقضـوا من حجي مخفى عـــداوه   ومـــا دبحـوا من شـــايشن بـــالحرايب
قهـــارة المظهـور بـوجـــه ضـــدهم   وإن هلهلن بـــالكـون حمر الأشـــايب
يغطن برغـــــام العجـــاج وينثنن   ويطلعن معجـــلات الجنـــايب
محمـل ركاب الصبـايـا لـوجـه ضـدهم   غـــامجين الهـوا بي مجـل الترايب ..إلـخ

تفسير هذه الأبيات - يا راكباً هجيناً سبوقاً إذا عدا تحسبه سفينة في البحر أو نعـامـة هاربة سلم على من هم في منزل السيافة (يعني الخرصة ورؤساءها) ، الملقبين بالسيافة تلفى أخو جوزة ذا الشفاه العفيفة (أخو جوزة نحو مطلق الجربا) - وهو يماثل بئر هـداج (بئر في تيماء مشهور بغزارة مائه) حينما يكثر الوراد حوله ، وتخال أن في بيتـه نهبـاً وسلبـاً ، حينما يسوي الزاد لضيوفه ، وآل الجربا يقصون أرجـل كل من يحاول الـدخـول لبيـوت جيرانهم ، حتى ولـو كان هـؤلاء الجيران غـائبين ، وهم ذوو دهـاء وذكاء يعجـز عـدوهم عن إحباط خططهم الحربية ، ويعـارضون في كل شكوى ومطـاليب ترفع إليهم ، كم فرقوا جمل

الكلام الـذي يخفي عـداوة وكم ذبحوا من الأبطـال المغـاوير ، وهم قهـارو الظعون في وجـه أعدائهم ، ولا سيا حينما تهلل لهم نسائهم اللابسـات العصـائب الحمر ، وخيولهم تخوض رغـام العجاج ، وتنثني فتعود بالجنائب المسلوبة ، وهم يرخون أعنتهم أمـام أضـدادهم ، ويطعنون بالرماح ظهور هؤلاء الأضداد الهاربين .

مثـال التشبيب : قصيـدة لشمري يصف بهـا مـا جرى بينـه وبين محبـوبتـه دون أن يصرح بالاسم ، وهي لا تعدو التصوير ، وتشبه قصائد عمر بن أبي ربيعة ، وقد اقتبسناهـا من كتاب عشائر العراق لعباس العزاوي قال :

غـاب الخليـل وشفت بسـالترف ميـلاح	وجيت أتخطى جن أهلهـا نسـابـه
كالت تكلـع لأرهـج النزل بصيـاح	مـالي من اللي بـالردى ينهكي بـه[1]
كمت انبطـح لـه وأديره بـالمـزاح	لأن الحبيب وكام يضحـك بنـابـه
ثـار الحبيب وطبـك البيت بسيـاح	وكشفت عن نـابي الردايف ثيـابـه
غطيت بـالثـوب الحمر زين المـلاح	لمـا شعـاع الصبـح بيّن سرابـه[2]
كالت تنكل هـذا الصبـح بـاح	ووداعتـك عرضنـا والحـزابـه[3]
كلت مـاني ولـد عفن على السر نبـاح	اللي ليـا كفي رفيجـه حجـابـه[4]

وأراد أن يبعد المرمى ويزيل الشبهة ، فقال :

علمي بهم يـا غنيم يـوم المطر طـاح	واليـوم مـدري وين ربي دوابـه[5]
مـدري مـع اللي سنـدوا يم السيـاح	والا ويـاللي فيضـوا يم طـابـه[6]

مثال الحدو عند بعض العشائر :

---

(١) ينهكي به : يؤمل به .
(٢) لمأ : لما أن .
(٣) احزب على نفسك : تأهب .
(٤) اللي : الذي ، اليا : إذا .
(٥) دوابه : رمى به .
(٦) ويا : مع ، يم : عند .

يـــــــــــــــارب تخلي مهيرتي	تكبر وأصير خيــــــــالهـــــــا
وأشري لهـــــــــــا برشم ذهب	تكبر وأصير خيــــــالهــــــا
يـــا بنت يـــا اللي عـــالمصيف	طلي وشـــوفي خيـــولنـــــا
وأنت تغـــــــــــــاوي بشعرك	وحنـــا نغـــاوي بفعـــالنـــا

مثال آخر :

يـــــااللي تمنـــا حربنـــــا	غـويت يـــا غـــادي الـــدليـل
كم واحـــــــد من ضربنـــــا	دمـــــو على الشلفي يسيــــل
من شـــاعر جينـــا صـــايلين	تسمـــع رزيـــز مهـــارنـــا[1]
وإن ســـــــــاعف الله الكريم	بـــالميزر نـــاخـــذ ثـــارنـــا[2]

وقد يخاطب شعراء البدو قلمهم الذي يكتبون به ، ويأمرونه بأن يحسن تنميق الكلام ، وتغليف الخطاب ، وإيداعه لرسول أمين ، كما قال جابر بن الصباح من منفاه في الأناضول يخاطب محبوبته :

سر يـا قلم واكتب لنـا مـا نريـده	إن كنت بـزين التـواصيف قصـاد
بـزرف القرطـاس ضمـه وزيـده	واستغفر الرحمن خـلاق العبـاد
ولـه رسلتـه مـع برق الرعيـده	لا تـأمن عليـه من الرطـوبـة والـوقـاد
بـاهيـه يـابرقـاً تلعـج[3] وقيـده	بلـغ سـلامي من لـذيـذات الإنشـاد
سـلامـاً مقطـوع لـديـار بعيـدة	ألـذ من تمر العراقـاً وبغـداد
سـلامـاً من وريـد[4] لـوريـده	على عـدد مـا زوملن[5] كل غـاليـاً مطراد
مني لمظنـــون عيني وريـــذه	يرسـل جـوابـه بـالـذي كيف مـاراد
الصـويحب اللي عـذبني بقصيـدة	زين الحـلايـا يـا منيـة القلب ومراد

---

(١) شاعر اسم جبل في غربي تدمر وشرقي البلعاس .

(٢) الميزر : بنادق معمل ملوزر الألمانية .

(٣) تلعج : تشعل .

(٤) وريد : محب .

(٥) زوملن : أسرعن .

أبـو عيـون تقـول عين الفريـدة　　عين الفهـود اللي على القـاع وارد
اللي يـاصرت تنشـد وين نجم السعيـدة　　تلقـاه في برج الحمل بـان مـا حـاد ... إلخ

ومن وصايا البدو التي تدل على أخلاقهم :

احفـظ وصـاتي يـا ولـد يـوم بـوصيـك　　وإن شلتهـا تصبـح كثير الربـوح
أوصيك عن جارك وضيفك واللي بعانيـك　　تـدر عليهم در حمرا مسـوح
أوصيـك عن بنت الـلاش لـو كان تهنيـك　　يطلـع ولـدهـا مثـل طير شنـوح
أوصيـك خـذ بنت سبع لو كان يعـاديـك　　يطلـع ولـدهـا مثـل صقر اللمـوح
إن غلقت البيبـان يفتـح ويعطيـك　　وإن قضيتـه حسب مـا يروح

ومن أقوالهم في تكريم النسب :

أنسب وليـدك انسبـه　　والنـار من مقبـاسهـا
والعـز في أوراك النسـا　　اللي بعيـد سـاسهـا
والجري في ربـع النضـا « الإبـل »　　والخيـل في أسـداسهـا

ومن أقوالهم في وصف النجعة (التشاريق) ، وهو يشبه ماقلناه في الصحيفة ٢٣٤ :

وتبيشيرن بيبـان قلبي بـالفراح　　على عريب تحطحطـوا بـالنزيلي
يـامـا حـلا المشراق يـوم البرق لاح　　ويـوم العرب تقضت من المكيلي
يـامـا حـلا المسـلاف بريـاض شيـاح　　ويـوم الركائب عنـد وجـه الرحيلي
يـا مـا حـلا زهـوة العشـاير بـالمراح　　ولبينهن عـالريـق يشفي الغليـل
يـا مـا حـلا ريحـة عبسهن لا فـاح　　وعشرة مـع عشرين رحلـة تشيلي



تحضير البدو

ذكرنا في الصحيفة ١١٧ أن أقسام البدو ثلاثة : رحل ونصف حضر وحضر ، وقد بسطنا هناك أوصاف كل من هؤلاء ، وما بينهم من فروق .

فالتحضير هو سوق القسم الأول والثاني ، وحضهما على التطور والتمدن ، والإقلال من الظعون والأسفار ، ومغادرة بيوت الشعر المتنقلة ، وسكنى بيوت الطين والحجر المستقرة ، وامتلاك الأرضين ، وتفجير الينابيع والقنوات ، والتوفر على الحرث والزرع ، والعيش بكد اليمين وعرق الجبين ، وما إلى ذلك مما فيه خبز حلال وماء زلال ، ونحن وكل محب لهم وغيور على مصالحهم نود لو أن الزمان يفعل فعله بهؤلاء البدو ، ويكرههم رويداً رويداً على قبول هذا التطور والانتقال ، وهو أمر طبيعي ، نفذ في كل الشعوب التي كانت قبلهم على فطرتها وبداوتها ودفعها شاءت أم أبت ، والبراهين على ذلك كثيرة في تاريخ البشر عامة والعرب خاصة ، وقد بسطنا في بحث تاريخ البدو ص ٦٦ مافيه الكفاءة من ذلك .

والبدو كانوا في الماضي القريب يعتمدون على (الغزو والسلب والنهب) ، ويعدونه بعد الرعي مرتزقهم الطبيعي ، ويهتبلون الغرر من فوضى الأحكام وضعف السلطان ليستبيحوا حمى المعمور ، ويمعنوا في أذى الغير ، إلا أن هذه الفرص لم تعد تواتيهم كالأول ، ويجب أن لا تواتيهم ، فسبيل الغزو قد انقطع أو كاد ، بفضل دوريات الهجانة وحراس البادية داخل الحدود العراقية والأردنية والشامية والسعودية ، وسيارات الركب والتحميل ضربت الخيل والإبل ، وسدت أبواب الرزق منها إلى حد بعيد ، ومن أجل ذلك أصبح البدو في حاجة كلية إلى التطور ، أي إلى إيجاد مورد عيش جديد ثابت في المعمورة ، أو في قربها ، وإلى الانصراف نحو الحراثة والزراعة واستثمار خيرات الأرض ، وهو التحضير الذي نرومه لهم .

لكن البدو قوم حائرون بائرون ، لا يحبون الحراثة والزراعة ، لأنها فيا يزعمونه متعبة لأجسامهم ، مقيدة لحريتهم ، مانعة لعبثهم ، حائلة دون اشتنشاقهم الهواء الطلق ، وانسياحهم في البر الفسيح ، وهم يكرهون خاصة الأعمال اليدوية والأتعاب الجسمية والملاحظة والملاحقة اللتين يقوم بها الفلاح الريفي ، وقصارى أحدهم أن يضطجع طول نهاره يشرب قهوته ، وينعم بخموله وبطالته ، مازالت امرأته ساعية كادحة لأجله ، وماشيته مكتفية برعائها ، مطمئنة في فضائها ، وماذا بعد ؟

فالبدو لا ينصرفون للحراثة والزراعة ، ولا يرضخون للتطور الطبيعي مالم يفرض عليهم فرضاً ، ويضطروا إلى اعتناقه قسراً ، وهم لا يجنحون للسكون والاستقرار ، والارتباط بالأرض واستثمار خيراتها إلا متى عرفوا أن (الحق سيف قاطع) ، ومتى وجدوا فوق رؤوسهم حكومات قوية ، وقوانين صارمة تردعهم عن إظهار نزوات أنفسهم المتحفزة للوثوب .

والبادية لا تفهم لغة الرفق وإطالة البال ، فهي بعد أن توارى ظل الفرنسيين ، صارت تتمخض بالمطامع والنزوات بعضها على بعض ، كما جرى سنة ١٩٤٥ م بين عشيرتي الأحسنة والنعيم في براري حمص ، وأدى إلى قتل عدد من الفريقين أجلهم قدراً الشيخ طراد الملحم وأخوه بدر ، وكما جرى بين عشيرتي شمر والبقارة في شمالي الجزيرة ، وأدى ذلك إلى قتل عشرات الرجال والأطفال والنساء وخراب عشرات القرى .

ولا حافز لهذه الوقائع إلا العوامل النفسية التي بيناها آنفاً ، فيعمل المحافظون في الألوية على قمع هذه الحركات بوسائلهم الضئيلة ، ويحلون الخلافات بتدابير مؤقته واهنة ، ثم لا تعتم هذه الغارات والخلافات حتى تتجدد متأثرة بالمؤثرات ذاتها ، لأن الذين قاموا بها لم يعاقبوا عقاباً شديداً يكفي لزجرهم عن الاعتداء ثانية ، ولم تعالج الخلافات معالجة عملية صحيحة ، تزيل الأسباب وتجتث الأحقاد .

قلنا في بحث سابق (ص ١١٦) أن مناطق النجعة لكل عشيرة هي ثابتة غير متغيرة ، وإذا جاءت عشيرة أخرى وهمت بأن تتبدى في منتجعات غيرها ، تعرض نفسها فوراً للمهاجمة والمطاردة ، وكما اختصت كل عشيرة بمنطقة للنجعة في البادية ، اختصت

أيضاً في المعمورة بمنطقة نفوذ واستقرار ، أو بما يدعى (المدى الحيوي) ، وهذه المنطقة تكبر وتصغر لقاعدة (التوازن العشائري أو توازن القوى العشائرية) وعملاً بهذه القاعدة لا تكون حياة الاستقرار الكلي أو الجزئي دائمة عند البدو ، وإن هي دامت ، فدوامها لا يكون إلا لبعض الوقت ، مالم تشرف عليها (الصرامة والسرعة) .

تختلف العشائر على ملكية بئر أو مرعى ، تعده كل منها داخلاً ضمن مداها الحيوي ، فتمنع الأخرى عن ارتياده وينشب النزاع بسببه ، ثم قد يكون هناك بعض الأراضي الموات يقوم بإحيائها بعض العشائر ، فتحدو المطامع البعض الآخر ، لمزاحمتها واستخلاص الأرض منها ، أو لمشاركتها فيه ، فتندلع نار الفتنة بين الفريقين ، ثم قد تكون هنالك ثارات متأصلة في بعض النفوس ، تتحين الفرص للأخذ بها فتهتبلها ، وتهاجم وتسلب المواشي ، وتهرق دماء من يقاومها وتعود إلى مضاربها ، بعد أن تكون قد عاثت في الأرض فساداً .

وهنالك الخلافات بين بعض عشائر القسم الأول (الرحل) والثاني (نصف الرحل) ، ومرد هذه الخلافات جميعها يكاد يكون منحصراً بالتطور ، فقد كانت العشائر الرحل الكبيرة تفرض على العشائر المتحضرة أتاوة (خوة) لقاء حمايتها من غزو الآخرين ، وحماية مواشيها وزروعها ، غير أن هذه العشائر بعد أن تطورت وتحضرت ودخلت تحت حماية الحكومة والقانون أمسكت عن تأدية هذه الأتاوة ، وخلعت عنها نير استعبادها ، فساء ذلك العشائر الكبيرة التي مافتئت تحن إلى استعادة سلطانها عليها متى وجدت الغرة ، وهو نزاع تطوري بين التحضر والدخول في حمى القانون ، وبين البقاء تحت رعاية الأتاوة والسيطرة البدوية القديمة .

ولا يمكن القضاء على هذه الخلافات إلا بإحقاق الحق ، وتنفيذ مواد القرارات المتعلقة بمنع الغزو والعدوان ، وعقاب المعتدين عقاباً صارماً سريعاً ، والعدول عن قاعدة (الحفر والدفن) وتبديلها بقاعدة قانونية ، تنقع غليل المظلومين وتقطع أيدي الظالمين ، لأن قاعدة الحفر والدفن ليس فيها قصاص زجري يكفي لاجتثاث الحزازات ومنع تكرر العداوات ، وينبغي على العشائر المعتدى عليها في حقوق مرعى أو بئر أو ملكية أرض أن تلجأ إلى الحكومة ، لا أن تستحصل حقها بقوة السلاح ، وعلى الحكومة أن تسرع بحل الخلاف في غير تردد أو إطالة بال ، ودون أن تتأثر بالعوامل الكثيرة التي يتذرع بها

بعضهم لتبرير مواقفهم ، ولا يتم ذلك إلا حينما يكون لدى الحكومة جنود كافية من حرس البادية ، وأسلحة آلية وسيارات ومصفحات ، وحتى طائرات تقطع نياط كل من تحدثه نفسه بالشذوذ والخروج على أوامر الحكومة والمصلحة العامة ، كما عملته كل الدول التي تعاورت الحكم على البادية ، من أقدم عهود التاريخ حتى يومنا هذا ، وقد بيناه في بحث التاريخ في الجزء الأول .

ومن المستحسن أن تحدد لكل عشيرة منازلها في رحلتي الصيف والشتاء ، وتعين الآبار والمناهل التي تستقي منها ، ويثبت ذلك على خريطة أصولية لا تتعداها عشيرة من العشائر إلا لأسباب قاهرة ، كوقوع جدب في المراعي أو شح في مياه المناهل ، وعندئذ تفصل الحكومة في الأمر ، وتعين لها منطقة ترتادها مع العشيرة التي تقع تلك المنطقة ضمن مداها الحيوي .

إن تنفيذ التدابير الصارمة السريعة هو من صالح البدو الذين يعمي الجهل والطيش بعضهم أحياناً فيبعدهم عن محجة الصواب ، ومن ثم كانت هيبة الحكم وصرامة العقاب في البوادي ضرورة حيوية للبدو أكثر منها للحضر - كما يقول بذلك كل عاقل منهم ويطلبه - ليرتدع جهلتهم عن العدوان والأذى ، وينصرفوا نحو الاستقرار والتحضر انصرافاً كافياً ، وليفعل الزمان وتطوره الطبيعي فعله فيهم ، فيخضعهم إلى ماجرى على أسلافهم الذين تركوا البداوة والجفوة ، واستقروا واطمأنوا ، وعنوا بالرزق الحلال ، فصار قسمهم الأول ثانياً ، وقسمهم الثاني ثالثاً ، على مابسطناه في الصحيفة .

ومما يبعث السرور أن انقطاع الغزو وظهور سيارات الركب والنقل وبوار سوق الإبل والخيل منذ ربع قرن وجه البدو أهل القسم الأول ، فضلاً عن الثاني إلى الغاية التي نشدناها لهم ، وظهرت من ذلك الحين بادرة جديدة عندهم .

فشيوخ العشائر الكبيرة بعد أن كانوا ينظرون إلى الزراعة وأربابها بازدراء ، انصرفوا منذ ١٥ - ٢٠ سنة إلى اقتناء الضياع والأرضين من أملاك الدولة وغيرها ، وصاروا يزاحمون بعضهم بعضاً على امتلاكها ، ويختلفون ويتناحرون على حدودها ، وقد توافروا على إحياء الخرب الداثرة في براري حمص وحماة والجزيرة ، وعلى تفجير القنوات الغائرة ، وشرعوا

يهتمون بالزراعة ويجنون ثمراتها ، ويتجهون إلى سكنى المدنِ والقرى وبناء الدور وغشيان المجتمعات والمنتديات ، ولا سيا أن جل هؤلاء الشيوخ عضو في المجلس النيابي يسمع خطبه ، ويشترك أحياناً في نقاشه ، فيكتسب أخباراً وعلوماً جديدة تنوره وتثقفه ، والمأمول أن تنتقل عدوى هذه البادرة من الكبار إلى من بعدهم ، ومن هؤلاء إلى عامتهم ، مازال الناس على دين ملوكهم .

ولو أتيح لهؤلاء الشيوخ أن يعلموا أولادهم في المدارس الراقية ، كما عمل بعضهم ، أو لو فتحت لأولاد هؤلاء ومن يليهم مدارس خاصة ، على طراز مدرسة العشائر التي كان السلطان عبد الحميد فتحها ، ولو زيدت مدارس المعارف المخصصة لعامتهم أيضاً وأتقنت إدارتها . قلت : لو تم هذا ، وسير فيه بترتيب واستمرار ، لتعجلت حضارة البدو وحسنت أطوارهم ومعيشتهم ، وعمرت برارينا الغامرة ، وصاروا أعضاء نافعين في جسم الأمة العربية .

وبمناسبة البحث عن بادرة التملك واقتناء الأرضين والانصراف نحو الحرث والزرع ، نقول إن هذه البادرة يجب استغلالها بشكل واسع ، والدعوة لها ، لينفتح باب التحضر والاستقرار لهؤلاء البدو جلهم ، إن لم يكن كلهم ، على أن يكون الاستملاك والاستثمار للجميع بالعدل والمساواة ، وبشكل ملكيات صغيرة ، وليس على شكل ملكيات كبيرة يختص بها الشيوخ والرؤساء ، ويحرم غيرهم ، فيمتلك الواحد منهم ألوف الهكتارات ، ويحرم الألوف من مساحة أشبار ، هذا على أن يعمد إلى إقرار الأراضي الصالحة من التي ليس فيها حق ، أو سبق وضع يد لأحد من البدو والحضر ، فتقسم هذه الأراضي على فرق العشيرة وأفخاذها تقسيماً عادلاً ، تقوى فيه الملكية الصغيرة المذكورة ، وبهذا نجتاز بهم خطوة مباركة نحو الحضارة والسعادة اللتين نتمناهما لهم .

ولرب قائل يقول : أين تضع هؤلاء ، وهل في ديار الشام متسع ؟ فنجيبه : إن برارينا الصالحة للحرث والزرع كافية وزائدة ، فأمامنا سهول الجزيرة الفراتية ، وضفاف البليخ والجغجغ والخابور ذات التربة الذكية ، والمساحات الواسعة ، والأنهار والسدود والترع العديدة التي تقدم الكلام عنها في بحث الجزيرة (ص ٢١ ـ ٢٤) ، تندب مجدها الداثر حينما كانت تطعم أضعاف سكانها الحاضرين ، وتستغيث طالبة سواعد قوية وهمم

علية ، لاستثمار خيراتها الدفينة ، وهي لو انصرفت إليها العشائر الحاضرة برمتها ، واستعمرتها بجملتها ، لما كفتها ولقالت : هل من مزيد ؟ ومثل ذلك يقال عن أراضي أملاك الدولة في مشارق الأندرين والحمراء وسعن وسعين وعقيربات وجب الجراح والفركلس وجبل البلعاس والجبل الأبيض ، وحول القريتين وتدمر والرصافة وغيرها ، مما أكثره الآن خواء قواء ناهيك وادي الفرات من حدود جرابلس إلى أبي كمال غير المستثمر كما يجب ، لو أتيحت له وسائل الري الميكانيكية المستعملة في العراق ومصر ، لأروى من المساحات أضعاف ما تستغله عشائره الحاضرة ، ولاحتاج لمئات الآلاف من الأنفس أو الأيدي العاملة فوقها . ومن عرف جغرافية بلاد الشام ، ودرس استعدادها يقر بأن المجال لا يزال رحباً لإعالة جميع عشائرنا الحاضرة ، بل لأكثر منها لو صارت الزراعة زراعة حقيقية ، تجيد الحرث والعزق والري والزرع والغرس كما ينبغي .

هذا ونحن في حضنا على التحضير والتعلق بالأرض والحرث والزرع ، لا نرمي إلى ترك البداوة بتاتاً ، ولا نوصي بإهمال هذه البادية الشاسعة التي فيها مراعينا ، ما زلنا في حاجة لأعشابها وحتى أشواكها لتتحول عن طريق الإبل والغنم إلى الدفء والمنافع التي نوه بها الكتاب الكريم .

وبهذه المناسبة : لا بد من كلمة نصحح بها فكرة من يظنون أن البداوة زائدة عن حاجة الإنسان ، ينبغي القضاء عليها بتاتاً ، أو الأصح على خصيصتها الكبرى وهي الإبل ، وحجتهم في هذا الظن أن البدوي لا يتحضر ، ولا يستقر ما دام وراء إبله ، ويبرهنون على إمكان الاستغناء هذا بأن أوروبا وأمريكا ذات المواشي الوفيرة ، ليس فيهما بدو ولا من يرحل وينتقل ، وهم ينظرون إلى التحضير الذي ننشده ، بأنه توجيه البدو نحو القرى كلياً ، وإخلاء البادية بتاتاً .

وجوابنا على ذلك : أن قياس بلادنا بأوروبا وأمريكا قياس مع الفارق ، فسماؤنا صاحية ، وصيفنا طويل الأمد ، وهواؤنا جاف إلا في الأقل ، وأمطارنا قليلة ، ومراعينا وأعشابنا غثة ضئيلة في النسبة ، كل ذلك على خلاف أوروبا وأمريكا اللتين تهطل الأمطار في أكثر أقطارهما حتى في فصل الصيف ، وتظل سهولها وهضابها خضرة نضرة في أكثر

الفصول ، وهي تقيت قطعانهم الوفيرة ، دونما حاجة للارتياد والابتعاد ، فأين نحن منهم ، وأين هذه المنحة السماوية من سني المحل وشح الأمطار التي تتوالى عندنا ؟

لهذا لا بد لنا من البداوة ولا بد من بدو و بيوت شعر ، شريطة أن تكون هذه البداوة هادئة وديعة منصرفة إلى الخير ، بعيدة عن الشر على النحو الذي نسمع بوجوده في المملكة السعودية . ولا بد لهذه البداوة من الإبل التي توصف بأنها سفائن البر ، وقوام الحياة والحركة في البر ، ويخطئ من يحكم عليها ، ويتمنى زوالها ، ما زالت لا تعبث بزرع الحضر ، وغرائسهم ومنشآتهم ، ويخطيء أكثر من لا يفكر بعمران البادية ، وتوفير أسباب العل والنهل للأنعام السارحة فيها ، ودرء شدائد العطش والجوع عنها في السنين الشديدة ، بحكم أنها من أجل ثروات البلاد وأرزاق العباد .

فالإبل ، وإن دالت دولتها إلى حد بعيد منذ أن شاعت سيارات الركب والنقل ، إلا أن لحمها لا يزال من أرخص اللحوم التي تأكلها الطبقة الفقيرة في المدن العربية ، كما أنها من أرخص وسائل النقل في الأسفار ، وتحميل الأثقال ، ولا سيا في رجاد الزروع من الحقول إلى البيادر ، في بلاد مثل بلادنا ذات أوعار وأحجار ومسالك متشعثة ومجاري مياه أو مروج ومستنقعات ، لا يستطيع الحركة والتجوال فيها إلا الإبل . وإهمال الإبل التي هي ثروة البدوي دون عناية بأمرها أو التفكير بمحوها من عالم الوجود بحجة أن الإبل والتحضير لا يلتئمان غير صحيح .

فالإبل ترعى عشب البادية البعيدة (الحماد) كما ترعى الغنم عشب البادية القريبة إلى (المعمورة) ، وينقلب هذا العشب إلى لحم وجلد ووبر من الإبل ، ولحم وسمن وصوف وجلد من الغنم ، فهل يجوز الإعراض عن هذه الثروة المنتزعة من البوادي الشاسعة ، وهل يسوغ إهمالها وعدم الاستفادة منها ؟ وهل خلا عصر من أقدم عصور التاريخ من بدو متنقلين وراء إبلهم وغنمهم ؟ حتى يخلو عصرنا ، وإذا خلت بادية الشام يوماً ، على افتراض تحضر البدو الذين يضربون في أرجائها ، ألا تأتي موجة جديدة من أواسط الجزيرة العربية ، وتحتل هذا الخلاء ، كما جرى مراراً من أقدم عصور التاريخ إلى يومنا هذا ، وقد قدمنا شرحه في بحث التاريخ .

إذا تقرر هذا ، وتقرر معه أن البداوة لازمة للحضارة والضرع لا غنى عنه للإنسان ، كما لا غنى له عن الزرع تكون العناية بالإبل ضرورة لا مناص منها ، وإفساح المجال للسرح بها في براري الجزيرة و الشامية وفيافي الحماد التي لا يستفاد منها للزرع ، بل لرعي الماشية من غنم وإبل فحسب ، أمر نافع لا مناص منه ، وفي تلك العناية يحصل توزيع مناطق للعيش وتفريق أعمال بين أناس اختاروا هذا النوع من العيش على صعوبته وشظفه .

هذا مع العناية بتحضير من يقبل التحضير التام منهم ويتهيأ له ، ولندع الزمان يفعل فعله فإنه آخذ بتلابيبهم نحو الحضارة ، وقصارانا أن نستعجل هذا الزمان ، بأن ندعوهم إلى الرشاد بالحكمة والموعظة الحسنة ، دعوة الآباء الناصحين للأبناء الجامحين ، مع الصرامة المانعة للنزاع والعدوان ، ومع التدريب والتثقيف جهد الإمكان ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

☆ ☆ ☆

إصلاح حال العشائر

١ ـ لما كان للبادية والعشائر حالات شاذة وحاجات خاصة تختلف عما في المدن والقرى وجب أن يكون في العاصمة (مديرية عشائر) ، وفي المحافظات فروع لها ملحقة بالمحافظين ، من واجبها الاختصاص بشؤون البادية ، ونفسية البدو ودرس حالاتهم وحاجاتهم وحركاتهم ، والعمل على ما فيه خيرهم وصلاحهم ، وإبداء مشورتها بذلك إلى المراجع ذات الحل والربط ، ومنه العناية بتحضير العشائر ، وتهيئة سبل هذا التحضير ، من تقسيم مناطق وتوزيع أراضي ، وإيجاد قرى ومساكن ، والحض على الاستقرار والزراعة والتعليم والتربية والصحة وما إلى ذلك ، مما هو مذكور في المواد التالية .

٢ ـ توطيد الأمن في البادية ومنع الغزوات والغارات منعاً باتاً ، بحيث يطمئن النازلون فيها والعابرون على أرواحهم وأموالهم اطمئناناً تاماً ، ووسيلة هذا الأمن اتخاذ الصرامة أساساً في معاملة أهل البادية ، وقصاص المعتدين قصاصاً عاجلاً حاسماً ، ومنع اعتداء الكبير على الصغير ، والقوي على الضعيف منهم ، ولا يتم ذلك إلا بتقوية سرايا الهجانة ، وتكثير السيارات المصفحة والمخافر المحصنة في البادية ، وربط نقاط البادية ومفارق طرقها ومناهلها بالدوريات المتجولة ، وتحميل رؤساء العشائر تبعة ما يحدث في مناطقهم ومن أتباعهم .

٣ ـ تصغير حدود البادية ، وتكبير حدود المعمورة التي وضعها الفرنسيون في القرار رقم ١٣٢ وإبعادها إلى أقصى مدى في الشرق والجنوب ، كي تحصل طمأنينة في نفوس القاطنين في القرى النائية ، والراغبين بإعمار الخرب الداثرة والأراضي البائرة .

٤ ـ تجريد البدو الرحل من السلاح حين رجوعهم من نجعة الشتاء ودخولهم

المعمورة ، لأن بقاء الأسلحة لدى هؤلاء يحفزهم إلى التنازع بعضهم مع بعض ، أو مع الحضريين وإيقاد نار الفتن ، لأدنى سبب .

٥ ـ تغيير القرار رقم ١٣٢ المذكور بما هو أنسب للروح القومية وتخفيف وطأة القضاء البدوي أو الأصول العشائري ، وعدم اللجوء إليه ما لم يكن ثمة ضرورة قصوى ، ورفع الفوارق الموجودة فيه ، أو تخفيفها إلى أدنى حد .

٦ ـ حمل المحاكم النظامية و الدوائر الإدارية التي تعرض إليها قضايا البدو على الإسراع في رؤية هذه القضايا ، واجتناب الإطالة والتأجيل في الجلسات ، والاستعجال بإصدار الأحكام وتنفيذها ، لا سيا في المسائل التي فيها وميض يخشى ضرامه .

٧ ـ تسجيل أفراد العشائر في سجلات النفوس ، وتحميلهم تذكرة النفوس أو ورقة الهوية ليشعروا أنهم جزء من أبناء الوطن ، لهم ما لأبنائه ، وعليهم ما عليهم ، ويمكن تسهيلاً للأمر أن يمنحوا التذاكر بلا بدل في بادئ الأمر .

٨ ـ حض البدو على الاستقرار والتحضر ، وحثهم على بناء القرى والمساكن ، والعمل على الزراعة ، وإرشادهم إلى منافعها ، وتعليمهم ما يجهلونه من أساليبها ، وتعويدهم على مزاولتها .

٩ ـ تفويض الأراضي البائرة والخرب الداثرة من أملاك الدولة ، وتقسيمها على أفرادهم بالعدل لا على مجموعهم ، كي لا يستبد أناس بها دون أناس ، على شريطة أن لا يتركوها مراعي وفيافي ، أو يسلموها إلى شركاء أو أجراء من أبناء الحواضر ، بل يبنون فيها ، ويستقرون وينصرفون بأنفسهم وأيديهم نحو الحرث والزرع والرزق الحلال .

١٠ ـ منح المحتاجين منهم إعانات لشراء الأدوات الزراعية والبذور ، ودواب العمل وفتح قنوات الري ، وإقراضهم لأجل ذلك رؤوس أموال بشروط خفيفة ، على أن تربط هذه الإعانات والقروض بكفالات قوية ، تؤمن إنفاقها في سبيلها لا في سبيل البذخ والترف .

١١ ـ تزييد عدد الآبار الحديثة التي حفرتها مصلحة الري ، وتنظيف الآبار القديمة ، وترميم جدرانها ، وتسهيل سبل الامتياح منها .

١٢ ـ إيجاد الملاجئ الصالحة لإيواء الماشية في فصل الشتاء ، وحفظها من الصقيع والثلج عند حدوثها ، وذلك وقاية لثروة البدو وشركائهم في الحواضر ، ومن وراء ذلك وقاية مورد كبير لخزينة الدولة .

١٣ ـ تأسيس مستوصفات نقالة محمولة على سيارات كبيرة ، يذهب بها أطباء وممرضون ، ويلحقون البدو إلى أماكن نجعتهم في الحماد ، ويداوونهم ويلقحونهم ، ويعالجون البجل والجدري والتراخوما وأمثالها من الأمراض التي تفتك بهم وبذراريهم ، ويخشى أن تنتقل بالعدوى إلى الحواضر أيضاً .

١٤ ـ تجفيف المستنقعات في الأماكن التي يقطنون فيها في المعمورة ، وتخليصهم من حمى الملاريا التي تصيبهم دائماً .

١٥ ـ إيفاد معلمين يتنقلون مع العشائر ، ضمن الشروط التي ذكرناها في بحث المعارف في البادية .

١٦ ـ فتح مدرسة داخلية في تدمر ، لأبناء رؤساء العشائر ووجهائها ، للأسباب والمنافع التي ذكرناها في بحث المعارف .

١٧ ـ إيفاد وعاظ وخطباء من أهل الحمية الدينية ، والعقيدة الصحيحة ، لإرشاد البدو إلى ما يجهلونه من العبادات والمعاملات ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

✡ ✡ ✡

القرار رقم ١٣٢ ل . ر

الصادر في شأن إدارة العشائر ومحاكمتهم

كانت المفوضية الفرنسية العليا في بلاد الشام أصدرت في سنين مختلفة عدة قرارات بشأن إدارة البدو ومحاكمتهم ، وعقوبات الغزو والغزاة ، ثم بدلتها كلها ، ودمجتها في قرار واحد رقمه ١٣٢ وتاريخه - ٤ حزيران ١٩٤٠ م رأينا درجه هنا إتماماً لموضوعات كتابنا ، وتأريخاً لشكل الحكم ، ومبلغ الاهتمام اللذين كانت تقوم بها المفوضية المذكورة في حق أهل البادية وقد انتقلت في العهد الوطني صلاحيات المفوضية المذكورة المندرجة في هذا القرار إلى وزارة الداخلية السورية ، وصلاحيات دائرة مراقبة البدو الفرنسية إلى مديرية العشائر ، ونرجو أن يصدر في هذا العهد الوطني قرار في هذا الموضوع ، أكمل وأدعى لدرء المفسدة وجلب المنفعة ، وحفظ الكرامة القومية .

الفصل الأول - أحكام عامة

المادة ١ - يتألف قانون العشائر الرحل في سوريا من أحكام هذا القرار .

المادة ٢ - يعتبر رحلاً في سوريا بالمعنى المقصود من هذا القرار :

١) الأفراد التابعون للعشائر المعينة في الملحق رقم ١ من هذا القرار .

٢) الأفراد التابعون لعناصر جميع العشائر التي لم تذكر في هذه القائمة ، وذلك في كل مدة أقامتها في منطقة الرحل ، كما هي محددة في المادة ٣ أدناه .

المادة ٣ - تتألف منطقة الرحل بمقتضى أحكام هذا القرار من الأراضي الواقعة شرقي منطقة (المعمورة) ، يعين الخط الفاصل بين منطقة الرحل والمعمورة بالتخوم المحدودة في الملحق رقم ٢ من هذا القرار يدخل في منطقة المعمورة المزروعات القائمة في مختلف الأماكن المذكورة ، كتخوم لهذه المنطقة .

المادة ٤ ـ يعتبر نصف حضر بالمعنى المقصود في هذا القرار العشائر المذكورة في الملحق ٣ من هذا القرار .

المادة ٥ ـ إن مجرد قيد أحد الأفراد التابعين لعشيرة من عشائر الرحل أو نصف الحضر في سجل الأحوال الشخصية ، لا يفقده مطلقاً صفة الرحل ولا صفة نصف الحضري .

المادة ٦ ـ يخضع الرحل مبدئياً لقواعد العرف من حيث علاقاتهم فيما بينهم ، ولقواعد الحق العادي من حيث علاقاتهم مع الحضريين أو نصف الحضريين ، يطبق المبدأ المذكور أعلاه ضمن الشروط والتحفظات الناتجة عن أحكام هذا القرار .

المادة ٧ ـ إن القضايا المتعلقة بالرحل التي لا تطبق عليها أحكام الحق العادي يبت فيها كما يلي ـ حسب نوع كل قضية منها ـ أولاً : إذا كانت خاضعة للعرف ؛ فصل فيها رؤساء العشائر تحت إشراف ضباط مراقبة البدو .

ثانياً : إذا كانت خاضعة لأحكام خاصة ، فصل فيها المفوض السامي ومندوبوه ، أو المندوبون المعاونون عاملين عند الاقتضاء بمعاونة الحكومة السورية والسلطات الإدارية الصلحية ، يؤازر المفوض السامي في تطبيق هذا القرار لجنة تدعى لجنة الرحل ، ويعين المفوض السامي كل سنة أعضاء هذه اللجنة .

المادة ٨ ـ إن القضايا التي لا تطبق عليها أحكام الحق العادي بمقتضى هذا القرار لأنها خاضعة للعرف ، أو لأنها من صلاحية السلطة العليا ، أو لجنة تحكيم لا يجوز في أي حال من الأحوال إحالتها إلى المحاكم العادية ، إذا رفعت إلى المحاكم العادية دعوى من هذه الدعاوي وجب على هذه المحاكم أن تقرر في الحال عدم صلاحيتها ، وحالاً بعد صدور القرار بعدم الصلاحية تحول إضبارة الدعوى إلى السلطة ذات الصلاحية ، تسترجع في الحال مذكرات التوقيف الصادرة بحق المتهم أو الظنين إذا لم تكن قد نفذت عند صدور القرار بعدم الصلاحية . إذا كان المتهم أو الظنين موقوفاً نقل بهمة الدرك إلى مركز ضابط مراقبة وسلم إليه .

(الفصل الثاني ـ في القضايا العائدة للرحل)

القسم الأول ـ في قضايا الرحل بعضهم مع بعض

المادة ٩ ـ إن الجنايات أو الجنح التي تقع بين الرحل يفصل فيها حسب قواعد

العرف ، تحت سلطة الشيوخ وإشراف ضباط مراقبة البدو . أما الاعتراضات على الأحكام الصادرة فينظر فيها مندوب المفوض السامي ، وهو يبت فيها في الدرجة الأخيرة وبدون مراجعة .

المادة ١٠ ـ يمكن الحكم على مرتكبي الجنايات المقترفة بحق الأفراد وعلى شركائهم أو المتداخلين فيها بالسجن من سنة إلى خمس سنوات ، عدا العقوبات التي قد تفرض بمقتضى العرف ، يصدر الحكم من المفوض السامي بناء على اقتراح مندوبه لدى الحكومة السورية ، يحق للمفوض السامي أن يمنح عفواً عن كامل العقوبة ، أو عن جزء منها .

القسم الثاني ـ في القضايا بين الرحل والحضر

المادة ١١ ـ تخضع الجنايات أو الجنح المرتكبة بين الرحل والحضر أو نصف الحضر للحق العادي .

المادة ١٢ ـ على أنه يجوز بناء على طلب من المغدور البت في الجنايات ، أو الجنح المرتكبة بين الرحل ونصف الحضر وفقاً للعرف ، ضمن الشروط المنصوص عليها في المادة التاسعة أعلاه ، يبلغ المندوب أو المندوب المعاون هذا الطلب إلى مدعي عام المنطقة ذات الشأن ، وهذا المدعي العام يتخذ بلا إمهال التدابير اللازمة لاستصدار قرار من المحكمة العادية بعدم صلاحيتها وفقاً للمادة ـ ٨ ـ أعلاه .

القسم الثالث ـ في بعض الجنح الخاصة

المادة ١٣ ـ ما عدا الجنح المنصوص عليها في العرف ، تعتبر جنحاً بمقتضى نص هذا القرار :

١ ـ التزوير واستعمال التزوير في الاستدعاءات الإجمالية .
٢ ـ التقاضي بالقوة من الرحل أو نصف الحضر أو الحضر (الخوة أو المنحة) ، أو أية فريضة أخرى مزعومة قديمة ، من أي نوع كانت .
٣ ـ تقاضي رسوم عن الورد من الآبار العائدة للدولة .

المادة ١٤ ـ تعاقب الجنح المذكورة في المادة السابقة بالعقوبات التالية :

١ ـ فيما يتعلق بالفقرة الأولى تعاقب بجزاء نقدي من ٥٠ إلى ١٠٠ ليرة سورية ، وبالسجن من خمسة عشر يوماً إلى ثلاثة أشهر ، أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط .

٢ ـ فيما يتعلق بالفقرة الثانية والفقرة الثالثة تعاقب بجزاء نقدي من ٥٠ إلى ٢٠٠ ليرة سورية مع استرداد المبالغ المستوفاة بغير الحق . يصدر الحكم المفوض السامي بناء على اقتراح مندوبه لدى الحكومة السورية ، وبعد أخذ رأي لجنة الرحل .

القسم الرابع ـ في الغزو

المادة ١٥ ـ يعد غزواً ويعاقب كغزو كل سرقة أو نهب يقوم به في الصحراء عدة أشخاص مسلحين مجتمعين تابعين لعشائر رحل ضد عشائر أخرى رحل أو نصف حضر .

المادة ١٦ ـ إن الجنايات أو الجنح التي يرتكبها الرحل في أثناء الغزو تظل خاضعة للقواعد العامة المعينة في هذا القرار .

المادة ١٧ ـ إن التابعين للقبائل نصف الحضر إذا اشتركوا في غزو بصفة شركاء أو متداخلين يعتبرون رحلاً ، من حيث قمع الغزو ، ويقعون بهذه الصفة تحت طائلة عقوبات العرف ، وكذلك تحت طائلة العقوبات الخاصة المفروضة في هذا القرار .

المادة ١٨ ـ إن الأشخاص الحضريين الذين يشتركون في غزو ، بصفة شركاء أو متداخلين يقعون تحت طائلة عقوبات الحق العادي ، يحق للسلطة التي ترفع إليها الدعوى في بادئ الأمر ـ أي ضابط مراقبة البدو أو مدعي عام المنطقة) أن تقرر التمييز بين المتهمين الرحل والمتهمين الحضر ، وأن تلاحق القضية في الأمر الذي يتعلق بصلاحيتها ، وأن تحولها للسلطة ذات الصلاحية لملاحقتها فيما زاد عن ذلك .

المادة ١٩ ـ إن المرتكبين أو شركاءهم أو المتداخلين في الغزو التابعين لقبائل رحل أو نصف حضر يقعون تحت طائلة العقوبات التالية ، أو تحت طائلة عقوبة أو أكثر من هذه العقوبات ، ولا يمنع ذلك تطبيق عقوبات العرف ، وكذلك تطبيق العقوبات التي يتعرضون لها بسبب الجنايات أو الجنح التي ترتكب بمناسبة الغزو .

١ ـ رد المسلوبات .

٢ ـ مصادرة الأسلحة والذخائر والمطايا وبصورة عامة جميع المعدات التي استعملت في أثناء الغزو .

٣ ـ غرامة نقدية ، أو غرامة من أسلحة حربية ، أو غرامة من دراهم وأسلحة حربية معاً ، وأقصى غرامة تطبق تكون ضعفي المسلوبات المسترجعة .

٤ ـ السجن من شهرين إلى سنتين .

المادة ٢٠ ـ يصدر المفوض السامي الحكم ، بناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة السورية ، وبعد أخذ رأي لجنة الرحل ، يجب على اللجنة في كل مرة أن ترسل رأيها معللاً ، وأن تتخذ الآراء بأكثرية الأصوات ، يحق للمفوض السامي أن يمنح العفو عن جزء من العقوبة ، أو عنها بكاملها .

المادة ٢١ ـ المطايا والسيارات والمعدات المصادرة بمقتضى المادة ١١ أعلاه تباع بالمزاد العلني ، ويدفع حاصل البيع بجملته لصندوق الغرامات ، لصاحب الشيء المصادر أو لمؤجره الحق التام في أن يقيم أية دعوى قضائية كانت على رئيس العشيرة المتهمة بالغزو .

المادة ٢٢ ـ إذا لم يتم التنفيذ في المهل المعينة في الحكم الصادر ، يحق لمندوب المفوض السامي بعد مصادقة المفوض السامي أن يقرر حجز القطعان ، وأن يشرع ببيعها ضمن الشروط المنصوص عليها في النبذة الأولى من المادة السابقة .

القسم الخامس ـ في لجان التحكيم

المادة ٢٣ ـ جميع النزاعات التي تتولد بين الرحل والحضر أو نصف الحضر بشأن أعمال السلب والنهب التي يرتكبها أحد هذين الفريقين تكون من صلاحية المحاكم العادية .

يجب بصورة إجبارية أن يؤخذ رأي ضابط من ضباط مراقبة البدو ، أو ضابط الدوائر الخاصة في المنطقة في جميع المسائل ، سواء كان الأمر يتعلق بتسوية حبية أو بتحكيم ، وسواء أكان ذلك في أثناء التخمينات التي يقوم بها الفريقان نفسهما ، أو محكموهم ، أو خبراء معينون من قبل السلطة القضائية .

المادة ٢٤ ـ بالرغم من أحكام المادة السابقة ، يحق للمغدور سواء أكان الأمر يتعلق بسرقة أو نهب أو تخريب مهما كان ، أن يرفع طلبه المتعلق باسترداد الأموال المسروقة أو بإصلاح الضرر المسبب إلى لجنة تحكيم .

المادة ٢٥ ـ يرسل الطلب إما إلى المدير ،أو قائمقام المنطقة ، وإما إلى ضابط الدوائر الخاصة ، أو ضابط مراقبة البدو ، وفي هذين الحالين الأخيرين يحول الضابط الذي ترفع إليه القضية الطلب بدون إمهال إلى القائمقام ، ليجمع لجنة التحكيم في الحال .

المادة ٢٦ ـ يجب أن يشتمل حكماً طلب التحكيم الاعتراف بصلاحية اللجنة دون سواها وبقرارها النهائي ، يجب على القائمقام في الوقت نفسه الذي يدعو فيه اللجنة للاجتماع أن يبلغ الطلب إلى مدعي عام المنطقة ذات الشأن ، وهذا المدعي العام يتخذ بدون إمهال التدابير اللازمة لاستصدار قرار من المحكمة العادية بعدم صلاحيتها وفقاً للمادة ٨ أعلاه .

المادة ٢٧ ـ تؤلف لجنة التحكيم كما يلي :

قائمقام المنطقة التي ارتكب الضرر فيها رئيساً ، رئيس عشيرة من عشائر الرحل ، أو فخذ من عشيرة رحل غير العشيرة التي ينتمي إليها المدعون أو المدعي عليهم ، ويجب أن تكون العشيرة أو الفخذ من أقرب العشائر إلى القرية الأقرب إلى المحل الذي ارتكب فيه الضرر ، مختار القرية الأقرب إلى محل الضرر . يشترك عدا ذلك في مذاكرات اللجنة ويكون لها صوت استشاري : ضابط الدوائر الخاصة ، وضابط مراقبة البدو ، أو أحد هذين الضابطين ، وجيه ينتخب بالاتفاق بين الفريقين ، أو في عدم الاتفاق ينتخبه رئيس اللجنة بصفة خبير .

المادة ٢٨ ـ يعين في الدعوات المرسلة إلى المتداعيين مهلة كافية ، ليتمكنوا من الحضور أمام اللجنة ، أو إرسال من يمثلهم أمامها في الوقت المناسب .

إذا لم يحضر المدعي أمام اللجنة ، أو لم يرسل من يمثله في اليوم المعين في الدعوى ، فمجرد ذلك يعني حكماً تركه كل حق في التعويض ، ما لم يبرر عدم حضوره أو تمثيله بظروف قاهرة .

المادة ٢٩ ـ تصدر اللجنة حكمها بأكثرية الأصوات وتبت بإصلاح الضرر ، وبالاستردادات والتعويضات المقدم بها الطلب ، ولها أيضاً أن تقترح إذا رأت ذلك مفيداً عقوبات إضافية ، وأن تقترح إذا اقتضى الأمر سجن المجرمين ، وفي هذه الحالة الأخيرة يعين مدة السجن المفوض السامي ، بعد أخذ رأي لجنة الرحل إذا كان الأمر يتعلق بأحد الرحل ، وبعد أخذ رأي مندوب المفوض السامي إذا كان الأمر يتعلق بحضري أو نصف حضري .

تكون عقوبة السجن من شهر إلى ثلاث سنوات .

المادة ٣٠ ـ تعين في حكم اللجنة شروط تنفيذه ، ويوقعه من صوت له من أعضائها ، يكون الحكم غير قابل المراجعة ، ويصبح نافذاً حالاً بعد مصادقة المحافظ عليه ، ويكون له قوة الحكم الصادر عن محكمة عادية .

القسم السادس ـ في العلاقات مع الدول المجاورة

المادة ٣١ ـ يبت في النزاعات التي تقع بين عشائر رحل سورية ، وعشائر رحل موضوعة تحت مراقبة الدول المجاورة ، وفقاً لاتفاقات معقودة أو تعقد بين سورية والدولة ذات الشأن .

المادة ٣٢ ـ كل شخص تابع لبلد عقدت معه سورية بهذا الشأن اتفاقاً على قاعدة التعامل بالمثل ، لحقه ضرر ما في الأراضي السورية ، يحق له أن يطالب بتطبيق أحكام المادة ٢٤ والمواد التي تليها فيما يتعلق بالبت بطريقة التحكيم في النزاعات بين الرحل والحضر أو نصف الحضر ، وتتبع القاعدة نفسها بشأن الرحل الذين يلحق بهم ضرر في الأراضي السورية حضريون أو نصف حضريين أو رحل تابعون لدولة مجاورة ، عقدت معها سورية بهذا الشأن اتفاقاً على التعامل بالمثل .

المادة ٣٣ ـ كل تابع من الرحل للحكومة السورية يرتكب في خارج الأراضي السورية جناية يعاقب عليها القانون السوري يمكن ملاحقته ومحاكمته في سورية ، إذا كانت قوانين البلد الذي ارتكب فيها ذلك تعاقب عليه ، ويكون الأمر كذلك إذا كان

المتهم قد حصل على التبعة السورية بحق الجوار ، والتجائه إلى قبيلة سورية (دخيل) بعد ارتكابه الجناية أو الجنحة .

على أنه سواء أكان الأمر يتعلق بجناية أو جنحة ، فلا تجري أية ملاحقة بحق المتهم إذا أثبت أنه حوكم محاكمة نهائية أو عفي عنه في الخارج ، وإذا كان قد حكم عليه فعليه أن يثبت أن العقوبة قد نفذت فيه ، أو أنها أسقطت بمرور الزمن ، أو أنه نال عفواً عنها ، إذا ارتكبت جنحة بحق أحد السوريين أو الأجانب فلا تجري الملاحقة إلا بناء على شكوى من الفريق المتضرر ، أو على شكوى رسمية تقدمها إلى السلطة السورية سلطة البلد الذي ارتكبت فيه الجنحة ، لا تجري أية ملاحقة قبل رجوع المتهم إلى سورية .

الفصل الثالث ـ في أحكام تتعلق بتنظيم العشائر

ونظام مراقبة السلاح وبعض تدخلات السلطات العمومية بشأن الرحل .

القسم الأول ـ في رؤساء العشائر

المادة ٣٤ ـ يعين رئيس كل عشيرة من عشائر الرحل بقرار من المفوض السامي .

يمكن عزل رئيس العشيرة لأحد الأسباب التالية :

١ ـ الأعمال التي من شأنها الإخلال بالأمن العام .

٢ ـ رفض الخضوع الاختياري ، وبصورة مكررة للقوانين والأنظمة النافذة .

٣ ـ أعمال العسف المتكررة التي تؤدي إلى طلب عزله من قبل جميع أعضاء العشيرة .

يقرر المفوض السامي عزل رئيس العشيرة بعد تحقيق دقيق بناء على اقتراح معلل من مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية . كل طلب يقصد منه الحصول على عزل رئيس عشيرة مسند إلى ادعاءات غير صحيحة أو إلى أعمال ليست هي من الخطورة بمكان يقع صاحبه تحت طائلة جزاء نقدي من ٢٥ إلى ١٠٠ ليرة سورية والسجن من ٥ أيام إلى شهر أو إحدى هاتين العقوبتين فقط ، يصدر المفوض السامي قراراً بهذا الشأن بناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة السورية .

القسم الثاني ـ في حيازة الأسلحة وحملها

المادة ٣٥ ـ إن الرحل الذين يتنقلون منفردين أو عشائر في منطقة من مناطق الرحل ، يرخص لهم في أن يظلوا مسلحين بدون أن يجبروا على الحصول على رخصة لحمل السلاح ، وعند وصولهم إلى المعمورة يجب عليهم أن يحضروا لنزع سلاحهم عند ضابط مراقبة البدو ، أو معاونيه المرخص لهم ترخيصاً رسمياً بذلك ، لا يجوز للرحل أن يقيموا في المعمورة إلا بشرط خضوعهم للقوانين والأنظمة النافذة بشأن حيازة الأسلحة وحملها ، يرخص مبدئياً للرحل المقيمين في الأراضي المزروعة الداخلة في منطقة الرحل في أن يظلوا مسلحين ، على أنه يجب عليهم أن يعملوا بمقتضى الأحكام الخاصة التي يمكن تقريرها بأمر إداري من مندوب المفوض السامي أو مندوبيه المعاونين ، ولا يجوز لهم بأي حال ما عدا في حال حصولهم على رخصة معطاة بصورة قانونية لهذه الغاية أن يظلوا مسلحين في الأماكن الآهلة التي هي مراكز لمنطقة إدارية (المحافظات والأقضية والنواحي) وإن تكن هذه الأماكن في منطقة الرحل ، إذا كان من بلدية في هذه الأماكن الآهلة ، فتكون حدودها حدود منطقة بلديتها .

القسم الثالث ـ في الأوراق القضائية العائدة للرحل

المادة ٣٦ ـ تبلغ للرحل بواسطة الدرك الأوراق القضائية العائدة لهم ، فإذا لم يكن بوسع الدرك أن يؤمن تبليغها حولها إلى ضابط مراقبة البدو ، المكلف بالإشراف على القبيلة التي ينتمي إليها الشخص المبلغ ، وعندئذ يقوم ضابط مراقبة البدو بالتبليغ ، إما بهمته وإما بهمة رئيس العشيرة ، ويرسل وصل التبليغ بالتاريخ نفسه إلى السلطة المبلغة ، يلفت ضباط مراقبة البدو نظر قواد وحدات الدرك إلى الأحوال التي يطلب منهم بصورة غير قانونية مساعدتهم لتأمين إيصال التبليغات .

المادة ٣٧ ـ يجب في الأوراق القضائية المتعلقة بالرحل أن يذكر بصورة جلية وبأكثر ما يمكن من الدقة جميع المعلومات عن اسم المرسلة إليه والقبيلة المنتمي إليها ، يجب أن تصل مذكرات الجلب أو الحضور إلى مخفر الدرك المكلف تبليغها إلى ضابط مراقبة البدو قبل شهر على الأقل من التاريخ المعين للدعوة أو الحضور .

المادة ٣٨ ـ يجوز أن يدعى ضابط مراقبة البدو ضمن الشروط نفسها المذكورة أعلاه لتقديم مساعدتهم في سبيل تنفيذ مختلف المذكرات أو القرارات القضائية التي يقصد منها إلقاء القبض على شخص تابع لعشيرة من عشائر الرحل ، فإذا أوقف شخص مطلوب سلمه ضابط مراقبة البدو مع المذكرة أو قرار المحكمة لأول مخفر درك أو شرطة .

المادة ٣٩ ـ يمكن بصورة استثنائية تماماً أن يدعى ضباط مراقبة البدو لتقديم مساعدتهم في تبليغ الأوراق القضائية أو تنفيذ المذكرات القضائية العائدة لحضريين أو نصف حضريين مقيمين في منطقة الرحل .

يجب أن يرسل لهم الطلب كتابة ، وأن يذكر فيه بصورة صريحة أن الشخص المبلغ المذكور ليس من عادته أن يأتي بصورة منتظمة إلى منطقة الحضر ، وأنه لا يمكن مادياً تأمين التبليغ أو التنفيذ بالرسائل العادية .

القسم الرابع ـ في الأوامر بالسجن

المادة ٤٠ ـ يكون للأحكام الصادرة من المفوض السامي تطبيقاً لهذا القرار جميع مفاعيل الأحكام القضائية ، وتكون قابلة التنفيذ في الحال ، يترتب على ضباط مراقبة البدو القيام بالبحث والتحقيق في الدعاوى وتنفيذ الأحكام ، للمندوبين والمندوبين المعاونين الصفة اللازمة لتوقيف المتهمين الموقت أو سجن المحكمين ، وهم نفسهم يعطون الأوامر بالسجن أو يفوضون لهذه الغاية ضباط الدوائر الخاصة أو ضباط مراقبة البدو .

القسم الخامس ـ في الضرائب والتهريب

المادة ٤١ ـ يخضع الرحل فيما يتعلق بالضرائب الأميرية للقوانين والأنظمة النافذة .

أما الأحكام الخاصة المتعلقة باستيفاء ضريبة الأغنام فتقررها قبل ابتداء كل موسم إدارة الواردات ، بعد الاتفاق مع دائرة مراقبة البدو . يجوز لدائرة مراقبة البدو أن تتداخل في سبيل جباية الرسم بناء على طلب صريح من مديرية المالية .

المادة ٤٢ ـ يخضع الرحل فيما يتعلق بالتهريب ولاسيما بتهريب الملح للقوانين

والأنظمة النافذة ، يعطى علم بالحجوز التي تجري إلى دائرة مراقبة البدو ، ويجب أن يؤخذ رأي هذه الدائرة قبل اتخاذ كل قرار بشأن تعيين العقوبات ، وكذلك بشأن تعيين طرق تنفيذ هذه العقوبات .

القسم السادس ـ في الإعانات

المادة ٤٣ ـ يجوز إعطاء إعانات لرؤساء العشائر الرحل المعينين بقرار من المفوض السامي ، تعين مبلغ هذه الإعانات كل سنة الحكومة السورية بعد الاتفاق مع مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية ، وتدفع هذه الإعانات مشاهرة .

المادة ٤٤ ـ يمكن إجراء محسومات من الإعانات لاستيفاء ديون للخزينة أو للأفراد .

لا يجوز أن تتجاوز المحسومات لاستيفاء الديون المعدلات التالية :

الخمس من القسم الأول البالغ ٣٣٠ ليرة سورية من الإعانة السنوية ومن جميع المبالغ التي دونه ، الربع من القسم الثاني الكائن بين ٣٣٠ ليرة سورية و ١٠٠٠ ليرة سورية .

الثلث من القسم الثالث الذي يزيد عن ١٠٠٠ ليرة سورية مهما بلغ .

يحق بصورة استثنائية للمندوب لدى الحكومة السورية أن يرخص في حسم مبالغ تزيد عن المعدلات السابقة ، يحق دائماً للمديون أن يدفع ما عليه من الدين بصورة أسرع إذا فضل ذلك .

المادة ٤٥ ـ يجب حتماً أن تحسم من الإعانة الديون العائدة للخزينة . على الآمر بصرف الإعانات أن يمسك سجلاً خاصاً للإعانات الممنوحة لرؤساء العشائر ، ويفتح في هذا السجل حساباً خاصاً للمحسومات الواجب إجراؤها في كل حساب ، مع ذكر نوع المحسومات ، وبيان الحوالات والأوامر بالدفع العائدة لها ، إذا كان ثمة نزاع على مبدأ الدين أو مبلغه فلا يجوز إجراء الحسم إلا بعد موافقة مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية .

المادة ٤٦ ـ يجري الحسم لاستيفاء ديون الأفراد بناء على اعتراض أو حجز احتياطي ، تجري الاعتراضات أو الحجوز الاحتياطية بين يدي مندوب المفوض السامي لدى الحكومة

السورية ، وهذا المندوب يرى إذا كان من الواجب تحويلها إلى الدائرة التي تأمر بصرف الإعانات .

المادة ٤٧ ـ يجوز أن يؤخذ من الإعانات محسومات موقتة أو نهائية كلية أو جزئية بصفة عقوبة عن أعمال من شأنها الإخلال بالأمن . يفرض المفوض السامي هذه المحسومات بناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة السورية أو المندوبين المعاونين .

المادة ٤٨ ـ يجوز وقف الإعانات بجملتها أو وقف جزء منها عن رئيس عشيرة لا يقوم بمساعدة كافية في تحقيق ضريبة الأغنام وجبايتها عن قطعان عشيرته ، يتخذ هذا القرار مجلس الوزراء بعد الاتفاق مع مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية ويذكر فيه صريحاً المبلغ الواجب دفعه ، تلغى الإعانة عن كل رئيس عشيرة يجعل محل إقامته في أراضٍ أجنبية مع جملة عشيرته ، أو مع قسم منها في أثناء التعداد وجباية ضريبة الأغنام ، في هذه الحالة تلغى الإعانات ابتداء من يوم رحيله ، بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء وبعد الاتفاق مع مندوب المفوض السامي ، وعند رجوعه يتخذ مرسوم جديد ضمن الشكل نفسه يقر فيه إما إعادة الإعانة بكاملها أو إعادة جزء منها ، وإما إلغاؤها نهائياً .

القسم السابع

في الأراضي الممنوحة للرحل من أملاك الدولة

المادة ٤٩ ـ تعين في نظام خاص المناطق التي يجوز أن يمنح فيها أراضٍ من أملاك الدولة خارج المعمورة ، وكذلك زيادة الأراضي الممنوحة الموجودة الآن خارج المعمورة ، لا تمنح أية أرض من أملاك الدولة للرحل بدون أن يستشار في الأمر مسبقاً ضباط مراقبة الرحل ، وهؤلاء الضباط يعطون رأيهم عن ملاءمة منح الأراضي ، وإذا كان رأيهم بالإيجاب أعطوا رأيهم أيضاً بشأن عدد الأشخاص الذين يستفيدون من الأراضي الممنوحة ، وعن مواردهم ، وعن المساحة التي يمكنهم إحياءها . يجب في تقدير موارد الأشخاص الذين يستمنحون الأراضي أن تحسب المبالغ النقدية التي يثبتون وجودها لديهم ، والأدوات الزراعية والبذار ، وكذلك الضمانات التي يمكنهم تقديمها ، للحصول على قرض من المصرف الزراعي .

المادة ٥٠ ـ إذا منحت الأرض قامت دائرة أملاك الدولة بتحديدها تحديداً مؤقتاً ، وبعد انقضاء مدة سنتين من هذا التحديد الأولي تحدد ثانية تحديداً نهائياً ، يقتصر على الأراضي التي أحياها بالفعل الأشخاص الممنوحة لهم .

المادة ٥١ ـ لا يمكن منح أرض بصورة نهائية إلا ضمن الشروط التالية :

١ ـ لا تمنح الأرض إلا في منطقة جولان العشيرة التي يكون الطالبون منتمين إليها .

٢ ـ لا يمكن أن تشتمل الأراضي الممنوحة على قطع جرى من قبل استملاكها بصورة قانونية .

٣ ـ يجب أن يجري إحياء الأرض الممنوحة بواسطة عملة أكثرهم من البدو .

٤ ـ نقط المياه سواء أكانت آباراً أو خبرات أو أقنية قديمة أو غير ذلك لا يجوز منحها مهما كانت الحجة المتذرع بها ، بل يجب أن تبقى لاستعمال أي كان . إذا كانت الأرض الممنوحة قريبة من ماء ، وجب أن تحفظ بمنطقة قياس نصف قطرها اثنين كيلو متر حول الماء ، وكذلك يحتفظ بمنفذ إلى الماء بعرض اثنين كيلو متر ، يحدد موقع هذا الممر بهمة دائرة مراقبة البدو بناء على طلب من دائرة أملاك الدولة ، أما الآبار التي يفتحها ذوو الشأن نفسهم ، فيمكن إدخالها رغم الأحكام السابقة في الأرض الممنوحة بدون أي قيد يتعلق بمنطقة المياه المذكورة أعلاه والمنفذ إليها .

المادة ٥٢ ـ تبت لجنة مؤلفة كما يلي في كل نزاع يتولد عن أضرار سببتها القطعان في غير المعمورة في مزروعات الأراضي الممنوحة :

ضابط مراقبة البدو رئيساً ، رئيسان من رؤساء عشائر أو أفخاذ عشائر غير العشائر أو الأفخاذ التي يكون المدعون والمدعى عليهم منتمين إليها .

المادة ٥٣ ـ يوضع هذا القرار موضع التنفيذ بتاريخ ٤ حزيران سنة ١٩٤٠ م .

المادة ٥٤ ـ تلغى جميع الأحكام السابقة المخالفة لهذا القرار .

المادة٥٥ ـ أمين السر العام في المفوضية العليا مكلف بتنفيذ هذا القرار .

بيروت في ٤ حزيران سنة ١٩٤٠ م **المفوض السامي**

الإمضاء : بيو

« ملحق رقم ١ »

ـ قائمة العشائر الرحل ـ

الروالة وتوابعها ، الأشاجعة ، السوالمة ، العبد الله ، الولد علي ، البدور ، الأحسنة ، الأسبعة البطينات ، الأسبعة الأعبدة ، الفدعان الولد ، الفدعان الخرصة وولد سليمان ، شمر الزور ، شمر خرصة ، بني خالد ، الفواعرة ، الحديديون (الكومة ، الغناطسة ، الجملان ، البوحسن) الموالي (الشماليين والقبليين) العمور ، البوخميس ، اللهيب ، الكيار ، الوهب ماعدا فخذ السياد ، الغياث ، النعير ، النجاد ، الصليب ، الحسن ، المساعيد ، الشرفات ، العضيات ، الشنابلة ، السردية .



« ملحق رقم ٢ »

الخط الفاصل بين المنطقة المعمورة ومنطقة الرحل

١ ـ من الحدود التركية إلى مسكنة القديمة :

ـ نقطة الابتداء : كول تبه (٦٠ كيلو متراً شرقي جرابلس على الحدود)

ـ خط الآبار المشتمل على : بير حيش ، مرتي كوي ، يدى كوي

ـ نهر الكيبو ، بير كوله كيتي ووادي تل تورلا ، قنطرة

ـ طريق كبيرد إلى حياله ، سرج ـ ماراً بالنقطة ٨٨٢

ـ طريق سرج إلى عبدا ، حفيان ، يوجاك ، الفرات

ـ مجرى الفرات (الضفة اليسرى حتى مسكنة القديمة)

٢ ـ مسكنة القديمة ، خناصر ، أندرين ، سعن وسعين

ـ مسكنة القديمة ، الطريق الشرقية الغربية التي تمر على مسافة اثنين كيلومتر جنوبي تل فضه حتى التقائها بالوادي الذي يصب في جبل الغول على بعد ٤ كيلو متر شرقي الحمرا .

- من هذه النقطة : الوادي الشمالي القبلي حتى التقائه مع الوادي الآتي من عين زبيد
- طريق عين زبيد إلى خناصر ماراً بتل الزبيد وعازو كارومينوتش
- طريق خناصر إلى رملة وعيطة
- عيطة إلى بو خرايج
- طريق أبو خرايج إلى الإفدرين (على مسافة ١٠ كيلو متر) إلى قصر ابن وردان
- قصر ابن وردان إلى سروجة عند افتراقه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حتى سعن وسعين

٣ - من سعن وسعين إلى عقيربات

- طريق المركبات التي تمر بقرى العمياء وماش العلباوي وجنا العلباوي وتل علباوي وفايا وعقيربات .

٤ - من عقيربات إلى جب الجراح

- طريق المركبات من عقيربات إلى سوحة ، طريق الإبل التي ترى من سوحة إلى جب الجراح مارة في زغيلة توينة ومسعدة وجب الجراح .

٥ - من جب الجراح إلى فرقلس

- طريق المركبات التي تتخللها قرى جب الجراح ومكسر الحصان وأم الصهريج وهبرة الشرقية وهبرة الغربية .
- طريق الإبل حتى مرتفعات جبل الشومرية الجنوبية مارة بعلامة جبل الشومرية والمهاشم وأمّ الطيور والصوانية والحمرات ومرتفعات جبل الشومرية الجنوبية وفرقلس .

٦ - من فرقلس إلى الغنثر وحوارين ومهين

- طريق المركبات التي تمر في هذه النقاط

٧ - من مهين إلى عدرا بملاحات جيرود عدرا

- طريق الإبل من مهين مارة شرقي مهين إلى علامة خان الأبيض - خان الجلاجل -
- الحدود الشرقية لملاحات جيرود . الرأس الجنوبي لملاحات جيرود

ـ وادي ضمير حد التقائه بطريق عدرا ، ضمير على بعد ٥ كيلومتر غربي ضمير ، طريق عدرا .

٨ ـ من عدرا إلى حدود جبل الدروز عن طريق المسمية

ـ طريق عدرا ، ميدعة حتى قبالة الضفة الشمالية لبحيرة العتيبة

ـ ضفتا بحيرة العتيبة الشرقية والجنوبية إلى الكفرين

ـ طريق الكفرين ، جديدة الخاص ، بيطارية

ـ طريق الإبل من البيطارية إلى بلاي ـ بويضان ـ المسمية والحدود السورية الدرزية

٩ ـ حدود سورية .. شرقي الأردن

الحد الفاصل بين منطقة الرحل والمعمورة هو خط الحدود :

☆ ☆ ☆

« ملحق رقم ٣ »

قائمة العشائر نصف الحضر

منطقة دمشق : حرب ، الصياد ، الجملان ، النعيم ، الفضل ، السلوط .

منطقة سلمية : نعيم حمص وحماه ، البشاكم ، الخراشين ، التركي العقيدات (أبو سيف ، أبو هرموش ، أبو عساف ، الدهامشه ، بو سرايا ، بو سلامة) طوقان رعية ، مشارفة رعية ، بني عز رعية .

منطقة حلب : النعيم ، البوليل ، السماطية ، فرقة السياد من عشيرة الوهب ، العقيدات البوشيخ ، المشاهدة ، الولدة ، البقارة

منطقة دير الزور : العقيدات والبوسرايا ، بقارة الزور ، البوشعبان ، العفادلة ، السبخة ، البوعساف ، البوسبيع ، الولدة) .

منطقة الحسجه : بقارة بومعيش ، ملي ، محمود بك ، طيء ، الجبور ، الشرابين .

« ملحق رقم ٤ »

ـ قائمة ضباط مراقبة البدو مع ذكر العشائر الموضوعة تحت إشراف كل منهم ـ

منطقة دمشق : ضابط مقيم في تدمر .

عشيرة الرولة وتوابعها : الأشاجعة ، السوالمة ، العبد الله ، ولد علي البدور ، السبعة بطينات ، الحسنة ، العمور (الجرباء ، الملحم ، الخرسان ، أبو حربة ، سعد الديرة ، الغياث ، النعير ، النجاد) الصليب .

منطقة الدير : ضابط مقيم في الدير

الفدعان ولد ، الفدعان الخرصة وولد سليمان ، عمور الجراح ـ السبعة عبدة .

منطقة الحسجة : ضابط مقيم في الحسجة

شمر الزور ، شمر الخرصة

منطقة حلب : ضابط مقيم في معرة النعمان

الحديديين (الكومة ، الغناطسة ، الجملان ، البوحسن) الموالي (الشماليين ، القبليين) البوخميس ، اللهيب ، الغيار ، الوهب ماعدا فخذ السياد ، العمور المهارشة

منطقة سلمية : ضابط من الدوائر الخاصة مقيم في سلمية : الفواعرة ، بني خالد .

وتعود إليه مراقبة العشائر النصف حضر التالية :

العقيدات (الدغامشة ، البوسيف ، البوسلامة ، البوهرموش ، البوعساف ، البوسرايا ، البوشعبان ، البوبكير) التركي ، الخراشين ، بني عز الرعية ، البشاكم ، المشارفة الرعية ، نعيم حمص وحماة ، السماطية ، طوقان الرعية .

منطقة جبل الدروز : ضابط مراقبة البدو مقيم في السويداء : الحسن ، الشرفات ، العضيمات ، المساعيد ، الشنابلة ، السردية .

☆ ☆ ☆

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني الباحث عن أنساب
كل من العشائر المتبدية والمتحضرة وأوصافها
وأخبارها في كل محافظة وقضاء
من بلاد الشام الشمالية

الجزء الثاني

أنساب العشائر المتبدية والمتحضرة
وأوصافها وأخبارها
في كل محافظة وقضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لقد تم بحوله تعالى نشر الجزء الأول من كتابي هذا ، وفيه الأبحاث العامة المتعلقة بجغرافية بادية الشام وحدودها ومناطقها المختلفة ، وجوّها ومائها ، وسهولها وجبالها ، ونباتها وحيوانها ونعيمها وشقائها ، ومبانيها الأثرية ، وعمرانها القديم والحديث .

ثم تاريخ البدو ، وتقسيم قبائلهم وعشائرهم من أبعد عصور الجاهلية إلى أيامنا هذه ، وهجراتهم وأفاعيلهم في بلاد الشام خاصة ، ثم مالدى البدو إجمالاً من الأوصاف والخلال ، والحالات الاجتماعية في الماضي والحاضر ، وما قاله فيهم مادحوهم وقادحوهم ، ثم عاداتهم في المعيشة والملبس ، والمسكن واللهو ، والزواج والأعراس ، والضيافة والغزو والحرب ، ثم التشريع البدوي ، وكيفية التقاضي والمرافعة وأصول المحاكمات الحقوقية والجزائية ، وأساليب الصلح بين الأفراد والعشائر ، ثم الدين والشعر والمعارف عند البدو ، وختمت هذه الأبحاث بفصل خاص عن كيفية تحضير البدو ، وإصلاح أحوال العشائر والقرار رقم ١٣٢ المتعلق بمعاملة البدو .

إن كلمة البدو في الاصطلاح الدارج ، وإن كانت خاصةً في أهل القسم الأول من العشائر الذين وصفتهم في الجزء الأول المذكور (ص ١١٧) ، أعني البدو الأقحاح من شمر وعنزة وفروعهما فقط ، إلا أنني شرحاً للأبحاث التي عالجتها وسعت شمول هذه الكلمة ، وعنيت بها كل من كان أعرابياً بدوياً في أصله ، ومعيشته ونزعته ، وعشائرياً قبلياً في جمعيته وعصبيته ، سواء أكان من أهل القسم الأول (البدو الأقحاح) ، أو القسم الثاني (عربان الديرة) ، أو القسم الثالث (العربان الفلاليح) ، فقد شملت الجميع في هذه الأبحاث لعدم إمكان التمييز أو تعذره ، وتركت للقارئ اللبيب أن يأخذ ماصفا منها ، ويطبقه على من حوله من العشائر ، أو أشباه العشائر .

وفي هذا الجزء الثاني الذي أنشره الآن شرحت الأوصاف الخاصة بكل عشيرة ، كأنسابها وأحسابها ومنازلها وفرقها وفصائلها وأخبارها الماضية وأحوالها الحاضرة ، كل ذلك حسب المناطق الجغرافية ، أي المحافظات والأقضية التي نزلت فيها واستقرت ، وقد بدأت من الجنوب وتدرجت نحو الشمال ماراً بدمشق فحوران فجبل الدروز فحمص فاللاذقية فحماة فحلب فالفرات فالجزيرة ، وتطرقت في الأخير إلى ذكر العناصر غير العربية كالكرد والشركس والتركمان المتوطنين في بعض المحافظات والأقضية ، لما لهم من الأوضاع والأخبار العشائرية ، ولحاجة قراء العربية إلى معرفتهم بحكم قلة المصادر الباحثة عنهم أو نقصها .

واسم كتابي (عشائر الشام) ، وإن كان يجب أن يشمل عشائر بقية الأقطار الشامية ، أعني فلسطين وشرقي الأردن أيضاً ، إلا أن هذه العشائر سبق لبعض الفضلاء الذين ذكرت أسماءهم في الجزء الأول في فصل (مكتبة البدو) ص ١٣ أن كتبوا عنها ، ووصفوها وصفاً محموداً ، وكفوني هذه الناحية ، لذلك اقتصرت على عشائر بلاد الشام الشمالية (سورية الحاضرة) التي عددتها آنفاً ، وأقحمت بها عشائر لبنان أيضاً على قلتهم ، لأن لبنان يدخل جغرافياً ضمن هذا النطاق .

وفي سبيل الله والعروبة مابذلت من الجهد ، وما لاقيت من العناء في الحصول على أوصاف كل عشيرة ، وأخبارها القديمة والحديثة ، وجغرافية منازلها ومنتجعاتها ، والسبل التي تسلكها في التشريق والتغريب ، وأسماء بطونها وأفخاذها ورؤسائها ووجهائها ، وسيرة هؤلاء أو بعض هؤلاء ، وما لدى كل عشيرة من قرى وقريات وماشية ، لأن كل ذلك غير مدون في اللغة العربية عند أحد ولا محفوظ في ذاكرة أحد إلا فيما ندر ، وهذا النادر يقع في بيانه كثير من الناقض والمنقوض ، والاجتماع به والتقاط الأخبار والأحاديث منه لايتيسر في أي زمان ومكان ، وإن كان شيء من أخبار العشائر معروفاً أو مدوناً ، فهو في الأكثر عند الأجانب فقط ، ذوي المآرب الخاصة من تبشيرية واقتصادية واستعمارية ، فهؤلاء قد توغلوا في بوادينا ، وخالطوا عشائرنا وتسقطوا أحوالهم وأخبارهم ، دأبوا على ذلك منذ أمد بعيد ، وهيمنوا على أقدار بعضهم وسيروه على هواهم[1] ، وبحثوا وألفوا ونشروا

(١) كما فعل خلال الحرب العامة الماضية الكولونيل لورنس نافخ ضرام الثورة العربية الحجازية ، وكما فعل بعده الميجر كلوب المعروف بأبي حنيك قائد قوى البادية في شرقي الأردن في يومنا .

ماجمعوه في مختلف اللغات الإنكليزية والفرنسية وحتى الألمانية ، وقد عددت في الجزء الأول في فصل (مكتبة البدو) أسماء المؤلفين منهم ومؤلفاتهم الكثيرة ، وهي على علاّت بعضها جديرة بالإعجاب ، لكثرة الجهود المبذولة في سبيلها .

أجل ؛ لم يوضع حتى الآن عن عشائرنا في شمالي بلاد الشام أي كتاب ، ولم يفكر أحد أن يدون لها أنساباً ويسجل أحساباً ، ناهيك إحصاء نفوس وقيد أصول وفروع وعد أرزاق ، وناهيك التحضير والتثقيف والإرشاد ، بغية الاستفادة من هذه القوى الاحتياطية لجيش العروبة وتعبئتها (ليوم كريهة وسداد ثغر) ، ومن أجل ذلك ظل المجال مفتوحاً أمام الحدس والتخمين ، وظلت الروايات عن تاريخ العشائر وأخبارها الماضية والحاضرة ، والأرقام عن نفوس العشائر وأرزاقها ، وأسماء بطونها وأفخاذها تتأرجح بين التنقيص والتزييد ، تبعاً لدفع المغارم أو جلب المغانم ، كل ذلك بحكم انتشار الأمية في باديتنا ، وعدم المبالاة بهذه الأمور في حاضرتنا .

من جملة العناء في تأليف هذا الجزء مالقيته في إلحاق العشائر المعاصرة لنا بالعشائر القديمة التي كانت في عصور الجاهلية والإسلام ، فقد اعترضتني في ذلك الموانع الذي ذكرتها في الجزء الأول (ص ١٨٠) . لأن كتب الأنساب والتاريخ العربية اختصت بالعصور السابقة ولم تبلغ المتأخرة ، وقد فقدت حلقات تلك العشائر في مطاوي الأجيال أيام ضعف الدول العربية ، واختلاف قبائلها وأمرائها ، وفي الحروب والفتن والأوبئة والمجاعات الكبيرة ، فلم يبق لها ذكر ، فأنت لا تجد الآن أثراً لأكثر العشائر التي كانت مثلاً في القرن التاسع الهجري من التي تحدث عنها ابن خلدون في تاريخه الكبير ، والقلقشندي في كتابه الأول (صبح الأعشى) وكتابه الثاني (نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب) وابن فضل الله العمري في (مسالك الأنصار) وغيرهم في كتب أخرى ، وإذا وجدت بين عشائرنا من يظن أنها من بقايا التي ذكرها أولئك المؤرخون (وقد بحثنا عن كل منها في مكانه) تجدها غير عالمة بما حملته وورثته من الذكريات ، وربما نسيت صلتها بأسلافها المذكورين ، وانتسبت إلى غيرهم ، ولبست اسماً وكياناً جديدين ، وقد سبق أن قلت في الجزء الأول (ص ٩٠) : أن العشائر تتشعب وأسماءها تتبدل في كل قرن أو قرنين أو ثلاثة تبعاً للمتأمر عليها ، وقد تسمى العشيرة باسم أميرها أو شيخها ، ثم باسم ابن هذا أو

ذاك بعد وفاته إذا انفصلت عن الأرومة وبعدت ، فالعشائر التي كانت معروفة حين فتوح الشام في القرن الأول ، تغيرت في القرن الثالث والرابع ، وما عرف من أسمائها في القرن السادس والسابع تبدل في التاسع والعاشر ، وهلم جرا .

ومن الأمور الجارية في العشائر أن بعضها قد ينشق عن عشيرته الأصلية لوقوع مشاكل يتعذر حلها ، فيبدل تابعيته وموطنه ، ويرحل إلى بلاد أخرى ، ويستقل باسم جديد مأخوذ من اسم رئيسه ، أو يلحق عشيرة غريبة عنه ، ويندغم بها ، أو يتعاقد مع عشائر أو فرق منشقة مثله ، فيؤلف منه ومنها عشيرةً متحالفةً ، يأخذ مجموعها اسماً جديداً ، أو تكون إحدى العشائر قوية مستقلة فيخني الدهر عليها ، أو تسوء قيادة رؤسائها فتصبح ضعيفة محكومة إلى من هو أقوى ، وهكذا تدعو هذه الأسباب إلى ضياع الاسم والمنشأ القديمين بمرور الزمن وإلى نسيانها ، بحكم الأمية وعدم التسجيل ، وإلى ظهور أسماء جديدة لا تجد لها أثراً في كتب الأنساب والتاريخ القديمة .

وهذه الحالات ما برحت تحدث في يومنا هذا ، كما تراه في عشائر الولد علي والعبد الله والأشاجعة والسوالمة التي بعد أن كانت إلى عهد غير بعيد قوية مستقلة ضعفت وتمزق صدعها وخسرت استقلالها وصارت من حواشي عشيرة الروالة الكبيرة ، وكما جرى في عشيرة العمور التي بعد أن كانت متوحدةً منيعةً انحلت ولحق كل فريق منها بإحدى العشائر الكبيرة مما سوف تقرأه في بحثها ، وكما جرى في عشيرة السكن ، الساكنة في جبل الأحص جنوبي حلب المؤلفة من فلول عشائر شتى قديمة .

قلت في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١١٧) ما خلاصته : أن عشائر زماننا في بلاد الشام تنقسم من حيث عراقتها بالبداوة وبعدها عن الحضارة إلى ثلاثة أقسام :

الأول ـ أهل الإبل : البدو الأقحاح ، ذوو النجعة البعيدة والأعرابية العريقة ، وهؤلاء يحلون ويرحلون دائماً ، ويقتنون الخيل ، ويعيشون في الغالب من تربية الإبل ، وينجعون أي يتوغلون لأجلها في قفار البادية البعيدة المعروفة بالحماد ، وليس في بلاد الشام من هذا القسم ، أو من هؤلاء البدو الأصليين الذين اختصت كلمة البدو بهم دون غيرهم ، إلا قبيلتان كبيرتان ذات فروع عديدة هما : عنزة في الشامية ، وشمَّر في الجزيرة ،

وكل القبائل أو العشائر الباقية التي لبعضها عدد كبير وصيت بعيد إنما هي من القسم الثاني أي نصف بدوية كما سيأتي ، وإن جمع قرار الفرنسيين رقم ١٣٢ بعض هؤلاء مع أولئك وسمى الجميع : رحلاً .

الثاني ـ أهل الغنم أو الشياه : نصف البدو أو نصف الحضر ، ذوو النجعة القريبة ، والأعرابية المحدودة الذين يسمون حسب المواقع ، تارةً بعربان الديرة ، وتارةً بالرعية ، وتارةً بالشوايا ، ويسمون أمثالهم في العراق العشائر الريفية ، وهؤلاء يعيشون في الأكثر من الضرع ، أي من تربية الغنم وفي الأقل من الزرع ، وهم وإن كانوا رحل ويقتنون الخيل والإبل أيضاً ، ويحلون ويرحلون ، ويقطنون بيوت الشعر كأهل القسم الأول ، وينجعون البادية ، لكنهم في هذه الأمور أقل من أولئك ، وبمقدار يكفي للظعن وراء الماشية فلا يتوغلون في الحماد ، ولا يبعدون في الشامية إلا لمسافات محدودة ، تناسب مقدرة الغنم ، يضيفون إلى ذلك ممارسة الفلاحة والزراعة في المعمورة ، وامتلاك الأرضين والقريات بمقدار كثير أو قليل .

وأنت لست بواجد بين القسمين من الفوارق والميزات في المعيشة والحالة ما يلفت النظر في بادئ الأمر ، غير أن السبب الذي من أجله أصبحا قسمين هو : الإقامة أو الفلاحة والزراعة عند العشائر نصف البدوية ، والرحيل الدائم ، والتجوال الأبدي عند العشائر البدوية الأصلية ، أما من حيث الخلال والتقاليد والعادات والعرف والاصطلاحات التي فصلناها في الجزء الأول من كتابنا ، فيكاد القسمان يتفقان ، إلا في أمر واحد ، هو شدة التمسك ، والمحافظة على اللهجة ، والعادات العريقة في جفوتها وعيشتها البدوية ، وفي عزتها وأمجادها الأعرابية ، عند القسم الأول (البدو) ، والتساهل في شيء منها عند القسم الثاني (أنصاف البدو) .

على أن هذه الفوارق أخذت منذ ٢٠ ـ ٢٥ سنة تتناقص يوماً بعد يوم ، بنسبة التدرج في سلم التطور والتحضر ، فالبدو أهل القسم الأول أنفسهم قد دب فيهم التساهل بقوانينهم ، وتراخى الحماس في تطبيقها ، واتجه كبراء هذا القسم ورؤساؤه نحو الاقتداء بالقسم الثاني في تربية الضرع ، والعيش من الزرع ، وامتلاك الأرضين والمزارع ، وركوب السيارات بدل الخيل ، وسكنى المدن والدور بدل بيوت الشعر ، كما أن القسم الثاني قلل

الأباعر والأبعار والظعون والأسفار ، وانصرف نحو إعمار الخرب الدائرة ، وشق الأراضي ، وفتح القنوات ، وسكنى القباب والدور الثابتة ، وارتياد معالم الحضارة .

الثالث ـ أهل البقر : أو البدو الحضر المعروفون بـ (الفلاليح) الذين هجروا بيوت الشعر ، وقطنوا قباب الطين ، أو بيوت الحجر ، وانصرفوا إلى الفلاحة والزراعة أكثر من الماشية ، وهؤلاء أيضاً كثر عزوفهم عن البداوة وشقائها ، وزاد تعلقهم بالزراعة وأسبابها ، واقترابهم من أبواب الحضارة والثقافة بالنسبة لما كانوا عليه قبل ربع قرن ، مما يبشر بأنه لن تمضي فترة طويلة من الزمن إلا وأمواج التطور والتحضر سوف تغمر هؤلاء البدو كلهم ، أي أن الزمان ـ وهو أبو العجائب ـ سوف يفعل فعله فيهم ، ويخضعهم إلى ما جرى بأسلافهم في العصور الغابرة الذين عزفوا عن البداوة والجفوة تدريجياً ، واستقروا واطمأنوا ، وعنوا بالرزق الحلال ، فصار قسمهم الأول ثانياً ، وثانيهم ثالثاً ، وهكذا ، لا سيما وقد انقطعت في زماننا ولله الحمد سبل النهب والسلب والغزو ، أو كادت واجتاحت سيارات الركب والنقل مسالك الصحراء ، وبارت سوق الإبل والخيل ، ولم يعد للإنسان إلا ما سعى .

ولأجل هذا ، ولزوال الفروق إلى حد بعيد بين تلك الأقسام الثلاثة ، لم أراعي في هذا الجزء التقسيم المذكور عند وصف العشائر وشرح أحوالها ، بل راعيت أوضاعها الجغرافية الحالية ، وتحدثت عنها بحسب المحافظات والأقضية التي نزلت فيها واستقرت ، سواء أكانت من البدو أو نصف البدو أو المتحضرة بتاتاً ، وسواء أكانت كبيرة أو صغيرة ، وجعلت العبرة لوحدة العشيرة واستقلالها عن غيرها .

وتنقسم أيضاً عشائرنا الشامية في يومنا من حيث التاريخ وقدم العهد أو قربه إلى قسمين : فالعشائر الرحل أهل الإبل (البدو الأقحاح) ونخص بالذكر شمر وعنزة ، هي حديثة العهد بالورود من نجد ، ولا يبعد وجودها لدينا إلى أكثر من ٢,٥ ـ ٣ قرون .

أما العشائر نصف الرحل (المتحضرة) فبعضها حديث العهد ، ومعروف المنشأ والتاريخ إلى حد ما ، كطيء في أنحاء الجزيرة ، والعقيدات والأبي شعبان في أنحاء الفرات ، فإن هؤلاء جاؤوا منذ ثلاثة قرون وقبل شمر وعنزة ، منهم من جاء من نجد

مباشرةً كالعمور والعقيدات ، ومنهم من جاء من العراق كالأبي شعبان والكيار والأبي خميس .

وبعضها قديم العهد ومجهول المنشأ والتاريخ ، والظن الغالب أنه من أنقاض العشائر التي كانت في عهود الدول الأيوبية والسلاطين المماليك التي ذكرها مؤرخو العرب وأدباؤهم في القرن السابع والثامن والتاسع ، فمنها - وهو الأقل - من استطعت العثور على أسماء أسلافه ، وأخبارهم وآثارهم في كتب التاريخ والأنساب والآداب ، فمن هؤلاء (آل فضل) الذين كانوا في براري حماة وحمص ودمشق وحوران ، وتشعبوا وقتئذ كثيراً ، وتحدرت منهم أسرتان كبيرتان ، أسرة آل أبو ريشة أمراء عشيرة الموالي في جنوبي حلب ، وأسرة آل فاعور أمراء عشيرة الفضل في جنوبي دمشق .

ومنها - وهو الأكثر - من لم أستطع العثور على اسمه ورسمه في الكتب القديمة المذكورة ، هل هو من بني كلب أو من بني كلاب أم من آل بشار الذين كانوا في براري حلب حتى القرن التاسع ، أم من أنقاض آل فضل المذكورين أيضاً ؟ لأن عشائر هذا القسم قد مزقت صدعها ، وبدلت صقعها بحكم الحروب والفتن ، وتوالي الأوبئة والمحن ، وتقلب الدول وتعاقب الأجيال ، وكرور الأيام والأحداث ، وصارت من العشائر المتحيرة التي نسيت اسمها ومنشأها وتاريخها ، وراحت تظن ظنوناً ، وتزعم مزاعم فاقدة الحجة ضعيفة السند ، فأكثر العشائر عندنا هي من هذا القبيل إذا سألتها لا تحر جواباً عن حسبها ونسبها ، وإن أجابت وانتسبت أعوزتها الحجج والأسناد ، كما هو الحال أيضاً عند أكثر الأسر في مدننا .

أما عدد النفوس في العشائر ومقدار ماشيتها من خيل وإبل وغنم وماعز إلخ .. فقد تضاربت فيه الأقوال وكثرت الادعاءات ، وهو يقل إلى حد التفريط في حالة ترقب المغارم ، ويكثر إلى حد الإفراط في حالة استدرار المغانم ، وكان الفرنسيون المكلفون بمراقبة العشائر وضعوا إحصاءات نشروها في كتبهم الباحثة عنها ، لكنها تخمينية ضعيفة لا يوثق بها ، وفي خلال الحرب الكونية الأخيرة نشروا قوائم جديدة كانت أضعف من سابقاتها ، بحكم الإفراط الذي لحقها ، لأنها وضعت تحت ضغط طلبات الشيوخ والرؤساء من الدقيق

والسكر والأقمشة وأمثالها من مواد الإعاشة باسم عشائرهم ، وعلى كل سوف أذكر في بحث كل عشيرة ما وصل إليه استقصائي وسؤالي من الأرقام التقريبية .

وبعد ، أعيد هنا ما قلته في مقدمة الجزء الأول ، من أنني لا أدعي الاستيعاب وبلوغ الغاية في هذه البحوث والدراسات الكثيرة التضارب والشذوذ ، لأن التجوال في البادية والاتصال بالعشائر أو النبهاء من العشائر العارفين لهذه المسائل في كل زمان ومكان أمر غير يسير ، والتقاط الأخبار واستقراء الحقائق منهم دونها مشقة وكلفة ، وكل واحد يحدثك حديثاً يختلف عن الآخر ، فرواياتهم وإسناداتهم قلما تتفق وتصفو ، ومن ثم قد يكون في هذا الجزء بعض أوصاف وأخبار سردتها في زيادة أو نقص ، وأسماء أشخاص قد تبدلوا أو انتقلوا إلى رحمة الله ، أو أسماء أماكن ومواقع وبطون وأفخاذ ، أو أعداد رجال وماشية لم أدونها أو دونتها على غير الضبط ، وحسبما قرأت عنها أو سمعت . كل ذلك أرجو من القارئ المنصف أن يشمله بالمعذرة ، ويقدر ما في هذه الموضوعات من وسعة المجال وعسرة الكمال ، ويعلم أن غايتي من هذا التعب والتضحية المبذولين في الجزء الأول الذي صدر ، وفي هذا الجزء الثاني الصادر الآن إنما هو لسد قصور المكتبة العربية عن عمل عاناه مؤرخو العرب وأدباؤهم في الماضي ، وعاناه المستشرقون الأجانب في الحاضر معاناةً كبيرة ، فأدون كل ما يتعلق بباديتنا وبدونا قبل اندثاره ونسيانه ، وأعرّف ذلك إلى حاضرتنا وحضرنا من أهل الجيل الحالي والآتي ، ما زال أهل البادية هم أصل العرب ومادة الإسلام كما قال سيدنا عمر وأوصى بهم ، وما زالت المعرفة أصل التقارب والتوادد ، فإن وفقت فهو غاية مناي ، وإن زللت فحسبي من وحدتي وانفرادي في هذا العناء وحسن نيتي ووعورة موضوعي وتشعبه شافعاً ومقيلاً .

دمشق ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م

أحمد وصفي زكريا

تعداد العشائر ووصفها



عشائر محافظة دمشق

قضاء دوما

أجل عشائر محافظة دمشق هي عشيرة الروالة العنزية وما يلحقها من العشائر الصغيرة المسماة بالحلف (الأحلف) ، ذلك لأن إقامة رئيس الروالة الحالي الأمير فواز الشعلان وقبله جده الأمير نوري الشعلان هي في دمشق غالباً ، ومخيم الرئاسة الكبير في فصل الصيف هو في قرية عدرة الواقعة في منتهى قضاء دوما شرقي دمشق ، ومن ثم حق لنا أن نعد هذه العشيرة العظيمة من عشائر محافظة دمشق ، ونخصها بقضاء دوما دون غيره من أقضيتها .

ولكي يحيط القارئ علماً بعشيرة الروالة ولواحقها ، وجب أن نبحث بادئ ذي بدء عن قبيلة عنزة التي تفرعت منها الروالة ولواحقها ، وأن نشرح تاريخها ماوسعنا الجهد ، ثم ننتقل إلى بحث الروالة المقصود .

عنزة

أعظم القبائل العدنانية بل العربية عدداً وأعلاها شأناً وأمنعها جانباً وأكثرها انتشاراً ، ويرتقي نسبها إلى عنز بن وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معبد بن عدنان ، والمعروف بين البدو أن جد عنزة هو عنز بن وائل ، أخو بكر بن وائل وتغلب بن وائل ، وأن بني وائل هم بطن من ربيعة من العدنانية ، ومن هنا كانت تسميتهم ببني وائل ، ويخطئ من ينسبهم إلى قبيلة تغلب المعروفة في الجاهلية ، إذ لاعلاقة بين ديار هؤلاء وأولئك ولا صلة بين ماضيهما ، وهم كثيرون لا يكادون يحصون ، وكل فرع منهم يماثل في عدده أكبر العشائر ، ومن هنا جاء المثل (عنزة دود الفرث) مبالغة في ذكر

عددهم ، وفي أسطورة يتناقلونها عن سبب تسميتهم بعنزة أن جدهم الأعلى قتل رجلاً بالعنزة ، وهي الرمح القصير ، ويتناقلون أيضاً أن لعنزة من القبائل أخوات هي جديلة وعميرة .

إن مواطن عنزة في الأصل بين أواسط نجد وشمالي الحجاز . وقد قدمنا في بحث تاريخ البدو (الجزء الأول ص ٧٠) أن قبيلتي عنزة وأسد متصلتان بحي ربيعة ، وأنها كانتا متحدتين ومتجاورتين كل التجاور في شمالي وادي الرمة[1] وكان طريق الحاج من البصرة إلى المدينة يمر بأرض القبيلتين المذكورتين . وكانت عنزة قد احتفظت بالسيادة بعد أن طردت قضاعة من ديار العرب في عهد سابق ، وفروع عنزة الآن كثيرة انتشرت في سائر البلاد العربية واستقرت أقسام منها في الشام والعراق وشمالي الحجاز ، ومنها فروع تحضرت واستقرت في بلاد معينة من نجد وساحل خليج البصرة ، وأكثر عنزة ما زال على بداوته الصرحاء ، مثل الروالة والأحلف والولد علي والعمارات والأسبعة والفدعان والأحسنة ، وبعضها قد انتقل إلى حياة الحضارة ، ففي نجد وساحل الخليج ثلاث عائلات حاكمة من أصل عنزي ، آل السعود في نجد وآل صباح في الكويت وآل خليفة في البحرين .

ويقول فؤاد حمزة في كتابه (قلب جزيرة العرب) إن من عنزة بعض العشائر المتحضرة في نجد ، وأهمها في العارض والحريق والحوطة والأفلاج والسدير والداخلة وفي القصيم وبريدة ، وأن بعض عنزة يقطنون في هجر (جمع هجرة بمعنى مستعمرة) ، أنشأها لهم الملك عبد العزيز آل السعود .

وهم عشائر عديدة لا يؤلفون وحدة سياسية بينهم ، وليس لهم نخوة عامة وإنما هم متفرقون في المنازل لكثرتهم ومتباعدون ، ولا ينفكون عن التخاصم والتناحر ، إلا إذا مست الحاجة .

وهم يرجعون إلى جذمين كبيرين يدعونها (ضنأ) والضنأ بمعنى نسل ، ويقولون أن

---

(١) وادي الرمة أطول أودية الجزيرة العربية يبدأ من قرب المدينة المنورة ويمر من مقاطعة القصيم ، وإليه تنحدر سيول جبل شمر في نجد ، وعليه بلدتا عنزة وبريدة .

جذمهم الأعلى وائل أعقب ولدين عنز ومعاذ ، فعنز هو أبو عنزة الذين نحن في ذكرهم ، ومعاذ أبو قبائل حرب التي لاتزال في الحجاز ونجد ، ثم يقولون إن عنز أعقب ولدين هما مسلم وبشر ، فمسلم أبو (ضنا مسلم) ولهذا الضنا بطنان الجلاس والوهب ، فمن بطن الجلاس أفخاذ أو عشائر الروالة والمحلف ، (بتسكين الميم وفتح الحاء) هم عشائر الأشاجعة والعبد الله والسوالمة الذين حالفوا الروالة ، ومن بطن الوهب أفخاذ أو عشائر الولد علي والمنابهة ، فبعض الولد علي في بلاد الشام ، وبعضهم واسمهم (الأيدة) في شمالي الحجاز وغربي نجد ، وليس من الأيدة في بلاد الشام إلا أفراد طارئون يذهبون ويجيئون للاتجار ولبعض المصالح الشخصية ، ولا يقيمون إلا وقتياً ، وبعض عشيرة الأحسنة المعدودة من المنابهة في الشام (شرقي حمص) .

ثم إن بشر هو أبو (ضنا بشر) ، ولهذا الضنا أيضاً بطنان عبيد وعمارة فمن بطن عبيد أفخاذ أو عشائر الأسبعة والفدعان وولد سليمان ، فالأسبعة والفدعان في شمالي الشام (شرقي حماة وحلب) ، والولد سليمان في شمالي الحجاز ، ومن بطن عمارة عشيرة العمارات التي انحازت إلى العراق وصارت تعد من عشائره ، وتظهر آثار عصبية النسب أحياناً بين عنزة عند النزاع والخلاف ، فقد يتعصب السبيعي للفدعاني ضد الروالي ، كما يتعصب هذا للأحسني ضد المذكورين ، كما أنهم قد يلتقون جميعاً لمدافعة أي عداء يأتيهم من شمر أو من عربان الديرة ، إلا أنه من المؤسف أن تكون الشحناء منذ أمد بعيد ، ولا سيما منذ سنة ١٣٤٨ هـ مستحكمة بين ضنا مسلم وضنا بشر .

أما الشرف بين عشائر عنزة فقد قالت عنه السائحة الإنكليزية الليدي بلانت التي جالت بين العشائر في سنة ١٢٩٣ هـ « إن البيوتات الشريفة في عشائر بادية الشام عامئذ كانت ابن مزيد (الأحسنة) وابن جندل (السوالمة) وابن الطيار (ولد علي) وابن هذال (العمارات) وابن سمير (ولد علي) ، ثم يأتي بعد هؤلاء ابن صفوق (شمر الجربا) وشيوخ طيء (آل عساف) وابن هديب (الموايجة من الأسبعة الأعبدة) والمهيد (الفدعان) وابن مرشد (الأسبعة البطينات) ، وقالت : أما ابن الشعلان فليست شرافيته إلا عرضية أخذها بالسيف ، وعراقة نسب شيوخ طيء وشيوخ شمر الجربا لاتقل عنها في البيوت الخمسة الأولى » . وأضاف المقدم مولر الفرنسي على ذلك قوله : « ومن الغريب أن هذا

الترتيب لا يـزال على التقريب ، كما كان قبـل نصف قرن » قلت : إن أكثر الأقـوال التي استقيتها توافق الليدي بلانت في ماذكرته ؛ إلا أنها تجعل آل هـذال كبير العمارات في ذروة التقدم على جميع رؤساء عنزة ، وآل محمد (الجربـا) على جميع رؤسـاء شمر . وتجعل آل غبين في الفدعان الولد من عنزة أقـدم بيت في عنزة ، وكما أن هـذا البيت رؤسـاء ضنـأ كحيل هم رؤساء ضنأ بشر قاطبةً من قبل .

وقال السـائح الـدانماركي نيبوهر الـذي زار بلاد الشـام في حـدود سنـة ١١٨٠ هـ عن عنزة ما تعريبه : « أما عنزة فتعد أكبر عشائر بادية الشام، ولعلها أيضـاً أكبر عشـائر نجـد أو الجزيرة العربية كلها ، وهي تأخذ أموالاً وفيرة من ركب الحج الشـامي ، وإذا مـا نهب هذا الركب يكون فاعلوه حتماً من عنزة ، وهذه العشيرة في قتـال دائم مع حكام هـذه البلاد ولا سيما مع والي دمشق ، وقد نهبوا من مدة قافلة كبيرة كانت قـادمـة من بغـداد على بعـد يوم من دمشق ، كنت أرسلت معها صندوقاً لي فنهبوه في الجملة ؛ إلخ ... » .

وقال السائح السويسري بركهـاردت الـذي زار بلاد الشـام في حـدود سنـة ١٢٢٤ هـ ما خلاصته : « أما عنزة فأكبر عشائر بادية الشام وإذا جمعت مع أقـاربهـا في نجـد صـارت من حيث العدد أكبر العشائر العربية طراً ، وهي وإن كانت قـد اعتنقت المـذهب الوهـابي في حدود سنة ١٢٠٩ هـ ، لكنها ظلت على صلات حسنـة مع الولاة العثمـانيين بحكم الفوائـد التي تستدرها من قوافل الحجاج ، وهذا ما حملهـا على عـدم تـأديـة الضرائب المفروضـة إلى رئيس الوهابية ، إلا أنهـا إذا انقطعت مواردهـا من قوافل الحجـاج سرعـان مـا تنقلب على أولئـك الولاة وتنحـاز إلى الوهـابيين للغـارة على مشـارف الشـام » ، اهـ . وقـد عني هـذا السائح بعنزة كل العناية ، وجعل المجلد الأول من كتاب رحلاتـه إلى بلاد العرب[1] خـاصـاً في الغالب بأوصافهم ، وعاداتهم وتقـاليـدهم ، وكتـابـه هـذا ترجم إلى الفرنسيـة وطبع سنـة ١٢٥١ هـ ، ومثله عمل من بعد السائح الشيكوسلوفاكي موزيل ، الذي جاء في حـدود سنـة ١٣٢٥ هـ وألف كتاباً خاصاً بعشيرة الروالة[2] كما سنذكره في بحث الروالة .

أما كتاب العرب ومؤرخوهم ونسابوهم فلم يذكروا مواطن عنزة ولا تاريخهـا في القـديم

---

(١) JeanLuisBurckhardt, Voyages en Arabie

(٢) Aloes Musil, The manners of the Rawala, 1928

ولا في الحديث ، ولذا لا نجد لها في مصادرنا العربيـة إلا نبـذاً مبعثرة لا تروي غلـة ، ومن ثم كان جل ما عرف عن تاريخ عنزة آتياً من المصادر الأجنبية ، وهو يتلخص في أنها كانت كما قلنـا بين الحجـاز ونجـد في شمالي وادي الرمــة من جنـوبي غربي تيماء حتى خيبر ، وكان يحاددها من الشمال عشيرة بني صخر ، فأدى هذا الجوار إلى عداء شديد بين الفريقين ، ظهر أثره في الحوادث التي أعقبت خروج عنزة من مواطنها إلى الشام .

وكانت هجرة من وفد من عنزة إلى بلاد الشـام طبيعيـة ، وبسبب الجـدب والضيق ، وبالتتابع على مثال الهجرات البدوية العديدة ، التي قلنا في بحث تاريخ البـدو الجزء الأول (ص ٦٦) أن سيلهـا لم ينقطـع ، وقـد اختلفت الأقـوال في تـاريـخ وفـود عنزة إلى بـلاد الشام ، فمن قائل إنهم قدموا في القرن الثاني عشر في حـدود سنـة ١١١٢ هـ على مـا جـاء في كتاب (تاريخ شرقي الأردن وقبائلها) ، ونحن اعتمـدنـا على هـذا القول في الجزء الأول من كتابنا هـذا (ص ١٠٧) ، إلا أنـه تبين لنـا بعـد من مراجعـة كتـاب (تـاريخ الأمير فخر الـدين المعني) طبع بيروت سنـة ١٩٣٦ م ، أن مجيء عنزة أقـدم من ذلـك بمـا لا يقـل عن قرن ، فقد أورد مؤلف هذا الكتاب الشيخ أحمد الخالـدي اسم عنزة في سيـاق حوادث سنـة ١٠٣٠ هـ ، كما أن عبارة المعلمة أو دائرة المعـارف الإسلاميـة تؤيـد ذلـك ، وتجعل مجيئهم في القرن الحادي عشر . ولما جاء بركهاردت المذكور آنفـاً في سنـة ١٢٢٤ هـ وجـد عشـائر عنزة ولا سيما الأحسنة منها منبسطة في بلاد الشام منذ زمن بعيد لم يستطع هو تحديـده ، وهـذا مما يؤيد ظن مجيئهم في القرن الحادي عشر .

واختلفت الأقوال أيضاً في من كان أول عنزة في القدوم إلى بلاد الشام ، والغالب أنهـا عشيرتا الأحسنة والولد علي ، ثم بعد مدة لحقتها عشائر الفدعـان والأسبعـة والعمارات وآخر من جاء الروالة ، وفي (تاريخ شرقي الأردن وقبائلها) أن عنزة حينما جاءت مرت شمالاً في طريقها بالجوف ، فاصطدمت بالسرحان إحدى عشائر الشام القديمة ، وقد كانت السرحان نزحت من حوران على أثر حربها مع السردية وانكسارها ، وجـاءت قبيل ذلـك وتـديرت الجوف . فدحرت عنزة السرحان وبني صخر الذين هرعوا إلى نجدتهـا بحكم عـداوتهم القـديمـة لعنزة ، وما زالت حتى أخرجت السرحان من الجوف ، وأكرهتها على الرجوع إلى حوران ، عدا نفر قليل منها لا يزال لهم هناك أعقاب .

وبعد أن مكثت طلائع عنزة في الجوف زمناً يصعب تحديده ، رأت أن الجوف يضيق بها ولا يكفيها ، فاستأنفت زحفها نحو الشمال ، وبلغت براري البلقاء وحوران ، وهناك اصطدمت بعشيرة السردية إحدى عشائر الشام القديمة أيضاً ، وكان للسردية شيخ يدعى المحفوظ السردي ، له سطوة ورفعة كبيرتان ، وجرت معركة حاسمة في جوار المزيريب ، أسفرت عن اندحار المحفوظ وحلفائه (أهل الشمال) ، وتفرقهم في فلسطين وغور بيسان ، وبذلك انتقلت إلى عنزة سيادة البلاد الممتدة في شرقي دمشق وحوران إلى البلقاء ووادي السرحان والجوف ، أما أنحاء عجلون فقد كانت خاضعة آنئذ إلى ظاهر العمر صاحب عكاء (١١٤٩ ـ ١١٨٩ هـ) فلم تجسر عنزة على دخولها ، وقد وقع انتصار عنزة هذا على المحفوظ السردي فيما يظن في حدود سنة ١١٦٤[١] .

وكان السردية في تلك الحقبة زعماء حلف بدوي مؤلف من عشائر تدعى (أهل الشمال) ، هي السردية والسرحان والعيسى والفحيلية[٢] . وقد ظل هذا الحلف الرباعي ضعيفاً متفككاً ، بعد أن صدمته عنزة حتى أواخر القرن المذكور ، حينما تولى قيادته مشايخ بني صخر الذين صاروا أقوى عضو فيه ، فبعد أن استعادت هذه العشائر مكانتها الأولى بهذا التحالف ، أخذت تتحدى عنزة وتغير على مواشيها وتكرهها على مغادرة براري شرقي الأردن ، وكانت الحرب سجالاً فيما يظهر ، ودامت إلى أواخر القرن الثاني عشر ، والجموع

---

(١) في مخطوط عنوانه (حوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٣٦ هـ) جمع الشيخ أحمد البديري الشهير بالحلاق الدمشقي ذكر لوقائع جرت في سنة ١١٦٠ هـ قال : وقع حرب بين بني صخر وعرب عنزة في بلاد حوران بسبب الاستيلاء على أغنام بعض القبائل .

(٢) كانت عشيرة السرحان أقوى عشائر حوران وأعظمها شأناً منذ القرن العاشر ، وقد كانت على رأس حلف عشائري كبير يدعى (أهل الشمال) ويضم السرحان والعيسى والفحيلية والسردية ويظن أن بني صخر كانت من الجملة ، وحوالي عام ١٠٦٠ هـ نازع السردية سيادة السرحان ، واقتتل الفريقان مراراً إلى أن غلبت السردية وأكرهت السرحان على الرحيل عن حوران إلى الجوف ، فانصرفوا فيه إلى الحرث والزرع ، ولكنهم ما أن استقروا مدة حتى فاجأتهم عنزة في القرن الحادي عشر ، وأرجعتهم إلى حوران فعادوا بادية ، إلى أن كان قبل الحرب العامة الماضية أقطعتهم الدولة في شرقي إربد ثلاث قرى هي المشيرفة والسويلمة والصرة فاستقروا فيها ، ويذكر بركهارت أن نساءهم مشهورات ببياض البشرة ، أما عشيرتا العيسى والفحيلية فقد اعتراهما من الضعف والانحلال أيضاً ما اعترى السرحان وبقي منها بقايا ، فمن العيسى بقايا في شرقي الأردن تتردد إلى أنحاء درعا أحياناً ، ومن الفحيلية أيضاً بقية ضئيلة في جنوبي قضاء الزوية بين سمخ وفيق .

التي تقاتل عنزة وتكرهها كانت تستعين بشيعة جبل عـامل أيضـاً ، وعشيرة عنزة التي كانوا يقاتلونها هي (الأحسنة) و (الولد علي) القـادمتـان في قيـادة آل مزيـد (أي آل ملحم) شيوخ الأحسنة ، فقد جاء في مقال عنوانـه (جبل عـامل في قرن من سنـة ١١٦٧ إلى سنـة ١٢٤٧ هـ) منشور في مجلة العرفان الصيداوية (المجلد ٢٨) عبـارة خلاصتهـا أنـه في ربيع الأول سنة ١١٩٣ هـ ركبت خيل المتـاولـة أجمع من الصقر والسرديـة وبني صخر على عرب عنزة رعية (فاضل المزيـد) فـالتقى الجمعـان ، فقتل شيخ المتـاولـة ، وسلبت العرب جميع خيولهم ، وما ألقت عليهم شيئاً يستر أبدانهم ، فمات معظمهم من البرد ، إلخ ... ويبـدو أن النصر قـد حـالف عنزة في آخر الأمر ، فـزحفت (الـولـد علي) نحـو حـوران والجـولان ، واتخذت لنفسها منازل ومقـايـظ ، وزحفت (الأحسنـة) شمالاً وبلغت ديرة الشنبل حيث المجال أوسع والمرعى أخصب ، وكانت عشيرة الموالي ذات المجد والبـأس رابضـة هنـاك منـذ قرون ، إلا أنها كانت تعبة من مدافعة شمر القادمة من نجد ، ومن مدافعـة طيء التي كانت تغير من الجزيرة ، ومن مـدافعـة بني خـالـد القـادمـة من الإحسـاء ، ممـا لا تزال قصـائـد معاركهم مع الموالي تدور على ألسنة شعراء البوادي وقصادها .

ولما بلغت الأحسنـة ديرة الشنبل ـ في حـدود سنـة ١١٧١ هـ على مـا يظن ـ اخترقت حد الموالي ، ونازعتها على مناطقها ، وأكرهتهـا على الجلاء عن مواطنهـا القـديـمة في أنحـاء سلمية ، وعلى التراجع نحو ناحيـة العلا حيث استقرت فيهـا حتى يومنـا ، كما نـازعت بقيـة عشائر ديار حمص وحماة وأخضعتها وفرضت عليها الخوة ، ثم توالت أمواج عنزة المتـدفقـة ، ونعني بها عشيرتي الفدعان والأسبعة ، وقاتلتا الأحسنة ، واحتلتا براري حماة وحلب ، وقـد عجز ولاة الترك في تلك الحقبة عن صد هذه الحركات الخطرة ، فأصبحت عنزة سيدة بادية الشام دون منازع ، حتى وادي الفرات وأطراف العراق ، وأخلت بـالأمن ، وشلت كل عمل في التجارة والنقل ، ومنعت كل عمران في القرى الشرقية .

وكانت شمر رجعت وقتئذ من نجد ثانية في نفس الوقت الـذي بلغت فيـه عنزة براري الشـام الشماليـة ، ولنفس السبب الـذي خرجت بـه عنزة وهو الجـدب والضيـق واستفحـال الحركة السعودية ، ووصلت شمر إلى منطقة الوديان ، كوادي حوران ووادي عامج ، وبدأ التزاحم بين القبيلتين العظيمتين على المراعي والمناهل ، فـاضطرت شمر إزاء خصومهـا الكثر

إلى أن تعبر الفرات ، وتنتقـل إلى الجـزيرة الفراتيـة كما فصلنـاه في بحثهـا الخـاص ، ومن ثم صارت تغير على عنزة من حين إلى آخر ، وتنتقم كلما وجدت سبيلاً إلى ذلك .

ومن وقـائـع عنزة في تلـك الحقبـة مـا جـاء في تـاريـخ حيـدر الشهـابي في أحـداث ١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ م أن جموعاً عظيمة من الفدعان والأسبعـة والعمارات وأمثـالهـا من عشـائر عنزة قدمت من نجد هرباً من الجدب والضيق ، وانتشرت في شرقي العاصي في أمـاكن تسمى الشطيب والحميدي وتل طوقان ، وأن والي الشام سليمـان بـاشـا السلحـدار خشي وقتئـذ أن يستبيحوا حمى المعمور ، فأمرهم بالخروج ، فاعتذروا وامتنعوا ، فساق عليهم جيشـاً اشترك فيه مهنـا الفـاضل شيخ عشيرة الأحسنـة لعـداء سـابق بينـه وبين الفـدعـان ، وأن المعركـة حدثت حول مياه سلمية التي كانت خراباً يبـابـاً وقتئـذ ، ووقع القتـال بينهم وبين أولئـك العربان مدة خمسة عشر يوماً ، وكانت خيالـة العربـان لابسين الـدروع وزلمهم يضربون في البارود ، وكان لهم خبرة عظيمة في ذلك وانتهى باندحار الجيش .

وفي حـــدود سنـــة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٢ م كانت فتن شمر في العراق استفحلت وأقلقت الحكومة أي إقلاق ، ورأت عجزها عن دفعهم ، فأقر والي بغداد علي باشا على أن يستدعي عنزة لتعينـه على شمر وتردهم ، فهرعت عنزة (الروالـة منهـا) بعـدد عـديـد ، جعل الوالي يستوحش منها ، ويخشى شرها وينـدم على مـا أقره ، وبعـد أن سوى هـذا الوالي أمره مع شمر ، حـاول أن يرد عنزة بحجـة عـدم لـزومهـا ، فطلبت منـه عنزة أجراً جـزيـلاً ، لقـاء ما تكبدته في زعمهـا من المشـاق في قـدومهـا ، من مكان سحيق كبـاديـة الشـام ، وضربت خيامها في ضواحي بغداد بـانتظـار ذلـك ، فـأهـاج الوالي شمراً على عنزة ، ورمى الحـديـد بـالحـديـد ، وجرت معركتـان كبيرتـان في سنتي ١٢٣٨ و ١٢٣٩ هـ ، كان النصر في الأولى لشمر ، وفي الثانية لعنزة على شمر ومعها جيش الدولة النظامي ، وراحت عنزة على أثر هذا النصر تفحش وتخرب وتحاصر بغداد إلى أن استنجد الوالي بعشائر العراق الريفية ، فنهـدت هذه لمقارعة عنزة ، ونجحت في ردها على أعقابها .

وبعـد أن استقرت عشـائر عنزة كل منهـا في ديرة ، شرعت تتنـازع وتتنـاحر على مناطق النفوذ ، وقد كان أولى ضحايا هذا التناحر عشيرة الأحسنة التي سقطت أمـام حلف الأسبعة والروالـة حول سنـة ١٢٦٧ هـ ، ثم شرعت الروالـة تنـازع الأسبعـة ، فـاستنجـدت

الأسبعة بالفدعان ، وانضوت تحت لواء عقيد الفدعان المغوار جدعان بن مهيد ، فكانت الدبرة على الروالة رغم نصرة جيش الدولة لرئيسها سطام بن شعلان .

وفي المعلمة الإسلامية في مادة عنزة أن القلاقل التي أثارتها عنزة وقتئذ في بادية الشام وطريق الفرات إلى العراق ، ودامت دهراً طويلاً ، لم تهدأ إلا بعد سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م ، وذلك على أثر التجريدات القوية التي ساقها ثريا باشا والي حلب ومدحت باشا والي بغداد ، وهما اللذان خفضا غلواء عنزة إلى حد ما ، وقالت هذه المعلمة أيضاً أن عنزة كانت في نزاع دائم مع دروز حوران ، ذلك لأن هؤلاء الدروز كانوا يردون غارات عنزة رداً قوياً ، ويشدون أزر العشائر الصغيرة (أهل الجبل) في دفاعها وغاراتها على عنزة ، ومن أجل ذلك أعانت عنزة الحكومة التركية خلال ثورة دروز حوران الكبرى في سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م .

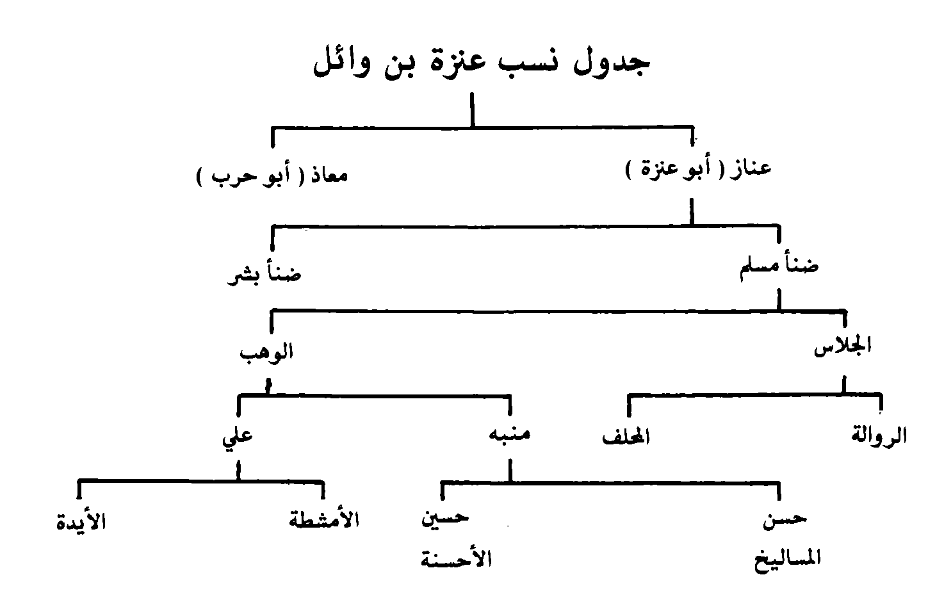
منازل عنزة : تشغل قبيلة عنزة في الشامية براري حلب وحماة وحمص وتدمر ودمشق ؛ وفي الجزيرة الفراتية براري قضاء الرقة ويصل نفوذها إلى جبل عبد العزيز والخابور من الشرق ، إلا أن هذا الامتداد تنازعها عليه قبيلة شمر ، ولبعض رؤسائها (كالأمير مجحم بن مهيد) قرى عديدة وأملاك واسعة في أنحاء حلب ، وفي الشرق الأقصى من قضاء جبل سمعان ، فأصبحت هذه الأنحاء أيضاً منطقة نفوذ لعنزة .

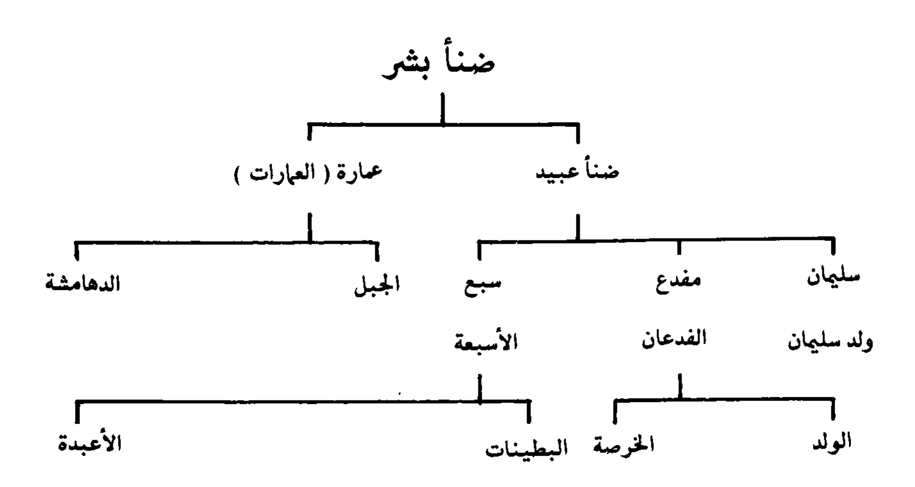
وكانت العشائر الشامية نصف البدوية كلها أو جلها تدفع الخوة إلى عنزة ، ثم انتقضت عليها الواحدة تلو الأخرى ، وتخلصت من نفوذها ، وأول العشائر التي صارعت عنزة (ونخص بالذكر العمارات) هي عشيرة العقيدات التي سنأتي على ذكرها في بحث عشائر الفرات ، ثم تبعتها عشيرة البو شعبان وهكذا ، أما العشائر الصغيرة التي لم تزل تسير في ركاب عنزة فهي : اللهيب والوهب والبو خميس والكيار والعمور والأبو جرادة وغيرها في شمالي الشام ، وأكثر عشائر ألوية دمشق وحوران وجبل الدروز وعجلون في جنوبي الشام ، ويمثل عنزة في المجلس النيابي الشامي خمسة نواب ، هم عن ضنأ عبيد مجحم بن مهيد وعبد العزيز الكعيشيش وراكان المرشد ، وعن ضنأ مسلم فواز الشعلان وثامر الملحم ، وليس لغير عنزة في بلاد الشام من النواب مثل هذا العدد ، فشمر مع أهميتها لها نائبان في المجلس ، ومن الفروق بين عنزة وشمر أن أصغر رعاة عنزة يجير على أعظم سيد من سادات

القبيلـة ، بينمـا في شمر لا يجسر أي شمري أن يجير على كبرائهم المعروفين بـآل محمـد (آل الجربا) .

هذا مجمل ما استطعنا أن نعثر عليه من تـاريخ عنزة وجغرافيتهـا في الجملـة ، على رغم قلة المصادر ، وندرة الحافظين والعـارفين لهـذا التـاريخ وأمثـالـه ، واختلاف أقوالهم ، وإلى القارئ في الأبحاث الآتية وصف خاص لكل من عشائرها التي تقـدم الكلام على تفريعهـا ، مـع مـا وصـل إليـه علمنـا واستخبـارنـا من ترجمـة رؤسـائهـا ، وسيرتهم وأثرهم في خـدمـة عشيرتهم ، ذلك لأن تاريخ كل عشيرة تابع لعمل هؤلاء الرؤساء تبعية غير منفصمة ، ويعلو هذا التاريخ بحسن هذه السيرة ويهبط بعكسها ، وفي الأسطر التـاليـة جـدول يشرح أصول عنزة وفروعها .

جدول نسب عنزة بن وائل




ضنأ بشر
ضنأ عبيد
عمارة (العمارات)
سليمان
مفدع
سبع
الجبل
الدهامشة
ولد سليمان
الفدعان
الأسبعة
الولد
الخرصة
البطينات
الأعبدة

تقسيم عنزة بحسب مواقعها الجغرافية :

عنزة العراق ـ العمارات (الجبل والدهامشة) ، عنزة الفرات والجزيرة ـ الفدعان (الولد والخرصة) ، عنزة حماه ـ الأسبعة (البطينات والأعبدة) ، عنزة حمص ـ الأحسنة ، عنزة دمشق وحوران ـ الروالة والولد علي والمحلف ، عنزة الحجاز ـ الأيدة والفقرا .

الروالة[1]

عشيرة عنزية من ضنأ مسلم ومن بطن الجلاس . وهي تعد أكبر عشائر عنزة عدداً وأعظمها قوةً ، وأوسعها جاهاً ونفوذاً لدى الحكومات والسلطات في بلاد الشام ، ولها صلات وثقى بالمملكة السعودية ولاسيا بعد المصاهرات التي جرت بين آل سعود وآل شعلان ، وهي آخر من هاجر ووصل إلينا من عشائر عنزة ، ويقال أن منها بقية لاتزال في مواطنها في شمالي الحجاز ، لذلك مابرحت أحفظ العشائر للتقاليد البدوية وأعرقها في القشافة ، وشظف المعيشة ، وأشدها تعلقاً بالأباعر والقفار ، وأكثرها توغلاً في النجعة والأسفار .

قال عنها محمد البسام المتوفى في سنة ١٢٤٦ هـ في كتابه (الدرر المفاخر) : « ومنهم الروالة شيخهم الدريعي المشهور ، وهذه القبيلة أطول باعاً في الكرم ، ورعي الذمم والمساواة للعائل ، ولارتكاب الفضائل ، والطعن في المضائق ، والضرب في المفارق ، أولئك المجد عليهم أجمل ، وأخبارهم في المكرمات أعرض وأطول ، وكل هؤلاء من بصرى إلى الشام » ، ا هـ .

وأكثر بيوت الروالة من نوع الخربوش ذي العمود الواحد ، مما يجعل لحلالهم منظراً وضيعاً ، ذلك لأنهم أهل إبل أقحاح لا يربون الغنم ماعدا فرقتي الفرجة والشعلان منهم ، وتربية الإبل تجعل أماكن نجعتهم شاسعة ، بعيدة من مفاوز الحماد ، التي لا تلائم تربية الغنم ومقدرتها ، وهو ما أبقاهم حتى الآن كما قلنا على الفطرة البدوية القديمة ، حتى أن أكثر طعامهم من التمر وحليب النوق .

---

(١) الروال في كتب اللغة اللعاب وخاصةً لعاب الخيل ، والمِروَل معناه الرجل كثير اللعاب ، ولعل كلمة الروالة تشير إلى هذا المعنى أي أنهم قوم مرولون ، ويلفظها البدو (الرْوَلَهْ) بدون لفظ اللام .

وهم فيا عدا عناصرهم الأصلية يجرون وراءهم ، ويضمون عدداً من العشائر ذات المكانة المتوسطة ، وهذه العشائر تسمى (الحلف) لأنها حالفت الروالة وأذعنت إليها في كل ظروف الحياة البدوية ، ويبسط الآن رئيس الروالة الأمير فواز الشعلان على هؤلاء الحلف أيضاً سلطته كما كان جده النوري من قبل .

ويقدر الباحثون أن عشيرة الروالة تحتوي على ٥٠٠٠ بيت و ١٠٠٠٠٠ بعير و ٥٠٠٠ شاة و ١٠٠ فرس ، وأن كلاً من البيوت المذكورة يملك بندقية واحدة على الأقل ، ولاتزال الروالة تحتفظ بعطفتها ، وهذه العطفة لا توضع إلا في بيت أشجع العشيرة وأفرسها ، وقد بدلت مكانها مرتين خلال نصف القرن الأخير .

أما تاريخ الروالة فهو كغيرها من العشائر ، طافح بأخبار البدوات والغزوات والغارات وحوادث الاغتيال ، لاحتجاب الحكم والتفرد به ، وبعد أن كانت الرئاسة في فخذ القعقاع ، تسلمها آل شعلان بالقوة ، وظلوا منذ قرن يسودون الروالة كلها ، يرافقهم التوفيق تارة ، والإخفاق أخرى ، حتى جعلوا الروالة أقوى العشائر ، وأشدها منعة وعزة ، وألحقوا بها عدة عشائر أصغر منها ، انضوت إلى لوائهم وزحفت وراءهم .

ومن دواعي الأسف أن لا يكون للروالة تواريخ مسجلة ، وذكريات محفوظة عن ماضيها ووقائعها ، كما هو الحال لدى العشائر كلها ، بحكم الأمية وفقدان التدوين ، لذلك سنكتفي هنا بقيد مابلغه علمنا واستقراؤنا في مختلف المصادر ، وسنعنى بما تم لها خاصة في قرننا الهجري الحالي .

قلنا أن الروالة وصلوا إلى بلاد الشام متأخرين ، أي بعد الأحسنة والولد علي والفدعان والأسبعة ، وكانوا في أول ورودهم يترددون بين وادي السرحان وأنحاء البلقاء وحوران ، ومازالوا يزحفون حتى استقروا في منازلهم الحاضرة ، وكانوا حين ورودهم في أوائل القرن الثالث عشر الهجري لا يستطيعون أن يمتاروا من حواضر هذه الأنحاء إلا إذا سمح لهم ابن سمير شيخ الولد علي ، لكنهم ظهروا بعد حين على الولد علي وغيرها من العشائر بكثرتهم وقوتهم ، واستطالوا إلى فرض الخوة على القرى المتطرفة في أنحاء البلقاء وحوران ، وأقلقوا الحكومات التي كانت في هذه الديار ، ومن هنا كان العداء متأصلاً بينهم وبين الولد علي إلى أن زال في عهدنا .

ذكر السائح السويسري بركهارت الروالة في سنة ١٢٢٤ هـ فقال : « عشيرة قوية كبيرة ، خيلها أكثر من كل العشائر ، وفي سنة ١٢٢٤ هـ حاربت جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف جندي أرسله باشا بغداد وغلبته ، وهي تنزل البادية الممتدة من جبل شمر قرب الجوف إلى جنوبي حوران ، لكنها كثيراً ما تذهب شرقاً نحو العراق ، وهي قد رفضت دفع الضرائب إلى رئيس الوهابية بعد أن اعتنقت مذهبه ، إن دفاعها القوي ضد باشا بغداد قد أدى للتصافي بينها وبين ابن السعود المذكور ، ففي سنة ١٢٢٥ هـ رافقت الروالة ابن السعود في غارته على حوران ، وأوصلته إلى أغنى القرى ، وفي كل ربيع تأتي الروالة وتزور ابن سمير لكي تتوسط وتحصل على إجازة من والي دمشق لشراء مؤونتها من الغلال ، وليس للروالة أي حق في قبض الصرة ، ولا شيء من قوافل العراق ، إلخ ... » .

وفي كتاب (الدرر المفاخر) للشيخ محمد البسام أن شيخ الروالة في زمنه (١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م) كان الدريعي المشهور ، والسائح الإنكليزي دوتي الذي جاء في سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م ذكر الروالة وقال : إنها أكثر العشائر عدداً ، وأشدها قوة ، وأن شيخها وقتئذ هو فيصل الشعلان ، وقد ذكرنا في بحث عشيرة الولد علي أن العداء والتناحر كانا شديدين بين الروالة والولد علي ، على أنهما من ضنأ مسلم ومن عنزة ، وذلك بسبب وقوف الولد علي في وجه الروالة ومنعها من النفوذ إلى براري حوران ، التي صارت منازل الولد علي ، منذ أن وفدوا وحصلوا عليها بالجهد والدم .

وكان التناحر على أشده بين فيصل الشعلان المذكور وخصمه محمد بن دوخي بن سمير شيخ الولد علي ، وفي معركة سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م قتل من الطرفين نحو خمسئة ، وفي سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م استعان محمد الدوخي بالقائد العثماني مصطفى باشا المرابط في اللجاه ، وانجلت المعركة عن قتل فيصل الشعلان مع ولده ، فعظمت صولة محمد الدوخي وقتئذ ، إلا أن الروالة ذات العدد الوفير استظهرت بعد وطغت ونفذت إلى أنحاء حوران والجولان ، وفي سالنامة ولاية حلب لسنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م أن شيخ الروالة عامئذ كان هزاع بن نايف الشعلان وهو أبو النوري ، ثم جاءت السائحة الإنكليزية الليدي بلانت في سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م ورددت ذكر الكثرة والقوة للروالة وأن شيخها آنئذ هو سطام بن أحمد بن منيف الشعلان ، ولسطام هذا وقائع مع بني صخر ، فقد أنجد سميه سطام بن فائز

رئيس بطن الفائز من بني صخر ، ونصره على بطن الزبن من بني صخر أيضاً وهزمهم إلى غور الأردن ، ثم كال هؤلاء له الصاع مراراً ، وغنموا منه غنائم جمة ، وقد ظل سطام رئيساً على الروالة نحو تسع عشرة سنة ، ثم مات بحلول أجله ، في موقع اسمه الشاخي وسط الحماد ، فخلفه في سنة ١٨٩٠ م فهد بن هزاع الشعلان ، ثم بعد مدة في سنة ١٨٩٤ م قتل فهد غيلة ، فقتل النوري العبد الذي قتله ، لكن هذا الاغتيال نسب إليه ، ومن ثم تقلد النوري رئاسة الروالة ، وظل فيها نحو نصف قرن (١٣١٢ هـ / ١٣٦٢ هـ) دون منازع ، وقد حفل عهده بالأحداث الجسام ، فحق لنا أن نصفه في فصل خاص ، وقد قضت الروالة القرن الثالث عشر الهجري كله في التطاحن والتناحر مع العشائر النجدية والشامية ، إلى أن دخل القرن الرابع عشر الذي لم يكن أقل من سلفه جلبة وأحداثاً ، وقد كان الروالة خصوم شمر بن الرشيد ، استخلصوا منه بقيادة نواف بن نوري الشعلان واحة الجوف ووادي السرحان وقريات الملح ، وسادوا ونعموا كثيراً ، وظل الشيخ نواف مدة مديدة يتقاضى أربعة مجيديات عن كل جمل ملح ينقل إلى جبل الدروز وحوران وشرقي الأردن ، فجمع من ذلك ثروة كبيرة ، ولكن في سنة ١٣٣٧ هـ عادت شمر واستردت هذه الأماكن منه عقيب معارك كانت الغلبة فيها على نواف ، ثم عاد الروالة بعد ثلاث سنوات ، واستردوا ما فقد منهم ، لكنها لم تبق في أيديهم أكثر من سنتين ، إذ طلبها جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عقب انتصاره في الحجاز ونجد وقضائه على بيت الرشيد فتخلوا له عنها ، ولم يبق هناك منهم سوى فرقة الدغمان التي يرأسها درزي بن دغمي ، وهي فرقة هجرت بلاد الشام منذ سنة ١٣٤١ هـ واعتنقت المذهب السلفي ، وفي سنة ١٣٤٥ هـ انفصل فخذ المشهور من فرقة الشعلان عن العشيرة ، وكان عدده زهاء ١٥٠ ـ ٢٠٠ بيت والتحق بدرزي بن دغمي ، وكان رئيس هذا الفخذ فرحان بن مشهور شاباً مسعاراً للوثوب والحروب ، انضم في سنة ١٣٤٩ هـ إلى فيصل الدويش شيخ عشيرة مطير النجدية حينما ثار على ابن سعود وأخفق ، فاضطر فرحان إلى الاستسلام للحكومة العراقية ، لينجو من ضغط الجيش السعودي ، ومازال حتى اغتيل سنة ١٣٥٣ هـ .

وحاربت الروالة أيضاً وخاصمت عشيرة العمارات العنزية حتى سنة ١٣٤١ هـ/١٩٢٣ م ، إلى أن تصالح ابن هذال رئيس العمارات ، وابن الشعلان رئيس الروالة ، بحكم اضطرارهما إلى مقاومة نفوذ الوهابيين الذي كاد يغمرها ، وكان أيضاً بين

الروالة والأسبعة عداء قديم زال في الصلح الذي قرره مؤتمر رؤساء العشائر المنعقد في حماه سنة ١٣٤٣ هـ (حزيران ١٩٢٥ م) ، لكنه تجدد بعد ثلاث سنوات عقيب غزو قام به الأشاجعة والسوالمة (أحلاف الروالة ولواحقهم) على الأسبعة ، وزاده تفاقماً هجوم مجحم الشعلان وطراد الملحم على بيوت الشيخ راكان المرشد رئيس الأسبعة ، خلافاً لعادات البادية ، واتسعت الفتنة ، وأنجد ابن هذال وابن مهيد الأسبعة ، فعم الخصام كل ضنأ بشر (الأسبعة والعمارات والفدعان) على ضنأ مسلم (الروالة ـ والأحسنة والمحلف) واستطال الشر عدة سنوات ، وقتل عدد من كبار الضنأين كسامي بن طراد السطام وهاشم أخو فارس الشعلان وعبد الكريم الملحم هؤلاء من ضنأ مسلم ، أما في ضنأ عبيد فقد قتل ابن شتيوي ، إلى أن صالحهما المفوض سامي الافرنسي ، لكن هذا الصلح الرسمي لم يقطع دابر الغارات ، وظل الكر والفر بين الروالة والأسبعة البطينات وحدهما في براري الحماد حتى شتاء سنة ١٩٣٢ م ، وخسر الفريقان كثيراً من الأنفس والإبل ، إلى أن عقد مؤتمر عشائري كبير في قرية عدرا شرقي دمشق في مضارب الأمير نوري الشعلان ، وتم الصلح نهائياً وصفا الجو بين ضنأ مسلم وضنأ عبيد صفاءً تاماً ، بفضل حكمة الأمير نوري وسماحته ، أما بين الروالة والعمارات فقد ظلت الغارات متواصلة أثناء نجعة الشتاء وداخل الحدود العراقية ، وعاقبت الحكومة العراقية الروالة وتقاضتها سبعمئة بعير .

وخاصمت الروالة أيضاً عشائر جبل الدروز والصفاة واللجاة ودام شن الغارات والنهب والسلب بين الفريقين مدة مديدة إلى أن عقد الصلح أيضاً وساد الوئام في يومنا .

ومما يذكر في تاريخ الروالة أن خديوي مصر عباس باشا الأول بن طوسون كان أرسل أحد أولاده إليهم ليتمرن عندهم على معيشة الخشونة والفروسية ، ولعله كان يرمي بذلك إلى الاقتداء بما ذكرناه عن الخلفاء الأمويين (الجزء الأول ص ٨٢) ، لكن هذا الولد توفي حينما كانوا في أنحاء بصرى حوران فأمر والده أن يدفن في مسجد مبرك الناقة في بصرى المذكورة ، وأن يرمم المسجد لأجله ، بعد أن كان خراباً فتم ذلك في سنة ١٢٧١ هـ .

والمستشرق التشيكوسلوفاكي موزيل الذي قدمنا ذكره قد عاشر الروالة وعاش بين ظهرانيهم عدة سنوات ، وسلك سبيلهم في خشونة العيش والحل والترحال ، حتى صار

يدعى بالشيخ موسى الرويلي ، وألف عنهم بالإنكليزية كتاباً جميلاً ذكرنا اسمه في بحث مكتبة البدو[1] ، وحبذا لو وجد من يعربه ليستفيد أبناء الضاد من محتوياته .

منازل الروالة - الروالة أهل إبل في الأكثر ، وحاجة الإبل تضطرهم في فصل الصيف إلى عدم النفوذ إلى المعمورة ، بل إلى البقاء في أكنافها ، ولما مال بعضهم إلى تربية الغنم صاروا يدخلون بها وبإبلهم إلى غربي درعا وإلى قضاء الزوية في حوران ، حتى وقعت في حدود سنة ١٣٤٨ هـ حادثة أخافتهم ومنعتهم من العودة إلى هذه الأنحاء ، ذلك أن قطعاناً من إبلهم وقد كانت لفرقة الكواكبة ، جفلت ذات يوم من بعض خيالة من عشيرة الدياب ، وراح بعضها يدفع بعضاً نحو أودية الجولان الغربية ، ويتساقط ويتكدس في هوة عميقة من تلك الأودية ، فهلك نحو عشرات منها يومئذ ، ومن ثم صاروا يقيظون نحو قرية عدرا شرقي دمشق ، وتكاد هذه القرية تصبح عاصمة رؤساء الروالة ، بعد أن تملكوا حول خمس مساحتها ، ودفنوا فيها عميدهم الأمير نوري ، وأهل الغنم منهم ما زال يقيظ في غربي حوران حول قرى الشيخ سعد والمزيريب ونوى وتل الجابية ، وفرقة مجحم الشعلان تتقدم إلى قضاء الزوية ، وتنتشر في قرى الجوخدار وخسفين وعال وفيق ، وبعض الروالة يذهبون شمالاً إلى أنحاء حمص حول الفرقلس وحسيه وبحيرة قطينة وأنحاء القمقوم وأمثاله من آبار سهل الدو ، أما شتاؤهم ففي الحماد (منطقة الخبرات والوديان) ، وهم يدخلون الحدود العراقية والحدود الأردنية ، ويبلغون في شرقي وجنوبي جبل عنزة وداخل الحدود السعودية خبرات البساتين والرويشيد وخفايا اللاهة والهجم والبردويل والطريفاوي ، وإذا طاب لهم المرعى وزخر الماء ربما انحدروا جنوباً ، وبلغوا حدود الجوف والنفود ، وتلتقي الفرق القادمة من حمص مع فرق حوران والجولان في القريتين حيث يكون مخيم العشيرة الكبير ، فتأتي الأولى من ناحية الفركلس وسهل الدو ، والثانية من الجولان والجيدور وضفاف نهر الأعوج وشرقي مرج الغوطة ، وتقف برهة في ضواحي قرية عدرا وفي سهل رمدان شرقي بحيرة العتيبة ، فإذا قحطت إبلهم مراعي هذه الأنحاء تقدمت نحو خان أبو الشامات وتل الدكوة وجبل سيس وتل هدلة والبساتين ، أو تقدمت نحو الضمير وجيرود والناصرية والقريتين والبصيري والهلبا والتنف والبساتين ، ومن ثم تزحف العشيرة

(١) Aloes Musil, The manners estoms of the Ravala, 1928

كالجراد المنتشر انتشاراً رائعاً يستحق النظر والتصوير ، وتتجه نحو الجنوب إلى أن تلتقي في الحماد في الأودية والخبرات التي ذكرناها ، التقاءً تختلف كثافته بين قلة وكثرة ، وفي الربيع تعود من المسلك نفسه وتتقدم نحو أماكن التقيظ التي ذكرناها رويداً رويداً ، ريثما ينتهي الحصاد والرجاد في المعمورة ، ويأمن أهل القرى على زروعهم من مداهمة إبل الرولة وعيثهم .

أقسام الرولة ـ تنقسم الرولة بادئ ذي بدء إلى أربعة بطون كبيرة وهي : الجمعان والكواكبة والقعاقعة والفرجة ، وكل واحد من هذه البطون ينقسم أيضاً إلى أفخاذ ، وكل فخذ إلى فصائل ، وكل فصيلة إلى بيوت ، أو فروع عديدة .

١ ـ الجمعان : ينقسم هذا البطن إلى أفخاذ المهنا والدرعان والدغمان والصوالحة والمرعض ، فالمرعض وهو أشهر فخذ ينقسم إلى فصائل الشعلان والسبتة والنصير والنواصرة والموسرين والعلمة ، والشعلان من هؤلاء وهم أشهر فصيلة يتفرعون إلى البيوتات الآتية : الهزاع والروضان والمشهور والزيد والمجول والمبهل والصبيح والبنية ، ولبقية الأفخاذ فروع عديدة أضربنا عن ذكرها لكثرتها ، ورئيس الجمعان هو فواز الشعلان .

٢ ـ الكواكبة : ينقسم إلى العرضان والوهيب والختام والكويكب والوكلان والخمسي والعرضان والشريفات والمدلوشة والشكير والمزاهية . ورئيس الكواكبة رفع بن عسكر الكويكب .

٣ ـ القعاقعة : وتلفظ (الكعاجعة) ، ينقسم إلى المانع والعطية والرشيد والرشيدان والغشوم والمصطفجة والحاميد والمعيرير والوقيت والجرزي والعوينان ، ورئيس القعاقعة غازي القعقاع .

٤ ـ الفرجة : ينقسم إلى الخضعان والفلتة والهطلان والبادي والسمران والسباح والمشيط والرماح والعزول والجدران والسواحلة ، ورئيس الفرجة عودة الخضع .

وبيت الرئاسة على جميع الرولة هو في فندة الشعلان من فخذ المرعض وبطن الجمعان ، وبطن الكواكبة المعدود من أقوى بطون الرولة قد بقي بين نجد والجوف ، ولا

يغشى بلاد الشام ، ومثله فعل أخيراً بطن الفرجة الذي نزح إلى نجد ولم يعد إلى بلاد الشام منذ خمس عشرة سنة . ومن الشخصيات البارزة في الروالة على ما نقله البارون أوبنهايم في كتابه البدو هي : فدعاش بن جريبة في العلمة ، وبشيتان بن بنية في البنية ، وقريص بن نصير في النصير ، وجرو بن سبتة في السبتة ، ودرزي بن دغمي في الدغمان ، وشبك بن سليمان في الصوالحة ، وظاهر بن حلاث في الهكشة ، ورشراش بن مسلط في المهنا ، ونجيم الخضعان في الخضعان ، ومغير بن غازي في الفلتة ، ومريح بن برمان في المشيط ، ورشيد بن سعدي في الجدران ، ودارك أبو سرير في السواحلة ، والمطارح بن عياط في العطية ، ومشور بن غشم في الغشوم ، وحشاش بن بطحة في اليزد ، وقعيثم بن سلامة في الجرذي ، وضبعان بن الوكل في الوكلان ، وسلمان الوهيبي في الوهيب ، وغيرهم وغيرهم .

أما رئاسة الروالة : فهي ما برحت منذ قرن أو أقل في بيت آل شعلان ، بعد أن كانت في يد آل قعقاع ، وقد تمركزت الرئاسة في آل شعلان فلا ينازعهم فيها منازع ، وبلغ من شدة النفوذ التي لرئيس الروالة أن سائر العشيرة لم يعد لها مكان خارجي إلا في بيت الرئاسة ، وقد كان الرئيس إلى عهد قريب نوري بن هزاع بن نايف بن عبد الله بن منيف آل شعلان (١٢٦٧ ـ ١٣٦١ هـ) . وقد قضى هذا الشيخ أربع وثمانين سنة حياةً حافلة بأعمال وأحداث كثيرة ، وتشبه سيرته إلى حد ما سيرة الأمير مهنا بن عيسى أمير آل فضل وكبير رؤساء بادية الشام في عهد السلاطين المماليك المتوفى في سنة ٧٣٥ هـ (راجع الصحيفة ٩٣ من بحث التاريخ في الجزء الأول من كتابنا هذا) ، وقد رافق النوري أهم الوقائع التي مرت ببلاد الشام خلال نصف قرن أو نحوه في عهد السلطان عبد الحميد والسلطان رشاد والاتحاديين ، وسامي باشا الفاروقي وجمال باشا قائد الجيش الرابع ، والملك فيصل بن الحسين ، وعهد الجنرال غورو الفرنسي ، وعهد الحكومات السورية المحلية على اختلاف ألوانها . واشتهر النوري بدرايته وحنكته البالغتين في موالاة جميع الذين تعاوروا الحكم المدني والعسكري في ديار الشام ، ففي عهد الترك كان يتقاضى لنفسه نحو نصف ضريبة الودي المفروضة على عشيرته الكبيرة ، وهذا فوق الهبات والهدايا من أشياء ونقود وفيرة كانت تصله من الترك ، إلا أن سامي باشا الفاروقي قائد حملة جبل الدروز سنة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م اعتقله مرة ونفاه إلى الأناضول ، لكنه عاد بعد مدة وجيزة وزادت منعته

وعلت كلمته من يومئذ ، وفي خلال الحرب العامة كان قائد الجيش الرابع أحمد جمال باشا ينقده نحو ٢٠٠٠٠ ليرة ذهبية في كل شهر ، ويحاول بذلك أن يستنصره ، ويشركه في حملته على قناة السويس وفتح مصر ، لكنه لم يوفق لجذبه كما أراد ، وكان الشيخ نوري رأى هبوب ريح الغلبة نحو الإنكليز ، فانحاز في أواخر الحرب المذكورة إلى جانبهم ، وصار يحتجن منهم مبالغ طائلة ، فاقت منح جمال باشا ، وغطت على زيارته له في مضاربه ومحاسنته إياه ، واجتمع بعد حين بلورنس الإنكليزي نافخ ضرام الثورة العربية وبالشريف تسنح له الفرصة . ولما شرع الجيش التركي بالتقهقر من جنوبي بلاد الشام وصار الجيش العربي الفيصلي يتقدم ، مشى النوري وشارك هذا الجيش مع بعض أتباعه من خيالة الروالة وغيرهم إلى أن دخل دمشق في أيلول سنة ١٩١٨ م/١٣٣٧ هـ على أثر جلاء الترك ، وكان المرحوم الملك فيصل يمنحه في كل شهر فيما قالوه نحو ٣٠٠٠ ليرة ذهبية ، وهذا غير المنح الجسيمة التي كان يستدرها منه من حين إلى آخر ، وغير ما كان يجنيه من أحمال الملح الخارجة من قريات الملح حينما كانت في حوزته ، ومن هذه وتلك عد النوري من عظماء المتمولين ، وكان يحضر المجالس المنعقدة أمام المرحوم الملك فيصل واللجان الأهلية المجتمعة لمعالجة القضية الوطنية ، والمذاكرة في دفع خطر الجنرال غورو الفرنسي عن الدولة السورية الناشئة في سنة ١٩١٩ م/١٣٣٨ هـ ، ولما نفد المقدور واحتل هذا الجنرال مدينة دمشق في سنة ١٩٢٠ م/١٣٣٩ هـ زاره النوري وقدم له سيفاً عربياً جميلاً ، وقال له (في رواية صاحب جريدة ألف باء ـ أنا نصحت فيصل ما سمع ، ترى العقل زين) .

وبعد أن تم الاحتلال عقد الشيخ نوري مع المندوب الفرنسي الكولونيل كاترو اتفاقاً تعهد فيه بحراسة طرق القوافل في البادية ، وحماية السكان الحضر ، وتأمين السلام بين العشائر ، وتجنيد قوة من خيالته أو هجانته لقاء تأييد رئاسته على الروالة وتوابعها ، وعشائر جبل الدروز وحوران ووادي السرحان ولقاء ألفي ليرة ذهب عثماني راتباً شهرياً ، ولقب في ذلك الحين بالأمير ، ولما اشتعلت الثورة الشامية الكبرى سنة ١٩٢٥ م وما بعدها ، أبرق النوري إلى المفوض السامي الفرنسي يستنكر هذه الثورة ويعرض ولاءه ومعاونته ، (تقويم البشير لسنة ١٩٢٩ م ص ١٨٣) ، وقد ظل على هذا الولاء طيلة انتداب الفرنسيين .

ومن أجل ذلك كان يلقى منهم أكبر رعاية وأجمل حرمة فوق كل رؤوساء البادية ، ومنحوه في سنة ١٩٢٧ ، وسام جوقة الشرف من درجة فارس ، ثم رفعوا هذا الوسام إلى درجة كوماندور ، وجعلوا الأمير نوري ممثلاً لعشيرته في جميع المجالس التمثيلية والنيابية في دمشق ، ورفهوه إلى حد جعل جريدة ألف باء في العدد المؤرخ في ٢٤ تموز ١٩٣٠ ، تشكو سياسة الفرنسيين في إعزاز البدو وتدليلهم ، وجموح هؤلاء واستصغارهم شأن الحكومات المحلية والأهلين ، وتقول في الأخير (حتى صار يخيل للشيخ نوري مثلاً ، أنه لا يقل مركزاً عما كان عليه قنصل روسيا في دمشق في عهد الدولة العثمانية ، يوم كانت هذه الدولة في أوج عظمتها ، وحتى صارت سيارته ترفع علماً ، فلا يجسر على توقيفها وتفتيشها المأمورون أثناء خروجها ودخولها الخ ...) . وقد أوثق النوري في أواخر أيامه صلته بجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، فزوجه حفيدته ، ابنة نجله الأمير نواف المتوفى ، وكان يلقى من جلالته حفاوة كبيرة كلما زار مكة أو الرياض ، وبهذه المصاهرة ازداد نفوذه ونفوذ آل شعلان كثيراً ، والأمير نوري رغم أساريره المهيبة ووجهه الملثم في الأكثر إلى حد عيونه الرهيبة ، كان في ساعات أنسه جميل المحاضرة محب للدعابة يقرض الشعر البدوي ، وله قصائد في شرح ما عاناه من الجهد في حياته الشاقة الطويلة ، وكان يكثر للفرنسيين وغيرهم من الأجانب الحفلات الساهرة والولائم الفاخرة تارةً في داره الكبيرة في حي الشعلان الذي ورث اسمه ، وهو في غربي صالحية دمشق ، وتارة في مضاربه في البادية ، وقد ظل في أواخر عمره في داره المذكور متقاعداً لا يبرحها إلى البادية إلا في الأقل ، وانقلب صالحاً تقياً محبوباً بعد أن كان في شبابه مرهوباً ، وعهد بإدارة مخيمه الخاص إلى حفيده فواز بعد أن فجع في سنة ١٩٢١ م بولده نواف أبو فواز ، ولما توفي في ٢ تموز سنة ١٩٤٢ م (١٣٦١ هـ) احتفل الفرنسيون بجنازته ، ونقلوه بسيارة عسكرية إلى مدفنه في قرية عدرا المذكورة .

وكان الأمير نوري فوق حنكته في موالاة حكام البلاد وذوي السلطان النافذ فيها من وطنيين وأجانب ، يحسن قيادة البدو وإدارتهم إلى أبعد حد ، وكان صارماً في فرض جاهه ونفوذه عليهم ، وفي فض خلافاتهم ومشاكلهم ، والوقوف كحكم غير مردود الكلمة بينهم ، وكانت أحكامه تنال أجوراً باهظة ، سئل أحد الرواة وهو يحتضر ، ماذا تقول إذا

جاءك منكر ونكير ؟ فقال : ويش مدريني ، النوري يسولف عني ، أي لا أعلم ، النوري يجيب عني ، وفي هذا دليل على ما كان له من النفوذ البالغ على جماعته ، وقد فعل في آخر عمره من المبرات مسجداً صغيراً شاده لصق داره في دمشق ، وسبيلاً من ماء الفيجة جعل اسمه يتردد بالرحمة ، كما تعلق أيضاً بالزراعة وامتلاك الأرضين فاشترى قسماً من قرية عدرا التي دفن فيها ، واقتنى مزارع في حوران في قرية الشيخ سعد ، وفي البادية في مكان جنوبي تدمر ، وفي السكري والباردة والبصيري شرقي القريتين ، واستأجر من أملاك الدولة أرضين في محافظة حمص في موقعي أبي قاطور وجب حبل في شرقي جبل الشومرية .

وفي كتاب (بادية العرب) للمستشرق الشكوسلوفاكي موزيل الذي قدمنا أنه كان عشير الروالة وصديق الأمير نوري الشعلان ، فصل رأيناه جديراً بالنقل هنا ، لعلاقته بترجمة هذا الأمير ، وبذكر بعض ما جرى له خلال الحرب العالمية الماضية ، (عن تقريظ كتاب موزيل لأمين الريحاني في مجلة المجمع العلمي مجلد ٢٨ ص ١١٨) : قال :

« في الرحلة الثالثة (١٣٣٢ هـ/١٩١٤ م - ١٣٣٣ هـ/١٩١٥ م) حينما جاء الأستاذ موزيل دمشق كان نوري الشعلان معتقلاً في الضمير ، فتوسط لدى الحكومة التركية من أجله ، فأطلقت سراحه بعد أن تواعدت وإياه على الجهاد والحملة على مصر وحرب الإنكليز ، وعدها النوري وعداً كان الشوق إلى البادية أكبر ما فيه ، وأسرع بعد ذلك بالرحيل ، دون أن ينتظر صديقه ومنقذه الشيخ موسى ، فسافر الشيخ موسى وهو ينشد شيخ مشايخ الروالة ، وظل يطوي عشرين يوماً في البادية قبل أن يظفر به في مخيمه بخبرة الهجم جنوبي اللاهة في قلب الصحراء (داخل الحدود السعودية) . وقد جاء الشيخ موسى كمندوب عن الترك والألمان لنصح النوري والروالة وعشائر البادية الأخرى بأن يثوروا بنادقهم على الإنكليز بدل أن « يثوروها » بعضهم على بعض ، وكان الأمير نوري قد خرج من دمشق والحكومة تظن أنه سيسعى والشيخ موسى لإنجاح المشروع ، ولم تعلم أن البدو قلما يفتحون قلوبهم في غير البادية ، وكانت قافلة الشيخ موسى هي ضعف ما كانت عليه في سفرته الأولى ، وفي أحمال الهدايا لشيوخ البدو .

وما أجمل ما كان من استقباله في مخيم النوري ، جلس أخو العرب الشيخ موسى إلى

يمين الأمير ، وكان في سلامه وفي شوقه وفي أسئلته كواحد من العرب بل كواحد من بيت الشعلان ، وقد حزن حزن واحد منهم عندما سئل عن بعض أصدقائه الغائبين وسمع الجواب :

« وممدوح بن سطام ، وعذوب بن مجول ، وسعود بن الأمير نوري أين هم ؟ فأجاب الأمير بكلمة واحدة (راحوا) . ثم أخبر أخاه الشيخ موسى كيف قتل عذوب في الغزو ، عادت فرسه ملطخة بالدم ، وكيف قتل ممدوح في غزوة بعض عربان شمر نجد ، غزاهم بالنفود ، فغنم جمالهم ، وغرّب هارباً ورجاله ، فكمن له العدو ، ووقع ممدوح بيد الشمامرة في شعيب العاه ، جانا بخبره من نجوا وحنا بتل العامود ، وابنه سعود ذهب فريسة الغدر ، قتله كلاب بن جازي عند ملتقى وادي النعيم بوادي السرحان شمالي قراقر ، جاؤوه غادرين يقولون : أنهم بإمرة عودة أبي تايه - وعربان ابن جازي يلبسون مثل عربان عودة - فصدقهم سعود ، وأنزلهم عليه فغدروا به ، ثوروا البنادق مفاجأة على سعود ورجاله فقتلوه وقتلوا معه أربعة ، وشردوا ، ولكن الباقين من رجالنا لحقوا بهم ، فأدركوهم صباح اليوم الثاني وساقوهم إلى المكان الذي سال فيه دم سعود ، فذبحوهم ورؤوسهم إلى القبلة ذبح النعاج » .

وظل النوري يتدرع بالسياسة ، ويتملص من الاشتراك بحملة مصر إلى أن ظهر في الحجاز الكولونيل لورانس ، فغلب الحصان الإنكليزي النسر الألماني ، وظفر لورنس بما لم يظفر به الشيخ موسى ، فجمع شمل العربان وفي مقدمتهم الروالة والحويطات وضمهم تحت لواء الشريف ولواء الحلفاء ، وكان الفضل الأكبر في فوزه للذهب الإنكليزي الوهاج ، إلخ ... » ، ا هـ .

هذا وقد أنجب الأمير نوري ابناً اسمه نواف ، كان عقيد الحرب في الروالة ، ومحبوباً للغاية لشجاعته وأريحيته وتقواه ، ومعرفته بشؤون البادية ، وكان قد ورث جاه أبيه وحرمته من قبل ، إلا أن صحته كانت مختلة ، فمات في سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ م في القريتين ، ودفن فيها ، وأعراب الروالة كلما مروا بالقريتين يشترون حلواء ويهرعون إلى ضريحه ويخاطبونه قائلين : (يا شيخ نواف تراها ما من قيمتك) ويزدردون الحلوى

ويرجعون ، وكان لـه عـدة أنجـال بقي منهم الأمير فواز ونـايف ونواش ، فنواش مـع بـدو الروالة دائماً ، ونايف أمه بنت سطام الفائز وأخت مثقـال الفـائز شيخ مشـايخ بني صخر ، وهو موظف عند جلالة ابن السعود .

وأمـا الأمير فواز الـذي أمـه بنت سطـام الشعلان ، فهـو عصري مـدني في معيشتـه ، حسن الطلعـة ، أنيـق البزة ، ورث عن جـده رئـاسـة العشيرة العظيمـة والثروة الجسيمـة ، والنبـاهـة والحرمـة البـالغـة لـدى العرب والفرنج ، في بـلاد الشـام وغيرهـا من البـلاد التي يزورها ، فقـد زار الحجـاز ومصر وأوروبـا مراراً ، كما زار في عـام ١٩٤٦ م أمريكا يرافقـه الأمير فاعور الفاعور وعلي بك الأطرش ، فلقي هو ورفيقاه احتفاءً وترحـابـاً كبيرين من الأمريكان ، ولا سيا من الجـوالي العربيـة التي كانت تتقـاطر من كل الـولايـات المتحـدة لرؤيتهم وإكرامهم ، والأمير فـواز ذو قـدر كبير عنـد الشخصيـات الأجنبيـة من فرنسيين وإنكليز الذين يترددون عليه ، فيقيم لهم الولائم والحفلات في مضاربه الفخمة في قرية عدرا أو في وسـط الصحراء ، فيرون عنـده من بـذخ الإمـارة وكرم البـداوة ، وجمـال المضـارب والصحـاري وروعتهـا ، مـا يـدهشهم ويطلق ألسنتهم بـالإشـادة ، وأقـلامهم بـوصف هـذه المشاهد والذكريات العربية ، وتسجيلهـا في مختلف الصحف والمجلات المصورة وغير المصورة في أوروبا وأمريكا .

نسب آل الشعلان : الجد الأعلى شعلان ومنه منيف ، ومن منيف عبد الله ومشهور ، ومن عبد الله زيد ومجول وعبد الله ، ومن مجول جاء عويديس ومنه سالم ومنه حجر ومنـه فرحان ، ومن عبد الله جاء طلال وفيصل ونايف وبرجس ، ومن نـايف جـاء فواز وهزاع ومحمـد ، ومن هزاع جـاء كردي ومشحن ونوري وفهـد ومشعل ومحمـد ، ومن كردي مشرف ومتعب ، ومن مشرف بن كردي سلامـة وعـافت ورافع ، ومن مشحن بن هزاع جـاء صقر وجـدعـان ، ومن نوري بن هزاع جـاء خفـاجي وسعود ونواف ومن نواف بن نوري جـاء لـورنس وسعيـد ونـايف وفـواز (الأمير الحـالي) ونـواش ، ومن الأمير فـواز متعب ومحمـد وسلطان ونواف ونوري . ومن فهد بن هزاع جاء فـارس وحـاجم ومجيـد ، ومن مشعل بن هزاع جاء بندر ومن محمد بن هزاع جاء مناور ومجحم ، ومن مناور متعب ومن مجحم محمد وتركي .

أما مشهور بن منيف بن شعلان فقد أعقب الدريعي ومنه الحميدي ومنه أمهورة وساحم ، ومن أمهورة سطام ومنه خالد وطراد وممدوح ومشعل ، ومن طراد بن سطام جاء لورنس وحمود ، ومن لورنس منصور ومنيور ، ومن ساحم بن الحميدي جاء فهد ومنه فرحان الذي قتل سنة ١٩٣٥ م ، وهذا ما استطعنا جمعه في هذا النسب فإن كان هناك زيادة أو نقص فالعهدة على الرواة .

المْحَلَف

بتسكين الميم وفتح الحاء واللام ، هؤلاء هم الفرع الثاني من عشائر الجلاس ومن ضنا مسلم ، وفي هذا الفرع ثلاث عشائر صغيرة تعد من لواحق الفرع الأول ونعني به الروالة ، وهي تذعن برمتها إلى الأمير فواز (وقبله جده نوري) وتتبع سياسته ، قيل إن سبب تسميتهم بالمحلف « الامْحَلَف » لأنهم تحالفوا أن يكونوا مع الروالة على أخصام ضنا مسلم . وهؤلاء هم :

الأشاجعة

عشيرة صغيرة عددها ٥٠٠ بيت وليس لها تاريخ خاص ، بل هي كانت وما برحت من أتباع الروالة في وقائعها ، وقد تبعثرت هذه العشيرة فلحق قسم منها آل الشعلان مباشرةً ، وذهب قسم آخر إلى شرقي الأردن ، أما فرقها وشيوخها ، الخليفات لخنيفس بن سكين ، والبلاعيس لجديلان بن بديم ، والبدور لمنيطر الشوتي ، والمهيوب لعلوش الكوسان ، وكل هؤلاء مخاتير بمعية آل الشعلان ، وقد كانت رئاسة الأشاجعة لعهد قريب في يد فرحان بن جاسم بن فارس بن حمود آل معجل من فرقة الخليفات ، لكن سوء إدارته ومرضه وتردده بين المنطقتين الشامية والأردنية ، أدت إلى عزله ونصب ابن عمه مطرد آل معجل مكانه ، وربما لم يدم هذا أيضاً وتلتحق العشيرة بالأمير فواز بتاتاً .

يقيظ الأشاجعة في حوران ، وخاصةً في غربي قضاء درعا . فإذا قضوا على مراعي هذه الأنحاء انتقلوا إلى المرج (قضاء دوما) حول قرى تل مسكن والغزلانية والهيجانة ، أما



الأمير نوري الشعلان في مضاربه وحوله بعض حفدته وذوي قرابته وحاشيته



الأمير فواز الشعلان رئيس الروالة

في النجعة فيلتحقون بالروالة بنفس المراعي والمناهل في الحماد حول جبل عنزة ، والغنامة منهم يبلغون حرة الراجل ووادي السرحان ، ولا يتورعون عن شن الغارات على عشائر جبل الدروز التي تنجع تلك الأماكن أيضاً .

السوالمة

عشيرة صغيرة عددها ٢٠٠ بيت ، ويقال عن تاريخها مثلما قيل عن الأشاجعة ، أي أنهم أتباع الروالة في أحداثها ، وهم أيضاً مبعثرون ؛ فالقسم الأكبر منهم مع آل شعلان ، والقسم الأقل في شرقي الأردن ، ولا يعد رئيسهم إلا مختاراً في معية الأمير فواز ، وفرقهم التي لا رابطة بينها هي : الفراهدة والملهاج والهليبي والجندل ، ورئاسة الجميع في بيت جندل المعروفين بأنهم من بيوتات عنزة الرفيعة النسب ولو أن الدهر قد أخنى عليهم ، وكان لهذا البيت صداقة قديمة مع أهالي دير الزور ، وكان أهل المهن والتجارة قديماً في مدينة الدير يقصدون دمشق في حماية ابن جندل من بين عشائر ضنأ مسلم كلها ، والرئيس الحالي هو عافت بن جندل ، إلا أنه قد هجر عشيرته ، وقطن في قرية جيرود ، وشرع يعمل في زراعة أرض صغيرة قيل : أن أغوات الجواردة أهدوها له ، بحكم قرابتهم المزعومة مع آل جندل ، فانتقلت الرئاسة الفعلية بذلك إلى خالد بن جندل ، وتعد السوالمة كالأروالة من أهل الإبل ، وهم يقيظون في أنحاء بير القمقوم وبير جحار وبير جزل في براري حمص ، ثم ينتقلون إلى حوران والجولان ، وفي الخريف إلى مرج الغوطة حول قرية العتيبة ، أما في النجعة فهم كالأشاجعة ، أهل الإبل في الحماد مع الروالة ، وأهل الغنم في حرة الراجل ووادي السرحان ، وإذا كانت المراعي مبذولة في البادية لا يدخل هؤلاء ولا الروالة المعمورة ، بل يبقون حول آبار بادية حمص المذكورة .

العبد الله

وتلفظ لفظة الجلالة برقة زائدة ، عشيرة صغيرة ، عددها ١٥٠ بيتاً ، ويقال عن تاريخها مثلما قيل عن الأشاجعة والسوالمة ، بل إن هذه العشيرة قد تشتتت أكثر ولحق كل جمع منها بفرقة من ضنأ مسلم ، فأصبحت العشيرة معدومة الوحدة والرئاسة ، وتوشك أن

تنقرض من الوجود ، وكان رئيسها جدعان المجيد سيء الإدارة ، يتقاضى ضريبة الودي المفروضة على عشيرته أضعافاً مضاعفة ويحتجنها لنفسه ، وقد أدى ذلك لامتعاض عشيرته وانفضاض فرقها من حوله ، ولحاقها بعشيرتي الروالة والأحسنة ، ولهذا فقد اضطر جدعان إلى الهجرة والانخراط في الجيش الأردني برتبة عريف ، أما فرق هذه العشيرة فهي : الناجي والحرزة والمشاخرة والشاهين والقشوش .

ننتقل الآن إلى وصف العشائر الصغيرة الموجودة في قضاء دوما ، وهي تعد من العشائر الغنامة ، أما أسماؤها فهي : الجملان والصياد وحرب والعقيدات والغياث ، وهاكم بحثها بالتتابع :

الجملان

الجملان أكبر عشائر الديرة في قضاء دوما ، وهي عشيرة وديعة ، وعلى صلات حسنة مع كل العشائر ، لأنها في حصانة أي لا تغزو ولا تغزى ، لاعتقادهم بشرف محتدها ، فهي تدعي الانتساب إلى الأشراف ، وإلى جد اسمه الشيخ جميل ، وأنها بعد أن نزحت من قلب الجزيرة إلى سقي الفرات ، في زمن لم تعد تذكره ، لم تقو على مناهضة عشائر تلك الأنحاء ، فجاءت إلى ديار حماة ، واستقر قسم منها في شمالي سلمية حيث لا يزال ، وسيأتي ذكره في بحث (عشائر محافظة حماة) ، واستمر القسم الآخر في طريقه إلى دمشق ، ونزل في شرقي مرج الغوطة ، وأكثر الجملان رحالة وشركاء الدمشقيين في تربية الغنم ، وبعضهم حراثون أو أجراء حراثة ورعاة بقر ، وهم يقيظون حول قرى المرج الجنوبية كقرحتا والغزلانية ، أو حول القرى الشرقية كالعتيبة والعبادة وحران العواميد والكفرين وجديدة الخاص والهيجانة والبيطارية ، وفي الشتاء يبلغون في نجعتهم شمالي حرة الصفا وديرة التلول إذا كانت السنة مقبلة ، أو يبلغون في الحماد جبلى اللاهة وعنزة وخبرة رمانة إذا كانت السنة مدبرة ، وعدد بيوتهم نحو ٢٥٠ وعندهم نحو ٦٠٠٠ شاة أكثرها للدماشقة ، وفرقهم : الجسيم والحمود والعودة والشواحنة والجلاغمة والضواهرة والناصر والشمالات ، وشيخهم ضاهر المسعود آل حمد ، وهو من فرقة الجسيم التي في يدها الرئاسة منذ القديم ، وهو ذو نفوذ في عشيرته ، وله ثلاثة أولاد مسعود ومحمد وأحمد . وللجملان دمشق بعض قطع أراضي في مكان

اسمه خربة الشقرانية شرقي قرية بلاي التابعة قضاء إزرع ، كما أن منهم زرافات في حوران ، وآخرين في الجولان غربي القنيطرة ، وفي قرية صبورة من قضاء قطنا ، وللضواهرة منهم مزرعة باسمهم في المرج جنوبي القصير .

الحمامرة

الحمامرة من فرق النعيم المنفصلة ، عددهم ٣٥ بيتاً ، ينزلون قرى حوش خرابو والبلالية والقاسمية ، شيخهم بركات الكحلان ، وهؤلاء يؤثرون العزلة ، ويجتنبون الاتصال مع البدو والحضر ، ويحافظون على تقاليدهم البدوية .

الحسيكات

الحسيكات من فرق النعيم المنفصلة ، عددهم ٤٠ بيتاً ، ينزلون شرقي عدرا في أراضي المعيصرة ورمدان ، جاؤوا منذ نصف قرن لهذه الأراضي ، وقد يبلغون شمالاً قضائي القطيفة والنبك ، شيخهم فنخ ، بنوا بيوت مدر وقطنوها ، وانصرفوا للحرث والزرع مع تمسك بالتقاليد البدوية .

الوهيب

الوهيب لعلهم من فرق النعيم المنفصلة أيضاً ، عددهم عشرة بيوت ، وهم أقل الفرق مالاً ورجالاً ، أخنى عليهم الدهر حتى أصبح أكثرهم أجراء عند فلاحي قرى المرج ، شيخهم حسان المحيلي .

الصياد

الصياد عشيرة صغيرة مستقلة وإن عدهم البعض من فرق النعيم ، عددهم نحو ٨٠ بيتاً ، وهم مثل الجملان في حصانة ، أي لا يغزوهم أحد . وقد ذكر الشيخ أبو الهدى الصيادي نديم السلطان عبد الحميد في رسالته (الروض البسام) المطبوعة في سنة ١٣١٠ هـ أنهم شرفاء ومن أعقاب السيد فاتك الحسني ، وذوو شهرة في بوادي دمشق ، ونحن نستغرب هذه الدعوى ، وكيف ينقلب الأشراف الحضر بدواً ورعاة ، وهم منتسبون إلى الطريقة

الرفاعية ، ومن ثم يعمل بعض أفرادهم بالمخرقة بين البدو والفلاحين ، فيداوون المرضى بداء الكلب أو العته أو الفالج وما إليه ، وعيشتهم بدوية صرفة ، وهم محتفظون بالتقاليد البدوية ، وأكثرهم أصحاب ماشية وشركاء الدماشقة في تربيتها ، وإذا نجعوا يبلغون نفس الأماكن التي تبلغها الجملان في الحماد ، ومنازلهم في المرج نفس منازل الجملان ، ولا سيا حول قرية العتيبة في موقع يدعى الخزّار ، وفرقهم السليم والأبو حمد والبكار والبريدات والرملة والحمادة والعبد الرزاق ، وشيخهم فواز السليم .

حرب

حرب من فرق النعيم المنفصلة ، انفصلوا منذ أمد بعيد ، واستقروا في الغوطة حول حوش البحدلية ، وقرى شبعا وسكاء والغزلانية ، واشتركوا برعي غنم هذه القرى وغيرهم ، وهم لا يبعدون عن منازلهم هذه إلا قليلاً ، وربما بلغوا حول بحيرة الهيجانة فقط ، وفرقهم السمير والأبو شجر والخالد والراضي ، وعددهم نحو ١٥٠ بيتاً ، وعندهم نحو ٥٠٠٠ شاة و ٢٠٠ بعير ، وشيخهم فارس الحسان وعلي الدلي ، وفي محافظة الجزيرة عشيرة صغيرة أخرى اسمها (حرب) تزعم الانتساب إلى قبيلة حرب الحجازية ، ولم يتحقق لنا إذا كانت قريبة (حرب) الدمشقية أيضاً .

عقيدات الغوطة

عقيدات الغوطة أصلهم من سقي الفرات من عشيرة العقيدات الكبيرة التي تشتتت كثيراً ، وسيأتي ذكرها في بحث : عشائر محافظة الفرات ، وهؤلاء الذين في قضاء دوما لا يعرفون متى جاؤوا إلى منازلهم الحالية ، وكيف جاؤوا ؟ ومنازلهم الآن هي في شمالي المرج ، حول قرى عدرا وميدعة وحوش الفارة وحوش نصري وتل الكردي وحزرما . يرعون ماشية هذه القرى ، ويؤجرون أنفسهم أحياناً للحرث والحصاد والرجاد ، أما نجعتهم فقصيرة لا تتعدى الضمير ، وربما بلغوا بحيرة الصيقل وخان المنقورة والسبع آبار فقط ، وعددهم نحو ٤٠٠ بيت ، وعندهم ١٢٠٠٠ شاة نصفها للتجار الدمشقيين و ٣٥٠ بعيراً ، أما فرقهم وعدد بيوتها فهي الضامن ٢٠٠ والحمودي ٥٠ والمعاضيد ١٠٠ والمشاهدة ٢٥٠ ، وثمة فرقة حمد إدريس المستقلة عن الجميع .

ففرقة (الضامن) تنزل نهر الميدعاني ، وشيخها ممدوح الجاسم أكبر شيوخ العقيدات جاهاً ونفوذاً على الجميع ، وهذه الفرقة تمتاز بأخلاقها وثروتها ودأبها وراء الكسب عن طريق التجارة بالماشية ، ولا يوجد فيها رجل عاطل عن العمل إلا العاجز المعدم الذي يتسابق أغنياؤها لإعانته ، وفرقة (المعاضيد) تنزل حوش الضواهرة وحوش نصرى ، وشيخها جاسم المحمد ، إلا أنها ثابتة في منازلها لا تفارقها إلا في أيام النجعة إلى الشرق ، وفرقة (المشاهدة) تنزل تل الكردي وشيخها محي الدين العون ، وفرقة (حمد إدريس) تنزل قرية عدرا ، وشيخها كامل الفارس وقد تحضرت هذه الفرقة وسكن كثير منها بيوت المدر ، على أنها لا تزال محتفظة بعاداتها البدوية ، ومثلها في هذه الحالة فرقة المشاهدة .

الغياث

في أقصى الجنوب الشرقي من قضاء دوما وعلى بعد سبعين كيلومتراً عن دمشق حرة بركانية تدعى الصفا ، شديدة الوحشة والوعوثة والجدب ، إلا أنه في جنوبها سهل يدعى الرحبة وافر الخصب والعشب ، وينزل في حرة الصفا وسهل الرحبة أعراب يدعون الغياث أو عرب الصفا ، يقال أن أصلهم من عشيرة العمور ويقال من شمر ، انفصلوا قبل قرنين بغية النزول في الصفا والرحبة ، وهؤلاء قليلو الظعن ، يقيظون في المنحدرات الشرقية من جبل الدروز الشمالي ، ويشتون في سهل الرحبة ، وهم يزرعون هذا السهل الفسيح المنقطع النظير في زكاء تربته التي تخصب بانصباب أودية جبل الدروز عليه ، والغياث على ما وصفهم البارون أوبنهايم يختلفون عن بقية البدو بجهومة وجوههم ، وبصيص عيونهم ، ونحولة أبدانهم ، ورفع أعناقهم ، ورثاثة ملبسهم ، وقذارتهم ، وعري رؤوسهم ، وتشعث شعورهم ، وهم فتاكون سلّابون من الطراز الأول .

وعشيرة الغياث كغيرها لا يعرف من تاريخها سوى ما تلوكه ألسنة البدو ويقصونه ، وخلاصته أن هؤلاء منذ قدومهم اعتصموا بحرة الصفا وبحرة الراجل التي في جنوبها ، وهما أمنع ملجأ وأعسر ملاذ إذا ما تغللوا فيها ، فتعجز كل قوة عن اللحاق بهم والعثور عليهم ، وتاريخ هذه العشيرة سلسلة متصلة الحلقات من الفتكات والغارات التي كانت تبقى دون عقاب ، وكانت شرورهم وفظائعهم في الماضي تصل إلى قرى الغوطة

وجبل قلمون وجبل الدروز ، وإلى القوافل السائرة بين دمشق وتدمر والعراق ، وحتى إلى العشائر المجاورة دون أن يستثنوا عنزة ذات الطول والحول .

وقد كانوا في الماضي يعيشون في الصفا مستقلين كل الاستقلال ، ولم يحاول الترك في عهودهم الأولى اقتحام الصفا والضرب على أيديهم ، ولا فكروا في بناء مخفر وإقامة درك بين ظهرانيهم ، كما عمله الرومان في القصر الأبيض المبني وسط سهل الرحبة . فالترك لم يبعدوا في حراسة البادية عن الضمير ، إلى أن انتبهوا لهذا الأمر في القرن الماضي ، فجاؤوا في حدود سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م إلى الشيخ عياش النعير رئيس فرقة النجاد من العمور (عمور الديرة) - وقد كان له في هذه الأنحاء النائية حرمة واسعة - وكلفوه أن يجهز سرية متطوعة من الفرسان ، ويتعهد بحفظ الأمن ويرد عيث الغياث عن حدود الصفا ، فأقام هذا الشيخ في الخان المسمى باسمه وهو شمالي قرية عدرا على يمين طريق السيارات إلى حمص ، ووطد الأمن بنفوذه الشخصي لا بقوته القليلة ، وظل على ذلك إلى أن مات في سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م . ولم تكلف الدولة أحداً غيره بتلك المهمة وأهملتها ، فاهتبل الغياث هذه الفترة وظلوا بعده سنيناً عديدة ينعمون بأبعد حدود السلب والنهب ، إلى أن جهزت الدولة في سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٧ م حملة كبيرة بقيادة اللواء الدركي المغوار المرحوم خسرو باشا الشركسي ، المشهور بمساعيه في توطيد أمن البادية ، كان دليل الحملة أحد أبناء النعير ، فبلغت سهل الرحبة وفتكت بالغياث في حاوي الصفا ، فتكة قوية وصادرت ماشيتهم كلها ، وأخضعتهم إخضاعاً تاماً ، وخلال الحرب العامة الماضية بدا للدولة أن توطد الأمن على النحو الذي سبق ، فكلفت الشيخ خلف بن عياش النعير الذي ورث في هذه الأنحاء ما كان لأبيه من النفوذ ، فجهز هذا الشيخ الهمام سرية على غرار أبيه ، ووطد الأمن توطيداً كاملاً ، وظل على عمله في عهد المرحوم الملك فيصل أيضاً ، وكان الأمن يستتب بنسبة نمو الأعطيات المخصصة للشيخ خلف ويقل كلما ضئلت .

ولما دخل الفرنسيون في سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢٠ م) لم يكلفوا الشيخ خلف بتلك المهمة ، ففض سريته ، وعاد الغياث لديدنهم ، فساق الفرنسيون عليهم قوةً من الهجانة في سنة ١٣٤٢ هـ (آذار سنة ١٩٢٤ م) يعضدها مدفع جبلي وسيارات رشاشة ، وضربتهم على مقربة من جبل سيس ، وكبدتهم عشرين قتيلاً ، لكن هذه الضربة والضربتين اللتين

أعقبتها خلال ثورة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) لم تؤثر ، وظل الغياث يقطعون الطريق على السيارات العاملة بين دمشق وبغداد ، ونهبوا مرة بريد بغداد وفازوا بثلاثين ألف دينار ، وانضم إليهم زرافات من النجاد والربيدات والبدور الذين هم من فرق العمور . وعقدوا اللواء للشيخ خلف العياش النعير القائد المغوار ، ثم اشتركوا بالثورة السورية وصاروا يؤوون العصابات الدرزية والدمشقية وفلول الثوار الزاحفة من الجنوب أي من شرقي الأردن والأزرق إلى غوطة دمشق ، واستطالوا في هذه البرهة كثيراً ، وبلغت شرورهم جبل قلمون ، ونهبوا نحو ٥٠٠٠ رأس من ماشية النبك وجيرود وغيرهما ، كما نهبوا بيادر بعض قرى المرج شرقي دمشق ، وحاول الفرنسيون وقتئذ رد بائقتهم ، فقام الرئيس كاربنتيه قائد سرية الهجانة يحرس قافلة سيارات بغداد ، لكنه أصيب في ١٢ أيلول ١٩٢٥ م في تلعة الساعي من يد أحد المساعيد المنضمين إلى الغياث ، فشاد الفرنسيون له وسط شارع بغداد في دمشق قبة تحتها سبيل ماء وسجلوا عليها اسمه وتاريخ وفاته[1] ، ومن ثم صارت الطائرات تراوح الغياث القصف ، وقوى الهجانة تحاصرهم ، إلى أن عجزوا واستأمنوا ، وسلم الشيخ خلف العياش نفسه علامة لهذا الاستئمان ، وانفصل عنهم الربيدات والبدور ولجؤوا إلى عشيرة الولد علي ، فظل الغياث وحدهم مع النجاد والنعير ، وتعهد الشيخ خلف بتسليم عدد من البنادق والغنم ، وبالسماح للجند الفرنسي باحتلال الصفا لقاء العفو العام عنه وعن الغياث وأعوانهم جميعاً ، وبعد أن وطد الجند الفرنسي أقدامه بين ظهرانيهم ، وأقام مخفراً في موقع الزلف أخلدوا إلى السكينة ، وثابوا ولم يعد يسمع عنهم حادثة ما .

أما فرق الغياث فهي القلابنة لعائد الطالب الثويني ، والعطقة لعلي العشبان والروس والهرير لحيدان الأقرع ، والحواش لعطيوات الحواش ، ويذكر أن أول فرقة منهم احتلت الصفا ، وألفت العشيرة ، وقبضت على الرئاسة هي القلابنة ، ثم انتقلت الرئاسة إلى بيت الحواش ، وكان أشهر شيوخهم محمد الأقرع من صناديد البادية وفرسانها المغاوير ، وكان مرهوب الجانب مسموع الكلمة في المؤتمرات والمجالس ، وقد أدى قتله في سنة ١٣٤٩ هـ

---

(١) محيت هذه الكتابة عقيب حوادث عدوان الفرنسيين في ٢٩ و ٣٠ و ٣١ أيار سنة ١٩٤٥ التي انتهت بإجلائهم وقطع دابرهم من بلاد الشام .

(١٩٣٠ م)إلى ضعف الغياث وتشتتهم وانفراد كل فرقة لنفسها بدون رئيس عام ، ويقال أن عطيوات الحواش أذكى الجميع وأقدرهم على الرئاسة لو وسد الأمر إليه ، كما يقال أن عدد الغياث ٢٦٠ بيتاً .

أما منازل الغياث ففي حرة الصفا الممتدة من صبب جبل الدروز الشمالي إلى الجويف من جهة ، وإلى الدكوة في حدود شرقي الأردن من جهة أخرى ، وإذا جاءتهم أعوام ماطرة ينقلبون فلاحين ، يزرعون سهل الرحبة الأبطح الخصب ، وهم في الصيف يصعدون إلى جبل الدروز ، ويقيظون حول قرية طربة ، وفي الربيع يتجهون شمالاً نحو ديرة التلول ، ويبلغون تل الدكوة وجبل سيس ، ويستعجلون في التهام مراعي هذه الأنحاء قبل وصول عنزة من نجد وشرقي الأردن ، وفي آخر الربيع إذا كانت السنة ممطرة وبرك حرة الصفا مترعة بالماء ، يهبطون الرحبة ويقيظون فيها ، وهم وقتئذ يتقاسمون الماء قسمة صارمة ، ويعنى رؤساؤهم بعدم استعمال ماء البرك إلا حينما تجف الغدران والخبرات بتاتاً ، فإذا جفت هذه يتجهون للبرك ، ويؤخرون منها بركة العلقة إلى آخر الموسم ، لأنها أحسنها ، وإذا كانت السنة ماحلة جافة يضطرون إلى التقيظ في أعالي جبل الدروز ، في أنحاء قرية طربة ، حيث يجدون مراعي طيبة بين أوعارها وأحجارها ، وهم يبلغون جبل الدروز من ثلاثة أودية هابطة من الجبل ، هي وادي بركات وهو في الشمال على طرف القراثم وادي عرار ثم وادي الشام . والغياث يسيرون زرافات متفرقة ، غير آبهين بأي عشيرة ، خاصة وهم أصدقاء الدروز لا يخشون بأس أحد .

أما في الشتاء والربيع والخريف فإقامتهم في الصفا دائماً ، إلا أن مقامهم فيها مرتبط بوجود الماء والمرعى ، والقاعدة هي أنهم في آخر الصيف يهبطون من أعالي جبل الدروز ، وريثما تهطل الأمطار ينهلون من آبار منطقة النارا والزلف ، وتسرح ماشيتهم في الحرة ، وقد تبلغ آنئذ شرقي الصفا (تل وتيد) ، ومتى هطل المطر الموسمي تتفرق العشيرة وتنتشر زرافات من بيتين إلى ثلاثة بيوت ، ويملؤون أصباب الضرس والغراب في الصفا التي فيها مراعي طيبة للإبل .

والمناهل التي يردونها خلال نجعتهم هي في الخريف وادي الشام ، وادي غرز ، بير زلف ، بير قصب ، وفي الشتاء مياه خبرات الضرس ، وفي الربيع والصيف خبرات الغدير

(غدير حاوي عواد) ، غدير حاوي الصفا ، غدير نمارا ، غدير محمود شرقي تل وتيد ، غدير بزاعة في وادي الشام ، غدير العجل في وادي الشام ، وهم بعد أن يقضوا على مياه الخبرات والغدران ، ينهلون من بركة الرحبة التي تأخذ مياهها من وادي الشام ، وأوسع هذه البرك وأهمها بركة حاوي الصفا ، وهي تنتهي بحوض حقيقي من الحجر قطره نحو ١٥ متراً .

قضاء وادي العجم (حرمون)

في هذا القضاء قسم كبير من (النعيم) وقسم صغير من (الفضل) أما النعيم فقد ذكرناهم في بحث قضاء الجولان ، وذكرنا القرى التي يقيمون فيها هناك وهنا ، أما قسم الفضل فيقيم في قرية مرانة غربي الكسوة ، وهو في مشيخة حمدي شبيب وعدد بيوته نحو ٤٠ .

قضاء قلمون

ليس في هذا القضاء الجبلي الأجرد سوى بعض بيوت من فرق الطويلع والعويشات والحسيكات المنتسبين إلى (النعيم) ، واللويسات المنتسبين إلى الحروك ، وبعض بيوت من النجاد والبدور ، وهما من فرق عشيرة العمور التي سنذكرها في بحث محافظة حمص ، فالنجاد نحو ٨٠ بيتاً في مشيخة خلف العياش النعير ، وبعضهم يحرث حول قرية دير عطية ، أما البدور فهم رعاة قريتي الرحيبة وجيرود ، وهم نحو ٧٠ بيتاً ، في مشيخة منير الشوطي ، والشيخ خلف العياش الذي سبق ذكره في بحث عشيرة الغياث يعد أكبر شيوخ العمور ، وهو عقيد غزو مغوار وشهم جواد ، وهؤلاء العمور في قضاء قلمون يدعون (عمور الديرة) ، يتنقلون من شرقي النبك والدير عطية إلى شرقي بحيرتي العتيبة والهيجانة ، ولا يبعدون في نجعتهم شتاء إلى أكثر من بحيرة الصيقل وبئر الأفاعي ، وقد اشتركوا في سنتي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ م مع ثوار النبك .

قضاء الجولان

الجولان صقع بركاني ، كثير الأوعار والأحجار ، غزير الأمطار ، وفير الحراج ،

مبذول المياه والأعشاب الصالحة لتربية الماشية ، فلا غرو إن حلت فيه العشائر من قديم الزمان ، واستمرأت مناهله ومراعيه ، وتوفرت فوق ذلك على حرث رقاعه الصالحة ، والنزول في ضييعاته ، وخربه العديدة المنبثة بين أوعاره ، إن بعض هذه العشائر كبير وبعضها صغير ، أما العشائر الكبيرة فهي آل فضل وآل نعيم :

آل فضل .

عشيرة كبيرة من ذوات الضرع والزرع ، تعد مع لواحقها نحو ١٠٠٠ بيت . وماشيتها من الغنم والمعزى والبقر نحو ٣٠٠٠٠ رأس . وقد صار نصفها أو أكثر مستقراً يحرث ويزرع ويقطن بيوت الحجر ، ونصفها رحال يتبدي في أراضي أقضية الجولان ووادي العجم والبقاع ، والقسم الرحال الذي في قضاء الجولان لا يتعدى جسر بنات يعقوب جنوباً والقنيطرة شرقاً وبانياس شمالاً ، وهو في الصيف يعلو الهضاب الباردة ، وفي الشتاء يهبط سهل الحولة الدفيء ، ولا يشرق نحو البادية منه إلا فرقة الكواشية .

ويرأس عشيرة الفضل بيت علي القدر في البادية والحاضرة ، وهو بيت (آل فاعور) ، وأفراد هذا البيت قلائل ، وقد اختصوا في أنحاء دمشق بلقب الإمارة ، كما اختص به في أنحاء حلب أقاربهم (آل أبو ريشة) أمراء عشيرة الموالي ، وليس في عشائرنا كلها من هو عريق في هذا اللقب سوى هذين البيتين ، إن هذا اللقب الدال على نسب مؤثل وبقاء اسم (آل فضل) الذي طالما رددته كتب التاريخ والأنساب العربية يؤيدان بأن آل فاعور الحاليين هم من (آل فضل) الذين كان لهم أمجاد قديمة ، وأفعال عديدة ، في القرنين السابع والثامن الهجريين وما بعدهما ، وذلك في الشمال في براري سلمية والمعرة وحلب إلى وادي الفرات ، وأطراف العراق على ما قدمناه وشرحناه في بحث تاريخ البدو (راجع ص ٩٠ ـ ١٠٦ في الجزء الأول من كتابنا هذا) نقلاً عن ثقات المؤرخين كابن خلدون وابن الوردي والقلقشندي وغيرهم ، فقد قالوا إن آل فضل تشعبوا وقتئذ إلى عدة فروع أكبرها آل عيسى ، ثم تشعب آل عيسى أيضاً إلى عدة فروع ، منها آل مهنا بن عيسى الذين أنجبوا آل أبو ريشة أمراء عشيرة الموالي في قضاء المعرة ، ومنها آل فضل بن عيسى الذين أنجبوا آل فاعور أمراء عشيرة الفضل في قضاء الجولان .

ويظهر أن آل فضل بن عيسى المذكورين انشقوا عن أبناء عمهم آل مهنا بن عيسى حينما تنازعوا على إمارة البادية في منازلهم التي كانت بين سلمية والمعرة وحلب ، وكانت هذه الإمارة تنتقل تارةً إلى هؤلاء وتارةً إلى أولئك ، فكانوا يتقاتلون عليها ـ كما قال المؤرخ ابن الوردي الذي أدركهم ـ إلى أن نزح آل فضل بن عيسى في وقت مجهول ، لعله في القرن التاسع أو العاشر وجاؤوا وتديروا الجولان ، محتفظين باسم (آل فضل) وجمعوا حولهم فرقاً عديدة من بقايا العشائر المنقرضة ، فاندمجت هذه في حلفهم ، واكتسبت اسمهم .

وتاريخ هؤلاء الفضل بعد وصولهم إلى الجولان غامض ، لم يدونه كتاب ولا وعته ذاكرة ، لم نعثر منه بعد الجهد إلا على بعض معلومات متقطعة وجيزة ، منها أنهم حينما وصلوا وجدوا قوماً من الكرد اصطدموا بهم ، فردهم الكرد وقتلوا كبار الأمراء منهم ، فلجأ أبناء هؤلاء إلى مرج ابن عامر في شمالي فلسطين ، وبقوا سنيناً عديدة ، ريثما ترعرعوا وشبوا ، فرجعوا وأخذوا ثأرهم من الكرد ، وأزاحوهم ، فراح بعض هؤلاء إلى الزبداني وتديره ، واسمه هناك (آل رمضان) ، ثم عاش آل الفضل نحو قرنين آخرين انطوت أحداثها وتنوسيت ، ولم يبق عندهم سوى ذكر الحل والترحال بين أوعار الجولان ، وسهل البقاع ومرج ابن عامر ، ثم ذكر الوقائع الحديثة التي جرت في أواسط القرن الهجري الماضي مع جيرانهم التركمان ، ثم في أواخر القرن المذكور مع جيرانهم الشركس ، حينما وفدوا مهاجرين من القوقاز على ما بيناه في بحثهم ، ثم التي جرت في عهد الأمير محمد مع شيعة جبل عامل ودروز جبل الشيخ ، كل ذلك بسبب النزاع على حدود القرى والمراعي .

ورئيس العشيرة الحالي هو الأمير فاعور بن محمود بن محمد بن حسن بن محمد بن محمود بن حسين بن فاعور ، قالوا وليس هذا بفاعور الأول الذي سميت أسرة فاعور باسمه ، بل بينهما عدة أسماء لم تحفظ وتدون ، وقالوا إن أول من امتلك القرى والأرضين هو الأمير حسن ، إذ لم يحفل أسلافه بذلك ، ثم زادها ابنه الأمير محمد فبلغت حدوده من قرب المنصورة جنوباً ، حتى بانياس شمالاً ، ومن وادي الرقاد شرقاً ، حتى أواسط الحولة غرباً . وبنى الأمير محمد المذكور قصراً فخماً في قرية خصاص في سهل الحولة ، وآخر في قرية واسط في الجولان ، كان يشتي في الأول ، ويصيف في الثاني ، ويقيم فيهما لضيوفه الكثر المآدب

والموائد الفخمة ، وقد قضى الأمير محمد حياةً حافلةً بمناقب الرجاحة والسماحة ، وعلو القدر والجاه لدى ولاة دمشق وحكامها وأعيانها ، وكانت هداياه إليهم - فيما رووا - من السمون والخراف وغيرها لاتنقطع ، وجاهه عندهم لا يرد ، ومازال على ذلك حتى صدف في ربيع سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) أنه كان يستقبل ضيوفه الأمراء آل عبد القادر الجزائري في موكب حفل بمطاردة الخيل والملاعبة بالأسلحة ، على عادة تلك الأيام التي كان للفروسية فيها شأن ، فانطلقت رصاصة من بندقية أحد أولئك الأمراء أصابت الأمير محمد فجرحته جرحاً مميتاً ، وبدلت الفرح ترحاً ، ومما يذكر له بالرحمة والإعجاب أنه رغم معرفته بخطر مصابه ، ودنو أجله شاءت مكارم أخلاقه أن يكتم بلواه ، فأشار على ضاربه بالابتعاد فوراً ، قبل أن يسمع أعراب الفضل فيثأروا منه ، فكان ماأراد ونجا الضارب ومات المضروب بعد برهة ، فكان الخطب به عظيماً والعزاء جسيماً .

ثم خلفه ابنه الأمير محمود ، وكان هذا أيضاً كبير الجولان وزعيمه دون منازع ، وذا شمائل محمودة تقرب مما لدى أبيه ، قام بأعمال مشكورة في نصرة عهد الملك فيصل ، وفي مقارعة الفرنسيين في الحولة ومرجعيون ، فحكموا عليه بالإعدام ، ونهبوا وهدموا قصره في خصاص سنة ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) فلجأ هو وأسرته إلى شرقي الأردن ، وبقي إلى سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) ، ثم لما عفي عنه عاد واستقر هادئاً في الجولان ، إلى أن توفي في سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) . فخلفه ابنه الأكبر الأمير فاعور ، وهذا الأمير مدني المعيشة ، أنيق البزة حاد الفطنة ، كبير الملك والثروة ، وأجل أملاكه في سهل الحولة ، داخل الحدود الفلسطينية ، وأكثر إقامته في دمشق بعد أن كانت في واسط ، وهو نائب قضاء الجولان منذ القديم .

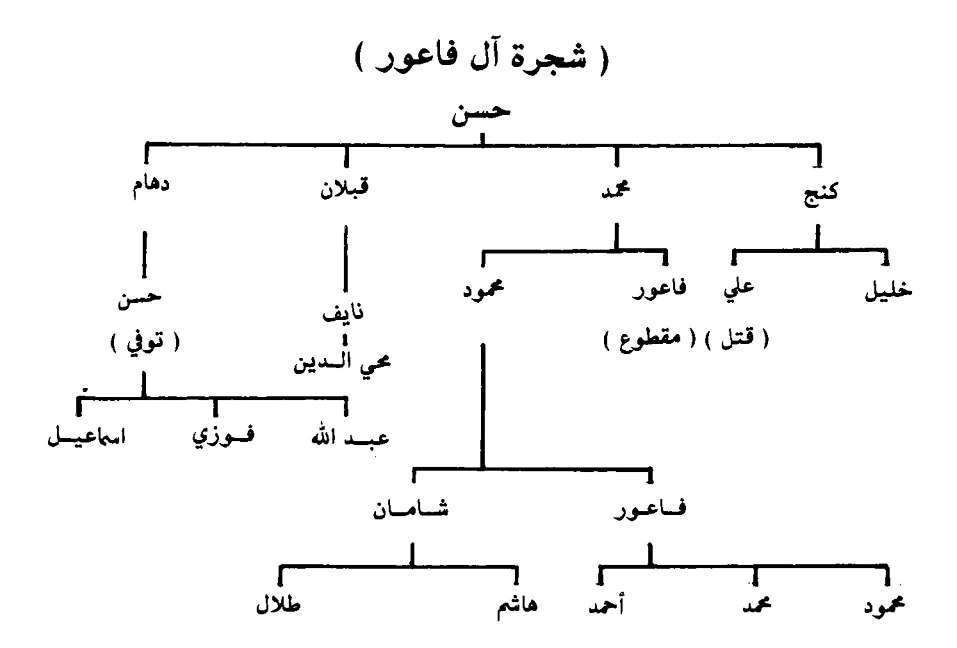
هذا ومن عشيرة الفضل فرق أصليون ملتفون حول الأمراء آل فاعور ، وفرق أخرى وإن كانوا منهم يعيشون مستقلين عنهم إلى حدٍ ما ، فمن فرق الفضل الأصليين يذكر الهلالات والعطيرات والشحاشبة والبلاحسة والنبهان والكيار (هؤلاء من الكيار الذين ذكروا في بحث محافظة حلب) والفنوص والربيع والشراعبة والمنادلة والحمالة والربايعة والحمدان والكواشية وأمثالهم ، وعدد هؤلاء نحو ٥٠٠ بيت ، وهم يقطنون غربي القنيطرة إلى

الشمال ، في المزارع والخرب المسماة الـواسـط وتـل جيـات وقطرانـة وعين الحجـل وأسكيـك وسماقة وعين حور وعين حمراء والفرن ورعبنة وباب الهوا .

ومن فرق الفضل المستقلة القريبة من محيط آل فاعور ومنازلهم ، يذكر (البحاترة) في مشيخـة ضـاهر ومضهور أبنـاء عرسـان الشـديـد ، عـددهم نحو ٣٠٠ بيت ، وقراهم دلـوة وسليسلة وعين وردة وخويخة ورمثانية ودلهمية ، و (الهوادجة) في مشيخة فارس العفـاش وعيد المسعود ، عددهم نحو ١٥٠ بيت ، وقراهم لوطيات وبرقبـات وراويـة وقنعبـة وقرحتـة وزعرتة . و (العجارمة) أو العكارمة في مشيخـة عـدنـان بن زعل السلوم عـددهم نحو ١٠٠ بيت ، ومزارعهم سنـديـانـة ومويسـة وعين زارا . ولهؤلاء الشيوخ أملاك ومـزارع خـاصـة وثروات غير يسيرة ، أثراهم أبنـاء نمر الشحـادة رئيس الهـوادجـة السـابـق . و (الحروك) الذين ذكرناهم في بحث حمص .

وأمـا عشـائر الجولان الصغيرة المستقلـة فهي (المرازقـة) في قريـة دبـورة ٥٠ بيتـاً ، ينتسبون إلى (مرزوق) الذي له مقـام يحتفل فيـه في كل عـام ، وتتقـاطر عشـائر الجولان لزيارته ، وحمل الأعلام والسناجق ، وإقـامـة الأذكار حولـه ، (الويسيـة) في قرى جرابـا والجامع وفـاخـورة وسنـابر وعلمين وجريـديـة ٣٠٠ بيت . وهـؤلاء يربـون جـواميسـاً في الحولة ، و (الكبايرة) في قصبية ٤٠ بيتاً ، و (الجماتين) في سلوقية وبيرة ويهودية وطـار الغزال ١٥٠ بيتاً ، و (الرفاعية) في أم الدنانير والفرج ودير قروح ودير مفضل وشبـة ١٥٠ بيتاً ، و (المنافي) في نبع الصخر ومجدولة وعين الباشا ١٠٠ بيت ، و (القصيرين) وهؤلاء من لواحق الرفاعية وهم في صلبا ووحشرة والنوانيـة ٧٥ بيتـاً ، و (السبـارجـة) في معلقـة وفزارة ٥٠ بيتاً . وعـدوا من الفرق الصغيرة أيضـاً الطوايف والطرشـان والحزوميين الـذين يبعدون إلى أنحاء حمص والحمدات والسعيد .

(شجرة آل فاعور)



آل نعيم

آل نعيم عشيرة كبيرة كثيرة الفروع والمنـازل ، تجـدهـا متوزعـة في كل مكان في بلاد الشام ، فقسم منها في الشمال في قضائي حمص وسلمية ، وقسم في محـافظـة حلب في كل من أقضية الباب ومنبج وجبل سمعان وجسر الشغر ، وقسم في محافظة الفرات في قضاء الرقـة ، وقسم في محـافظـة دمشق في أقضيـة دمشق والقنيطرة وقطنـا ، وجميعهم يتعـارفـون ويتزاورون على بعد الديـار وشـط المزار ، ويقول الشيخ أبو الهـدى الصيـادي الرفـاعي في رسـالتـه أن لهم ذيلاً طويلاً في العراق في لواء كركوك وبوادي الموصـل ، فـإن صح ذلـك يكـونـوا من أغرب العشـائر في الانقسـام والتشتت ، وفي دعـوى الانتسـاب إلى الأشراف الهاشميين ، وفي نظر البدو إليهم كسادة ، والشيخ أبو الهدى المذكور يعدهم من الرفـاعيـة ، ويلحق سلسلتهم بالسيد يحي الرفاعي جد السيد أحمد الرفاعي الكبير ، والله أعلم .

بحثنـا الآن عن نعيم الجنـوب (نعيم الجـولان ووادي العجم) ، فهـؤلاء يـزعـمـون أنهم أعقـاب رجـل هـاشمي اسمـه (عـز الـدين) دون أن يـذكروا متى كان وكيف وأين كان ، وأحدهم كلما حز به أمر استنجد به وصاح (يـا جـدي عز الـدين) ، ويزعمون أنهم بعـد أن

تبدوا في العراق ، وفدوا إلى الجولان حول القرن الحادي عشر ، وهم قسمان ، أحدهما مستقر أهل زرع ، والثاني رحال أهل ضرع ، وهذا القسم الرحال ذو نجعة قصيرة لا يتعدى شرقي قضاء وادي العجم ودوما ، إلا في سني الخير العميم فإنه يبعد إلى ديرة التلول ويبلغ الحماد .

وفرق القسم الأول المستقر هي : الأبوغي والخواشمة والعويشات والفواخرة والسبارجة والغرة والوهبان والبكار والشقاقين والبوعاصي والرميلات والحناحنة والسياد والهوارين والسنيد والنعيمات والكريدين والعفاولة ، وأكبر هذه الفرق عدداً الأبوغي والبكار في كل منها نحو ٥٠٠ بيت ، ثم الخواشمة والوهبان في كل منها ٢٠٠ بيت ، وفي كل من البقية ١٠٠ ـ ١٢٠ بيتاً ، وهذه الفرق مستقرة ومتملكة في قرى قضاء الجولان ، ككودنة والبطمية والرفيد والمعلقة وغدير البستان وسبتة وقصيبة وهجة وأصبح وعشة وعامودية ومشرفة .

والقسم الثاني الرحال يتألف من فرق مستقلة ، متباعد بعضها عن بعض ، هي النيرات والرميلات والبيين والخذيمات والشقاقين والمعدين وعتبة والشراحيل والجايلة والمراحيل ، ومنهم من يضيف إلى هؤلاء عشائر الصياد وحرب والحمامرة والوهيب الذين ذكرناهم في بحث قضاء دوما ، وعدد بيوت كل من هذه الفرق نحو ٥٠ ـ ١٥٠ ـ ٢٠٠ بيت ، ومنازل أكثرها في قضاء وادي العجم ، حول قرى صبورة والطيبة والدرخبية وسعسع ودير علي وكناكر ودير ماكر وحمريت وسبسبا وماعص وشقحب والزريقية ودناجى ، ويقدر عدد بيوت النعيم في قضائي الجولان ووادي العجم بنحو ٣٠٠٠ بيت ، وعدد ماشيتهم بـ ٤٠٠٠٠ شاة و ٢٠٠٠ بقرة و ١٠٠٠ بعير ، ومن هذه الماشية ماهو مال للعشيرة ، ومنها وهو نحو الثلث للدمشقيين من أهل حي الميدان ، ولملاكين عرب وشركس في القنيطرة ، ونصارى في جديدة مرجعيون ، وهم في أيام الرجاد يؤجرون إبلهم ، ويرجدون زروع القرى المجاورة لهم ، والرئاسة على النعيم كلهم في آل طحان ، وهم شيوخ العشيرة من قديم ، ويبلغ عددهم نحو ٤٠ شخصاً ، وهم من فرقة الأبوغي ، ومقرهم في قرية كودنة التي هي ملكهم ، وهي في جنوبي القنيطرة ، قالوا كان النعيم قديماً يعرفون بوداعتهم و (دروشتهم) بحكم ادعائهم الانتساب للأشراف ، إلى أن خرجوا على هذه الحالة ، وسبب ذلك فيما رووه وقعة حدثت لهم مع الدروز ، استظهروا فيها وبرزوا ، فاستطابوا الغلبة

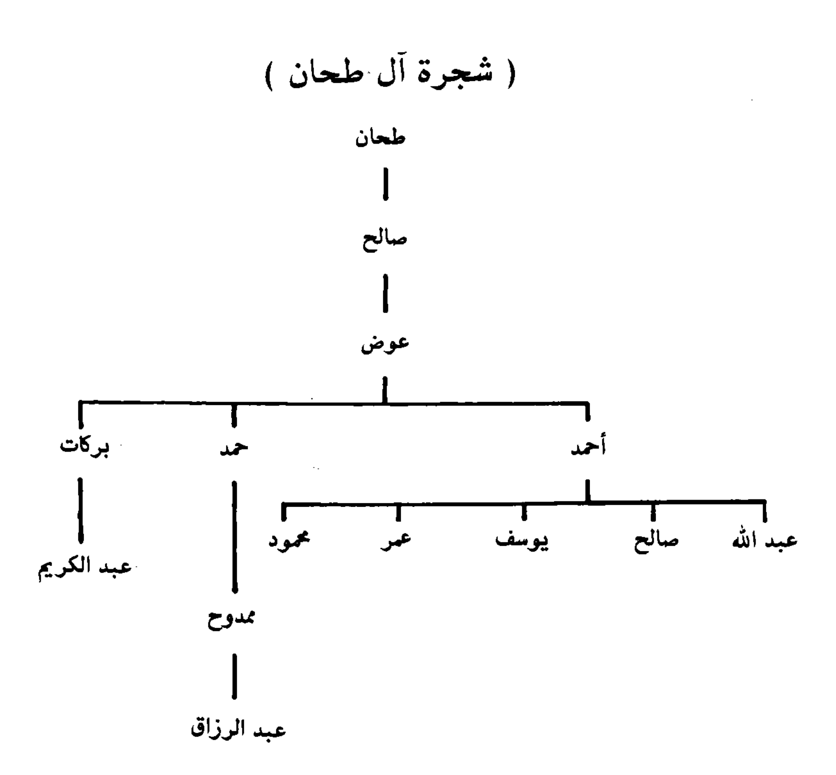
والغنيمة من ذلك الحين ، وركبوا متن البداوة والاستطالة ، وقد اشتركوا مع الحورانيين في حوادث سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) التي قامت على الفرنسيين عقب احتلال دمشق ، لكن تفرق كلمة العشيرة أضعفهم كثيراً ، وكان بركات بن عوض الطحان قائماً بواجب المشيخة حتى سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) ، ثم خلفه أحد أبناء إخوته وهو عبد الله بن أحمد أحد المشتركين في حوادث حوران المذكورة ، وكان محكوماً بالإعدام ثم عفي عنه وتشيخ ، لكنه مات محترقاً في حادثة قطار نسفه الثوار في سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) جنوبي دمشق . فخلفه ابن عمه الشيخ الحالي ممدوح بن حمد بن عوض بن صالح الطحان ، وهو المعترف به رسمياً ، وله منحة سنوية كغيره من رؤساء العشائر البارزة ، كما له حرمة وسمعة جيدتان ، وهو يملك ربع قرية كودنة وكل حمريت وبعض القراريط في سبسبا والهبارية ، ويقطن في بيت من الحجر في قرية حمريت (قضاء وادي العجم) ، وفي بيت من الشعر إذا تبدى مع العشيرة ، ويذكر من شيوخ هذه العشيرة ، جاسم النادر القاطن في قرية الزريقية (قضاء وادي العجم) وعبد الكريم البركات عضو مجلس إدارة قضاء الجولان ، ومحمود الأحمد القاطن في قرية الجوخدار .

اللهيب

يأتي إلى الجولان أحياناً قسم من عشيرة (اللهيب) التي منازلها في الحولة (قضاء صفد) وهم من رعايا فلسطين ، على أن أفراداً منهم قد التحقوا منذ زمن بعيد بعشائر الجولان كالعجارمة ، وهم يزعمون أن أصلهم من العراق ، وأنهم أقارب لهيب حلب الذين ذكرناهم في بحث قضاء جبل سمعان ، ولا برهان لديهم على ذلك ، وهؤلاء منازلهم في الصيف شمالي صفد وشرقيها ، وفي مستعمرة الجاعونة ، وفي الشتاء ضفاف الحولة وقرب جسر بنات يعقوب ، ولهؤلاء اللهيب براعة وشهرة طائلتان في السلب والنهب ، وأكثر ما يسطون على قرى الجولان ، يتسللون بين الأودية والأوعار في حالك الظلام مشاةً أو ركباناً ، وينشلون الأبقار من زرائبها ، ويطيرون بها إلى ما وراء الحدود الفلسطينية ، ويبيعونها وعددهم نحو ١٥٠ بيتاً ، ورئيسهم حسين المحمد العلي المقيم في طوبة جنوبي الجاعونة ، وهم فرقتان : العيطة والرصافنة .

ومن هؤلاء اللهيب في جنوبي لبنان فندتان أخريان ، اسم الأولى الأرامش ، تنزل في جنوبي قضاء صور ، والثانية الحمدون في جنوبي جبل عامل ، وفندة ثالثة لم يتعين لنا اسمها ، في شمالي لبنان في قضاء عكار ، والجميع في نفس الحالة الشريرة التي ذكرناها .

(شجرة آل طحان)





عشائر محافظة حوران

قضاء درعا

يتردد إلى هذا القضاء أحياناً بعض فصائل من فرق الروالة ولواحقها ، ففي بعض السنين يأتي قسم من فرقة الدغمان إلى قرية النعيمة ، وقسم من الدرعان إلى قرى وادي الزيدي ، وقسم من الكواجبة إلى أراضي بصرى ، ويقيظ الأشاجعة في أم الميادين والسوالمة في قرى وادي الزيدي .

ويأتي بعض عشائر جبل الدروز أيضاً إلى هذا القضاء في أيام الرجاد ويقيظ . فمن هؤلاء العظامات يخيم نحو ٢٠ بيتاً منهم في أراضي بصرى ، ونحو ١٥ بيتاً في خربة أبي كاتولة من أراضي السماقيات جنوبي درعا ، ويزرع هؤلاء نحو ٥٠٠ دونم من أراضي أملاك الدولة في الخربة المذكورة ، ومنهم الجوابرة ، بعضهم مستقر في شجرة التائهة شرقي المتاعية ، يزرع نحو ١٠٠ دونم وبعضهم رحالة ، ومنهم السردية و المساعيد المذكورون في بحث محافظة جبل الدروز ، ومنهم العيسى المعدودون من عشائر شمالي شرقي الأردن ، ورئيسهم مجحم بن ماضي ، ويبدو أن بعض هؤلاء يبلغ ناحية بصرى في قضاء درعا ويقيظ فيها ، ويعد سلوكهم حسناً ، وفرقهم السويلم والعلي والحويطة والحريز ، وفي كل منها أفخاذ عديدة .

والعيسى من العشائر القديمة كما قدمنا في تاريخ عنزة ، وقد كانوا في القرن الهجري الماضي من أركان حلف أهل الشمال المؤلف من السرحان والفحيلية والعيسى والسردية ، إلى أن انتقلت زعامة هذا الحلف إلى السردية ، وكان هذا الحلف الرباعي لمدافعة عنزة ، ومنع دخولها إلى أنحاء حوران والبلقاء .

هذا وليس في قضاء درعا بدو متحضرون فلاحون ، كما في قضاء الزوية سوى عدد

ضئيل من النعيم في بصرى والطيبة والمسيفرة ، ومن السلوط فرقة الشرعة في غصم والكرك .

قضاء إزرع

يتجول النعيم في قرى هذا القضاء الغربية الشمالية الجيدور ، فمنهم بعض فرقة البكار رعاة قرية العوينة والوهبان رعاة قرية غباغب ، ويأتي إلى هذا القضاء قسم من الأبي عيد إحدى عشائر حمص المعدودين من الأحسنة ، فيرجد زروع قرية نوى أكبر قرى حوران ، ومعدن الحبوب والأقماح ، ومثله قسم من الحروك إحدى عشائر حمص أيضاً ، وقسم من الدمجان إحدى فرق الولد علي التي سيأتي ذكرها ، وهؤلاء يقيظون في قرى أم العوسج وزمرين والحارة .

السلوط :

إن أشهر عشائر قضاء إزرع هم السلوط الساكنون في وعرة اللجا ، وفي رواية أن هؤلاء متوطنون في اللجا منذ زمن قديم جداً ، وفي رواية أخرى أنهم مثل عشائر الجبل في الأصل من زبيد ، وكانوا ينزلون في جبل الدروز ، حتى أواخر القرن الثاني عشر ، ثم دحرتهم العشائر المذكورة ، فتحولوا إلى وعرة اللجا ، بعد أن دحروا هم منها عشيرتي الدياب والمناظرة فذهبتا إلى قضاء الزوية ، ومهما يكن ، فالسلوط الآن يعيشون في الخيام بين صخور اللجا الكأداء ومسالكها الوعثاء ، وهم لا ينجعون إلا في مسافات قليلة وفي داخل اللجا ، ويزرعون الرقاع الخصبة المنفرجة بين صخورها ، ويعدون نحو ٥٠٠ بيت ، ولهم نحو ٢٠٠٠٠ شاة وماعز و ٢٥٠ بقرة و ٢٠٠ بعير وأراضي زراعية وسيعة ، حول خرب المسمية ، وشعارة وكريم وايب ومليحة حزقيل وقلعة سماة والزبابير وصور اللجاة وعاصم الزيتون وحامر وأم العلق وغيرها . وقد اشتهر السلوط بشرورهم وبراعتهم في التعدي على الزروع والمواشي في قرى حوران والجيدور المجاورة لهم ، وربما بلغوا في دجى الليل قرى وادي العجم ، وفعلوا فعلتهم ، وانسلوا راجعين قبل أن يدري بهم أحد ، والشكوى منهم عظيمة لا تنقطع ، في كل عهد وظرف ، ولطالما أقلقوا الحكومة العثمانية وكانت كلما أرادت معاقبتهم ، تغللوا بين الصخور والكهوف ، فتعذر العثور عليهم إلى أن ساقت خلال الحرب

العامة الأولى حملةً بقيادة خالد شفيق بك ، أطبقت عليهم ، واقتادت السلوط الشماليين منهم ، لأن القبليين تواروا ونجوا ، وأجلت من اقتادته إلى بلاد الأناضول ، لكن هؤلاء ما عتموا أن انسلوا من كل حدب وعادوا إلى حيث كانوا وكما كانوا ، والسلوط بعد أن كانوا حلفاء الدروز في مدافعة جيش إبراهيم باشا المصري عام ١٢٥٢ هـ تعادوا وطال العداء ، حتى اشتركوا مع الجيش الفرنسي في حرب الدروز ، لما ثاروا في سني ١٣٤٤ و ١٣٤٥ هـ ، وكان ثوار الدروز ، كلما ضاقت بهم الأرض من الفرنسيين ، ولجؤوا إلى أوعار اللجا ومعاقلها بنسائهم وأولادهم ، قاتلهم السلوط في قيادة طلال أبي سليمان ، ومنعوهم من ورود الآبار ، وفتكوا بهم على ما قيل ، وشكي منهم في مذاكرات مجلس النواب في دمشق (شباط ١٣٤٦ هـ) . والسلوط ينقسمون إلى جذمين :

١ ـ السلوط القبليون (بني حمد) ، منازلهم في الجنوب الغربي من اللجا ، وشيخهم طلال بن سعد الدين بن عودة أبو سليمان الحمد ، وعدد هؤلاء نحو ٣٠٠ بيت ، ويتألفون من الأفخاذ الآتية : العوران (أسرة الشيوخ) والمداجة والعتابقة والفواخرة والضبوب والرماح واللزوق (الشرعة) ومن الشرعة أناس شكارة ورعيان ، في قرى حورانية كغصم والجيزة ومحجة والكرك .

٢ ـ السلوط الشماليون (بني عمر) منازلهم في الشمال الغربي من اللجا حول خرب المسمية وشعارة وكريم ، وشيخهم محمد بن أحمد بن زعل بن عقل الغصين وعددهم نحو ٢٠٠ بيت ، ويتألفون من أفخاذ المراشدة والحجرة والزعران والصوابرة والسيالة ، وقد رأت الحكومة منذ سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) أن تحسم بائقتهم فجعلت طلال أبو سليمان مديراً على ناحية اللجا الجنوبية ومركزه في قرية حامر ، وله فيها دار كبيرة حديثة وأنشأ في غربيها بستاناً ، وجعلت أحمد الغصين مديراً على ناحية اللجا الشمالية ومركزه قرب محطة المسمية ، ثم لما قتل أحمد خطأ حين دخول الجيش الإنكليزي في صيف سنة ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) خلفه ابنه محمد أبي قاسم الذي يقيم غالباً في أراضي خربة أم العواميد شمال غربي المسمية .

قضاء الزوية

في هذا القضاء الصغير المساحة عدة عشائر بدوية ، بعضها من عنزة وبعضها من عربان الديرة ، فمن عنزة هنا بعض فرق الروالة التي لاتأتي في فصل القيظ ، كالكواكبة والمعرض والنصير والدرعسان وغيرها ، وقد تملك أحد شيوخ الروالة وهو مجحم بن محمد بن هزاع الشعلان خربةً تدعى (ناب) على طريق القنيطرة ـ فيق وشرع يستثمرها ، ومن عنزة هنا عشيرة الولد علي المتوطنة منذ القديم ، وإليك وصفها :

الوِلْد علي

الوِلْد علي وتلفظ كلمة الولد بكسر الواو وسكون اللام بمعنى بني علي أو أولاد علي ، عشيرة عنزية صغيرة ، وهي من ضنا مسلم وبطن الوهب أو من بني وهب ، والوهب كما قدمنا هم الفريق الثاني من ضنا مسلم ، وهم يغدون ويروحون بين بلاد الشام ونجد ، وكثرتهم الغالبة اليوم في المملكة السعودية ، ولولم يكن عشائر منهم في بلاد الشام وبيوت بارزة لكانت دراستهم في عشائر نجد أصح .

ويبدو أن وهباً جدهم الأعلى أعقب ولدين منبه وعلي ، فمن الولد الأول منبه جاء آل نبهان أو المنابهة المنقسمون إلى المساليخ أعقاب حسن بن منبه الذين منهم جلالة الملك عبد العزيز بن السعود وآله ، وإلى الأحسنة أعقاب حسين بن منبه ، وإلى خمعل الذي منه الخماعلة والفقراء ، وسيأتي بحث هؤلاء في عشائر محافظة حمص ، ومن الولد الثاني علي جاءت عشيرة الولد علي المنقسمة إلى الأمشطة والأيدة ، والأيدة قسمان : الشماليون في بلاد الشام مع الأمشطة ، ويسمون أيضاً ضناً مفرج ، والقبليون في الحجاز ونجد .

فالولد علي إذاً هم أبناء أعمام الأحسنة الذين في حمص ، باعتبارهم من الوهب وأقارب الروالة باعتبارهم من ضنأ مسلم ، وفيهم بيوتات بارزة عريقة كبيت الطيار وبيت السمير ، وقد كانت حماية ركب الحج الشامي على عهد الحكومة العثمانية في يدهم ، يتعاورها رؤساؤهم بحسب الظروف ، وهي تدفع لهم جعلاً معلوماً لقاء قيامهم بهذه المهمة ، والطريق

بين الشام والحجاز وما جاور الطريق كان يقع تحت سيطرتهم ونفوذهم دون منازع ، وعددهم الآن ٥٠٠ بيت ، وعندهم ٣٥٠٠ بعير و ٦٠٠٠ شاة[١] .

وقد كان العداء والتناحر قديماً متواصلين بين الولد علي والروالة رغم قرابتهما ، وقد ازداد ذلك في عهد رئيس الولد علي محمد بن دوخي بن سمير ، وسببه فيما قيل أن الولد علي هم من طلائع عنزة الذين جاؤوا قبل غيرهم مع الأحسنة في القرن الحادي عشر الهجري ، ونازعوا عشائر أهل الشمال (السرحان والسردية والصقور وبني صخر) ، وحاربوها كثيراً حتى استطاعوا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً إلى الجولان ، التي هي منازلهم الحالية ، كما شقت الأحسنة طريقاً لها إلى ديرة الشنبل ، ولما جاءت الروالة بعدهم بـ ٦٠ ـ ٧٠ سنة أو أكثر لبثت مدة مديدة بين الجوف ووادي السرحان ، وأطراف البلقاء لاتستطيع التقدم نحو حوران والجولان ، من صولة الولد علي . بحيث أن الروالة وقتئذ كانت إذا أرادت أن تكتال وتمتار من حوران ، تتوسط ابن سمير شيخ الولد علي لدى ولاة دمشق على ما ذكره بركهارت في رحلته ، وكان الولد علي في ذلك العهد على ما جاء في كتاب الدرر المفاخر لمحمد البسام (يحملون الحاج ولهم صرة من الدولة العلية معيناً كل سنة) . ودام هذا الحال إلى أن كثر عدد الروالة ، وتقوت وشرعت تنازع الولد علي ، وما زالت حتى ظهرت عليها ، وفازت بحصة الأسد ونفذت إلى منازلها الحالية في حوران وشرقي الغوطة .

وأقدم ذكر في كتب الرحلات والتاريخ للولد علي هو ما جاء في رحلة السائح السويسري بر كهارت في سنة ١٢٢٤ هـ حيث قال : « هؤلاء ينزلون غالباً على طريق الحج حتى قلعة الزرقاء ، ولشيوخهم من آل الطيار المقام العلي بين الرؤساء ، ومن ثم دعوا (أبو عنزة) وينقسم الولد علي إلى المشادقة ، وفي هؤلاء آل الطيار ، وإلى الأمشطة وفيهم آل سمير ، ورئيس هؤلاء الآن دوخي بن سمير ، يعد أقوى رؤساء عنزة وإن كان أقل منزلة من الطيار ، وقوته نشأت من صلاته المتينة مع ولاة دمشق ، لأن له عادة تقديم الإبل لركب الحج ، وهو ينزل على بعد بضعة أيام عن دمشق ، وفي سنة ١٨١٠ م لجأ إليه

(١) نذكر للقارىء دائماً بأن هذه الأرقام تقريبية كما قدمنا ؛ عولنا عليها الآن ريثما تصدر الدوائر المسؤولة إحصاءات أصح منها .

يوسف باشا والي دمشق لما هرب من دمشق ، وأكبر فرق الأمشطة هي العواظ المؤلفة من أسرة سمير الكبيرة ، وبعد أن ذكر فرق الولد علي المعروفة حتى الآن ، قال : كل هؤلاء يأخذون عوائد من الصرة حين مرور ركب الحج ، يدفعها إليهم باشا الحج إلا فرقة الطلوح ، فإنها تأخذ صرتها من استانبول » ، أ هـ .

وجاء في حوادث سنة ١٢٢٥ هـ من تاريخ (عنوان المجد في تاريخ نجد) في بحث غارة الأمير سعود على أطراف الشام ما خلاصته : وفيها سار سعود بجيوشه وقبائله وعددهم نحو ثمانية آلاف ، وقصد نقرة الشام ، لأنه بلغه أن بوادي الشام وعربانه عنزة وبني صخر وغيرهم فيها ، ولما وصل لم يجد أحداً ، وإذ قد سبقه النذير إليهم فاجتمعوا على دوخي بن سمير رئيس ولد علي من عنزة ، فانهزم بمن معه ، ونزلوا الغور من حوران ، فسار سعود واجتاز بالقرى التي حول المزيريب وبصرى ، فنهب جموعه ما وجدوا وأحرقوا وقتلوا ثم رجع ، إلخ ...

وفي مجموعة أسد رستم أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية كتاب تاريخه في صفر ١٢٤٨ هـ من محمد علي باشا والي مصر إلى متسلم دمشق ، يحتم عليه استدعاء دوخي السمير شيخ عنزة ، والتشديد عليه بوجوب القيام بما تعهد به ، من نقل المهمات العسكرية ، وعدم التعدي على السكان الآمنين ، وخلف دوخي ابنه محمد الذي حدثت له وقائع جمة مع الرولة ، فقد جاء في (مجموعة المحررات السياسية) في سورية ولبنان من سنة ١٢٥٧ إلى سنة ١٢٧٧ هـ (١٨٤٠ - ١٨٦٠ م) تعريب فيليب وفريد الخازن أن القنصل الإنكليزي برانت كتب في تقريره المؤرخ في ٢٢ آب سنة ١٨٥٨ م « أن عشيرة الولد علي بقيادة محمد الدوخي والرولة بقيادة فيصل الشعلان قد اقتتلا ، وأسفر عراكهما عن خسارة خمسمئة قتيل من الفريقين تقريباً ، ويقال أن خسارة محمد الدوخي شيخ الولد علي كانت أعظم ، وفي تقرير ثانٍ لهذا القنصل مؤرخ/٤ حزيران ١٨٦٠ م أن مصطفى باشا المرابط في اللجاة بجنده ، قد هجم حديثاً على فيصل الشعلان شيخ عشيرة الرولة ، بمساعدة محمد الدوخي شيخ الولد علي ، فأدركه وقتله مع ولده ، فعظمت صولة محمد الدوخي » ، أ هـ .

هذا والقيادة العليا في الولد علي منذ القديم في أيدي أبناء سمير ، وبيت سمير من بيوتات عنزة العريقة في قدمها ومجدها ، وقد كان أولهم كما قلنا دوخي بن سمير المتوفى في

سنة ١٢٤٨ هـ ، وآخرهم رشيد بن عبد الله بن محمد بن دوخي بن سمير المتوفى سنة ١٣٤١ هـ ، وتلفظ رُشَيْدْ بسكون الراء وفتح الشين وسكون الياء والدال . وقد حفظ الولد علي استقلالهم وكرامتهم تجاه أقاربهم الروالة عشرات السنين ، وساهموهم في المراعي والمناهل ، وأخيراً لما تمزقوا وذهبت ريحهم ، وأصبحوا بلا رؤساء ، صاروا في الشتاء ينجعون معهم ، ووراءهم إلى جبل عنزة ، وأحياناً إلى الجوف ، وهم مثل الروالة أهل إبل في الغالب .

وقد كانت الولد علي إلى أن مات رشيد بن سمير المذكور متحدة الكلمة والقيادة ، وكان رشيد هذا المكنى بأبي نمر في عهد الترك ذا نفوذ ومكانة ، وكان مكلفاً كأسلافه شيوخ الولد علي ، بمواكبة الحج الشامي وحمايته ، وبنقل الأعتدة الحربية من دمشق إلى المدينة ، لقاء جعل كبير ، وفي عهد المرحوم الملك فيصل وحينما جاءت اللجنة الأميركية في سنة ١٢٣٨ هـ (١٩١٩ م) لاستفتاء أهل بلاد الشام عما يختارونه من أساليب الحكم ، خاصم رشيد المذكور القضية العربية وانحاز إلى الفرنسيين ، وأفتى إلى اللجنة المذكورة بانتدابهم . ثم ذهب إلى بيروت وقابل الجنرال غورو ، وتعهد له بالولاء وتأييد انتداب فرنسا ، وأعانه بالسر والعلن ما وسعه الجهد . وبعد أن احتل الجنرال المذكور دمشق وكل بلاد الشام ، ظل الشيخ رشيد يحتجن الهبات والمعونات من الفرنسيين ، بحجة الأضرار التي ادعى وقوعها في أملاكه في قرية عين دكر من قبل موظفي الحكومة الفيصلية ، لكن نفوذ نوري الشعلان طغا عليه ، ولم تنفع محاولاته وشكاياته لاسترداد مكانته ، حتى مرض وانزوى في القرية المذكورة إلى أن مات من قهره سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) عن ولدين اسمها نمر وطلال لم تطل أيامهما ، فقد مات الأول في سنة ١٩٢٤ م وقتل الثاني في سنة ١٩٢٦ م ، ومن ثم انشقت العشيرة وافترقت إلى جذمين ، فتبع الجذم الأول الشيخ عناد بن مقاط السمير ، وتبع الجذم الثاني الشيخ سلطان بن سطام بن ضجعان بن صالح الطيار رئيس الأيدا الشماليين .

ويذكر عن سلطان هذا أنه بارز بالذكاء والنشاط والشجاعة ، وقد سعى إلى أن يضم فرق عناد بن سمير إليه ، ويترأس كل الولد علي فلم يحالفه التوفيق ، لأنه رزح تحت الديون والأحكام الصادرة في حقه ، واضطر إلى أن يبعد عن وجه دائنيه في بلاد الشام ، ويهاجر إلى تيماء في غربي نجد ، وقد حل هناك بين أقاربه الأيدا الجنوبيين ، يعيش بما رتبه له جلالة الملك ابن سعود .

ولما توارى سلطان الطيار ، راح كل فل من جذمه يلتحق بفرقة من ضنأ مسلم (الروالة والأحسنة) ، وجرى أيضاً بالجذم الأول ما جرى بالثاني أي تشتت وتفرق بين جموع الروالة ، وذلك من جراء الضعف الذي كان لرئيسه عناد بن سمير في بادئ أمره ، وعدم لحاقه بجماعته حين النجعة ، وتركه حبلهم على غاربهم ، واقتصاره على ٦٠ ـ ٧٠ بيتاً من الذين صاروا (شكارة) لدى فلاحي قرى حوران ، حتى ظن الناس أن عشيرة الولد علي قد تمزقت وتبعثرت ، ولم تعد تقوم لها قائمة ، لكن صلاح حال الشيخ عناد في السنين الأخيرة ، وتحسن موارده في الأراضي والطواحين ، في قرية عين دكر ، أعاد الرجاء في حسن قيادته للعشيرة ، وتمكنه من لم شعثها ، واستعادة مجدها القديم .

أما فرق الولد علي في الجذمين المذكورين فهي :

الجذم الأول ـ فرق ابن سمير (الأمشطة) ؛ العطيفات لمنصور بن روس ، والعواظ لفدعوس بن هيبان ، والد مجان لعائد بن خليف ، والمجيبل لمناور بن جازي ، والجذالمة لعمر الدويهي ، ومجموع هؤلاء ٣٥٠ بيتاً .

الجذم الثاني ـ الأيدا الشماليون (ضنأ مفرج) أو فرق سلطان الطيار ؛ الحمامدة لخليل بن طروح ، والطلوح لهويدي بن خليل ، والجبارة لجروح بن مقسم ، والمشادقة سلطان الطيار ، والصقمة لأبو الروس ، ومجموع هؤلاء ١٥٠ بيتاً . أما الأيدا الجنوبيون فهم في تيماء (غربي نجد) ورئيسهم هناك محمد بن فرحان الأيدا .

هذا وفي النجعة تلتحق فرق الولد علي بالروالة ، حيثما ذهبت فتسير وراء ساقتها إلى جبل عنزة في الحماد أو إلى الجوف ، أما في الصيف فيمكث أكثرها في الجولان حول عين دكر ، وأحياناً تفد في الربيع إلى أنحاء الصيقل شرقي خان أبي الشامات ، وللشيخ عناد بن سمير في قرية عين دكر طواحين وأراضي زراعية نالها من تركة أبناء عمه رشيد بن سمير ، وكان نوري الشعلان ينازعه عليها لأن إحدى زوجاته وهي بنت رشيد بن سمير ذات حصة فيها .

نسب آل سمير ـ جدهم الأعلى سمير ومنه دوخي ، ومن دوخي نمر ومحمد ، ومن محمد

تركي وعبد الله وبندر وفدغم وغالب وفرحان ، ومن عبد الله رشيد ومشهور وعبد الكريم ، ومن رشيد نمر وطلال وغزوة زوجة نوري الشعلان ، ومن فرحان بن محمد متعب ومقاط ، ومن مقاط عناد (الشيخ الحالي) الذي له فرحان ونصر ومتعب . أما العشائر المتحضرة في هذا القضاء فهي : الدياب والفحيلية والمناظرة والتلاوية والكلابات .

الدياب

الدياب كانوا فيما قالوه ينزلون اللجا مع أقاربهم السلوط حتى القرن الثاني عشر ، وأن جدهم الأعلى الشيخ دياب مدفون في وعرة الصفا ، وهو يزار حتى الآن ، ولما أزاحهم السلوط على أثر عراك حدث بينهما ، جاؤوا واستقروا في وادي السمك ، المنحدر نحو بحيرة طبريا ، بعد أن أزاحوا هم أيضاً عشيرة السماكية نحو غربي بحيرة طبريا ، وهؤلاء الدياب وإن تحضروا لايزالون في الخيام يملكون ويحرثون بعض الخرب ، في غربي قضاء الزوية كأشكوم وادي السمك ، وعددهم ٣٥٠ بيتاً ، وعندهم ٢٠٠٠ بقرة و ٢٠٠٠ شاة وماعز و ٥٠ فرساً ، وشيخهم أحمد المطلق الفريج ، والمشيخة في أسرة هذا وراثية ، وهو وإخوته في خصام واحتكام دائمين مع آل اليوسف في دمشق ، بسبب التنازع على ملكية القرى وحدودها . وفرق الدياب هي الفريج والموالات والغبية والخشوش والعزايزة ، وقد تلتحق بهم فرقة صغيرة من السودان اسمهم (عبيد أخوات سارة) . والدياب يشتون في وادي السمك ، وفي الصيف يعلون نجود الجولان ، وأكثر ما يكونون في أراضي الجوخدار والشعبانية والرزانية وصيدا ، وما إليها من الخرب الداثرة .

التلاوية

التلاوية أصلهم من غور بيسان ، جاؤوا في غرة قرننا الهجري ، واستقروا في أراضي البطيحة على الشاطئ الشرقي من بحيرة طبريا ، حيث المياه الغزيرة ، والجو الدفء ، والخصب المنقطع النظير ، وهم لايزالون في الخيام ، وعددهم نحو ٤٠٠ بيت ، وعندهم ١٤٠٠ جاموسة و ٥٠٠ بقرة وقليل من الغنم والماعز ، وشيخهم سعد الرحال المرعي ، وفرقهم المسالحة والجمعات والعايدة والقبول والشنايدة ، وهم فلاحو آل اليوسف ملاكي البطيحة

المذكورة ، ويرتزقون أيضاً من صيد السمك من بحيرة طبريا ، ومنهم قسم كبير على الشاطئ الغربي من هذه البحيرة ، ويعدون من تبعة فلسطين .

المناظرة

المناظرة وأصلهم من شرقي الأردن وقيل من اللجاة ، وإليهم ينسب شريعة المنظور الذي هو وادي اليرموك ، وهم مستقرون في هذا الوادي جنوبي قرية الشجرة ، ويبلغون ما بين نهري الرقاد والعلان ، وهم نحو ١٠٠ بيت ، وفرقهم المساعدين والحجارمة والقطاطية ، وهم فلاحو آل الأمير عبد القادر الجزائري ، وشيخهم سليمان ضجعان المسعد .

الكلابات

الكلابات أو بني كلاب عشيرة صغيرة منفردة ، لا تزال في بيوت الشعر ، ينزلون قبلي فيق ، على عدوتي وادي مسعود ، وهم نحو ٥٠ بيتاً ، وهم شركاء أهل فيق وكفر حارب ودبوسة ، ويبدو أن هؤلاء قدماء في هذه الديار ، وأقدم من الفحيلية والسردية وذوو مجد مؤثل ، ومن ثم تراهم محتفظين بشممهم وجلفتهم ولهجتهم البدوية الصرحاء ، وقد ذكرهم السائح بركهارت في جملة عشائر الجولان سنة ١٢٢٤ هـ .

الفحيلية

الفحيلية هؤلاء ، بقية من هذه العشيرة العريقة في ماضيها ومجدها ، لايزيد عددهم الآن عن ٤ ـ ٥ بيوت ، أصبحوا فقراء مدقعين بعد أن كانوا إلى عهد قريب أمراء أعزاء ، يمشون ووراءهم عبيدهم ، فسبحان المعز المذل ، وهم ينزلون أراضي كفر حارب والسمرة والنقيب على شاطئ بحيرة طبريا ، ذكرهم الخالدي مؤلف كتاب الأمير فخر الدين المعني في القرن الحادي عشر ، وأنه كان لهم رئيس اسمه الشيخ ناصر الفحيلي ، وكان الفحيلية نازلين في سنة ١٠٢٢ هـ في أطراف اللجاة ، فكسبهم الأمير علي بن الأمير فخر الدين ، وأخذهم عن آخرهم ولم يسلم لهم عقال ، أهـ . وذكرهم بركهارت في سنة ١٢٢٤ هـ فقال : « يعد الفحيلة نحو ٢٠٠ خيال ، وفي كل عام يلبس والي دمشق شيخهم فروة ويوظفه بجباية ضرائب عشائر حوران واللجا ، لقاء تقديم ١٥ ـ ٢٠ كيساً (الكيس ٥٠٠ قرش

تركي) ، والفحيلية يتناولون خوة سنوية من كل قرى حوران » ، أهـ . وقد كنا قدمنا في بحث عشيرة عنزة أن هؤلاء الفحيلية في القرن الماضي والذي قبله كانوا من أركان الحلف الرباعي المدعو بأهل الشمال ، المؤلف لمجابهة عنزة ورد طغيانها عن مراعي حوران ، وسنذكر في بحث عشيرة الدنادشة المتوطنة في قضاء تلكلخ أنها تدعي التحدر من أحد هؤلاء الفحيلية ، الذي انتقل في تاريخ مجهول ولسبب مجهول إلى أنحاء حمص ، وأعقب فيها الدنادشة المذكورين ، ولاتزال الصلة والمعرفة متصلتين بين العشيرتين .

حدثني من سمع من الطاعنين بالسن في قضاء الزوية ؛ أن هؤلاء الفحيلية ومثلهم السردية ؛ بلغ من جبروتهم في تلك العهود على قرى حوران أنهم كانوا إذا أقبلوا على قرى وقدمت لهم الذبائح لايأكلون إلا وهم راكبون على ظهور خيلهم ، والموائد محمولة على الرؤوس ، فإن صح ذلك كان في منتهى الغرابة .





عشائر محافظة جبل الدروز

يسمون عشائر هذه المحافظة الجبيلية ، أو الجبيلات أو عربان الجبل ، وهي تعد من الرحل بمقتضى القرار رقم ١٣٢ ، رغم قلة عددها ، وصغر نجعتها ، وضآلة ثروتها من الضرع والزرع ، وهي بحسب أعدادها تصنف كما يلي : المساعيد والحسن والشرافات والعظامات والشنابلة والسردية والجوابرة والربيدات والغانم والحواسن ، وبعض هؤلاء ينتسب إلى زبيد الذي ذكر القلقشندي في صبح الأعشى وجودهم هنا في عصره القرن التاسع وسماهم زبيد الجبل .

المساعيد

قيل أن أصل المساعيد من العراق ، فإن صح ذلك ربما كانوا من عشيرة المسعود الريفية المستقرة في أنحاء كربلاء والمسيب شرقي بغداد ، وهي إحدى عشائر شمر التي بعدت عن البداوة منذ عهد طويل ، وهم أقدم من الدروز في احتلال الجبل (أي من قبل سنة ١١١٢ هـ) ، يشتون في تل الأصفر على بعد ثمانية عشر كيلو متراً عن عانات جنوبي الجبل ، أي في حرة الراجل ، أو أرض الجبانة ، وربما بلغوا الأزرق ، أو محطة الأجفور في الحماد ضمن الحدود الأردنية ، ويقيظون على هيئة زرافات صغيرة في قرى المقرن القبلي حول القرّية وعين وعيون ، ومنهم من يصل إلى قضاء درعا في حوران ، كما ذكرناه . وعددهم ٦٠٠ بيت ، وعندهم ١٥٠٠ بعير و ٤٠٠٠ شاة و ٢٠ فرساً ، وتعد المساعيد من أكبر عشائر الجبل عدداً وأغناها بوفرة الماشية ، ويذكر أن نصف ماشية الجبل في يدهم ، وهم أصدقاء عشائر الجبل ، وأعداء ألداء الروالة وبني صخر والعيسى والسرحان والشرارات ، وطالما عقدت مؤتمرات لمصالحتهم مع هؤلاء ، وآخرها في إربد مركز لواء عجلون سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٨ م) .

بعير و ٢٠٠٠ شـاة و ١٠٠٠ معـزى و ١٠٠ فرس ، وفرقهم الصبـور والحـواسنـة والطـوابـع والعميرات والعتيقات والمزاودة ، وفي كل فرقة أفخاذ عديدة أضربنا عن ذكرها ، وليس لهم رئيس عام ، إلا أن كبير فرقة الصبور عـائـد المطلق ، أكثرهم استقـامـة ووجـاهـة ، كما أن درزي المطلق هو عقيدهم في الحرب .

الشرافات

هؤلاء مثل المساعيد في دعوى أن أصلهم من العراق ، وهم أصدقاء المساعيد ويحترمون عـودة السرور ، كما أنهم أخصـام ألـداء للروالـة ، عـددهم ٢٥٠ بيتـاً ، وفرقهم الصفيـان والعنيزان ، وهم في مشيخة قـاسم الصفيـان ، وملوح العنيزان ، قيل إن بيت العنيزان محترم عنـد عربـان الجبل ، ولا يقحم في الغـزو ، وهم مثـل المسـاعيـد رعـاة دروز المقرن القبلي ، يقيظون في المقرن الشرقي وفي قرية سالة وموردهم مـاء أحبكـة ، وتشتي فرقـة الصفيـان في الحماد ، وفرقة العنيزان في أرض الجبانة ، وتل الأصفر الجنوبي وربما بلغوا الأزرق ، وعنـدهم ٥٠٠ بعير و ٢٠٠٠ شاة و ٣٠ فرساً ، وهم يزرعون مع الغيـاث قسماً من أرض الرحبـة ، وهم قد اشتهروا بشراستهم ، حتى أن الـذين قتلوا الرئيس كاربنتيـة الفرنسي وهجـانتـه في تلعـة الساعي في خريف سنة ١٩٢٥ م كانوا منهم ، وقدقبض على القتلة وأعدموا وقتئذ .

العظامات

وهؤلاء مثل المساعيد في دعوى أن أصلهم من العراق ، وهم أصدقاء المساعيد وشركائهم في المعارك ، وهم يتبدون في مناطقهم ، وعددهم ٢٥٠ بيتاً ، وعنـدهم ٥٠٠ بعير و ٢٠٠٠ شـاة و ١٠٠٠ معـزى و ٤٠ فرسـاً . وفرقهم المعرعر والسـويعـد ، ومشيختهم مختلف عليهـا ، ومتـوزعـة بين اثنين قبـلان السـويعـدي وبخيت المعرعر ، وهم يشتـون في أرض الجبـانـة ، ويقيظون جنوبي الجبل حـول أمتـان وأم الرمـان وعنز ومشقـوق والغـاريـة ، وتنزل فرقـة السويعد دائماً حول أم القطين .

الشنابلة

الشنـابلـة ـ قـالوا إن أصلهم من الحسن ، وانشقـوا عنهم منـذ قرنين ، وهم نحـو ٢٥٠

وهم ينقسمون إلى جذمين : العصافير والسميران ، ففرق العصافير هي السرور والمدلج والمواشة والمسيلم والشبار والكوتش والتويني والهديب والمرشود والحطاب والمداحلة ، وفرق السميران هي الغوانم والحاتم ، ورئيسهم الأعلى عودة السرور كبير فرقة العصافير ، وهو رجل ذكي نبيه ، وذو حرمة كبيرة في عشيرته ، وبين دروز الجبل ولاسيا لدى اسرتي جربوع وأبو عسلي في السويداء ، وهو كثيراً ما ينتخب حكماً في اختلافات عشائر هذه الأنحاء ، ويليه في الوجاهة الشيخ عواد البريكة كبير السميران .

وقد نكبت هذه العشيرة في ربيع سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) نكبةً كبيرة ، وذلك أن عشيرة الشرافات كانت غزت بني صخر ، وغنمت قسماً كبيراً من مواشيهم ، فلحقتهم قوة نظامية أردنية من شرقي الأردن بقيادة المرحوم الأمير شاكر بن زيد الهاشمي مع سيارات ومدرعات وطائرات إنكليزية ، فلم تجد غزاة الشرافات ، بل صادفت (المساعيد) مخيمين غربي أم الجمال ، فأصلتهم القوة والطائرات ناراً حامية جعلتهم يفرون ، تاركين مواشيهم وبيوتهم وأمتعتهم ، بعد أن حاولوا الدفاع وقتل منهم وجرح كثيرون ، فأصبحوا مدقعين وعالة على بقية البدو ، والدروز مدة مديدة إلى أن لموا شعثهم . (عن جريدة ألف باء ، آذار سنة ١٩٢٩ م) .

الحسن

يعتبرهم البعض من أعقاب زبيد الذين قلنا أن القلقشندي ذكرهم ، ويقال أيضاً أنهم من قبل الإسلام ، وأن الأمراء الغسانيين الذين كانوا هنا كانوا ينتقون منهم الشعراء في أعيادهم وحفلاتهم بحكم ما كان لهم من سليقة النظم وفصاحة اللسان ، ثم انقرض معظمهم أو كلهم ، وانتقل اسمهم إلى الأحياء الصغيرة كالحسن والشنابلة والجوابرة ، وبحثنا الآن عن الحسن ، فهؤلاء صناديد فتك وسلب ، وكانوا قديماً في نزاع دائم مع عنزة ، وخاصة الروالة والولد علي والمعجل كلما تطاول هؤلاء على مراعي الحسن ، وهم أحلاف الشرافات وأصدقاء الدروز ورعاة ماشية أهل المقرن الشمالي ، ومن ثم لا يبعدون عن هذا المقرن ، وهم شركاء الدروز في الثورات والغارات ، أعانوهم في ثورتهم سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) بقيادة عقيدهم المغوار درزي المطلق ، وهم يشتون في تل الأصفر الشمالي وبئر قصب والقرا ، ويقيظون في قرى الهيت وشهبا وعراجة والبثينة شرقي وادي اللوا ، وعددهم نحو ٣٥٠ بيتاً وعندهم ١٠٠٠

بيتاً ، وعندهم ٣٠٠ بعير و ١٠٠٠ شاة و ١٠٠٠ ماعز ، يقيظون في قضاء السويداء حول قرى الرحي والكفر وقنوات وعتيل والسويداء وسليم وبريكة ومفعلة والروم . ويشتون في هذه القرى أيضاً ولا يفارقونها ، وهم أفقر عشائر الجبل وأقلها مكانة ، وفرقهم الوهبان والمسالخة والسيفان والرمضان والنمر والشوافشة ، ورئيسهم عطية النمر وهو رجل رقيق الحال والمكانة .

السردية

السردية من أجل عشائر هذه الأنحاء وأكرمها محتداً وتاريخاً ، وينسبهم البعض إلى بني صخر العشيرة الأردنية المعروفة ، بينما العداء مستفحل والغارات لا تنقطع بينهم ، وهم تغلبوا فيما مضى على عشيرة السرحان التي كانت أقوى عشائر حوران في القرن العاشر ، وانتزعوا السيادة منها ، ودفعوها إلى الجوف ، وصاروا أحكام بادية حوران وعجلون ، وأقوياء وأثرياء جداً ، وقد جاء ذكرهم في كتاب (تاريخ الأمير فخر الدين المعني) للشيخ أحمد بن محمد الخالدي طبع بيروت ١٩٣٦ م ، وأنه كان لهم في القرن الحادي عشر شيخ كبير اسمه الشيخ رشيد ، وأن والي الشام حافظ أحمد باشا أعطاه مشيخة حوران ، وأن هذا الشيخ تنازع مراراً مع الأمير مدلج الحياري (أمير الموالي) ، وأنه كان له وجاهة وشفاعة عند الأمير فخر الدين المعني (ما بين سنة ١٠٢١ إلى سنة ١٠٣٤ هـ) ، ثم كان لهم شيخ اسمه المحفوظ السردي ، كان يزود ركب الحج بالأباعر ، ويحميه من تعدي البدو لقاء جعل من الدولة . وقد أيد ذلك السائح الدانياركي نيبوهر الذي زار بلاد الشام في حدود سنة ١١٨٠ هـ وقال إن شيخ السردية هو (الأمير) الذي يعتمد عليه والي دمشق ، وأيد ذلك أيضاً السائح الفرنسي فولناي الذي جاء في حدود سنة ١١٩٩ هـ والسائح السويسري بركهارت في سنة ١٢٢٤ هـ .

ثم قامت عشيرة بني صخر المذكورة ونازعت السردية هذه الوظيفة والمورد وآذتهم ، ثم لما جاءت عنزة من نجد تولى السردية رئاسة حلف أهل الشمال المؤلف من السردية والسرحان والفحيلية والعيسى ، وذلك لمدافعة عنزة (وخاصة الولد علي منها) ومنعها من النفوذ إلى براري حوران وشرقي الأردن ، لكن عنزة (الولد علي) تغلبت فيما بعد على هذا الحلف ومنه السردية وسلبتهم السيادة وأضعفتهم ، فنزح قسم منهم إلى غور بيسان واسمهم

هنـاك (الصقور) ، ونزح القسم الكلي منهم إلى البلقـاء في شرقي الأردن ، فتنـازع مـع بني صخر من جراء قيـام أحـد شيوخ الصخور طراد الزبن وطلبـه أخت متعب الكنج ، وتمنـع هذا ورجوعه إلى جبل الدروز يستنجد بالدروز فأنجـدوه ، وبـدأت الغـارات بين الصخور والسردية ونظم الشعراء عدة قصائد في ذلك .

حدثنا الشيخ سعود الذي سألناه عن تاريخهم روايةً غير مدعومة بوثيقة : « أن جدهم الأعلى اسمـه فـوازاً ولـه أخ اسمـه مـلاك ، ثم تحـارب هـذان الأخـان ، فـانهـزم مـلاك إلى فلسطين ، ومن ذريتـه عشيرة الصقـور في غـور بيسـان ، ثم عـاد مـلاك وتغلب على فـواز وأكرهه على النزوح إلى العراق واللجوء إلى إحدى العشائر ، وكان لفواز أخت حسناء أحبها شيخ العشيرة العراقية التي لجؤوا إليها وخطبهـا ، فطلب فواز مهلـة خمسـة أيـام للتفكير في الأمر ، فقبل الخـاطب ، وخلال المهلـة رحل فواز وقومـه وأسرعوا بـالرجوع إلى حـوران ، فوجدوا الصقور محتلين ديارهم ، فنازلوهم وأجلوهم وأعادوهم إلى بيسـان ، ومـا أن استراحوا حتى دهمتهم عنزة (الولد علي) فدافعوهـا عشرات السنين إلى أن تغلبت عليهم وأبعـدتهم إلى شرقي الأردن ، وأوقعتهم مع بني صخر بالغارات التي تقدم ذكرها .

وقال ؛ إن فوازاً أعقب ولداً اسمه كليبـاً ، ومنـه محفوظ السردي الـذي تقـدم ذكره ، وأن عشيرة السردية فرقتـان ؛ العون في مشيخـة كليب العوان ، والكليب في مشيخـة سعود الكليب ، وعدد العشيرة نحو ٢٥٠ بيتـاً ، وكانت منـازلهم حول قريـة القريـة وموردهم مـاء النبرة ، ثم في قرى حوت وبكة وأم الرمان وديبين .

أما الآن فـأكثر إقـامتهم داخل الحـدود الأردنيـة ، قرب جبل الـدروز ، وقـد تملـك الشيخ سعود هناك خربتين اسمهما صبحة وصبيحة ، تقعان بين أم الجمـال وأم القطين ، ولـه فيهما بيت حجر للشتاء وحراثين من أبناء العشيرة ، أما نجعتهم في الشتاء ففي أرض الجبانـة وقرب الأزرق وقد يصل بعضهم إلى قريات الملح .

وأهـل الشيـخ سعـود يعرفـون بـأسماء مختلفـة ، فعنزة يعرفـونهم بـالكنـوج نسبـة إلى كنج بن ظاهر أبو جد الشيخ سعود ، والدروز يعرفونهم بـالكليب ، والحورانيون يـدعونهم الفواز ، ونخوتهم راعي الحيزة وأخو ذيبـة . قـال بركهـارت عن السرديـة في سنـة ١٢٢٤ هـ

هؤلاء فرقتان الظاهر والواكد ، ولكل فرقة شيخ ، وعند السردية خيل طيبة ، وفي كل سنة يرسل والي دمشق لأحد شيوخهم هدايا من الثياب والسلاح ويتناول منه فرساً ، والشيخ الذي يكرم بمثل هذا يدعى شيخ حوران ، وعليه أن يعاون جند الدولة ضد كل تعد على حوران ، لكن السردية كالفحيلية قلما لبثوا بدون حرب مع الوالي ، وهم يأخذون ضرائب من قرى حوران ضعفي ما يأخذه الفحيلية » ، ا هـ .

والسردية على قِلّتهم فرسان مغاوير ، وعندهم شمم وغرور بنسبهم وماضيهم ، فهم يزعمون أنهم من أعقاب بني مخزوم الذين جاؤوا إلى ديار حوران في عهد الفتوح ، وبقي قسم منهم هنا تفرع منه بنو شهاب ، وهؤلاء نزحوا بعد في القرن السادس من حوران إلى وادي التيم ، والسردية من أجل ذلك يحسبون أنفسهم أبناء عمومة الأمراء الشهابيين ، على ما رواه لي أحدهم الأمير فائز عجاج الشهابي المشاور العدلي في مديرية العشائر في شرقي الأردن ، وفي تاريخ حيدر الشهابي أن الأمير بشير الشهابي الكبير لما نزح من لبنان عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) حذراً من غضب عبد الله باشا والي عكا ، لجأ إلى حوران فاستقبله هؤلاء السردية من حدود الجولان ، وعرضوا عليه معونتهم ، وساروا في ركابه ، حتى أوصلوه إلى شرقي حوران فأجازهم ، ومما يذكر للسردية أنهم اشتركوا في جيش الثورة العربية الذي قاده المرحوم الملك فيصل ، وجاؤوا صحبة سلطان باشا الأطرش وجمعه من فرسان الدروز ودخلوا معه دمشق في أيلول سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م) وكانوا وقتئذ في قيادة خلف الكليب .

الجوابرة

يزعمون مثل الحسن ، أن أصلهم من عشيرة زبيد التي كانت في هذا الجبل منذ القرن التاسع ، ومنهم من يزعم أن أصلهم من عشيرة الجبارة العراقية ، وأن بضعة بيوت من هذه العشيرة جاءت في القرن الحادي عشر ، واستقرت في شمالي جبل الدروز وظلت إلى يومنا ، وهم رعاة لدى الدروز وأجراء حراثه ، يشتون في الشمال الشرقي من الجبل في أنحاء تل الأصفر ، وربما امتدوا إلى جنوبي الغوطة ، ويقطنون في أنحاء الشهباء ومجيدل ، عددهم نحو ١٦٠ بيتاً ، رئيسهم سالم بن فياض المخاميس ، وقد توفي هذا وخلفه ابنه سوعان ، أما

فرقهم فهي المخاميس والمصابرة والشيبات والسلجان والتليتي والجهم والراهي والعلى ، ومنهم أناس في قضاء درعا مستقرون في شجرة التائهة شرقي المتاعية .

الغانم

هؤلاء فرقة من المساعيد ، استقلوا عنهم منذ زمن ، وصاروا يشتون بوحدهم في شرقي الجبل في وادي الراجل ، ويقطنون حول قرية سالة وطربا من مشاريق الجبل ، وهم ٢٠ بيتاً ، وبعضهم شركاء سليمان نصار من سالة . ورئيسهم نهاب الغانم

الحواسن

ينتمون إلى نفس الأصل الذي يدعيه الجوابرة أي إلى زبيد ، أو إلى عشيرة الجبارة العراقية يشتون في أنحاء تل الأصفر ، ويقطنون في جوار عاهرة وعمرة والشهبا ونجران وهم نحو عشرة بيوت ، رئيسهم عائد الكريم .

الربيدات

فرقة صغيرة أو أسرة من العظامات ، انفصلت منذ قرن ، وهي مستقرة في قضاء الشهبا ، وهم في رئاسة حسين الربيدات (المداحلة) يبلغون نحو أربعين بيتاً ، وينزلون في حدود جبل الدروز وحوران حول خربة وعري وجبيب ، وهم رعاة آل الأطرش ، رئيسهم مرزوق بن فلاح أبو مدحل .

☆ ☆ ☆



فصل جغرافي

بعض أنحاء البادية (أوعار اللجاة والصفا والراجل وديرة التلول)

لقد مر بنا في بحث عشائر محافظات دمشق وحوران وجبل الدروز ذكر الأوعار جمع وعرة ، أو الحرار جمع حرة المعروفة باسم اللجاة والصفا والراجل وديرة التلول ، وقد رأينا نفعاً في وصف هذه الأماكن هنا وصفاً جغرافياً وجيولوجياً وتاريخياً ، ليطلع عليها من لايعرفها من أبناء بلادنا ، لاسيا والمصادر العربية خالية من بحثها وبيانها على قربها من دمشق . وبذلك نكون قد أضفنا هذا الفصل على فصول (جغرافية ديار البدو) المنشور في الجزء الأول (ص ١٨ ـ ٦٥) فنقول :

يظهر أن بلاد الشام عامةً وكورة حوران خاصةً تعرضت إلى تفاعلات بركانية وهزاهز أرضية عنيفة ، خلال الحقب الجيولوجية الغابرة ، وخاصةً في الحقبة الرابعية وقد نتج عن هذا التعرض ، أن صعدت الحمم والطفوح النارية ، فتخللت الشقوق في كثير من الصخور المكونة لقشرة الأرض ، واندلعت على سطح هذه القشرة ، وتصلبت فصارت منها هذه الصخور الحرية المعروفة بالبازلت ، وأحدثت حراراً وأوعاراً عديدة هائلة المنظر ، كحرة الراجل وحرة الصفا وحرة اللجاة وأوعار الجيدور والجولان وحمص وحماة والعلا وغيرها ، وأوجبت انتشار حجر البازلت في كل مكان من تلك البلاد ولاسيا في حوران .

وفي شرقي غوطة دمشق وشرقي كورة حوران بقاع بركانية أو حرار (جمع حرة) غريبة الشكل ورهيبته ، هي اللجاة والصفا والحرة وديرة التلول وإليكم وصفها :

اللجاة

تقع اللجاة في شمالي حوران ، وتبلغ مساحتها نحو ١٤٠٠ كيلو متر مربع ، وطولها

من الشمال إلى الجنوب أربعون ، وعرضها من الغرب إلى الشرق خمسة وثلاثون كيلو متراً ، وحدها الشمالي قريتا براق وبويضان والشرقي الصورة الكبيرة وخلخلة ووادي اللوا ، وحدها الجنوبي وادي قنوات وقرى داما وجرين ووقم وبصر الحرير ، وحدها الغربي المسمية وخبب ومحجة وشقرة وإزرع ، ويقع نصفها الشرقي في قضاء الشهباء من جبل الدروز ، والغربي في قضاء إزرع من أعمال حوران ، واللجاة وما أدراك مااللجاة ؟ هي بحر خضم من الحمم والطفوح النارية ، تلاطمت أمواجه ردحاً من الزمن ، ثم خترت وخمدت وتشققت ، فكونت تلاعاً وتضاريس وشناخيب بينها أخاديد ، ولجج عميقة ، وفجاج ضيقة ملتوية ، وبدت في حالة غاية في الوعوثة وصعوبة المسلك ، وجهومة المنظر ، واسوداده ووحشته ، ويظهر أن الحمم والطفوح النارية التي كونت اللجاة خرجت من أربع آكام مخروطية بركانية مصطفة من الشمال إلى الجنوب حول قرية الشهباء ، وهي تل شيحان وتل الغرارة الكبير وتل الجمال وتل الغرارة القبلية .

على أن اللجاة لاتخلو من رقاع صغيرة من التراب صالحة للإنبات يتخذها أعراب اللجاة (عشيرة السلوط) للحرث والزرع ، وهذه الرقاع تشبه الجزائر المنتثرة وسط بحر لجي ، تتخللها مسالك ضيقة متعجة متيهة مخيفة ، قال السائح الفرنسي كيليوم ري في كتابه (رحلة في حوران سنة ١٢٧٤ ـ ١٢٧٥ هـ) ماتعريبه « ما من شيء يستطيع أن يوحي إلى الإنسان فكراً عن الأشكال الوهمية المتعلقة بالجن والعفاريت مثل الذي تعطيه سيول الطفوح والحمم المتجمدة في اللجاة ، لأن منظرها يشبه الأمواج المتعالية بتأثير عاصفة هائلة ، أو يشبه ماعلى ظهور السلاحف من الخراشف الضخمة الجبارة بعد تكسرها نصفياً » . ويشبه الدكتور دلبت رفيق السائح المذكور منظر اللجاة إلى « مايرى على سطح كأس ماء فيه رغوة صابون إذا عبثوا بها ونفخوها وأحدثوا فقاعات ، فالفقاعات في اللجاة هي من الطفوح والحمم النارية ، وبعضها منحرف وأجوف بالفعل ، ولاتجد في أي مكان أي أكمة مخروطية بازلتية مكونة تكويناً كاملاً » .

وعلى الرغم مما وصفناه فقد كانت اللجاة في العصور الغابرة ـ وهنا العجب ـ عامرة بالقرى والمزارع ، آهلةً بالسكان ، مزدهرة بالبساتين والكروم ، كما شهد بذلك ياقوت في معجمه ، ولاتزال آثار هذه ماثلةً كيفما اتجهت ولاسيا في أكنافها التي تدعى (لحف

اللجاة) ، فأنتَ أنى سرت في هذا اللحف تجد من الخرب القديمة في الجهة الغربية براق والمسمية وشعاره وكريم وايب ومليحة حزقيل وقلعة سماة والزباء والمجيدل والنجيح وقيراطة وجمرة والبوير وشقرة وإزرع ، وفي وسط اللجاة الطف وقبة دهمان وجسري وجدل ودامة العليا والزبيرة وجرين ومجيدل ومسيكة وصور اللجاة وحران وعاصم الزيتون وحامر وأم العلق وغيرها ، وفي جنوبي اللجاة بصر الحرير ونجران وريمة اللحف ودير الأسمر وجماح وبريكة ، وبعض هذه الخرب يسكنه أعراب اللجاة فيزرعون رقاعها المذكورة ، ويرعون ماشيتهم في مراعيها ذات العشب الجيد الذي ينتج سمناً فاخراً ، ومن غرائب البناء في هذه الخرب أن جدرانها وسقوفها وأبوابها ونوافذها ومغالقها مع كل ما يجب أن يكون من الخشب جميعه من الحجر ، وجله من المنحوت نحتاً حسناً ، وبعضه مزخرف .

وفي اللجاة رصيف روماني هائل يأتي من دمشق إلى بصرى عاصمة حوران القديمة ، وهو يخترق اللجاة من المسمية إلى السويداء ، وهو لا يزال ماثلاً للعيان يثير الدهشة والإعجاب بمقدرة الذين مدوه ، وكسروا هذه الشناخيب والصخور الصلدة ومهدوها ، وكان يحرس هذا الرصيف خمسة عشر مخفراً وسبع منائر عسكرية ، وكان في منتصفه مذبح أو هيكل مربع الشكل باسم أحد آلهة الأنباط المزعومة حراس أبناء السبيل ، ولعله اللات .

وكان في اللجاة كثير من الغابات الطبيعية والأشجار المثمرة وغير المثمرة المتنوعة كالبطم والصُر بضم الصاد وهو شجر شائك ذو ثمر أحمر كالزعبوب ، واللوز البري والرمان والتين والعنب والزيتون ، وكان فيها كثير من البساتين لا تزال أماكنها بارزةً للعيان شرقي قرية إزرع ، فكانت هذه الغراس الخضراء تخفف من جهومة منظر اللجاة ووحشتها ، وكان البطم كثيراً ، يعصر أهل قريتي جباب وخبب حبوبه في معاصرهم ويستعملون زيته ، لكن كل هذا قد فقد ولم يبق منه إلا أثر ضئيل جداً ، وأكثر من أفقده فيما قالوه جيش إبراهيم باشا المصري ثم كتائب الجند العثماني التي كانت مرابطة في ثكنة المسمية منذ سنة ١٣٠٤ هـ ، ويؤكدون أنه لو حمت الحكومة هذه البقعة لعادت إلى ما كانت عليه ، ثم أنه يوجد في أكثر مواقع اللجاة كهوف ومغاور كأنها محفورة بيد الجن وسط البازلت الصلد ، وبعضها عميق ويحدث سراديب متمعجة ، أو ردهات واسعة ومظلمة ، وقد كانت هذه المغاور مأوى الآدميين الأولين سكان الكهوف في عصور ما قبل التاريخ ، ثم صارت بعدهم

معتصمات ومعاقل للعصاة والمتمردين ، وملجأ لأشر الأعراب وأطولهم باعاً في اللصوصية ، ولا يزال الدروز يلقبون اللجاة بقلعة الله ، لأنها من أمنع الأماكن وأوعرها لمن أراد الاحتماء من غارات الجيوش المنظمة ، كما جرى لهم في وقائعهم المتوالية مع جيش إبراهيم باشا المصري سنة ١٢٥٤ هـ ، والجيش العثماني في سنتي ١٣١٥ و ١٣٢٨ هـ والفرنسي في سنة ١٣٤٤ هـ وغيرها .

ديرة التلول

في شرقي دمشق بل في شرقي بحيرة العتيبة التي تبعد عن دمشق ٢٥ كيلو متراً تمتد هضبة بركانية عظيمة منبسطة تدعى (ديرة التلول) ، لكثرة تلولها وآكامها ، يحدها من الشمال خان أبو الشامات على طريق سيارات دمشق ـ بغداد ، ومن الغرب سهل يعرف برمدان يمتد بينها وبين بحيرة العتيبة وفي هذا السهل ثلاثة أديرة بيزنطية ؛ الشمالي والوسطاني والقبلي ، ومن الشرق قفار الحماد الفسيح الآخذ نحو وادي الفرات ، ومن الجنوب حرة الصفا التي سيأتي وصفها ، وفي هذه الديرة عدة قمم مخروطية ذات فوهات بركانية منطفئة ، يظهر بعضها للواقف في أعالي حي المهاجرين في دمشق ، منها تل الدكوة (٩٤٥ م) ، وتل البراغيث وتل المطلة وتل حلاق وتل حويفير ورجم مارع وأم معزة وتلول الضراير وتل عكيس وتل مكحول (٨٤٤ م) ، وأكبر هذه التلول وأهمها تل العاقر وهو شيخ التلول وجبل أسَّيَسْ (٨٢٩ م) بتشديد السين الأول وفتح الياء وإسكان الثاني ، ويقع جبل أسيس في أقصى شرقي ديرة التلول وعلى بعد نحو ١٥٠ كيلو متراً عن دمشق إلى الشرق الجنوبي ، وفي حضيضه نبع ماء شحيح يسيل في الشتاء إلى مستنقع قريب يرده أعراب البادية في فصل الشتاء والربيع ، ويظهر جوار هذا المستنقع أنقاض أبنية واسعة كان يظن أنها بقية حصون ومخافر رومانية أو بيزنطية ، إلى أن كشف المستشرق سوفاجه الفرنسي حقيقتها ، وأثبت أنها آثار أموية شبيهة بغيرها من القصور الأموية التي في البادية ، كقصر الحير وقصر المشتى وقصر الخرانة ، ومباني أسيس مكونة من قصر ومسجد وحمام ومضافة وعدد من بيوت السكن وغير ذلك ، وقد بني القصر بشكل مربع طول جانبه نحو ٦٧ متراً ، وجدرانه الخارجية من أحجار بركانية غير منحوتة ، وله في كل زاوية برج مستدير ، وفي وسط كل جدار دعامة مستديرة ، وقد فتح بابه وسط

دعامة الجدار الشمالي . وهندسة هذا القصر تحمل على الظن بأنه من عهد الوليد بن عبد الملك ، وقبل الأمويين كان الرومان قد مدوا فيما مدوه في بادية الشام عدة أرصفة تخرج من دمشق إلى قرية الهيجانة ، أحدهما يمر من الدير الجنوبي (شرقي بحرة العتيبة) إلى جبل أسيس وما بعده ، والثاني يأخذ من قرية الهيجانة إلى بير قصاب وخربة أم السعد غربي الصفا إلى الزلف في شرقي جنوبي الصفا وما بعدها ، وديرة التلول منتجع عشائر غوطة دمشق كالجملان والنعيم والعقيدات ومن إليهم .

الصفا

إن سرت نحو الشرق الجنوبي من قرية الهيجانة التي في شرقي دمشق ، أو من قرى وادي اللوا وغيرها من القرى الشرقية في قضاء الشهبا في محافظة جبل الدروز ، وبعدت نحو الشرق في براري قفراء نحو ٢٠ ـ ٣٠ كيلو متراً بلغت حرةً أخرى أكثر وعوثة من اللجاة ، وأشد وحشةً ، وأشظف عيشاً اسمها (الصفا) ، ذكرها جرير في شعره . فقال :

هبت شمالاً فذكرى ماذكرتكم   عند الصفاة التي في شرقي حورانا
هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً   عيش طال ماحلولى ومالانا

والصفا ليست من أعمال حوران ، بل هي تقع إدارياً ضمن حدود قضاء دوما من محافظة دمشق ، كما تقع أيضاً ديرة التلول التي مر ذكرها ، وحدودها من الشمال ديرة التلول ، ومن الغرب البرية القفراء الفاصلة بينها وبين قرى وادي اللوا في جبل الدروز وقرى مرج الغوطة الجنوبية ، ومن الشرق سهل الرحبة والحماد ، ومن الجنوب وعرة إلقرا ووادي غرز وأمثاله من الأودية الهابطة من جبل الدرور نحو سهل الرحبة .

والصفا هضبة مكونة من الحمم البركانية ، وفيها عدد لايحصى من الآكام القليلة الارتفاع التي هي فوهات براكين ، وإذا قارن الناظر بين حرتي اللجاة والصفا ، تخيل أن تلال الصفا حديثة الانفجار بالنسبة إلى اللجاة ، أما من حيث المساحة فهي أصغر بقليل من اللجاة ، إذ يقدر طولها بـ ٣٥ كيلو متراً في مثله فيكون تربيعها ١٢٢٥ كيلو متراً مربعاً ، وتنتصب تلال الصفا المخروطية نحو ٣٠٠ ـ ٤٠٠ متر فوق مستوى الأرض المجاورة التي يبلغ معدل ارتفاعها ٥٠٠ متر عن سطح البحر ، وحجارة الصفا سوداء مستديرة

الشكل ، مصقولة تلمع كالمعدن الذائب ، ومن عاين فوهات براكينها يخال أنها تقذف حتى الآن سيولاً من المواد المصهورة ، وبين تلالها قناطر طبيعية تجمع بينها إذا عبرها الراجل ظن أن أنهاراً من النيران المتجمدة تسيل من تحته ، فمنظر الصفا في الجملة موحش هائل يحسب زائرها أن نيرانها لم تنطفئ بعد ، ومن الغريب أن فوهات براكين الصفا لاتنفتح عند قمتها ، بل على جوانبها في سند التلال فترى ثمة أغواراً مستديرة الشكل عرضها نحو ٣٠٠ متر في عمق ٢٠ ـ ٢٥ متراً ، وترى بعضها منعزلاً عن إخوانه ، وبعضها متصلاً لا يفصل بينها إلا جدران رقيقة من الزجاج الأحمر أو الأسود الضارب إلى الحمرة . وفي بعض الأماكن ترى للحمم أخاديد متوازية ، طولها بضع مئات من الأمتار . وقد فعلت الحرارة في هذه الحمم فشققتها وصدعتها ، حتى صارت كقعر مستنقع موحل .

والصفا قسمان شمالي يدعى (الضرس) وجنوبي خص باسم (الصفا) ، وفي الجنوب الشرقي من الصفا بقعة كثيرة البقايا البركانية تدعى (الخشبة) . وأعلى أكمة ذات فوهة بركان تدعى (أبا غانم) ، لها قنن مسننة من الحمم تشبه نديف القطن ، كأنها لهيب النار يميل بها الريح ، وثمة أكمة أخرى تدعى (الزنيتع) ، وهي أيضاً بركان قديم خرب قسم من جوانبه الخارجية فلم يبق إلا مدخنة تسندها بعض السواري المشرفة على هوة عميقة ، وعلى وجهه صفائح من الزجاج وشناخيب من الحمم ، تنتصب فتزينه بأطرافها المدببة ، وبين أكمتي أبا غانم والزنيتع تلان آخران مخروطيا الشكل يدعيان (المراطي) و (واسط) . ولا أثر للحياة في هذه البقاع البركانية الرهيبة إلا صنفاً من حزاز الصخر الرمادي اللون ، ملتصقاً بالحجارة السود ، وتحسبه عن بعد أنه منها ، إلا أنه في الشمال الغربي من الصفا وفي جنوبها الشرقي بعض التلال تنفرج ، فتنبسط خلالها بطاح يزرع فيها الأعراب من عشيرة الغياث بعض الزروع ، وقد عملت أيضاً عوامل الطبيعة في هذه الصخور والتلال فنحتت منها جانباً بقوة الأمطار والرياح ، فسالت دقائقها إلى البطاح المنخفضة . وتتجمع المياه في هذه البطاح المنخفضة فتخصب أي خصب ، وتصير منتجعاً لمواشي الأعراب من عشيرة الغياث الذين تقدم وصفهم ، ويدوم المنتجع حتى أبان القيظ ، وليس هناك مسيل ماء إلا في منعطف الجبل الواقع في شمالي غربي القسم المعروف بالضرس ، فإن هناك غاراً طبيعياً وسعته يد الإنسان يخرج منه جدول ماء يرده الأعراب المذكورون ويسمونه (عين أم النيران) .

وترى أيضاً في ردهات الصخور الطبيعية التي تقدم ذكرها نقراً يجتمع فيها الماء في الأعوام الكثيرة الأمطار ، ويتكون منها غدران تدوم أشهراً ، وتروي الأودية فتنعشها ، وتزكي نباتها وتنورها بالأزهار ، وإلى هذه الغدران يتقاطر البدو والطيور ، وأكبر هذه الغدران وأشهرها يدعى (الرحبة) ، وهو يستحق الوصف والتفصيل :

تقع الرحبة في شرقي الصفاء ، وهي بطيحة عظيمة ذرعها ١٢ × ١٧ كيلومتراً مما يعادل ٢٠٤ كيلومترات مربعة ، وتنصب في هذه البطيحة عدة أودية لا تحوي الماء إلا في فصل الشتاء ، وهي تنحدر من الصبب الشرقي لجبل الدروز ، وتتجه نحو الشمال الشرقي ، أشهرها وادي غرز ووادي الشام ، وثمة أودية تأتي من الحماد ، وتتجه من الشرق إلى الغرب أشهرها وادي الحمار ووادي التيس ، وقد يسمون هذه الأودية (أماليد جمع أملود) ، وهذه الأماليد وغيرها تجعل الرحبة في أيام الشتاء والربيع غديراً عظيماً أو بحيرة واسعة ، لا تلبث أن تجف إذا حل شهر أيار وحزيران ، فتصير شبه مستنقع موحل ، وللرحبة هذه منظر تقربه العين لا سيما إذا قابلت بين خصب تربتها واخضرار أعشابها وزروعها ، وبين القفر البلقع الذي حولها ، وهي تعد من أخصب بقاع بلاد الشام . ومن هنا كانت معيشة البدو (الغياث) فهم يزرعونها قمحاً وشعيراً وذرة فتغل لهم غلالاً عظيمة ، وربما أعطى الواحد مئة مثل ، ولخفة التربة في قعر مستنقع الرحبة وذكائها لا يستعمل البدو المذكورون المحراث بل قصاراهم أن ينثروا البزور بأقل نسبة عما ينثر في أماكن أخرى ، ويدفنوها بأدوات ومعاول يدوية بسيطة كمن يخربش التراب ، وذلك عقيب أمطار الخريف ببضعة أيام ، فتنبت بسرعة وتأتي الأودية الأربعة فترويها غزيراً ، وهؤلاء البدو يكلون زروعهم إلى حمى ولي يعتقدون به كل الاعتقاد ، وله ضريح وسط سهل الرحبة ويدعى الشيخ منصور سراقة ، ويقولون : أنه يعاقب سارقي الزروع أشد عقاب ، وحينما تجف مياه الرحبة ويقبل الصيف بحره يغادر هؤلاء البدو الرحبة ، ويتسلقون منحدرات جبل الدروز الشرقية ، بعد أن يكونوا خبؤوا غلالهم ومؤونتهم في حفر ومطامير في حمى الشيخ سراقة المذكور .

وكان الرومان يعرفون سهل الرحبة الخصب ، فأقاموا في جواره حصوناً ومخافر لرد غارات البدو ، ولا تزال هذه المباني ماثلة عليها كتابات نقشها الجنود الذين كانوا مرابطين

فيها ، أو نقشها الأهلون الـذين كانوا يلوذون بحماهم ، وقـد عمل الفرنسيون مثلهم بعـد ثورة سنة ١٣٤٥ هـ فأقاموا في سنـة ١٣٤٨ هـ في موقع الزلف إلى الجنوب الشرقي من الصفـا مخفراً بقي جندهم فيه عدة سنوات ، يوطد نفوذهم ويرد بائقة أعراب الصفا (الغياث) وغيرهم .

ومن الغريب أنـه رغم وعورة الصفـا ووحشتهـا وبعـدهـا عن المعمـور وقلـة رقـاعهـا الصالحة للزرع والضرع ، فقد كان في العصور السابقة للميلاد في وسطها وعلى أكنـافهـا التي تسمى اللحف عمران وسكان ، ففي وسطها قرى داثرة اسمهـا القلعـة والريسيـديـة وهمـا في شمالي الرحبـة ، وأخرى في غربيهـا تـدعى البيضـاء أو القصر الأبيض ، وداخـل هـذا القصر مقسـوم إلى مستطيلين غير متسـاويين ، وبـاب القصر مـزخرف بـزخـارف عربيـة ورسـوم حيوانات وثمة أحجار عليهـا رسوم طيور وأزهـار ، وهي تشبـه قصر المشتى الـذي في براري شرقي الأردن ، ولعلهـا من عهـد الملوك الغسـانيين ، وعلى أحـد روافـد وادي الشـام خربـة تدعى الكنيسة ، لا يزال فيها كنيسة سالمة في الجملة ، وفي الجنوب الشرقي من سهل الرحبة خربتا العديسيج وغرز ، وهذه الأخيرة على الوادي المسمى باسمها ، وفي لحف الصفـا الغربي خربة عظيمة يـدعونهـا خربـة الأنبـاشي ، (ولا نـدري أي أنبـاشي كان هـذا ، والكلمـة من المصطلحات العسكرية التركية ، فماذا كان اسمها قديمـاً ؟) . وهـذه الخربـة ملأى بـأطلال الدور والشوارع والقبور ، ويمتد في شمالها مع اللحف سور طويل خراب ، وثمـة غـديران : غدير الحاج وغدير العصابات أو القصابات .

وقد سكن الصفا في العصور السابقـة للإسلام شعب عربي لم يعرف اسمـه ولا تـاريخـه حتى الآن ، إنما استدلوا عليه من الكتابات المـذبورة على الصخور البركانيـة وعـددهـا يكاد لا يحصى ، خطت بقلم كان مجهـولاً إلى أن عرفـه العـالم الأثري الإسرائيلي يـوسف هـاليفي الفرنسي في حدود سنـة ١٢٩٨ هـ . وهـذا العـالم هو الـذي سـاح في اليمن في سنـة ١٢٨٦ هـ وكشف الآثار الحميرية والمعينية لأول مرة ، ثم أتم عمله في الصفا العالم ليتمان الألماني والعالمان دوسسو وماكلر الفرنسيان ، وقد وضع هؤلاء العلماء فيما اكتشفوه كتباً خاصة ، إلا أنه ليس في هـذه الكتـابـات الصفويـة يـا للأسف مـا يـدل على وقـائع وتواريخ ، بـل جلهـا أسماء أشخاص وأماكن وأدعية ونذور ونحو ذلـك ، يتقـدمهـا اسم راقم الكتـابـة . وكثير من هـذه الأعلام أسماء آلهـة قـديمـة مزعومـة أشهرهـا الإلـه ايل والإلـه سين ، وأسماء أخرى لم يتحقق

العلماء صحتها بعد ، وحروف اللغة الصفوية متوسطة بين لغتي الفينيقيين والحميريين ، ويظهر أنها بين القرن الثاني والرابع الميلاديين ، وثبت أيضاً أن لا علاقة بين أصحاب هذه الكتابات وبين الغسانيين الذين هبطوا حوران بعد ذلك العهد ، وظلوا حتى ظهور الإسلام ، وثبت أيضاً أن اللغة الصفوية هي إحدى اللغات العربية ، وشبيهة باللغات المستعملة في شمالي الجزيرة العربية ، وأكثر الأسماء الواردة فيها شقلان ومناعم وأسلم ومالك وأسعد ومحارب ولبيد ومعن ، وأجل كتابات هذه الأنحاء هي شاهدة قبر امرئ القيس بن عمرو التي وجدت في خرائب قصر نمارة في جنوبي الصفا على وادي الشام ، وهي أقدم أثر عربي منقوش باللغة العربية الشمالية (العدنانية) كما كانت عليه في أوائل القرن الرابع الميلادي وبالحرف النبطي الذي كان يكتب به عرب الشمال ، وقد عثر عليها المستشرق الفرنسي دوسسو في سنة ١٣١٩ هـ ، وامرؤ القيس هذا من اللخميين ملوك الحيرة (العراق) ، ويظن أن سلطته كانت ممتدة على قبائل العرب في باديتي العراق والشام معاً ، ولعله جاء إلى هنا لمحاربة الغسانيين فأدركه الموت فدفنوه في قصر نمارة ، أما في يومنا فيقطن وعرة الصفا وما حولها أعراب الغياث الذين قدمنا ذكرهم .

الإنسان الأول في حرة الصفا

قلنا أن في حرة الصفا خرب عديدة ، وقرى داثرة تدل على وجود عمران وسكان فيها في العصور السابقة للميلاد ، وقلنا أنه في اللحف الغربي من الصفا خربة تدعى (خربة الأنباشي) ملأى بأطلال الدور والشوارع والقبور ، إلخ ...

إلا أنه خلال طبع هذا الكتاب في شهري نيسان وأيار سنة ١٩٤٧ ، ذهب صديقنا السيد محمد علي صبري الخبير الجيولوجي في وزارة الاقتصاد الوطني وزار بعض بقاع الصفا ، ومنها خربة الأنباشي المذكورة ، ولشد ماكانت دهشته عظيمة عندما عثر على آثار لاتتفق مع مابلغنا وكتبنا أنها أطلال دور وشوارع وقبور ، بل وجد هناك آثار هياكل عظمية بشرية وحيوانية ، بعضها تحت طبقة بازلتية خفانية ، وبعضها تحت غطاء من الرماد البركاني الكثيف ، وبعضها في حالة عجين مندغم مع الحمم البركانية نفسها ، وعثر أيضاً في مكان يدعى (الهبارية) على أحافير (مستحاثات) بشرية وحيوانية ، انطبعت فيها العظام على حمم بازلتية ، كما عثر أيضاً على قطع صغيرة من الأحجار الصوانية المنحوتة

والمشذبة على هيئة سكاكين ، مما يدعى أدوات ظرانية كان يستعملها الإنسان الأول في عصور ماقبل التاريخ ، وكلها قد رأيناه ولمسناه ، وقلبنا معاً وجوه التفكير فيه .

وقد فتح هذا الاكتشاف الفجائي باباً جديداً للبحث الجيولوجي العلمي في حرة الصفا وما جاورها ، فقد ذهب الظن بل الترجيح إلى أن تلك العظام البشرية والحيوانية المحطمة ، لابد أن تكون عائدة إلى زمن سابق للحقب الرباعي الذي كثر فيه انفجار البراكين وصعود الحمم والطفوح النارية ، واندلاعها على سطح الأرض وتصلبها ، وصيرورتها الحرار والأوعار الهائلة المنظر ، ومنها هذه التي سميت بعد بالصفاة واللجاة والراجل وديرة التلول وغيرها .

وذهب الظن أيضاً إلى أن هذا الزمن السابق لابد أن يكون في أواسط العصر الأخير للحقب الثلاثي المسمى العصر البليوسيني ، الذي يعتقد الجيولوجيون نشوء الإنسان الأول خلاله . فإن صحت هذه الظنون تكون هذه الآثار التي اكتشفها الخبير الدمشقي الهمام أقدم من كل أثر جيولوجي عثر عليه حتى الآن في بلاد الشام ، وتكون هذه الحرار والأوعار قد طمرت أو قضت على أقدم إنسان وجد في بلاد الشام في عصور ماقبل التاريخ ، وأن هذا الإنسان الأول هو غير الإنسان الثاني الذي جاء بعد في عصور التاريخ القديمة السابقة للميلاد ، وسكن الصفاة ثم انقرض بعد أن أبقى كتابات عديدة على صخورها البركانية ، وكان له لغة سامية عربية خاصة دعاها علماء الآثار (اللغة الصفوية) ، كما ذكرنا ذلك في الصفحة ٨٣ .

أما كيف كان الإنسان الأول المذكور ؟ وقبل كم ألف سنة ؟ وكيف كانت حالته ومعيشته ومداركه ؟ وماذا حل به لما داهمته انفجارات البراكين التي أوجبت حصول حرار الصفاة واللجاة والراجل ؟ وهل هذه العظام المكدسة في (خربة الأنباشي) هي عظام الأناسي الذين طمرتهم الحمم كما طمرت سكان مدينتي بومبيء وهركولانو في إيطاليا سنة ٧٩ ميلادية لما ثار بركان فزوف على حين غرة ، أم هي عظام موتاهم في المقابر ، والأحياء وقتئذ هربوا ونجوا ؟ ذلك مالا يعلمه إلا الله . وعلى كل حال لاتزال هذه القضية المفاجأة ، وهذه العظام النخرة وقطع الحمم المعجونة فيها تلك العظام تحت البحث والدرس ، ريثما يصدر القرار الأخير عن عمرها ، وأصلها ، وكيفية حدوثها ، والتطور البشري والحيواني الذين نشأا عنها .

حرة الراجل

في الجنوب الشرقي من جبل الدروز وعرة عظيمة شاسعة تمتد جنوباً حتى وادي السرحان ، وشرقاً إلى محطة اجفور (حيفا رقم ٤) إحدى محطات شركة النفط العراقية ، وهذه الوعرة تدعى (الحرة أو حرة الراجل) لوقوع وادي الراجل في وسطها ، والحرة في اللغة الحجارة السود ، قال ياقوت في معجم البلدان : الحرة أرض ذات حجارة سود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار ، والجمع الحرات ، والحرات بين دمشق والمدينة كثيرة ، عد منها ٢٨ ، أعظمها شأناً حرة الراجل التي نذكرها ، قال النابغة :

يؤم بربعي كأن زهاءه إذا هبط الصحراء حرة راجل

وهذه الحرة مؤلفة من حجارة بركانية صغيرة مصفوفة كصف بلاط الطريق، قذفتها قمم جبل حوران كما قذفت حرتي اللجاة والصفا ، ويظهر أن قوة القذف نحو حرة الراجل كانت أضعف منها في الحرتين السابقتين ، فجاءت المقذوفات هنا ضئيلة وعلى غير اتصال ، فصخور حرة الراجل قد تشققت وتخددت وتقطعت على كر الدهور ، لا سيا بتسلط عامل البرد فسقط بعضها وتدهور ، وأثر فيها الهواء فسودها ، والسيول فدحرجتها ودملكتها ، وبين هذه الصخور رجوم مؤلفة من رضام ضخمة ، وفي منخفضاتها بطائح يدعوها البدو قيعان جمع قاع ، ويسقي الحرة وادي الراجل الذي ذكرناه ، ولذا نسبت إليه ، ويشتي في هذه الحرة أعراب الجبل الدرزي كالشرفات والعظيمات والمساعيد ، فإذا جاء الصيف صعدوا إلى جبل الدروز ، واحتلوا صببه الشرقي ، ويستدل من الرسوم التي على صفائح الحجارة بين الكتابات الصفوية أن عدة حيوانات كانت في هذه الحرة ثم انقرضت ، منها ضروب من الوعول والأسد ، ويظهر أن الحرة كانت في العصور الغابرة مأهولة ؛ تدل على ذلك أطلال المباني الحجرية ، والأدوات الظرانية ، وآثار المحافر ، والرصيف الروماني المتجه من صلخد نحو الخليج العربي ، أما الكتابات الصفوية فكثيرة ، وقد اجتازت الحرة السيدة الإنكليزية الليدي بلانت ووصفتها في كتاب رحلتها إلى نجد في سنة ١٢٩٦ هـ ، وقد تسنى لكاتب هذا المقال اجتيازها في صيف سنة ١٣٦٠ هـ (تموز سنة ١٩٤١ م) في طريقه من بغداد إلى المفرق ، وقد مرت سيارتنا في وسطها ، من طريق معبدة مقيرة مستقيمة من أحسن الطرق وأكملها ، شاهدة بمضاء عزم الذين فتحوها ، وشقوا

تلك الصخور القاسية ومهدوها ، وفي وسـط هـذه الطريق إحـدى محطـات أنـابيب النفـط العراقية ذات الرقم ٥ (اجفايف) ، وهذه الأنابيب قادمـة من كركوك في العراق إلى حيفـا في ساحل الشام .



عشائر محافظة حمص

هذه المحافظة واسعة (١٤١٦٥٠ كيلو متراً مربعاً) لكن أكثرها بادية خواء قواء ، وهي تتاخم في أطرافها الجنوبية الشرقية الحدود الأردنية والعراقية ، ومن ثم كانت مسرحاً وموئلاً لعشائر شتى ، بعضها ينزل في المعمورة في قضاء حمص نفسه ، وبعضها في البادية حول القرى المعروفة بالمناظر ، كتدمر والسخنة وأرك والطيبة والقريتين ، وبعض هذه العشائر من عنزة ، وبعضها من أعراب الديرة ، فمن عنزة في هذه المحافظة : قسم من الروالة والولد علي والسوالمة والأسبعة وكل الأحسنة ، يجاورها في داخل الحدود العراقية من عنزة أيضاً عشيرة العمارات التابعة إلى العراق ، ومن أعراب الديرة هنا : بنو خالد والفواعرة والعقيدات والنعيم والعمور والحروك ، كما أن في بوادي قرى المناظر عشيرة بدوية غريبة الوصف والحال تدعى (الصليب) ، وسنذكر جميع هؤلاء بالتتابع .

الروالة

ينزل قسم من الروالة ومعهم قليل من السوالمة رهط ابن جندل في القيظ حول بئر القمقوم وعين الجباة والفركلس وحسية ، وحين النجعة يلتحقون بفرق الروالة القادمة من الجولان والغوطة ، ويبلغون منطقة الخبرات في الحماد ، كما تقدم الكلام على ذلك ، ومكان الاجتماع في القريتين من أعمال محافظة حمص ، وللروالة في ناحية القريتين ثلاث مزارع : الأولى المحسة التي تبعد عن القريتين نحو ١٨ كيلاً إلى الجنوب ؛ يملكها الشيخ علي العرسان ، والثانية الباردة ، والثالثة البصيرى اللتان تبعدان عن القريتين نحو ٦٠ كيلاً إلى الشرق ، ويملكها الأمير فواز الشعلان ، ويزرع الشيخ خشم القعقاع في السبع آبار على طريق دمشق ـ بغداد ، ولا تعرف مساحة هذه المزارع ، ولا متى يجودها الغيث فتغل .

الولد علي

يأتي بعض الأفناد من ربع ابن سمير (الأمشطة) من منازله في قضاء الزوية إلى أراضي محافظة حمص ، ويتبدى فيها على نهج الروالة .

الأسبعة

تنزل فرقة المساربة من الأسبعة البطينات حول قرية أم حارتين في ناحية جب الجراح شرقي حمص ، وقد حاول أحد شيوخهم وهو صالح المسرب قبل عشرين سنة استملاك قرية تلول القطا من (أملاك الدولة) فلم يتيسر له ذلك .

الأحسنة

عشيرة عنزية صغيرة من ضنأ مسلم وبطن الوهب وفخذ المنابهة ، فهم بذلك أبناء أعمام الروالة والحلف وأشقاء الولد علي ، الذين يؤلفون كما قدمنا الفخذ الثاني من بطن الوهب ، ومن ثم كانت الأحسنة على أحسن الصلات وأمتنها مع أقاربها هؤلاء .

وأفخاذ الوهب وعشائره يترجحون بين نجد والشام ، وكثرتهم الغالبة اليوم في المملكة السعودية ، وكما غلبت في بلاد الشام عشيرة الروالة على جميع الأسماء التي هي من بطن الجلاس ، كذلك غلبت عشيرة الأحسنة على جميع الأسماء التي هي من بطن الوهب ، فصارت الناس تقول عن ضنأ مسلم أنهم فرعان : الروالة والأحسنة . لكنهم حينما يبدؤون في التفريع والتفخيذ يحسبون في حسابهم الفروع الأخرى .

وفخذ المنابهة الذي منه الأحسنة ، قد نزح بعض فرقه إلى نجد منذ سنين كالصقرة والقراشة والهيشة ، وبعض فرقه لم يأت إلى بلاد الشام بتاتاً كالفقراء الذين يعدون هم والأيدة عنزة شمالي الحجاز .

وعشيرة الأحسنة على قلة عددها وقصر ثروتها ، وانصرافها للاستقرار والتحضر وامتلاك القرى والأرضين قرب مدينة حمص ، لا تزال تعد من أجل عنزة قدراً ورهبة

جانب ، ذلك لما لها في المعارك السابقة من الصفحات الخالدة ، ولأن رؤساءها (آل ملحم) كرماء المحتد وذوو ماض مجيد في الفروسية ، ومقام علي بين بيوتات عنزة ، كما ذكرته الليدي بلانت الإنكليزية في سنة ١٢٩٧ هـ ، وأيده المقدم مولر الفرنسي على ما ذكرناه سابقاً ، لا سيما وأن جلالة الملك عبد العزيز آل سعود هو من فرقة المساليخ من الأحسنة ، وهو يجل قدر الوافدين عليه منهم .

والأحسنة في رأي المحققين هم مع الولد علي السابقون الأولون في القدوم إلى بلاد الشام بين عنزة كلها ، وقد قدمنا الكلام على كيفية خروجهم من شمالي الحجاز في أواسط القرن الحادي عشر ، وكيف أغاروا في طريقهم على الجوف ، ودحروا عشيرة السرحان وأنصارها من بني صخر وتديروا الجوف مدة ، ولما لم يكفهم ، زحفوا شمالاً نحو مشارف الشام فاجتازوا وادي السرحان وبلغوا مشارق عجلون وحوران فنازعتهم عشائرها القديمة (أهل الشمال) التي تكلمنا عنها ، لكنهم تقووا عليها وفازوا ، وشقت الولد علي لنفسها طريقاً إلى الجولان ، واستقرت فيه ، أما الأحسنة فقد استأنفت الزحف ، وبلغت ديرة الشنبل مشارق حمص وحماه ، فقاومتها عشيرة الموالي ، فما زالت تقارعها حتى أبعدتها نحو كورة العلا ، بعد أن كانت سيدة هذه الديرة منذ قرون ، ثم قارعت بعدها عشائر شمر الوافدة من نجد ، وما زالت بها حتى حملت هذه أيضاً على عبور الفرات والابتعاد إلى الجزيرة كما ذكرناه في بحث شمر ، ومن ثم وطدت الأحسنة أقدامها في براري حمص وحماه ، وفرضت السيطرة والقوة على قراها وقوافلها إلى أن وفدت بقية عنزة من ضنا بشر (الفدعان والأسبعة والعمارات) في أوائل القرن الثالث عشر ، فنازعتها القوة والعزة المذكورتين وأضعفتها كثيراً حتى أضاعت عطفتها لما هاجمتها مرة جموع مشتركة من الفدعان والموالي ، بحيث لم يبق في حدود سنة ١٢٦٧ هـ في عهد السلطان عبد المجيد حول الشيوخ آل ملحم إلا أفخاذ وأعداد قليلة ، ومن ثم صارت الأحسنة تلحق الروالة ، وتسير تحت لوائها ، وتتبع سياستها .

وقد ذكرها بر كهارت في رحلته سنة ١٢٢٤ هـ فما قاله : « هم أقل عشائر عنزة عدداً ، ويتألفون من فرعين ، الأول الأحسنة الأصليين ، وشيخ هذا الفرع مهنا ، ينزل البادية عادةً شرقي طريق دمشق ـ حمص ، إن شجاعة الأحسنة وكرمها وقراها الضيف مما

يضرب بـه المثـل ، وفرق هـذا الفرع العـويمر والرفـاصجـة والمهينـات والهـداج والشراعبـة والشمسي وهم أنبل الأحسنـة طراً ، ويقـال : أن البـدوي من هؤلاء الشمسي حـائز على كل مناقب البداوة الحسنة ، والفرع الثاني المساليخ يتبعون لواء المهنـا ويعـدون من حواشيهم ، وإن كانـوا أكثر عـدداً ، وفرقهم بني رشـود وبني طليحـات والبلسـان والسمالـك واللهتمي ، ويقـال : أن الأحسنـة كانت عشيرة واحـدة ثم تجزأت بين أخين ، إن الأحسنـة والمسـاليـخ يأخذون أتـاوات من القوافل المـارة من الشـام إلى العراق ، كما يـأخـذون خوات من القرى المتطرفة » . انتهى ما قاله بر كهارت قبل نحو قرن ونصف .

وذكر الأحسنة أيضاً محمد البسام في كتابه فقال :

« ومن عنزة آل فـاضـل ذوو البراز والتنـاضـل ، وهـؤلاء هم حكام عنزة سـابقـاً ، ويعرفون بـالأحسنـة » وجـاء ذكر الأحسنـة في حوران سنـة ١١٩٣ هـ في مقـال عن جبل عامل بحثنا عنه سابقاً في فصل تاريخ عنزة ، وكيف ردت الجموع المتألبة عليها من متـاولـة وسردية وصخور وصقور ، وكانت هذه المعركة بقيادة فاضل المزيد ، وجاء ذكرها أيضاً في تاريخ حيدر الشهابي في بحث مشاركـة مهنـا الفـاضل في سنـة ١٢٣٠ هـ جيش والي دمشق سليمان باشا السلحدار ، في هجومه على الفدعان وغيرها من عشائر عنزة القادمة إذ ذاك من نجد إلى ديـار سلميـة وحلب كما نقلنـاه في بحث عشيرة الفـدعـان ، قيل : إن الـذين ترأسوا الأحسنة منذ أن جاؤوا بلاد الشام هم : فاضل وعبد الله الفـاضل وجـديع القبلان المعروف بـأخي مودي ومهنـا ونـاصر ومحمـود ومـزيـد وفـارس وملحم ومحمـد وسعـود وفنـدي وطراد وثامر .

وجـاء ذكر الأحسنـة أيضـاً في (مجـوعـة المحررات السيـاسيـة في سـوريـا ولبنـان) ما خلاصته ؛ أنه في حدود سنة ١٢٧٥ هـ قام فارس المزيـد رئيس الأحسنـة النـازلـة حول القريتين ونزع إلى الثورة ، ولطالما كان على خلاف مع الحكومة العثمانية ، فجـاء إلى دمشق للصلح ، فلما أحس منها رغبـة القبض عليـه انسل من دمشق خفيـةً وجـاهر بـالعصيـان ، إلخ .. هذا وتاريخ الأحسنة طافح بأخبار المعارك بينها وبين شمر ، ثم الفدعـان والأسبعـة ثم الروالـة ، وعلى الأخص بينهـا وبين الموالي ألـد أعـدائهـا ، وهي قـد ظلت تقـارع الجميع وتبزهم في أكثر الأحيان ، ومن وقائعها التي تتناقلهـا الألسن تلـك التي حـدثت بينهـا وبين

الموالي خلال سني ١٢٨٠ ـ ١٢٩٠ هـ ، غزاهم فيها أمير الموالي أحمد بك ، وكان قصده اختطاف فتاة منهم اسمها (حربة المزيد) فردوه على قلة عددهم ، وقتلوه ودفنوه في بيت أحدهم الشيخ ملحم الفارس ، ولشعراء العشيرتين قصائد يفاخر بعضهم بعضاً بها ، درجنا شيئاً منها في بحث الشعر في البادية (جـ ١ ص ٣١١) .

وقد أدت تلك الوقائع المتكررة إلى ضعف الأحسنة منذ سنة ١٢٥٠ هـ ، وتناقص عددها الذي هو الأقل في كل عنزة منذ القديم ، واضطرت إلى أن تعزف عن البداوة ، وتنصرف نحو الحضارة ، فتملكت عدة قرى أو ضييعات شرقي حمص ، كالشيخ حميد والبوير وبرزة والمزرعة والجاسمية ، وصارت تحرث وتزرع ، على أنه لا يزال كثيرها يقيم في بيوت شعر ، وقليلها في بيوت المدر .

ومن رؤساء الأحسنة القدماء عبد الله الفاضل المشهور ، صاحب القصائد والمقطوعات التي يفخر بها بقومه على الناس ، ويشكو في بعضها الزمن حتى ضرب المثل به .

وخلال الحرب العامة الأولى أعدم الترك الشيخ محمد الملحم ، وقالوا : إن ذلك لشقاوته ونزواته العديدة ، وقال المرحوم الشيخ طراد : إن سبب الإعدام هو عزم محمد الملحم على اللحاق بالأمير فيصل بن الحسين حينما نهض بالثورة العربية ، فعلمت الحكومة التركية بذلك ، فألقت القبض عليه وصلبته .

وكان الشيخ محمد الملحم المذكور من الفرسان المغاوير ، تحدث عنه اسكندر يوسف الحايك اللبناني مؤلف كتاب (رحلة في البادية) ، وقد لاقاه في براري القريتين في نيسان سنة ١٩١٤ م ولبى دعوته إلى مضارب عشيرته ، فما قاله في وصف هذا الشيخ وعشيرته الأحسنة :

« وكنت لاحظت بأن بالشيخ عرجاً فسألته عن سبب ذلك ، فأجابني قائلاً : قتل والدي ، وكنت صغيراً قاصراً ، فانتقلت مشيخة عشيرتنا إلى عمي ، ثم اتفق أن قتل عمي ، فأراد أولاده أن يستأثروا بالمشيخة وكنت أولى بها منهم ، فتنازعنا وتحاربنا ، ولكني تغلبت عليهم في آخر الأمر ، وفي خلال المعارك التي دارت بيننا أصبت بضربة سيف في رجلي ، كانت سبباً لعرجي ، ولما كانت الوسائل الطبية والصحية بعيدة المنال في هذه

الفيافي ، لم يتسن لي أن أتعالج فبقيت على ما ترى ، قلت : وماذا فعلت بأبناء عمك بعد انتصارك عليهم ؟ قال : تركتهم وشأنهم ، حافظاً كرامتهم ساهراً على راحتهم كل السهر ، وهم الآن يعيشون معي ، لا حقد بيننا ولا ضغينة ، يعترفون لي بالمشيخة ، خاضعين لأحكامي نظير كل فرد من أفراد العشيرة ، ولا تعجب إذا قلت أنهم من أشد أعواني غيرة علي وحباً بي ، قلت : ألا تخشى غدرهم ؟ قال : حاشا وكلا ، إنما نحن عرب لا يغدر أحدنا بالآخر ، وإذا شاء أعرابي منا أن يحارب أعرابياً مثله حاربه علانية ، وأخطره قبل ذلك مراراً ، طالباً منه مطالب إذا رفضها وقعت بينهما الواقعة ، وإلى الآن لم يحدث في عشيرتنا ما يشتم منه رائحة الخيانة ، وما الخيانة إلا دأب الجبناء ، وليس جبان بين أبناء عمي ، فإنهم بأجمعهم بواسل شجعان ، ذوو نفوس عالية وأخلاق أبية ، وما زال الشيخ يحدثنا بالأحاديث اللذيذة إلى أن انتهينا إلى مضارب العشيرة ، وقد استقبلنا كوكبة من الفرسان ، بأهازيج الطرب وأناشيد الفرح ، قائلين : (تشريفشم غالي شتير) أعني : تشريفكم غالي كثير ، وكان جميعهم يرددون بالصوت الواحد : (يا مرحباً بالضيوف يا مرحباً) .

وما هي إلا هنيهة حتى شرعوا بألعاب رياضية تذهل الألباب ، وأهم ما يذكر حركات الخيل ، حين تهاجم الفرسان فإنك لترى الجواد مسرعاً من تلقاء ذاته إلى الموقع الملائم براكبه ، فإنه يدرك ما يجب عليه لتوفير العناء على الفارس .

لم أر بين هذا العدد العديد من الفرسان من يمسك بيده لجاماً أو رسناً ، بل كان كل منهم يلاعب فرسه ويديرها بإشارة يعملها بسيفه أو بندقيته أو رمحه ، لأن كلاً من الفوارس يحمل هذه الأسلحة ، وعلى صدره كمية كبيرة من الخرطوش ، والسيف على جنبه ، والبندقية في كتفه ، والرمح بيده الشمال ، ممدود عرضاً على السرج ، ومنهم من يضع البندقية بين أذني الفرس سانداً إياها على رأسه ، الفرس يركض ورأسه لا يتحرك ، ومنهم من يضع الرمح على السرج عرضاً متوازناً ، فلا يقع رغم كثرة الألعاب ، وسرعة الحركات واختلافها ، وكثير منهم يدورون تحت بطن الفرس ، ثم يعودون إلى السرج ، بينما الفرس تسير بسرعة البرق ، ومنهم من يطرح السيف على الأرض والفرس تنهب الأرض نهباً ، ثم يأخذه بقبضته ، ومثل هذه الألعاب كثيرة مدهشة ، أجروها أمامنا وأكدت لنا أنهم بالحقيقة أمهر الفرسان » اهـ .

وقد أدى إعدام محمد اللحم المذكور إلى أن تنحاز الأحسنة وقتئذ إلى القضية العربية ، فذهبت وناصرت المرحوم فيصلاً ، ونالت منه أعطيات كبيرة ، وكان الشيخ طراد وجماعته مع نوري الشعلان وخيالة الروالة حينما دخلوا دمشق في أيلول سنة ١٩١٨ م مع الجيش الفيصلي .

وفي سنة ١٢٥٢ هـ (١٩٢٩ م) وبعدها كان للأحسنة نصيب كبير في النزاع الناشب بين ضنأ مسلم وضنأ عبيد الذي انتهى بصلح عقد في المفوضية العليا الفرنسية في بيروت كما قدمنا في بحث الروالة .

ويذكر أن الشيخ فندي أبا الشيخ طراد كان حسن السيرة موفور الكرامة ، ولما أسن وعجز أودع المشيخة في سنة ١٣٤٣ هـ إلى ابنه طراد ، فقاد الشيخ طراد العشيرة أحسن قيادة ، وقد كان من مقدمي رؤساء العشائر في نباهة الجنان وطلاقة اللسان ومعرفة الذود عن حياة مصالح العشائر في المجلس النيابي ، وكانت صلاته كبيرة مع أهل حمص ، ومراجعاته لا تنقطع لدور الحكومة الوطنية وخاصة دور الاستخبارات الفرنسية في حمص ودمشق ، يلاحق ويحل مشكلاته ومشكلات غيره ، بما له من دالة الولاء لديهم ، وكان إلى ذكائه ونشاطه وفروسيته همام في أعمال الزراعة تواق إلى امتلاك الأرضين واستثمارها ، ومازال هذا دأبه حتى قتل ولقي ربه في كانون الثاني سنة ١٩٤٦م .

وسبب ذلك أنه شجر في عام ١٩٤٥ م بين عشيرتي الأحسنة والنعيم خلاف على أراضي من أملاك الدولة في موقع النهدين شرقي حمص ، كان الفريقان طلبا إحياءها من إدارة أملاك الدولة ، ولم يحيوها خلال المدة المضروبة ، ثم سبق الشيخ طراد ووضع يده عليها ، فعارضه النعيم وشكوه محتجين بأنهم أقدم منه في الطلب ، وألفت لجنة تحكيم قضت بتفويض الأرض للشيخ طراد ببدل المثل ، على أن يعوض النعيم بخلافها في مكان آخر ، فلم يرق هذا للنعيم ، وتعارك الفريقان وقتل من النعيم أشخاص ، كما قتل من الأحسنة بدر أخو الشيخ طراد وآخرون من رجالهم وعبيدهم ، فأكرهت الحكومة النعيم على الانسحاب نحو قرى إخوانهم في قضاء سلمية ، لكن الفتنة لم ترقد ، وظل الفريقان يتحفزان ويعتدي بعضهما على بعض ، وارتفعت شكاوى شركائهما في الغنم من أهل حمص ، وأهمل المسؤولون حسم الأمر إلى أن تفاقم الخطب ، وجاء اثنان من النعيم إلى دمشق أحدهما شاب اسمه

شلاش الناصر من فرقة الدخيلة ، فقتل الشيخ طراد الملحم في ساحة المرجة في رابعة النهار وأمام الناس في كانون الثاني سنة ١٩٤٦ م ، وقد أطلق عليه الرصاص وهو يهم بركوب سيارته ، وألقي القبض فوراً على القاتل المذكور ورفيقه أحمد عزو الحمد ، وقد ارتجت بلاد الشام وقتئذ لهذه الحادثة النكراء ، وحزن الجميع على المرحوم الشيخ طراد لما كان عليه من الخلال الحميدة ، ونقل جثمانه إلى حمص وجرت له جنازة حافلة ، وأسفرت المحاكمة عن الحكم بإعدام المجرمين ، إلا أن أحدهما أحمد بن عزو المحمد اعتبر متداخلاً فرعياً في الجريمة ، فأنزلت عقوبته إلى السجن بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات ، والمجرم الفاعل شلاش الناصر اعتبر غير مكمل السن الثامنة عشرة ، فأنزلت عقوبته إلى السجن مدة خمس عشرة سنة ، مع تغريمهما الدية الشرعية البالغ قدرها ٢٥٤٠٠ ليرة سورية تدفع بالتكافل والتضامن إلى ورثة المقتول ، مع منع كل منهما من الإقامة في مدة عشر سنوات في منطقته .

أما رئاسة عشيرة الأحسنة ومنصب النيابة فقد وسدتا أخيراً إلى الشيخ تامر نجل المرحوم الشيخ طراد بنتيجة الانتخاب ، وهو شاب في ميعة صباه ، نبيه نشيط ، ويرجى أن يكون خير خلف لوالده في المقدرة وإدارة العشيرة وإدامة سمعتها الطيبة القديمة .

هذا وعلى أثر حادثة القتل خشيت النعيم العاقبة ، وتهيأت للدفاع ، وتداخلت قوى أمن البادية في حمص وسلمية ، فأبعدت النعيم نحو الشمال إلى جبل البلعاس ، ومنعت وصول الأحسنة وأنصارهم إليها ، كما وقفت عشيرة الموالي في جانبها ، وقد نكبت عشيرة النعيم نكبة كبيرة من جراء هذا الابتعاد عن منازلها ومزارعها ، ومن سحب شركائها الحمصيين غنمهم من عندها ، ومن وطأة الذين تولوا المنع عنها والوقوف في جانبها وغير ذلك ، ولما تنته هذه المشكلة حتى طبع هذه الأسطر .

منازل الأحسنة ـ تفد الأحسنة عنزة محافظة حمص ، فبعضها يقيظ في الضيعات التي ذكرناها ، وبعضها بين قرى تل شنان والقصير وبحيرة قطينة ، وبعضها كالحجاج والأبي عيد والصقرة والمساليخ يبلغون سهل البقاع وأنحاء بعلبك ، وفي الخريف يفدون إلى حسية وصدد ، فإذا حل الشتاء ينجعون الحماد ويلحقون الروالة ، وسبيلهم إلى الحماد صدد ومهين وحوارين والقريتين وعين الباردة وعين هلبا في جنوبي تدمر ، ومنتهاهم داخل الحدود العراقية في منطقة الخبرات قرب الروالة ومعهم ، إلا أنهم لا يوغلون في الحماد بقدر الروالة ،

ولا يتجاوزون جبل التنف وخبرة الزرقا ، وأكثر الغنامة من الأحسنة لا يتجاوزون القريتين ، وفي الصيف تجذبهم بحيرة قطينة أكثر من غيرها ، والأحسنة في الجملة أصبحت لا تعد من أهل الإبل ولا من أهل الشياه بل هي بين بين ، وقد قصرت مدى نجعتها عما قبل ، إلا المساليخ فإنهم قد يبلغون الجوف في إيغالهم في الحماد .

فرق الأحسنة ـ قيل أن جدهم الأعلى هو وهب المعدود من ضنأ مسلم ، وأن وهباً هذا أعقب علي ، ومنه عشيرة الولد علي التي تقدم ذكرها ، ثم أعقب منبه ، ومنه عشيرة المنابهة التي سيأتي ذكرها ، فمنبه جد المنابهة أعقب ثلاثة إخوة : حسين ومنه الأحسنة ، وحسن ومنه المساليخ ، وخمعل ومنه الخماعلة ، فالأحسنة ينقسمون في يومنا إلى فرق عديدة ، هذه أسماؤها وأسماء رؤسائها ؛ الجحيم لخالد الخضر والشمسي لعلي المحينة ، والعويمر لفرج بن رشيد ، وهؤلاء صاروا مع الحديديين ، والقضة لربيع بن راشد ، والصقرة لسليمان الحسين ، وهؤلاء نزحو إلى نجد منذ سنة ١٩٣٣ م والشرابة لصقلان بن شامان ، والقبلان والملحم لثامر الملحم ، أما المساليخ فينقسمون إلى القراشة لابن رشود ، والهيشة لعجيل بن يعيش ، (وأسرة هذا الشيخ أقرب الأسر إلى جلالة الملك ابن السعود) والهتيني لجاسم المحسر ، والقراشة والهيشة متخلفتان في نجد والجوف ، أما الخماعلة فينقسمون إلى الحجاج لدعاس بن غبن ، ومن هؤلاء قسم قليل نزح إلى فلسطين منذ سنة ١٩٣٢ م . والفقراء لسلطان بن فقير والأبي عيد لملحم الخضر ، ويذكر أن رئيس المنابهة كلهم في بلاد الشام كان الشيخ طراد الملحم ، والآن ابنه تامر ، ورئيسهم في شمالي الحجاز هو سلطان ابن الفقير .

لواحق الأحسنة ـ أول لواحق الأحسنة هم العمور الذين منهم فريق التحق بالأحسنة ، وصار ينسب إليهم ، أو إلى آل ملحم ويدعى عمور الملحم ، وفيه ثلاث فنود ؛ البرقع لفاضل المطرود ، والعدوان لعواد الجلعوط ، والعليوي لمرعى البداح ، وثاني لواحق الأحسنة هم الفواعرة الذين سيأتي ذكرهم .

عدد الأحسنة ـ قيل أن عدد الأحسنة الأصليين المنابهة ٤٠٠ بيت ، وعدد لواحقهم ٣٠٠ فالمجموع ٧٠٠ بيت . وأن عدد أسرة الملحم نحو ٣٥ بيتاً فيه كثير من العبيد والخدم .

شجرة نسب آل ملحم ـ قيل أن أول من حفظ ذكره منهم هو مزيد الأول ، وقد أعقب هذا ملحماً الذي أورث اسمه هذه الأسرة ، وجاء من ملحم فاضل الذي كان في حدود سنة ١١٩٣ هـ على ما قدمنا في بحث عنزة ، وجاء من فاضل عبد الله الشاعر المشهور الذي انقطع نسله ومهنا ، ولعل مهنا هذا هو الذي ذكره بركهارت في سنة ١٢٢٤ هـ ، وجاء من مهنا عبد العزيز وأحمد ، ولعل هذا هو أحمد المهنا الذي قيل إن إبراهيم باشا المصري أعدمه ، وجاء من عبد العزيز مزيد وهو مزيد الثاني وأحسن من عرفت شجرته هو مزيد الثاني هذا ، تلاها لي المرحوم الشيخ طراد على النسق الآتي :

من مزيد الثاني جاء فارس وعبد العزيز وراجح .

أما فارس المزيد فمنه محمد وسعود وملحم وصفوق ، فمن محمد الفارس محي الدين وفرحان ، ومن محي الدين ماجد ، ومن سعود الفارس فندي ومحمد ، ومن فندي محمد وعبد الهادي وبدر (الذي قتل في حادثة النعيم) وطراد وعبد الرزاق ، ولطراد ولدان تامر وعبد العزيز ، ومن ملحم الفارس محمد الذي صلب في الحرب العامة ، ومن محمد السعود عبد الكريم الذي قتل في إحدى الغزوات ، ومن صفوق الفارس عودة وعيادة وعائد وشامان ، ومن شامان فواز ومنه أحمد ومحمد .

أما عبد العزيز المزيد فمنه رميح وعبد الله وسليمان ، فمن رميح العبد العزيز ، وأحمد ومحمد ودياب ، ومن أحمد وهب وعناد ، ومن محمد عبد الرزاق وصفوق ، ومن عبد الله العبد العزيز ودعار وعبيد ، فمن دعار ماجد وبشير ، ومن عبيد سعود ، ومن سليمان العبد العزيز فاضل ومفلح .

أما راجح الفارس فمنه فيصل ، ومن فيصل نوري ومحمد وهزاع ، فمن نوري الفيصل فيصل وطرودي وراجح ، ومن محمد الفيصل تركي ودعار ونايف وناصر ، ومن هزاع الفيصل ماجد ومحمد .

وفي آل ملحم فرع آخر اسمه القبلان ، أوله قبلان ، ومنه نايف ومصلح ، ومن مصلح ممدوح ، ومنه عبد العزيز وعبد الرزاق وعبد الهادي وفرحان .

العمارات

العمارات عشيرة عنزية كبيرة تقطن بادية العراق ، وهي الوحيدة بين عشائر عنزة في انضوائها إلى المملكة العراقية . ومنازلها تمتد على شاطئ الفرات شمالاً من كربلاء إلى عانة والبوكمال ، وجنوباً إلى حدود النفود ، وقد تبلغ في نجعتها أراضي نجد إذا لم تجد لأنعامها محلاً آخر ، ففي أوائل الربيع تجدها في الوديان غربي كربلاء وفي منخفض القعرة ، وفي الصيف تجدها إما على شواطئ الفرات ، أو مجتمعة حول الآبار والغدران في وادي حوران المتجه نحو الفرات ، وكثيراً ما كنت أصادف قسماً منها في سفري بالسيارات بين دمشق وبغداد ضاربة أطنابها حول محطة الرطبة الواقعة على وادي حوران ، ويقدر عدد العمارات بـ ٤٠٠٠ بيت .

والعمارات فرعان : الجبل والدهامشة ، وجبل ودهمش أخوان ، ففرع الجبل في رئاسة الشيخ محروث بن فهد بن عبد المحسن بن الحميدي بن عبد الله بن هذال بن عدينان بن جعيثن بن جمعة بن حبلان ، وكان الشيخ فهد ذا شأن في أيامه ، ويعد من أفذاذ الرجال ، وقد عمر طويلاً ، واشتهر بموالاة الحكومة العثمانية فمنحته لقب (بك) ، وابنه الشيخ محروث هو الآن شيخ مشايخ عنزة العراق ، ويملك كثيراً من حدائق النخيل في الرزازة وخان البغدادي وغيرهما من قرى الفرات ، ونخوة فرع الجبل (أخوة بتلة) ، وهذا الفرع ينقسم أولاً إلى بطن الحبلان ومنه آل هذال ، وفي هذا البطن أفخاذ آل عبد المحسن الرؤساء والجعيثن والسحيم والحسن وآل حسين والدشاش والهيازع والختارشة والغشوم والبسيسات والمداميغ والذيبة والعيير ، ثم بطن الصقور ، وفيه أفخاذ الجلال والدهمان والمصاعب والدلم والثويبت والعطيفات ، ثم بطن السلقا ، وفيه أفخاذ الشملان والمضيان والمطارفة .

أما فرع الدهامشة ففي رئاسة جزاع بن راكان بن مجلاد ، وفي هذا الفرع بطون العلي والمحلف والجلاعيد والسويلمات والسلاطين ، ولكل من هؤلاء أفخاذ عديدة يطول شرحها ، وقد كان فخذ الزبنة من بطن العلي من فرع الدهامشة جاء في سنة ١٣٣٨ هـ برئاسة محمد بن تركي إلى بادية الشام ، وبقوا خمس سنوات ، ثم عادوا إلى بادية العراق ، واستقاموا برهة ، ثم ساروا إلى نجد ، وذهب معهم جميع عشيرة الدهامشة ، وبقوا مترددين

بين العراق ونجد ، يتبعون الكلأ ، والآن منهم جماعة مع الشيخ محمد التركي ومناحي بن بكر ، وباقي أفخاذ الدهامشة الآن في نجد مع رئيسهم العام جزاع بن مجلاد .

وألد أعداء العمارات هم شمر ، وهذا العداء قديم وموروث منذ أكثر من قرن ، ومن ثم كانت الغارات بين هذين الجمعين المتجاورين متكررة ومتقابلة ، تكاد لا تنقطع ، إلا أنها قد فترت منذ عهد قريب ، واستقر الصلح بينهما الآن وحل الصفاء ، وكذلك العداء قديم بين العمارات والضفير إحدى عشائر جنوب العراق ، وكان الحرب أيضاً بينهما مستمراً في حدود سنة ١٣٤٥ هـ إلى أن أوقفته الحكومة العراقية .

وتعتمد عشيرة العمارات في تحصيل مؤنتها من الرز والتمر واللباس على قرى الفرات ، وسوقها الرئيسي وميناء صحرائها كربلاء ، فتشتري منها ومن شتاته مقادير كبيرة من التمر ، وهي متكفلة في يومنا للحكومة العراقية بحفظ الأمن والنظام على طريق الصحراء بين الشام والعراق .

بنو خالد

قال القلقشندي في كتابه نهاية الأرب عنهم : « بنو خالد عرب حمص بطن من بني مخزوم من قريش من العدنانية ، وهم رهط خالد بن الوليد ، وهم يدعون النسب إليه ، بينما أجمع النسابون على انقراض عقبه ، ولعلهم من ذوي قرابته من بني مخزوم » قال في مسالك الأبصار : « وكفاهم بذلك فخراً أن يكونوا من قريش ، وقد ذكر الحمداني أنهم من أحلاف آل فضل عرب الشام » ، وقال السيد أبو الهدى الصيادي الخالدي في رسالته الروض البسام : « وقد كان بنو خالد أعظم قبائل الشام شأناً ، وقد تغيرت الآن أحوالهم وضعف شأنهم ، فسبحان الذي لا يتغير ولا يزول ، وتتحير بصنعه العقول ، وقد انقسمت الآن عشيرتهم فرقاً ، منها فرقة آل القاضي بديار دمشق ، وبقية فرق العشيرة بديار حماة ، وهم عدة بطون منهم الصيالة والزمول والبنوة والشقرة وغيرهم ، والرئاسة فيهم إلى الشيوخ آل عبد القادر » ا هـ .

قلت يبدو من كلام القلقشندي أن بني خالد وجدوا في أنحاء حمص وحماة منذ القرن التاسع ، الذي كان فيه القلقشندي وربما من قبله ، وإذن يكونوا من أقدم عشائر الشام ،

وأكبرها عدداً وأعلاها نجاراً . لكن هذه العشيرة كما قال السيد أبو الهدى الصيادي انحلت على توالي الأيام ، وتقسمت إلى فرق تحمل هذا الاسم ، فبعضها في أقضية حماة وسلمية وحمص ، وبعضها في جبل شحشبو غربي قضاء المعرة وشمالي أفامية ، وبعضها في ناحية الرمثا من قضاء إربد شمالي شرقي الأردن ، وبعضها في مقاطعة القصيم غربي بلاد نجد ، وقسم كبير لا يزال في الحسا وهو الساحل الغربي من خليج البصرة ، ولعل الأصل من هؤلاء والتوزع والمجيء إلى بلاد الشام نشأ من هناك ، إما قديماً منذ القرن التاسع ، أو قبله لنثبت قول القلقشندي ، أو حديثاً في القرون المتأخرة لنثبت الرواية التي يتناقلونها ، قال فؤاد حمزة في كتابه (قلب جزيرة العرب) ص ١٤٦ تحت عنوان خالد : « هذه القبيلة من القبائل العربية المعروفة ، ومنازلها على الخليج العربي ما بين وادي المقطع من الشمال ، ومقاطعة البياض في الجنوب ، وتتوغل حتى منطقة الصمان في الغرب ، وأن قسماً لا يستهان به منها قد تحضر منذ زمن طويل ، واستقر في أنحاء عديدة من القصيم . وأفخاذ هذه القبيلة هي : العماير والصبيح وبنو فهد والمقدام والمحاشر والحبور والحميد ومنهم آل عريعر ، ومن الأفخاذ المتحضرة أناس في البحرين والقطيف ، وفي جزيرتي المساية وجنة وفي الجيل وقطر والحسا والفريفي والكويت والعقير » ، ا هـ .

ومن الأدلة التي توحي قدوم بني خالد في القرون المتأخرة ـ وقد يكون ذلك لحاقاً بمن سبقهم من أقاربهم الذين نوه بهم القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ـ أن بني خالد تقص روايةً في كيفية مجيئها من الحسا ، ننقلها لفكاهتها ، ولأن فيها ذكراً لأمراء الموالي الذين يبرزون في كل بحث ، ويذكرون بأنهم سادة بوادي الشام كلها ، قالوا : كان بنو خالد يعيشون في عهد قديم جداً في بلاد الحسا ، فجاءتهم ثلاثة أعوام شديدة المحل ، وكان لشيخ العشيرة إذ ذاك واسمه مشاري بن حميد بنت عابدة ناسكة ، تأوي إلى أكمة شاهقة ، فرأت ذات يوم حلماً قصته على أبيها وقالت : رأيت ماءً نقياً وثمراً شهياً ، والبعد من هنا إلى هذا الماء والثمر نحو اثني وعشرين يوماً على النجائب ذهاباً وإياباً ، وعلى القاصد أن يجعل نجمة القطب دائماً على يمينه قليلاً ، فأرسل أبوها ثلاثة رواد بلغوا في اليوم الحادي عشر تدمر ، فوجدوا فيها ما ذكرته ولما رجعوا حدثوا بما رأوه ، فعزمت العشيرة على السفر ، ولما بلغت تدمر لقت فيها أو في براريها عشيرة الوالي ، فطلب أمير الموالي من شيخ

بني خالد أن يزوجه ابنته العابدة الملهمة ، ولما تردد الأب وطلب مهلة للتفكير بادره الأمير بالتهديد والوعيد ، فغضب أحد إخوان البنت وهجم على الأمير وقتله ، ودارت على أثر ذلك معركة حامية ، نكب فيها بنو خالد وأرغموا على العودة إلى الحسا ، إلا أنهم بعد أن لبثوا في الحسا مدة مديدة خطرت تدمر على بالهم ، فقاموا وزحفوا إليها بقوة أعظم من قبل ، وخرقوا عمود الحمى الذي وضعه الموالي في مكان يقال له (الحوّة) ، لمنع عشائر نجد والحسا من النفوذ إلى مناطقهم ، ثم نازلوا الموالي في قرية سوحة غربي عقيربات ، فكسروا وقتل منهم أربعون عريساً ، فرجعوا وغابوا نحو قرن كامل ، ثم عادوا ونازعوا الموالي على ديرة الشنبل ، وتواقعوا في مرج الحمراء شرقي حماة ، وكانت وقعةً مروعةً صارت الدبرة فيها على الموالي ، قتل فيها أميرهم بيد خالدي اسمه أبو حنيك من فرقة النبيط ، قيل إن اسم الحمراء نشأ من أن تربة هذه القرية تخضبت بالنجيع الأحمر الذي سفكه الفريقان ، على أن هذا النصر لم يمكن الخالديين من الاستقرار في أنحاء حماة ، فانكفؤوا إلى أنحاء دير الزور ، وظلوا مدة غير يسيرة إلى أن صاروا يتوافدون زرافات زرافات ، ويتقوون كلما ضعف شأن الموالي وزالت روعتهم ، ولا يزال الخالديون يذكرون ثاراتهم عند الموالي ، حتى أنهم في كل مناسبة ينضمون إلى الأسبعة في نزاعها مع الموالي والحديديين كما جرى في سنة ١٩٤٢ م وكما جرى حديثاً في تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ م ، ومن وقائع بني خالد المشهورة تلك التي جرت بينهم وبين النعيم المسماة بوقعة معيان من أراضي بعلبك ، وكانت الغلبة لهم .

اشتهر بنو خالد بأنهم من أغنى عشائر الشام في عدد الماشية ، فعندهم فيما قيل نحو ٨٠٠٠٠ شاة و ٨٠٠٠ بعير ويقتنون من عتاق الخيل نحو ٢٠٠ رأس ، ويقيظ أكثرهم في شرقي محافظة حمص ، وبعضهم في شرقي قضاء حماة وشمالي قضاء سلمية ، وهم في الشتاء ينجعون أنحاء تدمر وبراري الحماد حول جبل التنف وجبل عنزة وخبرة الصلوبية وخبرة مرفية ، وقد يبلغون القعرة ومنطقة الوديان ، وهم لا يظعنون إلا بعد هطول الأمطار الموسمية في تشرين الثاني ، ومسلك نجعتهم جبل الشومرية فعين مران فالحجاز فعين البيضاء فالعليانية فالتنف ، ومنهم من يقيظ في براري الشامية في أنحاء السخنة وكديم والطيبة ، وإذا عادوا من نجعتهم في أواخر الربيع يتركون ماشيتهم في حدود أراضي المعمورة ، ويتوجهون إلى قراهم لحصادها ورجادها ، وحينما يسمح لهم بإدخال ماشيتهم في الحقول

المحصورة ، يبدؤون ببيع منتوج غنمهم من الصوف والسمن والخراف ، في أسواق حمص وحماة التي لهم فيها صلات طيبة .

وعدد بني خالد نحو ١٥٠٠ بيت ، منها ٩٠٠ تنجع الحماد في كل عام ، وفرقهم وأفخاذهم متعددة ومتوزعة جداً ، أولها فرقة الزمول ، وقد كادت هذه الفرقة تنقلب زرّاعة ، وتهجر البداوة والظعن ، وفيها من الأفخاذ ؛ الناصر وهو فخذ الشيوخ ، ثم أفخاذ الصبيحات والطعمة والنبيط والعليان والغنايم والعكارشة والزعيرات والنجاجير والمراوين والبريكات والرفيعيين والعجاجرة والمطايطة والعرار والصاغة والشليشات والحصوة والجرباوين . وهذه الأفخاذ يتراوح عدد كل منها بين ٢٥ ـ ٥٠ بيتاً ، وثمة فرق أصغر منها كالبياطرة والبطة والجبور والنهود والشمور ، والشقرة وهؤلاء ينتمون إلى بني حسن في شرقي الأردن ، والعدد في كل من هؤلاء ١٥ ـ ٣٠ إلا فرقة الرزيق فهي كبيرة ، وعددها ١٥٠ وتنقسم إلى أربعة أفخاذ ، ولها رئيس خاص وهو أحمد الشبلي ، ومثلها فرقة الرطوب التي عددها أكثر ، أي زهاء ٣٠٠ ولها عدة أفخاذ أيضاً في رئاسة محمود الدلي ، وجميع هذه الفرق في رئاسة الشيخ محمد بن عبد الكريم باشا الزراق الدندن مع وجود المخاتير لكل منها ، ومن بني خالد فرق قد بعدت عن العشيرة الأصلية كالزعيرات الضاربين في أراضي قضاء مصياف من محافظة اللاذقية ، وكفرق الخالديين القاطنين منذ أمد بعيد في جبل شحشبو غربي قضاء المعرة وقد انقلبوا فلاحين بتاتاً ، ومن هؤلاء فرق التويني والشقرة والبلوة والمضجي والرفيعي والصواجبة والفيافي ، وفي جنوبي المعرة من الخالديين فرق العرار والقيسي والنبيط والأبو غائب ، وفي جبل الأحص في قضاء جبل سمعان فرقة الصيالة ٢٠٠ بيت ، وفي ناحية جب الجراح شرقي حمص فرقة البوادي من الرطوب ١٥٠ بيتاً ، ومن بني خالد فرقة انفصلت في أواسط القرن الماضي ، واضطرت إلى النزوح لنزاع قام بينها وبين عشيرة النعيم فيممت وجهها شطر الجولان حيث منازل عشيرة آل فضل ، فلم تمكنها هذه أيضاً من الاستقرار ودحرتها فراحت إلى شمالي بلاد الأردن ، وتديرت ناحية الرمتا من قضاء عجلون ، وهي الآن هناك في مشيخة سعود القاضي ، ولها ثلاثة أفخاذ : الجبور والصبيحات والنهود ، ولكل من هؤلاء أفناد عديدة ، وجميعهم يأتون أحياناً للتقيظ في وادي اليرموك قرب درعا .

وكان بنو خالد الذين في ديار حماة ونعني بها فرقة النـاصر ، وهي فرقـة الشيوخ إلى قبل بضع سنوات يملكون قرى في قضاء سلمية كالخلة والعيور وصفينة وغيرهـا ، ثم بـاعوهـا من بعض سراة حماة ، وانزووا إلى بعض الخرب النائية من أملاك الـدولـة في شرقي وجنوبي ناحية جب الجراج من أعمال حمص ، واستأجروا في كل منها بضعة أفدنة كسيعيـد وأبوليـة ورسم الحجل والهبرة الشرقيـة والهبرة الغربيـة ومكسر الحصـان ، وهؤلاء من فرق الرطـوب والرزيق والنجاجير والغنايم والشمول .

وبنو خـالـد عـامـة عشيرة وديعـة ، معروفـة بحبهـا للهـدوء والسلم ، وإطـاعـة أوامر الحكومة ، لكنها لتفرق كلمتها ، ولوفرة غنـاهـا من الغنم والإبل ظلت عرضـةً خلال سنين عديدة لهجمات أخصامها من عنزة (ضنأ مسلم) ، ومن الموالي ومن النعيم ومن التركي إلى أن تم الصلح بينها وبينهم واستراحت ، وهي لعراقة نسبها ووسعة أماكن نجعتهـا واتحـادهـا مع بعض عنزة (ضنأ عبيد الأسبعة) وقت الحرب لم تتفق الكلمة على عـدهـا من عشـائر القسم الثاني (الرعية) بل من القسم الأول ، ويقدرون أن باستطـاعتهـا أن تحشـد للحرب ٤٠٠٠ خيال و ٤٠٠ هجان و ٥٠٠ مشاة مع كل منهم بندقية .

أما الرئاسة في بني خالد فهي منذ القديم في يد آل عبد القادر (وتلفظ عبد الجـادر) أعقاب الناصر الجد الأعلى للشيخ الحالي محمد بن عبد الكريم باشا الزراق الـدنـدن ، وبينهما فيا قيل ستة عشر شيخاً ، وهم عضيب والناصر وعـاصي النـاصر ونـاصر العلي وعبـد الجـادر الناصر ودندن العبد الجادر ومحمد الدندن وعلي الدندن وعبـد الرحمن العبـد الجـادر والحـاج درويش بن محمد الدندن وزراق بن محمد الدندن وحويش بن علي الدندن وعبـد الكريم بن زراق الدندن ومحمود عبد الجادر الدندن ومحمد الحويش الدندن ومحـمد بن عبـد الكريم بـاشـا الدندن ، ولما شاخ عبد الكريم باشا وتوفى بالفلج في سنة ١٣٤٣ هـ احتجن الرئاسة ابن عمـه محمود عبـد الجـادر الـدنـدن وهـو ضـابـط قـديم في الجيش العثمـاني ، ومن خريجي مـدرسـة العشائر ، لكن إدارته لم ترق للعشيرة ، فأكرهته على الاستقالة فخلفـه ابن العم الثـاني محمـد الهويش الدندن ، وهذا أيضاً لما لم يحسن الإدارة أكرهته بعد سنة على الاستقـالـة ، وقلـدت الرئاسة لمحمد بن عبد الكريم باشا ، لكن قريبيه المـذكورين ظلا ينـازعـانـه مما حمل مرة محمداً على الاستقالـة ، فعـاد رؤسـاء العشيرة في مؤتمرهم الـذي عقـدوه في سلميـة وأصروا على

بقائه ، فظل من ذلك الحين يقوم بالإدارة بجدارة ونشاط ، ويذكر عن المرحوم عبد الكريم باشا أبو الشيخ الحالي أنه نال رتبة الباشوية في عهد السلطان عبد الحميد ، وكان يأخذ هو وأفراد عائلته قسماً من أوقاف جامع سيدنا خالد بن الوليد في حمص ، لدعواهم الانتساب إليه أو إلى عشيرته بني مخزوم ، وكان هذا الباشا ذا خصال حميدة من الكرم والوفاء ، والحلم عند المقدرة ، والمكانة عند الحكام ، وقد بلغ في كرمه وجوده حداً حاتمياً ، حدثني السيد عبد القادر فهيم مدير ناحية عقيربات سابقاً أن هذا الباشا في سني الحرب العامة السابقة ظل ينفق على الجياع والمعوزين من عشيرته ، حتى لم يبق لديه شيء من الأثاث والمتاع ، سوى بندقيته ودلة قهوته وفروته التي جعلها غطاءه ووطاءه ، وجاءه بعد سائل فلم يجد ما يعطيه سوى البندقية ، فقال له : خذها يا هذا وبعها وأنفق ثمنها ، ثم احتفظ هو بالدلة وحدها لأنه كان لا يستغني عنها في قرى ضيوفه ، وما زال على هذا النحو حتى لقي ربه ، وقيل عن ابنه الشيخ الحالي أنه يقتفي أثر والده في الجود ، وحسن الخلق والتقى والعقيدة الوطنية والمبدأ القويم ، وهو بذلك ممدوح السيرة كثيراً .

شجرة نسب بيت دندن الخالديين : رأس بيت دندن هو محمد الدندن العبد الجادر الناصر ، وقد أعقب هذا الحاج درويش وعبد القادر وعلي وزراق ، فمن الحاج درويش جاء صالح ومن هذا درويش ، ومن عبد القادر جاء جمعة وعبد الرحمن ومحمود وأحمد ، ومن علي جاء حويش ومن هذا محمد ، ومن زراق جاء عبد الكريم باشا ومن هذا محمد (الشيخ الحالي) الذي منه ثلاثة أولاد عبد العزيز وعبد الرزاق وفجر .

الفواعرة

الفواعرة عشيرة حديثة النشأة ، في القرن ١٢ هـ ، لكنها غامضة الأصل والأرومة ، فقد ذكرت لي عنها ثلاث روايات ، الأولى : أن الفواعرة عشيرة متألفة من فرق عديدة ، اجتمعت في القرن الثاني عشر تحت رئاسة منشئها الأمير حسن الغنطار من آل فاعور ، أمراء عشيرة الفضل التي في الجولان ، وذلك على أثر نزاع حدث بينه وبين أقاربه آل فاعور ، فانفصل عنهم ليلتحق بالموالي ، وجاء وجمع حوله بعض الأنصار ودعاهم (الفواعرة) ، ثم رأى من أمراء الموالي عنتاً اضطره إلى هجرهم ، والمجيء مع أنصاره إلى

أنحاء حمص ، وأن أمراء الموالي غضبوا لهذا ، فصاروا يغيرون على الفواعرة ، ويكرهونهم على الرجوع إلى حظيرتهم دون طائل ، لكن متى كان ذلك وفي أي تاريخ ؟ هذا لا يذكره أحد . والرواية الثانية للشيخ فدعوس الرمضان رئيس الفواعرة الحالي أن الغنطار المذكور لم يكن من أمراء آل الفضل ، بل كان من أتباع أمراء الموالي ، ومن جملة الفرسان الذين بعثهم أمير الموالي لجلب الفتاة التي يدعونها (حمرة الموت) من طيء ، ثم ترأس هذا وجمع حوله لفيفاً من شتات الأعراب ، وجعلهم فرقة من فرق الموالي ولواحقهم ، ودعاهم (فواعرة) ، لكن متى جرى ذلك وفي أي تاريخ جرى ، وما معنى فواعرة ؟ هذا لم يجب عليه الشيخ فدعوس ، وأصحاب الرواية الأولى يمضون في حديثهم ويقولون إن حسن الغنطار لما مات خلف ابناً اسمه قريم أو كريم ، وكان يلقب بأمير الفواعرة ، إلا أن الرئاسة الفعلية كانت في يد أحد الموالى المسمى شبلي ، (وفي زعم الشيخ فدعوس أن قريم هو أحد أحفاد الغنطار وليس ولده) ، وقد عقب قريم ولداً هجر العشيرة ونزح إلى أمريكا في سنة (١٣١٢ هـ) ، وانقطعت أخباره فانقطعت بذلك سلالة الغنطار . والرواية الثالثة أن الرئاسة الفعلية في الفواعرة كانت لرجل من الموالي اسمه شبلي ، من فخذ العرامنة أورثها سلالته ، فتعاورها منذ قرن ونصف ، إلى أن استقرت لمحمد الشبلي خريج مدرسة العشائر ، لكن نازعه عليها اثنان من أقاربه ، هما درويش الشبلي وصفوق العفنان ، ثم لما مات محمد الشبلي وضعف شأن الاثنين المذكورين صارت الرئاسة إلى فدعوس بن شبيث الرمضان من فخذ العلقاوين ، ومشيخة فدعوس معترف بها رسمياً ، وله منحة سنوية من الخزينة ويزاحمه فهد العفنان الذي يدعي الأولوية .

فيظهر من هذه الروايات الثلاث المضطربة ـ شأن أكثر روايات البدو حينما تسألهم ـ أن الفواعرة وإن عد أصلهم من الموالي ويوالونهم ، إلا أنهم ليسوا من نبعة واحدة ، وقد كانوا أغنياء ونشيطين جداً ، إلى أن ضعفوا في السنين الأخيرة ، وتشتتوا ولم يبق من بيوتهم الخمسئة إلا نحو النصف في رواية فدعوس ، والفواعرة يعدون الآن من أحلاف الأحسنة ، وتفزع الأحسنة لهم في الشدائد ،كما أنهم أيضاً يفزعون للأحسنة مهما جرى بينهم .

وتاريخ الفواعرة من منتصف القرن الثلث عشر إلى منتصف قرننا الرابع عشر

طافح بأخبار الكوارث والنكبات التي لحقت بهذه العشيرة الصغيرة ، وسبب ذلك أن غناهم ونشاطهم أورثاهم حسد بقية العشائر وطمعها ، وجعلاهم مطمعاً للغزاة ، كلما توغلوا في البادية للنجعة .

ففي سنة ١٢٢٠ هـ كانوا في حرب مع الروالة ، وفي سنة ١٢٥٦ هـ مع الموالي والحديديين ، وفي ١٢٩١ هـ مع بني خالد ، وفي ١٣١٨ هـ مع الفدعان ، وفي ١٣٢٤ هـ مع التركي ، وفي ١٣٢٧ هـ مع الغياث وعشائر جبل الدروز ، وفي ١٣٤٠ هـ مع حويطات شرقي الأردن ، وأعظم غزوة دهمتهم ونكبتهم نكبة مفجعة هي ما جرى في سنة ١٣٤١ هـ ، إذ فاجأتهم عمارات العراق في قيادة الشيخ محروث الهذال حينما كانوا حول السبع آبار (١٤٩ كيلاً شرقي دمشق على طريق سيارات بغداد) فخسروا إذ ذاك ٥٥ بيتاً وأكثر من ١٠٠٠ بعير و ٦٠٠٠ شاة ، أما العداء والعراك بينهم وبين بني خالد والأسبعة البطينات فقد داما مدة مديدة إلى أن انتهيا بتداخل الحكومة وصلحها جبراً في حمص مع بني خالد في سنة ١٣٤٠ هـ ، وفي حماة مع الأسبعة البطينات سنة ١٣٤٣ هـ ، ولما نشب النزاع في سنة ١٣٤٧ و ١٣٤٨ هـ بين ضنأ مسلم وضنأ عبيد وقفت الفواعرة على الحياد ولجأت إلى المعمورة .

لهذه الأسباب والنكبات أخذ شيوخ الفواعرة وبعض أفرادها يميلون في السنين الأخيرة إلى الزراعة ، فشرعوا بإحياء أراضي في أملاك الدولة في عين مران شرقي الفركلس إلى الشمال ، وفي موقع هناك اسمه غدير شريفة ، وفي قرية أليسة غربي الفركلس ، وكانوا يملكون فيا مضى ثلاث قرى في شمالي قضاء سلمية هي التمك وأم التوينة والبويضة استخلصها منهم أو اشتراها بعض الأغوات البرازية في حماة ، وذلك خلال نزاعهم مع الموالي في سنة ١٣٢٠ هـ .

والفواعرة على صلات حسنة مستديمة مع أهل حمص والقرى المحيطة بحمص ، ولهم مع الحمصيين شراكة واسعة بالغنم والسمن والصوف ، ولا تزال هذه العشيرة تحسب غنية ونشيطة في الجملة ، ولا يزال أكثرها يتبدى وينجع نجعة كبيرة إلى الحماد ، مع الأحسنة والروالة ومسلكهم يبدأ في الفركلس حيث يجتمعون فيها في أول الأمطار الموسمية ، ثم يزحفون نحو عين القمقوم ، فالغنتر فعين الباردة فبئر البصيري فالحفير فبير هلبا فالسبع

بيار ، ثم يتوغلون في الحماد ويبلغون منطقة الخبرات (خبرة الشامية وخبرة رمانة وخبرة الزرقاء) ، وفي الربيع يعودون من المسلك نفسه ، ليجتمعوا في حمص في نيسان وأيار ، ويقدرون أن عدد الفواعرة ٥٠٠ بيت أكثرهم رحالة أهل ضرع وقليلهم أهل زرع ، وأن لدى الرحالة منهم نحو ٣٠٠٠٠ شاة و ١٥٠٠ بعير و ٨٠ فرساً ومنتوجهم السنوي ٥٠٠٠ قنطار صوف و ٦٠٠ قنطارسمن و ١٠ ـ ٢٠ ألف خاروف ، وذلك حسب السنين ، وأن ثلثي غنمهم لهم وثلثه إلى شركائهم من الحمصيين في الغالب ، ثم لبعض قرويي حمص وبعلبك . وهم ينتشرون في فصل الصيف زرافات صغيرة في جنوبي حمص وشمالها وغربها وشرقها ، حول قرى فيروزة والجديدة والشومرية وسعن الأسود والمشرفة وتل بيسة والرستن وحسية والقصير وقطينة ، وقد يبلغون خربة التين في الوعر غربي حمص ، وفي السنين الماحلة يزحفون نحو غربي حمص إلى سهل البقيعة وسهل عكار ، وهم يدخلون المعمورة قبل موسم الحصاد ويؤجرون أباعرهم في الرجاد ، ومنهم من يفعل ذلك في بلاد حوران .

ورئيس الفواعرة الحالي هو الشيخ فدعوص الرمضان ، ونسبه فدعوس بن شبيث بن رمضان بن عبد الحي ، قيل إن رمضان بن عبد الحي أعقب ثلاثة أولاد : شبيث وحميد وهليل ، فمن شبيث جاء فدعوص وعيفير وزنكا وجلعوط ، ومن هليل جاء أسمر ورمضون ، ومن زنكا رحيل وجربوع ، ومن جلعوط جاء صلوبي ، وللشيخ فدعوس الآن من الأولاد أحمد ومحمد ومحمود ، وأكثر إقامة هذا الشيخ في فصل الصيف حول السعن الأسود شمالي حمص ، ليكون على مقربة من شركائه الحمصيين ، وخاصة مع المدعو طه اللبابيدي ، ويذكر من وجهاء الفواعرة صفوق العفنان ومشرف العدلان ، وكانا على اتصال مستمر مع الشيخ طراد الملحم الذي كان يحاول بسط سيطرته على الفواعرة ، وقد اشتركت الفواعرة في الخلاف الذي نشب بين الأحسنة والنعيم وأنجدت الأحسنة في المعركة ، ولا تزال الفتن بينها وبين النعيم متواصلة إلى حين كتابة هذه السطور .

وقد نكبت الفواعرة في ربيع عامنا هذا (١٩٤٧ م) في منتجعاتها في الحماد بعاصفة رملية هوجاء قضت على الكلأ الذي كان قليلاً ، وأهلكت نحو ربع ماشيتها من الجوع والعطش ، إلى أن أدركتها قوى البادية وسياراتها بالماء والغذاء ، ونقلتها هي وماشيتها إلى المناهل والمراعي في غربي تدمر ، ولولا ذلك لقضي على هذه العشيرة ، وقد جرى مثل ذلك أو أقل في عشيرة الأحسنة والبوخميس والجملان وغيرهم أيضاً .

فرق الفواعرة :

١ - (العلقاوين) ٢٦٠ بيتاً ، رئيسهم صفوق العفنان ، أفخاذهم : العقلة والموسى والعبد الحي والخلاوين والحسينيين والسليمان .

٢ - (الحناحنة) ٩٠ بيتاً رئيسهم فرج أبو سليمان العواد ، أفخاذهم ؛ العرافي والشويشات .

٣ - (المعيدين) ٤٠ بيتاً ، رئيسهم خايل السليم ، أفخاذهم ؛ المشلا والممدوح .

٤ - (الطاريجة) ٥٠ بيتاً ، رئيسهم عبد السليم ، أفخاذهم ؛ الجبات والشهلة .

٥ - (البهادلة) ٥٠ بيتاً ، رئيسهم علي الوهبان ، أفخاذهم ؛ الخليفات والجروح والهدال .

٦ - (التويمات) ٥٠ بيتاً ، رئيسهم صلبي العزاوي ١٥ منهم لحقوا راكان المرشد شيخ الأسبعة البطينات منذ ربع قرن .

٧ - (الزيادنة) ٣٠ بيتاً ، رئيسهم محمد الدرويش القريشة .

٨ - (العرامنة) ٢٥ بيتاً ، رئيسهم درويش الشبلي .

٩ - (لهنادزة) ٤٠ بيتاً ، رئيسهم مشرف العدلان . أفخاذهم ؛ القراق والفاضل .

١٠ - (العبيد) السودان المنشقون عن الحناحنة ، ١٢ بيتاً رئيسهم حميدي العبود العيسى .

آل نعيم

نعيم حمص - هم أقارب نعيم الجولان الذين تقدم ذكرهم ، لكن هؤلاء يدعون الانتساب إلى رجل من السادة الهاشميين اسمه (الشيخ نعيم) ، ويزعمون أنهم قدماء في شمالي الشام ، وأن أمير الموالي صاحب السيادة العليا في هذه الديار قبلاً أراد أن يكافئهم ، فاستحصل لهم على إرادة من أحد سلاطين آل عثمان تعفيهم من الضرائب ، فأثار ذلك حسد العشائر عليهم ، وبدء النزاع وانتهى الأمر بإخفاق النعيم ، ورحيلهم من أنحاء حلب إلى حماة ثم إلى حمص ثم إلى الجولان ، ولحق بعضهم عشيرة جيس (قيس) في شمالي الجزيرة

الفراتية ، فصار في كل مكان فرع من النعيم مفترق عن الآخر ، ويذكرون أيضاً أن من عقب الشيخ نعيم جاء عز الدين ، ومن هذا جاء محمد جد النعيم ، وعبد الرحيم جد جيس ، وفخر جد العتيق ، وعثمان جد بوحيار ، فإذا صح ذلك تكون هذه العشائر الأربع قريبة ومن نجار واحد .

وإذا كنا قدمنا بحث الذين في قضاء الجولان من محافظة دمشق ، نذكر الآن الذين في قضائي حمص وسلمية ، على أن الذين في حمص أكثر من الذين في سلمية ، ومجموع الفريقين نحو ألف بيت .

والنعيم في قضائي حمص وسلمية أهل ضرع وبادية في الأصل ، ومنهم أهل زرع وفلاحون تحضروا واستقروا بتاتاً ، فأهل الضرع منهم ينجعون الحماد ، ولكن لا يبعدون كثيراً ، فهم إذا حل الشتاء يجتمعون في ضواحي الفركلس ومنها يجتازون بئر بصيري وعين البـاردة ويبلغون الحماد حول جبل التنف وخبرة مرفية وما إليها ، أما في الصيف فنعيم حمص يقيظون حول قرى المشرفة وتل بيسة وقطينة وعز الدين ، ونعيم سلمية حول قرى سنيدة وجملة ودنيبة وخنيفس ومرج الخصيبة ، وبعض النعيم قد تحضر واستقر في قرى عز الدين وسليم والرضيفات ومزرعة دلفين والبطمة .

ولعشيرة النعيم عدة حروب ومواقع مع أخصامها بني خالد والفواعرة ، تارة غالبة وتارة مغلوبة ، وفي العام الماضي شجر خلاف بينها وبين الأحسنة بيناه في بحث الأحسنة ، هذا على أن النعيم تعد عشيرة وديعة في الجملة ، وغنية ومشهورة بالكرم والتقى ، ومن ثم كانت على أحسن الصلات مع سكان قرى حمص وسلمية ، وهي تشارك في تربية الغنم كثيراً من الأسر الحمصية كالأتاسية والدروبية والجندية والرفاعية ، وغيرهم من تجار حمص وحماة أيضاً ، ويقال أن لدى نعيم حمص ٦٠٠٠٠ شاة و ٢٥٠٠ بعير و ٧٠ فرساً . ولدى نعيم سلمية ٣٠٠٠٠ شاة و ٨٠٠ بعير و ٤٠ فرساً .

أقسام النعيم ـ قال بعضهم : النعيم قسمان الفخر والمحمدية ، فمن الفخر الطحان الذين في الجولان ، والعتيق الذين في شمالي لبنان ، والأبي حيار الذين في غربي حماة وأهل عز الدين في جنوبي سلمية ، والطويلع في جنوبي حمص وحول النبك ، ومن المحمدية نعيم

حمص الذين يسمون أيضاً نعيم الرملة المعاقير والنيرات والحزوميين ، ومن المحمدية نعيم حلب الذين ينقسمون إلى آل إبراهيم والخرفان ، ومثلهم نعيم الجزيرة ونعيم العراق الذين في أنحاء كركوك ، وقال آخرون عن نعيم حمص وحدهم أنهم : ينقسمون إلى جذمين ؛ الحزوميين والنعيم الأصليين ، فالحزوميون نحو ١٢٠ بيتاً وشيخهم مثقال الباشان ، وفرقهم الباشان والعطو والحصيدة والرومي والجبل والنيرات ، ومنازلهم أنحاء القصير وغربي العاصي ، ومن هؤلاء الحزوميين قسم في الجولان يلحق عشيرة الفضل في مشيخة موسى الأحمد الشمالي .

والنعيم الأصليون نحو ٤٠٠ بيت . وفرقهم السيد والعبيد والطبيشات والعصفور والبطمة وأهل عز الدين والناصيف والهميش والإبراهيم والبجارة والخليفات والزواتنة والدغيلة . وشيخ نعيم حمص سعود الحسين المحمد من فرقة الناصيف التي هي أبرز فرقة بينهم ، وشيخ نعيم سلمية جاسم الحسين وصفوق المحمد ، وشيخ فرقة عز الدين حسين السلامة ، وشيخ فرقة العصفور نايف الخالد ، وشيخ فرقة البطمة عزو الحميد .

هذا وفي غربي حمص وشرقها وجنوبها أربع فرق من النعيم ، انشقت عن العشيرة الأصلية وابتعدت ، وهم : الثقيف في قرية المنزول ، والطويلع رعاة قرية القصير وقرى دير عطية والنبك في قضاء قلمون ، والعتيق رعاة وحراثون وادي خالد في شمالي لبنان قرب تلكلخ ، وهؤلاء يعدون من تبعة الجمهورية اللبنانية ، لارتباط هذا الوادي بلبنان ، على أن بعضهم لا يزال داخل الحدود السورية في قضاء حمص ، والمعاقير في وعر حمص وغربي بحيرة قطينة ، وتعد هذه الفرق المنشقة نحو ٥٠٠ بيت .

الحروك

عشيرة صغيرة مستقلة ، عددها نحو ١٠٠ بيت ، أفنادها المرامشة وبيت جريبان وبيت شاهر واللويسات ، وهم في مشيخة عيسى الفياض ، ينزلون في أراضي صدد ، ويذهبون في أيام الرجاد إلى نوى حوران ، ويرتزقون من رجاد زروعها ، وفي بعض السنين يبلغون الجولان ، ويعدون من لواحق آل فضل وأتباع الأمير فاعور .

العقيدات

عقيدات حمص ـ هؤلاء فرق مستقلة بعضها عن بعض ، أصلها من عشيرة العقيدات الكبيرة في محافظة الفرات ، وسيأتي ذكرها في بحث عشائر تلك المحافظة ، وقد جاؤوا إلى هنا فيما زعموا هرباً من الخدمة العسكرية التي أرادت الدولة فرضها عليهم ، فعقيدات حمص يبلغون نحو ٣٧٥ بيتاً ، وهم أهل ضرع وبادية في الأصل ، لكن كثيراً منهم قد تحضر واستقر في بعض قرى أملاك الدولة، وأصبح أميل إلى الحضارة من البداوة ، فبعضهم كفرقة الأبي بكير والأبي هرموش ينزل حول قرى الرستن ودير فور ، وبعضهم كالأبي سرايا ينزل في الداسنية غربي العاصي ، وثمة بضعة بيوت من المشاهدة القادمين مع العقيدات من الفرات ، استقروا في جنوب بحيرة حمص ، وتشتي فرق العقيدات إما في الغرب في سهل البقيعة ، أو سهل عكار عند نهر الكبير ، وإما في الشرق فتبلغ عين البيضا وخبرة رمانة تذهب إليها عن طريق عين مران أو الفركلس ، وهم شركاء الحمصيين في تربية الغنم ، أما فرقهم وعدد بيوتهم فهي الأبو بكير ٥٠ رئيسهم حاجم الأحمد ، والأبو هرموش ١٥٠ رئيسهم أسعد الغاطي والأبو شعبان ٦٠ رئيسهم أحمد المطر ، والأبو عساف ١٠٠ رئيسهم حميد السيد حسين .

العمور

تقدم ذكر بعضهم في بحث عشائر قضاء قلمون ، وهم كما قلنا من الرحل ، ويحسبون من عشائر محافظة حمص ، إلا عمور المهارشة فإنهم من عشائر محافظة حماة ، ومهما كان فالعمور عشيرة متفككة منشقة إلى فرق مستقل بعضها عن بعض ، كانت تؤلف قديماً وحدة متماسكة قوية الشكيمة ، أصلهم فيما زعموا من نجد ، ولهم ثمة أقارب يدعون المنديل ، كما أن الغياث في الصفا والجوابرة الزبيد في جبل الدروز من أقاربهم ، وهم جاؤوا إلى بلاد الشام قبل عنزة في أوائل القرن الثاني عشر ، ونزلوا بين سلمية وتدمر وحماة ، وكانوا أول أخصام الأحسنة حينما جاء هؤلاء يريدون اقتحام ديرة الشنبل ، وقد صدوا الأحسنة بمعونة الموالي في معركة دارت في ضواحي حمص ، ثم انقسمت العمور بعد ذلك إلى أقسام مشتتة عديدة لا علاقة لبعضها مع بعض إلا علاقة القربى ؛ وهي عمور أبو حربة وعمور

الخرسان وهؤلاء مستقلون ، وعمور الملحم الذين لحقوا الأحسنة ، ثم عمور المهارشة الذين لحقوا الحديديين ، ثم عمور الجراح الذين لحقوا فدعان الولد ، ثم عمور الفراع والعمري الذين لحقوا الأسبعة الأعبدة ، ثم عمور المنديل الذين لحقوا شمراً في نجد ولا يستحق البحث من هؤلاء إلا الأقسام الثلاثة الأولى :

عمور المهارشة

عددهم ٥٠ بيتاً من أهل الإبل ، وعندهم ١١٠ أباعر و ٢٥٠ شاة و ٣٠ فرساً ، اشتهروا بشراستهم ، ودأبهم السلب والنهب ، لذلك تبغضهم العشائر وحتى أقاربهم العمور ، ورئيسهم الياس الفروع ، وهم يعدون من لواحق الحديديين ، لكنهم متوزعون بين الحديديين والأسبعة واللهيب بقصد التواري عن العيون ، إلا أن منهم بضعة بيوت ينزلون في قرية حومي شرقي الخرايج يستثمرون فيها أراضي من أملاك الدولة ، وهم يشرقون مع الحديديين ، أو مع الأسبعة أومع اللهيب ، حسبما تقتضيهم دواعي الاختفاء والاحتماء ، وفرقهم الفقيس والمهباش والعضاب والحمياس .

عمور الخرسان

عددهم ٨٠ بيتاً ، زعموا أن جدهم الأعلى من عشيرة السرحان التي قد مر ذكرها في بحث عنزة . وأنه كان يسمى عموري الأخرس ، لأنه كان أبكم بالفعل ، جاء إلى أنحاء تدمر ، وتزوج من عشيرة عمور الأبى حربة ، وأعقب نسلاً كبيراً كان منه هؤلاء (عمور الخرسان) ، وهم ينقسمون إلى فئتين العمران والقمَّان ، وليس لهم رئيس متفق عليه ، سوى أن فايز المعجل كبير العمران في يده القيادة ، ومنازل هؤلاء الخرسان في ناحية تدمر في منطقة يحدها من الشمال خط أسرية ـ كديم ، ومن الشرق طريق السخنة ـ عين الكوم ، وفي الغرب طريق تدمر ـ أسرية ، وفي الجنوب طريق حمص تدمر ، وأكثر إقامتهم في جبل أبو رجمين ، والجبال التي في شمال تدمر .

عمور الأبو حربة

عددهم ١٢٠ بيتاً ، وفرقهم الخضر والمناحرة والخليفة والناصر والزليفان والعناترة ،

وجميعهم في مشيخة حليف المضهور كبير فرقة الخضر ،ومنازلهم في ناحية تـدمر أيضـاً ، وهم رعاة قريتي تدمر والسخنة ، وهم يمضون فصل الخريف والشتاء في الجبال التي شمالي تدمر ، ولا يقربـون تـدمر إلا في أوائـل الربيـع لمبـادلـة منتـوجهم من السمن والصـوف ، وعمـور الخرسـان وعمور الأبي حربـة أيضـاً أشرار فتـاكون من الطراز الأول ،ولطـالمـا أتعبوا جنود الهجانة في تـدمر ريثما تـابوا ، ومن الغريب أن هؤلاء يملكون أحسن المواعز وأكثرهـا دراً ، ويميزهم القادم نحوهم من كثرة معزهم ، وقلة ضأنهم ، وعدم اشتغالهم في الزراعة إلا في الأقل وأنهم العشيرة الجبلية الوحيـدة في بوادي الشـام ، لأنهم يسكنون في شمالي غربي تـدمر جبل المراة وجبل الأبيض وجبل أبو رجمين وجبل لابـدة والضـاحـك والأصـابع ، ولأجـل ذلـك يسمي بعضهم هذه الجبال باسمهم ويجعلها مفردة (جبل العمور) .

البدور

عشيرة من العمور مستقلة لنفسهـا في مشيخـة خلف البطيـة ، وهي صغيرة لا ينيف عددها عن ٧٥ بيتاً ، لكنها قد تمزقت وتوزعت بتاتاً ، يعثر الآن على فنود منهـا حول قرى الرحيبة وجيرود ،وهم رعاة هـاتين القريتين ، وحول تـدمر والسخنـة ، ويعثر عليهم أيضـاً بين الحديديين والروالة والأسبعة والأحسنة .

النجاد

عشيرة من العمورمستقلة ، عـددهـا نحو ١٠٠ بيت في مشيخـة خلف النعير وهو شيخ ذكي مقدام وعقيد غزو من الطراز الأول ، ومن هذه الفرقة فندة اسمها (المحـاسنـة) تحضروا واستقروا في قرية دير عطية في قضاء قلمون وصاروا من الفلاحين .

الصُلَيب (الصلبة)

الصليب بضم الضاد وفتح اللام أناس من أهل البادية ، بل هم أعرق أهل البـاديـة في البداوة والقشافة ، وهم وإن شـابهوا البـدو بـالشكل واللون والزي ، إلا أنهم يختلفون بضعـة نسبهم وحطة قدرهم ، وازدراء البدو بهم ، وعيشهم في العزلة والذلة والمسكنة ، والحاجة إلى

الشفقـة ، ومن ثم كانـوا مسـالمين للجميـع ، ويعطف عليهم الجميـع ، وهم لا يبـاعلـون أي لا يزوجون أحـداً ، ولا يتزوجون من أحـد ، ولا يخـالطون الغير ولا يقربهم الغير بضر أو أذى ، فلا يَغزون ولا يُغزون ، ومن أكبر العار عند البـدو أن يسطوا أحـدهم على صليبي ، ويسلبه شيئاً ، ولا يتولى كبر هذا الإثم إلا بعض فرق شمر نجـد ، وبعض الغيـاث النـازلين في حرة الصفا المشهورين بشرهم .

والصلبـة لا يؤلفون عشيرة بل مجموعـة متحـدة من فرق عـديـدة ، منتشرة في بـوادي الجـزيرة العربيـة كلهـا ، ينتقلـون من مكان إلى مكان ، ويكاد لا يخلـو منهم مكان ، من أقصى جنوبي نجد إلى سواحل الكويت والبحرين ، إلى ضفـاف الفرات والـدجلـة ، وجبل سنجار في العراق ، إلى قرى المناظر في الشـام وأعني القريتين وتـدمر والسخنـة ، ونـدر أن يتجاوزوا هذه القرى شمالاً أو غرباً ، وهم قلما يقربون ويسـابلون الحضر ، وقلمـا يعرفهم أو يراهم سكان المدن والقرى المتطرفة لدينا ، لأن الصلبة يقيمون زرافات صغيرة ١٥ ـ ٢٥ بيتاً في أماكن قصية مختلفة من الحمـاد ، لا يبلغهـا غيرهم من البـدو ، فهم يبقون في الحمـاد طول السنة صيفاً وشتاءً ، ويحسنون التجوال فيه ، والعثور على ما يقيتون به أنفسهم وماشيتهم ، رغم قفره وجدبه وجفافـه في الصيف ، وخلوه إذ ذاك من أشظف البـدو عيشـاً ، وفي بعض السنين ولاسيا في فصل الربيـع ، يصـادف السـائر قرب قرى المنـاظر التي عـددنـاهـا أو في منطقة الوديان جمعاً من الصلبة مزدحماً إلى حد ما ، وهـذا الجمع فرصـة لأعيـادهم وأعراسهم ورقصهم ، وفي بعض السنين وحينما تنفجر الآبـار في (القعرة) التى داخل الحـدود العراقيـة وشمالي محطة الرطبة ، يقوم الصلبة بزراعات ضئيلة من البطيخ وبعض الخضر الصيفية .

ولقـد ذكر العـارفـون بهم أن (حليس) أول رئيس عرف للصلبـة منـذ مئـة سنـة . وخلفه سليمان بن مـالـك ، أو (مـالج) كما يلفظون وقـد سجن في دير الزور ومـات فيهـا ودفن ،وبعده اليتيمة (تصغير يتيمة) ، ورئيسهم الحالي عبيد بن معيذف وفي اللغـة تعـذف الطعام أكله ؛ فعيذف الذي يأكل .

وعيشة الصلبة بسيطة جـداً ، ولهم عـادات غريبـة ، ويتعـاطون أموراً تعـد في نظر العرب البـدو خسيسـة ، منهـا أنهم يرتزقون بصيـد الغزلان والأرانب والطيـور ويقتـاتـون

منها ، يبيعون الحمير والملح من أهل المدن ، والأدوية النباتية التي يستحضرونها ، وكذا القلي الذي يستحضرونه من حرق الشنان والعضو والعجوة ، والملح من أنحاء ممالح (البوارة) في الجزيرة ، ويداوون مرضى البدو ، ويقومون بأنواع الكي على النحو الذي ذكرناه في بحث صحة البدو (ج ١ ص ٢٠٩) ، والناس يركنون إليهم في أكثر الأحيان مع وجود أطباء رسميين ، ويعتقدون أن مبناها التجارب ، والصلبة إذا لم يجدوا شيئاً مدوا أيديهم واستعطوا .

ومن عاداتهم ، أنهم يرقصون مع النساء في مخيماتهم وحفلاتهم على النحو الذي سنذكره نقلاً عن كتاب الرئيس رينو الفرنسي ، ورقصهم بسيط ، لا ترى فيه حركات تخل بالآداب ، أو إمارات تبعث إلى سوء الظن ، فهو عبارة عن وثب وطفر ، وعندهم نوع من الرقص ، يأخذ به بعضهم بيد بعض ويدورون ، وقد يرقصون أمام البدو ، ويجزل المتفرجون لهم العطاء ، وبعض نسائهم بارعات في الجمال والظرف وقرض الشعر المصطلح عليه في البادية ، والشعر والإنشاد من جملة موارد العيش عند الصلبة ، وشعرائهم يدورون بين العشائر ، ويؤانسون مجالس الشيوخ بما ينظمونه وينشدونه من القصائد والأغاني الحماسية أو الغرامية أو المديح ، ولهم مع الإنشاد براعة في ضرب الرباب ، وترخيمها مع معاني القصيدة أو الأغنية خفضاً ورفعاً ، فكأنك في ساحة الوغى إذا وصفوا الطعن والضرب ، أو في مسرح الحب إذا ذكروا لقاء المحبين ومناجاتهم ، وحينئذ تترنح أعطاف المستمعين ، ويغمرهم الحماس والطرب أو العجب أي غمر ، ويخشى الشيوخ لسان هؤلاء الشعراء والقصاد من أن يهجوهم بين العشائر إذا ما أساؤوا إليهم ، أو قصروا في عطائهم .

ويذكر عن الفروق البارزة بين الصلبة وغيرهم من أعراب البادية ، أنهم وسيطو القامات في الغالب ، قنيو الأنوف رفيعوها ، وذوو شعر أسود أو كستناوي غامق ، وعيون سود حادة النظر وبصاصة ، أما قول البعض بأنهم شقر الوجوه وزرق العيون فلا صحة له ، كما أكد لي مشعل باشا الفارس الجربا ، وإذا صدف وجوده وهو ما يندر جداً لا يكون مختصاً بهم وحدهم ، بل قد يعثر عليه عند غيرهم من البدو أيضاً ، ومن الفروق أيضاً أن الصلبي غير كسول كالبدوي ، بل هو نشيط ومتحرك ، ومشيته سهلة لينة ، بخلاف مشية البدوي الموزونة الثقيلة ، وفي صوته ارتخاء ونعومة ، بينما أصوات البدو

خشنة داوية ، وأسارير الصلبي منفرجة بشوشة إلى حد ما ، بينما أسارير البدو مقطبة ، وعند الصلبي صراحة وسذاجة غير موجودين لدى البدو .

وهم أعرف أهل البادية ، وأهدى من القطا بالمراعي والمناهل ومواقع الأمطار ، وأحدقهم بسلك القفار والمفاوز ، حتى أن البدو أنفسهم يتخذونهم أدلاء في جولاتهم وغزواتهم البعيدة ، فهم لا يتيهون قط ، وتراهم في دجى الليل وفي كثافة الضباب ووهج السراب وتدفق المطر يستطيعون أن يرشدوا قافلة إلى بئر بعيد ٧ ـ ٨ ساعات على الراجل دون أي تردد أو خطأ ، وفي رواية أن أحد الأدلاء من هؤلاء الصلبة أصيب بالعمى ، فظل على عمله يعرف الأرض من روائحها ، فهم بهذا يخدمون البدو . حتى الغزاة إذا مروا بهم يرون منهم حفاوة وسهولة وهداية ، والبدو يقدرون لهم هذه الخدمة ، فلا يمسونهم قط ، ولا يقصرون في الإشفاق والإحسان إليهم ، ثم هم وإن كانوا مبعثرين في طول البادية وعرضها ، ومنفردين ، لا يزالوا حافظين لبعضهم صلات قوية جداً ، يستطلعون سير العشائر ، ومواقع نجعتها ، والطرق التي يسلكها الغزاة ووجهاتها ، فلا يفوتهم أي خبر أو حادث في البادية ، ومن هذا كانوا عمال استخبارات (جواسيس) من الطراز الأول ، بيد أنهم قليلو الثرثرة لخوفهم من الأذى إذا أفشوا ما يعلمونه ، ومن خواص ما عرفوا به أيضاً جودة النظر وبعد البصر وصحة الأجسام ، مهما شاخوا أو كبروا ، وذلك لكثرة سيرهم في النهار ورياضة أجسامهم ، وقلة خلطهم في المآكل ، وسكناهم الأرض العذية ، ومما اشتهر به الصليب خاصة نحافة الجَسم حتى ضرب بهم المثل (أنحف من الصليبي) .

ولغتهم ليست بالعربية الفصحى ، ولا بعربية البادية بل هي لغة بين الاثنين ، ولهم رطانة يتكلمون بها خاصة .

وكثير منهم يلبس جلد الغزال ، ويتخذون لهم منه القفاز والمسماة (وهو شيء كالجورب يغطي به أسفل الساق وظاهر القدم ، لكي لا تجرح الأرجل بالشوك ، أو بما أشبه) ولباس الرجل لا يمتاز عن لباس المرأة إلا بشيء واحد ، وهو أن المرأة تتعصب بعصابة حمراء بلون الحناء ، وتدلى طرفيها على القفا كأنها تتوا المتاج ، أما الرجل فيجعل هذه العصابة الحمراء ملفوفة على نفسها ، ليس لها طرف نائس متذبذب ، وللرجل جدائل شعر كما للمرأة ، والغالب في الرجل خفة شعر العارضين ، وبهذا فقلما يتميز الرجل عن المرأة

من بعيد ، وبالأخص إذا كان شاباً لم يبقل وجهه بعد ، ولهم منطقة يتخذونها من جلد الحمل أو نحوه ، فيدهن أو يدبغ بالقرظ ، ويجدل على ثلاث قوى جدلاً عريضاً ، ويعلق بها هنات من العظام ، يثقبونها لهذه الغاية وتلبس المنطقة بهذه الهيئة ، ويسمونها السبتة .

وإذ كان الصلبة في حصانة تامة وأصدقاء كل البادية أصبحوا في غنى عن اقتناء الخيل والسلاح ، وهم وإن استعملوا السلاح فللصيد فقط ، والأسلحة المعروفة عندهم هي (المضاعة) وهو عبارة عن عصا جعل في رأسها قطعة من الحديد ، وعندهم بنادق قديمة من نوع (الششخانة) وهي متوسطة بين القربينة والبارودة الاعتيادية ، وطويلة السبطانة جداً ، وداخلها ست طرائق أو زوايا ، ومنها اسمها بالفارسية ومعنى شش ستة وخانة بيت ، ويقال إن دخول هذه البندقية كان في أيام السردار عمر باشا الذي أخضع دير الزور في حدود سنة ١٢٨١ هـ . وعندهم القرطة هذه كلها من حديد ، ووجهها محفور أو منقوش بأشكال غريبة ، يؤتى بها من الحساء أو القطيف في سواحل الخليج العربي ، واليوم صاروا يتخذون البنادق كغيرهم من البدو .

وهم إن اتخذوا الإبل فقليل جداً ، ولكن عندهم الحمير البيض ، والصناعة التي يمتازون بها هي تربية هذه الحمير وبيعها ، وهي مرغوبة جداً لحسنها وقوتها وتمكنها من السير المتواصل بدون أن تتعب ، وهي تعدو عدو الظليم ، وعندهم منها قطعان تسرح طليقة كالغنم في رعاية حمار كبير منها ، وربما بلغ ثمن الحمار الأصيل خمس عشرة ليرة ذهبية وأكثر ، والأصيل يدعى شهاري ، والكديش يدعى خكر والصلبة يربون أيضاً الماشية بأنواعها .

وللصلبة مهارة عجيبة في صيد الغزال ، لأن أساس قوتهم لحم الغزال ، وهم حذاق في التحيل على صيده ، يكمنون له ساعات طوالاً في حفر يحتفرونها عند موارد الظباء ، حيث لا ظل يستترون به من الهجير المحرق أيام القيظ ، أو يطاردونه حتى إذا أعيا ووقف ، كالمتفكر الغائب عن رشده أطلقوا النار وهجموا عليه ، ويطاردونه تارةً ركضاً ، وتارةً على الحمار الأبيض فإذا قربوا منه كلموا حمارهم همساً ، فيفهم الإشارة ويبرك كالبعير ، ثم يطلقون النار من وراء الزاملة متخذيها بمنزلة القترة فيصطادونه .

ومن طعامهم بعد لحم الغزال والأرنب والطيور الشعير والذرة بأنواعها واللبن ، وشرابهم الماء القراح وإن لم يحصلوا عليه في مثل فصل الخريف ، أو في أرض الحماد بعد جفاف الخبرات ، شربوا اللبن أو الحليب بدلاً منه .

وقيل إنهم يكرهون كل الكراهة : الكذب والسرقة والغش والخداع والمكر والمداجاة ، والغبن في البيع والتجارة ، وهم يؤدون ديونهم بدون تأخير ، ومن طبعهم الكدية وهم مشهورون بها ، فإنك لا تزال تراهم يتطفلون على موائد الغير من أي ملة أو نحلة كانوا ، وبدون أن يدعوا إلى الطعام ، وهم لا يستنكفون من أي نوع من الطعام ولا يحرمون شيئاً منه ، وإذا سمعوا بإحضار طعام في محل ، تراكضوا إليه متسارعين كأنهم من أهل ذاك المحل .

والمرأة عندهم على جانب عظيم من الحياء والجبن ، وهي إذا شخصت مع زوجها إلى المدينة تمسكت بأهداب ثوبه أينما سار وسرى ، كأنها الطفلة الصغيرة بجانب أبيها ، وهم لا يستقرون في مكان ، يرتادون الكلأ البعيد عن ممر الطريق أو ملاجئ العشائر ، فلا يزاحمون أحداً .

ومن الغريب ، أن لا يذكرهم أحد من علماء التاريخ والأنساب العرب القدماء الذين لم يغادروا قبيلةً ولا عشيرةً إلا أحصوها وفرعوها ، ولا حادثةً إلا وسجلوها ، بينما غفلوا هم ومؤلفو كتب الأدب والقصص عن هؤلاء الصلبة بالمرة أو تناسوا وجودهم أو جهلوه ، وهذا ما جعل الآراء تضطرب في معرفة نسبهم ومنشأهم ، فذهب بعض الكتاب المتأخرين ، وتابعهم على ذلك عدد من قصيري الفكر والنظر عندنا إلى أن هؤلاء الصلبة غير عرب في الماضي ، وغير مسلمين في الحاضر ، وأنهم من بقايا (الإفرنج الصليبيين) ، وقد استندوا في ذهابهم هذا ، على الفروق التي بيناها بينهم وبين البدو ، وعلى أن بعض هؤلاء الصلبة إذا سئل يجيب ـ تقيةً أو تزلفاً إلى عمال الانتداب في العراق والشام ـ بأنهم من بقايا الصليبيين ، بعد أن بلغتهم هذه الدعوى عنهم فأرادوا أن يستغلوها ، وهو استناد خاطىء ، وجهل بالتاريخ ، وابتعاد عن علم طبائع البشر أردت بهذا المقال أن أفنده ، تخليصاً لهؤلاء المساكين مما عزي إليهم .

فـالصليبيون لم يتركوا منهم في بلادنـا أي أثر ، حـاربهم الملوك الأيوبيون والسلاطين المماليـك ، ومـا زالـوا يـلاحقـونهم ، ويقــذفـونهم في البحر حتى كان إخراجهم من نصيب السلطان الملـك الأشرف خليل بن قلاوون في سنـة ٦٨٩ هـ ، فقـد دفعهم وقتئـذ من مـدن الساحل الشامي كله ، ولم يبق منهم أحـد ، فلا يعقل بعـد جهـد وكفـاح قرنين كاملين أن ينجو جمع كبير ، بل عشيرة وفيرة تعـد بـالألوف كهؤلاء الصلبـة ، فيفلتون وينطلقـون في بوادي الجزيرة العربية ، دون أن يعلم بـأمرهم أربـاب الـدولـة الإسلاميـة في ذلـك الحين ، فيبقون أجيـالاً يسرحـون ويمرحـون إلى يـومنـا هـذا ، ولـو فرضنـا المحـال ولبس قسم من الصليبيين طواقي الإخفاء وتواروا عن أنظار مسلمي ذلك العهد أخصـامهم ومقتفي آثـارهم ، وراحوا رجـالاً ونسـاءً وأطفـالاً عـديـدين يطلبـون مفراً ومـلاذاً ، لأووا إلى المـدن والقرى والجبال والأودية التي توافق أجسامهم وأمزجتهم الإفرنجية ، وما اعتـادوه من الجو البـارد أو المعتدل ، والرغد والرفـه ، ولمـا تغللوا في أقفر الفلوات وأحر الصحراوات ، وأشقى المعـايش والحالات ، التي يعجز عنها أجلد البدو وأتعسهم .

فهؤلاء الصلبة أعراب أقحاح ، وبدو خلص كسائر الأعراب والبدو ، وإن كان أصلهم غـامضـاً ، وكان في بعض مـلامحهم وعـاداتهم وخصـالهم العرقيــة اختـلاف واضـح ، وهــذا الاختلاف يعود إلى انعزالهم عن بقية عشائر البادية منذ أجيال عريقة في القـدم ، وإلى أنهم لا يخـالطون أحـداً إلا في الأقل ، وإلى أن نسبهم الأصلي ، أو منشـأهم غير معروفين ، أهمل السؤال عنها أدباء العربية ونسابوها القدماء ، أو أنه نسي ، أو كتم لأمر سياسي ، أو حروبي لحقهم ، فضلوا في مجـاهيل الزمن والظنـون ، ولهم أمثـال في الضعـة وازدراء العشـائر ، وفي رداءة العيش وغرابة المظاهر والأطوار ، (كباهلة) التي كانت في عصر الجاهليـة ، يـأنفون من الانتساب إليها ، ومثل الهتيم والشرارات والعوازم أحقر البدو والأمم في عهدنـا في شمالي الحجـاز ، ومثل أعراب الليـاثنـة في وادي موسى (البتراء) في جنوبي بـلاد الأردن ، سكان الكهوف والغيران ، على مثال إنسان عصور ما قبل التاريخ وغيرهم .

ورأينا هذا قد ارتآه أيضاً مشعل باشا الفارس الجربـاء ، والأستـاذ عبـاس العزاوي ، فقـد جـاء في كتـابـه (عشائر العراق) أن أصلهم بـدو قـد قضت عليهم الحروب في أبعــد الأزمـان ، فـانقرضـوا وبقـوا متفرقين ، فهم بقـايـاهم المنتشرة ، وهم أنفسهم يعتقــدون أنهم

(صبـة ، صليبـة) أي من العريقين في النسب ، ولكنهم نسـوا أصلهم ، أو أخفـوه لأمر سيـاسي ، أو حربي لحقهم ، وكتمـوا نسبهم حتى عن أولادهم فبقي مجهـولاً ، ولا عـلاقـة لهم بـالصليبيين ولا بـاليونـان ولا بـالرومـان ، فهم منقطعون عن الأمم الأخرى ، ولا نجـد في لغتهم ما يؤيد فكرة الصليبيين ، والاستدلال بأنهم ليسوا من العرب بـاستنطـاق ملامحهم ، وبعض خصائصهم البدنية ، ونحافة جسمهم مما لا يدعمه برهـان ، في حين أنني رأيت نظمهم بدويـة لا تفترق عن عوائـد البـدو من شمر وعنزة وسـائر عشـائر الشـاميـة ، ومن عوائـدهم المخالفة ما يعين أنها ناشئة من عدم اتصالهم بالعشائر الأخرى ، إلا معاشرة طفيفة وموقتـة ، ومثل هؤلاء مـا ينقل عن سكان جبل عكا الـذين لا يختلطون بقوم ، كما نقل العرب عنهم في بداية تدوين اللغة .

وأمـا مـا يقـال من أن العرب يعتبرونهم غير عرب فهـذا غير صحيح ، وإنما يقولون أنهم ليس لهم نسب معروف ، أمـا ديـانتهم فـلا يسـع المرء إنكار أنهم مسلمـون ، وهم وإن لم يقوموا بالوجائب الدينية تماماً ، فهذا غالب في أكثر البدو مما عدا أتباع ابن سعود .

ونخـوتهم (أولاد صليبي أو أولاد غـانم) إلا أنهم يعـدون من (آل) فهم ينزعـون إلى القحطانية أو ما ماثلها ، وهي على كل حال تعتبر من القبائل المتحيرة التي نسي ماضيهـا ، ولا تزال قبائل قد جهلت ماضيها ، فلا تحفظ أنهـا قحطـانيـة أو عـدنـانيـة ، على أن هـذا لا يخرجها عن عروبتها ، إلخ ... ا هـ .

قلت وإذا أثبت علم السـلالات البشريـة (الانتروبـولـوجيـا) بعـد فحص الجمـاجم والدماء أنهم ليسو من الأعراب ، وأنه ينبغي أن يكون أصلهم ومنشـأهم من خـارج الجزيرة العربية نتجه حينئذ ، وبعد ثبوت الفحص فقط إلى أنهم قد يكونوا أتوا من الهنـد ، لأن في الهند أقاليم حارة كحرارة الجزيرة العربية ، وشظف عيش كشظف هذه الجزيرة ، يقاسيهما الملايين من الهنود ، ولا سيا طبقـة المنبوذين منهم ، فقـد يكونوا من منبـوذي الهنـد أو من الزط الذين أصلهم من الهند ، وجـاؤوا في عهـد المـأمون العبـاسي وظهر وقتئـذ منهم عيث وفسـاد في طريـق البصرة ، فعـوقبـوا وأبعـدوا ، أو من النـور الـذين أصلهم في رأي أكثر المحققين من الهنـد ، وجـاؤوا إلى الجـزيرة العربيـة على حين غفلـة من أهلهـا وسكانهـا ، وانتشروا في أبعـد البوادي وأشقـاهـا ، وتلمسوا اللجـوء والحيـاة في الغمـوض والكتمـان ستراً

لأصلهم الـزري ، وفي خسـاسـة النفس والعيش التي هي من شيمهم الأوليـة ، ومهما يكن فـالصلبـة شرقيون آسيو يون سـاميون ، وليسوا صليبيين أوروبيين آريين ، وعرب مسلمـون إسلامهم كإسلام سـائر البـدو ، وقـد خـدع أحـد المبشرين الإنكليز فيما قيـل عن نسبتهم إلى الصليبيين ، وعن ضعف إسلامهم ، فجاءهم في سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ م وحـاول أن ينصرهم على المذهب البروتستانتي ، فلم يفلح وذهبت أمواله ومتاعبه أدراج الرياح .

وفي عهد العثمـانيين كان الصليب معفيين من كل ضريبـة ، وظلوا على ذلـك في عهـد الفرنسيين إلى سنـة ١٩٣٢ م التي فرضت فيهـا عليهم ضريبـة الأغنـام أسـوةً بغيرهم من العشائر ، ثم هم لضعفهم وعجزهم عن مدافعـة أصغر قوة تهـاجمهم من بقيـة العشـائر ، أكرهوا على تـأديـة الخـوة إلى كثير من هـذه العشـائر ، فهم يـؤدونهـا إلى بعض شيـوخ العمارات والفدعان والروالة والأشاجعة والولد علي والعمور الجراح وحتى الغياث والمساعيد .

وهم بحكم تـوزعهم وتشتتهم يـذعنـون لسلطـة كثير من الشيـوخ ، وأشهر شيـوخهم سليمان بن مالك وعابد النوري في العراق وعبيد بن معيذف في الشام (سورية) .

أما فرقهم فكثيرة ، وكل منها مستقل عن الآخر ، وأسماء المعروفة منها هي : المـالـك والهزيم والمسيلم والجميل والطرفـة والصبيحـات والضبيـة واليتيم والعراقيـة والمـاجـد والغبـان والنباق والعنـاترة والحـازم ، على أن أكثر هـذه الفرق وأفخـاذهـا مشتتون في العراق ونجـد وسواحل خليج البصرة ، ولا يوجد في بادية الشام (داخل الحدود السوريـة) إلا نحو ١٢٠ بيتاً ، يؤلفون فرقة الحازم التي يرأسهـا الشيخ عبيـد بن معيـذف بن عواد الزعف ، والشيخ عبيد شاب في العقد الثـالث ، لـه الآن ثلاثـة أولاد ، وكان أبوه معيـذف غنيـاً جـداً ، وذا كرامة وسمعة بالغتين ، وكان يلقب بتل اللحم ، كناية عن جوده وبذله في قرى الضيوف ، والشيخ عبيد وإن لم يبلغ شأو أبيه ، لكنه لا يزال موضع احترام الجميع .

والصليب الذين يجوبون البراري الشامية ، يقيظون في المنطقة المحصورة شرقـاً بوادي الصواب وبير جب ، وجنوباً بطراق العلب ، وغرباً بخـط العليـانيـة ـ سخنـه ، شمالاً بجبل البشري .

وأكثر بيوت الصليب وخاصة بيوت الشيخ عبيـد تخيم في وادي الميـاه قرب بير ورقـة



صيادون صليبيون ركبوا حميرهم وحملوا بنادقهم القديمة

وبير وريق ، بينما غيرها وخاصة بيوت اليتيم تصعد حتى وادي الهيل ووادي السلاهيب وبير الحجل ، ويوجد من الصليب فرقة منفردة عن غيرها تضرب دائماً في الجزيرة شرقي تل أبيض وعددها نحو عشرين بيتاً ، والصليب يمتارون الحنطة والشعير من دير الزور والبوكال والميادين ، ويشترون حاجات اللباس وأمثالها من تجار حمص وحماة ودمشق ، الذين يصلون إلى بيوتهم في الربيع ، ويبتاعون منهم السمن والصوف .

أما في الشتاء فإنهم يتوغلون داخل البراري العراقية وقرب الحدود ، ويخيمون غالباً في منطقة مغرة الديب وعقلة الصواب ، ويبقون دائماً حول الخط الممتد من أبي كال إلى خبرة الزرقاء التي في غربي جبل التنف ، وهم ما أن يروا الأمطار الموسمية حتى يغادروا منطقة بير الحجل ووادي الهيل ووادي السلاهيب ، ويتجهون نحو وادي المياه . وكلما توغلوا نحو بير ورقة وبير وريق ، يتجمع بعضهم على بعض إلى أن يبلغوا كثرتهم في مشاتيهم في أنحاء عقلة الصواب .

ويقدر أن لديهم ١٥٠ بعيراً و ٢٥٠٠ شاة و ١٢٠ من الحمير البيض المرغوبة كما قدمنا ، وليس لهم أي ملك أو عقار .

زار الكابيتن رينو الفرنسي هؤلاء الصليب في حدود سنة ١٩٢١ م فاحتفوا به وغنوا أمامه وطربوا ورقصوا ، فوصف هذه الزيارة في كتابه (البدو في مقاطعة دمشق) وصفاً جميلاً ، آثرنا تعريبه إتماماً لهذا الموضوع ، قال :

« في مساء جميل من شهر حزيران بلغنا موقع (أبي الفوارس) غربي تدمر ، وطفلت الشمس مؤذنة بالغياب ، وتوارى نصفها وراء الجبل ، ولم يبق منه سوى بعض الأشعة الممتدة نحو السهل المستنير ببقايا تلك الأشعة ، وشرع النسيم العليل وقتئذ يهب ، ويداعب أطناب بيوت الشعر ، وبدأ أمام أعيننا المبتهجة مشهد رائع .

في ذلك المساء برزت الطبيعة أمامنا بأجمل زينتها ، وأزاحت السماء نقابها الأزرق اللطيف ، فأظهرت لنا نجوماً كأنها حبات الحسن والجمال المنثور في الفضاء اللانهائي ، وكانت الشمس الغاربة قد جعلت من رمل السهل الممتد أمامنا غباراً ذهبياً ، وصارت الجبال المحدقة بذلك السهل تتضاءل وتتلون بألوان زرقاء أو خضراء أو سمراء .

وكان وقتئذ موعد رجوع الماشية إلى حظائرها ومعاطنها ، فكنا نسمع ثغاء الغنم ونهيق الحمير البيض ورغاء الإبل وعواء الكلاب وصياح الرعاة الصغار ، كل ذلك كان يؤلف حولنا مجموعة ألحان ساذجة ، جعلت عواطفنا تتحمس بمباهج حياة الرعاة .

وأشرفنا على طائفة من بيوت الشعر الواطئة ذات الألوان المجزعة ما بين أسود وأبيض وأسمر ، ورأينا فيها أناساً من البدو كانوا يتحركون ويلغطون بلا هوادة ، وقد تميزنا البيت الخاص برئيسهم الشيخ معيذف من لونه الأسود وعدد أعمدته ، وكان السواد الأعظم من هؤلاء البدو رجالهم ونساؤهم وأولادهم قد اجتمعوا وازدحموا على بعد بضع خطوات أمام بيت الشيخ معيذف ، وتلقونا بالتصفيق والترحيب والزغردة التي اعتادوا أن يفعلوها لكل قادم ، لولا أن هذه كان يضفي عليها الآن ابتهاج وحماس لم نعهد لهما مثيل من قبل .

وبينما النساء عند كل البدو الذين نزورهم - إن لم يهربن منا - يبتعدن عنا دائماً ، وجدنا نساء الصليب على غير المعهود من أمثالهن ، فقد لقين تعباً في شق طريق لنا بين الصفوف المتراصة العميقة ، وكان النساء في هذه الصفوف في جملة من وقفوا يمتعون النواظر برؤيتنا ، وبعد شرب القهوة أسعدنا الحظ بحضور حفلة راقصة غنائية رائعة ، سوف يبقى ذكرها الجميل محفوظاً مدة مديدة .

شاهدنا بادئ ذي بدء وعلى حين غرة ، أن هذا الجمع شرع يهوج ويموج ويدور ، وارتفعت خيزرانة لم يعرف مصدرها ، وصارت تعلو وتهوي وتضرب بلطف ، وتفرق الجمع المحتشد ، وتفتح حلقة عريضة في وسطه ، وبرزت جوقة موسيقية لطيفة ، وإن كانت من الطراز العتيق ، وشرعت تنشد وتغني ، وتألف صف من الفتيات والفتيان اللابسين لباساً واحداً من القماش الأحمر والأزرق واتجه نحونا ، وشرع أحدهم يغني بصوت جمع الخشونة واللطافة معاً ، ثم لحقه المغنون وعدد من الفتيات الجميلات اللواتي كن يرددن الغناء مع الفتيان ، وازدادت الأصوات ارتفاعاً واهتزازاً ، وتتابع معها تصفيق ألوف الأيدي على الإيقاع والإسراع ، وكان يرافق ذلك خشخشةٌ داويةٌ للأساور الفضية والنحاسية ، وبلغ الزف المنشود حده ، وسار سيراً موزوناً ومتسقاً ولم يعد يتبدل ، ثم اشتدت الأهازيج والأصوات الناعمة الصادرة من الأفواه التي كانت قبل هنيهة طرية مستحبة ، واشتد معها





تصفيق الأيدي كلها على وتيرة واحدة ، وازداد اهتزاز الأجساد المرنة الكاملة التكوين ، وصارت تتموج بأناقة وحسن ، وما زالوا حتى بلغ اللحن والإيقاع أقصى حدهما .

وجاءت فتاتان من أجمل فتيات الحي ، لابستان ثوبين من القماش الأزرق ، ولحقهما اثنان من الفتيان ، ودخلوا وسط الحلقة المبتهجة ، وكان شعر الفتيات متدلياً إلى تحت أردافهن ، ومفروقاً ومضفراً على شكل عقائص ناعمة متموجة ، وقد صبغته بقليل من الحناء فاشقر ، وصار يشبه لون النحاس الأحمر .

وكانت حركات الفتيان بالإيماء وتمثيل الانحناء لتقبيل الوجنات أشد وأبلغ مما كانت تفعله الفتيات من هز الرؤوس والأكتاف والسواعد والأفخاذ ، وهذا كان كافياً لحملقة عيون المتفرجين ، والتهامها هذه المطاعم الشهية . فقد كانت عقاص الشعر الكستناوي تتابع حركات الرأس ، وكان الرأس أكثر الأعضاء حركة ، تارة يرتفع إلى فوق ، وتارة ينحني نحو اليمين أو نحو اليسار ، أو ينطوي لذاته حسب هزج الرقص الصادر من أفواه نساء الحي دون انقطاع .

وفي أثناء الهياج والدوران حاول أحد الفتيان أن يختلس قبلة من الفتاة التي كانت تراقصه ، فنفرت منه برشاقة وخطت بضع خطوات سريعة وابتعدت ، وأعاد الفتى محاولته عدة مرات كان يخفق فيها ، وما زال يحاول حتى فاز ببغيته واغتصب القبلة المنشودة ، وحينئذ انسحبت الراقصة فخلفتها واحدة من رفيقاتها ، وهذه أيضاً كانت مثل الأولى بارعة في الملاحة والأناقة والإغراء .

ودامت الحفلة ، ودام استمتاعنا واستئناسنا بمناظرها ، ولم ننتبه إلا حينما جاء مضيفنا الشيخ معيذف في ظلمة الليل الفاحم ، يدعونا للعشاء ويقودنا إلى مائدة عظيمة ، كان الخروف المطبوخ يعلو فيها جبلاً من الرز » ، انتهى .





عشائر البلاد اللبنانية

الزريقات

فندة منفردة تزعم الانتساب إلى عشيرة الأسبعة العنزية ، وأنها انفصلت عنها منذ نصف قرن ، وهم رعاة لدى آل مرعب بكوات عكار وآل رعد بكوات الضنية ، وهم يشتون في سهل عكار ، ويصيفون في جرود عكار والضنية ، وعددهم نحو ١٠٠ بيت ، منتشرون زرافات صغيرة في كل شمالي لبنان ، وليس لهم رئيس متفق عليه ، بل هم يتبعون أصحاب المواشي التي يربونها .

العويشات

في وادي خالد وجبل أكروم ، ولم يتعين لنا أصلهم ، عددهم ٥٠ ـ ٦٠ بيتاً ، يربون غنماً وبقراً وجواميساً ، وهم كانوا في الأصل ملاكي وادي خالد ، أحد روافد النهر الكبير ، ثم انتقل هذا الوادي إلى عبد الله آغا العمر الدندشي ، ومن ورثة هذا إلى أغوات بيت حمود الدندشيين .

العتيق

فرقة من النعيم منفردة منذ عدة أجيال عن نعيم حمص ، وهم نصف رحالة ، يشتون في وادي السرحان (جبل أكروم) ويصيفون في وادي خالد المذكور في شرقي قضاء عكار وغربي قضاء حمص ، وهم نحو ٣٠٠ بيت ورؤساؤهم مصطفى الأسعد وعلي الأحمد .

الغنام

أصلهم فيما زعموا من الموالي ، انفصلوا منذ زمن بعيد ، وهم أصحاب غنم وبقر وإبل

للرجاد والتجارة ، منازلهم في وادي خالد ، وهم نحو ٢٠٠ بيت ، وليس لهم رئيس متفق عليه .

عجارفة

رعاة لدى آل رعد بكوات الضنية ، يشتون في سهل عكار ، ويصيفون في جرود الضنية ، وهم نحو ٣٠٠ بيت ، ولم يتعين لنا أصلهم .

اللهيب

فندة من اللهيب في شمالي لبنان وهم رعاة لدى وجهاء عكار .

الأرامش

فندة من اللهيب في جنوبي لبنان منفصلة منذ أكثر من قرن عن العشيرة الأصلية ، يشتون في قضاء صور ، ويصيفون في ميس (شمالي غربي الحولة) وهم ٢٥ بيتاً ، رئيسهم عواد الأحمد .

الحمدون

فندة من اللهيب في جنوبي لبنان ، منفصلة منذ أكثر من قرن عن العشيرة الأصلية ، يشتون في غربي الحولة ، ويصيفون في سفوح جبل عامل ، على الحدود بين شقرة وبليدة ، ورئيسهم الشيخ مسعود المناور وابنه محمود وعددهم ٢٠ بيتاً ، وهم مشهورون بلصوصيتهم ، وطالما لاحقهم القضاء الفلسطيني .

اللقلوق

فندة قيل أنها من اللهيب ، قدماء في أواسط جبل لبنان وجروده العالية ، منذ قرنين على الأقل ، فقد ذكرهم بركهارت في رحلته سنة ١٢٢٤ هـ وأنهم يدفعون الأموال الأميرية المفروضة عليهم إلى باشا طرابلس ، وذكرهم أيضاً وديع أبو فاضل في كتابه دليل

لبنـان المطبوع سنـة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م وقـال : إنهم تملكوا أرضـاً في أعـالي كسروان ، في محل يقال له (اللقلوق) غربي العاقورة وتنورين ، وهم يقضون مدة الصيف فيه في خيـام من الشعر ، وفي الشتـاء ينتقلـون إلى قضـاء الكـورة ، وهم شركاء اللبنـانيين في الغنم ، ويملكون بضعـة آلاف من المـاعز ، وقـال : ولكنهم على فقرهم وشظف عيشهم ، عنـدهم من العادات الحسنة كإكرام الضيف والصدق والشهـامـة والأمـانـة شيء كثير ، ولم يسمع قـط أن أعرابياً منهم تعدى على أحد أبناء السبيل أو أساء معاملتـه ، قلت : من الغريب أن يكونوا هؤلاء بهذه الأوصاف الحميـدة ، ويقـال بعـد أنهم من (اللهيب) المعروفين بغير ذلـك ، وهم يسمون عرب اللقلوق أو الشارشين ، وعـددهم نحو ٥٠ بيتـاً ، وشيخهم الشيخ أحمـد الخيـاد . وقـد بلغني أن حـالتهم حسنت عمـا قبل ، وتحضروا وأنشؤوا دوراً جميلـة مـؤثثـة على أجمـل ما يكون في القرى اللبنانية المجاورة لهم ، على أنهم لا يزالون وراء ماشيتهم .

عرب المسلخ

هذا ولا يخلو جبل لبنـان في وسطـه وجنوبـه من بعض رعـاة ذوي المنـابت المختلفـة الغامضة ، يقيظون في جروده الشاهقة ، ويتتبعون منابت الكلأ في هضابها ومنحـدراتهـا ، وفي الشتـاء يهبطون القرى المتوسطـة أو السـاحليـة الـدافئـة ، كالـذين يلحظهم السـائر في طريقه إلى بيروت ، في حول ظهر البيـدر وصوفر وبحمـدون وعـاليـه والجمهور وغيرهـا من القرى ، وهؤلاء يسمون هناك (عرب المسلخ) ، ولم يتيسر لنا معرفـة أصولهم ، ولعلهم من اللهيب أيضاً .





عشائر محافظة اللاذقية

ليس في هذه المحافظة الجبلية الضيقة ، الغاصة بسكانها ، مجال لنزول العشائر البدوية وجولاتها ، ومن ثم ليس لنا أن نذكر سوى بعض الأعراب الرحل الرعاة الموجودين في قضاء مصياف ، الذي من حقه ، وطبيعة أرضه ، أن يلتحق بمحافظة حماه ، نضيف إلى ذلك بحث الدنادشة الموجودين في قضاء تلكلخ ، لما لهم من الصبغة العشائرية .

قضاء مصياف

الزعيرات

فندة أصلهم من بني خالد ، وقد تقدم ذكرهم ، انفصلوا وصاروا رعاة لدى سكان قضاء مصياف ، لا يخرجون من حدود هذا القضاء ، عدد بيوتهم ٥٠ ، وهم وديعون في مشيخة حلو العبد الله .

بني عز

منفصلة عن أقاربهم بني عز الموالي ، وقد تحضروا منذ أمد بعيد ، يقطنون حول قرى ديمو وحنجور وكنفو ، ولا يزالون على صلة مع أقاربهم المذكورين .

قضاء تلكلخ

الدنادشة

هؤلاء ليسوا من العشائر الرحل أو نصف الرحل ، بل هم أسرة متحضرة كبيرة تعد

من البيوت نحو مئتين . إلا أنها لا تزال عشائرية الصبغة ، أعرابية النزعة ، فريدة المثال بين الأسر الكبيرة في بلاد الشام من حيث التكوين والخلق والمناقب ، ومن ثم حق لنا أن نخصها بشيء من البحث والتفصيل ، ونجعلها نموذجاً لأمثالها من الأسر الكبيرة العريقة في أريافنا ، ونحسب أننا لم نشذ عن الدائرة التي حصرنا بها كتابنا الباحث عن البادية والبدو ، ومن لا يزال يشبه البدو في حالته أو نزعته .

إذا جاز أن نسميهم عشيرة ، فالدندشيون عشيرة متمدنة متوطنة ، منذ نحو قرنين ونصف في قضاء تلكلخ ، وهم يملكون قرى وضياعاً عديدة وأرضين شاسعة ممتدة من سهل عكار في الغرب إلى بحيرة حمص في الشرق ، وأجل قراهم تل حوش ونعرة وحجر الأبيض والعكارى ولفتايا ومشتى بيت حمود ومشتى بيت حسن وغيرها ، ناهيك سهل البقيعة الفسيح المشهور بزكاء تربته وغزارة مياهه ، والضياع المحيطة بهذا السهل كأم حارتين وأم جامع وعيناتا وغيرها ، وعاصمتهم تلكلخ ، ولهم في هذه البليدة وفي بعض ضياعهم دور عصرية حسنة ، أما ثرواتهم فما تغله محارثهم ومزارعهم ، وهي معتدلة في الجملة وقليلة التفاوت بين بعضهم ، وربما تضخمت عند بعض محظوظيهم ، والأمر البارز فيهم ، هو أن لدى أكثرهم بسطة أجسام ، ووسامة وجوه ، وطلاقة ألسنة ، وذيوع أذكار بالحمية والأريحية ، والبراعة في الفروسية والمسايفة ، كانوا وما برحوا أهل سنان وعنان ، إذا ركبوا وتجولوا في ضياعهم وبين مزارعيهم ، تخالهم أهل الإقطاعات من نبلاء العصور المتوسطة وفرسانها ، وأخص خلالهم : العصبية وشدة الشكيمة ، ونزق الطبيعة والتجمل فوق الطاقة في لبسهم وركبهم وصرفهم وبذخهم ، لا سيا كلما زخرت جبوبهم وعمرت جيوبهم ، ومن محامدهم أنهم حاملو لواء العروبة ، ورافعو مبادئ الوطنية في تلك الأنحاء ، جاهدوا في سبيلها ، وجالدوا وأوذوا واضطهدوا ، فلم يثن ذلك من عقيدتهم ، ولم يلن من أنفسهم وكرامتهم وعزيمتهم .

وقد أدركت في صغري منازيلهم وصواوينهم العديدة التي كانت تغص بالزوار والضيوف ، بحكم وقوعهم في مركز القضاء ، وفي منتصف طريق حمص وطرابلس ، حيث يكثر الغادون والرائحون ، وكان السباق إلى ذلك بينهم عميدهم في أواخر القرن الهجري الماضي أسعد باشا المحمد العباس ، ثم بعده عميدهم في الربع الأول من القرن الهجري الحالي

عبد الله آغا العمر العباس المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ ، وكان هذا الآغا شيخاً جليلاً مهاباً ، ينطق بلهجة بدوية كأكثر معمري هذه العشيرة وقتئذ ، مما يدل على قرب عهدهم بالبداوة وتأثلهم منها ، وكان رحمه الله كريماً جواداً ، تغشاه النزلاء والغرباء ، وحتى السياح الأجانب أحياناً ، فيجدون الشيء الكثير من هشاشة الوجه وحسن القرى ، وقد أدركت أيضاً يومئذ خيولهم العتاق من الصقلاويات ، والمعتقيات والعبيات ، وغيرها ، وعليها السروج المزركشة والعدد المنقشة ، كانوا يطاردون عليها ، ويكرون ويفرون في أوعارهم وآكامهم الكأداء ، وكانت هذه الخيل المطهمة تملأ الساحات والاصطبلات ، وتخطر أمام البيوت كا تخطر الغزلان في مراتعها ، وكانت الرماح والسيوف لم تنقرض بعد ، يحملونها ويلعبون بها تارةً ، وبالجريد تارةً ، ويمثلون أفاعيل الطعن والضرب ، وكذا الغدارات والقرابينات المفضضة يطلقونها ، ويملئون الفضاء بدويها ، وروائح بارودها ، وكانوا يلبسون القنابيز والزنانير الحريرية الثمينة ، أو سراويل الجوخ الفضفاضة ، وفوقها العباءات الحمر الزنارية القصيرة المقصبة ، أو الدوامر جمع دامر ، والغطاشي جمع غطشية ، السود المطرزة وعلى رؤوسهم العقل السود المبرومة ، والحطايط السود ، أو الزرق الصوفية أو القطنية أو الحريرية ، وكانت قهوتهم العربية بمظاهرها البدوية في دورهم لا ترتفع أباريقها عن النار ، ودق المهباج بالطريقة المعروفة يطرب السامعين ، ويذكر بمضارب البدو في الصحراء ، وأحاديث الفروسية وميادينها ، والرهان والسبق وبراعة الفرسان المشاهير في ألعاب السيف والقنا ، وأخبار الضرع والزرع ، وضخامة البيادر ووفرة الغلال والنواتج في ضياعهم ومزارعهم ، وما حملوه منها على الجمال وساقوه وباعوه إلى تجار طرابلس ، وما قبضوا من أثمانها وأنفقوه وبددوه ، كل ذلك كان سمر المجالس ، وموضوع رواد المضافات والمنازيل التي وصفناها .

وقد كان قسم كبير من هذه الأشياء والأزياء والخلال باقياً في حدود سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) حينما زارهم الأمير محمد علي توفيق ، شقيق خديوي مصر عباس حلمي باشا في طريقه من حمص إلى طرابلس ، تقله مركبة خيل ، إذ لم تكن السيارات درجت في بلاد الشام إذ ذاك ، فاستقبلوه من أبواب حمص بعددهم وعديدهم ، وواكبوه وطاردوا أمامه وتسابقوا ، ولما أوصلوه إلى تلكلخ أولموا له في بيت عميدهم المتوفى منذ حين محمد بك المحمد وليمة عصرية فاخرة ، فدهش من مدنيتهم وأريحيتهم ، كا دهش من عروبيتهم

وفروسيتهم ، مما لم يشهد نظيره في مكان آخر من بلاد الشام ، وقد وصف ذلك بالتفصيل في كتابه (الرحلة الشامية) ، وأثنى عليهم ثناءً جميلاً ، وظل يذكرهم إلى آخر أيامه .

وبدهي أن يفعل مرور الزمان وتطور العهود والميول في الأشياء والأزياء والخلال التي ذكرناها ، فيبدلها وينقصها إلى حد بعيد ، (وسبحان من لا يحول ولا يزول) وسنذكر ذلك في آخر هذا الفصل .

أما منشأ الدنادشة وزمن مجيئهم إلى قضاء تلكلخ وأسبابه واسمهم القديم قبل أن يسموا دنادشة ، وإلى أي أرومة عربية ينتسبون ، وشجرة أصولهم وفروعهم ، وتاريخ وقائعهم وتراجم كبرائهم ، كل ذلك قد بحثت فيه كثيراً وسألت ، فلم أجد ما ينفع الغلة بحكم إهمالهم هذه الأمور وعدم تسجيلها وحفظ وثائقها ، شأن أكثر الأسر القديمة والكبيرة في حواضرنا وبوادينا للأسف ، ولم أتوصل بعد الجهد إلا إلى ثلاث روايات مختلفة متقطعة ، غير مدعومة ببراهين ووثائق تاريخية .

فالرواية الأولى ، تتخطى القرون وتطفر من فوق الأجيال العديدة ، فتنسب الدنادشة مباشرةً إلى حمير في اليمن ، وإلى بطن منهم اسمه فيما زعموا (البراجم) ، بينما لم أجد أثراً لهذا الاسم في كتب الأنساب والتاريخ التي نبشتها ، وهم من هذا الانتساب إلى حمير يلقبون أنفسهم تارة بضنأ تبع ، ثم تمضي الرواية فتجعل مجيئهم من اليمن إلى العراق في عهد الفتوح ، وأنهم ظلوا هناك على البداوة حتى العهد العثماني ، وإذا صحت هذه الرواية ، معناها أنهم قحطانيو النجار ، وأنهم مكثوا في العراق نحو عشرة قرون دون انقطاع ، ولكن في أي مكان من العراق ، وماذا كان اسمهم فيه ؟ وماذا فعلوا طول تلك القرون ؟ ولماذا ظلوا على بداوتهم ولم يتحضروا كما تحضر غيرهم ؟ وما سبب خروجهم من العراق ومتى كان ذلك ؟ . كل هذا لا يذكره أحد ، ولا يؤيده سند .

والرواية الثانية ، تجعل انتسابهم إلى الضياغم ، بحكم أن أحد أجدادهم وهو عبود كان ملقباً بالضيغمي ، فإن صح ذلك يكونون من أقارب عشيرة العبدة ، أحد بطون قبيلة شمر المعروفة ، وكلمة ضياغم كما هو معلوم ، تجمع كل شمر في وحدتها .

والرواية الثالثة ، تجعل انتسابهم إلى عشيرة الفحيلية التي قدمنا ذكرها في بحث قضاء

الزوية ، وأنها بعد أن كانت ذات قوة وسطوة ، ضعفت وانحلت ولم يبق منها سوى بضعة بيوت ، وتقول هذه الرواية : أن أحد الضياغم المذكورين في الرواية الثانية لما كانوا في العراق ، أو في نجد أعقب ولداً اسمه فحلاً ، وأن فحلاً هذا قدم إلى أنحاء حوران مع فئة من العشيرة ، واستوطن هناك ، واستفحل أمره ، فسميت ذريته أو عشيرته بالفحيلية الذين تقدم ذكرهم ووصفهم ، والمعرفة والصلة موجودتان بين الدنادشة وبين فلول الفحيلية الباقين في أنحاء فيق وسمخ وإن كانت على قلة وندرة ، وفي قول : أن فحلاً أعقب ولداً اسمه عزائم ، وفي قول آخر : أن عزائم هذا هو رجل من الفحيلية ، هجر عشيرته ووفد إلى أنحاء حمص في زمن يظن أنه أواخر القرن الحادي عشر ، ومن أبناء عزائم هذا نشأ رجل اسمه عبود يقال أنه الجد الأعلى للدنادشة ، جاء وسكن بادئ ذي بدء في برج الدنادشة الذي كان مبنياً فوق الأكمة المشرفة على تلكلخ من جنوبيها ثم اندثر .

ثم قيل : إن عبوداً المذكور أعقب ثلاثة أولاد أو أحفاد ، أنجبوا من بعده ثلاث بيوتات ، فإبراهيم جد بيت إبراهيم القاطنين في تلكلخ ، وحسن جد بيت حسن القاطنين في مشتى بيت حسن ، وحمود جد بيت حمود القاطنين في مشتى بيت حمود ، وقد تفرع بيت إبراهيم من بعد إلى فروع الإبراهيمية والعباسية والعثمانية والرجبية ، وتفرع بيت حسن إلى فروع الأسعدية والأسبرية والدرباسية . وتفرع بيت حمود إلى العبودية والعثمانية ، وأفراد الدنادشة يلقبون بالآغاوات جمع آغا ، ونخوة الجميع أخوة زرقاء .

وقيل : إن في قرية تاتف من قضاء الباب في محافظة حلب فرعاً رابعاً للدندشيين ، يدعى هناك بيت صالحة ، عرفه دنادشة تلكلخ من نصف قرن ، وأقرّوا به ، وقد ذكر كبير هذا الفرع ، وهو الحاج طه بن خلف بن خلف بن محمد بن خلف بن صالح بن خلف ، أن هذا الفرع هو من أعقاب محمد بن عبود العزايم الضيغمي ، وأن محمداً هذا جاء إلى التاتف نازحاً من أنحاء تلكلخ ، على أثر قتل أخيه من قبل عامل إبراهيم باشا المصري ، واستقر فيها وأعقب بعد موته ذريةً تضم نحو ٢٠ ـ ٢٥ من الذكور تعمل في الزراعة والتجارة ، وأنه بعد انقطاع نحو ٦٠ ـ ٧٠ سنة ذهب بعض هؤلاء إلى تلكلخ ، وزار أقاربه الدنادشة ، وأثبت لهم صلته وقرابته ، بموجب أوراق فصدقوها ، وحصلت المعرفة والصلة ، وإن ظل البعض مرتاباً فيها .

قالوا : وكان للدندشيين في أوائل القرن الثاني عشر أو أواسطه رئيس اسمه الشيخ إسماعيل ، هو أول من منحته الدولة العثمانية لقب (آغا) ذي القيمة الكبيرة فيما مضى ، وأقطعته خمس قرى في جنوبي حمص وهي جوسية ومودان والحوز وحير البصل ولفتايا ، ذلك ليقوم هو وعشيرته بتأمين السابلة بين حمص وطرابلس ، ويكون حاجزاً في وجه علويي هذه الأنحاء ومسيحيي لبنان الشمالي ، قيل : إن هذا الإقطاع مؤيد بفرامين سلطانية ، فقدت يا للأسف في حادثة فرار الدندشيين من وجه إبراهيم باشا المصري ، ولو بقيت ، أو لو عثر عليها ، لظهر في هذا البحث التاريخي بعض ما برح غامضاً من سيرتهم .

وقالوا عن سبب تسميتهم بالدندشيين : هو أن التركمان السابقين في سكنى هذه الأنحاء (وقد ذكرناهم في بحثهم الخاص) لما رأوا إسماعيل آغا المذكور وأقاربه لقبوهم بالدندشلي أصحاب الدنادش ، لأنهم كانوا يزينون سروج خيلهم بعذبات مرسلة تدعى (دنادش) ، ويلبسون قمصاناً فضفاضة ذات أردان كبقية البدو ، ومن ثم صار اسمهم (دندشلية) وتنوسي اسمهم القديم بالمرة ، وهذا القول في ظني تخريج ضعيف لو وجد غيره لكان أصوب .

وأقدم ذكر في الكتب والأوراق القديمة للدندشيين عثرت عليه بعد بحث وتنقيب طويلين ، هو :

أولاً : ما جاء في رحلة السائح الدانياركي نيبوهر (جـ ٢ ص ٣٣٨) المطبوعة في سنة ١١٨٤ هـ (١٧٧٢ م) ، في سياق بحثه عن عشائر بلاد الشام وقتئذ ، فقد وضع الدنادشة بين عشائر التركمان ودعاهم (دندشلي) ، وأن عددهم ٥٠٠ بيت ، ولعله كان واهماً في أداة (لي) التركية ولقب (آغا) اللاحقين بهم ، بينما أطوارهم وأخبارهم لا تدع أي ريب في عروبتهم الصرحاء .

ثانياً : ما لقيته في أوراق وحجج قديمة محفوظة في دير مارجرجس الحميراء ، لما زرت هذا الدير وبت فيه في ربيع سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) ، منها كتاب بتوقيع ضابط حماه نصوح تاريخه ٨ رجب سنة ١١٩٧ هـ ، يطمئن فيه هذا الضابط رئيس الدير الشمالي ميخائيل ، عن كل ما يصيبه من الضرر من الحزازرة و (الدنادشة) ، ولعله يعني بالحزازرة التركمان القاطنين في ناحية حذور ، ومنها كتاب من والي دمشق كنج يوسف

باشا تاريخه ١٢٢٣ هـ يخاطب كواخي (جمع كاخية بمعنى مقدم أو مختار) قرى حذور والدريب وأغوات الدنادشة بأن يدفعوا ديونهم إلى الدير ، فيظهر من هذه الوثائق أن الدنادشة موجودون في قضاء تلكلخ من قبل سنة ١١٨٤ هـ أي من قبل السلطان مصطفى الرابع (١٢٢٢ ـ ١٢٢٣ هـ) الذي قالوا : أن فرمانهم الضائع كان يذكر اسم جدهم إسماعيل آغا ، ولعل هذا السلطان صاحب الفرمان المذكور ، لم يكن مصطفى الرابع بل مصطفى الثاني (١١٠٦ ـ ١١١٥ هـ) ، وبذلك يتأيد ظننا أنهم وجدوا في أوائل القرن الثاني عشر أي من قرنين ونصف .

وعلى كل حال فقد قام الدندشيون مدة مديدة منذ عهد سلفهم إسماعيل آغا المذكور بالمهمة التي كلفتهم الدولة بها ، أي حفظ طريق حمص ـ طرابلس ، فازدادوا من جراء ذلك بسطةً في العدد ، ووسعةً في الملك ، وقسوة على قرويي هذه الأنحاء ، وقد عثرت على ذكرهم في كتاب (تاريخ لبنان في عهد الشهابيين) صفحة ٢٠٠ وما بعدها ، فما قاله في حوادث سنة ١٢١٤ هـ : وجه عبد الله باشا والي عكا أوامره إلى علي بك الأسعد المرعبي والشيخ صقر المحفوظ و (الدنادشة) وإلى فاضل رعد حاكم الضنية بأن يجمعوا رجالهم ، ويمشوا صحبة الأمير الشهابي حاكم لبنان ، وقال في حوادث تلك السنة أيضاً : أن علي بك الأسعد حاكم وادي راويل من قبل عبد الله باشا تسلم قلعة الحصن ، وطرد الدنادشة منها ، وقال في حوادث سنة ١٢١٦ هـ : أن الدنادشة قووا على علي بك الأسعد ، وأخرجوا أخاه مصطفى من قلعة الحصن بالخداع وتسلموا الحصن ، وفي حوادث سنة ١٢٢٢ هـ أن كنج يوسف باشا والي دمشق أرسل آرما القبض على الدنادشة حكام وادي راويل ، وجرمهم بمئة كيس . وعثرت في خطط الشام للكرد علي (جـ ٣ ص ٦) في حوادث سنة ١٢٠١ هـ بأن الموالي لما ثاروا في ضواحي حمص وحماه ونهبوا القرى فتكوا بأغوات الدنادشة ، حكام المدينتين منهم ، وقد بحثت عن هذا الخبر فلم يؤيده أحد من العارفين والمعمرين ، ولم يذكر أن الدنادشة حكموا في زمن ما مدينتي حمص وحماه ، فمن أين نقل صاحب الخطط هذا الخبر ؟

على أن الأخبار المذكورة في تاريخ لبنان إن صحت ، تدل على أن الدنادشة كانوا في أوائل القرن الهجري الماضي حكام وادي راويل أحد روافد النهر الكبير المخترق لسهل

البقيعة ، وتدل على أنهم ملكوا قلعة الحصن مدة من الزمن ، ونازعهم عليها علي بك الأسعد المرعبي حاكم عكار ، لكن هذه الأخبار أيضاً لا يؤيدها ويذكرها أحد ممن سألتهم ، ولم يرو أحد خبر مكوث الدنادشة في قلعة الحصن في زمن ما ، فإن كانوا استعادوها من علي بك في سنة ١٢١٦ هـ ، ترى من أخرجهم منها وكيف ومتى ؟ ثم كيف سكنها من بعد السادة الزعبيون ، وشادوا فيها دوراً ، وبقوا فيها مع فلاحين عديدين أكثر من قرن ، إلى أن قام الفرنسيون في حدود سنة ١٣٥٠ هـ ، وأخرجوهم منها جميعاً ، ونقدوهم ثمن دورهم ، وهدموا هذه الدور ، وجعلوا هذه القلعة خاصة بزيارة السياح وبرواد الآثار ؟ إن رواية تاريخ الشهابي أيضاً فيها نظر .

ثم قالوا : لما زحف إبراهيم باشا المصري على بلاد الشام عمل الدندشيون كما عمل بعض الأسر الإقطاعية الكبيرة ، فهم أخلصوا وقتئذ للدولة العثمانية ، ووقفوا في جانبها وقاوموا الباشا المذكور ، فثأر منهم وأعدم أحد رؤسائهم المسمى عبد الله آغا الحمود ، فخافوا ونزحوا بكليتهم من تلكلخ إلى براري حمص الشرقية ، وظلوا مدة من زمن حكم الباشا المذكور (١٢٤٧ - ١٢٥٦ هـ) مشردين ، بعد أن أودعوا سلاحهم ومالهم عند أحمد المهنا شيخ عشيرة الأحسنة ، وفي رواية : أن الباشا المذكور طالب هذا الشيخ بودائع الدندشيين ، فلم يلبه فغضب عليه وصلبه ، ومن هنا ظلت الصلة وثيقة بين الدنادشة والأحسنة ، ينجد بعضهم بعضاً في الملمات .

ولما جلا إبراهيم باشا عن ديار الشام ، وعاد الحكم إلى العثمانيين ، رجع الدندشيون إلى أوطانهم ، وإلى القيام بوظيفتهم في حفظ السابلة وإظهار السطوة ، إلى أن استفزوا نقمة إسماعيل خير بك الهواش رئيس عشيرة الكلبيين من العلويين ، وقد كان هذا شق عصا الطاعة على الدولة العثمانية ، وطغى وبغى وتفرد في حكم أنحاء صافيتا وتلكلخ (١٢٧٠ - ١٢٧٥ هـ) ، وقد هاجم الدنادشة واضطرهم إلى الانكفاء من أمامه ، والجلاء عن تلكلخ ، فجاء وأحرقها ، لكنهم هاجموه من بعد في ساحل عكار ، وثأروا لكرامتهم منه .

ولما نظمت الدولة أمور الولايات بعد سنة ١٢٨١ هـ ، وألفت قضاء حصن الأكراد ، وجعلته من أعمال لواء طرابلس الشام ، استلم موظفوها وجنود دركها مهمة الأمن التي كانت في يد الدنادشة ، فانصرف هؤلاء من ثم إلى زرعهم وضرعهم .

وبقوا في عهد السلطان عبد الحميد كله في عيشة راضية ، لا دأب لهم إلا توسيع أملاكهم واستثمارها وجني غلالها ، شعروا مرة أن سهل البقيعة يكاد يخرج من أيديهم بحكم تسجيله باسم أحد وجهاء مسيحيي بيروت ، فأوفدوا رئيسهم أسعد المحمد العباس إلى استانبول ، وما زال هذا يدافع ويراجع حتى نجح في تسجيل البقيعة باسم الدنادشة ، وفي الحصول على لقب (باشا) ، وقد ظلوا بعد ذلك يستقبلون الضيوف ، ويودعون الزوار بين زرع وحرث ، وصيد وقنص وركب خيول ، وإقامة عرس ولهو وأنس ، مرت بهم السنون الطوال في تلك العهود الرخية ، لا يسمعون ولا يرون ما يزعج لتآزرهم وتعاضدهم أكثر من الآن ، فكان صدرهم معتزاً ، وعطفهم مهتزاً ، وضيفهم ملتذاً .

وخلال الحرب العامة الأولى (١٣٣٣ ـ ١٣٣٧ هـ) جمعوا ثروات حسنة لما عزّت الأقوات ، وكثر الجائعون والأموات ، فاستفادوا من أسعار غلالهم ، ووفوا ديونهم التي كانوا مثقلين بها ، بحكم الصرف والبذخ اللذين ألفوهما ، إلى أن انتهى الحكم العثماني في خريف ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م) وجاء الاحتلال الفرنسي إلى ديارهم ، وشرع ينازع الاستقلال العربي الذي كان مأمولاً على يد المرحوم الملك فيصل الرابض في دمشق ، وصار الفرنسيون يرفعون الأذلاء ويخفضون الأعزاء ، ويقطعون أوصال البلاد ، ويوطدونها لحكمهم الاستعماري ، فغلت النخوة العربية والعزة القومية في صدور الدنادشة ، وانحازوا إلى دعوة الملك المشار إليه ، وتنكروا للفرنسيين ، وقاوموا انتدابهم على عسرة موقعهم الجغرافي ، وقلة عددهم وعديدهم .

ففي تشرين الثاني سنة ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) بدأت حركتهم لما رفع الفرنسيون علمهم على دار حكومة تلكلخ ، وكلفوا وجهاء الدنادشة إرسال وفد إلى بيروت ، للاشتراك في استقبال الجنرال غورو ، فأبى هؤلاء وأنذروا الحاكم العسكري الفرنسي ، بأن ينزل العلم ويؤلف حكومة وطنية في تلكلخ ، ولما رفض الحاكم المذكور ، أطلقوا الرصاص على دار الحكومة ، وقتلوا بعض الجنود الذين كانوا فيها ، وفي أماكن أخرى ، ولاقى ضابطان فرنسيان اثنين من شبابهم شرقي تلكلخ ، فطلبا من الشابين أن يسلما سلاحهما فأبيا ، ولما هدداهما قتل الشابين أحد الضابطين وجرحا الثاني ، وتفاقم الخطب ، وساق الفرنسيون من طرابلس حملة قاتلها الدنادشة في ١٥ كانون الأول من تلك السنة في غربي تلكلخ وردوها ،

فعززها الفرنسيون بحملة أقوى مجهزة بالمدافع والرشاشات ، وهاجمت الحملتان ثوار الدنادشة ودام العراك نحو ثلاثة أيام دافع هؤلاء ماوسعهم الجهد ، ثم اضطروا أمام القوى النظامية الفائقة إلى التراجع واللجوء إلى حمص ، بعد أن كانوا أبعدوا عائلاتهم إليها من قبل ، ودخل الفرنسيون تلكلخ ، وأعملوا فيها وفي قريتي باروحة ومشتى بيت حسن الدمار والنهب والسلب ، وقتلوا بعض من صادفوه من شيوخ الدنادشة ، كأحمد آغا الحسين وشبابهم وأتباعهم ، ثم فرضوا على البارزين منهم غرامات نقدية باهظة من خيول وأسلحة ، وحكموا على مسببي الثورة منهم بالإعدام ، ومصادرة الأموال والأرزاق أمثال عبد الله الكنج وولده محمد أبو عبود ، وأسعد الفياض وأسعد الكنج ومصطفى العبد الله العمر وخالد الرستم وحسن الإبراهيم ، ورحل وقتئذ أكثر الأغوات إلى دمشق حيث استقبلوا بالحفاوة ، وأقاموا فيها عدة أشهر ، اشتركوا في معظم المساعي الوطنية التي دارت حتى سقوط الحكومة الفيصلية .

وبعد أن ظل الدنادشة مهددين ومشتتين مدة عفي عنهم ، فرجعوا إلى ديارهم وأعمالهم ، يلمون شعثهم ويستعيدون بعثهم ، وضم الفرنسيون قضاءهم إلى محافظة اللاذقية التي حكموها حكماً مباشراً طوال ربع قرن ، وظل الدنادشة هذه الحقبة كلها يتلقون ضروب الاستثقال والحرمان ، وهم يقابلون ذلك بعزة العروبة وأنفتها وكرامتها ، لم يخضعوا ولم يستكينوا حتى زال الانتداب الفرنسي البغيض ، وحصل الاستقلال المنشود ، وانضمت محافظتهم واجتمع شملهم بعاصمة الوطن الشامي الكبير .

إلا أن بلدتهم تلكلخ تجردت اليوم من أكثر المظاهر التي وصفناها ، فنزح بحكم الضرورة كثير منهم إلى ضياعهم ومزارعهم ، مؤثرين حياة العزلة والزهادة ، أو إلى حمص أو طرابلس أو غيرها ، واختفت بعد ظهور السيارات الخيول العربية وأقفرت الاصطبلات إلا ما ندر وخلت المنازيل من مرتاديها إلا في الأقل ، وتوارت تلك القهوة اللذيذة فلا تظهر إلا حيناً بعد حين ، متواضعة ليس فيها شيء من عزتها السابقة ، التي كانت قبل ٢٥ ـ ٣٠ سنة وما قبل ، غير الأثر والذكرى .

وقصرت تلكلخ عن مثيلاتها من مراكز الأقضية ، رغم وقوعها على الخط الحديدي وطريق السيارات اللذين لا ينقطعان نهاراً ولا ليلاً ، فهبطت إلى مستوى القرى العادية

وظلت محرومة من الماء والكهرباء والمجارير والطرق المعبدة والمغروسة وأمثالها من وسائل العمران ورفه الزوار والسكان .

هذا ويتمنى محبو الخير لهؤلاء الدندشيين ـ بعد أن زالت دولة السنان والعنان ـ أن يكثروا من إرسال أبنائهم إلى المدارس الراقية ، ويزيدوا عدد متعلميهم ومثقفيهم ، ويعنوا بإتقان الزرع والغرس ، وتحسين الري في أراضيهم الخصبة المستعدة لأزيد وأحسن مما يعملونه هم ، على هون وتقاعس واتكال على الحول ، ومساعدة الأقدار والأمطار والأسعار .

وقد كان الدندشيون فيما مضى يذعنون لرئيس كبير بينهم ، أقدمهم ذكراً عباس الإبراهيم العبود ، وبعده عثمان المحمد الإبراهيم ، وبعده ابنه محمد العثمان المحمد ، وبعده أسعد المحمد العباس ، وبعده عبد الله العمر العباس الذي قدمنا وصف محامده وآخرهم محمد المحمد المحمد ، أما الآن فليس لهم رئيس أوحد ، ذلك لتساوي كبرائهم بالنباهة والوجاهة .

ولابد من التنويه بأن في شمالي قضاء الهرمل من لبنان أسرة كبيرة أخرى اسمها (بيت دندش) يختلط الأمر على بعض الناس ، فيحسبهم الدندشيين الذين وصفناهم ، بينما الفرق كبير بين الأسرتين ، فهؤلاء الهرمليون شيعة جعفريون وقرويون عاديون ، وذوو سمعة في الشقاوة والعدوان ، حتى ضاق الفرنسيون بهم ذرعاً في سنة ١٩٣١ م ، فأجلوهم عن بكرة أبيهم إلى قضاء الميادين في محافظة الفرات ، وتركوهم هناك مدة ، ريثما تابوا وعادوا إلى السكينة ، فلينتبه القارئ إلى الفروق بينهما .





عشائر محافظة حماة

قضاءا حماة وسلمية

قبل الشروع في ذكر عشائر محافظة حماة ، نرى من وفاء الذمم في هذا السجل الذي نؤرخ به أعمال بعض أبناء زماننا وآثارهم ، أن ننوه بما صدر عن عشائر هذه المحافظة من الحمية الوطنية والشهامة العربية ، فقد أنجدوا أهل مدينة حماة حينما هب هؤلاء جميعاً ، وتضامنوا ودفعوا العدوان الفرنسي الذي حدث في أواخر شهر أيار سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م واستحقوا الإعجاب والثناء ، وهذه العشائر فيما قالوه هي : الأسبعة وبنو خالد والتركي والعقيدات والخراشيم وبني عز الرعية والمشارفة الرعية والنعيم ، وبعض فرق الموالي كبني عز والمشارفة والدواونة والغازي ، فقد هرع هؤلاء إلى حماة ، وخاضوا المعركة مع مجاهديها ، وأبلوا بلاءً حسناً ، ورفعوا رأس العشائر عالياً ، على أن فضلاً كبيراً في هذا الدفاع المجيد يعود إلى محافظ حماة السيد خالد ضيا الداغستاني ، فقد أبرز في تلك الأيام العصيبة من الحزم وحسن القيادة والتدبير ، ما جعل الدفاع ناجحاً وميزان حماة راجحاً ، وقد سجلنا هذه المأثرة للذكرى والتاريخ ، وليعمل العاملون مثل ذلك .

في محافظة حماة من عشائر عنزة الكبيرة عشيرة الأسبعة ، ومن عربان الديرة العقيدات والبني عز الرعية والتركي والبشاكم والجملان والمشارفة الرعية ، وبعض الموالي والحديديين والنعيم ، وإليك وصف كل منها :

الأسبعة

عشيرة عنزية كبيرة العدد (نحو ٤٠٠٠ بيت) من ضنا عبيد وضنا بشر ، غنية بالسلاح والإبل والخيل والغنم ، مشهورة بالشجاعة والفروسية ، وهي إلى آخر عهد الترك

كانت تأخذ الخوة من قرى حمص وحماة ، ناهيك بقرى المناظر والقوافل المارة في براريها ، وهي تعد عنزة محافظتي حمص وحماة على السواء ، لترددها على ناحية تدمر ، ولنزول فريق منها (المصاربة) في ناحية جب الجراح ، والناحيتان من عمل حمص ، إلا أن انتماء الأسبعة إلى حماة أشد بحكم نزول كثرتها في شمالي شرق حماة وسلمية ، ولأن معظم الغنم الذي تربيه هو للحمويين ، وهي لما نزحت من شمالي الحجاز في أوائل القرن الثالث عشر ، تركت في مواطنها الأصلية (تيماء وخيبر) بساتين نخيل كثيرة ، ولا يزال بعض الأسبعة يدعي ملكية قسم من هذه البساتين ، وهناك بين الحجاز ووادي الدواسر تتبدى عشيرة اسمها (السبيع) هي قريبة الأسبعة بإقرار الفريقين ، والأسبعة لا تزال على بداوتها الصرحاء لم يتحضر أي فريق منها بعد ، تربي الإبل والغنم معاً .

وقد انقسمت الأسبعة إلى قسمين مستقلين ، يتصرف كل منها تصرفاً منفرداً عن الثاني ، ولكل منها رئيس خاص ، بيد أن وشائج القربى وصلة العصبية لم تنفصم بعد بتاتاً ، كما انفصمت بين قسمي الولد والأخرصة من عشيرة الفدعان ، وهذان القسمان هما الأسبعة الأعبدة والأسبعة البطينات ، والفرق بينهما ، أولاً : تفاوت العدد ، فالمشهور أن الأعبدة أكثر عدداً من البطينات ، فلو فرضنا أن الأسبعة جميعها تعد ٤٠٠٠ بيت تكون النسبة هكذا : ١٥٠٠ البطينات و ٢٥٠٠ الأعبدة ، وإن كان هناك من يقول بأنهما متساويان ، ثانياً : أن فرق البطينات متحدة متساندة بفضل القيادة والسيطرة القويتين اللتين لآل المرشد ، ولا سيا للرئيس الحالي الشيخ راكان ، بينما فرق الأسبعة متنازعة متفككة ، منذ أن زالت ثروة رئيسها المتوفى برجس بن هديب ، ودالت حرمته ، وانصرف آل هديب للشقاق .

قال البسام في كتابه الدرر المفاخر عنهم : « ومنهم (يعني عنزة) السبعة المشهورون ، والكماة المدخرون النازلون المخوف ، والمقرون الضيوف ، ذوو الأكف الوطف ، والرماح الرعف ، والمارقون من الذم مروق السهم من الصف ، أولئك هم خير البرية » ، وذكر لي صديقي وتلميذي الوفي السيد محمد الجندي من وجهاء سلمية أن سمعة الأسبعة بين العشائر في الذروة من الجودة والحمدة ، وهي تتمسك بالفضائل العربية ، وبمزايا أجدادها الأقدمين ، كحماية الدخيل ، وإقراء الضيف ، وعدم حلف اليمين الكاذب

مهما كلف الأمر ، وأنها تحترم رؤساءها احترام الولـد لأبيـه ، وتنتصر لمن يستجير بهـا ، مهما أحوجها النصر من تضحية ، وها نحن نصف أحوال قسمي الأسبعة حسبما تلقيناه وسمعناه .

الأسبعة البطينات

ويقال لهم أيضاً القمصة (الأقمصـة) ، وهو اسم أحـد الفرقتين اللتين تتـألف العشيرة منهما ، بحكم أن بيت الرئـاسـة هو في هـذه الفرقـة ، وعـدد البطينـات كما قـدمنـا هو ١٥٠٠ بيت ، ويقال أن عندهم ٢٥٠٠٠ بعير و ٣٠٠٠٠ شاة ، ومنازلهم في القيظ شمالي قضـاء سلميـة (السعن وسعين ، بغيديد ، قصر ابن وردان) ، وفي الشتاء القعرة داخل الحدود العراقيـة ، والرئـاسـة في يـد الشيخ راكان بن بشير بن سلاب بن ضويحي آل مرشـد ، وهـو نـائب في البرلمان السوري ومن رؤساء العشائر البارزين بذكائه ونشاطـه ، وحسن إدارتـه لعشيرتـه ، وقد شرع منذ عشرين سنة باستئجار أراضي من أملاك الدولـة ، في مواقع قصور السلامنـة والشادوف وقناة دوش وادي العـذيب في شرقي نـاحيـة سعن وسعين في قضـاء سلميـة ، وفي أنحاء جب الكديم (١٣٣ كيلاً شرقي سلمية) ، ويعد الشيخ راكان في مقدمة رؤساء عنزة في بنـاء القرى ، وإشـادة الـدور ، وتفجير القني الأثريـة ، والعكف على الحرث والزرع والميل إلى الحضارة في المسكن والمعيشة ، فقد بنى في كديم داراً كبيرة وأنشأ في بغيـديـد بستـانـاً ، وهو يسعى لإتمام فتح آبار قناة كديم الأثرية ، وإذا كتب لـه النجـاح قـد تستقر عشيرتـه وتتحضر وتعمر تلك البراري النائية .

وقد أوثق الشيخ راكان صلاته مع بقيـة العشـائر ، فتزوج ابنـة الأمير مجحم بن مهيـد رئيس الفدعان الولد ، ثم ابنة الشيخ نواف الصالح شيخ الحديديين ، ويكاد يستقل وحـده برئاسـة قسمي الأسبعـة (البطينـات والأعبـدة) ، لأن أكثر فرق القسم الثـاني أي الأعبـدة تنقاد إليه إلى حد بعيد ، وله في قيادة الغزوات وقائع وأحـاديث متواترة ، حتى أنـه خلال النزاع الهـائل الـذي شجر بين الأسبعـة والروالـة (ضنـا عبيـد وضنـا مسلم) في سني ١٣٤٧ و ١٣٤٨ و ١٣٤٩ هـ ، وقد قـدمنـا بحث هـذا النزاع في فصل عشيرة الروالـة (ص ٣٦٨) ، كان الشيخ راكان في طليعـة قومـه يقتحم المعـارك ، وهو إلى ذكائـه ونشـاطـه عطوف على أبناء عشيرته ومحسن ، كما هو صارم في حق من يحاول منهم مخالفته ، والانشقاق عنـه كما هو دأب فرقة المصاربة .

ومن حوادث الأسبعة القديمة مصاهرة بعض شيوخها للأجانب وعقدهم أواصر الصداقة والولاء معهم ، ذكر مؤلفا (دليل الشرق) المطبوع في سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨٢ م) أن عشيرة الأسبعة كانت مسيطرةً على طريق البادية من حمص ودمشق إلى تدمر ، وتتكفل بإيصال سياح الإفرنجي إلى تدمر ، وإرجاعهم بأجرة ١٥ ـ٢٠ ليرة ذهبية عن كل شخص ، وذكر أيضاً أن أقوى فرق الأسبعة يومئذ هي المصرب ، وأن أحد مشايخ هذه الفرقة ، واسمه مجولاً حظي بمرافقة سائحة إنكليزية جليلة القدر اسمها الليدي دلبي ، وكانت مشهورة بمغامراتها ، وفي الطريق داهم قافلتها غزو من شمر ، فجزعت جزعاً شديداً ، ومن قائل أن هذا الغزو اصطنعه مجول لإيهام الليدي المذكورة ، لكن مجولاً أبدى بسالةً في رد الغزو ، مما أثار إعجابها فأحبته وتزوجته وأسكنته في دار فخمة في حي مسجد الأقصاب في دمشق ، وفي دار مثلها في حمص إلى أن توفي . ولمجول هذا حفيد لدى عمه الشيخ صالح المصرب ، الذي أكد لي حكاية هذه السيدة الإنكليزية .



الشيخ راكان المرشد رئيس الأسبعة

والمشيخة على الأسبعة البطينات كانت وما برحت لآل مرشد ، ففي حدود سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) كانت في يد سليمان بن سلاب المرشد ، ولما مات خلفه ابن أخيه بطين بن سلطان ، ولما مات بطين خلفه أخوه غثوان بن سليمان الذي تكلمنا عنه ولما مات

غثوان في سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) خلفه أخوه بشير ، ولما مات بشير في سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣ م) خلفه ابنه راكان .

وقد اشتهر الشيوخ آل مرشد بفروسيتهم الخارقة ، حدثني السيد محمد الجندي من وجهاء قضاء سلمية ، أن تاريخ وقائع سليمان بن سلاب المرشد لا يذكر فراره من معركة قط ، ولا تأخره إذا طلبه أحد الفرسان المشاهير للبراز ، وأن ابن عمه بطين وكذا ابنه هزاع ما كانا ليقلا عنه في الشجاعة . وكان سليمان محباً للكر والفر دائماً .

وأجل الوقائع التي يذكرها تاريخ عشيرة البطينات هي وقعة ابن الرشيد لما هاجمهم في رايته كما يقولون ، ولكثرة عدده وعديده لم تقو البطينات وقتئذ على الصمود أمام جيش ابن الرشيد الجرار ، حتى استاق هذا الجيش (العلي) . وما العليّ ؟ هي نوق بيض ، وفي اصطلاح البدو (وضح) وهي نوق لآل مرشد من القديم ، لا تحمل بل تربى طليقة لأجل النسل والمرعى فقط ، ولا يذكر التاريخ أن أحداً من الأعداء غنم هذه النوق من آل مرشد ، ويستقتل آل مرشد وأتباعهم ويستميتون إذا أغتصبت ناقة واحدة منها ، فلما استاق جيش ابن الرشيد نوق العلي تنادى أبناء سليمان المرشد وهم بشير ونهار وهزاع وغثوان وعمهم بطين والنخبة من فرسانهم وتصايحوا بينهم ، العليّ يا أهل العلي ؛ وكروا كأنهم رجل واحد ، وبعد عراك شديد دام النهار كله استخلصوا (فكوا) العلي من عدوهم ، وأرجعوها سالمة إلا واحدة جثت على الأرض ، وقد أعياها الجهد فقتلوها طعناً بالرماح لئلا يكسبها العدو ، ولما علم ابن الرشيد بشجاعتهم النادرة ، أكبر قدرهم ، ومنحهم الأمان مع رسوله ، وأعاد إليهم أعمدة بيوتهم . ثم قال : إن أشهر الخيول العربية الكريمة تقتنيها عشيرة البطينات ، ومن الأرسان المشهورة عندهم المعنقى السبيلي والنواق والشامري والممرح والعبيان ودهمان وأبو جنوب والخرس ، والأشخاص الذين تنتمي إليهم هذه الأرسان كسبيل والأخرس والنواق هم من هذه العشيرة .

ومما يذكر من حوادث البطينات الشقاق بين آل مرشد والمصاربة ومعهم الرسالين ، وهو قديم من عهد سليمان جد راكان ، قيل أنه في أثناء غياب سليمان مرة في العراق من وجه الدولة العثمانية ، حاولت الفرقتان المذكورتان أن تنشقا عنه ، ولما رجع وأراد

إرغامها على العودة إليه قاومتاه مدة ، ثم لما عجزتا خضعتا إليه ، وفي سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) لما شجر الخلاف بين البطينات والأعبدة اللذين هما جذمي الأسبعة انحازت فرقتا المصاربة والرسالين إلى الأعبدة ، ولما تغلب جذم البطينات اضطرتا إلى العودة لحظيرة آل مرشد تماماً ، لكن المصاربة ظلوا يتحينون الفرص للانفصال كلما وجدوا سبباً ، وآخر هذه الأسباب الحادثة التي أتاها جدوع بن الصايد وهو ابن رئيس فرقة الرحمة ، فقد ضرب بالمهباج رأس نايف المصرب أخي صالح المصرب فأعماه بتاتاً ، وصالح المصرب المذكور فارس مغوار كما كان أبوه صقراً من قبل ، وقد كان في شبابه من أنصار القضية العربية منذ عهد المرحوم الملك فيصل ، وكان يهرع للاشتراك في كل وثبة وزحف ، وهؤلاء المصرب وإن شاقوا آل المرشد ، إلا أنهم وقت الحاجة والشدة سرعان ما يقفون في جانب العشيرة ، وينضوون إلى لواء الشيخ راكان ، كما ثبت ذلك حين نزاع ضنأ مسلم وضنأ عبيد .

هذا ووجهاء البطينات هم : مسهوج وسوعان وشامان من آل مرشد ، ورشيد المصرب وابن أخيه صالح والحاج متعب السعيد والحاج عبد العزيز الشتيوي وابن غشم وابن عبده ، ويذكر عن أريحية الشيخ راكان أنه اهتم بأمر عشيرته حينما ازداد بينها عدد الجائعين والبائسين في سني المحل (١٩٣١ ـ ١٩٣٣ م) ، وقد كان يومئذ الوحيد بين رؤساء البادية في بره وإحسانه ، ويذكر عنه أيضاً ، أنه رغم ولائه للفرنسيين لم يتأخر في أي يوم عن الاهتمام بالقضايا الوطنية ، والتصويت لمقترحاتها في المجلس النيابي الذي هو من أعضائه ، وأنه يوم العدوان الفرنسي على حماه (أيار ١٩٤٥ م) هرع بعشيرته لنجدة حماه ، واشترك بجهادها الذي تحدثنا عنه .

شجرة نسب آل مرشد ـ أبعد جد يذكرونه هو مرشد بن عميرة بن حسين بن سعد (المقمص) ، فمن مرشد جاء الوضيحي ، ومن هذا عواد، ومن هذا سلاب ، ومن هذا سليمان المتوفى في سنة ١٣١٨ هـ وسلطان ومدبغ ، ومن سليمان جاء هزاع ونهار وغثوان وبشير ، ومن بشير راكان (الشيخ الحالي) وفياض ، وللشيخ راكان من الأولاد ثامر وطراد وهيكل ومحمد ومندوب ونوري وفواز ونايف .

فرق البطينات ـ تنقسم البطينات إلى فرقتين متساويتين تقريباً ، هما القمصة

والرسالين ، ولكل منها فصائل عديدة ، ففي فرقة القمصة (ربع راكان المرشد) فصائل العميرة لراكان المرشد ، والسحيم لعبد العزيز بن شتيوي ، والأرحمة لمتعب بن سعد ، والخصان لحمد بن شلهوب ، والمواهيب لمشير بن غشم ، والمصاربة لرشيد المصرب ، وهؤلاء قاطنون في ناحية جب الجراح شرقي حمص ، كما قدمنا ، وفي فرقة الرسالين فصائل العجلان لابن عيدة ، والجاسم لفنحوش بن مواج ، والهويشان لحمد بن مسلط ، والشفيع لابن مقداد .

نجعة البطينات ـ للأسبعة البطينات نجعة بعيدة وبداوة كبيرة ، وإن كانت أقل من الروالة ، وهي تقيظ في قضاء سلمية داخل الحدود الآتية : عقيربات والسعن وسعين وبغيديد وأسرية وجبل البلعاس ، وهي قلما تنفذ إلى المعمورة ، لأن المنطقة المحددة التي ذكرناها تغنيها عن ذلك ، لوفرة مياهها وقنواتها ومراعيها ، وقرية بغيديد التي نشأ فيها الشيخ راكان تعد مركز هذه المنطقة ، وربما بلغوا في سني الجدب ناحية الشيخ كاسون أو قلعة المضيق ، وحينئذ تنزع منهم قوة البادية أسلحتهم وتراقب حركاتهم طوال مدة بقائهم ، وفي موسم القيظ يتعاملون مع التجار الحمويين وشركاؤهم منهم ، وأغلب الغنم الذي يربونه هو لأهل حماة ، أما نجعتهم في الشتاء فتكون في الحماد البعيد حول جبل عنزة والوديان والقعرة فيتاخمون عشائر ضنأ مسلم ، ولا يعترفون بالحدود الأساسية الوهمية بين العراق والشام ، شأنهم في ذلك شأن جميع البدو ، فهم يجتازون الحدود العراقية في كثير من الأحيان إذا كانت ديارهم في الشامية ممحلة ، أو كانت دون العراق خصباً ، والقعرة تعد في نظر الأسبعة الفردوس المنشود والأرض الموعود ، وحينما تكون القعرة (وهي داخل الحدود العراقية) تراقبهم قوى البادية العراقية المرابطة في محل الرطبة ، وإذا قصدت البطينات النجعة تتجمع في بغيديد وعقيربات وأسرية ، ومن ثم تتجه إما إلى القعرة ، أو إلى الوديان ، أو إلى جبل عنزة ، وكثيراً ما كانت تصطدم بالروالة ، ويغير بعضهم على بعض من أجل المراعي ، أو بقصد السلب والنهب ، إلا أن هذا الحال قد زال منذ سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٣ م) . ومما اختصت به الأسبعة البطينات أنها العشيرة الوحيدة التي تستطيع التقيظ في البادية ، دونما حاجة إلى مراعي المعمورة ، وذلك لوفرة المراعي في منطقتها الجبلية الواقعة في الشمال الشرقي والشمال الغربي من تدمر ، كأبي رجمين والمرا وشاعر والخشابية واللابدة ومقيبرة ، ومن ثم كانت تبقى دائماً في نجوة عن المراقبة النظامية ، إلا في أيام

الربيع حينما تضطر إلى غشيان مدينة حماة ، ومبادلة شركائها من منتوج الغنم .

وقد صالحت الأسبعة كل عنزة في سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) ، وظل السلام سائداً حتى سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) ، فحدثت فتن بين الأسبعة البطينات والروالة ، فانحازت الأعبدة إلى البطينات ، وانضم إليهما الفدعان الولد وبعض الموالي والعمارات ، هؤلاء جمع من ضنأ بشر ، وقف في وجه جمع ثاني من ضنأ مسلم فيه الروالة ولواحقها والأحسنة وبعض فرق شرقي الأردن (السرحان والصخور والعيسى) ، وانتهى الأمر بعد بالصلح الذي قدمنا ذكره في حديث الروالة .

الأسبعة الأعبدة

قيل أن عددهم ٢٥٠٠ بيت وعندهم ١٧٠٠ بعير و ٥٠ فرساً ، وهم لا يملكون أرضين ، وما يذكر لهم من الأملاك خاص برؤسائهم أبناء هديب فقط ، وهذه العشيرة أيضاً ذات منعة وقيمة حربية وسلاح وفير .

وقد قدمنا أن عشيرة الأسبعة ، بعد أن كانت جميعها واحدة متماسكة ، انشقت على أثر المعارك التي نشبت بينها وبين الروالة (ضنأ مسلم) ، وكان الفدعان يناصرونها ، وعقيد الفدعان جدعان بن مهيد يقود حلف الفدعان والأسبعة (ضنأ بشر) ، وتولى آل هديب رئاسة الأسبعة الأعبدة من ذلك التاريخ ، وفي الربع الأول من قرننا الهجري الحاضر كان الرئيس فرحان بن هديب ، وكان لفرحان هذا نفوذ كبير على كل الأسبعة ، حتى على كل العشائر المستقلة في أنحاء حمص وحماة (ما عدا الأحسنة) وله صلات قوية مع رجال الدولة في حلب ، وقد منحوه سلطة كبيرة كان يتقاضى بها خوّة من القوافل السائرة في شرقي حماة وشماليها ، وجعل مركزه في طريق الحمراء على بعد قليل من حماة ، ولما مات سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) خلفه ابنه برجس ، وكان برجس في بدء أمره ضابطاً في الجيش العثماني برتبة رئيس تخرج في مدرسة العشائر التي أسسها السلطان عبد الحميد ، وكان غنياً ، وله ثلاث قرى في قضاء المعرة ، ثم بذر وأسرف على نهج بعض رؤساء البادية ، الذين لا يراعون الاقتصاد ، فافتقر وتراكمت عليه الديون في حدود سنة

١٣٥٣ هـ ، فاضطر إلى أن يغيب عن وجه دائنيه ، وذهب إلى بغداد يرجو الإسعاف من المرحوم الملك فيصل ، الذي كان عطوفاً عليه منذ أن كان في دمشق ، وكاد يمنحه وقتئذ أكثر قرى أملاك الدولة التي في منطقة الحمراء ، وبينما كان موعوداً بمعونة طيبة عقب رجوع جلالته من أوربا ، توفي فجأة في سويسرا لسوء حظ برجس وحظ العرب جميعاً ، فرجع برجس وقتئذ آسفاً ، وزالت حرمته بزوال ثروته ، ففقدت الأعبدة اتحادها ، وذهبت ريحها إلى أن عزل من الرئاسة في سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) ثم مات بعدها بائساً معدماً ، وكان أبناؤه صغاراً ، فحال صغرهم دون تولي أحدهم ، فخلفه أخوه صالح ، لكن رؤساء الفرق وخاصةً أحمد الكردوش وسليمان بن موينع شاقوه ولم يجاروه ، ويزداد في ذلك فشل عشيرة الأعبدة وضعفها ، وابتعاد فرقها بعضها عن بعض ، واضطرارها يوماً ما إلى الانضواء بالمرة إلى الشيخ راكان المرشد ، على أن الانشقاق الضارب أطنابه بين الأعبدة والبطينات يزول في سرعة ، حينما يعلن الحرب بين الأسبعة وغيرها من العشائر وخاصةً الروالة ، وللأعبدة مشاكل ومعارك عديدة مع الموالي والحديديين ، ذكرت في بحث هاتين العشيرتين أيضاً .

شجرة نسب آل هديب : رأس ضنا عبيد هو معلا بن سبع بن هديب ، فمنه جاء محمد الذي أعقب جاسم فسالم فخاطر فعلي فهدية ففارس فمرادي فصوحان فبرجس فطلال ففرحان الذي تقدم الكلام عنه ، وقد أعقب فرحان بن طلال أربعة أولاد ؛ تركي ومثقال وصالح وبرجس ، فمن مثقال بندر ومنه حكمة ، ومن برجس محمد وفارس وعلي ، ومن صالح معجون وفرحان ومثقال .

فرق الأعبدة :

١ ـ الموايجه لابن هديب وفيها فخذان المكلف والفطارة ، ففي المكلف فصائل السائل والمساندة والكويران والسنابير والعجيلات والعزامات والركارجة ، وفي القطارة البومزدوق والمجاهمة والأنصفة والمزاريع والبلاعين والعمور الفراع .

٢ ـ الأمسكة لابن جلادان وفيها من الأفخاذ الجهل والمسيب والويطان والنوابغة .

٣ ـ العبادات لابن كردوش وفيها أفخاذ الصايد والجنادلة والجماميس .

٤ ـ الدوام لابن فقفى وفيها أفخاذ الجرابيع والمني والدوعين .

٥ ـ البيـايعـة لابن موينع وفيهـا أفخـاذ الموينـع والرويشـدة والشـايـة والفريعـات والسعيد .

٦ ـ الأعرفة لابن فاعور وفيها ضنأ سلمان وضنأ حواس .

٧ ـ الوثرة لابن دعبل .

٨ ـ الرماح لابن وائل .

نجعة الأعبدة : تعد عشيرة الأسبعة الأعبدة من ذوات النجعة الكبيرة البعيـدة ، فهي تدخل الحدود العراقية حتى وادي حوران ، أما منازلها في القيـظ ففي شمالي حمـاة وشماليهـا الشرقي ، داخل الحـدود الآتيـة : قلعـة المضيق ـ خـان شيخون ـ الحمراء ـ العلا ـ الخرايج ، وقسم منها يقيظ في أنحاء أبي هريرة على الفرات ، حتى أن فرقـة الأمسكـة تعبر الفرات إلى الجزيرة أحياناً ، بل إن الأعبدة كلها مـا عـدا جزء قليل عبرت سنـة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) إلى الجـزيرة ، وقيظت حـول المنـاخير قرب الرقـة ، وبلغت سفـح جبـل البيضـا ، لكنهـا تنازع وقتئذ عشيرة البقارة على المراعي والمناهل ، وينشب القتال ، أمـا في الشتـاء فتتجـه نحو الحدود العراقية ، وتبلغ القعرة ووادي حوران ، بعد أن تمكث مدة غير يسيرة في أنحـاء السخنة ، وسبيلها إلى منتجعها هـذا : أسريـة ـ السخنـة ـ أرك ، بير المربع وبير وراد وبير سجري ، وأخيراً أعالي وادي الصواب غربي الرطبة إلى الشمال .

عقيدات حماة

أصلهم من عشيرة العقيـــدات الكبيرة المستقرة في وادي الفرات (محـــافظـــة دير الزور) ، وقد فصلناهـا هنـاك ، كما فصلنـا العقيـدات الـذين في قضـاء دومـا ، وفي قضـاء حمص ، أما عقيدات حماة فأكثر ما يقيمون في قرى أملاك الدولة في نـاحيـة عقيربـات شرقي قضـاء سلميـة كأبي دالي وأبي رمـال وجب الريـان ومغيزل ورسم العبـد والمرامي ونعيمـة وعكش ، وفي قرب حماة في قرى تل قرطل وأبو دردة ومريج الدر والجمقليـة ، وفي الشتـاء ينجعـون البـاديـة ، وهم أهـل ضرع أكثر من أنهم أهـل زرع ، وحـالتهم حسنـة وسـوقهم

التجاري حماة ، وهم على قلتهم يعدون ذوي بأس شديد بين العشائر ، يعادون ويصالحون لوحدهم ، إلا أنهم كثيراً ما يلحقون الموالي وقت الحرب .

ومن وقائعهم التي تذكر بإعجاب أنهم في سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) وكانت الحالة فوضى في بدء عهد الفرنسيين دهمهم غزو كبير من الأسبعة والحديديين واستاق مواشيهم ، وكان العقيدات في قلة ، لكنهم هبوا للدفاع ، واقتفوا أثر الغزاة ، واشتبكوا في معركة دامية ، استبسلوا فيها ، وقتلوا عدداً من أخصامهم ، واستخلصوا كثيراً من منهوباتهم .

ومن سيئاتهم التي تذكر بالأسف في صيف سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢١ م) هجومهم على المجاهد المرحوم إبراهيم هنانو ، فهو بعد أن حارب وقتئذ جيش الاحتلال الفرنسي ، وخلد في صفحات البطولة والجهاد الوطني ، أروع المآثر بدا له أن ينسحب من المعركة ، مع من تبقى من عصابته ، ويلجأ إلى إمارة شرقي الأردن ، فسار من جبل الزاوية نحو شرقي حماة وسلمية وحمص متتبعاً طرف العمور ، فقام الفرنسيون في حماة واستجاشوا هؤلاء العقيدات وغيرهم من البدو والحضر ، ودفعوهم لتعقيبه ، فلحقوه قرب قرية مكسر الحصان شرقي حمص ، وجرت معركة حامية ، فازوا فيها بتشتيت شمله لرجحان عددهم ، وللعطش والجوع والتعب الذي أحاط وقتئذ برجاله .

أما فرق العقيدات فهي : الدهامشة ، ٢٠٠ بيت ، في مشيخة متعب بن أحمد الريان ، ينتسب هؤلاء إلى دهامشة العمارات ، ويوسمون غنمهم بوسم محمد التركي بن مجلاد ، وهم كثيراً ما ينجعون القعرة ، ويشتون قرب أقاربهم العمارات ، ثم فرقة الأبو سيف ، ١٣٠ بيتاً ، في مشيخة علي العموري ، ثم الأبو سلامة ١٠٠ بيت في مشيخة أحمد الجدعان ، ثم الأبو سرايا ٧٠ بيتاً في مشيخة عبد الله الجربوع ، فالمجموع ٥٠٠ بيت .

ومن هؤلاء العقيدات ثلاث فرق في قضاء جبل سمعان (جنوبي ولاية حلب) ، وهي الأبو ليل والأبو دراج والأبو بكير ، وسيأتي ذكرهم هناك .

بنو عز الرعية

عشيرة صغيرة منشقة عن أختها بني عز الموالي ، وهي تنضم حين الفزع الأكبر إلى

الموالي ، يقيظون في جنوبي سلمية في قرى أم العمد وقبلهات وتل حسن باشا ، وفي الشتاء ينجعون البادية ، عدد بيوتهم ١٥٠ وحالتهم حسنة ، وبأسهم شديد ، وسوقهم التجاري حماة ، وشركاؤهم حمويون ، وشيخهم معاط الإسماعيل السلامة الخالد وهو من فرقة الصافية ، وكان أبوه إسماعيل من المشايخ البارزين والمشهورين بالكرم ، والشيخ معاط أيضاً معروف بتقواه وأخلاقه الحميدة ، أما فرقهم فهي : السلطان والصافية والقبلان والكريش ، وفي قضاء مصياف (محافظة اللاذقية) قسم من هؤلاء انفصلوا وتحضروا كلياً .

التركي

عشيرة صغيرة مستقلة ، تتبع من تشاء ، فتارة مع الموالي ضد الأسبعة ، وتارة مع الحديديين ضد الموالي ، وتارةً مع الروالة ضد الأسبعة ، حدثني أحد رجالها وهو محمد الحسين حديثاً غير مدعوم بسند ، ولا مرتبط بالأحداث المعروفة ، أن أصل التركي من عنزة نجد وأنها تنتسب إلى فرقة الحبلان من العمارات ، وأنها جاءت لوحدها في القرن العاشر إلى أنحاء الجزيرة بقيادة ثلاثة إخوة دبش وخابور وتركي ، فبقي دبش وخابور في الجزيرة ، وسميت أعقابها هناك بالأبي دبش والأبي خابور ، وصاروا من لواحق العقيدات على ما ذكرناه في بحث (عقيدات الفرات) ، أما الثالث فقد جاء إلى ضواحي حماة ، وكثرت أعقابه، وأورث العشيرة اسمه .

ومهما يكن فإن لهؤلاء التركي وقائع كثيرة مع الأحسنة التي جاءت في أول أمرها تفرض سيطرتها على العشائر القديمة في حمص وحماة ، فقد طردت التركي من ضواحي حماة ، ثم عادوا على الأحسنة وأبعدوها ، واستعادوا مكانتهم ومكانهم ، وهم فرسان مغاوير ، وقروم وثب وبطش ، وأهل أنفة ونجدة ، ومن أجل ذلك كثيراً ما يتجندون في سلك الدرك ، أو يحملون على التجند دفعاً لطائلتهم ، ولذلك ذبحوا مرتين : الأولى في نفس حماة في باب حي الحاضر ، والثانية اغتيل منهم نحو أربعين خيالاً ، في قرية مقتلة قرب قصير حمص ، وذلك من كثرة ما طغوا وأفحشوا ، وحيروا الدولة فكلفت محمد آغا الجندي حاكم حمص بتدبيرهم في حدود سنة ١٢٢٠ هـ ، فدعاهم إلى وليمة في القرية المذكورة ، وبعد الوليمة اغتالهم جميعاً ، ووقائعهم وأفاعيلهم لا تحصى .

وقد ذكرهم المؤرخ حيدر الشهابي في أحداث سنة ١٢٢٣ هـ فقال : « قوم من العرب الملقبين بالتركي ، القاطنين يومئذ في مدينة حماة ، وينتسبون إلى بني ربيعة انتماء ، وإلى مدينة بغداد انتشاءً ، وهم قليلو العدد ، إلا أنهم في الحرب شديدو البأس والجلاد . ولا يبلغون عدداً سوى مئة وخمسين خيالاً . وكبيرهم يسمى درويش الحمادي ، الخ ... » . أ هـ

هذا وعدد التركي نحو ١٥٠ بيتاً ، وأكثرهم في بيوت الشعر ، وبعضهم في بيوت الحجر ، ولهم وخاصة لفرق الدرويش منهم زراعة في قرى ناحية عقيربات كمسعدة ومسعود ورسم الأحمر وصلبا ورسم الضبع والمكين والعلباوي وغيرها ، وهم يحرثون ويزرعون ثم ينجعون البادية ، وأماكن نجعتهم شاعر وأبو رجمين والمرا والسخنة ، وربما بلغوا في بعض السنين القعرة والتنف والتليلة ، وعندهم ٥٠٠٠ شاة و ٥٠ فرساً .

وأسماء فرقهم الدرويش والشهيل والموذنين والعومد والطابي والجابر والرويعي والغليم والدرعان والعياش والعنيزان والسعيل والبقعة وبني زيد ، وبيت الرئاسة والوجاهة في فرقة الدرويش ، وبعض التركي قد تحضر وسكن في مدينة حماة ، أو في مدينة حمص يعمل في تجارة الغنم والخيل ، لكنهم حين الحاجة يركبون ويغزون ، وكانت المشيخة لسرحان العلوش الحمد ، ثم لما توفي في سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٣١ م) خلفه أخوه أبو الطوس العلوش ، ومقره في ناحية عقيربات ، وهو من فخذ العلي الدرويش ، وله قريتان من أملاك الدولة في كل من ناحية جب الجراح وقضاء سلمية ، ومن شيوخ التركي البارزين يعد الشيخ محمد التركاوي القاطن في حمص .

ومما يذكر عن ماضي التركي أنهم لم يذعنوا قط لأمراء الموالي ، بل ظلوا متمردين عليهم ، وقد جرت بينهما معارك عديدة ، ولا سيما مع الأمير أحمد بك ، زعموا أنهم كانوا يفوزون فيها ، وقد اشتركوا مع الحديديين يوم محمد الخرفان في معركة جبل زين العابدين في سنة ١٢٧٥ هـ ، كما ظلوا أحلاف الحديديين في أغلب وقائعهم على الموالي ، إلا في حادثة مقتل الأمير عبد الرزاق سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م) فقد وقفوا مع الموالي ، وهم أخصام بني خالد ، وبينهما ثارات قوية ، منذ أن قتل أحد الخالديين فتاةً منهم أراد اختطافها فمانعته ، وعلى الأثر هب التركي وهاجموا بني خالد ، وثأروا لفتاتهم فكانوا موضع الإعجاب .

ومن منقولاتهم أن أحد أمراء الموالي حاصر رجالهم بجموعه قرب قرية مورك ، شمالي حماة فقاوموه ، وردوه أشنع ردة ، فقال شاعرهم :

يـا دولـة شـدوا رؤسهـا   لا مـا عمـامي يلحقـون
لبـاسـة الجـوخ الحمر   ذبـاحـة اللي مـا يرحمـون

يقصد بأن فرسـان التركي يلبسون الجوخ الحمر ، ليظهروا عن بعـد للعـدو ، ويجـذبوه نحوهم .

البشاكم

عشيرة صغيرة نصف حضريـة ، كانوا من لواحـق المـوالي الشماليين ، ثم انفصلـوا عنهم تدريجاً منذ سنة ١٣٤٣ هـ ، وألفوا عشيرة مستقلة قويـة الشكيمـة ، لكنهـا ضعيفـة المـادة ، وهي تحرث في أنحـاء الحمراء ، في بعض قرى أمـلاك الـدولـة كأبي القصـور وقصر المخرم وأبي المضابع وطوال دباغين وأبي مرو وسروج وشيحة ومعيصران وغيرها ، شيخهـا جـاسم الأحمـد المحمد الدندل ، وهي تقيظ في القرى المـذكورة ، وتشتي في أسريـة وجبل البلعـاس في حمى الموالي التي لا تزال تسندها وقت الكريهة ، عددهـا ٤٥٠ بيتـاً ، وفرقهـا الغربـان والرملات والخوين والسراج والعجاج والجميس والحديد والعراجي والدندن ، وعندها ١٥٠٠ شاة .

الجملان

هؤلاء من أقارب جملان الغوطة الذين قدمنا ذكرهم ، لكنهم لانفرادهم واختلاف بيئة حماة الشرقية عن بيئة الغوطة ، اضطروا إلى أن يتركوا الحصـانـة والوداعـة اللتين لأقـاربهم المذكورين ، وإلى أن يلتحقوا بالحديديين ، ويعدون من توابع الشيخ نواف الصـالح ، وهم يَغـزون ويُغـزون . وعـددهم ٢٠٠ بيت ، والرئـاسـة فيهم من حـق بـدر العبـد الجـادر ابن الرئيس السـابق المتوفى ، إلا أن بـدراً هـذا لمـا تـوفي والـده كان صغيراً ، فعينت السلطـات عوضه عبد الجبار العقاب ، وأم عبد الجبار هذا من الموالي ، ومن ثم كان هواه مع أخوالـه ، هذا وإذ كان الشيخ عبد الجبار من آل عقاب ، ولـه حرمـة دينيـة ، استقرت رئـاستـه على مدى الحياة فيما يبدو ، وإن كبر بدر وصار جديراً بالرئاسة .

وهؤلاء آل عقاب ، ينتسبون إلى الشيخ فرج المكنى بأبي حية المدفون في مقبرة قديمة في شمالي سلمية ، وقد ذكر أبو الهدى الصيادي في رسالته (الروض البسام) باسم السيد فرج آل عقاب الحسيني ، وجعله من خلفاء السيد أحمد الرفاعي الكبير . والظاهر أن هذا هو السبب في انتساب الجملان إلى الطريقة الرفاعية ، وقيامهم بشعائرها ومخرقاتها ، كشفاء المرضى والمجانين والمفلوجين ، وفي تهافت أعراب تلك الأنحاء وفلاحيها ، على زيارة ضريح الشيخ فرج ، وتقديمهم الذبائح إلى الحية التي يزعمون ظهورها من حوله في أوقات خاصة ، وفرق جملان حماة هي الدرباس والضواحي والهمامات والريان والزبيدات ، ومنازلهم في قرى أبو حنايا والرحية وسرحا من قضاء سلمية ، وسوقهم التجاري سلمية وحماة ، وشركاؤهم حمويون ونجعتهم إلى الحماد شرقي تدمر وجنوبها .

المشارفة الرعية

فرقة من لواحق مشارفة الموالي التي يرأسها أحمد الفارس العطور ، عليها ما على تلك من الحقوق ، وهي بمشيخة عزو الجاسم العزو ، عددهم ٢٠٠ بيت ، وفرقهم الخزيمات ، الأشوخ ، القريطات ، العبد الله ، ومنازلهم في قرى الجابرية وأم التينة والشيحة وسلام المشارفة في ناحية جب الجراح في محافظة حمص .

الموالي

يقيم بعض الموالي في محافظة حماة ، وهم من الموالي الشماليين أتباع الأمير عبد الإبراهيم ، منازلهم في قرى قمحانة وكوكب ولطمين وكفر عميم ومعان وخنيفس وعطشان والبويضة وقصر ابن وردان ، وهؤلاء متحضرون ومستقرون يحرثون بالخمس لدى بعض ملاكي حماة ، أو في قرى أملاك الدولة ، وهم من فرق الماطية وبني عز والحزفان والبوشيخ والشطيحات والخليفة والكندوش ، ومنهم فرقة العلي استقرت نهائياً في قرى تل ملح وكفرهو وتريسة والحوير ، وفي ناحية محردة أفناد صغيرة من لواحق الموالي أيضاً ، يدعون الصريصات في قرية حوير شيزر ، والجيسات والشليوط وبعض الشطيحات ، يقيمون في أراضي محردة وحلفايا وخطاب ، ويبلغون نحو ٥٠ بيتاً ، ولا ينجع منهم إلا الشليوط الذين يشرقون مع شيخهم محمد الجاسم .

الحديديون

يقيم بعض الحديديين في محافظة حماة (ناحية الحمراء) ، وهم من فرقة الأبي حسن التي في مشيخة عذاب السرحان ، وفرقة الخليف التي في مشيخة الإبراهيم الملقب بأبي الطوس ، وعددهم ٧٠٠ بيت . يقطنون في قرى بغيديد والحمرا وسعن وسعين والمويلح والمشرفة ورسم الأحمر ، وفي محافظة حماة أيضاً من الحديديين زرافات من الفرق التي تتبع مباشرة الشيخ نواف الصالح ، يستثمرون بضعة أفدنة من أملاك الدولة في كل من قرى ناحية الحمراء ، وتكاد تكون هذه الناحية الشرقية ملآنة بهم ، وأكثر هذه الفرق الجميلة والأبي زليط والجوالة والأبرز والمعاطة والأبي جميل والأبي كنش والحجاج والأبي صليبي والأبي كليب وغيرهم .

وناحية الحمراء ناحية قديمة ألغيت رغم مكانتها ، على حين أن هناك ضرورة لإعادتها ، ذلك لأنها مركز لقسم من الحديديين الذين ذكرناهم ، ولقسم من الموالي والأسبعة (الأعبدة) ، أما فرق السرحان فهي البوتركي والبوحمز والبوجرسان والبونيصا ، وفرق الخليف هي الخليف والبوعواد والذهيبات والشاماطة .

السماطية

هؤلاء من لواحق الموالي ، مستقرون في قرى الطار (ناحية محردة) ، وفي قرى متاخمة للطار من أملاك الدولة في ناحية قلعة المضيق (قضاء المعرة) ، وهم نحو ٣٠٠ بيت ، ومؤلفون من فرق أبو حيات والحليبات والخوابرة والهوارين ، وقد انشقت هذه الفرق ، واستقلت منذ بضع سنوات ، وصار كل منها يؤدي (أي يدفع دية القتلى) لوحده بسبب ضغط الشيخ ، وشيخهم هذا علي الإبراهيم ، وهو يقيم في قرية تل هواش التابعة للمعرة ، أما هم فيقطنون في الشتاء في أكواخ يدعونها الدامات جمع دام ، وفي الصيف في بيوت الشعر .

الجماجمة

هؤلاء من الموالي القبليين ، يقيم قسم منهم في بعض قرى ناحية محردة كالجدل

وبطيش ومعرزاف ، شيخهم بلعاس العبد الله المسلوخة ، وعددهم ١٠٠ بيت ، يقطنون في الشتاء البيوت والكهوف ، وفي الصيف بيوت الشعر .

النعيم

فندة من فرقة الأبي حيار إحدى فرق النعيم الكثيرة الانتشار ، يقيمون في قريتي معرزاف وكفر يهود من ناحية محردة ، وشيخهم عز الدين الرحمون العلبوني ، وهم يتبعون الشيخ صفوق الحسين المقيم في قرية عز الدين ، وعددهم ٥٠ بيتاً .



عشائر محافظة حلب

قضاء المعرة

الموالي

لقد قدمنا الكلام بالتفصيل عن عشيرة الموالي وأمرائها في بحث تاريخ البدو في الجزء الأول من كتابنا هذا ، (الصحيفة ٦٦ ـ ١١٣) ، وأثبتنا هناك بالأدلة ، وشهادات المصادر الجغرافية والتاريخية الموثوقة التي عثرنا عليها بعد تحرٍ وجهد كبيرين ، أن أمراء هذه العشيرة المعروفين بآل أبي ريشة هم من آل حيار بن مهنا الثاني بن عيسى بن مهنا الأول بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة الطائي ، وأن اسمهم قبل أن يسموا بآل ريشة كان في القرن التاسع الهجري آل حيار ، وقبله آل مهنا ، وقبله آل عيسى ، وقبله (آل فضل) نسبة لجدهم الأعلى فضل بن ربيعة المنتسب إلى قبيلة طيء القحطانية المعروفة في التاريخ التي افترقت في أول الإسلام زمن الفتوحات في الأقطار ، ونشأ منها أمم كثيرة (ملؤوا السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقاً) كما قال ابن خلدون في تاريخه .

ولا غرابة في تعدد الأسماء ، لأن من عادة البدو أن تتبدل أسماء عشائرهم في كل حقبة من الزمن تبعاً للمتأمر عليها ، فقد تسمى العشيرة باسم أميرها أو شيخها ، ثم باسم ابن هذا أو ذاك بعد وفاته ، إذا انفصلت عن الأرومة وابتعدت ، كما أن بعضها قد يحتفظ باسمه ولا يبدله ، فطيء المذكورة مثلاً لا يزال منها بقايا محتفظة بهذا الاسم ، وهي في محافظة الجزيرة ، بينما شمر وهي طائية في الأصل صارت شمر ، وقلبت اسم جبلي طيء (أجا وسلمى) في نجد إلى جبل شمر .

وقد شرحنا في بحث (تاريخ البدو) ما كان لآل فضل المذكورين ، ولا سيا لأحد

فروعهم المسمى آل عيسى من الأمجاد والأفعال ، في عهود الملوك الأيوبيين والسلاطين المماليك والسلاطين العثمانيين ، وما أحدثوه من الوقائع التي أوجبت خراب القرى الشرقية في حلب والمعرة وحماة وحمص بسبب تنازعهم على إمارة البادية ، ونزيد على ما شرحناه هناك هذه الفقرة التي نقتطفها من كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، وهو يصف فيها آل عيسى المذكورين وصفاً ، يدلنا على ما كانوا عليه في تلك الحقبة . قال :

« هؤلاء آل عيسى في وقتنا هم ملوك البر ما بعد واقترب ، قد ضربوا على الأرض نطاقاً ، وتفرقوا فجاجاً ، تقارعوا على قرى الضيفان ، وسارعوا إلى تقريب الجفان ، حفظوا البر من كل جهاته ، وحرسوه من سائر مواقعه وآفاته ، ولهم سجايا ملكية ، وعطايا برمكية ، ووهائب حاتمية ، وصوارم تنسحب بذيلها الرقاب ، ومكارم يحتبس على أثرها السحاب ، لا يخلو ناديهم من سيد ومسود ، ووافد آمل ، وصارخ ملهوف ، وهارب مستجير ، ولا ينطفئ لهم نار قرى ، يسرح عدد الرمل لهم إبل وشاة ، تطل منهم على بيوت قد بنيت بأعلى الربى ، وبلغت السحاب ، وعقد عليها الخبا ، قد اتخذت من الشعر الأسود ، وتبطنت بها الوسائد ، وشدت أطنابها ، وأرخيت سجفها ، وتزايد ظرفها ، وشرعت أبوابها إلى الهواء ، ورفعت عمدها ، وقرر وتدها ، وطلعت البدور في طلعتها ، ورتعت الظباء في مشارق أهلها إلخ ... » .

وشرحنا أيضاً في بحث (تاريخ البدو) ما جرى بعد بهؤلاء آل عيسى ، وكيف تفرعوا ، وبرز بينهم مهنا الثاني بن عيسى ، وما جرى له ولأسرته آل مهنا ، ثم كيف تفرع آل مهنا إلى عدة أسر ، أشهرهم آل حيار بن مهنا وآل فضل بن مهنا ، وأن آل حيار بقوا في أنحاء سلمية والمعرة ، ونشأ منهم آل أبو ريشة أمراء الموالي الذين سنذكرهم الآن ، وأن آل فضل بن مهنا نزحوا من تلك الأنحاء إلى الجولان ، بسبب تنازعهم مع أبناء عمومتهم على إمارة البادية ، وأنجبوا آل فاعور أمراء آل فضل الحاليين ، وقد بينا ذلك في بحث هؤلاء في فصل (عشائر قضاء الجولان) ص ٣٩١ .

والآن نتم بقية مادرجناه في الجزء الأول ، من تاريخ عشيرة الموالي ، ونسرد وقائعهم الحديثة التي استطلعناها أو أدركناها ، فنقول :

يظهر أنه ما من عشيرة في براري الجزيرة والشامية إلا واصطدمت في زمانها مع الموالي ، واكتوت بنيرانها وطغيانها ، فهم واقعوا الشيخ رشيد شيخ السردية في حوران ، وكانوا في قيادة أميرهم مدلج الحياري في القرن الحادي عشر ، كما ذكرناه في بحث السردية ، وواقعوا بني خالد مراراً كما قدمنا ، ونازعوهم في النزول في منطقة (الوديان) في الحماد ، وكان ذلك في القرن الثاني عشر الهجري على ما ذكره السائح بركهارت السويسري ، وواقعوا عشيرتي طيء والعبيد من عشائر الجزيرة ، وأرسلوا مرة أربعين فارساً لخطف فتاة من طيء اسمها (حمرة الموت) ، وواقعوا الأحسنة ، وذبحوا أحد رؤسائهم ، واسمه ملحماً في مكان سموه من بعد (تلعة الملحم) ، قرب دير الزور ، واضطروا من بعد في حدود سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) إلى مغادرة قضاء سلمية ، والسكنى في كورة العلا شرقي قضاء المعرة ، وواقعوا التركي والفواعرة ، كما واقعوا جنود الدولة العثمانية مراراً ، وأخيراً في عهدنا واقعوا الحديديين ، وأذاقوهم الأمرين قرابة أربع عشرة سنة (١٩١٨ ـ ١٩٣٢ م) إلى أن تصالحوا وتصافوا ، وكفى الله الفريقين القتال ، وواقعوا الفرنسيين ، وأزعجوهم في بدء احتلالهم هذه البلاد ، واشتركوا في الثورات الوطنية على ماسوف نفصله .

ومن بواعث الاستغراب والحيرة أن هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الحوادث والكوارث ، وهذه القائمةمن أسماء الأجداد والأسلاف التي سردناها في أربع وعشرين صفحة من الجزء الأول ، لايحفظها أصحابها أمراء الموالي الحاضرون ، ومن حولنا من معمري البدو والحضر الذين سألنا عدداً منهم ، بل هم يبعدون بعداً شاسعاً ، ويذكرون ما هو غريب عنها ، ومن ثم يبعد معهم ويخبط ، من كتب عنهم من مؤلفي الفرنج وضباط مراقبة البدو الفرنسيين ، ولهذا فإن منشأهم وماضيهم اللذين استقصيناهما وكشفناهما بعد لأي ، قد غمضا على المستشرقين والباحثين من الفرنج ، وحاروا في أمرهم .

وأول من ذكرهم من الفرنج السائح الإيطالي دللاواللا الذي جاء إلى البلاد العربية في حدود سنة ١٠٧١ هـ ، فما قاله : أن أمير بلدة عانة (على الفرات) وكل البادية يدعى فياضاً ، وهو من آل أبي ريشة ، أمراء عشيرة الموالي ، السائدة في الضفة اليمنى من الفرات ، ثم ذكرهم السائح الدانياركي نيبوهر الذي زار بلاد الشام في حدود سنة ١١٨٠ هـ ومما قاله : أن أكبر عشيرة في أنحاء حلب هي (الموالي) ، والأسرة التي تحكمها تدعى (آل أبو

ريشة) ، وباشوات حلب ما كانوا ليكبحوا جماح هذه العشيرة إلا بمنح هذا أو ذاك من أمرائها إقطاعات قرى أحياناً ، أو واردات وإكراميات معينة من التي ذكرناها أحياناً أخرى ، والذي ينحى عن الإمارة من هذه الأسرة ، ينسحب مع حزبه إلى أنحاء الفرات ، ويلبث منتظراً عزل الباشا الذي نكبه ، حتى إذا جاء باشا جديد تقدم إليه بالهدايا والرشوات ، أو بوسائل أخرى تمكنه من التغلب على من زاحمه في الإمارة ، وقبل بضع سنوات شعر أحد هؤلاء الأمراء أن الباشا ينوي عزله ، فقام ونهب قافلة فيها ٣٠٠٠٠ رأس من الماشية ، وابتعد بهذه الغنيمة نحو الفرات لمكان آمن ، وحدثوني لما كنت في حلب أن هذا الأمير المعزول هاجم ونهب مدينة حمص ، وقالوا أيضاً أن الأمير الذي خلفه لم يكن قادراً على مقاومة خصمه المذكور ، ولا على إدارة العشيرة كالواجب ، وأن هذه الأسباب ستلجيء الباشا لإعادة الأمير المعزول لمنصبه ، مما يدل على أن نفوذ الترك على هؤلاء الأعراب قليل .

وقال أيضاً : إن ضرورة تأمين سير القوافل بين الشام والعراق ، وحفظها من تعدي البدو كانت تحمل باشاوات هذه البلاد لاتخاذ أحد المشايخ الأكثر نفوذاً (أميراً) ، وكان هذا الأمير مكلفاً بمواكبة القوافل ، وحفظها من البدو ، وبجمع رسوم الغنم والإبل من العشائر ، وتسليمها إلى الحكومة ، وكان هذا الأمير يأخذ لقاء ذلك بضعة قرى إقطاعاً له ، فيعرق عظمها أكثر مما يفعله الترك ، أ هـ .

ثم ذكرهم السائح الفرنسي فولناي الذي مر بحماة في حدود سنة ١١٩٩ هـ فمدح خصب سهول حماة واستعدادها ، ثم قال : « إن المانع لاستثمار هذه السهول هو طغيان محمد الخرفان أمير الموالي وعيثة ، وكثرة أخذه الأتاوات (الخوة) من القرى والمزارع ، وهذا الأمير يقود ٣٠٠٠٠ من الفرسان .، ولعله أراد أن يقول ٣٠٠٠٠ نفس من البدو نساءً ورجالاً » .

وذكرهم السائح السويسري بركهارت في رحلته سنة ١٢٢٤ هـ فقال : هؤلاء ينزلون قرب حلب وحماة ، ويتقاضى أميرهم مبلغاً سنوياً من والي حلب ، لقاء حمايته قرى حلب من تعدي بقية العشائر ، ويجهز الموالي نحو ٤٠٠ خيال ، وهم يعدون فتاكين وغدارين ، من ذلك أن أبا الشيخ الحالي وكان اسمه محمد الخرفان الذي ذكره فولناي ، وبالغ في عدد

فرسانه قتل وسط بيته غدراً ، وبأسلوب غير شريف أكثر من مئتي رجل من عنزة ، خلال وليمة أقامها لهم ، وذلك طمعاً بخيولهم .

وذكرهم المقدم مولر الفرنسي في سنة ١٣٣٨ هـ فقال : « إن أصل الموالي مجهول ، لكنهم يروون روايةً مآلها أن أحد أعقاب آخر خليفة أموي (ولو قال عباسي كان أنسب) ذهب إلى القسطنطينية ، ودخل على السلطان مراد العثماني ، فأشفق هذا السلطان على بؤسه ، وأمر بنصبه رئيساً على إحدى العشائر ، ولكي يستطيع هذا المولى (السيد العباسي) تأليف هذه العشيرة ، أمر السلطان بجمع كل العبيد والمتشردين من البدو ، وأسكنهم أنحاء حمص وحماه ، وسلم قيادتهم إلى هذا المولى ، فصاروا أتباعه ودعوا بالموالي ، وصار لهذا المولى وأعقابه من بعده حق أن يلقبوا بالبيك ، لكن هذه الرواية لم تصرح أي سلطان مراد من الأربعة المسمين بهذا الاسم أصدر ذلك الأمر ، ولعله أحد الاثنين المتأخرين ، مراد الثالث أو مراد الرابع ، لأن مراد الأول ومراد الثاني حكما في عهد كانت فيه الشام تحت سيطرة سلاطين مصر المماليك ، وإذن يكون منشأ الموالي بين سني ٩٨٢ و ١٠٤٩ هـ ، ويكون أمراء الموالي الحاضرين من أصل نبيل جداً ، إلا أن أتباعهم وإن كانوا بدو لكنهم من طبقة واطئة ، وفي رواية أخرى تستند على مصدر أبعد من الرواية السابقة رواها لنا الأمير شايش أمير القبليين أن حمد العباس ، وهو من أقارب العباسيين ، جاء من أنحاء بغداد مع أربعين رجلاً من (الزكورد و العبيد) ونزل في أنحاء حماة ، وجمع حوله كل السلاطين من عرب وترك وكرد وغيرهم ، وألف منهم عشيرة الموالي ، ومهما يكن من اختلاف هاتين الروايتين ، فالثابت أن أصل الموالي يرجع إلى أرومة ملكية » ، انتهى ماقاله المقدم مولر .

أما ما ذكره عنهم مؤرخو العرب المتقدمين والمتأخرين ، فقد درجناه في الجزء الأول في بحث (تاريخ البدو) ، وكله يثبت ما استنتجناه من انتسابهم إلى آل حيار ، وقبل ذلك إلى آل مهنا وقبله إلى آل عيسى ، وقبله إلى آل فضل الربعيين الطائيين .

أما أمراء الموالي الحاضرين الذين سألتهم مزاراً ، فقد أجابوا بما خلاصته ؛ أنهم بحكم الأمية ، وفقدان التدوين ، وندرة العناية بهذه البحوث عندهم ، لا يعرفون من تاريخهم سوى روايات يذكرها بعض المعمرين منهم ، لا يستطيعون أن يؤيدوها بدليل خطي ،

وإن كرم محتدهم ، وإجلال الأعراب قدرهم ، تعود لانتائهم إلى العباسيين ، وأن جدهم الأعلى كان يدعى (شقيراً) ، وهو ابن الخليفة هارون الرشيد ، من امرأة بدوية لايعرفون كيف اتصل الخليفة بها ، وأن هذا الابن نشأ في البادية وترعرع ، دون أن يرى أباه ، وأنه لما رآه أبوه بعد سنين عديدة عرفه ، وكان ذلك صدفةً وفي حفلة سباق أجراها فرسان البدو أمامه ، في بلدة الرقة التي كان يوافيها حيناً بعد حين للاصطياف ، وأن شقيراً برز في هذا السباق ، فأمّره أبوه على البادية كلها ، وأن العشائر التي والت هذا الأمير الشاب سميت من ذلك الحين بالموالي ، ويظنون أن شقيراً هذا هو الذي وضع الريشة على رأسه ، فسميت أعقابه بآل أبي ريشة ، وأن من أعقابه رجلاً اسمه حمد العباس ، كان أمير البادية من أطراف الشام حتى براري نجد ، وأن أمراء الموالي الحاضرين هم من أعقاب حمد العباس هذا ، الذي لا يعرفون في أي عصر وفي أي مقر كان .

ولما سمعت هذه الرواية المضطربة شرعت أفندها للقائلين ، لأنها غير مؤيدة بأسانيد مخطوطة ، ولا تعتمد على كتب التاريخ الموثوقة ، ونفيت لهم إمكان زواج خليفة عظيم كهارون الرشيد ، بفتاة بدوية مجهولة على الطريقة المستعجلة التي رووها ، وأن التواريخ لم تذكر ولداً له اسمه شقيراً ، حتى ولم يسمع هذا الاسم بين أمراء البادية في العصور الإسلامية الأولى والمتوسطة ولا باسم حمد العباس ، وشرحت عدم إمكان تحدرهم من العباسيين المتأخرين ، لأن هولاكو حينما استولى على بغداد سنة ٦٣٥ هـ قضى على آخر خليفة منهم ، وهو المعتصم ، وعلى بني العباس كلهم ، فلم ينج منهم أحد ، وأنه لولا بعض البدو من أمثالهم ، (أو بالأحرى من أسلافهم ، وقد قدمنا أنه كان الأمير عيسى بن مهنا ورجاله) شهدوا بحق رجل كان مختبئاً عندهم من وقعة هولاكو زعم أنه عباسي ، ووافقت هذه الشهادة إذ ذاك هوى الملك الظاهر بيبرس ، فجاء به وجعله خليفة في مصر ، قلت لولا ذلك لما استقامت السلالة التي اتخذ السلاطين المماليك منها في مصر ، خلفاءً صوريين ، ثم طوى السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣ هـ بساطهم ، وأنهم أي الأمراء آل أبي ريشة لو كانوا عباسيين حقاً ، لعطف عليهم خلفاء بغداد بعد هارون الرشيد ، أو الخلفاء الذين كانوا في مصر أيام السلاطين المماليك ، أو لذكرتهم كتب التاريخ الباحثة عنهم ونوهت بعباسيتهم ، أما وأن شيئاً من ذلك لم يقع فإن روايتهم لا مجال لقبولها .

ثم سألتهم إذا كانوا سمعوا بمهنا بن عيسى بن مهنا الفضل ، وبوقائعه ، وعددت أسماء

أعقـاب هـذا الرجل الـذين تكلمنـا عنهم في بحث التـاريخ (ص ٦٦ ـ ١١٣) ، ونبـذة من أخبارهم لعلهم يذكرون أحـداً منهم فلم يحروا جوابـاً ، ثم سـألت عن نسب الأمير شـايش ، فقيل إنه هو الشايش بن عبد الكريم بن أحمد بـك بن محمـد بـاشـا الجحجـاج ، ووقفوا عن إكمال هذه السلسلة ، وقيل عن نسب الأمير عبد ، أنـه عبـد بن إبراهيم بن بـاشـا بن صـالح ووقفوا ، وأجابوا عن سبب قلة عدد الأمراء آل أبي ريشـة ، بـأن هؤلاء الأمراء لا يجوز لهم أن يتزوجوا من نسـاء أعرابهم (مـواليهم) ، لأنهن محرمـات عليهم يعـدونهن كأخـوات ، إلا فرقة الطوقان من الموالي ، فإنه يجوز لهم مصاهرة أعيانها ، لشرف منبتها الـذي يعزونـه إلى أسرة الطوقان المعروفة في مدينة نابلس منذ سنـة ١٠٦٦ هـ ، وليس لـديهم مـا يؤيـد هـذا العزو .

ولما لم أكتف بهذه الأجوبة قصـدت بلـدة معرة النعمان القريبـة من هؤلاء الأعراب ، وكلفت قائمقامها يومئذ صديقي السيد شفيق الراشـد ، فـاستحصل لي على جواب من أحـد معمري المعرة الذي توفي بعدها ، وكان اسمه الحـاج فـارس القطيني . لكن هـذا الرجل ردد حديث انتساب أمراء الموالي إلى العباسيين ، مما دلني على انتشـار هـذا الزعم الخـاطئ ، وأن عامتنا في مثل هـذه الموضوعـات ترمي الكلام على عواهنـه ، لجهلهـا بـالتـاريخ وأسـاليب الاستدلال بحقائقه ، وأضاف هذا المحدث على قوله روايةً مضطربةً مشوشةً ، لايرتبط أولهـا بآخرها ، منها أن الفتاة البدوية التي أعجب هارون الرشيـد بـأدبهـا وتزوجهـا ، كانت من قبيلة بني كلاب الـذين مر بهم في مسيرة إلى الصيـد ، وأن هـذه الفتـاة بقيت عنـد أبيهـا ، ووضعت غلاماً سمته العباس ، وكان أشقر اللون فلقب بشقير ، وأن هذا لما كبر أعقب ولـداً سماه حمداً ، سار على غرار أبيه في الرجولـة والفروسيـة ، وذهب مع أتبـاعـه من بني كلاب لنجدة عمه المأمون في حربه مع الأمين ، وأنه عرفه بنفسه بـالعقـد الجوهر الـذي كان أهـداه هارون الرشيد إلى جدته ، وأن المأمون أكرمه وأثابه بريشة من ذهب ، فدعي بأبي ريشة ، وولاه على إمـارة البـاديـة على ديـار الشنبـل (براري حمص وحمـاه وحلب) ، فجـاء حمـد العباس المذكور من العراق في القرن العاشر (على حين أن المـأمون كان في القرن الثـالث ، ولا مجال لإقحامه في هذه الأسطورة) واستقر حمد العبـاس في الـديـار المـذكورة ، جـاعلاً موطنـه في سلميـة ، والتف حولـه جمع من الأعراب دعوا بـالموالي ، فـالـذين نزلوا في شمالي

بيت هذا الأمير دعوا بالشماليين ، والذين نزلوا في قبليه دعوا بـالقبليين ، إلى يومنـا هـذا ، وذلك على أثر شجار وقتال حدث بينهما إذ ذاك ، وأن الموالي بعد أن مكثوا في قضاء سلمية دهراً ، أرادت الـدولـة أن تحضرهم ، فـأقطعتهم قرى عـديـدة من أمـلاكهـا في شرقي المعرة وحماة ، وكان ذلك على يد أصلان باشا متصرف لواء دير الزور في سنـة ١٢٨٧ هـ ، فقطنوا هامـدة ، لكن طبع البـداوة جعلهم يبيعونهـا من وجهـاء المعرة وحمـاة وحلب ، ولم يبق في يدهم إلا القليل منها ، إلخ ...

ثم ذكر آخرون ممن سـألتهم عن نسب أمراء المـوالي عـدة أسماء غريبـة منهـا اسم حمـد العباس ، الذي لم يرد له أي ذكر في كتب التـاريخ التي راجعتهـا ، فمن أين جـاؤوا بـه ؟ وقد جعلوه جدهم الأعلى ، وجعلوا مجيئه من العراق منذ ثلاثة قرون أو نحو ذلك ، وذكروا أن حمد العباس خلف ابناً اسمه فياض الذربة أو فياض السهـا ، وقـالوا إن هـذا الأمير ، هو الذي ركز عمود الحمى وسط الحماد بين حدود العراق ونجد والشـام ، ومنع العشـائر القـادمـة من نجـد أن تتخطـاه ، وأنـه هو الـذي أحبتـه (حمرة المـوت) بنت أحـد شيـوخ طيء في الجزيرة ، وكتبت له رسالة غرامية ، فتوجه على أثر هـذه الرسـالـة مصحوبـاً بـأربعين من صفوة فرسان عشيرته ، ما منهم إلا وله لحية صالحة لحمل المشط إذا شـك فيهـا ، وأنـه أخـذ حمرة الموت من منزل أبيهـا عنـوة ، وذكروا أن فيـاضـاً خلف جحجـاح ، وجحجـاح خلف الكنج أبو سفايف ، وهذا خلف محمد الباشا .

فأين هـذه الأقوال ، ممـا التقطتـه من المصـادر التـاريخيـة الموثوقـة ، وكيف السبيل للتوفيق بينها ؟ وكيف عرف الشيخ أبو الهـدى الصيـادي انتسـابهم إلى آل حيـار ، بينمـا هم لا يعرفون ذلك ولا يذكرونه !! فقد جـاء في رسـالتـه (الروض البسـام) ص٢٠ مـانصـه : « ومن أشهر البطون القرشيـة (ولعلـه أراد أن يقـول العربيـة ، لأن المـوالي قحطـانيـون ، وليسوا عدنانيين ، ليصح نسبتهم إلى قريش) آل جحجاح أمراء قبيلة الحيار ، وهي القبيلة المعروفـة الآن بـالمـوالي ، ويعرف أمراؤهم بـآل أبي ريشـة ، ومن بني عمهم أمراء آل فضـل بغوطة دمشق » . ا هـ

وحدثني آخرون أن شقيراً الذي جعلوه ابن هارون الرشيـد ، ورأس عمود أمراء الموالي لم يكن سـوى رجلاً عـاديـاً من عشيرة المـوالي ، وأن هـذا الرجـل أرسلتـه العشيرة إلى

استانبول ، إجابة لدعوة السلطان ، فقد كان السلطان أصدر إرادته بإيفاد فتىً منهم ، ليتدرب على الإدارة والحضارة ويعيده ، فخافوا ولم يشأ أحدهم أن يذهب ، بل انتخبوا هذا الفتى النكرة ، وبعثوا به قائلين إلى بعضهم « دزوا شقير مع الخيل إلخ ... » ، ولما عاد شقير يحمل فرماناً سلطانياً بالإمارة عليهم ، رفعوه وأطاعوه ، ومنه جاء نسل الأمراء الحاليين ، وجاء نسل الذين والوه ، وصاروا (موالي) عنده ، إلخ .... ، وهذا أيضاً حديث خرافة وعبث .

وذكروا أيضاً : أن الموالي بعد أن ظلوا عدة أجيال متحدين ، وتحت لواء واحد ، انشطروا إلى جذمين شماليين وقبليين (وسماهم كاتب جلبي في كتابه جهان نما : آل حمد وآل محمد) وذلك بالنسبة إلى وضعهم الجغرافي ، الذي كان حول رئيسهم الأوحد ، ثم تشاحن الجذمان ، وسالت الدماء بينهما ، إلى أن جعلت منازل كل منهما على خلاف التسمية ، وهو أن الشماليين يجعلون ربعتهم ، أي القسم الخاص بالضيوف في الجهة القبلية المحاذية لبيت الأمير ، والقبليين يجعلونها في الجهة الشمالية ، وأن آثار هذه الشحناء مابرحت موجودة بين الفريقين ، وأنه في القرن الماضي وجد محمد الخرفان الثاني على رأس الشماليين ، وأحمد بك على رأس القبليين .

وقالوا إن أمراء آل أبي ريشة على قلتهم ينقسمون إلى عدة فروع ، (الفرع الأول) آل أحمد بك بن محمد باشا الجحجاح ، وأن أحمد بك هذا هو الذي حارب محمد الخرفان الثاني ، وحارب الأحسنة حتى قتلوه ، وقد أعقب عبد الكريم وأحمد ، فمن عبد الكريم جاء الشايش (الأمير الحالي) وله الآن ستة أولاد فواز وعبد العزيز وعبد الحميد وفيصل وغازي وسعود ، ومن أحمد جاء طويريج ونواف وحجر ، ومن نواف طراد ونوري وسلطان وراكان ، ومن حجر شريف ، أما طويريج فلم يعقب . و (الفرع الثاني) آل إبراهيم بك بن محمد باشا الجحجاح ، فمن إبراهيم هذا جاء عبد العزيز ومحمد وحمدو ، ومن عبد العزيز جاء تركي ، ومن تركي محمد ، وجاء من محمد جحجاح وإبراهيم ومحمود ، وجاء من حمدو عبد الرزاق المقتول سنة ١٩٣٠ م ومن عبد الرزاق جاء صفوق وذعار . و (الفرع الثالث) الباشوات أعقاب عبدي باشا من بنت له اسمها فضة ، فعبدي باشا أعقب صالح وكنج ، فمن صالح باشا ومنه إبراهيم المقتول في سنة ١٩٢٥ م ، ومنه الأمير عبد والأمير

رفعت المقتول سنة ١٩٢٣ م ، ومن كنج إبراهيم ، ومنه فياض ، ومنه دحام ومحمد . وهناك (فرع رابع) آل محمود بك الذي كان رئيس الموالي في حدود سنة ١٢٨٧ هـ حسبما ذكر في التقويم السنوي لولاية حلب ، وعلى هذا ربما بلغ مجموع آل أبي ريشة كبارهم مع صغارهم ٣٠ ـ ٤٠ شخصاً فقط . أما محمد الخرفان الذي مر ذكره فقد أعقب فياضاً ، وهذا مات مقطوعاً .

أما مواليهم فينقسمون إلى موالي أصليين ، وموالي رعية ، وفي كل قسم فرق شتى ، يقطن أكثرها في ناحية العلا شرقي قضاء المعرة ، وبعضها في ناحية الحمراء ، وبعضها في قضاء سلمية شرقي حماة .

فرق الموالي الشماليين (رهط الأمير عبد الإبراهيم) ـ بني عز والخليفة والمشارفة والدواونة والشريف والدولة والحسو والكلكل والفنير والعميطة والشليويط والكندوش والغازي والطوقان والبوسرايا والبوعاصي والبوحمد والبوكال والبوجيد والبوعباه والبوجرادة والخنافرة والبعيج والرميكات والحليسات والشامطة والجليبات والمعاضيد والشطيحات والعبيد ، إن مناطق هذه الفرق في المعمورة ، موزعة بين محافظتي حلب وحماة في قضائي المعرة وسلمية .

فرق الموالي القبليين (رهط الأمير شايش عبد الكريم) ـ أبو ريشة والعبيد والطهماز والجماجمة والشويرتان وأخوة وضحة والوادي والشطيحات والحليبات والأسود والبدر والخطباء والعلي باك والزيدان والعوان والشبوط والغران والعكيرش والدليم والجيسات والنعيم والمصارع والزنادعة والبوحمد والكليب والراشد والقواويس ، إن مناطق هذه الفرق في أقضية إدلب والمعرة وجبل سمعان من محافظة حلب .

ويتراوح عدد بيوت هذه الفرق من ٢٠ ـ ٤٠ ـ ٨٠ ـ ١٠٠ ـ ٢٠٠ وربما تعادل العدد بين جذمي الشماليين والقبليين ، وربما بلغ مجموعها العام ١٢٠٠ بيت .

أسماء قرى الموالي التي فيها أملاكهم ، وأملاك شركائهم من أهل المدن (قرى الشماليين) ؛ بريصة وسحال ودرجة وأبو دالي والسرج ومشيرفة وأم صهريج وأبو عمر وكنيسة وسبيل وقسطون وانب وزغبة وشمعة وحوين وقنيطرة حراق وهلبا وكرسنته

وجران وحلوبة وقراطي ورفة والبرج وأبو حية وكفريا وسرجة وأبو سرجة وتل دم وينحا وذريبة وأم الخلاخيل وأم جلال ومشيرفة وشعرا وتل تين وباشكوي والعوجة وأم ميال ودير سنبل وقليعات وهبيط .

قرى القبليين : فروان وبرصة وتل الأغر والنيطة وكنايس وتل كرسيان وسمقة وقطرة وصافة وكراتين وأم الطيور والعوجة وكفر ومعرزاف والشير .

هذا وهناك من أفاريق الأعراب أحياء تلتف حول الموالي ، وتدعى (لحقة الملتحقون) ، فمن يلتحق بالشماليين (السماطية) الذين مر ذكرهم في بحث محافظة حماة ، وهم في ناحية الطار شمالي غربي حماة ، و (بني عز الرعية) الذين مر ذكرهم أيضاً ، وهم في جنوبي قضاء سلمية ، و (الطوقان الرعية) ، وكان (البشاكم) الذين مر ذكرهم أيضاً في بحث حماة من جملة هؤلاء اللواحق ، ثم انفصلوا عن الموالي أو كادوا ، وممن كان يلتحق بالموالي القبليين : اللهيب والتركي والخراشيم الذين تقدم ذكرهم أيضاً ، ثم صاروا مستقلين إلا في حالة الفزع الأكبر .

ثم من مراجعة أسماء فرق الموالي يتبين أن منابتها ومكانة كل منها مختلفة جداً ، فالطوقان مثلاً فرقة نبيلة يتزوج الأمراء منها أحياناً ، ومثلهم في المكانة (المشارفة) ، ومن هؤلاء نشأت أسرة (آل عابد) في دمشق فيما قالوه ، ومنهم هولو باشا بن عمر بن عبد القادر بن محمد بن قانص آل عابد ، ومحمد هذا نزل دمشق سنة ١١١٢ هـ وأعقب فيها هذه الأسرة ، وبعدهم (الدواونة) أصلهم من شمر ، و (الخليفة) أصلهم من طيء ، وكذا (أخوة وضحة) ، وأكثر (الجماجمة) من دليم العراق ، وفرق الأبي عاصي والشريف والكندوش من الشوايا والطوقان الرعية والمشارفة الرعية وبني عز الرعية والحسو وأمثالهم من الرعية ، و (القواويس) من أبناء خدم الأمراء وحواشيهم ، و (الفنير والراشد والكلكل والشليويط والعميطة) من الأسراء ، و (الغازي والبعيج) مجهولو المنشأ ، و (الدولة) وهم أشر الموالي من فلول جنود الترك ، وهكذا .

وهذا الاختلاف في الأصول والمنابت التي أكثرها غامض ، هو الذي أدى إلى أن يزدري البدو الأقحاح هؤلاء الموالي ، وإلى أن يكون بينهم أيضاً اختلاف في مهر الزوجات

وديات الدم ، وما إليها مما يثبت وجود تناقض في تكوين هذه العشيرة الغريبة ، وتباين في مظاهرها ، رغم مرور أجيال على اشتراك فرقها في العيش .

ورغم فقدان التجانس في عشيرة الموالي فإنها متفقة الكلمة على الرئاسة الاسمية العليا للأمير شايش بن عبد الكريم ومقره في قرية قطرة ، إلا أن رئاسته الفعلية تشمل القبليين فقط ، وخاصة فرقة الجماجمة منها التي تعد قلب الموالي ، ولاتشمل الشماليين ، وهؤلاء الشماليون بعد أن كانوا في رئاسة الأمير إبراهيم الباشا الذي قتل بقصف الطائرات الفرنسية في سنة ١٩٢٥ ، نقلوا الرئاسة إلى غير الأمراء ، أي إلى أحد رؤساء فرقهم ، وهو فارس العطور رئيس المشارفة ، وكان هذا الرجل من أشهر صناديد البادية ومشعلي ضرامها ، تقلد عقادة الحرب على الموالي كلها ، كما تقلد رئاسة الشماليين وحدهم مدة مديدة ، وفعل الأفاعيل في معارك الموالي والحديديين ، إلى أن شاخ وتوفي في آذار سنة ١٩٣٨ م ، ومما يذكر عنه أنه لم يحمل سلاحاً نارياً ، بل كانت غزواته وضرباته بالصارم البتار ، وأنه لم يجهز على من يقع بين يديه في المعارك ، ولم ينزع السيف من جنبه قط ، فكان يدخل به على أكبر المقامات .

ولما مات فارس العطور ، قامت فرق الشماليين كلها تحاول نصب ابنه أحمد مكانه ، بحكم حيازته لأكثر مناقب أبيه ، لكن الفرنسيين عارضوا أحمد ونفوه إلى تدمر ، ثم إلى الحسيكة درءاً للفتنة ، وقلدوا الأمير عبد المذكور ، فلم يرض به حزب أحمد ، ولما رجع هذا من منفاه ، أصروا على رئاسته ، وظل الأمير عبد يطالب بحقه ، إلى أن أقرت الحكومة السورية على قسمة الرئاسة بينهما ، فلحق بعض الفرق أحمد ، ولحق البعض الآخر الأمير عبد ، وانتهى الأمر ، واستقر هذا الأمير في قريته المسماة الشطيب .

أما الأمير شايش فهو من ممثلي العشائر في المجلس النيابي منذ أمد بعيد ، ورئيس مطاع ، ومحبوب في عشيرته ، وهي تحفظ له كرم محتده ، وحسن إدارته ، وأنت إذا سألت أحد هؤلاء الموالي من أي عرب هو ، أجابك فوراً (من عرب الأمير) ومقر الأمير شايش في قرية (قطرة) ، وهو لا يتبدى مع عشيرته بتاتاً ، لانشغاله بالنيابة وبملاحقة الدوائر والمجالس ، بل ينيب عنه ابن عمه الأمير نواف ، لكنه في شتاء سنة ١٩٤٢ م ،



الأمير شايش بن عبد الكريم آل أبو ريشة رئيس الموالي

اضطر إلى أن يتبدى مع العشيرة درءاً للفتن التي كانت تحدث في غيابه ، أخصها ما يصدر من الأمراء الشبان ، أمثال تركي وصفوق ودحام في حق غيرهم .

هذا والموالي من أهل الغنم ، ومن ثم كانت نجعتهم محدودة ، وقد كانوا إلى بضع سنين يربون أغنامهم الخاصة ، ثم ألح عليهم الفقر ، فصاروا يشاركون أهل المدن ، ويربون ماشية غيرهم ، وينتقصون من استقلالهم وعنفوانهم السابقين إزاء الحضر .

وهم يقيظون في قراهم التي في أقضية المعرة وحماة وسلمية ، وقبلاً كانت منازل الموالي خصبة وأجود من الآن ، ولكنهم عقيب الصلح الذي عقدوه مع الحديديين أكرهوا على قبول توزيع جديد للقرى بينهم وبين الحديديين ، منعاً للفتن ودرءاً للتصادم جهد الإمكان ، وقد استحوذ الحديديون على حصة الأسد في هذا التوزيع ، بفضل الفرنسيين الذين رأوا ولاء الحديديين لهم وجفاء الموالي ، خلال ثورات ١٩٢١ و ١٩٢٥ و ١٩٢٦ م ، وهذا ماحدا بالموالي أن يتريثوا ، ويحسبوا العاقبة في حادثة العدوان الفرنسي الأخيرة على حماة سنة ١٩٤٥ م ، فلم يهرعوا إلى إسعاف أهل حماة كما أسعفتهم بقية العشائر .

وكان الفرنسيون نصبوا ممشى للفصل بين العشيرتين ، ظل حتى سنة ١٩٣٦ م ، فكان الموالي مكرهين على البقاء غربي خط أبو جريف - حلبان - تل عوجة - سنجار - أم ميلات - أم الرجم - رجم مشرفة - تل خنزير ، والموالي يعملون في الزراعة على هون وتقاعس وينتجون حبوباً يبيعونها في أسواق المعرة وحماة ، ويقدر أن لديهم ٤٠٠٠٠ شاة و ١٥٠٠ بعير و ٥٠٠ فرس من أجود الخيل العراب .

أما شتاؤهم ففي المنطقة الجبلية التي تشمل جبل البلعاس وجبل شاعر والصبب الغربي لجبل المرا والجبل الأبيض وجبل أبو رجين ، وهذه المنطقة غنية بأشجار البطم ، كما قدمنا في الجزء الأول (ص ٤٤) وجيدة لرعي الإبل والغنم ، إلا أن مياهها قليلة ، ولم تثمر مساعي مصلحة الري فيها بعد ، وأخص المناهل التي يردونها هي شيخ هلال والحسية والتوينان وقطقط وأرك ، وكان الفرنسيون نصبوا لهم في البادية أيضاً ممشى يفصل بينهم وبين الحديديين ، إلا أن هذا ألغي منذ سنة ١٩٤١ م التي تم الصلح الرسمي الأخير بينهما .

وهم ينجعون في أول هطول الأمطار فيبلغون جبل البلعاس ، ومن ثم يتوزعون

زرافات صغيرة ويلحق كل منهم المناهل والمراعي التي يجدها أمامه ، إلى أن يبلغوا رويداً رويداً شمالي تدمر ، حيث يمكثون أشهر الشتاء الثلاثة ، وفيما ندر من السنين مثل سنة (١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ م) يمعنون في النجعة ، فيبلغون منطقة الخبرات ، أو منطقة الوديان في الحماد ، وهم ما أن ينتهي شهر آذار حتى يعودوا من حيث أتوا إلى جبل البلعاس ، وبعد أن يخيموا فيه مدة قصيرة ، ويقطعوا ويحرقوا أشجاره ، ويخربوه عاماً بعد عام ، يقصدون قراهم في المعمورة ، ويبلغونها من السعن وسعين والحمراء .

ولشدة بأس الموالي وشغفهم بالسطو والتعدي ، كان الفرنسيون يجهزون في كل سنة سرية فرسان قوية ، ترابط لهم في محطة الحمدانية بين حماة وحلب ، إقراراً للأمن الذي كثيراً ما كانوا يعكرون صفوه ، حين عودتهم من البادية ، وانتشارهم في المعمورة ، وظل الفرنسيون يحقدون عليهم ، اشتراكهم في سنة ١٩٢٥ ، في الثورة السورية الكبرى ، وقد آذوهم كثيراً بالأموال والأنفس ، كما آذوْا هم أنفسهم في حروبهم مع الحديديين ، طوال أربع عشرة سنة ، ولهذا فإن الموالي بعد رفعتهم وميسرتهم ، صاروا خمل ومعسرين من جراء جهلهم وطيشهم ، ناهيك توالي سني الجدب والأزمات الاقتصادية ، التي رافقتها إلى قبيل الحرب الكونية الأخيرة ، مما ضعضع كثيراً من الأقوياء والأعزاء وقتئذ .

الحديديون

أكبر عشائر الرعية في محافظة حلب عدداً ، وأكثرها ثروةً ، وأميزها بإتقان تربية الماشية ، وصنع السمن المعروف بالحديدي ، المنقطع النظير في جودته ونفاسته ، وأشدها استعداداً للتحضر والاستقرار في القرى ، والتعلق بالحرث والزرع ، وأقربها للوداعة وإطاعة الحكومة ، حتى يمكن القول أنه لولا العداء القديم بينها وبين (الموالي) ، والذي كثيراً ما يكرهها على العزوف عن المكوث والهدوء ، لأصبحت منذ زمن بعيد ، أولى العشائر المتحضرة ، و لأصبح سهل الأندرين عامراً بالقرى ، وآهلاً بالسكان ، وزاهراً بالزرع والغرس ، كما كان في العصور القديمة أيام عمران الأندرين ، ذات الأطلال الشاخصة ، والقنوات الكثيرة المندرسة .

إن أصل الحديديين من أنحاء الموصل في شمالي العراق ، ولا يزال هناك منهم قسم

يقدر بنحو ألف بيت ، يتبدى على يمين الدجلة من تل عفر إلى حمام العليل ، وعلى يسار الدجلة بين الزاب وسهل باشايا ، ويتألف هناك من فرق عديدة تعمل في الزرع والضرع ، ولاتنقطع عن الاتصال والتزاور مع أقاربها الموجودين في براري حلب .

ويزعم الحديديون أنهم أعقاب رجل معتقد بولايته وكراماته ، التي منها فيما زعموا عجن الحديد ، واسمه الشيخ محمد عجان الحديد ، وضريحه في الحديثة على الفرات ، وفي قول آخر أنهم من أتباعه وأنصاره ، لا من أعقابه .

وهؤلاء الحديديون في الموصل قبل قرنين أو ثلاثة كانوا عشيرة واحدة ، مؤلفة من فرقتين الكواصمة والملاوحة ، ثم حدث بينهم نزاع ، أدى إلى الفشل وذهاب الريح ، فلحق قسم صغير منهم بالموالي في أنحاء حلب ، ثم استمر اللحاق والنزوح إلى أن حصلت عشيرة الحديديين التي نبحث عنها ، وتضخمت في أوائل القرن الهجري الماضي ، على أنها ظلت إلى الربع الأخير من ذلك القرن ، دون مكانة منظورة ، ولاتأليف تام ، ولاسمعة حسنة ، بحكم الشقاوة والغارات التي كانت تقوم بها ، وكانت تعد من أتباع أمراء الموالي أو لواحقهم ، إلا أنهم كانوا يفضلون التحضر والاستقرار في الأرض ، على البداوة والنجعة البعيدة ، خاصةً ولم يكن لدى أكثرهم من وسائل الرحيل سوى الحمير .

ذكرهم السائح السويسري بركهارت في سنة ١٢٢٤ هـ فقال : سلاحهم الغالب بنادق ، وعندهم كثير من الحمير ، ونساؤهم مشهورات ببياض البشرة ، وهم في الغالب في حرب مع الموالي ، يساوونهم في عدد الفرسان ، اهـ .

ثم مضت سنون صلح فيها حالهم ، وازداد عددهم وعديدهم ، وألفت فرقة (الأبوكنش) المعدودة قلب المجتمع الحديدي رابطةً قويةً ، حول أسرة منهم تدعى (آل إبراهيم) ، وحذا حذوها عدد غير يسير من الشوايا ، ومن فلول بعض العشائر التي غفلت عن حسبها ونسبها ، فانضموا إلى الأسرة المذكورة ، لذلك فإن الحديديين مؤلفون من فرق شتى ، بينها بعض الاختلاف في العادات ، والأزياء ، وأغطية الرؤوس وفي العدد ، ودرجة الميل نحو التحضر ، حتى في وسم الغنم والإبل . **وينقسم الحديديون إلى ثلاثة :**

١ ـ قوم الشيخ نواف الصالح المعروفون في القيود الرسمية باسم (كومة) من كوم

التراب والحصى تكويما ، وهي كلمة قلما يستعملها الحضر .

٢ ـ فرق مستقلة عن الشيخ نواف ، وملتفة حول رؤساء آخرين ، كالغناطسة في (قضاء الباب) والأبي شهاب الدين في جنوبي مطخ قنسرين (قضاء إدلب) والأبرز في جبل الأحص (قضاء جبل سمعان) والأبي حسن الذين أصلهم من عشيرة الأبي شعبان الفراتية ، ومقرهم الآن في ناحية الحمراء (قضاء حماة) ، وهذه الفرق مابرحت منذ ١٥ ـ ١٨ سنة تحاول الانفراد عن نواف الصالح ، ولطالما فزعوا إلى السلطات الفرنسية ، وعقدت مؤتمرات عدة لأجل إسكاتهم ، ورد طلباتهم فلم تنجح ، وقد استفحل الخلاف حين طبع هذا الكتاب ، ولما ينته .

٣ ـ لواحق من الشوايا والرعية كالجملان الذين ذكروا في بحث قضاء سلمية ، وهؤلاء ينضوون تارةً إلى الموالي ، وتارة إلى الحديديين ، وتارة يتظاهرون بالحياد والاستقلال .

وكان الحديديون قبلاً منذ ورودهم من أنحاء الموصل ، حتى الربع الأخير من القرن الهجري الماضي ، يقطنون شرقي حلب في قضائي الباب ومنبج كما أثبتته (سالنامة ولاية حلب لعام ١٢٨٧ هـ) ، ثم على أثر قدوم عشيرة الولدة (الأبي شعبان) من الجزيرة قبيل ذلك الزمن ، ومزاحمتها الحديديين وغيرهم ، كما ذكرناه في مبحثهم ، اضطر الحديديون إلى أن يبعدوا نحو الجنوب ، ويبلغوا جنوبي مطخ قنسرين .

هذا ولم يكن إلى ذلك الحين للحديديين رئيس عام ، إلى أن قام أحد نبغائهم واسمه جرخ الإبراهيم ، فضم شمل فرق الحديديين ورتب أمورها ، ومن ثم استقرت الرئاسة في يد (آل إبراهيم) ، وفي القرن الهجري الماضي كانت الدولة العثمانية تعهد إلى الحديديين بحراسة الطريق بين حلب وسراقب ، كما كانت تعهد حراسة مابعد سراقب إلى الموالي ، فكان الحديديون يتقاضون رسوم مرور من القوافل ، وقد جعلتهم هذه الوظيفة في اتصال مع ولاة حلب وأهلها ، فهذبت من أطباعهم إلى حد بعيد ، ثم شرعت الدولة في تحضير العشائر ، وقام أصلان باشا الذي قدمنا ذكره وحمده ، في الجزء الأول ص ١١٠ ، وأقطع أرضين واسعة للحديديين في شمالي كورة العلا ، فعملوا فيها أحسن من الموالي ، ولم يفرطوا بها ، ويجعلوها فريسة الديون لوجهاء حلب والمعرة وحماة ، كما جعلها الموالي ، ويعود الفضل في هذا ، وفي إصلاح حالة الحديديين عامة إلى أسرة آل إبراهيم المذكورة .

يزعم أخصام هذه الأسرة أن أصلها حضري (جبيلي) ومن علوية جبال اللاذقية ، بينما هم يدحضون هذا الزعم ، ويعزون منشأه إلى لجوء آل إبراهيم في حدود سنة ١٢٤٧ هـ إلى عشيرة الحدادين العلوية ، على أثر نزاع قام يومئذ بينهم وبين الموالي ، قالوا ومثل ذلك عمل الموالي ، لما استنجد أميرهم أحمد بك الجحجاح بالحرافشة من شيعة بعلبك في معركة جبل زين العابدين قرب حماة سنة ١٢٧٥ هـ ، فكما أن استنجاد الموالي بالحرافشة لا يجعلهم شيعة وحضر ، فاستنجاد الحديديين بالحدادين لا يجعلهم علوية وجبيلية ، ومهما يكن أصلهم الذي لاشك في بداوته ، فإن آل إبراهيم قد فرضوا رئاستهم على الحديديين ، وكان أشهرهم جرخ الإبراهيم في حدود سنة ١٢٧٧ ، و ١٢٨٧ هـ ، وكان ذكياً وذا ثروة ومقدرة كبيرتين ، وهو الذي جمع شمل الحديديين بفضل التفاف فرقة (الأبوكنش) حوله ، وكان مقره في قرية البويدر شرقي محطة أبي الظهور ، ثم خلفه ابنه صالح في تلك المناقب ، وزادها علواً باقترانه بأخت الأمير عبد الكريم الأحمد آل أبو ريشة (وهي عمة الأمير شايش) ، فسما عرقه بهذا الزواج ، وجعل لنفسه بذلك منزلة تضارع ما لأمراء الموالي ، ولما توفي في حدود سنة ١٣٢٢ هـ خلفه ابنه الكبير شامان ، ولما توفي هذا في سنة ١٣٣٣ هـ ، صدرت الإرادة السنية بتعيين أخيه نواف المولود في سنة ١٢٩٧ هـ ، وهو الرئيس الحالي .

والشيخ نواف الصالح الجرخ يعد أذكى قومه جناناً ، وأوسعهم عرفاناً ، وأطلقهم وجهاً ولساناً ، ولاغرو فهو خريج مدرسة العشائر والمدرسة الحربية في عهد السلطان عبد الحميد ، عمل في الجيش العثماني مدة ، وبلغ رتبة رئيس ، ومارس حياة الحضارة والنظام ، وبعد أن تقلد مشيخة العشيرة اتسعت سلطته ، وعلت كلمته ، بحكم معاضدة الحكومة العثمانية له قبلاً ، والحكومة الفرنسية بعداً ، وهو قد توصل بذلك إلى تزويج بناته من أبناء رؤساء الفرق ، أو كبرائها في عشيرته ، فقد زوج إحداهن إلى راكان المرشد شيخ الأسبعة البطينات ، وأخرى إلى خليف الإبراهيم رئيس فرقة الأبي حسن المستقلة عنه ، وزوج أخاه أحمد الصالح أخت الأمير تركي آل أبو ريشة ، وزوج إحدى أخواته إلى محمد الصفوق الرجو شيخ الحديديين الغناطسة ، فضم بذلك حوله فرق الحديديين القريبة ، وجذب نحوه الفرق البعيدة ، واتحد مع أحد بيوتات عنزة الرفيعة ، وزاد في أسرته نسبة

الدم النبيل الخاص بالأمراء وكبار الرؤساء ، وحاز مكانتهم وحرمتهم لدى البدو والحضر والحكومات . وليس ثمة من يخالفه ويحاول الانفراد عنه ، إلا رؤساء الفرق المستقلة التي عددناها ، وهو إلى ذلك نائب في البرلمان السوري منذ أمد بعيد ، وكان صديق الفرنسيين الحميم ، ومؤازراً لهم إلى أقصى حد ، وقد منحوه وسام جوقة الشرف ، وكانوا يجلونه ويؤيدونه ، وقد أثنى عليه المقدم مولر في كتابه ، وتمنى لو أن حكومته تقتفي أثر السلطان عبد الحميد ، وتنشئ مدرسة لأبناء العشائر ، كيما يتخرج منها أمثال الشيخ نواف المذكور ، هذا إلى أن الشيخ نواف (عارفة) يقضي في الدعاوى ، ويحل الخلافات بين أبناء عشيرته الكثر ، ويستغل ذلك كثيراً ، وله في عشيرته طاعة مطلقة ، وعند كل العشائر حرمة بالغة ، يحل بها الخلافات بين عربان الديرة وعنزة ، ولا يقضى عارفة الحديديين الأوحد ، وهو أحمد العيسى من الأبي صليبي إلا بعد أن يتفق مع نواف ، ثم هو مغرم بالزراعة ، ويحث عشيرته دائماً نحو التعلق بالأرض ، والعناية بالحرث ، والكرث ، وتفجير القنوات ، وإسالة المياه ، وقد استأجر من أملاك الدولة أرضين واسعة ، في أنحاء البويدر والأندرين ، وعمر تلك البقاع النائية التي كانت خراباً يباباً ، واقتنى ساحبين للحراثة ، وفجر عدة قنوات . وهو يكل قيادة العشيرة أثناء النجعة إلى ابنه الأكبر سطام ، على أن ابنه الخامس فيصلاً محبوب جداً بين البدو .

حدثني الشيخ نواف في ربيع سنة ١٣٥٢ هـ ـ (١٩٣٣ م) ، وقد كنت قصدته في مضاربه المنصوبة وسط مروج خضراء ، شرقي قريته المسماة طويحينة ، وهي من أملاك الدولة ، وعلى مقربة من محطة أبي الظهور ، كما حدثني من كان حوله من الشيوخ المعمرين من الحديديين ، أن محمد باشا الذي ذكره الشايش أمير الموالي ، هو ابن جحجاح بن الكنج أبو سفايف بن فياض الذربة (ولم يقولوا فياض السها الذي قاله الموالي) بن حمد العباس ، وعاد هؤلاء لترديد اسطورة انتساب حمد العباس لشقير بن هارون الرشيد ، وزادوا عليها قولهم إن حمد العباس هذا ، كان أمير البادية كلها في عهد لا يعرفونه ، وكانت إقامته في أنحاء الفرات ، فجاءته ذات يوم امرأة من بنات الشيخ محمد عجان الحديد ، واستجارت به كي ينقذ أبناءها السبعة من سجن بغداد ، وكان هذا الأمير ذا صولة ووجاهة طائلتين ، فأنقذ هؤلاء الأخوة ، ثم حينما وجدهم فتياناً أشداء وماهرين بالقنص ، واستعمال بنادق البارود المعروفة بأم فتيل ، اتخذهم بطانته ، وصاروا يقنصون له

الغزلان وسموا بالقناصة ، وهؤلاء الأخوة هم أجداد الحديديين الحاضرين ، فقد أعقب أربعة منهم ، واسمهم غنطوس وصليبي وجادر وجميل ، فسميت الفرق التي تسلسلت منهم بالغناطسة والأبو صليبي والأبو جميل وسميت سلالة جادر باسم أحفاده كنش وزليط وفاتنلة وشتيوى .

وقالوا أنه حدث بعد حين نزاع بين الأخوة القناصة ، وأحد أبناء الأمير ، أدى إلى نزوح هؤلاء عن الموالي ، والتف حولهم جمع من عشيرتهم الحديديين الواردين من أنحاء الموصل ، حيث لا يزال منهم بقية ، وهم كالأبي شهاب الدين والغناطسة والأبرز ، فتكاثروا وصاروا حياً كبيراً قرب الموالي ، وتفرع من فخذ كنش فخذان آخران ، هما فخذ الإبراهيم الذي منه الشيخ نواف الصالح ، وفخذ المواسية ، ثم إن أمراء الموالي ، جعلوا ديدنهم التعدي على هؤلاء واستباحة حماهم ، وكان أشدهم وطأة الأمير محمد الخرفان (الذي ذكره السائح الافرنسي فولناي كما قدمنا) ، وقد أراد هذا الأمير أن يغتصب فتاة جميلة من فرقة المعاطة ، فعارضه الحديديون ، وجسر أحدهم وكان اسمه مصقادة ، واغتاله بينما كان يتوضأ ، وكانت امرأته حامل ، فوضعت بعد اغتياله غلاماً دعوه باسم أبيه ، وقد أدت هذه الحادثة لانفصال الحديديين عن الموالي بتاتاً ، ولما شب محمد الخرفان الثاني ، أراد أن يثأر لأبيه ، فغزا الحديديين في تل الطوقان غربي مطخ قنسرين ، وغزا منهم أموالاً ومواشي كثيرة ، فلحقه منهم خمسة عشر فارساً ، فكر عليهم وذبحهم عن بكرة أبيهم ، ومن ذلك الحين توالت الفتن بين العشيرتين واستحكمت البغضاء .

وكان لمحمد الخرفان هذا ابن عم يدعى الأمير أحمد بك بن محمد باشا الجحجاح ينازعه على فتاة حسناء من الأميرات ، اسمها فضيضة كان كل منهما يرغب الاقتران بها ، فلما ظفر محمد الخرفان بها ثارت ثائرة أحمد بك ، فلجأ إلى الحديديين ، مستعيناً بهم ضد ابن عمه ، وكانت منازل الحديدين في تلك الآونة تمتد من منبج إلى الجبول ، ومنازل الموالي في كورة العلا ، وتقابل الفريقان في موقع يدعى تل حلاوة في أقصى شرقي قضاء معرة النعمان ، وتلاحما فيه ، فكانت الدائرة على الموالي ، وظل الحديديون يضربون في أقفيتهم ، حتى أوصلوهم إلى السعن الأسود قرب حمص ، فذهب محمد الخرفان ، واستفز الشيعة من أنحاء بعلبك ، فأمده هؤلاء بقوة يرأسها أحد أمراء آل حرفوش ، ومشى بهم وبمواليه على

الحديدين ، وجرت معركة هائلة بينه وبينهم (أو بينه وبين قائدهم ابن عمه أحمد بك) وذلك في سفح جبل زين العابدين شمالي حماة في ٨ تشرين الثاني ١٨٥٨ م ، فذبح محمد الخرفان وانكسرت جموعه ، وكان شيخ الحديدين إذ ذاك جرخ الإبراهيم جد نواف الصالح ، وعقداء حربهم حمود بن مصقادة وفصعلة ، ودفن محمد الخرفان في قرية قمحانة شمالي حماة ، ووقعت بعد معركة أخرى ذبح فيها الأمير حسن الإبراهيم جرخ الإبراهيم الحديدي .

ثم تصالحت العشيرتان صلحاً حسناً وصفت قلوبها ، وأيدا هذا الصفاء بعد حين بين سنة ١٢٩٠ ـ ١٣٠٠ هـ بالمصاهرة اقترن فيها صالح الجرخ الإبراهيم بابنة الأمير أحمد بك (عمة الأمير الشايش) ، واقترن ابن أحمد بك بابنة صالح الجرخ الإبراهيم ، فحالت هذه المصاهرة دون حدوث مايعكر عشرات من السنين ، ودام ذلك إلى عقيب انتهاء الحرب العامة الماضية .

ولما طلبت من الشيخ نواف أن ينتسب قال : هو نواف بن صالح بن جرخ بن إبراهيم بن كنش بن حميد بن جادر بن الشيخ حديد الذي تقدم خبر انتسابه لمحمد الباقر ، وذكر أن من الشيخ حديد فرعاً آخر ، أوله حجر ، ومنه موسى ومنه حسن ومسعود ، ومن حسن موسى وإبراهيم ، ومن موسى أحمد ، ومن إبراهيم محمد ، أما مسعود فمنه محمد وحمود ، ومن محمد بكري ومحمد ، ومن حمود أحمد وغندور . وذكر الشيخ نواف أيضاً ، أن له أربعة عشر أخاً أسماءهم : حامد ومحمد وفندي ومزود وصفوق ونايف وقديم وسرحان وعبد العزيز وخليف ومعيوف ودامس وأحمد وشامان . أما أبناء الشيخ نواف فهم سطام وقودان وفهد وأسعد وفيصل (وهؤلاء الخمسة من أم إبراهيمية) ثم شامان ونوري ومندور وطراد (أمهم من الولدة فرقة الناصر) ثم فائز وأمه حديدية من الجحجاح ، ثم عيد وأمه أرمنية .

وحدثني أيضاً أن عشيرة الحديديين تشمل أفخاذاً وفرقاً عديدة منها الحديدي الأصلي (الكومة) ومنها الملتحق بها كالأبي حسن والجملان والغناطسة ، فمن الأصليين أعقاب الأخوة القناصة المذكورين آنفاً ، وقد درجناهم في الجدول الآتي :

اسم الفرقة	أسماء الأفخاذ	عدد البيوت	أسماء القرى في أقضية جبل سمعان وإدلب والمعرة وسلمية وحماة
الأبو كنش	آل إبراهيم والبوعمير والأبو شتيوي	١٥٠	الأندرين، بطوشية، قرع الغزال، البويدر، عقلة جهان، طويحينة
الأبو صليبي	الأبوخضير والعكاشات والبراغلة والهلالات والأبو مريعة والشهابات والأبو عربيد والسراجبين	٣٠٠	تل حلاوة، عب الخزنة، وادي جهنم، الملولح، الحمدانية، سرحة البارودية، الهمانية، البويضة
الأبو جميل	الأبو عزام والأبو عابد والأبو سهيل والأبو دياب	٢٥٠	تل العمارة، جهان، مريجب، عكرة
الأبو فاتلة	الأبو تامر والأبو علاية والأبو رجمين	٥٠	جدوعية، أبو خنادق، تل الثور، أبو دريخة، وريدة
الأبو حربة	الأبو حجة والأبو راضي	٥٠	العزيزية
الحجاج	الضواحي والأبو أحمد	١٠٠	البويدر والسلايل
الأبو زليطي	الأبو عليوي والأبو عساف	١٠٠	نجم الزهور، الجينة
المراسة	القواسمة	٥٠	جدوعية
المعاطة	الأبو راشد والأبو علي والأبو حوا والري والهياكلة	٢٠٠	حوا وربيع الهوا وصراع

وحدثني أيضاً أن من لواحق الحديديين أرهاط وأفخاذ من منابت وعشائر مختلفة ، انضموا إليهم وهم كالنعيمات (ولعلهم من النعيم) ٥٠ بيتاً ، والولد علي (من عشيرة الولد علي العنزية) ١٠٠ ، والجميلة (من عشيرة قيس التي لحقت تركيا) ١٥٠ ، والأبو قعيرات (من سبخة الفرات) ٢٠٠ ، والأبو شهاب الدين (من غناطسة الموصل) ٥٠٠ ، والعميرات ٥٠ ، والبوسبيع ٥٠ ، والأبو حربة ٥٠ ، والبو عيسى ١٠٠ ، (من دليم العراق) ، والحسانيين ٥٠ ، والأبرز ٤٠٠ ، والأبو عطيوى ١٥٠ ، والأبو حسن ٥٠٠ ، وأصل الأبو حسن من عشيرة السبخة إحدى عشائر الأبي شعبان في قضاء الرقة ، وينقسمون إلى قسم الإبراهيم وقسم السرحان ، ومن الأول أفخاذ الحليبات والحمارة ، ومن الثاني الأبو طيب والحجارة ، وختم الشيخ نواف إحصاآته بذكر الجملان ربع عبد الجبار العقاب ٣٠٠ بيت ، والغناطسة ربع محمد صفوق الرجو ٤٠٠ بيت ، فجعل بذلك مجموع اللواحق ٣٣٥٠ بيتاً ، إذا أضيفوا إلى الحديديين الكومة بلغ المجموع العام ٤٩٠٠ .

على أن بعض رؤساء هذه الفرق اللواحق يود الانفصال عن العشيرة الأصلية ، ويحاول الخروج عن سيطرة الشيخ نواف ، وأخص هؤلاء وأشدهم تحمساً لذلك محمد الصفوق رئيس الغناطسة ، وأحمد المشيعل رئيس الأبرز ، ومحمد أبو جاسم رئيس الأبي شهاب الدين ، ومحاولات هؤلاء الرؤساء تعود إلى سنين عديدة خلت ، وكان الفرنسيون يغذونها كلما أرادو بقاء تلابيب الشيخ نواف في أيديهم ، وقد اشتدت في سنة ١٩٤٥ ، قبل رحيلهم الأبدي ، ووقف المتخاصمون وأعوانهم وقفة الحرب وسفك الدماء ، لولا أن هرع وقتئذ السيد نوري إيبش مدير العشائر السابق ، وفصل بينهم بالحكمة ، على أن الخلاف مازال دون حل حاسم إلى يومنا هذا .

منازل الحديديين ـ يقطن الحديديون الكومة في قراهم العديدة الواقعة في شرقي قضاء إدلب ، وجنوبي قضاء جبل سمعان ، وشرقي قضاء المعرة ، ويقطن الشيخ نواف وأقاربه آل إبراهيم في قرى الطويحينة والبويدر حتى الأندرين وأسرية ، وتمتد بقية الفرق والفصائل من القرى المذكورة نحو الجنوب إلى ناحية العلا في قضاء المعرة ، وإلى ناحيتي الحمراء والسعن وسعين في قضاء سلمية ، أما لواحق الحديديين ففرقة الأبي شهاب الدين في جنوبي مطخ قنسرين في قريتي العوينات وتل كلبة ، وفرقة الأبرز في قرية الهزانة (جبل

الأحص) ، وفرقة الأبي عاصي في تل فخار (مطخ قنسرين) ، والأبو حسن في ناحيتي الحمراء والسعن وسعين . وهم ينشؤون مزارع وضيعات جديدة ، ويفجرون قنوات عديدة في جهات بغيديد ، وبعضهم يستثمر أراضي واسعة في أنحاء عقيربات وعرشونة شرقي سلمية ، أما الحديديون الغناطسة ربع محمد صفوق الرجو فهم في جنوبي قضاء الباب ، وقد ذكرناهم في بحثه .

ولقسمي السرحان شيوخ مستقلون ، هم نايف بن تركي السرحان وخليف بن إبراهيم الخليف المكنى بأبي الطوس ، وكل منهما ذو ختم خاص ، واستقلال تام عن نواف الصالح إلا في حالة الفزع الأكبر فحينئذ ينضمان إليه .

هذا والحديديون هم أهل غنم في الغالب ، لذلك يعدون من ذوي النجعة المحدودة ، على أن ازدياد الإبل لديهم يوماً بعد يوم يضطرهم إلى التوسع والإبعاد في النجعة ، ففي الصيف يقيظ الكومة منهم في أنحاء البويدر وأبي الظهور ، وتقيظ الغناطسة في أنحاء دير حافر والباب والعريمة ، ويقيظ الجملان والأبو حسن في الحمراء وبغيديد والسعن وسعين ، أما في الشتاء فقد قضت المؤتمرات التي عقدت للصلح بين الحديديين والموالي في سنة ١٩٤١ م ببقاء الحديديين في نجعتهم شمالي الخط الممتد من الشيخ هلال ووادي التناهة والحريجة وعمشة ردة والكديم وقطقط وأرك ، وببقاء الموالي جنوبي هذا الخط ، لكن هذا التحديد ألغي بعد بحكم الصفاء الذي عاد واستمر ، وعلى كلٍ فالحديديون الكومة لايبعدون في الغالب عن الأندرين وأسرية والسخنة وجبل العمور ، لكن الأبي حسن يصلون إلى الحماد شرقي وجنوبي تدمر ، ويصل الغناطسة إلى غربي السخنة وشمالها ، وفي سني المحل والضرورة قد يصل الحديديون كلهم إلى وادي المياه وآبار الطيارية وسجري وورقة .

وللحديديين شهرة عظيمة في إتقان تربية المواشي ، وإجادة صنع السمن ونظافته ، وأفخر سمن في بلاد الشام وأشهره هو السمن الحديدي ، الذي يفضله ويستنفذه سكان مدينتي طرابلس وبيروت خاصةً ، وأكثر ما يتعامل الحديديون مع أهالي حماة وحلب ، وأشهر رؤسائهم أحمد النهير ومحمد المتعب وتركي الخليف ومحمد الجدعان ومحمد الحسيان وعلوه الأبرز ومحمد أبو جاسم وعبد الجبار العقاب وعذاب السرحان وخليف الإبراهيم ومحمد صفوق الرجو .

وأشدهم اندفاعاً نحو الحرث والزرع هو الشيخ نواف ، فقد فجر في البويدر أربع قنوات ، وصار يستغل بها زروعاً صيفية كثيرة ، وعنده ساحب ، ويليه محمد أبو جاسم الملاك والمزارع الكبير في قرية تل كلبة ، فقد شارك هذا الشيخ السيد يحي خانكان تاجر الآلات الزراعية الحديثة ، ونابغة حمص في الإقدام والنشاط الزراعيين ، فاستغلا أراضي تل كلبة الخصبة الواسعة ، على أجود ما يكون من الأساليب ، وزرعا وأنتجا حبوباً وأقطاناً ، وغرسا بساتينَ جميلة يحمدان عليها .

وأكثر قرى الحديديين تقع جنوبي قنسرين ، وتمتد من محطة أبي الضهور شرقاً حتى خربة الأندرين ، المذكورة في مطلع معلقة عمرو بن كلثوم ، وإلى ما حولها من الخرب الأثرية ، والشيخ نواف يسوق جماعته إلى العمل ، ويضع يده على هذه الخرائب ، ويقتطع من سهولها الشاسعة مزارع يخص كل فخذ لديه بمزرعة ، وقد نتج من هذا التهافت على الزراعة وحب الاستثمار والاستملاك ، أن اصطدمت مصالح الحديديين بمصالح الأسبعة ، لأن هؤلاء يريدون التوسع نحو الغرب ، والحديديون يريدونه نحو الشرق ، ولاسيا حول أسرية ، ونشأ الخلاف الذي ثارت ثائرته بين الأسبعة من جهة والحديديين ومعهم الموالي أيضاً من جهة أخرى ، وذلك منذ سنة ١٩٣٩ م ولا يزال هذا الخلاف موضوع درس وحل بينهما ، وتعد منطقة الخرايج من مناطق الحديديين الأساسية ، وهي غنية بمراعيها متسعة بأراضيها ، ويمضي الشيخ نواف أكثر فصل الصيف فيها ، كما يمضي فصل الشتاء في الأندرين .

فتن الموالي والحديديين الأخيرة وأسبابها ـ قدمنا في بحث عشيرة الموالي أن النزاع والاقتتال بين الموالي والحديديين قديم ومزمن ، من عهد الأمير محمد الخرفان وقبله ، فقد ذكر السائح السويسري بركهارت منذ نحو قرن ونصف في بحث الحديديين قوله « هؤلاء في اقتتال يكاد لاينقطع ، مع الموالي المجاورين لهم ، وفي إحدى المعارك كسروا ، واضطروا إلى الاحتماء ببساتين حلب » ونحن الآن سنقتصر على شرح فتنتهم الأخيرة فقط ، فنقول : إن الصلح الذي ذكرنا حدوثه بعد سنة ١٢٩٠ هـ ، عقيب المصاهرة بينهما ، ظل سائداً سنين طويلة إلى أن وضعت الحرب العامة السابقة أوزارها ، ففي سنة ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) ذر قرن الفتنة من نزاع حدث بين عشيرة اللهيب المنتمية إلى الموالي وبين الأبرز

إحدى فرق الحديديين بشأن مناهل الكديم ، وقيل بشأن السرقات ، ووقع قتلى من الطرفين ، فلجأ اللهيب إلى الموالي ، ومن هنا اندلع نار الفتنة ، لأن الحديديين فاجؤوا الموالي في عقيربات شرقي سلمية ، واشتبكوا معهم في عدة معارك ، دامت إلى أن أرسل المرحوم الملك فيصل إليهم في آذار سنة ١٣٣٩ هـ - (١٩٢٠ م) لجنة مؤلفة من الشريف ناصر والأمير نوري الشعلان كبير الروالة والسيد حكمت الحراكي وجيه المعرة للفصل بين العشيرتين ، وبعد أخذ ورد وتعنت فارس العطور عقيد الموالي المغوار ، حصل التوفيق بوقف القتال مدة ، ثم عاد القتال بسبب محل تلك السنة وقلة الماء الذي أوجب النزاع على آبار حسية ، غربي الكديم ، وهي للحديديين ومن حفرهم ، فنشب القتال في عقيربات ، واستظهر الموالي على الحديديين ، ودحروهم من حدود عقيربات حتى أوصلوهم إلى أبي الظهور .

ثم عقيب الاحتلال الفرنسي وأيام وثوب العصابات بقيادة المرحوم إبراهيم هنانو ومصطفى الحاج حسين وقومه أهل جبل الزاوية البواسل ، حرضت هذه العصابات الموالي على الحركة ثانية ، فقام هؤلاء في ربيع سنة ١٩٢١ م وهاجمو الحديديين وأعملوا الفتك والنهب فيهم وفي غيرهم ، وازدادت الفتن بسبب خطف أحد أمراء الموالي فتاة حسناء من اللهيب ، مما أوجب انضمام اللهيب إلى الحديديين ، وتكررت المعارك في قرى السماقية ودوما من ناحية الحمراء ، وفي أماكن أخرى شرقي المعرة وحماة وجنوبي حلب ، وخرب وقتئذ كثير من القرى ، وراح ما لايعد من الصامت والناطق لأهلها من الفلاحين ، أو لأصحابها من سكان المدن المذكورة الذين لم يكونوا في العير ولا في النفير ، ولم يعوضوا شيء .

وفي أواخر نيسان عام ١٩٢١ م ثار الموالي وهاجموا الإفرنسيين ، وقطعوا الخط الحديدي ، وأحرقوا المحطات ، فجاءتهم حملة إفرنسية ، اشتبكت معهم في أنحاء خوين الكبير وتل الغبار وأم جلال والتمانعة وقطرة في معارك عديدة عنيفة كان يستعمل فيها السلاح الأبيض أحياناً ، إلى أن تغلبت الحملة على الموالي ، بعد أن تكبدت هي خسائر غير يسيرة ، ثم توسط لهم السيد حكمت الحراكي وجيه المعرة والأمير ميرزا مصطفى وجيه سلمية فتوفقا في حزيران ١٩٢١م إلى إقرار صلح غامض بينهم وبين الحديديين ، لم يجل الموقف ،

وعاقبت السلطة الموالي وقتئذ بأن استخلصت منهم عدة قرى من أملاك الدولة في ناحية الحمراء تدعى (قرى بني عز) ، وأقطعتها إلى الحديديين ، كي لايختلط الفريقان وينحصر كل منهما في بقعة خاصة ، فكان ذلك مدعاة لبقاء النار تحت الرماد وفي سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) عادت الفتن تستعر ، وكان الحديديون يقيظون في قراهم جنوبي حلب ، فاقترب منهم الموالي وأرادوا التحرش بهم ، لكن إدارة مراقبة العشائر الفرنسية أنذرتهم بالرجوع ، فرجعوا وهم يحرقون الإرم .

وما إن اشتعلت ثورة حماة وجبل الدروز في خريف سنة ١٩٢٥ م ، وتضعضع حال الافرنسيين حتى رأى الموالي الفرصة سانحة ، فهاجموا المعرة التي كان فيها سرية من خيالة جيش الشرق الفرنسي ، فدافعت هذه السرية وساعدتها الطيارات ، فارتد الموالي دون جدوى وكان فصيل من تلك السرية منفرداً في محطة أبي الظهور ، فقام نواف الصالح وأرسل ثلاثمئة من فرسانه بقيادة ابنه سطام إلى هذه المحطة ، وحما هذا الفصيل وأنقذه من الهلاك ، وساق الفرنسيون في حلب ثلاث سرايا من الحرس السيار مع ثلاث طيارات ضربت الموالي ، وأطفأت ثورتهم ، وخسرتهم قطعاناً كثيرة من الغنم ، وأبعدتهم إلى البلعاس ، ثم خشوا فتك الطائرات ، فنزحوا من البادية الشامية كلها ، ولجؤوا إلى البادية العراقية ، وقضوا فصل الشتاء في حمى الفدعان ، وحاولوا وقتئذ أن يجروا معهم لواحقهم فلم يتبعهم أحد .

ولما هل ربيع سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٦م) أرادوا الرجوع إلى أوطانهم ، فزحفوا من جنوبي تدمر ، وبلغوا جبل البلعاس ، فتصدت لهم الطائرات الفرنسية في هذا الجبل ، وقصفتهم وقتلت عدداً منهم بينهم الأمير المعمر إبراهيم الباشا رئيس الموالي الشماليين ، وهم رغم هذا الإنذار ، تقدموا نحو المعمورة إذ لم يكن بإمكانهم الرجوع للحماد والتقيظ فيه ، بحكم أنهم أهل شياه وزروع ، وجاؤوا متفرقين زررافات زرافات ، وقصدهم الاتصال بعصابات الثوار العاملة يومئذ في جبل الزاوية والجبل الوسطاني وسهل الحلقة ، فبادرتهم في ١٥ نيسان ١٩٢٦ م حملة فرنسية كبيرة بما لاقبل لهم به ، وفتكت بهم ، وأكرهتهم على طلب الأمان ؛ وتوسط المتوسطون في سلمية والمعرة ، فاستسلموا بعد أن كلفوا بغرامة ٥٠٠٠ ذهب عثماني و١٢٠٠ بندقية وديات الجنود الفرنسيين المقتولين ، وإعادة ما سلبوه ونهبوه ،

وقبض الفرنسيون على الأمير شايش والشيخ فارس العطور ، واعتقلوهما في حلب مدة من الزمن ، ريثما تم استيفاء الغرامة المذكورة ، وأعقب ذلك فترة من السكون ، وضع خلاله خط فاصل بين مناطق العشيرتين ، وحصل تبادل بين القرى التي وقعت في منطقة كل منهما ، ودفعت تعويضات عن التي قيمتها أقل ، لكن أمراء الموالي لم يرعووا عن غيهم وشغفهم بالغزو والبطش ، فقد هاجموا في سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧م) مواشي فرقة الأبو حسن إحدى لواحق الحديديين ، فدافع هؤلاء ، وقتل خلال ذلك الأمير رفعة أخو الأمير عبد المذكور . واستمر ذلك السكون المترجرج مخيماً مدة ثلاث سنوات ، إلى أن قتل الحديديون في خريف سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠م) الأمير عبد الرزاق بن حمدو الباشا ، وكان هذا الأمير الشاب من مشاهير الغزاة وكبار الفتاكين ومحكوم بالإعدام مراراً ، وهو عقيب حوادث سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) و ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) هجر عشيرته ، ولجأ إلى فرقة الأمسكة في الأسبعة الأعبدة ، ثم أثر توسط نواف الصالح استسلم ، ونال عفو السلطة ولحق بعشيرته ، وحدث بعد حين قصير أن خطب نايف أخو نواف الصالح فتاة غنية اسمها صبحة من عشيرة الأبي شعبان ، وهم من أحلاف الأمير الشايش ، ومقرهم في تل خطري من قرى أملاك الدولة جنوبي المطخ ، وكان يود الأمير طويريج الأحمد الاقتران بها ، وبينما كان نايف المذكور مع أخيه صفوق في حماه يشتري جهازاً لعروسه ، والشيخ نواف غائباً في حلب يقضي أشغاله ، جاء الأمير طويريج الأحمد وأخوه الأمير نواف ، وخطفا البنت عنوة من أبيها محمد بن علي القريط ، ودخل بها طويريج بعد أن قتل ابن عمها ، وجرح أخاها ، ولما رجع نايف وصفوق وعلما بما جرى ، أخذا جمعاً من أقاربها وذهبا إلى أخذ الثأر ، فلقيا الأمير عبد الرزاق في تل عليج مع خمسة بيوت فقط ، ويقول الحديديون أن هذا الأمير بادرهم بإطلاق الرصاص ، وقتل فرس أحد أولاد نايف ، فقابله هؤلاء وجندلوه ، ويقول الموالي أن الأمير عبد الرزاق قتل ، وهو يمد بساط الغذاء إلى ضيوفه ، الذين هبطوا عليه بغتة دون سابق إنذار ، فقابلوا إحسانه بالإساءة ، ومهما يكن فقد خشيت السلطة الفرنسية يومئذ العاقبة ، وتداخلت فوراً ، وأرسلت جنداً كبيراً إلى تل حلاوة ، وأبعدت آل إبراهيم من منازلهم ، فلجأ نواف الصالح وأقاربه إلى الأمير نوري الشعلان في الحماد ، وشرعت السلطة بالمفاوضة لإنقاذ نواف الصالح من موت محقق ، ومن الغريب أن يلتف وقتئذ أكثر الحديديين حول آل إبراهيم ، بينما فارس العطور وأكثر

الموالي خذلوا الجماجمة (قلب الموالي) ووقفوا على الحياد ، وقد هاجم الجماجمة وأتباعهم الحديديين ، وجرت معارك عديدة قرب قرية تل خطري وغيرها ، وسفكت دماء ، ونهبت عروض إلى أن حيل بين الفريقين ، وعقد مؤتمر في تدمر (آذار سنة ١٩٣١ م) لم ينجح في مصالحة الطرفين ، وقد حدثت كارثة بينهما ، وهما راجعين من المؤتمر المذكور قتل فيها بعض كبراء الحديديين والموالي ، بين هؤلاء أمير شاب اسمه محمد بن محمد العبد الكريم وجرح أمير آخر ، وتفاقم الخطب من جديد ، واضطر الجند الفرنسي بعد جهد أن يبعدُ الفريقين عن مواقع الاتصال ، ثم كلفا في مؤتمر عقد في سلمية ٩ حزيران ١٩٣١ م أن يتصالحا قسراً ، بعد أن كان الموالي يرفضون قبول دية أمرائهم المقتولين ، تبعاً للعادة المحكمة التي تقدم ذكرها ، على أن فقدان العتاد وانتهاك القوى ، وتوالي سني الجدب وهلاك الحرث والنسل ، حمل الأمير الشايش والشيخ نواف على قبول التكليف في المؤتمر الثالث الذي عقد في أبي الظهور في ٢ تموز ١٩٣١م ، وترضيا على شروط منها أن يدفع نواف ألف ليرة ذهب عثماني دية عن الأميرين المقتولين ، وثلاثين ليرة إلى فارس العطور ، وأن يسلم الموالي خمس قرى من أملاك الدولة في ناحية الحمراء ، مما كان في استئجار الحديديين ، وهي عب الخزنة ووادي جهنم وتل محصر وأبو عجوة والمنطار ، ومنها (الحفر والدفن) عن كل ماسلب ونهب من الفريقين ، ومنها تمديد ممشى عريض بين منازل الفريقين في المعمورة والبادية ، ومنع أي منهما يضرب طنبة فيه ، وهكذا انتهى الأمر وكفى الله الفريقين القتال ، ومن ذلك الحين صلحت العلائق بين العشيرتين ، وعادت المياه إلى مجاريها رويداً رويداً ، وذلك بفضل الرقابة العسكرية الصارمة التي فرضها الفرنسيون ، وفصلهم الوقائع الحادثة بين الفريقين فوراً ، وشيخوخة فارس العطور وانتقال سلطته بالتدريج إلى الأمير عبد الإبراهيم ، وتعقل الأمير شايش وحكمة الشيخ نواف الصالح ودعاء أهل الحضر في بلاد الشام ، الذين كانوا في موقف المتفرج المتألم بأن يهدي الله هؤلاء الأعراب ، ويحقن دماءهم ويبعدهم عن مزالق الجهل والطيش ، ومن أجل ذلك الصلاح قام الفرنسيون في سنة ١٩٤١ م وقللوا عرض الممشى المذكور آنفاً ، وجعلوه كخط حدود فحسب ، وفي الاجتماع الأخير الذي أجروه في قطرة في نيسان ١٩٤١ م تم الصلح نهائياً ، وصفا الجو وبدأ التقارب والتحابب .

وقد قضى النزاع الناشب بين الولد من الفدعان والولدة من الأبي شعبان ، وتقدم

الفـدعـان نحو الطريق الآخـذة من حلب إلى تـدمر بـأن يزداد ذلـك التقـارب بين المـوالي والحديديين ، ويكرهما على التعاقد في وجه عنزة ، وتـأليف كتلـة من الموالي والحـديـديين واللهيب ، برز فيها الشيخ نواف وكسب المقام العلي .

وفي يومنا يعيش الموالي والحـديـديون بـدون أي فـاصل ، ويتعـاملون ويتواددون ، وكلما زاد ضغط عنزة ـ العدوة المشتركـة ـ عليهما ، زادت هـذه الصـداقـة تمكنـاً وتوسيعـاً ، والواقع أن الفتن التي تحـدثنـا عنهـا لم تكن نـاشئـة كل النشـوء عن شراسـة المـوالي ووداعـة الحديديين ، وإذا خسر الحديديون كثيراً من مواشيهم وأشيائهم وأموالهم ، فقـد خسر الموالي كثيراً من رجـالهم بينهم عـدد من الأمراء الـذين لاتقـدر دمـاءهم بثمن ، بـل هي كما يـذهب العـارفون من دواعي جغرافيـة واجتماعيـة واقتصـاديـة ، منهـا وجود الفريقين في منـاطـق متـداخلـة الحـدود ، أو متجـاورة يسهـل فيهـا احتكاك المصـالـح ، واتقـاد نيران الفتن ، ثم التواري عن الأنظار ، خاصـة وهي متطرفـة وبعيـدة عن المراكز ، ومنهـا فقـدان حكومـة قوية حياديـة طوال السنين المـاضيـة ، تقف تجـاه هـذه الفتن بصرامـة وردع كافيين ، لمنع الحروب أو لتخفيف وطـأتها ، ومنهـا فقـدان لحمـة الـدم والقرابـة بين فرق العشيرتين المتخاصمتين ، على خلاف مـاهو لـدى عشـائر البـاديـة الكبرى شمر وعنزة التي إذا تنـازعت سرعان ماتجد من يحول بينها بالصلح وفض النزاع ، بحكم تلك اللحمة ، ومنها تراخي شـأن الأمراء آل أبو ريشة بعـد ذلـك السؤدد ووقوعهم في المعسرة ، ومنهـا وهو أهم الـدواعي على مـايظن : سرعـة نمـو الحـديـديين ، وتكاثرهم ، وازديـاد ثروتهم في الغنم والإبـل ، ووفرة منتوجهم من السمن الجيد المنسوب إليهم وغيره ، وبـالتـالي اتسـاع نجعتهم ، أوجب الزحـام على المناهل والمراعي في البادية ، وأدى إلى إخلال التوازن بين عشائر الرعية ، ممـا لم يسبق له مثيل في الماضي .

هذا ورغم هذا العداء القديم الذي فصلناه للعبرة والتاريخ ، فقد حـدث ولله الحمـد في السنين الأخيرة ، ومنذ سنة ١٩٣٩ م شبه تحالف وتوادد ربـط هـاتين العشيرتين ، وأكرهتهما دواعي الدفاع عن حقوق مشتركة بينهما على التضامن والتحابب ، وكان مبعث ذلك الدفاع خلاف على أراضي بينهم وبين الأسبعة ، ولايزال هـذا الخلاف قـائمـاً ، وموضوع بحث وحل بين الفريقين ، وهـذه الأراضي تقـع شرقي وشمالي نـاحيـة السعن وسعين (قضـاء سلميـة) ، وتعرف بوادي العذيب وعمشة ردة والقطيط .

الفتن بين عنزة وعشائر الرعية - إن الصلح الرسمي الذي عقده الموالي والحديديون في قطنة في نيسان سنة ١٩٤١ م ، كان سببه كما قدمنا الخطر المشترك الذي دهمتها به عنزة (عشيرة الأسبعة) ، فقد احتكت المصالح بين هؤلاء وأولئك من جراء مرورهما في التشريق والتغريب بمسالك واحدة ، ونزاعها على المراعي والمناهل ، حول أسرية ووقوفها على حدود المناطق المزروعة في المعمورة حول بغيديد وشاقوصية .

وحدثت عدة حوادث بينها ، سويت بعد مؤتمر عقد في حلب ، قررت فيه المناهل والمناطق التي يجب على كل منها احترامها .

إلا أنه في ربيع سنة ١٩٤٢ م رجعت الأسبعة إلى حدود المعمورة قبل الأوان ، ونزلت في أنحاء أسرية وبئر أبي فياض ، ولما رأت عشيرتا الموالي والحديديين ذلك ، وقد تصالحتا من عهد قريب جمعتا نحو ٣٠٠٠ بيت من العشيرتين ، ومدتها على شكل نصف دائرة كبيرة ، وسدتا في وجه الأسبعة سبيل الوصول إلى أسرية ، أما الأسبعة فقد استعدت للأمر ، واستنجدت بحلفائها من عنزة الفدعسان و صقور العمارات ومن بني خالد ، وتداخلت قوى البادية الفرنسية وعسكرت بين الفريقين لمنع الاصطدام بينهما ، وكان الفريقان على اتصال ، وينهلان من آبار واحدة ، مما أدى إلى حدوث سرقات عديدة من ماشية الفريقين ومنازعات ، وجاء المحكمون لحل الخلاف وكانوا الأمير فاعور رئيس الفضل ، والأمير سليمان العلي نائب الإسماعيلية في قضاء سلمية ، وبينما هم في الحديث ، نشبت الفتنة من تعدي بعض بني خالد على الموالي ، ولعلع الرصاص ، وعظم الخطب باندفاع الأسبعة لنجدة بني خالد ، لكن السيارات المصفحة هرعت وفصلت بين المتنازعين ، ببضع طلقات أدت لقتل عدد من الأسبعة بينهم صفوق العلي ابن عم الشيخ راكان المرشد ، وأكرهت السيارات المذكورة هذه العشائر على الرحيل والابتعاد بعضها عن بعض ، وبعد لأي عقد مؤتمر للصلح في حلب على قاعدة (الحفر والدفن) ، كان المحكمون فيه الأمير فواز الشعلان والشيخ طراد الملحم وانتهى الأمر .

قضاء جبل سمعان

في جنوبي هـذا القضـاء أي في جبـل الأحص وفي مطـخ قنسرين عشرات القرى المأهولة بأعراب من ذوي القسم الثالث ، هم بدو الأصل والنزعة واللهجـة والحـالـة ، تحضروا واستقروا منـذ قرنين ، أو أكثر أو أقـل ، في قرى أمـلاك الـدولـة ، التي كانت منقسمـة إلى شعبتين ، مركـز الأولى في قريـة بنـان (جبـل الأحص) ، ومركـز الثـانيـة في محطـة أبي الضهور (جنوبي المطخ) ، وهـؤلاء الأعراب هم من منـابت مختلفـة وعشـائر متبـاينـة ، أو لعلهم من أنقاض العشائر القديمة التي كانت في هـذه الـديـار قبل الحكم العثمـاني ، وقـد ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى (ج ٤ ص ٢٣٤) أنه كان في زمنـه القرن الثـامن عشيرة اسمها آل بشار منازلها في جبل الأحص ، بينما لا يعرف الآن لها خبر ولا أثر ، ولعل فلولهـا اندمجت في غيرها وضـاع اسمهـا ورسمهـا ، شـأن العشـائر في كل قرنين أو ثلاثـة ، أو في كل حادثة تقع وتؤدي لانحطاطها وتمزقها .

السكن

من هـذه العشـائر المختلطـة عشيرة اسمهـا (السكن) وتلفـظ (السجن) ، كما كتبهـا السائح الدانياركي نيبوهر في سنة ١١٨٠ هـ ، ويقـال أن هـذا الاسم لحقهم ، لأنهم أسكنوا في جبل الأحص بعد أن كانوا رحل ، وهم خليـط من عشـائر مختلفـة ، كالنعيم (منهـا أفخـاذ البوفرج والزعابرة والبوصاوجي) والعميرات (منها فخـذ أبو عميرة) والأكراد (منهم فخـذ أبو إسماعيل) وكالسبخة والولدة المنتسبتين لأبي شعبان (منها البوحمد والقوادرة والجريات والبومانع والبوحن) ، وهنالك فلول من عشيرتي جيس وبني خالد لا يعدون من السكن ، وإن كانوا يقطنون وإياهم جبل الأحص ، واسم السكن نشأ من أن هؤلاء الأعراب المختلفي المنابت والأصول تحالفوا على التعـاون ضـد الغريب ، وعلى السكن معـاً في جبل الأحص ، ذي الخرب الداثرة العديدة ، والهواء العذي الجيد ، والأراضي الخصبة المنبسطة ، وفي روايـة أحـدهم أن سكنـاهم منـذ نحـو قرنين ، وأنهم أخـذوا هـذا الجبـل الأحص من عشيرة اسمهـا رشوان ، التي انقرضت على أثر معارك بينها وبين الموالي ، وأن هؤلاء السكن انجدوا وقتئـذ أمير الموالي ، فكافأهم بإعطاء هذا الجبل .

وذكرهم من قبل السائح الدنماركي في سنة ١١٨٠ هـ في عداد عشائر ولاية حلب دليل على وجودهم منذ قرنين ونيف ، وقد ذكرهم بعده بركهارت السويسري في سنة ١٢٢٤ هـ وجعل عددهم نحو ٦٠٠ بيت وتذكر (سالنامة ولاية حلب) المطبوعة في سنة ١٢٨٧ هـ أن رئيسهم وقتئذ كان اسمه تمر اليونس الشبلي ، أما الآن فالرئيس هو جاسم بن حمادي بن تمر اليونس الشبلي المذكور ، إلا أن العشيرة تلتف في الغالب حول ابن عمه مجحم بن تركي بن تمر اليونس لكفاءته ، ويرأس فخذ القوادرة حسين إبراهيم الحمادي .

وقرى هؤلاء السكن في جبل الأحص عديدة ، ففخذ (البوفرج) في قرى أبو جلوس وسحور ورجم شوكان وعقربة وبرج أسامة وزراعة وجب جاسم وكفر حوت ، وفخذ (القوادرة) في بنان وسرج فارع وبيشة ومربعات بيشة وكركور وسير البيض وقنيطرات ، وفخذ (جيس) في برج عزاوي والطيبة وجديدة وبناوي ونعمانية وخربرش ورسم عكيرش ، وفخذ (البوصاوجي) في ديمان ورسم الصفا وعين العزف وأم جرن وسميرية ومدينة الغزال ومغيرات ، وهؤلاء السكن الذين عرفتهم منذ أن كنت مفتش أملاك الدولة في سني ١٣٤٤ ـ ١٣٥٢ هـ لا يزالون على جفوتهم ، لا يحسنون العمل الزراعي كما تستحقه الأراضي التي استقروا فيها في جبل الأحص الجميل ، فهم أعداء كل خضرة ونضرة ، لا يمكنهم جهلهم وطيشهم من غرس الأشجار والكروم التي تصلح لديهم عذياً ، وتدر ريعاً يدرؤون به ما يعانونه أحياناً من مَحْل المواسم ، وإذا سعى أحدهم وأنشأ في رقعة صغيرة بستاناً أو كرماً ، لا يتورعون عن تخريبه ، وحرمان صاحبه في أول فرصة أو هوشة ، أما عددهم فيقدر بـ ٥٠٠ بيت .

الصعب

وفي شرقي جبل الأحص فرقة (الصعب) ، التي تنتمي إلى الولدة من الأبي شعبان ، وهم في قرى منعايا وجوخة وجرمكية وبرج الزعرور ورسم الغزال ورسم العيش وقبتين ودار الباقات وغيرها ، ورئيسهم عيسى الشريف في قرية قبتين .

السفارنة والعساسنة

وفي جبل الأحص (السفارنة) الذين منشؤهم من قرية سفيرة ، وهم في قرى المدينة

والحبشية والحميرية وغيرها من القرى الواقعة شرقي قرية سفيرة وجنوبي مملحة الجبول ، ومثلهم (العساسنة) الذين منشؤهم من قرية عسان القريبة من حلب ، وهم في قريتي صفيرة ورسم البساس ، وهؤلاء أصلهم فيا زعموا من البقارة .

الحديديون

وفي جبل الأحص أيضاً قسم من الحديديين فرقة (الأبرز) في مشيخة أحمد المشيعل ، وهم في قرى هوبر والهزاني والحيانية ، كما أنه في مطخ قنسرين من الحديديين فرقة (الأبي شهاب الدين) في قرى تل كلبة والبراغيدي وطويحينة وأبي الظهور والمرحمية والعوينات ، وشيخ فرقة الأبي شهاب الدين هو محمد الملقب بأبي جاسم ، وهو ملاك ومزارع كبير في تل كلبة ، وهاتان الفرقتان تحاولان الخروج عن عشيرة الحديديين والاستقلال عن الشيخ نواف ، وقد جرت في المدة الأخيرة بينه وبينهم مشاحنات ومقاتلات لم تنته بعد ، ويعد جنوبي سهل المطخ من مناطق الحديديين ، وقرية طويحينة مقر أسرة رئيسهم الأكبر الشيخ نواف الصالح ، ومثلها قرية البوبدر التي شرقي محطة أبي الظهور .

الأبوليل

ينتسب هؤلاء إلى عقيدات الفرات ، وفي قول أنهم من لواحقهم ، وأنهم في الأصل من شمر عبدة ومن أرومة عقاب بن عجل ، نزحوا منذ ٩٠ ـ ١٠٠ سنة من سقي الفرات ، حيث لا يزال لأكثرهم منازل في قرية القطعة كما ذكرناه في بحث العقيدات ، وجاؤوا إلى أنحاء المطخ بقيادة الحاج مصطفى العلي ، واستقروا في قراهم التي هي من أملاك الدولة في غربي المطخ كجزرايا وزمار والعثمانية وتل علوش ورأس العين ، وعددهم ٣٠٠ بيت ، وبعضهم لا يزال رحالة ، يتجمعون في الخريف في ناحية الحمراء ، وينضمون في نجعتهم إلى الموالي في جبل البلعاس ، ويعدون من لواحقهم ، وكان شيخهم إلى عهد قريب الحاج مصطفى شويطية ، وكان ذا نفوذ في عشيرته ، وحضري في بيته ومعيشته ، ولا ينجع مع العشيرة بل يبقى في قريته جزرايا ، ويكل القيادة أثناء النجعة إلى دلبش الخرفان ، ولما توفي في عام ١٣٦٢ هـ خلفه ابنه نوري المتعلم في مدرسة تجهيز حلب ، ومن العقيدات قسم لم

نتحقق إلى أي فرقة ينتمون ، يقيمون حول قرية كفر تخاريم في قضاء حارم ، وفرق العقيدات في أنحاء المطخ هي الهرامشة والزغيفات والفواضلة والبوعجيل والبوتامر والبوحمد والبوحليحل ، فالهرامشة يقطنون قرية العثمانية والزغيفات في قرية زمار والبقية في قرى تل طوقان وتل علوش ورأس العين .

الولدة

ولدة جبل سمعان وإدلب أصلهم من الأبي شعبان ، ومن فرع الولدة الذين ذكرناهم في بحث قضاء الرقة ، وقد وصلوا إلى جنوبي قضاء جبل سمعان في أوائل القرن الهجري الماضي ، وقطنوا في قراهم التي هي من أملاك الدولة في غربي المطخ كطلافح وإباد ومربودة وزيارة وكفر حداد وهوارى وأم جرين ومحاريمه ، ومنهم عدد قليل لا يزال رحالة ينجع جبل الشبيث ، وعددهم ٤٥٠ بيتاً ، أوجههم وأكثرهم ذهاباً وإياباً للحواضر ، ومراجعة للدوائر هو الشيخ جميل بن عيسى رئيس فرقة الحويوات منهم ، أما فرقهم فهي الحويوات والترن والعمالجة والمسرات والصعب ، وهؤلاء الصعب في جبل الشبيث كما قدمنا ، وهؤلاء الولدة ما برحوا يحترمون محمد الفرج الشيخ الأكبر لولدة الفرات ، ويتأثرون بنفوذه ، وإن كان عن بعد .

الأبو شيخ

أصلهم من عشيرة الأبي شعبان الضاربة في قضاء الرقة ، جاؤوا إلى جنوبي حلب في غرة القرن الهجري الحالي ، عقب نزاع بينهم وبين العقيدات ، يقيمون في قرى أملاك الدولة في المطخ كقناطر وبرقوم والزربة وقمارى وعطشانة ودلامة وأم القراميل وبويضة وحميدي ، ومنهم عدد قليل ينجع في الشتاء إلى البادية ، لكنه لا يتجاوز جنوبي الأندرين وأسرية ، وعددهم ٤٠٠ بيت ، وفرقهم الوقاد والشاهر في كفر عبيد ومريين والأبو سالم والعميرات والعلي في تل العلي ، ورئيسهم عبد الرزاق العبد الكريم الحاج حسن ، وكان أبوه عبد الكريم يقيم غالباً في حلب ، وهم لانتسابهم للأبي شعبان يعدون أحلاف ولدة حلب .

البقارة

أصلهم من بقارة دير الزور ، انفصلوا عنهم عقب النزاع الذي لم ينقطع خلال القرن الهجري الماضي بين البقارة والعقيدات ، وهؤلاء متحضرون ، ويقطنون في الجنوب الشرقي من حلب في قرى حدادين وعسان وتركان وتل عابور وأبو صطيفة والحتاني ، ورئيسهم إبراهيم الحمادين ، وعددهم ٦٠ بيتاً ، ومنهم قسم في ناحية كفر تخاريم في قضاء حارم ، وقسم في نفس حلب يتبعون راشد الطيار البقاري من وجهاء حي باب النيرب ، وهو الوسيط بين أتباعه وبين الحلبيين .

الوهب

في قضاء جبل سمعان فريق من الوهب الذين ينتسبون إلى شمر ، وهم ينقسمون إلى العويسات في مشيخة عقلة العكاش وعددهم ٢٠٠ بيت ، والغثيث في مشيخة غثيث بن حسين العمالة وعددهم ٤٠٠ بيت ، وهم يتبدون بين جبل الشبيث والبادية حتى البشري ، وليس لديهم أراضي زراعية ، فهم رحل أهل ضرع ما عدا فخذ السياد منهم ، فقد عده القرار ١٣٢ من أنصاف الحضر ، وعندهم بضعة آلاف من الماشية التي أكثرها للحلبيين .

الأبو شعبان

هؤلاء قسم من عشيرة الأبي شعبان الكبيرة الضاربة في الرقة ، ومن فرع البو محمد ، يقيمون في جنوبي قضاء جبل سمعان « قرى أملاك الدولة في المطخ » ، في قرى كاري وقناطر وكوسنيا وبرقوم وزربة ودلامة وعطشانة الغربية وعطشانة الشرقية وأم القراميل وأبو رويل وصعبية ومريقص وشيخ زحيل وعزيزية ، وبعضهم في جبل الأحص في قرى برج الزعرور ومنعايا وجوخة ورسم العيش ، ويقدر عدد بيوتهم بـ ٦٠٠ ، وهم في رئاسة الشيخ عبد الرزاق العبد الكريم المقيم في قرية قناطر ، ويتألفون من عدة فنود صغيرة ، منضمون بسائق القرابة ، كل فندة تتألف من بضعة إلى بضعة عشر بيتاً ، يرتزقون من الزرع والضرع ، وهذه الفنود هي : المشاهده في قرية العيس (قنسرين القديمة) ، والملاحمة في الحوير ، والبو حمد في قرى الشلالة ، وعبدة موسى في جبل الأحص أيضاً .

ومن الأبي شعبان أناس في قرى كوسينـا وبـانص والرسم وتل خطري ، التي اشتهرت أخيراً بسبب فتن الموالي والحديديين .

النعيم

في قضـاء جبـل سمعـان قسم من عشيرة النعيم المنتشرة كثيراً في كل مكان ، وهم في جبل الأحص في قرى جب الخفي والمداين واصطبلات في رئـاسـة أحمـد الإسماعيل المقيم في إصطبلات ، وعدد بيوتهم ١٥٠ ، ويعدون من أنصاف الحضر .

بني زيد

يزعمـون أنهم من عشيرة بني زيـد العراقيـة ، وأنهم قـدمـوا من أنحـاء العراق في القرن الثاني عشر ، عدد بيوتهم ٣٠٠ ، يقيم ثلثهم في قريـة فـاح في قضـاء جبل سمعـان وفي قريتي جب غبشـة والسَّين وجب الكلب في قضـاء البـاب ، كما ذكرنـاه في بحثـه ، وبقيـة العشيرة تنجع البادية المجاورة حتى البشري ، وهم في رئاسة عيسى بن محمد العيسى الرمضـان المقيم في قرية فاح ، وينقسمون إلى سبع فرق ، وعندهم نحو ١٠٠٠٠ شاة و ٥٠٠ بعير ، وفرقهم الشمل والحزاب والخليلات والمحاسنة والصخر والمراشدة والجبارة .

اللهيب

في أسطورة أن اسمهم نشـأ من كـونهم أعقـاب أبي لهب عم النبي ﷺ الـذي ظـل على شركه ومناوأته لابن أخيه ، وفي رواية أن أصلهم من نجد من حول آبـار الحجـاج التي كانت لهم ، وبعـد أن كانوا ثمـة عشيرة واحـدة تفرقوا في القرن الحـادي عشر ، ونـزح كل منهم إلى جهة ، ومنها يلحظ أن اللهيب ما برحوا عريقين في بداوتهم وأنهم في درجة واحدة مع عنزة وشمر ، بحيث أن عنزيـاً إذا اقترف جريمـة يلجـأ إلى إحـدى العشـائر الثـلاث جيس وشمر واللهيب ، وهؤلاء يعطون الصحب ، أي يحمون دخيلهم ، ويهرقون دم من يتعدى عليـه ، ولا يدفعون ديته ، ومن ثم صدر في حقهم قرار خاص من المفوض السامي رقمه ٧٠ وتاريخه ٦ حزيران سنة ١٩٣٢ م بشأن اعتبارهم من العشائر الرحل .

واللهيب وإن كانوا عشيرة صغيرة قليلة العدد ، لكنهم اشتهروا بفروسيتهم وكثرة غاراتهم ، وهم كانوا أول السبب في فتنة الحديديين والموالي في سنة ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) حينما قتلوا بعض الحديديين من الأبرز حول بئر كديم ، ولجؤوا إلى الموالي ، ومشوا معهم على الحديديين في كل الفتنة ، ولما تصالح الموالي والحديديون خشي اللهيب نقمة الحديديين عليهم ، فنزحوا من قراهم ، بعد أن أحرقوا بيادرهم كلها ، ونزلوا في العلا قرب الموالي على أمل مشاطرتهم ثمرات العبث والنهب ، لكن الفتنة ما لبثت أن نشبت بينهم وبين الموالي من جراء خطف الأمير فياض الكنج فتاة بارعة في الجمال ، هي ابنة أحمد الإبراهيم الزامل من اللهيب ، ثم جرى الصلح بينهما ، كما أعيدت المياه إلى مجاريها بينهم وبين الحديديين ، وصاروا أصدقاءهم بعد أن تزوج نواف الصالح ابنة رئيسهم السابق أسعد العاشق ، وعدد اللهيب نحو ٤٠٠ بيت نصفهم رحالة وعندهم نحو ٥٠٠٠ شاة و ٥٠٠ بعير و ٥٠٠ فرس و ١٠٠ بندقية . وهم يقطنون في جبل سمعان في قرى أرجل وأرجيلات وجفر منصور وشويحة . أما فرقهم فهي الزيارة والهدبان والفرج والغنام والشباط والعوابدة والزامل والبوحسن والشيحان ومنهم فندة صغيرة متحضرة تنزل في سهل الروج بين قسطون ومحمبل ، وأخرى في قضاء إدلب في قرى جدرايا وصراريف والبدرية ، ومن أقارب هؤلاء اللهيب لهيب آخرون في أماكن مختلفة ، فقسم في الجزيرة ، بعضهم مع الفدعان ، وبعضهم مع شمر الزور ، وبعضم مع الجبور ، وقسم ثانٍ في العراق في شرقاط جنوبي الموصل ، وفي العوجة شرقي بغداد ، وقسم ثالث في فلسطين غربي نهر الشريعة بين بحيرتي الحولة وطبريا وهؤلاء نحو ١٠٠ بيت ، لهم شهرة طائلة في سرقة المواشي من قرى الجولان ، وقسم رابع في البلاد اللبنانية في أقضية صور وعكار وكسروان ، وقد قدمنا ذكرهم .

أما لهيب قضاء جبل سمعان فقد كانوا في مشيخة أسعد بن عاشق السلوم المهدي الزيارة ، وكان مشهوراً بنباهته وفروسيته ، وصلاته مع نواف الصالح شيخ الحديديين ، ولما توفي في أوائل عام ١٩٤٢ م خلفه ابنه عبدو ، ويقيظ لهيب جبل سمعان في قراهم التي ذكرناها ، وهي من أملاك الدولة في شرقي المطخ ، أما في الشتاء فالرحالة منهم ينجعون أنحاء أسرية وكديم وعين الكوم ، وقلما يتجاوزون طريق السخنة والدير .

قضاء إدلب

في هذا القضاء بعض أفاريق من عشائر مختلفة ، ففي نـاحيـة أريحـا قسم من اللهيب نحو ٢٠٠ بيت في قرى جدراية وصراريف والبدريـة ، وهم في مشيخـة حسن علي النصـار ، وقسم من العدوان نحو ٢٠ بيتاً في قرى باب الله والضاهريـة وعري وبرج هـاب في مشيخـة أحمد بن محمد الأمين السليم ، وفي ناحية سراقب في قرى أملاك الـدولـة المجـاورة لمستنقعـات المطخ بعض الحديديين كالأبي شهـاب الـدين في مشيخـة أبي جـاسم ، والإبراهيم في مشيخـة متعب بن خليف الصـالـح ، وبعض لـواحـق المـوالي كالراشـد والسعران والأسـود والبـدر والجبـاري والـدليم ثم الشطيحـات والحويوات من الولـدة ثم البوليل والنعيم والبـو شعبـان ، وهذه الفرق مر ذكرها في بحث قضاء جبل سمعان والمعرة ، وفي المطخ شرقي ناحيـة سراقب قسم من الأبي شعبان في تل خطري ، ومن النعيم في أبي الخوص ، ومن الموالي في تل الأغر .

قضاء أعزاز

في هـذا القضـاء بعض أفـاريق من عشـائر مختلفـة . منهم من عشيرة الهنـادي المصريـة الأصل في قرية مارع في مشيخة أحـد أبنـاء بيت أبو علي ، ومن البو خميس التي رئيسهـا علي الراشـد فخـذ السحيلات في قريـة كفين من نـاحيـة نبل ، ومن الغنـائم التي رئيسهـا شـلاش الـدرويش ، القـاطن في قضـاء منبج ، أفخـاذ الظواهرة والملاحـة في قرى الزيـاديـة وتلعـار وغرور وقبتان ، ومن المجادمة التي رئيسها محمد الأسود القاطن قرية المسلميـة من قضـاء جبل سمعان ، أفخاذ غنام الحمد ومدبح الحمد ومحمد الحمد في قرى أعزاز وجبرين وشيخ عيسى وتركان بارح ، ومن العجيل التي ثلثـاهـا مستقر ، وثلثهـا رحـال ، ومنشؤهـا في العراق من الجبور في قرى شمارين وشمارق وشيخ ريح وغيرها ، ولها عدة أفخـاذ ورؤسـاء ، ومن الأبو بطوش التي رئيسها يونس عبد الحميد في قضاء منبج ، منهـا هنـا فخـذ أبو خليفـة في قرى صوران ودابق وتل رفعت ، ومن بني جميل التي يرأسهـا الشيـخ كبيبـة في قضـاء البـاب ، منهـا هنـا فخـذ العصيلات في قرى دابق وصوران وقـزل مـزرعـة ، ومن العميرات التي في قضـاء عين العرب ورئيسهـا حـود الغـزال ، أفخـاذ المطر والخطـاب في قرى تلعـار وكفر نـايـا ، ومن البـو

حميدي التي رئيسها علي الخضر في قرى قنفوز ومعرسة الخان ، ومن جيس في قرية بريغيدة ، ومن الحيان في تل الحصن ومرعناز ومن العون في آق برهان ومن الدمالخة في تركان بارح ، ومن بني سعيد في مزرعة العلا ، وغيرهم ، وغيرهم .

قضاء جسر الشغر (سهل الغاب)

حينما يفيض الماء في وادي الغاب بعد طغيانه من نهر العاصي وغيره تظهر أرضون واسعة ، سرعان ما تعشوشب وتصير من أخصب المراعي التي تحبها الخيل والغنم ، وحينئذ تتهافت عليها فرق عديدة من عشائر مختلفة جداً ؛ أكراد وموالي وبني خالد وجيس وحديديين ونعيم وغيرهم ، وهذه الفرق قد تحضرت ولم يعد لها ظعن وانتقال إلا قليلاً ، وربما مكثت كلها في قرية واحدة ، على أن ينعزل كل منها في حي خاص ، وهم يقيمون في الشتاء في أكواخ مغطاة بالأسل والحصير ، وفي الصيف في ملاجئ من الحصير والقصب ، يصنعونها على ضفاف مستنقع الغاب ، وزراعتهم الأساسية هي الذرة البيضاء ، فالأرض البارزة من تحت الماء والمغمورة بالغرين تبذر دون أي تحضير سابق بالذرة البيضاء التي تنثر نثراً ، وبعد ثلاثة أيام أو أربعة تكون الذرة قد نفذت في التراب الموحل ، فتشعل النار في الأسل الباقي في الأرض ، فالرماد الحاصل يزيد في خصب الأرض ، ويقعد هؤلاء الأعراب بانتظار الحصاد ، فيجنون من الواحد ٢٠٠ ـ ٣٠٠ مثل ، هذا والمشيخة في كل فرقة في يد مخاتير ينتخبهم مجلس الشيوخ ، لمدة طويلة قليلاً أو كثيراً ، وتنحصر سلطتهم في قريتهم ، إلا أن رئيس فرقة الخطاب واسمه الشيخ سليم الخطاب صاحب نفوذ واسع على جميع الفرق .

وأسماء عشائر الغاب[1] وأعدادها هي : الفواطرة أصلهم من نعيم حمص ، جاؤوا إلى الغاب حول سنة ١٢١٢ هـ قريتهم قليدين ، ١٥ بيتاً . النباخنة من جيس الجزيرة ، جاؤوا إلى الغاب حول سنة ١٢٩٢ هـ قريتهم العنقاوي ، ١٨ بيت عبيدة من نعيم حمص ، جاؤوا في أوائل قرننا الحالي قريتهم فريكة ، ٨ بيوت (حمودة) من بني سعيد في قضاء

---

(١) إن أسماء عشائر أقضية حلب المندرجة في هذه الصحائف وأسماء أفخاذها والقرى التي تقطنها مقتبسة من الجداول التي أسعفني بها صديقي وزميلي العزيز الهمام الوجيه الحلبي السيد عمر بهجت الصابوني ، فله مني جزيل الشكر .

الباب قريتهم التويني ، ٧٠ بيتاً . الطوقان موالي قريتهم الشريفة ، ٨٢ بيتاً . مسلماني أخلاط من الكرد والعرب الحديديين قريتهم حويز الشمالية ، ٣٠ بيتاً . اللويسات ينتسبون إلى أويس القراني ، قطنوا في الغاب في القرن ١١ قريتهم الحويجة ، ٣٢ بيتاً . الحجاج أكراد ، كانوا في العمق ثم انتقلوا إلى الغاب في القرن ١١ قريتهم الحواش ، ٣٢ بيتاً . ناخوس من بني خالد جاؤوا في أواخر القرن ١٢ قريتهم العميقة ، ٤٢ بيتاً ، حمادي من عشيرة التركي و سواعي أكراد ، في قرية الزيارية ، ٢٢ بيتاً ، هذا وفي الجبال والسهول المحيطة بهذا القضاء أخلاط من عشائر مختلفة من أهل الزرع والضرع ، منهم شرذمة من (جيس ـ قيس) ٤٠ ـ ٥٠ بيتاً ، في قرية مريمين وتل أعور ، يزعمون أنهم نزحوا من الجزيرة منذ أكثر من سبعين سنة ، ومن البقارة ٨٠ ـ ١٠٠ بيتاً في قرية باريشا ، نزحوا من أنحاء دير الزور منذ ثمانين سنة ، ومن التركي لا قرية لهم ، يتجولون في الجبل الوسطاني لتربية الماعز والبقر وهم نحو ٣٠ بيتاً ، نزحوا من أنحاء حماة منذ ثمانين سنة ، ومن النعيم ٨٠ بيتاً ، يقيم أكثرهم في قرية فريكة ، وبعضهم في كل من قريتي بشلمون وبسندينا ، نزحوا من أنحاء حمص منذ قرن ، ومن الخزاعلة يزعمون أن أصلهم من العراق ، فإذا صح ذلك يكونون من عشيرة الخزاعلة العراقية ، المعروفة في لواء الديوانية على الفرات ، وهم متفرقون في منطقة الغاب ، وعلى ضفاف بطائحه ومستنقعاته ، ربما بلغوا خمسين بيتاً ، وأكثرهم في قرية الحويز التابعة قضاء المعرة ، ومن العدوان في قرية بطلايا نحو ٣٠ بيتاً ، نزحوا من الجزيرة منذ عهد بعيد ، ومن الفريجاوية فندة من الموالي ، في قرية الزيارة ٤٠ بيتاً أهل زرع ويربون الجاموس والبقر ، انفصلوا عن الموالي منذ قرن ، و الدمالخة وقيل المجادمة في قرية قرقور ، نازحون من قضاء الباب ومنبج ، أهل زرع ومربو جاموس وبقر ١٠٠ بيت و (المداهيش) فندة من توابع الحديديين ، يقيمون في قرية المنطار ٣٠ بيتاً ، نازحون من قضاء المعرة منذ قرن ، يتخذون البيوت البيض ويظنهم الرائي من الأبي خميس ، و أكراد في قرى بزيتا وكفير وبللوا ١٢٠ بيتاً ، نازحون من أنحاء العمق منذ قرن ، ومن الأبو جرادة من فرقة الخليفة من الموالي في قرية قسطون ٥٠ بيتاً ، ومن الهنادي في قرية الريادية ٥٠٠ بيتاً ، ومن القبيعات في عين السودة ، ١٠٠ بيت ، ومن شمر في قرية مغيدلة وبسندينا وخراب خليل ٥٠ بيتاً .

قضاء حارم

في هذا القضاء قسم من العقيدات في ناحية سلقين وكفر تخاريم نحو ٢٠٠ بيت ، وقسم من البقارة في جبل باريشا نحو ٢٥٠ بيت ، أصلهم من بقارة الزور ، وهؤلاء تحضروا ، وكادوا يقطعون صلاتهم مع أقاربهم في الزور ، وكان في سهل العمق المجاور لهذا القضاء كثير من الأعراب المنتسبين لعشائر ومنابت شتى ، إلا أن استيلاء الترك على لواء الأسكندرونة اضطرهم إلى النزوح والتشتت في أماكن مختلفة .

قضاء الباب

الحديديون الغناطسة

هم من الحديديين الأصليين الذين بعد نزوحهم من الموصل صارت منازلهم في هذه الأنحاء ، وينتسبون إلى الشيخ محمد الغنطوس الذي فارق العشيرة الأصلية في حدود سنة ١٢٤٦ هـ ، وهم يقطنون في قرى دير حافر وأم المرا وحمية ووديعة وأبو ضنة وجب الصفا وحلبية ودكواني وبغيجة ومفلسة وقصقص ورسم عبود وتبارة ماضي والتايهة ومقطع الحجر الكبير ومقطع الحجر الصغير ومروح ، وفرقهم الغناطسة والعصيبات والأبو كردي والأبو ثابت والتويمات والأبو غيث والأبو عطيري والأبو غزال والجغاتية ، ورئيسهم الأكبر هنا هو الشيخ محمد الصفوق النايف العليوي الرجو شيخ فرقة الغناطسة ، ويذكر أن أباه صفوقاً كان ذكياً ونشيطاً جداً ، أما هو فيعد من فرسان البادية والمغاوير ، ومن أغنيائها المعدودين ، وهو شريك آل المدرس في حلب ، وصديق كل رؤساء العشائر ما عدا نجيب الياس رئيس الكيار ، وقد صاهر نواف الصالح وبذلك صار نفوذ نواف يمتد إلى الغناطسة ، بعد أن كان هذا النفوذ لمجحم بن عبيد . وللشيخ محمد ولدان فيصل وأحمد وأخ اسمه هاشم وثلاثة عمومة جدعان ومجول وهزاع ، وعدد بيوت هؤلاء الحديديين ١٠٠٠ منهم ٥٥٠ رحالة و ٤٥٠ حضر .

الوهب

قد تقدم أن بعضهم في قضاء جبل سمعان ، وأن أصلهم من شمر ، أما اللذين في قضاء

البـاب فهم يقطنون في قراهم التي من أملاك الـدولـة ، كتفريعـة الكبيرة والصغيرة ومغـارة ومشرفة وأبو جبار وخربة كيار ولقيطة ومزبورة ورسم الحمير ورسم سرحـان ، وقليل منهم في قرية مقتلة في قضاء منبج ، وقسم الرحالة منهم في مشيخة مرعي الحاج حسن العمالـة ، وهو من الرؤسـاء الطيبين ، يسـاعـده أخـوه غثيث ، وقسم المستقر منهم في مشيخـة إبراهيم النهار ، وينازع مرعي في الرئاسة حسين الذهب رئيس فرقة السيـاد ، والرحـالـة ينجعون البادية عن طريق مسكنة وعنز والرصـافـة ، ويشتون في جبل البشري ولا يتجـاوزونـه ، ويردون مثل الأبو خميس آبـار أمبـاج والرصـافـة وبير راهوم ، وعـدد بيوتهم ٦٠٠ ، نصفهم رحـالـة ونصفهم مستقر ، وعنـدهم ٤٠٠٠ شـاة و ٥٠٠ بعير ، وفرقهم المريطـات والسيـاد والعويسات والكليش وضاهر ، وكلهم يعد من الرحالة إلا فرقـة السيـاد فتعـد من أنصـاف الحضر بمقتضى القرار رقم ١٣٢ ، وأصل هؤلاء الوهب من شمر كانـوا يتبـدون في الجـزيرة في أنحاء دير الزور والخابور ، والآن يعدون من أهدأ العشائر وأصلحهـا ، بحيث لا يـذكر لهـا أعداء ، ماعدا العفادلة الذين سبق أن آذوا الوهب كثيراً .

الكيار

يزعمون أن أصلهم من العراق ، وأن لهم ثمة بقايا في قضائي طويريج والهنديـة شرقي بغـداد ، وأنهم جـاؤوا إلى بلاد الشـام في أوائـل القرن الحـادي عشر ، وقـد ذكرهم السـائـح الدانيماركي نيبوهر في سنـة ١١٨٠ هـ وعـدهم من عشـائر حلب ، وهم بعـد أن كانوا متحـدين تنـازعـوا وانقسمـوا إلى كيـار الجـولان وكيـار حلب ، وقـد التحـق كيـار الجـولان بعشيرة الفضل ، ويعـدون ثمـة نحو ١٠٠ بيت ، وقـد تقـدم ذكرهم هنـاك (ص ٣٩٤) ، أمـا كيـار حلب فقد انضموا أولاً إلى الموالي في عهـد رئيسهم الحـاج إدريس ، ثم وقعت حـادثـة قتل ، حملتهم على الانضمام إلى فرقـة الأبرز من الحـديـديين ، ثم وقعت حـوادث قتـل أخرى ، حملتهم على الانفراد ، وصاروا من ذلك الحين (سنـة ١٣١٠ هـ) مستقلين ، على أنهم يميلون إلى الحـديـديين أكثر ، وقـد استنجـد بهم نواف الصـالـح حينمـا احتـدم الخـلاف بينـه وبين الموالي ، هذا وكل فرق الكيار من أصل عراقي ، إلا فرقة القرامطة فإنها من جيس ، وعـدد الكيار نحو ٥٠٠ بيت ثلثاهم رحل ، والثلث حضر يظل في المعمورة . وعندهم ٢٥٠٠ شـاة و ٦٠٠ بعير و ٥٠ فرس و ٣٠٠ بنـدقيـة ، أمـا الفرق فهي العـواد والقرامطـة والبـو عبـد الله

والحمران والبو بلد والبو حديد والعركش وجميعهم في مشيخة نجيب بن الياس بن الحاج إدريس بن محمد بن عواد ، وهذا الشيخ هو كبير فرقة العواد ، ويذكر أنه لين العريكة ممدوح السيرة حسن الإدارة ، وهو صديق الشيخ نواف الصالح رئيس الحديديين ، ويستنير بإرشاداته كما هو صهر محمد صفوق الرجو شيخ الحديديين الغناطسة ، والشة قبل نجيب وأبيه كانت في يد بيت محمد القاطوف الذي له الآن أحفاد ، ثم على أثر ضعفهم ، انتقلت إلى الياس الحاج إدريس ثم إلى ابنه نجيب ، وقرى الكيار في قضاء الباب هي جقال الكبير وقورت ويران وكاوكلي وتلتورين ، وفي قضاء منبج عريمة ، وتعد الكيار من العشائر الرحالة الغنامة الصغيرة ، ذات النجعة المتوسطة ، وهم ينجعون في الشتاء أنحاء عنز ويبلغون جبل البشري أو وسطه ، وينزلون في القيظ أنحاء العريمة بين الباب ومنبج ، وقد يبلغون قضائي أعزاز وجبل الأكراد ، وسوقهم التجاري الباب وأعزاز وحلب ، وهم على صلات حسنة مع البدو والحضر .

البو خميس

عشيرة منفردة تعد من الرحل ، أصلها فرقة منشقة من عشيرة الدليم العراقية ، جاءت إلى ديار الشام في أواسط القرن الثاني عشر ، ونزلت في بادئ الأمر قرب دير الزور ، في الخميسية قرب معادان فسميت بأبي خميس ، أو سميت القرية باسمها ، وانصرفت إلى الزراعة ، ولكن ظلم ثريا باشا متصرف لواء دير الزور ، حملها في حدود سنة ١٣٠٠ هـ على هجر الزراعة والانصراف للتبدي ، وهم الآن من حلفاء الأمير مجحم رئيس الفدعان الولد ومن حواشيه ، وهم على أحسن الصلات مع كل جيرانهم إلا عشيرة جيس التي انضمت للأتراك ، فقد ناوشتها هذه ، وسلبتها مراراً ، وعدد الأبي خميس نحو ٦٠٠ بيت وعندهم ٣٠٠٠ شاة و ٤٠٠ بعير و ٢٠٠ فرس ونحو ٤٠٠ بندقية ، وأكثرهم بداة رحالة ، وقليلهم يبقى في المعمورة ، وفرقهم الحسن والحسين والراشد والبدر والحازم والجدعان والحمرو ، وهم في مشيخة حسين بن علي بن محمد الراشد ، وهو مستقيم السيرة ، محمود السمعة ، حسن الإدارة ، وهذه المزايا جعلته مقصوداً في الغالب كحكم في اختلافات العشائر ، ويذكر في هذه العشيرة حمدان الهمشر الشهاب رئيس فرقة البدر ، وهو يضارع الشيخ حسين بنفوذه ، وتعد البو خميس من العشائر الغنامة ذات النجعة المتوسطة ، فهم يقيظون في

أنحاء بحيرة الجبول ودير حافر والباب ومنبج ، ويشاركون بعض الحضر في زراعة بعض الأرضين ، وسوقهم التجاري الباب ومنبج وحلب ، أما في الشتاء فينجعون كالوهب جبل البشري وسبيلهم إليه من مسكنة (بالس) وعنز والرصافة ، أو يعبرون الفرات من شمس الدين إلى الجزيرة ويمرون من قرب الرقة إلى الشامية ، ويبلغون شمال شرقي البشري ، وقلما يتجاوزون هذا الجبل ؛ إلا أنهم في بعض السنين يدخلون الحدود العراقية ، ويبلغون القعرة ، وقد نكبوا مثل بقية العشائر التي كانت هناك في ربيع عامنا هذا (١٩٤٧ م) بالعاصفة الرملية الهوجاء التي قضت على عشر ماشيتهم ، ولولا أن هرعت سيارات قوى البادية ، ونقلتهم هم وماشيتهم لهلكوا وإياها من الجوع والعطش ، وللأبي خميس مزية صار يشاركهم بها غيرهم من البدو ، وهي أن خيامهم في الصيف تكون من القطن الأبيض ، لأنها أقل حراً من الخيام المنسوجة من شعر المعز الأسود ، لكن هذه الخيام لا تستعمل في الشتاء ، لأنها إذا ابتلت بالمطر يزداد ثقلها ، فلا يمكن حملها ، بينما خيام الشعر لا تمتص الماء ، لذلك يتركون الخيام البيض في المعمورة ، ويحملون في نجعتهم الخيام السود .

الأبو بطوش

عشيرة متحضرة تحسب من بني سعيد المذكورة في قضاء منبج ، لكنها تنتمي إلى عشيرة العبيد في العراق ، عددهم ٢٥٠ بيتاً . أكثرها في قضاء منبج ، وبعضها في قضاء الباب في قرى أم اشكيف ومران وسرحة وسريجة وصويران وتلورين وتادفيه وجقال صغير ورسم الحرمل الإمام وقورت ويران ويلانلي ، وهم في مشيخة يونس العبد الحميد المقيم في قرية عوسج الكبيرة من قضاء منبج ، وليس فيهم أفخاذ ، ولا ينجعون البادية إلا قليلاً ، ومنها فرقة عددها ١٤٠ بيتاً استقرت في قضاء أعزاز في قرى اخترين وكريبة ويحمول .

الحديديون الأبرز

من فرقة الأبرز الحديدين هنا قسم في قرى أم طماخ وجب مخزوم وسكرية الكبيرة وميل ويران ، والأبرز في مشيخة أحمد المشيعل المقيم في قرية الهزانة في جبل الأحص ،

وهو عارفة ، مشهور بدقة أحكامه ، وحسن سمعته . ومن الحديديين أيضاً فرقة الأبي غزال في قريتي البويهج وأم عدسة كريدية .

المجادمة

فرقة من عشيرة بني سعيد المذكورة في قضاء منبج ، مختارها عيسى الضاهر ، لكنها تتبع شيخ بني سعيد شلاش الإبراهيم الدرويش المذكور في بحث قضاء منبج ، والمجادمة في قضاء الباب يقطنون قرى البويهج وأم عدسة عجمي وأولاشلي وأم خرزة وبش جرن وجب خفي ورسم سرحان وزرزور وسكرية الكبيرة وسكرية الصغيرة وعجمي وقبر المعزى وكورهيوك ، ولهم في قضاء منبج خربة الشياب ، وفي قضاء جرابلس قرية حاجي كوسا ، ورعاتهم يصلون إلى جبل البشري ، وليس لهم أفخاذ .

النعيم

فرقة من عشيرة النعيم المشتتة في كل بلاد الشام ، أينما ذهبت تعثر عليهم ، وهم هنا لا يزالون رحلاً ، لكن لهم أملاك في ناحية دير حافر في قرى رسم الخباز ورسم الشيخ ومنظر الصفر ، وشيخهم الحاج خليف الخرفان .

العون

فرقة من عشيرة بني سعيد المذكورة في بحث قضاء منبج ، منازلهم في ناحية دير حافر في قرى أم خرزة نباتة ورسم الكما ورسم الحرمل الإمام وقصر البريج ، ومن هؤلاء قسم في قضاء منبج ، تقدم ذكرهم في بحثه ، وقسم في قضاء أعزاز في قرية آق برهان .

الأبو عاصي

فرقة من الأبي خميس الذين تقدم ذكرهم ، يقطنون في قرى تل اصطبل وريان ورضوانية وأم العمى وعددهم ٥٠ بيتاً ، وشيخه أحمد الحمى الحاجي .

الأبو جميل

حضر ، يقطنون في ناحية دير حافر في قرى تل أيوب ورسم العبد وأم أركيلة وتل

أحمر وشيخ أحمد وحرازة وأم ذليلة والعاصية وخساف والكرين وزبيدة ، وهم في مشيخة الشيخ كبيبة المقيم في قرية الشيخ أحمد ، وعددهم ١٠٠ بيت ، ومنهم ٢٠ بيتاً رحالة ، أفخاذهم العساف والنجمات والزيادة والعيان ، ينتمون إلى بني تميم في الحجاز ، ويزعمون أنهم بعد أن تبدوا في نجد والعراق ، بلغوا قضاء الباب في أوائل القرن الثاني عشر .

الفردون

حضر ، يقطنون في ناحية دير حافر في أخصب قرى قضاء الباب ، الممتدة على طول نهر الذهب ، وهي قرى عربيد وخربة الجحاش وعيشة وسرحان وشريع ونجارة وتل الحطابات وعبوية وقطر والعوينات وكويرس الشرقي والغربي وعجوزية ، وشيخهم موسى الصفوق ، وعددهم ٤٠٠ بيت يقيمون ولا ينجعون ، وهم ينتمون إلى فرع محمد الشعبان من عشيرة الأبي شعبان التي ذكرت في قضاء الرقة ، جاؤوا إلى قضاء الباب في أوائل قرننا الحالي ، وأكبرهم وجاهة محمد بن مصطفى الخلف ، وفرقهم السلامة والشحمى وحسين الفردون والجلانطة .

الأبي سبيع

نصف بدو يقطنون في ناحية دير حافر في قرى قصر البريج وعويشية وتل مكسور وأم خرزة ورسم العلم ، وهم ينتمون إلى فرقة السبخة من الأبي شعبان ، وعددهم ١٠٠ بيت مقيمين و ٢٠ بيت رحالة ، وشيوخهم حسن الحاج حسين الحسن وحسين الفرهود ، وهم في نجعتهم يبلغون عنز جنوبي بالس .

التوامات

أعراب لم يبلغنا عنهم إلا أن أصلهم من الحديدين ، الذين أسكنهم أصلان باشا ، وأنهم يقطنون في الغرب الجنوبي من قضاء منبج .

الهنادي

هؤلاء نصف حضر من بقايا الأعراب المتطوعة في جيش إبراهيم باشا المصري ، حينما

استولى على حلب في سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) ، وهؤلاء البقايا من عشائر مصرية مختلفة في الأصول والمنابت ، ظلوا في البلاد التي حلوها وتزوجوا وتناسلوا ، وألفوا عشيرة موحدة سميت بالهنادي نسبة إلى الهنادي الذين كانوا أكبرها وأقواها ، والموجدون منهم في شمالي الشام يقطنون قضاء الباب في قرى الجبول وحقلة والجديدة وتل سبعين ، وهي قرى محيطة بملحة الجبول ، ويقطنون في قضاء منبج قريتي أبي قلقل وخربة العشرة وهما من أملاك الدولة ، وفي قضاء عين العرب في قريتي قره موخ ورسم الغزال التابعتين لناحية صرين ، وفي قضاء جسر الشغر في قرية الزيادية ، وفي قضاء المعرة في قرية خان شيخون ، إذ كان الهنادي في الأصل بدواً رّحل ، من أعراب القطر المصري ، لم تختلف عليهم البيئة في هذه الديار الملآنة بالعشائر ، وهم بعاداتهم العشائرية يودون كل قسم لوحده ، حينما يقع قتل في عشيرة غريبة عنهم ، فهنادي أبي قلقل يدفعون الدية لوحدهم ، وهنادي الجبول لوحدهم وهكذا ، إلا أنهم يتزوجون من بعضهم ومن العشائر المجاورة ، ومنهم قسم بادية رحل ، يعرفون بالبيايعة تحت راية ابن موينع ، رئيس إحدى فرق الأسبعة الأقمصة ، وعلاقة هؤلاء مع بقية الهنادي ثابتة ينجدونهم إذا ندبوهم للنائبات ، وعدد البيايعة ٢٥٠ بيتاً . وعدد الهنادي الموجوين في القرى المذكورة نحو ٤٠٠ بيت ، وهم مجدون في عملهم وحالتهم حسنة ، ولا يزال لجميعهم علاقات ومراسلات متواصلة مع أقاربهم الباقين في القطر المصري ويتزاورون ، وقد كنت أرى في أبي قلقل بعض العائدين منهم من مصر حديثاً ، وفي لسانهم اللهجة المصرية ، فالذين في خربة العشرة وأبي قلقل من دمنهور وكفر الدوار ورمل الاسكندرية والعريش ، واسم أفخاذهم هنا الربيع والبشابشة ، واسمهم في مصر الجميعات وولد علي وبني عونة ، ورئيسهم هنا الشيخ ابراهيم الحسن الربيع ، وقد انتخب أخيراً نائباً عن قضاء منبج ، وهو رجل عاقل رزين ، ووجيه في عشيرته ومنطقته ، يقيم في قرية أبي قلقل ، وله عدة أولاد أكبرهم الشيخ محمد ، أما الذين في تل سبعين وحول ملحة الجبول فأصلهم من صعيد مصر ، ورؤساؤهم هنا جنيد الحاج موسى البطران واسمهم هنا البطارين ، واسمهم في مصر الصفوية والبراعصة ، أما الذين في قره موخ وفي البادية مع الأسبعة فاسمهم أبو عتيقة والبيايعة ، وفي مصر الولد علي ، ويذكر المعمرون أن الحاج بطران رئيس الهنادي كان حول سنة ١٢٧٥ هـ (١٨٦٤ م) مكلفاً بتوطيد الأمن في ناحية سفيرة وأنحاء الجبول ، وتحت إمرته قوة كافية من فرسان عشيرته

المنـادي ، وأنـه كان صـاحب حول وطول كبيرين في ذلـك العهـد ، ومثلـه الشيـخ ربيـع العبد الله جـد الشيخ إبراهيم الحسن الربيع ، كان متسلمـاً توطيـد الأمن من دير الزور إلى عينتاب ، في عهد يوسف باشا شريف متصرف لواء دير الزور .

بني زيد

تقدم ذكرهم في قضاء جبل سمعان ، وهم هنا يقطنون في نـاحيـة دير حـافر في قرى جب غبشـة والسين وجب الكلب ، وشيخهم عيسى المحمـد العبسي الرمضـان ، وعـددهم نحو ١٠٠ بيت ، ينجعـون أنحـاء عنز وعنيز والبشري وأبـو النيتـل ، وأفخـاذهم الشمـل والصقر والحاسنة والرحيات والخراب والجـدادمـة ، وهؤلاء تبع علي المحمـد العيسي الرمضـان ، وثمـة فخذ سابع اسمه الخليلات تبع إسماعيل الحاج موسى .

قضاء عين العرب

هذا القضاء منفصل عن قضاء سروج التركي القديم ، وهو قضاء واسع الصحراء ، كثير القرى ، جيـد التربـة ، وافر الغـلات والمحـاصيـل ، وهـو يقسم بحسب سكانـه إلى أكراد وأعراب ، فالأكراد يقطنون شمالي القضاء قرب الحـدود التركيـة ، وقـد ذكرنـاهم في الفصل الخاص بالأكراد ، والأعراب يقطنون في جنوبه المجاور لقضائي الرقة ومنبج .

فالعشائر العربية هي :

الفدعان

اعتـاد الشيخ خليـل بن حـاجم آل مهيـدان أن يـوافي كل سنـة مـع قسم من أعرابـه الفـدعـان لأخـذ محصـولـه من المـزارع الكائنـة في منطقـة صرين ، أمـا فـلاحـوه فهم من العميرات ، وبعضهم من عنزة (الفدعان) ، إلا أنهم لا يقيمون في هذه المزارع إلا موقتاً ، ثم يعودون إلى منازلهم في قضاء الرقة ، حيث مقام الفدعان الأصلي ، وقد وصفناهم بـالتفصيل في بحث هذا القضاء .

العون

عشيرة مستقلة تنتسب إلى بني سعيد الذين مر ذكرهم في بحث قضاء منبج ، وهي في

القرى المحيطة بمركز ناحية صرين في الضفة اليسرى من الفرات ، وفرقهم السمعوان والعواسات والشموعة واليوسف والصلالوة والحمادات والهلالات والعبيدات والناصرة والكياكي ، ويقدر عددهم نحو ٢٠٠ بيت ، وهم حراثون في قرى يعود بعضها إلى وجهاء حلبيين ، وبعضها إلى الدولة ، وشيخهم العلي بن الحاج مستو ، وقد انفصلت فرقة منهم واستقرت في قضاء منبج ، في قرى قورد درة وخربة النجم وجرن دده ، وعدد هذه الفرقة نحو ١٢٠ بيتاً ، في مشيخة أحمد العيسى المقيم في قرية دادات .

العميرات

عشيرة مستقلة تنتسب إلى الأبي شعبان ، وهي مستقرة في قرى ناحية صرين العائدة لآل المدرس في حلب ، في رئاسة إبراهيم الجواش الحمود ، أفخاذها الخطاب والشاهر والمطرد والبوغازى والعميرية ، وعددهم نحو ٥٠٠ بيت .

قضاء جبل الأكراد

ليس في هذا القضاء من العشائر العربية سوى فندة من (العميرات) القاطنة في قضاء عين العرب ، وهي نصف حضرية مضى عليها هنا نحو قرنين ، وتنتسب إلى الأبي شعبان ، وليس لها أفخاذ ، رئيسها حمود الغزال المقيم في قرية بابليت ، وتعد نحو ١٠٠٠ بيت ، يقيمون في قرى باسوط وبابليت وكوكبة وتلحمو ، ويرتزقون بالزراعة وتربية الماشية ، وقد أصبحوا فلاحين ومسجلين في النفوس ، على أن بقية القرى لا تخلو من بعض بيوت من أفاريق الأعراب المنتسبين لعشائر مختلفة .

قضاء منبج

كل القرويين والمزارعين في هذا القضاء من عشائر القسم الثالث (الفلاليح) وهم أشتات من منابت مختلفة وأصول متفرقة ، وإليكم البيان :

الأبودبش

قيل أن أصلهم موالي ، انفصلوا عن العشيرة قبل ٦٠ ـ ٧٠ سنة ، وهم حضر ،

يقطنون قرى الدندانية والجاموسية وجتال ويران ، وعـددهم ٥٠ بيتـاً ، وهم فقراء ، شيخهم محمد سعيد .

النعيم

هم فرقة من عشيرة النعيم المشتتـة في كل بلاد الشـام ، جـاء هؤلاء إلى أنحـاء منبج في القرن الهجري الماضي ، وهم إما مزارعون في قرى أملاك الدولة وإمـا رحل ، وقراهم قـازقلي وأبو زكيج ، وشيخهم شيخ الإبراهيم ، وعددهم ١٠٠ بيت .

ولد علي

هم فصيلة من عشيرة الولد علي العنزية التي مر ذكرها في بحثها الخاص (ص ٣٥٨) ، وقد جـاؤوا وتحضروا على أثر تسليمهم أراضي من أملاك الـدولـة في عهـد أصلان بـاشـا سنـة ١٢٨٧ هـ ، وهم نصف حضر ، يقيمون في غربي منبج في قرى أم عـدسـة وفـارات ودليفـار ، وقسم منهم ينجع جبل البشري ، وعددهم ٦٠ بيتـاً ، وشيخهم محمـد الشلوط العبـد الله ، وهم أخصام الحديديين بسبب غزو جرى في سنة ١٣٤٦ هـ

الأبو بنا

هم فرقة كبيرة منفصلة عن الأبي شعبان في قضاء الرقـة ، وقسم منهـا يزعم الانتسـاب إلى عشيرة العبيد التي كانت في الجزيرة قبل مداهمة شمر ، وقـد انسـاحت منـذ قرن ونصف مع الفرات ، وبلغت ضفـافـه في شرقي منبج ، وهم حضر فلاحون في قراهم الممتـدة في سقي الفرات ، وليس لهم شيخ كبير متفق عليه ، بل لكل فخذ شيخ خاص ، ففخذ الجعـافرة في مشيخـة الحـاج مطر المـاشي ، في قرى غرة الكبيرة وغرة الصغيرة ومحشيـة الطواحين وجب النشامة وقشلة يوسف باشا وحويجة الدرة والنعيمية ، وفخذ الأبو أسـامـة في مشيخـة عبـدو الخلف الغنام ، في قرى خربـة السودة وفرس الصغيرة وجـديـدة الفرس وصنـدليـة الصغيرة وصندلية الكبيرة ، وفخذ الأبو سلوم في مشيخة محمـد العجور الأحمـد ، في قرى حمـا الكبيرة وأم جرن وحجر الأبيض وفرس الكبيرة وأم عدسة وقوخار ، وفخذ العمر في مشيخة الحـاج شواخ ، وفخـذ المكالحـة في مشيخـة حسن الحجـو وفخـذ الخطـاب في مشيخـة حسن الحـاج عباد ، وعدد الأبو بنا ١٠٠٠ بيت ، وعندهم ١٠٠٠٠ شاة و ٦٠٠ بقرة .

التوامات

هؤلاء من الحديديين ، يقطنون في جنوبي غربي منبج في قرى مروة وطحنة ومقتلة وأبو كهف ومقطع الحجر ، عددهم نحو ١٥٠ بيتاً ، ليس لهم رئيس عام ، فكل قرية تتبع مختارها دون غيره .

بني سعيد

عشيرة كبيرة متحضرة ذات فرق عديدة متباينة الأصول والمنابت ، ففي قول أن أصلها من أنحاء دير الزور جاءت من قرن ونصف ، بينما هي تدعى الانتساب إلى زبيد ، كما تدعيه أيضاً عشائر العقيدات والأبي شعبان والجبور وغيرهم ، قيل أن هذه العشيرة في أواخر القرن الهجري الماضي ، أي قبل قدوم الشركس إلى منبج ، كانت تقطن في الزور غربي الفرات حوالي مسكنة وشمالها ، ثم جاءت عشيرة الولدة وزاحمتها ، فاضطرت إلى النزوح نحو أماكنها الحاضرة في الشمال ، حتى صار أكثرها في شرقي قضاء الباب ، وقليلها في غربي قضاء منبج وجنوبي قضاء جرابلس ، وعدد بني سعيد نحو ١٠٠٠ بيت ، وشيخهم الأكبر هو الشيخ شلاش الإبراهيم الدرويش من فرقة الغنايم ، ونسبه شلاش بن إبراهيم بن درويش بن محمود بن خليل بن فحل بن خليل بن بكر بن عبيد بن محمد بن أسعد بن سعدون أمير زبيد ، ويقول الشيخ شلاش أن الذي جاء إلى ضفاف الفرات في مسكنة وشمالها كان أسعد السعدون ، والذي أنشأ مجد هذه الأسرة وامتد نفوذه هو فحل الخليل ، فهو بجوده وحسن تدبيره ، جعل الفرق المنتسبة إلى بني سعيد تلتف حوله وتؤسس هذه العشيرة المتحدة وتسمى باسم (بني سعيد) .

والشيخ شلاش المذكور ذو وجاهة كبيرة في قضاء منبج ، وعضو مجلس إدارته ، وله حرمة بالغة في عشيرته ، وقد عرفته شيخاً وقوراً صائب القول والرأي ، ويليه في العشيرة من المشايخ حيدي الأحمد وبكار هلال ، أما الفرق التي تعد من بني سعيد فهي : الجادمة والخراج والدمالخة والعون والغلاض والبوصلاح والحمدون وبني جميل والبو عتيق وعمار وغنايم وشريرات والمسرات والخنافرة والبو دبش وشمر بني سعيد وبراغشة وعجلان والبو بطوش وعجيل بني سعيد وشيوخ وجعابرة والبو عجوز والبو بنا وحسان ومغاليج وحليسات والبو سلطان وبني عصيد وحريصات ، وبعض الروايات تجعل بعض هذه

الفرق من غير بني سعيد ، كالبوبنا الذين تقدم انتسابهم لعشيرة العبيد ، والبو سلطان الذين نسبوهم إلى بقارة الزور ، والعون الذين نسبوهم إلى قيس ، والبو بطوش الذين نسبوهم أيضاً إلى العبيد .

ونذكر أن فرقة الغنايم من هؤلاء ، في قرى أم عدسة قرب منبج وأم قبيبة وأبو زكيج وتلعريش وحطابات وقنا شمالي وقنا قبلي وكابر الصغيرة ومنكوبة ، ومنهم أناس في قضاء جرابلس في قرى غنمة وقبر أمية ، وفي قضاء الباب في قريتي جبلة الحمراء ولابدة ، ومنهم في قضاء أعزاز ، وفرقة الخراج في قرى الأباش والبوير وزنغر وطوق الخليل وحلوانجي ، وفرقة الدمالخة في مشيخة سعيد الحاج جاسم ، في قرى أم جلود وجب حسن آغا وخربة الشباب وكابر الكبيرة ، المشهورة بحنطتها ، ومقبلة حسن آغا التي في جوارها مغارة صناعية هائلة تدعى مغارة أم السرج (راجع وصفها في كتابنا جولة أثرية صحيفة ٢٢٩) ، وفرقة الغلاض في مشيخة حسن الحنيظل ، في قرى تل حودان وجب الحمام مسطاحة ورسم الحمام وشيخ يحي ، وفرقة الحمدوني في قرى طحنة الصغيرة وجب الكلب الكبيرة ومجرى وسطاني ومجرى فوقاني ومحترق صغيرة ومحترق كبيرة ، وفرقة أبو صلاح في قرى كيارية وجب القهوة وجب فارس وحسرة وخفسة الصغيرة وخفسة الكبيرة ورسم عبود ، وفرقة المجادمة في قرية خربة الشياب ، لكن أكثر هذه الفرقة في قضاء الباب ، وقد تقدم ذكرها .

الأبو سلطان

فرقة كبيرة متحضرة أصلها من بقارة دير الزور ، وهي في مشيخة علي العيسى ، وقد صاروا الآن من لواحق بني سعيد ، ومن وجهائهم علي البكوري وأحمد الحاج علي وحسين الجاسم ، وقراهم أم الصفا وتل رفيع وجب الكلب وجب ناهد وجب الطويل وخربة عيوش وقب بنية وهدهد ورسم الأخضر ، ومن الأبي سلطان قسم في شرقي الفرات في الجزيرة يمتدون من تل الأحمر جنوبي جرابلس إلى صنايا ، وعددهم ٣٥٠ بيتاً ، وفرقهم الحراجلة والحداد واليوسف والرواشدة .

العون

عشيرة نصف حضر ، أصلهم من بني سعيد ، وقيل من قيس الذين بقوا في تركية ، ثم استقروا غربي الفرات في قضاء منبج ، في قرى دادات وخشفة وقلعة النجم ومجرى تحتاني ، وعددهم ١٢٠ بيتاً ، وشيخهم أحمد العيسى الجادر .

الجلاد

يزعمون أن أصلهم من نجد ، جاؤوا في القرن الثاني عشر ، يقيمون في غربي منبج وعددهم ١٢٠ بيتاً ، ورؤساؤهم حسان الهنيدي وجاسم العيسى .

العميرات

أصلهم من الأبي شعبان ، استقروا في وادي الفرات منذ القرن الثاني عشر ، وهم نصف بدو في قرى سقي الفرات ، كدادا وخشخاشة الصغيرة وجوف الأحمر .

بني عصيد

ينتمون إلى عشيرة برق في قضاء جرابلس ، وهم في مشيخة إبراهيم الحاج يوسف ، وهم يقيمون في ثلاث عشرة قرية كاوشرية وبير خلو وجب القادر وجوتة وحمام صغيرة وحي صغيرة وحي كبيرة وخرفان وطوال وغزاوية وقبر ايو ومغيرات .

الأبو بطوش

ينتمون في الأصل إلى عشيرة العبيد في العراق ، وفي يومنا إلى عشيرة بني سعيد وهم في مشيخة يونس العبد الحميد ، في قرى بطوشية وخربة الخاروف ومستريحة ومقتلة قرب بيرة ونحلية ووريدة وعوسج الكبيرة وعوسج الصغيرة ، ومنهم قسم في قضاء الباب تقدم ذكرهم .

الأبو خميس

تقدم ذكرهم في قضاء الباب ، وهم في مشيخة حسين العلي الراشد ، وقراهم هنا تل التوتون وجب هندي وخربة صليب ورسم بوخر وخربة أسود .

الولدة

هؤلاء من أنحاء الفرات ومن عشيرة الولدة الكبيرة المتفرعة من قبيلة الأبي شعبان ، وهؤلاء قد تحضروا واستقروا في قرى أملاك الدولة في جنوبي جبل الطار حتى مسكنة (بالس) ، وشادوا نحو خمسين قرية ، بعضها في ضفة الفرات ، وأكثرها في غربيها ، أي في السهول الممتدة في ناحية الخفسة جنوبي منبج ، وأكبر قراهم الخفسة الكبيرة ، وينجع بعضهم في الشتاء جبل البشري ، وعددهم نحو ١٥٠٠ بيت ، وعندهم ٢٥٠٠٠ شاة و ٢٠٠ بقرة . ويذكر أن انفصال هؤلاء عن عشيرة الولدة الأصلية وقع في حدود سنة ١٢٦٧ هـ ، وكان عددهم نحو ٣٠٠ بيت ، جاؤوا بقيادة محمد الغانم ، وسبب ذلك اضطراره إلى الفرار من وجه شمر على أثر حادثة دم ، فنزح مع فرقته الغانم ، وعبر الفرات إلى الشامية ، وبعد أن ظل بضع سنوات رحالة وغير مستقر ، أقطعته الدولة في عهد السلطان عبد المجيد من أملاكها أرضاً في جنوبي منبج ، وذلك في حدود سنة ١٢٦٧ هـ ، وفي زمن الوالي محمد باشا القبرصي ، فلحقه على أثر ذلك عدد كبير من الولدة الباقية في الجزيرة في قيادة عمه سلامة الدندن جد الشيخ محمد الفرج الرئيس الأكبر لولدة الفرات ، وانضم هذا العدد إلى إخوانه الذين سبقوه ، وانصرف تدريجياً إلى الحراثة والزراعة وبناء القرى حيث هو الآن ، ولعل انسحاب الحديديين من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربي وانسحاب بقية العشائر القديمة كبني سعيد والبو بنا والبو سلطان من الجنوب إلى الشمال حدث في الحقبة التي صارت الولدة تكثر وتمتد في الضفة اليمنى للفرات ، وهكذا تواردت فرق عديدة من عشائر الفرات ، وعمرت قرى أملاك الدولة الحاضرة في مطخ قنسرين وأنحاء منبج والباب الشرقية والجنوبية ، بعد أن كانت خراباً يباباً إلى ذلك التاريخ ، منذ أن خرب تيمورلنك منبج ، وقضى على عمرانها في سنة ٨٠٣ هـ ، ولم يكن وراء سفيرة والباب في عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ ـ ١٢٧٧ هـ) أي أثر للعمران والأمان .

هذا والسائح إذا أمعن النظر يجد فرقاً ملموساً في العادات والطبائع واللهجات بين فرق الولدة وبين جيرانهم العشائر المتحضرة المنتشرة من جبل الطار شمالاً حتى قضاء جرابلس وحدود تركية ، ويجد أن لهجة الولدة المنتسبين للأبي شعبان أقرب إلى لهجة البدو وكذلك عاداتهم ، فأكثرهم يقتنون الخيل ويعنون بها ، وبينهم الفرسان المجيدون يتفاخرون

بالكرم وإقرار الضيف ، ويهرعون إلى نجدة بعضهم ، وأسباب هذا الاختلاف بين العشائر الشمالية والجنوبية في قضاء منبج ، هي أن أراضي هذا القضاء كانت مقسومة فيما مضى بين الأعراب والتركمان ، فكان الأعراب ينزلون جنوبي جبل الطار إلى عنز وعنيزة في البادية وهم من (الشوايا) ، وأكبر عشائرهم بنو سعيد والبو بنا والبو سلطان ، وكان التركمان ينزلون شمالي الجبل المذكور وحوالي منبج حينما كانت خراباً بلقعاً ، ولما قدمت الولدة من الجزيرة دفعت هذه العشائر المتحضرة عن منازلها إلى الشمال ، وهذه دحرت التركمان واحتلت أراضيهم ، ويقال أن هذا الحادث وقع في حدود سنة ١٢٦٧ هـ كما قدمنا ، وقد ظلت الحالة على ماهي عليه حتى يومنا .

وبينما لقب شوايا يطلق على الأعراب المتحضرين الساكنين في القرى والضياع في قضاء منبج وغيره مما هو في سقي الفرات ، نجد الولدة لاترضى أن يطلق عليها هذا اللقب ، الذي يشتم منه معنى الضعة والمسكنة ، ويدعي شيوخهم أنهم من الأبي شعبان الذين هم من زبيد اليماني الأصل ، وأنهم جاؤوا العراق في زمن الفتح الإسلامي ، وبعد أن تم الفتح نزلوا ضفاف البليخ والخابور ، وتوزعوا ونبتت فرقهم الحالية ، وهم يرفعون نسبهم إلى عمرو بن معدي كرب الزبيدي ـ كما يفعل عقيدات دير الزور وجبور الجزيرة ـ وأن بينه وبينهم أربع وعشرون حلقة ، ومن عمرو بن معدي كرب المذكور يقفزون قفزة واحدة إلى ملوك حمير حكام اليمن ، وهو زعم لا يطمئن الباحث إليه لفقدان الدليل وبعد العهد ، على أن الكبير والصغير منهم حتى الرعاة إذا سئل عن أصله يجيبك أنه زبيدي ، وهم في معرض التحبب يخاطبون بعضهم بعضاً يازبيدي ، وما زال هؤلاء رغم مضي نحو قرن على توطنهم بيوت المدر أقل معرفة وعناية في الزراعة من بقية العشائر القاطنة حول منبج .

ورئيس عشائر الولدة في قضاء منبج هو الشيخ فصيح الجاسم الغانم ؛ وهو مزارع كبير وذو بيت فسيح في قرية خفسة الكبيرة ، وقد تقدم الآن في السن ، وصار ينوب عنه في الوجاهة ابنه الشيخ محمد أحد نائبي قضاء منبج ، ويشاطر الشيخ فصيح وابنه في الرئاسة أحد أبناء عمومته ، وهو الشيخ رأفت الغانم وهو صاحب قرى عديدة في منطقة الحمر ، ويقيم في قرية رأس عين الحمر ، ويحسب من أبرز رجالات العشيرة ثروةً وثقافةً ،

ويذكر من الشيوخ أيضاً هدى الخلف المقيم في قرية أربعة الكبيرة ، وهو ممدوح السيرة في صدقه واستقامته ، ولا يزال جميع هؤلاء الولدة ورؤساءهم يقدمون عليهم الشيخ محمد الفرج السلامة الدندل رئيس الولدة الأكبر ، وعميد آل الناصر المقيم في قرية الصفصافة في الضفة الشامية من قضاء الرقة .

أما فرق الولدة هنا فهي البو مسرة ؛ وهي أكبر الفرق عدداً ، والوردات والجعابرة والبو مانع وخفاجة والغانم والجعابات والبو حسن والصعب ، ففرقة البو مسرة في مشيخة محمد الغانم الحمد العجور ، في قرى بابيرى وحبوبة الصغيرة وخربة الحمرة رقواص ووردة ، و الوردات في مشيخة عمر العتيق في قرى جب خميس وجديدة مسطاحة وخربة برغوث وسودة وكسرة ، و الجعابات في حويجة إسحاق وزبن ، و البو مانع في خربة عقلة ورجم الأقرع وعطشانة وملاح ووضحة ، و خفاجَة للشيخ أحمد العريف في قرى شعيب ومسكنة وحويجة فصيح ، و الغانم في قرى الحمر التي هي ملكهم بموجب أسناد تمليك ، وفي قرى من أملاك الدولة كخفسة الكبيرة وعارودة الكبيرة وعارودة الصغيرة وعين الشاطر وعين الجاموس وغيرها ، وأبو حسن للشيخ خلف الفرج في ردة الكبيرة وردة الصغيرة وفرقة الترن منها في رسم الغزال ، و الصعب للشيخ علي الأحمد في أم رسوم وسمومة ، والجعابرة في خفية أبي قلقل .

وقد قدمنا في بحث قضاء جبل سمعان أن من الولدة أناس في عدة قرى في ناحية الزربة غربي مطخ قنسرين ، يرأسهم الشيخ جميل بن عيسى شيخ فرقة الحويوات ، ومنهم أناس في جبل الأحص ، وهم من فرقة الصعب .

وثمة في قضاء منبج بعض عشائر صغيرة ، لم يتحقق لنا أرومتها وعددها ومكانتها ، منها البَرَق بفتح الباء والراء في قرية أو شرية ، و الخنافرة في أم العظام ، ينتمون إلى الموالي ، وأبو عيسى في أم جرن ينتمون إلى الدليم ، و الحديفة في أبي كهف ، يدعون التصوف والمشيخة ، و الغراوين في جب الثور وأم عدسة لابدة ، حراثون عند الأمير مجحم بن مهيد ، والعدوان في خربة الحصان ، والمارندية في خان الشعر ، والبقارة في راطونيه وطحنة الكبيرة ، والسبخة في رسم الغزال وسمومة ، وأبو مسلم في صافية ، والحايط

في العطشانة ، وجيس في محترق الكبيرة ، و القرامطة في وريدة ، وهؤلاء من الكيار والنعيم الذين هم من فرق النعيم المبعثرة في كل مكان ، وهم هنا في قرية أبو زكيج ، وشيخهم شيخ الإبراهيم .

قضاء جرابلس

في هذا القضاء أفخاذ من عشائر شتى ظلت أصولها في قضاء منبج ، وجاء بعض فروعها إلى قضاء جرابلس ، منها قسم من بني سعيد الذين في مشيخة شلاش الدرويش المتقدم ذكره ، وهم هنا في قرى حلوانجي وطو خارتمو وغنمت ، وقسم من الغنايم المنتمين للولدة في غنمت وقبرايجة ، وقسم من أبو سلطان في طوخار سلامة وقيراطة ، وقسم من الخراج المنتمين لبني سعيد في عرب حسن صغير ومحسنلي وبلويران ، ومن عشيرة البرق في أم روثة تحتاني وبلابان ، ومن (البوبطوش) في بوزليجه ، ومن العون في بل مغار وكلكلي ومغرتبين وحويجة الحمام ، ومن حسان في أم روثة فوقاني ، ومن العكيدات في بلابان ومن الجادمة في حاجي كوسا ، ومن العجيل في قيراطة ، ومن العماري في كربيجلي ، ومن غزة في قيراطة ، ومن المغار في الصريصات .



عشائر محافظة الفرات

قضاء دير الزور

في هذا القضاء من العشائر الريفية المتحضرة : البقارة و العقيدات .

البقارة

بقارة الزور عشيرة كبيرة قديمة ، تنزل في الضفة اليسرى من نهر الفرات (طرف الجزيرة) ، ومن بعد ٧٠ ـ ٨٠ كيلومتراً غربي مدينة دير الزور إلى بعد ٤٠ كيلومتراً شرقي هذه المدينة نحو مصب نهر الخابور عند البصيرة ، وهي تعد من أكثر العشائر اختلاطاً بمدينة الدير ، ومصاهرة مع سكانها ، ناهيك بكثرة الصلات التجارية ، ووجود بعض الأسر في الدير التي تنتمي إلى بعض فروع هذه العشيرة .

وفي تاريخ هذه العشيرة وأصلها روايتان غير مدعومتين ببراهين ، شأن أكثر دعاوى الأنساب ، الأولى أنهم من بقايا قبيلتي أنمار وأياد اللتين كانتا في هذه الديار ، فإذا صح ذلك يكون البقارة مضريين عدنانيين ، وقدماء في أنحاء الفرات والجزيرة قبل الإسلام ، والرواية الثانية أنهم من أعقاب محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين ، وأنهم بلغوا أنحاء الفرات في عهد الفتوح في قيادة عياض بن غنم فاتح الجزيرة ، وهذه النسبة إلى محمد الباقر تخرج لتسميتهم بالبقارة ، لأن هذا الاسم لم يأتهم من تربية البقر ، فهم لا يعنون بالبقر أكثر من غيرهم من العشائر ، كما أنه ليس من عادة العرب أن تسمي العشيرة باسم الماشية التي تربيها ، ولا باسم المهنة التي تمارسها .

ويقول المقدم مولر الفرنسي أنهم شجعان شرسون ، وقد بذلت جهود جمة لوقف

غاراتهم التي كانوا يشنونها على أعدائهم القدماء ، كالفدعان الخرصة قوم مزود بن قعشيش وجيس ويزيدي سنجار ، وما من مرة كانت توافيهم سرايا الهجانة الفرنسية إلا ويقابلونها بالرصاص ، حتى احتاج الأمر في عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) إلى استعمال الطائرات توصيلاً لجباية الغرامة التي فرضت على خمس فرق منهم كانوا قتلوا أحد مندوبي لجنة التحقيق عن النساء الأرمنيات اللواتي بقين عند البدو خلال تهجير الأرمن في سني الحرب العامة الأولى . إلا أنهم الآن على أحسن الصلات مع العشائر المجاورة لهم.

وللبقارة فرق كثيرة متباينة في العدد والقوة ، ولا يقل مجموعهم عن ٣٠٠٠ بيت ، وقراهم تقع في منطقة الانتخاب التي لمدينة الدير ، ومن ثم صاروا يشتركون في الانتخابات النيابية ، ويفوز أحد متقدميهم وهو الشيخ راغب البشير بالنيابة عن هذه المدينة ، على أنه من العشائر المجاورة ، أما شيخهم الأكبر فهو أسعد البشير ، وهو نافذ الكلمة ووافر الحرمة لديهم .

وفي تفرع البقارة يقال أن جدهم الأعلى كان له ولدان ، عابد وعبيد ، ومملوك عزيز عليه اسمه صالح ، ويزيد بعضهم ولداً ثالثاً اسمه سلطان . فهؤلاء أعقبوا ثلاث فرق :

١ ـ العابد : هؤلاء بين الدير والكسرة مع الشيخ أسعد البشير الذي يرأس فخذ البوعرب وأفخاذ هذه الفرقة ؛ أبو عرب والخنجر والرفيع والعبد الجادر والراشد والحمد العابد ، وهذه الفرقة هي المتقدمة على غيرها بحكم وجود بيت الرئاسة فيها منذ أمد بعيد .

٢ ـ العبيد : هؤلاء بين الدير والبصيرة مع حسين الغانم الذي يرأس فخذ البومصعة الذي فيه بيت الرئاسة ، وعرافة العشيرة كلها ، وأفخاذ هذه الفرقة ؛ البومصعة والجاسم العبيد والعلي والهلامية والمناصرة .

٣ ـ البوسلطان : هؤلاء في ناحية الكسرة مع بدر العبد الله ، وأفخاذهم البورحمة والبوصالح والمشهور والبوشمس ، وبيت الرئاسة في فخذ الأبي صالح ، ويضاف إلى هذه الفرقة أفخاذ عديدة متفرقة كالبو بدران والعبد الكريم والبو حسن والبو شيخ والبو معيش والكليزات وبقارة الجبل ، والبو معيش يدعون الانتساب إلى عشيرة الولد علي من عنزة .

وقد نزح قسم من البقارة إلى الجزيرة العربية منذ أمد بعيد ، بعد أن ضاقت بهم قرى الفرات ، وتملكوا قرى في شمالي جبل عبد العزيز ، وسَمّوْا بقارة الجبل تمييزاً لهم عن بقارة الزور الذين نحن في صددهم ، أولئك في شمالي جبل عبد العزيز ، وهؤلاء شمر الزور في جنوبه ، حيث يبلغون سفوحه الجنوبية في نجعتهم ، وبقارة الجبل ينزلون في موقع الغرة غربي الحسجة ، وكانوا في مشيخة عيسى السليمان إلى أن قتل غيلة فخلفه أبنه عبد الكريم ، وبقارة الجبل يعدون من عشائر محافظة الجزيرة كما سيأتي ، وهم رحالة أهل ضرع في الغالب ، أما قرى البقارة في ضفة الفرات اليسرى فهي في ناحيتي كسرة ومراط ، وأسماؤها حسينية ومعيشية وسفيرة الفوقانية وسفيرة التحتانية وحطلة ومراط وكسرة ومظلوم وغشام وطابية وسعدوني وجديدة بقارة وجزيرة ميلاج وجزرة بو حميد وشاطي . أما منتجعاتهم ففي البراري الممتدة من غربي طريق دير الزور - الحسجة حتى سفوح جبل عبد العزيز ، حول تلول الطرمبة وأم مدفع ووادي الصماد وخربة الموزر وبئر برزان وتل التبان الجنوبية ، أي بين منتجعات الجبور والعقيدات في الشرق والعفادلة في الغرب .

والبقارة أكثر من جيرانهم العقيدات تعلقاً بالرعي وتربية الماشية ، ومما يسجل لهم بالمحمدة نصرتهم أهالي دير الزور في دفع العدوان الفرنسي في شهر أيار سنة ١٩٤٥ ، وقد أبلوا فيه أكثر من العقيدات ، ومما يذكر من أحداثهم القديمة أن مجاورتهم في الغرب للعفادلة ، وفي الشرق للعقيدات والجبور ، لم تخلوا من الاصطدام والتناحر على المراعي والمناهل ، ومن أحداثهم الجديدة أنهم بعد أن كانوا في الماضي من حزب شمر شجر خلاف قوي بينهم وبين شمر (سنجارة) في سنة ١٩٤١ م من جراء التنازع على ملكية بعض القرى ، ونشبت معارك بين جموع ببقارة الجبل وبقارة الزور وجموع شمر مع أنصارها الشرابين وأكراد الكيكية قتل فيها مئة وثمانون نفساً من الجانبين ، بينهم بعض رؤساء شمر الذين لا تفتدى دماؤهم بدية ، وخربت القرى ونهبت عروض ، وكان الفرنسيون ينفخون في أوار الفتنة حتى اتسعت واحتدمت ، ثم عقدت في العهد الاستقلالي عدة مؤتمرات للصلح ، ووضعت مقررات لم تنفذ بكاملها ، ولم تجلي الموقف بعد .

وهذه المعارك أكرهت البقارة على هجر قراها ، وتبوير أراضيها ، والحرمان من غلالها ، ولم تكفها أنعامها في كفاف العيش ، فوقعت في ضائقة شديدة .

ومن هؤلاء البقارة أناس انفصلوا عن عشيرتهم ، ونزحوا إلى شرقي حلب وغربيها وتحضروا ، وقطعوا صلاتهم بأصولهم ، أو كادوا ، وقد ذكرناهم في أماكنهم .

العقيدات

عشيرة كبيرة تعد أكبر العشائر الريفية في بلاد الشام عدداً ، وأوسعها منازلاً ، ومحارثاً ومزارعاً ، وأبعدها في باب الوثوب والمقارعة أثراً ، وهي ليست من نجار واحد ، بل مؤلفة من فرق عديدة أكثرها أصلي ، وبعضها ملتحق ، وهي غير قديمة في وادي الفرات بل طارئة جاءت واحتلت هذا الوادي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري فيما يظن ، أما المنشأ وسبب التسمية بالعقيدات ففيها أقوال ، منها أنهم قحطانيون نشؤوا من نجد من قبيلة زبيد ، ومن جدهم الصحابي الجليل عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وقد تقدم معنا في أبحاث كل من عشائر الأبي شعبان والجبور وبعض عشائر جبل الدروز أنهم ينتسبون أيضاً إلى زبيد ، ولم نقطع بمن دعواه أصح في ذلك ، ويقول العقيدات أيضاً أن جدهم الأعلى كان اسمه سالم الصهيبي ، نشأ في نجد من مجموعة قرى أو قريات منتشرة إلى الجنوب الغربي من حايل ، تدعى عقدة فسموا (العقيدات) ، ثم جاؤوا إلى وادي الفرات بقيادة عبد الله الهفل ، جد جدعان الهفل شيخ العقيدات الأكبر في يومنا ، وهذا سبب إجلالهم قدر الشيخ جدعان وآله .

وفي قول آخر أن العقيدات الأصليين هم أعقاب ثلاثة أخوة ، كامل (جامل) وكمال (جمال) وزامل ، وهناك من يجعلهم أربعة ويضم اسم زمال إليهم ، ويجعل زمال هذا مقطوعاً أي محروم من النسب ، لكن هذا القول غير مؤيد ، وهؤلاء الأخوة الثلاثة أو الأربعة أبناء رجل اسمه غنام بن علي بن سالم بن صهيبي بن مهيب بن عبد الله بن جحيش بن .. بن .. بن عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وأن علي السالم هذا هو الذي جاء بالعقيدات إلى وادي الفرات في القرن الثاني عشر ، فمانعتهم العشائر القديمة التي كانت فيه ، كالجبور والجحيش والدايم ، فقاتلوها وتغلبوا عليها ، ودحروا منها عشيرة الجبور إلى وادي الخابور الأوسط ، وعشيرة الدليم إلى وادي الفرات الأوسط في العراق ، وعشيرة

الجحيش التي حاولت أن تهينهم ، فأفنوا معظمها ، وأبعدوا فلولها نحو براري الموصل ، ثم استصفى أعقاب علي السالم وادي الفرات بين الدير وأبي كال وتوسعوا فيه ، ثم انضمت إليهم عشائر غريبة عنهم نسباً ، وإن كانت اليوم تعد منهم في الصميم ، كالأبي سرايا والأبي خابور والأبي حردان والأبي بدران والبقعان والأبي ليل والمجاودة والمشاهدة وأمثالهم ، وسموا جميعاً بعد ذلك بالعقيدات بحكم القسم الذي أقسموه على التعاقد والتناصر ، كا انضمت إليهم بعد فرق صغيرة ، وصارت منهم ، وإن كانت هي أيضاً في الأصل غريبة كالجحيش والرحبيين والمراشدة والمراسمة والفليتة ، وأهل الجرزى وغيرهم .

والعقيدات يقطنون في قراهم المنتشرة في أقضية الدير والميادين وأبي كال على ضفتي الفرات ؛ في اليمنى من البويطية إلى أبي كال ، وفي اليسرى من جديدة العقيدات إلى باقوز إزاء أبي كال . ويقطنون أيضاً في ضفتي الخابور من البصيرة جنوباً إلى تل حسين وتل الشيخ حمد في شمال الصور ، حيث تبدأ حدود عشيرة الجبور . وبيوتهم في هذه القرى ليست من اللبن والحجر ، بل هي سبابيط جمع سيباط يصنعونها من أغصان الطرفاء والغرب ، ويطلونها بالطين فتأتي أرطب من بيوت الشعر في إقليم الفرات الحار ، فهم في الصيف يأوون إلى هذه السبابيط ، وفي الشتاء إلى بيوت الشعر .

والرئاسة العليا على العقيدات في بيت الهفل ، وأكبر شيخ يمثل العقيدات في مؤتمرات العشائر هو الشيخ جدعان الهفل رئيس فرق الأبي كامل ، لكن سلطته الفعلية على فرقه دون غيرها ، ومصيبة هذه العشيرة الكبيرة هي في فقدان القيادة الموحدة ، وتخاذل الرؤساء بعضهم على بعض ، وعدم قبولهم أحياناً بانفراد الشيخ جدعان الهفل بتمثيل العشيرة كلها لوحده ، ولو أنهم يجلون قدره لاتصال نسبه بمؤسس العشيرة الأول ، ولا ريب في أن طبيعة السكنى على ضفتي الفرات المتباعدتين ، واتساع المنطقة ، وطولها البالغ في الشامية ١٦٥ كيلو متراً ، وفي الجزيرة ١١٠ كيلو مترات ، وصعودها نحو أعلى الخابور لمسافة ٧٥ كيلو متراً ، كل ذلك قد أدى إلى فقدان القيادة الموحدة ، وإلى التخاذل المذكورين ، وإلى حمل كل فرقة على اتخاذ خطة خاصة بها ، تتلاءم مع صالحها ، ومن ثم نشأ رؤساء مستقلون كل الاستقلال في تصرفاتهم عن بيت الرئاسة الأول .

أما عدد العقيدات فمختلف فيه ، يقدرونهم بـ ٨٠٠٠ بيت . وأن عندهم ٥٠٠٠٠ شاة

و ١٣٠٠ بعير ، ونخوتهم العامة الأبرز ، وهاك بيان أسماء فرق العقيدات أو عشائر العقيدات ، وأسماء شيوخها وعدد بيوت كل منها ، الأبو كامل ٢٣٥٠ جدعان الهفل ، الحسون ١٢٠٠ مشرف الدندل ، البقعات ١٢٠ عثمان العبد الله ، الأبو حردان ٢٤٠ عقلة السبيخان ، الدميم ٥٠٠ فارس الصياح ، الشعيطاط ٣٨٠ راجو الحطيطة ، المشاهدة ١٦٠ مزيد البدوي ، المجاودة ١٤٠ صالح العشبان ، الشويط ٨٦٠ برغش الحمد ، الثلوث ١٧٥٠ تركي علي النجرس ، الأبو سرايا ٥٠٠ فياض الناصر ، البكير ٩٧٠ سليمان الحمادي ، ولد الشيخ عيسى ٤٠ نجم عبد الهادي ، المشاهدة ٢٠٠ عبيد الكلش ، الأبو خابور ١٠٠٠ خزام العساف .

أما نسب الشيخ جدعان الهفل رئيس العقيدات الأكبر فهو جدعان بن هفل بن عبد الله بن علي بن ظاهر بن حمد الثاني بن حمد الأول بن علي الملقب دعيجل بن محمد بن غانم بن سويلم بن علي بن قطايع بن جامل (كامل) بن غنام بن علي بن سالم الصهيبي الذي تقدم ذكر نسبه المتصل فيما زعموا بعمرو بن معدي كرب الزبيدي ،وقد كان هفل أعقب أربعين ولداً تناسلوا ، فبلغوا الآن مئتي رجل ماعدا النساء .

ويذكر أن الجد الخامس ظاهر بن حمد الثاني أعقب ستة أبناء أنجبوا ست فرق تؤلف عشيرة الظاهر ، وأن من هذه العشيرة آل هفل ، شيوخ العقيدات جميعاً وهم في قرية ذيبان على يسار الفرات في قضاء الميادين ، ويذكر أيضاً أن الجد السابع حمد الأول أعقب أربعة أبناء أنجبوا فرقة الموسى الصالح الحمد التي في قرية الشحيل ،مابين البصيرة والحوايج ، وفرقتا الطلاع الحمد والشهاب الحمد القاطنتان في الشحيل والحريجي ، ويذكر أيضاً أن الجد الثامن علي الملقب بدعيجل ، أعقب فرقة الدعيجل التي منها أفخاذ المشالبة والضالع ، وأن الجد العاشر غانماً أعقب من ولده بكر فرقة البكير التي منها أفخاذ الحجاج ، بما فيها العنابزة والمشرف وفخذ الكبيصة والفرج ، وأن الجد الثاني عشر علي أعقب من أولاده أرحمة ، الذي منه فرقة الأبي رحمة القاطنة في قرية جرزي ، وأن الجد الثالث عشر قطايع أعقب فرقة الشويطة ، وأن الجد الرابع عشر جامل كامل أعقب الثلث وأن الجد الخامس عشر (غنام) كان له ثلاثة أبناء جامل وجمال وزامل على ما قلنا (انظر شجرة النسب الملحقة) .

هذا وما عدا الرؤساء الكبار في العقيدات الذين عددناهم ، فإن لكل فرقة أو لكل قرية مختار خاص مسؤول تجاه الحكومة ، ويمثل العقيدات في مجلس النواب نائبان ، وكلاهما من قضاء الميادين ، حيث تزدحم كثرتهم ، ويؤلفون سكان القضاء ، أما في قضاء البوكمال فالنائب حضري من سكان مركز القضاء ، رغم تفوق العقيدات في العدد بحكم تخاذل رؤسائهم هناك .

شجرة نسب العقيدات

١ ـ شجرة نسب الأبو جامل (سكان قضاء الميادين ونواحي العشارة والبصيرة والصور) ، قالوا أن جدهم الأعلى هو سالم الصهيبي ، ومنه علي ، ومن هذا غنام وساري (جد الأبو سرايا) ، فمن غنام جاء جمال جد الأبي جمال ، وزامل جد الشعيطات ، وجامل جد الأبي جامل .

أما جامل فقد أعقب قطايع وفهد (جد الثلث) ، فمن قطايع علي ومرة فمن علي سويلم ورحمة (جد الأبي رحمة) ، ومن سويلم جاء غانم ومن هذا بكر (جد البكير) ومحمد ومن بكر بن غانم جاء مرعي (جد الحجاج) وخلف وقبيصة ، ومن خلف عنبز (جد العنابزة) والمشرف وجار الله ، أما رحمة فمنه المقدام والوساط والناصر والعليوي .

وأما مرة بن قطائع (جد الشويط) فمنه جاءت الحمزات والمجاليب والخالدية والأبو عزام والجاملة .

وأما فهد بن جامل (جد الثلث) فمنه جاءت الأبو حسن والقرعان ، والأبو حسن أعقب محمد وعزام وضاهر وشويط وخالد ونصر الله الجعدان .

وأما محمد بن غانم السويلم فقد جاء منه خلف (جد الأبي خلف) وعزالدين (جد الأبي عز الدين) وعلي الدعجل (جد آل دعجل) ومن علي الدعجل جاء إبراهيم (جد المثالبة) وحسن (جد الضالع) وحمد الأول (جد آل حمد) ، ومن حمد الأول هذا جاء حمد الثاني وشهاب وطلاع وصالح الذي منه موسى الصالح ، ومن حمد الثاني جاء محمد الدعجل وظاهر الدعجل ، ومن ظاهر (جد آل ظاهر) جاء علي ومحمد وحسن وسليمان وصالح وحمد ، فمن علي الظاهر جاء عبد الله ، ومن هذا هفل ومن هذا جدعان ، وجاء

من كل أخوة علي الظاهر فرقة خاصة تسمى باسم جدها ، وتقطن في قريـة منفردة ، وأمـا القرعان الذين من أعقاب فهد الجـامل ، فقـد تفرعوا إلى الشنـان والبو عواد وحسن الأقرع وحمد المحمد .

٢ ـ شجرة نسب الأبو جمـال (سكان قضـاء البوكال) ، هؤلاء يتفرعـون إلى الحسـون والدميم والشعيطات والأبو مريح ، فالحسون يتفرعون إلى المحمد والعلي والحمود ، والمحمد إلى الأبي عبد الله والداغر والعبد الصالح ، والعلي إلى الدنـدل والخنـة والمجـاليب وعبـد اللوق ، والحمـود إلى الشـلال والعـويش والمحمـوش والحجـاج والمشعـانـة ، أمـا الـدميم فيتفرعـون إلى طوطحة وعجارجـة وآذار وعبـاس والحجـاج والجمـاج ، والشعيطـات يتفرعون إلى العليوي والعراقية والخليل .

لواحق الأبي جمال ـ البوقاعان ، المجاودة ، المشاهدة ، المراسمة ، المراشدة ، الجغايفـة ، الأبو بدران ، الأبو حردان ، الحليبية .

لواحق الأبي جامل ـ الجحيش ، الفليتة ، البو خـابور ، البو ليل ، الزبـاري ، الأبو سرايا .

تـاريخ العقيـدات القـديم ـ يظهر أن انتسـاب العقيـدات إلى عمرو بن معـدي كرب الزبيدي غير مؤيد بسند صحيح ، كما أن رجالاتهم البارزين غير متفقين على رواية واحـدة في تاريخهم القديم ، فقد ذكر المقـدم مولر في كتـابـه عن أصل العقيـدات ثلاث روايـات ، ففي روايـة ينسبهـا إلى تركي النجرس رئيس الثلث ، أن أصلهم من عقـدة في نجـد[1] وأنهم نزحوا من نجد قبل خمسة قرون ، وجاؤوا واستقروا بين حلب وحماة ، ودخلوا تحت سيـادة أمير الموالي ، ودفعوا له خوة ، ثم قبل قرنين حدث نزاع بين الموالي والعقيـدات بشـأن فرس كان أمير الموالي يرغب أخذهـا منهم ، فقـام نحو ٣٠٠ بيت منهم ، ونزح إلى الزور في أنحـاء الميادين ، وكان ينزل هذه الأنحاء عشيرة الجبور وحـدهـا في مشيخـة محمـد أمين الملحم جـد مسلـط بـاشـا الصـالح ، وكان هـذا يقطن في السويـديـة تجـاه العشـارة ، ونشبت معـارك

(١) في كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين لحافظ وهبـه ، ص ٧٥ أن عقـدة مجموعـة ست قرى منتشرة في مزارع النخيل في واد واقع إلى الشمال الغربي من حايل عاصمة نجد ، يبلغ سكانها ١٨٠٠ نفس .

استظهر فيها العقيدات ودحروا الجبور إلى وادي الخابور ، وبقي قسم من العقيدات في منطقة الموالي (حماة وحمص) ، ويعدون هناك نحو ألف بيت في مشيخة خلف الإبراهيم ابن عم تركي النجرس .

وفي رواية ثانية نسبها المقدم مولر إلى حمود الشلاش رئيس الأبي سرايا ، أن العقيدات جاؤوا من اليمن ، واستقروا في نجد قرب آبار زبيد ، ومن هناك هاجروا في عهد جده السادس علي ، ومروا بالعراق إلى أن بلغوا أنحاء الدير ، أما عقيدات أنحاء حمص وحماة فقد جاؤوا مباشرة من نجد إلى حيث هم الآن .

وفي رواية ثالثة نسبها إلى جدعان الهفل الرئيس الفعلي لفرق الأبي كمال ، والرئيس الأعلى الأسمى للعقيدات كلهم ، أن العقيدات لما جاؤوا من الجنوب بقيادة جده الهفل العبد الله ، استقروا بين التبني وأبي كمال ، وكان الجبور يشغلون الضفة اليسرى التي تجاههم ، فتعاركوا واستظهر العقيدات ، ودحروا الجبور نحو الخابور ، وكان العقيدات وقتئذ مؤلفين من عشائر متعددة مختلفة المنابت ، فاضطرت لاتقاء خطر أخصامها الكثر إلى أن تتعاقد ، فسميت بالعقيدات ، ومن هذا يظهر أنه ليس ثمة قرابة بين الأبي سرايا والأبي خابور ، وبين سواهم من العقيدات كالبكير والأبي جمال والأبي جامل .

تاريخ العقيدات الحديث ـ بعد أن استقرت العقيدات في وادي الفرات ، ودحرت منه عشائره القديمة ، كالجبور والدليم والجحيش ، وتبسطت صارت عنصر فتن وقلاقل في هذه الديار ، التي كانت مهملة في عهود الانحطاط الأخيرة للدولة العثمانية ، فقد كانت حوادث النهب والسلب ، وشن الغارات لا تنقطع ، وطريق القوافل من حلب إلى بغداد غير آمن ، إلى أن كان عهد السلطان عبد العزيز فمر المشير عمر باشا الخرواتي في طريقه إلى بغداد ، وضرب دير الزور ، وجاء بعده ثريا باشا ملك زاده والي حلب في سنة ١٢٨١ هـ على رأس قوة كبيرة ، فدخل دير الزور ، وأخضع العقيدات وغيرهم من عشائر الفرات ، وحملهم على التحضر والحرث والزرع ، وأنشأ قضاء في دير الزور وعهد به إلى قائمقام اسمه عمر باشا أبي منقور ، لنقرة كانت في أنفه ، ثم جعل أخلافه دير الزور في سنة ١٢٩٧ هـ مركز لواء مستقل ، مرتبط بعاصمة السلطنة ، يضم محافظتي الفرات والجزيرة الحاليتين وناحية تدمر وقسم من لواء الموصل .

إلا أن العقيدات لم يثوبوا إلا بعد حملات مكررة من سرايا الجند البغالة ، أخصها في زمن أرسلان باشا الذي قدمنا ذكره مراراً ، وفي زمن المتصرفين الذين خلفوه ، ولا سيما المتصرف أحمد رشيد باشا (١٣١٩ هـ) ، وقد نكبوا من حملات الجند هذه ، ومن غارات عنزة وشمر وطيء وجيس ودليم ، ومن غارات بعضهم على بعض ، وخاصة من المجاعات والأمراض السارية التي فتكت فيهم ، في سني الحرب العظمى الماضية حينما كانوا يتصلون بقوافل الأرمن المبعدين إلى ضفاف الفرات والدجلة ، ويلبسون ثياب موتاهم الهالكين بتلك الأمراض وأخصها التيفوس ، وربما لبس بعض رجالهم ثياب الميتات من النساء ، ومشى بها لجهلهم التميز بينها وبين ثياب الرجال أو للحاجة ، وقد أدركت ذلك لما كنت بين ظهرانيهم بمهمة مكافحة الجراد في سنة ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) ، إلا أنهم ما أن انسحب الترك في سنة ١٣٣٧ (١٩١٨ م) حتى ثاروا على الإنكليز الذين كانوا وصلوا من العراق إلى هذه الأنحاء . وجرت معارك عديدة في الصالحية ووادي علي وتل مدقوق في شتاء سنة ١٩١٩ م وربيعها ، دارت الدائرة فيها على الإنكليز وقتل منهم مئات ، رغم طائراتهم وسياراتهم المدرعة ، وقد أسقط العقيدات يومئذ عدداً من هذه الطائرات ، واستولوا على عدد من تلك السيارات ، وذبحوا ركابها ، كا نهبوا بلدة أبي كال ، فانسحب الإنكليز إلى وراء الحد الذي نصبوه في نقطة القائم ، وتركوا البلاد لأهلها وللحكومة الفيصلية .

وكان قائد العقيدات يومئذ في الوثوب على الإنكليز رمضان الشلاش ، وهو من بيت الرئاسة في فرقة الأبي سرايا ، ومن الضباط العثمانيين القدماء ، وخريج مدرسة العشائر في الأستانة ، وقد كان وقتئذ حاكماً عسكرياً في قضاء الرقة ، جمع جيشاً من عشيرته الأبي سرايا السباقة إلى الوثوب والحروب ، ومن عشائر العفادلة والولدة والسبخة وقسم من عنزة ، وعارك الإنكليز الذين جاؤوا من الفرات وتجاوزوا وادي حوران ، الذي هو في رأيه الحد الطبيعي بين الشام والعراق ، فقام يطردهم إلى وراء ذلك الحد .

وجاء الفرنسيون في أواخر سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) عقيب احتلالهم دمشق وحلب ، وزحفوا نحو وادي الفرات لإخضاعه ، وكانوا في قيادة الرئيس ترانكا يرافقه ويناصره الأمير مجحم بن مهيد شيخ الفدعان ومعه عشائره ، فقاومتهم عشيرة الأبي سرايا وخربت الجسور في طريقهم ، إلى أن بلغوا دير الزور واحتلوها في تشرين الأول سنة

١٩٢٠ م ، لكن العشائر لم يرق لها ذلك ، وشرعت تناوئهم ونهب الأبو سرايا قافلة عسكرية قادمة من حلب ، وهاجمت فرقتا الأبي حليحل والأبي عمرو من فرق الأبي خابور سرية افرنسية في جنوب الدير ، وفتكتا بها ، ولما قصفتهم الطائرات ، قاموا وهاجموا مطار الدير ، وأحرقوا سبع طائرات ، فخرج الزعيم دبيوفر من حلب ، بحملة كبيرة في تشرين الثاني ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) وبلغ دير الزور دون أن يلاقي عقبة في سبيله ، لأن العشائر التي في طريقه استسلمت وتوسلت بالصفح عما بدا منها ، وأعادت الأسلاب والغنائم ، ورضخت لما فرض عليها من الضرائب (قالته مجلة المشرق في عددي آب وأيلول ١٩٣١ م)

وشاءت وقتئذ حكومة دير الزور المحلية أن تستعين بهذه الحملة ، وتجبي الضرائب المتراكمة على العشائر ، وشاء الفرنسيون انتهاز هذه الفرصة لبسط رهبتهم ، فقام دبيوفر بجيشه ومدافعه وهاجم في ضفة الفرات اليسرى قرية خشام وأهلها شرذمة من العنابزة من البكير الأشداء ، وكان هؤلاء لما شعروا بالجيش أبعدوا عيالهم وحلالهم إلى الشامية ، وغيرها واستعدوا للبراز ، واستبسلوا وفتكوا بالمهاجمين ، وكان أحدهم حينما ينفذ عتاده ، يلقي نفسه في الفرات ويذهب سباحة إلى ضفة الشامية وينجو ، ثم زحف دبيوفر إلى البصيرة عند مصب الخابور ، فدافعت العشائر ولا سيا فرقة البكير دفاعاً باسلاً ، إلى أن سقطت البصيرة تحت ضغط المدافع ، وقصف الطائرات ، وتفوق القوى النظامية الزاحفة ، وتبعتها الصور التي كان فيها جنود من الترك ، وقد مني جيش دبيوفر في هذه المعارك بخسائر جسيمة ، اعترف بها الكتاب الذهبي لجيش الشرق فقال « لأن المهاجمين من الفرنسيين انطلقوا في أرض منكشفة ، تصفعها نيران عدو كثير العدد (نحو ٣٠٠٠) متمنع في استحكامات حصينة ، ومدرب على الرماية ، ويحسنها إلى حد أقصى » أ هـ . بينما ذكر لي أحد مرافقي هذه الحملة من موظفي مالية دير الزور ، أن عدد أفراد العشائر المدافعة في هذه المعارك لم يبلغ عشر العدد المذكور ، وأن استحكاماتهم لم تكن أكثر من حفر الكرود ومجاري السواقي ، وأن العنابزة المذكورين كانوا المبرزين في هذا الدفاع ، وأن دبيوفر لما دخل البصيرة أباحها ونهبها نهباً فظيعاً ، وجبى موظفوا المالية وقتئذ نحو ١٦٠٠٠ ليرة ذهبية ، وهذا فوق ما خسرته العشائر من الأموال والأرواح ، وفي الكتاب الذهبي المذكور

أيضاً أنه كان يناصر الجيش الفرنسي في هذه المعارك أبناء إبراهيم باشا الملي ، وأن الأعمال الحربية استمرت إلى أواسط تشرين الثاني ، وأخلى الجيش بعدها بلدة الميادين ، وقصفت بعدها المدافع فرق الشعيطات ، التي حاولت عرقلة عبور الجيش من الفرات إلى الصالحية ، ودارت المراسلات مع رؤساء بقية العشائر المتقدمين للخضوع ، إلى أن انتهى الأمر وساد السلام في المنطقة كلها .

لكن العقيدات لم يخضع كلهم بالمرة ، فقد كان بعضهم يتمنع أحياناً عن دفع الضرائب الأميرية ، فتذهب الحملات وتضربهم ، كما جرىمع فرقة الشعيطات في قضاء أبي كمال ، ثم كانت تفد إليهم سرايا الغزاة من العمارات على الأبي خابور ، ومن شمر علي الأبي كامل ، ويدافعونها بشدة ، وضرب بعض الأبي سرايا في سنة ١٩٢٥ م سيارة تحمل ضباطاً فرنسيين ، في موقع عين أبي جمعة ، وقتلوهم وألقوهم في جب ، فأعدم الفرنسيون القتلة ، وعذبوا ونفوا من ظنوا أنهم شركاء لهم ، وقصفت الطائرات بيوت الأبي سرايا ، وتكرر هذا الوثوب في سنتي ١٩٢٥و ١٩٢٦ م خلال الثورة الشامية الكبرى ، وفي سنة ١٩٣٠ م في مركز قضاء أبي كمال ، وتكرر من جراء ذلك قصف الطائرات ودفع الغرامات ، وقتل الأبرياء مع المذنبين إلى أن تعب العقيدات ، وخضعوا خضوعاً تاماً من ذلك الحين ، وأخرجوا من صنف العشائر الرحل ، وسجلوا في قيود النفوس ، وأدخلوا في صنف الحضر ، وأتبعوا في جرائمهم إلى المحاكم النظامية ، فانصرفوا من ثم إلى الحراثة والزراعة ، ونصبت في قراهم محركات ومضخات عديدة ترفع ماء الفرات الغزير ، وتحيي تلك السهول الخصبة في ضفتيه ، فانقلبوا بحكم العمل والإنتاج عاملاً اقتصادياً هاماً في منطقة الفرات ، لاسيا وهم كثيرو الولادة والنسل ، شديدو النماء .

وفي حادثة العدوان الفرنسي الأخير (أيار ١٩٤٥) ، الذي انتهى بجلائهم ، كان للعقيدات كافة ، ولقسم الأبي جمال منهم خاصة أعمال مشكورة .

أما وقائع العقيدات وحروبها مع العشائر فهي كثيرةومستمرة ، وأخصها مع شمر الجزيرة وعنزة ابن هدال (العمارات) ، كما لها وقائع كثيرة مع عشائر الدليم وطيء وقيس ، ومع بعضها البعض ، ومع الجبور الذين تواقعوا معهم في ربيع سنتنا هذه (١٩٤٧ م) ، من جراء الخلاف على المراعي فقتل وجرح عدد من الفريقين ، ولولا مداخلة المصفحات

والطيـارات السوريـة لتفـاقم الخطب ، وكان العقيـدات فيما مضى يـدفعـون الخـوة إلى عنزة وشمر ، قيـل أن أول من رتب عليهم الخـوة هـو ابن حريميس شيـخ فرقـة العجـاجرة من (الفـدعـان الولـد) ، ودام مفعولهـا إلى أن قـام ابن هـذال شيخ العمارات وقتل الشيخ علي النجرس رئيس فرقة الثلث من العقيدات في موقع وركة ، وعلى أثر هـذا الحـادث هـاجت العقيدات ، وشرعت تغير على البدو كلهم وخاصـة على العمارات ، ومنعت الخوة عن الجميع ، وأنزلت القاصية أي الشدة عليهم ، وذلك بتجهيز الرجال والحنشل والغزاة ، ودام الحال على هذا المنوال إلى أن قطع الفرنسيون دابر هذه الفتن ، وقد قيل أن لمشرف الدندل شيخ فرقـة الحسون اليد الطولى في رفع شأن العقيدات في معاركهم المذكورة ، وأشد أعداء العقيدات هم شمر الجزيرة ، فبينهما خلافات مستمرة على المراعي والمنـاهل ،ولطـالمـا جرت بينهما غـارات (ذكرناها في بحث شمر) قتل في إحـداهـا أخو الشيخ عجيل اليـاور في غزوة كان يقودهـا على العقيـدات داخل حـدود بلاد الشـام ، واسترد العقيـدات مـا كان أخـذه من غنمهم ، كما استردوا في وقعـة سـابقـة غنم الشيخ بنـان الهفـل التي سلبتهـا شمر ، ولم ينجـل المـوقف بين الفريقين بعـد ، بشـأن هـذه الخـلافـات المتكررة ، رغم جهـود السلطتين في المـوصـل ودير الزور .

أما فرق العقيدات القاطنة في قضاء الدير فهي الأبو سرايا والأبو خابور والأبو كامل (قبيصة) والأبو ليل ، وإليك وصفها :

الأبو سرايا

قيـل أنهم ليسـوا من العقيـدات الأصليين ،وإن أخـوالهم من عشيرة المسعـود الشمريـة النازلة في أنحاء كربلاء والمسيب في العراق ، وقيل بل إنهم ذوو قربى بعيدة مع العقيـدات ، يتصلون بهم عند أحد أجـدادهم ، وهو فيما زعموا سـاري بن علي بن سـالم الصهيبي ، وهوأخو غنـام ، وينقسم الأبو سرايـا إلى عـدة أفخـاذ : الأبو عزام والأبو عـز الـدين والأبـو شعيب والأبو حمزة والعفيشات والأبو مطر والأبو ذيـاب والموسى ، والمشيخـة في فخـذ الـذيـاب ، والشيخ الآن أحمد الفياض الناصر العبد الله السليمان الذياب ، وهو يقطن قريـة الشميطيـة غربي دير الزور ، وكانت المشيخـة في يـد حمود الشلاش العبـد الله السليمـان الـذيـاب أخو رمضان الشلاش ، ثم على أثر حوادث سنـة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) التي قتل فيهـا ضـابطـان

فرنسيان في عين أبي جمعة ـ كما قدمنا ـ وسدت المشيخة إلى ابن عمه فياض الناصر العبد الله ، ومنه انتقلت إلى ابنه أحمد ، ومنازل الأبي سرايا في الشامية بين الدير والتبني ، وهم فرقة مستقلة ونزاعة للوثوب والحروب دائماً ، نخوتهم أختهم صبحة ، ويزعمون أن أختهم صبحة هذه قتلت لوحدها اثني عشر جبورياً ، ومثلهم من شمر ، وذلك في الحين الذي استقرت العقيدات في هذه الأنحاء ، وقراهم شمالي الدير حتى مخفر التبني وأسماؤها البويطية والطريف وشميطية وخريطة وعياش والبغيلية ، وقد أنجبت فرقة الأبو سرايا وفخذ الذياب ضابطاً عسكرياً باسلاً ، هو رمضان شلاش الذي قدمنا ذكره ، وقد عمل مدة من الزمن في حركات الثورة العربية مع المرحوم الملك فيصل فعينه حاكماً عسكرياً على الرقة ، ثم نبه ذكره في مناوأة الإنكليز الذين بلغوا دير الزور من العراق ، وفي إثارة الأبي سرايا وبقية العشائر ، وحملهم على مهاجمة دير الزور في ١١ كانون الأول ١٩١٩ م ، وعلى إخراج الإنكليز من هذه الأنحاء ، ثم في مناوأة الفرنسين في بدء احتلالهم دير الزور ، واشترك بعد في الثورة الشامية الكبرى ، ولكن لم يثبت فيها وقتئذ بل آثر الانسحاب والاستسلام ، والسكنى في مدينة بيروت ، وهو الآن متقاعد في دير الزور إلى يومنا هذا .

الأبو خابور

قيل أن أصلهم من عنزة (عمارات الحبلان) ، وقيل بل هم من العقيدات ، ومن فرق الأبو كامل ، وقيل بل من حلفائهم المتقاعدين معهم ، وهم ينقسمون إلى أفخاذ الأبو حليحل والأبو عمرو والأبو معيط ، فالأبو حليحل ينقسمون إلى العلي والأبو درباس والأبو حوري والأبو عساف والأبو سويد ، وجميعهم من ناحية موحسن ، ورئيسهم يونس العبد ، وهم أغنياء بالغنم ، ولهم مراعي وآبار خاصة بهم في البادية على طريق محطة تي تري ودير الزور ، وقد بنوا هناك دوراً ، أما الأبو عمر فينقسمون إلى الأبو جرص والأبو فواز ويقطنون في قرية العبد ، ورئيسهم عيبان عبيد ، أما الأبو معيط فينقسمون إلى الأبو حسن والأبو دج والأبو دهام ، ويقطنون في قرية المريعية ، ورئيسهم محمد الهندي ، وللأبي خابور عارفة يحتكمون إليه ، وهو ابن يونس .

الأبو ليل

قال رئيسهم الشيخ صالح الموسى الصالح أن الأبا ليل ليسوا من العقيدات

الأصليين ، بـل من حلفـائهم ، وهم ينتسبـون إلى عشيرة عبـدة من شمر ، وإلى أرومـة عقاب بن عجل رئيس فرقة اليحيـا والعـارفـة المشهور ، وأن جـدهم الأعلى محمـد البشر كان نزح من نجد ، لاختلاف نشأ بينه وبين أقـاربـه ، فجـاؤوا ليلاً وتعـاقـدوا مع العقيـدات ، وهـاجموا الجبور سويـة . وفرقهم المنصور والعلي والأبي خلف والظريفـات والأبـو هـلاهـل والأبي عيسى يقطنون في قريتي الطوب والقطعة المجاورتين لمخفر موحسن ، ورئيسهم الشيخ صالح الموسى الصالح أبو الهيال الذي يصل نسبه بضيغم بن حمد بن قحطان ، وقـد اجتمعت بـه في مخفر مـوحسن ، وأجـابني على أسئلتي ، ومن الأبي ليـل قسم في قضـاء جبـل سمعـان ذكرنـاه في بحثـه ، وقسم في العراق شرقي المـوصـل ، وقسم مـع الجبـور ومـع البكير ومـع الأبي كال في قرية السيالة .

البكير

هؤلاء من العقيـدات الأبي كامل ، ومنـازلهم في الجزيرة على الفرات ، وعلى الخـابـور إلى تـل حمـد ، الـذي يفصـل بينهم وبين الخـابـور شمالي الصـور ، ومنهم فرقتـا العنـابـزة وجار الله تقطنان في قريـة خشـام الجزيرة ، ومنهم أولاد مشرف يقطنون قريـة جـديـدة العقيدات في الجزيرة أيضاً ، أما ناحية الصور التي تشمل وادي الخابور الأسفل ، فقد كانت للبكير وحدهم ، إلى أن باعوا أكثر أملاكهم ونواعيرهم من الديريين ، بأبخس الأثمان ولم يبق في أيديهم ، سوى قرى الخريجية والمويلح ومعجل وغريبة والنملية وبرشـام ، وهنـاك قريـة طيبـة الفـال يقطنهـا ولـد الشيـخ عيسى ، وفرق البكير هم العنـابـزة وجـار الله والحجـاج والمشرف ، ومختارهم علاوي الصالح في قرية سعلو ، وقد قدمنا ذكر الدفـاع البـاسل الـذي قـامت بـه فرق البكير في وجـه حملـة دبيـوفر في البصيرة ، ولاسيا فرقـة العنـابـزة منهـا في خشام .

قضاء الميادين

ناحية المركز (الميادين)

إن سكان بليدة الميادين أشتات ، جاؤوها من منابت مختلفة ، قطنوا في بادئ الأمر في موقع الرحبة المسماة بالقلعة ، (وكان اسمها في التاريخ رحبة مالك بن طوق) فسموا بالقلعيين وتكاثروا ، قالوا وقد حدث ذلك منذ قرن ، وهم ينقسمون إلى أسر البو خليل والبو مصطفى والبو ناصر ، وثمة أيضاً فرق مختلفة كالمشاهدة من مشهد ، والعانيين من عانة ، والراويين من رواة ، والديريين من الدير ، أما العشائر في هذه الناحية فهي الجحيش والعقيدات من بطن الأبي كامل (البو جامل) .

الجحيش

هؤلاء بقايا الجحيش الذين أباد العقيدات معظمهم فيما مضى على أثر إهانتهم امرأة عقيدية ، رفعوا ثوبها من وراء وسخروا بها ، فجاءت قومها بهذه الحالة ، فقالوا لها استتري ، فأجابتهم وهل أنتم رجال حتى استتر ، فاستوضحوها الأمر فأخبرتهم ، فوثبوا على الجحيش وأفنوا معظمهم ، وقد بقيت شرذمة منهم في قريتي محكان وفاطسة ورئيسهم أمين الخلف العجيل ، وقد كان للجحيش ماضٍ حافل بالوقائع والغزوات ، يسودون وادي الفرات قبل ورود العقيدات ، والفرق واضح بينهم وبين العقيدات في الدم واللون ، وفي قرية فاطسة غير الجحيش المذكورين أناس يدعون (الفليتة) ، ينتسبون إلى الروالة وكبيرهم يدعى مطلق العلي الصالح .

أما العقيدات فمنهم في هذه الناحية بعض فرق الأبو كامل (آل دعجل الظاهر) ، ففي قرية ذيبان مقر الشيخ جدعان الهفل وأقاربه فرقة البو عز الدين ، وفي قرية الرغيب فريق الحسن الظاهر من آل ظاهر الحمد الدعجل ، وفي قرية الحوايج فريقا السليمان الظاهر والصالح الظاهر ، وفي قرية الشحيل فريق صالح الحمد من آل دعجل أيضاً وفريق موسى الصالح وفريق الطلاع وقسم من الأبي عز الدين ، وفي قرية سعلو فريق العساف الظاهر من البكير ، وفي قرية الزباري أعراب من غير العقيدات ينتمون إلى

عشيرة الدليم ، يمتهنهم العقيدات ولا يصاهرونهم ، لاختلاط دمهم بالعبيد ورئيسهم صالح المحمد العيسى الزباري .

ناحية البصيرة

إن سكان قرية البصيرة (قرقيسياء القديمة) أشتات ، وأكثرهم من أهل الدير ، وهم الديريون والقلعيون القادمون من الميادين ، وبعضهم من القبيصة من فرقة البكير ، ومن البو عميري من عشيرة الجبور ، والجُميلات من عشيرة قيس ، ومن البو فهد من عشيرة العبيد ، وفي قرية بريهة تقطن فرقة القبيصة (البكير) التي تقدم ذكرها في قضاء الدير ، ومختارها هنا سليمان المظهور الحمادة ، وفي قرية الصبحة تقطن فرقة المشاهدة القريبة من العقيدات ، والتي تنتمي إلى مشهد الإمام علي في العراق ، قيل إنهم جاؤوا إلى هذه الديار منذ قرن ونصف ، ومختارهم عبيد الكلش ، وفي قرية برشم قسم من فرقة القبيصة (البكير) ، وقسم من القضاة وهم فخذ من عشيرة الجبور ، وقسم من القلعيين المنسوبين إلى قلعي الميادين ، وفي قرية الحريجية تقطن فرقة البكير ، وفيها أربعة أفخاذ المحمد الغنام والكامل والخضر والأركيوات ، وفي قرية الحريجي فرقة الموسى الصالح الحمد آل دعجل ، وفي قرى طيب الفال والفدغمي وخرمز والصور والبساتين أولاد الشيخ عيسى المتوفى منذ قرنين ونصف ، وكان مقامه في البصيرة ، وينتسب إلى الطريقة الرفاعية ، وكذلك أعقابه الحاضرون . ومن ثم كان هؤلاء رجال دين محترمين عند العشائر ، بل إن أكبرهم في السن هو الذي يرأسهم ، وهو الآن السيد علي الخليف المقيم في قرية حرمز قرب الشدادي ، وهم ينجعون البادية في الربيع ، ولا يبقى بالقرية إلا المحرومون من الماشية ، الذين يراقبون الزروع ، وهم يعدون نحو ١٢٠ بيتاً ، وفي قرية ضمان يقطن قسم من القضاة ، وهم فخذ من عشيرة الجبور .

وفي ناحية البصيرة عشيرة علي الظاهر إحدى عشائر العقيدات الأبي جامل ، ومنهم آل الهفل شيوخ العقيدات جميعاً ، ويقطن معظمهم في قرية ذيبان على يسار الفرات ، وبعضهم في قرية المويلح غربي الخابور ، وفرقة المحمد الظاهر تقطن قرية الفاطسة التابعة ناحية الميادين ، وقد كان لهذه الفرقة قبلاً النفوذ والسيطرة ، يرأسها الآن محمد الدرويش ، وفرقة حسن الظاهر في قرية الرغيب التابعة ناحية الميادين ، يرأسها خلف

العمير ، وفرق صالح الظاهر وأحمد الظاهر وسليمان الظاهر تقطن في قرية الحوائج التابعة ناحية الميادين ، وهذه الفرق الست من أعقاب ظاهر الجد الخامس لجدعان الهفل ، وفي ناحية البصيرة في قريتي شحيل والحريجي فرق الموسى الصالح والطلاع الحمد والشهاب الحمد ، وهم من أعقاب حمد الأول بن علي الدعيجل .

ناحية العشارة

إن سكان قرية العشارة خليط من القلعيين ، ويدعون الويسات والبو ناصر (الآغاوات) ، وفي هذه الناحية من فرق العقيدات الأبي جامل فرقة الشويط في قرى دبلان وصبيخان وغريبة وكشمة وأبو حردوب ، والشويط ينقسمون إلى أفخاذ الخالدية والمجاليب والحمزات ، وينقسم فخذ المجلب إلى عدة أفناد ؛ العيسى والخنيفس والعزام والمحمد ومجبل وركيوة ومجابله وخالد وفاعور وملحم ، ورئيس الشويط هو برغش المحمد الوكاع ، وفي هذه الناحية أيضاً من الأبي جامل فرقة أبو أرحمة في قرى الدوير وجرذي ، وينقسمون إلى أفناد الناصر والوساط والعليوي والمقدام والناشية ، ومخاتيرهم كوان الجبارة ومحمد الخلف ، وفيها أيضاً فرقة الأبو حسن من الثلث في قرى العشارة وسويدان الشامية وسويدان الجزيرة ودرنج ، وهم ينقسمون إلى أفناد نصر الله الجعدان وخالد الجعدان وشويط الجعدان وضاهر الجعدان وعزام الجعدان ومحمد الجعدان ، ومخاتيرهم أحمد العلي النجوس وحامد الحية وكرحوت العجاج ، وللأبي حسن عناية فائقة في تربية عتاق الخيل وفحول السفاد ، وفيها أيضاً فرقة القرعان من الثلث في قريتي القورية جهة الشامية والطيانة جهة الجزيرة ، وأهل القورية ينقسمون إلى أفناد الشنان والبو عواد وحسن الأقرع وحمد المحمد ، ومخاتيرهم زكي الحاجي وسراي العبد ، وقد اشتهر أهل الطيانة بإتقان تربية الماشية أكثر من كل العقيدات في هذه الناحية ، وباقتناء عتاق الخيل لأجل المغازي وحفظ الحلال ، وأكثر إقامتهم في البادية ، وقد شارك قسم منهم عشيرة شمر في المعيشة ، حتى غلبت لغة شمر على لغتهم ، مختار قريتهم تركي بن منادي الخليل ، وفيها أيضاً فرقة الزباري التي أصلها من الدليم ، ويمتهنها العقيدات ولا تصاهرها لا ختلاط دمها بالعبيد ، ورئيسها صالح المحمد العيسى الزباري .

هذا وجميع فرق العقيدات المذكورة في ناحية العشارة يرأسهم تركي بك النجرس ،

رئيس فرق الثلث ، ونسبـــه تركي بن علي بن نجرس بن علي بن حسين بن نصر الله بن جعدان ، وهو من خريجي مدرسة العشائر ، ونائب قضاء الميادين ، ومن الرجالات البارزة في محافظة الفرات وبين رؤساء العقيدات ، تولى الرئاسة بعد وفاة أخيه عبد الكريم باشا ، وكنيته أبو النوري ، وكان ضابطاً في الجيش العثماني برتبة قول آغاسي ، وهو يجيد اللغة التركية .

مناهل العقيدات ومنتجعاتهم - إن لكل من فرق العقيدات وحتى لكل من أفخاذها مناهل خاصة ، وإذا كانت الفرقة والفخذ قوية تتسلط على هذه المناهل وتذود عنها ، وإذا كان الربيع رديئاً يحوم كل منهم حول أي بئر من الآبار ، حتى إذا جاء صاحبه تركه وسار إلى غيره ، وإذا كان قوياً بقي مكانه إلى حين نشوب النزاع بين الرعاة .

فالحسون يربعون في وادي الرتقة المشهور بجودة مراعيه ، وإذا كانت السنة ماحلة يبعدون حتى الحمية في وادي المياه ، وفرق عقيدات الجزيرة يعبرون الفرات من المشارع ، أو في السفن ويبلغون وادي الرتقة ، والشعيطات يربعون في بير أبو شديخة وغدير أخو سعدة وغص البحيج ، والقرعان يربعون في وبا وعاقولة وغدر الماء والدخول ، وقرعان الجزيرة حول آبار العوجة كحليب هداج وأم الغروب ، والشويط لا يبعدون كثيراً عن الفرات إلا في بعض السنين ، يبلغون جبل البشري ، والأبوليل يربعون في بئري قواتل وعواجل ، وربما بلغوا العاقولة ، والزباري في الزنبوط شمالي العاقولة ، والأبو خابور يجتمعون حول الآبار العائدة لفرقهم ، فالأبو حيايا على طريق الدير ومحطة تي تو ، أو على هصبا ، أو بئر الجديد على محور دير - تدمر - الدخول وغدر الماء . والأبو سرايا يشتون حول آبار البشري بعد أن تترك عنزة الفدعان هذه الآبار ، وتتوغل نحو الجنوب ، أما البكير في الجزيرة فلهم مراعي جيدة واسعة ، ومناهل عديدة في المثلث الذي بين الفرات والخابور ، أما العنابزة فلهم الرميلان والبديع وقلش على طريق الصور وحنيطل ورويشد وسويلم والفياض والبوير والقنطاري ، أما الدعجل يصادفهم المرء حول قصيبان وهداج وبوجزلة ومويلخت وقعطيه وحتى حول الآبار التي تخص الدميم ولا سيا القلبان الخمسة أو آبار المويلحة .

قضاء أبو كمال

كل عشائر هذا القضاء من العقيدات الذين تقدم وصفهم ، وربما كانت منازلهم الأصلية حينما وفدوا في القرن الثاني عشر في هذا القضاء الذي سمي باسم أحد بطونهم أبي كمال ، ومنه انساحوا نحو الغرب ، فبلغوا في ضفة الفرات قضائي الميادين والدير ، ثم أقضية حمص وسلمية ودوما على ما بيناه سابقاً ، وهناك من يدعي بأنهم حينما وفدوا من نجد من آبار عقدة نزلوا براري حمص وسلمية يحملهم ابن حريميس رئيس العجاجرة من الفدعان على أباعره ، ثم انحرف قسم منهم إلى ضفة الفرات ، فاستطابه واستقر فيه ، وفي ظننا أن الأمر على خلاف ذلك ، أي أن المنازل الأولى كانت في أقضية الفرات ، ولا سيا في أبي كمال ، ثم حصل الانتشار نحو الأقضية الغربية التي عددناها .

ومهما يكن فالعقيدات في قضاء أبي كمال هم من بطن الأبي كمال (أبي جمال) وينقسمون إلى اثني عشر فرقة لكل منها أفخاذ ثم أفناد عديدة ، وهم :

(١) الحسون من الأبي كمال الأصليين ، في رئاسة آل الدندل القاطنين في السوسة ، والرئيس منهم الآن مشرف الدندل ، وقرى فرقة الحسون هي الغبرة والهري والسويعية والسوسة والحسرات ، وأفخاذ الحسون هي المحمد الحسون والعلي الحسون والحمود الحسون ، فالمحمد الحسون ينقسمون إلى الأبي عبد الله في رئاسة عبد الفارس ، والداغر في رئاسة عاصي الأحول ، والعبد الصالح (البو صويلح) ، والعلي الحسون ينقسمون إلى الدندل والحنة والجاليب وعبد اللوق ، والحمود الحسون ينقسمون إلى الشلال والعويش والحيموش والحجاج والمشعانة ، وإذا اشتبكت هذه الأفخاذ في معركة تنقسم إلى معسكرين ، فبعضهم ينضم إلى الداغر وبعضهم إلى العساف أو الدندل ، ومن لواحق الحسون الجغايفة والمراشدة والحلبيين الذين أصلهم من الجبور .

(٢) الدميم من الأبي كمال الأصليين ، وقراهم المصلخة والصالحية والبحرة ، وأفخاذهم ستة ؛ طوطحة في رئاسة حمد المحمد ، وعجارجة لإبراهيم الفندي ، وعباس لخضر المحمد ، والحجاج لأحمد الحسين ، والجماح لعبود الفارس ، وإذار لعلي الأذار ، وجميعهم في رئاسة فارس الصياح المقيم في الصالحية .

(٣) الشعيطات المتحدرون من زامل بن غنام بن علي السالم جد العقيدات الأعلى ، ولذا يدعونهم أيضاً بالزميلات ، وقد اشتهروا ببسالتهم وقسوتهم وكثرة مواليدهم ، ولهم فخذان ؛ الحنفور في رئاسة لاحج العلي العمر وأحمد الزعلان ، والجدوع في رئاسة عبد الرحمن الجزاع ، وهو المتقدم في هذه الفرقة ، أما قراهم فهي غرانيج وأبو حمام وكشكية (جشجية) ، وهذه القرى في الجزيرة تجاه الصالحية التي كان اسمها (دورا أوروبس) .

(٤) الأبو مربح : من الأبي كال الأصليين ، يقطن في قرية سيال والشعفة منها فخذ الخليل لعزب الحمد الهرسة ، وفخذ العراقية لجاسم الفندي ، ويقطن فخذ العليوي في قرى المقطوعة والطابوية .

(٥) البوقاعان : فرقة غريبة عن العقيدات ، تدعي الانتساب للعبيد النازحين إلى العراق ، وهم فخذان ؛ العلي لعماش العبد الصالح ، والبو عيسى لجوير الهويدي . وقراهم الرمادي في الشامية ، وتل أبو حسن في الجزيرة .

(٦) المجاودة : وهذه الفرقة أيضاً غريبة عن العقيدات ، وتجهل منشأها وزمن مجيئها ، وقد تواقعت مع الدميم وقعةً دامية على أثر نزاع على أرض إلى أن اشترتها بالمزاد ، وهي تقطن في قرية البقعة في الشامية ، وفيها فخذا المناصرة وشمر ، ومن فروع المناصرة العشبان والطارش والعرفوش ، ومن فروع شمر بيضان والعرانسة والمنصور .

(٧) المشاهدة ؛ وهذه الفرقة أيضاً غريبة عن العقيدات ، وهي تزعم أن أصلها من العراق ، ومن مشهد الإمام علي ،وفيها فخذان الهراميش والشهابات في رئاسة معيدي البرجس ومزيد الحمد ، وهي تقطن في قريتي السكرية والجدلة ، والجدلة تعد من أحياء الصالحية ، ومن هؤلاء المشاهدة قسم في قضاء الحسجة في أنحاء الحمة ، وأبو حامضة والعوجة وأطراف جبل عبد العزيز ، وقسم في غربي حمص جنوبي بحيرتها ، وقسم في غوطة دمشق على ما قدمناه .

(٨) الأبو حردان : وهذه أيضاً غريبة عن العقيدات . تزعم أن أصلها من عشيرة العبيد في الموصل ، تقطن في قرية هجين في الجزيرة ، ولها ثلاثة أفخاذ ، أبو فقرة لعلي الدعيان ، والأبو حديد للطيف العوجان ، والصبيخان لجابر السيجان .

(٩) المراسمة : من الغرباء عن العقيدات ، وأصلها من الجبور أعقاب مرسوم من ولد جابر ، تقطن قرية الباغوز في الجزيرة إزاء أبي كال ، وفيها فخذان البو دغمش لقلعي الشريدة ، والبو مصطفى الهادي الصياح ، ومما يجدر ذكره أن قرية الباغوز غريبة الموقع والمنظر ، وفيها هضبة عالية تدعى (تل هري) فيها مقبرة أثرية من عهد ماري الآشورية ، وقد جرت فيها حفريات هامة ، وهذه المدينة تعود إلى ما قبل الميلاد بألفي سنة ، وفي منحدرات هذه القرية نحو الفرات مغارة عظيمة ، يتحدثون عنها بأقوال خرافية مروعة ، وفي هذه القرية أيضاً غير المختارين المذكورين رجل صوفي يعتقدون ببركاته يدعى الشيخ إبراهيم .

(١٠) المراشدة : كذا من الغرباء وأصلها من الجبور ، تقطن قرية السوسة ، في الجزيرة التي هي للدندل رؤساء الحسون ، وللمراشدة فخذان ؛ العيبان لربيع الدخيل ، والوزرة لعلي العبد ، والمراسمة والمراشدة تابعون لفرقة الحسون التي يرأسها مشرف الدندل ، وليس لهما كيان اجتماعي كبير كغيرهما من الفرق .

(١١) الجغايفة : كذا من الغرباء وأصلها من الديلم وقيل من شمر ، تقطن في السوسة والهرى والغبرة مع الحسون ، وفيها ثلاثة أفخاذ ؛ السطام لرجا السطام ، والعلي لعلي العبد المفلح ، والأبو جليد لنجم العبد الله .

(١٢) الأبو بدران ، فيها فخذ واحد في رئاسة علي الحاجي ، وتقطن في شمالي قرية السوسة ، وهي من الغرباء أيضاً ، وتنتسب إلى زين العابدين .

قضاء الرقة

ينزل في هذا القضاء الواسع في قسمي الجزيرة والشامية عشائر عديدة بعضها متحضر قليلاً أو كثيراً ، كالأبي شعبان وفروعها ، وبعضها من البدو الأقحاح ، كالفدعان من عنزة .

الأبو شعبان

عشيرة كبيرة ذات فروع عديدة تنتسب إلى جدها الأعلى شعبان الذي يقال له أنه

الجد الخامس عشر لسوعان بن راكان العليوي شيخ فرع السبخة منهم ، ويقال عن نسب شعبان المذكور هو ابن معروف بن عبيد بن جبير بن مكتوم بن لهيب بن صهيب بن عمران بن كرم بن عكرمة بن عمر بن عبد الله بن عمر بن عكرمة بن عمرو بن معدي كرب الزبيدي الصحابي الجليل الملقب بأبي ثور ، أحد فرسان العرب المغاوير ، الذي أدرك الإسلام ، وشهد القادسية ، واستشهد بنهاوند زمن عمر رضي الله عنه ، وله حوادث جمة في العراق ، وعمرو بن معدي كرب كما هو معلوم من قبيلة زبيد المتفرعة عن قبيلة مذحج ، التي أبوها مالك بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، ومالك هو أخو طيء جد قبيلة طيء التنوخية التي مر ذكرها ، ومن المعلوم أن قبيلة زبيد كانت كأختها طيء نزحت من اليمن على أثر حادثة سد العرم ، وجاءت معها إلى جبلي أجأ وسلمى ، وظلت إلى أن دهمتها قبيلة شمر ودفعتها فمالت طيء وزبيد إلى أنحاء العراق والشام وغيرهما ، ولا يزال في العراق والشام عدة عشائر متفرقة تدعى (الزبيدات) تنتمي إلى زبيد ، ومن النظر إلى عمود النسب الذي زعموه ، يرى أنه بين شعبان وعمرو بن معدي كرب ثلاثة عشر جداً إذا حسبنا لكل منهم نصف قرن يكون بدء ظهور عشيرة الأبي شعبان في القرن الثامن الهجري ، ومعنى ذلك أنهم بقوا في العراق (في حويجة العبيد) نحو أربعة قرون ، ثم نزحوا في القرن الثاني عشر ، وجاؤوا إلى قضاء الرقة ، ودحروا منه عشيرة قيس (جيس) ، واستقر كل فرع منهم في منزله الحالي ، وبانتساب الأبي شعبان إلى عمرو بن معدي كرب الزبيدي يكونون أبناء عمومة عشيرة العقيدات وعشيرة الجبور وعشائر جبل الدروز وعشيرة بني سعيد في قضاء منبج ،وكلها يدعي نفس النسبة ، والله أعلم .

ويقال أن أعقاب شعبان هم محمد وسبيع وهيازع ومفيلح ومعروف ، وأن من محمد جاء فرع العفادلة ، ثم فرعا الفردون وأبو محمد القاطنان في محافظة حلب في أقضية جبل سمعان والباب ومنبج ، حسبما ذكرناه في أبحاث هذه الأقضية ، ومن سبيع جاء فرع السبخة القاطنون في ناحية السبخة ، والذين منهم فرع اسمه أبو سبيع القاطن في قرية قصبي في ناحية التبني ، ومن هيازع جاء فرع الولدة القاطن في غربي قضاء الرقة ، في قسمي الشامية والجزيرة ، ومن مفيلح جاء فرع البو عساف القاطن في أعلى وادي البليخ ، ومن معروف جاءت فروع الأبي جرادة والجماسة والأبي حميدي ، وهناك فرقة أبو حمد القاطنة في ناحية السبخة ، يقال أنها ليست من الأبي شعبان ، بل هي من عشيرة العبيد ،

التي كانت من أنحاء دير الزور ، ونزحت إلى الحويجة في الموصل على أثر مزاحمة شمر ، وقد جاوروا الأبي شعبان واندمجوا بهم ، ومهما يكن فإن الأبي شعبان جمع من العشائر والفرق المتحضرة الريفية المستقرة في وادي الفرات من شمس الدين (٣٢ كيلاً شمالي شرقي مسكنة) إلى التبني (٥٠ كيلاً شمالي غربي دير الزور) وهم يلقبون بشوايا الفرات والبليخ ، بينما هم لا يرضون بهذا اللقب ، بل يفتخرون بزبيد ، وينادي بعضهم بعضاً يازبيدي ، ومجيئهم من أرياف العراق ، واعتيادهم على حياة شبه حضرية سهلا لهم الانتشار ثم الانصراف نحو الحرث والزرع ، فوق عنايتهم بالضرع ، وهناك من يقول ليس للأبي شعبان جد مشترك ، ولا وشيجة قربى ، ويستدل على ذلك بتفرقهم بعضهم عن بعض ، ومعيشة كل فريق منهم واستقلاله لوحده .

وفرق الأبي شعبان في قضاء الرقة خمسة ؛ العفادلة والأبي عساف والسبخة والولدة والأبي جراده ، وهاك وصف كل منها :

العفادلة

عشيرة كبيرة من الأبي شعبان ، منصرفة إلى الزراعة ، منازلها في الجزيرة على البليخ من الرقة في الجنوب إلى تل خنيز في الشمال ، وعلى الفرات من الرقة حتى خس دعكور (٦٠ كيلاً شرقي الرقة) ، ولها بضع قرى في الشامية تقع جنوبي الرقة مباشرة ، وعدد بيوتها ٣٠٠٠ وعندها نحو ٢٠٠٠٠ شاة و٢٠٠ بعير ، وشيخها الأكبر بشير الهويدي الشلاش العلي المشلب الدرويش الحمد الدياب الذي توفي حديثاً (شباط ١٩٤٧ م) ، كان يقطن في مستجد نقيب قرب الرقة ، وكان رحمه الله جليل القدر موفور الكرامة ، بين بدو قضاء الرقة وحضرها ، وأكثر خلافات العشائر وقضاياها كانت تحلها الحكومة في بيته ، ويذكر من أولاده الكثر مجحم البشير الهويدي أحد نواب قضاء الرقة البارزين الذي خلفه في المشيخة ، ويذكر أيضاً ابن فيصل المحمد الهويدي ، وقد عرف هذا بذكائه ونشاطه ومشاطرته عمه وأولاد عمه في إدارة شؤون العشيرة ، وفرق العفادلة هي : الذياب لبشير الهويدي ، والمدلج لمشلب الدرويش ، وموسى الضاهر لحسين الدرويش الشيخ جمعة ، والغانم الضاهر لسلوم العلي الدندل ، والشبل لأحمد العبد الخلف ، والبريج لمحمود الخابور ويوسف الذياب ، والجماسة لإبراهيم الموسى ، والحليسات لأحمد المحمد ، والحواس لإبراهيم

العجل ، والمجادمة لإبراهيم العشة ، هذا ويمتاز العفادلة بأنهم أخصام الفدعان ، منذ أن قتلوا نواف الحوران ابن أخي الأمير مجحم آل مهيد في سنة ١٩٢٥ ، حينما جاء لجمع الخوة منهم ، وأن بيت المشلب عندهم يعد أعلى بيوتات الأبي شعبان قدراً ، ويليه بيوت الغانم والناصر في الولدة ، كما يمتازون بأنهم أشجع الأبي شعبان وأشدهم نزوحاً للحرب والوثب ، ولطالما حاربوا الدولة العثمانية في عهد مشلب الدرويش جد الشيخ بشير الهويدي ، أما نجعتهم فحول المناخير وبئر الطرفاوي في براري الجزيرة ، وفي سنة ١٩٢٦ ، تنازعوا مع الفدعان على بئر الطرفاوي وما حوله من المراعي ، وجرت معارك وسفكت دماء ، إلى أن صالحتهم حكومة دير الزور ، وانتهى الأمر على قاعدة (الحفر والدفن) .

الولدة

عشيرة كبيرة من الأبي شعبان ، بل ربما كانت أكبرها ، وهي في قيادة بيت الناصر المعدود من بيوتات الأبي شعبان الكبيرة ، ومنازل الولدة في ضفتي الفرات أي في الجزيرة وفي الشامية من شمس الدين إلى الرقة ، ويزعمون أنهم لما جاؤوا إلى منازلهم هذه ، أجلوا عنها عشيرتي الحديديين وجيس ، وأن تسميتهم بالولدة من جراء معركة كبيرة قتل فيها كل رجالهم ، ولم يبق سوى الأولاد ، ولما ترعرع هؤلاء وتناسلوا ، سميت أعقابهم بالولْدة بكسر الواو وسكون اللام فعدوا أرومة العشيرة ، وقد قسم الفرات هؤلاء الوِلْدة إلى قسمين : ولدة الجزيرة وولدة الشامية ، فولدة الشامية يقيمون في ناحية السبخة من الدبسي حتى قرية السحل في ضفة الفرات اليمنى ، وأفخاذهم الحويوات للشيخ علي الحجي ، والعجيل للشيخ إبراهيم الحمود ، والمناصر للشيخ عبد الله الأحمد الفرج ، وجميعهم يعدون نحو ألف بيت ، ورئيسهم الأعلى هو الشيخ محمد الفرج السلامة الدندل ، وهو أجل مشايخ الولدة قدراً ونفوذاً ، وله قريتا الصفصافة وهنيدة في جنوبي غربي مخفر الحمام ، وقد اتخذ مقره في الصفصافة ، وله ابن أخ اسمه الشيخ بركات ، انتخب نائباً عن قضاء الرقة ، لما كان عمه الشيخ محمد منفياً في جزيرة قران الواقعة وسط البحر الأحمر مع دهام الهادي شيخ شمر وغيره ، وقد بقي في هذا المنفى نحو سنتين ولم يعودا إلا بعد توسطات مكررة ، انتهت في أواخر سنة ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م) ، والشيخ بركات هذا هو ابن أحمد الفرج المتوفى ، الذي كان ذا شهرة طائلة في سخائه وكرمه الحاتمي .

أما ولدة الجزيرة فيبلغون نحو ٢٥٠٠ بيت ، يدير شؤونهم بالنيابة عن الشيخ محمد الفرج ابن عمه الشيخ شواخ الأحمد البورسان ، المقيم في قرية شمس الدين ، وهو يعد حليف عشيرة جيس المستركة بحكم مصاهرته لها ، وفرق ولدة الجزيرة هي الناصر فرقة شواخ والأبو جابر لعايد الضيف ، والشفرات لمحمد العلي ، والمرادات لدخيل الكلاح ، والجعابات لعبد البليح ، والعامر لحسن الحلف ، والبوظاهر لمبروك السليمان والعلي لسلوم الناصر ، أما أفخاذ العجيل والحمدون والعمامرة فليس لهم رؤساء ، وقد انفصلت فرقة كبيرة اسمها الغانم من مجموع عشيرة الولدة ، ونزحت في حدود سنة ١٢٦٧ هـ في زمن محمد باشا القبرصي والي حلب إلى جنوبي قضاء منبج ، وأخرى إلى جنوبي قضاء جبل سمعان وشرقي قضاء إدلب ، وقد مر بحث هؤلاء في أماكنها ، وعدد قرى الولدة ٤٠ منها ١٦ في الشامية ، و٢٤ في الجزيرة وأراضيهم في هذه القرى خصبة مغلالة ، ولو زاد سعيهم لحسن حالهم أكثر مما هم عليه الآن ، قيل إن لديهم ٣٥٠٠٠ شاة مما يدل أيضاً على رخاء .

هذا وقد قدمنا في بحث عشيرة الفدعان الولد ، حديث العداء والعراك الناشبين بين الفدعان الولد وبين هؤلاء ، فليراجع .

الأبو عساف

عشيرة من الأبي شعبان ، منازلهم في أعلى وادي البليخ بعد منازل العفادلة ، وتقع في الثلث المؤلف من تل حمام وتل أبيض وعين عيسى ، وعددهم ٥٠٠ بيت ، ويعدون أقل الأبي شعبان انصرافاً إلى النجعة والتبدي ، وهم أخصام عشيرة جيس منذ زمن بعيد ، والرئاسة في يد خلف الحسان المقيم في علي باجلية ، وقراهم من الجنوب إلى الشمال الغازلي والهيشة والشرقرق والكيرو وعلى باجلية ، ويقطن بعض الأبي عساف في قرية عين عيسى ، مقر الأمير مجحم ، وفي قرى العروس والخانونية ومنكلي ، وفرقهم العمشات والفقرة والخليفة والوادي والأردني والملافقة .

الأبو جرادة

فرقة من جيس ؛ وعدهم آخرون من الجحيش الذين كانوا في وادي الفرات ، فجاءت العقيدات ودحرتهم . سموا باسم جرادة ابنة أحد رؤسائهم ، عددهم نحو ٥٠٠ بيت ،

متوزعون في القرى المحاذية للخط الحديدي غربي تل أبيض ، ونصف هذه العشيرة أهل ضرع يتبدى دائماً في مسافات قصيرة ، ونصفها الثاني يعمل في الزراعة ، وعندهم نحو ٦٠٠٠ شاة ، رئيسهم إبراهيم العبد الله ، وفرقهم الروالة والعقرب والمنيف والجوخدار والدناوة والبشاكمة .

السبخة

عشيرة كبيرة من الأبي شعبان ، منازلهم في الناحية المسماة باسمهم ، وهي في الضفة اليمنى من الفرات (الشامية) ، ويقعون تجاه عفادلة الجزيرة وشرقي عفادلة الشامية ، أي من قرية كسرة محمد آغا حتى قرية السويدة ، ورئيسهم الشيخ راكان بن سوعان العليوي أحد رؤساء الأبي شعبان البارزين ، وأفخاذ السبخة : ذياب العساف للحم الفياض ، وحمد العساف لحميدى المطلق ، وضاهر العساف لصياح الطراد ، والأبو دبش لمشعل المعيوف ، وشمر لسليمان العبد الستار ، والأبو حمد لصالح الحمود العقلة ، ومن قائل أن هؤلاء الأبي حمد ليسوا من الأبي شعبان ، بل من العبيد سكان حويجة العبيد في الموصل ، لكنهم اندمجوا في الأبي شعبان بعد أن جاوروهم ، ويقدر عدد السبخة بـ ١٥٠٠ بيت ، وعندهم ١٥٠٠٠ شاة و ١٤٠٠٠ بقرة . ونجعة السبخة محدودة ، لا تتجاوز شمالي البشري ، فهم متحضرون جداً .

الأبي سبيع

ومن فرق السبخة (الأبي سبيع أو الأبي سبعة) ، انفصلت هذه الفرقة عن أمها السبخة بتاتاً ، واستقرت ناحية التبني بين التبني ومعادان ، وهي في مشيخة عبد السفيري ، ومنها قسم استقر في قضاء الباب كما قدمنا .

الجماسة

وفي ناحية السبخة أيضاً فرقة (الجماسة) منضمة إلى الولدة وقيل إلى العفادلة ، ولا يعرف منشؤوها تماماً ، وقيل إنها لاتزال في هذه الناحية ، منذ أن مر بها في سنة ١٠٤٨ هـ السلطان مراد الرابع العثماني في طريقه لفتح بغداد .

هذا وفي قضاء الرقة وسط أرض الجزيرة عشائر أخرى متحضرة صغيرة ، من منابت

مختلفة ، جاءت واستقرت من عهد بعيد في ضفاف البليخ الأعلى ، وهي التركان والمشهور والجيام والنعيم .

التركان

قوم متحضرون ، وإن كانوا مقيمين في بيوت الشعر ، منازلهم في الضفة الشرقية للبليخ جنوبي عشيرة المشهور وبين قريتي تل حمام وسلوك ، وهم وإن كانوا تركمان لحماً ودماً ، لكنهم مستعربون بالمرة ، ومنقطعون عن التركية ومشخصاتها منذ أجيال ، ويعدون هنا من أحسن الزراع بوداعتهم وحسن عملهم ، وأفخاذهم الطوالبة للشيخ مصطفى الحسن ، والنجاجير للشيخ حميدي الشواح ، والإسماعيليين للشيخ خلف الإبراهيم ، وهو رئيس الكل ، وذو ثروة وسيادة وسمعة جيدة ، وقد تزوج أخوه أخت جاره رئيس الأبي عساف خلف الحسان ، وله من الملك نصف قرية الحمام ، وعدد هؤلاء ٣٠٠ بيت وعندهم ١٠٠٠٠ شاة و ١٥٠٠ بقرة .

الجيام

عشيرة صغيرة نصف حضرية ، وتنضوي إلى عشيرة الأبي جرادة ، وهي تدعي دعوى غريبة بكرم المحتد ، فهي تقفز عبر القرون والأجيال ، وتلحم نسبها بإبراهيم الخليل عليه السلام مباشرة ، رغم مرور ٣٠٠٠ سنة عليه ، بينما هم قيمون على المقام المنسوب لهذا النبي الكريم في عين العروس ليس إلا ، ورؤساؤهم الشيخ إبراهيم الصالح والشيخ حمود المحمد ، وعددهم نحو ٨٠ بيتاً ، ويقيمون في قرى المعاجلة والعطشانة والهكشة والقطار ، وهم يتبدون في بعض السنين في البراري المجاورة ، وعندهم ١٥٠٠٠ دونم من الأراضي الزراعية .

المشهور

أعراب سموا بهذا الاسم ، لأنهم فيما زعموا أنقذوا عشيرة طيء من فتك الموالي ، في معركة دارت بينهما في زمن ماض ، وأصلهم من البقارة الذين في دير الزور ، وهم يقطنون عند نبع البليخ في قراهم ، كالمنبطح وتل أبيض وحويجة عبدي وخربة الرز وفرجة ولقطة ، وهم رغم تقدمهم في الحضارة مابرحوا يأوون إلى بيوت الشعر ، ورؤساؤهم خليل

الإبراهيم الجلود وعددهم ٣٠٠ بيت ، وقد كانوا قبلاً أحلاف جيس ويعدون من الفرق الميسورة ، إذ أن لديهم ٨٠٠٠ شاة ، وثمة فرقة من الهنادي المصري الأصل الذين تقدم ذكرهم في بحث قضاء الباب ، يقيمون مع المشهور ، ويقطنون في قرية رسم الغزال ، ويعدون نحو ٥٠ بيتاً .

النعيم

فرقة صغيرة من عشيرة النعيم المشتتة كثيراً في كل مكان ، إلا أن هذه الفرقة تدعي المجيء من الرها داخل الحدود التركية منذ ربع قرن ، فهل بلغ النعيم إلى تلك الديار أيضاً ؟! وهم قلائل نحو عشرين بيتاً في مشيخة محمد المستو ، يقيمون في منطقة مخفر محيسن شرقي تل أبيض ، وفي الشتاء والربيع ينجعون البادية .

أما العشيرة البدوية الرحالة في قضاء الدير فهي عشيرة الفدعان :

الفدعان

الفدعان عشيرة عنزية من ضنأ بشر ، وهي من عشائر عنزة الكبيرة العدد الجليلة القدر ، المنيعة الجانب ، البعيدة المنتجع ، قال عنها البسام المتوفى سنة ١٢٤٦ هـ في كتابه الدرر المفاخر « ومنهم من قبائل حلب الفدعان من عنزة ، ذوي الوعود المنجزة ، والهبات المبرزة ، وهم أربع عشائر منهم آل غبين والخرصة والولد وآل مهيد وكل قبيلة من هؤلاء ألف سقماني وألف خيال » ، وهم كما قال ، ومن ثم لفوا ببواجة الديار ، وبحمران النواظر .

وقد اختلفت الأقوال في زمن قدوم الفدعان من نجد إلى بادية الشام ،فمن قائل أنهم جاؤوا بعد الأحسنة والولد علي في القرن الثالث عشر ، هم والأسبعة والعمارات ، وهذا القول استنتجناه من تاريخ الأمير حيدر الشهابي[1] ، وهو المرجع الوحيد لوقائع بلاد الشام خلال القرنين المذكورين ، فقد نقل هذا في أحداث سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٤ م) أن جموعاً عظيمة من الفدعان والأسبعة والعمارات وأمثالها من عشائر عنزة قدمت من نجد هرباً من الجدب والضيق ، وانتشرت في شرقي العاصي في براري حماة والمعرة ، وأن والي دمشق

(١) كتاب لبنان في عهد الأمراء الشهابيين تأليف الأمير حيدر أحمد الشهابي طبع بيروت سنة ١٩٣٣ م .

سليمان باشا السلحدار خشي وقتئذ أن يستبيحوا حمى المعمور ، فساق عليهم جيشاً اشترك فيه مهنا الفاضل شيخ عشيرة الأحسنة والدريعي شيخ عشيرة الروالة لعداء سابق بين الفدعان وبينهما ، والفئتان تنتسبان إلى عنزة جد العرب الأكبر ، فأرسل لهم سليمان باشا أمراً بالرجوع عن بلاد حماة ، فاعتذروا أن سبب قدومهم هو ضيق المعيشة في بلادهم وفقدان العشب لطروشهم ، وأنهم قاصدون المرعى لمدة شهري الربيع إذا أراد الوزير ، وأنهم يقيموا ركب الحاج ، ويأخذوا أقل ما كان يأخذه أخصامهم مهنا والدريعي ، فلم يرض الوزير بذلك ، وخشي أن يكونوا طلائع الوهابيين ، وجرت المعركة بينهم وبين الجيش المذكور حول مياه سلمية ، التي كانت خراباً يباباً في تلك الحقبة ، فلم يفز الجيش منهم بطائل قال « وكانت خيالة العربان لابسين الدروع ، وزلمهم يضربون في البارود ، وكان لهم خبرة عظيمة في ذلك » وقال أيضاً « أن الفدعان غاظها اشتراك الأحسنة مع الدولة فغزت البعض من خيل فدعان إلى مهنا ، فنهبوا بيوتهم وجمالهم ، ولم يتركوا لهم غير النساء والأولاد » قلت : فإذا صح مجيء هذه الجموع من ضنا بشر حول سنة ١٢٣٠ هـ فيم إذن العداء القديم الذي ذكر المؤرخ الشهابي وجوده بين الفدعان والأحسنة (ضنا مسلم) ، أكان لأن الفدعان ولواحقها من عنزة وردت في سنة أسبق من التي ذكرها المؤرخ الشهابي ، فحدث هذا العداء من مزاحمة الفدعان للأحسنة في السيادة على بادية الشام ، أم أن العداء قديم العهد ، منذ أن كانوا في ديارهم الأصلية في قلب الجزيرة ؟

والأمير مجحم الذي سألته عن هذه الأمور يجعل مجيء الفدعان إلى بادية الشام قبل الأحسنة ، وغيرها من عشائر عنزة ، ويعلل سبب العداء بين الفدعان والأحسنة إلى كون الفدعان حموا أمراء الموالي من فتك الأحسنة ، حينما لجأ إليهم هؤلاء الأمراء ، بعد أن قتلوا الملحم شيخ الأحسنة في مكان اسمه (تلعة الملحم) في أنحاء دير الزور ، ثم أن الفدعان أخصام شمر منذ زمن قديم ، فقد ذكروا أن الفدعان لما وفدوا مع الأسبعة والعمارات اتحدوا مع الموالي ضد شمر ، وزاحموا شمر على بادية الشام ودحروها إلى الجزيرة الفراتية ، ثم لحقوها إلى الجزيرة وأبعدوها من أطراف البليخ ، كما أبعدوا عشيرة جيس (قيس) نحو الحدود التركية الحالية ، ومن ثم كانت العداوة مستحكمة بين الفدعان وشمر وجيس ولم ينقطع شن الغارات ، وأخذ الثارات بينهم طوال عشرات السنين ، وحتى إلى ما بعد

احتلال الفرنسيين ، وتحت سمع ضباط العشائر وبصرهم ، إلى أن تمكن هؤلاء بعد لأي من إقرار الصلح بين الفدعان وشمر في سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) في مؤتمر عقد في دير الزور ، وتصافى رؤساء الفريقين مدة ، ثم استيقظت الفتنة ثانية في صيف عام ١٩٢٩ م في شمالي جبل عبد العزيز من جراء النزاع على المراعي ، وتداخلت السلطة الفرنسية وقصفت بالطائرات إبل شمر مرتين وأبعدتها ، ثم جمعت لجنة تحكيم في دير الزور في ٢٦ كانون الأول سنة ١٩٢٩ م ، وعقد الصلح وساد الوئام بين الفريقين إلى يومنا هذا ، أما العداء بين الفدعان وجيس فقد ظل بدون فصل حتى الآن .

وخاصمت الفدعان العمارات أيضاً بسبب النزاع على مراعي القعرة ومنازلها ، وخاصمت أيضاً الروالة وحاربتها بالاشتراك مع الأسبعة ، على أنهم ذوو قربى من عنزة ، وأشهر حروبهم مع الروالة حدثت حوالي سنتي ١٢٨٧ و ١٢٩٢ هـ ، وكان عقيد الفدعان وقتئذ وفارسهم المغوار وداهيتهم في الحرب والإرادة جدعان بن مهيد جد الأمير مجحم الحالي ، وقد كان جدعان طائر الصيت والوقائع ، وكان بدء أمره أنه لجأ مرة إلى شمر عقيب حادثة قتل ، ولما عاد إلى عشيرته رأى أن أحد أبناء عمه يود زواج امرأة كان هو يريدها لنفسه ، فبارزه لأجلها وقتله ، ومن ثم ذاعت شهرته بالفروسية والبسالة ، وصار عقيد الحرب على الفدعان كلها ، ثم على الأسبعة أيضاً ، حينما كان في نزاع واقتتال مع الروالة ، وكان جدعان ذا رأي صائب في المجالس ، وتدبير نافذ في السياسة ، ومضاء عزم في المعارك ، وقد حملته هذه المواهب ، على أن يخاصم الدولة العثمانية ، ويقاتل جندها مراراً ، حتى أنه في سنة ١٢٨٧ هـ هزم لها جنداً كبيراً في أنحاء بالس « مسكنة » ساقه والي حلب درويش باشا ، فرأت الدولة من سبل الإخضاع والإرضاء أن تقطع جدعاناً عشرين قرية في أنحاء جبل الشبيث ، جنوبي بحيرة الجبول ، علّه يستقر هو وعشيرته فيها ، ويتحضر ويكفيها شره ، لكنه اكتفى بتسجيل هذه القرى على اسمه ، وصار يستغلها بأيدي فلاحين حضر ، وظلت عشيرته بادية إلى يومنا هذا ، وقد ورث ابنه تركي هذه القرى ، لكنه لم يكن لامع الذكر كأبيه ، ثم ورثها حفيده مجحم ، المعدود بحكم هذا الإرث من كبار الملاكين .

وآل مهيد وإن كانوا من بيوتات الفدعان وسرواتها وأصحاب قيادة الحرب

(العقـادة) فيهـا ، لكن الرئـاسـة قبلاً كانت في يـد آل غبين ، وكان آخرهم جـابراً ، قتلـه تركي بن مهيد الجد السادس للأمير مجحم ، وتقلد الرئـاسـة من ذلـك الحين على الفـدعـان ، ولا يزال لآل غبين المذكورين مكانـة مرموقـة بين العشـائر ، ويعـدون من أهل الأختـام ، ذكر المقـدم مـولر الفرنسي أنـه لمـا نجـح في سنـة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) في عقـد الصلـح بين الفـدعـان وشمر بعـد نزاعها الطويل ، احتـاج الأمر إلى أن يـؤتى بحفيـد ابن غبين واسمـه عبيـد ،وقـد كان صبيـاً ، وأن يحمل على توقيع ورقـة الصلح بختمـه ، وعبيـد هـذا اليوم هو شيخ إحدى فرق الخرصة التابعة لابن قعيشيش .

ومنـذ أن قتل جـابر بن غبين انقسمت الفـدعـان إلى قسمين يـدعـونها رَبعين (جمـع رَبع) لكل منهما رئيس مستقل مسؤول تجـاه الـدولـة ، وقـد ظـل القسمان متعـاديين سنين طويلة ولاسيما في سني ١٣٨٤ هـ (١٩٢٢ م) و ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م) حتى انقطعت وشـائج القربى بينهما ، وصار أحدهما يصادق أعداء الثاني ، ولم يتحضر أحـد منهما بعـد إلا النـادر ، ولم يتملك أرضـاً إلا الأمير مجحم وأبنـاء عمـه حـاجم ، ولم يسكن منهما بيت حجر إلا الأمير مجحم وحده ، فالقسم الأول يدعى (الوُلْـد) بضم الواو وسكون اللام ، وهو في مشيخـة آل مهيد ، والقسم الثاني يدعى (الخرصة) أو (ضنأ مـاجـد) وهو في مشيخـة ابن قعيشيش ، ويعد القسم الأول معتدلاً مسالماً ، أما الثاني فنزاعاً إلى الحرب والشر .

وعـدد الفـدعـان الأصليين نحو ٤٠٠٠ بيت منهم ٢٥٠٠ ولـد (رَبع ابن مهيـد) و ١٥٠٠ خرصة (ربع ابن قعيشيش) ، وهناك عدد من الفرق الصغيرة المنتسبة لعشائر ومنابت أخرى تلتحق بالفدعـان الولـد ، وتلوذ بهـا وتتكل في الاحتماء من أخصـامهـا على شخص الأمير مجحم ومكانتـه ، وهـذه الفرق مثل بعض الأسبعـة والأبو خميس والعمـور (عمـور الجراح) والكيـار والوهب والحوازم والغراوين وعـددهم نحو ٢٠٠٠ بيت ، وجميعهـا يشرق ويغرب مـع الـولـد ، فبذلك يجمع الفدعان مع لواحقهم قرابة ٦٠٠٠ بيت ، ولا يخلو بيت من بندقيـة ، وقـد كانت الفدعـان راعيـة إبل فحسب ، ثم قضى ظهور السيـارات وتبـدل أطوار هـذا العصر أن تميل نحو الغنم فصار عندها نحو ٥٥ ـ ٦٠ ألف شاة ، وبعد أن كانت لا تـدفع من الضرائب سوى الودي ، صـارت كغيرهـا من العشـائر الرعيـة والشـوايـا تعـد الأغنـام ، وقـد أدت في سنـة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) ضريبة ودي قدرت بأكثر من ٣٠٠٠ ليرة ذهبية .

منازل الفدعان ـ الفدعان يغدون عنزة محافظة الفرات (قضاء الرقة) فالولد ينزل قسم منهم في القيظ في الشامية في وادي الفرات بين مسكنة وأبي هريرة ومخفر الحمام ، وقسم منهم في الجزيرة في وادي البليخ من أقصى الجنوب حتى تل أبيض والحدود التركية ، وفي هذه المناطق التي هي منازلهم يظلون على تحرش ونزاع دائمين مع العشائر نصف الحضر ، وأخصها الأبي شعبان ، وهم في سني المحل وبصفة نادرة يسمح لهم بعبور الفرات إلى الغرب ، فيبلغون أقضية الباب والمنبج وأعزاز ، وربما بلغوا سهل العمق ، فيضطرب الحضر منهم ومن تعديهم على الزروع والغراس وغيرها ، أما في نجعة الشتاء فالولد القادمون من الجزيرة يعبرون الفرات من الشرائع التي بين مسكنة والرقة ، وقد يبلغون جبل البشري وغربي دير الزور ، ويمرون بعده ببير الجديد وغدير الماء ، وفي بعض السنين بالعظامات وببير جب ،ولايزالون يبعدون حتى يبلغوا القعرة والحماد ، وجنوبي الرطبة داخل الحدود العراقية ، ويجاورون إخوانهم الخرصة فيها ، وحد الفدعان الجنوبي هو الخط الممتد بين السخنة إلى وادي المياه ، وقد يشذ بعضهم عن هذه الخطة ، ويتوغل في بوادي العراق أو الحدود النجدية ، كما جرى في سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) بينما رئيساهم مجحم وعبد العزيز يشتيان في المعمورة في بيوتها ولا ينجعان مع أعرابها .

نسب الفدعان ـ قالوا إن جدهم الأعلى اسمه فدعان بن مفدع ، وأن فدعان أعقب ماجد ومنيع وفريد ، فمن ماجد جاء ضنأ ماجد الذي فيه قائل وولد سليمان والخريص (الخرصة) ، ومن منيع جاء ضنأ مانع الذي فيه الروس والشميلات والمهيد ، ومن فريد جاء ضنأ فريد الذي فيه العجاجرة والساري ، والضنأ الأول هو الذي صار يدعى (الخرصة) ، والضنأ الثاني والثالث صارا يدعيان (فدعان ولد) .

فرق الولد ـ تنقسم الولد إلى جذمين أو ضنأين هما ضنأ منيع وضنأ فريد . ففي ضنأ منيع المهيد ، وفي هذه الفرقة التي يرأسها الأمير مجحم بن مهيد أفخاذ الفوارس والحولات والدمخة والروابه والجريبان والأبو علي ، وفي ضنأ منيع أيضاً فرقة الشميلات التي يرأسها حاجم القصير ، وأفخاذها الجدعان والقشور ، وفيه فرقة الروس التي يرأسها بقراص القرح ، وفي هذه الفرقة من الأفخاذ القروح والفلاية والرشيش والحتمل والجمعة ، أما ضنأ فريد ففيه فرقة الساري التي يرأسها جريش بن قاعد ، وأفخاذها المسعود والمثلوثة ، وفيه

فرقة العجاجرة التي يرأسها خلف بن حريميس وأفخاذها الميس والحدبي والخلف والخماتيش والدهاوة ، ويلتحق بالولد الحوازم (الذين أصلهم من الصليب) ، وتلتحق أيضاً فرقة من العمور الجراح ، وهي في رئاسة إبراهيم الربيع ، وكل هؤلاء يدعون ولداً ، وربع الأمير مجحم بن مهيد ، لكن شأنهم كبقية العشائر يعيشون على هيئة أحياء صغيرة ، مبعثرة مستقلة ، لا تجتمع وتتلاقى إلا عند طارئ عظيم ، أو بأمر السلطات وجبر القوة العسكرية ، وذلك حين جباية ضريبة الودي والأغنام وما إلى ذلك .

رئاسة الولد - رئيس الولد هو الأمير مجحم بن تركي بن جدعان بن نايف بن خشم بن تركي آل مهيد المتولد في سنة ١٨٨٥ م ، وضبط البارون أوبنهايم اسمه في كتابه (مقحم) بالقاف ، وهو يعد أبرز رجالات البادية الشمالية قدراً وأبسطهم في الكرم والأريحية يداً ، وأشهرهم بارتفاع القدر واتساع الصدر ، وعلو الهمة ، واوسعهم روية ومعرفة ، واشتراكاً بأمور الإدارة والسياسة ، والحركات القومية في البلاد العربية ، قالوا إنه لما قتل تركي بن جدعان والد مجحم في إحدى معاركه مع الروالة ، كان مجحم وأخاه صغيرين لايستطيعان القيام بواجب المشيخة ، فرأت جدتها أم تركي أن تقيم لهما وصياً نائباً يتولى رئاسة الفدعان الولد ، ريثما يترعرعان ويبلغان أشدهما ، فوقع اختيارها يومئذ على أحد أبناء أعمامها وهو حاجم بن فاضل بن صالح آل مهيد ، وذهبت بالصغيرين وبحاجم إلى والي حلب إذ ذاك ، وطلبت إليه أن يقلد حاجماً المشيخة على الفدعان ريثما يكبر مجحم ، ففعل الوالي ما طلبته ، وتولى حاجم المشيخة سنيناً عديدة ولقب بباشا في عهد المرحوم الملك فيصل ، وبقي إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي في سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) وذاع صيته لما أعلن أهالي قضاء الرقة استقلالهم عن حكومتي دمشق وحلب اللتين استسلمتا ، وكلفوه أن يترأس لجنتهم الإدارية ، وقام وقتئذ لتعطيل التجارة بين حلب ودير الزور ، وللاستيلاء على حلب ، وسار بقوة بدوية كبيرة مع سرية من الجند التركي النظامي ، لكن الطيارات الفرنسية هاجمته ، وقصفت قوته وأرجعته ، ولما كبر مجحم واستحق المشيخة تخلى حاجم عنها له ، وانزوى لقرية تل السمن على البليخ ، وحوله عدد قليل من الحاشية إلى أن توفي في سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) .

وأول ذكر للأمير مجحم في كتب التاريخ ما جاء في تاريخ حلب لكامل الغزي

(ج ٣ ص ٦٤٤) في بحث سقوط حلب قال ماخلاصته : « أنه في محرم سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م) وحينما كانت حلب على وشك السقوط بيد الإنكليز والخروج من يد الترك والألمان ، أقبل على حلب من جهة باب النيرب طائفة من عرب عنزة الذين يرأسهم الشيخ مجحم المهيدي ، وكان موالياً للحكومة العثمانية ، وفي الأيام الأخيرة أعطته مبلغاً وافراً من النقود والسلاح ، وكلفته القيام بحراسة أطراف البلدة وبعض القرى المجاورة لها ، وحفظ بعض مدخرات الحبوب الكائنة في القرى ، كقرية الجبول ودير حافر وغيرهما ، ثم في هذه الأثناء قبضت الحكومة على بعض أشخاص من عشيرته فاغتاظ منها ، ولما علم باقتراب عرب الشريف من حلب أمر فرسانه بمهاجمة سجون حلب ، وأن يفتحوا أبوابها ، ويطلقوا منها سراح جميع السجناء ، ففعلوا ذلك بعد أن قتلوا حارس السجن ، ثم ساروا إلى منزل العساكر التركية في باب الفرج فقابلهم هؤلاء وردوهم ، إلخ ... » .

وفي عهد الملك فيصل خدع الأمير مجحم إذ ظن بفرنسا خيراً ، فانحاز لجانبها ، وأفتى بانتدابها أمام اللجنة الأميركية ، وخدم فرنسا وآزرها في إخضاع أنحاء الفرات ودير الزور في سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) ، فمنحته وسام جوقة الشرف ، كما منحته بعد إيطاليا وسام (تاج إيطاليا) لجمعه وإعادته مبلغاً من المال لطيار إيطالي وقع قضاءاً في البادية ، وفي سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م) قاد غزوةً كبيرة أغار بها على المنطقة التركية ، وفي سني ١٣٤٦ - و ١٣٤٩ هـ (١٩٢٨ و ١٩٣١ م) صار نائباً في المجلس النيابي السوري ، وكانت ظنونه بفرنسا قد تبدلت ، وآماله فيها تبددت ، فهجرها وانحاز إلى جانب الوطنيين في المجلس المذكور ، ومن ثم علت مكانته ، وأوشك بحكم ضعف الإدارة في الخرصة أن يجمع فريقي الفدعان (الولد والخرصة) كلهم تحت لوائه وقيادته ، ويصير (رئيس الفدعان) كلهم .

وفي تاريخ ٢٩ ايلول ١٩٣٠ م (١٣٤٩ هـ) غزا الفدعان عشيرة جيس في عقر دارهم حول الحدود التركية ، (وقد كان شق عليهم كثرة غارات جيس التي اشتد ساعدها ، بعد أن منحتها الحكومة التركية المال والعتاد) فاجتازوا الحدود ودهموهم ، واستاقوا مواشيهم ، وبينما هم راجعون لحقتهم جيس وحمي وطيس القتال ، واسترد جيس بعض مواشيهم ، وأصابت شظية من جيس الأمير مجحم فجرحت أنفه وأفرغت عينه فنقلته السلطة يوم ٢٨ منه إلى حلب بالطيارة ، وداوته حتى شفي .

قال الأب شارل اليسوعي في رسالته (التحضير بين الفرات والبليخ) ما تعريبه بتصرف : « أن رئيس الفدعان (الولد) الأمير مجحم بن مهيد من أشهر الشخصيات البارزة في البراري الشامية ، وأكرمها أخلاقاً ، ولد في سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) وتقلد رئاسة العشيرة في سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٣ م) وكانت هذه الرئاسة إلى ذلك الحين في يد ابن عمه حاكم (حاجم) ، وقد تزوج الأمير مجحم بادئ بدء فتاةً من الفدعان الخرصة ، فأولدها ثمانية منهم خمسة بنون ، أكبرهم نوري الذي يشاطر الآن أباه في إدارة بعض أمور العشيرة ورئاستها ، ثم بعده ابنته الجازية التي تزوجها راكان بن مرشد رئيس الأسبعة ، وبعدها جاء تركي وجدعان ومحمد ونايف ، ثم تزوج طرفة ابنة أخ نوري الشعلان ، فهو الآن صهر الروالة ، وابن حمى فهد الهذال رئيس العمارات ، وابن عم وصيه حاجم الذي توفي عن أخت مشعل باشا الفارس الجرباء ، كما هو ابن عم ـ في الدرجة ١٤ ـ لابن السعود ، وهكذا وصل شيخنا الكبير نسبته ورابطته بكل البيوتات الرفيعة في جزيرة العرب الشمالية .

والأمير مجحم زكي الفؤاد ، حر الفكر ، سخي جواد للغاية ، إذا جاءه بدوي فقير يطلب فرساً ، يلبيه في الحال ، وفي أيام المحل والقحط يتدارك الحب والطحين من جيبه ، ويطعم عشيرته ، وإذا كان المحصول قليلاً لا يطالب مرابيعه بشيء ، فهو بحق سيد جليل القدر ، ثم هو يقرأ صحف الأخبار ، وعلى اتصال مستمر مع الشخصيات الشامية والعراقية ، وكان نائباً في سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) و ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) و ١٣٤٩ هـ (١٩٣١ م) ، وهو يتناول من الخزينة الشامية تعويضاً سنوياً قدره ٥٠٠٠ ليرة لقاء قيامه بحفظ الأمن ، وفصل المنازعات في مناطق البادية ، وقد نال من فرنسا نيشان جوقة الشرف من درجة فارس ، ثم حدث أن طيارة افرنسية اضطرت إلى الهبوط قرب مخيمه ، فأكرم وفادة سائقها ، فرفع النيشان المذكور إلى درجة ضابط .

ويلومه عربه ، ولا سيما فرقة العجاجرة بأنه لا يتبدى قط ، وقد جرب أن يشرح فؤادهم مرة في شتاء سنة ١٩٤٠ م ، وهو يتلافى هذه النقيصة ـ التي أصبحت عمومية لدى كبار رؤساء البادية ـ بفضل سخائه وجوده المنقطعي النظير والمؤدية لنفع العشيرة .

فالأمير مجحم إذن يقوم بكل شيء محمود في البادية الشامية ويدافع عنه ، وهو لاريب أحسن من يمثل بحق (مكارم الأخلاق العربية) من حيث الشرف ، وتحمل

المسؤوليات ، والكرم والإنسانية ، والشجاعة والصراحة ، والعظمة الساذجة ، وهي صفات تشبه جداً ، وفي كثير من النواحي صفات فرسان العصور المتوسطة التي كانت في أوربا » ، وقال الأب شارل أيضاً :

(الثروة الإقطاعية لرؤساء الولد) يملك الأمير مجحم في جبل الشبيث أراضٍ واسعة تقدر مساحتها بـ ٥٠٠٠٠ هكتار ، فيها عشرون قرية ، ملتفة حول عاصمته المسماة جب العلي ، وهناك في جبل الشبيث خمس عشرة قرية أخرى لفلاحين لا علاقة له بهم ، وقد بنى الأمير في جب علي قصراً فخماً هندسه له أحد معماري تل أبيب ، وفي القصر ماء جار وحمامات ، ومضخات على الكهرباء وتدفئة مركزية ، أما قصره القديم فقد خصصه للضيوف ، وفي الجنوب الغربي من جبل الشبيث وفي أنحاء مسكنة على الفرات يملك الأمير مجحم أيضاً أملاكاً شاسعة ، انتقل كلها أو جلها إلى وكيل أموره وصرافه محمود سكر أحد تجار الحبوب والغنم في حلب ، وهناك أربع قرى في الشامية هي وريدة وملاح وتل فضة ومدينة الفار خالية من السكان ، يزرعها عبيد الأمير ولا يغشونها إلا حين البذر والحصاد ، وفي وريدة كان الأمير قد أنشأ بستاناً جميلاً لكنه أهمله يا للأسف ، والقيمة الحقيقية لهذه الأملاك في نظر رؤساء الفدعان هي لتأمين خطوط مواصلاتهم ، عند عبورهم الفرات بالاضطرار من عين عيسى في الجزيرة إلى جبل الشبيث في الشامية ، وتشبه مسكنة في حالها هذا لدى الفدعان حال عين الباردة لدى عشيرة الروالة ، لأن مزرعة عين الباردة ومربط الخيل الذي فيها يحرسان ممرات الجبل ، الآخذة من الجنوب إلى الشمال ، بين الحماد وديرة الشنبل .

وأكبر مركز لأملاك الأمير مجحم بعد الشبيث هو عين عيسى ، (في الجزيرة غربي البليخ وشمالي الرقة بـ ٥٠ كيلو متراً) فقد شاد الأمير فيه لنفسه ولحاشيته قباباً حسنة المقام ، ونبع عين عيسى غزير تنهل منه الإبل ، ويسيل جدول صغير ، وحوله سبع أو ثماني مزارع ، يديرها وكيل للأمير مستقر في عين عيسى ، وفي بعض هذه الأراضي ، يسرح قسمان من الفدعان من فرقة الشميلات ، وهؤلاء ما برحوا محتفظين بأطوارهم وعواطفهم البدوية القديمة ، كأهل إبل كبار ، لا يحرثون ولا يزرعون بأيديهم مهما عضهم الفقر بنابه ، بل يستخدمون غراوياً (وهو قروي غير منتسب لإحدى العشائر) ، والقاعدة أن

يدفع هؤلاء الفدعان للأمير ربع حاصلاتهم ، كأجرة أرض ، ثم يتقاسمون البقية مع فلاحهم الغراوي ، وفي البليخ يملك الأمير مجحم ثلاث مزارع في المرج ، كما يملك أيضاً بالاشتراك مع عشيرة التركان أراضي تل حمام التي كان اشتراها في سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) من أحد رعايا الترك بـ ١٥٠٠ ليرة ذهبية ، وإذ كان شروع المستأجرين بالأعمال الزراعية عسيراً ، بالنظر إلى أن هذا الشروع يرهقهم بالديون ، ويجعلهم أسراء أسراً اقتصادياً ، ففي سنين كهذه ترى الأمير كبيراً وكريماً إلى أبعد حد ، يترك حصته لشركائه سواء أكانوا فلاحين أو غنامة ، ولا يطالبهم بشيء .

وقيمة أملاك الأمير مجحم تبلغ رقماً هائلاً ، وجميع الأعمال من بيع الحبوب والخيل والغنم والبقر والصوف والسمن ، يقوم بها وكيله محمود سكر التاجر الصراف الذي بحثنا عنه ، فهو الذي يقرض الأمير ما يحتاجه من النقود لإطعام العشيرة ، أو لبناء المباني ، أو شراء السيارات ، أو الإقامة في فندق الحمراء في حلب ، وكل ما يلزم لشخصه وأسرته ، وجميع هذه الأعمال تجري بالثقة والتراضي ، وفاقاً لوقار سيد عربي عظيم ، يعلو على تفاصيل المحاسبة والمطالبة .

أما دحام بن حاجم فأغلب أملاكه تقع في تل السمن (على البليخ) ، فله هناك ٥ / ١٦ سهماً من ٣٤ ، لكنه في غرة سنة ١٩٤٥ م باعها إلى شركة الغزل والنسيج في حلب ، وراح يسكن في حلب ، وله أيضاً شمال مريبط قريتا الجرنية والناعورة ، وبين هاتين المنطقتين المتطرفتين ، له أيضاً محطات في البرية (بين وادي الحدية غرباً ، والبليخ شرقا ، ومن تل السمن شمالاً إلى الرقة جنوباً) وله أملاك في حدود المنطقة الجبلية ، شرع يحرثها ويزرعها ولو أنها ما برحت غير مأهولة كما ينبغي .

أما خليل بن حاجم فأحسن أملاكه المغلالة تقع على البليخ حول قرية الهيشة ، فهو يقيم في هذه الأملاك ، تارةً في الخيام ، وتارةً في القباب ، ويزرع له هذه الأراضي ، ولا سيا تلك التي على مجرى النهر ، فريق من العفادلة والأبو عساف والولدة ، وفلاحون آخرون غير منتسبين لعشيرة .

وهذه الأملاك والمزارع تحتاج كما لا يخفى للإدارة والمراقبة ، وتحتاج الإدارة والمراقبة إلى غدوات وروحات دائمة في السيارات ، أجل ، لقد شرع البدو منذ سنة ١٣٤٣ هـ



الأمير مجحم بن مهيد رئيس الفدعان

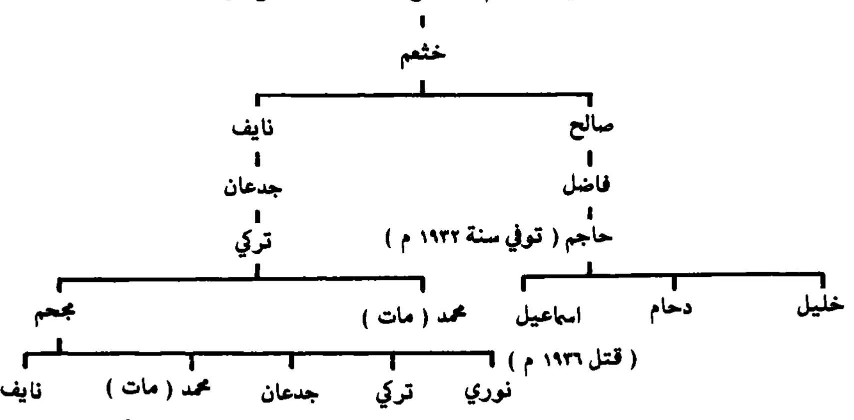
(١٩٢٥ م) يتخذون السيارات في سبل الغزو ، ففي سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) تمكن الأمير مجحم بفضل سياراته ، أن يلحق بغزاة من خيالة جيش (قيس) ، وأن يثأر منهم خسارة عينه التي كانوا أصابوها في إحدى غاراتهم السابقة ، وكان عدد هؤلاء الخيالة نحو ٢٠٠ ، وهم عوضاً عن أن يتراصوا ويقابلوا ، أخطؤوا بأن انهزموا وتشتتوا ، فلحقوهم بالسيارة ، وقتلوهم واحداً بعد واحد ، فظهر من ذلك أن السيارة أجدى من كتيبة خيالة بطيئة الحركة في النسبة ، ومن هنا حفظت السيارة المزايا الاقطاعية ، وصارت أقوى عامل في تحضر كبار رؤساء البادية وتمدنهم .

فالسيارات قد ساعدت الأمير على أن يتصل بأبعد حدوده ، فبفضلها صار وهو مستقر في عين عيسى ، أو مقيم في جب علي ، أو نازل في حلب لقضاء أشغاله ، يستطيع أن يستمر في إدارة فرق عشيرته الذاهبة لنجعة الشتاء ، سواء كانت في البشري داخل الحدود الشامية أم في القعرة داخل الحدود العراقية ، فهو يرسل في سياراته أوامره ويتلقى الأخبار والعلوم ، ويهرع عند الحاجة بنفسه لحل الاختلافات كحكم ، أو يصل إلى دمشق لتدبير بعض قضاياه المهمة لدى المفتشية العامة لمراقبة البدو ، أو لدى الحكومة الشامية ، ومع هذا كله تراه هو ونساءه وكل أبناء أسرته يستمرون حتى في الشتاء على عيشهم الرغيد في قصره الفخم ، هذا إلى أن بيت هذا الرئيس البدوي الكبير عظيم الثقل من وفرة المواد والمؤن والأثاث ، وهو لو أراد أن يتبدى وينجع ويحمل هذه الأشياء لاحتاج إلى ٣٠٠ بعير أو أكثر ، ثمن كل منها ١٠ ـ ١٥ ليرة ذهبية ، ومن هذا يدرك مبلغ ما يحتاجه هذا الحمل والنقل ، ومن هنا كان أوفر للأمير وأسرع أن يمتلك سيارة بويك من الطراز الأخير ، ويضع في كل من منازل النجعة عدة خيام وأثاث بيتية ، ثم يتنقل بين هذه المنازل على الأسلوب الأميركي .

وقد ضربت السيارات البداوة ضربة أخرى ، وذلك أن النقليات صارت في السيارات ، فتأخرت تجارة الإبل في بلاد الشام ، وقلت رغبة البدو في اقتنائها ، واتجهت نحو تربية الغنم التي تعد أسرع مجالاً للبيع وقبض النقود اللازمة في أسواق حلب » ، إنتهى ما قاله الأب شارل .

هذا وقد اشتهرت الفدعان بمزاياها الحربية ، وبرهنت عليها في وقائع كثيرة ، لاسيا

جدول نسب رؤساء الولد



في سنة ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) حينما نشبت الفتنة بينهم وبين الولدة (الأبي شعبان) ، واستظهروا على هؤلاء رغم قلتهم يومئذ .

ويذكر أن الفدعان الولد على صلات حسنة قوية مع الأسبعة ، بحكم أنهم أقارب من عنزة ، بينما هم في نفور مع عشائر حلب ، كالموالي والحديديين واللهيب ، وقد قاتلت هذه العشائر في سنة ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) من جراء النزاع على المراعي القريبة من خناصرة ، وحدثت معارك عديدة بين الفريقين إلى أن عقد الصلح في حلب في أواخر تلك السنة .

والفدعان عامة (الولد والخرصة) كانوا على صفاء ووئام مع عشيرة الولدة (الأبي شعبان) ، ولكن نواف بن حوران من بيت الرئاسة في الفدعان عكر هذا الصفاء ، وقد كان كثير الغارات والفتكات ، ويزعم أن له حقوقاً في جباية الخوة جبراً ، أو كما يقول الحضر : كان يأكل بحد السيف ، إلا أن الفتنة الشعواء لم تقع إلا في سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) من جراء النزاع على المراعي ، فحدثت عدة مناوشات قتل في إحداها إسماعيل بن حاجم ؛ فثأر له أخواه خليل ودحام وابن عمه النوري بن مجحم ، فقتلوا ثلاثة من الولدة (فرقة الناصر) وكانوا من أقارب محمد الفرج رئيس الولدة ، وعظم الخطب ، وانضم لكل من الفريقين أنصار ، فأنجدت الأسبعة الفدعان ، كما أنجد الأبو شعبان كلهم (العفادلة والسبخة والولدة) أقاربهم الولدة ، وذهبت أتعاب المتوسطين أدراج الرياح ، وعقد في صيف سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) مؤتمر في السبخة لفض الخلاف ، وهدأت الحالة

بعده بسبب نشوء الحرب العظمى وقتئذ ، إلى أن جاءت الخرصة تحاول اقتحام مناطق الولدة بحجة الجدب في مراعيها ، فاعترض الولدة على ذلك ، ولكن السلطة الفرنسية سمحت للخرصة بدخول مناطق الولدة ، فنزلوا قرب قرية المسطاحة غربي الرقة ، فلم يرق ذلك للولدة ، وهاجموا الخرصة في آب سنة ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م) ، وجرت عدة معارك استعمل الفريقان فيها رشاشات مما تركته جيوش فيشي الفرنسية ، ونهبت عدة قرى ، وراح من الفريقين عشرات القتلى ، إلى أن عقد مؤتمر للصلح بينهما في حلب في خريف تلك السنة ، وتقرر التعويض على الولدة بـ ٣٥٠٠٠ ليرة سورية دفعت خزينة دولة سورية نصفها وانتهى الأمر .

فدعان الخرصة

والخرصة يسمون أيضاً ضناً ماجد يعدون نحو ألف بيت ، وعندهم ٤٠٠ بعير و ٥٠٠٠ شاة و ١٥٠٠ فرس ، وليس لديهم أملاك إلا الشيخ عبد العزيز فإن له قرية غازلي على ضفة البليخ اليسرى ،والشيخ عبيد بن غبين له بعض الأرضين في قرية باجلية جنوبي شرقي تل أبيض ، والخرصة كأقاربهم الولد ذوو شهرة طائلة في الحرب والضرب ، وعندهم فيما قيل نحو ١٠٠٠ بندقية .

والاسم الصحيح للخرصة هو ضناً ماجد ،ورئاستهم الأصلية كانت في يد ابن غبين منذ قرون ،وكان هذا يسود على فريقي الولد والخرصة معاً ، وسبب افتراق الفدعان هذا كان بعد أن قام تركي بن مهيد الجد السادس للأمير مجحم وقتل جابر بن غبين ، والنفور مستحكم بين الفريقين أيضاً منذ بضعة قرون ، لما ذبحت رجال فريق الولد وكبراؤهم ولم يبق سوى أولادهم فدعوا من ثم بالولد ، وعدد الخرصة أكثر من الولد ، وروح الوثوب عندهم أقوى ، وكان آخر رئيس لهم مزود بن قعيشيش الملقب بالنمر ، ولما مات في سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) خلفه ابنه عبد العزيز .

لما وصلت الفدعان (الولد والخرصة) إلى براري الشامية في أول عهدهما اتحدتا مع الموالي التي كانت في عراك مع شمر ، ودفعتا شمراً نحو الشرق ، واستولتا على الأماكن التي استطابتها شمر ، كالسعن وسعين والكديم وأبو فياض ،ثم لما جاءت بقية عنزة وهي الأسبعة والعمارات (ضناً بشر) اشتد عضد الفدعان بها ، وتمكن الجميع من دفع شمر إلى الجزيرة .

وظلت تتدفق أمواج عنزة وتزاحم من سبقها ، فاضطرت الخرصة أن تزحف نحو الشمال ، حتى بلغت في أوائل القرن الهجري الحالي ضفاف الفرات ، فعبرته من غربي الرقة ، واستأنفت من ثم مطاردة شمر ومزاحمتها ، فدفعتها من ضفاف البليخ ، كما دفعت عشيرة جيس نحو الشمال حيث الحدود التركية الحالية ، وذر قرن الشقاق يومئذ بين فرعي الفدعان (الخرصة والولد) من جراء قيام الولد للتحكم في الخرصة ، ودام النزاع بينهما نحو خمس سنوات إلى أن تصالحا وأقرا الحالة الراهنة بينهما .

وإذ كانوا أعداء ألداء لشمر منذ أن كانا في الحجاز ونجد ، فقد ظل التناوش بين الخرصة وشمر مستمراً ، تحت سمع الفرنسيين وبصرهم سنين إلى أن عقد الصلح في سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) في دير الزور ، وهدأت الحالة إلا من بعض فتن صغيرة كانت تقوم من حين إلى آخر ، بسبب التنازع على مراعي جبل عبد العزيز ، وقد استفحل الأمر مرة في سنة ١٩٢٩ م ، وضربت الطائرات الفرنسية إبل شمر وأبعدتها ، إلى أن عقد مؤتمر في دير الزور في تلك السنة بين رؤساء شمر والفدعان ، وتصالح الفريقان صلحاً تاماً .

تنقسم الخرصة إلى ضنا خريص وضنا كحيل ، فضنا خريص في مشيخة عبد العزيز بن قعيشيش وهو يتفرع إلى (ضنا الحيدة) الذي فيه فرق عمارة والجفل والملحود والرمث ، و (ضنا مزرع) الذي فيه فرق الحذيلات والحشوتة ، و (ضنا عربان) الذي فيه فرق السلمة والتياسة والسمون والشلمة ، و (ضنا المكاثرة) الذي فيه فرق الصقار والشديدة والشلية ، ورئيس ضنا خريص عبد الرزاق العمير ، ورئيس ضنا مزرع أسود الحريجي ، ورئيس المجاشرة مدفع الرهيط ، ورئيس ضنا عربان عافت بن عربان ، ورئيس ضنا المكاثرة كريم المدهول ، أما ضنا كحيل أو قائل ففي مشيخة عبيد ابن غبين ، وفيه من الفرق الجدعة الذين يتفرعون إلى الهشلان والعليان والمتينة ، والغبين الذين يتفرعون إلى حمدان ودريان وسيدان ، ورئيس الجدع جاعد بن عرنان ، ورئيس الغبين عبيد بن غبين ، وآل غبين هم رؤساء كحيل ورؤساء ضنا بشر قاطبة من قبل ، ويعد هذا البيت من أقدم بيوتات عنزة ، يضعه النسابون مع بيت السعود في المرتبة الاجتماعية .

هذا والاتحاد والانضمام في الخرصة أقل مما هما لدى الولد من جراء الضعف والإهمال

في رئيسها الحالي عبد العزيز بن مزود بن قعيشيش ، حتى أن فرقة الخرصة شديدة التباين بعضها عن بعض ، وينجع كل منها لوحده ، ولا يعترف أحدهما بما يقره الآخر ويصالح عليه خصومه ، هذا إلى أن الخرصة في الجملة أقل ثروة ، ورؤساءهم أقل اهتماماً بالزراعة من رؤساء الولد ، وهم يعيشون على هامش منطقة التحضر في غربي الجزيرة .

وفي فصل الصيف تقيظ الخرصة في الجزيرة على طول نهر البليخ حتى تل أبيض ، وعلى طول الفرات من الرقة وما بعد ، ولم يسمح لهم قط بعبور الفرات إلى غربيه ، وإذ كانوا نزاعون إلى السلب والنهب يتحاشى الحضر شرهم جداً ، وسوقهم التجاري الرقة ودير الزور وتل أبيض ، وقد يبلغون حلب .

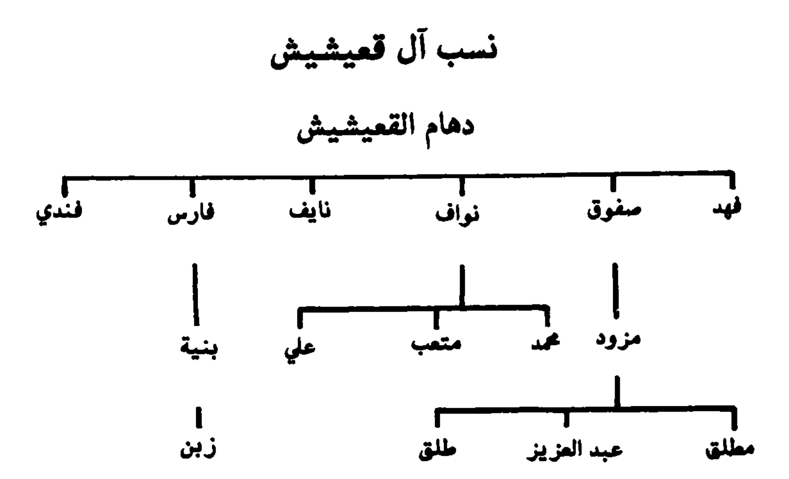
أما في الشتاء فينجعون براري الشامية حول جبل البشري ، ويبلغون القعرة ووادي المياه ، وحينما يدخلون الحدود العراقية ويقضون بضعة أشهر فيها ، يجهزون الغزوات على عشائر دمشق ، وخاصة على الروالة ، وفي سني الجدب ربما أوغلوا في غزواتهم ، وبلغوا الحدود العراقية .

وحوادث الحدود التي تقع بين المنطقة التركية والمنطقة الشامية كثيراً ما يكون أبطالها هم هؤلاء الخرصة ، لأن لهم بعض القرى قرب الحدود ، ويصلون إلى تل أبيض كما أسلفنا .

ويلتحق بالخرصة أعراب (ولد سليمان) ، وهؤلاء آخر فخذ من عنزة ورد من قلب الجزيرة إلى الشام ، ولايزال قسم كبير منهم متخلفاً هناك ، ومنازلهم كما جاء في كتاب جزيرة العرب لفؤاد حمزة بين تيماء وخيبر وبيضاء نثيل ، ورئيسهم العام العواجى ، وقد وفد بعض هؤلاء المتخلفين من سنة ١٣٣٩ هـ ، وانضم مدة مديدة إلى مجحم ، ثم انضم في سنة ١٣٤٣ هـ إلى مزود ، لكنهم وثبوا على قافلة عسكرية فرنسية في سنة ١٣٤٤ هـ في موقع أبي هريرة على الفرات ، فأدى هذا إلى أن تدفع عشيرة الفدعان غرامة باهظة ، ومن ثم عاد هؤلاء إلى شمالي الحجاز ، وجروا معهم البيوت التي اشتركت في هذه الفعلة ، وولد سليمان في ديار الشام يتألفون من فرق الخشة والسليمات والجعافرة والمقرة والفضيل والأليمة والغضاورة ، وهؤلاء يلتحقون عادة بضنأ كحيل ، ويقول المقدم مولر أن مزود بن قعيشيش لم يكن من أصل عنزي ، بل إن جده شمري ، وهو قد تطاول إلى الرئاسة منتهزاً

فرصة صغر ابن غبين أو عجزه ، وكان لمزود شهرة طائلة في البسالة وقيادة الحروب ويلقبونه بالنمر ، ومنذ أن منع الفرنسيون الغزو قلت مكانته هو وأمثاله من أبطال البادية ، إلى أن مات في سنة ١٩٢٩ م وخلفه ابنه عبد العزيز ، لكن هذا الشاب لم يرث أباه في الكفاءة ، وحسن القيادة وتصريف أمور العشيرة ، فأوجب انفضاض ضنا كحيل وضنا المكاثرة عنه ، ولم يبق حوله إلا ضنا الحيدة وضنا عربان في حالة غير مستقرة .

نسب آل قعيشيش



عشائر محافظة الجزيرة

عشائر محافظة الجزيرة

يقطن محافظة الجزيرة التي وصفنا مزاياها في الجزء الأول (ص ٢٠ وما بعدها) في أقضيتها الثلاثة القامشلي والحسيكة وديريك ـ عشائر عربية عديدة كبيرة ذات ثروة وسطوة ، بعضها حديث العهد بالورود كشمر وطيء ، وبعصها قديم يظن أنه من أنقاض العشائر العربية القديمة ، التي فتحت الجزيرة ، واستقرت فيها من قبل الإسلام وبعده ، منذ أن كانت هذه الأنحاء ديار بكر في الشمال ، وديار ربيعة في الشرق ، وديار مضر في الغرب ، ويقطن هذه المحافظة أيضاً بعض العشائر من الكرد الطارئين على الجزيرة من بلاد الكرد الشمالية ، ويليهم الشاشان الذين قدموا من بلاد القفقاس ، وقد فصلنا هؤلاء وأولئك في أبحاثهم الخاصة ، وبعض العشائر العربية القديمة في هذه المحافظة أكرهتهم شمر بعد مجيئها وتفوقها واغتصابها منازلهم على النزوح والابتعاد ، فراح فريق منهم إلى العراق ، وحل في شماله في الحويجة شرقي الدجلة كالعبيد والبيات والجحيش وبعض الجبور ، وراح فريق آخر نحو الشمال إلى قرب الحدود التركية كطيء وقطن فريق داخل الحدود التركية ، واشترك مع بقائه على بداوته كقيس .

إن عشائر الجزيرة الحالية تقطن في الأنحاء الشرقية والجنوبية من أراضي المحافظة ، وعلى ضفاف نهري الجغجع والخابور وروافدهما ، وتسيطر على أغلب الأراضي المسقية أو المعدة للسقي ، ونسبتها العددية نحو نصف سكان المحافظة على التقريب ، وأكثرها رحل ، وقلما تعنى ببناء دور ثابتة ، بل تميل للبقاء في بيوت الشعر ، لكن في السنين الأخيرة شرعت ببناء بيوت وقرى ثابتة ، في الأراضي المتروكة رغبة في تفوضها واستملاكها ، وذلك لما رأت أن البناء يسهل استملاك الأرضين من الدولة ، وبذلك أخذ يزداد ميلها نحو الحضارة والاستقرار ، كلما ذخرت غلالها ، وكثرت أرباحها من الحرث والزرع ، على أن

أكثر عناية هذه العشائر هو في تربية الماشية ، لاتفاق هذه المهنة مع غريزتها وحبها للحل والترحال .

شمر

شمر قبيلة عظيمة تلي قبيلة عنزة بكثرة الجموع ، ووفرة الفروع ، ومنعة الجانب ، وتمتاز بما لشيوخها وسرواتها آل الجربا (آل محمد) من الأصول الراسخة ، والأمجاد الباذخة ، وذيوع الصيت بالبطولة ، واتساع الملك والثروة ، ولاسيا بالمواقف الوطنية المحمودة ، مما سوف نذكره في الصحائف الآتية .

وأبناء هذه القبيلة يوصفون بكلمات زينو المحازم ، وعيون الحصن ، وعقبان ديم ، وسودان الروس ، وهم يقدرون بـ ١٥٠٠٠ بيت ، ثلثاهم في العراق ، وثلثهم في الشام ، مازالوا على بداوتهم الصحراء في الغالب ، يعيشون على تربية الإبل والغنم ، ويضربون في براري الجزيرة الفراتية ، وينجعون طلباً للكلأ نجعة بعيدة تمتد من الشمال إلى الجنوب من قرب القامشلي إلى أراضي أبي غريب غربي بغداد ، ومن الشرق إلى الغرب من جوار تل أعفر إلى ما بين الخابور والبليخ داخل البلاد الشامية والعراقية ، ومن ثم كان بعض شمر من تبعة الحكومة العراقية (لواء الموصل) وبعضها من تبعة الحكومة الشامية (السورية - محافظة الجزيرة) ، والحدود الموضوعة بين القطرين الشقيقين العراق والشام حدود وهمية ، تجتازها عشائر شمر في القطرين ، بكل حرية ويتصل بعضها ببعض ، ويشترك في السراء والضراء .

وتختلف شمر عن عنزة بأنها قحطانية وعنزة عدنانية ، وأنها ليست كعنزة من أرومة واحدة ، بل هي مجموعة عشائر متنوعة ومتفرقة وكثيرة ، بعضها يمت في أرومته إلى قبيلة طيء القديمة التي هي من قحطان ، ويعد هذا البعض أصل شمر ، وبعضها يمت إلى قبائل قحطانية أخرى بعيدة ، أي أنها تتفق جميعاً في الانتساب إلى نجار واحد هو القحطانية وإن بعدت فروعها ، ومساكنهم الأصلية في نجد جبلا طيء (أجا وسلمى) ، ثم اشتهروا باسم شمر كما اشتهر جبلا طيء المذكوران باسمهم ، بعد أن أزاحوا طيئاً وزبيد منه ، وحلوا محلهم فصار اسمه جبل شمر . قال حافظ وهبة في كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين) :

إن اسم جبل شمر يطلق على السهل الواسع الممتد بين جبلي أجا وسلمى الذي تسكنه قبائل شمر المشتغلة بالزراعة ، وفي شعاب هذا الجبل ينابيع غزيرة وأرضون خصبة ونخيل كثير ، والعاصمة حايل ، ومن قراه فيد وقفار وعقدة وتيماء ، وقال عباس العزاوي في كتابه (عشائر العراق) « إن شمر ليس جداً وإنما هو وصف لحقهم ، وذلك أنهم آخر من خرج من القحطانيين من اليمن ، وكانت قد ألحتهم السنون ، فهاجروا إلى أنحاء جبلي أجا وسلمى ، فوجدوا فيها قبائل طيء وزبيد فدفعوهم ، فمال هؤلاء إلى أنحاء العراق والشام وغيرها ، والظاهر أن هذه القبائل كان بينها خصام وخلاف ، فحالف قسم منها القبائل القحطانية القادمة من أنحاء اليمن ، فانتصر على عدوه ، ومن ثم استقل السلطة والرئاسة على قبائله والقبائل المتحالفة معه ، والكل يرجعون إلى القحطانية ، فإن طيئاً من قحطان أيضاً ، فصار الكل يدعى باسم البطن (شمر) المنتصر على عدوه ، وقيل للجميع (شمر) تقليداً ، وإلا فلا تزال قبائل عبدة من شمر تمت إلى القحطانية رأساً ، وقبائل الأسلم تمت إلى طيء ، وكذا قبائل زوبع » أ هـ .

وعشائر شمر المتفرقة في الأصول والمنابت قد اجتمعت من بعد ، وكونت مجموعة أحلاف قوية ، ثم نزح قسم كبير منها إلى العراق والشام ، وبقي قسم في نجد على ما سنذكره ، لكن العشائر الباقية في نجد ، والعشائر التي نزحت إلى الجزيرة الفراتية ، وإن كانت قد انفصلت جغرافياً ، إلا أن بطونها وأفخاذها هناك وهنا واحدة ، وصلة الرحم بينهما محكمة ، فترى أحياناً جماعات من شمر الجزيرة تذهب إلى نجد ، لقضاء فصل من فصول السنة طلباً للمرعى ، وترى جماعات ممن تخلفوا في نجد تنزح وتلتحق بأنسبائها في الجزيرة ، وهكذا دون انقطاع تام بين الأصول والفروع ، مما يجدد ويقوي أواصر القربى .

تاريخ شمر - إن هجرة عشائر شمر من أوطانها في نجد إلى ديار العراق والشام كانت متقطعةً ومتتاليةً ، كهجرة عشائر عنزة ، وقد حدثت مرتين ؛ الأولى قبل عنزة ، والثانية مع عنزة ، أو في نفس الوقت تقريباً ، جاء السابقون منهم في الهجرة الأولى على ما يظن في أوائل القرن الحادي عشر ، في عهد ولاة العراق المماليك ، وذلك بسبب المحل وضنك العيش في جبل شمر المذكور ، أي لأسباب اقتصادية ، فذهب بعض هؤلاء وقتئذ إلى

العراق ، لتفوقه في الخصب والري على الشام ، وصار فيه بعد حين طويل من العشائر المتحضرة الريفية ، فمن هذا القسم الصايح وزوبع وسنبس وغيرهم ممن يدعون هناك (شمر طوقة) ، وقد تتابع زحف هذه العشائر إلى شمالي العراق في أوقات مختلفة ، وكان كل فريق منهم يرد لأدنى فرجة يراها في صفوف العشائر التي مالت إلى الزراعة والحياة الريفية فتخلو له البادية ، وقصده بهذا الورود أن يتقوى ويعتز بأقاربه ، فلا تمضي مدة حتى يستكمل الفخذ عدده والعشيرة رجالها وهكذا ، ويذكر السائح الدانياركي نيبوهر أنه صادف جوعاً من شمر في حدود سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) في أنحاء هيت والكبيسة ، وأنه كان أكثرهم من فرق أسلم والزكاريط (عبدة)

ويروي المقدم مولر الفرنسي عن شمر حكاية هجرتهم هذه ، أنهم لما ألحت عليهم أعوام المحل وضنك العيش ، وفدوا إلى بادية الشام ، فشرعوا بمهاجمة تدمر ، فنهبوها وخربوها ، ثم أرادوا النفوذ إلى براري حمص وحماة التي جذبتهم بنضرتها ، فصدتهم عشيرة الموالي التي قدمنا بحثها مراراً ، وقد كان أمراؤها وضعوا وسط الحماد في موقع اسمه الحوة عموداً دعوه عمود الحمى ، منعوا اجتيازه على العشائر النجدية وغيرها ، وقد دام الصراع بين شمر والموالي وأحلافهم من العمور والحديديين زمناً طويلاً ، وكان سجالاً وبفترات ومهادنات كانت تختل بسرعة ، وفي وليمة كان رؤساء شمر ضيوفاً فيها على أمير الموالي ، غدر الموالي وذبحوا عدداً من الرؤساء المذكورين ، لا يزال شعراء شمر يذكرون مراثيهم ، وقد ثأرت شمر هذا الغدر ولم تتركه ، على أنه لما أعيتها الحيلة رجعت ونزلت في ضفاف الفرات اليمنى (الشامية) من أرض العراق ، كما قال السائح نيبوهر ، وكانت تصل غرباً إلى أنحاء الدير وجبل البشرى وجبل العمور ، ولكن بعد مدة وفدت طلائع عنزة (الأحسنة) في القرن الثاني عشر ، ولحقتها الفدعان ، فاتفقت عنزة مع الموالي ، وهاجمتها عدوتيها شمراً حول آبار الكديم وأبي فياض ، وأبعدتاها من براري الشامية ، فاضطرت شمر إلى الرجوع إلى نجد موطنها الأصلي ، وحاولت في رجوعها هذا أن تحتفظ بحريتها ومنعتها ، لكنها اصطدمت باستفحال الحركة الوهابية وانبساط الدولة السعودية ، فقد كان عبد العزيز بن محمد بن سعود وقتئذ (١١٧٩ ـ ١٢١٨ هـ) استولى على القصيم والجوف ، وبلغ في غزواته وغاراته العراق شمالاً ، وعمان جنوباً ، وعسير غرباً ، وقهر العشائر الثائرة كبني خالد ومطير وعتيبة وغيرها ، وضغط على البدو للدخول في طاعته ، وقبول الدعوة السلفية ،

وأمرهم بجز الشعاف (شعر الرأس) ، وتأدية الزكاة له وما ماثل ، فلم ترضخ شمر وقامت تناوئه ، واستعان بها وقتئذ شريف مكة وأمير الحجاز غالب بن مساعد في حروبه ضد الوهابيين سنة ١٢٠٥ هـ ، وكان هذا الشريف قد شكى للدولة استفحال الحركة الوهابية ، وبين لها خطرها على الجزيرة العربية ، كما شكى أسلافه مراراً ، فل تعر الدولة أذناً لدبيب الهرم فيها ، فلما يئس منها جهز هو فرقة عسكرية ، واستنجد بعشائر شمر وحرب ، فأقبلوا إليه بجموعهم ، فأضافهم إلى جنده ، وأرسلهم لمقاتلة الوهابيين ، فتوغلوا وتواقعوا معهم في مواقع مختلفة ، وفازوا في بادئ الأمر ، ثم رجعوا دون نتيجة حاسمة ، وقد أدى هذا الرجوع لتشدد عزائم الوهابيين ، وطغيانهم على أطراف الجزيرة العربية ، ولما رأت شمر التي خاصمت الوهابيين وعاركتهم ما أصابوه من رجحان ، أيقنت أنه لم يبق لها مقام ، فرحلت إلى سهول العراق نهائياً ، فجاءت في تلك السنة (١٢٠٥ هـ) وعلى رأسها آل محمد (الجربا) ومعها كل فرق الخرصة وسنجارة وبعض فرق العبدة ، يقود الجميع مطلق بن الحميدي بن جعيري بن مجرن (مقرن) آل الجربا ، ووصلت إلى أنحاء الوديان داخل الحدود العراقية الحالية ، ولما جاء سعود بن عبد العزيز آل سعود يوالي غاراته على أطراف العراق ، اشتركت شمر مع عشائر العراق في حربه ودفعه ، فقتل مطلق المذكور في إحدى المعارك (سنة ١٢١٢ هـ) وخلفه أخوه فارس الجرباء ، ووصلت بعد حين بقية عشائر عنزة كالفدعان والأسبعة والعمارات من شمالي الحجاز كما قدمنا ، ولنفس السبب الذي خرجت به شمر ، وهو المحل وضنك العيش في بلادها ، وشدة آل سعود التي أحاطت بهم ، نفذت هذه العشائر إلى براري حمص وحماة وحلب ودير الزور ، وصارت تصل في نجعتها إلى وادي عامج ووادي حوران ، وتزاحم شمراً على المراعي والمناهل ، ورأت شمر قلتها إزاء خصومها الكثر ، فاضطرت إلى أن تعبر الفرات وتنساح في سهول الجزيرة الفراتية ، وتستولي عليها تدريجياً من نصيبين حتى قرب بغداد ، وقد زاحمت وقتئذ وأزاحت العشائر القديمة المستقرة في تلك الأنحاء ، كطيء والعبيد والبيات وجيس وغيرها ، وصار أكثر هؤلاء يدفع لها الخوة ، ويعزف عن البداوة ، ويمتد في الحويجة بين جبل حمرين والدجلة ، ويحرث ويزرع ، ولم يتملص من دفع الخوة ويبقى في مكانه إلا عشيرة طيء ، لكرم محتدها ، ولقرابتها القديمة من شمر ، وقد اكتفت بتزويج بعض بناتها إلى رؤساء شمر .

ومما تتناقله الألسن ؛ أن فارس الجرباء المذكور لما رأى أن سبل العودة إلى نجد مع

عشيرته شمر قد سدت ، وأن موقفه صار مهدداً بالخطر ، لمتابعة السعوديين الهجمات على أطراف العراق ، وكان قد تحقق من أن الجزيرة العربية الفراتية أكثر أماناً له ولعشيرته ، عبر الفرات من موقع هيت في أوائل سنة ١٢١٦ هـ مع خمسين بيتاً من عشيرته الخرصة ، وكانت السيطرة الكاملة فى الجزيرة لعشيرتي العبيد وطيء ، واستقراره فيها كان متوقفاً على محاسنة هاتين العشيرتين ، فلم يغفل عن هذا ، فأسرع إلى جوار العبيد أولاً ملتجئاً إلى حماية شيخها حمد الظاهر ، فتلقاه هذا بالترحاب ، وكانت العادة المتبعة لدى العشائر البدوية تقضي على العشيرة أو الفرقة النازلة مجدداً أن تقيم هي أولاً وليمة عامة تدعي إليها العشيرة أو العشائر القاطنة الأولى ، لتكون هذه الوليمة مقدمة للتعارف والتآلف بينهما ، فأقام فارس الجرباء وليمة عامة دعى إليها شيخ العبيد ، وشيخ طيء وشيخ الجبور وغيرهم ، وقدم لهم منسفاً كبيراً جداً فيه ناقة مطبوخة كما هي ، وفي أطراف المنسف سكاكين مربوطة بالسلاسل لقطع اللحم ، فاستعظم المدعوون ما رأوه واسترابوا ، وقالوا لبعضهم أن حالة هذا الرجل تدل على جلالة قدره ، ولا بد أن تكون عشائر كثيرة وراءه ، وستلحقه إلى الجزيرة إن عاجلاً أو آجلاً ، فالرأي الصواب أن نقضي على هذه الشرذمة قبل أن تزداد بما يرد إليها ويستفحل أمرها ، وفي رواية أن الذي أشار بهذا الرأي كان شيخ العبيد أحد المدعوين للوليمة ، فلم يرق ذلك إلى البقية ، وقالوا إن هذا الرجل جاءنا نزيلاً ، ولم يأت محارباً ، فحدث بعد ما خشي منه صاحب المشورة .

لأن فارس الجرباء بعد أن استقر في الجزيرة شرع يوالي الرسل والرسائل إلى عشائره النازلة في أنحاء الشامية المختلفة ، ويدعوها إلى اللحاق به ، وزيادة لها في الإغراء والتشويق كان يحشو حدج الإبل والركائب الذاهبة إليها من كلأ الجزيرة وأعشابها المتنوعة ، الصالحة لرعي جميع أجناس المواشي ، فهرعت إليه عشائر شمر من كل صوب وحدب ، ولم يطلع عام ١٢١٧ هـ حتى كانت حوله بكاملها ، سيما وأن السعوديين كانوا يتابعون هجماتهم على أطراف العراق ، ويوالوا طروقهم مضارب الأعراب المخيمين هناك لاستحصال الزكاة ، مما عجل في عبور تلك العشائر ، وامتلاء الجزيرة بموجة نجدية بدوية كبيرة ، وكان أول فعل لفارس أن هاجم العبيد ، وفتك بها فتكةً فظيعةً ، وأكرهها على مغادرة الجزيرة ، والانتقال إلى الحويجة شرقي الدجلة ، وألحق بها بعد عشائر أخرى ، كالبيات والجحيش ، ولم يسلم من ضغطه إلا عشيرة طيء التي صاهرته وأمنت جانبه .

وقد أدت تلك الهجرة إلى انقسام شمر إلى قسمين متباينين جغرافياً وسياسياً ، القسم الأول : شمر الجبل لإقامتهم في الجبلين المعروفين في نجد باسم أجا وسلمى ، وهم عشائر رحالة ، وإن كان لأكثرهم مزارع ومغارس ، وهذه العشائر ظلت في نجد ، والتفت حول الأمراء آل رشيد أصحاب مدينة حائل ، وآل الرشيد كانوا يسيطرون ـ وخاصةً في عهد الأمير محمد بن عبد الله الرشيد (١٢٨٨ ـ ١٣١٥ هـ) على سائر البلاد النجدية ، من وادي السرحان إلى وادي الدواسر ، ومن تيماء وخيبر إلى قرب الخليج العربي ، وكثيراً ما كانت سلطة محمد الرشيد تمتد إلى تدمر وجبال حوران ، وهذا الأمير هو الذي زارته الرحالة والمستشرقة الإنكليزية اللادي بلانت المشهورة ، المغرمة بالبلاد العربية عامة ، والخيول الأصيلة العربية خاصةً ، وقد قدمنا ذكرها والكتاب الذي ألفته عن رحلتها إلى حائل سنة ١٢٩٧ هـ في فصل مكتبة البدو (ج ١ ص ١٥) ، وكان الأمير محمد صديق السلطان عبد الحميد ، كما كان أقاربه آل الرشيد حلفاء الترك وأنصارهم ، حتى نهاية الحرب العظمى الأولى ، ولكنهم بعد وفاة الأمير محمد المذكور قضوا أيامهم في التنازع والتناحر ، ودامت إمارتهم إلى سنة ١٣٤٠ هـ التي ضم الملك عبد العزيز آل سعود فيها بلادهم وطوى بساطهم .

القسم الثاني : شمر الجرباء ، وهم أفراد العشائر الأربع التي تقدم ذكرها : الخرصة وسنجارة والعبدة وأسلم الذين خرجوا من ديارهم في نجد ، وهاجروا إلى العراق والشام ، بقيادة الرؤساء آل محمد (الجرباء) ، وتاريخ هؤلاء بعد هذه الهجرة سحابة القرن الثالث عشر سلسلة متصلة الحلقات من الغزوات والغارات على عنزة أعدائهم القدماء ، ثم على العشائر الريفية التي أجلوها عن منازلها ، أو أقضوا مضاجعها ، واضطروها إلى العزوف عن البداوة والاتجاه نحو الفلاحة ، ثم على السعوديين الذين كانوا يفدون الحين بعد الحين إلى العراق ، ثم على جند الدولة العثمانية وموظفيها ، ثم على قرى الكرد والتركمان وغيرها .

إلا أنهم لم يبرزوا إلى الساحة كقوة سياسية إلا في سنة ١٢٣٧ هـ ، حينما استعانت الدولة بهم ، وبغيرهم من العشائر على حرب العجم ، في أيام الشيخ صفوق بن فارس الملقب بالمحزم ، لأنه ما رفع من وسطه حزام الحرب أبداً ، وقد أبلوا وقتئذ أحسن بلاء وردوا العجم ، وكان صفوق هذا بطلاً مغواراً ، قيل أنه حارب الموالي في براري حلب وحماة ، كما حارب عنزة مراراً ، وقد لقبوه وقتئذ بسلطان البر ، وهو لما رأى تغير الولاة في

بغداد ، ولم يحصل على الجعل الذي كان موعوداً به ، لقاء بلائه في حرب العجم ، انقلب على الدولة وناوشها القتال ، وهي إذ رأت عجزها عن دفعه ، استعانت بعنزة (الروالة) ، فزحفت هذه، تريد الفتك بشمر عدوتها القديمة ، وجرت معركتان كبيرتان ، كان النصر في الأولى لشمر ، وفي الثانية لعنزة (١٢٣٨ و ١٢٣٩ هـ) ، واندفعت عنزة على أثر هذا النصر تفحش وتنهب ، وتحاصر بغداد ، ولما هال والي بغداد تفاقم الخطب ، استجاش عشائر العراق الريفية ، فتوفقت هذه في رد عنزة ، ومن ذلك الحين حتى سنة ١٢٨٧ هـ اشترك صفوق في كل الفتن التي أزعجت العراق ، إلى أن قتله الترك في سنة ١٢٥٦ هـ .

وأعقب صفوق عدة أولاد ؛ منهم عبد الكريم ، صلب في سنة ١٢٨٥ هـ ، بعد أن نهب الموصل ، وعبد الرزاق قتل في إحدى المعارك ضد جند الدولة ، وبقي فرحان وفارس ، وهذان كانا عاقلين ، عاشا مع الدولة بسلام ، ونالا رتبة الباشوية ، وتقاسما النفوذ على شمر ، فارس في الشمال يقود شمر التابعين لمتصرفي دير الزور ، وفرحان في الجنوب يقود شمر التابعين لولاة بغداد ، لكن الرئاسة العليا كانت لفرحان ، ففي زمنه ظلت شمر مجتمعة الكلمة موفورة الكرامة ، غير أنه أعقب أولاداً عديدين من نساء مختلفات ، ينتسبن إلى عشائر مختلفة ، فكثر بنوه وأحفاده ، وتقاسموا بعد موته نفوذ العشيرة ومناطق الخوة فيما بينهم ، فاشتد النزاع وذهبت الريح ، وأصبحت الرئاسة بيد أبنائه مجول والعاصي تارةً ، والحميدي تارةً أخرى ، وأكثر شيوخ فرق شمر هم أولاد فرحان باشا وأحفاده ، الذين يتكنون بإحدى نسائه ، كآل جزعة الشمرية ، وآل درة الطائية ، وآل سرحة الزوبعية ، وآل أرطية المحمدية ، وآل جرجرية الكردية ، وغيرهم . أما الشيوخ العمشات فهم أبناء صفوق المحزم من زوجته عمشة الطائية ، وهم عبد الكريم وفرحان وفارس وعبد الرزاق ومحمد .

وخلال الحرب العظمى الأولى ، كانت شمر تعادي الإنكليز وتوالي الدولة العثمانية ، وبعد تلك الحرب اشتد نزاع رؤساء شمر بعضهم على بعض ، واستمر مدة عشر سنوات (١٣٣٧ ـ ١٣٤٧ هـ) ، وزاد في الطين بلة انقسام منازلهم بين دولتي انتداب متجاورتين إنكلترة وفرنسا ، ولعبت السياسة أدوارها ، وبعد الاحتلال سكن العاصي بن فرحان المنطقة الشمالية ، وأظهر أنه لا يتداخل بشؤون العراق ، فاستلم المشيخة على شمر العراق

حفيده دهام الهادي مستمداً من نفوذ جده المذكور ، غير أن ابن عمه الشيخ عجيل الياور نازعه عليها ، فمالت السلطة الإنكليزية والحكومة العراقية إلى الشيخ عجيل ، لما توسمتا فيه من النباهة والنفوذ ، وأصبح شيخاً على عشائر شمر التي تقطن العراق ، أما المشيخة على عشائر شمر التي تقطن المنطقة الشامية (السورية) فقد ظلت في يد مشعل الفارس مدة مديدة ، وكان ينازعه عليها دهام الهادي ، إلى أن استقر الأمر في سنة ١٣٤٧ هـ على الوجه الآتي :

ظل شمر العراق داخل الحدود العراقية في البراري الممتدة غربي الموصل وبغداد ، وهذا الفرع هو الذي كان مرتبطاً في عهد الدولة العثمانية بولاة بغداد ، وتابعاً إلى فرحان باشا المتقدم ذكره ، وقد استلم رئاسته بعد الاحتلال الشيخ عجيل (عقيل) بن عبد العزيز بن فرحان من آل درة الطائية ، الملقب بالياور ، لأنه حين ولد صدف وجود ياور (مرافق) والي الموصل في منزل أبيه ، وكان رحمه الله - على ما عرفته - طويلاً جسيماً ، وسيماً أنيقاً ، وكان أعظم رؤساء البادية العراقية في الملك والثراء ، ورجاحة الفكر ، والاهتمام بالقضايا العامة ، وأكثرهم اتصالاً بالمرحوم الملك فيصل بولاة الأمور في داخل العراق ، وبعظماء الشرق والغرب في خارج العراق ، وأوفرهم نوالاً لاحترامهم ، دعاه الإنكليز في سنة ١٣٥٣ هـ إلى لندن لحضور حفلة تتويج الملك جورج السادس ، في جملة من دعوا من ملوك الأرض وكبرائها ، فزار مدن أوربا وزادت معرفته ، وبعد رجوعه عكف على الزراعة الحديثة في أملاكه الشاسعة ، قرب محطة تل كوشك على سكة حديد الموصل ، وجلب سواحب وأدوات زراعية فنية ، وهو ما إن تقدم فيها خطوات ، وشرع يجني بعض الثمرات ، وأوشك أن يكون في هذا المضمار خير مثال لغيره من رؤساء العشائر ، وكبار الملاكين ، حتى فاجأته المنية سنة ١٣٥٩ هـ ، فخلفه في مشيخة مشايخ شمر العراق ابنه صفوق المتعلم في جامعة بيروت الأميركية .

أما فروع شمر التي أصبحت داخل الحدود الشامية (السورية) في محافظة الجزيرة فهي : أولاً (شمر الزور أو شمر العمشات) ، وهو الفرع الذي كان يديره قديماً فارس باشا أخو فرحان باشا ، وكان هذا مرتبطاً بمتصرفي دير الزور ، مما دعا لتسميته بشمر الزور ، ثانياً (شمر الحدود أو شمر دهام) المنفصل عن شمر العراق القديم ، الذي كان يسوده فرحان

باشا ، وأغلب عشائر الفرع الأول من سنجارة ، وأغلب عشـائر الفرع الثـاني من الخرصـة ، كما سيأتي شرحه .

أقسام شمر ـ قلنا أن عشائر شمر تقسم إلى قسمين :

١ : شمر الجبل أو شمر ابن الرشيـد ، وهم الـذين ظلـوا في بـلادهم الأصليـة في نجـد ، وصاروا من رعايا جلالة الملـك عبـد العزيز ابن سعود ، بعـد أن كانوا قبلاً تحت إمـارة آل الرشيد الذين طويت صحيفتهم في سنة ١٣٤١ هـ .

٢ : شمر الجربـاء . هؤلاء هم العشـائر التي انضوت إلى لواء آل الجربـاء ، وجـاءت إلى الجزيرة نازحة من نجد ، وهي أربع عشائر غير متساوية العدد والمكانة والأرومة والحـالـة ، تدعى الخرصة وسنجارة والعبدة وأسلم ، وهم لا يفترقون عن عشائر شمر الجبل المتخلفون في نجد ، إذ نجد بعض أفخاذهم مشترك في نجد ، وفي العراق وفي الشـام ، ممـا يـدل على هجرتهم إلى هذه الأنحاء وتوزعهم فيها كما سنذكره .

وهذه العشائر هي كما قدمنا من حيث الأصل ، إما (طائية) ترجع إلى قبيلـة طيء التاريخية من عهد بعيد جداً ، كالخرصة وسنجارة وأسلم بما فيهم آل الجرباء ، ولو أن الصلـة مفقودة بين هذه العشائر ، وبين قبيلة طيء المعروفة في زماننـا إلا قليلاً من المصـاهرة التي حدثت من عهد قريب ، وأما هي (قحطانية) غير طائية كالعبدة ومن إليها .

وتفريع هـذه العشـائر وأسماء بطونهـا وأفخـاذهـا اختلفت فيـه الأقوال وتضـاربت ، وحيرت الباحثين ، وجعلتهم يأخذون بالظن والترجيح ، ويقبلون بوجود ثغرات وشوارد ، كما قـال بـذلـك المستشرق الفرنسي مـونتـاني ، الـذي ظـل مـدة سنتين بين ظهراني شمر ، ويستعين بعشرات المحققين ، ومع ذلك فقـد اعترف أخيراً بـأنـه لم يبلغ الغـايـة من الصحـة والدقة ، بحكم أن العشائر الشمرية متنقلة ومقسومة إلى شطرين في نجد والجزيرة ، ومتباعد بعضها عن بعض ، وفروعها تتأرجح بين الزيادة تارة والنقص أخرى ، وقـد ألف المستشرق المذكور كتاباً قيماً عن شمر وتاريخها ، وحكاياتها وقصائدها الغرامية والحربية اسمـه (قصص شعرية بدوية ملتقطة عند شمر الجزيرة)[١] ، نشره معهـد الـدراسـات الشرقيـة الفرنسي في دمشق عام ١٩٣٩ م .

(١) R. montagne, contes poétiques bédouins (recuillis chez les Schammar de Geziŕ 1936)

لهذا فنحن سنأخذ أهم الأسماء التي جاءت في كتاب المستشرق المذكور ، وفي كتاب (عشائر العراق) لعباس العزاوي ونقول :

سنجارة

« عشيرة شمرية كبيرة ، طائية الأصل ، ومن فريق الحريث من طيء خاصة ، وهذا على رغم فقدان الصلة بين العشائر الشمرية الطائية ، وبين عشيرة طيء المعروفة في زماننا ، إلا قليلاً من المصاهرة التي لم تحل دون هذا البعاد العريق في قدمه ، وعشيرة سنجارة هي قريبة عشيرة زوبع التي في العراق ، حتى أن نخوتها العامة (زوبع) ، ونخوتها الخاصة (جدعة) ، واسم سنجارة جاءهم فيا زعموه من جدهم الأعلى ، الذي ربته جارية اسمها سنجارة ، فسموا بذلك ، ورئيسهم بعد آل محمد هو (الأحدب) ، وهم من أعظم عشائر شمر ، بعضهم في نجد ، وبعضهم في العراق والشام (سورية) ، وهم عندنا حصة آل عمشة من الرؤساء ، وفي هذه العشيرة فرقتان كبيرتان هما الثابت والفداغة ، وهناك فرقة ثالثة هي (العامود) منهم من يلحقها بسنجارة ، ومنهم من يلحقها بالخرصة .

أما الثابت ففيها من البطون (آل زرعة) في مشيخة صعب بن متعب الأحدب ، وأفخاذهم آل عكبة في مشيخة ظاهر الرويس ، وفنودهم الوضحان والشرارة والجودان والروسان ، ثم (آل جاسم) وفنودهم الحدبان وآل وسيد ، ثم (الحذانا) وأفخاذهم آل نجم في مشيخة ابن محيثل ، وفنودهم المثيتة والدجارة ، ثم (آل عمار) في مشيخة ابن محيثل أيضاً ، وفنودهم العجارشة والدياب .

أما الفدّاغة التي رئيسها هجر بن وتيد ، ففيها من البطون الزملات والحميّر والطيور ، فمن أفخاذهم الزملات الحبسا واللوبان ، ومن الحمير الغريب رهط ابن أبي وتيد رئيس الفداغة كلها والمطعات والرثعة وآل سيد وآل سويد والغفيلة ، ومن الطيور النابت والكذور والبواريد ، ويعد من شيوخهم الكبار محمد بن أبي وتيد وخليف اللكلك ، ويذكر المسيو مونتاني المستشرق الفرنسي عن الفداغة هذه ، أنهم بعدوا عن البداوة ، ومالوا إلى الحضارة بحكم اشتغالهم بالزراعة ، واتصالهم برؤساء الأكراد ووجهاء النصارى ، وقد قلت نجعتهم حتى كادت لا تمتاز عن نجعة الأكراد ، ووقعت فرقتهم في تشتت وخذلان ،

بحكم كثرة زواج أبناء هذه الفرق ببنات العشائر الريفية ، وفي الفداغة أناس ما برحوا على اتصالهم مع أقاربهم الذين في حويجة العراق ، شرقي الدجلة الباقين على بداوتهم ، وأناس قد انصرفوا بالمرة لحياة الحضارة ، وكادت صلتهم تنقطع مع نجد ، ولم يعد يأتيهم أناس من البادية يذكرونهم بأخبارهم وأساطيرهم الغابرة ، وهم وإن كانوا يحفظون أسماء أبطالهم السالفين ، لكنهم يجهلون قصصهم ، حتى أن لهجتهم قد تبدلت ، وصارت تماثل لهجة الشوايا باللفظ وكثرة المفردات ، وأكثر فرق هذه العشيرة تحضراً واستقراراً هم القاطنون في الحويجة وقرب بغداد ، ولم يبق مثلاً عند الصايح وزوبع إلا بضعة طوائف من الرعاة ، أما أكثر الفرق فقد تحضر واستقر ، وصار يتكلم لغة الفلاحين » . اهـ

ويؤيد هذا القول ما جاء في كتاب (عشائر العراق) أن الفداغة فرقة من سنجارة ، ويعدون من زوبع ، وأساساً الكل من زوبع لما بينهم من اتصال قريب ، ففداغة العراق يسكنون في أراضي اليوسفية ، أما بقية زوبع فيسكنون أراضي أبي غريب غربي بغداد ، على أن قسماً منهم لا يزال في البادية مع سنجارة ، ويعيش في البداوة . اهـ . ويذكر من رؤساء الفداغة في الجزيرة مطيران الزعيتر والوضيحان .

أما العامود ففيها من البطون الغضا والتجاغفة والخلف ، وهذه الفرقة أقل من غيرها عدداً ، ويقال أن لها أقرباء كثيرين في نجد ، وقد اشتهر فيها الشيخ حسن العامود بأنه من أشهر العوارف .

الخرصة

عشيرة شمرية كبيرة طائية الأصل ، وهم أقرب عشائر شمر إلى آل الجرباء ، وأشدهم تعلقاً بهم ، وتعضيداً لهم ، ونخوتهم (سيافة) ، قسم منهم الآن في العراق مع الشيخ صفوق بن عجيل الياور ، وقسم في بلاد الشام (سورية) مع الشيخ دهام الهادي ، وفرقهم الغثم والهضبة والبريخ والبهان والصبحة والعليان والحصنة ، وهناك من يجعل فرقة العامود التي ذكرناها في بحث سنجارة من جملة الخرصة ، وتتفرع هذه الفرق إلى بطون وأفخاذ كثيرة في بحث نقتصر منها على ما يلي : ففي الغثم بطون الصبحة والملحان ، وفي العليان العكاب والمعزي والسبية والحثاربة والدايس والشحاذة والطرابلة ،

وفي البريج البهيمان والولفة والماجد والسعدي والحصنة ، ومن شيوخ الخرصة يذكر حاجم بن غشم في الغشم ، وبردان بن جليدان في الهضبة ، وابن دايس في العليان ، والقعيط في البريج وابن سعدي في الحصنة ، والفند في الصبحة ، ومن عوارفهم ابن سعدي وابن هديد ، ويعد آل دايس في العليان من أعرق البيوت في الخرصة ، ومقامه يأتي بين الرؤساء بعد آل محمد ، ويليه القعيط في البريج .

العبدة

عشيرة شمرية قحطانية الأصل نخوتها (سنا عيسى) وهي التي كانت سائدةً في نجد قبل مئتي سنة ، ويكفي أن يذكر أن آل علي وآل الرشيد حكام نجد السابقين كانوا منها ، ولا يزال لها هناك منازل وأملاك مهمة ، وقد نزح قسم كبير منها إلى الجزيرة من عهد قريب ، هرباً من آل سعود بعد احتلالهم (حائل) وطيهم بساط آل الرشيد ، فزادوا بذلك عدد العبدة ، وهي تنقسم إلى جذمين أو صنجين : اليحيا والربيعية ، ففي الجزيرة من (صنج اليحيا) فرقة الفضيل التي رئيسها عقاب بن عجل ، وهو رئيس العبدة كلها ، وعارفة الجميع ، وفي هذه الفرقة أفخاذ المياخة والشرمان والشريب والعجل والحيساج ، وفرقة المفضل التي رئيسها دايس بن جبول ، وفيها أفخاذ الجبول والمنيس وبني سعد وبني ندا والعيراب والزبدة والمساعيد ، وأخيراً فرقة الشميلة ، وفي الجزيرة من (صنج الربيعية) فرق الهامل والجدي والدغيرات (وهي في نجد أكثر منها في الجزيرة) والعفاريت والزكاريط والمراد والحيسن ، ومن شيوخ العبدة ابن عجل وابن سنجي أحد شيوخ العفاريت ، يملكان وحدهما أرضين في قضاء تل أعفر غربي الموصل ، ومن عوارفهم مسلط بن شريم من اليحيا ، وجزاع بن عنيزان من الجدي .

أما في نجد فللعبدة أملاك ومزارع كثيرة ، يستغلونها بأيدي فلاحين حضر من جبل أجا ، ومنهم هناك من صنج اليحيا فرق المفضل والفضيل والعزي والغزال ، ومن صنج الربيعة فرق الجعفر (الذي منها آل علي حكام جبل شمر قديماً قبل آل رشيد المعدودون من الجعفر أيضاً) والجندة والدغيرات والحسين ، ومنهم فرقة الجيطة ، تتبدى في النفود غالباً .

الأسلم

عشيرة شمرية طائية ، هي أقل عدداً من غيرها ، ولا يزال لها بساتين نخيل في جبل سلمى ، وإليها ينتسب بهيج وسنبس ، اللذان كانا من رؤساء شمر الكبار في زمن بعيد ، وقد جاءت منها بضع فرق إلى الجزيرة من عهد قريب ، وفرقها : أنبيجان في مشيخة دياب بن حسان رئيس الأسلم كلها ، ومن فروع هذه الفرقة اللحالحة والهدر والجباريت والحذلة واللهيب الذين أصلهم من الجبور ، والتحقوا بشمر من زمن بعيد ، والبعير في مشيخة حواس السراي والجحيش ، وهم غير الجحيش من زبيد ، في مشيخة خلف بن دليان ، والواهب في مشيخة محمد بن ضاري بن طوالة رئيس الأسلم في نجد ، وأخيراً المسعود .

هذا والأسلم ومعها عشائر الصبحي والزميل والتومان تسمى (عشائر الصايح أو الصوايح) لأنهم تصايحوا حينما انضووا إلى لواء الصديد في نزاعه مع الجرباء ، وكان الصديد من الصبحي إحدى عشائر الصايح أيضاً ، على رغم أنهم في الأصل من الجرباء ، ثم تنازعوا وافترقوا عنهم ، ومن فرق الصديد الميامين والخماس والوحدان والشبيش .

التومان

عشيرة شمرية صغيرة مستقلة ، اشتقت من سنجارة ، ومن فرقة الثابت ، وغالبهم في أنحاء الموصل ، وبطونهم الهدبة ، وفيه أفخاذ السهيل والربعة والعودة والجمازة ، والمجرن وفيه أفخاذ الطويلة واليعيش والسيد .

قدمنا في حديثنا عن تاريخ شمر أن فروع هذه القبيلة التي ظلت داخل البلاد الشامية ، واستقرت في محافظة الجزيرة تنقسم إلى (شمر الزور و شمر الحدود) حسب التعبير الذي وضعه الفرنسيون في أول احتلالهم ، بالنسبة لما وجدوا عليه هذه الفروع وقتئذ ، وإذا كان هذان القسمان هما اللذان يتعلقان بموضوع كتابنا نقول :

شمر الزور

هؤلاء من عشيرة سنجارة التي تقدم ذكرها وتفريعها ، ويسمون أيضاً شمر

العمشات ، بحكم أنهم حصة آل عمشة الطائية ، المتحدرين من عبد الكريم ، أو من فارس ولدي عمشة إحدى زوجات جدهم صفوق الفارس المعروف بالحزم ، وهم القسم الذي كان يسوده قديماً فارس باشا الصفوق ، وكان هذا مرتبطاً في عهد الترك بمتصرف لواء دير الزور ، لأن هذا اللواء كان واسعاً جداً يضم محافظتي الفرات والجزيرة الحاليتين ، وهؤلاء يمكن أن يقدر عدد بيوتهم نحو ٢٠٠٠ ، وفيهم من الفرق الكبيرة العامود والفدّاعة والثابت التي تقدم وصف كل منها ، وهم بعد وفاة فارس باشا الصفوق تبعوا ابنه مشعل باشا الفارس مدة من الزمن ، ثم صاروا في رئاسة الشيخ ميزر العبد الكريم الصفوق أحد ممثلي شمر في المجلس النيابي السوري ، وقد خلف ميزر أباه عبد المحسن بعد وفاته في سنة ١٣٥٣ هـ ، وورث منه ثروة طائلة ، وهو الآن في عنفوان الشباب والنشاط ، وعنده اطلاع واسع على الشؤون العامة ، وروح مرحة وطلاقة لسان ، وصوته يرتفع آناً فآناً في مذكرات المجلس النيابي ، وهو يملك ثلاثة قرى ، وأرضين واسعة في قضاء القامشلي .

أما مشعل باشا فهو من معمري آل الجربا ، ومن رواسيهم الأجلاء المنظورين ، وهو قد برز منذ أن أعان الترك والألمان خلال الحرب العامة الأولى في حراسة سكة حديد حلب ـ الموصل ، بصفته ضابطاً عثمانياً برتبة عقيد عسكري فخري ، ولما انتهت تلك الحرب ، وانسحبت جنود الترك من ضفاف الفرات شمالاً نحو ماردين وأورفة ، حفظ رجعتهم من تعدي شذاذ العشائر وظل على اتصاله ووفائه لهم ، ولما بلغ الإنكليز مدينة دير الزور ، وبدأت حركات عشائر الفرات لحربهم وإخراجهم ، اشترك في هذه الحركات ، وأبلى في الوقائع التي جرت في دير الزور وأبي كمال ، وخاصةً في حركات شمالي العراق في بلدة تل أعفر ، حينما هاجم هو وابن عمه المرحوم عجيل الياور وبعض رجال شمر مصفحات الإنكليز ، وعطلوها وقتلوا رجالها ، كل ذلك في سنة ١٣٣٩ هـ .

وبعد أن سقطت بلاد الشام بيد الفرنسيين اتصل مشعل باشا بهم ، وزار الجنرال غورو في بيروت ، في جملة الوفود التي كانت تساق إلى زيارته ، لكنه رفض تكليف الجنرال المذكور بتجهيز حملة من عشائره ، مع الفرنسيين لحرب الترك في أورفة ، وما إليها ، فأغضب بزيارته هذه الترك الذين حسبوه انقلب عليهم ، كما أغضب الفرنسيين الذين حسبوه ضدهم ، ونكب بهذين الظنين الخاطئين ، إذ هاجمه الترك بقوة كبيرة ،

ونهبوا بيتـه في غراسـة وأحرقوه ، كما سلـط الفرنسيـون عليـه بعض أنصـارهم ، فبـاغتـوه في جنوبي جبل عبد العزيز وقصفوه برشاشاتهم ، لكنه دافع في الهجومين ونجا .

وفي سنة ١٣٤٦ هـ صار نـائبـاً عن شمر كلهـا في المجلس التمثيلي في دمشق ، وانضوى يومئذ إلى الكتلـة الوطنيـة ، ثم اختلف مع الفرنسيين في الحسيجـه لنزعتـه الوطنيـة ، ومن جراء جباية الضرائب المفروضة عليه ، فلقي من ذلك عنتـاً واضطهـاداً لم يتحملـه إبـاؤه ، فنزح إلى العراق ، وبقي فيه زمناً إلى أن تمت له أسباب العودة إلى منازله فعاد ، ولما تقـدم في السن ، واستلم ابن عمه الشيخ ميزر رئاسة سنجارة اختار الإقامة في دمشق غـالبـاً ، وهو الآن فيها يقضي شيخوخةً صالحةً يحدث زواره بـأحـاديث طليـة موزونـة ، عمـا قـاسـاه في حياته المديدة من شؤون وشجون كثيرة ، وبأخبار البادية وتاريخ عشائرها ، وهو في هـذا الباب الحجة التي لاتبارى .

شمر الحدود

هؤلاء من عشيرة الخرصة التي تقـدم ذكرهـا وتفريعهـا ، ويسمون أيضـاً شمر العواصي بالنسبة إلى آل العاصي بن فرحان ، وشمر دهام بالنسبـة إلى الشيخ دهـام الهـادي العـاصي ، الذي هو رئيس الخرصة دون منازع ، وكانوا قبلاً يسمون شمر العراق كما قدمنـا ، وهم القسم الذي كان يسوده قـديمـاً فرحـان بـاشـا الصفوق ، وكان هـذا مرتبطـاً في عهـد الترك بولاة بغداد ، وبعد فرحان باشا خلفه ابنه العاصي ، وهذا لما شـاخ ومرض اضطر إلى المكوث في دمير قبو في الأراضي التي خصصها له الترك ، وكانت رئاستـه وقتئـذ اسميـة ، أمـا الرئـاسـة الفعلية فكانت في يد حفيده دهـام بن الهـادي ، الـذي اعترف بـه بعـد العراقيون والانكليز بـاسم (شيخ مشـايخ شمر) ، لكن دهـام لم يسـالم الإنكليز في بـدء الاحتلال ، بـل نـازعهم وعـاركهم مراراً ، فقصفتـه طـائراتهم في سنـة ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) واضطرتـه إلى الالتجـاء للأراضي الشامية (السورية) مع قسم من شمر التي ظلت وفيةً له ، وأكثرهـا من الخرصـة ، وأسنـد الإنكليز والحكومـة العراقيـة رئـاسـة شمر في العراق إلى ابن عمـه عجيـل اليـاور على ماقدمنا ، فتألف من جراء ذلك جمع جديد من شمر ضمن بلاد الشـام سماه الفرنسيون (شمر الحدود) لقربه من الحـدود ، وظل الشيخ دهـام نـافراً من ابن عمـه عجيل اليـاور لقيـامـه



الشيخ دهام الهادي رئيس شمر

مكانه في العراق ، إلى أن تم الصلح بينهما في مؤتمر عانة في سنة ١٣٤٤ هـ ، ومؤتمر القامشلية في سنة ١٣٤٩ هـ وتم استقرار الشيخ دهام في جنوبي شرقي قضاء القامشلية من رجلة القصروق إلى المسعوديات قرب محطة تل كوشك .

والشيخ دهام من كبار رؤساء العشائر ونبهائهم النافذين ، وأحد نائبي شمر في البرلمان السوري ، وفي الحرب العالمية الثانية تذكر الإنكليز ثوراته السابقة عليهم في بدء احتلالهم العراق ، فنفوه مع غيره إلى جزيرة قمران وسط البحر الأحمر ، وظل فيها قرابة سنتين إلى أن عفي عنه وأعيد .

وأسماء قرى شمر الخرصة التابعة إلى مخفر درك جل آغا هي : جل آغا ودمير قبو وقنيطرة وكفرونة وكريفات وتل مشحن وأبو حجر وتل الهادي والدردارة والعرجة وتل حداد وغيرها ، وأسماء المنازل التي يحلون فيها هي المسعودي وسويدية وتل الشيخ وعوينة وتل رميلان وتل علو ، وقد كتب لي أن أبيت ليلة من شهر تشرين الثاني ١٩٤٣ م عند الشيخ باشا المتعب العاصي ، وكان مخيماً في تل رميلان المذكور شمالي محطة تل كوشك ، وأن أصادف ليلتئذ في مضربه الكبير عدداً من التجار الحمويين والحمصيين ، يتسوقون غنماً بوساطة الشيخ باشا المذكور ، ورأيت مثله في التوسط لتجارة الغنم ابن عمه هذال الفهد العاصي ، هذا ومشتى الشيخ دهام في تل علو الذي فيه إحدى محطات سكة حديد بغداد ، ومصيفه في حوكر ، وله أراضي في السبع سكور جنوبي الحسجة ، شارك عليها بعض الدمشقيين ، وأراضي أخرى في دمير قبو ، هذا غير أراضيه الشاسعة المترامية في شرقي تل العطشان وجنوبه حتى الحدود العراقية .

هذا وعشائر شمر كلها لاتزال من خلص البدو في حلها وترحالها كل أيام السنة ، لكن البداوة أكثر ماهي باقية عند الخرصة ، أما سنجارة وخاصة الفداغة المنفردة لنفسها فقد تأثرت ـ كما قلنا ـ بمخالطة العشائر المتحضرة من أعراب وأكراد ، وبمصاهرتها حتى أن لهجتها مالت نحو لهجة الأعراب الشوايا ، ومما يبشر بميل شمر نحو التحضر شغف الشيوخ باستملاك القرى والمزارع ، في سهول الجزيرة الخصبة واستغلالها ، وبازدياد قطعان الغنم لديهم ، وباشتغال بعضهم بتجارة هذه القطعان ، مما سوف يؤدي إلى اقتداء أتباعهم بهم وتحضرهم تدريجياً ـ والناس على دين ملوكهم ـ .

وشمر اسم مرعب في البراري الجزيرية والشامية والعراقية ، لأن جميع أفرادها مسلحون ، ولا يقتصر الشيوخ في الحدود السورية على البنادق الألمانية والإنكليزية والفرنسية ، وإنما يملكون الرشاشات وبنادق تومي وكثير من العتاد أيضاً ، ويضع الشيوخ في سياراتهم رشاشات من الأمام ومن الخلف ، كأنهم ذاهبون إلى إحدى جبهات الحرب .

مكانة آل محمد (آل الجرباء) - إن شيوخ شمر (آل محمد) لايقرون بما ذكرناه من التقسيم الذي وضعته السياسة ، ولا يعترفون بوجود أي حاجز ، أو أي فرق بين شمر كلها ، ويقولون إن أي شيخ منهم في العراق تنفذ كلمته على أي جمع من شمر الشام (سورية) ، وأي منهم في الشام (سورية) يستطيع أن يرأس أي فريق في العراق ، والواقع يؤيد قولهم هذا ، لأن الحدود بين شمر القطرين الشقيقين المارة بتل صفوق والممتدة مئات الكيلو مترات حتى تل كوشك هي وهمية ، يجتازها الشمريون من هنا إلى هناك بلا حذر ، فالاتصال دائم ، والألفة بين الأفراد والنجدة حين الفزع الأكبر موفورتان .

هذا ولكل عشيرة رئيس لايتجاوز نفوذه نطاقها ، وله مكانته وسلطته ، لكن الرئاسة العامة على شمر لآل محمد (آل الجرباء) ، وهؤلاء هم في الأصل من طيء القدماء وذوو الرئاسة العليا على شمر ، منذ أقدم العهود قبل آل الرشيد وآل علي الذين كانت رئاساتهم موقتة ، وإذا جد الجد واحتدمت المشاكل الكبرى ، فإن شيوخ شمر من غير الرؤساء لايحكمون إلا على فروعهم القريبة ، ولا يمثلون إلا أبناء عمومهم ، أي أن مرد البت في كل أمر خطير هو إلى (آل محمد) وحدهم ، ومما يحكى عن نفوذ هذه الأسرة على أتباعها أنه من الشدة بحيث[1] لايجرؤ أي شمري كان مهما سمت منزلته ، أن يجير منهم أحداً من الناس ، أو من أفراد العشائر الغريبة عنهم ، وإذا حل ضيفاً على أحدهم في بيته ، أو إذا التجأ إلى حمايته ، يقول له الشمري أنا أجيرك وأحميك من عشيرتي ، ومن أفراد شمر الآخرين كافة ، حسب مقدرتي ، إلا من الشيوخ (آل الجربا) فإني لا أحسن أن أجيرك منهم ، فإنهم إن أخذوا أموالك أو ذبحوك ، ولو في بيتي فلا أتمكن من حمايتك والذود عنك ، وهم بذلك بعكس طبائع عربان عنزة ، فإن الصغير منهم يجير من الكبير ، والوضيع

---

(١) جريدة صوت الفرات العدد ٣٩ السنة ١ ، مقال (معلومات عن تاريخ وأحوال شمر) بقلم : جلال علي التكريتي .

من الرفيع ، على الحق وحسب العادات ، والقوانين العشائرية الموروثة لهم ، والمتبعة فيا بينهم ، وإذا التجأ إلى بيت العنزي فرضاً قاتل أخيه ، أو أحد أفراد أسرته ، دون أن يكون للقاتل معرفة بمنزلته من القتيل ، فإن صاحب البيت يجيره ويحميه ، إلى أن يوصله إلى مأمنه ، ولا يرضى أن يهان في منزله ، ويقول أفراد عشائر شمر للناس بموقع المدح والإطراء عن شيوخهم الجربان أنهم يذبحون على الفراش ، ومعنى هذا أنهم باستطاعتهم أن يقتلوا ـ ولا تبعة عليهم ـ من شاؤوا داخل بيوتهم وعلى فراشهم ، كائناً من كان من الناس التي لم تكن من شمر ، حتى ولو كان ضيفاً عليهم إلخ ...

وقد سألت الشيخ دهام الهادي عن رأيه في هذين القولين المستغربين فصدق الأول منهما ، ونفى وجود الثاني ، وعلل الأول بأن عدم إجارة الشمري للغريب من شيوخه آل الجربا ناشئ عن شدة نفوذ هؤلاء الشيوخ ، ووفرة حرمتهم ، لدى كل شمري ، بحيث صار شأنهم تجاه أفراد عشائرهم ، شأن الحكومات في الحواضر والمدن تجاه الأهلين الذين ليس لهم أن يجيروا أحداً مطلوباً من قبل الحكومات المكلفة وحدها بحفظ الأمن ورؤية المصالح العامة ، كل ذلك لعلو كعب آل الجرباء وسؤددهم المتحدر ، كابراً عن كابر ، بحكم أنهم كانوا فيما مضى هم حكام جبل شمر قبل آل علي وقبل آل الرشيد من شمر ، وبالطبع قبل آل السعود العنزيين ، وأن مرد هذا العلو إلى كونهم من طبقة أسمى ، بخلاف الأسر المترأسة في عنزة وغيرها من العشائر ، فإنها في الأصل من العشيرة نفسها ، ولا مزية فائقة لها على غيرها ، حتى لا يجير أحدهم لاجئ منها . اهـ

هذا والعرف عند آل محمد الجرباء تجعل أي واحد منهم شيخاً على أي فريق من شمر ، إلا أن المتبع لديهم منذ نصف قرن ، هو أن مشيخة الخرصة في آل فرحان باشا الصفوق ، وخاصة في فرع العاصي (العواصي) ، وهم أبناء العاصي بن فرحان الحاضرين ، ومشيخة سنجارة في الشيوخ أبناء عبد الكريم الصفوق ، أو أبناء أخيه فارس الصفوق المعروفين بآل عمشة الطائية (العمشات) ،

شجرة نسب آل محمد (آل الجرباء)

جدهم الأعلى هو ابن محسن بن مشعل بن مانع بن سالم بن (محمد) رأس عمود النسب الطائي الأصل ، فمن (مجرن) جاء الجعيري ، ومنه الحميدي ومنه مطلق وقرينص وعمرو

وفارس ، ومن (فـرس الحميـدي) جـاء محمـد وصفوق (المحزم) ، ومن صفـوق جـاء عبـد الرزاق وفارس وعبـد الكريم وفرحـان ، فمن (عبـد الكريم الصفوق) عبـد المحسن وصفوق ومحمد ، ومن (عبـد الرزاق الصفوق) طلال وعلي ومن (فـارس الصفوق) الحميـدي وملحم ومسلـط ومشعل ، ومن (محمـد العبـد الكريم) مطلق ونواف وعبـد الكريم ومشعـل وعبـد الرزاق ، ومن (عبـد المحسن العبـد الكريم) ميزر وحواش ، ومن (صفوق العبـد الكريم) محمد .

أما فرحان الصفوق (فرحان باشا) ، فقد قـدمنـا أنـه تزوج عـدة نسـاء من عشـائر مختلفة جاء منهن أولاد وأحفاد كثيرون ، فمن (الجرجرية الكردية) جـاء البـاشـات ، وهم زيد وميزر وبدر وأحمـد والحميـدي ، ومن (جزعـة الشمريـة) جـاء الجزعـات ، وهم مجول وجار الله والعاصي ، فمن (مجول) جـاء الحميـدي ومنـه فرحـان ومحمـد وحمـاد وعلي وراكان ودهـام وعبيـد ورديني . ومن رديني هـذا طـاووس وفـانوس ودبـوس ، ومن عبيـد درهـو وأحمد ، ومن (جار الله) جاء جدعان وتركي وفـارس ونواف ونـايف ، ومن فـارس الجـار الله دياب وميزر ومحمد وسويلم ، ومن (العاصي) جاء العواصي وهم شبيب وعيادة ومـدلول وبنيان وصايل وزيد والهادي ومتعب وفهـد وجـاعـد وحـاجم ، فمن عيـادة رزوق ، ومن مدلول علي وميزر ، ومن صايل نوري ، ومن الهادي صعب وفزع ودهـام (الشيخ الحـالي) وصفوق ، ومن متعب بـاشـا ، ومن فهـد منيف وهـذال ومن جـاعـد حواش وشويش ومن حـاجم هرير وهيجل ، ومن (درة الطـائيـة) جـاء آل درة ، وهم فيصـل وعبـد العـزيـز وشلال فمن فيصل وضحان وتركي وسعود ومسلـط ومتعب وصفوق وألمـاني ونوري ومشعـان ونايف ، ومن شلال جاء جزع وميزر ومتعب ومشعل وعلي ودهام وبنيان وحميـد ومتني ، ومن عبـد العزيز جـاء عجيـل (اليـاور) وحـاروش وراكان ومحمد وسـالم ، ومن (سرحـة الزوبعيـة) جـاء آل سرحـة ، وهم عبـد المحسن وثـويني وهـايش ، فمن عبـد المحسن زويـد وصعب وزيد وسالم وعماش ، ومن هـايش جـدي وجرى وعليـان ، قلنـا أن فـارس بـاشـا الصفوق أعقب الحميدي وملحم ومسلـط ومشعل ، فمن مسلـط حـاجم ومشعل ، ومن مشعل الفارس (مشعل باشا) نوري ونـايف وتركي ، هـذا ويسمى فرحـان وفـارس وعبـد الكريم أبناء صفوق المحزم آل عمشة (العمشات) لتحدرهم من عمشة بنت شيخ طيء ، أما (مطلق الحميدي) فقد جاء منه مسلط وفهد ومن فهد سلطان ومنه سميط ومنه كردي ومنه سطـام

وهيكل ومشعل ، وأما (عمرو الحميدي) فقد جاء منه شلاش ، وأما (قرينص الحميدي) فقد جاء منه بنية .

هذا ما اقتبسناه من كتاب المسيو مونتاني الذي قضى سنتين بين شمر يجمع أخبارها وأنسابها ، فإن كان ثمة زيادة أو نقصان فالعهدة عليه ، والعصمة لله .

منازل شمر ـ منازل شمر في محافظة الجزيرة ، فشمر الزور (سنجارة) في الغرب في ضفتي الخابور والجغجغ ، داخل قضائي الحسيجة والقامشلية ، وشمر دهام (الخرصة) في الشرق قرب الحدود العراقية ، وجنوبي قضاء ديريك ، وهم يبقون مجتمعين في هذه المناطق ، على هيئة فرق صغيرة منفردة ، ويعملون في تربية الماشية ، ومنهم من يعمل في الحرث والزرع في أراضي الشيوخ ، وشمر الزور (سنجارة) يبيعون نواتجهم في أسواق القامشلية والحسيجة وعامودة ، وربما بلغوا رأس العين ، أما شمر الخرصة فأكثر مايغشون أسواق دمير قبو وقبور البيض .

أما في الشتاء فنجعتهم كبيرة في براري الجزيرة ، فهي تقع من الشمال إلى الجنوب ، فشمر الزور ينجعون المنطقة الواقعة بين جبلي سنجار وعبد العزيز في الشمال ، ونهر الفرات حتى رواة في الجنوب ، داخل الحدود العراقية .

أما شمر الخرصة فإنهم ينجعون ممالح البوارة ، ويتوغلون في داخل الحدود العراقية أيضاً ، ويصلون إلى راوة بينما يكون رئيسهم الشيخ دهام مقيم في مضاربه داخل الحدود الشامية (السورية) ، وكذلك يفعل الشيخ ميزر ، شأن رؤساء العشائر كلهم ، الذين آثروا البقاء وعدم اللحاق في الحل والترحال ، والمناهل التي يردونها في الصيف ، هي يسار الخابور عين ابن حرشان والبحرة والخاتونية والشلالة وكسيحة ووادي عجيج والروضة وأبو حامضة وغيرها ، وفي يمين الخابور المغلوجة وسوسة والغرة في شمالي جبل عبد العزيز ، وأم مدفع والبيضاء والرويضات والجرعية والجزاعية قرب البليخ ، الذي يبلغوه ويحتكوا فيه بعنزة (الفدعان الخرصة) ، وتحدث حينئذ مشاكل بين الرعاة على المراعي والمناهل .

حوادث شمر الأخيرة وخلافاتها مع جيرانها :

١ ـ الخلاف بين شمر والفدعان : بعد أن توفي العاصي جد دهام في سنة ١٣٤٣ هـ

(١٩٢٥ م) نقض دهام الصلح الـذي كان بين شمر والفـدعـان ، وجهز غزواً كبيراً من جميع شمر (الخرصـة وسنجـارة) ، وهـاجم الفـدعـان ، فتـداخلت السلطـة الفرنسيـة ، وأوقفت القتـال ، وفرضت الصلـح على الفريقين في مـؤتمر دير الـزور سنـة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) ، لكن الفتنـة نشبت مرة أخرى في سنـة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) في أنحـاء جبـل عبـد العـزيـز بسبب المراعي ، فتـداخلت القوى والطيـارات الفرنسيـة ، وانتهى الصلـح في المؤتمر الثـاني الذي عقد في دير الزور أيضاً ، وساد الوئام من ذلك الحين .

٢ ـ الخـلاف بين شمر وعشيرة ميران الكرديـة : في ربيـع سنــة ١٣٥٠ هـ (١٩٣٢ م) قتل قضاءً أحد إخوان الشيخ دهام الهادي في صـدام حـدث بين فرسـان من شمر الخرصـة ، وآخرين من أكراد الميران ، يقـودهم نـايف بـك بن مصطفى بـاشـا المستـو ، ولم تنجـع الوساطات في تأدية الدية ، إلى أن حكم نايف بـك بـالسجن ثمانيـة أشهر قضـاهـا وخرج ، وظلت الحزازات مستمرة بحكم أن المقتول رئيس ووجيه ، لايغسل دمـه إلا بـالـدم ، بمقتضى العرف العشائري ، على أن أهل الخير يأملون تسوية هذا الأمر بالحسنى ، اعتماداً على الروح الطيبة في الفريقين .

٣ ـ الخـلاف بين شمر والعقيـدات : في صيف سنـة ١٣٦٠ هـ قتـل العقيـدات صفـوق الفيصل ابن عم صفوق بن عجيل (اليـاور) شيخ شمر العراق ، في غـزوة كان يقـودهـا على العقيدات داخل الحدود الشامية (السورية) التي تخطـاهـا . فحـدثت فتن ومعـارك كثيرة من جراء هذا القتل ، واتسع الخرق ، وثـأر شمر الجزيرة من العقيـدات لابن عمهم المقتول ، وسلبوا لهم غنماً وفيراً ، جله لتجار دير الزور ، وعقد مؤتمر للصلح في الموصل ، قرر المحكمون فيه (قاعدة الحفر والدفن) ، لكن هذا الصلح لم يرق للعقيدات ، فجددوا غاراتهم على شمر العراق ، ذلك لأن ثلاثة من شيوخ العقيـدات ، وهم فـارس الصيـاح من الـدميم ، ومشرف الـدنـدل من الحسون ، وتركي النجرس من الثلث ، لم يرضوا بـالشيخ جـدعـان الهفـل أكبر مشايخ العقيـدات ، الـذي لم تستشر السلطـات سواه في المفـاوضـات عن جميع العقيـدات ، فأعيـد المؤتمر في دير الزور ١٣٦١ هـ (شبـاط ١٩٤٢ م) وعقـد الصلح نهـائيـاً ، ووقعـه كل شيوخ العقيدات ، كما وقعه الشيخ صفوق الياور ، وأعيـد الغنم المنهوب إلى أصحـابـه ، لكن هذا الصلح أيضاً لم يدم للأسف ، فتكررت غارات العبـدة من شمر على العقيـدات ، مرتين خلال سنة ١٩٤٥ م ، ولم ينته الأمر كما يجب حتى طبع هذه الأسطر .

٤ ـ الخلاف بين شمر والبقارة : كان خالد الحمى الطلاع رئيس فرقة البو معيش من بقارة الزور نزح عن عشيرته لحوادث دم وغيرها ، ولجأ إلى الشيخ ميزر عبد المحسن رئيس شمر الزور ، وأقام على الحدود العراقية السورية مدة سنتين (١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ م) ، ولما أجازت الحكومة إلى الشيخ ميزر بوضع اليد على خمس قرى في ناحية الدرباسية ذات مساحات عظيمة ، نقل خالد الحمى مع فرقته إلى هذه القرى ، وحملهم على استثمارها بالشراكة مناصفة ، فظل خالد المذكور فيها حتى سنة ١٩٣٧ م التي اشتدت فيها حركات الفرنسيين ضد الحكم الوطني ، وانحاز بعض ذوي الضمائر الرخيصة إليهم ، ومنهم خالد المذكور (فيما رووه) ، وأراد الفرنسيون وقتئذ أن ينتقموا من الشيخ ميزر لموقفه الوطني ، بعد أن كانوا يظنونه معهم ، فحملوا خالداً على عصيان ميزر ، واغتصاب القرى ، وطرد جماعة ميزر منها .

وشرع ميزر بالمراجعة والادعاء وسعى كثيراً إلى حل المعضلة بالحسنى ، فلم يوفق خلال سني ١٩٣٨ م ـ ١٩٤٣ م التي كانت الكلمة فيها للفرنسيين ، وظل خالد الحمى مغتصباً القرى والحاصلات ، وصدف أن أحد الأكراد من الكيكية ، وهو الحاج درويش موسى رئيس إحدى فرق الكيكية باع قرية تل بيدر إلى خالد الحمى المذكور ، فلم يرق هذا البيع إلى عشيرته ، لكرههم مجاورة البقارة ، وأرادوا منعه ، ثم كان خلاف قديم بين الشرابيين والبقارة ، ومن هنا اتحدت شمر وميزر والكيكية والشرابيين ومعهم حرب ، باعتبار أن الحلف لشمر ، وهاجموا البقارة ، فأنجدت بقارة الزور إخوانها بقارة الجبل ، ومعهم البو حمدان الذين أصلهم من البقارة ، واشتبك هذان المعسكران في معارك ظفر البقارة في الأولى منها ، ثم دالت عليهم في التالية ، وفي الأولى بلغوا بيت الشيخ ميزر في قرية سهكي (ثلاثة تلال) واقتحموه ونهبوه ، وهو عمل معيب عند العشائر ، لأن الرئيس الغالب إذا دخل بيت الرئيس المغلوب يجب عليه أن يحتله ، ويصونه من النهب ، وإذ كان البقارة عملوا خلاف ذلك ، ثارت ثائرة شمر كلها ، وأنجدوا ميزراً ، وتفاقم الخطب ، وسالت الدماء ، ووقع من الفريقين فيما قيل مئات القتلى من الرجال ، خلاف الأطفال والنساء التي لاتذكر ، وخربت مئات القرى ، ونهبت عروض لاتحصى ، وقيل أنه كان لبعض الموظفين يد سيئة في هذا الأمر ، وطال الخلاف ، وعقدت عدة مؤتمرات للصلح بحضور محافظي الجزيرة والفرات وغيرهم في أول سنة ١٩٤٦ م ، لم تثمر عن نتيجة ، إلى أن

أثمرت في المؤتمر الأخير الذي عقد في نيسان تلك السنة ، وكان فيه السيد نوري إيبش ومجحم آل مهيد وراكان آل غبين ، وتم الصلح على قاعدة (الحفر والدفن) بعد أن حدد عدد القتلى بثمانين من جماعة شمر ، ومثلهم من البقارة ، وعدد القرى التي خربت بـ ١٣٥ ، وهكذا انتهت هذه الفتنة الشعواء .

٥ ـ الخلاف بين شمر والبومتيويت : حدثت في شهر آب ١٩٤٦ م فتنة شعواء أخرى ، كالتي سبقت ، ضمن الحدود العراقية بين شمر العراق تناصرهم شمر الجزيرة من جهة ، وبين عشيرتي الأبو متيويت والجحيش الموصلية تناصرها يزيدية سنجار من جهة أخرى ، وسببها هو خلاف على أرض للمرحوم الشيخ عجيل (الياور) أقطعها للأبي متيويت والجحيش على أن يستغلوها ، وتكون مناصفة بينه وبينهم ، فأدوا ما عليهم في السنتين الأوليتين ، ثم أمسكوا في الثالثة ، وقالوا لن ندفع ، فرفع أبناء عجيل الأمر إلى الحكومة العراقية مراراً ، لكنه ظل بدون حل ، إلى أن تجدد النزاع في آب سنة ١٩٤٦ م ، وتفاقم حين مجيء أبناء عجيل لطلب حصصهم من الغلال ، ورفض أخصامهم التسليم ، فوقعت أعنف معركة بدوية في زمننا سالت فيها الدماء ، واحترقت بيادر ، وخربت القرى الواقعة حول مكان النزاع ، وسقط مئات من القتلى والجرحى من الفريقين ، وقد هرع معظم شيوخ شمر من الحدود الشامية إلى المعركة ، تأييداً لشمر العراق في حركتها ، ووقفت الجزيرة بعربها وكردها إلى جانبهم ، وأقبلت القوات العراقية والسورية ، وتوسط العقلاء وهدؤوا الحالة ، وانعقد الرجاء بأن تبادر الحكومة العراقية لحل الخلاف ، وإعطاء كل ذي حق حقه .

٦ ـ الخلاف بين شمر وعشيرة الملي الكردية : حدثت معارك عديدة في الربع الأول من قرننا الهجري الحاضر بين شمر وعشائر الملي الكردية ، التي وصفناها في بحثها الخاص ، كانت خلالها شمر متنازعة بعضها مع بعض ، مما أدى إلى الفشل وذهاب الريح ، وإلى فوز إبراهيم باشا رئيس عشائر الملي المذكورة على شمر فوزاً كبيراً ، ذكر لي ذلك محمد علي بك بن خليل بك آل إبراهيم باشا ، وسألت الشيخ دهام عنه ، فأقره ، وبين أسبابه ، وهو التنازع المذكور ، إلا أن هذا الخصام القديم تبدل بعد إلى صلح ووئام ، وحصلت مصاهرة بين الفريقين بزواج الشيخ ميزر عبد المحسن رئيس شمر الزور (سنجارة) بابنة خليل بك المومأ إليه .

طيء

عشيرة ريفية كبيرة ، تعد العشيرة العربية الثانية في محافظة الجزيرة من حيث المكانة والنفوذ ، وبعد الصيت وعراقة النسب ، ومكانتها تأتي بعد شمر ، ورؤساء طيء يكادون يعادلون رؤساء شمر في كرم النبعة ووفور الحرمة ، وهم يتزاوجون ويتصاهرون فيما بينهم ، دلالة على التعادل .

وطيء الحاضرة هي في الغالب متحدرة من قبيلة طيء القحطانية القديمة التي تقدم الكلام عنها مراراً في بحث التاريخ ، وفي بحث عشيرة شمر ، وعشيرة الموالي ، وهم لايزالون محتفظين باسم طيء الأصلي ، وقد خرج أسلافهم من جبلي أجا وسلمى ، المعروفين قديماً باسم جبلي طيء ، والآن باسم جبلي شمر ، بعد أن استولت عليهما شمر ، وأزاحت طيئاً منهما ، وكان من طيء الأصلية هذه أمم كثيرة ، ملؤوا السهل والجبل ، حجازاً وشاماً وعراقاً ، كما قال ابن خلدون وذكرناه في الجزء الأول من كتابنا هذا (ص ٦٩ و ٩١) ، وقد تفرعوا إلى فروع كثيرة .

لكن المستشرق المسيو مونتاني الفرنسي الذي تقدم ذكره في الجزء الأول يقول في كتابه (قصص شعرية ملتقطة من شمر الجزيرة) أن طيئاً الحاضرين ليسوا قدماء من زمن بعيد في الجزيرة ، ولا يمتون إلى من تحدث عنهم ابن خلدون إلا بعلاقة النسب ، بل إن هؤلاء كانوا في القرن ١٢ هـ (١٨ م) لايزالون في نجد في جبلهم المسمى باسمهم ، ضمن حلف عشائري مؤلف من طيء وبهيج وسنبس ، وهناك بيت شعر قاله رجل من شمر ، يخاطب به أحد رؤساء طيء :

قبلك بهيج حدروه السناعيس   من عقدة ما يتحلحل قناها

يريد أن بهيجاً رئيس قبائل زبيد وأميرهم وقتئذ كان قبلك ، وقد أصابته الضربة القوية منا ، فأنزلناه من (عقدة) أي من أجا وسلمى (جبلي طيء) فلا نخشاك ، ولا نبالي بك ، وأنت أقل قدرة منه ، ويقصد بالسناعيس الذين ينتخون بالسنعوسية وهم عشائر مهمة من شمر .

ويظهر أن مجيء شمر من اليمن إلى نجد ، ومزاحمتها الحلف العشائري المذكور ، أدت

إلى هجرة هذا الحلف نحو العراق والجزيرة ، فبلغت طيء أنحاء الجزيرة ، وبلغت سنبس وبهيج أنحاء كركوك في العراق ، حيث تجد بقاياهما حتى الآن ، والدليل على حداثة هذه الهجرة أن فرقة الأسلم الشمرية التي تمت إلى طيء وإلى حاتم الطائي لا تزال تملك بساتين نخيل في جبل سلمى ، وطيء الجزيرة الحاليون يدعون أنه لا يزال لهم أملاك في نجد ، وإن لم يكن لديهم ما يؤيد ذلك ، ولما قتل الترك صفوقاً رئيس شمر في حدود سنة ١٨٤٣ م (١٢٥٦ هـ) قامت أرملته عمشة المشهورة بنت شيخ طيء ، وحملت أولادها ، ولجأت بهم إلى أخوالهم الطائيين الباقين في نجد ، ولقت لديهم ترحاباً .

ومهما يكن تاريخ هذه الهجرة ، فإن عشيرة طيء الحالية وخاصةً بطونها الأصلية الأربعة سنبس وبنو اليسر (اليسار) والفرير والحريث ، ومعها أحلاف عديدون مختلفو المنابت ، جاءت إلى الجزيرة وفرضت سيطرتها على العشائر القديمة المستقرة فيها من قبل ، ثم انبسطت من حدود دير الزور على الفرات إلى سفوح جبال الأناضول ، وجبت الأتاوات (الخوة) من الأعراب والأكراد القديمين ، وكانت في تلك الحقبة ذات سطوة وحركة كبيرين ، من الغارات والمعارك ، على نحو ما كان للعبدة والخرصة من شمر خلال القرن الماضي ، وكانت طيء كما كانت شمر التي خلفتها منقسمة إلى جذمين كبيرين ، ينفث الترك بينهما الشحناء دوماً إضعافاً لهما .

وقد اصطدمت طيء بأمراء الموالي منذ القرن الثاني عشر وقبله ، وبعث مرة أحد هؤلاء الأمراء أربعين فارساً لخطف فتاة من طيء اسمها حمرة الموت على ما ذكرناه في بحث الموالي ، وكانت طيء ضعفت من توالي عراكها مع حضر الجزيرة ، فلم تستطع مقارعة الموالي ورد طغيانهم ، إلا بمعونة عشيرة العبيد الزبيدية الأصل التي كانت في أنحاء الخابور ، وعند طيء (قصائد وحكايات = سوالف) عن وقائعها ، ووقائع العبيد مع الموالي .

وعاركت طيء عشيرة قيس (جيس) المعروفة بشدة مراسها وشرورها ، حتى صار يضرب المثل بعدائها الذي كان ضرامه لا يخبو ، فيقال (مثل قيس وطيء) .

وقد أضعفت هذه الغارات والمعارك طيئاً ، بحيث أنها حينما وفدت شمر في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ، وعبرت إلى الجزيرة بقيادة فارس الجربا ، دحرت طيئاً إلى منازلها الحالية حول نصيبين ، كما دحرتها من قبل من جبلي أجا وسلمى في نجد ، وبدلت

اسم هـذين الجبلين من طيء إلى شمر ، على أن شمراً فرع من طيء ، فيكـون الفرع زاحم الأصل ، وتتبعه من مكان إلى مكان .

ولا يزال رؤساء طيء معدودين من كبار رؤساء العشائر في عراقة النسب ، لهذا لما تخطت شمر إلى الجزيرة ، وفرضت الخوة على عشائرها القديمة أبت طيء أن تؤدي الخوة أنفة ، واكتفت بتزويج إحدى بناتها ، وهي عمشة ابنة شيخ طيء حسين العبد الله إلى صفوق بن فارس الجربا شيخ شمر ، وجاء بعد من عمشة هذه فرع كبير من آل الجرباء دعي بالعمشات ، وصار شيوخ شمر حتى الآن إذا خاطبوا أحداً من شيوخ طيء ينادونه : ياخالي .

وقد سعى الترك منذ القرن الماضي لتحضير عشيرة طيء ، وحضوهم على الاستقرار ، ومن ثم قلت إبلهم ، وزادت شياههم ، وصغرت نجعتهم في الجملة ، وأنصرفت أكثر فرقهم للزراعة ، وللاختلاط بالأسر المتحضرة الغريبة ، بينما بعضهم لايزال محتفظاً ببداوته الصرحاء ، وأنفته عن الزراعة ، تمسكاً بالتقاليد البدوية الأصيلة .

وعشيرة طيء الموجودة في الجزيرة مؤلفة من فرق مختلفة المنابت ، فبعضها أمثال العساف والحريث وسنبس وبني فرير واليسار من الطائيين الأقحاح ، أما البقية فإنها ليست بالنسب من طيء ، وإنما هم حلفاء ، أو مستجيرون ، أو أعوان رؤساء طيء ، وقد غلبتهم التسمية ، وتقادم الزمن عليهم ، فأصبحوا من طيء ، وهم من عشائر يعثر على أصولها أو فروعها في مناطق أخرى ، كالراشد وحرب وبني سبعة ، فإن أصول هؤلاء موجودون في شبه الجزيرة العربية ، وكالجوالة الموجودة في الجزيرة الفراتية ، وثمة فرقة من حرب في منطقة عرادة إلى الشمال الشرقي من رأس العين ، ويوجد قسم من الغنامة والمعامرة بين الجبور ، وقسم من البقارة بين طيء وهكذا .

ومنازل طيء حول القامشلية جنوباً وشرقاً ، وحدهم الشمالي الحدود التركية ، أو سكة حديد بغداد ، والجنوبي نهر الرد أحد روافد الجغجغ ، وحدهم الغربي الجغجغ نفسه ، وحدهم الشرقي سيل ماء اسمه رجلة القصروق ، يبدأ من تل عطيشان ، ويفصل بينهم وبين شمر ، أما أماكن نجعتهم فهي محصورة بين سكة الحديد المذكورة وجبل سنجار ، وقد

يبعدون إلى أراضي البريجة وعقلة أبو حامضة ، وهي عقلة ماء في داخل الحدود السورية ، في جنوبي الجبل المذكور ، وعندهم قطعان كثيرة من الغنم والإبل ، وأرضون واسعة خصبة ، صالحة لزراعة الحبوب ، ولا سيا الرز في وادي الجغجغ ، وعندهم ولا سيا في الحريث مرابط خيل عتاق ، أخصها المليحيات وكحيلة العجوز وكحيلة ابن مزهر ، هذا وتزايد في عهدنا عناية طيء بالزراعة والتحضر يوماً بعد يوم ، وامتدادها بإحياء براري الجزيرة الموات نحو الجنوب والشرق من قضاء القامشلي ، مع العناية بتربية المواشي ، والحل والترحال لأجلها ، ومن هنا كانت أحوالهم الاقتصادية أحسن من غيرهم ، وصار رؤساؤهم في الدور الفخمة في القامشلي ، يعيشون في رفه وحضارة ، وإن كانوا مقصرين حتى الآن في ترشيح ممثل عنهم في المجلس النيابي .

ولهذه العشيرة صلة وثقى بجيرانهم الأكراد ، وكثير منهم يتعلم اللغة الكردية بالمعاشرة ، وأكثر العشائر الكردية التي حول طيء تخضع عرفاً لرئاسة طيء ، وتطبق منهاجها ، وتندمج في حلفها ، كما يفعل ذلك الكرد الذين قرب عشيرة شمر ، والمتعلقين بها .

أما نفوس طيء مع لواحقها فيقدر بـ ٥٠٠٠ بيت ، وهذه القلة من جراء ما كان لشيوخها في الماضي من سياسة البطش والتنفير ، مما أوجب انفضاض الناس عنهم ولم يزدد عدد العشيرة بالمحالفات والمساكنة ، كما يجري في بقية العشائر القوية من أمثال طيء .

فرقهم ؛ تتألف فرق طيء من طيء الأصليين ومن لواحق طيء ، فطيء الأصليون هم العساف والحريث وسنبس واليسار وبني فرير ، ولا يزال من هذه الفرق أناس متخلفون في العراق وتركية ، حتى أنه لا يوجد في بلاد الشام (محافظة الجزيرة) من سنبس وبني فرير إلا أفراد قلائل ، ومن اليسار إلا فخذ صغير ، أما (آل عساف) نحو ٢٠٠ بيت ، وهم أجل فرق طيء قدراً وأعرقها نسباً ، وفيهم الرئاسة على طيء كلها ، يتوارثونها أبناء هذه الفرقة كابراً عن كابر ، وفي آل عساف فخذان الفهد والحسن ، وهم في مشيخة بيت (العبد الرحمن) ، وعبد الرحمن هذا هو ابن حسن بن حسين بن عبد الله . أما عساف الكبير فبعيد بحيث لا تعرف السلسة الممتدة إليه ، ولعله من ذراري إياس بن قبيصة الطائي الذي حكم الحيرة عاملاً لكسرى في فترة من فترات التاريخ ، وعد في صف

الملوك ، وقد أعقب عبد الرحمن الحسن ثمانية أولاد ؛ علي وسليمان وعبد الرزاق ومحمد وطلال ومطلق وعبد المحسن ونايف ، وقد أعقب كل من هؤلاء ما عدا عبد الرزاق ومطلق عدة أولاد ، فأصبح بيت العبد الرحمن كبير العدد والنفوذ ، وإن بدأ يفقد نفوذه منذ زمن ، ولم يعد ينجب عظماء ، كما كان من قبل . أما (آل حريث) فهم مثل آل عساف في عراقة النسب ووفور القدر ، وأفخاذهم المازن والمهاني والمقطف والنهاب ، وهم في مشيخة حسين بن محمد المقطف وإبراهيم بن محمد النهاب ، ويذكر من وجهاء طيء علي السلطان ، وهو شيخ فرقة اليسار .

أما لواحق طيء فهم من حيث المكانة الحلاجمة فالراشد فالجوالة فحرب فبني سبعة فالأبي عاصي فالغنامة فالمعامرة فبقارة طيء ، (الحلاجمة) وإن كانوا قليلي العدد (نحو ٣٠ بيتاً) لكنهم ممتازون بدرايتهم وفروسيتهم وظهور العوارف منهم ، ويليهم (الراشد) ، وهذه فرقة كبيرة جليلة القدر في طيء ٣٥٠ بيتاً ، ذات أربعة أفخاذ أشهرها البري والغثيث ، ورئيس الراشد عبد الرزاق الحسو ، والراشد يقطنون قرى الحصويات والعمري والدلاوية والصافية وتل سطيح ، و(الجوالة) فرقة كبيرة مشهورة بسمنها الفاخر (نحو ٥٠٠ بيت) ، ذات فخذين الأبي شريف والبسابسة ، ورئيس الأول سلومي الحميد ، ورئيس الثاني محمد الدندح ، ويذكر عن الأول أنه ملاك كبير ، وذو معشر لطيف ، و(بني سبعة) فرقة كبيرة نحو ٣٠٠ بيت ذات خمسة فنود ، رؤساءها محمد سليمان الغنام وعبد العزيز الأسعد الضاهر ، و(الغنامة) ٢٥٠ بيتاً ، وهؤلاء منصرفون للزراعة والتجارة ، ورؤساؤهم شيوخ دين ينتمون إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني ، أميرهم سليمان اليوسف وباهي الحسين ، و(المعامرة) ١٠٠ بيت ، رئيسهم أحمد العازل ، و(زبيد) ١٠٠ بيت ، رئيسهم محمد الفارس ، و(الأبو عاصي) ٨٠ بيت ، رئيسهم عشير النمير ، أما (حرب) فيأتي ذكرهم بعد ، وكل هذه الفرق تشتي في قراها في بيوت الطين والحجر ، فإذا جاء الربيع خرجت إلى البراري والأراضي التي لاتزال مواتاً ، الممتدة قرب الحدود العراقية جنوبي نهر الرد ، وسكنت بيوت الشعر ، وأربعت مواشيها الكثيرة حتى موسم الحصاد ، ثم رجعت .

أما المشيخة الكبرى في طيء فقد كانت حتى سنة (١٣٤٦ هـ) في يد الشيخ محمد

العبد الرحمن آل عساف ، إلى أن نقمت عليه العشيرة لتهاونه في إدارتها ، فشيخت أخاه نايفاً . فحقد عليه محمد وتآمر عليه مع الترك ، واغتاله في سجن نصيبين ، ثم نزح إلى الحدود التركية مع بعض الفرق ، أما بقية العشيرة فقد ظلت داخل الحدود الشامية (السورية) ، ونادت بمشيخة إخوانه طلال ثم عبد الرزاق ثم مطلق ، وقد بقي كل من هؤلاء مدة إلى أن توفي مطلق ، فعادت العشيرة وشيخت محمد العبد الرحمن ، فظل قائماً بها إلى أن كبر ابن أخيه عبد الرزاق بن نايف ، فطلبت العشيرة إعادة المشيخة إليه ، فصدر قرار وزارة الداخلية في تشرين الأول سنة ١٩٤٥ م بتنحية الشيخ محمد ونصب الشيخ عبد الرزاق ، وهو الآن شاب في العقد الثالث ، وذو ذكاء ونباهة ، وصاحب أملاك واسعة وقرى عديدة في جنوبي القامشلي ، ومسكنه في قريتي الشيخ عجيل ، على بعد عشرة كيلو مترات عن القامشلي ، وأملاكه في قرى الشيخ عجيل وجوخة وجرمز وعمركان وخرنوبية ، والقرى الأربعة الأولى على نهر الجغجغ ، وعنده ساحب آلي وهو يعنى بزراعته .

ويذكر عن الشيخ عبد الرزاق الحسو رئيس فرقة الراشد أنه في مقدمة الشيوخ مقدرةً ونباهةً وأناقة في المعيشة ، وفي قرى الضيفان في مسكنه في القامشلية ، التي يعد من وجهائها .

الجبور

يزعم الجبور أنهم قحطانيون ومن زبيد ، ومن أعقاب الصحابي الجليل أبو ثور عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، كما يزعم ذلك العقيدات والأبي شعبان على ما مر في بحثهما ، إلا أن الجبور يعتبرون أنفسهم أصلاً للقحطانية والزبيدية ولا يعترفون بهذه النسبة إلا لعشيرة الدليم العراقية ، ولعشيرة الأبي شعبان القاطنة في قضاء الرقة ، ومعنى ذلك أنهم لا يقرون للعقيدات بهذه النسبة ، ومن المعلوم أنه بين العشيرتين عداءً قديماً متأصلاً ، بحكم المجاورة والتزاحم على المنازل والمراعي ، لا ينقطع شروره بينهما (كما جرى في ربيع سنتنا هذه) فلعل هذا العداء هو السبب في ذلك الإنكار .

ومهما يكن فالجبور عشيرة كبيرة تقطن في مجرى الخابور الأوسط ، وعلى ضفتيه اليمنى واليسرى وتمتد من تل حسين وتل الشيخ حمد في شمالي الصور ، حيث منتهى حدود

العقيدات ، إلى أطراف قرى الآشوريين والشاشان في أعالي الخابور في شمالي غربي الحسيجة ، حيث مبدأ حدود البقارة ، وتمتد أيضاً على ضفتي الجغجغ من مصبه في الخابور حتى تل حميدي في شمالي شرقي الحسيجة حيث مبدأ طيء .

والجبور عشيرة ، وإن عدت نصف حضرية ريفية لكن هواها لا يزال كالبدو الأقحاح ، في البداوة وعيش الخشونة وتربية الإبل أولاً ، والغنم ثانياً ، والظعن وراءها في البراري الواسعة ، المجاورة لمناطق نفوذها في شرقي الخابور وغربيه ، ومن ثم كانت عنايتها بالحرث والزرع قليلة ، ومحاصيلها سقيمة ، وحالتها الاقتصادية أنقص مما هي لدى العشائر المجاورة ، ولكن لما جاءت ظروف السنين الأخيرة ونشطت الحركة الزراعية في أراضي الجزيرة الخصبة من الشمال نحو الجنوب ، وبلغت أراضي الجبور ، استيقظت هذه العشيرة من غفوتها ، وشرعت تتعلق بالأرض ، وتحرث وتزرع ، ولا ريب في أن مستقبل هذه العشيرة كبير إذا انصرفت نحو الزراعة ، وعرفت كيف تستفيد من مشروع قناة تل مغاص ، الذي على وشك الانتهاء ، وسيروي ما يقدر بثمانية آلاف هكتار ، ومن غيره من المشاريع المأمول إحداثها على الخابور ، فالجبور تملك اليوم مساحات شاسعة من الأراضي ، المعدة لأن تكون مسقية إذا تمت هذه المشاريع ، وكثير من الأنهار الدوارس المشتقة من الخابور في العصور الماضية هي في حوزة هذه العشيرة ، أخصها بالذكر نهر التف الواقع بين قريتي عجاجة وطابان على الخابور جنوبي الحسيجة ، وقد أتيح لي أن أجتاز بسيارتي وسط مجرى هذا النهر ، وأمتع النظر مأخوذاً بروعة الأراضي الخلاء القواء التي كان يسقيها فيما مضى ، وهي تبلغ ألوف الهكتارات الفريدة في انبساطها وامتدادها ، واتساعها وجودة تربتها ، وفي جمال ربيعها الزاخر بمختلف الأعشاب والأزهار النامية نمواً يخفي الجمل البارك بينها .

وفي تاريخ الجبور يقال أنهم حديثو العهد بالورود ولكن قبل العقيدات ، فهم بعد أن كانوا في نجد ، جاؤوا إلى بادية الشام في أواخر القرن العاشر ، أو أوائل الحادي عشر الهجري ، واستقروا في ضفة الفرات اليمنى ، وبينما كانوا مقيمين مطمئنين فاجأتهم عشيرة العقيدات وزاحمتهم ، وأجلتهم عن أماكنهم ، فعبروا الفرات ، وانتقلوا إلى ضفة الخابور اليمنى من تل رمانة حتى البصيرة ، وإلى ضفة الفرات اليسرى من البصيرة حتى جبل

العرسي تجاه أبي كمال ، بيد أن نمو عددهم وضيق المراعي ومجيء شمر بعد العقيدات وغاراتهم ألجأتهم شيئاً فشيئاً للرحيل والابتعاد عن ضفة الفرات اليسرى ، فنزح بعض الجبور إلى العراق ، إلى أنحاء بغداد وكربلاء ، وبعضهم إلى أنحاء الموصل وكركوك ، وهم يؤلفون هناك جموعاً كبيرة تدعى (الجبور) ، وظل بعضهم في أنحاء دير الزور ، وفي سنة ١٢١٥ هـ تواقعوا مع العقيدات في معارك عنيفة ، وكان يرأس العقيدات يومئذ عبد الله الهفل ، ويرأس الجبور محمد أمين الملحم جد مسلط باشا الصالح الملحم ، فاضطر الجبور إلى إخلاء البصيرة ، والانسحاب شمالاً نحو مجرى الخابور الأوسط ، ودام النزاع حتى سنة ١٢٨٠ هـ ريثما ألفت الدولة العثمانية لواء الدير ، وأخضعت العقيدات وغيرها من العشائر ، ووطدت الأمن إلى حد بعيد .

والرئاسة في الجبور في يد أسرة (آل ملحم) ، وهي أسرة كبيرة قوية عرفت بجرأتها وبسطة يدها ، وقد امتاز الجبوريون على سائر العشائر بأنهم يخضعون لهذه الأسرة كل الخضوع ، ولا يشذون عنها ، ولا يبرمون أمراً إن لم يحضره أحد رؤساء هذه الأسرة ، وهي كثيرة العدد ، وتكاد تؤلف أكبر فخذ في العشيرة ، وكان كبير الجبور وعمود رفعتها مسلط باشا الصالح آل ملحم ، توفي في سنة ١٣٥١ هـ عن ثمانين سنة ، وكان قد نال رتبة الباشوية في عهد السلطان عبد الحميد ، وكان ذكياً مقداماً ، وهماماً رغم تقدم سنه ، وجواداً مضيافاً ، تزوج فيما قالوا أربعين امرأة ، منهن بعض الأرمنيات ، وأعقب كثيراً من الأولاد ، حتى صار إذا سئل عن عددهم أطرق برهة وفكر ، وإذا صادف هو أحدهم سأله من أمك ، على أنه لم يعش منهم كما هي العادة عند البدو إلا الأقل أي نحو أربعة عشر ، هم وأبناؤهم الآن من الفرسان المغاوير ، وكان مسلط باشا ذا سيطرة على العشيرة دون منازع ، ظل جامعاً شتاتها ، وحافظاً وحدتها طول حياته ، وقد خلفه في الرئاسة ابنه جميل بك ، لكن أخاه عبد العزيز صار ينازعه الرئاسة كما ينازعه بعض أبناء عمه من آل ملحم ، فأدى ذلك إلى انقسام العشيرة بين الأخين إلى قسم شمالي وقسم جنوبي ، والنفوذ الأوفى لعبد العزيز رئيس القسم الشمالي ، وهو شاب همام مقدام ، ولا سيما في الأعمال الزراعية ، أنشأ لنفسه ضيعة خاصة على الطريق بين الحسيجة والقامشلية ، وبنى فيها قصراً شامخاً سمي باسمه (قصر عبد العزيز) ، يظهر عن بعد شاسع ، وسط تلك السهول والحقول المنبسطة .

وقد كان الجبور في عهد السلطان عبد الحميد يعنون بالزراعة ، وظلوا إلى قبيل

إعلان الدستور العثماني في سنة ١٣٢٦ هـ يدفعون نحو نصف ضرائب لواء دير الزور ، ثم ثقلت عليهم أيدي الجباة والموظفين الغاشمين ، لبعد منازلهم عن مركز اللواء في الدير وفوضى الإدارة آنئذ ، فأخذت زراعتهم تقل شيئاً فشيئاً ، وانصرفوا إلى البداوة ، وحاق بهم الضيق والبؤس ، ورحل كثير منهم إلى أنسبائهم في العراق ، أو التحق بشمر وتبدى ، ومنذ بضع سنين يحاول رؤساؤهم جمع شملهم وإرجاعهم إلى عيش الزراعة والاستقرار حول الخابور والجغجغ .

وقد ازداد عدد نفوس هذه العشيرة في السنين الأخيرة حتى بلغ فيما قيل ٤٠٠٠ بيت ، ولها ممثل واحد في مجلس النواب ينتخب عن قضاء الحسيجة ، وهي تنقسم إلى ثلاثة جذوم :

الأول : جذم الهياكل (الهياجل) أعقاب هيكل بن عامر ، وفيهم بيت الرئاسة ، ويعدون خلاصة هذه العشيرة ويتألفون من الفرق الآتية : الملحم والزوبع والسلطان والهزيم والمحاسن والصبح والمحمد والحسوني والحريث والجحيش والبقة والعلي والبومانع .

الثاني : جذم (البو خطاب) ، ويأتون بعد الهياكل عدداً ومنزلة ، ومنازلهم على الجغجغ ، في شمالي مناطق الجبور ، حيث يجاورون عشيرة طيء ، ولا يفترون عن مخاصمتها ، ويتألفون من فرقتي العامر والبري ، وتلتحق بهم فرق البو عميرة والبو سلامة والقضاة والحليبيون والبورباش .

الثالث : (جذم العميرات) وهم فرقة واحدة تدعى الدندل ، وهي ثالثة الجذوم عدداً ومكانة .

ومن لواحق الجبور عشيرة كبيرة تدعى (الشرابيين) سيأتي ذكرها ، وأخرى صغيرة تدعى (ولد الشيخ عيسى) أفرادها شيوخ دين ، وهم أعقاب هذا الشيخ الذي ينسبون إليه الولاية ، وقد توفي في أوائل القرن الثاني عشر ، وضريحه فيما قيل في البصيرة .

وفرق الجبور التي في مشيخة عبد العزيز المسلط في نظارة مخفر درك تل براق ، وجميعها في ضفاف الجغجغ ، والتي في مشيخة جميل المسلط في نظارة مخفر درك الشدادي ،

وتنزل حول الحسيجة والحمدي وطابان وعجاجة والشدادي وجرف فدغمي وعلوة ومرقدة وشيخ حمد والدشيشة .

وقد اشتهر الجبور في الجملة بمنتوجهم من السمن والصوف الجيدين ، اللذين يحتجنها تجار الحسيجة بأثمان بخسة .

ووجهاء هذه العشيرة البارزين الشيخ جميل المسلط وعبد العزيز وعلي الزوبع وعلي السلطان ، وهم من فرقة الملحم أسرة الشيوخ ، ولكل من الفرق الأخرى رئيس خاص ، أضربنا عن ذكرهم خوف الإطالة .

أما جبور العراق فعددهم أيضاً كبير ، بعضهم في شمالي الموصل وجوار تل أعفر ، وبعضهم يمتد من تكريت إلى زمار وتل أبي ظاهر ، وهم هناك من العشائر الريفية المستقرة .

البو حمدان

عشيرة صغيرة متحضرة مستقلة ، أو تحسب من لواحق البقارة وهي مستقرة على الدوام ، لا تنتقل إلا ضمن حدود قراها ، رئيسها الحاج داود الحمدان ، عددها نحو ٢٠٠ بيت ، تقطن ناحية الدرباسية في المنطقة المعروفة باسمها ، ولها في هذه المنطقة عدة قرى .

حرب

عشيرة صغيرة متحضرة تحسب من لواحق طيء ، وهي أيضاً قلما تغادر قراها للنجعة ، تزعم الانتساب إلى قبيلة حرب الحجازية ، ولها شريكة في التسمية هي عشيرة حرب التي ذكرناها في بحث قضاء دوما ، ولم يتحقق لنا ما إذا كانتا قريبتين ، ويقال أن الجد الأعلى لعشيرة حرب التي في الجزيرة كان اسمه حرباً ، أعقب ثلاثة أولاد فارس وفيصل وسالم ، فأولاد فارس يقيمون في قضاء القامشلي ، وأولاد فيصل وسالم في ناحية رأس العين في أعلى وادي زركان ، المتاخم للحدود التركية ، رؤساؤهم الحاج منصف عاقوب وسليمان العبيد ، عددهم نحو ٣٠٠ بيت ، أما قراهم فهي في جهات القامشلي دللي حرب

المحتوية على ١٠ ـ ١٢ مزرعة ، وفي جهات زركان تل الأمير وتل حرمل وعرادة وبسيس ، يزرعون نحو ٥٠٠٠٠ دونم وأكثرهم في بيوت المدر ، وقليلهم في بيوت الشعر .

البقارة

ويدعون بقارة الجبل ، وهو جبل عبد العزيز الذي تقدم وصفه في الصحيفة ٤٥ من الجزء الأول ، وهم قسم منفصل عن عشيرة البقارة الكبيرة القديمة المعروفة ببقارة الزور ،وقد تقدم ذكرها في بحث محافظة الفرات ، مع بقاء الاتصال والتضامن عند الملمات .

وبقارة الجبل ينزلون على السفح الشمالي من جبل عبد العزيز ، ولهم فيه أراضٍ وأملاك ، كما لهم في الشمال الغربي والشرقي من الحسيجة ، ويعملون في قطع حطب البطم ، من جبل عبد العزيز وبيعه ، وفي تجريد هذا الجبل من حراجه ، وقد زرتهم في خريف سنة ١٣٦٢ هـ (١٩٣٢ م) في موقع الغرة ، وحادثت شيخهم عيسى السليمان الذي قتل حديثاً ، وقد نشب العداء في السنين الأخيرة بينهم وبين شمر « رهط ميزر عبد المحسن » وأحلافهم من الكيكية ، من جراء الخلاف على بعض الأراضي ،واستفحل الشر ، وأنجدهم إخوانهم بقارة الدير ، وجرت معارك قتل فيها عدد غير يسير منهم ، وتدخلت الحكومة المحلية في عام ١٣٦٣ هـ وصالحتهم ، لكن هذا لم يدم طويلاً ، وتجددت الفتن ، إلى أن تم الصلح على النحو الذي ذكرناه في بحث شمر ، وفرق بقارة الجبل هي البو علاي والمريخات والحمدان والصوفيان والبو معيش والبو شيخ والرفيع والبو حسن والبومصعة والعبيدات .

قيس

قيس (وتلفظ جيس) ـ من العشائر القديمة ، قيل أنهم جاؤوا في عهد الفتح الإسلامي ، ثم دفعتهم العشائر الحديثة الورود ، فاستقروا في أقصى شمالي بلاد الشام الحالية ، ومازال الدفع يلاحقهم ، حتى عبروا الحدود التركية ، وتجنسوا بجنسيتها مع بقائهم على فطرتهم العربية البدوية لأن معظمهم بدو رحل ، كانت باديتهم في الصيف المنطقة التركية شمالي الخط الحديدي في أنحاء حران وأورفة ، حيث أن لهم نحو عشرين قرية ، وفي الشتاء في المنطقة العربية بين جبل عبد العزيز ووادي البليخ ، وهم ٢٠٠ بيت ،

ولهم ١٢٠٠٠ شاة ، ورئيسهم النافذ محمد الشيخ حسن ، وفرقهم السيارة وبني محمد وبني يوسف ، ولكل من هؤلاء عدة أفخاذ ، وأعراب هذه العشيرة فتاكون أشرار ، لا يصطلى لهم بنار ، دأبهم شن الغارات والسلب والنهب ، داخل الحدود الشامية ، فإذا لوحقوا لجؤوا إلى المنطقة التركية ، ولهم من ذلك وقعات عدة مع عنزة (الفدعان الولد قوم مجحم بن مهيد) فقط ، لأن رئيس الخرصة مزود بن قعيشيش كان اتقى شرهم بزواجه فتاة من بنات رؤسائهم ، وقد حالت هذه المصاهرة دون المشاجرة مع الخرصة ، وظلت مع الولد فقط ، إلى أن عيل صبر الأمير مجحم منهم فلحقهم ، واشتبك معهم في معركة مروعة ، أصيب فيها بعينه ، فنقل بالطائرة إلى حلب وعولج ، ثم في سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٧ م) لحق الأمير مجحم غزاة منهم بسيارته ، وثأر منهم خسارة عينه على ما بيناه في بحث الفدعان ، وقد عقدت عدة مؤتمرات صلحية لدرء شرورهم فحبطت كلها ، ومن ثم منعوا من النجعة وقضاء الشتاء داخل الحدود العربية ، فظلوا داخل الحدود التركية وانقطعوا ، وفي قضاء أعزاز فرقة من قيس ، عددها عشرون أسرة ، وهم في ناحية أخترين ، لكن هذه الفرقة هادئة بالمرة .

الشرابيون

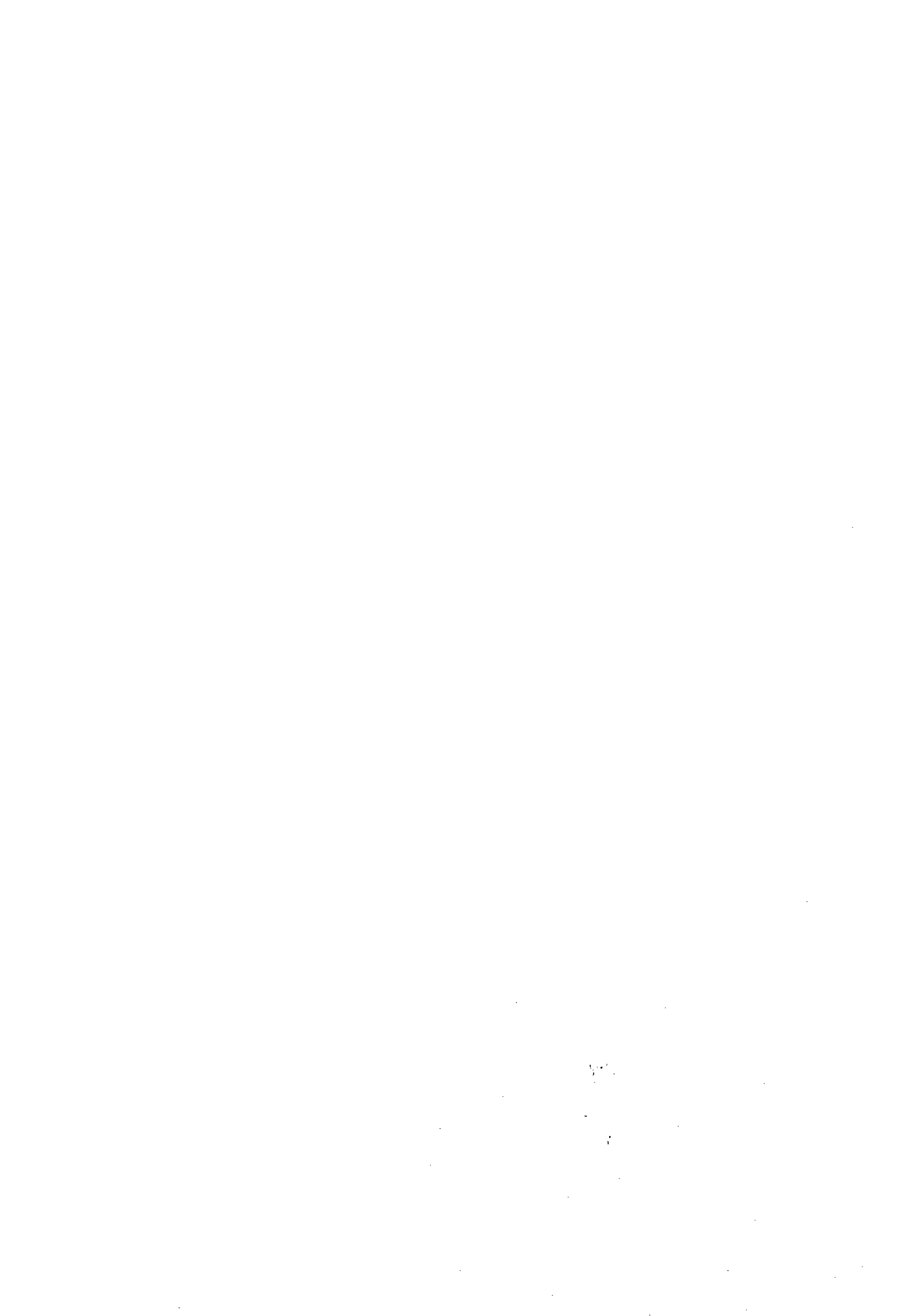
عشيرة قديمة يزعمون أنهم والجبور من نبعة واحدة ، وأنهم أول من حرث أرض الجزيرة وزرعها من العشائر العربية ، ولقب الشرابيين له معنى مزري بين البدو ، فهم أناس فقراء ، وفلاحون في خدمة بقية العشائر الغنية القوية ، ونساؤهم مرضعات أطفال العشائر ، يستلمنهم وهم صغار ، ويرضعنهم ويربينهم ، ثم يعيدنهم إلى ذويهم ، ومن ثم جاءت دعواهم بأنهم ينتمون إلى بني سعد الذين منهم حليمة السعدية ظئر الرسول ﷺ ، وفيهم كثير من الملالي جمع ملا ، والملا عند عشائر الجزيرة هو شيخ يقرأ ويكتب ، ويرقي ويعقد النكاح ، ويشفي الأمراض ، وهو إن كان حاذقاً لبقاً ، ومحيطاً بنذر من اللغة والفقه والتفسير ، يعد عندهم عالماً علامة ، ويصير ذا مركز كبير بين العشائر ، ومن مشاهير هؤلاء الشيخ إبراهيم والشيخ مجول ، ومن هؤلاء الملالي المتوفين قديماً الطويحي ، يقدسونه كثيراً ويقسمون به وبضريحه ، وله بينهم أعقاب يسمونهم الطويحيين ، إذا سألتهم قالوا عن أنفسهم سادة ، هذا ومما امتاز به الشرابيون عن غيرهم ، أنهم ذوو أيدي طائلة في

السرقة وقطع السابلة ، وأبلغ أذاهم يصيب يزيدية سنجار ، ومعذرتهم أن مال اليزيدية حلال لهم ، ومباح بحكم عبادتهم الطاووس ، والشرابيون إلى ذلك كثيرو العبادة والصلاة ، ومن الغريب أن أحدهم بينما هو في السرقة يدركه وقت الصلاة ، فيبادر لفرش عباءته ، ويعكف إلى الركوع والسجود ، فإذا انتهى يعود إلى إتمام ما بدأ به من السرقة ، ويتناقلون عنهم قصصاً ونوادر كثيرة من هذا القبيل .

وفرق الشرابيين متعددة ، ورئيسهم المعوّل عليه أحمد الحسن أبوزو ، وفرقهم : (١) البو محمد ، عددهم ٥٠٠ بيت يحرثون في ضفاف الخابور الأعلى بين رأس العين وتل الرمان ، ويعمل بعضهم كأجراء لدى الملاكين من الشاشان ، وعندهم نحو ١٥٠٠٠ شاة ، وهم يخيمون دائماً في المراعي الخصبة الممتدة في السفوح الشمالية لجبل عبد العزيز ، حول بئر السوسة ، وعين مغلوجة وقصر سكرة ، ورئيسهم خلف المهيد . (٢) الطاهات ، وهم عدة فنود مستقرون قرب صفرة على الرد الأعلى حيث لهم أرضون زراعية ، وقطعانهم تسرح في مراعي الرميلة وتل براق والهول وضفاف الجغجغ ، وعددهم ٧٠٠ بيت .

وثمة من الطاهات فندة مستقرة في السبع سكور على الخابور ، تعيش مختلطة مع الجبور وتتبع شيوخها ، ومنهم فندة في أنحاء جزيرة ابن عمر ، وفنود الطاهات في البوزو والتركاوي ، والبومصعة ، والبوعمر ، والسهم والجرزي والبدران والطويحيين ولكل منهم رئيس خاص يتبع أحمد الحسن أبوزو ، فمجموع الشرابيين نحو ١٢٠٠ بيت .





العناصر غير العربية
في بلاد الشام

العناصر غير العربية في البلاد الشامية

بعد أن انتهينا من ذكر عشائرنا العربية ووصفها ، رأينا إكمالاً للبحث أن ندرج فصلاً خاصاً بالعناصر غير العربية ، التي لها صبغة عشائرية من حيث التكوين والتكتل ، والتمسك بالعصبية ، والتقاليد والعادات واللغات الخاصة ، ونعني بهم الكرد والتركمان والشركس والداغستان والشاشان المستقرين في مختلف الألوية والأقضية في بلادنا الشامية .

وهؤلاء كلهم مستظلون براية بلاد الشام ، ومتعلقون بالوطنية الشامية ، فوق ما لهم من الحمية الإسلامية التي صورت لآبائهم أن (أول الدنيا الشام وآخرها الشام) فهاجروا من ديارهم الأصلية لأسباب مختلفة ، وفي أوقات مختلفة ، وجاؤوا واستقروا في بلاد الشام ، وربطوا مقدراتهم بمقدراتها ، واعتنقوا سياستها وهدايتها ، وتلقفوا لغتها إلى حد غير يسير ، مع احتفاظهم بلغاتهم ومشخصاتهم القومية ، على أنهم بمرور الزمن وتوالي الاتصال ، لابد صائرون يوماً ما إلى الذوبان في البوتقة العربية ، كما جرى بأسلافهم من قبل ، وصائرون إلى مساهمة إخوانهم العرب في خدمة هذه البلاد ، بسجاياهم العنصرية الجميلة ، ولا غرو ؛ فقد كان لأسلافهم نصيب كبير في خدمة البلاد العربية الشامية والمصرية لما زادوا عن حياض الإسلام ، تجاه غارات الصليبيين الأوربيين والمغول الآسيويين ، وأبلوا وقتئذ أحسن بلاء ، وسادوا وشادوا دولاً وإمارات قوية ، وخلدوا آثاراً عظيمة في خدمة بلاد العرب ، ولغتها وعلومها وآدابها وتآليفها ، وفي بناء المعاقل الحربية ، والمعاهد العلمية والدينية والخيرية في أكثر عواصمها وأماكنها .

وقد صار من الحق أن تحمد سيرة هؤلاء الأسلاف الميامين ، وأن يشمل هذا الحمد أعقابهم الحاضرين ، وينالهم بعض الاهتمام بذكرهم ووصفهم ، وتعريف ماضيهم وحاضرهم ، إلى من يجهلهم من قراء العربية مازالت المعرفة أول ركن للمحبة والألفة .

الكرد

الشعب الكردي من الشعوب الآرية والفروع الإيرانية ، فهم بذلك من دوحة الإيرانيين والأفغانيين والأرمن ، ولا صلة لهم بالعربية والقحطانية ، ولا بالآشوريين والمديانيين القدماء ، كما يظنه بعضهم ، فهم عريقون في القدم منذ آلاف السنين ، ولكن التاريخ لم يحط بعد علماً بمنشئهم ، والعهد الذي جاؤوا فيه ، واحتلوا بلادهم وجبالهم المعروفة باسمهم ، وهي الآن متوزعة بين دول العراق وتركية وإيران ، وتمتد من جنوبي أرضروم وأرزنجان وضفاف بحيرة وان ، وشرقي الدجلة إلى قرب خليج البصرة طولاً ، ومن شرقي مرعش إلى غربي أرومية والموصل وأصفهان عرضاً ، ناهيك الجاليات الكردية المبعثرة في بلاد الأناضول والشام وإيران وبلوجستان والأفغان وروسيا ، ويقدر العارفون مجموع هذا الشعب بنحو خمسة ملايين .

والكرد ذوو أطوار مختلفة ، ولهجات متعددة ، وكلمات منشقة ، ذلك بحكم اتساع ديارهم ، ووفرة جبالهم الشاهقة وأوديتها السحيقة ، وانقسامهم في الذروات والوهدات على هيئة عشائر عديدة ، فهم لم يؤسسوا في أي زمن دولةً مستقلةً موحدةً مستندةً على أساس الجنسية ، رغم الثورات والمحاولات العديدة التي قاموا بها فأخفقوا ، وقصارى ما أوجدوه إمارات متفرقة صغيرة المساحة سريعة الزوال ،وقد ظلت بلادهم المذكورة طوال القرون الغابرة ، مسرحاً للحروب والفتن ، ومعتركاً للجيوش المتقاتلة ، ومطمعاً للفاتحين من الدول المختلفة كالآشوريين والإيرانيين واليونان ، والرومان والعرب والترك والمغول ، ونالها بحكم وقوعها بين أحجار الرحى كثيراً من الأذى والخراب ، إلا أن الكرد قد قاوموا هذه الغارات والمناحرات ، وحفظوا كيانهم ولغاتهم وسجاياهم القومية ، وقد كانوا قبل الإسلام كالفرس على العقيدة الزرادشتية ، واشتركوا معهم في مدافعة الجيوش العربية المغيرة ، ثم أسلموا وحسن إسلامهم ، لتوافقه مع ما جبلوا عليه من الخلال ، واشتركوا في جميع القلاقل والحروب التي نشبت في عهد الأمويين والعباسيين والبويهيين والسلجوقيين ،وعملوا في خدمة الإسلام والذود عن حماه ، أثناء الغارات المغولية والحروب الصليبية ، وكفاهم فخاراً

أن البطل العظيم صلاح الدين بن أيوب وأنجاله وأقاربه ملوك بني أيوب منهم ، وأنهم كانوا من جملة حزبه وجنوده يلبونه كلما استجاشهم .

والأيوبيون كما يعلمه المطلعون على التاريخ - وعلى رأسهم مؤسس دولتهم صلاح الدين - نصبوا أنفسهم حماة عن الإسلام وذادة عن أهله ، ضد الصليبيين الأوربيين الراغبين في الاستحواذ على بلاد المسلمين ، باسم استخلاص بيت المقدس ، فوقفوا دونهم سداً منيعاً ، وصارعوهم أمداً طويلاً ، ومنعوا توغلهم في بلاد المسلمين خاصة ، وبلاد الشرق عامة ، فلم يستطيعوا أن ينالوا في تلك العصور المتوسطة ما نالوه في العصور الحديثة ، وكم للأيوبيين من موقعة أذلوا فيها أنوف الفرنجة ، ونهنهوا من كبريائهم ، وفي كتاب (الخريدة) للعماد الأصبهاني وكتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) للمقدسي شرح لهذه الحروب ، وما لابسها من خطب وأشعار ، تثير الحماس ، وتبهج الصدور ، وتستمطر الرحمة على أولئك الأبطال الغر الميامين .

ولم يقصر ملوك بني أيوب في تقريب العلماء والنابغين ،وقد أنشأ كثير منهم المساجد والمباني الخيرية ، ورتبوا الدروس وشجعوا العلوم والآداب العربية ، وأسدوا ضروباً من البر والإحسان كثيرة ، لولا أن دولتهم لم تعمر إلا نحو ثمانين سنة (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) لضعف ملوكها المتأخرين ، ووقوع الخلف بين صفوفهم ، وطغيان نفوذ مماليكهم الذين جلبوهم واستصفوهم ، وأسسوا بعدهم دولة السلاطين المماليك على ما فصلته كتب التاريخ .

وكما كان الكرد الجند الخاص لملوك بني أيوب وعمدتهم ، صاروا من بعد أنصار وجنود شاهات إيران وسلاطين آل عثمان ، والتاريخ الإيراني والتاريخ العثماني كل منهما طافح بالوقائع الدالة على خدمات الكرد لهؤلاء ولأولئك ، وما ضحوه في سبيل الدول التي تحسن معاملتهم ، وتستغل بسالتهم واستعدادهم الحربي .

وأكثر الكرد مسلمون سنية شافعية ، وبعضهم في تركية وإيران شيعة جعفرية ، ومنهم من لايزال على دينه القديم المعروف بزرادشت ، ومنهم أناس في أنحاء الموصل ، يدعون (إلهية علي) يشبهون علوية جبال اللاذقية ، وآخرون يدعون (شاباك) لا يعرف مذهبهم على التحقيق ، أما الذين في جبل سنجار شمالي العراق فهم يزيدية ، وبعض الكرد شبه رحل يصيفون في الجبال ، ويشتون في السهول والأودية ، ويقول

(أمين زكي) في كتابه (تاريخ الكرد والكردستان) ص ٢٩٢ « ليست الصفات القومية والأخلاق والعادات العامة في العشائر الكردية متحدة كلها ، بل إن هناك فروقاً واختلافات بارزة بين تلك الصفات والمزايا في جميع العشائر تقريباً ، فإعطاء وصف عام عن الكرد في هذا الشأن يبعدنا عن الحقيقة ، إلا أنه يمكن أن يقال أن الكرد في الجملة أرباب زرع وضرع ، وأهل حرب وفتك ، ويعدون من أحسن العناصر في الجندية ، ومسالك الدرك والخفارة ، كما أن نساءهم عاملات مجدات يتقن كثيراً من الأعمال المنزلية ، ويشاركن الرجال في الحروب والحفلات » انتهى .

واللغة الكردية لغة آرية ، انفصلت مع اللغة الفارسية من أصل واحد ، وقد انقسم كل منها إلى عدة لهجات ، فلهجات اللغة الكردية مختلفة عديدة لم يعمل أحد على توحيدها ، وعلى إيجاد أبجدية خاصة ، وكتابة مشتركة ، وافية بحاجات جميع لهجاتها ، وقد أدى هذا إلى تباعد اللهجات بعضها عن بعض حتى غدت كأنها لغات مختلفة ، يكاد لا يفهم أصحابها ما يقوله غيرهم .

ويغلب على الأكراد طول القامة ، وعرض الهامة وضخامة البنية ، واستدارة الوجه وعرضه واسمراره ، وبروز الأنوف وطول الشوارب وغلظها ، وكبر العيون واسودادها وبروقها ، كما تغلب عليهم نزعة البطش والرجولية الحقة ، فهم محاربون وفرسان من الطراز الأول ، ومن هنا لبسهم هذا الاسم وهو (الكرد) ، الذي يدل في الفارسية على الرجل الشجاع البطل ، وأكثر ازدحامهم في السليمانية وكركوك وراوندوز وإربل وسعرد وبتليس ووان وأرومية وكرمانشاه وغيرها .

أما تاريخ الكرد الحديث فهو سلسلة من الثورات ، التي كانت ترمي إلى التخلص من النير العثماني والإيراني المشترك ، وأهم هذه الثورات ما نشب في مستهل القرن ١٣ هـ قام بها رجل يدعى عبد الرحمن باشا ، فنادى باستقلال الكرد ، وراح يعمل لتوحيد جميع البلدان الناطقة بالكردية ، لكن الحملة التي جهزها والي بغداد بأمر الباب العالي أجهزت على هذه الحركة .

وأعاد الأكراد محاولاتهم بعد ذلك في سنة ١٢٤٢ و ١٢٩٤ و ١٣٠٣ و ١٣١٧ هـ وغيرها ، ولكن مصير هذه الثورات كان الإخفاق بعد تكبد خسائر كبيرة بالأرواح والأموال ، وبعد

الحرب العالمية الأولى وانكسار الدولة العثمانية ، ظن الأكراد أن فجر استقلالهم سيبزغ بعد التضحيات التي قدموها ، فقاموا بإرسال الوفود ، وتطيير البرقيات إلى مؤتمر السلام ، فأقرت معاهدة سيفر بحقوق الكرد وباستقلال (المناطق الكردية الواقعة في شرقي الفرات وجنوبي أرمينية وشمالي الحدود التركية العراقية) . لكن هذا الاعتراف ظل حبراً على ورق ، لقيام مصطفى كمال باشا بثورته المعروفة ، وتمزيقه معاهدة سيفر ، واستبدالها بمعاهدة لوزان التي تجاهلت مطالب الأكراد .

قلنا إن الأكراد ينزلون في مناطق متقاربة متجاورة بين إيران وتركيا والعراق ، فهم كما ثاروا على الحكومة التركية وقاتلوها غير مرة ، ثاروا على إيران وعلى العراق أيضاً . وكانت القوات المنظمة في كل مملكة من هذه الممالك تتغلب عليهم ، وتخمد حركتهم في النهاية .

ولعل في مقدمة ما يستوقف النظر من هذه الحركات الكردية أنها حدثت في أوقات متقاربة في تركيا وفي العراق وفي إيران ، وبعد ختام الحرب العالمية الأولى وقيام الدول الجديدة في هذه الممالك الثلاث ، أما قبل ذلك أي في العهدين الحميدي والقاجاري فقد كان الهدوء يشمل المناطق الكردية على الغالب .

وأول ثورة كردية أوقعها الأكراد على الترك هي ثورة الشيخ سعيد في ولاية ديار بكر سنة (١٣٤٢ هـ) ، أي بعد ما استقرت الحكومة الكمالية ، فقد نهض لقتالها باسم الدفاع عن الدين الإسلامي ، ولكونها ألغت الخلافة ، وأقصت سلائل الخلفاء عن بلادها ، فوقعت أحداث مريعة جداً ، انتهت بإخماد الثورة والقضاء عليها وتشريد رجالها ، والفتك بهم وإعدام العشرات من زعمائها ، والذين اشتركوا فيها في ساحة ديار بكر بوقت واحد .

وثار الأكراد بعد ذلك ثورة كبرى ثانية بقيادة اللواء إحسان باشا سنة (١٣٥١ هـ) في جبال وان ، فأرسل الترك قوى عظيمة أخمدت الثورة وشردت رجالها ، ولم يخلو الأمر في الغالب بعد ذلك من وقوع اضطرابات موضعية ، يخمدها الترك بدون صعوبة .

أما في العراق فقد حدثت اضطرابات في مناطق السليمانية الكردية سنة

(١٣٣٨ هـ) ، أي عقب استيلاء الإنكليز على العراق ، فقد ثار الأكراد أول ما ثاروا ، لأنهم وعدوا بإنشاء دولة كردية مستقلة في جبال السليمانية ، ثم أخلفوا .

وعاد الأكراد فثاروا في السليمانية مراراً عديدة منذ سنة ١٣٤١ هـ ، وحتى إلى سنتنا هذه بقيادة الشيخ محمود والشيخ مصطفى البارزاني ، وكان الجيش العراقي يخمد الحركات كل مرة .

أما في إيران فقد تولى الزعيم الكردي إسماعيل سمكو خان قيادة الثورة على الحكومة الإيرانية في عهد الشاه رضا بهلوي السابق ، فأرسلت القوى فأخمدتها .

وفي الحرب العالمية الثانية لما رجحت كفة الحلفاء ، وأخذ المحور يتراجع ، عادوا إلى التكتل ، وأخذت لجان التحرير تنشط من جديد ، وأرسلت برقيات عديدة إلى الأقطاب الثلاثة ، حينما كانوا مجتمعين في بوتسدام مطالبة بألا ينسى الشعب الكردي حين تقرير مصير الشعوب ، ولما قامت الحكومة السوفياتية في إيران لفصل آذربايجان والمناطق الكردية ومنحها الاستقلال الذاتي ، رأى الكرد الإيرانيون في ذلك بارقة أمل تسطع من الشمال ، فولوا وجههم نحوها ، علهم يستطيعون بموآزرة الحكومة المذكورة من تحقيق أمانيهم ، ولبثوا ينتظرون ، على أن العارفين بدقائق السياسة لم يعتقدوا بفائدة هذا الانتظار ، مازالت بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية لا تنظران بارتياح إلى تأليف دولة كردية ، تتاخم بلاد إيران والعراق والشام ، فحدث ما حسبوه ، وأخفقت حركة آذربايجان أيضاً ، وظلت فكرة الدولة الكردية معلقة في باب (الأماني القومية) ، لمدة لا يعلمها إلا الله .

هذا وبعد أن مزق الترك معاهدة سيفر عقيب الحركة الكمالية ، وأبدلوها بمعاهدة لوزان في سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣ م) تنكروا للأكراد ، وقاوموهم واتخذوا أشد التدابير نحوهم ، وخصوصاً بعد حوادث الشيخ سعيد المعروفة ، وسلكوا سياسة سداها ولحمتها تتريك الأكراد ، وتجريدهم من قوميتهم وجعلهم أتراكاً ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فلا يشعرون بالشعور القومي ، ولا يتحسسون به ، فزاد ذلك في نقمة الكرد عليهم ، وأوجد هذه الهوة السحيقة بين الأمتين ، ومثل هذا الخلاف غير واقع بالنسبة للعراق ، فالأكراد العراقيون يتمتعون بجميع الحقوق السياسية ، ومنهم الوزراء والأمراء وقواد

الجيش ، ومنهم السفراء ، ونـدر أن تـؤلف وزارة عراقيـة لا يشترك فيهـا كرديـان على الأقل ، وغير واقع وغير وارد على البال بتاتاً بالنسبة إلى بلاد الشام . لأن الأكراد الشاميين (السوريين) متوزعون بين إخوانهم العرب على ما سوف نبسطه ، وهم والعرب من عنـاصر البلاد الأصليـة ، وسواسيـة في كل ضراء وسراء ، ويتبـادلون كل خلطـة ومودة ، ومن ثم لم يجدوا سبباً لأي وثوب أو انشقاق ، ونعتقد جـازمين أنهم سيبقون من ذادة الإسلام وحصون العروبة في هذه الديار ، ومن أركان منعتها ونهضتها ، وبعضهم من حملة شعرها وأدبهـا ، كما كان أسلافهم بنو أيوب وأنصار بني أيوب الأمجاد .

أكراد بلاد الشام

يكثر وجود الأكراد في شمالي بلاد الشام على مقربـة من الحـدود التركيـة الحـاليـة في محـافظتي الجزيرة وحلب ، ممن سنـذكرهم بـالتفصيل ، وكل هـؤلاء أكراد أقحـاح لم تتصـل إليهم العربية بشيء ، أما في وسط بلاد الشام فعدد الأكراد قليل ، إلا أن لهم بقاعـاً يؤلفون فيها كتلاً مجتمعة ، كالذين في ناحية جبل الأكراد التي بين جسر الشغر واللاذقية ، وفي حيّ الأكراد من أرباض دمشق ، وفي قريـة أكراد إبراهيم في وعر حمـاة غربي العـاصي ، في حين أن مجيء الأكراد إلى وسـط بلاد الشـام قـديم ، وربمـا كان أول من أتى بهم هو عـامل حمص شبـل الـدولـة نصر بن مرداس سنـة ٤٢٤ هـ ، وأسكنهم في حصن الصفـح ، ليحفظـوه ويصونوا الطريق بين حمص وطرابلس ، فسمي الحصن منـذ ذلـك الحين : حصن الأكراد ، وهو في قضاء تلكخ من أعمال محافظة اللاذقية ، وقـد بقوا فيـه نحو قرن ونيف إلى أن جـاء الصليبيـون ، واستخلصـوه منهم سنـة ٥٣٠ هـ فتشتتـوا ، ثم كثر تـوافـد الأكراد في عهـد الدولتين النورية والصلاحية لخوض غمار الحروب الصليبية والإبلاء فيها كما قـدمنـا ، ولعل كل من أدى واجبـه في الجهـاد من هؤلاء كان يعود أدراجـه ، والـذين بقـوا منهم استعربـوا وذابوا في البيئة الشامية ، ولم يحتفـظ بصلتـه بمـاضيـه الكردي إلا الـذين وفـدوا في العصور الأخيرة ، منهم سكان ناحية جبل الأكراد في قضاء الحفة من أعمـال اللاذقيـة في قرى أرض الوطا ومزين والدوير . ومنهم بعض بيوتات متفرقـة في أمـاكن مختلفـة ، ذات مكانـة غير يسيرة ، أكثرها عدداً وأكبرها ملكاً وجـاهـاً آل مرعب في قضـاء عكار ، وجـاؤوا من أنحـاء حكاري منـذ قرنين ونصف ، واستعربوا تمـامـاً ، وقـد بقي من آثـار كرديـة هؤلاء ، طولهم

وعرضهم وعجمة لهجتهم ، وضخامة لبادتهم التي يلبسونها تحت الكوفية والعقال ، فهي طويلة وثقيلة أكثر من اللزوم ، ويلقبون بلقب (بك) منذ أن صار جدهم علي الأسعد المرعبي (باشا) وحاكماً في أنحاء طرابلس وأقضيتها في القرن الهجري الماضي ، ويليهم آل البرازي في مدينة حماة ، جاؤوا منذ قرن ونصف من أنحاء الرها ، واندمجوا إلا قليلاً ، ومنهم سكان حي الأكراد أحد أرباض دمشق الذين ينتمون إلى أصول ومنابت مختلفة ، وهؤلاء على الرغم من اختلاطهم بالدمشقيين من عهد الدولة الصلاحية ، واقتباسهم اللغة والأزياء العربية ، لا يزالون محتفظين بلغتهم وعقليتهم الكردية ، وأكثر طباعهم الأصلية لاستمرار مجيء الوافدين من حكاري ووان وغيرها من بلاد الأكراد الشمالية إلى هذا الحي ، الذي يعدونه ملاذ كل خاطئ أو خائف منهم ، ولدوام اتصال سكانه بأهل تلك البلاد النائية بسبب تجارة الغنم التي يجلبونها من هناك ، ويميرون معظم بلاد الشام بلحومها ، وهم أبناء بجدة هذه التجارة المحتاجة إلى كثير من الجلد والمضاء ، حاز بعضهم من ورائها ثروة غير يسيرة ، وزادها آل يوسف وآل شمدين منهم ملكاً وجاهاً عظيمين ، وقلة اكتراث أهل هذا الحي بالدراسة والثقافة قبلاً ، كانت تسوق كثيراً منهم في عهد العثمانيين نحو الارتزاق من التجند في سلك الدرك ، أو التوظف في جباية الأموال الأميرية ، أو التزام الأعشار ، أو وكالة المزارع والضياع ، أو خفارة المباني والمصانع ، وغيرها مما يحتاج للقوة والغلظة . ولما نضب معن النفع من هذه المواد ، بانقضاء ذلك العهد تغير حالهم في الجملة ، وصاروا يتعلمون ويتثقفون ، وانصرف بعضهم إلى الصناعات اليدوية وخلافها .

على أن السواد الأعظم من عشائر الأكراد يقطن في محافظة الجزيرة ، ويمتد من أقصى شمالها الشرقي في قضاء ديريك قرب دجلة ، ويتجه نحو الغرب إلى قضاء القامشلي ، ثم إلى ناحية رأس العين ، ثم إلى قضاء عين العرب في محافظة حلب ، ثم إلى القضاء المسمى باسمهم الخاص وهو جبل الكرد (كرداغ) شمالي حلب ، ثم إلى قضاء الباب شرقي حلب ، ثم إلى ناحية (جبل الأكراد) في قضاء الحفة من أعمال اللاذقية ، وأكراد هذه الناحية قد استعربوا بالمرة ، ولم يبق عارفاً اللغة الكردية منهم إلا الطاعنين في السن ، وأغلبهم من عشيرة شيخان ، ويظهر من استعرابهم هذا أنهم هنا من نحو قرنين أو ثلاثة ، والعشائر الكردية التي في قضائي ديريك والقامشلية متحيرة بين الحدود التركية والعربية بعضها هنا

وبعضها هناك ، على أن كثيراً من أكراد بلاد الترك ، صار يتهافت نحو المنطقة العربية في الجزيرة ، ويتسابق إلى إحياء القرى وإنشاء المزارع ، والفلاح الكردي يحسن العمل ، ويؤدي الواجب في زراعته ومعاملته ، ومن زعماء الأكراد الذين يذكرون في الجزيرة نايف بن مستو باشا وحسن بن حاجو آغا ، وعبدو آغا المرعي ، وخليل بك بن إبراهيم باشا الملي وابنه محمد علي بك ، ومن شيوخ الدين عند الأكراد يذكر الشيخ أحمد خزنة المقيم في قرية تل خزنة شرقي القامشلي ، وله عندهم حرمة وكرامة تقربان من حد التقديس ، حتى أن مريديه لا يرفعون بصرهم نحوه ، بل يتلقون أوامره وهم مطرقون وصامتون ، وهو فيما قيل عالم فاضل ، وعنده مدرسة على حسابه يطعم ويكسي ويدرس طلابه على حسابه ، وكلمته ورسالته معتبرتان عند شيوخ الأعراب أيضاً ، ويليه الشيخ إبراهيم حقي في قرية حداد .

وها نحن نذكر العشائر الكردية عندنا على الترتيب من الشرق إلى الغرب :

ميران

ويدعون أيضاً (كوجار) ، ومعناه بالكردية (بدوي رحالة) ، وأصلهم من بلاد الكرد ، وهم رعاة متنقلون ، منطقتهم في قضاء ديريك من الدجلة حتى جهة تل رميلان في قراهم المسماة كره صور وكربلات وباشكفت وشكر حاج ووادي السوس ، وقد يصلون في الصيف إلى سعرد في تركية ، وعددهم ٦٥٠ ـ ٧٠٠ بيت ، وهم أغنياء جداً بالغنم (٨٠٠٠ شاة) ، يبيعونها من التجار الموصليين والديريين والحلبيين ، وعندهم أيضاً ٢٠٠٠ بقرة ، وعدد وفير من البغال التي تقوم لديهم مقام الإبل في الحل والترحال ، وقد اشتهروا بصنع الجبن الممتاز ، وهم محاربون وعلى غاية من الشجاعة والشراسة ، وهم في رئاسة نايف بك بن مصطفى باشا ، وهو ذو ثروة طائلة من قراه الكثيرة التي في منطقة (دشت حسن) حول جزيرة ابن عمر ، ومما يجبيه من أتباعه الكثر ، وهو قريب حاجو آغا رئيس (الهويركان) ، وفرقهم البركالا والسنياكا والواراساري والايا سا كاو وآليوكان والبرزاري وأومادالا والريركان والموسو باشا ، والميران أصدقاء طيء والآليان والهويركان ، وكان بينهم وبين شمر عداء يرجى أن يكون قد زال .

الحسنان

أكراد من بلاد تركستان الشرقية ، وهم زراع مقيمون ، وعندهم قطعان كثيرة من الغنم والبقر والبغال ، كما عندهم كثير من الأرضين الزراعية الخصبة ، منطقتهم في قضاء ديريك سهل جزيرة ابن عمر من آخر أعضاد الجبل في الشمال حتى جبل قراجوق في الجنوب ، ومن الدجلة في الشرق حتى أنحاء المصطفوية في الغرب ، عددهم ١٢٠٠ بيت ، أكثرهم في جنوبي خط نصيبين ـ جزيرة ابن عمر ، وقد كانت رئاستهم في يد أسرة الحاج عبد العزيز ، ولما زالت مكانة هؤلاء ضاعت الرئاسة ، ولدى العشيرة ٤٥ قرية وخرب أخرى عديدة ، وفرقهم ، الحاج عبد العزيز وسليمان الحسين وميروبن ميرو .

آليان

أكراد نصف بدو ، يقيمون في قضاء القامشلية ، ويحرثون ويزرعون بين نهر الجراح والسفوح الغربية من جبل قراجوق ، وعندهم ٥٥ قرية ، منها ٣٦ في الحدود الشامية والبقية في الحدود التركية ، وعددهم ٥٥٠ بيتاً منهم ٤٣٠ داخل الحدود الشامية ، ولديهم قطعان كثيرة من الغنم والمعز ، كما لديهم كثير من الأرضين الزراعية الخصبة جداً ، ورئيسهم عبدي آغا محمد المرعي ، المقيم في مركز ناحية ديرونة من أعمال قضاء ديريك ، وقد اشترك مع حاجو آغا بالثورة على الترك ، ثم لجأ إلى الحدود الشامية بعد أن خرب الجند التركي قريته ، والآليان كانوا في عداء مع شمر الخرصة ، وفي صداقة مع كل العشائر ، ولا سيما مع طيء .

شيتية

أكراد ، نصف حضر ، يقيمون في شرقي القامشلية بين بريج في الغرب ، ونهر الجراح في الشرق ، بعضهم يحرث ويزرع ، وعندهم ٢٨ قرية ، ٢٠ منها داخل الحدود الشامية ، وعددهم ٨٠٠ بيت ، ولديهم قطعان كثيرة من الغنم والمعز ، كما لديهم كثير من الأرضين الخصبة ، وهم يتقنون حرثها وزرعها ، ويستعملون الآلات الزراعية الحديثة وهم أحلاف طيء ، ويعد من رؤسائهم محمد الأحمد اليوسف وخليل الإبراهيم وعبد العزيز سحيل ، وأشهر قراهم البوير والسيحة والخزنة وسحيل .

أطراف شهر

عشيرة مختلطة من أكراد وأعراب ، تقطن في تسع قرى داخل الحدود الشامية ، ومثلها في الحدود التركية ، وهؤلاء فلاحون أجراء لدى الملاكين من أهل نصيبين والقامشلية ، وليس لهم رئيس عام .

بو بلان

أكراد نصف حضر ، في غربي القامشلية ، لهم عشر قرى ، أكثرهم في المنطقة التركية ، وعددهم ٣٠٠ بيت ، رئيسهم يوسف كاسو القاطن في المنطقة التركية ، وهو من صناديد الغارات والفتكات .

هاوركية ـ هاويركان

أكراد ، انضم إليهم بعض عناصر سريانية ويزيدية ، وهم زراع مقيمون ، لكنهم أهل حرب وفتك وسلب من الطراز الأول ، منطقتهم قبور البيض وما حولها الواقعة شرقي القامشلية على طريق ديريك ، وهم نحو ٩٠٠ بيت ، ثلثهم مسلمون سنية ، والثلثان الباقيان نصارى سريان يعاقبة ، وقليلهم يزيدية ، وكان رئيسهم دون منازع حاجو آغا (توفي في سنة ١٣٥٩ هـ) والآن ابنه حسن آغا ، وهو نائب في البرلمان السوري ، وحاجو آغا كان في بادئ الأمر حليف الترك ، وله اليد الطولى في مذبحة ـ بياندور ـ حينما هوجمت سرية الهجانة الفرنسية ، ويد أطول في غارات قبور البيض ، ثم انحاز بعد إلى القضية الكردية ، وهاجم المخافر التركية حول نصيبين ، ولما ثأر منه الترك ، نزح إلى الحدود الشامية ، واستقر في قبور البيض وعدد فرق الهاوركية كثير ، ولهم قرى عديدة ، بعضها داخل الحدود التركية والبقية داخل الحدود الشامية .

المرسينية

عشيرة كبيرة تجاور عشيرة بينار علي ، ويمتزجون معاً في أكثر الأحيان ، يقطنون شرقي ناحية عامودة ، ولهم فيها إحدى عشرة قرية كلها داخل الحدود الشامية ، يعملون في الزراعة وعندهم قطعان وفيرة ، لكنهم لا يتعدون في نجعتهم حدود قراهم ، رئيسهم عبدي

آغا خلو ، عددهم نحو ٣٠٠٠ بيت وفرقهم الرمان والعبد المنصور ، وهم أخصام عشيرة بوبيلان الكردية .

بينار علي

عشيرة كبيرة ذات ثروة وزراعة هامة ، تقطن القسم الغربي من القامشلي وتبعد ١٥ ـ ٣٠ كيلو متراً عنها ، ويبلغ عددها ٣٠٠٠ بيت ، وبعضها داخل الحدود التركية ، وأكثرها داخل الحدود الشامية ، حيث لها قرى عديدة من أهمها أبوراسين وجرنة ، ولا يزال رؤساء هذه العشيرة يستوردون الآلات والسواحب الزراعية الحديثة ، ويشغلوها في أراضيهم الخصبة ، ويستغلون غلالاً وفيرة بفضلها ، وهم مثابرون على التوسع الزراعي والتحضير .

ملانى خضراني

أكراد ، نصف حضر في غربي وجنوبي غربي عامودة ، أكثر قراهم داخل الحدود الشامية ، وبعضها داخل الحدود التركية ، ينجعون أودية الخابور والجغجغ ، وعددهم نحو ٦٠٠ بيت ،ولهم فرق مختلفة .

دقورية

عشيرة كبيرة تجاوز عشيرة الملية في ناحية عامودة ، لها عشرات القرى داخل الحدود الشامية ، كما لها داخل الحدود التركية ، يرأسها سعيد آغا بن محمد آغا النائب في المجلس الحالي ، ولهذه العشيرة ولاسيا لرئيسها سعيد آغا ماض محمود في الوطنية ، ومقارعة الفرنسيين ، وقد اضطر إلى الهجرة إلى العراق مدة مديدة ، إلى أن عاد إلى وطنه بعد هدوء الحالة في الجزيرة .

الكابارة

عشيرة كردية كبيرة تقطن في ناحية عامودة ، وأخص قراها قره تبة وماريت وسلندر ، ولها أعمال زراعية هامة ، وثروة طيبة من مواشي وحبوب ، وآلات زراعية حديثة ، ولرؤسائها سمعة حسنة ، أخصهم عبد الرحمن آغا الهسو وشيخو داود بريجان .

الكيكية

عشيرة كبيرة معتبرة ، تقطن الـدربـاسيــة على بعـد ٥ ـ ٢٥ كيلـومتراً عن قصبــة الناحية ، إلا أن أكثرهم لايزال داخل الحـدود التركيـة ، وقليلهم داخل الحـدود الشـاميـة ، وعندهم قطعـان كبيرة من الغنم والمعز ، وأراضيهم خصبـة وواسعـة ، يشتركون بـالزراعـات وإنتاج المواشي والحبوب ، وهم ينجعون بماشيتهم جنوبي الدرباسية حتى الخـابور ، وعـددهم فيما قيل ألف بيت ، ثلثهم في شمالي الحـدود وثلثـاهم في جنوبهـا ، والـذين في الجنوب هم في رئـاسـة الحـاج درويش الحـج مـوسى المتـوفى وعيسى آغـا الملقب بـالكطنيـة وفرحـان آغـا العيسى ، وغيرهم المقيمين في قريـة تل إيلول ، ولرؤسـاء هـذه العشيرة ذكر محمـود في سجـل الـوطنيـة ، وفرقهم داخـل الحـدود الشـاميـة هي العـزيـزان والكمكان ، وقـد ظـل هـؤلاء الكيكية حتى سنة ١٩٢٦ م في خصام شديد مع ملية ناحية عـامودة ، ونزاع مع شمر مشعل باشا ، بحكم امتناعهم وقتئذ عن دفع الخوة إليه ، وفي سنة ١٩٤٤ م اقتتلوا اقتتالاً شديـداً مع عشيرة البقارة على أثر نزاع على ملكيـة بعض الأراضي ، وعظم الخطب بينهما رغم مـداخلـة الحكومة وإقرار الصلح ، على ما شرحناه في بحث شمر والبقارة .

الملية

عشيرة هامة ، كبيرة العدد والملك ، وهي غير عشيرة الملي التي سيأتي ذكرهـا ، تقطن في غربي عامودة وجنوبها ، ولها تسع عشرة قرية داخل الحدود الشـاميـة ، وقريتـان داخل الحدود التركية ، وهم إذا نجعوا لا يتعدون أودية الخابور والجغجغ ، عـددهم نحو ٦٠٠ بيت ، اشتهروا بخصب أراضيهم وإتقـانهم الحراثـة والـزراعـة فيهـا ، وفرقهم هي الخضر والبـادينـا والسيدان والجمالدينا والدشنـاوي والصوان ، وكل من هـذه الفرق من منبت مختلف اجتمعوا بالولاء والحلف ، شأن كل العشائر التي تتكون من عنـاصر شتى ، وتتحـد حول رئيس قوي وتسمى باسمه ، وفرقة الصوان من هولاء يزيدية ، وهم أخصام كيكيـة الشمال وبقـارة الأبي شيـخ ، وقـد ظهر من هـؤلاء أنـاس أشقيـاء خطرين فتـاكين ، عملـوا مـع الفرنسيين منـذ سنـة ١٩٣٧ م وأوقـدوا نـار الفتن في محـافظـة الجزيرة ضـد الحكم الوطني ، وكان أخصهم في ذلـك المـدعو نـواف الحسن ، ورئيس هـذه العشيرة اليـوم هـو عيسى الآغـا العبـد الكريم ، القاطن في قرية كندور من أعمال عامودة ، ولهذا الآغا ماض محمود في باب الوطنيـة ، لاقى

في هذا السبيل من الفرنسيين وأنصارهم ولاسيا من ابن عمه نواف الحسن ضروب الإهانة والعذاب ، ويذكر من رؤساء هذه العشيرة جميل آغا بن إبراهيم آغا الملي الذي كان والده نائباً في المجلس السابق .

الملي

هذه العشيرة من أكبر عشائر الأكراد وأغربها تكويناً وتأليفاً ، كانوا في عهد العثمانيين يرتادون البقاع الجبلية ، وسط بلاد الأكراد ، بين سيورك وبيرجك وديار بكر وويران شهر وأورفة ، ويقطنون في سفوح جبل قره جة طاغ من كانون الثاني إلى نيسان ، فإذا حل شهر نيسان هبطوا السهل المحيط بغربي رأس العين ، وامتدوا حتى جبل عبد العزيز ، وإذا حل شهر حزيران عادوا نحو الشمال في اتجاه ديار بكر ، وفي الخريف يذهبون رويداً نحو مشاتيهم في قره جة طاغ ، وهكذا .

وهم كثر يقدرون بـ ٤٠٠٠ بيت ،ومن عناصر ومذاهب مختلفة غريبة ، يعجب الناظر كيف تآلفت وعاشت ، ومن وفرة هذه العناصر واختلاف منابتها ، كانوا يقولون عن هذه العشيرة من قبل المبالغة (هزار ملت) أي (ألف ملة) ، ومن ثم دعيت بالملي ، ومعظم هذه العشيرة كردي وبعضها يزيدي ، وقليل منها عربي الأصل ، وربما بلغ عدد فرقها نحو ٥٠ ، وأهم الفرق الكردية منها : الباشات (أبناء إبراهيم باشا وهم الرؤساء) : ومحليان وكومنقشان وتركان وحيدران وهيزول وصوركان ومتينان وجوفان وشيخان ودودكان ومندان وناصريان وكوران وخضركان وسيدان ودومليان وحسنان وجبران وزركي وجمال الدين ، وأهم الفرق اليزيدية : شرقيان وخالدان ودنادا ومروان وقوبان ، وأهم الفرق العربية : العدوان والفراجة والجبور والبقارة والحديديين وبني خطيب والنعيم وشرابين الكواويس وغيرهم ، وهذه الأسماء تدل على أن بعض هذه الفرق العربية الملتحقة بالملي منفصلة عن أمهاتها الكبيرة ، ويقال أيضاً : أن من هؤلاء الملية الأكراد أناس متوطنون في مدن دمشق وحماه والرقة .

ومجيء هؤلاء الملية للأرباع في سهول الجزيرة كان يؤدي إلى اصطدامهم بعشائرها الكبيرة ، وأخصها شمر وعنزة ، وإلى دوام العداوة والحروب ، وفي عهد رئيسهم إبراهيم باشا

جرت بينهم وبين شمر معركتان ، كانت الغلبة فيهما لإبراهيم باشا مما أدى إلى علو شهرته وقتئذ على ما سنذكره ، ولكن بعد وفاة الباشا المذكور ، واحتلال الفرنسيين ، وتقسيم المناطق بين العشائر ، وتوطيد الأمن خفت العداوة المذكورة بالتدريج إلى أن زالت بتاتاً ، وانقلبت إلى صداقة ومصاهرة قويتين ، بزواج الشيخ ميزر عبد المحسن رئيس شمر الزور بابنة خليل بك بن إبراهيم باشا ، وحاربت الملية عنزة الجزيرة أيضاً ، ونعني بها عشيرة الفدعان ، وكانت الوقائع بينهما سجالاً ،وهاجموا مرة شاشان رأس العين ، كما أن أبناء إبراهيم باشا مشوا في سنة ١٩٢١ م مع الحملة الفرنسية التي كان يقودها الزعيم دبيوفر في هجومها على قرى خشام والبصيرة وضربها عشيرتي العنابزة والبكير من العقيدات ، كما ذكرناه في بحث العقيدات ، وقد انقسمت عشيرة الملية بعد تحديد الحدود إلى قسمين ، فبعضهم داخل الحدود التركية في رئاسة عبد الرحمن بك الذي نفاه الترك إلى أدرنة ، وبعضهم داخل الحدود الشامية في رئاسة محمود بك ، وكان رئيس هذه العشيرة في عهد السلطان عبد الحميد إبراهيم باشا المذكور ، ونسبه إبراهيم بن محمود بن تيمور بن عبدي بن محمود بن عبدي الملقب بكلش ، والرواية مختلفة بين أن يكون أصل هؤلاء عربياً أم كردياً ، والغالب أنه كردي ، ولو أن نزعتهم عربية .

وكان كلش عبدي يقيم في جوار بلدة قبا حيدر من ولاية أورفه ، ثم سكن أحفاده بعده في بلدة ويران شهر المعروفة بالسويداء ، وحكموا العشائر الكردية في ديار بكر ووان وبتليس ، وبرز منهم رجال أشهرهم تيمور باشا وأيوب باشا ومحمود آغا والد إبراهيم باشا ، وقد طغا أحدهم تيمور باشا في عهده ، ولما عجزت عنه ولاة الأطراف بعثت الدولة عليه كتيبة عسكرية من فرسان عشيرة العبيد ، في قيادة رئيسها سليمان بك آل شاوي المعروفين في العراق ، فكسرته بعد معركة حامية وخفضت من غلوائه ، وكان ذلك فيما قيل سنة ١٢٠٢ هـ ، أما إبراهيم باشا فقد كان كأجداده ذا سلطة طائلة على عشيرته ، ونفوذ بعيد المدى على جميع العشائر الكردية في تلك الولايات ، وهو بعد أن حارب جنود الدولة العثمانية ، وانتصر عليها مراراً ، وكاد يعلن استقلاله كأمير على بلاد الكرد كلها ، خضع على أثر إنعامات السلطان عبد الحميد الوافرة ، وتعيينه قائداً كبيراً للكتائب الحميدية التي ألفها السلطان المذكور وقتئذ من فرسان عشيرة الملية وغيرها على مثال فرسان القوازق في روسية ، وبعد موته خلفه ابنه محمود بك ، وكان يقطن محمود بك في قصره الذي شيده في

ويران شهر ، وبعد أن انتقل إلى قضاء رأس العين ، ظل يتبدى مع عشيرته في مضربه العظيم ذي العواميد الستة عشر إلى أن شاخ وهرم وتوفي في صيف سنة ١٩٤٥ م .

وقد أعقب إبراهيم باشا ستة أولاد ؛ أكبرهم عبد الحميد ثم محمود وإسماعيل وخليل وتيمور وعبد الرحمن ، فعبد الحميد توفي في ديار بكر ، وإسماعيل توفي في رأس العين ، وتيمور بك قتل ، وعبد الرحمن رئيس العشيرة الباقية داخل الحدود التركية أبعدته الحكومة الكمالية إلى أدرنة ، فظل فيها سنين إلى أن فر وجاء إلى رأس العين ، ولما توفي محمود بك استقرت الرئاسة إلى خليل بك ، إلا أن خليل بك قد شغل عن العشيرة بالنيابة في البرلمان السوري ، فصار يعاونه في إدارة العشيرة الباقية في قضاء رأس العين ابنه محمد علي بك ، وهو شاب ذكي همام ، متعلم يجيد اللغة الفرنسية كإجادته التركية فضلاً عن العربية .

ترجم المقدم مولر في كتابه حياة إبراهيم باشا فقال : « إبراهيم باشا أحد الشخصيات التي برزت في العالم العربي في أواخر القرن الماضي ، كان يرأس عشيرة كردية عربية نصف متحضرة ، وقد لعب دوراً كبيراً ، وألف الترك من عشيرته جنداً دعوه (الميليس) ، وقضى إبراهيم باشا عمراً مترعاً برغد العيش والاستقلال في قرى عديدة تحيط بعاصمته ويران شهر (السويداء) ، وكان مضربه الذي ينصبه في الشتاء وأثناء النجعة ، أكبر مضرب عرف من نوعه ، فقد كان له ستة عشر عموداً بينما ليس لأكبر رئيس بدوي مضرب تزيد أعمدته عن التسعة ، وقد توفي إبراهيم باشا في الصفية على نهر الجغجغ على بعد ١٢ كيلو متراً شمالي الحسجة ، وسبب وفاته أنه كان فاراً من وجه الجند التركي الذين عقبوه بشدة مدة مديدة ، فوصل إلى مشرع في نهر الجغجغ ، وكان الحر شديداً والتعب واللهث آخذان منه أشد مأخذ ، فشرب دون حساب ، فأصابته هيضة قضت عليه .

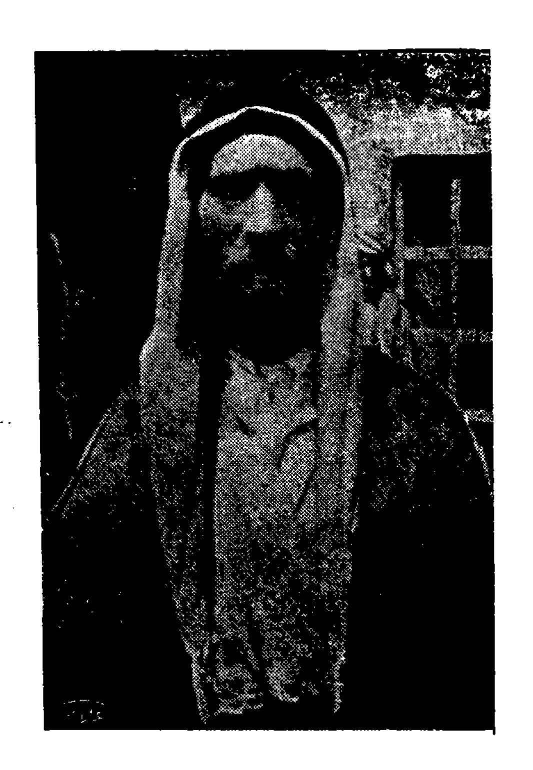
وحينما كان الفرنسيون يحاولون الاستيلاء على أورفه وديار بكر وثب أبناؤه على الترك ، وأرسلوا وفوداً إلى الفرنسيين يعلمونهم بقصدهم ، وأنهم يرومون الثأر من الترك ، وطلبوا أن ينصرونهم ، لكن الفرنسيين لم يصغوا إليهم ، وبعد أن اشتبك أبناء إبراهيم باشا مع الترك ، وغلبوا وغُلبوا مراراً اضطروا إلى الاستسلام ، ثم فضلوا الهجرة فجاؤوا مع ٣٠٠ ـ ٤٠٠ بيت إلى أنحاء دير الزور في سنة ١٩٢١ م ، وهناك أمدهم الفرنسيون بمدفعين وبضعة

رشاشات ، فعادوا وهاجموا الحامية التركية في رأس العين ، كما غاروا على الشاشان في قرية الصفح ، ولكنهم دفعوا بشدة فرجعوا بعدها إلى الدير ، وفي اتفاقية أنقرة تم التراضي على أن يعفى عنهم ، فعادوا في سنة ١٩٢٢ م ، إلى ويران شهر . لكن الترك لا يصفحون عن الزلات بسهولة ، لذلك ظلت حالتهم قلقة ، وقد سجن الترك أبناء الباشا مراراً وأطلقوهم مراراً ، وأخيراً سئموا واضطروا في سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ م إلى أن يتركوا أوطانهم وقراهم وأرزاقهم وقسماً من مواشيهم في يد الترك ، وجاؤوا إلى بلاد الشام ، ومكثوا قرب قرية رأس العين ، وطلبوا من الحكومة السورية أن تقبلهم ، وتقطعهم أرضاً يستغلونها ، ولسوء الحظ لم يوجد لهم سوى أراضٍ في جنوبي حمص ، فاستبعدوها وفضلوا البقاء قرب وطنهم الذي غادروه ، وظلت قضيتهم معلقة في يد القدر ، وهم لا يزالون مع بضع مئات من البيوت ، يضربون في جنوبي غربي رأس العين » . أ هـ .

وترجم الشيخ كامل الغزي في كتابه (نهر الذهب في تاريخ حلب) حياة إبراهيم باشا المذكور فقال في المجلد ٣ ص ٤٨١ ما خلاصته « في شهر رمضان سنة ١٣٢٦ هـ مات إبراهيم باشا بن معمو التمو الكردي ، في الموضع المعروف بتل شرابه بين نصيبين ودير الزور ، وهو من عشيرة الملية الكردية ، وهذه العشيرة تبلغ زهاء أربعمئة بيت ، تقيم تحت خيام الشعر في جهات ويران شهر ، من أعمال قضاء رأس العين التابعة لواء الزور ، والرجل المذكور هو شيخها ورئيسها ، وكان والده توفي في حلب في حدود سنة ١٢٩٥ هـ ودفن فيها ، فخلفه ابنه هذا في المشيخة ، وكان يعرف إذ ذاك بإبراهيم آغا ، وبعد أن صار شيخ العشيرة ، اقتفى آثار آبائه في شن الغارة على العشائر الكردية والعربية ، خصوصاً في عشيرة قره كج فإنه لم يبق لها سبداً ولا لبداً ، ولما كثر تشكي هذه العشائر منه أمسكته حكومة ولاية ديار بكر ، ونفته إلى سوارك فبقي فيها سنتين ، وفيها استغاث بوالي حلب جميل باشا ، وقدم له هدايا من الخيول المطهمة ، فشفع له عند السلطان عبد الحميد وعاد إلى ويران شهر ، ولما تألفت الكتائب الحميدية من سكان البوادي ، مضاهاةً لكتائب القوزاق في دولة روسية ، جعل إبراهيم آغا مقدم مئة ، ثم مقدم ألف ، ثم أمير لواء وصار يدعى باشا ، وكثرت أتباعه ، واستقدم إلى الأستانة لعرض كتيبته ، فشخص إليها مع عدد وافر من عشيرته الجند الحميدي ، في غاية من حسن البزة والرونق ، وقدم إلى السلطان من الخيول العربية ، والسمن العربي ، فسر السلطان بذلك وأعاده مكرماً ، فازدادت سطوته ،

وعظمت نكايته بالعشائر والقرى المجاورة من أعمال أورفة وديار بكر ، حتى خرب الكثير منها ، بسبب جلاء أهلها ، وضرب على القوافل المارة ضريبة ، فإن لم تدفع انتهبها ، فضج أهل تلك الجهات ، وواصلوا الشكاوى عليه للولايات ولعاصمة السلطنة ، وبذلوا النفيس والغالي في ذلك ، وذهب أناس منهم إلى الأستانة للتظلم فلم يجدوا سميعاً ، لأنه كان لا يفتر عن تقديم الهدايا والرشوات الطائلة إلى القصر السلطاني ، من نقود وخيول وسمون ، ولما تمادى في عدوانه ، صار المشتكون يوالون البرقيات المحتوية على أشد العبارات التي يخاطب بمثلها السلطان عبد الحميد العظيم وأعانهم الولاة على ذلك ، إلى أن صدرت الإدارة بتأليف لجنة خاصة للتحقيق في ديار بكر ، فلم تستطع هذه اللجنة أن تأتي عملاً ورجعت . وأخيراً وقبيل إعلان الدستور أصدر السلطان إرادته بإشخاص إبراهيم باشا وجنوده إلى الحجاز ، ليعاون جيش الدولة في ردع العشائر العربية التي قامت وقتئذ تعارض الدولة في مد السكة الحديدية الحجازية من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ، فامتثل إبراهيم باشا الأمر ، ونهض من محلة ويران شهر ، وقصد الحجاز من طريق حلب ودمشق ، وما كاد أن يستقر في دمشق إلا وأعلن الدستور ، وحدث الانقلاب ، فارتاع إبراهيم باشا ، وخشي أن يلقى القبض عليه ، فنهض في الليل من دمشق ، وكر راجعاً إلى حلب وويران شهر ، وحينما تحققت الحكومه هربه ، أرسلت في طلبه الجنود ، فلم يدركوه إلا في جهات ماردين معتصماً في جبل هناك ، فشددوا عليه الحصار مدة ، ولما علم أنه لا مناص له ركب جواده ، وقصد أن يسلم نفسه طائعاً ، وكان التعب والسهر قد انهكا جسمه ، وبينما هو راكب جوادده إذ وقف ونزل إلى الأرض ، وفي برهة دقائق فاضت نفسه . والمروي عن هذا الرجل أنه كان يوجد عنده نحو مليونين من الليرات ، وأنه عمل نفقاً في الأرض وكنزها فيها ، وقتل المعمار الذي عمل له هذا النفق كي لا يخبر عنه ، وعلى كل حال فإن إبراهيم باشا كان على جانب عظيم من السخاء والدهاء والشجاعة ، يتكلم بالكردية التي هي لغة آبائه وأجداده وعشيرته ، وبالعربية التي هي لغة أمه وزوجته ، وبالتركية التي هي لغة الدولة ، ويذكر أنه أنشأ في سواريك مكاناً ، يشبه تكية يطعم فيها الفقراء والمسافرين رحمه الله » أ هـ .

وأملاك أبناء إبراهيم بساشا في نساحية رأس العين واسعة كبيرة ، تبلغ آلاف الهكتارات ، وهي تمتد في الشرق من جسر قرية تل حلف إلى مكان اسمه نصف تل في الغرب ، وفي الشمال من الخط الحديدي إلى جبل البيضا في الجنوب ، وفيها براري ومراعي



خليل بك إبراهيم باشا رئيس الملي

فسيحة جداً ، اجتزتها بالسيارة في أواخر شهر آذار سنة ١٩٤٧ م فأعجبت بامتدادها وانفساحها ، ووفرة أعشابها وأزهارها ، وأسفت على بوارها ، وفقدان أوقلة العمل فيها .

البرازية

هم مجموعة عشائر متحالفة اسمها علادينان وبيجان أو بيزان وشدادان وزروان ودنان وقره كيجان وأوكيان ومعافان وديدان ، ويقدر العارفون عددهم بـ ٩٠٠٠ بيت ، يقيم معظمهم داخل الحدود الشامية في قضاء عين العرب ، والباقي داخل الحدود التركية في سهل سروج الفسيح ، ورجال البرازية يرتدون الأزياء العربية لمغالطة الأعراب عند غزوهم ، أما نساؤهم فلا يزلن يرتدين الأزياء الكردية ، ويشمن ذقونهن ورقابهن ، ويقتصر الرجال على وشم أصداغهم ، ورئيس حلف البرازية اليوم مصطفى بك شاهين ، وهو نائب قضاء عين العرب في المجلس السوري ، ومن عيون الأكراد البارزين ، وقد عرف بينهم برجاحة الفكر والهمة والنشاط ، ووفور النفوذ والكرامة ، يشاركه أخوه بوزان بك في الرئاسة ، وفي الأوصاف المذكورة أيضاً ، وهما يقطنان في قرية مكتلة ، وقد جرى لهما في بدء الاحتلال وقائع ومعارك مع الفرنسيين ، إلى أن جنحا للمهادنة والمصادقة منذ سنة ١٩٢٢ م ، وإلى القارئ وصف بعض عشائر البرازية :

خلجان

أكراد برازية ، لكن رؤساءهم يدعون الانتساب إلى آل بيت النبي ﷺ ، وهم نصف حضر ، في أنحاء قرية خراب نياز في شمالي الخط الحديدي وجنوبه ، وباديتهم بين الفرات والبليخ ، وعددهم ٣٥٠ بيتاً ، ورئيسهم الشيخ نوح موفور الكرامة جداً ، لشرفه المزعوم ، ولحسن سيرته ، حتى أنه كثيراً ما تشد الركائب إليه للتحاكم عند اختلاف العشائر ، ويقيم في قرية ير الله .

علاء الدين

فرقة كبيرة من البرازية في رئاسة مصطفى بك وأخيه مباشرةً ، وعدد نفوس هذه الفرقة نحو ١٢٠٠ ، وهم موزعون في شمالي قضاء عين العرب إلى الغرب ، في ٣٦ قرية متاخمة للحدود التركية ، وأكثر عمل هذه الفرقة من الزراعة ، وهي مستقرة لا يتبدى منها

إلا أصحاب الماشية الذين ينجعون إلى بوادي قضاء الرقة ، ومساكن المستقرين منهم قباب من الطين ، إلا قرية مكتلة عاصمة الرؤساء أبناء شاهين ، فإن لهم فيها دوراً حجرية عصرية ، وتقدر مواشي هذه الفرقة بـ ٤٠٠٠٠ شاة ، ونحو نصف ذلك من بقية الحيوانات كالمعزي والبقر والخيل والحمير والإبل ، وعندها نحو ٢٠٠ بندقية ، قيل إن الذي جاء بهذه الفرقة هو السلطان مراد الرابع فاتح بغداد لحراسة الحدود .

الرزوان

فرقة من الشيخان في حلف أبناء شاهين ومشيخة أحمد مالك ، وتعد نحو ٥٠٠ بيت ، يقيمون في سبع ضياع قريبة من الحدود التركية ، وفي منتصف القضاء ، وأكثر عملهم الزراعة وقليل في الماشية ، وعندها ٥٠٠٠ شاة ، ونحو نصف هذا المقدار من بقية الحيوانات ، ومن هؤلاء الرزوان نشأ برازية حماة .

البيجان

أكراد من لواحق البرازية ، أكثرها داخل الحدود التركية ، وقليلها وهو نحو الربع (٢٥٠٠) نسمة داخل الحدود الشامية ، ورئيسها الأصلي مصطفى بك بن غاليب بك المقيم في تركية ، ومن مشايخها الموجودين داخل حدودنا أحمد محمود ومحجان علي ، وتقيم هذه العشيرة في شمالي غربي القضاء في جوار الحدود التركية ولها عشرون ضيعة ، وأصحاب المواشي منها ينجعون إلى بوادي الرقة وعندهم ١٠٠٠٠ شاة ونحو نصف هذا المقدار من بقية الحيوانات .

الشدادان

أكراد من فرق البرازية التي يرأسها أبناء شاهين ، وشيخهم فياض خليل آغا ولهذه الفرقة فخذ اسمه أوخ ، ومن هنا كان اسم الفرقة شداد وأوخ ، وتعد نحو ٣٠٠٠ نسمة ، ومثل هذا العدد منها في ناحية (تل أبيض) التابعة قضاء الرقة ، إلا أن أكثر شداد وأوخ لا يزال داخل الحدود التركية ، أما أماكنهم ففي شرقي قضاء عين العرب ، وهم متصلون مع بقيتهم الموجودين في ناحية تل أبيض ، وهم ينجعون في فصل الربيع بوادي الرقة ، ويملكون نحو عشر قرى ، وعندهم ٨٠٠٠ شاة ، ونحو نصف ذلك من بقية الحيوانات .

الشيخان

أكراد من فرق البرازية ، لكن رؤساءهم يدعون أنهم من أصل عربي ، ومن آل البيت ، وهم لا يعلمون متى هاجروا إلى هذه الأنحاء ، ولا كيف تغلبت عليهم اللغة الكردية ، وهم يقطنون في ٦٧ قرية في منطقة مخفر الجلبية وخرابنياز ، وهم مستقرون ، إلا بعض أفرادهم الذين يربون الماشية ينجعون بوادي الرقة في فصل الربيع ، وعددهم ٣٨٠ بيت ، وبيوتهم من قباب اللبن والطين ، إلا بيت رئيسهم الشيخ نوح بن الشيخ بوزان في قرية ترمك فإنه من الحجر والإسمنت ، وهذا الشيخ موفور الكرامة ، لشرفه المزعوم ولحسن سيرته ، تشد الركائب إليه كثيراً للتحاكم عند اختلاف العشائر ، ولدى الشيخان نحو ٦٠٠٠٠ شاة ، ونحو نصف ذلك من بقية الحيوانات ، ومرتزقهم من المحاصيل الزراعية والحيوانية ، ولنسائهم مهارة في نسج الأصواف الخشنة التي يتخذونها لأنفسهم ، ولا يعرضونها للبيع ، وفرقهم سيف الدين والشيخ جعفر والشيخ شوكة .

الكيتكان

أكراد أقحاح لا يعرفون سوى الكردية ، إلا أنهم يدعون الانتساب إلى أصل عربي ، ويؤكد رئيسهم بصراوي آغا بأن أصل عشيرته من كندة ، توطنوا في زمن مجهول في جبال الكرد ، وصاهروهم فغلبت عليهم الكردية ، وأن رئيسهم السابق كان اسمه مختار الأسود ، ومن هنا صارت هذه العشيرة تلقب بالسودة ، ورئيسهم بصراوي آغا وأولاده خشمان وقطوان وشوكت ، وفرق هذه العشيرة كريشان وطبانلي ، ويبلغ عددها ١٣٠٠ بيت ، يقيمون حول مركز القضاء وفي ناحية صرين وإيليجق ، وأرباب المواشي منهم ينجعون بوادي الرقة ، ولهم نحو ٥٠ قرية ، كمزرعة باباروس وخربة باركير وبيوتهم قباب ، ونحو نصف هذا المقدار من بقية الحيوانات ، وبعضهم في قضاء منبج في قريتي محسنة وعسلية ، وفي قضاء الباب في صابويران ، وفي قضاء اعزاز في قرية قعر القابين .

أكراد عثمانو

في قضاء مصياف من محافظة اللاذقية أكراد يدعون (أكراد عثمانو) ، لا يزالون رحالة ، نزحوا من شمالي الجزيرة منذ قرنين أوثلاثة بحكم الفتن التي كانت وقتئذ ، ولم

تتحقق لنا نسبتهم الأصلية ، وهم ينزلون قرى عقرب وحنجور وأصيلة ، ويشتون في قريتي تل سلحب والعشارنة ، وهم ما برحوا محتفظين بأوصافهم القومية رغم وجودهم في وسط عربي ، وعدد بيوتهم ٨٠ ، ورئيسهم محمود محمد سعيد ، وله سلطة كبيرة على قومه .

الجوم

كانوا بادية في أنحاء قونية إلى أن أمر السلطان سليم الأول بنقلهم إلى قضاء عفرين ، فاستقروا فيه وتحضروا ، وهم الآن في ناحية الحمام جنوبي القضاء ، وعددهم ٤٥٠٠ بيت ، منتشرون في ٨٢ قرية ، ويؤلفون عشيرة جسيمة ، غنية بقطعان الغنم والبقر والخيل ، ومشهورة منذ أجيال بجفوتها وكثرة أشقيائها .

العميقي

كانوا بادية في تخوم العجم ، ثم نقلهم السلطان سليم إلى قضاء عفرين ، وهم نحو ٢٧٠ بيتاً في ق عديدة ، ومثلهم عشيرة (الموجلي) وعددهم ١٢٥ بيتاً في تسع قرى وعشيرة (خورمالي) ، وهؤلاء اختلطوا بالعرب يقطنون أنحاء جبل ليلون ، وعشيرة (شيقانلي) في ناحية راجو ، وفي ٥١ قرية .

اليزيدية

في قضاء عفرين قسم من الأكراد اليزيدية الذين أصلهم من جبل سنجار موطن اليزيدية الأصلي ، زعموا أن السلطان سليم العثماني هو الذي جاء بهم إلى هنا ، وكلفهم حفظ السابلة وهو قول مستغرب ، لا نظنه صحيحاً في هؤلاء ، وهؤلاء لا يزالون متمسكين بمذهبهم ، وهم حضر قرويون ، قد اختلط بعضهم بالأكراد ، إلا الذين في قريتي قرطل وقراباش ، وعدد الجميع نحو ٧٠٠ بيت ، وعندهم ٣٠٠٠ شاة و ٩٠٠٠ ماعز و ٣٧٠٠ بقرة ، ولهم رئيسان : درويش شامو في قرية عرش قيبار وإيبو أسقان في قرية قراباش ، وهم مسالمون جداً .

دنادية

أكراد ، ربما كانوا من فرقة الشرقيان الملية ، جاؤوا إلى جنوبي مدينة حلب حول سنة ١٢٦٥ هـ من أنحاء أورفة وسروج ، وهم حضر ، يقطنون قرى تل عرن وتل حاصل

وكافر الصغيرة في قضـاء البـاب ، وقـد حفظـوا خـلالهم وتقـاليـدهم القـوميـة وسـط البيئـة العربيـة ، وهم يبلغون ٢٥٠ بيتـاً ، وأفخـاذهم قره كج وكتيكان وشيخـان وبش آلتي ، نشـأ منهم نائب عن قضاء جبل سمعان يدعى حكي آغا من تل حاصل .

أكراد إبراهيم

هـؤلاء يقطنـون قريـة أكراد إبراهيم المسماة بـاسمهم في قضـاء حمـاة غربي العـاصي ، وأصلهم من الأكراد اليزيـديـة ، جلوا عن بلادهم في أنحـاء سروج منـذ قرن أو أقـل ، وكان رئيسهم يدعى إبراهيم فسميت القرية والعشيرة باسمه ، على أن هؤلاء بعد أن كانت لا تؤكل ذبيحتهم ، ولا يلعن الشيطان أمامهم ، ما لبثوا أن امتزجوا بالبيئـة ، فـأسلموا واستعربوا ، ولم يبق للغة الكردية عنـدهم إلا أثر قليل بين معمريهم ، وهم الآن قلمـا يختلفون بـالأزيـاء والعادات عن الفلاحين العرب ، ويفوقونهم بإتقان تربية الماشية .



التركمان

التركمان من أكبر الشعوب التورانية ، وهم بادية الترك ومبدؤهم ، كما الأعراب بادية العرب ومبدؤهم ، لأنهم في الأصل أهل ضرع وخيام يرحلون ويحلون ، أوطانهم الأصلية في براري آسية الوسطى الممتدة بين جزر الخزر وبحر خوارزم ونهر جيحون ، وهم أول من أسلم من الترك في القرن الرابع الهجري ، وصاروا يدعون من ذلك الحين (تركمان) بعد أن كانوا في جاهليتهم يدعون (اوغوز) أو (غُز) بضم الغين والزال ، كما ترى ذلك من تواريخنا العربية القديمة ، التي كانت تذكرهم تارة باسم (غز) وتارة باسم (الخوازرمية) .

ولما أسلموا في القرن الرابع الهجري ، هاجروا نحو ديار الإسلام ، وانتشروا في شمالي غربي إيران وشمالي شرقي الأناضول ، أي في أنحاء طبرستان وكيلان وآذربيجان وأزرنجان وديار بكر ، ثم بلغوا الأناضول ، وهم إذا كانوا أهل حرب وبأس ونجدة ، هرعوا للتجند في جيوش الخلفاء والملوك المسلمين ، وبرزوا في طاعتهم وجلادتهم ، وفي الحروب الصليبية أبلوا بلاءً حسناً تحت لواء السلاطين السلجوقيين والملوك الأتابكيين والأيوبيين والسلاطين المماليك ، كما فصله مؤرخوا تلك العهد ، وشرحوا الفظائع التي ارتكبها وقتئذ بعض متشرديهم ، في أزمنة وأمكنة عدة .

والتركمان في بلادهم الأسيوية كالأعراب ، ينقسمون إلى عشائر مختلفة ، لا يتسع المجال لتعدادها ، وأشهرها وأكبرها تكة وآليلي ويومود وآساري وآفشار وقايي خان التي منها آل عثمان وغيرها ، وقد تحضر هؤلاء ـ إلا قليلاً منهم ـ بعد هجرتهم واستقرارهم ، في بلاد إيران والأناضول ، وأسس بعضهم دويلات على أنقاض السلجوقيين ، كإمارة ذوي الغنم البيض في أنحاء ديار بكر ، وذوي الغنم السود في أنحاء آذربيجان ، وآل قرمان في قونية ، وآل رمضان في آذنة ، وآل ذوي القدر في مرعش ، وآل عثمان في بورسة وفي استانبول وغيرهم .

ولا يزال من ذراري هؤلاء زرافات بادية ، يرحلون وينزلون في براري ومراعي

حلب وآذنة وقونية وغيرها ، كما أن منهم أناس قد تركوا البداوة وتحضروا ، تجدهم الآن في شمالي العراق والشام ، وفي أنحاء أرضروم وسيواس ، وبعض أجزاء إيران والقفقاس ، وهم ما برحوا محتفظين بتركمانيتهم ، حتى أن ملامحهم ولغاتهم تختلف عما لدى الأناضول عامة واستانبول خاصةً .

وعند التركمان أكثر خصائص التورانيين وملامحهم ، فرؤوس التورانيين كما لا يخفى هي مدورة ، ووجوههم عريضة ، ووجناتهم بارزة ، وعيونهم ضيقة ، وأنوفهم فطس ، وشفافهم غليظة ، وسحنهم صفراء سمراء ، وشعورهم سود ، ولحاهم فرقة ، بيد أن التركمان والترك بعد أن امتزجوا وخلطوا دماءهم بغيرهم من الشعوب ، تبدلت ملامحهم هذه ، وبعدت عما لدى أبناء جلدتهم الأصليين المعروفين بالتتار ، في شرقي أوربا والمعروفين بالمغول في شرقي آسية ، وأكثرهم ابتعاداً عن التورانية الأصلية هم سكان مدن الأناضول والروملّي ، المختلطين بعناصر آرية وسامية شتى منذ الفتح العثماني .

والتركمان ذوو سجايا وأوصاف خاصة ، أبرزها طول قامتهم ، وصحة أبدانهم ، وسذاجة أفكارهم وأطوارهم ، وشدة بأسهم وجلدهم ، وأنهم جنود نظاميون بالطبع والخلقة ، وهذا ما حمل خلفاء المسلمين وسلاطينهم على تجنيد عدد كبير منهم ، وقد اشتهرت الدول والإمارات التي أنشؤوها من بعد بسطوتها ومنعتها ، كما اشتهروا هم في كل زمان ومكان ، بفرط طاعتهم لسادتهم وكبرائهم ، ولهم الآن جمهورية خاصة ضمن الاتحاد الروسي السوفياتي اسمها (جمهورية تركمانيا) .

ولباس رجال التركمان القدماء قميص طويل ، فوقه جبة طويلة ، يشدون في وسطها زناراً ضيقاً ، وأحذيتهم جزمة طويلة ، أو نعل عادي من جلد البعير ، أو الخيل ملفوف بالصوف ، وأغطية رؤوسهم قلنسوة بشكل المخروط الناقص ، من جلد الحملان أو اللباد ، أما نساؤهم وإن كن سافرات يسترن رؤوسهن بمنديل طويل ، ويكثرن من التزين بالحلي .

والتركمان القدماء رحل ، يسكنون الخيام التي تدعى (خركاه) ، وهي تختلف عن مضارب الأعراب ، فهي مدورة أو مربعة ، مسقوفة باللباد أو الحصير ، ورجالهم يوقرن النساء ، ولا يمسوهن بسوء ، ويمنحوهن الحرية التامة ، فتراهن ذاهبات آيبات ، من مكان

إلى مكان بكل طلاقة ، ولا يتحاشين من مكالمة رجل غريب أو من سلامه ، وهن صناع اليدين ، لا يفترن لحظة عن غزل الصوف والقطن ، ونسج السجاد والبسط ، وطحن الحبوب ، ناهيك عن الأعمال المنزلية التي يتقنها ، ولا يتوانين عنها .

وكل التركمان مسلمون سنيون شديدو التعلق بعقائد الإسلام وأركانه ، عن ورع وولع فطريين عجيبين ، إلا أنهم متأخرون جداً في مضمار الدراية والثقافة والنباهة .

وتركمان بلاد الشام يتوزعون في محافظات وأقضية ونواحي عديدة إليك بيانها :

محافظة حلب : في قرى عديدة من أقضية جرابلس ومنبج والباب وأعزاز كآق طاش وبكمشلي وتليلة وحاجي كوسا وخليصة وطاشلي هيوك وهواهيوك وقنطرة وكربيجلي وميرخان وميرزا شهيد وجوبان بك وغيرها .

محافظة حماه : في ناحية الحميري غربي حماة قريتا عقرب وطلف .

محافظة اللاذقية : في قضاءمصياف في ناحية حذور قرى حرمل وحوير وبيت ناطر ، وفي قضاء اللاذقية قرى ناحيتي الباير والبسيط والساحل كبرج إسلام والصليب وكبلية وسراري وكبرة وجقورجاق وقولجوق وكبير وشمر وران وقبقلية ويامادية وكشيش وبدروسية وفاقي حسن وعيسى بكلى وبوزا وغلان وغيرها .

في الجمهورية اللبنانية : في قضاء عكار ؛ قرى دوسة وكواشرة وعيدمون وجديدة .

محافظة حمص : في ناحية الوعر غربي حمص قرى برج قعيا وقزحل وأم القصب ومرج القطا والزيبق وخربة التين محمود وخرحر والدار الكبيرة .

محافظة دمشق : في قضاء قلمون قرية قلدون ، وفي قضاء الجولان عين عائشة ورزانية وضابية وأحمدية وحسينية وحفر وعين سمسم وكفرنفاخ وقادرية وعليقة وسنديانة ومغير .

محافظة حوران : قرية براق في قضاء إزرع شمالي اللجا ، وهؤلاء أشتات من أتراك الأناضول المتحضرين والقادمين منذ نصف قرن أو أقل .

شرقي الأردن : في قضاء جرش قرية الرمان . وفي قضاء عمان عيون الحمر .

هذا ولا يعرف أحد التاريخ الحقيقي الذي جاء فيه تركاننا إلى بلاد الشام ، حتى ولا التركمان أنفسهم الذين تتضارب أقوالهم في كل مكان ، ويظهر أن مجيئهم إلى بلاد الشام حدث على مرتين ؛ الأولى قبل الفتح العثماني بعدة قرون ، في عهد الدول الأتابكية والنورية والصلاحية ، فقد ذكر التاريخ أن الأتابك عماد الدين زنكي سير طائفة منهم إلى الشام ، وأسكنهم في ولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الصليبيين ، وملكهم كل ما يستنقذونه من بلاد للصليبيين ، وذكرت أن نور الدين وصلاح الدين أسكنا كثيراً من أبناء جلدتها التركمان والأكراد في ساحل الشام وداخله ، وعمل مثلهم الظاهر بيبرس وأخلافه من السلاطين المماليك الترك والشركس ، وكان قسم عظيم من جند المسلمين في تلك العهود من التركمان ، فتديروا البلاد ، واستعرب كثير منهم وذاب في البوتقة الشامية ، وظل قليلهم على تركمانيته الصرحاء ، ومن هؤلاء تركمان جبال اللكام في لواء الأسكندرون وتركمان أقضية الباب وجرابلس وأعزاز وسهل العمق القريبين إلى الأناضول منذ القديم ، ولعل من هؤلاء تركمان ناحية حذور في قضاء صافيتا ، الذين ينسبون أنفسهم إلى عشيرة قايي خان ، ويزعمون أنهم بعد غرق سليمان شاه جد آل عثمان في الفرات لم يلحقوا بأبنائه إلى الأناضول ، بل زحفوا جنوباً وتديروا الناحية التي هم فيها ، ومما يؤيد دعواهم جملة وردت في تاريخ الصالحية لابن كنان (ص ٩٤) في ذكر ما حل بعشيرة قايي خان بعد موت رئيسها سليمان شاه قوله : وتفرق من معه من التركمان في أطراف البلاد وذراريهم موجودون رحالون نزالون . أ هـ .

والمجيء الثاني الذي هبط فيه التركمان المناطق العربية كحماة وحمص والجولان واللاذقية حدث بعد الفتح العثماني خلال القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، وظل مستمراً في فترات متقطعة حتى أوائل القرن الثالث عشر ثم توقف ، قيل إن الذي أتى بهم بادئ ذي بدء هو السلطان سليم العثماني لما فتح الشام في سنة ٩٢٢ هـ جلب معه منهم بضعة آلاف واشتركوا جميعاً في معركة مرج دابق ، فكافأهم بإسكانهم في البلاد المفتوحة ، ليؤلفوا فيها نوعاً من السؤدد العسكري المكلف بحفظ الأمن ، ثم اقتدى به أخلافه من السلاطين والوزراء ، فصاروا كلما رأوا النصيرية في غربي حماة وحمص يعكرون صفو

الأمن ، وكلما سمعوا بأن البدو وخاصةً الموالي في جنوبي حلب ، والفضل والسردية في جنوبي دمشق ، يستبيحون حمى المعمور ، أو يقطعون السابلة ، أو يهاجمون ركب الحج ، كانوا يجلبون من عشائر التركمان الضاربة في سهول آذنة وقونية وآيدين ويمنحونها قرى وضييعات من التي خلت من ساكنيها ، بسبب حوائج الأوبئة أو الفتن غير المنقطعة في تلك العهود ، ويوطدون سطوتهم بها ، إلى أن استغنوا عنها بجند الدرك والنظام ، بعد الإصلاحات التي شرع بها السلطان عبد المجيد في سنة ١٢٥٥ هـ .

هذا ويبدو أن تركمان بلاد الشام هم من عشائر مختلفة ، نسيت أسماؤها ومنابتها على طول العهد ، لكن العارفين ينسبون تركمان أقضية تل كلخ وعكار وصافيتا وحمص وحماة والجولان في الغالب إلى عشيرة أفشار الكبيرة الضاربة حتى الآن في قلب الأناضول ، حول سيواس وأنقرة ، لأنهم يماثلون رجال تلك العشيرة ونساءهم ، في صحة الأبدان ، وجمال الوجوه ، وتقارب اللهجات ، بينما ينسبون الذين في ناحيتي الباير والبسيط في شمالي اللاذقية إلى تركمان أرضروم وأرزنجان وكاخ في شرقي الأناضول .

وتركماننا ماعدا الذين في شمالي حلب واللاذقية قد استعربوا ، في اللغة والأزياء ، فلبسوا الكوفية والعقال ، والقنباز ، واكتسبوا أكثر العادات القروية الشامية ، بحيث صار الغريب لا يميزهم عن أبناء البلاد الأصليين ، إلا إذا حدج في وجوههم وعيونهم ، وأصغى إلى أحاديثهم فيما بينهم ، يجدهم مابرحوا محتفظين بملامحهم التورانية ، وبلغة تركية قديمة سقيمة ، مخلوطة إلى حد النصف بكلمات ومصطلحات عربية عامية ، وجميعهم بعد أن كانوا لمضي قرن أو أقل ذوي سلطة وثروة غير يسيرتين ، أخنى عليهم البؤس والفقر ، وأضناهم الجهل والخمول ، فلم يعد يسمع لهم ركز ، ولا يظهر بينهم ذوو شأن ومكانة إلا ما ندر ، وهم أناس على الفطرة ،مغمورون ، وعلى الحكم والبلواء صابرون ، ولأوامر الحكام طائعون ، وللنظام حافظون ، وهم في كل مكان ذوو صلاة حسنة مع جيرانهم ، وقد باتوا الآن خلافاً لسجاياهم القومية القديمة يعرضون عن التطوع في الجندية ، وعن العمل في الوظائف الحكومية ، حسبهم الانصراف إلى حرثهم وزرعهم ، وضرعهم ونسجهم دون غيرها ، وهم نظيفوا المسكن والملبس ، ونساؤهم جميلات التكوين والخلق في الجملة .

ولبعض التركمان عناية واختصاص بصناعة السجاد ، وأشهر المشتغلين بذلك وأحذقهم

هم تركمان قرية عيدمون في قضاءعكار والحزازرة القاطنون في ناحية حذور من قضاء صافيتا ، وقد ظل هؤلاء مستقلين بهذه الصناعة قروناً ، إلى أن تلقفها منهم جيرانهم النصارى ، وأتقنوها إتقان التركمان لها ، وكان التركمان يحصلون من السجاد أرباحاً وافرة ، لرواج سوقه في الأيام الماضية ، قبل نصف قرن ، إلى أن كسد منذ أن دخل السجاد العجمي الفاخر وانتشر ، وكان السجاد التركماني لا يفقد شيئاً من رونقه ومتانته ولونه يضاهي المخمل ، وكان الغالب صنع السجادات المربعة ، إلى إن بطلت هذه ، واستعاضوا عنها بما يدعونه (قياساً أو لياناً) ، وهو مستطيل بعرض متر ونيف ،وطوله حسب الطلب .

وتركمان قضاء الجولان يعنون بالضرع عنايتهم بالزرع ، تبعاً لطبيعة أراضي هذا القضاء ، وهم يقضون الربيع في خيامهم التي يضربونها حول قراهم ، وفي الشتاء يأوون إلى دورهم الحجرية ، وقراهم في الجولان منبثة بين الأوعار والحجارة السود المنحدرة نحو وادي الشريعة ، كالقرى التي لأقاربهم في حمص وحماة المنبثة بين أوعار غربي العاصي ، وتركمان الجولان ذوو سمعة طيبة وألفة حسنة مع جيرانهم العرب والشركس ، وكبيرهم هنا هو فائز أغا بن محمود آغا ، ومحمود هذا أخو موسى آغا خليفة الذي كان زعيم تركمان الجولان سابقاً وذا سطوة وثروة كبيرتين في عهده .

ومن التركمان في أنحاء حمص الشرقية قسم لايزال على بداوته ورحلته ، يدعون (تركمان سوادية) تمييزاً لهم عن التركمان البياضية المستقرين في قرى حمص الغربية ، أو لعلهم في الأصل من التركمان ذوو الغنم السود (قره قيو نلو) ، وهؤلاء السوادية يشتون في براري حمص الشرقية والجنوبية ، حول قرى القنية وحولايا وحمام أبي رباح وحسية والقصير ، ويقيظون في جرود بعلبك وربما بلغوا زحلة ، وقد لقيتهم مرة ذاهبين إلى حوران للعمل في رجاد الزروع ، وهم يتقنون صنع اللبن الرائب ، كما يتقن التركمان البياضية صنع الجبن التركماني ، والاثنان مشهوران في أسواق حمص والقنيطرة ، كما يتقن تركمان غربي حماة صنع القشطة الجامدة المعروفة في أسواق حماة بالبيرت .

ومثل هؤلاء التركمان السوادية الرحل عشيرة التركمان الضاربة في شمالي الرقة ، لكن هذه قد استعربت بالمرة ، ولم يبق لها من التركمانية إلا الاسم ، ومثلها في الاستعراب التام العشيرة المسماة بالتركمان في مرج ابن عامر في حيفا من أعمال فلسطين .

أما تركمان أقضية حلب الشمالية فهم لم يستعربوا ، ولم تتحول أفئدتهم وأبصارهم بعد من الشمال إلى الجنوب ، لإهمال المسؤولين عندنا تعليمهم وتوجيههم ، وهم مقيمون ومزارعون في قراهم المذكورة آنفاً ، التي قسم كبير منها من أملاك الدولة ، وقسم لملاكين حلبيين كآل المدرس وآل الجابري وآل الرفاعي وآل النبكي ، وهم ممتدون في حدودنا الشمالية من نهر الساجور حتى جبل الكرد في عرض عميق ، ويرأسهم هنا نعسان آغا بن كل محمد بن مصطفى باشا المقيم في قرية بلوة .

وتركمان شمالي اللاذقية أيضاً كتركمان حلب في عدم الاستعراب والاسترشاد ، ناهيك بماهم عليه من حرمان الثقافة والنباهة ، وفرط التواكل والخمول ، وحكومة اللاذقية تضن عليهم بالمدارس والملاجئ الصحية ، ورؤساؤهم (أغواتهم) الاقطاعيون ، يستغلون هذه الحالات ، ويزيدونهم إمعاناً بها ، بينما جارتنا الشمالية ترنو إليهم ، وتود ضمهم إلى لواء الأسكندرونة ، وتجعلهم الفينة بعد الفينة حجة للادعاء والتهويش على أبناء بلاد الشام وجمهوريتهم ، وعدد هؤلاء يقدر بـ ٢٥٠٠٠ نفس ، وصفهم الجنرال جاكو في كتابه أنطاكية ج ٢ ص ٥٢٢ فقال : والتركماني قوي البنية ، صبور قنوع ، وله مشية خاصة تنم عن غرور وخيلاء ، وأصغر ملاك في قرى التركمان يلقب بالآغا ، وغالب هؤلاء الأغوات يزدرون الأعمال اليدوية ، ويسلمون مزارعهم إلى الفلاحين العلويين ، ومن ثم صارت أملاكهم تنتقل رويداً رويداً إلى أرمن كسب ومسيحي اللاذقية أ هـ .



الشركس

الشركس

الشركس شعب آري ، وأصلهم من بلاد القفقاس أو القوقاز ، التي هي في يومنا من أملاك الاتحاد الروسي السوفياتي ، يحدها البحر الأسود في الغرب ، وبحر الخزر في الشرق ، وروسية في الشمال ، وتركية وإيران في الجنوب ، وقد دعى مؤرخو العرب هذه البلاد (القبق أو القبج) على ما وردت في شعر البحتري ، وفي معجم البلدان لياقوت وتاريخ الطبري وابن الأثير ، بلغ العرب جنوبها في خلافة سيدنا عمر وعثمان ، وفتحوا فيها مدينة (دربندر أو باب الأبواب) على بحر الخزر ووقفوا ، ويبدو أن العرب لم يتحرشوا وقتئذ بأهل البلاد الأصليين ، بل تركوهم في جبالهم ومعاقلهم ، وحاربوا الخزر وأمثالهم من أمم الترك ، المتسلطين وقتئذ على البلاد ، وفازوا عليهم ، وقد ظل العرب مدة خمسة قرون ينشئون إمارات ، وينشرون الإسلام بين شعوب القفقاس ، حتى عمّ الداغستان وبلغت أنواره بلاد القوصحة والشركس ، لكنهم بعد أن ضعفت الخلافة العباسية وانقطع المدد عنهم لبعد الشقة ، طمع نصارى الكرج فيهم وهاجوهم ، ومازالو حتى أخرجوهم في أوائل القرن السادس ، ويظن أن هؤلاء العرب أبقوا من ذراريهم أناساً في تلك البلاد ، ولاسيا بين طوائف الداغستان ، وأبقوا لغتهم دارجةً ، يتلقفها المشايخ ، ويتخذونها لغة التفاهم والتراسل بينهم .

وبلاد القفقاس قسمان ، شمالي وجنوبي ، يفصل بينهما سلسلة جبال عظيمة الارتفاع والتضرس بطول ١٢٠٠ كيلومتر ، تمتد كالجدار من الشرق الجنوبي إلى الغرب الشمالي ، وفي القسم الشمالي الآن عدة جمهوريات أخصها الداغستان والشاشانيا والآديغة والقرشاي والقباردينو ،وفي القسم الجنوبي جمهوريات جورجيا (الكرج) وأرمينية وآذربايجان وأبخازيا وآجاريا ، ومدار كلامنا في الأكثر على قفقاسيا الشمالية ومن فيها .

وفي سلسلة الجبال المذكورة أطواد شاخة ، هائلة المنظر ، وقمم وشناخيب تناطح

السحاب بعضها كقمة (البروز) يعلو ٥٦٤٧ متراً ، تكللها الثلوج الخالدة الرائعة ، وتتخللها الأودية والوهاد السحيقة ، والمضايق والمعابر المخيفة ، والحراج الباسقة الكثيفة ، وفي شمالي هذه السلسلة وجنوبها ووسطها هضاب واسعة ، وسهول ومرابع شاسعة ، وأنهار وينابيع دافقة ، أجلها في الشمال نهرا قوبان وتَرَك (بفتح التاء والراء) وروافدهما العديدة ، والسهول هناك خصبة للغاية ، كما أن الجبال والسفوح ملأى بالحراج والأعشاب الوفيرة الطيبة ، والقطعان السارحة ، وفي هذه البلاد من أسباب الرزق معادن ومناجم عديدة عاملة ، ناهيك آبار النفط التي تخرج ملايين الأطنان ، وزراعة الحبوب ودوار الشمس ، والتبغ والقطن ، والأشجار المثمرة المختلفة ، والعنب وتربية دود الحرير ، والنحل والمواشي على اختلاف أجناسها ، وصيد الأسماك ، وفيها حمامات معدنية ، لمختلف العلل ، ومصايف ومصحات تقصد من كل الأقطار .

فهذه المرافق والمزايا جعلت بلاد القفقاس (سويسرة الشرق) بحق ، لأنها أبدع بقاع العالم هواءً ، رغم بردها وثلجها في الشتاء ، وحرها في الصيف ، ومن أغزرها وأنفعها ماءً ، وأروعها مشاهد ، وأنوعها نواتج ، وأكثرها قرى وشعوباً ، وقبائل ولغات وأدياناً ، هذا إلى أنها مصدر الجنس البشري الأبيض المعروف بالقوقازي ، ومهد الحسن والجمال المثاليين ، وقد عاشت فيها أقوام ونشأت إمارات منذ أقدم عصور التاريخ ، وكانت حلقة الاتصال بين قارتي آسية وأوربا ، وسبيل الشعوب المهاجرة ، والجيوش المجتاحة من الشرق إلى الغرب ، أو بالعكس ، وقد ظلت سداً منيعاً في وجه هؤلاء ، وكان آخرهم الألمان النازيون الذين بعد أن اجتاحوا جنوبي روسية ، بلغوا القفقاس عام ١٩٤٢ م ، وكادوا ينفذون منها إلى الأناضول والشام ، للاتصال بجيوشهم التي كانت تدق أبواب مصر في شمالي أفريقية ، لكن الأقدار خذلتهم وأعادتهم .

وسكان القفقاس كما قدمنا أقوام مختلفون ، عددهم اثني عشر مليوناً ، ثلثهم في الشمال ، وثلثاهم في الجنوب ، وهم إما أصليون كالداغستانيين والشركس والقوصحة والكرج والأرمن والتتار والنوغاي والترك والاوسست والقالموق والقرشاي والقوموق ، وإما طوارىء كالروس والعجم والألمان واليهود وأمثالهم المختصين بالصناعة والتجارة ، وأكثر الأصليين في الشمال ، وأكثر الطوارىء في الجنوب ، وهذه الأجناس والشعوب المختلفة تتكلم بنحو سبعين

لغة ، ويظهر أن وقوع هـذه البلاد كمر بين أوربـا وآسيـة جعل كل من الأمم المـارة منهـا منذ أقدم عصور التاريخ ، يترك فلولاً وشراذم ، أعقبت هذه الـذراري المختلفـة بـأجنـاسهـا ولغاتها ، وقد يكون هناك لكل قرية أو قريتين لغة خاصة ، وهذا مـا جعل يـاقوت يقول في معجمه في مادة باب الأبواب « وقيل أن في أعلى جبلها الممتد المتصل بباب الأبواب نيفاً وسبعين أمة ، لكل أمة لغة لا يعرفها مجاورهم » .

ويـذكر أن نحو نصف سكان القفقـاس مسلمون ، وهم الترك والتتـار والـداغستـانيون والشركس وعشر أمة الكرج وثلثا أمة القوصحة ، أمـا البقيـة وخـاصـة الكرج والأرمن فهم نصارى ، وهناك قليل من اليهود .

وبحثنا الآن يختص بالشركس ، ويشمل أيضاً إلى حد كبير الداغستـانيين والشـاشـان والقوصحة والقرشـاي ، لأن الجميع ينـدمجون تحت اسم (الشركس) الـذي هو الاسم الأشهر والأغلب . وإن كان بينهم فروق سنأتي على ذكرها في حديث كل منها .

فالشركس من أبرز الشعوب الإسلامية في الحمية الدينيـة والغيرة القوميـة والشجـاعـة والفروسية ، وهذه المزايا الناشئة عن طبيعة بلادهم الجبلية ، وعزلتهم الطويلـة في معـاقلهم العسيرة المنال ، ساعدتهم على الصمود في وجه الغزاة والفـاتحين الـذين كانوا يقصـدونهم منـذ أقدم العصور ، وأقرب شاهد على ذلـك صمودهم الأخير أمـام جحـافل الروس على مـا سوف نذكره .

والشركس يسمون أنفسهم الأديغـة ، لا صلـة لهم بـالسلالـة التورانيـة ولا بـالسـلالـة السامية ، وبالتالي لا صحة للخرافات التي تحاول إلصاقهم تارة بالترك ، وتارة بـالعرب فهم وجدوا من أقدم عصور التاريخ ، على عزلة وانفراد في سفوح جبال القفقاس شعباً خـالصـاً في قامته ، ووسامته الخاصتين بالعرق القوقازي ، المعدود أصفى نماذج الجنس الأبيض ، وكما لا صلة لهم بأحد ، لا صلة للغاتهم بأي من لغـات العـالم ، ويـدعي بعض المؤرخين أنهم من أعقاب الحثيين ، الذين جاء منهم فريق قبل الميلاد بعدة قرون إلى بلاد الأناضول والشام ، وسادوا فيها ، وشادوا دولاً وحضارات فخمة ، ويبرهنون على هـذه الـدعوى من البحث في نـواويس الحثيين وجمـاجمهم ، وطراز مـلابسهم وأزيـائهم المنقـوشـة على الصخـور ، وخطهم المسماري ، ولغاتهم ، وعلاماتهم الهيروغليفية ، وأنهم في ذلـك يشبهون الشركس المتـأخرين ،

وأن العلامات المذكورة لاتزال متخذة ، ومنها الشارات والسمات التي لدى الأسر والعشائر منهم ، بيد أن هذه الدعوى لاتزال قيد الدرس والبحث .

ومهما يكن فالشركس في أوطانهم الأصلية عاشوا أجيالاً على فطرتهم وعزلتهم وحريتهم ، وهم وإن لم يؤسسوا دولةً كبيرةً في بلادهم ، ولم يخلصوا من استطالة الفاتحين العظام ، الذين كانوا يمرون بهم من حين إلى آخر ، حفظوا استقلالهم الذاتي في قيادة زعمائهم ومجالسهم المحلية ، وقد كانوا في بادئ أمرهم وثنيين شأن الشعوب القديمة في كل مكان ، ثم تنصروا في عهد الدولة البيزنطية تنصراً لم ينفذ إلى أعماق قلوبهم ، ثم اعتنقوا الإسلام في العصور المتأخرة بسعي جيرانهم الداغستانيين السباقين إلى الإسلام ، وبهمة خانات القريم ، وبعض باشوات الترك وعلمائهم ، الذين وافوهم من استانبول ، وقد حسن إسلامهم لما رأوه يناسب ميولهم وأطوارهم .

وقبل ذلك كان كثير من شبانهم يهرعون للتطوع والخدمة في جيوش الخلفاء العباسيين ، والسلاطين السلجوقيين والسلاطين الترك المماليك ، إلى أن جاء دورهم فأنشؤوا دولة قوية في مصر والشام ، بسطت سيطرتها من بعد على الحجاز واليمن ، ودامت ١٣٩ سنة (٨٧٤ - ٩٢٣ هـ) تعاورها سبعة عشر سلطاناً منهم ، أعلاهم أعمالاً وأطولهم أعماراً في الحكم برقوق وبرسباي وجقمق وقايتباي وقانصوا الغوري ، وهو آخرهم قضى عليه السلطان سليم العثماني في معركة مرج دابق شمالي حلب ، وبذلك انتهت دولة الشراكسة ، وانتقلت الشام ومصر للعثمانيين .

وقد خدم السلاطين الشراكسة العلوم والآداب والمؤلفات العربية ، وعنوا بالصناعات والحرف النفيسة ، وقاوموا أخطار المغول والصليبيين عن بلاد الشام ومصر ، وشادوا قلاعاً ومساجد ومدارس وسبل ومستشفيات وخانقاهات ، ومباني خيرية كثيرة ما برحت ماثلةً ، أخصها في القاهرة والقدس ودمشق وحلب ، ويكاد أكثر المباني الأثرية في هذه المدن يكون من عهدهم ومن صنعهم .

أما الشركس الباقون في أوطانهم ، فقد ظلوا على منعتهم وعزتهم في جبالهم وأوديتهم التي وصفناها ، حتى اشتدت هجمات الروس عليهم في أواخر القرن الثاني عشر الهجري ، بيد أن الصراع بينهم وبين الروس قديم ويعود إلى عدة قرون خلت ، لكنه لم يستفحل إلا

بعد أن وضع بطرس الأكبر وصيته الرامية للاستيلاء على البحرين الأسود والخزر ، ولبلوغ الدردنيل ، ولتحقيق هذه الوصية كان لا بد لخلفائه من الانقضاض على بلاد القفقاس ، فصاروا يسوقون جيوشهم الجرارة نحو منازل القبائل الشركسية ، ويكتسحون ما أمكنهم منها بالحديد والنار والإجلاء ، ويقطعونها إلى المستعمرين من أبناء جلدتهم الروس والقوزاق ، ويبنون القلاع والحصون ، كلما توغلوا فيها ، لكن الشركس ثاروا أروع ثروة ، ودافعوا واستبسلوا أي دفاع واستبسال ، وظل الصراع مستمراً نحو قرن بين هذا الشعب الصغير الأعزل ، وبين الروس ذوي العدد والعديد الهائلين ، وناهيك بفظائع الروس وقسوتهم ، مما جلب الإعجاب والإكبار للشركس ، وشهد به كتاب الغرب ، وحتى كتاب الروس أنفسهم .

وقد خذلت الدولة العثمانية الشركس في جهادهم الطويل هذا ، لانشغالها بالفتن الداخلية والحروب الخارجية ، وخذلهم أيضاً الإنكليز الذين كانوا يحرضونهم على الثبات ، نكاية بأخصامهم الروس ، ويعدونهم بالإمداد اليوم وغداً دون جدوى ، فظل الشركس يتلقون هجمات الروس القاسية لوحدهم ، ويتحملون منهم ضروب الفجائع والفظائع ، إلى أن أعيتهم القوة والكثرة ، وأعوزهم الإمداد والعتاد فغلبوا واستأمنوا . ولما تم للروس في سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) الاستيلاء على بلاد القفقاس ، صاروا يكرهون الشركس على الهجرة ، بشتى أساليب الجور والضغط ، ويقطعون أراضيهم وأملاكهم للصقالبة من روس وقوزاق وأمثالهم ، ولما رأى الشركس ما حل بهم ، لم يستطيعوا الرضوخ للذل والاستعباد ، فهجروا أوطانهم الجميلة ، وزحفوا أفواجاً أفواجاً وتباعاً منذ سنة ١٢٨١ هـ المذكورة ، وبلغوا البلاد العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ، ودامت هجرتهم هذه نحو أربعين عاماً ، قاسوا خلالها من متاعب الانتقال ومصاعب الحل والترحال ، والتشتت في البراري والقفار ، والغرق والحرق في البحار ، وإضاعة الولد لأبيه ، والأخ لأخيه ، وأمثالها من الفواجع والمآسي ، ما يطول شرحه ، ويدمي الفؤاد ذكره .

وأقطعتهم الدولة العثمانية وقتئذ عدة قرى مبعثرة في بلاد الروملي والأناضول ، لكنها لم تحسن توزيعهم وإيوائهم ، في الأماكن المناسبة لأمزجتهم الجبلية ، ففني كثير منهم يومئذ بالبؤس والأمراض ، ثم عادت عقيب الحرب الروسية التي جرت عام ١٢٩٤ هـ ،

فأجبرت من كانت أسكنته في بلاد الروملي على هجرة ثانية ، نزولاً عند أحكام عهدة برلين ، التي قضت بإخراج هذا الشعب المسلم النزاع للوثوب والحروب من تلك البلاد ، لينفسح المجال للشعوب البلقانية النصرانية ، ونقلت بعض هؤلاء إلى بلاد الشام ، وأحلتهم في خرب عديدة ، إما جافة منقطعة على سيف البادية ، وإما من ذوات التراب الرديء والمناخ الوبيء ، فعمروها مكرهين ، واستقروا فيها محوقلين ، بعد أن ضحوا ودفنوا في مقابرها كثيراً منهم ، وزاد في بؤسهم ونقصهم كثرة انخراطهم في الجندية ، وصدقهم وبلائهم في الحروب ، ولا سيا مع العثمانيين في الحرب الروسية عام ١٢٩٤ هـ ، والحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣ هـ ، ومع جيش السلطان وحيد الدين على مناوئيه الكماليين عام ١٣٣٧ هـ ، وأكثر مهاجري الشركس هم الآن في تركية ، ويقدرون هناك بنحو ٨٠٠٠٠ ، ثم في بلاد الشام ويقدرون بـ ٥٠٠٠٠ ، ثم عدد ضئيل في مصر والبلقان ، وقد كانوا قبل هجرتهم من بلادهم عشرة أمثال هذا العدد كله ، لم يبق منهم الآن هناك إلا عدد ضئيل له جمهورية صغيرة خاصة ، وجملة القول أن قصة هذا الشعب الباسل وخاتمته ، من أروع وأفجع ما شهده أي شعب شرقي ، ابتلي بهجوم الأجنبي المستعمر وتكالبه .

بحث عن خلال الشركس وعاداتهم وآدابهم ـ للشركس في بلادهم تقاليد وقواعد متبعة في تصنيف الشعب ، وجعله درجات بعضها فوق بعض ، كما هو الحال لدى الشعوب الأوربية ، فقد كانوا ينقسمون إلى الأمراء (بشي) ثم النبلاء (وَرْق) بفتح الواو وسكون الراء ، ثم العامة (فقول) ، ثم الأرقاء ، وهؤلاء الأرقاء هم أسراء وسبايا من الكرج والروس ، وأمثالهم المأخوذين في الحروب والغزوات . كانوا يربونهم ويستخدمونهم في أعمالهم المنزلية والزراعية وغيرها ، ويحسنون معاملتهم ، ويدمجونهم في قوميتهم .

والأسر الشركسية تحتفظ بمراتبها ودرجاتها حسب هذا التقسيم ، وعندها رعاية كبرى لرفعة النسب وحفظ الاسم واللقب ، ولكل أسرة شارة مميزة (سمة) ، تضعها على أسلحتها وعددها وخيلها .

ونظام الحكم عندهم كان جارياً على طراز حكم الأشراف والفرسان في أوربا خلال العصور المتوسطة ، فكل عشيرة يتولى قيادتها أمير من الأسر النبيلة يدعونه (بشي) ، تنتقل إليه الإمارة بالانتخاب ، وشرطه أن يكون عاقلاً مدبراً ، شجاعاً محافظاً على

التقاليد القومية ، ويعاون هذا الأمير في الإدارة مجلس نيابي مؤلف من العلماء والوجهاء المنتخبين ، (وأمرهم شورى بينهم) ، وأساس أحكامهم الشريعة الإسلامية والدستور القومي الذي يدعونه (آديغة خابزة) أي الدستور الشركسي ، وضعه لهم مشرعون راعوا في وضعه العلل الاجتماعية ، واحتاطوا لها ، وجعلوا الشركس بمقتضاه متساوين في الحقوق العامة والحرية والكرامة .

وللشركس كثير من التقاليد الحسنة الرفيعة ، منها إطاعة الأولاد لوالديهم ، إطاعة تامة ، وإجلال الشبان للشيوخ المعمرين ، لا سيما إذا كانوا من طبقة النبلاء ، وهؤلاء الشيوخ هم حلالوا المشكلات بين الأفراد والعائلات ، وقضاة الصلح في المنازعات ، ومن شروطهم أن يكونوا ذوي بصيرة ودراية في أحكامهم ، ولطافة في أقوالهم وأفعالهم .

ومن مزايا الشركس الإخلاص للواجب ، وصدق الخدمة والوفاء ، وإقراء الضيف ، وعندهم التعاون على السراء والضراء ، وفقدان السائلين والمحرومين من بينهم ، مهما شظف عيشهم ، فلا تجد فيهم شحاداً أو أجيراً أو ممتهناً حرفة مزرية ، كما عندهم صون العرض وحفظ الشرف في أقصى حدودها ، وهم يسترخصون الأرواح في هذا السبيل ، ومن تهاون في ذلك طرد من العشيرة ، وقيلت فيه أغاني مشينة ، ولعن دهراً طويلاً .

ومن خصائصهم جسامة الأبدان ورشاقتها ، ووسامة الوجوه ونضرتها ، مع عرض المنكبين ، وبروز الحواجب والوجنتين ، وضيق العينين واستطالتها ، وبياض البشرة ، وسواد الشعر أو شقرته ، (ولكل قاعدة شواذ) ، وللمرأة الشركسية حظ وافر من الجمال ، الذي اشتهرت به ، وصدّرها في قصور العظماء ، مع أدب وصون ورقة طبع ، وإخلاص للزوج ، وحسن تدبير للمنزل ، والرجال يحترمون النساء ، أينما كانوا ، ويقدمونهن في المجتمعات ، ويتلطفون في محادثتهن ومعاملتهن ، ويقيمون وزناً لأقوالهن ، والفتيات سافرات أبداً ، لا يحتجبن مادمن عزبات ، بل يخدمن الضيوف ، ويخالطن الفتيان ، ويشاركنهم في الرقص ، وفي أعمال كثيرة ، ويبادلنهم الحب وينتخبن أزواجهن ، كل ذلك ضمن سياج قوي من الخفر والعفاف ، فإذا تزوجن احتجبن ، وانقطعن عن المخالطة .

والمعيشة في المجتمع الشركسي طافحة بالتقاليد والأنظمة التي يراعونها في استقبال الضيوف وتوديعهم ، وخدمتهم مدة إقامتهم ، وفي آداب المجالس أمام نبلائهم وشيوخهم ،

وفي مرافقة هؤلاء في الطريق ، وفي واجبات الزوجين نحو بعضها ، وفي حفلات الأعراس والأفراح والرقص ، وترتيب الملابس وتنسيق الأزياء ، وواجبات الفارس إذا دخل القرية أو خرج منها ، وفي آداب الجنائز والمآتم ..إلخ

وهم في الزواج يبعدون عن ذوي قرباهم ، فلا يتزوجون من بنات أعمامهم أو عماتهم ، أو أخوالهم أو خالاتهم ، لاعتبارهن محارم ومن دم واحد ، ومن شروطهم أن يكون الزوجان كفئين بالنسب والمقام ، وهم يغلون المهور حسب درجات الأسرة ، ومن عاداتهم التي قلت الآن خطف الفتيان للفتيات اللائي يريدون الاقتران بهن ، إذا لم يرض آبائهن بذلك ، فيتفقان على الهرب خلسة ، ويستعين الفتى بأصدقائه على ذلك ضد أقاربها الذين يهبون لاستخلاصها وإرجاعها ، بعد عراك وصدام ، حتى إذا فاز بها يضع خطيفته عند أحد أصدقائه ، ويشرع هو والمتوسطون بمفاوضة أهلها ، وإرضائهم إلى أن يقنع ، فينعقد النكاح بالمراسيم المعتادة ، وهذا الخطف لايشبه بحال ما يجري في حوران وأمثالها مما شكينا منه في الصحيفة (٢١٥) من الجزء الأول ، فهو لا يقع في النساء المتزوجات ، كما لا تمس فيه عفة الفتاة المخطوفة قط .

ومن عاداتهم أن لا يعددوا الزوجات ، وأن لا يقبل الرجل سكنى صهره معه في دار واحدة ، ولا يدخل إلى حرمه نهاراً ، ولا يجالس زوجته على طعام ، بل يتناوله مع ضيوفه ، أو لوحده في المضافة ، والصهر لا يظهر أمام حميه إلا بعد مدة مديدة في حفلة خاصة لها مراسيم ، ولا يظهر الطفل لجده أو لأعمامه حتى ولا لضيوف أبيه حتى يبلغ أشده ، والأب لا يحمل أبناءه ولا يدللهم .

والشركسي أبي النفس ، شديد التعصب لديانته وقوميته وكرامته ، وهو إلى ذلك نظيف اليد ، وعف اللسان ، أنيق الطبع ، يحب الظهور بالملابس والأزياء الجميلة ، وفي تأثيث داره وتجميلها ما وسعه الجهد ، ثم هو فارس حاذق وسياف ماهر ، ومن هنا اشتهر الشركس بسيوفيتهم ومسايفتهم ، وإصابتهم المرمى بالبنادق والمسدسات ، وهم طائرون على متون جيادهم ، وبوقوفهم على السرج ، أو تدليهم إلى الأرض والتقاطهم الأشياء منها ، واضجاع الجياد ، والتترس وراءها حين المعركة ، ونحو ذلك مما تفردوا به هم وفرسان القوزاق في روسية .

والحياة في المجتمع الشركسي بسيطة هادئة ، يتدبرون شؤونها بالعادات والتقاليد التي ذكرناها ، وينفحونها بوسائل اللهو والمرح ، ويبددون بها الاطراد والسأم اللذين يسودان الحياة الريفية ، فعندهم الاجتاعات العامة التي تتكرر ، وتمارين الفروسية وألعابها ، والأعراس والحفلات التي يتعاقب فيها الرقص والموسيقى والغناء .

والموسيقيون والمغنون محترمون ، لأنهم ينشدون أدواراً موزونة ، وموقعة شجية ، يخلدون أعمال الجدود الباهرة ، وينوهون بفضائل المجد والشرف ، والفروسية والأريحية وآداب الحب الطاهر ، أما رقصهم فشديد حركات الأرجل وسريعها ومستقيمها ، أو هو بلهواني ، وهو يختلف عن رقص الشعوب الشرقية ، ويشبه رقص الفرنج إلى حد ما ، ولا يقع إلا بين الفتيان والفتيات ، منه الرقص بين الفتى والفتاة وجهاً لوجه أو في دائرة ، ويؤتى هذا الرقص على أنغام الموسيقى التي تتولاها عادة فتاة من الحاضرات ، ويتحتم على الراقص أن يتتبع حركات مراقصته ، ويماثلها في خفة ورشاقة ، دون ملامسة ولا مكالمة ، ويحيط بالراقصين جمهور من المتفرجين ركباناً ومشاة ، ويتولى بعض الرجال التصفيق بأدوات خاصة ، وعلى قرقعة أو إيقاع خاص ، وللشركس آلات موسيقية خاصة أهمها الآرمونيك (الآكورديون ـ ذو المنفاخ) .

وملابس الشركس وأدواتهم خاصة بهم ، اقتبسها عنهم بقية سكان القفقاس وحتى الروس لجمالها ومتانتها ، ومناسبتها للأعضاء وهي القلنسوة المصنوعة من الفراء الأسود المسماة (قلبقاً) ، والقميص المسدود الأبيض المزرر ، ذا القبة العسكرية الواقفة ، والجلباب الجوخ الأسود المخضر ، ذا الأكمام الواسعة ، وفي صدره فوق كل من الثديين سبعة جيوب ، في كل منها علبة اسطوانية مفضضة ، كانت مخصصة فيما مضى لخزن البارود تسهيلاً للتناول ، ولهم مناطق من الجلد رفيعة وذات ذوائب جلدية مفضضة ، يعلقون بها خنجراً طويلاً ، مستقيماً حاد الطرفين يدعى (قاما) ، له غلاف مفضض ومزخرف ، ويلبسون سروالاً ضيق الساقين ، ويتدثرون بفروة مخروطية الشكل ، فضفاضة من شعر المعزى الأسود ، ويتلفحون بلفافة بيضاء طويلة الذيلين ، وذات قبعة ، أما سروجهم فمن الجلد والخشب ، صغيرة ضيقة عالية ، إلا أنها تريح الخيل والخيال ولا تدعه يقع ، وسياطهم مطوية وذات مقابض فضية جميلة الزخرف ، وملابس النساء تشبه ملابس الرجال ، من

حيث ضيق الصدر ، ورفع الخصر ، وسعة الأطراف ، يزدن على ذلك الذيل الطويل لأكمام الجلباب ، ولهن مناطق عريضة مفضضة أو مذهبة ، وعلى رؤوسهن أغطية بيض .

والشركس صناع اليدين ، يصنع رجالهم ونساؤهم جميع مايحتاجون إليه من لباس وأثاث ، فكل الملابس والأدوات التي ذكرناها من نتاج أيديهم ، ويفخر بعضهم على بعض بإجادة صنعها ، والحاذقون منهم يحلونها بالذهب أو الفضة ، فتأتي آية في الظرف والإبداع ، وبعضهم يرتزق من هذه الصناعات الخاصة بهم ، ولاسيا بصنع السروج والسياط ، والأسلحة والحلي المنقوشة ، والأردية المخروطية السود وغيرها ، على أن أكثر رزق الشركس من الزراعة ، وتربية الخيل والبقر بالجملة ، وهم حيثما كانوا أطول باعاً في ذلك من غيرهم ، وأوفر استدراراً لنتاجها ، أما العسل والزبد والجبن في القرى الشركسية وبعض أطعمتهم ، وخاصة الدجاج الشركسي والمعجنات الشركسية ، فهي في الذروة من الجودة والنفاسة .

والشركس في بلادهم مؤلفون من عشائر شتى ، أخصها شابسوغ وبظادوغ وأبزاخ وقبارطاي وأوبوخ وماخوش وآداماي وبسلني وأباظة وكامز كوي ونوتخواج وجاميكواي وهاتوكواي ، ولكل من هذه العشائر لهجة خاصة ، إلا أن أكثرها قريب بعضه من بعض ، يتفاهم أربابها بسهولة ، ما عدا الأباظة والأبوخ فإن لغاتها مختلفة كل الاختلاف ، ولغة الشركس حلقية ، ذات صوت أو جرس خاص ، ومن ثم كانت سماعية في الغالب ، وعسيرة المنال على من لم يتلقفها في الصغر ، ويحاول بعض فضلائهم وضع أبجدية لها بالحروف اللاتينية وصرف ونحو ، وهم لما ينتهوا بعد ، هذا وبعد أن هاجر الشركس إلى بلاد الشام ، اختلطت عشائرهم المذكورة في دور هجرتها ، ثم انضمت إليها جموع من عشائر الداغستان والشاشان والقوصحة والقرشاي الذين يختلفون كما قدمنا عن الشركس باللغات والأصول ، وإن تشابهوا في كثير من الأطوار والأزياء .

ولما قدم الشركس إلى القنيطرة في سنة ١٢٩٠ هـ وكانوا في قلة وحالة مؤثرتين ، ولم يكن في القنيطرة وقتئذ سوى الخان القديم الذي بنيت فوقه السرايا الحالية ، وهو من آثار اللالا مصطفى باشا وأوقافه ، حلوا فيه وامتدوا يحتلون الأراضي المجاورة التي أقطعتها الدولة لهم ، فلم يرق هذا العمل للعشائر الجولانية كالفضل والهوادجة وغيرها ممن قدمنا

ذكره ، ورأت في مجيء هؤلاء المهاجرين حرماناً لها من مراعيها ومناطق تجوالها ، فناصبتهم الاستثقال والعداء والقتال ، وكان الشركس يدافعون ويقاتلون إلى أن تفاقم الأمر ، ووقعت معارك تداخلت الدولة فيها ، وانتهت بصلح مستتر وصداقة مكينة منذ سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) ، واستقر الشركس بمعونة الدولة في الأراضي التي أنشؤوا قراهم فيها ، كالصرمان وعين زيوان وبريقة وبئر عجم وجويزة وموسمية في سني ١٢٩٦ و ١٢٩٧ هـ والخشنية في سنة ١٣١٥ هـ والفحام في سنة ١٣٣٠ هـ ، على أنهم ما استراحوا من العشائر المذكورة حتى حدث بينهم وبين دروز جبل الشيخ في سنة ١٣١٣ هـ عداء استفحل من بعد ، وأدى إلى وقائع دامية ، خسر فيها الفريقان كثيراً من الأنفس والأموال والكبراء إلى أن تم الصلح بعد حين ، واستتب السلام إلى يومنا .

وقرى الشركس في بلاد الشام منبج وخناصرة شرقي حلب ، وحران وبني شهر والريحانية وبدركة سهل العمق في لواء الأسكندونة ، وتل سنان وتل عدا وذيل العجل قضاء سلمية ، وتليل وعسيلة ودير فول وأبو همامة وتل عمري وعين ظاظا ومريج الدر قضاء حمص ، ومرج السلطان قضاء دوما ، والقنيطرة وعين زيوان وعين صرمان وصرمان وموسمية وبئر عجم وبريقة وجويزة وفزازة وخشنية والفحام وروحينة قضاء الجولان ، وبلاي وبويضان قضاء إزرع شمالي اللجا ، وكان لهم في محافظة اللاذقية قرية عرب الملك طحنهم مناخها الوبيل ، ودفنهم في مقبرتها ، حتى لم يبق فيها منهم على ما رأيت إلا شخصين فقط ، ولهم في إمارة شرق الأردن الزرقاء والرصيفة وعمان وعين صويلح ووادي السير وناعور وجرش والسخنة ، وفي فلسطين كفركا والريحانية قرب صفد ، ولعل مجموعهم في كل هذه القرى لا يزيد عن خمسين ألف .

وأكثر الشركس في هذه البلاد هم من عشائر الأبزاخ ثم البزادوغ ثم القبارطاي أما الاوبوخ والشابسوغ فقليلون ، وتجد الشابسوغ في قرية كفركا وفي مدينة عمان ، وفي قضاء القنيطرة عدد ضئيل من القوصحة والحاتوقوي والآبازة ، أما الذين في قرية ديرفول فداغستان ، والذين في قرية بلاي شمالي اللجا فقراشاي ذوي الأصل التوراني .

والشركس على توطنهم في بلاد الشام منذ قرابة خمس وسبعون سنة ما برحوا محتفظين بلغاتهم ، وأكثر أزيائهم وخلالهم الخاصة التي بسطناها ، إلا ما بدله واقتضاه تأثير

المكان ، وتطور الزمان وفعل الفاقة والحرمان ، وأجل خلالهم الديانة والنفس الأبية ، والفروسية وظرافة الملبس ، ونظافة البيوت والأثاث والطعام ، وإجلال الشيوخ والنبلاء منهم ، واحترام الأولاد والديهم ، وتهذيب المرأة ، وحسن قيامها بإدارة المنزل ، والعناية بالنظام والاجتماعات العامة ، واللهو البريء بالرقص والموسيقى ، الخاصين بهم ، واللعب على الخيل كما قدمنا وصفه ، وإجادة الطراد والطعن والجلاد ، وإنك في القنيطرة ومنبج وعمان مثلاً التي يكثر سوادهم فيها تكاد لا تجد منهم تاجراً ، أو صاحب حانوت أو صانعاً ولا عاملاً بمياومة ، ولا أجيراً بمشاهرة ، ناهيك السؤال والاستجداء والأعمال الوضعية ، وكأنهم يترفعون عن كل هذا ، رغم ما ينالهم من الضرر الاقتصادي ، فقصارى أحدهم إذا لم يكن ملاكاً وذا مورد وسعة أن يكون وكيلاً في ضيعة أو مزرعة ، أو أن يلبس دركياً أو شرطياً أو جندياً أو ضابطاً أو قائداً ، فعندهم شغف عجيب بالجندية وما إليها من الأعمال التي فيها ركب وضرب وجذب ودفع ، وهم إذا استجيشوا أبلوا أحسن بلاء ، وإذا دعوا أو كلفوا بأي عمل تفانوا في صدقة الخدمة والقيام بالواجب ، ومن هذه الخصال نشأ بينهم كثير من القواد والضباط في الجيشين العثماني والمصري ، فخدموها أكبر خدمة وأصدقها ، وما برحوا يخدمون ، ولا سيا في الجيش المصري ودوائر الحكومة المصرية .

هذا إلى أن كثيراً من النبلاء والنبهاء في استانبول والقاهرة وما إليهما هم من أمهات أو جدات شركسيات ، ورثوا منهن حسن القوام والوسامة ، واكتسبوا صلاح الحال والتدبير في داخل الأسر والبيوت .

والفرنسيون عقيب احتلالهم بلاد الشام أعجبوا بمزايا الشراكسة التي عددناها ، فألفوا منهم كواكب فرسان خاصة ، وألبسوهم اللباس الشركسي الأسود والقلبق الأسود ، وحملوهم السياط والخناجر الشركسية المفضضة ، وقد خدم هؤلاء الجيش الفرنسي خدمات عظيمة خلال الحركات العسكرية التي جرت لإطفاء الثورات ومطاردة العصابات في مختلف البلاد الشامية ، وقتل منهم في هذا السبيل بضع مئات على ما قاله الفرنسيون في كتابهم الذهبي لجيش الشرق ، وأطنبوا بفروسيتهم وبسالتهم .

إلا أن معظم جنود هذه الكواكب وضباطها كانوا غرباء بؤساء ومن النازحين عن بلاد الترك ، لمناوئتهم الحركة الكمالية في أول عهدها ، لا من الناشئين في بلاد الشام

والمتوطنين والملاكين أرضاً أو داراً فيها ، طوحت بهم الغربة والفاقة وعدم معرفتهم واعتيادهم ، أي مدار للعيش سوى الجندية واضطرتهم إلى ركوب هذا المركب الخشن ، وأقحم الفرنسيون بين هؤلاء من بعد كثيراً من العناصر الغريبة عنهم ، كالأرمن والإسماعيلية والأكراد وألبسوهم مثلهم ، وقد عملت هذه الكواكب المختلطة في خدمة الفرنسيين طيلة ربع قرن ، وكان منها الأفاعيل التي ذكرناها ، فنسبت كل سيئاتها إلى الشركس على برائتهم من معظمها .

وقد تألف من جراء ذلك وقتئذ في كل قرية أو دار هجرة شركسية حزبان ، أحدهما متمسك بالنزعة الإسلامية ، ومؤيد للأماني العربية ، يود الذوبان فيها عملاً بالمبادئ السامية التي أخرجت آباءه من القفقاس ، وأبعدته عن الرضوخ للاستعمار وخدمة المستعمرين ، وقد ظل هذا الحزب المتدين مستنكراً أعمال تلك السرايا ، وماقتاً الذين انخرطوا فيها ، والثاني موال للفرنسيين تحت ضغط الفاقة وتوقع نوال المعيشة ، كما والاهم كثير من أبناء البلاد القدماء ، ولطالما حدث بين الحزبين المذكورين نفور ونزاع ، وتمنع المعمرون والمتدينون من الشركس عن الصلاة على أموات الحزب الثاني ، ودام الأخذ والرد حتى جرت حوادث أيار سنة ١٩٤٥ م وخرج الفرنسيون وقطع دابرهم ، فهرع هؤلاء المجندون والتحقوا بالجيش الوطني ، ووطدوا أنفسهم على خدمته والسير في طليعته ، وهم أبرع فرسان هذا الجيش وأميزهم الآن .



الداغستان

الداغستان

هؤلاء يشبهون الشركس إلى حد بعيد في الأوصاف والأزياء ، والاشتراك في الجهاد ضد الروس ، وتحمل آلام الهجرة من أوطانهم الجميلة ، ويختلفون بأن لهم تاريخاً خاصاً جعلهم السباقين لاعتناق الإسلام وتلقيه مباشرة من العرب في عهد الفتوح ، أو بعده بقليل ، وأنهم أول من حمل لواء الثورة في وجه الروس وقاد حركتها ، وأبلى فيها أروع بلاء وأحسنه ، وأنهم شافعيو المذهب وشديدوا العقيدة والحمية الدينية ، ولعلمائهم إلمام كبير باللغة العربية التي جعلوها لغة المكاتبة ، يتراسلون بها ويتذوقون علومها وآدابها ، بحكم كثرة لغاتهم وتبلبلها وسذاجتها وعدم اعتمادهم على أي واحدة منها .

ومواطن الداغستانيين تقع في القفقاس شرقي مواطن الشراكس ، ولهم الآن هناك جمهورية خاصة ضمن الاتحاد الروسي السوفياتي ، وهي مواطن جبلية في الغالب إلا سواحل بحر الخزر فإنها سهول وسباخ شاسعة وبيلة ، وهم ينتسبون إلى شعب اسمه (لزكي) ، وأخطأ ياقوت في معجمه فقال (لكز) ووصفهم بأنهم أمم كثيرة ، ذوو خلق وأجسام ، وضياع عامرة ، وكور مأهولة ، وأولو عدة وشدة ، وقد صدق في وصفه ، فهم طوال القامة ، عراض المناكب ، واسعو المقل ، كستنويو الشعور ، تلوح عليهم سمات الجلادة والنباهة ، ويشملهم ما قلناه عن الشركس في مزايا الفروسية والبطولة والشمم ، وكثير من التقاليد والعادات والأزياء القفقاسية .

وهذا الشعب قديم ، ذكره هيرودوس المؤرخ بهذا الاسم قبل الميلاد بخمسة قرون ، ولا يبعد أن يكونوا أبناء عمومة بقية الشعوب القفقاسية كالشركس والكرج ومن إليهم ، والشعب الداغستاني على تحدره من أرومة واحدة ، ينقسم إلى قبائل وعشائر شتى ، تدعى بحسب مناطقهم كالآوار والآندي وقاضي قوموق وطبا سران وسمور وبشيتا وزقانالي وغونزيب ومختولين وشاشان وغيرهم ، لكل منها لغة خاصة لا يفهم أحدهم لغة الآخر ، مما

يفسر بأن الشعوب التي كانت تجتاح هذه البلاد وتمر من آسية إلى أوربة في العصور القديمة أبقت فلولاً منها ، فحدثت هذه البلبلة في الألسنة ، لكن هذه الشعوب المجتاحة لم تخضع الداغستانيين خضوعاً تاماً ، ولم تحل دون انفرادهم واستقلالهم ، بل مرت بهم مرور العواصف التي لا تؤثر في جلاميد الصخور ، ومن هذه الشعوب المجتاحة كان العرب ، فقد قدموا إلى جنوبي بلاد القفقاس في عهد الفتوح ، وأجروا حروباً كثيرة في عهد الأمويين والعباسيين ذكرتها التواريخ ، ويبدو من كلام المؤرخين أن هذه الحروب كانت تقع مع الخزر وأمثالهم ، من أمم الترك الذين كانوا مستولين على بلاد القفقاس آنئذ ، وقد استطاب اللزكي الإسلام واعتنقوه ، ونشروه لدى جيرانهم الشركس ، وأمثالهم من أمم القفقاس ، وحاربوا الكرج مراراً ، واستقلت بلادهم بعد خروج جنكيز وتيمور لنك ، وسميت ملوكهم ملوك الدربندية نسبة لمدينة دربند أو باب الأبواب ، وحارب هؤلاء ملوك إيران الصفويين ، وملوك التركان ذوي الغنم الأبيض ، ثم سقطت بلادهم بيد العثمانيين ، وظلت مدة مديدة ميداناً لتطاحن جيوش هاتين الدولتين ، إلى أن اضطر الإيرانيون إلى التخلي عنها للروس في القرن الثاني عشر ، لكن الداغستانيين لم يقبلوا ذلك ، ونهضوا للثورة على الروس ، كما فعل الشركس والشاشان ومازالوا يكافحون عشرات السنين حتى غلبوا أمام رجحان عدوهم على النحو الذي جرى بالشركس ، فآثروا الهجرة على البقاء تحت نير الاستعباد .

وأكبر أبطالهم ومجاهديهم وأعظمهم شأناً وذكراً بل من أعظم مجاهدي الإسلام وأبطالهم المتأخرين ، في مضاء العزم وحسن القيادة ، هو الشيخ شامل . ولد هذا البطل في سنة ١٢١٢ هـ وحارب الروس بادئ الأمر مدة عشر سنوات ، تحت لواء الغازي منلا ، سلفه في القيادة والجهاد ضد الروس ، ثم تولى هو القيادة على جميع مجاهدي الداغستان والشركس والشاشان ، وصار على رأس قبضة من هؤلاء الجبليين الأشداء يفتك بجيوش الروس المتدفقة ، بقيادة أعظم جنرالاتهم ، وقد جرح كثيراً ، وأحيط به ، وكاد يؤسر مراراً ، وهو يفلت ويعود إلى الكر والفر مدة عشرين سنة متوالية ، أقض بها مضاجع الروس المتكالبين بمنتهى الفظاعة والتوحش على إطفاء جذوته ، وجذوة إخوانه الداغستان والشركس والشاشان ، حتى طارت شهرته وحيرت العالم المتمدن مقدرته ، ويمثلون عنه في المسارح أدواراً ، ولما ظهرت السينما صاروا يضعون أفلاماً مدهشة ، تصور أفعاله الخالدة

الذكر ، ومازال حتى داهمته في سنة ١٢٧٦ هـ عدة فرق روسية ، وأحدقت به في يوم اشتد ضبابه ، فلم يستطع الإفلات منها ، كما سبق مراراً ، فأسروه وحملوه إلى عاصمتهم بطرسبورج ، وهناك قابله القيصر أجمل مقابلة تقديراً لشجاعته ، وهاجر إلى المدينة المنورة وجاور فيها إلى أن توفي سنة ١٢٨٨ هـ ، وله الآن حفيد اسمه سعيد باشا ، مابرح يقتدي بجده في انتهاز كل غرة لاستقلال بلاد القفقاس الشمالية وإنقاذها من استعباد الروس ، حاول ذلك عقب الحرب العالمية الأولى وخلال الحرب العالمية الثانية فلم يصب نجاحاً ، بحكم تبدل الأوضاع والأطوار عما كانت في عهد جده .

وقد سبق لبعض الداغستانيين أن هاجروا إلى بلاد الشام منفردين ، من عهد بعيد ، وقبل هجرتهم العامة ، وتوطنوا في دمشق ، وأعقبوا ذراري ما عتمت أن استعربت بعد بطن أو بطنين بلغتها وعاطفتها ، شأن كل الجوالي الغريبة التي تستقر في دمشق ، وتذوب في بواتقها ، وألفت أسراً وأفراداً معروفة بحسن سيرتها لم يبق لها من ذكريات الوطن القديم إلا اسم (الداغستان) ، أما الذين جاؤوا مجتمعين بعد الهجرة العامة ، فتجدهم في قرية خاصة بهم اسمها ديرفول تقع شمالي حمص ، وفي حي خاص بهم في بلدة القنيطرة ، يعيشون مع الشركس ، منتحين عنهم بجامعهم الذي بنوه لأنفسهم ، بحكم أنهم شافعية ، والشركس حنفية ، وهم أيضاً ما برحوا محتفظين بلغاتهم ومشخصاتهم الداغستانية ، لا يبغون عنها حولاً ، يشاركون مواطنيهم الشركس في كل سراء وضراء ، ولغة التفاهم بين الطائفتين التركية والعربية .



الشاشان

الشاشان

من الشعوب القفقاسية الإسلامية المهاجرة ، وهؤلاء أيضاً يشبهون الشركس والداغستان بالأوصاف والأزياء ، والاشتراك في الجهاد ضد الروس ، وتحمل آلام الهجرة من أوطانهم الجميلة ، بل إن هؤلاء أقدم الجميع ، وأشدهم اندفاعاً في الهجرة .

دار هجرتهم في الجزيرة الفراتية في أعلى وادي الخابور في ناحية رأس العين عند منبع الخابور الدفاق ، وهم فل قليل من جمعهم الكثير الذي كان في أول هجرتهم ، حينما بلغوا هذه الأنحاء في أواخر القرن الهجري الماضي ، فقد كانوا وقتئذ فيما ذكره لي أحد وجهائهم عزت بك سليم نحو ٥٠٠٠ بيت ، نزحوا كما نزح الشركس واللزكي من جبالهم وأوطانهم الجميلة في غربي بلاد الداغستان ، على أثر حروبهم مع الروس تحت قيادة الشيخ شامل ، ولما هاجروا إلى بلاد العثمانية رأت الدولة أن تعمر بهم سهول الجزيرة القفراء ، وتوطد أمنها بسواعدهم ، فأقطعتهم في حدود سنة ١٢٩٢ هـ سهول الخابور من رأس العين إلى قرب الحسجة ، وجعلت مركزهم في رأس العين التي كانت خربة مهجورة ، فعمروها وبنوا الدور والقرى العديدة ، وعكفوا على الحرث والزرع ، إلا أنهم إذ كانوا أهل جبال وهضاب باردة الهواء ، جيدة المناخ ، طيبة الماء لم تلائمهم هذه السهول والصحارى ذات الشموس والعواصف اللافحة ، وآذتهم مياه الخابور الكبريتية أي أذى ، فعمل الموت فيهم عملاً مفجعاً ، وامتلأت ضفتا الخابور بمقابرهم ، دفنوا فيها الألوف من رجالهم ، ذوي القامات المشوقة والسواعد المفتولة ، والقلوب العامرة بالعقيدة والبسالة ، إلا أن الشاشان لم يتوانوا رغم ما دهاهم من جور الطبيعة ، وتبدل البيئة من مقابلة عوادي الجوار ، فردوا هجمات العشائر العربية وغزواتها ، وأخصها شمر في معارك وملاحم عديدة ، لا بل قاموا يجهزون سرايا من الغزاة ، ويقابلون بالمثل وأكثر ، حتى صاروا مرهوبي الجانب موفوري الكرامة ، ثم تجندوا في سلك الدرك العثماني ، وساعدوا في استتباب أمن هذه الأنحاء القفراء مدة مديدة ، وفي الحرب

العامة الأولى كلفوا بسوق قوافل مهاجري الأرمن الذين لفظتهم الحكومة التركية وقتئذ ، ومجتهم بقاعها فطاحوا (أي الأرمن) بين سقوط أمل ودنو أجل ، في ضفاف الفرات والخابور ، وكان مرض التيفوس يفتك في هذه القوافل فتكاً ذريعاً ، فوق فتك الجوع والإعياء ، على ما شاهدته في سنة ١٩١٦ هـ فنالت العدوى من جنود الشاشان كل منال ، وجندلت كثيراً منهم ، ثم قتل كثير من الشاشان بعد الحرب المذكورة لما اشتركوا مع السرايا التركية في قتال الفرنسيين القادمين لاحتلال أنحاء الفرات والجزيرة ، وفي حروبهم وردهم هجمات عشيرة الملي وغيرها ، فأصبحوا الآن قليلي العدد نحو ٣٠٠ بيت ، وهم بهذه المزايا على النحو الذي ذكرناه عن الشركس ، وسيطو الحال في الجملة ، ويعملون في الزراعة وتربية الماشية ، على أنهم ما برحوا محتفظين بلغتهم وأزيائهم ، وعاداتهم وشممهم ، وحبهم للجندية والفروسية .

ومن هؤلاء الشاشان قسم كبير في شرقي الأردن ، في قرى الزرقاء وعين صويلح والسخنة ، وهم وإن شابهوا هناك الشركس في المظهر ، إلا أن بينهم فروقاً كثيرة في اللغة والمذهب ، فلغة هؤلاء غير أولئك ، لا يفهم بعضهم من بعض إلا بواسطة التركية أو العربية ، والشاشان شافعية والشركس أحناف ، وبعض الشاشان صوفيون متزمتون ، لا يصلون إلا في مساجدهم الخاصة ، تراهم في عين صويلح يضعون عمامة بيضاء فوق قلبقهم الأسود ، ومن الغريب أن الشاشان يتشددون في حجاب البكر ، ويتساهلون في حجاب المتزوجة خلافاً للشراكسة ، (ولكل وجهة هو موليها) .

ثم إن عشائر الشاشان في بلاد القفقاس ثلاث ، آكي وناخجي وغالغي . والشاشان الذين في الجزيرة من عشيرة غالغي ، والروس يسمونهم أنكوش ، ورئيسهم الحالي في الجزيرة صالح بك الآني ، ومن وجهائهم عزت بك سليم ، وقراهم رأس العين ومساجد وتل سنان والسفح ومجيبرة وتل الجاموس والعريشة وأبو حجر والداوية والأبرط ، وكل هذه الضييعات على ضفاف نهري الخابور والجرجب الكبير ، وعند هؤلاء الشاشان نحو ١٠٠٠٠٠ دونم ما عدا المراعي و ١٥٠٠٠ شاة و ٣٠٠٠ بقرة و ٢٠٠ جاموسة و ١٥٠ فرساً .



خاتمة

لقد تم بعونه تعالى طبع الجزء الثاني من هذا الكتاب كما تم الـذي قبلـه . ومنـه يتبين للقارئ البصير مابذلته من جهود ، في جمع هذه الأبحاث المتنوعة ، والتقاطهـا من الصـدور المتباعدة والسطور المتفرقة ، وإني رغم ذلك مازلت أشعر بأن هنـاك حـاجـة إلى التوسع في هـذه الأبحـاث وإبـلاغهـا إلى حـد الكمـال أو قربـه ، وإن كان هـذا أمر غير يسير لمن يقر بوحدته ، وقصر مادته ووسيلته .

وما دام المثل العربي يقول : (المرء قليل بنفسه كثير بـإخوانـه) أرجو من قراء هـذا الكتـاب إذا كان لـديهم معلومـات زائـدة ، أو ملحوظـات ، أو تصحيحـات ذات فـائـدة ، وجديرة بالإضافة والتسجيل ، عن أي عشيرة أو فرقة ، أو حادثـة أو أشخـاص أو أمـاكن ، أن يتكرموا علي بكتابتها ، وإرسالها لأدرجها لهم ، وأنوه باسمهم مع الشكر في طبعة ثانية ، سوف أقدم عليها إذا حصلت الوسائل ، كي لاتبقى اللغة العربيـة في زمننـا مقصرة في هـذا المضمار ، عما عمله الغربيون ، وسبقونا به كثيراً .

دمشق : الجمعة في ٢٥ رجب ١٣٦٦ هـ
١٣ حزيران ١٩٤٧ م

أحمد وصفي زكريا
مفتش وزارة الاقتصاد الوطني

المصادر التي روجعت بالإضافة إلى المذكور منها في بحث « مكتبة البدو » المندرج في الصحيفة ١٣

معجم البلدان لياقوت الحموي

كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي

المخصص لابن سيده

مجلة لغة العرب للأب انستاس الكرملي

مجلة المقتطف

المجلة القضائية الأردنية

مجلة المشرق

المعلمة (دائرة المعارف) الإسلامية

جولة أثرية في بعض البلاد الشامية

المنهل الصافي لابن تغري بردى

البداية والنهاية لاسماعيل بن كثير الدمشقي

خطط المقريزي

تاريخ حيدر الشهابي

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي

تاريخ حلب لكامل الغزي

سالنامة ولاية حلب لعام ١٢٨٧

سالنامة ولاية دمشق لعام ١٢٩٨

تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضري

تاريخ الأدب العربي لحسن الزيات

تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان

كتاب لمحة عامة إلى مصر لكلوت بك تعريب محمد مسعود

رحلة في البادية لاسكندر يوسف الحايك اللبناني

قصص العرب لمحمد أبي الفضل إبراهيم

أيام العرب في الجاهلية لمحمد جاد المولى ورفيقه

العرب وأطوارهم لمحمد عبد الجواد الأصمعي

الحياة الأدبية في جزيرة العرب لطه حسين

(كتب تركية)

قاموس الأعلام لشمس الدين سامي

جهان نما لكاتب حلبي

(كتب أفرنسية)

مجلة الدراسات الشرقية الفرنسية

وصف بلاد العرب لنيبوهر الدانياركي

مسرد الأعلام

« رجال وقبائل »

« ب »

« ج »

« ح »

« خ »

« د »

« ذ »

« ر »

« ز »

« ش »

« ص »

« ض »

« ط »

« ظ »

« ع »

« غ »

« ف »

« ك »

« ن »

« هـ »

« و »

« ي »

مسرد الأماكن

« ب »

« ث »

« ج »

« ح »

« خ »

« د »

« ذ »

« ر »

« ش »

« ص »

« ض »

« ط »

« غ »

« ك »

« ل »

« ي »

محتوى الجزء الأول

الصفحة	الموضوع
أ	**من ابن إلى أبيه**
ج	**العلامة أحمد وصفي زكريا**
٥	**التمهيد**
١٣	**مكتبة البدو** : ماألف عن البدو
١٨	**جغرافية ديار البدو** : الشامية ٢٤ ، الزور ٢٥ ، المناظر ٢٦ ، الشنبل ٢٧ ، الدو ٢٧ ، الوديان ٢٨ ، القعرة ٢٨ ، الحماد ٢٨ ، حرة الراجل ٢٨ ، وادي السرحان ٢٩ ، الإقليم ٣١ ، النجعة ٣٤ ، قصيدة الأمير عبد القادر الجزائري ٣٦ ، الحيوان والنبات ٤٠ ، التضاريس والجبال ٤٣ ، المياه في البادية ٤٨ ، منطقة الآبار ٤٨ ، أسماء الآبار ٤٩ ، منطقة الحماد والخبرات ٥١ ، منطقة الوديان ٥٥ ، الأرصفة والقصور والحصون والسدود ٥٦ ، الطرق المعبدة وأنابيب النفط ٦٣ .
٦٦	**تاريخ البدو** : أقسام القبائل ٦٧ ، القحطانية والعدنانية ٦٨ ، هجرات العرب ٧٤ ، بدو الجزيرة الأولون ٧٥ ، بدو الشامية الأولون ٧٨ . القبائل في صدر الإسلام ٧٩ ، أحداث البدو في العهد الأموي ٨١ ، أحداث البدو في العده العباسي ٨٢ ، في عهد سيف الدولة بن حمدان ٨٤ ، في عهد المماليك ٨٦ ، أصل أمراء الموالي ٨٦ ، تاريخ الأمير عيسى بن مهنا ٨٩ ، تاريخ الأمير مهنا الثاني بن عيسى ٩٠ ، الحياريون ٩٦ ، تاريخ أمراء الموالي الأخير ٩٧ ، قصة الأمير عساف مع والي حلب ١٠٣ ، قصة الأمير ملحم ١٠٤ ، حفظة الطرق من الأسر الإقطاعية ١٠٦ ، مجيء عنزة ١٠٨ ، إسكان العشائر ١١٠ ، أصلان باشا ١١٠ ، عهد الملك فيصل ١١٢ ، عهد الفرنسيين ١١٢ .

الموضوع		الصفحة

الصفحة	الموضوع
٢٥٧	**القضاء عند البدو :** التشريع البدوي ٢٥٧ ، المحاكمات الحقوقية لدى البدو ٢٦١ ، انتخاب القاضي ٢٦٢ ، القضوة ٢٦٣ ، الرزقة ٢٦٣ ، أسماء العوارف المشهورين ٢٦٤ ، الكفلاء ٢٦٤ ، الشهود في الدعاوى ٢٦٥ ، الحكم ٢٢٦ ، الحلف أو القسم ٢٦٦ ، البيع ٢٦٨ ، الشفعة ٢٦٨ ، الميراث ٢٦٩ ، الوثاقة ٢٧٠ ، الحشم ٢٧١ ، البشعة ٢٧١ .
٢٧٢	**الحقوق الجزائية لدى البدو :** الانتقام في البادية ٢٧٢ ، الرزقة ٢٧٣ . أنواع الجنايات ٢٧٣ ، القتل ٢٧٤ ، الصلح بين الأفراد ٢٧٦ ، تقسيم دفع الدية واستيفاؤها ٢٧٩ ، جريمة المرأة ٢٧٩ ، الجرح وتعطيل العضو ٢٨٠ ، الدخالة ٢٨٠ ، الصلح بين العشائر ٢٨١ ، التعويض والحفر والدفن ٢٨٣ ، السرقة ٢٨٤ ، التجاوز على رفيق الطريق ٢٨٤ ، تقطيع الوجه ٢٨٥ ، التجاوز على الضيف ٢٨٥ ، حقوق الطنيب ٢٨٦ ، التجاوز على الناصي ٢٨٧ ، أحكام الزنا الجبري ٢٨٧ ، الزنا بالرضاء ٢٨٨ ، خطف النساء والبنات ٢٨٨ ، جرائم الجنح عند البدو ٢٨٩ ، قطع الجيرة ٢٩٢ ، الخوة ٢٩٣ .
٢٩٦	**المعارف عند البدو .**
٢٩٩	**الدين عند البدو .**
٣٠٢	**الشعر عند البدو .**
٣١٦	**تحضير البدو .**
٣٢٤	**إصلاح حال العشائر**
٣٢٧	**القرار رقم ١٣٢ ل ./**
٣٤٠	**ملحق رقم ١ وملحق رقم ٢**
٣٤٢	**ملحق رقم ٣**
٣٤٣	**ملحق رقم ٤**

محتوى الجزء الثاني

الصفحة	الموضوع

مستخلص

كتابٌ يبحث في جغرافية بادية الشام وتاريخها وعمرانها وأخلاق المجتمع البدوي وعاداته وشرائعه وأنساب العشائر المبتدية والمتحضرة وأوصافها وأخبارها في كل محافظةٍ وقضاء.

الكتاب جزآن في مجلدٍ واحدٍ، يبحث الأول في موضوعات متعددةٍ، فتحدث عن ما أُلِّف عن البدو، وعن جغرافيــة ديارهم، وتاريخهم، وأقسام قبائلهم، وهجراتها القديمة منذ الجاهلية وصدر الإسلام، وعن بدو الشام الأولين، وتطور تلك القبائل على مرِّ العصور. ثم تحدث عن أوصاف البدو، وحالاتهم الاجتماعية، وتأثير المناخ فيهم، وما قاله في حقهم ابن خلدون. وعن تقاليدهم، وأعمالهم ومهنهم، وعن تشريعاتهم، ومحاكمهم، ودعاواهم، وعن الحقوق الجزائية لديهم.

أما الجزء الثاني فخصصه لتعداد كل عشيرة من عشائر الشام، ووصفها الوصف الدقيق؛ فتحدث عن عشائر محافظة دمشق، فعشائر محافظة حوران، فجبل الدروز، فمحافظة حمص، فعشائر لبنان، فاللاذقية، فحماه، فحلب، فجبل سمعان بأقضيته، فمحافظة الفرات، فمحافظة الجزيرة.

وخُتم الكتاب بالحديث عن العناصر غير العربية في البلاد الشامية، كالأكراد، والتركمان، والشركس، والداغستان، والشاشان.

وتذيل الكتاب بالمراجع والمصادر المهمة.

Abstract

"*Sham Clans*" is a book about Sham Desert geography; history; buildings; the morals, customs and laws of the Bedouin society, and the lineage, description and news of the civilized and uncivilized clans in each governorate and district.

The book is composed of two parts in one volume. ***The first part*** tackles numerous topics. It talks about the compilers written about Bedouins, the geography of their dwelling places, history, branches of their tribes, old emigrations since the pr-Islamic era and the onset of Islam, the early Bedouins of Sham Lands and how those tribes developed throughout the ages. Then it talks about the qualities, social conditions, the effect of the climate on Bedouins, what Ibn Khaldun says about them, their traditions, works, occupations, laws, claims and penal rights they have.

The second part is dedicated for listing the population of each Shamese clam and describing it accurately. Accordingly, it tells about the clans of Damascus countryside, of the Duruz Mountain, of Homs, Lebanon, Lattakia, Hamah, Aleppo, Sam'an Mountain as well as all its districts, the Euphrates governorate and al-Jazeera governorate.

Finally, the book tells about the non-Arab residents in Sham Lands, such as the Kurds, Turkmans, Cyracuses, Daghistans and Chechinians.

In conclusion, significant references and resources append the book.